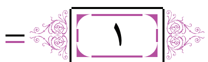
أعمال القلوب

تأليف

خالد بن عثمان السبت

الجزء الأول

٥٠ ريالاً



أَعْمَالُ القُلُوب

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م

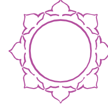
أَعْمَالُ القُلُوب

خالد بن عثمان السبت

(١)

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الأنبياء والمرسَلين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعدُ:

فإنَّ القلوب تفتقِرُ إلى تعاهُدٍ وتربيةٍ وإصلاح؛ ذلك أن هذه القلوب إذا استقامَتْ وصَلَحَتْ، فإنها تستقيم أحوال الإنسان وتصلُحُ أعمالُه، ويحصُلُ له من الانشراح واللذَّة والسرور والبَهْجة ما لا يقادَرُ قَدْرُه، فيكون في جَنَّةٍ «مَن لم يدخُلْها، لم يدخُلْ جَنَّةَ الآخرة»[(١)]، وهذه الجنة لا تحصُلُ للإنسان إلا بصلاح قلبه.

ونحن نعلم جميعًا: أن جِنْسَ الأعمال القلبيَّة أشرف من جِنْس أعمال الجوارح؛ يكفيك أن العمل لا يُقبَل إلَّا إذا كان خالصًا لله ﷻ، ومعلومٌ أن الإخلاص عمَلٌ مِن أعمال القلوب.

والإنسان الذي يَعمَل الأعمال الصالحة ـ وإن عَظُمَتْ ـ قد يعتريه ما يُبطِلُها من المقاصد الفاسدة والزَّهْو والتعاظُم ما يصير عَمَلُه به مردودًا.

وقد قال الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّهم: «**الَّذِينَ يَصُومُونَ، ويُصَلُّونَ، ويَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ**»[(٢)].

فنحن بحاجة ماسَّة إلى التعرُّف على ما يُصلِحُ هذه القلوبَ التي طالما اعتَرَاها مِن

---

(١) قال ابن القيِّم رحمه الله: «سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ قدَّس الله رُوحه ـ يقول: إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها، لم يدخُلْ جنةَ الآخرة». «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٢)، و«الوابل الصيب» (ص١٠٩). وذكره في «الداء والدواء» (ص١٨٧، ٢٨١)، غيرَ منسوب.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)؛ واللفظ له، وابن ماجه (٤١٩٨)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها. وصحَّحه الحاكم (٢/ ٤٢٧)، والذهبي، وابن العربي في «عارضة الأحوذي» (١٢/ ٣٩)، والألباني في «الصحيحة» (١٦٢).

ألوان الكَدَرِ الذي يلقاه الإنسان، ما ينغِّصُ عَيْشَه، ويُذْهِب عليه لَذَّتَه؛ فلا يجد قلبَهُ في تلاوة القرآن، ولا في مناجاة الله ﷻ في الصلاة، ولا في غير ذلك مِن أحواله.

تلازمُ أعمالِ القلوبِ وترابُطُها:

ثم إنَّ هذه الأعمال القلبية متلازِمةٌ مترابِطة؛ فحينما نتحدَّث مثلًا عن الإخلاص، فإن هذا الحديث لا بد أن يرتَبِط بقضيَّة الخوف والرجاء مثلًا:

فلو سألنا: لماذا يُخْلِص الإنسان عمله لله ﷻ؟

فالجواب: لأنه يحبُّه ويرجوه ويخافُه.

وهذا الإنسان الذي يتوكَّل على ربه، لا بد أن يكون واثقًا بهذا المعبود الذي توكَّل عليه؛ فهو على يقين أنه قادِر على تخليصِهِ من كل المخاوف، وإعانته على كل الأمور التي يحتاج فيها إلى عَوْنِهِ ونُصْرَته وألطافه.

وحينما نتحدَّث عن الإنابة والتوبة، نجد أن الإنسان إنما يتوب؛ لأنه يخاف الله ﷻ ويحبُّه، ويرجو ما عنده من الثواب.

وهكذا حينما نتحدَّث عن الرجاء والخَوْف والمحبَّة، وغيرها من أعمال القلوب.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «والمحبَّة ما لم تَقتَرِن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها، بل قد تضُرُّه»[(١)]؛ وذلك أن المحبَّة إذا انفرَدَتْ، أوجَبَتْ لصاحبها لونًا من الإدلال والانبساط، وربما آلَتْ بكثيرٍ مِن الجُهَّالِ المغرورِينَ إلى الاستغناء بها عن الواجبات؛ حيث زعَموا أن المقصود من العبادات هو عبادة القلب، وإقامة اللُّبِّ، وإقبالُه على الله ﷻ ومحبَّته، فإذا حصل المقصود بهذا على حدِّ زَعْمهم، قالوا: «إن الاشتغال بالوسيلة باطل لا يَنفَع!».

ولا يخفى أن الحُبَّ إذا كان منفرِدًا، فإن ذلك يُورِث انبساطًا لدى العبد، فيكون مضيِّعًا لأمر الله ﷻ، مقارِفًا لما لا يَلِيق، منتهِكًا لحدوده، متعدِّيًا على شرعه.

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «ولقد حدَّثني رجُل أنه أنكَر على رجُل من هؤلاء في خَلْوة له، ترك فيها حضور الجُمُعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء مِن ماله، فإن الجُمُعة تسقُط عنه؟ فقال له: بلى، فقال له: فقلب المُرِيد أعزُّ عليه من ضياع عشَرة دراهم» ـ أو كما قال ـ وهو إذا خرَج، ضاع قلبه؛ فحِفْظُه لقلبِهِ عُذْرٌ مُسقِط للجمعة في حقِّه، فقال له: هذا غرور؛ بل الواجب عليه: الخروج إلى أمر الله، وحفظ قلبه مع الله...

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٨٥٠).

فتأمَّل هذا الغُرُور العظيم؛ كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جُمْلة؛ فإن مَن سلَكَ هذا المسلك، انسلَخ عن الإسلام العامِّ، كانسلاخ الحَيَّةِ من قِشْرِها، وهو يظن أنه من الخاصَّة. . .

ولهذا قال بعض السلف: «مَن عبَدَ اللهَ تعالى بالحبِّ وحدَهُ، فهو زنديق، ومَن عبَدَهُ بالخوفِ وحدَهُ، فهو حَرُوريٌّ، ومَن عبَدَهُ بالرجاءِ وحدَهُ، فهو مُرجِئٌ، ومَن عبَدَهُ بالحُبِّ والخَوْف والرَّجاء، فهو مؤمن»[(١)].

وهذا المَسلَك هو الطريق الذي سار عليه أهل السُّنَّة والجماعة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ وقد جمَعَ الله عز وجل هذه المقامات الثلاثة ـ المحبَّة، والخوف، والرجاء ـ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ فابتغاء الوسيلة هو محبَّته، الداعية إلى التقرُّب إليه، ثم ذكَرَ بعدها الرجاء والخوف؛ فهذه طريقة عبادِه وأوليائِه.

وبهذا نعلم: أن هذه الأعمال الثلاثة مترابِطةٌ غاية الارتباط، فإذا اقتصَر الإنسان على واحد منها، وقع في المَعَاطِب، وإذا اجتمَعَت في القلب، كانت الطريق إلى عبادتِه ووَلَايته:

فإن الخوف: يَجْمَعُهُ على الطريق، ويرُدُّه إليه، فكلَّما انصرَفَ، أو التفَتَ بمحبَّته أو سَيْرِه، أو حاد عن الطريق، ردَّه سوط الخوف؛ فهو كالسَّوْط الذي يَضْرِب به مَطِيَّتَهُ التي تسير به؛ لئلا تخرُج عن الدَّرْب.

«**وأما الرجاء**: فهو حادٍ يَحدُوهَا، يطيِّب لها السير.

وأما الحُبُّ: فهو قائدُها وزِمَامها الذي يسوقها.

فإذا لم يكن للمَطِيَّة سَوْطٌ ولا عصًا يردُّها إذا حادت عن الطريق، وتُرِكَتْ تركب التَّعاسِيف، خرَجَتْ عن الطريق، وضلَّت عنها؛ فما حُفِظَتْ حدود الله ومحارِمُه، ووصل الواصلون إليه: بمثل خوفِهِ ورجائِهِ ومحبَّتِه.

فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة، فسَدَ فسادًا لا يُرجَى صلاحه أبدًا، ومتى ضعُف فيه شيء من هذه، ضعُف إيمانه بحَسَبه»[(٢)].

فهذا الذي يزعُم: «أنه بخروجه إلى الجُمُعة، وتَرْكِ هذه الخَلْوةِ: يفسُدُ قلبُه، وأنَّ حِفْظ القلب من الضياع والفساد أولى!» لم يعلم أن صلاح قلبه بخروجه لحضور

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٨٥٠ ـ ٨٥١).

(٢) من كلام ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٣/ ٨٥٢ ـ ٨٥٣)؛ بتصرُّف يسير.

ذِكْـــــر الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة: ٩].

فإن القلب لا يُمكِن أن يصلُح إلا على الطريق الذي رسَمَه له اللطيف الخبير، ولا يمكن أن يصلُح بتجاوز الحدود التي حدَّها الله ـ تبارك وتعالى ـ فهذا ولا شك مِن أعظم الغرور والجهل بالله سبحانه؛ وقد أدَّى ذلك بكثير منهم إلى الانسلاخ مِن شعائِرِ الإسلام وشرائِعِه؛ فأسقطوا عن أنفسهم التكاليف الشرعيَّة، حتى صار بعضُهم لا يصوم ولا يصلِّي، ومع ذلك: فهم يظنون أنهم قد ارتقَوْا إلى أعلى درجات العبوديَّة؛ فصاروا بأعلى المنازِل عند الله ﷻ!

والمقصود: التنبيه على أن الأعمال القلبيَّةَ في غاية الارتباط والاتصال، وأنه لا يُغْنِي بعضها عن بعض، بل إن بعضها متوقِّفٌ على بعضها الآخر، والعبد بحاجة إلى أن يستكمِلَها، وأن يربِّيَ قلبه عليها، بل لا أعلمُ شيئًا يمكن أن يَتشاغَلَ به العبد ـ مع معرفة الفرائض ـ أفضلَ مِن الاشتغال بأعمال القلوب؛ فإن الكلام على هذه المعاني ضروريٌّ لحياة القلب وسعادته في الدَّارَيْن.

كما أن التعرُّف على معاني أسماء الله ﷻ وصفاته أمرٌ جليلٌ يعظُمُ به الإيمان في قلب العبد؛ فيحيا به، ويرتبِط بالله وحده لا شريك له، دُونَ التفات إلى أحدٍ سواه؛ فيزداد العبد إيمانًا، ويمتلئ قلبه نورًا، ويكون حريصًا على محبَّة الله، وخوفِهِ، ورجائِهِ، والإقبالِ عليه؛ فتَهُونُ عليه المشقَّات التي يَلقَاها في هذا الطريق، بل يَلْتَذُّ بها؛ كما قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس بفقيهٍ مَن لم يَعُدَّ البلاءَ نِعْمة، والرخاءَ مصيبة!»[(١)].

فهؤلاء قوم قد تعلَّقت قلوبُهم بالله ﷻ، وعرَفُوه معرفةً صحيحة بأسمائه وصفاته؛ فصارت تصوُّراتُهم مختلفة عن تصوُّرات غيرِهم ممن لم يُدرِكوا هذه المعاني، ولم تَلْتَفِت إليها قلوبهم.

إن الاشتغال بهذه الأمور يوصِّلُنا إلى معانٍ جليلةٍ نحن في أمسِّ الحاجة إليها؛ لتحقيق المطالب، والنجاة مِن المخاوف؛ بخلاف ما يشتغِلُ به كثير من الناس؛ مِن القِيل والقال، والانشغالِ بأمور لا تعنيهم بحال؛ فيحصُلُ بذلك من الرَّزَايا والبَلَايا ما يُفسِد القلب ويضُرُّه، حتى يبقى خاويًا منشغِلًا بأمورٍ لا تزيده مِن الله ﷻ إلا بُعدًا؛

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨١)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٥)، (٨/ ٢٤٢).

ولهذا قال النبي ﷺ: «**لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قيحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**»[(١)]؛ فإذا كان هذا في الشِّعْر، فكيف بامتلائِهِ بأمورٍ يُظْلِم منها قلب العبد؟! كالنظر في كتب الكلام والفلسفة مما يثيرُ الشكوك والشُّبُهات، أو النظرِ في الكتب التي تحرِّكُ الغرائِزَ والشَّهَوات، وكالإعراض عن عُيُوب النفس وتهذيبها، والاشتغال بالناس وتتبُّع عَوْراتهم، ونَشْرِ قَالَةِ السوء بينهم، وما إلى ذلك مما يدور في مجالس أناسٍ كثيرين.

إن فساد القلوب ومرَضَها يُورِث الحرمان، ويمنع مِن الإقبال على الربِّ الرحيم الرحمٰن، ويَهوِي بصاحبِهِ في الدركات، ويَحرِمُه بلوغ الدرجات.

فتحتَّم أن نتعاهد قلوبنا بما يُصلِحُها؛ مِن ذكرِ الله، والصلاة، وقراءة القرآن، وسائر أعمال البرِّ، وأحوال الخير، وبما تقوم عليه من مقامات العبوديَّة، التي من أهمِّها تلك الأعمال القلبيَّة التي قامت عليها قلوبُ المتَّقِينَ، وصلَحَ بها حال المخلِصِين الصادقين، خاصَّةً في هذا العصر الذي غلَبَت فيه النزعة المادِّية، وصارت طاغية على الكثيرين؛ إلا مَن رَحِمَ الله.

ومِن هنا: جاء الكلام على هذا الموضوع الذي لا غِنَى لأحدٍ عنه، لا سيَّما مع كثرة التخليط فيه مِن قِبَلِ بعض طوائف المبتدِعة، وقد يكون لبعضهم مَزِيدُ عنايةٍ واشتغال به، لكنْ على غير هُدًى وبصيرة، فيقع بسبب ذلك ألوان مِن الانحِرَافات في القول والاعتقاد، والعمَلِ والسلوك.

فأردتُّ الكتابة فيه على نَهْجٍ صحيح، وسَنَنٍ واضحٍ مستقيم؛ موافِقًا لما عليه أهل السُّنَّة المَحْضَة ـ أسأل الله أن يجعلنا مِن أهلها قولًا واعتقادًا، وعملًا وسلوكًا ـ مع رَبْطِ هذه الأعمال بالأصل الذي تتفرَّع عنه، وهو الإيمان؛ حيثُ إنها من شُعَبِه، والناسُ يتفاضَلون فيها كما يتفاضَلون في الإيمان والدِّين؛ على نحوِ ما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

أصل مادَّة هذا الكتاب:

تعود مادَّة هذا الكتاب إلى دروس علميَّة تربويَّة أسبوعيَّة، كان أوَّلُها في الثامنَ عشَرَ من شهر رجب (سنة ١٤٢٣هـ)، وكان آخِرُها في الخامسَ عشَرَ من شهر جمادى الأولى

(١) أخرجه البخاري (٦١٥٥)؛ واللفظ له؛ من حديث ابن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهما، ومسلم (٢٢٥٧)؛ من حديث أبي هريرة وغيره، رضي الله عنه.

(سنة ١٤٢٨هـ)، وقد جعلتُها في ثلاث مجموعات، بين كلِّ مجموعة والتي تليها مُدَّةٌ من الزمن يتوقَّف فيها عَرْض هذه الدروس.

وسبق هذه الدروسَ جَمْعُ مادة علميَّة مما أمكن الوصول إليه مِن كتب الاعتقاد والتفسير، والحديث والآثار، وشروح الحديث والفقه، والرِّقَاق والزُّهْد، وكتب اللغة والتراجِم، ومؤلَّفات شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه الحافظ ابن القيِّم ـ رحمهما الله ـ إضافةً إلى ما وُجِدَ من المؤلَّفات المفرَدة في هذه الموضوعات.

وقد شارك في جمعِ هذه المادَّة وجَرْدِ الكتب جَمْعٌ من طلاب العلم؛ أسأل الله أن يَجزِيَهم الجزاء الأوفى.

ثم تولَّى تفريغ المادَّة الصوتيَّة عدَدٌ من الأخوات؛ أعظَمَ الله لهنَّ المَثُوبة.

وبعد ذلك: كان العمل على تعديل الصياغة، وتوثيق المعلومات بعد مراجَعَتِها على المصادر وتدقيقِها، وحذفِ التَّكْرار وما إلى ذلك مما يتطلَّبه تحويل المادَّة الصوتيَّة إلى كتاب، مع تخريج الأحاديث والآثار، ونقل أحكام أهل العلم قديمًا وحديثًا عليها ما أمكَن.

وقد استغرَقَ هذه العمل مدَّة طويلة تقرُبُ من ثمان سنوات، أُعِيدَ العمل فيها نحو ستِّ مراتٍ أو سبع، بذَلَ في كلِّ مرحلة منها فضلاءُ مِن طلاب وطالبات العلم جهودًا مشكورةً، مع إتباع ذلك بالمراجعة والتدقيق؛ حتى جاء في هذه الصيغة التي نقدِّمُها للقُرَّاءِ الكرام؛ راجين مِن الله تعالى أن ينفع بها مَن ساعَد في العمل فيها وإخراجها، ومَن طالَعَها ونظَر فيها؛ إنه جَوَاد كريم.

الطريقة المُتَّبَعَة في هذا الكتاب:

١ ـ تم الاقتصار على (١٦ موضوعًا) مِن أعمال القلوب، وذلك بعد مقدِّمة مفصَّلة تتحدَّثُ عن القلب، والأعمال القلبية عمومًا، وما يتفرَّعُ عن ذلك من مسائل وقضايا تدعو الحاجة إلى بيانها.

وهذه الموضوعات هي: (الإخلاص، واليقين، والتفكُّر، والخشوع، والمراقبة، والوَرَع، والتوكُّل، والمحبَّة، والرَّجَاء، والخَوْف، والصبر، والرضا، والشُّكْر، والغَيْرة، والحَيَاء، والتوبة)، وهي الأهمُّ مِن الأعمال القلبية.

٢ ـ حوى هذا الكتاب مادَّةً وافرةً من نصوص الوحيَيْن، والآثار المنقولة عن الصحابة ﷺ، ومَن بعدَهم من العلماء رحمهم الله جميعًا؛ مما لا يكون مخالفًا للكتاب والسُّنَّة، وما كان عليه أصحاب النبي ﷺ.

وكان ذلك مقصودًا مِن أَجْلِ أن يَجِدَ فيه القارئُ بُغْيَته؛ سواءٌ كان محاضِرًا، أو خطيبًا، أو واعظًا، أو معلِّمًا، أو باحثًا.

٣ ـ كُتِبَتِ الآيات بالرسم العثماني، مع عَزْوِها إلى سورها، وذِكْر أرقام الآيات بعدها مباشَرة.

٤ ـ كان التخريج للأحاديث على النحو الآتي:

أ ـ ما كان في الصحيحَيْنِ أو أحدِهما، فإنه يُكتفَى بذلك في تخريجِه.

ب ـ إنْ لم يكن فيهما، فيخرَّج مِن بقيَّة السنن الأربع.

ت ـ إنْ لم يكن في شيء من الكتب الستة، فمِن بقيَّة الكتب التسعة.

ث ـ فإنْ لم يكن في شيء منها، فمِن المصادر الأخرى.

٥ ـ الاقتصار على إيراد الأحاديث الصحيحة والحَسَنة دون غيرها، مع نَقْل أحكام العلماء عليها في الهامش بعد تخريجها.

٦ ـ الإعراض عن الأقوال التي تَتَّسِم بالغَرَابة، أو التي لا تخلو من مبالَغة، أو التي تَحمِلُ مخالَفة للشرع.

وإنما المعوَّلُ في ذلك على نصوص الكتاب والسُّنَّة، وما ثبَتَ عن أصحاب رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالعلم المشروع والنُّسُك المشروع، مأخُوذٌ عن أصحاب رسول الله ﷺ، وأمَّا ما جاء عمَّن بعدَهم، فلا ينبغي أن يُجعَل أصلًا، وإنْ كان صاحبه معذورًا بل مأجورًا؛ لاجتهادٍ أو تقليد؛ فمَن بنى الكلام في العلم ـ الأصول، والفروع ـ على الكتاب والسُّنَّة والآثار المأثورة عن السابِقِينَ ـ: فقد أصاب طريقَ النبوَّة، وكذلك مَن بنى الإرادةَ والعبادة، والعمَلَ والسَّمَاعَ المتعلِّقَ بأصولِ الأعمالِ وفروعِها ـ مِن الأحوال القلبيَّة، والأعمال البدنيَّة ـ على الإيمانِ والسُّنَّةِ والهَدْيِ الذي كان عليه محمَّد ﷺ وأصحابُه ـ: فقد أصاب طريق النبوَّة؛ وهذه طريق أئمَّة الهدى»[1].

٧ ـ تَمَّ بَذْل الوُسْع في توثيق المادَّة العِلْميَّة في هذا الكتاب؛ وذلك بمراجعة الأصول، ومطابَقَتها عليها، والإحالة في الهامش إلى المصادر، وتمييز المنقول بحروفِه من المتصرَّف في نَقْله.

وفي الختام: فهذا «جُهْدُ المُقِلّ، وقُدْرَةُ المُفْلِس؛ حذَّر فيه من الداء وإنْ كان من

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣).

أهلِهْ، ووصَفَ فيه الدواء وإنْ كان لم يَصبِرْ على تناوُله لِظُلْمِهِ وجَهْلِهْ»[١].

واللهَ أسأل أن يُجْزِلَ الأجرَ والمَثُوبةَ لي ولكلِّ مَن كان له فيه سعي؛ مِن مشارَكة في جمع مادَّته العلمية، أو تسجيل مادَّته الصوتية، أو تفريغِها، أو توثيقِها، أو مراجعتِها وتصحيحِها، أو تنسيقِها، أو طباعتِها؛ كما أسأله تعالى أن يتقبَّلَ هذا العمل، ويجعَلَهُ صوابًا، خالصًا لوجهه الكريم، مُدنِيًا إلى محبَّته، ومقرِّبًا إلى مرضاته، وأن يَغفِرَ لي ولوالديَّ ولإخواني المسلمين؛ إنه سميع مُجِيب.

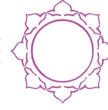
✐ وكتب
خالد بن عثمان السبت
٢٨/١١/١٤٣٦هـ
khaled2224@gmail.com



(١) مِن كلام الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «عدة الصابرين» (ص١١).

مقدِّمة

في بيان منزِلة القَلْب، وأهميَّة الأعمال القلبيَّة



توطئة

لا يخفى أن لأعمال القلوب منزِلة وقَدْرًا وجَلَالة، ومَكَانة عظيمة في دين الله ﷻ؛ فإنها تتعلَّق برُكْن شريف؛ ألا وهو القَلْب، وهو مَلِكُ الجوارح والأعضاء، وهي خَدَمُهُ وجنوده؛ ولا شك أن شَرَف العلمِ بشَرَفِ متعلَّقه؛ فالعلم الذي يتعلَّق بالقلب أشرَفُ مِن العلم الذي يتعلَّق بغيره.

وحديثنا في هذا الكتاب سيكون ـ بحَوْل الله ـ عن القَلْب والأعمال المتعلِّقة به.

وهذا الموضوع الجليل العظيم يُعَدُّ مِن المقاصد، لا مِن الوسائل، ونحن إنما ندرُسُ بعض العلوم ـ كأصول الفقه، ومصطلح الحديث، والنحو، وما إلى ذلك ـ ليكون مِرْقاةً للفقه في الدين؛ أصولًا وفروعًا، وإنَّ مِن أعظَم الفقه وأجلِّه الفقهَ في الدِّينِ المتعلِّق بالأعمال القلبيَّة؛ فإن قلوبنا إن صلَحَتْ، صلَحَت أعمالنا، واستقامتْ أحوالنا، وزال كثيرٌ مِن مشكِلاتنا، وإن فسَدَتْ هذه القلوب، فسَدَتْ أعمال العبد، واضطرَبَتْ عليه أحواله، ولم يَعُدْ يتصرَّف التصرُّفَ الرشيد الذي يُرْضِي ربه ومولاه؛ فيَخسَرُ الدنيا والآخرة.



معنى القَلْبِ وحقيقتُه

القلب في اللغة له معنيان[١]:

الأول: خالصُ الشيء وشريفُه؛ فالشيء الخالص الشريف يقال له: قَلْب.

الثاني: رَدُّ شيء على شيء، مِن جهة إلى جهة؛ كما يقال: قَلَّبَ الثوبَ مثلًا ونحوَه، وقلَبَ الشيءَ وقَلَّبَهُ: حَوَّلَهُ ظهرًا لبطن.

فعلى المعنى الأوَّل: سُمِّيَ القلبُ قلبًا؛ لأنه أخلَصُ شيء فيه وأرفَعُه، وهو العُضْوُ المسؤولُ عن التأثُّر والاستجابة الشعوريَّة؛ وهو المحلُّ الذي يحصُلُ به التعقُّلُ والتفكيرُ والفَهْم، والإخباتُ والتوكُّلُ والثقة، وغيرُ ذلك مِن الأمور التي نجدها في قلوبنا؛ سواءٌ كانت أمورًا علميَّةً بحثيَّة، أو أمورًا عمليَّةً وجدانيَّة ذوقية.

وعلى المعنى الثاني: سُمِّيَ القلبُ قلبًا؛ لكثرةِ تقلُّبه[٢]؛ فهو كثير التقلُّب بالخواطِر والواردات، والأفكار والعقائد، ويتقلَّبُ على صاحبِهِ في النيات والإرادات كثيرًا؛ كما أنه كثير التقلُّب مِن حال إلى حال، فهو يتقلَّب مِن هدى إلى ضلال، ومِن إيمان إلى كفر، ومِن إخلاص إلى نفاق؛ ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يُكثِرُ أن يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[٣].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ بِالْفَلَاةِ، تَعَلَّقَتْ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا**

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ١٧)، (ق ل ب)، و«لسان العرب» (١١/ ٢٦٩)، (ق ل ب).

(٢) انظر: «لسان العرب» (١١/ ٢٦٩)، (ق ل ب).

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، بلفظ: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ أن يقول: «**اللَّهُمَّ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، فقال رجل: يا رسول الله، تخافُ علينا وقد آمَنَّا بك، وصدَّقناك بما جئتَ به؟ فقال: «**إِنَّ الْقُلُوبَ بينَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ** عز وجل **يُقَلِّبُهَا**»؛ من حديث أنس رضي الله عنه، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الحاكم (١/ ٧٠٦)، والذهبي، والضياء (٢٢٢٢)، والألباني في «ظلال الجنة» (٢٢٥). وفي الباب: عن عبد الله بن عمرو، والنوَّاس بن سمعان، وعائشة، وأم سلمة، وجابر رضي الله عنهم. انظر: «سنن الترمذي» (تحت ٢١١٤)، و«إتحاف المهرة»، لابن حجر (٣/ ١٧٨).

لِبَطْنٍ»[١].

وقال أبو عُبَيْدة بن الجرَّاح رضي الله عنه: «مثَلُ قلب المؤمِن مثلُ العصفور؛ يَتَقَلَّب كل يوم كذا وكذا مرَّةً»[٢].

وقال الشاعر[٣]:

مَـا سُـمِّـيَ الـقَـلْـبُ إِلَّا مِـنْ تَـقَـلُّـبِـهِ ... وَالـرَّأْيُ يَـصْـرِفُ بِـالإِنْـسَـانِ أَطْـوَارَا

ولا يَظهَرُ: أنَّ هناك تعارُضًا بين المعنى الأوَّل والثاني، بل هما متوافِقان؛ فإنَّ ما كان خالصًا شريفًا، فإنَّه يُعتنَى بثباتِهِ وتقلُّبِهِ أكثَرَ مما ليس كذلك.

ولذلك: فإن القلب يقالُ له أيضًا: الفؤاد؛ وذلك لكثرة تفؤُّده[٤]؛ أي: كثرةِ توقُّده بالخواطر والإرادات والأفكار، والإنسانُ قد يستطيع أن يُصِمَّ أذنه فلا يسمع، كما يستطيع أن يُغمِضَ عينه فلا يُبصِر، ولكنه لا يستطيع أن يَمنَعَ قلبَهُ من التفكير في الواردات والخواطر؛ فهي تَعرِضُ له شاء صاحبه أم أبى؛ ولهذا قيل له: فُؤَادٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأما القلبُ في الاصطلاح، فيُطلَق على أمرَيْن[٥]:

الأول: العضو الصَّنَوبَريُّ الشكل، المُودَع في الصدر.

الثاني: أنه لَطِيفة ربانيَّة، لها بذلك العضو تعلُّق وَثِيق.

وقد ورَدَ المعنيان في حديث النُّعْمان بن بَشِير رضي الله عنه: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»**[٦].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٨)، وأحمد في «الزهد» (ص١٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٣)، هكذا موقوفًا.
وقد أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٨، ٤١٩)، وابن ماجه (٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٧)؛ واللفظ له، وصحَّح رفعه الصدر المناوي في «شرح المناهج والتناقيح» (٨١)، والألباني في «ظلال الجنة» (٢٢٧، ٢٢٨)، و«صحيح الجامع الصغير» (٢٣٦٥)، وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ٤٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣/ ٧٦٦)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٠٢)؛ واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٦)، وقد رُوِيَ مرفوعًا؛ ولا يصح.

(٣) انظر: «تاج العروس» (٤/ ٧٠)، (ق ل ب).

(٤) انظر: «تاج العروس» (٤/ ٧٠)، (ق ل ب).

(٥) «التعريفات» للجرجاني (ص١٧٨)، و«التعريفات الفقهيَّة» (ص١٧٦). وانظر:
http://www.alukah.net/sharia/0/8717/#_ftnref3

(٦) سيأتي تخريجه قريبًا.

وفي حديث أَنَس بن مالك ﵁: «**أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﵇ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ**...»، قال أنس: وقد كنتُ أرى أَثَرَ ذلك المِخْيَطِ في صدره(١).

فهذا واضحُ الدَّلَالة على أن المرادَ بالقلب هو القلبُ الذي في الصدر، وأنَّ الهدى والضلال يتعلَّقان بهذا القلب.

وقد ذكَرَ جماعة من المفسِّرين هذه الحادثة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١]، وفسَّروه بشَقِّ صدرِ النبيِّ ﷺ، واستخراج ذلك من قلبه(٢).

وهذا الذي فعَلَهُ جبريل عليه الصلاة والسلام يَدُلُّ دَلَالةً واضحةً على أن هذا العضو في الإنسان به لطيفة غَيْبِيَّة تؤثِّر في أفعاله.

وقد يَرِدُ القلب بمعنى العَقْل؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ لأن العَقْلَ محلُّهُ القلب؛ كما دلَّت على ذلك الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة؛ خلافًا للفلاسفة مِن القدماء وأكثَرِ الأطبَّاء في هذا العصر ـ إلا من رَحِمَ الله ﷻ ـ فإنهم يقولون: إنَّ العقل في الدماغ(٣)(٤).

«وجمَعَ بعض العلماء بين قول أهل السُّنَّةِ وقول الفلاسفة: بأن قال: إن أصلَ العقلِ في القَلْبِ؛ كما في الكتاب والسُّنَّة، إلا أن نُورَهُ يتصِلُ شُعَاعُهُ بالدماغ؛ واستدلُّوا على هذا... بالعادةِ المُطَّرِدَةِ والاستقراء: أنك لا تَجِدُ رجلًا طويل العُنُقِ طولًا مُفرِطًا إلا

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦١، ١٦٢)؛ واللفظ له.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٥٤٦)، و«روح المعاني» (٣٠/ ١٦٥ ـ ١٦٧).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (٢/ ٦٤)، و«مجموع الفتاوى» (٩/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢/ ٣٠)، و«العَذْب النمير» (١/ ١٥٩ ـ ١٦١)، (٢/ ٥٠٢ ـ ٥٠٤)، (٤/ ٤٠ ـ ٤٣)، (٥/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥).

(٤) **وقد قيل**: إنَّ الدماغَ هو مَعدِنُ العقل، ومنه يتفرَّق العصَبُ الذي فيه الحِسّ، وبه قِوَامُ البَدَن، ولولا أنه كذلك، لما ذهَبَ العقلُ مِن الضَّرْبةِ تصيب الرأسَ؛ وأنشدوا:

إذا ضَرَبُوا رَأْسِي وَفِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي ... وغُودِرَ عِنْدَ المُلْتَقَى ثَمَّ سَائِرِي

انظر: «البخلاء»، للجاحظ (ص١٠٧).

وهذا وأمثاله ليس بقائم في الدلالة؛ لتضمُّنه المخالَفة لصريح الآية: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: ٤٦]، مع قوله: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

كان في عقلِهِ بعض الدَّخَل؛ لبُعْدِ ما بين طَرَفَي شُعَاعِ نور عقلِه»[١].

ومِن النصوص الدالَّة على أن العقل في القلب:

١ ـ قــــول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، ولم يَقُلْ: «ولكنْ تَعمَى القلوبُ التي في الأَدْمِغة».

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]؛ فجعَلَ القلب مَحَلًّا للعقل.

٣ ـ قول النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[٢].

فقوله ﷺ: «**مُضْغَةً**» نصٌّ في القلب الحِسِّيِّ اللَّحْميِّ المعروف، **والمُضْغة**: هي القطعة من اللَّحْم على قَدْرِ ما يُمضَغ[٣].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويستدَلُّ به ـ أي: الحديث ـ على أن العقل في القلب»[٤].

٤ ـ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا؛ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا**»[٥]، ويشير إلى صدرِهِ ثلاث مرَّات.

فالنبي ﷺ أشار إلى صدرِهِ، ولم يُشِرْ إلى دماغه؛ كما يَفعَلُ كثير مِن الناس إذا أراد أن يشير إلى كمالِ عقلِهِ، أشار إلى رأسه.

ومعلومٌ أن المرء بأَصْغَرَيْهِ: قلبِهِ ولسانه[٦]، ولا يقالُ: «لسانِهِ ودماغِه»، وإنما يقال: قلبُهُ الذي هو مَحَلٌّ للعقل.

أما الطِّبُّ الحديث، فلم يتوصَّل إلى حقيقة هذه القضيَّة، ولن يتوصَّلَ إليها إطلاقًا؛ لأنها من الأمور الغَيْبِيَّة، وقد يتوصَّل إلى ما يُشْبِه العلم بما أخبَرَت به الرسلُ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ فما الذي يؤثِّر على أعمال الإنسان المعنويَّة

(١) «العذب النمير» (١/ ١٦٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)؛ من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٣) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٣٣٩)، (م ض غ).
(٤) «الفتح» (١/ ١٥٦).
(٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٦) معناه: أن المرء يعلو الأمورَ ويَضبِطها بجَنانِهِ ولسانه. «تاج العروس» (١٢/ ٣٢٤)، (ص غ ر).

وإرادتِه؟! وأين وكيف يحصل له الخوف والرجاء، والمحبَّة والكراهية، والرضا والسَّخط، والسرور والحُزْن والانقباض، وغير ذلك مِن الأمور؟!

إن الطِّبَّ لا يستطيع أن يحدِّد ذلك، وإنما غاية ما يقرِّره الطِّبُّ: أن المكان الذي يؤثِّر على الأفعال الحسِّيَّة هو الدماغ، وهذا لا يمنع أن يكون للقَلْبِ تعلُّق بهذه الأمور، لكنَّ الطِّبَّ لم يتوصَّلْ إلى معرِفة هذا التعلُّق وكيفيَّته، ومعلوم أن الطبَّ لا يمكنه أن يَصِل إلى الأمور الغيبيَّة؛ لأنه مما لا يُطلِعُ الله عليه أحدًا من بني آدم.

ولما كانت حياة الإنسان الظاهِرة متعلِّقة بالقلب والدماغ معًا على نحوٍ ظاهر؛ فيُمكِن أن تتعلَّق إراداته وأحاسيسه بالقلب والدماغ معًا؛ فإن الإنسان لا يستطيع أن يَعِيشَ على نحوٍ سَوِيٍّ إلا بسلامة قلبه ودِمَاغه.

فما المانع أن يكون بين قلبِهِ ودماغِهِ تعلُّقٌ وثيقٌ مؤثِّرٌ على أفعالِهِ وتصرُّفاتِهِ المعنويَّة، ومنها ما نسمِّيه بالأمراض القلبيَّة، والإحساساتِ والمشاعِرِ الداخليَّة؟!

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «قيل: إنَّ العقل في الدماغ؛ كما يقوله كثير مِن الأطباء، ونُقِلَ ذلك عن الإمام أحمد، ويقول طائفة مِن أصحابه: إن أصل العقل في القلب، فإذا كَمُلَ، انتهى إلى الدماغ. والتحقيق: أن الرُّوح ـ التي هي النَّفْس ـ لها تعلُّق بهذا وهذا، وما يَتَّصِفُ مِن العقل به يتعلَّقُ بهذا وهذا، لكنَّ مَبدَأَ الفكر والنظَرِ في الدماغ، ومَبْدَأَ الإرادة في القلب. والعقل يرادُ به العلم، ويرادُ به العمل؛ فالعلم والعمل الاختياري أصلُهُ الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، والمريدُ لا يكون مريدًا إلا بعد تصوُّرِ المراد؛ فلا بد أن يكون القلب متصوِّرًا؛ فيكون منه هذا وهذا»[(١)].

ويقول الحافظ ابن كَثِير رَحِمَهُ اللهُ: «الأفئدة هي العقول التي مَرْكِزُها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ»[(٢)].

والمقصود: أن القلب هو محلُّ الإرادات والخواطر، وما يقع للإنسان مِن محبَّة وبغض، ورضًا وسُخْط، وإنابةٍ وتوكُّل، وغير ذلك، وهذا لا يَمنَع أن يكون له اتصالٌ بالدماغ.

ويَدُلُّ على هذا: أن الإنسان إذا ضُرِبَ على دماغِه، فربَّما فقَدَ عقلَهُ، لكنْ ليس معنى هذا: أن مَحَلَّ العقل هو الدماغ فحَسْبُ، فالقلب هو مستقَرُّ الإراداتِ، وهو محلُّ هذه الأعمال التي نتحدَّث عنها.

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٩٠)؛ بتصرف.

وقد يتساءَلُ بعضنا: إذا كان القلب محلَّ التوحيدِ والإيمان والتقوى، أو الشركِ والكُفْرِ والنفاق، وما إلى ذلك؛ فهل إذا استُؤْصِلَ قلب امرئ مسلم، ووُضِعَ له قلبُ امرئ كافر، سيتحوَّل المسلِمُ إلى عقيدة ذلك الكافر؛ فيكون بذلك كافرًا مثلَه؟

الجوابُ: أنَّ الطبَّ الحديث له تجارِبُ في ذلك، لكنْ مع التتبُّع وسؤال أهل الاختصاص، لم أجدْ في ذلك إجابةً علميَّةً دقيقةً عن دراسةٍ معتبَرة؛ مِن ثَمَّ: فإنه لا يُعْرَف كثيرًا مدى التغيُّر الذي يحصُلُ له بسبب تغيُّرِ هذا القلب، ومدى التأثُّرِ الذي يناله مِن صاحب ذلك القلبِ الذي نُقِلَ إليه.

لكنْ هذا لا يعني ـ والله تعالى أعلم ـ أنَّ الإنسان يتحوَّل مِن الإيمان إلى الكفر، أو العكس؛ إلا أنه لا يبعُدُ أن يتأثَّر صاحبُهُ بعض التأثُّر؛ كيف لا والإنسان يتأثَّر بالمخالَطة والنظر، ويتأثَّر بما يسمع، وبما يَشَمُّ وبما يأكُل؟! فأكلُ الحلال يؤثِّر في قلب الإنسان، كما يؤثِّر فيه أكلُ الحرامُ؛ بل إنَّ اللغة أيضًا تؤثِّرُ في عقله وقلبه(١).

وقد جاء في ترجمة إمام الحرمَيْنِ الجُوَيْنيِّ: أنَّ والده أمَرَ أمَّه ألا تدَعَ أحدًا يُرْضِعُهُ غيرها، فاتفَقَ أنَّ امرأةً دخلَتْ عليها، فأرضَعَتْهُ مرَّة، فأخذه أبوه فنكَّسَهُ، ووضَعَ يده على بطنه، ووضَعَ إصبَعَهُ في حَلْقه، ولم يَزَلْ به حتى قاء ما في بطنه. وكان إمام الحرمَيْنِ ربما حصَل له في مجلسه في المناظَرةِ فُتُورٌ ووَقْفة، فيقول: هذا مِن آثار تلك الرَّضْعة(٢).

فانظر كيف تؤثِّرُ رَضْعةٌ في سلوك الإنسان، وربما في عَقْله، فكيف إذا نُقِلَ إليه قلبٌ بكامله؟!

فهذا خلاصةُ ما أظنُّه في هذه المسألة التي طالما سأل الناسُ عنها؛ وهذا يَدُلُّ على أن القضية تَرتبِط بهذا العضو الصنوبري، الذي يتعلَّق به أمر معنويٌّ تعلُّقًا مباشِرًا؛

---

(١) انظر:
(http://fatwa.islamweb.net/fatwa/printfatwa.php?Id=1921&lang=A), (http://www.m-aqdah.com/vb/archive/index.php/t-842.html).
وانظر: «اقتضاء الصراء المستقيم» (١/ ٥٢٧).

(٢) انظر: «وَفَيات الأعيان» (٣/ ١٦٩)، و«البداية والنهاية» (١٦/ ٩٦)، و«شذرات الذهب» (٥/ ٣٤٠ ـ ٣٤١)، وانظر أيضًا: «المقاصد الحسنة» (ص٢٢٧)، و«كشف الخفا» (١/ ٥١٩) تحت حديث: «**الرَّضَاع، يُغَيِّرُ الطِّبَاع**».

ولهذا قال بعضهم عن العقل: «هو نُورٌ وضَعَهُ الله طَبْعًا وغريزةً، يُبصِرُ به، ويعبِّر به؛ فهو نُورٌ في القلب، كالنُّور في العَيْن؛ الذي هو البصر»[1].

وبغضِّ النَّظَرِ عن عبارةِ هذا القائل، إلا أنه لا شكَّ أن هذه المضغةَ يتعلَّقُ بها أمرٌ معنويٌّ، والدليل عليه: هو الواقعُ الذي نُشاهِد، مع ما تقدَّم مِن صريح الدلائل الشرعيَّة.



(١) «غرر الخصائص»؛ بتصرف واختصار (ص١٠٨).

منزِلة القلب

«اعلَمْ: أن أشرَفَ ما في الإنسان قلبُه؛ فإنه العالِم بالله، العامِلُ له، الساعي إليه، وإنما الجوارِحُ أتباعٌ وخَدَم له، يستخدِمُها القلب استخدامَ الملوك للعبيد.

وأكثَرُ الناس جاهِلون بقلوبِهم ونفوسِهم، والله يَحُولُ بين المرء وقلبه؛ وذلك بأن يَمنَعَهُ من معرفتِهِ ومراقبتِه؛ فمعرِفةُ القلبِ وصفاتِهِ أصلُ الدين، وأساسَ طريق السالكين»[1].

وذلك أن القلب مَلِك الجوارح وقائدُها وسائسُها؛ وهو كما يقول **العز بن عبد السلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: «مبدأ التكاليف كلِّها ومَحَلُّها أو مصدرُها: القلوب... وصلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[2]؛ أي: إذا صلَحَتْ بالمعارِف، ومحاسِن الأحوال والأعمال، صلَحَ الجسد كله بالطاعة والإذعان، وإذا فسَدَتْ بالجهالات، ومَسَاوِئ الأحوال والأعمال، فسَدَ الجسد كله بالفسوق والعصيان»[3]. والتمرُّدُ على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، وتسخيرُ الجوارح وتعبيدُها لغير الله تبارك وتعالى؛ كل ذلك يكون نتيجةً طبيعيَّةً لفساد هذا القلب وتبدُّل أحواله.

ويقول ابن رَجَب رَحِمَهُ اللَّهُ، **في شرح هذا الحديث**: «فيه: إشارة إلى أن صلاح حَرَكات العبد بجوارحه، واجتنابَهُ المحرَّمات، واتقاءه للشبهات، بحَسَب صلاح حركة قلبه:

فإذا كان قلبه سليمًا ليس فيه إلا محبة الله، ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله، وخشية الوقوع فيما يكرهه ـ: صلَحَتْ حَرَكات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتنابُ المحرَّمات كلها، وتوقٍّ للشبهات؛ حَذَرًا من الوقوع في المحرَّمات.

وإنْ كان القلب فاسدًا قد استولى عليه اتِّباعُ هواه، وطَلَبُ ما يحبُّه ولو كرهه الله ـ: فسَدَتْ حَرَكات الجوارح كلها، وانبعَثَتْ إلى كل المعاصي والمشتبِهات؛ بحَسَب اتِّباع هوى القلب»[4].

---

(١) مِن كلام ابن قُدَامة في «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٩٣)؛ بتصرف.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «قواعد الأحكام» (١/ ٢٩٧).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٤).

ويُروَى في هذا المعنى عن سَلْمان الفارسي ﷺ؛ **أنه قال**: «لكل امرئ جَوَّانِيٌّ وبَرَّانِيٌّ؛ فمن يُصلِحْ جَوَّانِيَّهْ، يُصْلِحِ الله بَرَّانِيَّهْ، ومَن يُفسِدْ جَوَّانيَّهْ، يُفسِدِ اللهُ بَرَّانِيَّهْ»[١]؛ **جَوَّانِيَّه**: سِرَّه، **وبَرَّانيَّه**: علانيَتَه[٢].

وهذا شيءٌ مشاهَد؛ فإنك تَجِدُ الموعظة تَطرُق الأسماع، فتجدُ آثارها في الناس متفاوِتة غاية التفاوُت، كالمطَرِ يَنزِل على الأرض:

فمنها: ما يُخرِجُ ألوان النباتات والثمار والأزهار؛ فتغدو تلك الأرض طيِّبةً، مُعشِبةً، مُرْبِعةً.

ومنها: أرضٌ أخرى؛ لا تُمسِكُ ماءً، ولا تُنبِتُ كَلَأً.

ومنها: ما يُمسِكُ ماء، لكنها لا تَنتفِع به، وإنما يَنتفِعُ غيرها.

وهكذا الناس؛ يسمعون القرآن والمواعظ:

فمنهم: مَن يتأثَّر ويَظْهَر ذلك في سَمْتِهِ وهَدْيِهِ وأخلاقِهِ وسائر أعماله؛ فيُثمِر ذلك في قلبه خشوعًا وخضوعًا، وألوانًا من العبوديَّات، كما يُثمِر عملًا صالحًا في جوارحه.

ومنهم: مَن لا يَظْهَر عليه أثر ذلك؛ سواءٌ حَفِظَهُ، فنقَلَهُ إلى الناس، فانتفَعُوا به، أو لم يحفظ شيئًا من ذلك فضيَّعه؛ ولذا تجد الكلمة الطيِّبة يَسمَعها اثنان، فيصلُحُ بها حال أحدهما دون الآخر.

وكم مِن أقوام طرَقَ أسماعَهم القرآنُ، وسَمِعُوا النبيَّ ﷺ يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، فلم يستجيبوا؛ فكبَّهم الله ﷻ في النار على وُجُوهِهم! وكم مِن أقوام سَمِعوا كلمةً واحدةً أنارت بصائِرَهم، فتحوَّلت أمورهم وأحوالهم، وتبدَّلت شؤونهم، وتركوا الملذَّات والشَّهَوات التي حرَّمها الله ﷻ عليهم؛ وما ذلك إلا لصلاح القلب أو فساده؛ فحُقَّ لهذا المحلِّ الشريف أن يُعتَنَى به غاية العناية.

يقول الحسن البصري رحمه الله: «دَاوِ قَلْبَك؛ فإن حاجة الله إلى عباده صلاحُ قلوبهم»[٣].

قال ابن رجَب: «يعني: أنَّ مراده منهم ومطلوبه: صلاح قلوبهم؛ فلا صلاح للقلوب حتى تستقِرَّ فيها معرِفة الله وعظَمَتُهُ ومحبَّته، وخشيتُهُ ومهابَتُهُ ورجاؤُه، والتوكُّلُ عليه، وتمتلئ مِن ذلك؛ وهذا هو حقيقة التوحيد»[٤].

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٧٢)، وأبو داود في «الزهد» (٢٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)؛ واللفظ له.

(٢) انظر: «لسان العرب» (٢/ ٤٣٠)، (ج وا).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٤).

(٤) انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٥).

وقال سعيد بن يَزِيد رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت أبا خُزَيْمة يقول: «القصد إلى الله بالقلوب أبلَغُ مِن حَرَكات الأعمال في الصلاة والصيام ونحوهما»(١).

وقال غيره: «العمل بحَرَكات القلوب، في مطالَعات الغيوب، أشرَفُ مِن العمل بالجوارح»(٢).

وقال وُهَيْب بن الوَرْد: «لا يكن هَمُّ أحدكم في كَثْرة العمل، ولكنْ لِيَكُنْ هَمُّهُ في إحكامه وتحسينِه؛ فإن العبد قد يصلِّي وهو يعصي الله في صلاته، وقد يصوم وهو يعصي الله في صيامه»(٣).

وفي هذا المعنى قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا حبَّذا نَوْمُ الأكياس وإفطارُهم! كيف يَعِيبُون سَهَرَ الحمقى وصيامهم، ومثقال ذرَّة مِن برٍّ صاحب تقوَى ويَقِينٍ أعظَم وأفضَل وأرجَح مِن أمثال الجبال مِن عبادة المغترِّين؟!»(٤).

فمحلُّ نَظَر الله عَزَّ وَجَلَّ هو قَلْب العبد؛ فإذا صلَحَ قلبه، صلَحَتْ أعماله، وكان مقبولًا عند الله تعالى، وإذا كان القلب فاسدًا، فلربما سجَدَ صاحبه وركَعَ مع رسول الله ﷺ، وهو في الدَّرْك الأسفل من النار؛ كعبد الله بن أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ ومَن معه من المنافقين؛ فقد كانوا يَخرُجون مع رسول الله ﷺ في الغَزَوات، ولربما قدَّموا شيئًا من أموالهم دفعًا للتُّهَمةِ عنهم، أو حياءً من الناس، ومع ذلك لم تَزْكُ نفوسهم، ولم تصلُحْ قلوبهم ولا أعمالهم؛ لأن هذه القلوب قد انطوت على معنى سيِّئ أفسَدَها، وعلى نجاسةٍ كبرى لا تطهِّرها مياه البحار؛ وهي النفاق.

وقد كان الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ يَجلِس في مجلسٍ خاصٍّ في منزله لا يتكلَّم فيه عن شيء إلا في معاني الزُّهْدِ والنُّسُك، والقضايا المتعلِّقة بالأعمال القلبية؛ فإنْ سُئِلَ سؤالًا يتعلَّق بغيرها في ذلك المجلس، تبرَّم، وقال: «إنما خَلَوْنا مع إخواننا، نتذاكَر»(٥).

فينبغي على الإنسان ألا يغفُلَ، وألا يكون شاردًا في زَحْمة الأعمال ـ حتى الأعمال الدعويَّة ـ بل ينبغي أن يكون له مجالِسُ يتذاكَرُ فيها مع إخوانه أحوال القلوب، ويرقِّق فيها قلبه، ويُصلِحُ ما فسَدَ منه في زحمة الأشغال: بزيارة القبور، وذِكْرِ الموت، وغيرِ ذلك من الأمور التي سيأتي ذكرها؛ إن شاء الله تعالى.

---

(١) المصدر السابق (٩/ ٣١١).
(٢) المصدر السابق (١٠/ ١٠٩).
(٣) المصدر السابق (٨/ ١٥٣).
(٤) المصدر السابق (١/ ٢١١).
(٥) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٩).

الموازنة بين القلب والسمع والبصر

وهي مقايسَةٌ بين هذا المَحَلِّ الشريف ـ وهو القلب ـ وأشرَفِ حَاسَّتَيْنِ في الإنسان؛ وهما: السمع، والبصر؛ وهي الثلاث التي ذكرها الله ﷻ في آية الإسراء في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ وهي منافذ العلمِ والمعرِفة.

مع أن الإنسان يُسأَلُ عن جميع جوارحِهِ ومنافعه، وعن نِعَم الله ﷻ عليه؛ كيف صرَّفها؟! وماذا عمل بها؟! ولكن الله ﷻ خص هذه الأعضاء الثلاثة هنا؛ لأنها الأشرف والأكمل، وهي أشرَفُ المَحَالّ، وأعظَمُ المنافع عند الإنسان، لكنْ أيُّ هذه الثلاثة أشرَف: السمع، أو البصر، أو القلب؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العين تَقصُرُ عن القلب والأُذُن وتُفارِقُهما في شيء، وهو أنها إنما يَرَى صاحبُها بها الأشياء الحاضرة، والأمور الجِسْمانية؛ مثلُ الصور والأشخاص»(١).

ومعنى هذا: أن العين أقل الثلاثة شَرَفًا؛ **وذلك لأمور**:

منها: أن المرء لا يَرَى بها إلا الأمور الشاخِصة؛ فيرى الإنسان الحاضِر أمامه، ويرى الشجرة كذلك، ولكنه لا يرى الهواء والأمور غير الشاخصة؛ لأنه لا يُدرِكُها نَظَر العَيْن.

وأيضًا: فإنَّه لا يرى الأشياء البعيدة عنه جِدًّا، ولكنه قد يسمع صوتًا لا يرى مصدَرَهُ؛ فإنا قد نسمع صوت الطائرة ولا نراها.

وأيضًا: فإن الإنسان لا يُبْصِر إلا من جهة واحدة؛ وهي الأمام.

وأما السمعُ: فإن الإنسان يسمع ما أمامه وما خلفه، وما فوقه وما تحته، كما يسمع عن يمينه وعن شماله، ولا يحتاج مع ذلك إلى الْتِفات.

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما القلب والأُذُن: فيَعلَم الإنسان بهما ما غاب عنه، وما لا مَجَال للبَصَر فيه من الأشياء الرُّوحانيَّة، والمعلومات المعنويَّة، ثم بعد ذلك يفترقان(٢):

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣١٠).

(٢) أي: القَلْب والأُذُن.

فالقلب: يَعْقِل الأشياء بنَفْسِه؛ إذْ كان العلم هو غذاءه وخاصِّيَّته.

أما الأُذُن: فإنها تحمل الكلام المشتَمِل على العلم إلى القلب؛ فهي بنفسها إنما تحمل القول والكلام، فإذا وصل ذلك إلى القلب، أخَذَ منه ما فيه من العلم»[١]؛ أي: أن الأُذُن مجرَّد وسيلة يحصُلُ بها المسموع في القلب، فيَعقِلُه، فالأُذُن واسطة بين الكلام والقلب.

ثم يقول رَحِمَهُ اللهُ: «فصاحب العلم في حقيقة الأمر: هو القلب، وإنما سائر الأعضاء: حَجَبةٌ له، تُوصِل إليه مِن الأخبار ما لم يكن لِيأخُذَهُ بنفسه... فمدار الأمر على القلب، وعند هذا: تَستبينُ الحِكْمةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]؛ حتى لم يذكُرْ هنا العَيْن، كما في الآيات السوابق؛ فإن سياق الكلام هنا في أمور غائبة، وحكمةٍ معقولةٍ مِن عواقب الأمور لا مجال لنظَرِ العين فيها، ومثله قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]، وتتبيَّن حقيقة الأمر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧]»[٢].

ويقول خالد بن مَعْدانَ رَحِمَهُ اللهُ: «ما مِن عبد إلا وله أربَعُ أعيُن: عينانِ في وجهِهِ يُبصِر بهما أمور الدنيا، وعينانِ في قلبِهِ يُبصِر بهما أمور الآخرة؛ فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا، فتح عينيه اللتَيْنِ في قلبه، فيُبصِر بهما ما وُعِدَ بالغيب... وإذا أراد بعبد غيرَ ذلك، ترَكَهُ على ما هو عليه؛ ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤]»[٣].

وبهذا نعلم أن القلب هو الأشرَفُ بإطلاق؛ وإنما البصر والسمع مِيزَابان يَصُبَّانِ فيه، وهما وسيلتان لنقل المشاهَدات والمسموعات إلى هذا القلب، ثم تستقِرُّ فيه، ويحصُلُ بعد ذلك مِن آثار هذه الأمور المسموعة أو المُبصَرة؛ مِن العلوم والمَعارِف، والأحوال والمقامات، ما لا يَعلَمُهُ إلا الله عَزَّ وَجَلَّ:

فقد يُبصِرُ الإنسان مَشهَدًا يكون له عِبْرةً يَعتبِر بها؛ فيكونُ ذلك سببًا لإنابتِهِ وتوبتِهِ، وحياةِ أعمال القلوب في قلبه، وقد يسمع خبرًا يكون له عِبْرةً مثل ذلك.

كما أنه قد يُبصِرُ مَشهَدًا يُفسِدُ عليه قلبه، فتُعرَضُ عليه هذه الصورة دائمًا، تَتَراءَى له كأنه ينظُرُ إليها، فتُفسِدُ عليه قلبه؛ فيبقى مشغولًا مشوَّشًا بهذا المَنظَر، ويجد من أَلَمِ ذلك ومَغَبَّتِهِ ما لا يقادِرُ قَدْرَهُ إلا الله تبارك وتعالى.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق (٩/ ٣١٠ ـ ٣١١).
(٣) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٢ ـ ٢١٣)؛ واللفظ له.

وقُلْ مثل ذلك في سماع الموسيقى والغناء المحرَّم، والغِيبة والنَّمِيمة، وغيرِ ذلك مما حرَّم الله على العبد سماعَه، وكذلك أخبارُ أهلِ الفجور والخنا.



مُصلِحاتُ القلب

وهي الأمورُ التي يَتِمُّ بها صلاحُ القَلْب، **ومنها**:

١ ـ التوجُّهُ الخالص لله تعالى؛ بحيثُ لا يكون قلبُهُ متعلِّقًا إلا بربِّهِ ومعبودِهِ وخالقِهِ جَلَّ جَلَالُهُ:

فمتى تعلَّق القلب بالمخلوق، عُذِّبَ به أيًّا كان؛ سواءٌ أكان حَجَرًا، أم رجلًا، أم امرأة، أم مَرْكَبًا، أم عقارًا، أم مالًا، أم غير ذلك.

فالله عَزَّ وَجَلَّ خلَقَ هذا القلبَ، وركَّبه تركيبًا؛ بحيث لا يصلُحُ بحال من الأحوال إلا إذا تعلَّق بربِّه ومَلِيكه، فإذا تعلَّق بغير الله، تعذَّب بهذا التعلُّق؛ ولذلك تجد كثيرًا من الناس يسألون عن قضايا تتعلَّق بروابطَ ووشائِجَ مع بعض إخوانهم، ويَختلِط عليهم الأمر كثيرًا؛ فهم يظنُّون ذلك لله وفي الله، وأن ذلك يقرِّبهم إليه سبحانه، مع أنهم يَجِدُون ألمه في قلوبهم، ويَجِدون له حسرةً تَعصِف بهذه القلوب:

فالعلائِقُ والأعمال، والأحوال والارتباطات، والمجالس والأقوال، إذا كانت صحيحةً، مع صحة قَصْد صاحبها، فإنها تُورِث في القلب نُورًا وانشراحًا، وإذا كانت على غير الجادَّة، انعصَرَ القلب وتألَّم.

فمَن كان يؤاخي أحدًا من الناس في الله ولله، فإن ذلك يَشرَح صدره، ويقوِّي قلبه، وأمَّا إذا كان لمعنى آخر ـ وقد لا يشعُرُ به هو أو لا يُدرِكُه ـ فإنه يجد ألمًا وحَسْرة لهذه الصُّحْبة تؤثِّر فيه دائمًا، وربما تكدِّرُ عليه عَيْشَه، وتنغِّصُ عليه حاله.

فتعلُّقُ القلبِ بالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يُصلِحُه، وتعلُّقُهُ بغيره مِن المخلوقات يُفسِدُه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلما ازداد القلب حُبًّا لله، ازداد له عبوديَّةً، وكلما ازداد له عبوديَّةً، ازداد له حُبًّا وفضَّله عما سواه، والقلب فقير بالذاتِ إلى الله مِن وجهَيْن:

مِن جهة العبادة؛ وهي العلَّة الغائيَّة.

ومِن جهة الاستعانة والتوكُّل؛ وهي العلَّة الفاعليَّة.

فالقلبُ لا يصلُحُ ولا يُفلِح، ولا يلتذُّ ولا يُسَرّ، ولا يَطِيبُ ولا يسكُن، ولا يطمئِنُّ، إلا بعبادة ربِّه وحبِّه والإنابة إليه، ولو حصَلَ له كلُّ ما يلتذُّ به من المخلوقات، لم

يطمئِنَّ ولم يسكُن؛ إذْ فيه فقرٌ ذاتيٌّ إلى ربِّه؛ مِن حيثُ هو معبودُهُ ومحبوبُهُ ومطلوبه؛ وبذلك يحصُلُ له الفرح والسرور، واللَّذَّةُ والنعمة، والسكونُ والطمأنينة»[1].

ولهذا كان ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **يقول:** «ففي القلبِ شَعَثٌ لا يَلُمُّهُ إلا الإقبالُ على الله، وفيه وَحْشَةٌ لا يُزيلها إلا الأُنْس به في خَلْوتِهْ، وفيه حُزْنٌ لا يُذهِبُهُ إلا السرورُ بمعرفتِهِ وصِدْقُ معاملتِهْ، وفيه قَلَقٌ لا يُسْكِنُهُ إلا الاجتماع علَيْهْ، والفِرَارُ منه إلَيْهْ، وفيه نِيرانُ حَسَراتٍ لا يُطْفِئُها إلا الرضا بأمرِهِ ونَهْيِهِ وقضائِهْ، ومعانَقةُ الصبرِ على ذلك إلى وقتِ لقائِهْ، وفيه طَلَبٌ شديدٌ لا يَقِفُ دون أن يكون هو وحدَهُ مطلوبَه، وفيه فاقةٌ لا يَسُدُّها إلا محبَّتُهُ والإنابة إليه ودوام ذِكْره، وصِدْقُ الإخلاص له»[2].

٢ ـ استعمالُ القلبِ فيما خُلِقَ له:

هذا القلب خُلِقَ ليكون عبدًا لله، خُلِقَ ليعمل أعمالًا جليلة؛ هي الأعمال القلبيَّة الصالحة، فإذا أُشغِلَ بغيرها، تكدَّر وفسَدَ حاله؛ كما **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلَقَ القلب للإنسان يَعلَمُ به الأشياء، كما خلَقَ له العَيْنَ يرى بها الأشياء، والأذن يَسْمَعُ بها الأشياء... وكذلك: سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة:

فإذا استعمَلَ الإنسان العُضْو فيما خُلِقَ له، وأُعِدَّ لأجله، فذلك هو الحق القائم، والعدل الذي قامت به السمٰوات والأرض، وكان ذلك خيرًا وصلاحًا لذلك العُضْو، و[إرضاءً] لربِّه، و[صلاحًا][3] للشيء الذي استُعمِلَ فيه؛ وذلك الإنسانُ الصالحُ هو الذي استقام حالُه، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٥].

وإذا لم يُستَعْمَلِ العضو في حقِّه، بل تُرِكَ بَطَّالًا، فذلك خُسْران، وصاحبُهُ مغبون.

وإن استُعمِلَ في خلافِ ما خُلِقَ له، فهو الضلال والهَلَاك، وصاحبُهُ من الذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا.

ثم إن سيِّد الأعضاء ورأسَها، هو: القلب...

وإذ قد خُلِقَ القلبُ لِأَنْ يُعلَمَ به، فتوجُّهُهُ نحو الأشياء ابتغاءَ العِلْم بها هو الفِكْرُ والنَّظَر؛ كما أن إقبال الأُذُن على الكلام ابتغاء سَمْعِهِ هو الإصغاء والاستماع، وانصرافَ الطَّرْفِ إلى الأشياء طلبًا لرؤيتها هو النظر؛ فالفكر للقلب كالإصغاء للأُذُن، ومثلُهُ نَظَرُ العينَيْنِ، فيما سبق...

(١) «العبوديَّة» (ص٨٢ ـ ٨٣)؛ وهو في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩٣ ـ ١٩٤).
(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٦٤).
(٣) ما بين المعقوفَيْنِ زيادةٌ مِن جامع «مجموع الفتاوى»؛ قال: «أُضِيفَتا حسَبَ مفهومِ السياق».

فصلاحُ القلبِ وحقُّه والذي خُلِقَ من أجله، هو أن يَعْقِلَ الأشياء، لا أقول: أن يَعلَمَها فقطْ؛ فقد يعلم الشيء مَن لا يكون عاقلًا له، بل غافلًا عنه، مُلغِيًا له، والذي يَعقِلُ الشيء هو الذي يقيِّدُهُ ويَضبِطُهُ ويَعِيه، ويثبِّته في قلبه؛ فيكون وقتَ الحاجة إليه غَنِيًّا، فيُطابِقُ عملُهُ قولَه، وباطنُهُ ظاهِرَه؛ وذلك هو الذي أُوتِيَ الحكمةَ؛ ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]»[(١)].

٣ ـ الأعمال الصالحة، الظاهِرة والباطِنة؛ مِن الواجِبات والمستحَبَّات:

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «وقد جعَلَ الله سبحانه للحسَنات والطاعات آثارًا محبوبة لذيذة طيِّبة، لَذَّتُها فوق لَذَّة المعصية بأضعافٍ مضاعَفةٍ لا نسبة لها إليها... قال ابن عبَّاس: إن للحَسَنةِ نُورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوةً في البدن، وزيادةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسَّيِّئةِ سوادًا في الوجه، وظُلْمةً في القلب، ووَهْنًا في البدن، ونَقْصًا في الرزق، وبِغْضةً في قلوب الخلق»[(٢)].

٤ ـ ذِكْر الله ﷻ وقراءة القرآن:

والحديث عن هذا يطول، ولكن يكفي مِن القِلَادة ما أحاط بالعُنُق، **وقد قال سليمان الخَوَّاص** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذِّكْر للقلب، بمنزِلة الغذاء للجسد؛ فكما لا يجد الجسد لَذَّة الطعام مع السَّقَم، فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذِّكْر مع حُبِّ الدنيا»[(٣)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دواءُ القلبِ خمسةُ أشياء: قراءةُ القرآنِ بالتدبُّر، وخَلَاءُ البطن، وقيامُ الليل، والتضرُّعُ عند السَّحَر، ومجالَسةُ الصالحين»[(٤)].

وقد أحسَنَ مَن جمَعَها؛ فقال[(٥)]:

دَوَاءُ قَلْبِكَ خَمْسٌ عِنْدَ قَسْوَتِهِ ... فَادْأَبْ عَلَيْهَا تَفُزْ بِالخَيْرِ وَالظَّفَرِ
خَلَاءُ بَطْنٍ وَقُرْآنٌ تَدَبَّرُهُ ... كَذَا تَضَرُّعُ بَاكٍ سَاعَةَ السَّحَرِ
ثُمَّ التَّهَجُّدُ جُنْحَ اللَّيْلِ أَوْسَطَهُ ... وَأَنْ تُجَالِسَ أَهْلَ الخَيْرِ وَالخَبَرِ

٥ ـ مجالَسَةُ الصالحين الذين يذكُرُونَ الله ﷻ، ويذكِّرُونَ بالله بالنظَرِ إلى وجوهِهم:

فمِن الناس: مَن إذا نظَرْتَ إلى وجهِهِ، انشرَحَ صدرُك، وذهَبَتْ عنك الأوهام والهموم والمخاوف.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٢٤).
(٣) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣١٢).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٢٧).
(٥) **القائل**: شهاب الدين بن رَسْلان. انظر: «الضوء اللامع، لأهل القرن التاسع» (١/ ٢٨٦).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنا إذا اشتَدَّ بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه ـ يعني: شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ فما هو إلا أنْ نراه، ونَسمَعَ كلامَهُ، فيَذهَبَ ذلك كله، ويَنقلِب انشراحًا وقوَّةً ويقينًا وطمأنينةً»(١)؛ وذلك لِمَا يرون في وجهه من الضياء والإنارة، والأمارات الدالَّة على انشراح الصدر، وثبات القلب، والخَوْفِ مِن الله ورجائه؛ فإن الوجه مِرْآةٌ للقلب؛ وقد رُوِيَ عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنه قال: «ما أَسَرَّ عَبْدٌ بسَرِيرَةٍ إلا ردَّاه الله رِدَاءَ مِثْلَها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ»(٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: دخَلْتُ على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكنتُ رأيتُ في الطريقِ امرأةً تأمَّلتُ مَحَاسِنَها، فقال عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يدخُلُ عليَّ أحدُكم، وآثار الزنا ظاهرة على عينه!»، فقلت: أَوَحْيٌ بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: «لا؛ ولكنْ تَبْصِرةٌ وبُرْهان، وفِرَاسةٌ صادقة»(٣).

ومِن الناس: مَن إذا رأيتَهُ، أحببتَهُ قبل أن يتكلَّم.

ومِن الناس: مَن إذا رأيتَهُ، وجدتَّ انقباضًا قبل أن يتكلَّم.

وما ذلك إلا أن هذه الأوجُهَ والأعيُنَ صفحاتٌ يُنقَش فيها ما تُكِنُّه القلوب.

يقول جعفر بن سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنتُ إذا رأيتُ مِن قلبي قسوةً، نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع، وكان وجهُهُ كأنه وجهُ ثَكْلَى»(٤)؛ وذلك من آثار خوفه من الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فآثار الإشفاق بادية عليه؛ فإذا نظروا إلى وجهه، رَقَّت قلوبهم قبل أن يتكلم.

---

(١) «الوابل الصيب» (ص١١٠).

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٠)؛ واللفظ له، وابن المبارك (٢/ ١٧)؛ كلاهما في «الزهد»، وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٥٨)، وعبد الله بن أحمد في «فضائل عثمان» (٦٦)، وابن جرير في «تفسيره» (١٥/ ٦٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢١٥)، والبيهقي في «الشُّعَب» (٦٥٤٢)، وقال البيهقي: «هذا هو الصحيح عن عثمان، وقد رفَعَهُ بعض الضعفاء»، وقال البُوصِيرِيُّ في «إتحاف الخِيَرة» (٧/ ٣٨٥): «رواته ثقات».

ورُوِيَ عن جندب مرفوعًا بلفظ: «ما أَسَرَّ عبدٌ سَرِيرةً إلا أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَها؛ إنْ خيرًا فخَيْرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ»؛ أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٩٠٦)، و«الكبير» (١٧٠٢)، وقال الألباني في «الضعيفة» (٢٣٧): «ضعيف جدًّا».

وأخرجه أبو نُعَيْم في «الحلية» (٥/ ٣٦ ـ ٣٧)، عن ابن مسعود مرفوعًا، بلفظ: «أَسِرُّوا مَا شِئْتُمْ، فوالله، ما أَسَرَّ عبدٌ ولا أَمَةٌ سَرِيرةً إلا أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَها؛ خيرًا فخيرٌ، وشرًّا فشرٌّ، حتى لو أنَّ أحدَكُمْ عَمِلَ خيرًا مِن وراءِ سَبْعِينَ حجابًا، لأَظْهَرَ اللهُ ذلك الخيرَ حتى يكونَ ثناؤُهُ في الناسِ خيرًا، ولو أنَّ أحدَكم أَسَرَّ شرًّا مِن وراءِ سَبْعِينَ حجابًا، لأَظْهَرَ اللهُ ذلك الشرَّ حتى يكونَ ثناؤُهُ في الناسِ شرًّا».

(٣) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٩٠). وانظر: «الطرق الحكميَّة» (١/ ٧٩)، و«الروح» (٢/ ٧١٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٧)، (٦/ ٢٨٨).

ومِن الناس: مَن إذا نظرتَ إلى وجهه، أظلَمَ قلبُك، وكَرِهَتْ رؤيتَهُ عينُك؛ لما في قلبه من الظُّلْمة؛ فإنَّ النظر إلى هؤلاء وأمثالهم يؤثِّرُ في القلب، وقد يُعَدُّ مِن العقوبات؛ كما في حديث جُرَيْج الراهِبِ حين دَعَتْ عليه أُمُّهُ، وقالت: «**اللَّهُمَّ، لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ؛ فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ، قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ! فَأَتَوْهُ، فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ...**»؛ الحديث[(١)].

وإذا كان هذا في النظر إلى مُومِسٍ، فكيف بالذي يقلِّب بصَرَهُ صباحَ مساءَ، وقد شخَصَ بصرُهُ أمام القنوات الفضائيَّة وغيرها يرى وجوه المُومِسَات؟! كم نَجنِي على قلوبنا، فنُفسِدُها بأيدينا؟! كم يَجنِي الإنسان على نفسه؛ حينما يقلِّبُ طَرْفَهُ ويسخِّرُ نظرَهُ في المواقع الإباحيَّة في الشبكة العنكبوتية وغيرها؟! كم تؤثِّرُ فيه هذه النظرات؟! فالنظر في وجوه الصالحين يؤثِّرُ في القلب نفعًا وصلاحًا، والنظر في وجوه الفاسِدِينَ قد يكون عقوبة.

وقد قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «إذا نَظَرْتُ إلى فُضَيْل بن عِيَاض، جدَّد لي الحزنَ، ومَقَتُّ نَفْسِي»، ثم بكى[(٢)]؛ أي: طَرَدَ عنه الفكاهة والغفلة، فجدَّد في قلبه الحزن والإشفاق مِن الآخرة؛ فكَرِهَ نفسه.

وهذه المسائلُ قَلَّ مَن يتكلَّم فيها؛ مع أننا في أَمَسِّ الحاجة إليها؛ فقلَّ مَن يَسعَى إلى مجالس الصالحين الذين يَنتَقُونَ أطايِبَ الكلام، ويجدِّدُونَ الإيمان في قلوب الناس، وقَلَّ مَن يزورُ القبورَ؛ معتبِرًا بها، متذكِّرًا الآخرة.

قال إبراهيم الخوَّاص رَحِمَهُ اللهُ: «دواءُ القلبِ خمسةُ أشياء: قراءةُ القرآنِ بالتدبُّر، وخَلَاءُ البطن، وقيامُ الليل، والتضرُّعُ عند السَّحَرِ، ومجالَسةُ الصالحين»[(٣)].

٦ ـ الإكثار من رُؤْية المحتضَرِين، وزيارةِ القبور، وذِكْرِ الموت:

فإنها اللَّحَظات التي يخرُجُ الإنسان فيها من الدنيا، ويُفارِق سائر الشهوات واللذات، ويُفارِق الأهل والمال الذي أتعَبَ نفسَهُ في جمعه؛ إنها لحظات يَنكسِرُ فيها

(١) أخرجه البخاري (١٢٠٦)، ومسلم (٢٥٥٠)؛ واللفظ له.
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٣٨٩). وانظر: «تهذيب التهذيب» (٨/ ٢٦٥).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٢٧).

الجبَّارون، ويَخضَع فيها المتكبِّرون، ولا يحصُلُ فيها للعبد تعلُّق بالدنيا، أو انشغالٌ بحُطَامها؛ ولهذا يكثُرُ من الناس التصدُّق في تلك الأحوال، وربما كتَبَ الواحد منهم في حال صِحَّته وعافيته وصيَّةً يوصي فيها بالتصدُّق مِن ماله؛ إذا مات وانقطَعَتْ علائقه من الدنيا.

فذِكْرُ الموت يُحيِي القلب، ويُلِين ما فيه من القَسْوة؛ فاجعَلْ لنفسك وقتًا تتفكَّر فيه في هذا المعنى، وتَزُور فيه المقابر؛ **فقد كان سعيد بن جُبَيْر** رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «لو فارَقَ ذِكْرُ الموت قلبي، خَشِيتُ أن يَفْسُدَ عليَّ»[(١)]؛ فالموت ملازِمٌ لقلبه، يذكُرُهُ في كل أحواله.

وكان صَفْوان بن سُلَيْم يأتي البَقِيع، فيَمُرُّ بمحمد بن صالح التمَّار، وقد تَبِعَهُ ذات يوم، فقال محمد: والله، لَأَنْظُرَنَّ ما يَصْنَع، فجاء صفوان على قَبْرٍ من القبور في البَقِيع، فلم يزل يبكي حتى رَحِمْتُهُ من كثرة البكاء، وظننت أنه قبر بعض أهله، ومَرَّ مَرَّةً أُخرى، فتَبِعْتُه، ففعل مثل ذلك، فذكَرْتُ ذلك لمحمد بن المنكَدِر، فقال: «كلهم أهله وإخوته؛ إنما هو رجل يحرِّك قلبَهُ بذِكْرِ الأموات كلَّما عرَضَتْ له قَسْوة»[(٢)].

٧ ـ المجاهَدةُ بفعلِ مُصلِحاتِ القَلْب، وتركِ مفسِداتِه:

يحتاجُ الإنسانُ إلى مجاهَدةٍ دائمةٍ ومستمرَّة، وإلى مكابَدة؛ **يقول ابن المُنْكَدِر** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كابَدتُّ نفسي أربعين سنةً، حتى استقامت»[(٣)]، **وكان يقول**: «إني لأدخُلُ في الليل، فيَهُولُني، فأُصبِحُ حين أَصبِحُ، وما قَضَيْتُ منه أَرَبي»[(٤)]؛ أي: إذا أقبَلَ الليل، ودخَلْتُ فيه، وبادرتُ إلى الصلاة، وخلوتُ بربي؛ فإذا بالليل قد انقضى، وتصرَّمت ساعاته، ولم أشعُرْ بذلك، ولم يحصُلْ ما كنت أؤمِّلُهُ مِن طول المناجَاة، فهي قصيرة في نَظَره؛ لشدَّة شَغَفِه وتعلُّقِهِ بذلك!

فيا للهِ! كيف نَصِلُ إلى هذه المرحلة، ونحن إذا صلَّى الإمام، فأطال قليلًا، تَمَلْمَلْنا وضَجِرْنا؟! فترى بعضَنا يتنحنح، وبعضَنا يحرِّك أصابعه ويُفرقِعُها، وربما عاتَبْنا الإمامَ

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧١)، وأبو نُعَيْم في «الحلية» (٤/ ٢٧٩). وروى نحوه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٦)؛ من كلام الربيع بن خُثَيْم، ورُوِيَ نحوه أيضًا عن الربيع بن أبي راشد، وعمر بن عبد العزيز. انظر: «حلية الأولياء» (٥/ ٧٥)، و«الزهد» للبيهقي (٢٤٧)، و«العاقبة في ذكر الموت» (ص٣٩).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ١٣٢). وانظر: «السير» للذهبي (٥/ ٣٦٧)، و«أهوال القبور» لابن رجب (ص٢٥٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٤٧). وانظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٢٧).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٤٨).

بعد الصلاة! وترى الواحد منا وهو يصلِّي كأنه طائر في قَفَص يبحث عن حِيلَةٍ يتخلَّص بها، ولو كانت قلوبُنا عامرةً بمحبَّة الله والإقبال عليه، لَمَا شَبِعْنا من صلاتِنا وعبادتِنا؟!

بل ومِن الناس مَن يَعجَبُ مِن الرجلِ يبكي في القراءة في الصلاة السريَّة! وأيُّ عَجَبٍ في هذا وهو يُناجِي ربَّه؟! وأي مقام هو أعظَمُ مِن مقام العبد بين يَدَيْ ربه وخالقه يُناجِيهِ ويَنطَرِحُ بين يديه في أذلِّ الصُّوَرِ التي يعبِّدُ بها العبد نفسه، ويذلِّلُ جبهته في السجود لمولاه؟! وهل هناك تذلُّلٌ أعظم مِن مناجاةِ الله ﷻ والخضوع بين يدَيْهِ والجبهةُ على الأرض؟! ليس هناك صورةٌ في الذلِّ أعظم من هذه، لكنَّنا أَلِفْناها، فما عادت تؤثِّر في قلوبنا! فما أحوَجَنا إلى كثير من المجاهَدةِ لإصلاحِ هذه القلوب!

يقول أبو حفص النيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَرَسْتُ قلبي عشرين سنة، ثم حَرَسَني قلبي عشرين سنة، ثم ورَدَتْ حالةٌ صِرْنا فيها محروسَيْنِ جميعًا»[(١)].

ومعنى هذا الكلام: أنه كان في مكابَدةٍ عشرينَ سنةً حتى استقام قلبُهُ، فحرَسَهُ عشرين سنة، ثم مَرَّتْ عليه أحوال، صار قلبُهُ فيها محروسًا، وصارت جوارحُهُ محروسةً؛ حينما تَرَوَّضَتْ على طاعة الله ﷻ؛ فأصبَحَت عينه لا تنظُر إلا إلى ما يُرضِي الله، وصار قلبُه يَنْفِرُ من السماع المحرَّم الذي يَعشَقُهُ كثير من الناس، وتميل إليه قلوبهم، وصارت أُذُنُه تَمُجُّه؛ فلا يجد له لذَّةً ولا حلاوة، كما يجدها أولئك الذين مَرِضَتْ قلوبهم.

ولهذا إذا أردتَّ أن تُرَبِّيَ نفسك، فعليك أن تَحرُسَ قلبك في الحالْ؛ فإنه يحرُسُك في المآلْ، ثم تكون بعد ذلك محروسًا معه؛ فلا بد أن نُرَبِّيَ القلوب على الإخبات والخوف والخشية، والمجاهَدة والمحبَّة، والصبر واليقين، وغير ذلك مِن المعاني، غيرَ مكتفِينَ بمعرفةِ بعض الآداب والأحوال الظاهرة، وإنْ كانت مطلوبةً.

فحيث استقام قلبُ العبدِ، استقامَتْ أقوالُه وأعمالُه وجوارحُه، فإذا جاءه الشيطان بخاطرةٍ مِن الخواطر قبل أن يستقيم قلبُهُ، ويثبُتَ على الطاعة، فإن القلب يحتاج إلى مدافَعةٍ عظيمة، فإذا صار في القلب قوَّة وصلابة في الإيمان، واستقام لصاحبه، فروَّضه على طاعة الله ﷻ والإقبال عليه، فإنه يحرُسُ صاحبه، فإذا رأى شيئًا تلتفِتُ إليه كثير من النفوس الضعيفة، ويتطلَّعُ إليه أصحاب القلوب المريضة، فيَطمَعُ الذي في قلبِهِ مرض ـ: انصرَفَ قلبه عن هذه الأمور المَشِينة، ولم يلتفت إليها، مستحضِرًا عَظَمةَ الله وجلاله، وجميلَ فضلِه وثوابِه، عالمًا بمراقَبةِ الله ﷻ له؛ فلا تتحرَّكُ نفسه للمعصية، أو الوقوع في الرِّيبَة.

---

(١) «صفة الصفوة» (٤/ ١٢٠).

أمَّا إذا خَلَتِ القلوب مِن ذلك مع صلاح الظاهر، فإنَّ أمراض القلوب وعِلَلَها تَظهَرُ في مناسباتٍ كثيرة:

تَظهَرُ في حال المنافَسات؛ فيتصارَعُ الأقران، ويحصُلُ التباغُضُ والتشاحن، وتحصُلُ العداوة والشقاق؛ كما تظهر في المواطن التي تتطلَّع النفس فيها إلى الظهورِ والعُلُوِّ في الأرض.

وهذه النَّفْسُ توَّاقةٌ إلى ذلك؛ فتحتاج إلى مجاهَدة، وأن يأخُذَ العبدُ بزِمَامِها، فلا تَنفَلِتَ عليه؛ وإلا فإنه إذا سرَّحها، سرَحَتْ به في أودية الهَلَكة؛ طلبًا للرياسةِ والشُّهْرة، وتحصيلِ شهوات معنوية؛ كطلب الظهور في الأرض، والعلوِّ على الخلقِ؛ لينال شرفًا في أعينهم، ويحصِّلَ قَدْرًا في نفوسهم.

فهذه الأمور قد لا يستطيع الإنسان أن يتخلَّص منها؛ إذا لم يكنْ له التفاتٌ كبيرٌ إلى قلبه، ومجاهَدةٌ عظيمة لتلك الوارداتِ التي تَرِدُ عليه؛ فأنت تَجِدُ الشخصَ يتربَّى سنواتٍ طويلةً على كثير من الآداب، ثم بعد ذلك ترى منه أشياءَ عجيبةً يَخْجَلُ العاقل من ذِكْرِها، وربما ذهَبَتْ بعمله الصالح الذي عَمِلَهُ؛ مِن دعوة، أو صلاة، أو صيام، أو غير ذلك.



مُفسِداتُ القلب

وهي أيضًا كثيرة، وهي خلافُ ما يَتِمُّ به صلاح القلب، ومَن تأمَّل عوامل صلاحه، تعرَّف على عوامل فساده؛ وإذا فسد القلب، قسا ومرض، أو مات وهلك، وسيأتي ـ بإذن الله ـ الحديثُ عما يَتبَعُ فساد القلب، **ومِن أعظم ما يُفسِدُ القلب:**

١ ـ ألَّا يخلُصَ القلب لله؛ بحيث يتعلَّق القلبُ بغير الله ﷻ:

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «كلُّ مَن علَّق قلبَهُ بالمخلوقات أن ينصُرُوهُ أو يرزقوه أو أن يَهْدُوه، خضَعَ قلبه لهم، وصار فيه من العبوديَّة لهم بقَدْرِ ذلك، وإنْ كان في الظاهر أميرًا لهم، مدبِّرًا لهم، متصرِّفًا بهم؛ فالعاقل ينظُرُ إلى الحقائق، لا إلى الظواهر.

فالرجل إذا تعلَّق قلبه بامرأة ـ ولو كانت مباحةً له ـ يبقى قلبه أسيرًا لها؛ تحكُمُ فيه وتتصرَّف بما تريد، وهو في الظاهر سيِّدها؛ لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرُها ومملوكها، لا سيما إذا دَرَتْ بفقرِهِ إليها وعِشْقِهِ لها، وأنه لا يَعْتاضُ عنها بغيرها؛ فإنها حينئذ تحكُمُ فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاصَ منه؛ فإنَّ أَسْرَ القلب أعظم مِن أَسْرِ البدن، واستعبادَ القلبِ أعظَمُ مِن استعبادِ البدن؛ فإنَّ مَن استُعبِدَ بدنُه واستُرِقَّ، لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا مِن ذلك مطمئنًّا . . .

وأما إذا كان القلب ـ الذي هو المَلِك ـ رقيقًا مستعبَدًا متيَّمًا لغير الله، فهذا هو الذلُّ، والأَسْرُ المَحْض، والعبوديَّةُ لِمَا استعبَدَ القلب، وعبوديَّةُ القلبِ وأَسْرُهُ هي التي يترتَّب عليها الثواب والعقاب؛ فإن المسلم لو أَسَرَهُ كافر، أو استرَقَّهُ فاجِر بغير حقٍّ، لم يَضُرَّهُ ذلك؛ إذا كان قائمًا بما يَقدِرُ عليه مِن الواجبات . . .

وأما مَن استُعبِدَ قلبه، فصار عبدًا لغير الله، فهذا يضُرُّهُ ذلك ولو كان في الظاهر مَلِكَ الناس؛ فالحرِّيَّة حرية القلب، والعبوديَّة عبوديَّة القلب؛ كما أن الغنى غنى النفس»[(١)].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

وإنَّ أعظَمَ تلك التعلُّقات إفسادًا للقلب: الشِّرْكُ بالله ﷻ، وتوجُّهُ القلب بعبوديَّته إلى غير فاطِرِهِ وخالِقِهِ الذي يَملِك النفع والضُّرّ، وله كل شيء.

وقد ضرَبَ الله تعالى مثَلَ هؤلاء بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤١ ـ ٤٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

٢ ـ الفضول مِن كلِّ شيء:

الفضولُ مِن الأكل والشرب، والنوم والكلام، والمخالَطة والمجالَسة، والضحك؛ فكلُّ شيء إذا زاد مِن هذه الأشياء، فإنه يؤثِّرُ على قلب صاحبه بالفساد:

فالذي يأكل كثيرًا يَقْسُو قلبه، والذي ينام كثيرًا يتبلَّد قلبه، وتحصُلُ له الغفلة، والذي يَضحَكُ كثيرًا يموت قلبه، والذي ينظُرُ كثيرًا فيما يَحِلُّ وما لا يَحِلّ، لا تَسأَلْ عن شرودِ قلبِهِ ومعاناته، وهكذا في كثرة المخالَطة؛ لأنَّ المخالَطة ـ كما ذكر ابن القيم[(١)] ـ لِقَاح، وإنما يُحتَاجُ إليها لشَحْذِ النَّفْس، وتجديد العزيمة، ودَفْع السآمة، والتقاط أطايب الكلام، وأمَّا الإكثار من ذلك، فإنه يضُرُّ ولا ينفع.

فكل شيء من هذه الأشياء إذا أكثَرْتَ منه ضرَّك، إلا العبادة؛ فكلما أكثَرْتَ منها، زاد ذلك في صلاح قلبك.

يقول الفضيل بن عِيَاض رحمه الله: «خَصْلتانِ تقسِّيانِ القلب: كَثْرةُ الكلام، وكَثْرةُ الأكل»[(٢)].

ويقول أبو سليمان الداراني: «لِكُلِّ شيء صَدَأ، وصَدَأُ القلب الشِّبَع»[(٣)].

وقال مكحول: «أفضَل العبادة بعد الفرائض: الجُوعُ والظَّمَأ»، **قال بكر**: «وكان

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٨٢٠ ـ ٨٢٣).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤١٥)، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣١٥)، و«الزهد» (٤١٢)؛ وفيها: «كَثْرَة النَّوْم»، بدل: «كَثْرَة الكلام»، وأخرجه أبو نُعَيْم في «الحلية» (٨/ ٣٥٠)، عن بِشْر الحافي.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٨٣).

يقال: الجائِعُ الظمآن أفهَمُ للموعظة، وقلبُهُ إلى الرِّقَّة أسرع، وكان يقال: كَثْرةُ الطعام تَدْفَعُ كثيرًا من الخير»[(١)].

وكان **عمرو بن الأسود** يَدَع كثيرًا من الشِّبَع؛ مخافةَ الأَشَر[(٢)].

وقال الشافعي: «الشِّبَع يُثْقِل البدن، ويقسِّي القلب، ويُزِيل الفِطْنة، ويَجلِب النوم، ويُضْعِف صاحبه عن العبادة»[(٣)].

فإذا كان الإنسان يَشْبَع في أول النهار، ويَشْبَع في وسطه وفي آخره، فإن هذا الأكل الكثير لا يورِّثُ إلا بلادةً وتُخَمةً وكسلًا عن عبادة الله ﷻ، وقسوةً في القلوب؛ فيُقْرَأُ القرآن من أوله إلى آخره في صلاة التراويح، وقد لا تَجِدُ قلبَكَ خاشعًا! وإنما يرجع ذلك إلى هذه التُّخَمة؛ فينبغي أن نتفطَّنَ لهذا.

وقد كان السلف ﵃ يجوع الواحد منهم الأيَّام الطويلة وما ضَرَّهُمْ ذلك، والنبي ﷺ كان يَمُرُّ الهِلَالُ والهلالانِ والثلاثة وما يُوقَدُ في بيته نارٌ[(٤)]، ولربما خرَجَ عليه الصلاة والسلام مِن بيتِهِ، وما أخرَجَهُ إلا الجُوع[(٥)]، ولربما عصَبَ بطنه بعِصَابةٍ مِن شِدَّةِ الجُوع[(٦)]، وهكذا كان أصحابه الذين فتَحُوا الدنيا ومَلَؤُوها عِلْمًا وحِكْمَة ونُورًا وهدايةً، وبَلَّغوا دين الله للعالمين.

قال البَدْر بن جَمَاعة ﵀: «ولم يُرَ أحد مِن الأولياء والأئمَّة العلماء يَصِفُ أو يُوصَفُ بكَثْرة الأكل ولا حُمِدَ به، وإنما يُحمَدُ كثرةُ الأكل مِن الدوابِّ التي لا تَعْقل... والذِّهْنُ الصحيح أشرف من تبديدِهِ وتعطيلِهِ بالقَدْرِ الحقيرِ من طعام يَؤُولُ أمرُه إلى ما قد عُلِم، ولو لم يكنْ مِن آفات كثرة الطعام والشراب إلا الحاجةُ إلى كثرةِ دخول الخَلَاء، لكان ينبغي للعاقل اللبيب أن يَصُونَ نَفْسَهُ عنه.

ومن رام الفلاحَ في العلمِ وتحصيلَ البُغْيةِ منه، مع كثرة الأكل والشرب والنوم، فقد رام مستحيلًا في العادة»[(٧)].



(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨١). (٢) المصدر السابق (٥/ ١٥٦).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٢٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥١/ ٣٩٤).
(٤) أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢)؛ من حديث عائشة ﵂.
(٥) أخرجه مسلم (٢٠٣٨)؛ من حديث أبي هريرة ﵁.
(٦) أخرجه البخاري (٤١٠١)؛ من حديث جابر ﵁، ومسلم (٢٠٤٠)؛ من حديث أنس ﵁.
(٧) «تذكرة السامع والمتكلِّم، في أدب العالم والمتعلِّم» (ص٧٤).

كثرة مُفسِدات القَلْب

والحاصِلُ: أنَّ الأمورَ التي تُفْسِدُ القلب كثيرةٌ جدًّا؛ لكنْ نقول على سبيل الإجمال: إنَّ كل المعاصي تُفْسِد القلب، وكل ما حرَّم الله ﷻ إذا تعاطاه العبد، مِن نَظَر، أو سَمَاع، أو أكل، أو غير ذلك، فإنه يفسُدُ به قلبه.

قال محمد بن واسع رَحِمَهُ اللهُ: «أربعٌ يُمِتْنَ القلب: الذنب على الذنب، وكَثْرة مُشَافَنة النساء وحديثِهِنّ، ومُلاحَاة الأحمق ـ تقول له، ويقول لك ـ ومجالَسةُ الموتى، قيل: وما مجالَسةُ الموتى؟ قال: مجالَسةُ كلِّ غَنيٍّ مُتْرَفٍ، وسلطانٍ جائر»[(١)].

وقال مكحول رَحِمَهُ اللهُ: «أرَقُّ الناس قلوبًا، أقلُّهم ذنوبًا»[(٢)].

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ[(٣)]:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «القلب بمنزِلة الكَفّ؛ فإذا أذنَبَ الرجل ذنبًا، انقبَضَ إصبَعٌ، حتى تَنقبِضَ أصابعه كلها إِصبَعًا إِصْبَعًا، قال: ثم يُطبَعُ عليه، فكانوا يرون أنَّ ذلك الرَّان؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤]»[(٤)].

وقال محمد بن علي التِّرْمِذي: «إذا شُغِلَ القلب عن ذِكْر الله بذِكْر الشهوات، كان بمنزلة شجرة؛ إنما رطوبتها ولِينها من الماء، فإذا مُنِعَتِ الماء، يَبِسَتْ عروقُها، وذَبُلَتْ أغصانُها، وإذا مُنِعَتِ السَّقْيَ، وأصابها حَرُّ القَيْظ، يَبِسَتِ الأغصان، فإذا مَددتَّ غصنًا منها، انكسر، فلا يصلُحُ إلا للقطع، فيصير وَقُودَ النار، فكذلك القلبُ إذا يَبِسَ وخَلَا من ذكر الله، فأصابته حرارة النَّفْس، ونار الشَّهْوة، وامتنَعَتِ الأركان من الطاعة[(٥)]،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٥١).
(٢) المصدر السابق (٥/ ١٨٠).
(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٧٧)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٧٩).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٢).
(٥) كذا في «الحلية»، والصواب: «أصابته حرارةُ النَّفْس»؛ بحذف الفاء، أو: «امتنَعَتِ الأركان مِن الطاعة»؛ بحذف الواو.

فإذا مَدَدتَّها، انكسَرَتْ، فلا تصلُحُ إلا أن تكون حَطَبًا للنار»[١].

وهكذا اللَّغْوُ في المَجالِس، والإغراق في الدنيا، والإكثار مِن ارتياد أماكن اللهو؛ كأنْ يكون الإنسان مِن أوَّل نهاره إلى آخره في الأسواق؛ فإنَّ ذلك يؤثِّرُ على قلبه، فيحتاجُ إلى صَقْلِه، وكيف يصقُلُ قلبه، وهو بمجرَّدِ أن يصلِّيَ ينصرِفُ مباشَرةً بعد السلام، ولا يُمكِنُ أن يتمهَّلَ ليسمع كلمةً تنفعُهُ أو موعظةً تُرشِدُه؟! متى يَنصلِحُ قلب هذا الإنسان؟! أينصَلِحُ في السوق، أو في المَتجَرِ، أو عند مشاهَدة القنوات؟!

وقد قال إبراهيم بن أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ: «كَثْرةُ النَّظَر إلى الباطل تَذْهَب بمعرِفة الحقِّ مِن القلب»[٢].



(١) المصدر السابق (١٠/ ٢٣٤).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٢٢).

نتائج فَسَادِ القلب

قَسْوة القلب ومَرَضُه:

قال مالك بن دِينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ لله تعالى عقوباتٍ؛ فتعاهَدُوهُنَّ مِن أنفُسِكم في القلب والأبدان: ضَنْكًا في المَعِيشة، ووَهْنًا في العبادة، وسَخْطَةً في الرزق»[(١)].

علامات قَسْوة القلبِ ومَرَضِه:

قال الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ كل عُضو من أعضاء البدن خُلِق لفِعْل خاصٍّ به، وإنما مَرَضُه أن يَتَعَذَّر عليه فِعْله الذي خُلِق له، حتى لا يَصدُر منه أصلًا، أو يَصدُر منه مع نَوْع من الاضطراب، فمرض اليد أن يَتَعَذَّر عليها البَطْش، ومَرَض العين أن يَتَعَذَّر عليها الإبصار، وكذلك مَرَض القلب أن يَتَعَذَّر عليه فِعْله الخاصّ به الذي خُلِق لأجله؛ وهو العِلْم والحكمة والمعرفة، وحُبّ الله تعالى وعبادته، والتَّلَذّذ بذِكْره، وإيثاره ذلك على كل شَهْوة سواه...

فلو عَرَف كل شيء ولم يعْرِف الله عَزَّ وَجَلَّ فكأنه لم يَعْرِف شيئًا، وعلامة المعرفة المحبة، فمن عَرَف الله تعالى أحبه، وعلامة المحبة أن لا يُؤْثِر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات... فمن عنده شيء أَحَبّ إليه من الله فقلبه مريض...

ومرض القلب مما لا يَعْرفه صاحبه، فلذلك يَغْفل عنه، وإن عَرَفه صَعُب عليه الصبر على مَرَارة دوائه؛ فإن دواءه مُخَالفة الشهوات»[(٢)]؛ وهذا شديدٌ على أصحاب الأهواء.

أنواع القلوبِ مِن حيثُ الثباتُ والتردُّدُ في الخير والشر:

قال الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن القلوب في الثبات على الخير والشَّرِّ والتردُّد بينهما **ثلاثة:**

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٦٤)، وأورده في موضع آخر (٦/ ٢٨٧)، بلفظ: «إنَّ لله عقوباتٍ في القلوبِ والأبدانِ: ضَنْكٌ في المعيشة، ووَهْنٌ في العبادة، وما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أظلَمَ مِن قسوةِ القلب».

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٢).

القلب الأول: قَلْبٌ عُمِّرَ بالتقوى، وطُهِّرَ من خبائث الأخلاق، فتَنقدِح فيه خواطر الخير؛ فعند ذلك يمدّه الله بجنود لا تُرَى، ويهديه إلى خيرات أخرى.

القلب الثاني: القلب المخذول، المشحُون بالهوى، المُدَنَّس بالأخلاق المذمومة والخبائث، فيَقْوى سلطان الشيطان لاتِّساع مكانه بسبب انتشار الهوى، ويضعُف سلطان الإيمان، ويمتلئ القلب بدُخَان الهوى، حتى تَنْطَفِئ أنواره، فيصير كالعين التي ملأ الدُخَان أجفانها، لا يُمكِنها النَّظَر، ولا يؤثِّر فيه زَجْرٌ ولا وَعْظ.

القلب الثالث: قَلْب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشَرّ، فيَلْحَقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير.

ومثاله: أن يحمل الشيطان حَمْلةً على العقل، فيُقَوِّي داعي الهوى ويقول: ما هذا التَّحَرُّج البارد؟! ولِمَ تَمْتَنِع عن هواك فتُؤْذِي نفسك؟! وهل ترى أحدًا من أهل عَصْرك يُخالِف هواه أو يَتْرك غَرَضَه؟! أفتَتْرك لهم مَلاذ الدنيا يَتَمَتَّعون بها وتُحْجِر على نفسك؛ حتى تبقى محرومًا شَقِيًّا مَتْعُوبًا يضحك عليك أهلُ الزمان؟! أفتُريد أن يزيد مَنْصِبك على فلان وفلان وقد فَعَلُوا مثل ما اشتهيتَ ولم يمتنعوا؟ أما ترى العالِم الفلاني ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شَرًّا لامْتَنَع منه؟! فتَمِيل النَّفس إلى الشيطان، وتَنْقَلِب إليه، فيَحْمِل المَلَك حَمْلَةً على الشيطان، فعند ذلك تَمْتَثِل النفس إلى قول الملك، فلا يزال يَتَرَدَّد بين الجندين مُتَجَاذَبًا بين الحزبين إلى أن يَغْلِب على القلب ما هو أولى به»[(١)].

وقد قال بعضهم: «القلوبُ ثلاثة: قلبٌ مثلُ الجَبَل لا يُزِيلُهُ شيء، وقلبٌ مثل النخلة، أصلها ثابت والريح تُمِيلها، وقلبٌ كالريشة يَمِيل مع الريح يمينًا وشمالًا»[(٢)].

أنواع القلوب بالنَّظَر إلى ما يقوم بها مِن إيمان أو كُفْر أو نفاق:

عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن حُذَيْفة؛ قال: «القلوب أربعة: قَلْبٌ أَغلَف؛ فذلك قلب الكافر، وقلبٌ مُصْفَح؛ فذلك قلب المنافق، وقلبٌ أَجْرَد، فيه سِرَاجٌ يُزْهِر؛ فذاك قلب المؤمن، وقلبٌ فيه نفاق وإيمان؛ فمَثَلُ الإيمان كمَثَلِ شجرة يمُدُّها ماء طيب، ومَثَلُ النِّفَاقِ مَثَلُ القُرْحة يمُدُّها قَيْحٌ ودَم؛ فأيُّهُما غَلَب عليه غَلَب»[(٣)].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٤٦ ـ ٤٧) بتصرف واختصار. وللاستزادة: انظر ما ذكره الحافظ ابن القيِّم في: «إغاثة اللهفان» (١/ ٤١ ـ ١٩٥)، مما يتعلّق بأنواع القلوب وأمراضِها.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٢٤)؛ مِن قول السَّرِيّ.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٦).

أحوال القلب سِتَّة:

قال أبو بكر الورَّاق: «للقلب سِتَّةُ أشياء: حياةٌ وموت، وصِحَّة وسَقَم، ويَقَظة ونوم؛ فحياته: الهدى، وموته: الضلالة، وصِحَّتُهُ: الطهارة والصفاء، وعِلَّتُهُ: الكُدُورة والعَلَاقة، ويَقَظته: الذِّكْر، ونَوْمه: الغفلة؛ ولكل واحد من ذلك علامة؛ فعلامة الحياة: الرغبة والرهبة والعمل بها، والميت: بخلاف ذلك، وعلامة الصِّحَّة: اللذة، والسَّقَمُ: بخلاف ذلك، وعلامة اليقظة: السمع والبصر، والنائم: بخلاف ذلك»[(١)].

علاقة القلب بالجَسَد:

عن سَلْمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال**: «مثَلُ القلب والجَسَد مثَلُ أعمى ومُقعَد، قال المُقعَد: إني أرى ثمرة ولا أستطيع أن أقوم إليها فاحمِلْني، فحَمَلَه، فأكَلَ وأطعَمَه»[(٢)].

قوَّة المؤمِن في قلبه:

قال شُمَيْط: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ جعَلَ قوَّة المؤمن في قلبه، ولم يجعلها في أعضائه؛ أَلَا تَرَوْنَ أن الشيخ يكون ضعيفًا يصوم الهواجر، ويقوم الليل، والشابَّ يعجز عن ذلك؟!»[(٣)].



(١) المصدر السابق (١٠/ ٢٣٥، ٢٣٦).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٠٥).
(٣) المصدر السابق (٣/ ١٣٠).

المراد بأعمال القلوب

أعمال القلوب: هي تلك الأعمال التي يكون محلُّها القلب، وأعظَمُها الإيمان بالله ﷻ الذي يكون في القلب منه التصديقُ الانقياديُّ والإقرار؛ هذا بالإضافة إلى المحبَّة التي تقع في قلب العبد لربِّه ومعبوده، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكُّل، والصبر واليقين، والإخبات والإشفاق والخشوع، وما إلى ذلك.

فهذه هي الأعمال القلبيَّة المطلوبة مِن العبد لصلاح قلبه وسلامته؛ وبهذا نَعرِفُ الفرق بينها وبين أعمال الجوارح واللسان؛ فأعمال اللسان: أقواله، وأعمال الجوارح: أفعالها؛ كالركوع، والسجود، وغير ذلك مما يَفعَلُه الإنسان ببدنِه وجوارحه وأعضائه.



أحكام الأعمال القلبيَّة مِن حيثُ الثوابُ والعقاب

أعمال القلوب كأعمال الأبدان مِن هذه الجهة، مع أنَّ أعمال القلوب أشرَف ـ كما سيأتي ـ فالثواب والعقاب فيها آكَد؛ فالعبدُ آثِمٌ متعرِّضٌ للعقوبة إذا اغتاب أحدًا بلسانه؛ وكذلك: إذا نقص من إيمانه الواجب؛ فإنه يتعرَّض للعقوبة، وأما إذا توكَّل على غير الله، أو دعا غير الله، أو خاف غيرَهُ خوفًا لا يصلُحُ إلا لله ﷻ؛ فإنه سيواجِهُ أشد العقوبات إن لم يَتُبْ إلى الله ﷻ.

وهكذا ما يقع في القلب مِن الأعمال القلبيَّة الفاسِدة؛ كالعِشْق المحرَّم، والمحبَّة المحرَّمة، وما يقع في قلبه مِن الشِّرْكِ وسوء الظنِّ بالله ﷻ، أو بإخوانِهِ المؤمنين، وغير ذلك[١].



(١) انظر: «زاد المعاد» (٤/ ١٨٥، وما بعدها).

أهميَّة أعمال القلوب، والمفاضَلة بينها وبين أعمال الجوارح، وذِكْرُ تبعيَّة أعمال الجوارح لها، وارتباطِها بها(١)

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعمَل القلب هو رُوح العبودية ولُبُّها، فإذا خلا عمل الجوارح منه، كان كالجسد الموات بلا روح، والنيَّة: هي عمل القلب الذي هو مَلِكُ الأعضاء، والمقصودُ بالأمر والنهي؛ فكيف يسقُطُ واجبه، ويُعتَبَر واجب رعيته وجنده وأتباعه اللاتي إنما شُرِعَتْ واجباتها لأجله ولأجل صلاحه؟!... فإذا بعَثَ جنودَهُ ورعيَّته، وتغيَّب هو عن الخِدْمة والعبودية، فما أجدر تلك الخدمة بالرد والمقت...»(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومَن تأمَّل الشريعة في مصادرها ومواردها، عَلِمَ ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أَفْرَض على العبد من أعمال الجوارح؛ وهل يميِّز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميَّزت بينهما؟!... وهل يمكن أحدًا الدخولُ في الإسلام إلا بعمَل قلبه قبل جوارحه، وعبوديَّةُ القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم؛ فهي واجبة في كل وقت؛ ولهذا كان الإيمانَ واجبَ القلب على الدوام، والإسلامُ واجبَ الجوارح في بعض الأحيان؛ فمَركَب الإيمان القلب، ومَركَب الإسلام الجوارح... وحرف المسألة: أنَّ أعمال الجوارح إنما تكون عبادة بالنيَّة»(٣).

ويمكن تفصيل هذه الجُمْلة ـ في بيان فضل عبادات القلوب وأعمالها ـ **مِن وجوه متعدِّدة**:

الأوَّل: أن أعمال القلوب أساسُ النجاةِ مِن النار والفَوْزِ بالجنة:

كالتوحيد؛ فهو عبادة قلبيَّة مَحْضة، وعليه قيام الأمر كله، وسلامةُ الصدر للمسلمين عبادة قلبيَّة عظيمة الشأن، وفيها حديث أنس المشهور.

قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ، فقال: «**يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ**

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، (٢٦/ ٢٥)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٠١)، و«رسالة الإرجاء» للدكتور سَفَر الحوالي (٢/ ٥٤١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ١١٤٦ ـ ١١٤٧).

(٣) المصدر السابق (٣/ ١١٤٦ ـ ١١٤٧).

الجَنَّةِ»، فطلَعَ رجلٌ من الأنصار تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِن وَضُوئِه، قد تعلَّق نَعْلَيْهِ في يده الشمال، فلما كان الغد، قال النبي ﷺ مثلَ ذلك، فطلَعَ ذلك الرجُلُ مثلَ المرَّة الأولى، فلما كان اليومُ الثالث، قال النبي ﷺ مثلَ مقالتِهِ أيضًا، فطلَعَ ذلك الرجل على مثلِ حالِهِ الأولى، فلما قام النبي ﷺ، تَبِعَهُ عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إنِّي لَاحَيْتُ أبي، فأقسَمْتُ ألَّا أدخُلَ عليه ثلاثًا، فإنْ رأيتَ أن تُؤْوِيَنِي إليك حتى تَمضِيَ، فعَلْتَ، قال: نعم.

قال أنس: وكان عبد الله يحدِّث أنه بات معه تلك الليالِيَ الثلاثَ، فلم يره يقوم من الليل شيئًا؛ غيرَ أنه إذا تَعَارَّ وتقلَّب على فراشه، ذكَرَ الله ﷻ وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غيرَ أني لم أسمَعْهُ يقول إلا خيرًا، فلما مضت الثلاث ليال، وكِدتُّ أن أَحْقِرَ عمله، قلت: يا عبد الله، إني لم يكن بيني وبين أبي غضَبٌ ولا هَجْرٌ ثَمَّ، ولكنْ سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: «**يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، فطلَعْتَ أنت الثلاث مرار؛ فأَرَدتُّ أن آوي إليك لأنظُر ما عملك فأقتدي به، فلم أَرَكَ تَعمَلُ كثيرَ عمَل، فما الذي بلَغَ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيتَ، قال: فلما وَلَّيْتُ دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيتَ، غيرَ أني لا أَجِدُ في نفسي لأَحَدٍ مِن المسلِمِينَ غِشًّا، ولا أحسُدُ أحدًا على خيرٍ أعطاه اللهُ إياه، فقال عبد الله: «هذه التي بلَغَتْ بك، وهي التي لا نُطِيقُ!»[(١)].

لاحِظْ ـ يا عبد الله ـ إخلاصَ السلف؛ فلم يقل: إني صاحب أعمال كثيرة، ويصعُبُ أن أُحصِيَها لك الآن، ولا أريد أن أُظهِرَ عملي، وكأن عنده أعمالًا عظيمةً لم يعلمها، وتأمَّل قول عبد الله بن عمرو ﵄: «هذه التي بلَغَتْ بك!»؛ فإن قائلها عالم عابد، مِن أعبَدِ الناس، زوَّجه أبوه امرأةً مِن أشراف قريش، ثم جاءه بعد سبعة أيَّام، فسأل عنه زوجته، فقالت: «نِعْمَ الرَّجُلُ مِن رجل؛ لم يطَأْ لنا فراشًا، ولم يُفتِّشْ لنا كنفًا منذُ أتيناه»[(٢)].

ومع ذلك يقول لهذا الرجل: «هذه التي بلَغَتْ بك، وهي التي لا نُطِيق!»؛ فهذا يدلُّ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٦)، وصحَّحه الضياء، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٨٦٢)، والمنذري في «الترغيب» (٣/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩)، وأعله الدارقطني في «العلل» (١٢/ ٢٠٣)، والكناني؛ كما في «تحفة الأشراف» (١/ ١٩٥)، والعراقي؛ كما في «إتحاف السادة المتقين» (٨/ ٥١)، بخلاف تخريجه الذي بهامش «الإحياء»، وابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٧٠)، و«تاريخه» (١١/ ٢٩٠)، والألباني في «ضعيف الترغيب» (١٧٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٢).

على عِظَم هذا المعنى، وأنه يبلُغُ بالإنسان أعلى الدرجات وإن لم يكن له عمل كثير، ويدُلُّ علىَ أنه من أصعب الأمور؛ فقد يكون المرء ذا حَظٍّ من العلم والعبادة كبير، ومع ذلك لا يستطيع أن يسيطِرَ على قلبه، ولكنْ بالمجاهدة مع كثرة الدعاء والإلحاح على الله ﷻ يصلُحُ حال العبد.

ومِن أعظم ما يُعِينُ على ذلك: إسقاط حظوظ النفس؛ فإذا خرَجْتَ من بيتك، فاجعل حظ النفس خلف ظهرك؛ بحيث لا ترى لك على أحدٍ حقًّا، فتنشغل بالناس؛ فتشكو من هذا، وتَعْتِب على هذا، ولسانُ حالك ومَقَالِك يقول: هذا لم يقدِّرْني، وهذا لم يقم إليَّ حين سلَّمْتُ عليه، وقام إلى فلان، وهذا لم يَزُرْني حين مرضت، وهذا لم يُعَزِّني في فلان، وما إلى ذلك؛ دَعْ عنك الاشتغال بهؤلاء وارتَبِطْ بالله ﷻ.

الثاني: أن أعمال القلوبِ سببٌ لنيل المراتِب العالية في الجَنَّة:

فالحُبُّ في الله عبادة قلبيَّة مَحْضة؛ وقد صحَّ مِن حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ للهِ جُلَسَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ ـ وَكِلْتَا يَدَيِ اللهِ يَمِينٌ ـ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، وُجُوهُهُمْ مِنْ نُورٍ، لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ وَلَا صِدِّيقِينَ**»، قيل: يا رسولَ الله، مَنْ هُمْ؟ قال: «**هُمُ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِ اللهِ تَعَالَى**»(١).

وهكذا أيضًا: الأخلاق الحسَنة؛ كالحَيَاء والرضا والصبر وغير ذلك مِن الأخلاق الطيِّبة الكاملة؛ وهي من أعمال القلوب؛ فعن أبي الدَّرْداء رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ**»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**»(٣).

---

(١) أخرجه الطبراني (١٢/ ١٠٤/ ١٢٦٨٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٧٧): «رجاله وُثِّقُوا»، وقال المنذري في «الترغيب» (٤/ ١٩): «إسناده لا بأس به»، وصحَّحه الألباني بشواهده في «صحيح الترغيب» (٣٠٢٢)، وفي الباب: عن ابن عمر، وأبي هريرة، وأبي مالك الأشعري، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢)؛ واللفظ له، وغيرُهما، وفي سنده اختلاف بيَّنه الدارقطني في «العلل» (٦/ ٢٢١)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٤٨١، ٥٦٩٣، ٥٦٩٥)، والدارقطني، وابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٤٧٣)، والألباني في «الصحيحة» (٥١٩، ٨٧٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وقال: «حسن غريب»، وفي الباب: عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن سمرة، وغيرهم رضي الله عنهم؛ ساقها الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٤٧٣، ٤٧٤)، والألباني في «الصحيحة» (٧٩١).

الثالث: أن أعمال القلوب محرِّكةٌ ودافعةٌ لأعمال الجوارح:

فكلَّما عَظُمَ الإيمان والتوحيد، وعَظُمَتْ محبَّة الله في القلب، كان ذلك دافعًا للعبادات الظاهرة.

يقول عُتْبَة الغُلَام: «مَن عرَفَ الله أحبَّه، ومن أحبَّ الله أطاعه»(١)، فإذا وُجِدَ الإقبال والمحبَّة في قلب العبد، أقبَلَتْ جوارحه طوعًا، وهان عليها التعب في الطاعة والعبادة.

يقول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ثبَتَ الأصل في القلب، أخبَرَ اللسان عن الفروع»(٢).

الرابع: أنَّ اختلال أعمال القلوب، قد يَهدِمِ أعمال الجوارح:

ومِن أمثلة ذلك:

١ - **الإخلاص**: فإن إخلاص النية لله تعالى عمل قلبي؛ فإذا زال الإخلاص مِن قلب العبد، فوقَعَ في الشرك، أو في النفاق الأكبر، فإن إيمانه يبطُل، وإذا وقع في الرياء، فإن إيمانه يَختَلّ، وعمله الذي خالطه الرياء يكون باطلًا؛ فالله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيِّبًا؛ كما قال الله تبارك وتعالى في الحديث القُدْسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٣).

فالله تعالى لا يقبل الأعمال التي يُخالِطها الإشراك؛ سواءٌ كان ذلك في أول العمل، أو كان في أثنائه واسترسَلَ العبد معه؛ فإن ذلك يُبطِل العمل في هاتَيْنِ الصورتَيْن؛ فصارت عبادة العبد الظاهرة - كالركوع والسجود والصيام وغيرها - ليس له منها إلا التعب والنَّصَب، ثم يُعاقَب عليها؛ لأنه صرَفَها لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن القيِّم: «ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه مِن عمَل القلب والجوارح، كان مِن أفضل الأعمال، ومنزلتُهُ - يعني: طلب العلم وتعليمه - من عمل الجوارح؛ كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكُّل، والمحبَّة والإنابة، والخشية والرضا، ونحوها من الأعمال الظاهرة»(٤).

٢ - **التواضع**: وهو عمَلٌ قَلْبيٌّ يظهر أثره على الجوارح، ويُبطِلُه الكِبْر الذي هو تعاظُمٌ في القلب، يَظهَرُ أثره على جوارح العبد؛ فيدلُّ ظهوره على انتفاء التواضع مِن قلبه، ومعلوم أنَّ الكبر مانعٌ مِن دخول الجنة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٣٦). (٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٢٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٤).

٣ ـ **الحسَد**: وهو داءٌ عُضَال، وعلة من علل القلوب يُفسِد القلب، ويُذهِبُ ما يجب أن يكون عليه المؤمن من صفاء القلب لإخوانه المسلمين؛ فهذا الإنسان الحسود يتمنَّى أن تزول النعمة عن إخوانه؛ سواءٌ وصَلَت إليه هو أم لم تصل، وهو لا يحب ـ قطعًا ـ لإخوانه ما يحب لنفسه؛ وهذا يدل على اختلال في العمل القلبي الواجب من محبَّة الخير للمسلمين.

الخامس: أن أعمال القلوب أشَقُّ مِن أعمال الجوارح:

وهذا ظاهرٌ في حديث أنس رضي الله عنه المتقدِّم؛ يقول يونس بن عُبَيْد رحمه الله ـ وقد كتَبَ إليه أحد إخوانه يسأله عن مسائل ـ: «أتاني كتابُكَ تسألني أن أكتُبَ إليك بما أنا عليه، وأُخْبِرُكَ أنِّي عَرَضْتُ على نفسي أن تُحِبَّ للناس ما تُحِبُّ لها، وتَكرَهَ للناس ما تَكرَهُ لها؛ فإذا هي مِن ذلك بعيد، ثم عَرَضْتُ عليها مرةً أخرى تركَ ذِكْرِهم إلا مِن خير؛ فوَجَدتُّ الصومَ في اليومِ الحارِّ الشديدِ الحَرِّ بالهواجرِ بالبَصْرة أيسَرَ عليها مِن ترك ذكرهم»[(١)].

وهذا يدلُّ على أن للإنسان هوًى في الكلام في أعراض الناس؛ مما يحتاج معه إلى خَطْم النفس عن أهوائها، ومَنْعِها من تلك الرغبة الجامحة المسيطرة عليها، وما يُفسِد علينا أمرَنا في هذا الباب إلا كثرة التأويلات؛ يقول: «ما قصدتُّ بهذا الكلام إلا النصح، ما قصدتُّ إلا كذا»، ثم يقع فيما حرَّم الله عز وجل من الغِيبَة وغيرها.

وهذا يبيِّن لك: أن عبادات القلوب وأعمالها شاقَّة حتى تُروَّضَ النفوس عليها ابتغاء وجه الله؛ **وقد قال أبو سُلَيْمان الداراني**: «أفضل الأعمال: خلاف هوى النفس»[(٢)].

السادس: أن أعمال القلوب أعظَمُ أجرًا ومثوبةً مِن أعمال الجوارح:

فقد كان كثير من السلف يفضِّلون عبادات القلب على الإكثار من عبادة الجوارح، مع عدَم إهمالهم لعبادات الجوارح؛ لأنها تَمُدُّ وتزيد في عبادات القلوب:

فقد كان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه يقول: «تفكُّرُ ساعة خيرٌ مِن قيام ليلة»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٨).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه». وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٨٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك (٩٤٩)، وهَنَّاد (٩٤٣)، وأحمد (ص١٧٣)، وأبو داود (٢٠٩)؛ كلُّهم في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٩).

وقيل لأمِّ الدرداء ﵂: ما كان أفضَلَ عمَلِ أبي الدرداء؟ قالت: «التفكُّر والاعتبار»(١).

ووُصِفَ لسعيد بن المسيَّب ﵀ **عبادةُ قَوْم؛ أنهم يصلُّون بعد الظهر إلى العصر، فقال:** «إنما العبادة التفكُّر في أمر الله، والكَفُّ عن محارم الله»(٢)؛ وهو لا يقصد أن يزهِّد في صلاة النافلة، وإنما أراد أن يَلْفِتَ أنظارهم إلى عبادةٍ يغفُلُونَ عنها كثيرًا؛ وهي: التفكُّر.

وفي هذا المعنى يقول الحسَنُ البصري ﵀: «أفضَلُ العبادة: التفكُّر والورَع»(٣).

وقال إبراهيم بن أَدهَم: «رأس العبادة: التفكُّر والصمت»(٤).

السابع: أن أعمال القلوب تعظِّم أعمال الجوارح:

ومعلوم أن المرء قد يَعمَل عملًا من الأعمال ويَعمَلُه غيره، وبينهما كما بين السماء والأرض؛ **وقد قال شُفَيُّ بن ماتِع الأَصبَحي** ﵀: «إن الرَّجُلَيْنِ ليكونان في الصلاة مَناكِبُهما جميعًا، وَلَمَا بينهما كما بين السماء والأرض، وإنهما ليكونان في بيتٍ صيامُهُمَا واحد، وَلَمَا بين صيامِهما كما بين السماء والأرض»(٥).

وقد يتصدَّق الإنسان، وهو يَعُدُّ هذه الصدقة مَغرَمًا، ولربَّما أخرجها كارهًا مُحرَجًا، وآخَرُ: أخرجها رغبة، لكنه أخرجها مُدِلًّا على ربِّه، وثالثٌ: أخرجها وفي قلبه الحياء من الله، والخوف منه، والإشفاق ألَّا تُقْبَل، وأنَّ هذا قليل من كثير مما أعطاه الله ﷿، وأن الله هو الذي وفَّقه وهداه وسدَّده إلى هذه الصدقة والعمل الصالح، وأنه بحاجة إلى المزيد من العبوديَّة ليشكُرَ الله على هذا الإنعام.

قال أبو حازم: «إنَّ العبدَ لَيَعمَلُ الحسَنةَ تَسُرُّهُ حين يَعمَلُها، وما خلَقَ الله من سيئةٍ أضَرَّ له منها، وإنَّ العبد لَيَعمَلُ السيِّئةَ حتى تسوءه حين يَعمَلُها وما خلَقَ الله مِن حسنةٍ أنفَعَ له منها؛ وذلك أنَّ العبدَ لَيَعمَلُ(٦) الحسَنةَ تَسُرُّهُ حين يعملها، فيتجبَّرُ فيها، ويرى أن له بها فضلًا على غيره، ولعلَّ الله تعالى أن يُحبِطَها ويُحبِطَ معها عملًا كثيرًا، وإنَّ العبد حين يَعمَلُ السيِّئةَ تسوءه حين يَعمَلُها، ولعلَّ الله تعالى يُحدِثُ له بها وَجَلًا

---

(١) أخرجه ابن المبارك (٢٨٦)، ووكيع (٢٢٤)، وأحمد (ص١٦٨)، وأبو داود (٢٠٥)؛ كلُّهم في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٨)، وابن عساكر بنحوه في «تاريخه» (٤٧/ ١٤٩).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ١٣٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٣٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٢٦٤).

(٥) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٩٧)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٦٧).

(٦) كذا في «الحلية»، والجادَّة: «وذلك أنَّ العبدَ يعمَلُ» بحذف اللام؛ لانفتاح همزة: «أنَّ».

يلقى الله تعالى، وإنَّ خوفها لفي جَوْفِهِ باقٍ»[١].

وهكذا النية في طلب العلم: فقد يطلُبُ الإنسان العلم لدنيا يُصِيبُها، وقد يطلبه لِيَعرِفَ ربَّه ومعبوده، ويتقرَّبَ إليه؛ فتكون له نية صحيحة؛ فكم بينهما من الفرق، وهما في مجلس واحد، وفي مكان واحد؟! وإنما كان ذلك بسبب النِّيَّة.

يقول ابن المبارَك رَحِمَهُ اللهُ: «رُبَّ عمَلٍ صغيرٍ تعظِّمه النيَّة، ورُبَّ عمَلٍ كبيرٍ تصغِّره النيَّة»[٢].

وهذا كما يقال في الطاعات، يقال في المعاصي؛ فقد يعمل رجلٌ معصيةً واحدةً وهو مستهتر، مستخِفّ، متبجِّح، يتباهى بعَمَلها، ويجاهِر بها، وكأنها ذباب جاء على وجهه، فقال به هكذا، وآخر: يَعمَلُها وهو خائف من الله، مُستَحٍ منه، يستشعر أن الله يراه ويراقبه؛ لكنه غُلِبَ في حال ضَعُفَتْ نفسه فيها، ثم لا يَلبَث أن يراجع نفسه؛ فشتان بين هذا وهذا!:

فالأوَّل: تهوي به معصيته في دَرَكات الغَيِّ وأوحاله؛ إنْ لم يتدارَكْهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بلُطْفه ورحمته.

والآخر: تصغُرُ معصيته وتتضاءل بما قام في قلبه من الخوف والحياء من الله؛ فهو في غاية الوَجَل، وإذا تذكَّرها، خاف وأشفق منها.

فكم من الفرق بين هذا وهذا؟!

الثامن: أن أعمال القلوب أجمَل أثرًا من أعمال الجوارح، بل هي مجمِّلةٌ لها:

فأعمال الجوارح على غاية الأهمِّية؛ وهذا أمر لا يُنازَع فيه؛ لأنها تؤثِّر على أعمال القلب وتزيدها؛ ولذلك فإنَّ أعمال القلب ـ مع كونها أعظَمَ أجرًا ـ فهي أحلى مذاقًا، وأجمل أثرًا؛ وهذا ما يجده الإنسان في نَفْسِه؛ إنْ كان قلبه موصولًا بالله عَزَّ وَجَلَّ.

ولقد كان بعض السلف يقول: «مساكينُ أهلُ الدنيا، خرَجُوا من الدنيا وما ذاقوا أطيَبَ ما فيها»، قالوا: وما أطيَبُ ما فيها؟ قال: «محبَّة الله، والأُنْس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه»[٣].

وقال إبراهيم بن أدهَم رَحِمَهُ اللهُ: «لو عَلِمَ الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور

(١) أخرجه أبو نعيم «الحلية» (٣/ ٢٤٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٧٠).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٤).

والنعيم، لَجَالَدُونا عليه بالسيوف!»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها، لم يدخُلْ جنةَ الآخرة»[(٢)].

ومراد إبراهيم بن أَدهَم وشيخ الإسلام: عباداتُ القلوب وأعمالُها؛ من الإخلاص لله تعالى ومحبَّته والإنابة إليه، والاستعانة به والتوكُّل عليه؛ فتلك جَنَّةُ الدنيا، وسرورها ونعيمها.

التاسع: أن أعمال القلوب تقوم في بعض الأحيان مقام أعمال الجوارح:

ومِن أمثلة ذلك: الجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فقد أتى رجالٌ إلى النبي ﷺ ليَحمِلَهم، فقال: «**لا أَجِدُ ما أَحمِلُكم عليه**»، فرجَعَ الواحدُ منهم، وعينُهُ تَفِيضُ مِن الدمع؛ حَزَنًا ألَّا يَجِدَ ما يُنفِق؛ فهؤلاءِ حُكْمُهم كما قال النبي ﷺ: «**مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ؛ حَبَسَهُمُ المَرَضُ**»[(٣)].

فالإنسان قد لا يستطيع أن يعمل بعض الأعمال، ولكنه يبلُغُ مَبلَغ العاملين لها بنيَّته؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ**»[(٤)].

فهذا يدلُّ على أن الإنسان إنْ لم يقُمْ بالغزو ببَدَنِهِ وجوارحه، فعليه أن يستحضِرَ النيَّة؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**»[(٥)].

فالنيَّة الصادقة تكون عوضًا عن العمل عند العَجْز عن القيام به؛ وقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ؛ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**»[(٦)].

العاشر: أن أعمال القلوب يستمِرُّ بعضها في أحوال تنقطِعُ فيها أعمال الجوارح أو تَقِلّ:

فالعبد إذا مات، انقطَعَ عملُهُ الذي كان يباشره بنَفْسه إلا مِن صَدَقة جارية، أو علمٍ

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٧/ ٣٧٠).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٢)، وتقدَّم بقية توثيقه أول الكتاب.
(٣) أخرجه مسلم (١٩١١)؛ من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه مسلم (١٩١٠)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٥) أخرجه البخاري (٢٨٢٥)؛ من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم (١٨٦٤)؛ من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأخرجه مِن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١٣٥٣)، دون قوله: «بعدَ الفَتْح».
(٦) أخرجه مسلم (١٩٠٩)؛ من حديث سهل بن حُنَيْف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُنتفَع به، أو ولد صالح يدعو له؛ كما جاء في الحديث[(١)]؛ ولكن الأمور القلبية؛ كالتوحيد ومسائله؛ مِن الخوف والرجاء والمحبَّة، والأنس بالله والشوق إليه، وغيرِ ذلك تَبقَى معه، أو يبقى كثير منها، ويسأله المَلَكانِ في قبره فيجيب، وهو بين الخوف والرجاء، ولا يزال قلبه متعلِّقًا بمولاه؛ هذا هو حال المؤمن، وأهل الجنة أيضًا: يحبُّون الله، ويعظِّمونه، ويُجِلُّونه، ويقدِّسُونه؛ وهذه أعمال قلبية.

ولكنهم لا يُصَلُّونَ في الجنة ولا يصومون ولا يُزَكُّون؛ فليست الجنة مَحَلًّا لهذه التكاليف.

أما الأمور القلبية، فهي باقية، أو يبقى كثير منها.

وأما التسبيح، فإن أهل الجنة يُلْهَمُونَهُ إلهامًا، كما يُلْهَمُونَ النَّفَس؛ فلا يَرِد على هذا.

الحاديَ عشَرَ: أن أعمال القلوب تُضَاعَف بلا حَدّ، وأعمال الجوارح تُضَاعَف إلى حد معلوم[(٢)]:

وذلك لأنَّ أعمال الجوارح مهما كَثُرَتْ وعَظُمَتْ، فإنَّ لها وقتًا معلومًا، وحَدًّا محدودًا؛ فالصلاة لها وقت، والزكاة لها وقت، والصيام له وقت، والحج له وقت.

أما أعمال القلب: فإنها تكون حالًا ملازِمة للعبد في صَحْوِهِ ونومه، وصحَّته ومرضه، وصفائه وكَدَره، وفي جميع أموره؛ ولهذا تُضاعَف أضعافًا.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أعمال لجوارح تُضاعَف إلى حَدٍّ معلوم محسوب، وأما أعمال القلب، فلا ينتهي تضعيفها؛ وذلك لأن أعمال الجوارح لها حَدٌّ تنتهي إليه، وتقف عنده؛ فيكون جزاؤها بحسَبِ حدِّها، وأما أعمال القلوب، فهي دائمة متصِلة؛ وإنْ تَوارَى شهود العبد لها»[(٣)].

ولنأخُذْ على ذلك مثالَ: المحبَّة؛ فمحبَّة الله عَزَّ وَجَلَّ مستقرَّة في قلب المؤمن لا تفارِقُه؛ قائمًا وقاعدًا، نائمًا ويقظانَ، مسافرًا ومقيمًا، مسرورًا ومغتمًّا.

وكذلك: التعظيم والإخلاص، والشوق إلى لقاء الله، وغير ذلك.

فإذا تمكَّنَتْ هذه الأمور في قلب العبد، واستحكَمَتْ؛ فإنها تُلازِمه، ولا تفارِقُه.

وهذا يدل على سموِّ الأعمال القلبية على أعمال الجوارح.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٨).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٨).

الثانيَ عشَرَ: أن أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح فرع عنها:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «والدين القائم بالقلب من الإيمان علمًا وحالًا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع، وهي كمال الإيمان»(١).

ومعلوم من أصول أهل السُّنَّة والجماعة: أن الإيمان قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح؛ فالقلب يصدِّق، واللسان يَشهَد، والقلب يعمل عمله؛ مِن توكُّل، ومحبَّة، وإخبات، وما إلى ذلك، واللسان يعمل ذِكْرًا، وقراءة للقرآن، وقولًا للحق، والجوارح تَسجُد، وتَركَع، وتَعمَلُ الصالحات التي تقرِّب إلى الله عَجَّلَ.

يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا ثبَتَ الأصل في القلب، أخبَرَ اللسان عن الفروع»(٢).

فعمَلُ القلب هو الأصل، ولو انتفى التصديق الانقيادي من القلب، وهو الإقرار، لم يُقْبَلْ عمَل من أعمال العبد البتَّة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن أعمال القلوب**: «هي من أصول الإيمان وقواعِد الدين؛ مثلُ محبَّة الله ورسوله، والتوكُّل على الله، وإخلاص الدِّين له، والشُّكْر له، والصَّبْر على حكمه، والخوْف منه، والرجاء له... هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخَلْق؛ كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالمٌ لنفسه، ومقتصِد، وسابق بالخيرات»(٣).

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أصل الدِّين في الحقيقة هو الأمور الباطنة مِن العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تَنفَع بدُونها؛ كما قال النبي ﷺ، في الحديث الذي رواه أحمد في «مسنَده»: «**الْإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ، وَالْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ**»(٤)؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه، عن النُّعْمان بن بَشِير، عن النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٥٥). والمراد بكمال الإيمان من أعمال الجوارح: بعضُ آحادِها، لا جِنْسُها؛ فإن جنس أعمال الجوارح أصل في الإيمان الصحيح المقبول عند الله تعالى؛ كما أن بعض آحاد أعمال الجوارح هو أيضًا أصل في الإيمان؛ كنطق الشهادتَيْن، والصلاة، ونحو ذلك، وأكثَرُ آحاد أعمال الجوارح فَرْع، وهي من الكمال الواجب والمستحَبّ، ومراد شيخ الإسلام: أن الأصل العامَّ: أن ما في القلب أصل، وما في الجوارح فرع، والله أعلم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥ ـ ٦).

(٤) أخرجه أحمد (١٢٣٨١) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه رجل اختُلِفَ فيه؛ قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥٢): «رجاله رجال الصحيح، ما خلا علي بن مَسْعَدة، وقد وثَّقه ابن حبان، وأبو داود الطيالسي، وأبو حاتم، وابن مَعِين، وضعَّفه آخرون». وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٢٨٠).

إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[(١)]، وعن أبي هريرة؛ قال: «القلبُ مَلِكٌ، والأعضاءُ جنودُهُ؛ فإذا طاب المَلِك، طابت جنوده، وإذا خَبُثَ المَلِكُ، خَبُثَتْ جنودُه...»[(٢)].

وهذه الأعمال الباطنة؛ كمحبة الله، والإخلاص له، والتوكُّل عليه، والرضا عنه، ونحو ذلك، كلها مأمور بها في حقِّ الخاصَّة والعامَّة، لا يكون تركها محمودًا في حال أحد، وإن ارتقى مقامه»[(٣)].

ويقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن أعمال القلوب**: «هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تَبَعٌ ومكمِّلة ومتمِّمة، وأن النيَّة بمنزلة الرُّوح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الرُّوح فمَوَات، وكذلك العمل إذا لم تَصحَبْهُ النية، فحرَكَة عابث؛ فمعرفة أحكام القلوب أهمُّ من معرفة أحكام الجوارح؛ إذْ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرِّعة عليها»[(٤)].

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعمل القلب: كالمحَبَّةِ له، والتوكُّل عليه، والإنابة إليه، والخوف

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «جامع معمر» (٢٠٣٧٥)، ومن طريقه: أبو نعيم في «الطب النبوي» (٩٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٨)، وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (٥٧٠)، كلهم عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ موقوفًا.
وأخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٦٩) عن كعب الأحبار.
وقد رُوِي مرفوعا ولا يصح:
فقد أخرجه ابن المبارك ـ كما في «شعب الإيمان» (١٠٩) ـ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. قال الألباني (٤٠٧٤): «فيه من لم أعرفه».
وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢١٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٣٠) عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.
قال ابن عدي: «وهذا الْحَدِيث لا أعلم يرويه عَن عطية غير الحكم بن فَصِيل، والحكم هَذَا قد روى عَن غير عطية مثل خالد الحذاء وغيره، وَهو قليل الرواية، وما تَفَرَّدَ به لا يُتابِعه عَلَيْهِ الثقات».
وأخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٧٣٨) عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا.
قال العراقي في «مغني الأسفار» (٢/ ٧١٠ ـ ٧١١): «أخرجه أبو نعيم في «الطب النبوي»، والطبراني في «مسند الشاميين»، والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي هريرة نحوه... ولا يَصِحُّ منها شيء».

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٥ ـ ١٦).

(٤) «بدائع الفوائد» (٣/ ١١٤٠).

منه، والرجاء له، وإخلاص الدِّين له، والصبر على أوامِره وعن نواهيه وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه والمعاداة فيه، والذُّلِّ له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغيرِ ذلك من أعمال القلوب التي فَرْضُها أفرضُ من أعمال الجوارح، ومستحبُّها أحبُّ إلى الله من مستحَبِّها، وعمَلُ الجوارح بدونها إما عديمُ المنفعة، أو قليلُ المنفعة»[1].



(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٠١).

لزوم العناية بأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأحوالُ الناس في ذلك

إنَّ بيان أهمية أعمال القلوب، وأنها أشرَف من أعمال الجوارح، لا يعني إهمال أعمال الجوارح، والناس في ذلك على **ثلاثة أحوال؛ كما ذكر ابن القيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]:

الأولى: مَن اشتغَلُوا بالأمور القلبيَّة، وإصلاح القلب، ومراقبة الخَطَرات، وقصَّروا في الأعمال الظاهرة؛ وهذا غلط؛ لأن الدِّين لا قوام له إلا بالشريعة؛ إذ أعمال القلوب لا تتم إلا بأعمال الأبدان[(٢)].

الثانية: مَن اشتغَلُوا بالأعمال الظاهرة؛ كالصيام والصلاة، وتركوا إصلاح القلوب؛ فامتلأت قلوبهم بالأحقاد، وحُبِّ التنافس على الرياسات؛ حتى قست تلك القلوب، وصار فيها مِن تعظيم المخلوقين، أو الخوفِ منهم ما لا يُقادَرُ قَدْرُه.

الثالثة: وهم الوسَط، وهم الذين اعتنَوْا بالأمور القلبية وأعمال الجوارح معًا؛ فهذا سبيل المرسَلِين عليهم الصلاة والسلام.

إذَن: التربية الصحيحة هي التي تُعنَى بقلب الإنسان، كما تُعنَى بجوارحه، ولمَّا سأل هِرَقْل أبا سفيان: هل يَرجِع أحدٌ منهم سَخْطَةً عن دِينِه بعد دخوله؟ قال: لا، قال: وهكذا الإيمان إذا خالَطَتْ بَشَاشَتُهُ القلوبَ، لا يَسخَطُهُ أحد[(٣)].

وقد ذكر شيخ الإسلام مِن خصائص أهل السُّنَّة والجماعة الأخلاقيَّة: أن الواحد منهم لا يَرجِع عن دِينه؛ ولو أُوذِيَ وعذِّب وفُتِن؛ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا أهل السُّنَّة والحديث، فما يُعلَمُ أحدٌ مِن علمائهم، ولا صالح عامَّتهم رجَعَ قطُّ عن قوله واعتقاده، بل هم أعظَمُ الناس صبرًا على ذلك، وإنِ امتُحِنوُا بأنواع المحن، وفُتِنوا بأنواع الفتن»[(٤)].

فيجب أن نربِّي الناس على العناية بقلوبهم، مع العناية بالشرائع الظاهرة؛ لأن صلاحهم وفلاحهم مرتَبِط بذلك ومتوقِّف عليه.

---

(١) انظر: «الفوائد» (ص١٢٤)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ١١٤٧).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٥ ـ ٢٦).
(٣) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)؛ مِن رواية ابن عبَّاس، عن أبي سفيان بن حرب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.
(٤) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٠).

تفاوتُ الناس وتفاضُلُهم في أعمال القلوب أشدُّ مِن تفاوُتهم وتفاضُلهم في أعمال الجوارح

الناس في هذا الباب على **ثلاث دَرَجات**:

١ ـ **الظالم لنَفْسِه**؛ وهو مَن ترَكَ الواجب، أو فعَلَ المحرَّم.

٢ ـ **المقتصِد**؛ وهو مَن أتى بالواجب، وترَكَ المحرَّم فحَسْبُ.

٣ ـ **السابق بالخيرات**؛ وهو مَن ترَكَ المحرَّم والمكروه، وفعَلَ الواجب والمستحَبّ.

فكلُّ مَن كان معه إيمان حقيقي، فلا بد أن يكون معه مِن هذه الأعمال القلبيَّة بقَدْر إيمانه، وإنْ كان له ذنوب، وأمَّا مَن ترَكَها بالكلية، فهو إمَّا كافر أو منافق؛ كالذي يترُكُ أعمال الجوارح بالكليَّة؛ كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ(١).



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٨٤ ـ ١٨٥).

التلازُمُ بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح[(١)]

لمَّا كان القلب مَلِكًا لسائر الأعضاء، كان صلاحُهُ سببًا لصلاحها ولا بُدَّ، وكما أن فساد أعمال العبد تُنبِئُ عن فساد في قلبه، فكذلك أيضًا تكون مؤثِّرةً على قلبه؛ فإذا تكاثَرَتِ الذنوب، نتَجَ عن ذلك طمسُ القلب، وتكوَّنت عليه طبقةٌ تغطِّيه وتغلِّفه، يقال لها: الرَّانُ؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، وفي حديث حُذَيْفَةَ مرفوعًا: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا؛ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ: أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالكُوزِ مُجَخِّيًا؛ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»[(٢)].

والمقصودُ: أنَّ «الظاهر والباطن متلازِمان، لا يكون الظاهِرُ مستقيمًا إلا مع استقامة الباطن، وإذا استقام الباطن، فلا بد أن يستقيم الظاهر؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أَلَا إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(٣)]»[(٤)]، «فبَيَّنَ: أنَّ صلاح القلب مستلزِمٌ لصلاح الجسد، فإذا كان الجسد غير صالح، دَلَّ على أن القلب غير صالح، والقلب المؤمِن صالح؛ فعُلِمَ أنَّ من يتكلَّم بالإيمان، ولا يعملُ به، لا يكون قلبه مؤمنًا؛ حتى إن المكرَه إذا كان في إظهار الإيمان، فلا بدَّ أن يتكلَّم مع نفسه وفي السرِّ مع مَن يأمَنُ إليه، ولا بدَّ أن يَظهَر على صَفَحات وجهه، وفَلَتات لسانه؛ كما قال عثمانُ. وأمَّا إذا لم يظهر أثَرُ ذلك ـ لا بقوله، ولا بفعله ـ قطُّ؛ فإنه يدُلُّ على أنه ليس في القلب إيمان؛ وذلك أن الجسَد تابعٌ للقلب؛ فلا يستقِرُّ شيء في القلب إلا ظهَرَ مُوجَبُهُ ومقتضاه على البدن؛ ولو بوجه من الوجوه»[(٥)].

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٩٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٤). (٣) تقدم تخريجه.
(٤) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٧٢).
(٥) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٢١).

«فإن ما في القلب من النُّور والظُّلْمة، والخير والشر، يسري كثيرًا إلى الوجه والعَيْن، وهما أعظم الأشياء ارتباطًا بالقلب؛ ولهذا يُرْوَى عن عثمان أو غيره؛ أنه قال: «ما أَسَرَّ أحدٌ بسريرةٍ إلا أبداها الله على صَفَحاتِ وَجْهِه، وفَلَتاتِ لسانِه»[(١)].

والله قد أخبر في القرآن: أن ذلك قد يظهر في الوجه؛ فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ [محمد: ٣٠]؛ فهذا تحت المشيئة، ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾ [محمد: ٣٠]؛ فهذا مُقسَمٌ عليه محقَّق، لا شرطَ فيه، وذلك أنَّ ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظَمُ مِن ظهوره في وَجْهه؛ لكنه يبدو في الوجه بُدُوًّا خَفِيًّا يعلمه الله، فإذا صار خُلُقًا، ظهر لكثير من الناس، وقد يقوى السوادُ والقَسَمةُ حتى يظهر لجمهور الناس، وربما مُسِخَ قِرْدًا أو خنزيرًا؛ كما في الأمم قبلنا، وكما في هذه الأمة أيضًا»[(٢)].

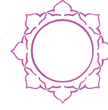


(١) رُوِي عن عثمان بلفظ: «ما أَسَرَّ عَبْدٌ بسريرةٍ إلا رَدَّاهُ اللهُ رِدَاءَ مِثْلها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ»؛ وقد تقدَّم تخريجه.

(٢) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاستقامة» (١/ ٣٥٥).

أولًا

الإخلاص



توطئة

لا بدَّ للأفعال الإراديَّة من محرِّكات تدعو الإنسان إلى فِعْلها وتحقيقها، وهذه المحرِّكات مِن حيث هي بواعثُ وتصوُّراتٌ، تكون علَّة فاعلة تطلُبُ مرادها، ومِن حيث إنها شيء خارجي يسعى الإنسان إلى تحقيقه ونَيْلِه، تُصبِح هدفًا وغاية.

ومن هنا: فإنه لا بد للمسلم أن يحدِّد ويوحِّد غايته، حينما يَهمُّ بعمل مما يتقرَّب به إلى الله؛ بحيث تكون غايته من عمله طَلَبَ مرضاة الله تعالى وحده؛ وهذا هو الإخلاص.



معنى الإخلاص وحقيقته

الإخلاص في اللغة: مأخوذ مِن الخَلَاص؛ وهو الصفاء والنقاء؛ تقول: «خَلَصَ الشيءُ يخلُصُ خُلُوصًا وخَلَاصًا، فهو خالص: إذا صفا وزال عنه ما يَشُوبُه».

يقول ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخاء واللام والصاد: أصل واحد مطَّرِد، وهو: تَنْقِيةُ الشيء وتهذيبه»(١).

وأخلَصَ لله دِينَهُ: أمحَضَهُ، وقصَدَ وجهَه، وترَكَ الرياء، والمُخلِص: هو الذي وحَّد الله خالصًا، والمخلَّص: هو الذي خَلَّصه الله وطَهَّرَهُ من الدَّنَس؛ فاختاره واصطفاه.

وكلمة الإخلاص: هي كلمة التوحيد، والإخلاص في العبادة والطاعة: تَرْك الرياء.

فهذا هو معنى هذه اللَّفْظة في كلام العرب؛ حيث تدور حول تنقيةِ الشيءِ مِن الشوائب، وتخليصِهِ من الأكدار ومما يُداخِله.

وأما الإخلاص في معناه الشرعي: فعبارات العلماء فيه متقارِبة:

فقيل: هو إفرادُ الحقِّ سبحانه بالقصد والطاعة.

وقيل: أن يكون العمَلُ لله سبحانه، لا نَصِيبَ لغير الله فيه.

وقيل: هو تجريد القصد طاعةً للمعبود.

وقيل: هو استواء عمل الظاهر والباطن.

ويقول سَهْل التُّسْتَرِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَظَرَ الأكياسُ في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حَرَكاته وسُكُونه في سرِّه وعلانِيَتِهِ لله وحده لا شريك له، لا يمازِجُهُ شيء: لا نَفْسٌ، ولا هوًى، ولا دُنيا»(٢).

وقال بعضهم: «الإخلاص: ألَّا تطلُبَ على عمَلِك شاهدًا غير الله، ولا مُجازِيًا سواه»(٣).

فالإخلاص ـ كما ذكر ابن القيِّم ـ هو: تصفية العمل من كل شائبة؛ بحيث لا

---

(١) «المقاييس في اللغة» (٢/ ٢٠٨)، (خ ل ص).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٤٦٨)، و«السنن الصغرى» (٨).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٢).

يمازِجُهُ شيء من إرادات النَّفْس: إما بطَلَب التزيُّن في قلوب الخَلْق، وإمَّا بطلب مدحِهم، والهروب من ذمِّهم، أو بطلب تعظيمهم، أو بطلب أموالهم، أو خِدْمتِهم، أو محبَّتهم، أو قضاء حوائجه على أيديهم، أو غير ذلك من العِلَلِ والشوائب والإرادات الفاسدة التي تَجتمِع على شيء واحد، وهو: إرادةُ ما سوى الله ﷻ بهذا العمل أو بعضه.

وعليه: فالإخلاص: هو توحيد الإرادة والقَصْد؛ حتى يكون الله هو مرادَكَ وَحْدَه؛ فلا تَلْتفِتْ إلى شيء معه سبحانه(١).



(١) المصدر السابق (٢/ ٩٣).

الفَرْق بين الإخلاص والصِّدْق وبين الإخلاص والنُّصْح

قيل: إن الفَرْق بين الإخلاص والصدق: أن الصِّدْق هو الأصل، والإخلاص متفرِّع عنه.

وقيل: الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العَمَل، وأما الصِّدْق فيكون بالنية قبل الدخول فيه(١).

قال ابن القيِّم: «وقيل: ـ أي: في معنى الإخلاص ـ: التوقِّي من ملاحظة الخَلْق حتى عن نَفْسِك، والصدق: التنقِّي من مطالَعة النفس؛ فالمخلِصُ لا رياء له، والصادق لا إعجاب له، ولا يَتِمُّ الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يَتِمَّان إلا بالصبر»(٢).

ويمكن أن يعبَّر عن الفَرْق بينهما بعبارة أخرى؛ فيقال: الإخلاص: أن تُفْرِدَ الله ﷻ بقَصْدِك، وأما الصدق: فهو الموافَقة بين الظاهر والباطن في الأعمال وفي الأحوال وفي الأقوال جميعًا:

ففي الأعمال: لا يُظهِر أعمالًا صالحةً، وقلبُهُ خالٍ.

وفي الأحوال: لا يُظهِر خشوعًا أو صلاحًا، وقلبُهُ ينطوي على خلاف ذلك.

فهذا غير صادق.

وكذا لو أظهَرَ من ذلك ما ليس بقلبه منه إلا مقدارٌ لا يكافئ ما ظهَرَ؛ فهو غير صادق بمقدار تفاوُتِ المقدارَيْن.

وكذلك في الأقوال؛ فالصدق فيها بمقدارِ توافُقِ القول وما في القلب؛ فمَن قال قولًا ولو كان مطابِقًا للواقع، ولكنه يُخالِفُ ما في مكنونِهِ؛ فإنه يُعتبَر كاذبًا بذلك، فلو سُئِلَ عن فلان أين هو؟ فقال: مسافِر، وهو يَظُنُّ أنه موجود، ولكن صادَفَ أن قوله وقَعَ على الحقيقة؛ بحيث إنَّ فلانًا كان مسافِرًا فعلًا، ولكنه لا يَعلَم، فإنه يكون بذلك كاذبًا؛ ولذلك قالوا: لو جامَعَ في ظُلْمةٍ مَن يظُنُّها أجنبيَّةً، فبانت زوجتَهُ أو أَمَتَهُ، أَثِمَ

(١) انظر: «التعريفات» للجرجاني (ص١٢ ـ ١٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٩١).

على ذلك بقصده[١].

وكذلك أيضًا: يكون كاذبًا إذا خالَفَ ما في الواقع، وإن لم يَقْصِدْ ذلك؛ كما هو استعمال السَّلَف كثيرًا، وهو استعمال عربي معروف لكلمة «الكَذِب» التي تقابل الصدق، فإذا قال مثلًا: فلان مسافِر، وهو يعتقِد أنه مسافِر، فطابق قولُهُ ما في مكنونه، ولكن تبيَّن أن فلانًا لم يُسَافِر.

فإطلاق الكذب في مثل ذلك وارد معروف، وليس هو مِن الكذب المذموم الذي يُعاقَبُ عليه صاحبه، وإنما يُطلِقون ذلك على كل ما خالف الواقع والحقيقة؛ سواءٌ كان بسبب فسادٍ في العدالة، أو فسادٍ في الضبط.

ويؤيِّده مِن وجهٍ: قول الله ﷻ لملائكته ﵈: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١﴾ [البقرة: ٣١]؛ فإنهم لم يتعمَّدوا الكذب، وحاشاهم.

وقد ذكر ابن مَنْظُور في «اللسان» جملة من الشواهد على هذا الاستعمال[٢].

قال الخَطَّابي ﵀: «والعرَب تضَعُ «الكذب» مَوضِعَ «الخطأ» في كلامها؛ فتقول: «كذَبَ سَمْعِي، وكذَبَ بَصَرِي»؛ أي: زَلَّ ولم يُدْرِكْ ما رأى وما سَمِع، ولم يُحِطْ به»[٣].

ولا بد أن يُعرَف: أن الصدق والإخلاص معنيان مُتلازِمان، وليست المفارَقةُ بين المتلازِمَيْنِ مِن حيثُ التعريفُ مما يستلزِمُ النُّفْرةَ بينهما، ولكنه مزيدُ البيان؛ لتقرير المعارف، وتحديدِ الأوصاف.

وقد يُعبَّر بالصدق، ويُرَاد به الإخلاص؛ فيقال: فلانٌ يعامِلُ ربَّه بصدق؛ يعني: بإخلاص.

وأما الفَرْق بين الإخلاص والنُّصْح: فيمكن أن يُقال في عبارة مختصَرة: إن الإخلاص ـ كما سبق ـ: إفرادُ الله ﷻ بالقصد، وأما النُّصْح: فهو استِفْراغُ الوُسْع، وبَذْلُ الجُهْدِ في أداء العمل[٤]؛ فتقول: فلانٌ ناصحٌ في عمله، فلان ناصح لتلامذته، وناصح في صُحْبته، وناصح لفلان؛ أي: يستفرِغُ جهدَهُ في إيصال النَّفْعِ له بكل وجه مُسْتطاع، ولا ريب أن هذا يتضمَّن الإخلاص وزيادة.

---

(١) انظر: «إعلام الموقِّعين» (٤/ ٥٢١).
(٢) انظر: «لسان العرب» (١٢/ ٥١)، (ك ذ ب).
(٣) «معالم السنن» (١/ ١٣٥).
(٤) انظر: «الفوائد»، لابن القيم (ص٢٧٢).

ورُبَّما عُبِّرَ بالإخلاص عن النُّصْح، فقيل: فلان يعمل بإخلاص في كذا وكذا؛ أي: يعمل بنُصْح، فإنْ كان المراد أنه يعمل ابتغاء وجه الله فقطْ، كان ذلك من باب توحيد القصد والإرادة، فهو يَعمَلُ بإخلاص؛ أي: يريدُ وجه الله، لا يريد شيئًا آخر.

ويمكن أن يقال: فلان يعمل بإخلاص؛ أي: أنه يبذُلُ طاقتَهُ ووُسْعَهُ وجُهْده، ولا يَتَوَانى في القيام بالمهمَّة التي وُكِلَتْ إليه.

وبهذا يُعرَفُ الفرقُ بين الإخلاص والنُّصْح، وبين الإخلاص والصدق، وما بين هذه الأمور من المُلازَمة.



أهمِّيَّة الإخلاص ومنزلتُه

وهذا يتبيَّن من وجوه مختلِفة:

أولًا: أن الإخلاص هو حقيقة الإسلام الذي بعَثَ الله ﷻ به المرسَلين عليهم الصلاة والسلام:

كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ**؛ فقال**: «إذِ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره؛ كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [الزمر: ٢٩]؛ فمَن لم يستسلِمْ لله، فقد استكبَر، ومَن استسلَمَ لله ولغيرِه، فقد أشرَك؛ وكلٌّ مِن الكِبْرِ والشركِ ضِدُّ الإسلام، والإسلام ضِدُّ الشرك والكِبْر»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إخلاص الدِّين لله هو الدِّين الذي لا يَقْبَلُ الله سواه؛ فهو الذي بعَثَ به الأوَّلين والآخِرين من الرسل، وأنزَلَ به جميع الكتب، واتفَقَ عليه أئمَّة أهل الإيمان؛ وهذا هو خُلَاصةُ الدعوة النبويَّة، وهو قُطْبُ القرآنِ الذي تَدُورُ عليه رَحَاه»[(٢)].

ثانيًا: أنَّ الإخلاص هو الفِطْرة التي فطَرَ اللهُ الناسَ عليها، وبه قِوَامُ الأمَّة[(٣)]:

فإنَّ اللهَ تعالى لم يَفطُرِ الناس على الرياء، ولا المقاصِد السيئة، وإنما فطَرَهم على التوحيد الذي هو إخلاص العمل لله، مع إفراد القَصْد إليه؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال عزَّ من قائل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ الآية [البيِّنة: ٥]، وقال سبحانه في الحديث القُدْسي: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ**»[(٤)]؛ فهو سبحانه ما خلَقَهم إلا حنفاء، وما خلَقَهم إلا ليعبدوه، ولا بد أن يعبدوه مخلِصين له الدِّين.

ورُوِيَ أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّ على مُعَاذ بن جَبَل، فسأله: «ما قِوَامُ هذه

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤).
(٢) المصدر السابق (١٠/ ٤٩).
(٣) انظر: «درء التعارض» (٨/ ٣٧٤).
(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)؛ ضمن حديث طويل عن عِيَاض بن حِمَار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأمَّة؟ قال مُعَاذ: ثلاثٌ، وهُنَّ المُنجِيات: الإخلاص؛ وهو الفِطْرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. والصلاة؛ وهي المِلَّة. والطاعة؛ وهي العِصْمة؛ فقال عمر رضي الله عنه: صدَقْتَ»[(١)].

ومِن هنا نَعلَمُ شأن الإرادات والمقاصد والنيَّات، وخطَرَها، وعظيم أَثَرها، وفي الحديث: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ اللهِ**»[(٢)].

ولهذا قال يحيى بن أبي كَثِير رحمه الله تعالى: «تعلَّموا النِّيَّة؛ فإنها أبلَغُ مِن العمل»[(٣)]؛ وذلك لأنها تبلُغُ بصاحبها ما لا يبلغُهُ عمله؛ كما سيأتي إن شاء الله.

ويقول ابن أبي جَمْرة ـ وهو أحد شرَّاح «الصحيح» ـ: «وَدِدتُّ أنه لو كان من الفقهاء مَن ليس له شُغْلٌ إلا أن يعلِّمَ الناس مَقاصِدَهم في أعمالهم، ويَقْعُدَ إلى التدريس في أعمال النيات ليس إلَّا؛ فإنه ما أُتِيَ على كثير من الناس إلا من تضييع النيَّات»[(٤)].

ثالثًا: أن الإخلاص هو رُوحُ العمل:

فعمَلٌ لا إخلاص فيه، كجَسَد لا رُوح فيه؛ فالإخلاص من العمَل بمنزِلة الرُّوح من الجسد.

يقول ابن القيِّم رحمه الله: «ومِلاك ذلك كله: الإخلاصُ والصِّدْق؛ فلا يَتعَبُ الصادق المُخلِص؛ فقد أُقِيمَ على الصراط المستقيم، فيُسَارُ به وهو راقد، ولا يَتعَبُ من حُرِمَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٨/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤)؛ بسند صحيح، عن أبي قِلَابة، ويزيد بن أبي نُعَيْم؛ كلاهما عن عمر رضي الله عنه؛ وهذا منقطِع؛ كلاهما لم يسمع من عمر رضي الله عنه. انظر: «تهذيب الكمال» (١٤/ ٥٤٣)، (٣٢/ ٢٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، بلفظ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا**»، وقد حسَّنه ابن مُفلِح في «الآداب» (٢/ ١٢٥)، والألباني في «الصحيحة» (٢٧٩٧)، والمنذري في «الترغيب» (١/ ٥٥).
وأخرجه ابن أبي عاصم في «الزهد» (١٢٧)، والطبراني في «مسند الشاميِّين» (٦١٢)؛ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، بلفظ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ اللهِ**». قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٢٢): «فيه خِدَاش بن المهاجِر؛ ولم أعرِفْه، وبقيَّة رجاله ثقات»، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠١٨)، ورُوِي من حديث جابر بلفظ: «**الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها؛ إلا ما كان منها لله**»؛ أخرجه أبو نُعَيْم في «الحلية» (٣/ ١٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٠٣١)، وصحَّحه السيوطي، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠١٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٧٠).

(٤) «المدخل» لابن الحاج العبدري (١/ ٣).

الصدقَ والإخلاص؛ فقد قُطِعَتْ عليه الطريق واستهوَتْهُ الشياطين في الأرض حيرانَ؛ فإن شاء فليَعمَل، وإن شاء فليَترُك؛ فلا يزيدُهُ عملُهُ مِن الله إلا بُعْدًا، وبالجملة: فما كان لله وبالله، فهو من جُنْدِ النفس المطمئنَّة»(١).

ويقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإخلاص: مِسْكٌ مَصُونٌ في مَسْكِ القلب، ينبِّهُ رِيحُهُ على حامِلِه؛ العمل صورة، والإخلاص رُوح؛ إذا لم تُخْلِصْ، فلا تَتْعَب، لو قَطَعْتَ سائر المنازل ـ في الحج ـ لم تكن حاجًّا إلا بشهود المَوْقِف»(٢).

وهو يريد بهذا: أن الإخلاص محفوظ في هذا الوِعَاءِ الذي هو القَلْب، وأن مَنزِلةَ الإخلاص مِن الأعمال كمَنْزِلةِ الوقوف بعَرَفَةَ مِن أعمال الحج؛ فلو أنَّ الإنسان أَتَمَّ أعمال الحج، ولكنه لم يَقِفْ بعَرَفة، لم يَصِحَّ حجُّه؛ كما هو معلوم.

وتأمَّلْ قوله: «ينبِّهُ رِيحُهُ على حامِله»؛ فالإخلاص لا يحتاج منك إلى إظهار وإعلام بأنك مُخلِص، وإنما يَظْهَر ذلك في حَرَكات الإنسان وسَكَناته، وتَظهَر آثارُهُ عليه، وأمَّا الذي يتصنَّع للناس، ويسعى لإعلامهم بعمله وصلاح قلبه؛ فهذا الذي يُفسِد قلبَهُ ولا يزيده ذلك إلا شَيْنًا في قلوب الخلق، والله المستعان.

وبهذا نَعلَمُ: أن الإخلاص هو عمودُ الأمر وذِرْوةُ سَنَامه؛ لأن العامل بدون إخلاص كَادِحٌ مُتْعِب نفسه، لا أجر له، مع ما عليه من الإثم والعقوبة؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، ويقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ولم يَقُلْ: ليبلوكم أيُّكم أكثر عملًا؛ فليست العِبْرة بالكثرة، إنما العِبْرة بالصواب مع حُسْن القصد، وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(٣).

قال الفُضَيْل بن عِيَاض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]؛ قال: «أَخْلَصُهُ وأصوَبُهُ؛ قال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا، لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا، لم يُقْبَلْ؛ حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السُّنَّة»(٤).

ويقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء؛ كالمسافر؛ يَمْلَأُ جِرابَهُ

(١) «الروح» (٢/ ٦٨١ ـ ٦٨٣).
(٢) «اللطف في الوعظ» (ص٢٧). وانظر: «المدهش» (ص٤٣٤).
(٣) أخرجه البخاري (١)؛ واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧)؛ من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤٥٦)؛ مختصرًا.

رملًا يُثْقِلُهُ ولا يَنْفَعُه»[(١)].

ويقول أيضًا: «النية: سِرُّ العبودية، وهي من الأعمال بمنزلة الرُّوح من الجسد، ومحالٌ أن يكون في العبوديَّة عَمَلٌ لا رُوحَ فيه؛ إذْ هو بمنزلة الجسد الذي لا رُوحَ فيه، وهو جَسَدٌ خراب»[(٢)].

وعن الأحنف بن قيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ **قال**: «رأس الأدب: آلة المَنْطِق؛ لا خير في قول إلا بفِعْل، ولا في مَنظَر إلا بمَخبَر، ولا في مالٍ إلا بجُود، ولا في صديق بلا وفاء، ولا في فِقْهٍ بلا وَرَع، ولا في صدقةٍ إلا بنيَّة، ولا في حياة إلا بصحة وأمن»[(٣)].

رابعًا: أنه لا سبيل إلى الخلاص والانفكاك من التَّبِعات إلا بالإخلاص:

فالإنسان يُحاسَب على أعماله، كما يُحاسَب على نيَّاته وإراداته، وإذا نُصِبَتِ الموازين، ونُشِرَتِ الصحف، أبصَرَ العبد عند ذلك عمله، وعرَفَ حاله ومنزلته عند الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض السلف: ما من فِعْلةٍ وإن صَغُرَتْ إلا يُنشَر لها ديوانان: لِمَ؟ وكَيْفَ؟ أي: لم فَعَلْتَ؟ وكيف فَعَلْتَ؟:

فالأول: سؤال عن عِلَّةِ الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حَظٌّ عاجل من حظوظ العامل، وغرَضٌ من أغراض الدنيا؛ من محبَّة المدح من الناس، أو خوف ذَمِّهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دَفْع مكروه عاجل؟! أم الباعث على الفِعْل القيامُ بحَقِّ العبوديَّة، وطلَبُ التودُّد والتقرُّب إلى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وابتغاءُ الوسيلة إليه؟! ومحلُّ هذا السؤال: أنه هل كان عليك أن تَفعَلَ هذا الفعل لمولاك، أم فعلتَهُ لحَظِّكَ وهواك؟!

والثاني: سؤال عن متابَعةِ الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبُّد؛ أي: هل كان ذلك العمل مما شَرَعْتُهُ لك على لسان رسولي، أم كان عملًا لم أَشْرَعْهُ ولم أَرْضَهُ؟!

فالأوَّل: سؤال عن الإخلاص، **والثاني**: عن المتابَعة؛ فإن الله سبحانه لا يَقبَلُ عملًا إلا بهما؛ فطريق التخلُّص من السؤال الأوَّل: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلُّص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابَعة.

---

(١) «الفوائد» (ص٦٦).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ١١٤١)؛ بتصرف.

(٣) أخرجه ابن العَدِيم في «بغية الطلب» (١/ ٤٥٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٤/ ٣٣٩)، وأورده الذهبي في «السير» (٤/ ٩٣)؛ واللفظ له.

وسلامة القلب: مِن إرادةٍ تعارِضُ الإخلاص، وهوًى يعارِضُ الاتِّباع؛ فهذه حقيقة سلامة القلب التي ضَمِنَتْ له النجاة والسعادة»[١].

ولهذا كان مَعرُوفُ الكَرْخي رَحِمَهُ اللَّهُ **يَحُثُّ نفسَهُ دائمًا، ويردِّد عليها:** «يا نفسُ! أَخلِصي تَتَخَلَّصي.. يا نفسُ! أخلصي تَتَخَلَّصي»[٢].



(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٢ ـ ٤٣).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٧٨)، و«صفة الصفوة» (١/ ٤٧٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٤١).

الإخلاصُ في الكتابِ والسُّنَّةِ

قد ورَدَ الإخلاصُ في كتاب الله تعالى في مواطِنَ كثيرةٍ:

فتارَةً: يأمُرُ الله ﷻ به؛ كقولِه: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وكقوله جلَّ وعلا: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

وتارَةً: يُخبِرُ أنه دعوةُ الله لخلقه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وتارَةً: يُخبِرُ أنَّ الجنةَ لا تصلُحُ إلا لأهلِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٤٣﴾ [الصافات: ٤٠ ـ ٤٣].

وتارَةً: يُخبِرُ أنه المَنْجاةُ مِن شرِّ الشيطانِ وشركِهِ وغيِّه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ الواردةِ في كتاب الله تعالى.

وأمَّا ما ورَدَ في السُّنَّةِ، فكثيرٌ أيضًا، ومِن ذلك:

حديثُ أبي أُمامةَ الباهليِّ ؓ؛ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: أرَأَيْتَ رَجُلًا غزا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ، ما له؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**»... ثُمَّ قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»(١).

وعن أبي هريرة ؓ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢)؛ فالأعمالُ التي تختلِطُ فيها الإراداتُ، ويريدُ أصحابُها وجهَ اللهِ وغيرَه، ويُشرِكُون في قصدهم بين اللهِ وخلقِه؛ فهذه أعمالٌ اللهُ غنيٌّ عنها، وسيُحبِطها يومَ القيامة، ولن يُقِيمَ لها ولا لأصحابِها وزنًا.

وعنه أيضًا ؓ، عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(٣)، وفي روايةٍ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا**

---

(١) أخرجه النسائي (٣١٤٠)، وقال ابن رجب في «شرح الأربعين» (ص٣٨)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٧)، والحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٤): «إسناده جيِّد»، وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٣٨٤)، والألباني في «الصحيحة» (٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/ ٣٤).

إِلَى صُوَرِكُمْ»(١).

وعن عبد الرحمٰن بن أَبْزَى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ إذا أصبَحَ وإذا أمسى: **«أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»**(٢).

وحديثُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**...»(٣) شاهدٌ واضحٌ في الدلالة على هذا المعنى.



(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/ ٣٤)؛ ضمنَ حديثٍ طويل.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧)، وصحَّحه النووي في «الأذكار» (ص١٢٥)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠٥٨)، والألباني في «الصحيحة» (٢٩٩٠)، وحسَّنه الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ٣٨٠).

(٣) تقدم تخريجه.

مراتِبُ الإخلاص

إنَّ العمل الذي يكون خالصًا مقبولًا على مرتبتَيْنِ، إحداهما أعلى مِن الأخرى:

المرتبةُ الأولى: أن يتمحَّضَ القصدُ لإرادةِ وجه الله ﷻ وما عنده من الثواب والجزاء؛ فلا يَشُوبُهُ شيءٌ آخَرُ وإن كان مباحًا؛ فهو يجاهِدُ يريدُ ما عند الله فحَسْبُ، لا يريدُ غنيمةً، فضلًا عن المقاصدِ السيئة؛ كالرياء والسُّمْعة؛ فهو بصومِهِ يريد ما عند اللهِ ﷻ، ولا يلتفِتُ إلى أمرٍ يجوزُ الالتفات إليه؛ كتخفيف الوزن، أو تحسين صِحَّة البَدَن، أو غير ذلك، وكالذي يَمشِي إلى المسجد؛ ليكثِّرَ الخطا التي يتقرَّبُ بها إلى مولاه، ولا يلتفِتُ إلى معنًى آخر؛ فهذا أعلى المراتب.

المرتبةُ الثانية: أن يَقصِدَ العبدُ بالعملِ وجهَ الله ﷻ، ولكنه يلتفِتُ إلى معنًى يجوزُ الالتفات إليه؛ كالذي يَحُجُّ يريدُ وجهَ الله، ويريدُ أيضًا التجارة؛ فهذا لا مانعَ منه؛ فاللهُ ﷻ يقولُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]؛ وهي التجارةُ في مواسم الحجّ، وكالذي يصومُ لله، ولِيَصِحَّ بَدَنُه، وكالذي يحضُرُ لصلاة الجماعة؛ تلبيةً لأمر الله، وطاعةً وعبوديَّةً له، ومع ذلك يلتفِتُ إلى أمرٍ آخَرَ يجوزُ الالتفاتُ إليه؛ كأن تثبُتَ عدالتُهُ، وتُقبَلَ شهادتُهُ؛ لأنَّ الذي لا يحضُرُ مع الجماعةِ لا تثبُتُ له عدالةٌ، ولا تُقبَلُ له شهادةٌ، ولا شكَّ أنَّ المسلم مطالَبٌ بتحصيل الأمور التي تثبُتُ بها عدالتُه ـ وهذا غير الرياء والسُّمْعة ـ فهذا أمرٌ يجوزُ الالتفاتُ إليه، ولكن مَن التفَتَ إليه أو إلى ما يُشبِهُهُ؛ فهو في إخلاصه وعملِهِ دون مَن لم يلتفِتْ إلى شيءٍ غيرِ الله ﷻ.



صعوبةُ الإخلاص

إنَّ الإخلاصَ أمرٌ شاقٌّ على النفسِ، وصعبٌ عليها؛ فيحتاجُ العبدُ في معالجتِهِ إلى مجاهدةٍ عظيمة؛ مِن مراقَبةٍ للخَطَرات والحَرَكات، وكلِّ ما يَرِدُ على قلبه، ويصدُرُ منه، حتى يَتِمَّ له أمرُه، فإذا تَمَّ، كان الإخلاصُ أفضلَ شيءٍ لديه، وأحبَّ شيءٍ إليه.

يقول أُوَيْسٌ القَرَنيّ رَحِمَهُ اللهُ: «إذا قُمْتَ، فادْعُ اللهَ أن يُصلِحَ لك قلبَكَ ونِيَّتك؛ فلن تُعالِجَ شيئًا أشدَّ عليك منهما»[(١)].

وأُوَيْسٌ هذا هو الذي أمَرَهُ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يستغفِرَ له، وذُكِرَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال له في شأنِهِ: «**فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ، فَافْعَلْ**»؛ فما زال عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يسأَلُ عنه كلَّما أتى عليه أمدادُ أهلِ اليمنِ حتى أتى على أُوَيْسٍ وأخبَرَهُ، وأمرَهُ أن يستغفِرَ له، فاستغفَرَ له[(٢)].

ولمَّا رأى أنَّ الناسَ قد فَطِنُوا له، انطلَقَ على وجهِهِ، واختفى في أجنادِ المسلمين، وخرَجَ غازيًا، ولم يُوقَفْ عليه بعدَها، وهو مع هذا كلِّه يقول: «لن تُعالِجَ شيئًا أشدَّ عليك مِن قلبِكَ ونِيَّتِكَ»!

وقال يوسُفُ بنُ أَسْباطٍ رَحِمَهُ اللهُ: «تخليصُ النيةِ مِن فسادِها أشدُّ على العامِلِينَ من طول الاجتهاد»[(٣)]؛ فقد يجاهِدُ العبدُ نفسه طويلًا في مراقبةِ خَطَراته، ومحاسبةِ نفسِهِ على أقوالِهِ وأفعالِه، وحَرَكاتِهِ وسَكَناتِه، ثم يَعجِزُ آخِرَ الأمر، أو يَشُقُّ عليه طُولُ المُكْث في التنقير وشِدَّةِ المحاسبة، وقد يستطيعُ أن يقوم ليلًا طويلًا، ويسرُدَ الصومَ، ولكنه يصعُبُ عليه أن يَضبِطَ قصدَهُ، ويجرِّدَ إخلاصَه.

فلماذا كانت هذه الصعوبةُ؟! ولماذا كانت هذه المشقَّةُ في أصل العبادة، وفي سِرِّ القَبُول؟! ولماذا احتاج إلى هذه المجاهَدة الكبيرة الطويلة حتى آخِرِ اللحظات؛ حينما يفارِقُ الإنسانُ هذه الحياة؟!

أسبابُ صعوبةِ الإخلاص، وشيءٌ من طرقِ علاجِه:

كلُّ ذلك كان لأسبابٍ، **منها**:

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ٥٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٢)؛ من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٩٤٦).

أولًا: أنَّ الإخلاص لا نصيبَ للنفس فيه[(١)]؛ فكثيرٌ من الأعمال التي للنفس فيها حَظٌّ عاجلٌ قد لا تضطرِبُ على الإنسان فيه نيَّته، أما الإخلاصُ: فالإنسانُ يجرِّدُ فيه نفسَهُ في قصدها مِن كلِّ إرادة والتفات؛ فلا يلتفِتُ إلى حظٍّ عاجلٍ مِن حظوظِ الدنيا مما للنفسِ إليه مَطْمَع؛ كتعظيمِ الناسِ له، والثناءِ عليه، وغيرِ ذلك؛ ومِن ثَمَّ: كان الإخلاصُ عسيرًا على النفسِ؛ لتنزُّهها عن إرادةِ ما لا حظَّ لها فيه؛ في جملةِ أعمالها، واختلافِ أحوالها.

ثانيًا: أنَّ الخواطِرَ التي تَرِدُ على القلب لا تتوقَّف؛ فالقلبُ ـ كما تقدَّم ـ إنما سُمِّيَ قَلْبًا؛ لكثرةِ تقلُّبه، وقيل له: الفؤادُ أيضًا؛ لكثرةِ تفوُّده؛ فهو متوقِّدٌ بالوارداتِ والخواطر.

فلمَّا كان الإخلاصُ بتلك المَثَابةِ، شَقَّ على العبد أن يلاحِظَهُ في كلِّ حَرَكاته، وصَعُبَ عليه أن يَضبِطَهُ في كلِّ لَحَظاتِه.

ولهذا قال سفيان الثوريُّ رحمه الله تعالى: «ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نيَّتي؛ إنَّها تَقلَّبُ عليَّ»[(٢)].

وقال بعضُهم: «اثنتانِ أنا أُعالجُهما منذ ثلاثينَ سنةً: تَرْكُ الطَّمَع فيما بيني وبين الناس، وإخلاصُ العمل للهِ ﷻ»[(٣)].

ويقول يوسف بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعزُّ شيءٍ في الدنيا: الإخلاصُ، وكم أجتهِدُ في إسقاطِ الرياءِ عن قلبي؛ فكأنه ينبُتُ على لونٍ آخر!»[(٤)]؛ أي: يجاهِدُهُ من هذه الناحية، ويَسُدُّ هذا الباب، فينبُتُ له من ناحيةٍ أخرى، فقد يُثنِي عليه بعضُ الناس، فيَرُدُّ الثناء، ويتنقَّص نفسه، ويَصِفُها بالمعايب، ثم يقومُ فيتكلَّم وهو يحتقِرُ النفس، فينقدِحُ في قلبِه إبرازُ جانب التواضع والإخبات، وعدمِ الالتفات للنفس، وأنه ليس من أهل العُجْب.

وقد يقولُ مثلًا: البارحةَ في ساعةٍ متأخِّرةٍ من السَّحَر سمعتُ كذا وكذا، ثم يقولُ: لكنِّي لم أكن في قيام، وإنما قُمْتُ لحاجة، فهذا يطرُدُ الرياء؛ كما جاء عن حُصَيْن بن عبد الرحمٰن؛ قال: «كنتُ عند سعيد بن جُبَيْر، فقال: أيُّكم رأى الكوكبَ الذي انقَضَّ

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٩٢).

(٢) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٦٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٦٢)، وفيها: «نفسي»، بدل: «نيَّتي».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٧١).

(٤) أخرجه القشيري في «رسالته» (٢/ ٣٦٢)، وأورده ابن عساكر في «تاريخه» (٧٤/ ٢٢٦).

البارحةَ؟ قلتُ: أنا، ثم قلتُ: أَمَا إني لم أكن في صلاةٍ، ولكني لُدِغْتُ»[١]؛ فهذا قالها لدفعِ الرياء من قلبه، ولكنَّ الإنسان قد يقولها خالصًا، فينقدِحُ له عند ذلك معنى؛ وهو أن يَظْهَرَ في أعين الناس غيرَ مُرَاءٍ؛ فأمرٌ بهذه المَثَابة كيف نستطيعُ أن نَضبِطَهُ في كلِّ لحظةٍ مِن لحظاتِنا، وفي كل حركة من حركاتِنا؟!

فالإنسانُ قد يذكُرُ أشياءَ من جهودٍ طيِّبة، ومشاريعَ خَيِّرةٍ، وقد يَفهَمُ منه السامعُ أنه هو الذي قام به، ثم يستدرِكُ ويقول: «عِلْمًا بأن هذه الأمور ليس لي منها شيء، ولم أصنعْ منها شيئًا»؛ فهذا كلامٌ جيد، فهو يَدفَعُ عن النفس الرياء، لكنْ قد ينقدِحُ في نفسِهِ وهو يقولُ هذا الكلام ما يُفسِدُ عليه أمره؛ وهو أنه ليس ممن يتشبَّعُ بما لم يُعْطَ ونحو ذلك.

ولا نعني بهذا المَلحَظِ تركَ التنزُّهِ عن الرياء في كلِّ حال، وإنما المرادُ التنبيهُ إلى عظيمِ شأن الإخلاص، وأنَّ تنقيةَ القلبِ مما يشوبه يحتاجُ إلى جهدٍ كبير، ومعاناةٍ حتى آخِرِ العمر، وأنَّ هذه المجاهَدةَ يحتاجُها العبدُ في كل حال من أحواله، ولا يجوزُ له إهمالُها، ولا يحسُنُ به تركُها؛ فيحتاجُ إلى بَصَرٍ نافذٍ في خطراتِهِ وحركاتِهِ وسَكَناتِه، وكما أنَّ للنفسِ حظوظًا في كلِّ حالٍ رافع؛ فإن لها أيضًا حظوظًا في غيرِ حالٍ تضع منها؛ فكم لها مِن حظٍّ عند ذكرها بالتنقُّصِ والمعايب، وغَضِّ الطَّرْفِ عن مَدْحِها وإبرازِ المثالب!

ثالثًا: ما جُبِلَ عليه الإنسانُ من حبِّ الشهوات؛ قال الله ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

فأخبَرَ الله تعالى: «أنَّ الناسَ زُيِّنَتْ لهم هذه الأمورُ، فرمَقُوها بالأبصار، واستحلَوْها بالقلوب، وعكَفَتْ على لَذَّاتِها النفوس، كلُّ طائفة من الناسِ تميلُ إلى نوعٍ من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبَرَ همِّهم، ومبلغَ عِلْمِهم، وهي مع هذا متاعٌ قليلٌ مُنقَضٍ في مُدَّةٍ يسيرة»[٢].

وبدَأَ اللهُ تعالى بالنساء؛ لأنَّ الفتنةَ بهنَّ أشدُّ، ثم ذكَرَ البنين، وهم من يُتقوَّى بهم، ويُفتخَرُ بهم ويُعتَزّ، ثم المالَ الذي قد يَجمَعُهُ للفخرِ والخُيَلاء، والتكبُّرِ على الضعفاء، والتجبُّرِ على الفقراء.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠)، وأصله في البخاري (٥٧٠٥)؛ مطوَّلًا دون محل الشاهد.

(٢) من كلام ابن سعدي في «تفسيره» (١/ ٢١٠).

ثم ذكَرَ المراكبَ الحسَنة من الخيل المسوَّمة، ثم ما أنعَمَ به على الناسِ من بهيمة الأنعام، والأرضِ المتخَذةِ للزراعةِ والغَرْس.

فهذا مِن أعظم ما تَطْمَحُ إليه نفوسُ الناسِ من زينة الحياة الدنيا، ولكنَّ الشهواتِ لا تقتصِرُ على ذلك، والنفوسُ لا تتعلَّق بهذا وحده، وإنما هناك أمورٌ خفيَّةٌ أعظمُ من هذا، يبذُلُ لها العبدُ ماله، بل ونفسَهُ، فضلًا عن مراكبه وحُرُوثه، من أجل أن يحقِّقَ شهوةً هي أكبرُ وأجلُّ في نفسه، وهي لذةُ الرياسة والشهرة، والمنزلةِ في قلوب الخلق، والمَحمَدةِ في نفوسهم.

فهي لذةٌ تُبذَلُ في سبيلها الأموالُ والمُهَج؛ فربَّما أنفَقَ الرجلُ ماله ليقال: جَوَادٌ، وربما قاتل الأبطالَ ونازل البُسَلاءَ ليقالَ: شُجَاعٌ؛ فهذا أبو الهيثم العَيَّارُ قد ضُرِبَ ثمانيةَ عشَرَ ألفَ سوطٍ بالتفاريق على اللّصُوصيَّة وغيرها، وكان يقولُ: «صبَرْتُ في ذلك على طاعةِ الشيطانِ لأجلِ الدنيا»(١).

ولما قال له الخليفةُ المتوكِّلُ: ما بلَغَ مِن جَلَدِك؟ قال: املأْ لي جرابي عَقَارِب، ثم أَدخِلْ يدي فيه، وإنه ليؤلمني ما يؤلمك، وأَجِدُ لآخِرِ سوطٍ من الألم ما أجدُ لأوَّلِ سوط، ولو وَضَعْتَ في فمي خِرْقةً وأنا أُضرَبُ، لاحتَرَقَتْ مِن حرارةِ ما يخرُجُ من جوفي، ولكنني وَطَّنْتُ نفسي على الصبر، فقال له الفَتْحُ: وَيْحَكَ مع هذا اللسانِ والعقلِ ما يدعوك إلى ما أنت عليه من الباطل؟ فقال: أُحِبُّ الرياسةَ!

قال داودُ بن عليٍّ: لما قُدِمَ بخالدٍ ـ وهو اسمُ أبي الهيثم ـ اشتهَيْتُ أن أراه، فمضَيْتُ إليه فوجدتُّهُ جالسًا غير متمكِّنٍ لذَهَابِ لحم أَلْيَتَيْهِ مِن الضرب، وإذا حوله فتيانٌ، فجعلوا يقولون: ضُرِبَ فلان، وفُعِلَ بفلان كذا، فقال لهم: لا تتحدَّثوا عن غيرِكم، افعَلُوا أنتم حتى يتحدَّثَ عنكم غيرُكم(٢)!

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ **تعليقًا على ذلك**: «فانظُروا إلى الشيطانِ؛ كيف يتلاعَبُ

(١) قال ذلك للإمام أحمد؛ يقولُ عبد الله بن أحمد بن حنبل: «كنتُ كثيرًا أسمعُ والدي يقولُ: رَحِمَ اللهُ أبا الهيثم! غفَرَ اللهُ لأبي الهيثم! عفا الله عن أبي الهيثم! فقلت: يا أبة! مَن أبو الهيثم؟ قال: لا تعرفه؟ قلتُ: لا، قال: أبو الهيثم الحدَّاد، اليوم الذي أُخْرِجْتُ للسياط، ومُدَّتْ يداي للعقابين، إذا أنا بإنسانٍ يجذِبُ ثوبي مِن ورائي ويقولُ لي: تعرفني؟ قلتُ: لا، قال: أنا أبو الهيثم العَيَّار، اللصُّ الطَّرَّار، مكتوبٌ في ديوان أمير المؤمنين: أني ضُرِبْتُ ثمانيةَ عشَرَ ألفَ سوطٍ بالتفاريق، وصبَرْتُ في ذلك على طاعةِ الشيطانِ لأجلِ الدنيا؛ فاصبِرْ أنت في طاعةِ الرحمٰنِ لأجلِ الدِّين»؛ أخرجه ابن الجوزي في «المناقب» (ص٤٥٠).

(٢) انظر: «تلبيس إبليس» (ص٤٤٤ ـ ٤٤٥).

بهؤلاءِ؛ فيصبرونَ على شدَّة الألم ليحصُلَ لهم الذِّكْرُ، ولو صبَرُوا على يسيرِ التقوى لحصَلَ لهم الأَجْرُ»[(١)].

وآخَرُ ـ وهو ممن أسَّس مُلْكًا في الأندلس ـ «أُهدِيَتْ إليه جاريةٌ جميلة؛ فنظَرَ إليها، وقال: إنَّ هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغَلْتُ عنها بهمَّتي فيما أطلُبُهُ، ظلمتُها، وإن اشتغَلْتُ بها عمَّا أطلُبُهُ، ظلمتُ همتي، ولا حاجة لي بها الآن، وردَّها على صاحبها»[(٢)].

وقد أشار النبيُّ ﷺ إلى تلك الفتنةِ العظيمةِ مبيِّنًا عظيمَ أثرها الفاسد على دِين العبد بقوله: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المَالِ والشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[(٣)]، فذكَرَ حُبَّ الرياسة والتطلُّع إلى الناس، وطلَبِ المَحمَدة.

وقد قيل: «حُبُّ الرياسةِ آخِرُ ما يخرُجُ من قلوب الصِّدِّيقين»[(٤)].

وقال سفيانُ الثوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ الزهدَ في شيءٍ أقلَّ منه في الرياسة؛ ترى الرجلَ يزهدُ في المطعم والمشرب، والمال والثياب؛ فإذا نُوزِعَ في الرياسة، حامى عليها وعادى»[(٥)].

وقال أبو العَتَاهِيَة[(٦)]:

حُبُّ الرِّيَاسَةِ أَطْغَى مَنْ عَلَى الأَرْضِ ... حَتَّى بَغَى بَعْضُهُمْ مِنْهَا عَلَى بَعْضِ
إِنَّ الْقُنُوعَ لَزَادٌ إِنْ رَضِيتَ بِهِ ... كُنْتَ الغَنِيَّ وَكُنْتَ الْوَافِرَ العِرْضِ

وقيل[(٧)]:

حُبُّ الرِّيَاسَةِ يَا لَهُ مِنْ دَاءِ ... كَمْ فِيهِ مِنْ مِحَنٍ وَطُولِ عَنَاءِ
طَلَبُ الرِّيَاسَةِ فَتَّ أَعْضَادَ الْوَرَى ... وَأَذَاقَ طَعْمَ الذُّلِّ لِلْكُبَرَاءِ
إِنَّ الرِّيَاسَةَ دُونَ مَرْتَبَةِ التُّقَى ... فَإِذَا اتَّقَيْتَ عَلَوْتَ كُلَّ عَلَاءِ

فهذه الأمورُ التي جُبِلْنا عليها تؤثِّر على الإخلاص؛ فيكونُ شديدًا عسيرًا على

---

(١) المصدر السابق.
(٢) «نفح الطِّيب» (٣/ ٤٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)؛ من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي الباب: عن ابن عمر، وأبي هريرة، وابن عباس، وأسامة بن زيد، وأبي سعيد، وجابر، وعاصم بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأبي جعفر؛ مرسلًا؛ كما في «ذم الجاه والمال» لابن رجب، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٣٢٢٨)، والمنذري في «الترغيب» (٤/ ١٧٧)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٣٢٥٠)، وحسَّنه البغوي (٤٠٥٥).
(٤) أورده في «نفح الطِّيب» (٥/ ٢٦٠)، منسوبًا إلى عبد الرحمٰن بن عفَّان الجُزُولي.
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٩).
(٦) «ديوان أبي العتاهية» (ص٢٤٢).
(٧) **القائل**: ابن ليون التُّجِيبي. «نفح الطِّيب» (٥/ ٥٨٢).

النفس؛ ورَحِمَ اللهُ أبا سليمانَ الدَّارَانيَّ إذ يقول: «أفضلُ الأعمالِ خلافُ هوى النفس»[(١)].

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وقد اتفَقَ السالكون إلى اللهِ على اختلافِ طُرُقِهم، وتبايُنِ سلوكِهم: على أنَّ النفسَ قاطعةٌ بين القلبِ وبين الوصولِ إلى الربّ، وأنه لا يُدخَلُ عليه سبحانه ولا يُوصَلُ إليه إلا بعد إماتتِها، وتركِها بمخالَفتِها والظَّفَر بها.

فإنَّ الناس على قسمَيْن:

قسمٌ: ظَفِرَتْ به نفسُهُ فملَكَتْهُ وأهلَكَتْهُ، وصار طَوْعًا لها تحت أوامرها.

وقسمٌ: ظَفِروا بنفوسِهم فقهَرُوها، فصارت طوعًا لهم، منقادةً لأوامرهم.

قال بعضُ العارفين: انتهى سَفَرُ الطالبين إلى الظَّفَرِ بأنفسِهم؛ فمَن ظَفِرَ بنفسه، أفلَحَ وأنجح، ومَن ظَفِرَتْ به نفسُهُ، خَسِرَ وهَلَك؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١]؛ فالنفسُ تدعو إلى الطغيانِ وإيثارِ الحياةِ الدنيا، والربُّ يدعو عبده إلى خوفِهِ ونَهْيِ النفس عن الهوى، والقلبُ بين الداعيَيْنِ، يميلُ إلى هذا الداعي مرةً، وإلى هذا مرةً؛ وهذا موضعُ المِحْنةِ والابتلاء»[(٢)].



(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٤/ ١٢٧).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٧٥).

ثمراتُ الإخلاص وآثارُهُ السلوكيَّة[1]

وهذه الآثارُ على قسمَيْن:

- آثارٌ معجَّلةٌ تحصُلُ للعبد في الدنيا.
- وآثارٌ مؤجَّلةٌ يجدُها في آخرتِه.



(١) وفيه شيءٌ من تحقيقِ الإخلاصِ ودفعِ الرياء.

الآثارُ المعجَّلةُ للإخلاص

وهي كثيرةٌ جِدًّا، **ومنها:**

أولًا ـ وهو أجلُّها وأعظَمُها ـ: أنَّ الإخلاصَ هو أصلُ القَبُول عند الله، ورُوحُ القُرْبى، ولباسُ التقوى:

بحيثُ إنه إذا أُلبِسَهُ أيُّ عملٍ ـ ولو كان مِن المباحات والعادات ـ تحوَّل إلى عبادةٍ وقُرْبة، فإذا قام العبدُ بشيءٍ من الأمورِ المباحة؛ كالنوم، أو الأكل، أو الشرب، أو المَشْي، أو غير ذلك، يريدُ به التقرُّب إلى الله ﷻ؛ كأن يقوِّيَ بدنَهُ ليُجاهِدَ في سبيلِ الله، أو ينامَ في النهارِ ليقومَ مِن الليل، أو يأكُلَ ليتقوَّى على الطاعة: صارت تلك المباحاتُ في حقِّه قُرُبات؛ وعلى هذا كان السلف.

قال زُبَيْدٌ اليامِيّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَسُرُّني أن يكونَ لي في كلِّ شيءٍ نيةٌ حتى في الأكل والنوم»(١)؛ وسيأتي في ذكر حال السلف ما يتعلَّقُ بهذا المعنى.

ثانيًا: إلقاءُ القَبُولِ لصاحبِهِ في الأرض، مع وفور المَهَابة في قلوب الخَلْق:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وقد جرَتْ عادةُ اللهِ التي لا تبدَّلُ، وسُنَّتُهُ التي لا تحوَّلُ: أن يُلبِسَ المخلِصَ ـ مِن المهابة والنُّور والمحبَّة، في قلوب الخَلْق وإقبال قلوبهم إليه ـ ما هو بحَسَبِ إخلاصه ونيَّته ومعامَلته لربِّه، ويُلبِسَ المرائِيَ اللابسَ ثَوْبَي الزُّور ـ مِن المقت والمهانة والبِغْضة ـ ما هو اللائقُ به؛ فالمخلِصُ: له المهابةُ والمحبَّة، وللآخَرِ: المقتُ والبغضاء»(٢).

ولذلك: فمَن كان مِن أصحاب الإخلاص، فإنَّ الله يَجعَلُ له في عمله القَبُولَ، ويَعُمُّهُ بالخير والبَرَكة.

فقد قيل لحَمْدون بن أحمد القَصَّار: «ما بال كلام السلف أنفَع مِن كلامنا؟ قال: لأنهم تكلَّموا لِعِزِّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمٰن، ونحن نتكلَّم لعِزِّ النفس، وطلب الدنيا، وقَبُول الخلق»(٣).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٩٥)، والفسوي في «تاريخه» (٢/ ٧١٤)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤٨٩)، والخطيب في «الجامع لآداب الراوي» (٦٩٦).

(٢) «إعلام الموقعين» (٦/ ١٠٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣١).

وحينما أَلَّف الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ «الموطَّأ»، قيل له: «شَغَلْتَ نَفْسَكَ بعمل هذا الكتاب، وقد شرَكَكَ فيه الناس، وعَمِلوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عَمِلوا، فأُتِيَ بذلك، فنظَرَ فيه، ثم نبذه، وقال: لَتَعلَمُنَّ أنه لا يرتفِعُ مِن هذا إلا ما أريد به وجهُ الله»[1].

وذكر ابن عَقِيل الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: أن أبا إسحاق الفيروزآبادي كان: «لا يُخرِجُ شيئًا إلى فقيرٍ إلا أحضَرَ النيَّة، ولا يتكلَّم في مسألة إلا قدَّم الاستعانةَ بالله، وإخلاصَ القصد في نصرة الحق، دون التزيُّن والتحسين للخلق، ولا صنَّف مسألة إلا بعد أن صلى ركعات؛ فلا جرَمَ شاع اسمه، واشتهَرَتْ تصانيفه شرقًا وغربًا؛ هذه بَرَكات الإخلاص»[2].

وعن ابن السَّمَّاك؛ قال: «قال ذَرٌّ لأبيه عمر بن ذَرٍّ: ما بالُ المتكلِّمين يتكلَّمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلَّمْتَ يا أبتِ، سمعتُ البكاء مِن ههنا وههنا؟! فقال: يا بُنَيَّ! ليستِ النائحةُ المستأجَرَةُ؛ كالنائحةِ الثَّكْلَى»[3].

ثالثًا: أنَّ الإخلاصَ هو الطريقُ إلى مَحَبَّةِ الله عَزَّ وَجَلَّ ونصرِهِ ورعايتِه:

فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول عن أهل بَيْعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]؛ فرتَّب إنزال السكينة عليهم وإثابَتَهم فتحًا قريبًا، على عِلْمِهِ بما في قلوبِهم من إخلاص وصدق وصِحَّة إرادة وقَصْد، ومعلوم: أن الحكم المرتَّب على وصفٍ يزيدُ بزيادته، وينقُصُ بنقصانه؛ فكلما زاد إخلاص العبد، زادت هذه الأمور التي تتنزَّل عليه من نَصْر الله عَزَّ وَجَلَّ، وطمأنينة القلب، وسكينة النَّفْس.

والتعقيب بالفاء في قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾، بعد قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، يَدُلُّ على أن سبب نزول السكينة عليهم، وسبب إثابتهم هذا الفتحَ القريبَ: هو عِلْمُهُ بما في قلوبِهم من إخلاص؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الإخلاص سببٌ للانتصار على العَدُوّ، ونزولِ السكينة في قلوب المؤمنين؛ سواءٌ عند القتال، أو عندما يُرجِفُ بهم الناس من كلِّ جانب، ويخوِّفونهم بالذين مِن دونه عَزَّ وَجَلَّ.

(١) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ٨٦).
(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ١١٢٢).
(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٣٥٧)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١١٠)؛ واللفظ له.

وفي الحديث: «**إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا؛ بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ**»(١).

ولهذا؛ ينبغي للمجاهِدين أن يُخبِتوا لله ﷻ، ويُراقِبوا مقاصِدَهم ونيَّاتهم، وألَّا يصدُرَ منهم قولٌ ولا فِعْلٌ ينافي الإخلاص؛ لأنهم قد يُهزَمُون بسبب هذه المقاصد والإرادات السيِّئة؛ فإياك يا عبد الله، أن يَشتَدَّ بأسُك ووعيدُك وتهديدُك على العدو، مِن أجل معنًى فاسدٍ في نفسك، وإياك أن تُهَروِلَ إلى ساحات الوغى، وتُلقِيَ بنَفْسك إلى تلك الأهوال، وليس لك في ذلك نيَّةٌ حَسَنة.

رابعًا: بالإخلاصِ يكثُرُ العملُ ويتعاظَمُ:

فالإخلاصُ يكثُرُ به قليلُ العمل، ويعظُمُ به حقيرُهُ وصغيره؛ لأنَّ الله ﷻ ينمِّيه لصاحبِه ويبارِكُ له فيه، حتَّى إنه لَيَجِدُ ذلك العملَ يوم القيامة فوق ما يَحتسِب.

ويدلُّ لذلك: حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ؛ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ**»(٢).

وهذا مع زكاةِ الصدقةِ وطِيبِها فلتمامِ الإخلاص؛ ولذلك تجدُ أكثرَ آفات التصدُّق من الرياء.

وتجد بعض الناس يَعمَلون أعمالًا هي في أعيُنِ أصحاب الهِمَم حقيرة، ثم ما تَلبَثُ أن تَحِلَّ بها من بَرَكات الله ما يعظُمُ بها حقيرُها، ويكثُرُ بها قليلُها، وتُحمَدُ بها آثارُها، فليست العِبْرةُ بالكَثْرة؛ قال أبو بكر بن عيَّاش: «ما سبَقَكم أبو بكرٍ بكَثْرةِ صوم ولا صلاة، ولكنْ بشيءٍ وقَرَ في قلبِه»(٣).

---

(١) أخرجه النسائي (٣١٧٨)؛ من حديث سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٤٠٩)، وقال: «على شرط الشيخَيْن»، وأصله في البخاري (٢٨٩٦) مختصرًا، بلفظ: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ؟!**».

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)؛ واللفظ له.

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٠٢)، و«المنار المُنِيف» (ص١١٥)، وأخرجه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١١٨)، وأورده الحكيم الترمذي في «النوادر» (ص٢٦١، ٣٤٥)، والسَّفَّاريني في «غذاء الألباب» (١/ ٤٨)؛ من قول بكر المُزَني. ويُروَى مرفوعًا، ولا أصل له؛ قال العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٣): «لم أجده مرفوعًا». وانظر: «غاية النهاية» (١٣٢٧)، و«الضعيفة» (٩٦٢).

وتجدُ آخَرينَ يعملونَ أعمالًا كبيرةً، ويُنفِقُونَ لأجلِها أموالًا كثيرةً، ولا يكادُ ينتفِعُ بها أحدٌ؛ لأنَّ الله لم يبارِكْ فيها؛ فإنَّ مِن أَطَمِّ الرزايا سُوءَ النية.

ولهذا يقولُ ابنُ المبارَك رَحِمَهُ اللَّهُ: «رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمُهُ النيَّة، ورُبَّ عملٍ كبيرٍ تصغِّرُهُ النيَّة»[(١)].

وكان أحدُ السلفِ يُوصي بعضَ إخوانه فيقولُ: «أَخلِصِ النيةَ في أعمالِكَ يَكْفِكَ القليلُ مِن العمل»[(٢)].

وقد أخبَرَنا ربُّنا عَزَّ وَجَلَّ عن المجاهِدِينَ الصادِقين، فقال: ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾**﴾ [التوبة: ١٢٠].

فأعمالُ المجاهِدِينَ لا يُكتَبُ منها ما زاولوه عند مواجَهةِ العدِّو فقطْ، وإنما يُكتَبُ لهم كلُّ عملٍ عملوه بمجرَّدِ الخروجِ مِن بيوتِهم حتى يَرجِعوا، بل يُكتَبُ لهم كلُّ شيءٍ زاولوه وعملوه ولو لم يَلْقَوْا عدوًّا، أو يُشهِرُوا سلاحًا.

وهكذا؛ كلُّ مَن خرَجَ في طاعةِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كمَن خرَجَ حاجًّا أو معتمِرًا؛ فكلُّ نفقةٍ أنفَقَها، وكلُّ خُطْوةٍ خطاها تُكتَبُ له في صحيفةِ أعمالِه.

وكذا؛ مَن توجَّه إلى مسجِدِه، أو إلى مدرستِه، أو إلى أيِّ مكانٍ للدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنه يُؤجَرُ على ذلك، ويُكتَبُ له مَمشَاهُ، وتُكتَبُ له نفقَتُهُ وكلُّ ما فعله على أصل نيَّته ومَخرَجِهِ هذا.

ويبيِّن ذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِيمَانًا بِاللهِ وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٣)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه قال: «**الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: فَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَلِرَجُلٍ وِزْرٌ؛ فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ، فَالرَّجُلُ يَتَّخِذُهَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَيُعِدُّهَا لَهُ؛ فَلَا تُغَيِّبُ شَيْئًا فِي بُطُونِهَا إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ أَجْرًا، وَلَوْ رَعَاهَا فِي مَرْجٍ، مَا أَكَلَتْ مِنْ**

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٧٠).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٧٨)، وقد رُوِيَ مرفوعًا من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٦)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٦٤٤٣، ٦٤٤٤)، وصحَّحه الحاكم، وضعَّفه البيهقي، والألباني في «الضعيفة» (٢١٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٥٣)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شَيْءٍ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا أَجْرًا، وَلَوْ سَقَاهَا مِنْ نَهْرٍ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ قَطْرَةٍ تُغَيِّبُهَا فِي بُطُونِهَا أَجْرٌ ـ حتى ذكَرَ الأجرَ في أَبْوَالِها وأَرْوَاثِها ـ **وَلَوِ اسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا أَجْرٌ**»(١).

وقال داود الطائي رَحِمَهُ اللهُ: «رأيتُ الخيرَ كلَّه إنما يَجمَعُهُ حُسْنُ النيَّة، وكفاك بها خيرًا وإن لم تَنصَبْ»(٢).

خامسًا: أن صاحب الإخلاص يثبُتُ على العمل، ويستمِرُّ فلا ينقطِع عن دَأَبِهِ فيه:

فالإخلاص يَمُدُّ أصحابه بقوَّة الاستمرار؛ لأن الذي يَعمَلُ لغير الله سَرْعانَ ما ينقطِعُ إذا لم يجد ما يَسُدُّ شهوته، ويحصِّلُ به بغيته، وأمَّا الذي يَعمَلُ لوجه الله، فوجهُ الله باقٍ إذا غابت الوجوه؛ ولهذا قيل: «ما كان لله دام واتصَلْ، وما كان لغير الله انقطَعَ وانفصَلْ».

ونكتة المسألة: أن المُخلِصَ مُوقِنٌ بالعطاءْ، راضٍ بالنَّسَاءْ، محتسِبٌ عند البلاءْ، وأمَّا العاملُ لطلَبِ نَوْلٍ ينقطِع؛ فإنه ينقطِعُ بانقطاعه، أو لإقبال وجه ينصرِف؛ فإنه ينصرِفُ بانصرافه؛ فأين هذا ممن يَعمَلُ لوجهٍ لا ينصرِفُ حين تنصرِفُ الوجوه، ولنَوْلٍ لا ينقطِعُ حين ينقطِعُ النَّوَال؟!

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فمَن أحبَّ شيئًا لغير الله، فالضررُ حاصلٌ له إن وُجِدَ أو فُقِد:

فإن فُقِدَ، عُذِّبَ بالفراق وتألَّم.

وإن وُجِدَ، فإنه يحصُلُ له من الألم أكثَرُ مما يحصُلُ له من اللذَّة؛ وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء، وكلُّ مَن أحبَّ شيئًا دون الله لغير الله، فإن مضرَّته أكثَرُ مِن منفعته.

فصارت المخلوقات وبالًا عليه إلا ما كان لله وفي الله؛ فإنَّه كمالٌ وجمالٌ للعبد؛ وهذا معنى ما يُروَى عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ**»(٣)»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧)؛ واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٦٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩).

سادسًا: ما يجده صاحبُهُ مِن إجابةِ الدعاء، وانشراحِ الصدر، والسعادةِ الغامرة، واللَّذَّةِ التي لا تدانيها لَذَّة:

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ـ وهو يذكُرُ درجاتِ الناس فيما يجدونه من ثَمَراتِ التوحيدِ والإخلاصِ والتوكُّل ـ: «ومنهم: مَن وجَدَ حقيقة الإخلاص، والتوكُّل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقَطْعِ التعلُّقِ بما سواه، وجرَّب مِن نفسه: أنه إذا تعلَّق بالمخلوقين ورجاهم وطَمِعَ فيهم أن يَجلِبُوا له منفعةً أو يَدفَعُوا عنه مضرَّة، فإنه يُخذَلُ مِن جهتهم، ولا يحصُلُ مقصوده، بل قد يبذُلُ لهم من الخِدْمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقتَ حاجته إليهم فلا ينفعونه؛ إمَّا لِعَجْزِهم، وإمَّا لانصراف قلوبهم عنه، وإذا توجَّه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصًا له الدِّين، أجاب دعاءه، وأزال ضَرَره، وفتح له أبواب الرحمة؛ فمِثْلُ هذا قد ذاق من حقيقة التوكُّل والدعاء لله ما لم يَذُقْ غيره.

وكذلك: مَن ذاق طعم إخلاصِ الدِّين لله، وإرادةِ وجهه دون ما سواه، يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده مَن لم يكن كذلك، بل مَن اتبع هواه في مثل طلب الرياسة والعُلُوّ، وتعلُّقِهِ بالصور الجميلة، أو جمعِهِ للمال، يَجِدُ في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبَّرُ عنه، وربما لا يطاوِعُهُ قلبه على ترك الهوى، ولا يحصُلُ له ما يَسُرُّه، بل هو في خوف وحزن دائمًا، إنْ كان طالبًا لما يهواه، فهو قبل إدراكه حزينٌ متألِّمٌ؛ حيث لم يحصُلْ، فإذا أدركه، كان خائفًا مِن زواله وفِرَاقه.

وأولياءُ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنُون؛ فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوةَ الإخلاص لله والعبادة، وحلاوةَ ذكرِه ومناجاتِه وفهمِ كتابه، وأسلَمَ وجهه لله وهو محسِن؛ بحيث يكون عمله صالحًا، ويكون لوجه الله خالصًا؛ فإنه يَجِدُ من السرور واللذَّة والفَرَح ما هو أعظَمُ مما يَجِدُهُ الداعي المتوكِّلُ الذي نال بدعائه وتوكُّله ما ينفعه من الدنيا، أو اندفَعَ عنه ما يَضُرُّه؛ فإن حلاوة ذلك هي بحَسَب ما حصل له من المنفعة، أو اندفَعَ عنه من المضرَّة، ولا أنفَعَ للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أَضَرَّ عليه من الإشراك، فإذا وجَدَ حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، مع حقيقة التوكُّلِ التي هي حقيقة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، كان هذا فوقَ ما يجده كلُّ أحد لم يَجِدْ مثلَ هذا، والله أعلم»[١].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٥٠ ـ ٦٥٢).

ويقول ابن حَزْم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا تعقَّبْتَ الأمور كلها، فسَدَتْ عليك، وانتهَيْتَ في آخر فِكْرَتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلى أن الحقيقة إنما هي العملُ للآخرة فقطْ؛ لأنَّ كل أملٍ ظَفِرْتَ به، فعقباه حُزْن؛ إمَّا بذَهَابه عنك، وإمَّا بذَهَابك عنه، ولا بد من أحد هذَيْنِ الشيئين، إلا العمَلَ لله عَزَّوَجَلَّ؛ فعقباه على كل حالٍ سرورٌ في عاجل وآجل؛ أمَّا العاجل: فقلَّة الهَمِّ بما يهتَمُّ به الناس، وإنك به معظَّمٌ من الصديق والعدو، وأما في الآجل: فالجَنَّة»(١).

وهذا أمر يجده كلُّ أحدٍ مِن نفسه؛ فالذي يَعمَلُ وهو يتطلَّع للآخرين، فإن قلبه يَحترِق؛ لأنهم قد يَرضَوْنَ عن فعله، وقد لا يَرضَوْنَ؛ فلا يزال قلبه معلَّقًا بهم، يراقِبُ حركاتِهم وسكناتِهم، وينظُرُ في ألفاظهم، ويستغرِقُ في فكره متسائلًا: هل هم راضون عنه، أو أنهم ساخطون عليه؟ ومعلوم: أن رضا الناس غاية لا تُدرَك، فيبقى العبد وقلبه يتماوَجُ في قَلَقِه، فإذا حصَّل بغيَتَهُ أَبْأَسَتْهُ مخاوفُ الانقطاع، وأقلقته هواجسُ النفس: هل يستمِرُّ له هذا الرضا والقَبُول؟ وهل يَدُومُ ذلك التقدير والإكرام، أو أنه سينقطع ويزول؟!

ولا أروَحَ لقلب العبد من أن يتعلَّق بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فيكون الله هو مقصوده، وتَنشغِلَ همَّته في طلب مرضاته؛ فحينئذٍ: يستريحُ القلب من عَنَت تلك الوجوه؛ بمَن عَنَتْ له تلك الوجوه؛ فهذا اللهُ غايةُ مُبتغاه؛ وبهذا تحصُلُ له السعادة والطمأنينة؛ فلا يَقلَقُ إذا قَلِقَ الناس، ولا يَحزَنُ إذا حَزِنَ الناس؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

سابعًا: استقامة أحوال المجتمَعات، وصلاح الراعي والرعيَّة:

فإذا صلَحَتْ نيات الناس، صلَحَتْ أمورهم، واعتدَلَتْ أحوالهم؛ كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِلَاكُ ذلك كلِّه: صلاحُ النيَّة للرعيَّة، وإخلاصُ الدِّينِ كلِّه لله، والتوكُّلُ عليه؛ فإن الإخلاص والتوكُّل جِمَاعُ صلاح الخاصَّة والعامَّة»(٢).

ثامنًا: أنَّ صاحبَ الإخلاصِ يكفيه الله عَزَّوَجَلَّ من وجوهٍ عِدَّةٍ؛ فمن ذلك:

١ ـ أن الله عَزَّوَجَلَّ يكفيه أَمْرَ الناس؛ فلا يَصِلُهُ شيء منهم يكرهه:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٣٦].

ولفظُ «عَبْد»: مفرَدٌ أضيفَ إلى معرفة، وهو الضمير، والمفرَدُ إذا أضيفَ إلى معرِفةٍ،

---

(١) «الأخلاق والسير» (ص٧٥ ـ ٧٦).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٦١).

أكسَبَتْهُ العموم، والمعنى: أليس الله بكافٍ عبادَهُ، وهي قراءة سبعيَّة أيضًا[١].

والمقصود: أن الله ﷻ ذكَرَهُ هنا بالعبوديَّة التي أضافها إلى نفسه، ولم يَقُلْ: أليس الله بكافٍ خَلْقَهُ، أو أليس الله بكافٍ محمدًا، وإنما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؛ ليَدُلَّ ذلك على أن سِرَّ الكفاية هو تحقيق العبوديَّة، ولا تتحقَّق العبوديَّة إلا بتمام الإخلاص، ثم اللهُ يعجِّلُ لعبده ألوان الكفاية بقَدْرِ ما عنده من تحقيق العبوديَّة؛ لأن الحُكْمَ المرتَّب على وَصْفٍ يزيدُ بزيادته، وينقُصُ بنقصانه كما تقدَّم، فكلما ازدادت عبوديَّة العبد لله، ازدادت كفاية الله ﷻ له.

وعن عامر الشَّعْبي؛ قال: كتب عمر إلى أبي موسى رضي الله تعالى عنهما: «مَن خَلُصَتْ نيَّته في الحقِّ ولو على نَفْسِه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن لهم بما ليس في قَلْبه، شانه الله»[٢].

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «هذا شَقِيقُ كلامِ النبوَّة، وهو جدير بأن يخرُجَ من مِشْكاةِ المحدَّثِ المُلْهَم، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومَن أحسَنَ الإنفاقَ منهما، نفَعَ غيره، وانتفع غاية الانتفاع.

فأما الكلمة الأولى: فهي مَنبَعُ الخير وأصله.

والثانية: أصل الشر وفَصْلُه.

فإن العبد إذا خَلُصَتْ نيَّته لله تعالى، وكان قصده وهمُّه وعمله لوجهه سبحانه، كان الله معه؛ فإنه سبحانه: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، ورأسُ التقوى والإحسان: خلوصُ النيَّة لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له؛ فمَن كان معه، فمن ذا الذي يَغْلِبُهُ أو يناله بسوء؟! فإنْ كان الله مع العبد، فمَن يخاف؟! وإنْ لم يكن معه، فمَن يرجو؟! وبمَن يَثِق؟! ومَن ينصُرُهُ مِن بعده؟! فإذا قام العبد بالحقِّ على غيره، وعلى نَفْسه أولًا، وكان قيامه بالله ولله، لم يَقُمْ له شيء، ولو كادته السمٰوات والأرض والجبال، لكفاه الله مُؤْنَتَها، وجعَلَ له فَرَجًا ومَخرَجًا.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٣٩)، و«حجة القراءات» (ص٦٢٣).

(٢) أخرجه هنَّاد في «الزهد» (٨٥٩)؛ ومِن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٠)، وأخرجه البيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٥٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٧١)؛ واللفظ لهما، وابن عبد البر في «الاستذكار» (٢٢/ ٣٢)؛ من طرق كلُّها منقطِعة، لكن قال ابن عبد البر: «وهذا الخبر رُوِيَ عن عمر بن الخطاب ﷺ مِن وجوه كثيرة؛ من رواية أهل الحجاز، وأهل العراق، وأهل الشام ومصر؛ والحمد لله».

وإنما يُؤتَى العبدُ مِن تفريطِهِ وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنَيْن منها، أو في واحد:

فمَن كان قيامه في باطل، لم يُنصَر، وإنْ نُصِرَ نصرًا عارضًا، فلا عاقبةَ له، وهو مذموم مخذول.

وإنْ قام في حق، لكنْ لم يَقُمْ فيه لله، وإنما قام لطَلَبِ المَحمَدةِ والشكورِ والجَزَاءِ من الخَلْق، أو التوصُّلِ إلى غَرَض دنيوي كان هو المقصودَ أولًا، والقيامُ في الحق وسيلةً إليه: فهذا لم تُضْمَنْ له النُّصْرة؛ فإنَّ الله إنما ضَمِنَ النُّصْرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه؛ فإنه ليس من المَتَّقِين، ولا من المحسِنين، وإن نُصِرَ فبحَسَب ما معه من الحق؛ فإن الله لا ينصُرُ إلا الحق، وإذا كانت الدَّوْلة لأهل الباطل فبحَسَب ما معهم من الصبر، والصبرُ منصور أبدًا، فإنْ كان صاحبه محقًّا، كان منصورًا له العاقبة، وإن كان مُبطِلًا، لم يكن له عاقبة.

وإذا كان العبد في الحقِّ للهِ، ولكنْ قام بنفسِهِ وقوَّته، ولم يَقُمْ بالله مستعينًا به، متوكِّلًا عليه، مفوِّضًا إليه، بريًّا من الحول والقوة إلا به ـ: فله من الخِذْلان وضعفِ النصرة بحَسَب ما قام من ذلك.

ونكتةُ المسألة: أن تجريدَ التوحيدَيْنِ في أمر الله لا يقوم له شيء ألبتَّةَ، وصاحبه مؤيَّد منصور، ولو توالت عليه زُمَرُ الأعداء»[(١)].

وعن عَوْن بن عبد الله؛ قال: «كان الفقهاء يتواصَوْنَ بينهم بثلاث، ويكتُبُ بذلك بعضُهم إلى بعض: مَن عَمِلَ لآخرته، كفاه الله دنياه، ومَن أصلَحَ سريرتَهُ، أصلَحَ الله علانيته، ومَن أصلَحَ ما بينه وبين الله، أصلَحَ الله ما بينه وبين الناس»[(٢)].

فإيَّاك أن تَعبَأَ بالناس، أو تلتفِتَ إليهم، أو تتجمَّل لهم بعملك؛ فاللهُ يكفيك شأن الناس؛ إن أنت وَثِقْتَ به ولم تَعمَلْ إلا لوجهه سبحانه.

٢ ـ أن الله يُنجِي صاحبَ الإخلاصِ عند الشدائد والكروب، ويَجعَلُ له مِن بعد كربِهِ فَرَجًا، ومِن بعد حزنِهِ فَرَحًا:

ففي خبر عِكْرِمة بن أبي جَهْل ﵁، لما فتح النبي ﷺ مكة؛ أنه فَرَّ إلى اليمن،

(١) «إعلام الموقِّعين» (٣/ ٤٣٠ ـ ٤٣١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٨٤٨)؛ واللفظ له، وأخرجه وكيع في «الزهد» (٥٢٥) مختصرًا.

فرَكِبَ البحرَ، «فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أَخلِصُوا؛ فإنَّ آلهتكم لا تُغنِي عنكم شيئًا ها هنا، فقال عِكْرِمة: واللهِ، لئن لم ينجِّني من البحرِ إلا الإخلاصُ لا ينجِّيني في البَرِّ غيره، اللَّهُمَّ، إنَّ لك عليَّ عهدًا إنْ أنت عافَيْتَني مما أنا فيه: أنْ آتي محمدًا ﷺ، حتى أضع يدي في يده؛ فلأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كريمًا، فجاء فأسلَمَ»(١).

فمَنِ الذي أنجاهم؟! وما الذي كان يستقِرُّ في نفوسهم؟! لقد ضَلَّ عنهم ما كانوا يَدْعُونه من قبلُ، وعلموا أن شدائد المِحَنِ وأهوالَ الكروب ليس لها إلا الله؛ فاضطرَّتْ قلوبهم لخالقها، وانكشَفَ السِّتْر عن فقرٍ لا بد منه إلى ألطاف الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢].

وهذا إبراهيم ﷺ لما اعتزَلَ قومه وهَجَرهم في الله، قال الله تعالى في حقِّه: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]، فكان كما قال النبي ﷺ: «**إنَّك لَنْ تَدعَ شَيْئًا لله إلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ**»(٢)؛ فإبراهيم عليه السلام ترَكَ الوطَنَ والعشيرةَ لله وفي الله، فعوَّضه الله ﷻ من الذُّرِّيَّة ما تَقَرُّ به عينه مما يُنسِيهِ الوطن والعشيرة(٣).

فالعبد إنْ كان له خبيئةٌ مِن عمل صالح؛ من صلاة أو صَدَقة أو معروف لا يَطَّلِعُ عليها إلا الله ﷻ، فإنها تبلِّغُهُ رضوانه سبحانه؛ كما أنها تكون سببًا لنجاته من كثير من الكروب، وسببًا لتثبيته عند الشدائد ومَوَاطِن الابتلاءات؛ فقد يُمْشَطُ بأمشاط من حديد، ومع ذلك يَثْبُت، فيعوِّضه الله ﷻ ألوانًا من اللذَّات وانشراح الصدر؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «ما يَصنَعُ أعدائي بي؟! أنا جَنَّتي وبُسْتاني في صدري؛ إنْ رُحْتُ، فهي معي لا تُفارِقُني، إنَّ حبسي خَلْوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بَلَدي سِيَاحة»(٤)، وكان يقول في مَحبَسِهِ في القلعة: «لو بَذَلْتُ مِلْءَ هذه القلعةِ ذهبًا، ما عدَلَ

(١) أخرجه أبو داود مختصرًا دون الشاهد (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٤٠٦٧)؛ من حديث سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، وصحَّحه الضياء في «المختارة» (١٠/ ١٠٥٤)، وشيخ الإسلام في «الصارم المسلول» (٢/ ٢٢٥)، والألباني في «الصحيحة» (١٧٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٧٨، ٧٩، ٣٦٣)؛ من حديث رَجُلٍ من أهلِ البادية رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الضعيفة» (١/ ٦٢). وفي الباب: عن ابن عمر مرفوعًا، وأُبَيّ بن كعب موقوفًا، وغيرهما. انظر: «الضعيفة» (٥)، و«حاشية المسند» (٣٤/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧)، و«القواعد الحسان» (ص١٣٦ ـ ١٣٧).

(٤) «الوابل الصيِّب» (ص١٠٩).

عندي شكرَ هذه النعمة»[١].

وقد يكون العبد في الظاهر من الصالحين والأتقياء، أو الدعاة والآمِرين بالمعروف والناهِين عن المنكَر، أو له أعمال صالحة كثيرة، لكن ليس له خبيئة حَسَنة، أو إخلاصُهُ قليل، أو له خبيئة سيِّئة مِن عمل سيِّئ بالسِّرّ، فإذا ابتُليَ وامتُحِنَ، سقَطَ وخُذِل، ولربما انكَسر، أو ترَكَ الطريق التي كان يسير عليها لِيَصِلَ بها إلى الله ﷻ، فيَرجِع ويَنتكِس أحوَجَ ما يكون إلى لُطْفِ الله ورعايته وحفظه، وكم مِن إنسان خُذِل! وكم مِن جيوش هُزِمَتْ بسبب المقاصد والخبايا السيئة!

ولهذا قال عبد الله بن داود الخُرَيْبي رحمه الله: «كانوا يَستحِبُّونَ أن يكون للرجل خبيئةٌ مِن عمل صالح لا تَعلَمُ به زوجتُهُ ولا غيرها»[٢].

وقال الزُّبَيْر بن العوَّام رضي الله تعالى عنه: «مَن استطاع منكم أن تكونَ له خبيئةٌ مِن عملٍ صالح، فلْيَفْعَلْ»[٣].

وقال نُعَيْم بن حماد رحمه الله: سمعتُ ابن المبارَك يقول: «ما رأيتُ رجلًا ارتفَعَ مثلَ مالك بن أنس، ليس له كثير صلاة، ولا صيام، إلا أن تكونَ له سريرةٌ»[٤].

وقال أبو حازم سَلَمة بن دينار رحمه الله: «لا تُعَادِيَنَّ رجلًا ولا تُنَاصِبَنَّهُ حتى تنظُرَ إلى سريرتِهِ بينه وبين الله ﷻ؛ فإنْ تكن له سريرة حَسَنة، فإنَّ الله تبارك وتعالى لم يكن يَخذُلُهُ بعَدَاوَتِك له، وإنْ كانت له سريرةٌ رديئة، فقد كفاك مَساوِئَه، ولو أردتَّ أن تَعمَلَ به أكثَرَ من معاصي الله، لم تَقدِرْ»[٥].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «واللهِ، لقد رأيتُ من يُكثِرُ الصلاة والصوم والصَّمْت، ويتخشَّع في نَفْسه ولباسه، والقلوبُ تنبو عنه، وقَدْرُهُ في النفوس ليس بذلك، ورأيتُ

---

(١) المصدر السابق.
(٢) «تهذيب الكمال» (١٤/ ٤٦٤).
(٣) أخرجه ابن الجعد (٧٠١)؛ واللفظ له، وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (١٣/ ٣٦٣)، وأحمد في «الزهد» (ص١٤٤)، ووكيع (٢٥٢)، والمروزي (١١٠٩)، وأبو داود (١١٩ ـ ١٢٠)، وهنَّاد بن السري (٨٧٨)؛ كلُّهم في «الزهد»، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٢٤٠)، والضياء (٣/ ٧٧/ ٨٨٣) موقوفًا، وصحَّحه الدارقطني موقوفًا في «العلل» (٤/ ٢٤٥)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٣٧٦)، وقد رُوِيَ مرفوعًا؛ أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١١/ ٢٦٣)، والضياء (٣/ ٧٨/ ٨٨٤)، وصحَّحه الذهبي في «تلخيص العلل» (٨٩٩)، وصحَّحه الألباني مرفوعًا في «الصحيحة» (٢٣١٣) بشاهد له من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٣٠).
(٥) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١١٠٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٦١)؛ واللفظ له.

مَن يلبس فاخر الثياب، وليس له كبيرُ نَفْل، ولا يتخشَّع، والقلوبُ تَتهافَتُ على محبَّته، فتَدَبَّرْتُ السبب، فوجدتُّه السريرة؛ كما رُوِيَ عن أنس بن مالك[1]: أنه لم يكن له كبير صلاة وصوم، وإنما كانت له سريرة؛ فمَن أصلَحَ سريرته، فاح عَبِيرُ فضله، وعَبِقَتِ القلوب بنَشْرِ طِيبه، فاللهَ اللهَ في السرائر؛ فإنه ما ينفع مع فسادِها صلاح ظاهر»[2].

٣ ـ أن الله ﷻ يَصرِفُ عنه الخواطرَ المُرْدِية، والأفكارَ المشوِّشة، والوساوسَ المسلَّطة:

كما قال أبو سُلَيْمان الدَّارَاني رحمه الله تعالى: «إذا أخلَصَ العبد، انقطَعَتْ عنه كثرةُ الوساوس والرياء»[3].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فقد تبيَّن: أن إخلاص الدين لله يمنع مِن تسلُّط الشيطان، ومِن وَلَايةِ الشيطان التي توجب العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

فإذا أخلص العبدُ لربه الدِّين، كان هذا مانعًا له مِن فِعْلِ ضدِّ ذلك، ومِن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك، وإذا لم يُخلِصْ لربه الدِّينَ، ولم يَفعَلْ ما خُلِقَ له وفُطِرَ عليه، عُوقِبَ على ذلك، وكان مِن عقابه: تسلُّطَ الشيطان عليه، حتى يزيِّنَ له فِعْلَ السيِّئات، وكان إلهامُهُ لفجوره عقوبةً له على كونه لم يَتَّقِ الله»[4].

٤ ـ أن العبد المخلِصَ يُكْفَى الغِلَّ والضغائِنَ والحسَدَ والغِشَّ لإخوانِهِ المسلمين:

فيكونُ قلبه نَقِيًّا طاهرًا سليمًا لإخوانه؛ والقلب كثير الشواغل، يَنصرِف عن الخير لأدني مُلابَسة، والإخلاصُ كفيلٌ بأن يصفِّيَ القلب، ويُمِيلَهُ إلى مولاه؛ يقول النبي ﷺ: «**ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ...**»؛ الحديثَ[5].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «أي: لا يَحمِلُ الغِلَّ، ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة؛ فإنها تنفي الغِلَّ، والغِشّ؛ وهو فساد القلب وسَخَائِمه؛ فالمخلِصُ لله إخلاصه يمنعُ غِلَّ قلبه،

---

(١) الصواب: مالك بن أنس؛ كما تقدَّم.
(٢) «صيد الخاطر» (ص٢٢٠).
(٣) «الرسالة القُشَيْرية» (٢/ ٣٦٢)، ونقله ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٢/ ٩٢).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣).
(٥) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٨٣)، وابن ماجه بنحوه (٢٢٩)؛ من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأخرجه الترمذي (٢٦٥٨)؛ من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّحه ابن حبان (٦٧)، والألباني في «الصحيحة» (٤٠٤)، وقوَّاه العلائي في «جامع التحصيل» (ص٥١)، وأصل الحديث مذكور ضمن الأحاديث المتواتِرة. انظر: دراسة للشيخ العَبَّاد لهذا الحديث، وهي مفرَدة مطبوعة. وفي الباب: عن أنس، وجُبَيْر بن مُطعِم، ومعاذ بن جَبَل، وأبي سعيد الخدري، وأبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

ويُخرِجه ويُزِيلُهُ جملةً؛ لأنه قد انصرَفَتْ دواعي قلبه وإرادته إلى مَرْضاة ربه، فلم يبقَ فيه مَوضِعٌ للغِلِّ والغِشّ؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، فلما أخلَصَ لربه، صرَفَ عنه دواعي السوء والفحشاء؛ فانصرَفَ عنه السوء والفحشاء؛ ولهذا لما عَلِمَ إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص، استثناهم من شَرْطَتِهِ التي اشترطها للغَوَاية والإهلاك؛ فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فالإخلاص هو سبيل الخلاص، والإسلام هو مَرْكَبُ السلامة، والإيمان خاتَمُ الأمان»(١).

٥ ـ أن الله يَصرِفُ عنه السوءَ والفحشاءَ بإخلاصِه:

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكلَّما حقَّق العبدُ الإخلاصَ في قول: لا إلٰه إلا الله، خرَجَ من قلبه تألُّهُ ما يَهْوَاه، وتُصرَفُ عنه المعاصي والذنوب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فعلَّل صَرْفَ السوء والفحشاء عنه بأنَّه من عباد الله المخلَصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وقد ثبَتَ في الصحيح، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ**»(٢)؛ فإنَّ الإخلاص ينفي أسباب دخول النار؛ فمَن دخَلَ النار مِن القائلين: لا إلٰه إلا الله، لم يحقِّقْ إخلاصها المحرِّمَ له على النار، بل كان في قلبه نوعٌ مِن الشرك الذي أوقعه فيما أدخَلَهُ النار، والشرك في هذه الأُمَّة أخفى من دبيب النَّمْل؛ ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، والشيطان يأمر بالشرك، والنفس تُطِيعُهُ في ذلك؛ فلا تزالُ النفس تَلتفِتُ إلى غير الله؛ إما خوفًا منه، وإما رجاءً له؛ فلا يزال العبدُ مفتقِرًا إلى تخليصِ توحيده من شوائب الشرك»(٣).

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٠٦٠)؛ من حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّح إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٢٩٩)، وأخرج نحوه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٦٣)؛ من حديث عِتْبان بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).

ويقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «أصول المعاصي كلُّها كبارها وصغارها **ثلاثة**:

- تعلُّقُ القلبِ بغير الله.
- وطاعةُ القوَّة الغضبيَّة.
- والقوةِ الشَّهْوانية.

وهي: الشرك، والظلم، والفواحش؛ فغاية التعلُّق بغير الله: الشرك، وأن يُدْعَى معه إلٰه آخر، وغاية طاعة القوَّة الغضبيَّة: القتل، وغاية طاعة القوَّة الشهوانية: الزِّنَا؛ ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ وهذه الثلاثة يدعو بعضُها إلى بعض؛ فالشركُ يدعو إلى الظلم والفواحش؛ كما أن الإخلاص والتوحيد يَصرِفُهما عن صاحبه؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فالسُّوء: العِشْق، والفحشاء: الزِّنَا»[(١)].

ثم يقول رَحِمَهُ اللهُ: «فهذه الثلاثة يَجُرُّ بعضُها إلى بعض، ويأمُرُ بعضُها ببعض؛ ولهذا كلما كان القلب أضعَفَ توحيدًا، وأعظَمَ شركًا، كان أكثَرَ فاحشةً، وأعظَمَ تعلُّقًا بالصُّوَرِ وعشقًا لها»[(٢)].

ويقول في موضع آخر: «وعِشْقُ الصورِ إنما تُبتلَى به القلوبُ الفارغة من محبَّة الله تعالى، المُعرِضةُ عنه، المتعوِّضةُ بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه، دفَعَ ذلك عنه مرضَ عِشْقِ الصور؛ ولهذا قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فدلَّ على أن الإخلاص سببٌ لدَفْعِ العشق وما يترتَّب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثَمَرَتُهُ ونتيجته؛ فصَرْفُ المسبَّب صَرْفٌ لسَبَبه»[(٣)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «ومعلوم: أنَّ الزانِيَ حين يزني إنما يزني لحبِّ نَفْسِهِ لذلك الفعل، فلو قام بقلبه خشيةُ اللهِ التي تَقهَرُ الشهوة، أو حُبُّ اللهِ الذي يَغلِبها: لم يَزْنِ؛ ولهذا قال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]، فمَن كان مخلِصًا لله حق الإخلاص، لم يَزْنِ، وإنما يزني لخُلُوِّهِ عن ذلك»[(٤)].

ويقول في موضع آخر: «وذلك أن القلب إذا ذاقَ حلاوةَ عبوديَّته لله ومحبَّته له، لم

(١) «الفوائد» (ص١١٦ ـ ١١٧).
(٢) المصدر السابق
(٣) «زاد المعاد» (٤/ ٢٤٦).
(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٠٦).

يكن شيءٌ أَحَبَّ إليه من ذلك حتى يقدِّمه عليه؛ وبذلك يُصرَفُ عن أهل الإخلاص لله السوءُ والفحشاء؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فإن المخلِص لله، ذاق مِن حلاوة عبوديَّته لله ما يمنعه عن عبوديَّته لغيره، ومِن حلاوة محبَّته لله ما يمنعه عن محبَّة غيره؛ إذْ ليس عند القلب لا أحلى ولا أَلَذُّ ولا أطيَبُ ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان، المتضمِّنِ عبوديتَهُ لله، ومحبتَهُ له، وإخلاصَهُ الدِّينَ له، وذلك يقتضي انجذابَ القلب إلى الله، فيصيرُ القلب منِيبًا إلى الله، خائفًا منه، راغبًا، راهبًا؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣]»(١).

ويقول أيضًا: «فاللهُ يَصرِفُ عن عبده ما يسوؤُهُ من المَيْلِ إلى الصورِ والتعلُّقِ بها، ويَصرِفُ عنه الفحشاء بإخلاصه لله؛ ولهذا يكون قبل أن يَذُوقَ حلاوة العبوديَّة لله والإخلاص له، تَغلِبُهُ نفسه على اتِّبَاع هواها، فإذا ذاق طَعْمَ الإخلاص وقَوِيَ في قلبه، انقهَرَ له هواه بلا علاج»(٢).

فإذا امتلأ القلب بالإخلاص، لم يتلذَّذ العبد إلا بالتقرُّب إلى الله ﷻ، ولم يَعُدْ له بغير الله تعلُّق، ولم يَعُدْ لغير الله بقلبه مَحَلّ، وبذلك يُصرَفُ عنه السوءُ والفحشاءُ بإخلاصِه، ويَتِمُّ خلاصُهُ من شوائب الشرك وعلائق الدنيا.

٦ ـ أن الإخلاص يَرُدُّهُ إلى أصلِهِ مِن البرِّ والطاعة، ويَصرِفُهُ عن المعاصي والتعلُّقِ بالدنيا:

وذلك أن العبد إذا تقلَّبَتْ عليه نيَّته، أو تعلَّقَتْ جوارحُهُ بالدنيا، فإنْ كان من أهل الإخلاص، مراقِبًا لخَطَراتِه وسَكَناته؛ فإنه سَرْعانَ ما يُفِيقُ ويَرجِعُ ويُحسِنُ الأَوْبة.

والأمر كما قال داود الطائي رَحِمَهُ اللهُ: «البِرُّ هِمَّةُ التقيّ، ولو تعلَّقَتْ جميع جوارحه بحُبِّ الدنيا، لَرَدَّتْهُ يومًا نيَّته إلى أصله»(٣).

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «فقد كان السلف يطلُبُونَ العِلْمَ لله، فنَبُلُوا، وصاروا أئمَّةً يُقتدَى بهم.

وطلَبَهُ قومٌ منهم أولًا لا لله، وحصَّلوه، ثم استفاقُوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرَّهم العِلْمُ إلى الإخلاص في أثناء الطريق؛ كما قال مجاهدٌ وغيره: «طَلَبْنا هذا العلمَ وما لنا فيه كبيرُ نيَّة، ثم رزَقَ الله النية بعدُ»(٤)، وبعضهم يقول: «طَلَبْنا هذا العلمَ لغير الله،

---

(١) المصدر السابق (١٠/ ٢١٥).
(٢) المصدر السابق (١٠/ ١٨٨).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٢٩).
(٤) أخرجه الدارمي (٣٧١) بإسناد حسن.

فأبى أن يكون إلا لله»[١]؛ فهذا أيضًا حسَنٌ، ثُمَّ نشَرُوهُ بنيَّة صالحة»[٢].

ومِن الناس: مَن إذا أدار ظهره، وترَكَ الطريق، فإنه لا يَرجِع، ولا يعرِّجُ بعدها أبدًا إلا أن يشاء الله تعالى، فعَثْرَتُهُ ليس بعدها إفاقة وانتباهة، وإنما هي غَفْلَةٌ مستحكِمةٌ، تَطمِس على قلبه بما له من سوء القَصْد، وفساد النيَّة؛ ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

وبالجملةِ: فإنَّ مِن آثار الإخلاص: التحرُّرَ من العبوديَّة لغير الله ﷻ[٣]:

فهذا الذي يَهتَمُّ بأمر الخَلْق، ويبذُلُ لهم مِن ألوان العبوديَّات ما يسعى به لجلب مَحْمَدَتهم، والوقوف عند مَراضيهم، يكون معبَّدًا قلبه ونفسه لهؤلاء، مسخِّرًا جوارحه في خِدْمتهم، والقيام بحوائجهم وشؤونهم.

ولا سبيل إلى تحرير النفس من رِبْقة تلك العبوديَّة إلا بتوجيهها إلى معبودها سبحانه؛ فإذا عُبِّدَتْ لله تعالى حقيقةً، تحرَّرت؛ لأن العبد إذا حقَّق العبودية لله، تخلَّى عن عبوديَّة ما سواه، وكلما نقَصَتْ عبوديتُهُ لله ﷻ، كان ذلك أدعى إلى عبوديَّته للمخلوقين؛ فإنَّ هذا القلب مجبولٌ على العبوديَّة؛ فإمَّا أن يُعبَّدَ لله ﷻ، وإما أن يُعبَّدَ لغيره.

وبالعبوديَّة لله ﷻ يتحرَّر الإنسان من أهوائه ونَزَواته وشَهَواته؛ فالهوى شرُّ وَثَنٍ يُعبَدُ من دون الله ﷻ؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، فقد يَتَّخِذُ العبد هواه إلٰهًا من دون الله؛ فلا يصدُرُ إلا عن هذا الهوى، ولا يسعى إلا لتحقيق مرغوباتِهِ ومطلوباتِهِ بمقتضى ذلك الغَيِّ الذي يُمْلِيهِ عليه هواه؛ فخضوعُ النفس لأهوائها من أعظم ما حرَّم الله، بل هو مِن عبوديَّة غيره سبحانه.

أما الترفُّع عما تدعو إليه النَّفْس من ذلك ـ وإن كانت مجبولةً على محبَّته ـ فتلك هي الحرِّية حقًّا، وبها يتخلَّص العبد من إسار الهوى.

والذين يَزْعُمون ويتوهَّمون أن الحرِّية إنما هي التخلُّص مِن كل قيد حتى مِن قيد

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «جامع معمر بن راشد» (٢٠٤٧٥)؛ ومن طريقه: الإمام أحمد في «الأسامي والكنى» (١٤٠)، وابن أبي خيثمة في «تاريخه» (١٢٠٤)، والبيهقي في «المدخل» (٥١٩)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٩/ ٤١٧)، كلهم عن معمر بن راشد أنه كان يقال: «إن الرجل ليَطْلب العلم لغير الله فيأبى عليه العلم حتى يكون لله».
وأخرجه الدارمي (٣٧٢) عن الحسن قال: «لقد طَلَب أقوام العلم ما أرادوا به الله تعالى، ولا ما عنده، فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله وما عنده».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٥٢).

(٣) انظر: «مقاصد المكلَّفين» للأشقر (ص٣٧٢).

العبوديَّة لله، فالواقع: أنهم يَفِرُّونَ من عبوديَّة المَلِكِ الديَّان، إلى عبوديَّة النفس والهوى والشيطان، ومِن عبوديَّة ربِّ العالمين، إلى عبوديَّة المخلوقين، **وكان شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «المحبوسُ: مَن حُبِسَ قلبُهُ عن ربِّه تعالى، والمأسورُ: مَن أَسَرَهُ هواه»[١].

وهكذا يعجِّلُ الإخلاصُ آثارًا يَجِدُها صاحبُهُ في الدنيا قبل الآخرة.



(١) «الوابل الصيِّب» (ص١٠٩).

الآثارُ الأُخْرَوِيَّةُ للإخلاص

وأما الآثارُ المؤجَّلةُ للإخلاص، وهي التي تكونُ في الآخرة، فهي كثيرةٌ أيضًا؛ **ومنها:**

أولًا ـ وهو أعظَمُها ـ: دخولُ الجنَّة، والنجاةُ مِن النار، وتحصيلُ رضا الربِّ تبارك وتعالى:

وقد جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ: بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**»[١].

وعن عِتْبانَ بنِ مالكٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه؛ قال: غَدَا عَلَيَّ رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**لَنْ يُوَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ**»[٢].

وصحَّ من حديث عُثْمان بن عفَّان رضي الله عنه؛ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ حَقًّا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حُرِّمَ عَلَى النَّارِ**»، فقال له عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه: «أنا أحدِّثُكَ ما هي، هي كلمةُ الإخلاصِ التي أَعَزَّ اللهُ تبارك وتعالى بها محمَّدًا ﷺ وأصحابَهُ، وهي كلمةُ التقوى التي أَلَاصَ[٣] عليها نبيُّ اللهِ ﷺ عَمَّهُ أبا طالبٍ عند الموتِ: شهادةُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ»[٤].

ثانيًا: أنَّ الإخلاص يبلُغُ بصاحبه في درجات الجنَّة ما لا يبلُغُ به عملُهُ الذي عمله:

فعن سَهْل بن حُنَيْف رضي الله عنه؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٣)؛ واللفظ له، ومسلم (١٨٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٣)؛ واللفظ له، ومسلم (٦٥٧).
(٣) أي: أراده عليها، وراوده فيها.
(٤) أخرجه أحمد (١/٦٣)، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (٤٤٧)، والألباني في «صحيح الترغيب» (١٥٢٨). وانظر: «العلل» للدارقطني (٢/٧).
(٥) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أخبرنا من شَهِد مُعاذًا حين حَضَرَتْه الوفاة يقول: اكشفوا عنِّي سَجْف القُبَّة أُحَدِّثكم حديثًا سَمِعته من رسول الله ﷺ، وقال مرة: أخبركم بِشَيءٍ سَمِعته من رسول الله ﷺ، لم يمنعني أن أَحَدِّثَكُموه إلا أن تَتَّكِلُوا، سَمِعته يقول: **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ يَقِينًا مِنْ قَلْبِهِ، لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ»**. وَقَالَ مَرَّةً: **«دَخَلَ الْجَنَّةَ وَلَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ»**(١).

وعن عمير الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِنْ أُمَّتِي صَلَاةً مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَرَفَعَهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَكَتَبَ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ»**(٢).

ومِن لطائف ما يُذكَرُ في هذا: أنَّ عمرَو بنَ الليثِ لمَّا مات رحمه الله، رُئِيَ في المنام، فقيل له: ما فعَلَ اللهُ بك؟ فقال: «أَشْرَفْتُ يومًا مِن جبلٍ على جيوشي، فأعجَبَتْني كَثْرَتُهم، فتَمَنَّيْتُ أنني كنتُ حضَرْتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ، فنَصَرْتُهُ وأَعَنْتُهُ، فشكَرَ اللهُ لي، وغفَرَ لي»(٣).

ثالثًا: أنَّ أعمالَ صاحبه تفضُلُ أعمالَ الآخَرِين:

وذلك أنَّ الأعمال تتفاضَلُ بالإخلاص، فتَرجَحُ في الموازينِ إذا كان الإخلاص فيها تامًّا كاملًا وافيًا.

يقول ابنُ القيِّم رحمه الله: «والأعمالُ تتفاضَلُ بتفاضُلِ ما في القلوب من الإيمان والمحبَّة، والتعظيم والإجلال، وقصدِ وجه المعبود وحدَهُ دون شيء من الحظوظ سواه؛ حتى لَتَكُونُ صورةُ العملَيْنِ واحدةً، وبينهما في الفضل ما لا يُحصِيه إلا الله تعالى، وتتفاضَلُ أيضًا بتجريد المتابَعة؛ فبين العملَيْنِ من الفضل بحسَبِ ما يَتفاضَلان به في المتابَعة، فتتفاضَلُ الأعمالُ بحسَبِ تجريد الإخلاص والمتابَعة تفاضُلًا لا يُحصِيه

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٤)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٧٣)؛ من حديث سعيد بن عمير الأنصاري عن أبيه، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٤٢)، والبزار (٣٥٦٧)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٠٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٩٥)، والبيهقي في «الدعوات» (١٧٦)؛ من حديث سعيد بن عمير الأنصاري عن عمه: أبي بردة بن نِيَار.
والحديث قال عنه ابن حجر في «الفتح» (١١/ ١٧٢): «رجاله ثقات»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦٥٩).

(٣) «الشفا، بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (٢/ ٥٨٥)؛ بتصرف.

إلا اللهُ تعالى»[١].

رابعًا: الظَّفَرُ برحمةِ اللهِ ﷻ:

إنَّ أحقَّ الناس برحمة الله ﷻ هم أهلُ التوحيد والإخلاص؛ فكلُّ مَن كان أكمَلَ في تحقيقه إخلاصَ (لا إله إلا الله) عِلْمًا وعقيدةً، وعملًا وبراءةً، وموالاةً ومعاداةً، كان أحقَّ برحمة الله ﷻ؛ كما صرَّح بذلك غيرُ واحد من أهل العلم؛ كشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

خامسًا: غفرانُ الذنوب:

كما قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والنوع الواحد مِن العمل قد يَفعَلُه الإنسان على وجهٍ يكمُلُ فيه إخلاصه وعبوديَّته لله؛ فيغفِرُ الله له به كبائرَ...»، وذكَرَ حديث البطاقة[٣]، ثم قال: «فهذه حالُ مَن قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص؛ وإلا فأهلُ الكبائر الذين دخَلُوا النارَ كلُّهم كانوا يقولون: لا إلَهَ إلا الله»[٤].

سادسًا: السعادةُ بنيل شفاعة النبي ﷺ:

فقد أخرج البخاريُّ في «صحيحه»، عن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنه قال: يا رسولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَلَّا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**»[٥].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «ووقَعَ في رواية أحمد، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ من طريق أخرى، عن أبي هريرةَ: نحوُ هذا الحديث، وفيه: «**وَشَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا، يُصَدِّقُ قَلْبُهُ لِسَانَهُ، ولِسَانُهُ قَلْبَهُ**»[٦]، والمراد بهذه الشفاعةِ المسؤولِ عنها هنا: بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول ﷺ فيها: «**أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ؛**

---

(١) «المنار المُنِيف» (ص١٥).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤١٤).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)؛ من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وحسَّنه الترمذي، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (١٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، وابن بلبان في «المقاصد السنية» (٦)، وصحَّحه ابن حبان (٢٢٥)، والحاكم (١/ ٥)، والذهبي، والزَّبِيدي في «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٥٦٢)، وأحمد شاكر في التعليق على «المسند» (٦٩٩٤)، والألباني في «الصحيحة» (١٣٥). وقد رُوِيَ كذلك موقوفًا، والمرفوع أصح.
(٤) «منهاج السُّنَّة» (٦/ ٢١٨ ـ ٢١٩).
(٥) أخرجه البخاري (٩٩).
(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٧، ٥١٨)، وصحَّحه ابن حبان (٦٤٦٦)، والحاكم (١/ ٦٩ ـ ٧٠)، وحكم الألباني بنكارته في «ضعيف الترغيب» (٢١١٣)، و«ضعيف موارد الظمآن» (٣٣٧).

فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ، أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا»[(١)]؛ أي: من النار.

فأسعَدُ الناس بهذه الشفاعة: مَن يكونُ إيمانُهُ أكمَلَ ممن دونه. وأمَّا الشفاعةُ العظمى في الإراحة من كَرْبِ المَوقِفِ، فأسعَدُ الناس بها: مَن يَسبِقُ إلى الجَنَّة، وهم الذين يدخُلونها بغير حساب...

والحاصل: أنَّ في قوله: «**أَسْعَد**» إشارةً إلى اختلاف مَرَاتبهم في السَّبْق إلى الدخول، باختلاف مَرَاتبهم في الإخلاص»[(٢)].

يقول شيخ الإسلام ـ معلِّقًا على هذا الحديث ـ: «فتلك الشفاعةُ هي لأهل الإخلاص بإذن اللهِ، ليست لمن أشرَكَ بالله، ولا تكونُ إلا بإذن الله، وحقيقتُهُ: أنَّ الله هو الذي يتفضَّلُ على أهل الإخلاص والتوحيد، فيغفِرُ لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أَذِنَ له أن يشفَعَ ليُكْرِمَهُ بذلك»[(٣)].



---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣/٣٢٦)؛ واللفظ له؛ من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) «فتح الباري» (١١/٤٥١).
(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/٧٨).

عاقبةُ النيَّاتِ والمقاصِدِ السَّيِّئة[١]

إذا أصلَحَ العبدُ ظاهره بالعمل الصالح، وأفسَدَ باطنه بالنيَّة الفاسدة، فتصنَّع بالظواهر إرادةً لما عند الناس؛ مِن حسن الثناءِ أو الجاه أو المال أو غير ذلك مِن المطالب السافلة: عُوقِبَ على سُوءِ قصده بأنواع العقوبات التي منها:

١ ـ التعرُّضُ لمَكْرِ الله ﷻ:

يقول حمَّاد بن سَلَمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن طلَبَ الحديثَ لغير الله، مُكِرَ به»[٢].

وصدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنَّ العبدَ قد يستقيمُ ـ فيما يبدو للناس ـ مُدَّةً من الزمان طالبًا للعلم، قائمًا بالأعباء والأعمال، منشغِلًا بأمر دينه، ثم ما يَلبَثُ أن يتغيَّرَ حالُه، ويترُكَ ما كان عليه، ويصيبَهُ الحَوْرُ بعد الكَوْر، والإدبارُ بعد الإقبال، والانتكاسةُ بعد الاستقامة، وقد يكون ذلك بسبب سُوءِ نيَّته.

وعن جعفرٍ الخُلْدِي؛ قال: «مَن أراد أن يستكتِمَ سِرًّا، فليستكتِمْ، كما فعَلَ رُوَيْمٌ؛ كتَمَ حبَّ الدنيا أربعين سنةً، فقيل له: كيف؟ قال: كان يتصوَّفُ أربعينَ سنةً، فوَلِيَ بعد ذلك إسماعيلُ بنُ إسحاقَ القضاءَ ـ قضاء بغداد ـ وكان بينهما مودَّةٌ مؤكَّدةٌ، فجذَبَهُ إليه، وجعَلَهُ وكيلًا على بابه، فترَكَ التصوُّف، ولَبِسَ الخزَّ والقَصَبَ والدِّيبَقيَّ... وبنى الدُّورَ، وإذا هو كان يكتُمُ حبَّ الدنيا لمَّا لم يَجِدْها، فلمَّا وجَدَها، أظهَرَ ما كان يكتُمُ من حُبِّها»[٣].

ولو أن العبد صدَقَ في إقباله على الله ﷻ، وأحسَنَ اللجوء إليه؛ فإن الله ﷻ يحفظه ويَكْلَؤُه، ويرعاه ويُدنِيه، ويثبِّتُهُ على القول الثابت حتى يلقاه.

٢ ـ ذَهَابُ بَرَكة العمل، وتلاشيه واضمحلالُه:

فلا يكون لعَمَله كثيرُ بَرَكة؛ فكم من تصانيفَ أُقعِدَتْ عن أن تسير بها الركبان، ويَنتفِعَ بها الناس، مع ما فيها من العلم! وكم مِن أعمال أُنشِئَتْ وأُنفِقَتْ عليها أموال

---

(١) وفيه شيءٌ من تحقيق الإخلاص ودفع الرياء.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٥١)، وابن عبد البر في «الجامع» (١١٥٣).

(٣) أخرجه التنوخي في «نشوار المحاضرة» (٣/ ١٢٠)؛ ومن طريقه ابن الجوزي في «المنتظم» (١٣/ ٦٢)؛ واللفظ له.

طائلة، وبُذِلَتْ لأجلها جهودٌ عظيمة، ثم لم يكن من وراء ذلك كبيرُ شيء من تحصيل نفعٍ أو دفع ضُرّ!

والسبب: قد يكون ضعفَ الإخلاص، فكلَّما ضَعُفَ الإخلاص في قلب العبد، كان ذلك سببًا لاضمحلال بَرَكة عمله وتلاشيه، مهما أنفَقَ عليه من الأموال؛ لأنه إنما أنفَقَ عليه ليتحدَّث الناسُ ويقولوا: فلانٌ فعَلَ وفعَل! وتلك عقوبة عاجلة.

قال ابن المبارَك رَحِمَهُ اللَّهُ: «رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمُهُ النيَّة، ورُبَّ عملٍ كبيرٍ تصغِّرُهُ النيَّة»(١).

ويقول محمد ابن الحنفيَّة، والربيع بن خُثَيْم رحمهما الله تعالى: «كلُّ ما لا يُبتغَى به وجه الله يَضْمَحِلّ»(٢).

٣ ـ إعراضُ القلبِ عن الله، واشتغالُهُ بغيره:

فيصيرُ عبدًا لذلك الذي توجَّه قلبه إليه.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأصلُ الغيِّ: من الحُبِّ لغير الله؛ فإنه يضعُفُ الإخلاص به، ويَقوَى الشركُ بقوَّته؛ فأصحابُ العشق الشيطاني لهم مِن تولِّي الشيطان والإشراك به بقَدْرِ ذلك؛ لِمَا فيهم من الإشراك بالله، ولِمَا فاتهم من الإخلاص له؛ ففيهم نصيبٌ من اتخاذ الأنداد؛ ولهذا ترى كثيرًا منهم عبدًا لذلك المعشوق، متيَّمًا فيه، يصرُخُ في حضورِهِ ومَغِيبه: أنه عبده؛ فهو أعظم ذكرًا له مِن ربه، وحبُّه في قلبه أعظَمُ من حبِّ الله فيه، وكفى به شاهدًا بذلك على نفسه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٤ ـ ١٥].

فلو خُيِّرَ بين رضاه ورضا الله، لاختار رضا معشوقِهِ على رضا ربه، ولقاءُ معشوقِهِ أحبُّ إليه من لقاء ربه، وتمنِّيه لقربه أعظمُ من تمنِّيه لقرب ربِّه، وهَرَبُهُ من سخطِهِ عليه أشدُّ من هربِهِ من سخط ربِّه عليه، يُسخِطُ ربَّه بمَرْضاة معشوقه، ويقدِّم مصالح معشوقه وحوائجه على طاعة ربه.

فإنْ فضَلَ من وقته، وكان عنده قليلٌ من الإيمان، صرَفَ تلك الفضلة في طاعة ربه، وإن استغرَقَ الزمانُ حوائجَ معشوقِهِ ومصالحه، صرَفَ زمانه كله فيها، وأهمَلَ أمر الله تعالى، يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويَجعَلُ لربِّه مِن ماله ـ إنْ جعَلَ له ـ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٧٢)؛ ومن طريقه الفَسَوي في «تاريخه» (٢/ ٥٦٧)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤٨٦)؛ من كلام الربيع بن خُثَيْم؛ ومن طريقه أيضًا أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٠٧)؛ من طريق آخر، وأخرجه من كلام محمد ابن الحنفيَّة: أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٧٦).

كلَّ رذيلة!»[١].

ويؤيِّدُ ذلك: ما ذكَرَهُ ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ، **بإسناده عن أبي عبد الله محمد بن الحسن المَذْحِجيِّ؛ قال**: «كنتُ أختلِفُ في النحو إلى أبي عبد الله محمد بن خَطَّابٍ النحويِّ في جماعة أيَّام الحَدَاثة، وكان معنا أسلم بن أحمد بن سعيد، وكان من أجملِ مَن رَأَتْهُ العيون، وكان معنا عند محمد بن خطَّاب: أحمد بن كُلَيْب، وكان مِن أهل الأدب والشعر، فاشتَدَّ كَلَفُهُ بأَسْلَم، وفارَقَ صبره، وصرَفَ فيه القولَ مستترًا بذلك، إلى أن فَشَتْ أشعاره فيه، وجرَتْ على الألسنة، وتُنُوشِدَتْ في المحافل، فلمَّا بلَغَ هذا المبلَغَ، انقطَعَ أسلَمُ عن جميع مجالس الطلب، ولَزِمَ بيتَهُ والجلوس على بابه، وكان أحمد بن كُلَيْب لا شُغْلَ له إلا المرورُ على باب دار أسلمِ سائرًا أو مقبِلًا نهارَهُ كلَّه، فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهارًا، فإذا صلَّى المغرب، واختلَطَ الظلام، خرَجَ مستروِحًا، وجلس على باب داره، فعِيلَ صبرُ أحمد بن كُلَيْب، فتحيَّل في بعض الليالي، ولَبِسَ جُبَّةَ صُوف، وأخذ بإحدى يديه دجاجًا، وباليد الأخرى قَفَصًا فيه بَيْض، كأنه قَدِمَ من بعض الضِّيَاع، وتحيَّن جلوسَ أسلَمَ عند اختلاط الظلام على بابه، فتقدَّم إليه وقبَّل يَدَه، وقال: يا مولاي! مَن يَقبِضُ هذا؟ فقال له أسلم: مَن أنت؟ قال: أَجِيرُكَ في الضَّيْعة الفلانيَّة، وقد كان يَعرِف أسماء ضِيَاعِهِ والعاملين فيها، فأمَرَ أسلَمُ غلمانه بقَبْض ذلك منه على عادتهم في قَبُولِ هدايا العامِلِين في ضِيَاعِهم، ثم جعَلَ يسأله عن أحوال الضَّيْعة، فلما جاوبه، أنكَرَ الكلام، فتأمَّله فعرَفَهُ، فقال له: يا أخي! إلى ها هنا تَتبَعُني؟! أَمَا كفاك انقطاعي عن مَجَالِسِ الطَّلَب، وعن الخروج جُمْلةً، وعن القُعُودِ على بابي نهارًا حتى قَطَعْتَ عليَّ جميع ما لي فيه راحة؟! واللهِ، لا فارَقْتُ بعد هذه الليلةِ قَعْرَ منزلي، ولا جَلَسْتُ بعدها على بابي لا ليلًا ولا نهارًا، ثم قام وانصرَفَ أحمد بن كُلَيْبٍ حزينًا كئيبًا.

قال محمد: واتصل ذلك بنا، فقلنا لأحمد بن كُلَيْب: خَسِرْتَ دَجَاجَكَ وبَيْضَك! فقال: هاتِ كلَّ ليلةٍ قُبْلَةَ يدِهِ وأخسَرُ أضعاف ذلك.

قال: فلما يئس من رؤيته البتَّة، نَهَكَتْهُ العِلَّة، وأضجَعَهُ المَرَض.

قال محمد بن الحسن: فأخبَرَني شيخنا محمد بن خَطَّاب؛ قال: فعُدتُّهُ فوَجَدتُّهُ بأسوَأِ حال، فقلت له: ولِمَ لا تتداوى؟ فقال: دوائي معروف، وأمَّا الأطبَّاء، فلا حِيلَةَ لهم فيَّ البتَّة، فقلتُ له: وما دواؤك؟ قال: نظرةٌ مِن أسلم، فلو سَعَيْتَ في أن يَزُورَني لَأَعْظَمَ اللهُ أجرَكَ بذلك وأجرَهُ.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠).

قال: فرَحِمْتُهُ، وتقطَّعت نَفْسي له حسرةً، فنَهَضْتُ إلى أسلَمَ، فاستأذَنْتُ عليه، فأَذِنَ لي، وتلقَّاني بما يَجِبُ، فقلتُ له: لي حاجة، فقال: وما هي؟ قلتُ: قد عَلِمْتَ ما جمَعَكَ مع أحمد بن كُلَيْب مِن ذِمَامِ الطَّلَب عندي، فقال: نعم، ولكن قد تَعلَم أنه شَهَرَ اسمي وآذاني، فقلتُ له: كل ذلك يُغتفَرُ في مثل هذه الحال التي هو فيها، والرجلُ يموت، فتفضَّلْ بعيادته، فقال لي: واللهِ، ما أَقدِرُ على ذلك، فلا تكلِّفْنِي هذا، فقلتُ: لا بُدَّ من ذلك، فليس عليك فيه شيء، وإنما هي عيادةُ مريض، ولم أَزَلْ به حتى أجاب، فقلتُ له: فقُمِ الآن، فقال: لستُ واللهِ أفعلُ، ولكنْ غدًا، فقلتُ له: ولا خُلْفَ؟ قال: نعم.

فانصرَفْتُ إلى أحمد بن كُلَيْب، فأخبَرْتُهُ بوعده بعد تأبِّيه، فسُرَّ بذلك، وارتاحت نفسه، فلما كان من الغد، بَكَّرْتُ إلى أسلَمَ، وقلتُ له: الوَعْدَ، قال: فوجَمَ، وقال: واللهِ، لقد تَحمِلُني على خُطَّةٍ صعبةٍ عليَّ، وما أدري كيف أُطِيقُ ذلك؟ قال: فقلتُ له: لا بد أن تَفِيَ بوعدك لي، قال: فأخذ رداءه، ونَهَضَ معي راجلًا، قال: فلما أتينا مَنزِلَ أحمد بن كُلَيْب ـ وكان يسكُنُ في دَرْب طويل ـ وتوسَّط الزُّقَاق، وقَفَ واحمرَّ وخَجِلَ، وقال لي: يا سيِّدي! الساعةَ والله أموتُ، وما أستطيعُ نَقْلَ قَدَمي، ولا أستطيعُ أن أَعرِضَ هذا على نفسي، فقلتُ: لا تَفعَلُ، بعد أن بلَغْتَ المَنزِلَ تَنصرِفُ؟! قال: لا سبيل إلى ذلك والله، قال: ورجَعَ هاربًا، فاتَّبَعْتُهُ، وأخذتُ بردائه، فتمادى وتمزَّق الرداء، وبَقِيَتْ قطعةٌ منه في يدي لشدة إمساكي له، ومضى ولم أُدرِكْه، فرجَعْتُ ودخَلْتُ على أحمد بن كُلَيْب، قال: وقد كان غلامُهُ دخَلَ عليه إذْ رآنا من أولِ الزُّقَاقِ مبشِّرًا، قال: فلما رآني، تغيَّر وجهه، وقال: وأين أبو الحسن؟ قال: فأخبَرْتُه بالقصة، فاستحال مِن وقته واختلَطَ، وجعَلَ يتكلَّم بكلام لا يُعقَلُ منه أكثَرُ من الاستِرجَاع، فاستبشَعْتُ الحال، وجعَلْتُ أتوجَّعُ وقُمْتُ، قال: فثاب إليه ذِهْنُه، وقال لي: يا أبا عبد الله! قلتُ: نعم، قال: اسمَعْ مني واحفظْ عني، ثم أنشأ يقول:

أَسْلَمُ يَا رَاحَةَ الْعَلِيلِ ... رِفْقًا عَلَى الهَائِمِ النَّحِيلِ
وَصْلُكَ أَشْهَى إِلَى فُؤَادِي ... مِنْ رَحْمَةِ الخَالِقِ الجَلِيلِ

قال: فقلتُ له: اتَّقِ الله؛ ما هذه العظيمة؟! فقال: قد كان.

قال: فخَرَجْتُ عنه، فواللهِ، ما توسَّطْتُ الزُّقَاقَ حتى سمعتُ الصراخَ عليه وقد فارَقَ الدنيا!»[١].

---

(١) رواها ابن حزم في «طوق الحمامة» (ص١١٣)، وعنه ابن نصر الحُمَيْدي في «جذوة المقتبس» (ص١٣٤)؛ ومن طريقهما ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص٤٧٩ ـ ٤٨١).

٤ ـ أنَّ صاحبَ القَصْدَ السِّيِّئِ يَخسَرُ نصيبَهُ في الآخرة، ولا يجدُ ثمرَةَ هذا العمل:

فعن شُفَيٍّ الأَصبَحيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أنَّه دخل المدينة؛ فإذا هو برجلٍ قد اجتمَعَ عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، قال: فدنوتُ منه حتَّى قعَدتُّ بين يديه، وهو يحدِّثُ الناس، فلما سكتَ وخَلَا، قلتُ له: أسألك بحقٍّ وبحَقٍّ لَمَا حدَّثْتَني حديثًا سمعتَهُ من رسول الله ﷺ، عَقَلْتَهُ وعَلِمْتَهُ، فقال أبو هريرة: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ، عَقَلْتُهُ وعَلِمْتُهُ، ثم نَشَغَ أبو هريرة نَشْغَةً[1]، فمَكَثْنا قليلًا، ثم أفاق، فقال: لَأُحَدِّثَنَّكَ حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيرُهُ، ثم نَشَغَ أبو هريرة نَشْغَةً شديدة، ثم أفاق، فمسَحَ وجهه، فقال: أَفْعَلُ لَأُحَدِّثَنَّكَ حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ، وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيرُهُ، ثم نَشَغَ أبو هريرةَ نَشْغَةً شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه، فأسندتُّهُ عليَّ طويلًا، ثم أفاق، فقال: حدَّثني رسول الله ﷺ: «**أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ؛ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ: رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ:**

فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدتَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدتَّ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدتَّ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ».

ثم ضرَبَ رسولُ الله ﷺ على رُكْبتي، فقَالَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ**

---

(١) أي: شَهِقَ وغُشِيَ عليه.

خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].

وزاد الترمذي، عن العلاء بن أبي حَكِيم؛ أنه كان سَيَّافًا لمعاوية، فدخَلَ عليه رجل، فأخبَرَهُ بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: «قد فُعِلَ بهؤلاءِ هذا؛ فكيف بمَن بَقِيَ من الناس؟! ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بِشَرٍّ، ثم أفاق معاوية، ومسَحَ عن وجهه، وقال: صدَقَ اللهُ ورسولُه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦]».

وعنه أيضا رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[(٢)].

ويَدُلُّ على ذلك أيضًا: ما صَحَّ عن النبيِّ ﷺ في الحديث الآخر؛ حيث قال: «**بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ؛ فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ**»[(٣)].

والله عز وجل يقول: «**أَنَا خَيْرُ شَرِيكٍ؛ فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِي شَرِيكًا، فَهُوَ لِشَرِيكِي، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ للهِ عز وجل؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَا أُخْلِصَ لَهُ، وَلَا تَقُولُوا: هَذَا للهِ وَلِلرَّحِمِ؛ فَإِنَّهَا لِلرَّحِمِ، وَلَيْسَ للهِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا تَقُولُوا: هَذَا للهِ وَلِوُجُوهِكُمْ،؛ فَإِنَّهَا لِوُجُوهِكُمْ، وَلَيْسَ للهِ مِنْهَا شَيْءٌ**»[(٤)].

وقد صح عنه ﷺ؛ أنه قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»، قالوا: وما الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قال: «**الرِّيَاءُ؛ يَقُولُ اللهُ عز وجل لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ إِذَا**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧١٣)، وأصله في «صحيح مسلم» (١٩٠٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤)؛ من حديث أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه. واختلف الرواة في هذا الحديث على وجهَيْن، تراهما في «علل ابن أبي حاتم» (٩١٧)، وقد صحَّحه ابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٤/ ٣١٨)، والذهبي، والضياء في «المختارة» (٣/ ٣٥٩)، والألباني في «أحكام الجنائز» (ص٧٠)، و«صحيح الموارد» (٢١١٨).

(٤) أخرجه البزَّار (٣٥٦٧) «كشف الأستار»، والدارقطني (١٣٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤١٨)؛ ومن طريقه الضياء في «المختارة» (٨/ ٩٠/ ٩٢)؛ من حديث الضحَّاك بن قيس رضي الله عنه، وضعَّف الهيثمي إسناده في «المجمع» (١٠/ ٢٢١)، وصحَّحه الضياء، وقوَّاه المنذري في «الترغيب» (١/ ٥٥)، والألباني في «الصحيحة» (٢٧٦٤).

جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا؛ فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟!»[(١)].

كما ثبَتَ عنه ﷺ؛ أنه قال: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ للهِ، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»[(٢)].

وفي حديث آخر: «مَنْ سَمَّعَ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرائِي، يُرَائِي اللهُ بِهِ»[(٣)].

وفي حديث آخر: «مَنْ قَامَ مَقَامَ رِيَاءٍ وسُمْعَةٍ، رَاءَى اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وسَمَّعَ»[(٤)].

وفي حديث آخر: «مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ»[(٥)].

وجاء عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما؛ أنه قال: «مَنْ راءى بشيءٍ في الدنيا مِنْ عَمَلٍ، وَكَلَهُ اللهُ إليه يَوْمَ القيامة، وقال: انظُرْ هل يُغْنِي عنك شيئًا؟!»[(٦)].

وعن إبراهيم التَّيْمِي، عن أبيه؛ قال: قال حُذَيْفَةُ لأبي موسى: أرأيتَ لو أنَّ رجلًا خرَجَ بسيفه يَبتغِي وَجْهَ الله، فضُرِبَ، فقُتِلَ، كان يدخُلُ الجنَّة؟ فقال له أبو موسى: نعم، فقال حُذَيْفَةُ: لا، ولكنْ إذا خرَجَ بسيفه يَبتغِي به وَجْهَ الله، ثم أصاب أَمْرَ الله، فقُتِلَ، دخَلَ الجَنَّة[(٧)].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)؛ من حديث محمود بن لَبِيد رضي الله عنه، وصحَّحه المنذري في «الترغيب» (١/ ٦٩)، والألباني في «الصحيحة» (٩٥١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٥٤)، وابن ماجه (٤٢٠٣)؛ واللفظ له؛ مِن حديث أبي سعيد بن أبي فَضَالة، وقال الترمذي: «حديث غريب» ـ وفي بعض النسخ: «حسَن غريب» ـ وقال ابن المَدِيني: «إسناد صالح يَقبَلُهُ القلب... وزياد بن مِيناء مجهول»؛ نقله ابن عساكر في «تاريخه» (٦٦/ ٢٦٦)، والمِزِّيّ في «تهذيب الكمال» (٣٣/ ٣٤٣) ـ ووقع في نقل ابن عساكر تصحيف ـ وصحَّحه ابن حبان (٤٠٤)، وحسَّنه الألباني في «المشكاة» (٥٣١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٧)؛ من حديث جندب العَلَقي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٠)، والدارمي (٢٧٤٨)؛ من حديث أبي هند الداري رضي الله عنه، وقال المنذري في «الترغيب» (١/ ٦٥): «إسناده جيد»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٤).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٦٢، ١٩٥، ٢١٢)؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصحَّحه المنذري في «الترغيب» (١/ ٦٥)، وأحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (٦٥٠٩)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥).

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٤٢١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩).

(٧) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٥٤٦)؛ بسند صحيح.

وعن أبي النضر؛ أن عُمَر بن عُبَيْد الله سأل عبد الله بن عمر، فقال: أصلَحَكَ الله؛ أُنشِئُ الغَزْوَ، فأُنفِقُ ابتغاءَ وجه الله، وأخرُجُ لذلك، فإذا كان عند القتال، ابتغَيْتُ أن يُرَى بأسي ومَحْضَرِي؟ قال: «أَسْمَعُكَ رجلًا مُرَائِيًا»[(١)].

وقال عبد الرحمٰن بن أَنْعُم: «لكلِّ شيءٍ آفةٌ تُفْسِده؛ فآفةُ العبادة: الرياء، وآفةُ الحِلْم: الذُّلّ، وآفةُ الحياءِ: الضَّعْف، وآفةُ العلم: النِّسْيان، وآفةُ العَقْل: العُجْبُ بنفسه، وآفةُ الحِكْمة: الفُحْش، وآفةُ اللُّبّ: الصَّلَف، وآفةُ القَصْد: الشُّحّ، وآفةُ الزَّمَانة: الكِبْر، وآفةُ الجُود: التبذير»[(٢)].

وعن الفُضَيْل؛ قال: «إنَّ لله عبادًا لا يُرفَعُ لهم إلى الله عمل، وهم أصحاب الرياء، الذين يكون حبُّهم في غير حبِّ الله؛ إنْ أُعطُوا رَضُوا، وإن مُنِعُوا سَخِطُوا؛ فمَن كان كذلك، ورَّثه اللهُ العَمَى»[(٣)].

وقال الحسن بن سفيان الحافظ: «حدَّثنا أبو ثَوْر، قال: ما رأيتُ ولا رأى الراؤونَ مثلَ الشافعي رضي الله عنه وغفَرَ له، سأله رجل عن الرياء: ما هو؟ فقال له مُسرِعًا: الرياءُ فتنةٌ عَقَدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء، فنظروا إليها بسُوءِ اختيارِ النفوس، فأحبَطَتِ الأعمال»[(٤)].

ومما تقدَّم من الأخبار والآثار: يتبيَّن عظيمُ شأن الإخلاص، وخَطَرُ شأن الشرك والرياء بما لا يجوز معه التهاوُنُ في هذا الجانب في كثير الأعمال أو قليلها، كبيرها أو صغيرها.



(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٥٤٢)؛ بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٢٩).
(٣) «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤٤٦).
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥١/ ٣٣٤).

الطريقُ إلى تحقيقِ الإخلاصِ ودَفْعِ الرياءِ

إذا عَرَفْتَ أنَّ الإخلاصَ شديد، وأنه صعبٌ على النفوس، فيحسُنُ بنا أن نذكُرَ جملةً من الأمور التي يُمكِنُ للعبد معها أن يقوِّيَ إخلاصَهُ، ويَدفَعَ أضدادَهُ من قَلْبه:

١ ـ أن يستعينَ بالله ﷻ على تحقيقِه:

وأن يتعوَّذ بالله تبارك وتعالى من الرياء، وأن يراقِبَ ربَّه، وأن يحاسِبَ نفسه، وقد جاء عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»؛ فقال له مَنْ شاء اللهُ أن يقولَ: وكيف نَتَّقِيهِ وهو أخفى مِن دَبِيبِ النَّمْلِ يا رَسُولَ اللهِ؟! قال: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيئًا نَعْلَمُهُ، ونَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ**»[(١)].

وقال الجُنَيْدُ: سمعتُ السَّرِيَّ يقول: خَفِيَتْ عليَّ عِلَّةٌ ثلاثين سنةً؛ وذلك أنَّا كنَّا جماعةً نبكِّرُ إلى الجمعة، ولنا أماكنُ قد عُرِفَتْ بنا، لا نكاد أن نخلُوَ عنها، فمات رجلٌ مِن جيراننا يومَ جمعة، فأحبَبْتُ أن أشيِّعَ جنازته، فشَيَّعْتُها، وأضحيتُ عن وقتي، ثم جِئْتُ أُرِيدُ الجمعة، فلما أن قَرُبْتُ من المسجد، قالتْ لي نفسي: الآنَ يَرَوْنَكَ وقد أَضْحَيْتَ وتَخَلَّفْتَ عن وَقْتِكَ؛ فشَقَّ ذلك عليَّ، فقلتُ لنفسي: «أَرَاكِ مُرَائِيَةً منذ ثلاثينَ سَنَةً، وأنا لا أدري!»[(٢)].

فالعبد لا غِنَى له عن ربِّه ومولاه ﷻ في صرف هذه النيَّات الفاسِدة والمقاصِد السيِّئة عن نفسه، وقَلَّ أن يتخلَّص منها أحد، وكان مِن دعاء علي بن الحسين زَيْن العابدين رَحِمَهُ اللهُ: «اللَّهُمَّ، إني أعوذُ بك أن تحسِّنَ في لوامعِ العيونِ علانيتي، وتقبِّحَ في خَفِيَّاتِ العيونِ سريرتي، اللَّهُمَّ، كما أسَأْتُ وأحسَنْتَ إليَّ، فإذا عُدتُّ، فَعُدْ عَلَيَّ»[(٣)].

وكان من دعاء مطرِّفِ بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «اللَّهُمَّ، إني أستغفِرُكَ مما تُبْتُ إليك منه،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٠٣)؛ من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦). وفي الباب: عن أبي بكر الصديق، وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٢٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤١/ ٤٠٩)؛ واللفظ له.

ثم عُدتُّ فيه، وأستغفِرُكَ مما جعلتُهُ لك على نفسي، ثم لم أَفِ لك به، وأستغفِرُكَ مما زعَمْتُ أني أَرَدتُّ به وجهَكَ، فخالَطَ قلبي فيه ما قد عَلِمْتَ»(١).

فتوجَّهْ إلى الله بتمام الفقر إليه، والذلِّ بين يديه، واسأَلْهُ أن يصحِّح قصدك ونيَّتك؛ فإنه لا بلاغ إلا بإعانته وتسديده وتوفيقه، وإذا تخلَّى الربُّ عن العبد، خُذِلَ العبد أحوَجَ ما يكون إلى الإعانة، ومَن التفَتَ إلى نفسه وقوَّته وطاقته، أو إلى عمله وجهده وتحصيله، خُذِلَ أيضًا.

٢ ـ أن يعبِّدَ قلبَهُ وجوارحَهُ لله ﷻ:

فهذا القلبُ لا بد أن يُمْلَأَ بالإرادات والخواطر، ولا بد له مِن أحد يتوجَّهُ إليه؛ فإما أن يتوجَّه إلى الله ﷻ، وإما أن يتوجَّه إلى المخلوقين، وهذه الجوارح كذلك لا بد لها من عبوديَّة ـ شاء الإنسان أم أبى ـ فإما أن يسخِّر جوارحَهُ في مرضاة الله ﷻ؛ فيكون عبدًا لله، وإما أن يسخِّرها في تحقيق شهواته وتحصيل مطلوباته القريبة العاجلة؛ فيكون عبدًا لها، وإما أن يسخِّرها في طلب ثناء الناس، والمنزلة في قلوبهم؛ فيكون عبدًا لهم.

يقول ابن القيِّم رحمه الله: «قطعُ العلائق والأسباب التي تدعُوهُ إلى موافقة الهوى، وليس المرادَ ألا يكون له هوًى، بل المراد: أن يصرِفَ هواه إلى ما يَنفَعُه، ويستعمِلَهُ في تنفيذ مراد الربِّ تعالى؛ فإنَّ ذلك يَدفَعُ عنه شرَّ استعماله في معاصيه؛ فإنَّ كل شيء من الإنسان يستعملُهُ لله، فإن الله يَقِيهِ شرَّ استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعملُهُ لله، استعمَلَهُ لنفسه وهواه ولا بدَّ؛ فالعلمُ إنْ لم يكن لله، كان للنَّفْس والهوى، والعملُ إنْ لم يكن لله، كان للرياء والنفاق، والمالُ إنْ لم يُنفَقْ في طاعة الله، أُنفِقَ في طاعة الشيطان والهوى، والجاهُ إنْ لم يستعمِلْهُ لله، استعمَلَهُ صاحبه في هواه وحظوظه، والقوَّةُ إنْ لم يستعمِلْها في أمر الله، استعمَلَتْهُ في معصيته، فمَن عوَّد نفسَهُ العمل لله، لم يكن عليه أشقُّ مِن العمل لغيره، ومن عوَّد نفسه العمل لهواه وحظِّه، لم يكن عليه أشقُّ من الإخلاص والعمل لله»(٢).

وهذه الجملة الأخيرة في غاية النَّفَاسة؛ لبيان مَنزِلة الإخلاص، وحقيقةِ مقامه، وصفة تنزُّله في قلب العبد.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٧)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ٣٢٧)؛ واللفظ له.

(٢) «عدَّة الصابرين» (ص١٠٧).

فالذي تعوَّد أن يعمل في المناسَبات وفي حضور الجموع الغفيرة، فإنه يصعُبُ عليه أن يَجُودَ بنَفَقة، أو يقومَ بعمَل؛ إن غابت هذه الجموع، والذي عوَّد نفسه العملَ لله ﷻ، لم يكنْ شيءٌ أبغضَ إليه ولا أشَقَّ عليه ولا أسوَأَ لديه من كَشْفِ المستور، وإبراز المخبوء.

وهذا تراه لو قيل له: إنَّ مِن المصلحة أن يراك الناس ليقتدوا بك؛ فإنه لا يزال مشفِقًا على نفسه مِن هذا الذي لم يعوِّدْ قلبه عليه؛ فالمخلِص الذي تعوَّد على الإخلاص، وأَلِفَهُ قلبه، لا يَقدِرُ قلبه على خلافه، وأما غير المخلِص، فهو لا يعمل إلا إذا شاهَدَهُ الآخرون!

٣ ـ أن يتعرَّف على ما يضادُّ الإخلاصَ من آفات القلوب؛ كالعُجْبِ والرياءِ والسُّمْعة؛ ليتحرَّز منه:

فإن العبد مطالَبٌ بمعرفة عدوِّه، ومعرفة الأدواء التي تنفُذُ إلى قلبه، وقد حَذَّرَنا النبي ﷺ من تلك الآفات؛ فعن محمود بن لَبِيد رضي الله عنه؛ قال: خرَجَ النبي ﷺ، فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ!**»، قالوا: يا رَسُولَ الله، وما شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ فقال: «**يقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ**»[1].

فالمسألة عظيمة الشأن؛ فكم من متعبِّد يتعبَّدُ لغير الله وهو يَظُنُّ أنه لله؛ وذلك لأن اليسير من الرياء شِرْك، والشِّرْكُ أخفى من دَبِيب النمل[2].

ويقول عليه الصلاة والسلام مبيِّنًا خَطَرَ الرياء: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»، قالوا: وما الشركُ الأَصْغَرُ؟ قال: «**الرِّيَاءُ؛ يقولُ اللهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**»[3].

ومعلوم أن جِنْس الشرك أعظَمُ من جِنْس الكبائر.

قال ابن رجب رحمه الله: «وإنما زاد عذابُ أهل الرياء على سائر العُصَاة؛ لأن الرياء

---

(١) أخرجه أبو سعيد الأشج في «جزئه» (١١٦)؛ ومن طريقه ابن خزيمة (٩٣٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٢/ ٢٩٠)، و«الشعب» (٢٨٧٢)، وغيرهم، وصحَّحه ابن خزيمة، والمنذري في «الترغيب» (١/ ٦٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١). وفي الباب: عن جابر رضي الله عنه، لكنه لا يثبُتُ؛ كما في «الشعب» (٥/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩).

(٢) كما جاء من حديث أبي موسى رضي الله عنه، وقد تقدَّم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

هو الشِّرْكُ الأصغر، والذنوبُ المتعلِّقةُ بالشرك أعظَمُ من المتعلِّقة بغيره»[(١)].

والعبد إذا أراد أن يتخلَّص، فعليه أن يخلِّص قلبه مِن هذا الإشراك، وقد يَعمَلُ العبدُ معصيةً ظاهرة، فتكون أخف وأهون عليه في الحساب من صلاةٍ طويلةٍ يُرَائي بها، أو صيامٍ في يوم طويل شديد الحَرِّ يتزيَّن به أمام المخلوقين، وقد خرَجَ النبي ﷺ يومًا على أصحابه وهم يتذاكرون الدجَّال، فقال: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**»، قال: قلنا: بلى، فقال: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنَ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»[(٢)].

فهذا يخافه النبي ﷺ على أمَّته أعظم من خَوْفه عليهم من الدجَّال؛ وهذا يَدُلُّ على عِظَمِهِ مِن جهة، ودِقَّتِهِ حيث يخفى على الكثيرين مِن جهة أخرى.

وأيضًا: لأن النفوس قد أُشرِبَتْ حُبَّ المَحمَدة، فيصعُبُ تخليصها من ذلك؛ فهو أمرٌ يكاد يكون لازمًا لها، كامنًا فيها كمون النار في الزِّناد.

فينبغي على العبد أن يتبصَّر في نفسه، وفيمن حوله، وأن يكون شغله في إصلاح قَلْبِهِ قبل كل شيء؛ فإنه قد يُرَائِي في أمور لا يتفطَّنُ لها كثير من الناس[(٣)]؛ فقد يُرَائِي بإظهار الإشفاق والحُزْن والخوف من الله ﷻ، وقد يُرائي بضَعْف الصوت، وغَوْر العينَيْن، وذُبُول الشفتَيْن؛ ليستدل الناس بذلك على أنه صائم ـ مثلًا ـ وقد يَحرِصُ على إبراز أثر السجود، وإظهارِهِ في وجهه ليبدو للناس، وربما حسَرَ قَلَنْسُوَتَهُ عن جبهته ليبدو ذلك الأثر؛ فتلك أمور قد تخفى على الناس، والله ﷻ لا يخفى عليه شيء.

وقد يُرائي العبد بتزيين القول وتحسينه وتنميقه وتسجيعه؛ مِن أجل أن يحوز رضا الناس وإعجابهم، وقد يُرائي بالبكاء وإظهار التأثُّر في مَجَامِعِ الناس؛ كالذي يصلي بالناس، ويتكلَّف البكاء أو النَّشِيج؛ فأين هذا من فِعْلِ السَّلَف وما كانوا عليه مِن إخلاص العمل لله، وتوقِّي الرياء؟!

لقد كان أبو وائل ؒ إذا صلَّى في بيته يَنشِجُ نَشِيجًا لو جُعِلَتْ له الدنيا على أن يفعله وأحدٌ يراه، ما فعَلَهُ[(٤)].

---

(١) «التخويف من النار» (ص٢٨٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤)؛ من حديث أبي سعيد الخدري ؓ، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٣٢٩)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٠).

(٣) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص٤٤٢).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٣٥٨)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٠١)؛ واللفظ له، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٣٢).

وصَحَّ عن حمَّاد بن زيد؛ أنه قال: «كان أيُّوب ربما حدَّث الحديث، فيَرِقُّ، فيَلْتَفِتُ فيتمخَّط، فيقول: ما أَشَدَّ الزُّكَامَ!»(١).

أما تكلُّف البكاء في الصلاة، فإنما يكون حينما يُغلِق الإنسان عليه بابه، ولا يَطَّلِع عليه أحد؛ أما أن يتكلَّف الإنسان ذلك في جموع المصلِّين، فهذا أمر لا يَسُوغ، لكن مَن غلبه البكاء، فهذا شأن آخر، وقد مَرَّ بك من حال السلف ما يُرشِدُك إلى حقيقة الأمر.

وقد يُرَائِي العبد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فيقوم مقامًا يُنكِر فيه بعض المنكر بنيَّة مَشُوبة برياءٍ أو عُجْبٍ أو نحو ذلك، فيسلَّط عليه من يُؤذِيه؛ لسوء قصده.

وقد يُظْهِرُ الأسف على حال الناس وانحرافهم، أو يُظْهِر الزهد في الدنيا.

وهذه ونحوها أمور قد يَفعَلُها من يَحترِق قلبه على الخلق محبَّةً لهم، وشفقةً عليهم؛ لقوَّة إخلاصه وتقواه، وقد يَفعَلُها من يُرِيد بذلك معنًى رديئًا، والله ﷻ وحده الذي يعلم ما في القلوب.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السُّنَّة؛ وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]؛ فهذا هو العمَلُ المقبول الذي لا يَقبَلُ الله مِن الأعمال سواه، وهو أن يكون موافِقًا لسُنَّة رسول الله ﷺ، مرادًا به وجه الله، ولا يتمكَّنُ العاملُ من الإتيان بعمل يَجمَع هذَيْن الوصفَيْن إلا بالعلم؛ فإنه إنْ لم يعلم ما جاء به الرسول، لم يُمكِنْهُ قصده، وإنْ لم يَعرِفْ معبوده، لم يُمكِنْهُ إرادتُهُ وحده، فلولا العِلْمُ، لما كان عمله مقبولًا؛ فالعلم هو الدليل إلى الإخلاص، وهو الدليل على المتابَعة؛ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]؛ **وأحسَنُ ما قيل في تفسير الآية:** أنه إنما يتقبَّل عمَلَ من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه: أنْ يكون لوجهه، على موافَقة أمره، وهذا إنما يحصُلُ بالعلم، وإذا كان هذا منزِلةَ العلم وموقعَهُ، عُلِمَ أنه أشرَفُ شيء وأجلُّه وأفضله»(٢).

وهذا يعني: أن العبد يحتاج إلى علم وبصيرة؛ ليَعرِفَ كيف يتخلَّص من الرياء، ومن الشوائب التي تَشُوب عمله، وكيف يتوجَّه إلى ربه ومولاه، فيُخلِصُ سائر الأعمال لله تعالى.

---

(١) أخرجه أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» برواية ابنه (١/ ٤٠٥)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤)؛ بتصرف.

٤ ـ أن يقطَعَ الطمعَ في المخلوقين، ولا يلتفِتَ إلى مدحِهم:

وهذا لا يتحقَّقُ ـ مع الصبر واليقين ـ إلا **بأمرَيْن**:

الأول: أن يَعرِفَ ربَّه معرفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته؛ فيعرِفَ عظمتَهُ وجلاله، وأنَّ بيده النفعَ والضرَّ، والعطاءَ والمنع؛ فيتوجَّهُ إليه قلبُهُ بكلِّيَّته، ويُقبِلُ عليه.

الثاني: أن يَعرِفَ ضعفَ الخَلْق وعجزَهم عن أن يحصِّلوا لأنفسِهم نفعًا أو يدفعوا ضرًّا، فضلًا عن غيرهم؛ وبذلك ينقطِعُ طمعُهُ فيهم.

وقد سُئِلَ بعضُهم عما يُنالُ به الإخلاصُ؟ فقال: يُنالُ **بثلاث خِلَال**:

فأعلاها: التي يكونُ بها المخلِص أقوى المخلِصين، والخَطَراتُ عليه أقلَّ وأضعفَ: تعظيمُ قدرِ الربِّ وإجلالُه، واستصغارُ قَدْرِ المخلوقين: أنَّهم لا يستأهِلُونَ أن يُتقرَّبَ إليهم بطاعةِ الربِّ، فإنْ لم يَقْوَ على هذه الخَلَّة.

فالخَلَّةُ الثانية: أن يذكُرَ اطلاعَ اللهِ على ضميره، وهو يريد بطاعتِه حَمْدَ مملوكٍ ضعيفٍ يتحبَّب إليه بالمَقْت إلى مولاه، ويتقرَّب إليه بالتباعُد من سيِّده، ويحظى في عينِ عبدٍ مملوكٍ ضعيفٍ، ويموت بالسقوطِ مِن عَيْن الإلٰه الذي لا يموتُ؛ فإنه حينئذٍ يستكِينُ عقله، ويخشعُ طَبْعُهُ مِن قَبُول كلِّ خَطْرة تدعوه إلى إرادة المخلوقين بطاعة ربِّه، فإنْ لم يَقْوَ على هذه الخَلَّة.

فالخَلَّةُ الثالثة: أن يرجعَ إلى نفسِهِ بالرحمة لها، والإشفاق عليها من حَبْطِ عملِهِ في يومِ فاقتِهِ وفقره، فيبقى خاسِرًا قد حَبِطَ إحسانُهُ وخَسِرَ عملَه[1].

والإنسانُ بحاجةٍ إلى أن يتأمَّل فيما حوله مِن أحوال المخلوقين، يتأمَّل حالَ هذا المخلوق إذا جاع أو عَطِشَ؛ كيف يكونُ شأنُهُ وحالُه؟! ويتأمَّل حاله إذا أصابه مَرَضٌ أو أَلَم؛ كيف تتحوَّلُ قوَّته وجَبَرُوته إلى ضعفٍ وعَجْز؛ فيكون أسيرًا لهذا المرض بطلب البُرْء، ويسأل عن الدواء، ويتأمَّله حينما يكونُ في قوَّته ونشاطه وحَيَويَّته؛ فيحتاج إلى النوم ـ ولا بدَّ له منه ـ كيف يتحوَّلُ هذا النشاطُ إلى ضعفٍ وخمولٍ وعَجْز، فإذا غلبه النومُ واستسلَمَ له، ظهَرَ بمَظهَرٍ يَجلِبُ الشفقة، طريحًا على فراشه، لا يسمعُ ولا يُبصِرُ، ولا يتكلَّم ولا يَعقِل.

فإذا انقضَتْ أيَّامُهُ، ووافاه أجلُهُ، تحوَّل إلى جِيفةٍ مُنْتِنة، ولو أنه نُسِيَ في بيته أو لم يَعرِفْ بموتِهِ أحدٌ، لَدَلَّتْ عليه رائحتُهُ المُنتِنةُ التي تُفسِدُ الأجواء، وتَضِيقُ بها الأنفاس!

---

(١) انظر: «الحلية» (١٠/ ٩٨).

ومَن كان هذا حالَهُ وأصلَهُ من نُطْفةٍ مُستقذَرة، فكيف يُلتَفَتُ إليه عند العبادة، وتُنفَقُ في رضاه الأموال؟!

ثم ماذا تُريدُ من مدح الناس؟! إذا أعجَبْتَهُمْ، بالغوا في مدحِكَ غالبًا وكذَبُوا، وإذا أبغضُوكَ، بالغوا في ذمِّكَ وتنقُّصِكَ، ورمَوْكَ بأقبحِ الأوصاف! فأيُّ خيرٍ في توجيهِ الأعمالِ إليهم؟! وأيُّ خيرٍ في تعلُّق القلب بهم؟!

أما المَلِكُ الديَّان ـ سبحانه ـ فبيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيء، وهو مالكُ خزائِنِ السمٰوات والأرض؛ فهو العظيمُ الذي يستحِقُّ أن يُعبَدَ وحده؛ فدَعْ عنك الالتفات إلى المخلوقين.

ويكفي قُبْحًا ومَذَمَّةً في ذلك: أن الناس إذا عَلِموا ذلك منك، أَطْرَوْكَ ومدَحُوك، وأثنَوْا عليك وعلى أعمالك؛ لأنهم يَعلَمون أنك تَطرَبُ لذلك؛ فيتوصَّلون إلى تحصيل مقاصدهم منك، أو كَفِّ شرِّك عنهم بمدحِك، والثناءِ عليك زُورًا وكذبًا؛ فأيُّ خير في هذا أن يُثنِيَ الناسُ عليك لأنَّك تُحِبُّ المدحَ؟!

قال الفُضَيْلُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تزيَّنْتَ لهم بالصُّوفِ ولم تَرَهُمْ يرفعونَ بك رأسًا، تزيَّنْتَ لهم بالقرآنِ فلم تَرَهُمْ يرفعونَ بك رأسًا، تزيَّنْتَ لهم بشيءٍ بعد شيءٍ كلُّ ذلك إنما هو لحبِّ الدنيا»(١).

وقال لرجلٍ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ كلمةً هي خيرٌ مِن الدنيا وما فيها: واللهِ، لَئِنْ عَلِمَ اللهُ منك إخراجَ الآدميِّين من قلبك، حتى لا يكونَ في قلبك مكانٌ لغيره، لم تَسأَلْهُ شيئًا إلا أعطاك»(٢).

وعن بلال بن سَعْدٍ؛ قال: «لا تَكُنْ وليًّا لله في العَلَانِيَة، وعَدُوَّهُ في السَّرِيرَة»(٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تكُنْ ذا وَجْهَيْنِ، وذا لسانَيْنِ؛ تُظهِرُ للناسِ لِيَحْمَدُوكَ، وقلبُكَ فاجرٌ»(٤).

وفي هذا المعنى، يقولُ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجتمِعُ الإخلاصُ في القلبِ ومحبَّةُ المدح والثناء والطَّمَع فيما عند الناس، إلا كما يَجتمِع الماء والنار، والضبُّ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإشراف» (٤٨٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر (٤٨/ ٤٠٣).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٨٥)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٢٨)، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٢٦)؛ واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٦٥٤٨).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنيَّة» (٢٨)، وقد جاء أيضًا عن محمد بن أبي عائشة بنحوه؛ كما أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٥٥٠).

والحُوت، فإذا حَدَّثَتْكَ نفسُكَ بطلب الإخلاص، فأَقبِلْ على الطمع أولًا، فاذبَحْهُ بسِكِّينِ اليأس، وأَقبِلْ على المدح والثناء، فازهَدْ فيهما زُهْدَ عُشَّاقِ الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذَبْحُ الطَّمَع، والزهدُ في الثناء والمَدْح، سَهُلَ عليك الإخلاص.

فإنْ قلتَ: وما الذي يسهِّل عليَّ ذبحَ الطَّمَع والزهدَ في الثناء والمَدْح؟

قلتُ: **أما ذبحُ الطمع**، فيسهِّله عليك: عِلْمُكَ يقينًا أنه ليس من شيء يُطْمَع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنُهُ لا يملكها غيره، ولا يُؤتِي العبدَ منها شيئًا سواه، **وأمَّا الزهد في الثناء والمَدْح**: فيسهِّله عليك عِلْمُكَ أنه ليس أحد يَنفَعُ مدحُه، ويَزِينُ ويَضُرُّ ذمُّه ويَشِينُ إلا الله وحده؛ كما قال الأعرابي للنبي ﷺ: «إنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وإنَّ ذَمِّي شَيْنٌ»، فقال النبيُّ ﷺ: «**ذَاكَ اللهُ** ﷻ»[(١)].

فازهد في مدحِ مَن لا يَزِينُك مَدْحُه، وفي ذمِّ مَن لا يَشِينُكَ ذمُّه، وارغَبْ في مدحِ مَن كلُّ الزَّيْن في مَدْحِه، وكلُّ الشَّيْن في ذَمِّه.

ولن تَقدِر على ذلك إلا بالصبر واليقين؛ فمتى فقَدتَّ الصبر واليقين، كنتَ كمن أراد السفر في البحر في غير مَرْكَب؛ قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]»[(٢)].

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في مَعْرِض ذِكْر أقسام الناس في الإخلاص والمتابَعة القِسْمَ الأول، وهم**: «أهلُ الإخلاصِ للمعبود والمتابَعةِ، وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] حقيقةً؛ فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومَنْعُهم لله، وحُبُّهم لله، وبُغْضُهم لله؛ فمعامَلَتُهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده، لا يُريدون بذلك مِن الناس جزاءً ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلَبَ المَحمَدةِ والمَنزِلةِ في قلوبهم، ولا هَرَبًا من ذمِّهم، بل قد عَدُّوا الناس بمنزِلة أصحاب القبور؛ لا يَملِكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

فالعمَلُ لأجل الناس، وابتغاءُ الجاه والمنزِلة عندهم، ورجاؤهم للضرِّ والنفع منهم، لا يكون مِن عارِفٍ بهم البتَّةَ، بل مِن جاهل بشأنهم وجاهل بربِّه؛ فمَن عرَفَ الناس، أنزَلَهم منازلهم، ومَن عرَفَ اللهَ، أخلَصَ له أعماله وأقواله، وعطاءَهُ ومَنْعَه، وحُبَّه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧)؛ من حديث البَرَاء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه، وقال ابن كَثِير في «التاريخ» (٧/ ٢٤٤): «إسناده جيد متصل»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٠٥).
وفي الباب: عن الأقرع بن حابس، وجابر، وعن قتادة والحسن: مرسَلًا.

(٢) «الفوائد» (ص٢١٩ ـ ٢٢٠).

وبُغْضَه، ولا يعامِلُ أحدٌ الخَلْقَ دون الله، إلا لجهله بالله وجهله بالخلق؛ وإلا فإذا عرَفَ الله وعرَفَ الناس، آثَرَ معامَلة الله على معامَلتهم»[(١)].

وعن فُضَيْل بن عِياض رَحِمَهُ اللهُ؛ **قال**: قيل لسليمان التَّيْمي: أنتَ أنت، ومَن مِثْلُك؟! قال: لا تقولوا هكذا؛ ما أدري ما يبدو لي مِن ربِّي عَزَّ وَجَلَّ، سمعتُ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧][(٢)].

وكان نِظَامُ المُلْكِ الوزيرُ الحسن بن علي بن إسحاق مِن خيار الوزراء: «كان مجلسُهُ عامرًا بالفقهاء والعلماء؛ بحيث يقضي معهم غالب نهاره، فقيل له: إنَّ هؤلاء شَغَلُوكَ عن كثير من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلَسْتُهُمْ على رأسي، لما استكْثَرْتُ ذلك، وكان إذا دخَلَ عليه أبو القاسم القُشَيْريُّ، وأبو المَعَالِي الجُوَيْنيُّ، قام لهما وأجلَسَهما معه في المِقْعَد، فإذا دخل أبو عليٍّ الفَارَمْذِيُّ، قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعُوتِبَ في ذلك، فقال: إنهما إذا دخلا عليَّ، قالا: أنتَ أنت، يُطْرُوني، ويعظِّمُوني، ويقولون فيَّ ما ليس فيَّ، فأزداد بهما ما هو مركوزٌ في نَفْسِ البَشَر، وإذا دخَلَ عليَّ أبو عليٍّ الفارَمْذِيُّ، ذكَّرني عيوبي وظُلْمي فأَنكَسِرُ، فأَرجِعُ عن كثيرٍ مِن الذي أنا فيه»[(٣)].

٥ ـ أن يُخْفِيَ عمَلَهُ:

ولهذا كان الصوم من أجلِّ الأعمال؛ لأنه يَخفَى على الناس، ويحتاج إلى الصَّبْر، وكانت صدقةُ السرِّ في الجملة أفضلَ مِن صدقة العلانية، وكانت الصلاة في جَوْف الليل أفضلَ الصلاة بعد المكتوبة.

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إذا أصبحتم صيامًا، فأَصْبِحوا مُتَدَهِّنين»[(٤)].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «بلغني أن العبد يَعمَلُ العملَ سِرًّا، فلا يزالُ به الشيطان حتى يَغلِبَه، فيُكتَبَ في العلانية، ثم لا يزالُ الشيطان به حتى يُحِبَّ أن يُحمَدَ عليه؛ فيُنسَخَ من العلانية، فيُثبَتُ في الرياء»[(٥)].

ويقول بِشْر الحافي رَحِمَهُ اللهُ: «لا تَعمَلْ لِتُذكَر؛ اكتُمِ الحَسَنة كما تكتُمُ السيِّئة»[(٦)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨٣). (٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٠).

(٣) «البداية والنهاية» (١٦/ ١٢٦). وانظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٦/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٥٨). (٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٠).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٤٧٦)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٤٦) بنحوه. ورُوِيَ نحوه عن أبي حازم؛ أخرجه الفَسَويُّ في «تاريخه» (١/ ٦٧٩)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٦٤٩٦)، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٦٨).

إلا أن صَدَقة الفطر قد تكون أحيانًا أفضل من صدقة السِّرّ، وقد ذكر الطبري وغيره: أن الإعلان في صَدَقة الفرض أفضل من الإخفاء، وصدقة التطوُّع على العكس من ذلك[(١)].

قال أبو إسحاق الزجَّاج في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]: «هذا كان على عهد رسول الله ﷺ، فكان الإخفاء في إيتاء الزكاة أحسَنَ، فأما اليوم، فالناس يُسِيئُونَ الظنَّ؛ فإظهار الزكاة أحسَن، فأما التطوُّع، فإخفاؤه أحسن؛ لأنه أدَلُّ على أنه يُرِيدُ الله به وحده»[(٢)].

قال ابن عطيَّة: «ويُشبِهُ في زمننا: أن يَحسُنَ التستُّر بصدقة الفرض؛ فقد كَثُرَ المانع لها، وصار إخراجها عُرْضةً للرياء»[(٣)].

وقال الزَّيْن بن المنيِّر: «لو قيل: إنَّ ذلك يَختلِف باختلاف الأحوال، لَمَا كان بعيدًا، فإذا كان الإمام مثلًا جائرًا، ومالُ مَن وجَبَتْ عليه مخفيًّا، فالإسرار أولى، وإنْ كان المتطوِّع ممن يُقتدَى به ويُتَّبَعُ وتَنبَعِثُ الهِمَم على التطوُّع بالإنفاق، وسَلِمَ قصدُهُ، فالإظهار أولى، والله أعلم»[(٤)].

ويؤيِّده: ما رواه مسلم[(٥)]؛ من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: جاء ناسٌ مِن الأعراب إلى رسول الله ﷺ، عليهم الصُّوفُ، فرأى سُوءَ حالهم، قد أصابَتْهم حاجة؛ فحَثَّ الناسَ على الصدقة؛ فأبطؤوا عنه حتى رُئِيَ ذلك في وجهه، قال: ثم إنَّ رجلًا من الأنصار جاء بصُرَّة من وَرِق، ثم جاء آخر، ثم تتابَعُوا، حتى عُرِفَ السرورُ في وَجْهِه، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يُنْقَصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**...»، الحديثَ.

٦ ـ أن يحاسِبَ نفسه على الخطَرَات والإرادات والنيَّات:

فيسأَلُ نفسَهُ دائمًا ويُحاسِبُها: ماذا أَرَدتِّ بهذه الكلمة؟ ماذا أَرَدتِّ بهذه الصدقة؟ ماذا أَرَدتِّ بهذا العمل؟

قال الحسن رحمه الله: «المؤمِنُ قَوَّامٌ على نفسه، يُحاسِب نفسه لله عز وجل، وإنما خَفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسَبُوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شَقَّ الحساب يوم

---

(١) «تفسير الطبري» (٥/ ٥٨٤).
(٢) «معاني القرآن» (١/ ٣٥٤).
(٣) «تفسير ابن عطيَّة» (١/ ٣٦٥).
(٤) «فتح الباري» (٣/ ٣٤٠).
(٥) برقم (١٠١٧).

القيامة على أقوام أَخَذُوا هذا الأمر من غير محاسَبة»[(١)].

فالمؤمن يراقِبُ خواطره وإراداته، وأقواله وأفعاله دائمًا؛ لئلا يقع في الرياء، وقد قال عَبَدة بن أبي لُبَابة: «إنَّ أقرَبَ الناس مِن الرياء آمَنُهُمْ له»[(٢)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومحاسَبةُ النفس نوعان: نوعٌ قبل العمل، ونوع بعده؛ فأمَّا **النوع الأوَّل:** فهو أن يَقِفَ عند أول هَمِّهِ وإرادته، ولا يُبادِرَ بالعمل حتى يتبيَّن له رُجْحانُه على تَرْكه؛ **قال الحسن** رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَحِمَ الله عبدًا وقَفَ عند هَمِّه؛ فإنْ كان لله مضى، وإنْ كان لغيره تأخَّر»[(٣)].

وشرَحَ هذا بعضهم، فقال: إذا تحرَّكَتِ النفس لعمل من الأعمال، وهَمَّ به العبد، وقَفَ أولًا ونظر: هل ذلك العمل مقدورٌ له أو غير مقدورٍ ولا مُسْتَطاع؟ فإنْ لم يكن مقدورًا، لم يُقدِم عليه، وإنْ كان مقدورًا، وقَفَ وقفةً أخرى ونظر: هل فِعْلُهُ خيرٌ له من تَرْكه، أو تَرْكُهُ خير له من فِعْله؟ فإنْ كان الثاني، ترَكَهُ، ولم يُقدِمْ عليه، وإنْ كان الأوَّل، وقَفَ وقفةً ثالثةً ونظر: هل الباعثُ عليه إرادةُ وجه الله عَزَّ وَجَلَّ وثوابِه، أو إرادةُ الجاه والثناء والمال مِن المخلوق؟ فإنْ كان الثاني، لم يُقدِمْ وإنْ أفضى به إلى مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشِّرْك، ويَخِفَّ عليها العمل لغير الله، فبِقَدْرِ ما يَخِفُّ عليها ذلك يَثْقُلُ عليها العمل لله تعالى، حتى يصير أثقَلَ شيء عليها»[(٤)].

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «محاسَبةُ النَّفْس بعد العمل، وهو **ثلاثة أنواع:**

أحدها: محاسَبَتُها على طاعة قصَّرت فيها من حق الله تعالى؛ فلم تُوقِعْها على الوجه الذي ينبغي.

وحق الله في الطاعة **ستة أمور**... وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابَعة الرسول فيه، وشهودُ مَشْهَدِ الإحسان فيه، وشهودُ مِنَّةِ الله عليه فيه، وشهودُ تقصيرِهِ فيه بعد ذلك كله؛ فيُحاسِب نفسه: هل وفَّى هذه المقاماتِ حقَّها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يُحاسِبَ نفسه على كل عمل كان تركُهُ خيرًا له من فِعْله.

الثالث: أن يُحاسِبَ نفسه على أمرٍ مباح، أو معتادٍ: لِمَ فَعَلَه؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؛ فيكون رابحًا؟ أو أراد به الدنيا وعاجِلَها؛ فيَخسَرَ ذلك الربح، ويَفُوتَهُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٧، ١٤٩)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٠٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١١٣).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٨٩٤).

(٤) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

الظَّفَرُ به؟»[(١)].

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للعالم أن يتكلَّم بنية وحُسْنِ قَصْد؛ فإنْ أعجبه كلامه، فليَصْمُت، فإنْ أعجبه الصَّمْت، فليَنْطِق، ولا يَفتُرْ عن محاسَبة نفسه؛ فإنها تُحِبُّ الظهور والثناء»[(٢)].

٧ ـ أن يجاهِدَ العبدُ نفسَهُ وهواه، وشيطانَهُ ودنياه:

والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ فعلَّق الهداية بالجهاد؛ وذلك ـ كما ذكرتُ سابقًا ـ أن الحكم المعلَّق على وصفٍ يزيد بزيادتِه، وينقُصُ بنقصانِه؛ فالحكم هو الهداية، والوَصْفُ هو المجاهَدة؛ فكلما ازدادت مجاهَدة العبد، ازدادت هدايته، وكلما قَلَّت مجاهَدته، قلَّت هدايته.

يقول ابن القيِّم: «أكمَلُ الناس هدايةً: أعظمهم جهادًا، وأفرَضُ الجهاد: جهادُ النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا؛ فمَن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سُبُلَ رضاه المُوصِلةَ إلى جَنَّته، ومن ترَكَ الجهاد، فاته من الهدى بحَسَب ما عطَّل من الجهاد؛ قال الجُنَيْد: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ أهواءهم ﴿فِينَا﴾ بالتوبة، ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ سُبُلَ الإخلاص، ولا يتمكَّنُ من جهاد عدوِّه في الظاهر إلا مَن جاهَدَ هذه الأعداء باطنًا؛ فمَن نُصِرَ عليها، نُصِرَ على عدوِّه، ومَن نُصِرَتْ عليه، نُصِرَ عليه عدوُّه»[(٣)].

٨ ـ أن يتباعَدَ العبدُ جهدَهُ عن المواطن التي يحتاجُ فيها إلى التكلُّف والتصنُّع إلى المخلوقين:

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص: ٨٦]؛ فالتكلُّف غير محمود؛ ومن ثَمَّ فإنه يَتباعَدُ عن الأمور التي تستدعي منه هذا التكلُّف.

وفي هذا قال عليُّ بن بَكَّار: «لَأَنْ أَلْقَى الشيطانَ أحبُّ إليَّ من أن ألقى فلانًا؛ أخاف أن أتصنَّعَ له فأسقُطَ من عَيْن الله»[(٤)].

وعن علي بن الحسن؛ قال: «بلَغَ فُضَيْلًا أن جريرًا يريد أن يأتيه، قال: فأقفَلَ البابَ من خارج؛ قال: فجاء جرير، فرأى الباب مُقفَلًا، فرجَع، قال عليٌّ: فبلغني ذلك،

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٦٤).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٩٤).
(٣) «الفوائد» (ص٨٢ ـ ٨٣).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٧٠)، (٩/ ٣١٨ ـ ٣١٩)؛ بتصرف.

فأتيتُهُ، فقلتُ له: جرير، فقال: ما يصنع بي؟! يُظْهِرُ لي محاسِنَ كلامه، وأُظْهِرُ له محاسِنَ كلامي! فلا يتزيَّن لي، ولا أتزيَّن له: خيرٌ له!»[١].

وعن الفَيْض بن إسحاق؛ قال: سمعتُ فضيلًا يقول: «لو قيل لك: يا مُرَائي، لَغَضِبْتَ، ولَشَقَّ عليك، وتشكو فتقول: قال لي: يا مُرَائي! عساه قال حقًّا؛ مِن حبِّك للدنيا تزيَّنْتَ للدنيا وتصنَّعْتَ للدنيا، ثم قال: اتَّقِ (الله؛ لا)[٢] تكن مرائيًا، وأنت لا تشعُرُ، تصنَّعْتَ وتهيَّأْتَ حتى عرَفَك الناس، فقالوا: هو رجل صالح، فأكرَمُوك، وقضَوْا لك الحوائج، ووسَّعوا لك في المجالس، وإنما عَرَفُوك بالله، ولولا ذلك لَهُنْتَ عليهم»[٣].

وكان يقول: «ما دخَلَ عليَّ أحدٌ إلا خِفْتُ أن أتصنَّعَ له أو يتصنَّعَ لي»[٤].

فخيرٌ للعبد أن يُخالِط ويُجالِس مَن لا يتكلَّف لهم، فيكون معهم على سَجِيَّته، وتكون له نيَّة في كلامه، وفي كل أفعاله: إنْ صلَّى، فنيَّته خالصة، وإنْ تكلَّم، فكذلك، وإنْ تصدَّق، فكذلك، وكذلك إنْ قام لِخِدْمَتِهم.

قال المَرُّوذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذُكِرَ لأحمد أن رجلًا يُرِيدُ لقاءه، فقال: أليس قد كَرِهَ بعضُهم اللقاء؟ يتزيَّنُ لي، وأتزيَّنُ له!»[٥].

٩ ـ أن يَجتنِبَ العبدُ أسبابَ الشُّهْرة قَدْرَ الإمكان:

وكلَّما تأمَّل العبد هذا المعنى، وكلام السلف فيه، ومُجانَبَتهم لأسباب الشُّهْرة والرياسة، دعاه ذلك إلى التفكير الطويل، والوقوف مع نفسه، والنظر في عمله وحاله.

وهذا لا يعني أن يَجلِس الواحد منا في بيته ويُغلِق عليه بابه، ويقولَ: لا أُحِبُّ الظهور، إني أخاف الشُّهْرة! فالمتقدِّمون مع مدافَعَتهم لتلك الآفات وإعراضهم عنها، ومَنْع أنفسهم من تعاطي أسبابها، كانوا يُظهِرون العلم للناس، ويُجاهِدون في سبيل الله، ويَفعَلون ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به، ولم يكن الواحد منهم يَجلِس في بيته، ويَترُك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونَشْرَ العلم وتعليم سُنَّة رسول الله ﷺ، وحضورَ

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٤٠)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٠) بنحوه.

(٢) ما بين القوسين من «تاريخ دمشق»، وهي في «الحلية» و«صفة الصفوة» بلفظ مغاير.

(٣) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٤٠). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٠٥) بنحوه.

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٤١)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٠٤).

(٥) «تاريخ الإسلام» (١٨/ ٨٢).

الجُمَعِ والجماعات، والجهادَ في سبيل الله، ولكنه ـ مع التفاته إلى إصلاح قلبه ـ لا يَلتفِت إليه معرِضًا عما أمره به ربُّه، ولا يترُكُ الناس جاهلين تَعبَثُ بهم الشياطين، وتُورِدُهم مَوَارِدَ الهَلَكة.

وسيأتي من كلام السلف شيء كثير من هذا.

١٠ ـ أن يربِّيَ العبدُ نفسَهُ على إصلاح السريرة، بالإخلاص وإخفاء العمل:

فعلينا أن نربِّيَ أنفسنا ومَن تحت أيدينا على الإخلاص، وإخفاء العمل، وإصلاح السريرة؛ حتى يتهيَّأَ لنا ولهم في أمر الآخِرة صحَّة القَصْد، وأسباب التشمير، غيرَ ملتفِتِين إلى طلب الثناء وحسن الإطراء.

وقد قيل: «مثَلُ العَلانِيَةِ مع السريرةِ كمَثَلِ ورق الشجر مع عِرْقِها؛ العَلانِيَةُ ورَقُها، والسريرةُ عِرْقُها، إنْ نُخِرَ العِرْقُ، هلَكَتِ الشجرة كلها: ورَقُها وعُودُها، وإنْ صلَحَتْ، صلَحَتِ الشجرة كلُّها: ثمَرُها وورَقُها؛ فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عِرْقُها مستخفِيًا لا يُرَى منه شيء.

كذلك: الدِّينُ لا يزال صالحًا ما كان له سريرةٌ صالحةٌ يصدِّق الله بها عَلَانِيَته؛ فإن العَلانِيَةَ تَنفَعُ مع السريرة الصالحة، كما يَنفَع عِرْقَ الشجرة صلاحُ فَرْعِها، وإنْ كان حياتُها من قِبَلِ عِرْقها؛ فإنَّ فَرْعَها زِينَتُها وجمالها، وإنْ كانت السريرة هي مِلَاكَ الدِّين؛ فإن العَلَانِيَةَ معها تزيِّنُ الدين وتجمِّله؛ إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه عز وجل»[1].

قال سفيان رحمه الله: «كان يقالُ: مَن كانت سريرتُهُ أفضَلَ مِن عَلانِيَته، فذلك الفضل، ومَن كانت سريرته شَرًّا مِن عَلانِيَتِهِ، فذلك الجَوْر»[2].

وللأسف: فإنَّ العالَم المادِّيَّ الذي نَعِيشُ فيه اليوم لا يُعِينُ على تحقيق هذا المطلوب؛ وهو الإخلاص؛ حيث أصبحت الحوافز المادِّية والمعنويَّة هدفًا لدى كثير مِن الناس، ولا ريب: أن الحوافز تقوِّي النفس، وتجدِّد النشاط، ولكنْ حينما تتحوَّلُ هذه الحوافز إلى هدَفٍ، فهذا أمر سيِّئ؛ بحيث يكون لا هَمَّ للإنسان إلا جِدُّهُ واجتهادُه: أن يحصِّل ترقيةً أو يَسمَعَ مَدْحًا.

١١ ـ أن ينظُرَ العبدُ في عاقبة الرياء في الدنيا:

وقد كتَبَتْ عائشةُ إلى معاوية رضي الله عنهما: «أمَّا بَعْدُ، فإن العبد إذا عَمِلَ بمعصية الله، عاد

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٧٠)؛ من كلام وَهْب بن منبِّه.

(٢) المصدر السابق (٧/ ٣٠).

حامِدُهُ مِن الناس ذامًّا»[١]؛ ويتأكَّد مثل هذا فيمن يَعمَلُ لحمد الناس وثنائهم؛ فإنه يُعامَلُ بنقيض قَصْده، والجزاءُ من جنس العمل.

ورُوِيَ عن عمر رضي الله عنه: «من خَلُصَتْ نيَّته في الحق، ولو على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومَن تزيَّنَ لهم بما ليس في قلبه، شانَهُ الله»[٢]؛ فهو لا يزيد حاله عند الناس إلا انحطاطًا وسفولًا.

١٢ ـ أن ينظُرَ في عواقب الإخلاص، وعواقب الرياء والمَقَاصِدِ السَّيِّئة، في الآخرة:

وقد ذكرتُ طَرَفًا من ذلك عند الكلام على عاقبة المقاصِد السيِّئة.



(١) أخرجه وكيع (٥٢٣)؛ ومن طريقه أحمد (ص١٦٥)، وأبو داود (٣٣٧)؛ كلُّهم في «الزهد»، وقد رُوِيَ الحديثُ مرفوعًا، ولكنْ ضعَّفه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٣٤٣)، والدارقطني في «العلل» (١٤/ ١٨٢)، وغيرهما.

(٢) تقدم تخريجه.

مسألة

هل يكون إظهار العمل مُنافِيًا للإخلاص؟

والجواب: لا نستطيع أن نحكُمَ على عمل أحد بأنه رياء؛ لأن هذا بينه وبين الله ﷻ، وقد يُظهِرُ الإنسان عملًا يريد به وجه الله؛ فإظهار العمل لا يعني بالضرورة الرياء، والتحدُّثُ بالعمل لا يعني بالضرورة السُّمْعة، وإنما الرياء والسمعة شيء لا يعلمه إلا الله ﷻ؛ فكم من مُظهِرٍ عَمَلَهُ كان إظهار عمله أحبَّ إلى الله من إخفائه.

قال الجُنَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإخلاصُ: سِرٌّ بين الله وبين العبد»(١).

وقال مكحول رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأيت رجلًا يصلي، وكلما ركَعَ وسجَدَ، بكى، فاتَّهَمْتُهُ أنه يُرائِي ببكائه، فحُرِمْتُ البكاءَ سنةً»(٢).

يقول ابن قُدَامة رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **في بيان الرُّخْصة في قَصْد إظهار الطاعات**: «وفي الإظهار: فائدةُ الاقتداء، وترغيب الناس في الخير، ومِن الأعمال: ما لا يُمكِنُ الإسرارُ به؛ كالحجِّ والجهاد، والمُظهِرُ للعمل ينبغي أن يُراقِبَ قلبه حتى لا يكون فيه حُبُّ الرياءِ الخَفِيِّ، بل يَنوِي الاقتداء به، ولا ينبغي للضعيف أن يَخدَعَ نفسه بذلك»(٣).

ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومَن كان له وِرْدٌ مشروع من صلاة الضُّحَى، أو قيام ليل، أو غير ذلك، فإنه يصلِّيه حيث كان، ولا ينبغي له أن يَدَعَ وِرْدَهُ المشروع؛ لأجل كونه بين الناس؛ إذا علم الله مِن قلبه أنه يَفْعَلُهُ سرًّا لله، مع اجتهاده في سلامته من الرياء، ومُفْسِدات الإخلاص»(٤).

وكان مِن السلف: مَن يُظهِرُ عمله ويُخبِرُ به؛ فهذا أبو بكر بن عيَّاش لما حضرته الوفاة، بَكَتْ أخته، فقال لها: «ما يُبكِيكِ؟ انظُرِي إلى تلك الزاوية التي في البيت، قد ختَمَ أخوك في هذه الزاوية ثمانيَ عَشْرةَ ألفَ خَتْمةٍ»(٥).

وهكذا نُقِلَ عن جماعة من السلف: أنهم أخبَرُوا عن بعض الأعمال الصالحة التي عَمِلُوها؛ فلا يُمكِنُ أن يقالَ في مثل ذلك: إنه شِرْك، أو رياء.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨٤).

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٨٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ١٧٤).

(٥) «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٨٥).

وخلاصةُ ما يقالُ في هذا الباب:

أنَّ الطاعات على ثلاثة أقسام[(١)]:

القسم الأوَّل: ما شُرِعَ مجهورًا؛ كالجهاد، والأذان، والإقامة، وحضور الجمعةِ والجماعة، والتكبير في العيدَيْن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرِ ذلك من العبادات التي يُشرَعُ الجَهْرُ بها؛ فهذه لا إشكال في عَمَلِها علانيةً.

القسم الثاني: ما يكونُ إسرارُهُ أفضَلَ من إعلانِه؛ مثل: القراءة في الصلاة لغير الإمام، وإسرار الدعاء، وغير ذلك.

القسم الثالث: ما يُظهَرُ تارَةً، ويُخفَى تارَةً؛ مثل الصدقة؛ فإذا خاف على نفسه الرياء، أو عرَفَ ذلك من عادته، فيتعيَّنُ إخراجها سرًّا؛ ليسُدَّ على نفسه باب الرياء والشُّبْهة، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ومَن أَمِنَ الرياء، فله حالان:

الأولى: أن يكون في مَوضِعِ القدوة؛ فهذا إذا أَمِنَ على نفسه الرياء، فقد يحسُنُ أن يُظهِرَ ذلك؛ من أجل أن يقتدِيَ به الناس.

والثانية: إنْ لم يكنْ مَوضِعَ قدوةٍ؛ فالأفضل: أن يَعمَل هذا العمل سِرًّا، وإنْ أَمِنَ على نفسه الرياء، والله أعلم.

تنبيه:

ورَدَتْ عبارةٌ مشهورة **عن الفُضَيْل بن عِيَاض** رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أنه قال: «تَرْكُ العملِ لأجلِ الناسِ رياء، والعَمَلُ مِن أجل الناس شرك، والإخلاص: أن يعافِيَكَ الله منهما»[(٢)].

وجاء عن ابن المبارَك رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ **أنه قال**: «لو أن رجلَيْنِ اصطحَبَا في الطريق، فأراد أحدُهما أن يصلِّيَ ركعتَيْن، فتركهما لأجل صاحبه، كان ذلك رياءً، وإنْ صلَّاهما مِن أجلِ صاحبه، فهو شِرْك»[(٣)].

وفي ذلك نَظَر؛ وقد تكلَّم العلماء رحمهم الله؛ كالنَّوَوي وغيره في معناها، **وخلاصةُ ذلك**: أنَّ كون (العمل مِن أجلِ الناس رياء) هذا واضح، وأمَّا أنَّ (تَرْكَ العمل مِن أجل الناس شرك)، فمعناه: أن إرادة العبد صار يحرِّكها الالتفات إلى المخلوقين، فإذا رآهم، ترَكَ العمل؛ فكان ذلك من قَبِيل الشِّرْك بهذا الاعتبار.

(١) انظر: «قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١/ ٢١٤ ـ ٢١٥).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٤٦٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٠٢) بنحوه مختصرًا.
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٧١).

وهذا الكلام ليس بدقيق؛ وهذه العبارة ليست من معصوم، ولولا أنها مشهورةٌ، لَمَا ذكَرْتُها؛ ومِن ثَمَّ أقول: هذا الكلام ـ فيما يبدو ـ غيرُ دقيق؛ فالعمل من أجل الناس رياء، نعم، وأمَّا تَرْكُ العمل من أجل الناس، فليس بشرك، وإنما هو خطأ؛ فينبغي للإنسان ألَّا يترُكَ العمل، وإنما يصحِّحُ القصد والنيَّة، بل إن الحارث بن قَيْس يقول: «إذا أتاك الشيطانُ وأنت تصلِّي، فقال: إنك تُرائِي، فزِدْها طُولًا»(١)، ولو أنه دخَلَ عليه داخل، وهو يقرأ في المصحف، فترَكَ القراءة، ونشَرَ ثوبَهُ على المصحف؛ فمثلُ هذا لا يقالُ: إنه أشرك، وإنما يقالُ: كان ينبغي عليه أن يواصِلَ عمَله.



(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٦٠)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٣٢).

الأمور التي تنافي الإخلاص

إن الذي ينافي الإخلاصَ هو الشِّرْكُ بجميع أنواعه:

فالشرك الأكبر: يكون معه حبوط الأعمال؛ فلا يُقبَلُ مِن صاحب الشرك الأكبر صَرْفٌ ولا عَدْل؛ قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال عَزَّ من قائل: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾ [النور: ٣٩]؛ فليس لهم حظٌّ عند الله ﷻ ولا نَصِيب.

وكذلك الشرك الأصغر كالرياء؛ فإنه ينافي الإخلاص، وإنْ كان لا يُحبِطُ جميع العمل، وإنما يُحبِطُ ذلك العمَلَ الذي اقترَنَ به.

وهؤلاءِ الذين يُشرِكُونَ مع الله ﷻ غيرَهُ، قد أخلُّوا بأحد أركان قَبُول العمل الثلاثة، **وهي: الإخلاص، والمتابَعة، والإيمان**؛ كما قال الله ﷻ في آخر سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال في أولها: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ٢]، فذكَرَ الإيمان، وذكر العمل الصالح، وذكر أنَّ العمَلَ لا يكون صالحًا إلا إذا كان خالصًا وصوابًا على وَفْقِ ما شرَعَ الله ﷻ.

والآياتُ الدالَّةُ على ذلك كثيرة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩]؛ فقوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، هو أن يكون خالصًا صوابًا، وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هو الشرطُ الثالثُ مِن شروط قَبُولِ العمل؛ حيثُ لا يقبل الله مِن كافر عملًا أصلًا.



أنواعُ العمل المقبول

قد تقدَّم أن العمل المقبول في جانب الإخلاص على **مرتبَتَيْن**(١):

المرتبة الأولى ـ وهي أعلاهما ـ: أن يعمل العمل يريد به وجه الله، ولا يَلتفِتَ إلى شيء آخر.

المرتبة الثانية: أن يَلتفِتَ إلى أمر آخر يجوز أن يَلتفِتَ إليه؛ كالذي يجاهِدُ يريد وجه الله ﷻ، ويريد الغنيمة، وكالذي يَحُجُّ وهو يريد وجه الله ﷻ، ويريد أيضًا أن يتاجِرَ في الحج.

فهذا المقبول من العمل، وأمَّا ما سواه، فهو العمل المردود؛ وهو أنواع كما سيأتي:



(١) انظر: «الفروق» للقرافي (٣/ ٩ ـ ١٢).

أنواعُ العمل المردود

النوع الأول: مَن تمحَّضَتْ إرادتُهم لغير الله تبارك وتعالى؛ وهم على **قسمَيْنِ:**

أوَّلهما: من تمحَّض قصدُهُ للرياء والسُّمْعة؛ فهم لا يريدون ما عند الله ﷻ، إنما يفعلون الشيء نفاقًا أو رياءً أو سُمْعةً؛ فمثل هؤلاء لا نَصِيبَ لهم عند الله ﷻ.

القسم الثاني: وهم أولئك الذين تمحَّضت إرادتُهم للدنيا، لكنْ لا للرياء والسُّمْعة؛ كمَن يصومُ لِيَصِحّ، ويَصِلُ الرحمَ لِيُنسَأَ له في أثره، ويزكِّي ماله لينمُوَ ويبارَكَ له فيه، وكالذي يغزو وهو لا يريد وجه الله، وإنما يريد الغنيمة فقطْ؛ فأولئك لا نَصِيبَ لهم في الآخرة على هذه الأعمال.

وأما أصحاب القسم الأول: فإنْ كان رياؤهم في أصل الإيمان، فإنَّ ذلك يجعلهم ممن توعَّدهم الله ﷻ بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦]؛ فحكَمَ عليهم بحبوط الأعمال، ودخول النار؛ كما قال تعالى أيضًا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨]؛ **قال مطرِّفٌ** رحمه الله: «إن أقبحَ ما طُلِبَتْ به الدنيا: عَمَلُ الآخرة»(١).

وهكذا مَن كان بكل حال مريدًا للدنيا لا يريد سواها: فهي غايةُ هَمِّه، ومَجمَعُ عَزْمه، وهي طَلِبَتُهُ التي مِن أجلها يقومُ ويَقعُد، ومِن أجلها يعمل؛ فليس له مطلوب سواها؛ فمثلُ هذا متوعَّدٌ بهذه العقوبة.

النوع الثاني: وهو أن يريدَ وجه الله ﷻ، ويَلتفِتَ مع ذلك إلى أمر لا يجوزُ الالتفات إليه؛ كمَن يَحُجُّ يريد وجه الله ﷻ، ويريدُ مع ذلك أن يقالَ: فلان حاجٌّ، ويجاهِدُ يريد وجه الله ﷻ، ويريدُ مع ذلك أن يقالَ: فلانٌ مجاهِدٌ، أو شجاع، ويتصدَّقُ يبتغي وجه الله ﷻ، ويريدُ أن يقالَ: فلانٌ جَوَادٌ، وهكذا.

فهؤلاء لا نَصِيبَ لهم عند الله ﷻ على هذا العمل، وفي الحديث القُدْسي الصحيح: **«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»**(٢).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٠٨).
(٢) تقدم تخريجه.

وبهذا الاعتبار صار التشريك في النيَّة على **نوعَيْن**:

- **نوعٌ**: يُشرِكُ فيه العامل بأمر يجوز التشريك فيه؛ وهو أمر مباح يجوز أن يلتفِتَ إليه المكلَّف، ويحصُلُ على سبيل التَّبَع.

- **وأمَّا الثاني**: فهو المحرَّم؛ وهو أن يلتفِتَ - مع إرادة وجه الله ﷻ - إلى أمرٍ يحرُمُ الالتفات إليه؛ وهو الرياءُ والسُّمْعة.

فصار الالتفات على نوعَيْن:

- **نوعٌ محرَّم**.
- **ونوعٌ جائز**.

وصار التمحُّض في الإرادة على نوعَيْن:

- أنْ يريدَ وجه الله فقط؛ وهو الإخلاص.
- أنْ يريدَ غيرَ وجه الله ﷻ؛ وهو **قسمان**:

الأوَّل: أنْ يريدَ الدنيا فقطْ غير الرياء والسُّمْعة.

الثاني: أنْ يريدَ رياءً وسمعةً خالصةً، ولا يريدَ وجه الله ﷻ مع ذلك.

فهذه مراتِبُ العامِلين وأنواعُهم مِن جهة الالتفات الذي يجوز والذي لا يجوز.

وبعد هذا العَرْضِ يحسُنُ الكلام على هاتَيْنِ العِلَّتَيْنِ: (الرياء والسمعة) بشيءٍ من التفصيل.



الرياء والسُّمْعة

معنى الرياء:

الرياء: مَصدَرٌ مِن: راءى يُرَائِي مُرَاءاةً، ورِيَاءً، فهو مُرَاءٍ، وحقيقتُهُ في كلام العرب: أن يُرِيَ غيرَهُ خلافَ ما هو عليه؛ فيُظهِرَ الخشوع وليس بخاشع، ويُظهِرَ التقوى وليس بتقي، وهكذا حينما يتزيَّن بأعماله التي يُظهِرُ أنه يريدُ بها وجه الله ﷻ؛ ليحصِّلَ منزلةً في قلوب المخلوقين لِيُطْرُوهُ، ويُثْنُوا عليه، ويَرْفَعُوه، وما إلى ذلك[(١)].

وعبارات العلماء في معنى «الرياء» متفاوِتةٌ، مع تقارُبها في المعنى[(٢)]:

فقيل: هو أن يقوم العبد بالعبادة التي يُتقرَّبُ بها لله، لا يريدُ الله ﷻ، بل يريدُ عَرَضًا دنيويًّا.

وقيل: هو إرادة العبد العباد بالعبادة.

وقيل: هو التشبُّه بذوي الأعمال الفاضلة؛ طلبًا للسُّمْعة والمفاخَرة.

وقيل: هو إظهار عمل العبادة لينالَ مُظهِرُها عرضًا دنيويًّا: إما بجَلْب نَفْعٍ دنيوي، أو تعظيم، أو إجلال.

وقيل: هو طلَبُ ما في الدنيا بالعبادة؛ وأصلُهُ: طَلَبُ المنزلِةِ في قلوب الناس.

وقيل: الرياءُ أن يَفعَلَ شيئًا مِن العبادات التي أمَرَ الله بفِعْلِها لغيره.

وقيل: هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس؛ فيَحْمَدوا صاحبَها.

وهذا أدقُّ التعريفات، وهو الذي اختاره ابن حَجَر رحمه الله تعالى[(٣)]؛ فصار الرياء يتعلَّق بأمرٍ مُظهَرٍ لقصدِ رؤية الناس؛ لأن الرياء يتعلَّق بحاسَّة البصر؛ فهو يريدُ بهذا أن يحصِّل منزِلةً في قلوب الناس، لا يريدُ أمرًا مباحًا يحصُلُ على سبيل التَّبَع؛ كما قلنا في الذي يَحُجُّ ويريدُ التجارة، ونحوه.

وقد فرَّق بعضهم بين الرياء والإخلاص؛ بـ «أن المرائي يَعمَلُ لِيُرَى، والمخلِصَ يَعمَلُ لِيَصِل»[(٤)].

---

(١) انظر: «تاج العروس» (٣٨/ ١٠٥)، (ر أ ى).

(٢) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص٤٣٦).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٨١)، عن جعفر بن محمد الخُلْدِي.

وأما الفَرْقُ بين الرياء والسُّمْعة[١]:

فإن الرياء: يتعلَّق بحاسَّة البصر؛ كأن يقوم أمام الناس يصلي ويُظهِرُ الخشوع، ويُخرِجُ الصدقة ليراه الناس؛ فيقولوا: متصدِّق، أو جَوَاد...

وأما السُّمْعة: فتتعلَّق بحاسَّة السمع؛ وعليه فالتسميع لا يكون إلا بالعبادات التي تُسمَع؛ كقراءة القرآن، وذكر الله تعالى.

ويُلحَقُ بها: ما يفعله الإنسان من العبادات التي تُرَى؛ كالصلاة والجهاد والصَّدَقة، وغير ذلك مما لم يَطَّلِعْ عليه أحد، ولكنه تحدَّث به وأخبَرَ عنه لِيُذْكَرَ بحسن الثناء؛ فصار بذلك مسمِّعًا.

ومنها أيضًا: أن يَطلُبَ من الناس أن يتحدَّثوا عن أعماله، أو يطلُبَ أن يُكتَبَ ذلك عنه، ونحو ذلك.

وعلى هذا: فالرياء لا يدخُلُ في العبادات القلبيَّة التي لا يطَّلع عليها الناس؛ كالخوف، والرجاء، والمحبَّة، والتقوى، والتوكُّل، والإشفاق، وتعظيم الله ﷻ، وغير ذلك؛ فهذه أمور لا يَطَّلِعُ عليها الناس؛ ومِن ثَمَّ: فإن الرياء لا يتعلَّق بها، ولكن تَدخُلُها السُّمْعة.

فإن قيل: إذا قام العبد يصلِّي، وهو يُظهِرُ الخشوع على جوارحه؛ أليس ذلك مِن الرياء؟[٢]:

فنقول: هذا الذي أظهَرَهُ ليس هو الخشوع، بل هو أثرٌ من آثار الخشوع؛ فإنَّ السكون الظاهر، وانكسار العبد في صلاته: انعكاس لخشوع قلبه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «خشوع الجسَد تَبَعٌ لخشوع القلب؛ إذا لم يكن الرجُلُ مرائِيًا يُظهِرُ ما ليس في قلبه»[٣].

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١١/ ٣٤٤)، و«مقاصد المكلَّفين» (ص٤٣٧).

(٢) قال ابن القيِّم: «والفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق: أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوَقَار والمَهَابة والحياء؛ فيَنكسِر القلب لله كَسْرَةً مُلتئِمةً من الوجل والخجل والحُبِّ والحياء وشهود نعم الله وجناياته هو؛ فيخشع القلب لا محالة، فيَتبَعُهُ خشوع الجوارح. وأما خشوع النفاق: فيبدو على الجوارح تصنُّعًا وتكلُّفًا والقلب غير خاشع، وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرَى الجسد خاشعًا والقلب غير خاشع». «الرُّوح» (٢/ ٦٩٤). وينظر: «الإحياء» للغزالي (٤/ ٣٣، ٣٨٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٩).

أقسام التسميع

والتسميع ينقسِم إلى قسمَيْن(١):

١ ـ تسميعٌ بعمل قد حصَل.

٢ ـ تسميع بعمل لم يُوجَدْ أصلًا.

وكلاهما باطل، وصاحبُهُ متوعَّد بالعقوبة، وعمله مردود:

أما الأوَّل: فهو أن يعمل العمل حيث لا يراه الناس، فإذا جالسهم، حدَّثهم به؛ كالذي يصلي بالليل، فإذا أصبَحَ، تحدَّث بعمله، وأنه صلى كذا وكذا ركعةً، وفعَلَ كذا وكذا؛ يريدُ منزِلةً في قلوبهم له، وإقبالًا مِن وجوههم عليه.

وأما الثاني: فصاحبُهُ كلابس ثوبَيْ زُور، متشبِّعٌ بما لم يُعْطَ، وهو أقبح من الأول؛ يقول: فَعَلْتُ، ولم يَفعَلْ، وقلتُ، ولم يَقُلْ؛ كالذي يُخبِرُ عن نفسه: أنه يصلِّي بالليل وهو لا يصلي، أو يصوم الاثنَيْنِ والخميسَ وهو لا يصوم، فهذا متشبِّعٌ بما لم يُعْطَ، مسمِّعٌ بالأكاذيب.

وقد يجمع بين الرياء والسُّمْعة، كما لو أنه عَمِلَ أعمالًا أمام الناس يرائي بها، ويشرِّكُ فيها بالنيَّة تشريكًا محرَّمًا، ثم ينقلِبُ إلى آخرين يحدِّثهم بها؛ فهذا يَجمَعُ بين الرياء والسُّمْعة؛ حيث راءى بعمَله الظاهر أمام الناس، ثم سمَّع به في آخرين.

الفَرْق بين الرياء والعُجْب(٢):

العُجْبُ: من أدواء العاملين، وآفات غير المُخبِتين، أمَّا المؤمنون، فخاشعون منكسِرُونَ؛ ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠].

والعُجْبُ: آفةٌ تُحبِطُ العمل؛ يقول النووي رحمه الله تعالى: «اعلَمْ: أنَّ الإخلاص قد يَعرِضُ له آفةُ العُجْب؛ فمَن أُعجِبَ بعمله، حَبِطَ عملُه، وكذلك مَن استكبر، حَبِطَ عملُه»(٣).

ورُوِيَ من حديث أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ،**

---

(١) انظر: «قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

(٢) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص٤٣٨).

(٣) «شرح الأربعين» للنووي (ص٧).

خَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ: العُجْبَ، العُجْبَ»[(١)].

وقال مطرِّف بن عبد الله: «لَأَنْ أَبِيتَ نائمًا وأُصبِحَ نادمًا، أَحَبُّ إليَّ مِن أن أَبِيتَ قائمًا وأُصبِحَ معجَبًا»[(٢)].

والفَرْقُ بين الرياء والعُجْب: أن الرياءَ مِن باب الإشراك بالخَلْق، وأمَّا العُجْبُ، فإنه من باب الإشراك بالنَّفْس؛ بحيث يَلتفِتُ إلى نفسه، وأنه بذَلَ وقدَّم وعَمِلَ، وأنه جاد بهذه الأعمال الصالحة، وبهذه الصدقات؛ فتعاظَمَ في نفسه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «كثيرًا ما يَقرِنُ الناس بين الرياء والعُجْب؛ فالرياءُ مِن باب الإشراك بالخَلْق، والعُجْبُ مِن باب الإشراك بالنَّفْس؛ وهذا حال المستكبِر، فالمرائِي لا يحقِّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والمعجَبُ لا يحقِّق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ فمَن حقَّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، خرَجَ عن الرياء، ومَن حقَّق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، خرَجَ عن الإعجاب»[(٣)].

دواعي الرياء وأسبابه[(٤)]:

ربما يتساءل البعض: ما الذي يَحمِل العبد على ركوب هذه الأخطار، وعلى هذه التضحيات الجِسَام؛ فيقوم الليل الطويل، ويصوم النهار الحارّ، ثم يَذهَبُ ويتحدَّث؛ فلا يَرجِعُ إلا بعمل مردود، ووِزْر مكتوب؟!

والجواب: قد تقدَّم أن الإخلاص شاقٌّ على النفوس؛ وذلك لقوَّة داعي الرياء، وضَعْف النفوس بما جُبِلَتْ عليه من حبِّ الشهوات، وحبِّ الترؤُّس والظهور، واعتبِرْ ذلك في الصبي؛ فإنك إن أَثْنَيْتَ عليه، سرَّه ذلك، ورأيت أثره على وجهه وجوارحه،

---

(١) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٩٦٦)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٠٥)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٦٨)؛ واللفظ له، والقضاعي في «الشهاب» (١٤٤٧)، والبزَّار (٦٩٣٧)، وذكره ابن حِبَّان في «المجروحين» (١/ ٤٣١)، ولم يُسنِدْه، وغيرهم. وأورده الذهبي في «الميزان» (٢/ ١٨٠)، وابن حجر في «اللسان» (٤/ ١٠٠)، في منكَرات سلام بن أبي الصهباء، وقد انفرد به؛ كما قال العُقَيْلي والبزَّار، وقال الذهبي في «الميزان»: «ما أحسنه من حديث لو يصح»، وضعَّفه ابن طاهر في «ذخيرة الحفاظ» (٤٦١٢)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ٣٧٠)، وحسَّنه ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٢١٩٢)، والمناوي في «فيض القدير» (٥/ ٣٣١)، وجوَّد المنذري إسناده في «الترغيب» (٣/ ٥٧١)، والهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٦٩)، والألباني في «الصحيحة» (٦٥٨). انظر: «فتح الوهاب» (٨٦٥).

(٢) أخرجه ابن المبارك (٤٤٨)، وأحمد (ص٢٤١)؛ كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ٣٠٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٧).

(٤) انظر: «مقاصد المكلفين» (ص٤٣٩).

وإنْ أنت ذَمَمْتَهُ، كَرِهَ ذلك منك وأعرَضَ عنك، واحمَرَّ وجهُهُ خَجَلًا أو ضَجَرًا مما يَسمَع من عَيْبه وتنقُّصه.

وعلى ذلك: جُبِلَتِ النفوس؛ فهي تحبُّ المدح، وتَكرَهُ الذمّ، وكثير من الناس يعادي من ذمَّه وإن كان محقًّا؛ ولذلك تجد كثيرًا من الناس يتحاشَوْنَ ذكر عيوب الآخرين لهم، والقيام بواجب النصيحة؛ لئلا يتغيَّر هؤلاء عليهم، فترَكُوا ما أمر الله به مِن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى لا يَسخَطَ الناس.

ولكنك إذا ذكَّرْتَهم بما تهوى أنفسُهم، سرَّهم ذلك؛ سواءٌ كان ما ذكَرْتَ متحقِّقًا فيهم أم لم يكن كذلك.

وقد قيل[1]:

يَهْوَى الثَّنَاءَ مُبَرِّزٌ وَمُقَصِّرٌ   حُبُّ الثَّنَاءِ طَبِيعَةُ الإنْسَانِ

ولا نكون قد بالغنا لو قلنا: إن الداعي إلى الرياء والسُّمْعة أعظَمُ من الداعي إلى الشِّرْك الأكبر؛ لأن النفوس مجبولة على التوحيد، والشرك الأكبر منافٍ للفِطْرة؛ كيف يُعبَدُ الحجَرُ والشجر؟! كيف تُعبَدُ هذه المخلوقات الأرضيَّة من دون الله تبارك وتعالى؟! هذا أمر ينافي الفِطْرة السليمة.

ولذلك أنكَرَ بعض من عاش في أزمان الجاهليَّة على المشرِكين تلك المعبودات؛ لأنها تخالِفُ العقل والفِطْرة.

لكنَّ محبَّة الحمد والثناء من الناس متمكِّنة من النفوس؛ فيصعُبُ على الإنسان أن يتخلَّص منها؛ فنفسُهُ تميل إليها ميلًا شديدًا، ولا تزالُ نفسه تحدِّثُهُ حتى يتحدَّث بأعماله، ويرائِيَ بها؛ يقول الله ﷻ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ [الأعلى: ١٦]، ويقول: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

والعبدُ قد يُخلَقُ مطبوعًا على حبِّ الرياسة، أو الشُّحّ، أو الجُبْن، أو العَجَلة، إلى غير ذلك من الصفات الذميمة، لكنه لا يُمكِنُ أن يُخلَقَ مطبوعًا على الكفر وبغض الإيمان؛ فأصله شريف، وهو يعالِجُ به تلك العيوبَ التي طُبِعَ عليها، والأصل: أن صحة الأصل أصل في صحة الفرع؛ فإنه إنْ طابقه، فذاك، وإنْ خالفه، دَعَتْهُ دواعي استقامة أصله إلى تثقيف اعوجاجه.

ولذلك فإنَّ كلَّ صالح من قول أو عمل، فهو من شُعَب الإيمان، وكلَّ طالح من قول

---

(١) **القائل**: ابن نُبَاتة السعدي؛ كما في «أدب الدنيا والدين» (ص٣٧٩).

أو عمل، فهو من شُعَب الكفر؛ كما حقَّقه شيخ الإسلام وابن القيِّم رحمهما الله[١]؛ ولذلك فإن دواعي الرياء والسُّمْعة أكثر وأعظم من دواعي الشرك والكفر.

فحبُّ الثناء والمدح، وبغضُ الذم، والطمع فيما في أيدي الناس، ومخافة الضَّيْعة في الدنيا، كلُّ ذلك يدعوه إلى إظهار عمَلِهِ ليرتفع به.

ويمكِنُ أن يقالَ بعد ذلك: إن الرياء يَجمَعُهُ حبُّ المَحمَدة، وكراهيةُ المَذَمَّة؛ فهو يحاوِلُ أن يتنزَّه عن الأعمال التي لا تليقُ ولو كان يُواقِعها؛ وهذا أحَدُ نوعي الرياء؛ وهو الرياء الكاذب.

وهو أيضًا: يُظهِرُ أنه يُحِبُّ الأعمال الصالحة، ويأتيها؛ كتفقُّد الأرامل، والإنفاق على الفقراء والمساكين، وغير ذلك؛ فإنْ كان صادقًا، فرياء، وإنْ كان كاذبًا، فمتشبِّعٌ بما لم يُعْطَ، مع كونه مرائِيًا.



(١) انظر: «جامع الرسائل» لابن تيميَّة (٢/ ٢٩٢)، و«كتاب الصلاة» لابن القيِّم (ص٨٥ ـ ٨٦).

مِن أخبار المرائِين

قال ابن الجَوْزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كان دخَلَ إلينا إلى بغداد بعض طلبة الحديث، وكان يأخُذُ الشيخَ، فيُقعِدُهُ في الرَّقَّة ـ وهي البستان الذي على شاطئ دجْلَة ـ فيقرأ عليه، ويقول في مجموعاته: حدَّثني فلان وفلان بالرَّقَّة، ويُوهِمُ الناس أنها البَلْدةُ التي بناحية الشام؛ ليظنُّوا أنه قد تَعِبَ في الأسفار لطلب الحديث. وكان يُقْعِدُ الشيخ بين نهر عيسى والفرات، ويقول: حدَّثني فلان مِن وراء النهر؛ يُوهِمُ أنه قد عبَرَ خراسان في طلب الحديث، وكان يقول: حدَّثني فلانٌ في رحلتي الثانية والثالثة؛ لِيَعلَمَ الناسُ قَدْرَ تعبه في طلب الحديث؛ فما بُورِكَ له، ومات في زمان الطَّلَب؛ قال ـ ابن الجوزي ـ: وهذا كله من الإخلاص بمَعْزِل، وإنما مقصودُهم الرياسة والمباهاة»[١].

قال: «وأمَّا الرياء، فلا عُذْرَ فيه لأحد، ولا يصلُحُ أن يُجعَلَ طريقًا لدعاية الناس، وقد كان أيُّوبُ السَّخْتِيانيُّ إذا حدَّث بحديث، فرَقَّ، مسَحَ وجهه، وقال: «ما أشدَّ الزُّكَامَ!»[٢].

وبعد هذا: فالأعمال بالنيَّات، والناقد بصير، وكم من ساكت عن غِيبة المسلمين إذا اغتِيبُوا عنده، فَرِحَ قلبه، وهو آثِمٌ بذلك من **ثلاثة أوجه**:

أحدها: الفرَح؛ فإنه قد حصَلَ بوجود هذه المعصية من المغتاب.

والثاني: لسروره بثَلْب المسلمين.

والثالث: أنه لم يُنكِر.

وقد لبَّس إبليس على الكامِلِين في العلوم؛ فيَسهَرون ليلهم، ويَدأَبُون نهارهم في تصانيف العلوم، ويُريهم إبليس أن المقصود نَشْرُ الدين، ويكونُ مقصودهم الباطن: انتشار الذِّكْر، وعلو الصِّيت، والرياسة، وطَلَب الرِّحْلة من الآفاق إلى المصنِّف... وقد قال بعض السلف: «ما مِن عِلْمٍ عَلِمْتُهُ إلا أحببتُ أن يَستفِيدَهُ الناس مِن غير أن

(١) «تلبيس إبليس» (ص١٢٧ ـ ١٢٨).

(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في «الرِّقَّة والبكاء» (١٥٨)، بلفظ: «حماد بن زيد؛ قال: ذكر أيوب يومًا شيئًا، فرَقَّ؛ فالتفَتَ كأنه يتمخَّط، ثم أقبلَ علينا، فقال: إن الزكام شديد على الشيخ»، وقد تقدَّم نحوه.

يُنسَبَ إليَّ»[١].

«**ومنهم**: مَن يَفرَحُ بكثرة الأتباع، ويلبِّس عليه إبليس: بأن هذا الفرَحَ لكثرة طلَّاب العلم، وإنما مرادُهُ: كثرةُ الأصحاب، واستطارةُ الذكر، ومِن ذلك: العُجْبُ بكلماتهم وعلمهم.

وينكشِفُ هذا التلبيس: بأنه لو انقطَعَ بعضهم إلى غيره ممن هو أعلَمُ منه، ثَقُلَ ذلك عليه، وما هذه صفةَ المخلِص في التعليم؛ لأن مثَلَ المخلِص مثَلُ الأطباء الذين يداوون المرضى لله ﷻ، فإذا شُفِيَ بعض المرضى على يَدِ طبيب منهم، فَرِحَ الآخر»[٢].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد لبَّس إبليس على جماعة مِن قُوَّام الليل، فتحدَّثوا بذلك بالنهار، فربما قال أحدهم: فلان المؤذِّن أذَّن بوقت؛ ليَعلَم الناس أنه كان منتبِهًا؛ فأقلُّ ما في هذا ـ إنْ سَلِمَ من الرياء ـ أن يُنقَلَ من ديوان السرِّ إلى ديوان العَلانِيَةِ، فيَقِلُّ الثواب...»، وقال: «وقد لبَّس على قوم من المتعبِّدين، وكانوا يبكون والناس حولهم، وهذا قد يقَعُ عليه، فلا يُمكِن دَفْعُه؛ فمَن قدَرَ على سَتْرِهِ، فأظهره، فقد تعرَّض للرياء»[٣].

قال: «ومِن أعجب ما رأيت فيهم ـ يعني: القرَّاءَ ـ: أن رجلًا كان يصلي بالناس صلاة الصبح يوم الجمعة، ثم يَلتفِتُ، فيقرأ المعوِّذتين، ويدعو دعاء الخَتْمة؛ ليعلم الناس أنه قد ختَمَ الخَتْمة، وما هذه طريقة السلف؛ فإن السلف كانوا يستُرُونَ عبادتهم، وكان عمل الرَّبِيع بن خُثَيْم كله سرًّا، فربما دخَلَ عليه الداخل، وقد نشَرَ المصحف، فيغطِّيه بثوبه[٤]، وكان أحمد بن حنبل يقرأ القرآن كثيرًا، ولا يُدرَى متى يَختِمُ!»[٥].



(١) انظر: «آداب الشافعي» لابن أبي حاتم (ص٣٢٦).
(٢) «تلبيس إبليس» (ص١٤٣).
(٣) المصدر السابق (ص١٥٨).
(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٣٢)
(٥) «تلبيس إبليس» (ص١٦٠).

العلامات التي تَدُلُّ على إخلاص العبد[1]

مِن العلامات الدالَّة على إخلاص العبد أمور:

أولًا: **أن يكون هَمُّهُ انتشار الخير وظهور الحق، وتديُّنَ الناس بهذا الحق الذي جاء به الرسول ﷺ؛ سواءٌ كان ذلك ظاهرًا على يده، أم ظاهرًا على يد غيره؛ فالمقصود: تكثير الخير، وتقليل الشرّ.**

قال الربيع بن سليمان المُرَادي: «دخلتُ على الشافعيِّ وهو مريض، فسألني عن أصحابنا، فقلتُ: إنهم يتكلَّمون، فقال لي الشافعي: ما ناظَرْتُ أحدًا قَطُّ على الغَلَبة، وبوُدِّي أن جميع الخلق تعلَّموا هذا الكتاب ـ يعني: كُتُبَه ـ على ألَّا يُنسَبَ إليَّ منه شيء؛ قال هذا الكلام يوم الأحد ومات هو يوم الخميس رَحِمَهُ اللَّهُ»[2].

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول وهو يَحلِف:** «ما ناظَرْتُ أحدًا قطُّ إلا على النصيحة»[3].

وقال أيضًا: «ما ناظَرْتُ أحدًا، فأحببتُ أن يخطئ إلا صاحبَ بِدْعة؛ فإني أحبُّ أن ينكَشِفَ أمره للناس»[4].

وقال: «ما كلَّمتُ أحدًا قطُّ إلا أحببتُ أن يوفَّقَ ويسدَّدَ ويُعَان، ويكونَ عليه رعاية من الله تعالى وحِفْظ»[5].

ولهذا ما ناظَرَ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ رجلًا إلا غلَبَه؛ وهذا بسبب إخلاصه وحسن قصده.

يقول محمد بن عبد الله بن عبد الحَكَم: «كنت إذا رأيتُ مَن يناظِرُ الشافعيَّ، رَحِمْتُه»، **وقال:** «لو رأيتُ الشافعيَّ يناظِرُك، لظننتُ أنه سَبُعٌ يأكُلُك»، **وقال:** «الشافعيُّ علَّم الناس الحُجَج»[6].

فكان يُورِدُ على الخَصْم الحُجَج من هنا وهناك، والآخَرُ لا يدري كيف يُجِيب؛ ولا يَفعَل ذلك إلا لإظهار الحق وإعلاء كلمته.

---

(١) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص٤٧٣).
(٢) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ٤٣٢)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥١/ ٤٣٢).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١١٨)؛ واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٥١/ ٣٨٤).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١١٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥١/ ٣٨٤)؛ واللفظ له.
(٥) «الإحياء» (١/ ٢٦).
(٦) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ٢٠٨)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥١/ ٣٧٦).

وقد ذكَرَ بعض أهل العلم مثلًا يوضِّح ذلك[١]: وهو أن الواعظ، أو المحاضِر، أو الداعي إلى الله ﷻ؛ إذا وجَدَ في مكانه رجلًا، أو حَلَّ البَلَدَ أحدٌ هو أفقهُ منه، وأعلَمُ منه، وأبلَغُ منه، واستمال قلوبَ الناس حتى أذعَنُوا له، وتاب على يدَيْهِ خلقٌ أكثَرُ من الذين تابوا على يد الأول:

فإنْ كان مخلصًا، فإنه لا يتبرَّم، بل يَفرَحُ أنْ قد كُفِيَ، وأنَّ هذا الخير قد ذاع وانتشر، وانتفَعَ الخلق بهذا الهدى.

أمَّا إذا كان في إخلاصِه نظَرٌ، فإنه يتبرَّم بذلك، ويَغضَب، وربما حاول أن ينتقِصَهُ؛ كأن يقول: فلانٌ واعِظٌ، لكنه ليس من أهل العلم، فلانٌ لا فِقْهَ له، أو يدعوه باسمه المجرَّد على خلاف عادة الناس؛ لِيَضَعَ مِن قدره، ويَحُطَّ مِن منزِلته؛ فأين مثل هذا مِن سبيل المخلِصين، وعمل المتقين؟!

ثانيًا: أنه لا يبالي بثناء الناس ومَدْحهم وإطرائِهم:

وقد سُئِلَ ذو النُّون عن علامة الإخلاص؟ فقال: «إذا لم يكن في عمَلك محبَّةُ حَمْدِ المخلوقين، ولا مخافةُ ذمِّهم، فأنت مُخلِصٌ إن شاء الله»[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثلاثةٌ مِن أعمال الإخلاص: استواءُ المَدْحِ والذمِّ من العامَّة، ونِسْيانُ رؤيتهم في الأعمال نظرًا إلى الله، واقتضاءُ ثوابِ العمل في الآخرة بحسن عفو الله في الدنيا بحسن المِدْحة»[٣].

وأما غير المخلِص: فإنَّ الكلمة التي فيها تعظيمه تُرضِيه ولو كانت باطلًا، والكلمةَ التي فيها تنقُّصُهُ تُسخِطُهُ ولو كانت حقًّا، بينما المخلِص حقًّا يَفرَح بالنصح، فالمؤمِن مِرْآةُ أخيه، وإنما يصانُ المرءُ بعد توفيق الله ﷻ بإخوانه الذين يَنصَحونه ويبيِّنون له عَوَارَهُ واعوجاجه؛ فيعمل على إقامة ما اعوَجَّ، وإصلاح ما فسَدَ.

وقد رُوِيَ عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**؛ أنه قال:** «رَحِمَ الله مَن أهدى إليَّ عيوبي»[٤].

وقال الحافظ ابن كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد صنَّف الحافظ عبد الغني ـ يعني: الأَزْدِيَّ ـ كتابًا فيه أوهامُ الحاكم، فلما وقف الحاكم عليه، جعَلَ يقرؤه على الناس، ويَعترِف لعبد الغنيِّ بالفضل ويشكُرُه، ويَرجِعُ فيه إلى ما أصاب فيه من الردِّ عليه؛ رحمهما الله»[٥].

---

(١) انظر: «ميزان العمل» (ص٢٤٢)، و«تلبيس إبليس» (ص١٣٦ ـ ١٣٧).
(٢) «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٤٣).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).
(٤) أخرجه الدارمي في «سننه» (٦٧٥)؛ في رسالة عبَّاد الشامي، وإسناده معضَل.
(٥) «البداية والنهاية» (١٥/ ٥٧٨)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٠٤٨).

ثالثًا: أنه لا يبالي لو خرَجَ كلُّ قَدْرٍ له في قلوب المخلوقين؛ فسواءٌ عنده أحبوه أم أبغضوه، أكرموه أم أهانوه، قرَّبوه بالولاء أم نابذوه بالعداء:

وإنما همُّه: إصلاح القلب، وإصلاح العمل، وتصحيح القَصْدِ والإرادة؛ ومِن ثَمَّ: فهو لا يُحِبُّ أن يطَّلع أحد من الخلق على عمَلٍ عمله، بل يُحِبُّه مخبوءًا مستورًا.

قال بعضهم: «رأيتُ في الطواف رجلًا بين يدَيْهِ شَاكِرِيَّةٌ[١] يمنعون الناس لأجلِهِ عن الطواف، ثم رأيتُهُ بعد ذلك بمدَّة على جسر بغداد يسأل شيئًا، فتعجَّبت منه، فقال لي: إني تكبَّرْتُ في موضعٍ يتواضَعُ الناس فيه؛ فابتلاني الله بالذلِّ في موضعٍ يترفَّعُ الناس فيه»[٢].

أما غير المخلِصِين: فقد جعلوا دِينهم غرضًا لأهوائهم؛ فعالِمُهم مع كل طائفة على ما يريدون؛ إذا كان في مَجلِس التجار، رخَّص لهم في معامَلاتِهم بأنواع التراخيص، وأحَلَّ لهم ما حُرِّمَ عليهم بأدنى الحِيَل، وإذا كان في مَجلِسِ العوامِّ، فما أهونَ دِينَهُ عليه في مجلسهم! وهكذا هو مع كل طائفة بحَسَبِ ما يَرُوقُ لهم؛ حتى لا يَفقِدَ القاعدة الجماهيريَّة التي تشاهِدُ نَدَوَاتِه ومحاضَراتِه، عبر القنوات الفضائية، أو عبر مواقع التواصُلِ الاجتماعي، في الشبكة العنكبوتيَّة، أو غير ذلك، وكما يقول بعضهم: «المحافَظةُ على الشُّهْرة أصعَبُ مِن تحصيل الشهرة»؛ حِكَمٌ ودُرَرٌ للغافلين والمعرِضِينَ عن الله ﷻ وعن الدار الآخرة!

وما حاجتُهُ إلى تحصيل الشُّهْرة حتى يحتاج إلى المحافَظة على الشهرة؟! وما وجه الصعوبة في زَعْمهم؟! ربما أنه قد يصدُرُ منه تصرُّفٌ يَنفِرُ منه الناس، ورضا الناس غايةٌ لا تُدرَك؛ ومِن ثَمَّ: فهو دائمًا في تيقُّظ؛ إذا مال الناس، مال معهم، وإذا استفتَوْهُ، أفتاهم بما يُرضِيهم؛ يَتَّقِي سَخَطهم بالتعرُّض لسخط الله، متقلِّبًا ظهرًا لبطن على هواه، لا يبالي أأسخَطَ الله عليه أم أرضاه!

وأما عاملُ الآخرة: فإنه قَوَّالٌ بالحق، لا يَكترِثُ بالناس وإن سَخِطوا جميعًا؛ فليس رضاهم بمرغوبِه، ولا سَخَطُهم بمرهوبه، الرضا لديه رضا الله فهو يأتيه، والسَّخَطُ سخطُ الله فهو يَتَّقِيه، وليس يُنجِيه رضاهم من عذاب الله؛ إنْ سَخِطَ عليه مولاه.

وقد قرأتُ في بعض التقارير عن بعض كبار القساوسة: أن الذين يتابِعُونَ برامجهم في بعض القنوات في أوروبا وأمريكا، قد يبلُغُ في بعض الإحصائيَّات أكثر من خمسة

(١) شاكرية: كلمة معرَّبة؛ بمعنى: الخَدَم أو المماليك.
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣١).

عشَرَ مليونَ إنسان، ويبني أحدهم مدينةً كاملةً ـ مدينةً دعويَّةً ـ بأكثر من ثلاثين مليارًا، هذه المدينة تستوعِبُ عددًا مَهُولًا من الحضور الذين يتابِعُونَ هذه الدروس وتلك المحاضَرات والمؤتمرات التنصيريَّة، وهو نصرانيٌّ ضالٌّ يعبُدُ ثلاثة آلهة؛ ماذا يغني عنه هؤلاء وهو يُضِلُّهم؟!

وأمَّا أكثرهم متابَعةً في (التويتر)، حتى سنة (١٤٣٣هـ)، فقد أربى على (٤٠) مليون متابِع، وهو مُغَنٍّ كَنَدِيّ، لم يجاوِزْ (١٩) عامًا، وتليه مغنِّيتان أمريكيَّتان يتابعهما أكثر من (٣٧) مليون إنسان، ولم تجاوِزَا (٢٧) عامًا! فما قيمة هذا كلِّه؟!

أما المؤمِن الذي يبلِّغُ كلمة الله ﷻ، وينشُرُ الهدى بين الناس، ويقومُ على أمر الله، وهو لا يخشى في الله لائمة، فهو مُشفِقٌ على حاله، يخشى على حَسَنَتِهِ أن يَنطفِئَ نُورُها، ويخشى من سيِّئته أن يقوم خطِيبُها، يخشى أن يقوم بغير الحق خطًا فيَزِلّ، فيتَّبِعه الناس؛ فتبقى عليه التَّبِعة.

رابعًا: أنه إذا عرَضَ له أمران؛ أحدُهما: يُرضِي الله ﷻ ويُسخِط الناس، والثاني: يُرضِي الناس ويُسخِط الله تبارك وتعالى، قدَّم رضا الله على رضا الناس، ولم يَضُرَّه ما يُصِيبه في جَنْب الله مِن أذاهم:

فإن أرادوا قَتْلَهُ، قال[1]:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا　　عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي

وإن أرادوا نَفْيَهُ قال:

«ما يَصنَعُ أعدائي بي؟! أنا جَنَّتي وبستاني في صدري؛ إنْ رُحْتُ، فهي معي لا تُفارِقني»[2].

وإن حَبَسُوهُ، قال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣].

فله من كلِّ همٍّ فَرَج، ومِن كلِّ ضِيقٍ مَخرَج، ومع كلِّ عُسْرٍ يُسْر.

وقد كان شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ **يقول**: «المحبوسُ: مَن حُبِسَ قلبُهُ عن ربِّه تعالى، والمأسورُ: مَن أَسَرَهُ هواه»، وكان يقول في مَحبَسِهِ بالقلعة: «لو بَذَلْتُ مِلْءَ هذه القَلْعةِ ذهبًا، ما عدَلَ عندي شُكْرَ هذه النعمة»، أو قال: «ما جَزَيْتُهم على ما تسبَّبُوا لي فيه مِن

(١) **القائل**: هو خُبَيْب بن عَدِيّ رضي الله عنه؛ قاله قبل مقتله؛ وقصَّة مقتله أخرجها البخاري (٣٠٤٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) «الوابل الصيِّب» (ص١٠٩).

الخير»، ونحو هذا[١].

وذلك لمَّا حصَلَ له من المعاني الإيمانيَّة، والمَعَارِف الربانيَّة، والأحوال القلبيَّة؛ فهذا يقوله مع أنه حِيلَ بينه وبين الناس، ووُضِعَ في سِجْنٍ لا يأتيه الناس ولا يزورونه؛ حتى إنَّ الأقلام والوَرَق مُنِعَ عنه؛ فصار يكتب بالفَحْمِ على الجُدْران، وكان هذا أشدَّ الأشياء عليه؛ أنه مُنِعَ من الكتابة[٢].

ولما أُدخِلَ في سجنٍ آخرَ، فيه عُتَاةُ المجرِمِينَ، تحوَّل السجنُ إلى مكانٍ للعبادةِ والعلم؛ حتى إنهم خافوا على هؤلاء منه أن يَتَّبِعُوهُ ويُناصِرُوهُ، فأخرجوه مِن السِّجْن...

هكذا يكون المخلِص الذي يريد وجه الله ﷻ؛ لا يَهُمُّهُ أن يتبوَّأ شيئًا من المَرَاتِبِ العالية في الدنيا، إنما هَمُّهُ في مَرْضاة الله ﷻ.



(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: «الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (ص١٨٥، ٢٦١، ٤٨١).

مِن أخبار أهل الإخلاص

وأخيرًا: أختِمُ هذا الموضوع بالعَيْش مع أهل الإخلاص بالتعرُّف على أحوالهم، وذِكْرِ بعض أخبارهم؛ في مقام الإخلاص والنُّفْرة من إشاعة الذِّكْر؛ وهو حديث شَيِّقٌ يَجذِب النفوس، وتَرِقُّ له القلوب، وفيه عِبْرةٌ لمن يعتبر.

ونحن في حاجة شديدة إلى النظر دائمًا في أحوال الصالحين في عبادتهم، وتقواهم، ووَرَعهم، وخَوْفهم، وإيمانهم، وفي إخفائهم للعمل الصالح، نحتاج لمعرفة أحوالهم في كلِّ شأنٍ من شؤونهم.

قد يتقاصر الإنسان أمام الأنبياء والمرسَلين عليهم الصلاة والسلام، ويقولُ: هؤلاء أيَّدهم الله ﷻ بالوَحْي، ولا سبيل للشيطان عليهم، ولا حاجة لهم بالدنيا، ولكنَّ هؤلاء ممن نذكُرُ أخبارَهم، لم يكونوا من النبيِّين، ولكنْ من ورَثَتهم مِن العلماء والصِّدِّيقين.

أولًا: حِرْصُهم على استصحاب النيَّة في كلِّ شيء:

فقد كان الإمام أحمد يقول لابنه رحمهما الله: «يا بُنَيَّ، انوِ الخير؛ فإنك لا تزالُ بخيرٍ ما نَوَيْتَ الخير»[(١)].

وقيل لنافع بن جُبَيْر رحمه الله: «أَلَا تشهد الجنازة؟ قال: كما أنت؛ حتى أنوي»[(٢)]؛ أراد أن يُحدِثَ نيَّة، وليس معنى ذلك أن يَنطِقَ بها، فيقول: نَوَيْتُ أن أشهَدَ الجنازة، أو أصلِّي على الجنازة؛ كما يفعله بعض العوامِّ.

وقال زُبَيْد اليامي رحمه الله: «انْوِ في كلِّ شيءٍ تريده الخيرَ، حتى خروجِك إلى الكُنَاسَة[(٣)]»[(٤)].

وقال إبراهيم النَّخَعي رحمه الله: «لم يكنْ عبد الرحمٰن بن يزيد يَعمَلُ شيئًا إلا بنيَّة؛ حتى

(١) نقله ابن مُفلِح في «الآداب الشرعيَّة» (١/ ١٣٣).
(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٣٥٣٢)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٤٠٧).
(٣) **الكُنَاسة**: موضع إلقاء القمَامة.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٦٣)؛ ومن طريقه الدينوري في «المجالسة» (٣٥٣٣)؛ واللفظ له.

إنْ كان يَشرَبُ الماء بنيَّة»[١].

وربما قيل لإبراهيم التَّيْمي رَحِمَهُ اللَّهُ: تكلَّم، فيقول: «ما تحضُرُني نيَّة»[٢].

وقال محمد بن أبي حاتم وَرَّاقُ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ورأيته ـ يعني: البخاري ـ استَلْقَى على قفاه يومًا، ونحنُ بفَرَبْرَ في تصنيف التفسير، وكان أتعَبَ نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث، فقلت له: يا أبا عبد الله، سمعتُكَ تقول يومًا: إني ما أتيتُ شيئًا بغير علم قطُّ منذ عَقَلْتُ؛ فأيُّ علم في هذا الاستلقاء؟ فقال: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم، وهذا ثَغْرٌ من الثغور؛ خشيتُ أن يحدُثَ حدَثٌ مِن أمر العدو، فأحببتُ أن أستريح وآخُذَ أُهْبَةَ ذلك؛ فإنْ غافصنا العدو، كان بنا حَرَاك»[٣].

وكان يحيى بن عيسى الأنباري الواعظ عابدًا جليل القَدْر، قال ابن الجوزي: «كان يَبكِي على المنبر مِن حين صعوده إلى حين نزوله، وتعبَّد في زاويته نحو خمسين سنة، وكان وَرِعًا، حتى إنه عَطِشَ مرَّةً، فجيء بماء بارد من بعضِ دُورِ الحكام، فلم يَشرَبْ، وكان لا يفعل شيئًا إلا بنيَّة»[٤].

وكان نُور الدين زِنْكي ـ الملك المجاهد ـ يُكثِرُ اللعب بالكُرَة، فعاتبه رجل من كبار الصالحين في ذلك؟ فقال: «إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما أريد بذلك تمرينَ الخَيْلِ على الكَرِّ والفَرِّ، وتعليمَها ذلك، ونحن لا نترُكُ الجهاد»[٥].

وروى ابن عساكر عن أبي الحسين النُّورِيِّ؛ أنه اجتاز بزَوْرَقٍ فيه خمر مع ملَّاح، فقال: «ما هذا؟! ولمن هذا؟! فقال له: هذه خمر للمعتضِد؛ فصَعِدَ أبو الحسين إليها، فجعَلَ يَضرِبُ الدِّنَانَ بعمود في يده حتى كسَرَها كلَّها سوى واحد تركه، واستغاث الملَّاح، فجاءت الشرطة، فأخذوا أبا الحسين، فأوقَفُوه بين يدي المعتَضِد، فقال له: مَن أنت؟ فقال: أنا المحتسِب، فقال: ومَن ولَّاك الحِسْبة؟ فقال: الذي ولَّاك الخلافة يا أمير المؤمنين! فأطرَقَ رأسه، ثم رفَعَها، فقال: ما الذي حمَلَكَ على ما فعَلْتَ؟ فقال: شفقةً عليك؛ لدفع الضرر عنك؛ فأطرَقَ رأسه، ثم رفعه، فقال: ولأي شيءٍ ترَكْتَ منها دَنًّا واحدًا لم تَكسِره؟ فقال: لأني إنما أقدَمْتُ عليها فكسَرْتُها إجلالًا لله تعالى، فلم أبالِ أحدًا، حتى انتهيتُ إلى هذا الدنِّ، دخل في نفسي إعجابٌ مِن قَبِيلِ

---

(١) أخرجه أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (١/ ٢٧٨).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١١).
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ١٤).
(٤) «المنتظم» (١٨/ ١٢٣)؛ بتصرُّف، و«تاريخ الإسلام» (٣٨/ ١٠٨).
(٥) «البداية والنهاية» (١٦/ ٤٨٢).

أني قد أقدَمْتُ على مثلك، فتركتُهُ، فقال له المعتضِد: اذهب؛ فقد أطلقتُ يدك، فغَيِّرْ ما أحببتَ أن تغيِّرَهُ من المنكر، فقال له النُّورِيُّ: الآن انتقَضَ عَزْمِي عن التغيير، فقال: ولِمَ؟ فقال: لأني كنتُ أغيِّرُ عن الله، وأنا الآن أغيِّرُ عن شرطي، فقال: سَلْ حاجتك، فقال: أُحِبُّ أن تُخرِجَني من بين يديك سالمًا، فأمَرَ به فأُخرِج، فصار إلى البصرة، فأقام بها مختفِيًا؛ خشيةَ أن يشقَّ عليه أحد في حاجته عند المعتضِد؛ فلما توفِّي المعتضِد، رجع إلى بغداد»[(١)].

وعن أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ؛ قال: سمعتُ أبا سلمان يقول: «سمعتُ أبا جعفر المنصور يبكي في خطبته يوم الجمعة، فاستقبلني الغضب، وحضرتني نيَّة أن أقوم فأَعِظَهُ بما أَعرِف من فعله إذا نزَلَ، قال: فكَرِهْتُ أن أقوم إلى خليفة فأعظه، والناس جلوس يرمقونني بأبصارهم، فيَعْرِض لي تزيُّن، فيأمر بي، فأُقتَل على غير صحيح، فجلستُ وسكتُّ»[(٢)].

ومن طريف ما ورد في ذلك: ما ذكره أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله؛ قال: «كنتُ يومًا في بيت عمَّتي، ولها بنونَ أكبَرُ مني، فلم أرهم، فسألتُ عنهم، فقالوا: قد مَضَوْا إلى عبد الله بن داود، فأبطؤوا، ثم جاؤوا يذمُّونه، وقالوا: طلبناه في منزله فلم نجده، وقالوا: هو في بُسَيْتِينةٍ له بالقرب، فقصدناه فإذا هو فيها، فسلَّمنا عليه وسألناه أن يحدِّثَنا، فقال: مُتِّعْتُ بكم، أنا في شغل عن هذا، هذه البُسَيْتينة لي فيها معاش، وتحتاج إلى أن تُسْقَى، وليس لي مَن يسقيها، فقلنا: نحن نُدِيرُ الدُّولَابَ ونسقيها، فقال: إنْ حضرتكم نيَّة، فافعلوا، قالوا: فتشلَّحنا وأَدَرْنا الدولاب حتى سقينا البستان، ثم قلنا له: حدِّثْنا الآن، فقال: مُتِّعْتُ بكم، ليس لي نيَّة في أن أحدِّثكم، وأنتم كانت لكم نيَّة تُؤْجَرُونَ عليها»[(٣)].

ثانيًا: كِتْمانهم أعمالهم:

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنْ كان الرجل لقد جمَعَ القرآن، وما يشعُرُ به جاره، وإنْ كان الرجل لقد فَقِهَ الفقهَ الكثير وما يشعُرُ به الناس، وإنْ كان الرجل ليصلِّي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوَّار وما يشعُرُون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على

(١) «تاريخ دمشق» (٧١/ ٢١١)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٧٠٤)، و«تنبيه الغافلين» (ص٦٦ ـ ٦٧).
(٢) «تلبيس إبليس» (ص١١٥).
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ١١٩ ـ ١٢٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/ ٣١)؛ واللفظ له.

ظهر الأرض مِن عَمَلٍ يَقدِرُونَ على أن يعملوه في سِرٍّ، فيكون علانيةً أبدًا»[١].

وكان ابن مُحَيْرِيز رَحِمَهُ اللَّهُ مِن أحرص الناس أن يكتُمَ مِن نفسِهِ أحسَنَ ما عنده[٢].

وكان لشُرَيْح القاضي بيتٌ يخلو فيه كلَّ جمعة لا يدري أحدٌ من الناس ماذا يصنع فيه[٣].

وقال عبد الرحمٰن بن مَهْدِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قلت لابن المبارَك: إبراهيم بن أَدْهَم ممن سَمِع؟ فقال: قد سَمِعَ من الناس، ولكنْ له فضل في نفسه، صاحبُ سرائر، وما رأيته يُظهِرُ تسبيحًا، ولا شيئًا من الخير، ولا أكل طعامًا مع قوم قطُّ إلا كان آخِرَ مَن يرفع يده»[٤]؛ أي: كان لا يُظهِرُ عملًا صالحًا مع قُدْرَته على إخفائه، وإذا جلس مع الناس على أمر مباح، كان آخِرَ من يرفع يده؛ يريهم أنه ليس بزاهد، وأنه يأكل كما يأكل عامَّة الناس لا يقوم أَوَّلَهم، فيقول قائل: فلان يُقِيمُ صلبه بلُقْمة أو لقمتَيْنِ، ويكتفي!

ثالثًا: إخلاصُهم في جهادهم:

وفي مقام الجهاد تشتدُّ الحاجة إلى إخلاص النيَّة؛ وإلا فالموت والفوت؛ فهذا عبد الله بن المبارَك رَحِمَهُ اللَّهُ حينما خرَجَ في غزو بلاد الرُّوم، فالتقى المسلمون بالعدو، وخرَجَ عِلْجٌ من العدو يطلب المبارزة، ويجول بين الصَّفَّيْن، فخرَجَ له رجل من المسلمين، فما أمهله؛ قتله العِلْج، وخرج الثاني فقتله، وخرج الثالث فقتله، فبرَزَ له رجل آخر، فصاوله ثم قتَلَ العِلْجَ، فاجتمَعَ الناس عليه ينظرون مَن هو؟ فجعَلَ يغطِّي وجهه بكُمِّهِ لئلا يَعرِفه أحد، فجاءه رجلٌ يقالُ له: أبو عمرو، فرفع كمَّه عن وجهه، فإذا هو عبد الله بن المبارَك، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأنتَ يا أبا عمرو! ممن يشنِّعُ علينا؟!»[٥].

قال ابن كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ذكر الشيخ أبو شَامَة[٦] أن إمام مسجد أبي الدرداء بالقلعة المنصورة، رأى في تلك الليلة التي أُجْلِيَ فيها الفرنج عن دِمْياط رسولَ الله ﷺ وهو يقول: سَلِّمْ على نُورِ الدين ـ يعني: نور الدين محمود البطل المجاهد المشهور ـ وبشِّره بأن الفرنج قد رحَلُوا عن دمياط، فقلت: يا رسول الله، بأي علامة؟ فقال: بعلامة ما سجَدَ يوم تل حارم، وقال في سجوده: اللَّهُمَّ، انصُرْ دِينَك، ومَن هو محمود

---

(١) أخرجه ابن المبارك (١/ ١٤٠)، وأحمد مختصرًا (ص٢٦٢)؛ كلاهما في «الزهد».
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ١٠).
(٣) «تهذيب الكمال» (١٢/ ٤٤٢).
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٢٨٩).
(٥) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٦٥).
(٦) انظر: «الروضتين» (١/ ٤٥٩).

الكلب؛ فلما صلَّى نور الدين عنده الصبح، بشَّره بذلك وأخبره بالعلامة، فلما جاء إلى عند ذكر (من هو محمود الكلب)، انقبَضَ من قول ذلك، فقال له نُور الدين: قل ما أمرَكَ به رسول الله ﷺ، فقال ذلك، فقال: صَدَقْتَ، وبكى نُور الدين تصديقًا وفرحًا بذلك، ثم كُشِفُوا، فإذا الأمر كما أخبر في المنام»[(١)].

وهذا رجلٌ مسلِم كان في الجيش حينما «حاصر مَسْلَمة بن عبد الملك حصنًا، وأصابهم فيه جَهْد عظيم، فندَبَ الناسَ إلى نَقْبٍ منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من الجند، فدخله، ففتَحَ الله عليهم، فنادى منادي مَسْلَمة: أين صاحب النَّقْب؟ فما جاء أحد حتى نادى مرتَيْنِ أو ثلاثًا أو أربعًا، فجاء في الرابعة رجل، فقال: أنا أيها الأمير صاحب النَّقْب، آخُذُ عهودًا ثلاثًا لا تسوِّدوا اسمي في صحيفة، ولا تأمُرُوا لي بشيء، ولا تشغلوني عن أمري، قال: فقال له مَسْلَمة: قد فعلنا ذلك بك، قال: فغاب بعد ذلك، فلم يُرَ، قال: فكان مَسْلَمة بعد ذلك يقول في دُبُرِ صلاته: اللَّهُمَّ، اجعَلْنِي مع صاحب النَّقْب»[(٢)].

رابعًا: إخلاصُهم في صَدَقاتهم:

كان علي بن الحسين زَيْن العابدين إذا كان الليل يَحمِل الصدقات والجُرُب من الطعام على ظهره، ويُوصِلُ ذلك إلى بيوت الأرامل والفقراء في المدينة، ولا يعلمون مَن وضَعَها، وكان يقول: «إن الصدقة في سواد الليل تُطفِئ غضَبَ الربّ»[(٣)]، وكان لا يستعين بخادم ولا غيره؛ لئلا يَطَّلِع عليه أحد، وبقي على ذلك مدةً، وما كان هؤلاء الفقراء والأرامل يَعلَمون كيف يأتيهم هذا الطعام وتلك النفقات، فلما مات، وجَدُوا في ظهره آثارًا مِن سواد، فعلموا أن ذلك بسبب ما كان يَحمِلُهُ على ظهره من الطعام إلى هؤلاء، فما انقطَعَتْ صدَقَةُ السِّرِّ في المدينة في ذلك الوقت حتى مات رحمه الله تعالى[(٤)].

وقال شَيْبة بن نَعَامة: «كان علي بن الحسين يبخَّل، فلما مات، وجدوه يَعُولُ مائة أهل بيت بالمدينة»[(٥)]، وإنما كانوا يبخِّلونه؛ لأنهم كانوا لا يرونه يتصدَّق علانيةً.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٦/ ٤٤١)؛ بتصرف.
(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٣٥٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ٣٦).
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤١/ ٣٨٣)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦)؛ بلفظ: «إنَّ صَدَقة السر تُطْفِئ غضَبَ الربّ».
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٦)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٦)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤١/ ٣٨٤)؛ واللفظ له.

وكان حسَّان بن سعيد المخزومي ﵀ لما وقع الغلاء بأهل ناحيته «يَنصِبُ القدور كل يوم، ويطبُخُ فيها، ويُحضِرُ زيادة على ألف مَنٍّ مِنَ الخبز، ويجمع الفقراء ويفرِّق عليهم، ويُوصِلُ إليهم صدقة السِّرِّ بحيث لا يعلم أحد»[(١)].

وهذا ابن المبارَك ﵀ كان «كثير الاختلاف إلى طَرَسُوس، وكان يَنزِل الرَّقَّة في خان، فكان شاب يَختلِف إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، قال: فقَدِمَ عبد الله الرَّقَّة مرَّةً، فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجِلًا، فخرج في النفير، فلما قفَلَ من غزوته، ورجَعَ إلى الرَّقَّة، سأل عن الشاب، قال: فقالوا: إنه محبوس لِدَيْنٍ ركبه، قال: فقال عبد الله: وكم مَبلَغ دَيْنه؟ قالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُلَّ على صاحب المال، فدعا به ليلًا، ووزن له عشَرة آلاف درهم، وحلَّفه ألَّا يُخبِر أحدًا ما دام عبد الله حيًّا، وقال: إذا أصبَحْتَ، فأَخرِجِ الرجل من الحبس، وأَدلَجَ عبدُ الله، فأُخرِجَ الفتى من الحبس، وقيل له: عبد الله بن المبارك كان هاهنا، وكان يذكُرُك، وقد خرَجَ، فخرج الفتى في أثره، فلَحِقَهُ على مرحلتَيْن ـ أو ثلاث ـ من الرَّقَّة، فقال: يا فتى، أين كنت؟ لم أرك في الخان، قال: نعم يا أبا عبد الرحمٰن! كنتُ محبوسًا بدَيْن، قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى ديني، ولم أَعلَمْ به حتى خرجتُ من الحبس، فقال له عبد الله: يا فتى، احمَدِ اللهَ على ما وفَّق لك من قضاء دينك؛ فلم يُخْبِرْ ذلك الرجل أحدًا إلا بعد موت عبد الله»[(٢)].

ولهذا قال الإمام أحمد ﵀: «ما رفَعَ الله ابن المبارَك إلا بخبيئة كانت له»[(٣)].

وذكر ابن كَثِير في «تاريخه» في ترجمة إسماعيل بن نُجَيْد السُّلَمي؛ أن شيخه أبا عثمان احتاج مرة إلى شيء، «فسأل أصحابه فيه، فجاءه ابن نُجَيْدٍ بكيس فيه ألفَا درهم، فقبَضَه منه، وجعل يشكُرُهُ إلى أصحابه، فقال له ابن نُجَيْد بين أصحابه: يا سيدي، إن المال الذي دفعتُهُ إليك كان من مال أمي، أخذتُهُ وهي كارهة؛ فأنا أُحِبُّ أن تَرُدَّهُ إليَّ حتى أردَّه إليها، فأعطاه إياه، فلما كان الليل، جاء به، وقال: أُحِبُّ أن تَصْرِفَها في أمرك ولا تذكُرْها لأحد»[(٤)].

---

(١) «المنتظم» (١٦/ ١٣٥).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٥٨)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٤٥٥)؛ واللفظ له.

(٣) «صفة الصفوة» (٤/ ١١٥).

(٤) «البداية والنهاية» (١٦/ ٣٧٧).

خامسًا: إخفاؤهم لتأثُّرهم وبكائهم:

والأخبار عنهم في ذلك كثيرة موفورة:

فعن الحسَن رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال**: «إنْ كان الرجل لَيَجْلِسُ المجلِسَ فتجيئه عَبْرَتُه فيردُّها، فإذا خشي أن تسبقه، قام»[(١)].

وعن أبي السَّلِيل: «أنه كان يحدِّث أو يقرأ، فيأتيه البكاء فَيَصْرِفُهُ إلى الضحك»[(٢)].

وعن محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال**: «لقد أدركتُ رجالًا كان الرجل يكون رأسُهُ ورأسُ امرأته على وساد واحد، قد بَلَّ ما تحت خدِّه من دموعه لا تشعُرُ به امرأته، والله، لقد أدركت رجالًا كان أحدُهم يقوم في الصفّ فتَسِيلُ دموعُهُ على خدِّه لا يشعُرُ الذي إلى جنبه»[(٣)].

وعن عاصم؛ قال: «كان أبو وائل إذا صلى في بيته، يَنشِجُ نشيجًا، ولو جُعِلَتْ له الدنيا على أن يفعله وأحدٌ يراه، ما فعله»[(٤)].

وعن أبي التيَّاح؛ قال: «إنْ كان الرجل يتعبَّدُ عشرين سنةً، وما يعلم به جارُه»[(٥)].

وعن حمَّاد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال**: «كان أيوب ربما حدَّث الحديثَ، فيَرِقُّ فيلتفِتُ فيتمخَّطُ، فيقول: ما أشدَّ الزكامَ!»[(٦)].

وهذا بكر بن أيوب السختياني يروي عن أبيه: «أنه كان إذا رَقَّ ودَمَعَتْ عيناه، حك أنفه، وقال: ما أشدَّ الزكامَ!»[(٧)].

فأين هذا ممن يتصنَّع البكاء أمام الناس في أماكن حافلة بالمصلِّين؟! لا أقول: يغلبه البكاء؛ فمَن غلبه البكاء، فسمع الناس بكاءه، فهو غير ملوم، لكنْ أن يتباكى ويتكلَّف البكاء في صلاته، والناس خلفه، وربما أحضر مَن يصوِّرون، فهذا أمر مذموم.

أمَّا ما صح عن أبي موسى الأشعري، وعبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ **أنهما قالا**: «ابْكُوا؛

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٦٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٤٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٣٦)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٧).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٣٧).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) «الثقات» لابن حبان (٨/ ١٤٦).

فإن لم تَبْكُوا فتَبَاكَوْا»[(١)]، فإنه محمول على فعله خاليًا؛ حيث لا يراه الناس، يقول: تباكَوُا اليومَ تَبْكُوا غدًا، أو تباكَوْا وتشبَّهوا بالبكَّائين.

وقال محمد بن زياد: «رأيت أبا أُمامَة أتى على رجل في المسجد وهو ساجدٌ يبكي في سجوده ويدعو ربه، فقال أبو أُمامَة: «أنتَ أنتَ؛ لو كان هذا في بَيْتِك»[(٢)].

سادسًا: حِرْصُهم على كتمان صلاة الليل، والعبادة:

فقد كان الواحد منهم يدخُلُ في فراش زوجته، ثم يخادِعُها كما تخادِعُ المرأة صبيَّها، فينسَلُّ لصلاة الليل إذا نامت دون أن تشعُرَ به.

كما جاء في ترجمة حسَّان بن أبي سِنَان رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **تقول امرأته:** «كان يجيء فيدخُلُ معي في فراشي، ثم يخادِعُني كما تخادِعُ المرأةُ صبيَّها، فإذا علم أني نِمْتُ، سَلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلي»[(٣)].

وكان أيوب السَّخْتِياني رَحِمَهُ اللَّهُ يقوم الليل كله، فيُخفِي ذلك، فإذا كان عند الصبح، رفَعَ صوته؛ كأنه قام تلك الساعة[(٤)].

ورأى رجاء بن حَيْوةَ رَحِمَهُ اللَّهُ **رجلًا في المجلس بعد الفجر يداعِبُهُ النعاس، ويغالِبُهُ النوم، فقال له:** «انتبِهْ؛ لا يَظُنَّ ظانٌّ أن ذا عن تسهُّرٍ»[(٥)]؛ أي: لا يتوهَّم أحد عليك أن هذا مِنْ طول السهر لصلاة الليل.

وكان عبد الرحمٰن بن أبي ليلى رَحِمَهُ اللَّهُ يصلِّي، فإذا دخل الداخل، نام على فراشه[(٦)].

وصَحِبَ رجل محمد بن أسلم، فقال: لازمته أكثر من عشرين سنةً لم أره يصلِّي ـ حيث أراه ـ إلا يوم الجُمُعة، وسمعته كذا وكذا مرة يحلف يقول: «لو قَدَرْتُ أن أتطوَّع حيث لا يراني مَلَكَايَ، لفعلتُ... خوفًا من الرياء»[(٧)].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٩٩)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦١)؛ من كلام أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الحاكم (٤/ ٥٧٨)؛ من كلام ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصحَّحه وأقرَّه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٣٢٨). وقد رُويَ مرفوعًا من حديث أنس وسعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولا يثبُتُ. انظر: «الضعيفة» (٦٥١١، ٦٨٨٩).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٦)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٤/ ٦٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١١٧).

(٤) انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٣١)، و«صفة الصفوة» (٣/ ٢٩٢).

(٥) أخرجه الفسوي في «تاريخه» (٢/ ٣٧١)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٨/ ١١٤) بنحوه.

(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٦٣).

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٤٣).

وكان يدخل بيتًا له ويُغلِقُ الباب لا ندري ما يصنع، حتى سمعتُ ابنًا له صغيرًا يحكي بكاءه، فنَهَتْهُ أمُّه، فسألتُها، فقالت: إن أباه يدخُلُ هذا البيت، فيقرأ ويبكي، فيسمعه الصبي فيحكيه ـ أي: يقلِّده ـ وكان إذا أراد أن يخرُجَ من هذه الحجرة، غسَلَ وجهه واكتحَلَ لئلا يُرَى عليه أثر البكاء، وكان يَصِلُ قومًا بالصدقة، ويقول لمن يُرسِله: انظر ألَّا يَعلَموا مَن بعثه إليهم، ويأتيهم هو بالليل، فيَذهَب به إليهم ويُخفِي نفسه[(١)].

وكان عمل الربيع بن خُثَيْم كله سرًّا، ولربما دخل عليه رجل وقد نشَرَ المصحف يقرأ فيه، فيغطِّيه بثوبه لئلا يراه[(٢)].

وعن الحسن؛ قال: «إنْ كان الرجل لتكون له الساعةُ يخلو فيها فيصلِّي فيوصي أهله، فيقول: إنْ جاء أحد يطلبني، فقولوا: هو في حاجة له»[(٣)].

وعن عبد المؤمن أبي عبد الله؛ قال: «كان لحسَّان بن أبي سِنَان في حانوته سِتْر، فكان يُخرِجُ سلَّة الحساب، وينشُرُ حسابه، ويصعِّدُ غلامًا على الباب، ويقول: إذا رأيتَ رجلًا قد أقبل ترى أنه يريدني، فأخبِرْني، ثم يقوم فيصلي، فإذا جاء رجل أخبره الغلام، فيجلس كأنه على الحساب»[(٤)].

وعن عباس بن دِهْقان؛ قال: «قلت لبِشْر بن الحارث: أحبُّ أن أخلو معك، قال: إذا شئتَ، فبكَّرْتُ يومًا فرأيته قد دخَلَ قبَّةً، فصلى فيها أربع ركعات، لا أُحسِنُ أن أصلِّي مثلها، فسمعته يقول في سجوده: اللَّهُمَّ، إنك تَعلَمُ فوق عرشك: أن الذُّلَّ أحبُّ إليَّ من الشَّرَف، اللَّهُمَّ، إنك تَعلَمُ فوق عرشك: أن الفقرَ أحبُّ إليَّ من الغنى، اللَّهُمَّ، إنك تَعلَم فوق عرشك: أني لا أُوثِرُ على حبِّك شيئًا؛ فلما سمعته، أخذَني الشهيق والبكاء، فلما سمعني، قال: اللَّهُمَّ، إنك تَعلَم أني لو أعلم أن هذا ههنا، لم أتكلَّم»[(٥)].

سابعًا: اجتهادُهُمْ في إخفاء الصيام:

عن ابن أبي عَدِيٍّ؛ قال: «صام داود ـ بن أبي هند ـ أربعين سنةً لا يَعْلَم به أهله، وكان خرَّازًا يحمل معه غداءَهُ مِن عندهم، فيتصدَّق به في الطريق، ويَرجِعُ عشيًّا، فيُفطِرُ معهم»[(٦)].

---

(١) انظر: «صفة الصفوة» (٤/ ١٢٦). (٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٤٦).
(٤) المصدر السابق (٤٧).
(٥) «صفة الصفوة» (٢/ ٣٣١، ٣٣٢)، وساقه الذهبي في «السير» (١٠/ ٤٧٣)؛ من طريق ابن أبي الدنيا، به؛ إلا أنه قال: «حمزة بن دِهْقان».
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٩٣)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٧/ ١٢٩).

و«أقام عمرو بن قيس المُلَائي عشرين سنة صائمًا ما يَعلَمُ به أهله، يأخُذُ غداءه، ويغدو إلى الحانوت، فيتصدَّق بغدائه، ويصوم وأهله لا يدرون»[١].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كان الصيام سِرًّا بين العبد وبين ربه، اجتهَدَ المخلِصون في إخفائه بكلِّ طريق؛ حتى لا يطَّلع عليه أحد»[٢].

وصام أبو الحسين النُّورِيّ عشرين سنةً لا يَعلَمُ به أحد؛ لا مِن أهله، ولا مِن غيرهم[٣].

واشتهر بعض الصالحين بكثرة الصيام، فكان يقوم يوم الجُمُعة في مسجد الجامع، فيأخذ إبريق الماء، فيضع بُلْبُلَتَهُ في فيه، ويمتصُّها والناس ينظرون إليه، ولا يدخُلُ حَلْقَهُ منه شيء؛ لينفي عن نفسه ما اشتهَرَ به من الصوم.

كم يستَرُ الصادقون أحوالهم ورِيحُ الصِّدْق تَنِمُّ عليهم؛ ما أَسَرَّ أحدٌ سريرةً إلا ألبسه الله رداءها علانيةً.

كَمَ اكْتُمُ حُبَّكُمْ عَنِ الْأَغْيَارِ ... وَالدَّمْعُ يُذِيعُ فِي الهَوَى أَسْرَارِي

ريح الصائم أطيب عند الله مِن ريح المسك؛ فكلما اجتهد صاحبه على إخفائه، فاح رِيحُهُ للقلوب، فتستنشقه الأرواح، وربما ظهَرَ بعد الموت ويوم القيامة.

وَكَاتِمُ الحُبِّ يَوْمَ الْبَيْنِ مُنْهَتِكٌ ... وَصَاحِبُ الْوَجْدِ لَا تَخْفَى سَرَائِرُهُ[٤]

ولما دُفِنَ عبد الله بن غالب، كان يفوح مِن تراب قبره رائحة المِسْك، فرُئِيَ في المنام، فسُئِلَ عن تلك الرائحة التي توجد مِن قبره؟ فقال: تلك رائحةُ التلاوة والظمأ[٥].

وَهَبْنِي كَتَمْتُ السِّرَّ أَوْ قُلْتُ غَيْرَهُ ... أَتَخْفَى عَلَى أَهْلِ الْقُلُوبِ السَّرَائِرُ

أَبَى ذَاكَ أَنَّ السِّرَّ فِي الْوَجْهِ نَاطِقٌ ... وَأَنَّ ضَمِيرَ الْقَلْبِ فِي العَيْنِ ظَاهِرُ»[٦]

ثامنًا: في ذِكْرِ إشفاقهم على أنفُسِهم، مع شدَّة ما كانوا عليه من التفطُّن والحذر في هذا الباب:

عن أبي الحسن ابن القطَّان رَحِمَهُ اللَّهُ؛ قال: «أُصِبْتُ ببصري، وأظنُّ أني عُوقِبْتُ بكثرة كلامي أيَّام الرحلة»[٧]؛ أي: لعله عُوقِبَ لكثرة كلامه؛ لأن كثرة الكلام فيه إظهار للعِلْم، وسعةِ الحفظ، وإنْ لم يقصدْ ذلك.

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ١٢٤).
(٢) «لطائف المعارف» (ص٨٥).
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٣٣٩).
(٤) البيت لابن الرومي في «ديوانه».
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٤٨).
(٦) «لطائف المعارف» (ص٨٥ ـ ٨٦).
(٧) «تذكرة الحفاظ» (٣/ ٨٥٧).

يقول الذهبي رَحِمَهُ اللهُ **تعليقًا عليه في «السير»**: «صدَقَ والله؛ فقد كانوا مع حُسْنِ القصد وصحة النيَّة غالبًا، يخافون من الكلام، وإظهارِ المعرفة والفضيلة، واليومَ يُكثِرُونَ الكلام مع نَقْص العلم وسوء القصد، ثمَّ إن الله يفضحهم، ويَلُوحُ جهلهم وهواهم واضطرابهم فيما عَلِموه؛ نسأل الله التوفيق والإخلاص!»[(١)].

ولهذا كان هشام الدَّسْتَوائي يقول: «واللهِ، ما أستطيع أن أقول: إني ذهبتُ يومًا قطُّ أطلُبُ الحديثَ أريدُ وجه الله عَزَّ وَجَلَّ»[(٢)].

وكان أحد العلماء[(٣)] قد ألَّف كتبًا كثيرةً، ولم يُخرِجْ واحدًا منها في حياته، فقال لبعض أصحابه: إذا حضَرَتْني الوفاة، فضع يدك في يدي، فإنْ رأيتَني في النزع، وضغَطْتُ على يدِكَ، فلا تُخرِجْ هذه الكتب ـ لأنه لقي ما يكره ـ وإنْ بسَطْتُ يدي، فأَخرِجْها؛ يقول: فوضَعْتُ يدي في يده، فلما كان في النزع، بسَطَ يده، فأخرَجْتُ كتبه جميعًا؛ أراد أن ينظُرَ هل قُبِلَ ذلك منه أو لا؟[(٤)].

وعن سفيان بن عُيَيْنة رَحِمَهُ اللهُ**؛ قال**: تقنَّع ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن، فجعَلَ يبكي، فقيل له: ما يُبكِيك؟ قال: «رياءٌ حاضِر، وشهوةٌ خفيَّة، والناس عند علمائهم كصِبْيان في حجور أمَّهاتهم؛ إنْ أمَرُوهم ائتمَرُوا، وإن نَهَوْهم انتهَوْا»[(٥)].

يقول: لماذا لا أبكي وأنا أُعاني من عِلَل؟! وهو إمام كبير، جعل الله عَزَّ وَجَلَّ له القبول، وتخرَّج عليه الإمامُ مالك وغيره.

واجتمَعَ الفُضَيْل بن عِيَاض وسفيان الثوري رحمهما الله يومًا، فجلَسُوا يتذاكرون شيئًا من الرِّقاق، فرَقَّ كل واحد منهما وبكى، فقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «يا أبا عليٍّ، إني لأرجو أن يكون هذا المجلِسُ علينا رحمةً وبَرَكةً، فقال له الفضيل: لكني أبا عبد الله، أخافُ ألَّا يكون هذا المجلِسُ جلَسْنا مجلسًا قطُّ هو أضرُّ علينا منه، قال: ولِمَ يا أبا علي؟! قال: ألستَ تخلَّصْتَ إلى أحسن حديثك، فحدَّثتني به، وتخلَّصْتُ أنا إلى أحسن حديثي، فحدَّثتك به، فتزيَّنت لي، وتزيَّنت لك، فبكى سفيان بكاءً أشدَّ من البكاء الأوَّل، ثم قال: أحييتني أحياك الله»[(٦)]؛ فمَن يتفطَّن لمثل هذه المعاني اليوم؟!

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥).
(٢) «تاريخ الإسلام» (٩/ ٦٥٥).
(٣) وهو: أبو الحسن الماوردي.
(٤) انظر: «تاريخ الإسلام» (٣٠/ ٢٥٤).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩٠).
(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٠٤).

وبكى محمد بن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ **عند الاحتضار، فقيل له**: أتبكي مع العلم؟ فقال: «أرأيتَ إنْ أوقفَني الله، وقال: يا محمد، ما أقدَمَكَ الري؟ الجهاد في سبيلي أم ابتغاء مرضاتي؟ ماذا أقول؟!»[(١)].

وكان عبد الرحمٰن بن مَهْدي رَحِمَهُ اللَّهُ يجلس يوم الجُمُعة إلى سَارِيَة، ويتحدَّث للناس ويفقِّههم ويعلِّمهم، قال: فإذا كثر الناس، فَرِحْتُ، وإذا قلُّوا، حَزِنْتُ، فسألتُ بشر بن منصور[(٢)]، فقال: «هذا مجلسُ سُوءٍ؛ فلا تَعُدْ إليه، قال: فما عُدتُّ إليه»[(٣)].

وهذا عَوْن بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «إذا أعطيتَ المسكين شيئًا، فقال: بارَكَ الله فيك، فقل أنت: بارَكَ الله فيك؛ حتى تخلُصَ لك صدقتك»[(٤)].

وقال جرير بن عبد الحميد رَحِمَهُ اللَّهُ: «مرَّ بنا حمزة الزيَّات فاستسقى، فأتيتُهُ بماء، فقال: أنت ممن يحضُرُنا في القراءة؟ قلت: نعم، قال: لا حاجة لي في مائك»[(٥)].

وقال الحسن بن الربيع: «كنتُ عند عبد الله بن إدريس، فلما قُمْتُ، قال لي: سَلْ عن سعر الأُشْنان، فلما مشيتُ، ردَّني، فقال: لا تسألْ؛ فإنك تكتب مني الحديث، وأنا أكره أن أسأل مَن يسمع مني الحديث حاجة»[(٦)].

أين هذا ممن لا يُقرِئُ حتى يُرهِقَ كواهل الطلبة بحاجاته الشخصيَّة؟! وأين هذا ممن لا يقرئ إلا على مال يَشترِطُه؟!

وكان محمد بن يوسف الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ لا يشتري خُبْزَهُ من خبَّاز واحد، ولا بَقْلَهُ من بقَّال واحد، كان لا يشتري إلا ممن لا يَعْرِفُه، يقول: «لعلَّهم يعرفوني فيحابوني؛ فأكون ممن أعيش بديني»[(٧)].

ودخل عبد الله بن مُحَيْرِيز رَحِمَهُ اللَّهُ حانوتًا، وأراد أن يشتري ثوبًا، فقال رجل قد عرفه: هذا ابن مُحَيْرِيز، فأَحسِنْ بيعه، فلم يفرحْ ويقول: بارك الله فيك، أو جزاك الله خيرًا، لا خير في أمَّة لا تَعرِفُ لعلمائها قدرهم، بل غضب، وطرَحَ الثوب، وخرَجَ، وقال:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٣٦).
(٢) هو: بشر بن منصور السَّلِيمي أبو محمد البصري.
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٢).
(٤) المصدر السابق (٤/ ٢٥٣).
(٥) «صفة الصفوة» (٣/ ١٥٦).
(٦) أخرجه الآجُرِّي في «أخلاق حملة القرآن» (٥٢)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٨٥٤).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٣١)، و«أخبار أصبهان» (٢/ ١٤٢).

«إنما نشتري بأموالنا، لسنا نشتري بديننا»[(١)].

تاسعًا: كَرَاهِيَتُهُمْ للتشبُّع بما لم يُعْطَوْا:

قال ابن القاسم لمالك رحمهما الله: ليس بعد أهل المدينة أعلَمُ بالبيوع مِن أهل مصر، فقال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِن أين عَلِمُوها؟»، قال: منك، قال مالك: «ما أَعْلَمُها أنا؛ فكيف يَعْلَمُونها؟!»[(٢)].

عاشرًا: كراهيتهم للشُّهْرة:

وأخبارهم في ذلك مستفيضة؛ فقد كانوا يَكرَهُونَها أشد الكراهية، حتى إنَّ إبراهيم بن أَدْهَم رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ما صدَقَ اللهَ عبدٌ أحبَّ الشهرة»[(٣)].

وقال بِشْر بن الحارث رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا أعلم رجلًا أحَبَّ أن يُعرَفَ إلا ذهَبَ دِينُهُ وافتضَحَ»[(٤)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجدُ حلاوةَ الآخرة رجُلٌ يحبُّ أن يَعرِفه الناس»[(٥)].

وكان مورِّق العِجْلِي رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «ما أُحِبُّ أن يَعرِفَني بطاعته غيرُه»[(٦)].

ولما قَدِمَ عبد الله بن المبارَك رَحِمَهُ اللَّهُ المِصِّيصةَ، سأل عن محمد بن يوسف الأَصبَهاني، فلم يعرفه أحد، فلما لقيه، قال: «مِن فضلك لا تُعرَف»[(٧)]؛ رأى أن ذلك مَنْقَبة، وهو أنه مغمور لا يَعرِفه أهل البلد.

وقال أيوب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما صدَقَ عبدٌ إلا سرَّه أَلَّا يُشْعَرَ بمكانه»[(٨)].

وكان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «وجدتُّ قلبي يصلُحُ بمكَّة والمدينة مع قوم غُرَباء، أصحابِ بُتُوت وعباء»[(٩)]؛ يعني: عليهم أَكسِيَة غليظة، غرباء لا يعرفونني؛ فأعيش

---

(١) أخرجه الفَسَوي في «تاريخه» (٢/ ٣٦٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ١٩)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٨١)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

(٢) «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٥)، و«الموافقات» (٥/ ٣٣٠).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٨٠)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٩ ـ ٢٠، ٣١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٥٧٦)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٣١٧).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٧٢).

(٥) المصدر السابق (٧٢).

(٦) المصدر السابق (٢٣).

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٢٦)، وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٤).

(٨) المصدر السابق (٣٥).

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٢)؛ واللفظ له، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٩٥).

وسطهم لا أُعْرَفُ كأنني رجل من فقراء المسلمين ومِن عامَّتهم؛ فقَلْبُهُ يصلُحُ هناك، لا يصلح في المكان الذي يعرفه الناس فيه، ويقولون: هذا سفيان؛ فيوسِّعون له الطريق، ويَتَّبِعونه إذا مشى.

ويقول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أُرِيدُ أن أكون بشِعْبٍ في بعض تلك الشعاب بمكَّة حتى لا أُعرَف؛ قد بُلِيتُ بالشهرة، إني لأتمنَّى الموت صباحًا ومساءً»[(١)].

وكان خالد بن مَعْدانَ الكَلَاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إذا كَثُرَتْ حَلْقَتُه، يقوم ويترك الناس؛ مخافة الشهرة[(٢)].

وكان أبو العالية الرِّيَاحي رَحِمَهُ اللَّهُ إذا جلس إليه أكثر مِن ثلاثة، قام[(٣)].

وقال أبو بكر بن عيَّاش رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ عند حبيب بن أبي ثابت غِلْمةً ثلاثةً قطُّ»[(٤)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «سألت الأعمش: كم رأيتَ أكثَرَ ما رأيتَ عند إبراهيم النَّخَعي؟ قال: أربعةً، خمسةً»[(٥)].

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ اللَّهُ **لأبي مسعود الجُرَيْري**: «إني أخاف ألَّا تكون المعرِفةُ أبقَتْ عند الله حسنةً؛ إني لَأَمُرُّ بالمجلس، فأسلِّمُ عليهم، وما أرى أن فيهم أحدًا يعرفني، فيردُّون عليَّ، ويسألوني مسألةً كأنَّ كلهم قد عرفوني»[(٦)].

وقال حماد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنا إذا مرَرْنا بالمجلس، ومعنا أيوب، فسلَّم، ردوا ردًّا شديدًا، قال: فكان يرى ذلك نِقْمةً»[(٧)].

وخرَجَ مرَّة في سفر، فتَبِعَهُ أناس كثير، فقال: «لولا أني أعلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم مِن قلبي أني لهذا كارِهٌ، لخشيتُ المقتَ من الله عَزَّ وَجَلَّ»[(٨)].

وقال رجل لبِشْر الحافي: أوصني، قال: «أَخْمِلْ ذِكْرَك، وطَيِّبْ مَطْعَمَك»[(٩)].

وكان عطاء بن مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «كنت وأبو إسحاق ذات ليلة عند سفيان ـ الثوري ـ وهو مضطجِع، فرفَعَ رأسه إلى أبي إسحاق، فقال: إيَّاك والشهرة!»[(١٠)].

---

(١) «تاريخ الإسلام» (١٨/ ٨٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٤٦).
(٣) المصدر السابق (٤٧).
(٤) المصدر السابق (٤٩).
(٥) المصدر السابق (٤٨).
(٦) المصدر السابق (٥٦، ٥٧).
(٧) المصدر السابق (٥٨).
(٨) المصدر السابق (٥٩).
(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٦٩)، و«الورع» (١٢٤).
(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٧١).

وقال ابن مُحَيْرِيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللَّهُمَّ، إني أسألك ذِكْرًا خاملًا»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **لفَضَالَة بن عُبَيْد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أوصني، قال: «احفَظْ عني ثلاث خصال، يَنفَعْكَ الله بهنَّ: إنِ استطعتَ أن تَعرِفَ ولا تُعرَفَ، فافعل، وإنِ استطعتَ أن تَسمَعَ ولا تتكلَّم، فافعل، وإنِ استطعتَ أن تَجلِسَ ولا يُجلَسَ إليك، فافعل»(٢).

وكان إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «مَن طلَبَ العلم لله، كان الخمولُ أَحَبَّ إليه من التطاوُل»(٣)، ويقصد بالخمول: عدَمَ الشهرةِ، لا الكسل.

وكتب محمد بن العلاء إلى محمد بن يوسف: «يا أخي، مَن أحبَّ الله، أحبَّ ألَّا يَعرِفه الناس»(٤).

وقال ابن عُيَيْنة رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال لي بِشْر بن منصور: أَقِلَّ من معرِفة الناس؛ فإنه أقل لفضيحتك في القيامة»(٥).

وعن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنه كان إذا كان في المسجد، فجاءه إنسان، فجلَسَ إليه، أوسَعَ إليه، فإذا اضطرَّه المكان إلى أُسْطُوانة، قام عنها إلى عَرْضِ الحَلْقة؛ كراهيةَ الشهرة»(٦).

وعن أبي المحاسن عبد الواحد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال**: «الشهرةُ آفةٌ وكلٌّ يتحرَّاها، والخمولُ راحةٌ وكلٌّ يتوقَّاها»(٧).

وعن عبد الصمد بن عبد الوارث رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال**: «كان حَوْشَبٌ يبكي، ويقول: بلَغَ اسمي مسجد الجامع»(٨).

وعن نُعَيْم بن عبد الله؛ أن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ **قال**: «إنه لَيَمنَعُني مِن كثير من الكلامِ مخافةُ المباهاة»(٩).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٤٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ١٨).
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٣٨٨)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٢٩٩) (٧٦٨)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٤١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٣٠٥).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٩٤).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٣٦).
(٥) المصدر السابق (٣٧).
(٦) أخرجه هناد في «الزهد» (٨٧٦)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٩).
(٧) «طبقات الشافعية» لابن السبكي (٧/ ٣٢٦).
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٧٠).
(٩) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٧).

وعن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال**: «لقد صَحِبْتُ أقوامًا إنْ كان أحدهم لتَعرِضُ له الحِكْمة لو نطق بها، نَفَعَتْهُ ونفَعَتْ أصحابه، فما يمنعه منها إلا مخافةُ الشهرة، وإنْ كان أحدُهم ليمر فيرى الأذى على الطريق، فما يمنعه أن ينحِّيَهُ إلا مخافةُ الشهرة»[١].

وقال ابن سيرين لثابت البُنَاني رحمهما الله: «لم يكنْ يمنعني مِن مجالستكم إلا مخافةُ الشهرة»[٢].

ويقول مَعْمَر رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان في قميص أيُّوب ـ السختياني ـ بعضُ التذييل، فقيل له، فقال: «الشهرة اليوم في التشمير»[٣].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتُكْرَهُ الشهرة من الثياب، وهو المترفِّعُ الخارج عن العادة، والمتخفِّضُ الخارج عن العادة؛ فإنَّ السلف كانوا يكرهون الشهرتَيْن: المترَفِّع والمتخفِّض»[٤].

وقال عبد الرحمٰن بن يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ: قيل لعلقمة: ألَا تقعُدُ في المسجد، فيُجمَعَ إليك، وتُسأَلَ، ونَجلِسَ معك؛ فإنه يُسأَلُ مَن هو دونك؟! فقال علقمة: «إني أكره أن يُوطَأ عَقِبي؛ يقالُ: هذا علقمة، هذا علقمة»[٥].

ودخل على أحمدَ عمُّه، فقال: «يا ابن أخي، أَيْشٍ هذا الغَمّ؟! وأَيْشٍ هذا الحزن؟! فرفع رأسه، وقال: يا عمُّ، طوبى لمن أخمَلَ الله ذِكْرَه»[٦].

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَدِدتُّ أن الناس تعلَّموا هذا العلم ـ يعني: كتبه ـ على ألَّا يُنسَبَ إليَّ منه شيء»[٧].

وكان سُحْنون رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «كان بعض مَن مضى يريدُ أن يتكلَّم بالكلمة، ولو تكلَّم فيها، لانتفَعَ بها خَلْقٌ كثير، فيَحبِسُها، ولا يتكلَّم بها؛ مخافة المباهاة»[٨].

وليس معنى ذلك ـ كما سبق ـ أن نترُكَ الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والجهادَ في سبيله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس العلم، بحجَّة أننا نُؤثِرُ

---

(١) المصدر السابق (١٣٨).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٧١).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٧).
(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١٣٨).
(٥) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (٢٤).
(٦) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٠٧)، وأخرجه ابن عساكر بنحوه في «تاريخه» (٥/ ٣٠٩).
(٧) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٩)، وقد مضى نحوه.
(٨) المصدر السابق (١٢/ ٦٦).

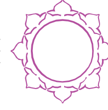
الخمول، ولا نريد الشهرة؛ فلقد كان السلف ﷺ ـ مع ما تقدَّم من أحوالهم ـ يُجاهِدون في سبيل الله، ويعلِّمون الناس العلم، ويَجلِسون في مجالسهم للوعظ والإرشاد، ففتَحَ الله بهم البلاد، ونشَرَ بهم دِينَهُ في الأرض، وهدى بهم الخلق بصِدْقِهم وإخلاصهم الدين لله؛ لذا لا يجوز لأحد أن يقعُدَ في بيته، ويترُكَ الدعوة إلى الله ﷻ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس العلم، ويقول: كانوا يَستتِرُونَ بأعمالهم، ولا يحبُّون الظهور في الناس، ولا العلوَّ في الأرض؛ فهذا قولُ مَن لم يَعرِفْ حالهم.

هذا آخِر الكلام على الإخلاص، واللهَ أسأل أن يطهِّر قلوبنا وأعمالنا؛ إنه سميع مجيب.



ثانيًا

اليقين



توطئة

إن العبد مفتقِر إلى يقينٍ راسخٍ يثبِّت به إيمانه حينما تَعصِف الشبهات المزلزلة، كما أن المؤمن بحاجةٍ إلى يقينٍ يحمله على البَذْل، والتضحية، والعمل، وإيثار ما عند الله تعالى على هذه الدنيا الفانية، وهكذا إذا لاح الطَّمَع، وتطلَّعت النفوس إلى مطلوباتها التي تهواها وتشتهيها؛ فإن اليقين يكون كابحًا لها عن الشهوات بإذن الله.



معنى اليقينِ وحقيقتُه

اليقين في اللغة: العِلْم، وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر؛ فاليقين نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل؛ تقول: عَلِمْتُهُ يقينًا[(١)].

وأما اليقين في معناه الشرعي: فهو سكونُ الفهم، مع ثبات الحُكْم[(٢)]؛ بحيث لا يحصُلُ لصاحبه تردُّدٌ وتشكُّكٌ وريبة وقلق في داخله، وإنما يكون مطمئنًّا إلى ما يعتقده؛ ولهذا قال الجُنَيْد: «اليقينُ هو استقرارُ العلم الذي لا ينقلب ولا يَحُولُ ولا يتغيَّر في القلب»[(٣)]؛ فهو شيءٌ ثابتٌ راسخٌ فيه، وهو بهذا الاعتبار يكون بمعنى طمأنينة القلب، وثباتِ واستقرارِ العلم فيه[(٤)].

وهذا اليقين ينتظِمُ به أمران:

أحدهما: عِلْمُ القلب.

والثاني: عَمَلُ القلب.

كما فصَّل ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيميِّة[(٥)].

فالعبد قد يَعلَمُ علمًا جازمًا بأمرٍ من الأمور، ومع هذا يكون في قلبه حركةٌ واختلاجٌ من العمل الذي يقتضيه ذلك العِلْم؛ فمقتضى العلم: إثمارُهُ وتأثيره في العبد تأثيرًا عمليًّا؛ سواءٌ أكان ذلك في قلبه، أم كان في جوارحه، وربما وُجِدَ العلم في قلب المرء، لكنَّ صاحبه لم يَصِلْ به إلى مرتبة العمل.

فالعبد ـ مثلًا ـ يَعلَمُ أن الله ربُّ كلِّ شيء ومليكه، وأنه لا خالق غيره، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله تعالى، والتوكُّل عليه، وقد لا يصحبه العمل بذلك؛ لغفلة القلب عن هذا العلم التامِّ الذي يوجب الاستحضار الدائم لمعاني العبوديَّة؛ فصاحب هذه الغَفْلة يستسلِمُ للخواطر إذا غفَلَ عن الحقائق التي عَلِمَها، فتجد تلك الخواطرُ طريقَها إلى قلبه واعتقاده، وإلى ما يَدِينُ الله ﷻ به.

---

(١) انظر مادَّة: (ي ق ن)، من «العين» (٥/ ٢٢٠)، و«مقاييس اللغة» (٦/ ١٥٧)، و«لسان العرب» (١٥/ ٤٥٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٧٠ ـ ٥٧١)، و«مفردات القرآن» للراغب (ص٥٥٢)، (ي ق ن).

(٣) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣١٩).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٢٩).

(٥) انظر: المصدر السابق.

قال شيخ الإسلام: «ذِكْرُ الإنسان بقلبه ما أَمَرَهُ الله به، واستحضارُهُ لذلك؛ بحيث لا يكون غافلًا عنه: أكمَلُ ممن صدَّق به، وغفَلَ عنه؛ فإن الغفلة تضادُّ كمال العلمِ والتصديقِ، والذكرُ والاستحضارُ يُكمِلُ العلم واليقين»[1].

فإذا لم يطمئِنَّ القلب ويسكُنْ إلى معلومه، ذهَبَتْ معالمه، واندرَسَتْ رسومه، ولا بد أن تسري تلك الطمأنينة فيه في كافَّة العلوم حتى تَنزِل فيه في قرار مَكِين، وتدعوه إلى ما تقتضيه وتستلزِمُهُ من العمل، فيعمل عمَلَ عاملٍ يَعلَمُ أن الله يراه؛ فيخشى في التقصير عقابه، ويرجو بالتشمير رضاه.

فإذا أيقن العبد ـ مثلًا ـ بما يكون من أمور الآخرة؛ مِن البعث، والحساب، وتطايُرِ الصحف، والعَرْضِ على الله، والمرور على الصراط، وحُسْنِ الجزاءِ أو سُوءِ العقاب: صار قلبه بمنزلة المشاهِدِ لها كأنه يعايِنُها.

وهذه حقيقة اليقين التي وصَفَ الله تعالى بها أهل الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: ٤].

قال ابن القيِّم: «لا يحصُلُ الإيمان بالآخرة حتى يطمئنَّ القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينتَهُ إلى الأمور التي لا يشُكُّ فيها ولا يَرْتاب؛ فهذا هو المؤمِن حقًّا باليوم الآخر»[2].

يقول ابن كثير ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات: ٢٣] ـ: «يُقسِمُ تعالى بنفسِهِ الكريمة: أن ما وعَدَهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائنٌ لا محالة، وهو حقٌّ لا مِرْية فيه؛ فلا تشكُّوا فيه كما لا تشكُّوا في نطقكم حين تَنطِقون، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدَّث بالشيء، يقول لصاحبه: إنَّ هذا لَحَقٌّ كما أنك هاهنا»[3][4].

وقال بعضهم: «اليقين: مشاهَدَةُ الإيمان بالغيب»[5]؛ فكما أن العَيْنَ تشاهِدُ الحقائق الماثلة أمامها في عالم الشهادة؛ فإن اليقين هو مشاهَدةُ الغيب بالقلب، فإذا وصَلَ القلبُ إلى هذه المرتبة، وصَلَ إلى أعلى المنازل، ونال أسمى الدرجات.

قال شيخ الإسلام: «اليقين: يتضمَّن اليقين في القيام بأمر الله، وما وعَدَ اللهُ أهلَ طاعته، ويتضمَّن اليقين بقدَرِ الله وخلقه وتدبيره، فإذا أَرْضَيْتَهم بسَخَطِ الله، لم تكن

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٣٥).
(٢) «الروح» (٢/ ٦٦٧).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩٤).
(٤) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٠).
(٥) «تاريخ الإسلام» (٢٤/ ٢٧٩).

موقنًا؛ لا بوعده ولا برِزْقه؛ فإنه إنما يَحمِلُ الإنسانَ على ذلك: إمَّا ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترُكُ القيام فيهم بأمر الله؛ لما يرجوه منهم، وإمَّا ضعفُ تصديقٍ بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة؛ فإنك إذا أرضَيْتَ اللهَ، نصَرَكَ ورزَقَكَ وكفاك مؤنتهم؛ فإرضاؤهم بسَخَطِهِ إنما يكون خوفًا منهم ورجاء لهم؛ وذلك من ضعف اليقين»(١).



(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٥١).

الفرقُ بين اليقين، والعلم والتصديق والثقة

أولًا: الفرق بين اليقين والعلم[١]:

قد ذكر بعضُهم: أن اليقين يَحمِلُ صاحبه على العمل والامتثال، وقد لا يصير العبد بالعلم بمنزِلة المشاهِد للحقائق الغيبيَّة، فهو يعلم ـ مثلًا ـ أن الله سيبعثه بعد موته ويحاسبه، ولكنَّ هذا العلم قد يضعُفُ في قلبه، وقد تعتريه بعض الشكوك، وبعض الشبهات، فتؤثِّر عليه، وأما إذا كان اليقين مستقِرًّا في القلب، فإنه لا طريق للشُّبَه، ولا الشكوك إليه، وإنما هو اعتقادٌ جازمٌ راسخ، لا يقبل التشكيك بحال؛ ولهذا قيل: «العلمُ تُعارِضُهُ الشكوك، واليقينُ لا شكَّ فيه»[٢]؛ وهذا الوجه في الفرق بينهما لا يخلو من إشكال.

فنحن نعلم في الجملة: أن العلم يتفاوَتُ، كما أنَّ الإيمان يتفاوت؛ فعلمك بخبر المخبِرِ الثِّقَةِ بأنَّ فلانًا قد قَدِمَ مِن سفرِه، يُورِثُ علمًا في القلب، فإذا جاءك آخر ممن تثق به، وأخبَرَك بما أخبَرَك به الأول، فإن هذا العلم يزداد، مع أن العلم حصَلَ من أول مرَّة، فإذا صادَفْتَ العشرات، وأخبروك أن فلانًا قد قَدِمَ من السفر، صار ذلك راسخًا عندك، ولا يقبل التشكيك بحال من الأحوال.

وأما خبَرُ المخبِرِ الأول ـ مع أنه ثقة ـ فإنه قد يَقبَلُ التشكيك؛ إذْ لو جاءك إنسان آخر، وأخبَرَك بضد خبره، فإن ذلك يزعزع ما تقرَّر لديك، بخلاف ما لو وصَلَ هذا العلم في قلبك إلى مرتبة اليقين، فإنه حينئذٍ لا يقبل التشكيك؛ فهذا فرقُ ما بين العلم واليقين؛ فيما ذكر بعضهم.

والمقصود: أن العلم على دَرَجات؛ فمِن أعلى درجات العلم، وأكمَلِها، وأرفعها، وأثبتها: درجة اليقين؛ فالعلم عند أهل السُّنَّة والجماعة يتفاوَتُ، كما أنَّ الإيمانَ يتفاوَت.

ثانيًا: الفرق بين اليقين والتصديق:

لا يخفى أن بين التصديق واليقين تقارُبًا في المعنى؛ ولذا فإنَّ اليقين قد يفسَّرُ

(١) انظر: «بصائر ذوي التمييز» (٥/ ٣٩٧).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٨).

بالتصديق؛ كما ثبَتَ ذلك عن النبي ﷺ حينما سُئِلَ عن الإيمان، ففسَّره بالإخلاص، وسُئِلَ عن اليقين، ففسَّره بالتصديق(١).

وقد ذكر بعض العلماء: أن التصديق في حقيقته مبنيٌّ على معلوم الإنسان؛ سواءٌ أكان هذا المعلوم من قَبِيل الحق أم من قبيل الباطل، إلا أن الفرق بينه وبين اليقين: أن التصديق أمر اختياري، واليقين أمر اضطراريٌّ يُوجَد في نَفْس الإنسان إذا وُجِدَ مُوجِبُهُ من غير اختيار؛ كالشِّبَع والرِّيّ، ونحو ذلك.

فإذا حصَلَتْ مُوجباته، فإنه يوجد في القلب، ويرسُخُ فيه، ويثبُتُ من غير اختيار؛ ولهذا فإن الكفار، بل عتاة الكافرين - مع تمرُّدهم وعتوِّهم على الله ﷻ وعلى رسله - كانوا مُوقِنين بصِدْقِ ما أخبَرَتْ به الرسل؛ قال الله ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]؛ جحدوا بها وكذَّبوا بألسنتهم ظلمًا وعلوًّا، مع وجود اليقين في نفوسهم.

فالتصديق: أمر اختياري باعتبار أن الإنسان يُقِرُّ به، ويُظهِره، فيصدِّق؛ فيكون مؤمنًا، وقد لا يصدِّق، فيَجحَدُ؛ فيكون كافرًا.

فمن جئتَ له بالأدلة المتنوِّعة المختلفة لتقرِّره بأمر من الأمور، وبيَّنْتَ له الحق بيانًا واضحًا لا لبس فيه، ولم يكن له حجة أصلًا: فإنه بذلك قد يحصُلُ له اليقين، ومع ذلك قد لا يصدِّقُكَ، ويُعلِن تكذيبك.

ثالثًا: الفرق بين اليقين والثقة(٢):

الثقة في حقيقتها: هي أمنُ العبد مِن فَوْت المقدور، وانتقاض المسطور، فيَظفَرُ برَوْحِ الرضا، وإلا فبعين اليقين، فإنْ لم فبلُطْفِ الصبر.

قال ابن القيِّم: «وذلك أن مَن تحقَّق بمعرفة الله، وأن ما قضاه الله، فلا مَرَدَّ له البتة، أَمِنَ من فَوْت نصيبه الذي قسَمَهُ الله له، وأَمِنَ أيضًا من نقصان ما كتبه الله له، وسطَّره في الكتاب المسطور، فيَظفَرُ برَوْحِ الرضا؛ أي: براحته ولذَّته ونعيمه؛ لأن

(١) أخرجه ابن بُشْران في «أماليه» (١٢٦٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٤٤٢)، عن أبي فِرَاس؛ رجل مِن أسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَلُوني عمَّا شِئْتُم**»، فنادى رجل: يا رسولَ اللهِ، ما الإسلام؟ قال: «**إقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة**»، قال: فما الإيمان؟ قال: «**الإخلاص**»، قال: فما اليَقِين؟ قال: «**التصديقُ بالقيامة**».
وأعلَّه المنذري بالإرسال في «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٤٣).

صاحب الرضا في راحة ولذَّة وسرور. . .»، إلى أن قال: «فإنْ لم يقدر العبد على رَوْح الرضا، ظَفِرَ بعين اليقين، وهو قوة الإيمان ومباشَرَتُه للقلب، فإنْ لم يحصُلْ له هذا المقام، حصَلَ على لطف الصبر، وما فيه من حُسْن العاقبة»[(١)].

وخلاصة ذلك: أن يقال: الفرق بين الثقة واليقين: أن اليقين إذا وُجِدَ في القلب، وُجِدَتِ الثقة فيه؛ كأنها ثمرته، فإذا تيقَّن العبد أن هذه الشريعة من عند الله ﷻ، فإنه يطمئِنُّ إلى أحكامها، وأنه لا حَيْف فيها، ولا نقص ولا هَضْم لحق أحد، وإذا تيقَّنت المرأة ذلك أيضًا، علمتْ أن إعطاءها نصف الميراث هو الحق، وأنه كمال العدل والإنصاف، وأنه لا ظلم فيه ولا شَطَط.

وكذلك أيضًا: إذا وُجِدَ اليقين في قلب العبد، وُجِدَتِ الثقة في قلبه في أحكام الله ﷻ الكونيَّة والقدريَّة؛ فيَعلَمُ أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، له الحُكْمُ في الأولى والآخرة، لا يخرُجُ شيء عن تقديره وحِكْمته وعدله، بيده الخَلْق والأمر، وهو الحَكَمُ العَدْل السميع البصير.

وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ، اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا**»[(٢)].

وروى ابن أبي الدنيا، عن قيس بن مسلم؛ قال: كان عطاءٌ الخُرَاسانيُّ لا يقومُ مِن مَجلِسه، حتى يقول: «اللَّهُمَّ، هَبْ لنا يقينًا بك حتى تهوِّن علينا مصيباتِ الدنيا، وحتى نَعلَمَ أنه لا يُصِيبُنا إلا ما كُتِبَ لنا، ولا يأتينا مِن هذا الرزق إلا ما قَسَمْتَ به»[(٣)].



(١) المصدر السابق (٢/ ١٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)؛ واللفظ له، وقال: «حديث حسن غريب»، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٦١)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ وحسَّنه ابن القطَّان في «بيان الوهم والإيهام» (٤/ ٦٥٧)، والمناوي في «فيض القدير» (٢/ ١٣٢)، والألباني في «صحيح الترمذي» (٣٥٠٢)، و«صحيح الجامع» (١٢٦٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٢١).

أهميَّةُ اليقين ومنزلتُه

اليقينُ من الإيمان بمنزلة الرُّوح من الجسد، وبه تفاضَلَ العارفون، وفيه تنافَسَ المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون، وقد خَصَّ الله سبحانه أهله بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخصَّ أهلَ اليقين بالهدى والفلاح مِن بين العالمين؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٤ ـ ٥].

وأخبر عن أهل النار: أنَّهم لم يكونوا من أهل اليقين؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣٢].

فاليقين رُوحُ أعمال القلوب، وهو حقيقة الصِّدِّيقِيَّة، وهو قُطْب هذا الشأن الذي عليه مداره(١).

وقد جاء عن بعض السلف: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»(٢).

وهذا صحيح؛ فإن العبد قد يصبر، ولكنَّ قلبه يتحرَّك بالخواطر والإرادات، وتَرِدُ عليه أنواع الواردات، فهو يَمُوجُ بصاحبه، إلا أنَّ صاحبه يتحمَّل ويصبر، ويثبِّتُ نفسه مع مقاساته لألم المصيبة.

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٧).
(٢) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢٠٣)، وعنه البيهقي في «الشعب» (٤٧)، وذكره البخاري معلَّقًا (١/ ١٠)، عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفًا، وعلَّقه البيهقي في «الآداب» (١٠٨٦)، ووصله الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٠٤/ ٨٥٤٤)، وصحَّح وَقْفَهُ البيهقي، والمنذري في «الترغيب» (٤/ ٢٧٧)، وابن حجر في «الفتح» (١/ ٦٣)، والألباني في «الضعيفة» (١/ ٧١٥). وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٨)؛ وعنه البيهقي في «الشعب» (٤١٣٤)، عن المُغِيرة بن عامر. وقد رُوِيَ مرفوعًا عن عبد الله بن مسعود ﷺ؛ أخرجه تمام في «فوائده» (١٠٣٨)، وابن الأعرابي في «معجمه» (٥٩٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٤)، وغيرهم. وقد حكَمَ بنَكَارَتِهِ أبو علي النيسابوري ـ كما في «اللسان» (٥/ ١٥٢) ـ والذهبي في «الميزان» (٣/ ٥٣٤)، والألباني في «الضعيفة» (٤٩٩)، وضعَّفه ابن الجوزي في «العلل» (١٣٦٤)، وابن حجر في «الفتح» (١/ ٦٣)، وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ١٨١).

وأمَّا صاحب اليقين، فإنه في مرتبة فوق ذلك، فهو يَعُدُّ البلاء نعمة أصلًا، ويَفرَحُ بالبلاء إن وقَعَ كما يفرح غيره بالعافية، ويَركَنُ إلى الله ﷻ، ويطمئِنُّ قلبه؛ فكان اليقين بهذا الإيمانَ كلَّه، وهو فوق الصبر.

قال ابن القيِّم: «اليقين والمحبَّة هما ركنا الإيمان، وعليهما ينبني، وبهما قِوَامُه، وهما يَمُدَّانِ سائر الأعمال القلبيَّة والبدنيَّة، وعنهما تصدُرُ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوَّتهما قوَّتها، وجميع منازل السائرين إنما تُفتَحُ بهما، وهما يُثمِرانِ كلَّ عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم»[(١)]؛ **ولهذا قال أبو بكر الورَّاق**: «اليقين مِلَاك القلب، وبه كمال الإيمان، وباليقين عُرِفَ الله، وبالعقل عُقِلَ عن الله»[(٢)].

وقال الحسن: «باليقين طُلِبَتِ الجنَّة، وباليقين هُرِبَ من النار، وباليقين أُدِّيَتِ الفرائض، وباليقين صُبِرَ على الحق»[(٣)].



(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٧٧).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٩).

(٣) أخرجه ابن المبارك (٥٥٨)، والإمام أحمد (١٦١٧)؛ واللفظ له؛ كلاهما في «الزهد»، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٣).

اليقين في الكتاب والسُّنَّة

قد ذكر الله تعالى اليقين في كتابه العزيز في مواضع متعدِّدة:

فتارَةً: يذكره صفة لأهل الإيمان؛ كقوله: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: ٤].

وتارَةً: يذكُرُ أن أصحابه هم المنتفِعون بالقرآن؛ كما في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾ [الجاثية: ٢٠].

وتارَةً: يذكره حكمةً ربانيَّةً، ومرتبةً عليَّةً يبلُغُها من يصطفي من عباده؛ فيقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥].

وتارَةً: يذكُرُ تصريفه للأمور، وتفصيله للآيات؛ لغاية اليقين بالغيبيَّات؛ كما في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد: ٢].

وتارَةً: يذكره ثاني اثنَيْنِ تُنالُ بهما الإمامة في الدين؛ كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر واليقين، بهما تُنَالُ الإمامة في الدِّين»[(١)].

وتارَةً: يَذُمُّ من لا يقين عنده؛ كقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ [النمل: ٨٢]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم: ٦٠].

وجاء عن النبي ﷺ عدة أحاديث صحيحة، يبيِّن فيها فضل اليقين ومنزلته وشرفه؛ كقوله ﷺ لأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ؛ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الحَائِطِ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**»[(٢)]، وسمع النبي ﷺ بِلَالًا ينادي بالصلاة، فلمَّا سكَتَ، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ مِثْلَ هَذَا يَقِينًا، دَخَلَ الجَنَّةَ**»[(٣)]؛ فدَلَّ ذلك على أن اليقين سببٌ لدخول الجنة.

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٣١)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه النسائي (٦٧٤)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الحاكم (١/ ٢٠٤)، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٤٦)، و«صحيح الموارد» (٢٥٣)، وغيرهما.

وعن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه؛ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على المِنْبَرِ، ثم بكى، فقال: «**اسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ والْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ**»[1].

والأحاديث في هذا كثيرة، وتتبُّعها أمر يطول، وحَسْبُكَ مِن القلادة ما أحاط بالعُنُق.



(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٨)؛ واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٤٩)، وصحَّحه ابن حبان (٩٥٢)، والحاكم (٧١١)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٣/ ١٧٦).

مراتب اليقين[1]

لما كان العلم على مَرَاتِبَ ودَرَجات، وكان اليقين درجةً من درجاته، شابهه في هذه الصفة، فكان على **ثلاث مراتب**: **أدناها**: مرتبة «عِلْم اليقين»، **وتليها**: مرتبة «عَيْن اليقين»، وأعلاها: مرتبة «حَقِّ اليقين»، وقد ذكر الله ﷻ مرتبتَيْنِ من مراتبه في قوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧]، وذكر المرتبة الثالثة في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة: ٩٥].

فعلم اليقين: هو التصديق الكامل الجازم، الذي لا تردُّد فيه؛ بحيث لا يَعرِضُ له شكٌّ، ولا شُبْهة، ولا ريبٌ؛ بحالٍ من الأحوال، فينكشِفُ بذلك المعلومُ للقلب، فيصير بمنزلة المشاهَدِ له، فلا يَشُكُّ فيه كما لا يشكُّ الرائي بعينه فيما يراه ويشاهده، فيكون علم اليقين بالنسبة للقلب؛ كالمرئي بالعين بالنسبة للبصر؛ وذلك كعلمنا بالجنة، بوجودها ونعيمها؛ كما أخبرنا الله ﷻ، فنَعلَمُ أنها دار المتقين، وأنها مَقَرُّ المؤمنين؛ فهذه مرتبة علم اليقين.

ثم إذا كان اليوم الآخر، ورأينا الجَنَّةَ بأعيننا، **فإن هذه المرتبة هي مرتبة عَيْنِ اليقين**، والفرق بين هذه المرتبة والتي قبلها هو كالفرق بين العلم والمشاهَدة.

وقد جاء عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ؛ إِنَّ اللهَ ﷻ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَى الأَلْوَاحَ، فَانْكَسَرَتْ**»[2].

وهذه المرتبة ـ مرتبة عين اليقين ـ: هي التي سألها إبراهيم ﷺ ربَّه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ فإبراهيم ﷺ كان كامل الإيمان، راسخ اليقين، لا تردُّد عنده ولا اشتباه ولا ريب، ولكنه أراد أن يَنتقِل من مرتبة من مراتب

---

(١) انظر: «التبيان، في أقسام القرآن» (ص٢٨٤ ـ ٢٨٦)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١)؛ واللفظ له، وصحَّحه ابن حبان (٦٢١٣)، والحاكم (٢/ ٣٢١)، والذهبي، والزركشي في «المعتبر» (١٩٠)، و«اللآلي المنثورة» (٣٨)، والشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «المسنَد» (٣/ ٢٥٤) و(٤/ ١٤٧)، والألباني في «صحيح الموارد» (١٧٥١)، وحسَّنه الحافظ ابن حجر في «موافقة الخُبْر الخَبَر» (٢/ ١٣٨). وانظر: «المقاصد» (٩١٥).

الكمال؛ وهي مرتبة علم اليقين، إلى مرتبة أعلى منها؛ وهي مرتبة عَيْن اليقين؛ فيرى ذلك بأُمِّ عينه، وقد سمى النبي ﷺ المسافة التي بين علم اليقين وعين اليقين: «شَكًّا»، فقال ﷺ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ**»(١).

وأما المرتبة الثالثة، **فهي مرتبة حَقِّ اليقين**؛ وهي مباشَرةُ الشيء بالإحساس فعلًا، فإذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، كانوا بذلك قد بلغوا هذه المرتبة، وهكذا حينما يُخبِرُكَ مخبِرٌ أن لديه عسلًا، وتثق بخبره، فإنك تكون في هذه الحال متيقِّنًا بهذا الخبر، فإذا أحضَرَهُ أمامك، فإنَّ ذلك يكون عين اليقين، وهذه مرتبة أعلى؛ لأنه اجتمَعَ فيها العلم والمشاهدة، فإذا ذُقْتَهُ، فهذه هي مرتبة حق اليقين.

وهكذا إذا أخبَرَكَ مخبِرٌ بأن في هذا الوادي ماءً، فإن كان ثِقَةً، حصَلَ بخبره علم اليقين، فإذا شاهدتَّ الماء، كان ذلك عين اليقين، فإذا بلَغْتَ الماء، واغترَفْتَ منه، وشربت، أو اغتسَلْتَ، فإن ذلك يكون حق اليقين(٢).



---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢، ٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٤٥ ـ ٦٤٧)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٠٣)، و«التبيان، في أقسام القرآن» (ص٢٨٦)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٦٣).

مراتب الناس في اليقين[١]

وإذا كان اليقين يتفاوَتُ في نفسه، فإنَّ هذا أيضًا يقتضي أن أهله يتفاوتون فيه:

فمنهم: مَن يكتمل يقينه، ويصير المعلوم بالنسبة إلى قلبه كالمُشاهَد الذي يشاهده بعينه سواءً بسواء.

ومنهم: مَن يصل إلى منزلة اليقين، ولكنه لا يبلُغُ هذه المرتبة.

ومِن ثَمَّ فإن الناس يتفاوتون بسبب ذلك في علمهم وجِدِّهم، وهمَّتهم ونشاطهم، وسعيهم للدار الآخرة، والعمل في مرضاة الله تبارك وتعالى؛ فعِلْمُ اليقين على مراتب:

تارَةً: يعلم العبد الحقيقة علمًا جازمًا لثقته بالمخبِر.

وتارَةً: يعلم صدقه، ويتيقَّنه، وتقوم الدلائل في قلبه عليه حتى يصير ذلك كالمُشاهَد لديه؛ وهذه مرتبة أعلى.

ومِن أهل العلم: مَن يقول: إن عَيْنَ اليقين أيضًا **نوعان**:

النوع الأول: **يحصُلُ لقلب المؤمن في الحياة الدنيا**؛ وهذا إذا ارتقى إيمان العبد، ورسَخَ اليقين في قلبه واستقَرَّ، وصار كأن حقائق الآخرة ماثلة بين عينَيْه؛ كأنه يشاهد عرش الرحمٰن، تَحُفُّ به الملائكة، وكأنه يرى الجنة والنار.

والنوع الثاني: **في الآخرة**: وذلك بمشاهَدَتِها بالعَيْنِ الباصِرة.

فما أخبَرَتْ به الرسل من الغيب يعايَنُ في الآخرة بالأبصار، وفي الدنيا بالبصائر؛ فهو عين يقين في المرتبتَيْن.

وكثير ممن يَنتسِبُ إلى الإسلام، ويصدِّق الرسول ﷺ بما جاء به، لا يَصِلُ به ذلك إلى درجة اليقين الكامل في القلب، وإنما يكون ذلك معلومًا له في الجملة، مع تعرُّضه ـ لعدم رسوخه ـ للشبهات والشكوك؛ فهم يؤمنون بالرسول ﷺ إيمانًا مجمَلًا؛ فهذا الإيمان يكفيهم وينجِّيهم عند الله ﷻ، ولكنه لا يصل بهم إلى درجة لا تقبل التشكيك؛ ولهذا قال بعضهم: «حظُّ الخَلْق من اليقين على قَدْرِ حَظِّهم من الرضا، وحظُّهم من الرِّضَا على قدر رغبتهم في الله»[٢].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٧٠)، و«الفوائد» (ص٥).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٢)؛ ونسبه لسهل التستري.

والناس يتفاوتون في هذا:

فمِن الناس: مَن إذا تتابَعَتْ عليه النعم، واسترسَلَ عليه عطاء الله ﷻ مما يُحِبّ، فإنه يرضى ويطمئِنُّ ويسكُنُ إلى ذلك، وإذا أصابته البلايا والمحن، وفُتِنَ، تزعزع وتضعضع، ولربما نكَصَ على عقبيه؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج: ١١].

وقد قال بعضهم: «أنفَعُ اليقين ما عظَّم في عَيْنِك ما به قد أيقَنْتَ، وصغَّر في عينك ما دون ذلك»(١).



(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٨٢).

اختبار اليقين

إن جَرَيان الأقدار على قلوب المؤمنين بداعية التمحيص لَمِنْ موفور الدلائل المتكاثِرة والأسباب المتوافِرة على حال تلك القلوب.

وللقلوب عمومًا مواقِفُ إذا تعرَّضت لها، تبيَّن بها حالها، فعُرِفَ بها المذبذبون والمستيقِنون؛ **فمن تلك المواقف:**

الموقف الأول: موقف التوبة:

فالعبد الذي قد كَمُلَ اليقين في قلبه، لا يتردَّد إذا وقع منه تقصير أو ذنب في المبادرة إلى التوبة، والرجوع إلى الله ﷻ، والإنابة إليه؛ لأنه يَعلَمُ أنه سيأتي عليه يوم يحاسَبُ فيه على القليل والكثير، والدقيق والجليل، وسيؤاخذ بجُرْمه؛ فلا تردُّد عنده في التوبة.

وأمَّا مَن ضَعُفَ يقينه: فإنه يحتاج إلى تحريك القلب بالوعظ والتذكير؛ لِيَرِقَّ وتزول عنه تلك الغشاوة والغفلة؛ فيلين للتوبة، وربما احتاج صاحبه إلى نَوْعِ مداراة وطولِ صُحْبة، فقد تؤثِّر فيه الذكرى، فيَعِدُ بالتوبة، ثم يتراجع لأنسه بالعهد الأول، وخوفه من فَقْدِ الأصحاب أو الوظيفة أو المركز، ثم يبقى متردِّدًا متذبذبًا يقدِّمُ رِجْلًا، ويؤخِّرُ أخرى، وما ذلك إلَّا لضعف يقينه.

ولو اكتمَلَ اليقين عند العبد، فإنه لا يبالي بشيء، وإنما هِمَّتُهُ وطَلِبَتُهُ رضا الله ﷻ؛ فلا يحتاج إلى إقناع، ولا إلى كثير ملاطَفة حتى يلين.

وأما الآخر: فيحتاج إلى إقناع بتذكيره بما عند الله ﷻ في الدار الآخرة من النعيم، وأنَّ مَن تركَ شيئًا لله، عوَّضه الله خيرًا منه؛ فحاله كحالِ مُسْتَغْن، وكأنَّ الله ﷻ هو المحتاج إليه، وكأنه يُدِلُّ على ربِّه تبارك وتعالى بتوبته واستقامته، وتركِهِ لهذه الذنوب والمعاصي التي فارقها!

وإلا فلماذا نتردَّد في التوبة إلى الله ﷻ والأَوْبة إليه؟! ولماذا يحتاج بعضنا إلى كثير من الملاطفة والمداراة؟! ولربما احتاج إلى شيء من المال من أجل أن يُتألَّفَ على الإيمان! إنما ذلك لقلة يقينه؛ ولهذا كان النبي ﷺ يُعطِي أقوامًا ويترك آخرين، وحينما يكلَّم في ذلك، فإنه يجيب بأنه يَكِلُ أقوامًا إلى إيمانهم، وأنه يُعطِي الرجلَ وغيرُهُ أَحَبُّ

إليه منه[(١)]؛ فمثل هؤلاء إنما أعطاهم لضعف يقينهم، وعدم رسوخ إيمانهم في قلوبهم؛ فالأولون: لا يُعطَوْنَ، ويُوكَلُونَ إلى إيمانهم، والآخَرُون: تؤلَّف قلوبهم بإعطائهم؛ فإذا المنعُ جزاء الرَّاسِخين، وإذا العطاءُ جزاء المتردِّدين، وإنما أَغْنَتْهم قناعة إيمانهم، فمُنِعُوا عن عطية سُفْلِيَّة، ووُعِدُوا بالأَكْرَم لهم والأشرف؛ فإنه من يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، ومن يستَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ. وأما الآخَرون: فمحتاجون؛ لأن إيمانهم لم يسعفهم بالغَنَاء، وأحوَجَهُمْ ضعفُه إلى هذا العطاء.

فهذه حقيقةٌ يحتاج الإنسان أن يتأمَّلها مع نفسه، ومع غيره.

هذا الموقف الأوَّل الذي يُختبَرَ فيه اليقين.

الموقف الثاني: موقف المصيبة:

فكثير من الناس يُحسِنُ الكلام عن الصبر والثبات والإيمان، وعن الجزاء الذي يعطيه الله ﷻ للصابرين في الدار الآخرة، وما أعَدَّ لهم من النعيم المقيم، ولكنه إذا وقَعَتْ به المصيبة، اضطرَبَ قلبه، وجَزِعَ، ولم يثبُتْ، ولم يَصبِرْ، وإذا به متسخِّطٌ على ربه تبارك وتعالى، مُعرِضٌ عن الرضا بقضائه، معترِضٌ على أقداره، متناسيًا قول الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

أمَّا من كان متحقِّقًا باليقين، فإنه عند المصيبة رابِطُ الجأش، ثابت، صابر، حابس لسانَهُ عن التسخُّط، وجوارحَهُ عن فعل ما لا يليق؛ مِن شق جَيْبٍ، أو لطم خدٍّ، أو نحو ذلك مما يفعله مَن لا يقين عنده.

فهذه أمور قد لا تتبيَّن في حال الرخاء، وإنما تتبيَّن في حال الشدة والمصائب، ولربما ابتُلِيَ العبد المؤمن، فسَخِطَ على ربه؛ أن ابتلاه بهذا البلاء، والله ﷻ إنما ابتلاه لِيُمَحِّصَهُ ويرفعه من درجة إلى درجة، وليبلُغَ بهذا البلاء منازل عند الله ﷻ في الجنة ما كان لِيَبلُغَها بعمله.

الموقف الثالث: حال الحاجة:

إذا احتاج العبد وافتقَرَ إلى المخلوقين في أمور دنياه:

فإنْ كان قلبه يَلتفِتُ ويتطلَّع إليهم، ويتعلَّق بهم لينال ما عندهم، فإنَّ قلبه لم يتحقَّق باليقين بَعْدُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٢٣)؛ من حديث عمرو بن تغلب رضي الله عنه، ومسلم (١٥٠)؛ من حديث سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه.

وأما إذا كان قلبه متوجِّهًا إلى الله وحده لا شريك له، لا يلتفِتُ إلى أحد من المخلوقين، ولا يتعلَّق بهم، فإن هذا هو اليقين الكامل.

الموقف الرابع: حال الغنى:

فمِن الناس مَن لا يشكُرُ إذا أغناه الله ﷻ، فيطغى ويكفُرُ، وينسى أن الله تعالى هو الذي أعطاه وأولاه، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منَعَ، وأن الكون ملكه بما فيه؛ فينسى هذا، ويقول: إنما أُوتِيتُهُ على علم عندي، إنما حصَّلته بجِدِّي واجتهادي وجهدي، وتحصيلي وذكائي وعلمي بوجوه المكاسب، وربما قال: حصَّلْتُهُ ووَرِثْتُهُ كابرًا عن كابر، إلى غير ذلك مما يكون فيه نسيان المُنعِم، والغَفْلة عن مقام استشعار إنعامه وإفضاله على العبد؛ فيكون بذلك كافرًا بنعمة ربِّه ﷻ.



الطريق إلى تحقيق اليقين، وكيفيَّةُ تحصيلِ أسبابه

وهو طريق السالكين إلى إيمانٍ لا شك فيه، وخوفٍ لا يأس معه، ورجاءٍ لا اغترار به.

فكيف نسمو بأنفسنا إلى اليقين؟! وكيف نربِّي أنفسنا عليه، ونرتقي بإيماننا إلى هذه المرتبة الشريفة، والمنزلة الرفيعة المُنِيفة؟!

أعظم ذلك: أن نعلم أن التوفيق والمواهب بيد الله ﷻ؛ فما على العبد إلَّا أن يلجأ إليه، وأن يصدُقَ في الإقبال عليه، فيسأل ربه قائمًا وقاعدًا أن يرزقه الإيمان الكامل، واليقين الجازم الراسخ الذي لا يتزعزع[(١)]، مع مَدِّ الأسباب الموصِّلة إلى هذه المرتبة؛ **ومن هذه الأسباب**:

١ ـ **العلم**؛ فهو أول دَرَجات اليقين، وكما قال بعض السلف: «العلم يَستعمِلُك، واليقين يَحمِلُك»[(٢)]؛ فيندفع العبد للعمل، ويبادِرُ إليه، ويُنفِقُ ماله الذي يَحرِص عليه؛ لأنه يتيقَّن بالجزاء، ويعلم أن من أعلى المراتب والمنازل عند الله ﷻ مرتبةَ الشهداء؛ فيبذُلُ نفسه رخيصة في سبيل الله تبارك وتعالى:

لَوْلَا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَّالُ[(٣)]

فالمال حبيب إلى النفوس، والنفوس عزيزة على أصحابها؛ فالعبد يَعلَمُ أن بذل المال سبيل إلى التقرُّب إلى الله ﷻ، وأن الله يربِّي الصدقة، ويعلم أيضًا: أن الشهيد يُغفَرُ له مع أول قَطْرة من دمه، ويشفَّع في سبعين من أهله، إلى غير ذلك من فضائله، ولكن العبد قد لا يُقدِمُ على العمل بمقتضى ما يعلمه؛ لأنه لم يصل إلى مرتبة اليقين.

وأما صاحب اليقين، فإنه يُحمَلُ على ذلك حَمْلًا، فلا يقف عند حد العلم، وإنما يحمله يقينه على الامتثال والإقدام والعمل، ولو كان في ذلك إزهاقُ رُوحِه، وإنفاقُ

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٢).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٧٨).
(٣) «ديوان المتنبِّي» (ص٥٣١)؛ مع «العَرْف الطيِّب».

ماله؛ فإنه مُوقِنٌ بأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجَنَّة، وأنه لا أحد أوفى بعهده من الله، وأنه سيلقى عائدةَ ذلك في يوم هو أحوج ما يكون إليه؛ ولهذا فإن العلم إذا رسَخَ، أثمَرَ اليقين الذي هو أعظَمُ حياة القلبِ، وبه طمأنينته وقوَّته ونشاطه[١].

وهذا العلم الذي يحتاج إليه العبد لِيَصِلَ إلى مرتبة اليقين، يشمل أنواعًا؛ **وهي العلمُ بالله، والعلمُ بالنفسِ، والعلم بالخلق**:

أَمَّا العِلْمُ بالله ﷻ: فيشمَلُ العلمَ بأنه المألوهُ المعبودُ وحده لا شريك له، وأنه لا يستحِقُّ العبادةَ أحدٌ سواه؛ فلا يلتفِتُ قلبه إلى أحد من الخلق، ولا يتعلَّق بهم.

ويشمل العلمُ بالله أيضًا: العلمَ بربوبيَّته ﷻ للكائنات، وأن أَزِمَّة أمورهم بيده، وأنه مدبِّر هذا الكون ومصرِّفه، وأن الخلق عبيده، يربِّيهم ويتصرَّفُ فيهم كيف شاء؛ إذا علم العبد ذلك، اطمأَنَّ إلى رزقه، واطمأَنَّ إلى أجله، واطمأَنَّ إلى أقداره، وإلى عطائه ومنعه؛ فلا يَعترِض على الله، وإنما يرضى؛ فإذا أصابته نعماء شكر، وإذا أصابته ضرَّاء صبر، مؤمِنٌ بربه، موقِنٌ بوعده ووعيده.

ويشمل العلمُ بالله أيضًا: العلمَ بأسمائه وصفاته؛ فيَعلَمُ أن الله ﷻ هو العظيم؛ فلا يعظُمُ أحد في عينه عظمةً لا تصلُحُ إلا لله، ويعلم أن الله تعالى هو الجبَّار القاهر القادر القوى المتين؛ فلا يهاب المخلوقين، وإنَّما يعظُمُ الخوف من الله ﷻ في نفسه، ويعلم أن الله هو الرقيب؛ فلا تمتد عينه ولا يده إلى حرام، ولا تخطو رجله إليه؛ لأن يقينه راسخ بأن الله يراه، وأن ما يخفى على المخلوقين لا يخفى عليه؛ فتسكُنُ جوارحه، وتلتزِمُ طاعةَ ربِّها ومليكها؛ فلا يصدُرُ منه شيء ينافي هذا الإيمان وهذا اليقين الذي وقَرَ في قلبه بمعرفته بأوصاف الله ﷻ الكاملة، وإذا عرَفَ ربه قويًّا عزيزًا، عرَفَهُ قادرًا على أن يمنع عنه المخاوف، قادرًا على حفظه؛ فهو يلجأ إلى ركن شديد؛ فيفوِّض أموره إليه، ويُحسِن التوكُّل عليه.

فإذا عرَفَ العبد ربه معرفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته، فإن قلبه ينشرح بذلك، ويطمئِنُّ إلى ربه المتصف بصفات الكمال، ويُحسِنُ الإقبال عليه بتمام الافتقار والحاجة إليه؛ فيجد من ربه الإغناء والعطاء، والدفع والمنع، ويجد كل مطلوب له.

وإذا عرَفَ العبد هذه الحقائق، فإنه يرضى بالله ﷻ ربًّا، ويذوق حلاوة الإيمان بهذا الرضا: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا**...»[٢]، ويؤمن بقضاء الله وقدره، فتمر به

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣٤)؛ من حديث العبَّاس رضي الله عنه.

الآلام والمصائب والمكاره وهو ساكن مطمئِنّ، لا يتزعزع، ولا يصدُرُ منه ما يصدر من السفهاء الذين لم يَعرِفُوا الله ﷻ حق معرفته.

وهذا العلم الذي يوصِّل العبد إلى اليقين ـ كما أنه علم بالربِّ المعبود ـ فإنه يشمل أيضًا العلم بالنَّفْس والعلمَ بالخَلْق: فيعلم قدر نفسه وضعفه وعجزه؛ فلا يَركَنُ إلى نفسه، ولا إلى أحد من المخلوقين؛ لعلمه أنهم مربوبون، وأن الله ﷻ يصرِّفُهم ويدبِّرُهم، وأنه بيده ملكوت كل شيء؛ ومِن ثَمَّ فلا يمتد طمعه إلى أحد غير الله ﷻ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: «إذا أردتَّ اليقين، فكن أفقَرَ الخلق إلى الله».

وعلى كلِّ حال: إذا أردتَّ أن تكون متحقِّقًا باليقين، وأن تَعرِفَ ذلك من نفسك، فلا تُمْسِ ولا تُصبِحْ وأحدٌ أحبُّ إليك من الله، ولا أخوَفُ منه عندك، ولا أرجى ولا أقدَرُ على العطاء والمنع منه سبحانه؛ فلا يتعلَّق قلبك بشيء سواه؛ محبةً وخوفًا، ورجاءً وطمعًا، فلا يَشغَلْكَ حبٌّ عن حبه، ولا خوفٌ من أحد عن الخوف منه، ولا رجاءٌ في مِنَّةٍ أو منحة عن الرجاء لوجهه الكريم؛ فبذلك يَرسُخُ الإيمان بقلبك، ويستقِرُّ اليقين فيه.

قال شَقِيق بن إبراهيم البَلْخي: «مَن أراد أن يَعرِفَ معرفَتَهُ بالله، فلينظُرْ إلى ما وعده اللهُ ووعده الناسُ؛ بأيهما قلبُهُ أوثق؟!»[(١)].

٢ ـ دفع الواردات والخواطر وغير ذلك من الأمور المنافية لليقين؛ ومِن ثَمَّ كان جهاد الشيطان على **مرتبتَيْن**:

المرتبة الأولى: جهاده فيما يُلقِيهِ مِن الشبهات والوساوس، والخواطر المزعزِعة لليقين؛ وهذا لا يَسلَمُ منه العبد إلا إذا دفَعَه، وجاهد شيطانه بدفع هذه الخواطر والوساوس والشُّبَه؛ فلا يقرأ في كتب الشُبَه، ولا يجادِلُ أهلها، ولا يسمع منهم، ولا يجعَلُ قلبه عُرْضةً لكلِّ آسرٍ وكاسرٍ، وقاطع طريق، بل يَرْبَأُ بنفسه عن طَرْقِ منتَدَيات شبكة الإنترنت ومواقع تواصُلِها الاجتماعي التي تُلقِي بشِبَاك الشُّبَه على العقول مِن قِبَل أهل الضلالة؛ فلا يجعل قلبه عُرْضةً لسهام هؤلاء؛ فيصيبه منها ما لا يسلم منه أبدًا.

ولذلك؛ فإنَّ مِن الأمور المهمَّة التي تُعِين العبد على الوصول إلى مرتبة اليقين: أن يدفع الخواطر والوساوس، ويقضي على أسباب الشكوك والشبهات؛ فإذا دفَعَ العبد ذلك عن قلبه، أورثه ذلك الدفعُ يقينًا صادقًا يجده من نفسه.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٦٤).

المرتبة الثانية: جهاده فيما يُلقِيهِ من الشهوات؛ فإنه إذا جاهد الشيطانَ في باب الشهوات، أورَثَهُ ذلك صبرًا؛ كما قال ابن القيِّم[١]؛ ولهذا كانت الإمامة في الدين تُنَالُ بالصبر واليقين؛ فالصبر يدفَعُ الشهواتِ والإرادات الفاسدة، واليقين يدفَعُ الشكوكَ والشبهات.

٣ ـ **العزم الجازم على العمل بمرضاة الله ﷻ**؛ فيُقدِمُ العبد على ذلك من غير نظرٍ في الحسابات[٢]؛ بخلاف مَن يُحجِمُ عن عمل الصالحات مِن توبة وصَدَقة وصوم لأجلِ أنْ حسَبَ الأرباح والخسائر؛ فإنه تنقضي أيامه، ولم يتقرَّب إلى الله ﷻ كثيرًا؛ فالعبد بحاجة إلى الإقدام والجزم؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: «الاهتمام بالعمل يُورِثُ الفكرة، والفكرة تُورِثُ العِبْرة، والعِبْرة تُورِثُ الحَزْم، والحزم يُورِثُ العَزْم، والعزم يُورِثُ اليقين، واليقين يُورِثُ الغنى، والغنى يُورِثُ الحبّ، والحب يُورِثُ اللِّقاء»[٣].

٤ ـ **مفارقة الشهوات والحظوظ النفسانية**؛ فإذا كان العبد منغمِسًا في شهواته، متَّبِعًا لنَزَواته، فأنَّى له باليقين؟!

يقول ابن القيِّم: «أصل التقوى مباينة النُّهَى، وهو مباينة النَّفْس؛ فعلى قدر مفارقتهم النفس وصَلُوا إلى اليقين»[٤].

٥ ـ **التفكُّر في الأدلَّة التي تُوصِلُ إلى اليقين**؛ فكلما توارَدَتِ البراهين المسموعة، والمعقولة، والمشاهَدة، على قلب العبد، كان ذلك زيادةً في يقينه وإيمانه؛ وهذا شيءٌ مشاهَد؛ فكثير من الأشياء التي في حياتنا والتي نعايشها، وكثير من الأمور التي شاهدناها، والتي لم نشاهدها: تيقَّناها، مع أن الله ﷻ قد أخرَجَنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا؛ فكيف حصَّلنا اليقين فيها؟

حصَّلنا هذا اليقين: إمَّا بالمشاهَدة بعد أن كان ذلك معلومًا، أو بالمشاهَدة ابتداءً، أو بتوارُد الأدلَّة؛ فنعلم أن هذا الأمر حق لا يقبل الجدل، وأنه شيء ثابت لا يقبل التشكيك، مع أنه قد يكون في نفسِه باطلًا، وقد يكون لا حقيقة له.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٠).

(٢) وهذا فيما كان فيه مصلَحة؛ بخلاف ما إذا تعارَضَتِ المصالح والمفاسد، أو تزاحَمَتِ المصالح أو المفاسد.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٢).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٩).

وعلى سبيل المثال: ما ذكرناه مِن قبلُ في مسألة العقل والقلب؛ فكثير من الناس عنده يقينٌ أن عقله في دماغه، مع أن الأدلة من الكتاب والسُّنَّة تدُلُّ على أن العقل في القلب، وإنما وُجِدَ هذا اليقين عند كثير من الناس بتوارُدِ ما توهَّموه أنه أدلَّة، حتى صار ذلك عندهم لا يقبل التشكيك؛ ولهذا تجد الواحد من هؤلاء يَعْجَب كل العجب، ويستنكِرُ سماع ما يخالِفُ هذه العقيدة التي رَسَخَتْ في نفسه.



ثَمَرات اليقين

متى غُرِسَتْ شجرة اليقين في القلب، آتت أُكُلَها كلَّ حِين بإذن ربها؛ فمِن ثمار اليقين:

١ ـ أنه إذا خالَطَ قلبَ الإنسان، أفاض على قلبه نورًا وإشراقًا:

ونفى عنه كِيرَ الشكوك والرَّيْب والشبهات التي تُقلِقُه؛ فيكون القلب مستريحًا مطمئنًّا، ويرتفع عنه السَّخَط والهم والغم الذي يجلبه الشك والريب؛ فيمتلئ قلبه محبَّةً لله، وخوفًا منه، ورضًا به، وشكرًا له، وتوكُّلًا عليه، وإنابةً إليه؛ فهو جِذْرُ جميع المقامات، والحامل عليها؛ كما قال ابن القيِّم[(١)]؛ بخلاف الريب والشك والتردُّد؛ فإنه يُورِثُ قلقًا في القلب، وضجرًا وألمًا؛ فالشك يُلْهِب في القلب حرارة، لا يطفئها إلا بَرْد اليقين؛ ولهذا يقال: «ثَلَجَ صَدْرُه، وحصَلَ له بَرْدُ اليقين»[(٢)]؛ فتزول عنه هذه الأمور التي تَعْصِر القلب وتؤلمه، وتَعصِف به.

يقول ابن القيِّم ـ وهو يصف أثر اليقين على القلب، وما يُفِيضُه على الجوارح، بعد أن رآه رأي عَيْن في شيخه ابن تيميَّة ـ: «وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة قدَّس الله رُوحَه يقول: إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها، لا يدخُلُ جنة الآخرة؛ وقال لي مرَّة: ما يَصنَعُ أعدائي بي؟! أنا جَنَّتي وبُسْتاني في صدري؛ أين رُحْتُ، فهي معي لا تُفارِقُني؛ إنَّ حبسي خَلْوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سِيَاحة.

وكان يقول في مَحبَسِهِ في القلعة: لو بَذَلْتُ لهم مِلْءَ هذه القلعة ذهبًا، ما عدَلَ عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزَيْتُهم على ما تسبَّبوا لي فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللَّهُمَّ، أَعِنِّي على ذِكْرِك وشُكْرِك وحُسْنِ عبادتك»؛ ما شاء الله.

وقال لي مرَّةً: المحبوسُ: مَن حُبِسَ قلبُهُ عن ربه تعالى، والمأسورُ: مَن أَسَرَهُ هواه.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٨).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٦١).

ولما دخل إلى القلعة، وصار داخل سُورِها، نظر إليه ـ أي: السُّور ـ وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣].

وعَلِمَ الله ما رأيتُ أحدًا أطيَبَ عيشًا منه قطُّ، مع ما كان فيه مِن ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدِّها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو ـ مع ذلك ـ مِن أطيب الناس عيشًا، وأشرَحِهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأَسَرِّهم نَفْسًا؛ تلوح نَضْرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتَدَّ بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه؛ فما هو إلا أن نراه ونَسمَعَ كلامه؛ فيذهب ذلك كلُّه، ويَنقلِبَ انشراحًا، وقوةً، ويقينًا، وطمأنينةً؛ فسبحان مَن أشهَدَ عباده جَنَّته قبل لقائه، وفتَحَ لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم مِن رَوْحِها، ونسيمها، وطِيبها ما استفرَغَ قواهم لطَلَبِها والمسابقة إليها»[(١)].

والمقصود: أن العبد إذا ارتقى إلى مرتبة اليقين، اندفَعَتْ عنه الشكوك والرِّيَب؛ ولهذا قال أحمد بن عاصم الأنطاكي: «يسيرُ اليقين يُخرِجُ كلَّ الشك من القلب»[(٢)].

وصح عن ابن مسعود رضي الله عنه **أنه قال**: «إن الرَّوْحَ والفَرَج في اليقين والرضا، وإن الغَمَّ والحَزَن من الشكِّ والسَّخَط»[(٣)].

كما أنه يُورِثُ صاحبه بصيرةً يفرِّق بها بين الحق وبين ما يلبِّسه الشيطان على الجُهَّال من العُبَّاد وغيرهم؛ فهذا أحمد بن نِزَار القَيْرَواني كان يختم كل ليلة في مسجده، فرأى ليلةً نُورًا قد خرَجَ من الحائط، وقال: تَمَلَّ من وجهي؛ فأنا ربُّك، فبصَقَ في وجهه، وقال: «اذهَبْ يا ملعون»، فطفئ النور[(٤)]؛ فهذا شيطان أراد أن يضلَّه، ولما كان راسخ الإيمان، ثابت اليقين لم يلتفت إليه، وإنما ازداد إيمانًا مع إيمانه.

وأمَّا مَن طبَعَ الله على قلبه، فلا أثر لليقين على قلبه، فسُدُفُ الريب والشبهات على قلبه مُرْخاة، وغِشَاوة الذنب على بصيرته مُلْقاة، وإنْ صَلُحَ ظاهرُه، وكَثُرَ ناصرُه.

وقد أورد ابن كَثِير في «تاريخه»، عن عبد الرحمٰن بن حسَّان؛ قال: «كان الحارث

---

(١) «الوابل الصيِّب» (ص١٠٩ ـ ١١٠).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤١٠)، وأخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٩٥).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٣٨)، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (٢٣)؛ واللفظ له.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٣٩٦)، و«معالم الإيمان» (٣/ ٤١).

الكذَّاب من أهل دمشق، وكان مولًى لأبي الجُلَاس، وكان له أبٌ بالحُوْلَة[1]، فعرَضَ له إبليس، وكان رجلًا متعبِّدًا زاهدًا، لو لَبِسَ جُبَّةً من ذَهَب، لَرُئِيَتْ عليه الزَّهَادة والعبادة، وكان إذا أخَذَ بالتحميد، لم يسمع السامعون مثل تحميده، ولا أحسَنَ من كلامه، فكتَبَ إلى أبيه وكان بالحُوْلَة: يا أبتاه! أَعْجِلْ عليَّ؛ فإني قد رأيت أشياء أتخوَّف أن يكون الشيطان قد عرَضَ لي، قال: فزاده أبوه غيًّا على غيِّه، فكتَبَ إليه أبوه: يا بُنَيَّ، أَقْبِلْ على ما أُمِرْتَ به؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢]، ولستَ بأفَّاك ولا أثيم؛ فامْضِ لما أُمِرْتَ به. وكان يجيء إلى أهل المسجد رجلًا رجلًا، فيذاكِرُهم أمره، ويأخذ عليهم العهد والميثاق إنْ هو يَرَى ما يَرْضَى؛ وإلا كتَمَ عليه.

قال: وكان يُرِيهم الأعاجيب؛ كان يأتي إلى رُخَامةٍ في المسجد، فينقُرُها بيده فتسبِّح تسبيحًا بليغًا، حتى يَضِجَّ من ذلك الحاضرون.

قلتُ: وقد سمعتُ شيخنا العلَّامة أبا العبَّاس ابن تيميَّة يقول: كان ينقُرُ هذه الرُّخَامةَ الحمراء التي في المقصورة، فتسبِّحُ، وكان زنديقًا.

قال ابن أبي خَيْثمة في روايته:

وكان الحارث يُطعِمُهم فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وكان يقول لهم: اخرُجوا أُرِيكُمُ الملائكة، فيخرُجُ بهم إلى دَيْرِ المُرَّان[2]، فيُرِيهم رجلًا على خَيْل؛ فيتبعه على ذلك بشرٌ كثير، وفشا أمره في المسجد، وكَثُرَ أصحابه وأتباعه، حتى وصَلَ الأمر إلى القاسم بن مُخَيمِرة، قال: فعرَضَ على القاسم أمره، وأخذ عليه العهد إنْ هو رضي أمرًا، قَبِلَهُ، وإنْ كرهه، كتَمَ عليه، قال: فقال له: إني نَبِيٌّ، فقال القاسم: كذَبْتَ يا عدوَّ الله! ما أنت بنبيّ، وفي رواية: ولكنَّك أحدُ الكذَّابين الدَّجَّالين الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ: «**إنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلاثُونَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ؛ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ**»[3]، وأنت أحدُهم، ولا عهد لك»[4].

---

(١) اسم لناحيتَيْن بالشام؛ **إحداهما**: من أعمال حمص، ثم من أعمال بَارِين بين حمص وطرابُلُس، **والأخرى**: كُورَة بين بانياس وصُور من أعمال دمشق ذات قرى كثيرة. «معجم البلدان» (٢/ ٣٢٣).

(٢) ماءان لغَطَفانَ عند جَبَل لهم أسود. المصدر السابق (٥/ ٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٠٩)، ومسلم (١٥٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ بلفظ: «**لا تَقُومُ الساعةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ؛ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ**».

(٤) «البداية والنهاية» (١٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٧).

٢ ـ أنه سبَبٌ في الهدى والفلاح في الدنيا والآخرة[1]:

الفلاحُ: تحصيلُ المطلوب، والنجاةُ من المرهوب؛ ولهذا قال الله ﷻ عن المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٤، ٥]، وقد جاء عن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه مرفوعًا: «**اسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ والْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ**»[2].

وفي ذلك يقول ابن القيِّم: «لا يتم صلاح العبد في الدارَيْنِ إلَّا باليقين والعافية؛ فاليقين يَدفَع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا من قلبه وبدنه»[3].

ويقول شيخ الإسلام ـ مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: ٥] ـ: «وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يُمزَجُ من شراب عباده المقرَّبين؛ لأنهم مزَجُوا أعمالهم، ويَشرَبُهُ المقرَّبون صِرْفًا خالصًا؛ كما أخلصوا أعمالهم، وجعل سبحانه شراب المقرَّبين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوَّة ما يناسب برد اليقين وقوَّته؛ لِمَا حصَلَ لقلوبهم، ووصَلَ إليها في الدنيا، مع ما في ذلك من مقابلته للسعير»[4].

فالجزاء مِن جنس العمل؛ فإنهم لما سلَكُوا في الدنيا مِرْقاة اليقين حتى وصلوه، وحصَلَ لهم بَرْدُه، حصَلَ لهم أيضًا بَرْدُ هذا الشراب من الكافور في الجنة.

٣ ـ أنه يُورِثُ القلب الزهد في الدنيا وقِصَر الأمل:

فلا تتعلَّق نفسه بها، وإنما يكون زاهدًا فيها؛ لأنه يَعلَم أنها ليست موطِنًا له، وإنما هي دار ابتلاء، وأنه فيها كالمسافر يحتاج إلى مثل زاد الراكب، ثم بعد ذلك يجتاز ويَعبُرُ إلى دار المقام؛ فهو بحاجة إلى أن يشمِّر إليها، وأن يَعمَلَ لها؛ ولهذا لما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**»، فقال عُمَيْر بن الْحُمَام الأنصاري: يا رسول الله، جَنَّةٍ عَرْضُها السمٰواتُ والأرضُ؟ قال: «**نَعَمْ**»، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ؟**»، قال: لا والله يا رسولَ الله، إلا رَجَاءَةَ أن أكونَ مِن أهلها، قال: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**»، فأخرَجَ تَمَراتٍ

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٧).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «زاد المعاد» (٤/ ١٩٧).
(٤) «جامع الرسائل» (١/ ٧٠).

من قَرَنِه، فجعَلَ يأكُلُ منهنَّ، ثم قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَراتي هذه، إنَّها لَحَيَاةٌ طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتَلَهُمْ، حتى قُتِلَ[(١)].

وقال بلال بن سعد: «عبادَ الرحمٰن، اعلموا أنكم تَعمَلون في أيام قصار لأيَّام طوال، في دار زوال لدار مقام، ودار حُزْن ونصب لدار نعيم وخُلْد، ومَن لم يَعمَلْ على اليقين، فلا يَتَعَنَّ»[(٢)].

وكان يقول: «كأنَّا قومٌ لا يعقلون، وكأنَّا قوم لا يُوقِنون»[(٣)].

وقد ذكر ابن القيِّم سبَبَ تشبُّث الإنسان بهذه الحياة الدنيا، فقال: «فما ضَعُفَ مَن ضَعُفَ، وتأخَّر من تأخَّر، إلا بحبِّه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونُفْرَته من ذمِّهم له، فإذا زَهِدَ في هذَيْنِ الشيئَيْن، تأخَّرت عنه العوارض كلُّها»[(٤)].

ولهذا؛ فإنه لا ينشغِلُ بالدنيا ويتكالَبُ عليها إلَّا مَن كانت الغفلة غالبة على قلبه[(٥)]، وكان اليقين مترحِّلًا عنه؛ قال الله ﷻ عن آل فرعون: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: ١٣٦]، ويقول النبي ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»[(٦)].

وما وُجِدَ هذا التكاثُرُ والإلهاء عما هو أَوْلى بالخَلْقِ منه من العمل للآخرة، والسعي لتحصيل دار الكَرَامة، إلا لاختلال اليقين في النفوس، «وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريَّات التي لا يُشَكُّ ولا يُمارَى في صحَّتها وثبوتها، ولو وصَلَتْ حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشَرَتْه، لما ألهاه عن مُوجَبِه، وترتَّب أثره عليه؛ فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين، كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشدَّ، فإذا صار له عين يقين كجملةِ المشاهَدات، كان تخلُّفُ مُوجَبِهِ عنه مِن أندر شيء؛ وفي هذا المعنى قال حسَّان رضي الله عنه فيمن قُتِلَ من أهل بدر من المشركين[(٧)]:

(١) أخرجه مسلم (١٩٠١)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين»؛ واللفظ له؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٤٩٣)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٣١).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٧)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٤٩٤)؛ واللفظ لهما، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٧٧).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٢).
(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥١٧ ـ ٥١٨).
(٦) أخرجه البخاري (٤٦٢١)؛ واللفظ له، ومسلم (٤٢٦)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.
(٧) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٦٤).

سِـرْنَـا وَسَـارُوا إلـى بَـدْرٍ لِـحَـتْـفِـهِـمُ   لَوْ يَعْلَمُونَ يَقِينَ الْعِلْمِ مَا سَارُوا»[١]

وعن سفيان بن عُيَيْنة؛ قال: دخل هشام بن عبد الملك الكعبة، فإذا بسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهم، فقال له: «يا سالم، سَلْني حاجةً»، فقال: «إني أستحيي من الله تبارك وتعالى أن أسأل في بيت الله غير الله»! فلما خرَجَ، خرَجَ في إِثْرِهِ، فقال له: «الآن قد خرَجْتَ، فسلني حاجةً»، فقال له سالم: «مِن حوائج الدنيا، أم من حوائج الآخرة؟»، فقال: «مِن حوائج الدنيا»، فقال له سالم: «والله، ما سألتُ الدنيا مَن يَملِكُها؛ فكيف أسأل الدنيا مَن لا يَملِكها؟!»[٢].

وقال بعضهم: «أَنفَعُ اليقين ما عظَّم الحقَّ في عينك، وصغَّر ما دونه عندك، وثبَّت الرجاء والخوف في قلبك»[٣].

٤ ـ أنَّه يُثمِرُ الانتفاع بالآيات والبراهين[٤]:

قال الله عز وجل: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٠].

يقول القرطبي: «والموقِنون: هم العارِفون المحقِّقون وحدانيَّةَ ربِّهم، وصِدْقَ نبوَّة نبيهم؛ خَصَّهم بالذكرِ لأنهم المنتفِعون بتلك الآيات وتدبُّرها»[٥]؛ فالآيات إنما تؤثِّر وتحرِّك نفوس أصحاب اليقين، أما أهل الغفلة، فإنهم لا ينتفِعون بها؛ ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

٥ ـ أنَّه يولِّد الصبر:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى: «لا يمكن العبدَ أن يَصبِرَ إنْ لم يكن له ما يطمئنُّ له، ويتنعَّم به، ويغتذي به؛ وهو اليقين»[٦].

فالعبد إذا كان فارغ القلب من اليقين، لم يَصبِرْ، وكان كالكيس الفارغ في مَهَابِّ القلق والجزع، ولكنه إذا كان لديه ما يطمئنُّ إليه، ويلتذُّ به، فإنه يَرْكَنُ، ويصبر، ويسكن؛ فلا يصدُرُ منه شيء يخالف مقتضى الصبر.

---

(١) ما بين علامتي التنصيص من كلام ابن القيِّم رحمه الله في: «عدة الصابرين» (ص٣٥٩).

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٨٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٠/ ٦٤).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٥٣٦)، ورَوَى نحوه ـ عن أحمد بن عاصم الأنطاكي ـ أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٨٢).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٧).

(٥) «تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٨٤).

(٦) «الاستقامة» (٢/ ٢٦١).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلى حسَب يقين العبد بالمشروع، يكون صبره على المقدور؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم: ٦٠]؛ فأمره أن يصبر ولا يتشبَّه بالذين لا يقين عندهم في عدَم الصبر؛ فإنهم لعدَم يقينهم، عُدِمَ صبرهم، وخَفُّوا واستخَفُّوا قومهم، ولو حصَلَ لهم اليقين والحق، لصبروا وما خَفُّوا ولا استخَفُّوا؛ فمَن قَلَّ يقينه، قلَّ صبره، ومن قلَّ صبره، خَفَّ واستخَفَّ؛ فالموقن الصابر رزين؛ لأنه ذو لُبٍّ وعقل، ومَن لا يقين له ولا صبر عنده، خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات؛ كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف»[(١)].

وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ**»[(٢)].

شَبَّهَهُم بالفراش لخفَّتها، وسرعة حركتها وانتشارها، وهي صغيرة جاهلة بمصالحها، تتهافت في النار؛ فيكون سببًا لإحراقها.

يقول ابن القيِّم: «ولهذا يقال لمن أطاع مَن يُغويه: إنه استخفَّه، وقال الله عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، والخفيف لا يثبُتُ، بل يطيش، وصاحب اليقين ثابت»[(٣)].

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لذَّة الآخرة أعظم وأدوم، ولذَّة الدنيا أصغر وأقصر، وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا، والمعوَّلُ في ذلك على الإيمان واليقين، فإذا قوي اليقين، وباشر القلب، آثر الأعلى على الأدنى في جانب اللذَّة، واحتمَلَ الألم الأسهل على الأصعب»[(٤)].

ولهذا قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: «تَرِدُ عليَّ الأثقال ـ يعني: من المصائب والآلام ـ ولو وُضِعَتْ على الجبال، تفسَّخَتْ، فأضع جنبي على الأرض، وأقول ـ مثبِّتًا لنفسه ـ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥، ٦]، ثم أرفع رأسي، وقد انفرَجَتْ عني»[(٥)].

والعبد يجب عليه أن يروِّض نفسه على الحد الأدنى وهو الصبر؛ لأنه ليس دون الصبر إلا الجَزَعُ والسَّخَط؛ فيذهب الأجر، ولا يُستَرَدُّ المفقود؛ فإنَّ ما ذهب لا

---

(١) «التبيان، في أقسام القرآن» (ص١٣٧ ـ ١٣٨)؛ بتصرف يسير.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٢٦)، ومسلم (٢٢٨٤)؛ واللفظ له؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٣) «الفوائد» (ص٢٣١)، ط. دار الحياة، وسقط من ط. دار عالم الفوائد، بتصرُّف.
(٤) المصدر السابق (ص٢٩١). (٥) «تاريخ الإسلام» (٣٩/٩٦).

يرجع، وما فات لا يعود، فليس للعبد إلا الصبر؛ ليُؤجَرَ على هذه المصيبة. وأما إذا تسخَّط، فإنه يأثم، ويفوته الأجر، ثم يسلو سُلُوَّ البهائم من غير احتساب.

ولهذا قال بعض خلفاء بني العبَّاس: «أَعْيَتِ الحِيلةُ في الأمر إذا أقبَلَ أن يُدبِر، وإذا أدبَرَ أن يُقبِل»[١]؛ يعني: ما قدَّره الله كائن لا محالة، ولا سبيل إلى دفعه؛ فعليك أن تستقبله بالرضا والتسليم.

٦ ـ الرضا بقضاء الله تعالى:

فـ: «اليقينُ: أفضل مواهب الربِّ لعبده، ولا تثبُتُ قدَمُ الرضا إلا على درجة اليقين؛ قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هو الذي إذا أصابته مصيبةٌ، رضي وعرَفَ أنها من الله»[٢]؛ فلهذا لم يحصُلْ له هداية القلب والرضا والتسليم إلا باليقين»[٣].

وقال ابن جَرِير في تفسير الآية: «يقول: ومَن يصدِّقْ بالله، فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾؛ يقول: يوفِّقِ الله قلبَهُ بالتسليم لأمره، والرضا بقضائه»[٤].

وقال ابن كَثِير رحمه الله: «أي: ومَن أصابته مصيبة، فعَلِمَ أنها بقضاء الله وقدَرِه، فصبَرَ، واحتسَبَ، واستسلَمَ لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوَّضه عمَّا فاته من الدنيا هُدًى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يُخلِفُ عليه ما كان أخَذَ منه أو خيرًا منه»[٥].

وكان عطاء الخُرَاساني لا يقوم من مجلسه حتى يقول: «اللَّهُمَّ، هَبْ لنا يقينًا بك حتى تهوِّنَ علينا مصيبات الدنيا، وحتى نَعلَم أنه لا يصيبنا إلا ما كُتِبَ لنا، ولا يأتينا من هذا الرزق إلا ما قَسَمْتَ لنا به»[٦].

وقيل للحسَن بن عليّ: إنَّ أبا ذرٍّ يقول: الفقرُ أحبُّ إليَّ مِن الغِنَى، والسَّقَم أحبُّ إليَّ مِن الصحَّة، فقال: «رحم الله أبا ذر، أمَّا أنا أقول: فمَنِ اتكَلَ على حُسْنِ

---

(١) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٢٣٨)، و«تاريخ الخلفاء» (٣٢٨)؛ ونسباه إلى المأمون.

(٢) علَّقه البخاري في «صحيحه»، كتاب التفسير، سورة التغابن (٣/ ٣٥٧)، عن علقمة، عن عبد الله، ووصَلَهُ الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٢)؛ من كلام علقمة؛ بلفظ: «هو الرجُلُ تصيبُهُ المُصِيبَةُ، فيَعْلَمُ أنها مِنْ عِنْدِ اللهِ، فيُسَلِّمُ ذَلِكَ وَيَرْضَى».

(٣) ما بين علامتَي التنصيص من كلام ابن القيِّم رحمه الله في: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٧٨).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٧).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٢٠).

اختيار الله له، لم يتمَنَّ أنه في غير الحالة التي اختار الله تعالى له؛ وهذا حَدُّ الوقوف على الرضا بما يَصرِفُ به القضاء»[١].

وقال سفيان الثوري: قيل للربيع بن خُثَيْم: «لو تداوَيْتَ؟ فقال: لقد هَمَمْتُ به، ثم ذكَرْتُ عادًا وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقرونًا بين ذلك كثيرًا، كانت فيهم الأوجاع، وكانت لهم أطبَّاء، فما بقي المداوِي ولا المداوَى إلا قد فَنِيَ»[٢].

وهذا سعيد بن جُبَيْر يقول: «لَدَغَتْني عَقْرَب، فأقسَمَتْ عليَّ أُمِّي أن أسترقِيَ، فأعطيتُ الراقي يدي التي لم تُلدَغ، وكَرِهْتُ أن أُحنِثَها»[٣].

وعن يونس بن عُبَيْد؛ قال: كان طاعون قِبَلَ بلاد ميمون ـ بن مِهْران ـ فكتَبْتُ إليه أسأله عن أهله، فكتب إليَّ: «بلَغَني كتابُك، وإنه مات من أهلي وخاصَّتي سبعةَ عشَرَ إنسانًا، وإني أكره البلاء إذا أقبَلَ، فإذا أدبَرَ، لم يَسُرَّني أنه لم يكنْ»[٤]؛ فهو راضٍ بما قَسَمَ الله ﷻ.

يقول أبو حازم: «وجدتُّ الدنيا شيئَيْن: فشيءٌ منها هو لي؛ فلن أعجِّله قبل أجله، ولو طلبتُهُ بقوّة أهل السمٰوات والأرض، وشيءٌ منها هو لغيري، فذلك ما لم أَنَلْهُ فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي؛ فيُمنَع الذي لي مِن غيري، كما يُمنَعُ الذي لغيري مني؛ ففي أيِّ هذَيْنِ أُفنِي عمري؟! ووجَدتُّ ما أُعطِيتُهُ في الدنيا شيئَيْن: فشيء يأتي أجله قبل أجلي، فأُغلَبُ عليه، وشيء يأتي أجلي قبل أجله، فأموتُ وأخلِّفه لمن بعدي؛ ففي أيِّ هذَيْنِ أعصي ربي؟!»[٥].

فلا حاجة للعبد أن يتسخَّط الأقدار، وليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن العبد يطلُبُهُ رزقه، كما يطلبه أجله؛ فعليه أن يتقي ربَّه، ويُجمِل في الطلب.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه ابن المبارك (٢٥/ ٢٥)؛ واللفظ له، وأحمد (ص٣٩٩)؛ كلاهما في «الزهد»، وأخرجه من طريق آخر هنَّاد بن السَّرِيِّ في «الزهد» (٣٨٣)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٠٦)، والدِّينَوَري في «المجالسة» (١٨٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٣٦٤).

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٢)، وابن أبي الدنيا في «القناعة والعفاف» (٩٣)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٥٠ ـ ٥٢)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣٧) مختصرًا.

٧ ـ تحوُّلُ البلاء إلى نِعْمة، والمِحْنة إلى مِنْحة؛ في ميزان المُوقِن[(١)]:

فعن سفيان الثوري؛ قال: «كان يقال: ليس بفقيهٍ مَن لم يَعُدَّ البلاءَ نِعْمة، والرخاءَ مصيبة»[(٢)].

وعن وهب بن منبِّه؛ قال: «لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه حتى يَعُدَّ البلاء نعمة، ويَعُدَّ الرخاء مصيبة؛ وذلك أن صاحب البلاء ينتظِرُ الرخاء، وصاحب الرخاء ينتظِرُ البلاء»[(٣)].

٨ ـ التوكُّل على الله ﷻ:

ولهذا قرَنَ الله بينه وبين الهدى، فقال: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]؛ وقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩]؛ والحقُّ هنا هو اليقين؛ كما قال ابن القيِّم[(٤)].

يقول الحسن: «يا ابنَ آدم، إنَّ مِن ضَعْفِ يقينك أن تكون بما في يدك أوثَقَ منك بما في يد الله ﷻ»[(٥)].

وقال مسروق: «إن أحسن ما أكون ظنًّا لَحِينَ يقول الخادم: ليس في البيت قفيزٌ مِن قَمْحٍ ولا درهم»[(٦)].

وقال الإمام أحمد: «أسَرُّ أيامي إليَّ يومَ أُصبِحُ وليس عندي شيء»[(٧)].

ويقول أبو حازم: «كيف أخاف الفقر، ولمولاي ما في السمٰوات والأرض وما فيهما وما تحت الثرى؟!»[(٨)].

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٧٨).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ٢٥)؛ ومن طريقه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨١)، وأبو نُعَيْم في «الحلية» (٧/ ٥٥)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٩٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٦٦).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٩٣)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٣/ ٣٩٢)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٥٦ ـ ٥٧) بنحوه.

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٨).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٤).

(٦) أخرجه هناد في «الزهد» (٥٩٢)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٩٧)، والدِّينَوري في «المجالسة» (٢٧٤٤).

(٧) «صفة الصفوة» (٢/ ٣٤٥).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» (٩١)، وأخرجه بنحوه الدينوري في «المجالسة»؛ وعنه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٢٩).

وقال الفضيل بن عِيَاض: «أصلُ الزهد: الرضا عن الله ﷻ»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «القَنُوعُ هو الزاهد، وهو الغَنِيُّ»[(٢)]؛ «فمَن حقَّق اليقين، وَثِقَ بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطَعَ عن التعلُّق بالمخلوقين رجاءً وخوفًا، ومنعه ذلك مِن طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومَن كان كذلك، كان زاهدًا في الدنيا حقيقة، وكان من أغنى الناس وإنْ لم يكن له شيء من الدنيا»[(٣)].

٩ ـ أنه يَحمِلُ صاحبه على مباشَرة الأهوال، وركوب الأخطار:

وهو يأمر بالإقدام دائمًا، فإنْ لم يقارنه العلم، فربما حمل على المعاطب[(٤)].

قال الجُنَيْد: «قد مشى رجال باليقين على الماء»[(٥)].

ولمَّا أراد سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أن يعبُرَ دجلة إلى المدائن**، وقطَعَ الفُرْسُ عليه الجسر، وحازوا السفن، نظر سعد في جيشه، فلما اطمأنَّ إلى حالهم، اقتحَمَ الماء، فخاض الناس معه، وعبَرُوا النهر، فما غَرِقَ منهم أحد، ولا ذهب لهم متاع، فعامت بهم الخيل وسعد يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل، واللهِ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ وليَّه، ولَيُظْهِرَنَّ الله دِينه، ولَيَهْزِمَنَّ اللهُ عَدُوَّهُ؛ إنْ لم يكنْ في الجيشِ بَغْيٌ أو ذنوبٌ تغلِبُ الحسنات»[(٦)].

ولما نزل خالد بن الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **الحِيرَة**، فقيل له: احْذَرِ السمَّ لا يسقيكه الأعاجم، فقال: «ائتوني به»، فأُتِيَ به، فأخذه بيده، ثم اقتحَمَه، وقال: «باسم الله»؛ فلم يضرُّه»[(٧)]؛ قال الذهبي: «هذه والله الكَرَامة، وهذه الشجاعة»[(٨)].

(١) أخرجه ابن الأعرابي (١٠، ١١)، وابن أبي الدنيا (١٢٢)؛ كلاهما في «الزهد»، والدينوري في «المجالسة» (٩٦٠، ٣٠٤٥).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٥٤٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: «بصائر ذوي التمييز» (٥/ ٤٠٠).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٩).

(٦) «البداية والنهاية» (١٠/ ١٠ ـ ١١).

(٧) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٧١٨٦)؛ واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (٣٨٠٨)؛ بإسناد منقطِع، وله شاهد عند الطبراني في «الكبير» (٣٨٠٩)، وابن عساكر في «تاريخه»، عن قيس بن أبي حازم؛ قال: «رأيتُ خالد بن الوليد أُتِيَ بِسُمٍّ، فقال: ما هذا؟ قالوا: سُمّ، قال: باسمِ اللهِ، وشَرِبَهُ»؛ وإسناده صحيح.
وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٧٦)، و«مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨)، و«النبوَّات» (١/ ٤٠).

(٨) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٧٦).

فانظُرْ إلى هذه الأمور: لو أن العبد أقدَمَ عليها على غير بصيرة وصِحَّةِ توكُّل وحُسْن نظر وصلاح حال، لهلك لأوَّل وَهْلة، ولو أن عبدًا قَلَّ يقينه وإيمانه، وكثرت ذنوبه، فأراد أن يُغِيرَ على عدوِّه، فاقتحَمَ الماء، فإن مآله إلى الغرق والموت والهلاك؛ ولكنَّ سعدًا رضي الله عنه حاز هذا اليقين بالعلم، فأمر بالنظر في أحوال الجيش، فلمَّا وجَدَهم على حالٍ مِن التقى، وخاف أن يفوت المسلمين تحصيلُ تلك الغنائم الهائلة العظيمة، ولم يَجِدْ شيئًا يَركَبُهُ إليهم إلا الماء: ركبه، وخاض البحر إليهم، فسلَّمه الله عز وجل.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله في مناظَرَتِهِ المشهورة للبطائحيَّة، وهم طائفة من الصوفيَّة، كانوا يَطْلُونَ أجسامهم بطِلَاءٍ معيَّن، ثم يدخلون في النار ولا يَحترِقون، فأضلُّوا طائفةً من المسلمين، ولبَّسوا عليهم؛ حيث زعموا أن هذا من الكرامات؛ قال شيخ الإسلام: «وسلَكْتُ سبيلَ عباد الله في مثل هذه المسالك، حتى أُلقِيَ في قلبي أن أدخُلَ النارَ عند الحاجة إلى ذلك، وأنها تكون بَرْدًا وسلامًا على مَن اتبَعَ مِلَّةَ الخليل، وأنها تُحرِقُ أشباهَ الصابئةِ أهلِ الخُرُوجِ عن هذه السبيل»[(١)].

ولما حضر معهم أمام السلطان، وجلس شيوخهم بين يدَيْه، قال للسلطان: «هؤلاءِ يَزعُمُون: أن لهم أحوالًا يدخُلُون بها النار، وأن أهل الشريعة ـ يعني: العلماء والفقهاء ـ لا يَقدِرون على ذلك، ويقولون: لنا هذه الأحوال التي يَعجِزُ عنها أهل الشَّرْع، وليس لهم أن يَعترِضوا علينا، بل ينبغي أن يسلِّموا لنا ما نحن عليه؛ سواءٌ وافَقَ الشرع أو خالفه، وأنا استخَرْتُ الله سبحانه أن أدخُلَ النار إذا دخلوها، ومَن احترَقَ منا ومنهم، فعليه لعنةُ الله، وكان مغلوبًا»؛ فاستعظَمَ الأمير هجوم الشيخ على النار، فقال له: أتَفعَلُ ذلك؟! قال: فقلتُ له: «نعم؛ قد استخَرْتُ الله في ذلك، وأُلقِيَ في قلبي أن أفعله، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء؛ فإنَّ خوارق العادات إنما تكون لأمَّة محمد صلى الله عليه وسلم، المتَّبِعين له باطنًا وظاهرًا، لحُجَّةٍ أو حاجةٍ؛ فالحجة: لإقامة دين الله، والحاجة: لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله.

وهؤلاء إذا أظهروا إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطِلُ دِين الله وشرعه، وجَبَ علينا أن ننصُرَ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ونقوم بنصر دين الله وشريعته بما نَقدِرُ عليه مِن أرواحنا، وجسومنا، وأموالنا؛ فلنا حينئذ أن نُعارِض ما يظهرونه من هذه المَخارِيق بما يؤيِّدنا الله به من الآيات»[(٢)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٥٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠)؛ بتصرف.

فلما رأوا عَزْمَهُ على ذلك، أَبَوْا أن يدخُلُوها، وقال كبيرُهم: بل نطلب المصالحة، فطلَبَ منهم شيخ الإسلام أن يترُكُوا هذه الأفعال التي تخالِفُ الشريعة، والتي تلبِّسُ على عوامِّ المسلمين؛ فأقرُّوا بذلك عند الأمير.

وهذا مقام لا يفعله إلا مَن اكتمَلَ يقينه، وكان هذا اليقين مزمومًا بالعلم.

١٠ ـ أنَّ الصبر لِقَاح اليقين، فإذا اجتمَعا، أورَثَا الإمامة في الدين[١]:

كما قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

١١ ـ أن اليقين يَحمِلُ صاحبه على الجِدِّ في طاعة الله ﷻ، والتشمير والمسارَعة والمسابَقة في الخيرات:

يقول الحسن: «ما أيقَنَ عبدٌ بالجنة والنار حَقَّ يقينهما إلا خشَعَ، ووَجِلَ، وذَلَّ، واستقام، واقتصر؛ حتى يأتيه الموت»[٢].

ولذلك؛ فإن أصحابه يَمتَطُونَ العزائم، ويَهجُرون اللذات، وكما قيل: «وما ليلُ المُحِبِّ بنائم، علموا طول الطريق، وقلَّة المقام في منزل التزوُّد؛ فسارَعوا في الجهاز، وجَدَّ بهم السير إلى منازل الأحباب، فقطَعُوا المراحل، وطَوَوُا المفاوز، وهذا كله من ثَمَرات اليقين؛ فإن القلب إذا استيقَنَ ما أمامه من كرامة الله، وما أَعَدَّ لأوليائه؛ بحيث كأنه ينظُرُ إليه من وراء حجاب الدنيا، ويعلم أنه إذا زال الحجاب، ورأى ذلك عيانًا، زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلِّفون، ولان له ما استوعَرَهُ المُترَفُون»[٣].

وانظر إلى الفرق بين من يتصدَّق وهو مُوقِن بموعود الله، وبين من يتردَّد في إخراج صدقته: أيُخرِجُها على كره أم يُبقِيها حرصًا؟ وترى الرجل يزداد حرصه كلَّما ازداد ماله؛ فلا شيء أحب إليه من تحصيله، ولا شيء أكره إليه من إخراجه، وإذا أُرِيدَ على الصدقة، فكَّر وتردَّد، ثم أدبر، بخلاف صاحب اليقين؛ فإنه يُنفِق من كرائم أمواله، ويَصُبُّ صبًّا، ويحثو حثوًا في سبيل الله، وما جعلهما على هذَيْنِ الحالَيْنِ المتضادَّيْنِ إلا تفاوتهما في الإيقان، فكان البذل سيما الإيمان، وفي حديث الصادق المصدوق ﷺ: «**والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ**»[٤].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٤، ٣٩٧)، و«الفوائد» (ص٢٨٩).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٦).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٦٣).
(٤) أخرجه مسلم (٢٢٣)؛ من حديث أبي مالك الأشعري.

قال ابن عُيَيْنة: قال بعض بني مَرْوان لأبي حازم: «ما مالك؟ قال: مالان، قال: ما هما؟ قال: الثقة بما عند الله، والإياس مما في أيدي الناس»[(١)].

ومن الناس: مَن يَقترِض أو يبيع بيته وجميع ما يملك؛ ليساهم بأكبر قَدْر من رأس المال في مشروع تجاري أو غيره، ولعلَّه يدخُلُه بالتقحُّم ومن غير رويَّة؛ لما يغلب على ظنِّه من ربحٍ مأمول، وكسبٍ مَهُول؛ فإذا قيل له: تصدَّقْ وأنفِقْ مما آتاك الله، تبرَّم، وأعاد حساباته، وذهب وجاء، ولعله ممن قرأ وعلم أن الصدقة تنمِّي المال، وأنه ما نقص مالٌ مِن صدقة، ولكنه ضعيف اليقين، غير راسخ الإيمان، وهي العلة نفسها التي تجعل بعض النساء يَسْأَلْنَ عن زكاة الحُلِيِّ المُعَدِّ للزينة: هل عليها زكاة فيه؟! وهل في المسألة خلاف بين العلماء؟! وهل لها أن تترخَّص؟!

وقُل مثل ذلك في الغنيِّ؛ تجده يسأل عن زكاة ماله: أيكفيه عنها إسقاط تلك الدُّيُون عن غرمائه المُعسِرين أم يجب عليه إخراجها؟!

فلماذا إذا اهتَمَّ أحدهم بالأمر، هيَّأ نفسه من أجله، وأرصد له، وضبط حساباته ومواعيده، ثم لا تجد أمر الله لديه إلا أهوَنَ ما يكون عليه؟!

لماذا إذا ارتبَطَتْ حاجته بميعاد، بكَّر إليها قبل ميعادها، فإذا نام عن الصلاة، وذُكِّرَ، قال: ليس في النوم تفريط، إنما التفريط في اليقظة؛ وهو في الحقيقة مفرِّط نائمًا ويقظانًا؟!

ولماذا إذا قال له الطبيب: افعل كذا، تَجنَّبْ كذا، قال: سمعنا وأطعنا، فإذا أمره الله، كان من الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون؟!

إنه ضعفُ اليقين الذي يحمل على حُبِّ الدنيا والزهد في الأخرى.

وفي ذلك يقول بلال بن سعد: «عبادَ الرحمٰن، أمَّا ما وكَّلَكُم الله به، فتضيِّعونه، وأمَّا ما تكفَّلَ لكم به، فتَطلُبونه، ما هكذا نعَتَ الله عباده الموقنين؛ أَذَوُو عقول في طلب الدنيا، وبُلْهٌ عما خُلِقْتُم له؟! فكما ترجون رحمة الله بما تؤدُّونه من طاعة الله ﷻ، فكذلك أَشْفِقُوا من عذاب الله؛ مما تنتهكون من معاصي الله ﷻ»[(٢)].

---

(١) أخرجه الفَسَوي في «تاريخه» (١/ ٦٧٩)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٤٠)، وأخرجه الدينوري في «المجالسة»؛ واللفظ له؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٢٦، ٥٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٧)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٣١)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٤٩٥).

ويقول الحسن البصري: «ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه أشبَهَ من شك لا يقين فيه؛ مِن أَمْرِنا هذا!»[١].

والمعنى: أننا نُوقِنُ بالموت، وبالجزاء والحساب، ولا نعمل لذلك، ولا نستعِدُّ له، نُوقِنُ بالنار، ولا نرى حَذِرًا خائفًا منها، وإنما نهجُمُ على معاصي الله ﷻ ومَسَاخِطه.

يقول سفيان الثوري مبيِّنًا هذا المعنى: «لو أن اليقين استقرَّ في القلب كما ينبغي، لطار فَرَحًا وحُزْنًا؛ شوقًا إلى الجنة أو خوفًا من النار»[٢].

١٢ ـ ثباتُ صاحبه على الحَقِّ الذي اتبعه وعرَفَه:

فأهل اليقين هم أكثر الناس ثباتًا على الحق؛ ولهذا لما سأل هِرَقْلُ أبا سفيان عن أصحاب محمد ﷺ: «أيرتدُّ أحدٌ سَخْطةً لِدِينِهِ بعد أن يدخُلَ فيه؟»، قال: لا، قال: «وكذلك الإيمانُ حِينَ تُخالِطُ بَشَاشَتُهُ القلوب»[٣].

وأمَّا أصحاب العقائد الفاسدة، والجدل الباطل، فهم أكثر الناس تنقُّلًا من قول إلى قول، ومن مذهب إلى مذهب؛ بخلاف حال المؤمن الثابت.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله **مقرِّرًا ما سبق**: «تجد أهل الكلام أكثَرَ الناس انتقالًا من قول إلى قول، وجزمًا بالقول في موضع وجزمًا بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر؛ وهذا دليل عدم اليقين... وأما أهل السُّنَّة والحديث، فما يُعلَمُ أحد من علمائهم، ولا صالح عامَّتهم رجَعَ قطُّ عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبرًا على ذلك، وإن امتُحِنُوا بأنواع المحن، وفُتِنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدِّمين؛ كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمَّة من الصحابة والتابعين، وغيرهم من الأئمَّة، حتى كان مالك يقول: لا تَغبِطُوا أحدًا لم يُصِبْهُ في هذا الأمر بلاء»[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٤١)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣٢)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٤٠٠)، عن أبي حازم، بنحوه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٧)؛ واللفظ له.
(٣) أخرجه البخاري (٧)؛ واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).
(٤) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٠).

١٣ ـ الثبات أمام الأعداء حتى النَّصْرِ أو الشهادة:

وأخبارُ أهل اليقين في هذه الأمة أمام عدوِّهم كثيرة جِدًّا[(١)]، وهكذا أهل اليقين من قبلُ، فهذا نبي الله هود ﷺ يقول لقومه بعد أن كذّبوه: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

وهكذا ثبَّت الله نبيَّه وكليمه موسى وأخاه هارون ﷺ أمام فرعون، باليقينِ ورسوخ الإيمان.

ولما انحصرَ بقومه بين البحر وفِرْعَوْنَ وجنوده، قال قومه: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢].

وهذا هو ثبات اليقين؛ فإنهما لما قالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥﴾ [طه: ٤٥]، قال الله ﷻ: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦]؛ فهذه المعيَّةُ مِن الله كانت أصلَ يقينه، لما قال: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٢].

١٤ ـ أن صاحبه لا يَعرِفُ اليأس مهما طال ليلُ الظالمين:

فإنَّ بَعْدَ الليل انفلاقَ الفجر ولا محالة؛ فالليل مهما طالت ساعاته، ومهما اشتدَّت ظُلْمَته، فإنه يزول وينفلِقُ عن بياض الصبح؛ فأهل اليقين لا يعرفون اليأس، ومهما حَلَّ بالأمة من مصائب ومحن ونكبات، وتسلُّط الأعداء، فإن أهل اليقين تَختلِف مواقفهم عن غيرهم من الناس؛ فمَن ضَعُفَ يقينه، رضي بالأمر الواقع، ودعا إلى التسليم، والانخذال للعدو.

وأما أهل اليقين: فيَصبرون، ويَثبُتون، ويفعلون ما في وُسْعِهم وطاقتهم، والله ﷻ لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها، ثم بعد ذلك إذا أَقْدَرَهم الله ﷻ، ومكَّنهم من رقاب عدوِّهم، حكَمُوا فيهم بحكم الله؛ فلسان حال الواحد منهم ـ وقد أخذ العدوُّ بلده ـ يقول:

يَا دَارُ مَجْدُكِ لَنْ يَضِيعَ فَأَمِّلِي ... خَيْرًا وَلَا تَسْتَرْسِلِي بِبُكَاءِ
فَالحَاقِدُونَ سَيُغْلَبُونَ وَإِنْ هُمُ ... حَشَدُوا جُيُوشَ الْبَغْيِ وَالْإِفْنَاءِ
أَمْ أَلَّبُوا قَوْمًا عَلَى قَوْمٍ وَلَمْ ... يَدَعُوا سَبِيلَ المَيْنِ وَالْإِلْهَاءِ
فَلْتَصْبِرِي الصَّبْرَ الجَمِيلَ فَإِنَّهُ ... تَاجُ اليَقِينِ وَحِلْيَةُ الْعُظَمَاءِ[(٢)]

(١) ستأتي الأمثلة في ذلك عند الحديث عن أخبار أهل اليقين في المبحث التالي.

(٢) هذه الأبيات للأستاذ: مروان كجك، نشرتها مجلة البيان [عدد: (٩٤) جمادى الآخرة ١٤١٦هـ].

وهؤلاء هم الذين يغيِّرُ الله على أيديهم وإنْ طال الزمان.

١٥ ـ أن أعمال أهله الصالحة تكون راجحة في الموازين عند الله تبارك وتعالى:

فصلاة صاحب اليقين ليست كصلاة غيره، وليس صيامه كصيامه، ولا صدقته كصدقته.

وبالجملة: فاليقين يُورِثُ صاحبه أمورًا جليلةً عظيمةً؛ فهو يزيد العبد قربًا من الله ﷻ، وحُبًّا، ورضًا بما قدَّره وقضاه، ويزيد صاحبه استكانة وخضوعًا لربِّه وخالقه سبحانه، كما أنه يُكسِبُهُ رفعةً، وعزَّةً، ويُبعِده عن مواطن الذلِّ والضَّعَة.

وهو أيضًا باليقين يتبع النور، والحق المبين، ويسلك طريق السلامة المحقَّقة، فلا يحيد عنها بضعف يقينه؛ رغبةً أو رهبةً، كما أنه يَحمِلُ صاحبه دائمًا على الإخلاص والصدق، وتحرِّي ذلك في كل أعماله.

وهو أيضًا يَضبِطُ علاقة العبد بربِّه؛ فيُلزِمُه المراقبة، وفِعْلَ ما يليق، وترك ما لا يليق في تعامله مع ربه؛ لأنه يعلم أن ذلك يُوصِله إلى دار الأمان، ولا سبيل إلى الوصول إلا بسلوك هذه الطريق.

فهذا ما يتعلَّق بالأمور التي يُورِثها اليقين.

الأمورُ التي تُنافِي اليقين

مِن أعظَمِ الأمور التي تنافي اليقين وتصادِمُهُ: تطلُّعُ القلب إلى غير الله ﷻ، وتعلُّقُهُ به، والتفاته إليه؛ ولهذا قال بعض المتقدِّمين: «حرامٌ على قلب أن يَشَمَّ رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله ﷻ، وحرامٌ على قلب أن يدخُلَهُ النُّور، وفيه شيء مما يكره الله ﷻ»[(١)].

وهكذا الشكوكُ والرِّيَبُ والأمور التي تجلب ذلك؛ كسماع الشُّبَه، وكلام المخذِّلِين، والمثبِّطِين لعزائم المؤمنين، فيوهِّنُونهم، ويحثُّونهم على القعود عن التزام صراط الله ﷻ المستقيم؛ فهؤلاء إذا أصغى العبد إليهم، أوهَنُوا دينه، وأضعفوا يقينه، فيُورِثُهُ ذلك قلقًا وتردُّدًا، وهو مما يخالف اليقين؛ لأن اليقين طمأنينة وثبات واستقرار.

قال ابن القيِّم: «الشك مُبْتَدأُ الرَّيْب، كما أن العلم مُبْتَدأُ اليقين»[(٢)].



(١) أخرجه الخطيب في «المنتخب من الزهد» (٩)؛ وعنه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص١٠٢).

(٢) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٤٨٩).

مِن أخبارِ أهلِ اليقين

وهي كثيرة، وقد ذكَرْتُ طائفةً منها في مضامين ما سلف، **ونذكُرُ ههنا طائفة أخرى**:

١ ـ فهذه امرأةٌ مِن بني دينار عرَفَتْ معنى اليقين والثقة، فعبَّرت عنها بكلمات بَقِيَتْ تزيِّنُ صَدْرَ التاريخ؛ فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه؛ قال: مر رسول الله ﷺ بامرأةٍ مِن بني دينار، وقد أُصِيبَ زوجُها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحُدٍ، فلما نُعُوا لها، قالت: «فما فعَلَ رسولُ الله ﷺ؟»، قالوا: خيرًا يا أُمَّ فلان؛ هو بحمدِ اللهِ كما تحبِّين، قالت: «أَرُونِيهِ حتى أنظُرَ إليه»، قال: فأُشِيرَ لها إليه، حتى إذا رأته، قالت: «كُلُّ مصيبةٍ بعدك جَلَل»[(١)].

٢ ـ وهذه أمُّ حارثةٍ لما قُتِلَ ابنها مع رسول الله ﷺ، جاءت إلى النبي ﷺ، فقالتْ: يا رسول الله، قد عَرَفْتَ مَنزِلةَ حارثةَ منِّي، فإنْ يكنْ في الجَنَّةِ، أَصبِرْ وأَحتسِبْ، وإنْ تَكُ الأخرى، ترى ما أَصنَعُ، فقال: «**وَيْحَكِ! أَوَهَبِلْتِ؟! أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ**»[(٢)].

٣ ـ **وعن عامر بن عبد القَيْس؛ قال**: «لو كُشِفَ الغطاء، ما ازدَدتُّ يقينًا»[(٣)]؛ أي: أنه بلَغَ في اليقين غايته؛ فلو رأى الجنَّة والنار، ما ازداد يقينًا.

٤ ـ **ويقول الآخر**: «رأيت الجنَّة والنار حقيقةً»، قيل له: وكيف؟ قال: «رأيتُهما بعَيْنَيْ رسول الله ﷺ»[(٤)].

فهو يَعتبِرُ عنده: أن ما أخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ بمنزِلةِ المرئيِّ المشاهَدِ الذي لا شك فيه، بل إن الخبر لديه آكد؛ فإنه قال: «ورؤيتي لهما بعينيه آثَرُ عندي من رؤيتي لهما بعيني؛ فإنَّ بصري قد يطغى ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ»[(٥)].

٥ ـ وجاء عن حَيْوة بن شُرَيْح التُّجِيبيِّ الفقيهِ المحدِّثِ الزاهد؛ أنه كان يأخذ عطاءه في السَّنَة ستِّين دينارًا، فلا يأتي منزله، حتى يتصدَّق بها، ثم يجيء إلى منزله، فيجدها

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٣/ ٤٣)؛ واللفظ له، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣٠٢).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٥٠)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٠٣). (٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٠٠).
(٥) المصدر السابق.

تحت فراشه، فبلَغَ ذلك ابن عم له، فتصدَّق بعطائه جميعًا، وبادَرَ إلى تحت فراشه، فلم يجد شيئًا! فشكا إلى حَيْوة، فقال حَيْوة: «أنا أعطيتُ ربِّي بيقين، وأنت أعطيتَهُ تَجرِبة»(١).

٦ ـ وجاء عن حُذَيْفة المَرْعَشي، وسليمان الخَوَّاص، ويوسف بن أسباط، وهم من الزهَّاد؛ أنهم اجتمعوا فتذاكروا الفقر والغنى، وسليمان الخَوَّاص ساكت، فقال بعضهم: «الغنيُّ: من كان له بيت يُكِنُّه، وثوب يستُرُه، وسدادٌ من عيش يكفُّه عن فضول الدنيا»، وقال بعضهم: «الغنيُّ: من لم يحتج إلى الناس»، فقيل لسليمان: ما تقول أنت أبا أيوب؟! فبكى، ثم قال: «رأيت جوامع الغِنَى في التوكُّل، ورأيت جوامع الشرِّ من القُنُوط، والغنيُّ حقَّ الغنى: مَن أسكَنَ اللهُ قلبَهُ مِن غناه يقينًا، ومِن معرفته توكُّلًا، ومِن عطاياه وقَسْمِهِ رضًا؛ فذلك الغنيُّ حقَّ الغنى، وإنْ أمسى طاويًا، وأصبح مُعْوِزًا؛ فبكى القوم جميعًا من كلامه»(٢).

٧ ـ وهذا الإمام البخاري لما ابتُلِيَ، وأُوذِيَ إيذاء شديدًا في مسألة اللفظ، كان يردِّد قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠](٣).

٨ ـ ومن القادة المسلمين ممن تحلَّى باليقين: القائد المجاهد الزاهد، أبو عبد الله مَرْدَنِيش، قاتل الكفَّار من الرومان، واستطاع أن يُحرِزَ غنائم عظيمةً، وكان مع طائفة من أصحابه لا يزيدون عن ثلاثمائة، فأحاط به من الرومان أكثر من ألف فارس، فلما نظر إليهم، قال لأصحابه: ما تَرَوْنَ؟ قالوا: نترُكُ الغنيمة، وننطلِقُ، فينشغِلُوا بها عنا، فقال: ولكنَّ القائل يقول: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال: ٦٥]؛ ألم يقل القائل ذلك؟! فقال بعضهم: هذا قاله الله ﷻ! فقال: إذا كان الله قال ذلك، فكيف تقعُدُونَ عن لقائهم؟! فثَبَتُوا أمامهم، وقاتلوهم حتى هزَمُوهم، وفرُّوا مِن مواجَهَتهم(٤).

(١) «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٨٥).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٨)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٧٢/ ٢٤٩)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٣٧).
(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٦١ ـ ٤٦٢).
(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣).

٩ ـ **نماذج من حال شيخ الإسلام ابن تيميَّة:**

لقد لَقِيَ شيخ الإسلام في حياته ألوان المعاناة من الخصوم، اجتمَعُوا على أذيَّته، تَؤُزُّهم عداوةٌ تعدَّدت أسبابها؛ فكانوا يُرجِفُونَ به وبأصحابه، ويؤلِّبون عليه السلطان، ويُغْرُونه بقتله أو حبسه، فنتَجَ عن ذلك ابتلاءات متنوِّعة لقيها في أيام عمره، فكان يتنقَّل من حبس إلى آخر، حتى مات في السجن، وما كان ذلك يؤثِّر فيه، ولا يَفُتُّ في عَضُدِهِ أو يَثْنِيه عن اتباع الحق والدعوة إليه، وأخبارُهُ في ذلك عجيبة مستفيضة، **وإليك طرفًا منها**:

ـ لما قيل له بأنهم سيَنْفُونَهُ إلى الإسكندرية، وأنهم يعملون كل ذلك حتى يُوافِقَهم، وأنهم عازمون على قتله أو نفيه أو حبسه، قال: «أنا إنْ قُتِلْتُ، كانت لي شهادة، وإنْ نَفَوْني، كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قُبْرُص، لدعوتُ أهلَها إلى الله وأجابوني، وإنْ حبَسُوني، كان لي معبدًا، وأنا مِثْلُ الغَنَمةِ كيفما تقلَّبَتْ، تقلَّبت على صُوف»؛ فيئسوا منه وانصرفوا[1].

يقول خادمه إبراهيم بن أحمد الغياثي: «فلما كان بعد العصر، وقفتُ أبكي؛ فقال لي الشيخ: لا تَبْكِ، ما بقيَتْ هذه المحنة تبطئ...

فلما صلَّينا المغرب، بقي يدعو بدعاء الكرب، وأنزَلَ الله عليه من النُّور والبهاء والحال شيئًا عظيمًا، وأشرْتُ إلى المُحْبَسِين، كأن وجهه شَمْعٌ يجلوه مثل العروس، حتى إذا راق الليل، جاء نائب الوالي، فقال: باسم الله، فبَقُوا يودِّعونه، ويبكون، ويَدْعُون عليهم بدعاء مختلِف، أقلُّه أن يسلُبَهم الله نعمته.

ورَكِبَ على باب الحبس، فقال له إنسان: يا سيِّدي، هذا مقام الصبر، فقال له: بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قُسِّمَ على أهل الشام ومصر، لَفَضَلَ عنهم، ولو أن معي في هذا الموضع ذهبًا وأنفقته، ما أدَّيْتُ عُشْرَ هذه النعمة التي أنا فيها.

وخرَجَ من باب سعادة، وركبنا في البحر إلى ذلك البر، فلَقِيَنا أمير يقال له: بدر الدين طبر... فمنَعَنا من السفر مع الشيخ، وقال: ما معي مرسوم أن يجيء أحد مع الشيخ، فقال الشيخ: يا إبراهيم، انزل إلى الشام، وقل لأصحابنا: وحق القرآن ـ ثلاث مرَّات ـ ما بَقِيَتْ هذه المحنة تبطئ، وتَنفرِج قريبًا فوق ما في النفوس، ويَقلِبُ الله مملكة بِيبَرْسَ أسفلها أعلاها، وليجعلَنَّ الله أعز مَن فيها أذلَّ مَن فيها.

فلما رجعنا بعد أن ودَّعْناه، انكسر في تلك الليلة البحر، ونقص الماء، وغلا

(١) «الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (ص١٤٨).

الخبز، وغيره... وبقيت الناس تَلْعَنُهم، ويقولون: غرَّقوا ابن تيميَّة في البحر... فطلَعَ جماعة من أكابر إسكندرية وصلحائها التقوا الشيخ، وقعد في البُرْج الأخضر حتى طلع السلطان الناصر من الكَرَك، وهرب بِيبَرْسُ من السلطنة، وسيَّر بطلبه مكرَّمًا»[(١)].

«وفي يوم الاثنين بعد العصر، السادس من شعبان، سنة ست وعشرين، اعتُقِلَ بقلعة دمشق بعد ما حضَرَ إليه الأمير بدر الدين أمير مسعود ابن الخطير الحاجب، بمرسوم السلطان بذلك، ومعه مركوب؛ فأظهر السرور، وقال: أنا كنتُ منتظِرًا لذلك، وهذا فيه خير كثير، ورَكِبَ وهو معه إلى القلعة»[(٢)].

- ولما قصد التَّتَر بلاد المسلمين، عاثوا فيها فسادًا، حتى وصلوا بلاد الشام، وتزلزل الناس، وأصابهم هَلَعٌ وخوف شديد، وفَرَّ مَن فَرَّ مِن الأمراء والتجار وغيرهم، لكنَّ شيخ الإسلام ثبَتَ ثباتًا عظيمًا، وثبَّت الناس، وكانت له مواقف مشكورة تدل على قوة يقينه بربه تعالى؛ **فمن ذلك**:

أنه خرج: «إلى نائب الشام وعساكِره بالمَرْج، فثبَّتهم، وقوَّى جَأْشَهم، وطيَّب قلوبهم، ووعدهم النصر والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [الحج: ٦٠]»[(٣)].

ومن ذلك أيضًا: أنه توجَّه «إلى العسكر الواصل من حَمَاة، فاجتمَعَ بهم في القُطَيِّفة، وأعلمهم بما تحالَفَ عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك، وحلَفُوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيميَّة يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكَرَّةِ منصورون على التتار، فيقول له الأمراء: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله، تحقيقًا لا تعليقًا، وكان يتأوَّل في ذلك أشياء من كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]»[(٤)].

وكذلك أيضًا: «حُكِيَ من شجاعته في مواقف الحرب نَوْبة شَقْحَب، ونَوْبة كَسْرَوَان، ما لم يُسْمَعْ إلَّا عن صناديدِ الرجال، وأبطالِ اللقاء، وأحلاسِ الحرب؛ تارَةً يباشِرُ القتال، وتارَةً يحرِّضُ عليه. وركب البَرِيدَ إلى مهنَّا بن عيسى، واستحضره إلى الجهاد، وركب بعدها إلى السلطان واستنفَرَه، وواجه بالكلام الغليظ أمراءَهُ وعسكره،

---

(١) المصدر السابق (ص١٤٩ ـ ١٥٠). (٢) المصدر السابق (ص٤٣٩، ٥١١).
(٣) ما بين علامتي التنصيص من كتاب: «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص٤١٢).
(٤) المصدر السابق (ص٤١٥).

ولما جاء السلطان إلى شَقْحَب، لاقاه إلى قرن الحرَّة، وجعل يشجِّعه ويثبِّته، فلما رأى السلطانُ كثرة التَّتَار، قال: يا لخالد بن الوليد، فقال له: لا تقل هذا، بل قل: يا اللهُ، واستغِثْ بالله ربِّك، ووَحِّدْهُ وَحْدَهُ تُنصَرْ، وقل: يا مالكَ يوم الدين، إيَّاك نعبُدُ وإيَّاك نستعين، ثم ما زال يُقبِلُ تارَةً على الخليفة، وتارَةً على السلطان، ويهدِّئهما ويَرْبِط جأشهما، حتى جاء نَصْرُ الله والفتح»[(١)].

وكان له موقف مشهور مع قَازَانَ ملك التَّتَر؛ فقد ذكر أبو العَبَّاس ابن صَصْرَى: «أنهم لمَّا حضَرُوا مجلس قازان، قُدِّمَ لهم طعام، فأكلوا منه إلا ابن تيميَّةَ، فقيل له: لم لا تأكُلُ؟ فقال: كيف آكُلُ من طعامكم وكلُّه مما نهَبْتُم من أغنام الناس، وطَبَخْتُمُوهُ مما قطَعْتُم من أشجار الناس؟! ثمَّ إنَّ قَازَانَ طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللَّهُمَّ، إنْ كنت تعلم أنه إنَّما قاتَلَ لتكون كلمة الله هي العليا وجهادًا في سبيلك؛ فأنْ تؤيِّده وتَنْصُرَه، وإنْ كان للمُلْكِ والدُّنْيا والتكاثر؛ فأنْ تَفعَلَ به وتصنع، يدعو عليه، وقازانُ يؤمِّن على دعائه، ونحن نَجمَعُ ثيابنا خوفًا أن يُقتَلَ فيُطَرْطَش بدمه، ثم لما خرَجْنا، قلنا له: كِدتَّ تهلكنا معك، ونحن ما نصحبك من هنا، فقال: ولا أنا أصحبكم، فانطلَقْنا عُصْبةً، وتأخَّر في خاصَّة مَن معه، فتسامعت [به] الخواقين والأمراء، فأتوه من كلِّ فجٍّ عميق، وصاروا يتلاحقون به ليتبرَّكوا برؤيته، فأمَّا هو، فما وصَلَ إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، وأمَّا نحن، فخرج علينا جماعة، فسلخونا[(٢)]»[(٣)].

- ومن كمال يقينه: ما يقع له من إجابة الدعاء، مع شدَّة وثوقه بالإجابة؛ فمِن ذلك: ما ذكره البزَّار؛ قال: «حدَّثني الشيخ المقرئ تقي الدين عبد الله بن أحمد بن سعيد؛ قال: «مَرِضتُ بدمشق مَرْضةً شديدة، فجاءني ابن تيميَّة، فجلس عند رأسي، وأنا مُثقَلٌ بالحُمَّى والمَرَض، فدعا لي، ثُمَّ قال: قُمْ، جاءت العافية، فما كان إلا أنْ قام، وفارقني؛ وإذا بالعافية قد جاءت، وشُفِيتُ لِوَقْتِي»[(٤)].

- وكذا في علاج المصروع: فقد عافى اللهُ بسببِهِ أناسًا بمجرَّد تهديده للجِنِّيِّ، وجرت له في ذلك فصول، ولم يَفعَلْ أكثر من أن يتلوَ آياتٍ، ويقول: «إنْ لم تنقطِعْ

(١) «مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار» (ص٧٠١ ـ ٧٠٢)، و«الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيميَّة» (ص٣٢٣، ٣٣٥).
(٢) هكذا، ولعلها: شَلَّحُونا.
(٣) «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص٣٢١).
(٤) المصدر السابق (ص٣٢٣).

عن هذا المصروع وإلَّا عَمِلْنا معك حكم الشرع، وإلَّا عملنا معك ما يُرضِي الله ورسوله»[(١)].

ـ وفي الوقت الذي تتهافَتُ فيه كثير من النفوس على الدنيا، «كان يجيئه مِن المال في كلِّ سَنَةٍ ما لا يكاد يُحصَى، فينفقه جميعًا، آلافًا ومئين، لا يَلمَسُ منه دِرهَمًا بيده، ولا ينفقُهُ في حاجة له»[(٢)].

هذا آخر ما أمكَنَ ذكرُهُ في موضوع اليقين، والله أعلم.

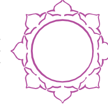


(١) المصدر السابق (ص٣٣٦).

(٢) المصدر السابق (٣٢٣)، وقد مضى ذكر طَرَف من أحواله تحت عنوان: «ثَمَرات اليقين».

ثالثًا

التفكُّر



توطئة

لقد أمَرَ الله تعالى كثيرًا في كتابه العزيز بالتفكُّر، ومدَحَهُ ونحوه من أنواع العِلْمِ وأسبابه، كما ذمَّ ما يضادُّه؛ لما يُورِثُ ذلك القلبَ من أعمال جليلة، ورياضٍ من المعارف ظليلة، يَهدِيهِ بزمامه إليها تفكُّرُهُ في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا ودُنُوِّها وفنائها؛ فيقوده ذلك إلى الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما تفكَّر في قِصَر الأمل وقُرْب الأجل، أورَثَهُ ذلك الجِدَّ والاجتهاد وبذلَ الوُسْع في اغتنام الأنفاس واللحظات، ومِن شأن هذا النوع من التفكُّر أن يُعلِيَ همَّته ويُحيِيَها بعد موتها وسفولها[١].



(١) انظر: «الاستقامة» (٢/ ١٥٩)، و«الفوائد» (ص١٩٨).

معنى التفكُّر وحقيقتُه

التفكُّر في اللغة: هو «تردُّد القلب في الشيء؛ يقال: (تفكَّر): إذا ردَّد قَلْبَهُ معتبِرًا»[(١)]، والفِكْرُ هو التأمُّل، وإعمال الخاطر في الشيء؛ فالتفكُّر إذَنْ: هو تصرُّف القلب في معاني الأشياء لإدراك المطلوب[(٢)].

وأما التفكُّر في الاصطلاح: فهو كما قال المُنَاوي: «تردُّد القلب بالنظر والتدبُّر لطلب المعاني.

وقيل: هو ترتيب أمور في الذِّهْن، يُتوصَّلُ منها إلى مطلوب علمًا أو ظنًّا، والاعتبار؛ أي: الاستدلال والاتعاظ، والمعتبِرُ: المستدِلُّ بالشيء على الشيء»[(٣)].



(١) «مقاييس اللغة» (٤/ ٤٤٦)، (ف ك ر).
(٢) انظر: «روح المعاني» (٩/ ١٢٧).
(٣) «فيض القدير» (٤/ ٣٦٧).

الفرق بين التفكُّر والتذكُّر

يفترِقُ التفكُّر عن التذكُّر من وجهَيْن:

الأول: أن الذِّكْرَ يتعلَّق بذات الله ﷻ، وأمَّا التفكُّر، فيكون في دلائل عظمته، وفي مخلوقاته؛ فالله ﷻ هو الحق، ولا يُمكِنُ لأحد أن يتفكَّر في ذات الله تعالى؛ لأن إدراك ذلك ممتنِعٌ عقلًا؛ فالعقول لا تحيط بخالقِها ﷻ، فهو أعظم من أن يُحَاطَ به، وإنما نتفكَّر في جوانب عظمته ودلائل قُدْرته، ونتفكَّر في آياته المشاهَدة والمتلوَّة، ونعتبرُ بذلك، والله ﷻ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]؛ وذلك أن التفكير والتقدير إنما يكونان في الأمثال المضروبة، والمقاييس المعقولة، والأمور التي تُدرِكُها العقول، وتَعرِف كُنهَها، فيتفكَّر فيها الإنسان بحسَبِ ما يراه ويسمعه ويُدرِكه عقله.

أما الله تبارك وتعالى، فلا شبيه له ولا نظير؛ ومِن ثَمَّ: فإن العقول لا تصل إلى إدراك كُنْهِه ﷻ؛ لأن أصل التفكُّر إنما يُبنَى على ما يشاهده الإنسان، أو ما يشاهِدُ نظيرًا له، فنحن نتفكَّر في الأمور التي نَعرِف بها عَظَمةَ الله ودلائل وحدانيَّته وقدرته، والأمور التي نَعرِف بها أوصاف كماله ونعوت جلاله، وأمَّا ذات الرب سبحانه، فهي أعظم من أن نُحِيطَ بها[1].

الثاني: أن التذكُّر ثَمَرةُ التفكُّر، فهو نتيجته؛ فالتذكُّرُ أعلى من التفكُّر؛ لأن التفكُّر وسيلة له ودليل إليه، والمدلول أشرَفُ من الدليل في عادة المعقولات غالبًا، ويكون ذلك بتحريك العقل وإجالته في الأمور، وقد يكون المحصول حاصلًا من قبلُ، وإنما اعترَتِ العبدَ غفلةٌ، فيكون استرداده بالتفكُّر، فيُعَدُّ استرداد المستردِّ تذكُّرًا.

والذكر يقابِلُهُ الغَفْلة والنِّسْيان، **وحقيقة التذكُّر**: حضور صورة المذكور العلميَّة في القلب؛ ولهذا يقال له: (تَذَكُّرٌ)، على زنةِ (تَفَعُّلٍ)؛ لأنه يحصُلُ بعد مهلة وتدرُّج؛ كما تقول: التبصُّر، والتعلُّم، والتفهُّم.

إذَنْ: يكون التذكُّر من التفكير بمنزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عنه.

قال ابن القيِّم: «ولهذا كانت آيات الله المتلوَّة والمشهودة ذِكْرَى؛ كما قال ﷻ في

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٩).

المتلوَّة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤]، وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [الحاقة: ٤٨]، وأمَّا الآيات المشهودة، فقال عنها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝﴾ [ق: ٦ ـ ٨].

فالتَّبْصِرةُ هي آلة البصر، والتَّذْكِرةُ هي آلة الذِّكْر، وقد قرَنَ الله ﷻ بينهما، وجعَلَهما لأهل الإنابة؛ لأن العبد إذا أناب إلى الله، أبصَرَ مواقع الآيات والعِبَر؛ فاستدَلَّ بها على ما هي آيات له، فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة؛ لأن التبصرة تُوجِبُ له حصول صورة المدلول في القلب بعد غَفْلتِهِ عنها، فترتُّبُ المنازل الثلاثة بهذه الطريقة يكون على أحسَن وجه.

ثم إنَّ كُلًّا منها يمُدُّ صاحبه ويقوِّيه ويثمِّره، والله ﷻ يقول في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝﴾ [ق: ٣٦، ٣٧]؛ **وذلك أن الناس ثلاثة:**

الأول: رجلٌ قلبُهُ ميِّت، فذلك الذي لا قَلْبَ له؛ فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقِّه.

والثاني: رجلٌ قلبه حيٌّ مستعِدٌّ، لكنه غير مستمِعٍ للآيات المتلوَّة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة؛ إمَّا لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكنَّ قلبه مشغول عنها بغيرها؛ فهو غائب القلب ليس حاضرًا؛ فهذا لا تحصُلُ له هذه الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجلٌ حيُّ القلبِ مستعِدٌّ، تُلِيَتْ عليه الآيات، فأَصْغَى بسمعه، وألقى السمع، وأحضَرَ قلبه ولم يَشغَلْه بغير فَهْم ما يسمعه؛ فهو شاهد القلب، مُلْقٍ السمع؛ فهذا القِسْم هو الذي ينتفِعُ بالآيات المتلوَّة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصِر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصَرِهِ إلى غير جهة المنظور إليه.

فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصَرَهُ، وقابله على توسُّط مِن البُعْدِ والقرب؛ فهذا هو الذي يراه»[(١)].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤١ ـ ٤٤٣)؛ بتصرف.

ولـــهـــذا قـــال الله ﷻ: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾ [ق: ٨]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: ٣٧].

فالحاصِلُ: أن التفكُّر إنما يكون بهذا الاعتبار: «**طلَبَ القلبِ ما ليس بحاصل مِن العلوم، مِن أمرٍ هو حاصلٌ منها**، هذا حقيقته؛ فإنه لو لم يكن ثَمَّ مرادٌ يكون مَورِدًا للفِكْر، استحال الفكر؛ لأن الفكر بغير متعلَّقٍ متفكَّرٍ فيه محال، وتلك الموادُّ هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلًا عنده، لم يتفكَّر فيه، فإذا عُرِفَ هذا، فالمتفكِّر ينتقِلُ من المقدِّمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظَفِرَ به وتحصَّل له، تذكَّر به.

فالتذكُّر إذَنْ: هو مقصود التفكُّر وثمرته، فإذا تذكَّر، عاد بتذكُّره على تفكُّره، فاستخرَجَ ما لم يكن حاصلًا عنده... فهو دائمًا سائر بين العلم والإرادة»(١).



(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦٧ ـ ٦٨)؛ بتصرف.

أهميَّة التَّفَكُّر وفضلُه

إن التفكُّر هو أثمَن ما تُنفَقُ فيه الأنفاس، وتُبذَلُ فيه الأوقات، وتُشغَلُ به العقول؛ سواءٌ أكان ذلك في التفكُّر بآيات الله ﷻ وعجائب صُنْعِه، والانتقالِ منها إلى تعلُّق القلب والهِمَّة به دون شيء من مخلوقاته[(١)]، أم كان ذلك بالنظر في أحوال النفس ـ كما سيأتي ـ أو في غير ذلك من الأمور النافعة التي ينبغي للعبد أن يتبصَّر بها، وأن يتفكَّر فيها.

فالتفكُّرُ هو أصل الخير والشر؛ فالإنسان قد يتفكَّرُ في أمور تؤدِّي به إلى المهالك، وقد يتفكَّرُ في أمور يحصُلُ له بسبب تفكُّره فيها النجاة؛ وذلك أن الفكر هو مبدأ الإرادة والطلب، ومبدأ الزهد، ومبدأ الحبِّ والبغض؛ والإنسان إنما يعمل عادةً بعد أن يُعمِلَ فِكْره.

يقول ابن عُيَيْنة: «الفِكْرةُ نُورٌ تُدخِلُهُ قلبك»[(٢)].

ويقول عامر بن عبد القَيْس: «سمعتُ غير واحد، ولا اثنَيْن، ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إنَّ ضياءَ الإيمان ـ أو نورَ الإيمان ـ التفكُّرُ»[(٣)].

وقد قيل لإبراهيم بن أَدْهَم: «إنك تطيل الفِكْرة؟ فقال: الفكرة مُخُّ (العقل)[(٤)]»[(٥)].

وقد رجَّحه بعضهم على عبادة البَدَن؛ كما صح عن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ أنه قال: «تفكُّرُ ساعةٍ خَيْرٌ مِن قيام لَيْلَةٍ»[(٦)].

ويقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكُّرٍ خيرٌ من قيام ليلة والقلب

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٨).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٠٦).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا؛ كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٨٢). وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٥).
(٤) هكذا جاءت في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٢٤)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٨)، وفي «الحلية» كُتِبَت: «العمل».
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٩).
(٦) أخرجه الإمام أحمد (ص١٣٩)، وهنَّاد (٩٤٣)؛ كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩)، وغيرهم، وقد رُوِيَ مرفوعًا بلفظ: «خيرٌ مِن عبادةِ سِتِّينَ سَنَةً»، ولكنه لا يثبُت، فقد حكم بوضعه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٦٢٧)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٤٢)، والألباني في «الضعيفة» (١٧٣)؛ وبمثل قول أبي الدرداء رضي الله عنه قال الحسن البصري؛ أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٣٧١)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص٣٣٢).

ساه»[(١)]؛ وهذا صحيح؛ لأن الإنسان ليس له مِن صلاته إلا ما عقَلَ منها؛ كما قال سفيان الثوري: «يُكتَبُ للرجل مِن صلاتِهِ ما عقَلَ منها»[(٢)].

ويقول محمد بن كَعْب القُرَظي: «لَأَنْ أقرَأَ في ليلة حتى أُصبِحَ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾، و«القارعة»، لا أَزِيدُ عليهما، وأتردَّد فيهما، وأتفكَّر؛ أَحَبُّ إليَّ من أن أَهُذَّ القرآن هَذًّا، أو قال: أَنْثُرَهُ نَثْرًا»[(٣)].

ويقول عمر بن عبد العزيز: «الفِكْرة في نِعَم الله أفضلُ العبادة»[(٤)].

وهذه الآثار بيَّن وَجْهَها ابن القيِّم بقوله: «وهذا لأن الفكرة عمَلُ القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح؛ فكان عمله أشرَفَ من عمل الجوارح»[(٥)].

ففسَّر ذلك وعلَّله: بأن المفاضلة باعتبار المتعلَّق، فالأعمال المتعلِّقة بالعضو الشريف أشرف مِن غيرها؛ وعليه: فإن أعمال القلب أفضَلُ من أعمال الجوارح.

ويقال أيضًا: إنه لا يُوصَلُ إلى هذه الأمور من التشمير في طاعة الله ﷻ أصلًا إلا بعد أن يتفكَّر الإنسان، ويتبصَّر، وينظُرَ، ويُعمِلَ عقله، أما الغافل، فإنه لا يفعل شيئًا من ذلك، فالتفكُّر أصل، والعمل فرع؛ والأصل أشرف.

وهذا كله باعتبار الجنس دون الأفراد؛ فجنس عمل القلب أفضل من جنس عمل الجوارح.



---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٨، ١١٤٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٤)؛ وهو صحيح عنه بطرقه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٦١)؛ بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٧)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٤ _ ٢١٥)؛ واللفظ له.

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣١٤).

(٥) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٤٠).

التفكُّر في الكتاب والسُّنَّة

وردَتْ آيات وأحاديث كثيرة في التفكُّر:

تارَةً: بالأمر به، **وتارَةً:** بالتنبيه على فضله، والثناء على أهله، **وتارَةً:** بتوعُّد من نأى بجَنْبه عنه، وتنكَّب سبيله، فلم يقلِّب في الآيات بصيرةً ولا بصرًا، فانقلَبَ معرِضًا لا يلوي على عظات أو عِبَر؛ فالله يُرشِدُنا إلى النظر في خَلْق هذا العالم العلوي والسفلي؛ ومن ذلك:

قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٠ ـ ١٧].

وقولُه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

ويأمُرُهم الله ﷻ بالنظر جماعاتٍ ووُحْدانًا؛ فيقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وإنما دعا الله ﷻ لذلك؛ لِيُطلِعَ خلقَهُ على حِكَمِهِ البالغة، التي فيها المصالح والمنافع، التي تُنْبِئُ عن عِلْم وخبرة، وقُدْرة وقوَّة وإرادة، وغير ذلك من أوصاف الكمال؛ فمَن نظر في هذا القرآن، وتدبَّره، وتفكَّر في آياته، عرَفَ أنه من عند الله ﷻ،

وأنه لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خَلْفِه، وأنَّ الخلق لا يُمكِن أن يأتوا بمثل هذا القرآن(١).

ودلَّه التفكُّرُ على الطريق المُنجِية، والصراط المستقيم، وبه يَعرِفُ المعبود بأسمائه وصفاته الكاملة، وبه ينزِّه ربه عمَّا لا يليق؛ يقول الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦ ـ ٨]، ثم قال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: ٩ ـ ١١].

ثم ذكَرَ أحوال المكذِّبين، وما وقَعَ بهم من النِّقَم، وما حلَّ بهم من المَثُلات؛ فهو يُرشِدُنا ـ **كما قال ابن القيِّم** ـ: «إلى النظر في العالم العُلْوِيِّ وبنائه وارتفاعِه، واستوائه وحُسْنِهِ والتئامِه، ثُمَّ إلى العالم السُّفْلِي؛ وهو الأرض، وكيف بسَطَها، وهيَّأها بالبسط لما يرادُ منها، وثبَّتها بالجبال، وأودَعَ فيها المنافع، وأنبَتَ فيها مِن كلِّ صنفٍ حَسَنٍ من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره، ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تَبصِرةٌ إذا تأمَّلها العبد المنيب وتبصَّر بها، تذكَّر ما دلَّت عليه مما أخبَرَتْ به الرسل من التوحيد والمعاد:

فالناظِرُ فيها يتبصَّر أولًا، ثم يتذكَّر ثانيًا، وأنَّ هذا لا يحصُلُ إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكُّر في مادَّة أرزاقهم وأقواتهم، وملابسهم ومَرَاكبهم وجنَّاتهم؛ وهو الماء الذي أنزله من السماء، وبارَكَ فيه حتى أنبت به جنات مختلِفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود، وأحمر وأصفر، وحلو وحامض، وبين ذلك، مع اختلاف منابعها، وتنوُّع أجناسها»(٢).

ويقول ؒ: «الرب تعالى يدعو عبادَهُ في القرآن إلى معرفتِهِ من **طريقَيْن**:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

والثاني: التفكُّر في آياته وتدبُّرها.

فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأول: كقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠]؛ وهو كثير في القرآن.

---

(١) انظر: «شفاء العليل» (٢/ ٥٦٠).

(٢) «الفوائد» (ص٩ ـ ١٠).

والثاني: كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]؛ وهو كثير أيضًا.

فأمَّا المفعولات: فإنها دالَّةٌ على الأفعال، والأفعالُ دالَّةٌ على الصفات؛ فإن المفعول يدُلُّ على فاعلٍ فعَلَهُ، وذلك يستلزِمُ وجوده وقدرته، ومشيئته وعلمه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختياريِّ من معدوم، أو موجودٍ لا قدرةَ له ولا حياة، ولا عِلْمَ ولا إرادة، ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوِّعة دالٌّ على إرادة الفاعل، وأنَّ فعله ليس بالطبعِ بحيثُ يكون واحدًا غير متكرِّر، وما فيها من المصالح والحِكَم والغايات المحمودة دالٌّ على حِكْمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دالٌّ على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دالٌّ على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دالٌّ على محبَّته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخِذْلان دالٌّ على بُغْضِه ومَقْته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف، ثم سَوْقِه إلى تمامه ونهايته، دالٌّ على وقوع المعاد، وما فيها مِن أحوال النبات والحيوان وتصرُّف المياه دليلٌ على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليلٌ على صحة النبوَّات، وما فيها من الكمالات ـ التي لو عَدِمَتْها كانت ناقصة ـ دليلٌ على أن معطي تلك الكمالات أحقُّ بها.

فمفعولاته مِن أدلِّ شيء على صفاته، وصِدْق ما أخبَرَتْ به رسله عنه؛ فالمصنوعات شاهدة، تصدِّقُ الآيات المسموعات، منبِّهةٌ على الاستدلال بالآيات المصنوعات؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أي: أن القرآن حقٌّ، فأخبر أنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبيِّن لهم أن آياته المتلوَّة حقٌّ»(١).

يقول عطاء: «دخلتُ أنا وعُبَيْد بن عُمَيْر على عائشة، فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تَزُورَنا، فقال: أقول: يا أُمَّهْ! كما قال الأول: زُرْ غِبًّا، تَزْدَدْ حُبًّا، قال: فقالت: «دَعُونا مِن رَطَانَتِكم هذه»، قال ابن عُمَيْر: أخبرينا بأعجب شيء رأيتِهِ من رسول الله ﷺ، قال: فسكَتَتْ، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: «**يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**»، قلتُ: والله، إني لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وأُحِبُّ ما سرَّك، قالت: فقام فتطهَّر، ثم قام يصلِّي، قالت: فلم يَزَلْ يبكي حتى بَلَّ حجره، قالت: ثم بكى،

(١) المصدر السابق (١/ ٢٨ ـ ٢٩).

فلم يَزَلْ يبكي حتى بَلَّ لحيته، قالت: ثم بكى، فلم يَزَلْ يبكي حتى بَلَّ الأرض، فجاء بلال يُؤذِنُهُ بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، لِمَ تبكي وقد غفَرَ الله لك ما تقدَّم وما تأخَّر؟! قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟! لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾»[1] [آل عمران: ١٩٠].

وقد جاء عن ابن عبَّاس رضي الله عنه؛ **أنه قال**: «بِتُّ عند خالتي ميمونة، فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً، ثمَّ رَقَدَ، فلما كان ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ، قَعَدَ، فنظَرَ إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثُمَّ قَامَ فتَوَضَّأَ واسْتَنَّ فصَلَّى إحدى عَشْرةَ رَكْعةً، ثُمَّ أَذَّنَ بلالٌ، فصلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثم خرَجَ فصلَّى الصُّبْحَ»[2].



---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخوان» (١٠٥)؛ ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٢٥٦)، وابن حبان (٦٢٠)؛ واللفظ له، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٦١٣ ـ ٦١٤)، وصحَّحه ابن حبان، وقوَّاه العُقَيْلي من هذا الوجه، وسكت عنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٥١٤)، وحسَّنه الألباني في «الترغيب» (٢/ ٢٢٠)، و«الصحيحة» (٦٨). وأما حديث: «زِرْ غبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»، ففيه كلام كثير عند أهل العلم. انظر: «الفتح» (١٠/ ٥١٤)، و«المقاصد» (٥٣٧)، و«اللآلئ المنثورة» (ص٤٦). وجمع فيه الحافظ أبو نعيم جزءًا مفردًا، وكذا الحافظ ابن حجر؛ كما في «الفتح» (١٠/ ٥١٤)، و«المقاصد» (٥٣٧)، و«الجواهر والدرر» للسخاوي (٢/ ٦٧٤)، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٧٦٣).

مجالات التفكُّر

الحديث عن مجالات التفكُّر ينتظِمُ سبعَ وَقَفاتٍ:

الوَقْفة الأولى:

في ذِكْرِ الأمور التي يجري فيها التفكُّر، ويتعلَّق بها لدى العقلاء.

وهي: إمَّا غايةٌ مطلوبةٌ مِن جَلْب نَفْع أو دَفْع ضرٍّ، أو وسيلةٌ موصِّلةٌ إلى تلك الغاية؛ وإنما يخرُجُ عن ذلك أهلُ الخيالات الفاسدة؛ كما سيأتي.

الوقفة الثانية:

التفكُّر له محلَّان؛ فهو إمَّا أن يكون في أمور الدنيا، وإمَّا أن يكون في أمور الآخرة[١].

فأرباب الدنيا: إنما تفكُّرهم فيما هم فيه مِن مطالب دنياهم، ووسائل تحقيقها، مع مراعاة المضارِّ ووسائلها وكيفيَّة تلافيها.

فهو يفكِّر في المال، وكيف يجمعه من حِلِّه ومن غير حِلِّه، ويفكِّر في الفقر، وكيف يمنعه ويَكُفُّ عن نفسه شرَّه ووباله.

وأمَّا أهل الآخرة: فغايتُهم: رضا الله ومحبَّته وقُرْبه، وما يعقُبُ ذلك من دخول الجنَّة والتنعُّم بأطايب مَلَاذِّها.

فهذه قُصُودُهم، وتلك حاجاتُهم؛ فهم مشغولون بها وبأسبابها الموصِّلة إليها، كما أنهم مشغولون أيضًا بتلك المخاوف العظيمة، والمنازل الوبيلة الوخيمة، وذلك العذابِ الأليم الذي يعقُبُ سخَطَ الله ومقته، وأسباب وقوع ذلك بهم ووصوله إليهم، وكذا أسباب النجاة من مَعَرَّتِهِ وخِزْيِه، ووسائل الفرار من أليم ضَرَره، ولواحق أَثَره.

الوقفة الثالثة:

ينبغي للعاقل أن يَصرِف همَّته في التفكُّر فيما يعنيه؛ وإذا فعَلَ ذلك، يكون قد دخل في أبواب التفكُّر المحمود الذي ينفعه وتحصُلُ به العواقب الطيِّبة الحميدة؛ سواءٌ كانت دنيوية، أو أُخْروية.

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٤٢).

وأما إذا أشغل فِكْره وعَقْله بالتفكُّر في أمور تضرُّه، فإن ذلك يُؤذِنُ بخراب دنياه وآخِرَته؛ ولهذا يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنفَعُ الدواء: أن تَشغَلَ نفسك بالفِكْرِ فيما يعنيك، دون ما لا يعنيك؛ فالفكر فيما لا يعني بابُ كل شَرّ، ومن فكَّر فيما لا يعنيه، فاته ما يعنيه، واشتغَلَ عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه؛ فالفكر والخواطر والإرادة والهمَّة أحقُّ شيء بإصلاحه من نفسك؛ فإن هذه خاصَّتك وحقيقتك التي تَبتعِد بها أو تَقترِب من إلٰهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلا في قُرْبه ورضاه عنك، وكل الشقاء في بُعْدِك عنه وسخطه عليك، ومن كان في خواطِره ومجالات فِكْره دنيئًا خسيسًا، لم يكن في سائر أمره إلَّا كذلك»[(١)].

فإذا انشغَلَ العبد بما يعنيه، سَلِمَ ـ بإذن الله ـ في دينه ودنياه من المتاهات المُضِلَّة، والعقائد الفاسدة، والخواطر الرديئة، والاسترسال مع وساوس الشيطان التي تكون أوَّلًا خاطرةً، فإنْ دافَعَها، وإلَّا صارت فكرةً، فإن دافَعَها، وإلا صارت عزيمةً، ثم تكون عملًا.

الوقفة الرابعة:

التفكُّر إنما يكون في مخلوقات الله ﷻ، وليس في كُنْهِ ذاتِه، بل يكون في دلائل عظمته ووَحْدانيَّته وقُدْرته، والأمورِ التي يعرف العبد بها صفاتِ جلاله، ونعوتَ كماله.

يقول ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «تفكَّرُوا في كُلِّ شيءٍ، ولا تفكَّرُوا في ذات الله»[(٢)].

ويقول إسحاق بن راهويه: «لا يجوز الخوض في أمر الله؛ كما يجوز الخوض في فعل المخلوقين؛ لقول الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولا يجوز لأحد أن يتوهَّم على الله بصفاته وفعاله بفهم، كما التفكُّر والنظر في أمر المخلوقين؛ وذلك أنه يُمكِن أن يكون الله ﷻ موصوفًا بالنزول كل ليلة إذا مضى ثلثاها إلى السماء الدنيا كما يشاء، ولا يُسْأَلُ: كيف نزوله؟ لأنه الخالق يَصنَعُ ما شاء كما يشاء»[(٣)].

فإذا انشغَلَ بمثل ذلك، وحار في كُنْهِهِ وتأويلِه، وقع في الشبهات المضلَّة، فهذا وأشباهه مما لا يعنيه التفكير فيه، بل لا يجوز له أصلًا، لكنْ لو أنه فكَّر في هذا الأثر الوارد في نزول الربِّ ﷻ في ثلث الليل الآخر مِن جهة ما يعنيه، فإنَّ ذلك يَحمِلُه على قيام الليل، والابتهال إلى الله ﷻ والدعاء والتضرُّع إليه سبحانه.

(١) «الفوائد» (ص٢٥٥).
(٢) «الدر المنثور» (١/ ١١٠).
(٣) أخرجه أبو إسماعيل الهروي في «ذم الكلام» (١١٨٤).

الوقفة الخامسة: أنفع التفكُّر:

التفكُّر يتفاوت؛ فمنه: ما هو ضار، ومنه: ما هو نافع، وكل منهما متفاوِتٌ أيضًا؛ فأنفَعُهُ: التفكُّر في تحصيل ما ينفعه ويرفعه في آخرته، ودَفْعِ ما يضرُّ بآخرته، أو ينقُصُ مرتبَتَهُ فيها، مع النظر في أسباب كل منهما.

فهذا أجلُّ التفكُّر وأنفعه، ويليه: التفكُّر في مصالح الدنيا وسبل ذلك، والنظر فيما يضرُّ بدنياه، مع ملاحظة أسبابه ليتخلَّص منها.

وعلى هذا يدور فِكْرُ العقلاء.

أما الأوَّل؛ وهو ما ينفَعُ في الآخرة: «فرأسه: الفكر في آلاء الله ونِعَمه، وأمرِه ونهيه، وطرق العلم به، وبأسمائه وصفاته، من كتابه، وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وما والاهما.

وهذا الفكر يُثمِرُ لصاحبه المحبَّة والمعرفة، فإذا فكَّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخِسَّتها وفنائها، أثمَرَ له ذلك الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما فكَّر في قِصَرِ الأمل، وضيق الوقت، أورثه ذلك الجِدَّ والاجتهاد، وبذل الوسع في اغتنام الوقت، وهذه الأفكار تُعلِي همته وتُحيِيها بعد موتها وسفولها، وتجعَلُهُ في وادٍ والناس في وادٍ»[(١)].

ومن المعلوم: أن مَن يطلب شيئًا، فهو محبٌّ له، مُؤثِرٌ لقربه، ساعٍ في طريق تحصيله، متوصِّلٌ إليه بجهده؛ وهذا دليل على تعلُّقه بهذا الشيء، وأنه يحبُّه ويقدِّمه ويُؤْثِره على غيره، وهذه المحبَّة هي التي تبعثه على العمل والجِدِّ لتحصيل هذا المطلوب، وهكذا كلَّما كان يُبغِضُ شيئًا، فإنه يَنفِرُ منه، ويَنفِرُ من الأسباب التي توصِّله إليه، ويتعاطى الأسباب التي تُباعِدُهُ عنه.

فالحاصل: أن الإنسان الذي قد ملأت محبَّة هذا المحبوب قلبه، لا يشغل فكره إلا في الأمور التي تقرِّبه إليه، وفي النظر في الأمور التي تُباعِدُه عنه، وهو بهذا الاعتبار بالنسبة لله ﷻ يكون متفكِّرًا في أوصاف كمالاته ﷻ.

«ويتفكَّر أيضًا في أفعال الربِّ ﷻ، وفي إحسانه وبرِّه ولطفه، وكذلك أيضًا إذا نظَرَ في حال نفسه، فهو يفكِّر في الأمور التي يَكْرَهُها ربه؛ فيتجنب ذلك، ويتفكَّر أيضًا في الصفات التي يحبُّها ربه؛ أن تُوجَدَ فيه، فيتصف بهذه الأوصاف:

فالفكرتان الأُولَيَان[(٢)]: توجبان له زيادة محبَّته وقوتها وتضاعفها.

---

(١) «الفوائد» (ص٢٨٧).

(٢) الفكرتان الأُولَيَان، هما: التفكُّر في أوصاف الربِّ وأفعاله.

والفكرتان الأُخْرَيان[١]: توجبان له محبَّة محبوبه له، وإقباله عليه، وقُرْبه منه، وإيثاره على غيره.

فالمحبَّة التامَّة مستلزِمة لهذه الأفكار الأربعة.

فالفكرتان الأولى والثانية: تتعلَّقان بعلم التوحيد، وصفات الإلٰه المعبود، وأفعاله سبحانه.

والثالثة والرابعة: تتعلَّقان بالطريق الموصِّلة إليها، وقواطعها وآفاتها، وما يمنع من السير فيها إليه؛ فتفكُّرُهُ في صفات نفسه يميِّز له المحبوب لربه منها مِن المكروه له.

وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور:

الأول: أن هذا الوصف: أهو مكروه مبغوض لله، أم لا؟

الثاني: هل العبد متصِفٌ به؟

الثالث: إذا كان متصفًا به فما طريق دفعه والتخلُّص منه؟ وإنْ لم يكن متصفًا به، فما طريق حفظ الصحَّة ببقائه على العافية من هذا الأمر، وكيف يَحترِز منه؟

وكذلك الفكرة في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثة أمور:

الأول: هذه الصفة: أهي محبوبة لله ﷻ مرضيَّة له، أم لا؟

الثاني: هل العبد متصف بها؟

الثالث: أنه لو كان متصفًا بها، فما طريق حفظها ودوامها؟ وإنْ لم يكن متصفًا بها، فما طريق التخلُّق بها وتحصيلها؟

ثم فكرة العبد في الأفعال أيضًا على هاتَيْن الوجهتَيْن، ومجاري هذه الأفكار ومواقعها كثيرة جِدًّا ـ كما يقول ابن القيِّم ـ: لا تكاد تنضبط؛ يقول: «وأنا أحصُرُها في ستة أجناس:

الطاعات الظاهرة والباطنة، والمعاصي الظاهرة والباطنة، والصفات والأخلاق الحميدة، والأخلاق والصفات الذميمة.

فهذه مَجَارِي الفكرة في صفات نفسه وأفعالها.

وأما الفِكْرةُ في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه، فتُوجِب له التمييز بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والإقرار والتعطيل، وتنزيه الرب عما لا يليق به، ووصفِهِ بما هو أهله من الإجلال والإكرام، ومجاري هذه الفكرة: تدبُّرُ كلامِه، وما تعرَّف به

(١) الفكرتان الأُخْرَيان، هما: تفكُّرُ العبد في الصفات التي يَكرَهُها الرب فيجتنبها، وفي الصفات التي يحبُّها الرب فيَفعَلُها.

سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله مِن أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزَّه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به ﷻ، وتدبُّر أيَّامه وأفعاله، في أوليائه وأعدائه التي قصَّها على عباده، وأشهَدَهم إيَّاها؛ ليستدلُّوا بها على أنه إلٰههم الحق المُبِين، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدِلُّوا بها على أنه على كلِّ شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه شديد العقاب، وأنه غفور رحيم، وأنه العزيز الحكيم، وأنه الفعَّال لما يريد»(١).

وبهذا نعلم: أن أعلى الأفكار وأنفعها هو ما كان لله وللدار الآخرة، ويُمكِن حَصْرُ ذلك في خمسة أمور؛ وهي:

١ ـ التفكُّر في آيات الله المنزلة، وفَهْمها، وفهم مراد الله ﷻ منها:

فالله ﷻ إنما أنزَلَها لنتدبَّرها ونتفهَّمها لا لمجرَّد التلاوة؛ فالتلاوة وسيلة لهذا المطلوب؛ ولهذا قال الحسَن البصري: «إنما نزَلَ القرآن ليُعمَلَ به؛ فاتخَذَ الناس قراءته عملًا»(٢).

قال ابن القيِّم: «وبالجملة: فلا شيءَ أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّرِ والتفكُّر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يُورِث المحبَّة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكُّل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القَلْب وكَمَالُه.

وكذلك يزجُرُ عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو عَلِمَ الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر، لاشتغَلُوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرَأَهُ بتفكُّر حتى مر بآية وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه، كرَّرها ولو مائةَ مرَّة، ولو ليلةً؛ فقراءة آية بتفكُّر وتفهُّم خير من قراءة خَتْمة بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفَعُ للقلب، وأَدْعى إلى حصول الإيمان وذَوْق حلاوة القرآن؛ وهذه كانت عادة السلف؛ يردِّد أحدهم الآية إلى الصباح.

وقد ثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قام بآية يردِّدُها حتى الصباح؛ وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨](٣).

فقراءةُ القرآن بالتفكُّر هي أصل صلاح القلب...

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٥٠ وما بعدها)؛ بتصرف. وانظر: «الفوائد» (ص٢٨٧ فما بعدها).

(٢) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (١١٦).

(٣) أخرجه النسائي (١٠١٠)، وابن ماجه (١٣٥٠)؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصحَّحه الحاكم (١/ ٢٤١)، والذهبي، والعراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٣١)، والبوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ١٥٩)، والألباني في «تخريج صفة الصلاة» (٢/ ٥٣٤).

والتفكُّر في القرآن نوعان:

- تفكُّرٌ فيه؛ ليقع على مرادِ الربِّ تعالى منه.
- وتفكُّرٌ في معاني ما دعا عباده إلى التفكُّر فيه.

فالأوَّل: تفكُّر في الدليل القرآني.

والثاني: تفكُّر في الدليل العِيَاني.

الأوَّل: تفكُّر في آياته المسموعة.

والثاني: تفكُّر في آياته المشهودة.

ولهذا أنزَلَ الله القرآنَ؛ لِيُتَدَبَّرَ ويُتَفَكَّرَ فيه، ويُعْمَلَ به، لا لمجرَّد تلاوته مع الإعراض عنه»[1].

٢ ـ التفكُّر في آيات الله:

المشاهدة، والاعتبارُ بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته، وحكمتِهِ وإحسانِهِ وبِرِّهِ وجُودِه، وقد حثَّ الله ﷻ على ذلك، وذمَّ من غفَلَ عنه.

٣ ـ التفكُّر في آلائِهِ وإحسانِهِ وإنعامِهِ على خلقِهِ بأنواع النعم، وبسَعَةِ مغفرته ورحمته وحِلْمه:

فهذه ثلاثة أنواع مِن أنواع التفكُّر إذا حصَلَتْ للعبد، حصَلَ له معرفة المعبود ﷻ؛ فأحبَّه وخافَهُ ورجاه؛ ولذا قال ابن القيِّم رحمه الله: «مَن عرَفَ اللهَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، أحبَّه لا محالةَ»[2]، وإذا داوَمَ العبد على هذا التفكُّر مع الذكر، فإنَّ قلبه ينصبغُ في المعرفة والمحبَّة صبغةً تامَّةً، فتستولي الرغبة في الآخرة على قلب هذا العبد.

٤ ـ التفكُّر في عيوب النفس وآفاتها، وفي نقائص عمله وتقصيره فيه:

فهذا يحتاجه العبد لِيَدفَعَ عن نفسه العُجْبَ والغرور والاسترسال في الخطأ، والتمادي في الضياع والضلال، والمعصية والبدعة، وما إلى ذلك؛ فإذا تفكَّر العبد في عمله ونقصه وعجزه وضعفه، أنكَرَ شموخه؛ فلا يحصُلُ له التعالي والكِبْر والعُجْب، وتنكسِرُ نفسه الأمَّارة بالسوء، فإذا انكسَرَتْ تلك النفس الأمَّارة بالسوء، قويت النفس المطمئنَّة، ونَشِطَتْ للعمل الصالح، وصار التدبير لها؛ فيحيا القلب، وينشغل العبد في الأمور الطيِّبة النافعة التي تقرِّبه إلى الله ﷻ.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٥٣ ـ ٥٥٥).
(٢) «مدارج السالكين» (٣/١٨).

٥ ـ التفكُّر في واجب الوقت ـ كما يسمِّيه ابن القيِّم ـ ووظيفتِهِ، وجمعِ الهَمِّ عليه:

فالعارف ابن وقته، وفُرَصُ الخير قد لا تعود، والحياة دقائق وأنفاس تتردَّد، ثم لا ترجع إليه ثانيًا، فيحتاج العبد إلى أن يفكِّر في كل لحظة تمر به: ما هو الأجدى والأنفع في أن تنشغِلَ به؟ فإذا جاء موسم الحجِّ اتَّزَرَ وارتدى إحرامَهْ، وإذا دعا داعي الجهادِ لم تَرَ إلا تلبيَتَهُ وإقدامَهْ، وإذا دُعِيَ إلى الصدقةِ أرخى عن كِيسِهِ زِمَامَهْ، وهكذا؛ فهو في كل وقت يتبصَّر ويتفكَّر في الأمور التي هي أجدى وأنفع في هذا الوقت خاصَّة؛ لأن جميع المصالح إنما تنشأ من الوقت ـ كما يقول ابن القيِّم ـ فمتى أضاع الوقت، لم يستدرِكْهُ أبدًا؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «**نِعْمَتَان مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، والفَرَاغُ**»[١].

فما كان مِن وقتك لله وبالله، فهو حياتك في الحقيقة وعُمْرُك، وأما ما عدا ذلك، فليس من الحياة؛ لأن الإنسان يعيش فيه عيش البهائم، فإذا قَطَعَ العبد وقته في الغفلة والشهوة والأماني الفارغة، وأقلُّ ذلك: أن يقطعه بالنوم والبَطَالة، فموته خير له من حياته ـ كما يقول ابن القيِّم ـ وذلك أن العبد إذا كان في صلاته، فليس له إلا ما عقَلَ منها؛ فكذلك ليس له من العُمْر إلا ما كان فيه بالله ولله.

وما عدا هذه الأقسام من الخَطَرات والأفكار، فهي إما وساوس شيطانيَّة، وإما أمانيُّ باطلة، وخُدَعٌ كاذبة، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السُّكَارى والمحشوشين والمُوَسْوِسين، ولسانُ حال هؤلاء يقول عند اكتشاف الحقائق:

إِنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الحُبِّ عِنْدَكُمُ ... مَا قَدْ لَقِيتُ فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامِي
أُمْنِيَّةٌ ظَفِرَتْ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا ... وَالْيَوْمَ أَحْسِبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامِ[٢]

وقد ركَّب الله سبحانه في الإنسان نَفْسَيْن: نَفْسًا أمَّارةً، ونفسًا مطمئنَّةً، وهما متعادِيَتان؛ فكلُّ ما خَفَّ على هذه، ثَقُلَ على هذه، وكل ما التذَّتْ به هذه، تألَّمت به الأخرى؛ فليس على النَّفْس الأمَّارة أشَقُّ من العمل لله وإيثارِ رضاه على هواها، وليس لها شيءٌ أنفَعُ منه، وكذا ليس على النَّفْس المطمئنَّة أشقُّ من العمل لغير الله وإجابةِ داعي الهوى، وليس عليها شيءٌ أضرُّ منه، والمَلَكُ مع هذه عن يمين القلب، والشيطانُ مع تلك عن ميسرة القلب، والحربُ مستمرَّة لا تضع أوزارها، إلى أن تستوفي أجلها من الدنيا، والحربُ دُوَلٌ وسِجَال، والنصر مع الصبر، ومَن صَبَرَ وصابر ورابط

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) «ديوان ابن الفارض» (ص١١٩).

واتقى الله، فله العافية في الدنيا والآخرة[1].

فهذا ما يتعلَّق بأنفع الفِكْر، وهو الذي قصدنا إيضاحه أولًا.

وأما النوع الآخر من الفكر النافع: فهو التفكير فيما ينفعه في دنياه مما يسعى في تحصيله لنفعه، أو يَجتهِدُ في دفعه لضرره، وهذا دون الأول؛ كما لا يخفى.

الوقفة السادسة: تَفكَّرْ في كل ما حولك:

قال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرُجُ من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيتُ لله عليَّ فيه نِعْمة، أو لي فيه عِبْرة»[2].

فاجعَلْ هذا خُلُقًا لك، وعَوِّدْ نفسك على التفكُّر في كل ما حولك، والاعتبار والنظر، وإعمال العقل، ولا تَكُنْ من الغافلين؛ فإذا جلَسْتَ على الطعام، ففكِّر في وصوله إليك، فلربَّما وصل من وراء البحار ألوان الفواكه والثمار التي لا يَعرِفُها أهل تلك البلاد لِفَقْرِهم وعجزهم عن تحصيلها، ومع مَن تُجْبَى إليك حتى تكون بين يديك!

ثم انظُرْ ما الذي يجب أن يكون لديك تُجَاهَ نعمة الله عليك؛ ألست ستُحاسَبُ عليها؟! وأن الذي أعطاكها وحَرَمَ الآخرين قادرٌ على أن يرفعها عنك، ويَجعَلَك تسمع بها ولا تراها؟! أليس في تعدُّدِها ما يوجب عليك أنواع العبوديَّات لله ﷻ؟!

يقول عبد الرزَّاق الصَّنْعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَدِمَ علينا الثوري صنعاء، فطَبَخْتُ له قِدْر سِكْبَاج، فأكل، ثم أتيته بزبيب الطائف، فأكل، ثم قال: يا عبد الرزَّاق، اعلِفِ الحمار وكُدَّهُ، ثم قام يصلِّي حتى الصباح»[3]؛ ليُقابِلَ هذه النعمة التي أنعَمَ الله ﷻ بها عليه، وكان يقول: «إنَّ الحمارَ إذا زِيدَ في عَلَفِه، زِيدَ في عَمَلَه»[4]، فكان إذا أكَلَ، جَدَّ في العبادة.

وهكذا فَكِّرْ في كل شيء:

فإذا رَكِبْتَ الطائرة، وارتفَعَتْ بك إلى أجواء السماء، ورأيتَ السحب كالجبال، فتذكَّر عظمة الله ﷻ ووَصْفَهُ لها بأنها كالجبال، ثم انظر إلى الأرض مِن تحتك لترى بديع صنع الله.

(١) انظر: «الجواب الكافي» (ص٣٦٠ ـ ٣٦١).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التفكُّر»؛ كما عزاه إليه ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٨٤).
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٥٩).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٨٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٥٩)؛ وإسناده صحيح إلى سفيان.

وإذا ذهَبْتَ إلى المقابر، ففَكِّرْ في أمنيَّات أهلها، وأن أحدهم يتمنَّى أنْ لو أُعِيدَ ليعمل صالحًا؛ فهذا أنت في نعمة وعافية وستر؛ فاعمَلْ ما تمنَّاه هؤلاء لو أُعِيدُوا.

فكِّرْ في الصبي حينما يَشِبّ؛ كيف يتحوَّل ذلك الشباب بنضارتِهِ وحُسْنه، إلى ضعف وعجز وشَيْبة.

وَإِذَا نَـظَـرْتَ تُـرِيـدُ مُـعْـتَـبَـرًا ... فَـانْـظُـرْ إِلَـيْـكَ فَـفِـيـكَ مُـعْـتَـبَـرُ
أَنْتَ الَّذِي يُـمْسِي وَيُصْبِحُ فِي الدْ ... دُنْـيَـا وَكُـلُّ أُمُـورِهِ عِـبَـرُ
أَنْـتَ الـمُـصَـرَّفُ كَـانَ فِـي صِـغَـرٍ ... ثُـمَّ اسْـتَـقَـلَّ بِـشَـخْـصِـكَ الْـكِـبَـرُ
أَنْـتَ الَّـذِي تَـنْـعَـاهُ خِـلْـقَـتُـهُ ... يَـنْـعَـاهُ مِـنْـهُ الـشَّـعْـرُ وَالْـبَـشَـرُ
أَنْـتَ الَّـذِي تُـعْـطَـى وَتُـسْـلَـبُ مَـا ... يُـنْـجِـيـهِ مِـنْ أَنْ يُـسْـلَـبَ الـحَـذَرُ
أَنْـتَ الَّـذِي لَا شَـيْءَ مِـنْـهُ لَـهُ ... وَأَحَـقُّ مِـنْـهُ بِـمَـالِـهِ الْـقَـدَرُ(١)

فَكِّرْ في حال الناس في دنياهم؛ كيف يَسْعَوْنَ في الأرض يبتغون من فضل الله، ثم يَأْوُونَ إلى بيوتهم؛ حتى إذا ما جاء أَجَلُ أحدهم، ترَكَ سَعْيَهُ الذي كان يسعى، وبَيْتَهُ الذي كان فيه يَحْيَا، ذلك البيتُ الرحيبُ الفسيح، وأثاثُهُ الحسَنُ المليح، يتركه إلى بيت الوَحْشة، وبيت الدُّود.

وإذا رأيتَ الربيع، وأعجَبَكَ حُسْنُه، واستهواك نباتُهُ وخُضْرَتُهُ ونضارته وأزهاره، ففَكِّرْ فيه بعد شهور؛ كيف يضمحِلُّ ويتلاشى، ويتحوَّل إلى هَشِيم تَذرُوهُ الرياح؟!

وهكذا الحياة الدنيا؛ تُبْهِجُ المرءَ غرورًا وخَتْلًا، وقد يبني فيها ويؤثِّثُ قَصْرَهُ بأحسن الأثاث، حتى إذا ما أعجبه قصره وأثاثه، ظهَرَتْ له من عوراته وعيوبه ما يزهِّدُهُ فيه ويبغِّضه إليه، ثم تَتُوقُ نفسه إلى شيء آخر جديد مستَحْسَن، حتى إذا مَلَّهُ، رام غيره، وهكذا بلا انقطاع، ولا يملأ عينَ ابنِ آدَمَ إلا التراب، ومهما حصَّل من مَتَاع الدنيا، فسرْعان ما تَؤُولُ همته إلى مَلَالة وزهادة، وهكذا تمضي به الحياة الدنيا وقد أخلَدَ إلى الأرض بين الرجاء فيها وطُول الأمل.

وتأمَّل في لذَّاتك المنصَرِمة؛ كانت قريبًا جميلَ الأماني، فأضحى التنائي بديل التداني.

إنَّ هذا أمرٌ ينبغي أن نُخاطِبَ به أنفسنا، وأن نفكِّر فيه جيِّدًا؛ فإلى متى هذا التفريط؟! أين التشمير لتحصيل معالي الأمور من العلم النافع والعمل الصالح؟! كم مضى عليك مِن العُمْر وأنت فيما أنت فيه؟! لقد عاتب الله أولياءه؛ حيثُ استبطَأَهُمْ في

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٨٧)؛ وعزاه لـ «التفكُّر» لابن أبي الدنيا.

القدوم إليه سراعًا خاشعين؛ فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

ثم أليس غدًا ستموت؟! أَيَسُرُّكَ أن يصحبك إلى القبر عملك الذي عَمِلْت، وجَنَاك الذي جَنَيْت؟!

فلا تغترَّ بما تراه من العَرَضِ الكثير؛ فهؤلاء لن يَحمِلوا شيئًا منه إلى قبورهم، ولا يستطيع أغنى الناس أن يأكل أكثر مما يأكل أفقر الناس، ولو فعَلَ، لأصابته التُّخَمة، ولتعرَّض لأمراض وعلل قد تُودِي به.

انظر إلى حال كثير ممن أُعطِيَ الغنى واعتَبِرْ بهم، انظر إلى ذاك الثوب الذي يلبسه ما الفرق بينه وبين ثوبك؟! فقد يكون الثوب الذي تلبسه أفضل منه.

وقد لا يكون لك من الدخل مِعْشار ما لغيرك، ولكنك في نعمة وعافية، وعندك من الملبوس والمأكول ما يكفيك ويكفي من تَعُول.

عن سَلَمة بن عُبَيْد الله بن مِحْصَن، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»(١).

فالفرق بينك وبين صاحب الدنيا: أنه يشقى بجمعها، ويُحاسَبُ عليها، ويُصِيبه ما يصيبه من الهموم والآلام والنَّكَد في التفكُّر في حفظها؛ ولذلك تجد مَن لا يملك من العَرَضِ إلا القليل في راحة وسكينة، والذي يملك العَرَضَ الكثير مشتَّتَ الذهن؛ **فتارَةً:** في البورصة، **وتارَةً:** عند أبواب البنوك، **وتارَةً:** عند أسعار السُّوق العالمية والمحليَّة؛ فهؤلاء لا يَهْنَؤُونَ بحال؛ أفيسرُّك أن تكون بتلك المثابة، وهذا السبيل؟!

ولعلك مَرَرْتَ يومًا بأرض ذات زَرْع مُونِق، وأشجار ذات ثمار وأزهار، والماءُ يجري مِن خلالها، فيسقي أصولَها، فتهتَزُّ فروعها، ثم مررتَ بعد ذلك بها؛ فإذا هي خاوية على عروشها، كأعجاز نخل لا ثمر بها ولا ظل لها؛ كم أنفق عليها أهلها؟! وكم كَدُّوا وتعبوا من أجلها؟! فهذا يسقيها، وهذا يحرُسُها، وهذا يقوم عليها ويعتني بها!

وإذا نازعَتْكَ الشهوات، ودعتك النفس إلى معصية الله ﷻ، ففَكِّرْ في المفاسد

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)؛ واللفظ له، وابن ماجه (٤١٤١)، وغيرهما، وحسَّنه الترمذي، وقال ابن السكن: «في إسناده نظر»؛ كما في «الإصابة» (٢/ ٤٣٩)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٣١٧).

المعجَّلة لهذه المعصية، وما تَجُرُّهُ عليك من الآلام والأوجاع والعلل؛ أيًّا كانت هذه المعصية.

وفَكِّرْ أيضًا فيما تجرُّه عليك في الآخرة، واعلم أن الله مُطَّلِعٌ عليك؛ فلا تجعل ربَّك سبحانه أهون الناظرين إليك، ولا تكن من الذين يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يَسْتَخْفُونَ من الله وهو معهم.

وفَكِّرْ في الدنيا وسُرْعة زوالها وانقضائها، واضمحلال لذَّاتها وشهواتها، وتذَكَّرْ ما عند الله ﷻ من العِوَضِ والنعيم المقيم الدائم؛ إذْ كيف تُؤْثِرُ شيئًا زائلًا سريعًا عاجلًا يفنى على شيء أبدي ثابت لا يزول ولا يحول؟! فلا أحد ـ كما يقول ابن القيِّم[(١)] ـ يقدِّمُ هذا العاجل الزائل على الدائم إلا ساقط الهمَّة، دنيء المروءة، مَيِّت القلب، وهذا تكون حسرته عظيمة إذا عاين الحقائق؛ فإنه يُقدِمُ على الله ﷻ إقدام المَفَالِيس.

وهذا مِن أوضح صور الغَبْن الداخلة تحت قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩]؛ فكل إنسان عنده رأس ماله، وهو عُمْره؛ فهذا جَدَّ واجتَهَد، وصرَفَ رأس ماله، في الأمور التي تُبعِدُه عن الله ﷻ وتُورِثه النار؛ بذَلَ الأموال والجهود والأفكار في تحصيل منزل في نار جهنَّم، والآخَرُ بذَلَ نفسه وماله في تحصيل منزل في الجنَّة، ثم بعد ذلك يَقدَمُ هذا وهذا على الله ﷻ.

ومع ذلك: أهل الجنَّة يتوارثون منازل أهل النار في الجنَّة، وأهل النار يتوارثون منازل أهل الجنَّة في النار؛ نعوذ بالله مِن الخِذْلان، وذلك من التغابن!

هذا؛ واعلم أن التفكير طاقة ونِعْمة، فيجب صَرْفُها فيما يُجْدِي من النظر في عجائب آيات الله التي ندَبَ عباده إلى التفكُّر فيها، وهي آياته المتلوَّة، وآياته المجلوَّة، فإذا استولى ذلك على قَلْبِك، دفَعْتَ عنك الشيطان ووساوسه.

الوقفة السابعة: التفكُّر الضارُّ والمذموم[(٢)]:

وهو التفكُّر فيما لا يعنيه، ويدخُلُ في ذلك: اشتغال الفكر بغير الأمور النافعة التي ينبغي أن يجري فيها التفكُّر من الغايات المطلوبة، والغايات المرهوبة، ووسائلهما، دنيويَّةً وأخرويَّة.

فمن التفكُّر المذموم: «التفكُّر في أمور خارجة عما سبق؛ بحيث يعيش الإنسان على الخيالات الرديئة، والأمانيِّ الباطلة؛ كالفقير الذي يتخيَّل نفسه من أغنى البشر، يُعطِي ويأخذ، ويُنعِم ويَحرِم، وكذلك العاجز المقهور الضعيف حينما يتخيَّل نفسه من أقوى

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٠٨).
(٢) انظر: «الفوائد» (ص٢٨٧ ـ ٢٨٨).

الملوك، يتصرَّفُ في البلاد والرعيَّة، ويأمر وينهى، ويُرسِلُ الجيوش، ويَعقِد الألْوِيَة، وغير ذلك من أفكار القلوب البَطَّالة، التي هي من جنس أفكار السَّكْران، والمحشوش، وضعيف العقل؛ فهذه الأفكار الرديئة هي قُوتُ الأنفس التي هي في غاية الدناءة؛ فإنها قد قَنِعَتْ بالخيال، ورضيت بالمُحَال، ولا تزال هذه الأفكار تقوى بها وتتزايد؛ حتى تُوجِبَ لها آثارًا رَدِيَّة، ووساوس وأمراضًا بطيئة الزوال»[1].

ومنه أيضًا: التفكُّر في الأمور التي لم نُكَلَّفْ بالبحث عنها والتفكُّر فيها؛ كالتفكُّر في ذات الله ﷻ، وكُنْهِ صفاته؛ فهذه أمور لا يمكن الوصول إليها، ولا يجوز للإنسان أن يفكِّر فيها.

وهكذا: التفكُّر في الأمور والصنائع التي لا تنفع بل تضُرّ؛ مثل الشِّطْرَنْج، والموسيقى.

وكذلك: التفكُّر في العلوم التي لم يحصِّل الفكرُ فيها كمالًا، ولم يحصِّلْ صاحبه شَرَفًا حين يحصِّلُها؛ كالتفكُّر في دقائق المنطق والفلسفة؛ فمهما بلَغَ الإنسان في هذه الأشياء، فإنه لا يحصِّلُ شَرَفًا، بل هي نقصٌ في حقِّه.

وهكذا: التفكُّر في الشهوات واللذَّات المحرَّمة، وطرق تحصيلها.

فهذه أمور عاقبتها سيئة في الدنيا قبل الآخرة، والأمورُ المنغِّصة فيها أضعاف اللذَّات التي يجدها مقترِفُها عند مقارَفَتها.

ومنه: التفكُّر بالفرضيَّات؛ كمن يقول: لو صِرْتُ مَلِكًا، كيف سأتصرَّف في كذا وكذا؟! أو يقول: لو عثَرْتُ على كنز، فكيف أنفقه؟! وماذا سأصنع بهذا المال كله؟! فهذا وأمثاله من أفكار سِفْلَةِ الناس الذين لا هِمَّةَ لهم إلا في تخيُّل المُحَالات وأشباهها.

وهكذا: التفكُّر في أمور الناس الخاصَّة؛ كمن يفكِّر في فلان كم يتقاضى على عَمَلِه؟! وكم يحصِّلُ من غَلَّةِ ضَيْعَاتِه؟! وكم يكون رصيده في البنك؟! فهذا ونحوه مِن التفكير المذموم.

وهكذا: التفكُّر في الماضي ـ إلا عند محاسبة النفس ـ فإنه حُمْقٌ وجنون؛ فهو مثل طَحْن الطحين، ونَشْر النُّشَارة، وإخراج الأموات من قبورهم.

وكذلك: التفكُّر في الحِيَل التي يُحتال بها على أحكام الشريعة؛ كحِيَلِ الربا ونحوها.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٤٧ وما بعدها)؛ بتصرف.

وكذا: التفكُّر في بعض الأمور المفضولة؛ كالتفكُّر في الشِّعْرِ وأوزانه وقوافيه، وأغراضه؛ كالمَدْح والهجاء، والغَزَل والمَرَاثي، ونحوها؛ فإنه يُشغِلُ الإنسان عن الفكر فيما فيه سعادته وحياته الدائمة.

وهكذا: في مسائل كثيرة تجدها في بعض كتب أصول الفقه وغيرها؛ مِن أمور لا ينبني عليها عمل، ولا يترتَّب عليها شيء من الأحكام؛ فتجد بعض الأصوليِّين ـ مثلًا ـ يُطِيلون الكلام على بعض المسائل، ويُفسِحُون فيها للجَدَل، ثم بعد ذلك يذكُرُونَ أن هذه المسألة مما لا ينبني عليها عمل[١].

تنبيه:

حينما قلنا: إن التفكُّر في ذات الله ﷻ وفي كُنْهِ صفاته يَضُرُّ؛ فليس المراد بذلك الخواطِرَ التي تخطُرُ للإنسان مما يوسوس الشيطان به ويَقذِفه في قلبه مِن غير كَسْب منه، وقد صحَّ عن ابن عبَّاس ﵄؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنَّ أحدَنا يَجِدُ في نفسه ـ يعرِّض بالشيء ـ لَأَنْ يكونَ حُمَمَةً أحبُّ إليه مِن أن يتكلَّم به، فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**»[٢].

وعن أبي هريرة ﵁؛ قال: جاء ناسٌ مِن أصحاب النبيِّ ﷺ، فسألوه: إنا نَجِدُ في أنفُسِنا ما يَتَعَاظَمُ أحَدُنا أن يَتَكَلَّمَ به، قال: «**وَقَدْ وَجَدتُّمُوهُ؟!**»، قالوا: نعم، قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[٣].

قال ابن القيِّم: «واعلَمْ: أنَّ ورود الخاطر لا يَضُرّ، وإنما يضر استدعاؤه ومحادَثَتُه؛ فالخاطر كالمارِّ على الطريق، فإنْ لم تستدعه، مَرَّ وانصرَفَ عنك، وإنِ اسْتَدْعَيْتَهُ، سَحَرَك بحديثِهِ وخُدَعِهِ وغروره»[٤].

فحقُّ هذه الخواطر: أن تُعرِضَ عنها، ولا تتوقَّفَ عندها، ولا تَسترسِلَ مع التفكُّر فيها؛ فهذه الأشياء تُزعِجُ القلوب الحيَّة، أمَّا صاحب النفس الأمَّارة والقلب المريض، فهو سريع الانقياد للَذَّاته، كلَّما سنَحَ له خاطر من هذه الخواطر، ومَرَّ به، أَوْقَفَهُ وحادثه

---

(١) انظر: «الفوائد» (ص٢٨٨ ـ ٢٨٩)، وللشاطبي كلام جميل في المسائل التي لا ينبني عليها عمل في كتابه «الموافقات». انظر منه: المقدمة الرابعة (١/ ٤١)، والخامسة (١/ ٤٣)، والتاسعة (١/ ١٠٧)، والحادية عَشْرةَ (١/ ١٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٥١١٢)، وصحَّحه ابن حبان (١٤٧)، وسكت عنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٢٨٧)، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنة» (٦٥٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٣٢).

(٤) «الجواب الكافي» (ص٣٦٠)؛ بتصرف.

وناجاه، حتى يتحوَّل ذلك الخاطر إلى عقيدة راسخة، أو إلى شبهات مزعِجة مُقْلِقة، تُفسِد عليه آخرته.

والمقصودُ: أنَّ ما يَسنَحُ للفِكْرِ من عواجل الخَطَرات المفاجئة، فهذا لا يؤاخَذُ به، ولا يُلام عليه؛ إذا سنَحَ فلم يسترسِلْ معه بل دافَعَهُ واستعاذ بالله منه، وقد جاء عن أبي هريرة ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر: «أي: عن الاسترسال معه في ذلك، بل يَلْجَأُ إلى الله في دَفْعه، ويعلم أنه يريد إفساد دِينه وعقلِهِ بهذه الوسوسة؛ فينبغي أن يَجتهِدَ في دفعها بالاشتغال بغيرها»[(٢)].

وقد حرَّر شيخ الإسلام ابن تيميَّة القول في هذا، فقال: «والذي أمَرَ به في دفع هذا الوسواس ليس هو الاستعاذة فقطْ، بل أمَرَ بالإيمان، وأمر بالاستعاذة، وأمر بالانتهاء، ولا طريق إلى نَيْل المطلوب من النجاة والسعادة إلا بما أمَرَ به، لا طريق غير ذلك»[(٣)].



(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)؛ واللفظ له، ومسلم (١٣٤/ ٢١٤).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٣٩٢).

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٣٠٩). ثم ذكر تفاصيل ذلك، فليراجع في (٣/ ٣٠٩ ـ ٣١٨).

معوِّقات التفكُّر

من الأمور التي تَعُوقُ هذا المطلب:

١ ـ انشغال الجوارح:

ببقاء الإنسان مشغولًا طِيلَة الوقت؛ فهو منذ أن يُصبحَ إلى أن يُمسِيَ وهو في عمله، ثم إذا رجَعَ إلى بيته وقد أمسى مُرهَقًا مجهودًا، احتاج إلى الترفُّه والتنزُّه، فصاحَبَ رفقتَهُ إلى تلك الأماكن التي يرتادها أمثاله؛ من مَلَاهٍ أو مَراقِصَ، أو مَسارِحَ أو استراحات، ثم يعود وقد غلَبَهُ النوم فينام، وهكذا حاله كل يوم، لا وقت لديه يُحاسِبُ فيه نفسه، أو يتفكَّر في أمره، فإذا عاش عاش غارمًا، وإذا مات مات نادمًا.

٢ ـ كثرة مخالَطة الناس:

فلا يكاد يتفرَّغ لنفسه، ولا يخلو بها، وإنما هو في خِلْطة دائمة؛ فمثل هذا لا يحصُلُ له وقت للتفكير، فيفوت عليه الكثير، وإنما ينبغي أن يأخذ من الخِلْطة بقَدْر؛ فهي كالملح للطعام إذا زاد أفسَدَه.

٣ ـ انصراف هِمَّة العبد إلى النظر في ظواهر الأمور، والاغترار بها، والانجذاب إليها:

مُعرِضًا عمَّا ينبغي عليه النظر فيه، والتفكُّرُ به من مواطن التعقُّل ومواقع العِبَر؛ فإذا رأى ما ظاهِرُهُ الحُسْن، بهَرَهُ مَنظَره ولو ساء مَخبَره؛ كمن رأى الغَرْب وقد أقاموا حضارةً ماديَّةً كبرى، فغرَّه ما رأى من زُخْرُف الحياة الدنيا، فاستحسَنَ حالهم، وتشبَّه بهم، وسعى سعيهم، واقتفى آثارهم، وظنَّهم القوم الذين يُؤتَسَى بهم.

فهذا ينظُرُ إلى ظاهر من الحياة الدنيا، دون أن يسبُرَ غَوْرَها، أو يَعرِفَ حقائقها.

ومثله الذي يشتغِلُ عند قراءة القرآن بالأمور اللفظيَّة فقطْ، فتكون هِمَّتُهُ منصبَّةً إلى ما حُجِبَ به كثير من الناس عن حقائق القرآن؛ إمَّا بالوسوسة في مَخَارِج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها، والنطقِ بالمدِّ الطويل والقصير والمتوسِّط، وغير ذلك؛ فإنَّ هذا حائل للقلوب، قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه.

مثال ذلك: أن يكون كل همِّه تحقيق وجوه النطق بـ: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾، وضمِّ الميمِ

من: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ ووَصْلِها بالواو، وكسرِ الهاءِ أو ضمِّها، ونحو ذلك.

وكذلك: مراعاة النَّغَم وتحسين الصوت.

وكذلك: تتبُّع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرَهة، التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان[1].

وليس المقصود بذلك أن التجويد مذموم، وأنه ينبغي الزهد فيه، لكن المقصود ألَّا تُصرَفَ جميع الهمَّة لذلك، وألَّا يتنطَّع فيه الإنسان إلى حد يُبالِغُ فيه؛ فإن هذا مذموم.

وكذلك: لو أخَذَهُ بالحدِّ المعقول، ولم تكن هِمَّتُهُ منصرِفةً إلى التدبُّر، فليس له هَمٌّ إذا قرأ إلا أن يُخرِجَ الحروف من مخارجها، وأن يأتي بأحكام التجويد، ويُعرِضَ عما هو بصدده من تدبُّر القرآن وفَهْمِ معانيه؛ بل إن الشاطبي كان يرى ألَّا يشتغِلَ المفسِّر بالبحث عن الدقائق واللطائف، والنُّكَت البلاغيَّة، وإنما يذكر المعنى الأصلي الذي جاءت الآية لتقريره؛ لأن ذلك يفضي إلى ضياع المعنى المقصود الذي جاء القرآن لبيانه[2].

٤ ـ امتلاء القلب بالأمور الفاسدة، والأخلاق الرديئة:

فيُحرَمُ الإنسان نعمة التفكُّر؛ **كما قال الحسن البصري**، في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]؛ قال: «أَمْنَعُهم التفكُّر فيها»[3]، ورُوِيَ نحوه عن ابن جُرَيْجٍ، والسُّدِّيّ[4].

وقال قتادة: «سأمنعهم فَهْمَ كتابي»[5]؛ وبه قال سفيان بن عُيَيْنة[6].

قال ابن الجوزي: «أنزَلَ الله القرآن يحتوي على عجائب الحِكَم؛ فمن فتَّشه بيد الفهم، وحادَثَهُ في خَلْوة الفكر، استجلب رضا المتكلِّم به، وحَظِيَ بالزُّلْفَى لديه، ومَن كان ذهنُهُ مستغرِقَ الفهم بالحسيَّات، صُرِف عن ذلك المقام؛ قال الله ﷻ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾»[7].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٠).
(٢) انظر: «الموافقات» (٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٩).
(٤) أما أثر السدي، فأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٧)، وأثر ابن جريج أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ١١٣).
(٥) أورده القرطبي في «تفسيره» (٩/ ٣٣١).
(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ١١٢).
(٧) «صيد الخاطر» (ص١٢٣)؛ بتصرف.

٥ ـ كثرة الأكل:

وقد قيل: «البِطْنة تُذهِبُ الفِطْنة»[(١)]، وفي الحديث: «**مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ**»[(٢)]؛ قال المُنَاوي: «فإذا ملأ بطنه، انتكَسَتْ بصيرته، وتشوَّشت فكرته؛ لما يستولي على معادن إدراكه من الأَبْخِرة الكثيرة المتصاعدة من مَعِدته إلى دماغه؛ فلا يمكنه نظر صحيح، ولا يتفق له رأى صالح، وقد يقع في مَدَاحِض فيَرُوغ عن الحق؛ كما أشار إليه خبر: «لا تَشْبَعُوا؛ فَتُطْفِئُوا نُورَ المعرِفةِ مِن قلوبكم»[(٣)]، وغلَبَ عليه الكسل والنُّعَاس؛ فيمنعه عن وظائف العبادات، وقَوِيَتْ قوى البدن، وكثرت الموادُّ والفضول، فينبعث غَضَبه وشَهْوته، وتشتد مشقَّته لدفع ما زاد على ما يحتاجه بدنه؛ فيُوقِعُه ذلك في المحارم»[(٤)].



---

(١) «المقاصد الحسنة» (٢٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)؛ من حديث المقداد بن معدي كرب رضي الله عنه، وقد صحَّحه الترمذي، وابن حبان (٦٧٤، ٥٢٣٦)، والحاكم (٤/ ١٣٢)، والذهبي، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (٩/ ٣٨)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٦٥).

(٣) ذكره الديلمي في «الفردوس» (٤/ ٢٤٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج نحوه ابن عساكر في «تاريخه» (١٩/ ٤٤٧)، وقال ابن السبكي في «طبقات الشافعية» (٦/ ٣٣٥): «لم أجد له إسنادًا».

(٤) «فيض القدير» (٤/ ٢٤٢).

الطريق إلى تحقيق التفكُّر

هناك ثلاثة أمور تُعِين النفس على التفكُّر، وتروِّضُها عليه، حتى يصير سَجِيَّةً من سجاياها، وخُلُقًا مِن أخلاقها:

١ ـ الخَلْوة:

وذلك بأن يخلو الإنسان بنفسه في بعض الأوقات، ويفكِّر في حاله الذي هو عليه، وفي عمله الذي قدَّمه، وفي سَيْرِه إلى الله ﷻ، ويتعلَّم أن يتريَّث إذا أراد فعل شيء، فيجلس، ويتفكَّر، ويقلِّب الرَّأْي.

وقد قال الحسن البصري: «طولُ الوَحْدة أَتَمُّ للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنَّة»(١).

٢ ـ التعوُّد على التفكُّر:

وهو: مزاوَلَتُهُ في كل أمر ذي بال بمقدار يمنع من الجهالة في المسائل العلميَّة، ومن التقليد المذموم في المسائل الاجتهاديَّة، ومن عشوائية التصديق أو التكذيب في المسائل الخبريَّة؛ حتى لا يكون الواحد مِنَّا إِمَّعَةً؛ إنْ أحسن الناس أحسن، وإنْ أساؤوا أساء... وبممارسة التفكُّر والتعوُّد عليه تستقِلُّ الشخصية إلى حَدٍّ يَمنَعُ تلك المساوئ المتقدِّمة وأمثالها.

ولا بد مِن حسن النظر بالتروِّي في كل مسموع ومقروء ومشاهد؛ وإلَّا صار المرء كحاطب لَيْل؛ فما أكثَرَ مَن يُصَاب بالتقحُّم فيما لا يعنيه، وبالتسرُّع في الحكم على الناس؛ والله ﷻ يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات: ٦]؛ فقوله: ﴿بِنَبَإٍ﴾ هو المراد من التفكُّر، وقوله: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ عاقبةُ التسرُّع في الحكم من غير بيِّنة.

وكم طَرَقَتِ الأسماعَ أخبارٌ لا دليل عليها! وكم تَشَهَّتِ النفوس أمانيَّ لا سبيل إلى

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٩). وفي «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٤) جاء من كلام لُقْمان.

الوصول إليها! ولو أعمل الإنسان فِكْره في كل ما يسمعه ويقوله، لوجَدَ كثيرًا من ذلك يحمل برهان بطلانه وزيفه.

فعَوِّدْ نفسك على التفكُّر في كل شيء مما حولك؛ كما قال أبو سليمان الداراني: «عَوِّدُوا أَعْيُنَكُمُ البكاء، وقلوبَكُمُ التَّفَكُّر»[1]، والأمر كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ**»[2].

فالذي يعوِّد نَفْسَهُ التفكُّر، يصير ذلك سجيَّة له، والذي يحيا غافلًا بلا فكر ولا نظر، لا يبالي الله ﷻ به في أيِّ وادٍ هلك.

٣ ـ مزاولة بعض الأمور التي تُعِينُهُ على الفكرة:

مثال ذلك: أن الشافعي: كان يَحمِل عصًا إذا مشى، فقيل له: ما لك بُدٌّ من إمساك العصا ولست بضعيف؟ فقال: «لأذكُرَ أني مسافر»[3]، وجاء نحوه عن بعض الزُّهَّاد[4]، فأخذه بعض الشعراء[5]؛ فقال:

حَمَلْتُ الْعَصَا لَا الضَّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا ... عَلَيَّ وَلَا أَنِّي تَحَنَّيْتُ مِنْ كِبَرْ
وَلَكِنَّنِي أَلْزَمْتُ نَفْسِيَ حَمْلَهَا ... لِأُعْلِمَهَا أَنَّ الْمُقِيمَ عَلَى سَفَرْ

وهكذا: زيارة المَقْبَرة؛ فإنها تذكِّرك الآخرة؛ وهذا مما يُعِين على التفكُّر.

وكذا: النظر في آيات الله الكونيَّة، وفي آياته المتلوَّة.

وأيضًا: النظر في التواريخ وأخبار الأمم والشعوب والأجيال التي انصَرَمَتْ، وما مرَّ عليها مِن بؤس وسعادة، وحروب طاحنة، وفتن وملاحم؛ تفكَّرْ في ذلك كله؛ فالعقل ينمو ويكبُرُ بما يحصِّله من التجارِب، والنظَرُ فيما أصاب الناس مَدْعاة للتحرُّز، وصيانة من الغَفْلة، وعصمة من الزَّلَل أن يقع فيما وقَعُوا فيه، فيصيبه ما أصابهم؛ فعلى

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٧٤).

(٢) علَّقه البخاري في «صحيحه»، في كتاب العلم: باب العلم قبل القول والعمل (١/ ٤١)، ووصَلَهُ الطبراني في «الأوسط» (٢٦٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٥٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٤١٠)؛ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد حسَّنه الحافظ في «الفتح» (١/ ١٦١)، والألباني في «الصحيحة» (٣٤٢)، وصحَّح الدارقطني وقفه في «العلل» (١٠/ ٣٢٦)، وقد صح من قول ابن مسعود رضي الله عنه أيضًا؛ أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٢٨٤)، وأحمد في «الزهد» (ص١٦٣)، وأبو خيثمة في «العلم» (٢٨)، والبزار في «مسنده» (٥/ ٤٢٣).

(٣) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ١٧٠).

(٤) «عيون الأخبار» (٢/ ٣٢٣).

(٥) نسبه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٦/ ٣٢ ـ ٣٣) لمحمَّد بن وشاح الزينبي.

العاقل أن يُعْمِلَ عقله، ويُدرِكَ بفكره حتى يَحسِمَ الداء قبل أن يُبتَلى به، ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه، أما مَن لا نظر له ولا فكر عنده، فهذا لا عقل له.

٤ ـ جمع الهم على ما هو بصَدَده من العمل للآخرة، وعدَمِ تشتيت القَلْب بالصوارِف والعوارض المُشْغِلة:

فعن أبي العالية الرِّيَاحي؛ أنه سأله رجل: ما يفتح الفكر؟ قال: «اجتماعُ الهم؛ فإنه إذا هَمَّ فكَّر، وإذا فكَّر أَبْصَر، وإذا أبصَرَ اعتَبَر، ألا وإنه إذا تمَّت رغبة العبد، بَعُدَتْ فِكْرَته، وإذا بَعُدَت فكرته، فتَحَتْ له أبواب السداد، فصار ينتقِلُ في العمل، وصار يَعرِفُ الشيء بقلبه، فإذا كان كذلك، أخرَجَهُ ذلك إلى التعظيم لله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا كان كذلك، ردَّاه الله»، فقيل: يا أبا العالية، ما ردَّاه الله؟ قال: «البر واللِّين، والخشوع والتواضع»[(١)].

قال المُنَاوي: «إذا كانت القلوب كثيرة الالتفات، سريعة التقلُّب والحَرَكات، فلا بد للعبد مِن جمع همَّته على بعض الجهات، والإعراض عن غيرها؛ لئلا يتبدَّد همه؛ فمن جعَلَ همَّه الآخرة فاز... وكفاه الله مؤونة حاجاته المتشعِّبة المختلفة، فإذا قطَعَ العبدُ شُغْلَ جوارحه عن الدنيا في وقت فِكْرته وتقيُّده، ومنَعَ قلبَهُ مِن التشتُّت في ميادين الأمور الدنيويَّة، اجتمَعَ همُّه، وحضر عقله، فإذا حضر له ذلك، ثم تفكَّر بالتوكُّل على الرحمٰن لا على عقله، فتَحَتْ له الفكرة باب الفهم لكلام ربه ومعرفته، ومواقع وعده ووعيده: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]»[(٢)].



(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٣٦)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٤٣ ـ ١٤٤).
(٢) «فيض القدير» (٢/ ٤٧٥)؛ مع شيء من الاختصار والتصرُّف.

ثَمَرات التفكُّر

للتفكر ثَمَرات كثيرة ومتنوِّعة، ومن هذه الثمرات:

١ ـ أن التفكُّر مفتاح كل خير:

إذا حَسُنَ جَوَلان الفكر في آيات الله المتلوَّة، وآياته المشهودة، انفتح على العبد من أبواب معرفة الله ﷻ والأمور الجالبة للسعادة في الآخرة شيءٌ لا يُقَادَرُ قَدْره، وكذلك في أموره الدنيويَّة، فإنه بالتفكُّر يرسخ العلم، وتذهب مَعَرَّةُ الجهل، وتزول الغفلة، وتُسْتَجْلَبُ أمورٌ وأحوال لم تكن حاصلة من قبل؛ ولهذا قال الحسن البصري: «إنَّ أهل العقل لم يزالوا يَعُودُونَ بالذِّكْر على الفِكْر، وبالفِكْر على الذِّكْر، حتى استيقظت قلوبهم، فنطَقَتْ بالحكمة»[(١)].

فالتفكُّر والتذكُّر ـ كما يقول ابن القيِّم ـ: «بِذَارُ العلم، وسَقْيُهُ: مُطَارَحَتُه، ومذاكرته: تلقيحه؛ كما قال بعض السلف: «مُلَاحَاةُ الرجال تلقيح لألبابها»[(٢)]؛ فالمذاكرة بها لقاح العقل.

فالخير والسعادة في خِزَانةٍ مفتاحُها التفكُّر؛ فإنه لا بد من تفكُّر وعلم يكون نتيجته الفكر، وحالٍ يحدُثُ للقلب من ذلك العلم؛ فإنَّ كل مَن عمل شيئًا من المحبوب أو المكروه، لا بد أن يبقى لقلبه حالة، ويَنصبغَ بصبغة مِن علمه، وتلك الحالةُ تُوجِبُ له إرادة، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩).

(٢) هذا القول يُنسَبُ للأحنف بن قيس، وقد جاء بألفاظ متقارِبة؛ من ذلك: «محادَثةُ الرجال تلقيحٌ لألبابِها»؛ أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٥/ ١١٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ٣٤٠).
وينسب أيضا لعمر بن عبد العزيز. فقد أخرجه عنه ابن عساكر في «تاريخه» (١٨/ ١٦٠)، (٦٧/ ٢٣) بلفظ: «إن لقاء الرجال للرجال تلقيح لألبابها».
وذكره ابن أبي الحكم في «سيرته» (ص١١٠) عنه بنحوه.
وذكره عنه أيضًا ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٩٧٢) بلفظ: «رأيت مُلاحاة الرجال تلقيحًا لألبابهم».
وأخرجه أبو الطاهر السِّلَفي في «الطيوريات» (٢/ ٥٩٤) عن موسى بن عقبة بلفظ: «مُلاقاةُ الرجال تلقِيحٌ لألبابها».

فهاهنا خمسة أمور: الفكر: وثمرته العلم، وثمرتهما: الحالة التي تحدُثُ للقلب، وثمرة ذلك: الإرادة، وثمرتها: العمل؛ فالفكر إذن: هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها؛ وهذا يكشف لك عن فضل التفكُّر وشَرَفه، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له»[١].

والإنسان لا بد له من التفكُّر؛ إمَّا بالخير، وإمَّا بالشر؛ فإذا صرَفَ هِمَّتَهُ في الخير، حصل له بسبب ذلك من المنافع والثمار العاجلة والآجلة شيء لا يقادَرُ قَدْرُه؛ ولهذا قال مَن قال مِن السلف: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيامِ ليلة»[٢]؛ لأنه ينقُلُ مِن موت الفِطْنة إلى حياةِ اليَقَظة، ومن المكاره إلى المحابِّ، ومن الرغبة والحرص إلى الزُّهْد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سَعَة العلم، ومن مرض الشَّهْوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله تعالى والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصَّمَم والبَكَم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشُّبُهات إلى بَرْد اليقين وثَلَج الصدور؛ فهو أصل كل طاعة؛ كما أن أصل كل معصية التفكُّر السيِّئ المذموم؛ وذلك إذا وجَدَ الشيطان أرض القلب خالية خاوية فارغة، فإنه يُلقِي فيها بذور الوسواس، والأفكار الرديئة التي تُفسِدُ عليه قلبه، فتولَّد من ذلك الإرادات، وعزائم الأعمال التي لا يرضاها الله ﷻ، ولا تعمُرُ بها دنيا ولا آخرة.

وأما إذا صادَفَ الشيطان أرض القلب مبذورةً مشغولةً بالأفكار الطيِّبة، والعقائد والأخلاق الحميدة؛ فإنه لا يجدُ فيها مَدخَلًا، ولا لِبَذْرِهِ موضعًا[٣]، وإنما يكون غاية ما يحصِّله هو التشويش بالوساوس والخَطَرات.

وبهذا يتضح أن «رأس الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوامُ التفكُّر، وتدبُّرُ آيات الله؛ حيث تستولي على الفكر؛ وتشغلُ القَلْبَ.

فإذا صارت معاني القرآن مكانَ الخواطِرِ مِن قلبه، وهي الغالبة عليه؛ بحيثُ يصير إليها مَفْزَعُه وملجؤه ـ: تمكَّن حينئذ الإيمان من قلبه، وجلَسَ على كرسيِّه، وصار له التصرُّفُ، وصار هو الأمير المطاع أمره؛ فحينئذٍ يستقيم له سَيْرُه، ويتضح له الطريق، وتراه ساكنًا وهو يُبارِي الريح: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]»[٤].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦). (٢) تقدم تخريجه.
(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦).
(٤) «الرسالة التبوكية» (ص٧٠).

٢ ـ أنه يُورِث تعظيمَ المعبود؛ ومِن ثَمَّ الكفَّ عما لا يليق:

يقول بِشْر بن الحارث: «لو تفكَّر الناس في عَظَمة الله، لما عصَوُا الله»[١]؛ فإنَّ العبد إذا علم أن الله ينظُرُ إليه ويراقبه، لم يجترئ على معصية؛ لأنه إذا عَلِمَ عِلْمَ الخاشعين، وعرَفَ معرفة الصادقين المخبِتِين، أورَثَهُ ذلك الخوف من الله، وحُسْنَ مراقَبَته في السرِّ والعَلَن، والإنابة إليه، فيستوحِشُون من الخلق، ولا يأنسون إلا به، ولا يتوكَّلون إلا عليه، ولا يفرُّون إلا إليه.

وذلك أن مَعرِفة الله نوعان:

الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترَكَ فيها الناس: البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

الثاني: معرِفةٌ تُوجِبُ الحياء منه، والمحبَّة له، وتعلُّق القَلْب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه؛ فيأنَسُ به، ويَفِرُّ من الخلق إليه، وهذه المعرفة الخالصة، وتفاوُتُ الناس فيها، لا يحصيه إلا الذي عرَّفهم بنفسه، وقد قال أعرف الناس بالله ﷻ؛ وهو النبي ﷺ: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[٢]، كما يفتح على نبيِّه ﷺ في اليوم الآخر من المَحَامِدِ ما لا يُحسِنُه في الدنيا[٣].

قال ابن القيِّم: «ولهذه المعرفة بابان واسعان: بابُ التفكُّر والتأمُّل في آيات القرآن كلِّها، والفهمِ الخاصِّ عن الله ورسوله. والباب الثاني: التفكُّرُ في آياته المشهودة، وتأمُّلُ حكمتِهِ فيها وقدرتِهِ ولطفِه، وإحسانِهِ وعَدْلِهِ وقيامِهِ بالقسط على خلقه، وجماعُ ذلك: الفقهُ في معاني أسمائه الحسنى وجَلَالها وكمالها، وتفرُّدِهِ بذلك، وتعلُّقِها بالخلق والأمر؛ فيكون فقيهًا في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائِهِ وقدرِهِ، فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحُكْم الديني الشرعي، والحكم الكَوْني القَدَري؛ وذلك فَضْلُ اللهِ يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[٤].

٣ ـ أنه يُورِثُ الحِكْمة وحياة القلب:

كما قال بعضهم: «الفِكْرُ في الدنيا: حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الوَلَاية، والفِكْرةُ في الآخرة: تُورِث الحِكْمة، وتحيي القلوب»[٥].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٧).
(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) انظر: «الفوائد» (ص٢٤٨ ـ ٢٤٩).
(٤) المصدر السابق (ص٢٤٩).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٧٨).

يقول ابن القيِّم: «والتذكُّر والتفكُّر منزلان يُثمِرانِ أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكُّره على تذكُّره، وبتذكُّره على تفكُّره، حتى يُفتَحَ قُفْلُ قلبِه بإذن الفتَّاح العليم»(١).

ويقول الشافعي: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر»(٢).

فمَن طال صمته، عَظُمَ عقله ورَجَح؛ ولذا يُستدَلُّ على رجاحة العقل بطول الصمت، أمَّا الثَّرْثَرة وكثرة الكلام، فدليل على خفَّة العقل.

قال الشافعي: «صحَّةُ النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزمُ في الرأي سلامة من التفريط والندم، والرويَّةُ والفِكْرُ يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاوَرةُ الحُكَماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة؛ ففَكِّرْ قبل أن تَعزِم، وتدبَّر قبل أن تَهجُم، وشاوِرْ قبل أن تُقدِم»(٣).

وكان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفضائل أربع: **إحداها**: الحِكْمة، وقوامُها: الفكرة، **والثانية**: العِفَّة، وقوامها: في الشَّهْوة...»(٤).

ويقول وهب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما طالت فكرةُ امرِئٍ قطُّ إلا فهم، وما فهم امرؤٌ قطُّ إلا علم، وما علم امرؤٌ قطُّ إلا عمل»(٥).

٤ ـ أنَّه يُورِثه الاعتبار:

يقول سفيان بن عيينة: «الفكرة نُورٌ تُدخِلُه قلبَك»(٦)، وكان دائمًا يتمثَّل بهذا البيت(٧):

إِذَا الْمَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ ... فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ

وكان يقول: «التفكُّر مِفْتاح الرحمة؛ ألا ترى أنه يتفكَّر فيتوب؟!»(٨).

وقال بعضهم: «الاهتمام بالعمل يُورِث الفكرة، والفكرة تُورِث العِبْرة، والعبرة تُورِث الحَزْم، والحزم يُورِث العَزْم، والعزم يُورِث اليقين، واليقينُ يُورِثُ الغِنَى، والغِنَى يُورِث الحُبّ، والحُبُّ يُورِث اللِّقَاء»(٩).

٥ ـ البصر النافذ في الأمور الدنيويَّة والأخرويَّة:

فالذي يفكِّر يعرف الأمور معرفة صحيحة؛ بخلاف الذي يأتي الشيءَ كيفما اتفق،

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤١).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٢٥).
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٦).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٠٦).
(٧) المصدر السابق.
(٨) المصدر السابق.
(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٢).

ويقع على الأمر كيفما حصَل؛ فإنَّ الذي يفكِّر يُوجِبُ له تفكُّره انكشافَ حقائق الأمور، وتميُّزَ مراتبها أمام عَيْنه في الخير والشر، ويَعرِفُ المفضول من الفاضل، والقبيح من الأقبح، ويَعرِف الأسباب الموصِّلة إليها، وما يقاوِم تلك الأسباب، وما يدفع مُوجَبَها، ويميِّز بين ما ينبغي السعي في تحصيله، وما ينبغي السعي في دفع أسبابه، ويفرِّق بين الوهم والخيال، والأمور المُمكِنة والفرضيَّة المستحيلة، وينتهِزُ الفُرَصَ في أوقاتها، ويشتغِلُ بما ينفعُهُ دائمًا، فتحصُلُ له سعادته وفلاحه(١).

فالله ﷻ أودَعَ الإنسان هذه القوَّة، فإذا استعملها فيما يُجدِي، فإنه يحصِّل أنواع المنافع، وكافَّة هذه الصنائع التي يَحتَرِفها الناس، وتلك العلومُ المختلِفة، والفنون المتنوِّعة؛ كالرياضيَّات والطِّبِّ والهندسة وغيرها، إنما يُتوصَّلُ إليها بطُول النظر والتفكُّر؛ ولذلك فإن هذه الأفكار إذا وُجِدَتْ واستقَرَّتْ ورسَخَتْ، ثم حُوِّلَتْ إلى واقع عملي، عُمِّرَتِ الحياة، وقامت الحضارة، وحصَّل الناس أنواع التسهيلات والمنافع.

ولولا التفكُّر ـ بعد الله ﷻ ـ لما توصَّل الإنسان إلى أنواع المنافع في حِرَاثتِهِ وصناعتِهِ وطِبِّه، وفي كل شأن من شؤونه؛ ولذلك لما كان المجنون والبهيمة لا تفكير لهما، فإنَّهما لا يتصرَّفان تصرُّفًا ينفع ويرفع، ولا يتقدَّمان؛ فالتفكُّر بمنزلة الخيَّاط الذي يقدِّرُ الثوب، ويحسُبُ المقاسات، ثم يترجِمُ ذلك إلى عمل، فيقُصُّ هذا الثوب، ثم يخيط أطرافه، ثم ينتفع به(٢).

وإليك مثالَيْنِ يتجلَّى بهما أثر التفكُّر على العبد في دَلَالتِهِ على أفضل الأمور وأحسَنِها، وأعظَمِها نفعًا:

الأول: عن ربيعة بن كَعْب رضي الله عنه؛ أنه قال: كنتُ أخدُمُ رسولَ الله ﷺ، وأقومُ له في حوائجِهِ نَهَارِي أَجْمَعَ؛ حتى يصلِّيَ رسولُ الله ﷺ العشاءَ الآخِرةَ، فأَجلِسُ ببابِهِ إذا دخَلَ بيته؛ أقول: لعلَّها أن تحدُثَ لرسولِ اللهِ ﷺ حاجة، فما أزال أَسْمَعُهُ يقول رسول الله ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»، حتى أَمَلَّ فأَرْجِع، أو تَغْلِبَني عيني فأَرْقُد، قال: فقال لي يومًا ـ لِمَا يَرَى مِن خِفَّتِي له، وخِدْمَتِي إيَّاه ـ: «**سَلْنِي يَا رَبِيعَةُ أُعْطِكَ**»، قال: فقلتُ: أنظُرُ في أمري يا رسولَ اللهِ، ثم أُعْلِمُكَ ذلك، قال: ففَكَّرْتُ في نفسي، فعَرَفْتُ أنَّ الدنيا منقطِعةٌ زائِلة، وأنَّ لي فيها رِزْقًا سيكفيني ويأتيني، قال: فقلتُ: أسألُ رسولَ اللهِ ﷺ لِآخِرَتِي؛ فإنَّه مِن اللهِ ﷻ بالمَنْزِلِ الذي هو

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٤٠).
(٢) انظر: «أقسام القرآن» لابن القيِّم (ص٦١٤).

به، قال: فجِئْتُ، فقال: «**مَا فَعَلْتَ يَا رَبِيعَةُ؟!**»، قال: فقلتُ: نَعَمْ يا رسولَ الله، أسألُكَ أن تَشْفَعَ لي إلى ربِّك، فيُعْتِقَني من النار، قال: فقال: «**مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا يَا رَبِيعَةُ؟**»، قال: فقلتُ: لا واللهِ الذي بعثَكَ بالحقِّ، ما أمَرَني به أحدٌ، ولكنَّك لما قلتَ: سَلْني أُعْطِكَ، وكنتَ من الله بالمَنْزِلِ الذي أنت به، نَظَرْتُ في أمري، وعَرَفْتُ أنَّ الدنيا منقطِعةٌ وزائلة، وأنَّ لي فيها رزقًا سيأتيني، فقلتُ: أسأل رسولَ الله ﷺ لآخِرَتي، قال: فصَمَتَ رسولُ الله ﷺ طويلًا، ثم قال لي: «**إِنِّي فَاعِلٌ؛ فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[1].

فانظر ما أصاب مِن الخير بفِكْرَتِهِ رضي الله عنه.

والثاني: عن موسى بن طَلْحة، عن أبيه طَلْحة بن عُبَيْد الله رضي الله عنه؛ أنه أتاه مالٌ مِن حَضْرَمَوْتَ؛ سبعُ مائةِ ألفٍ، قال: فبات لَيْلَتَهُ يَتمَلْمَلُ، فقالت له زوجتُهُ: يا أبا محمَّد، ما لي أراك منذ الليلةِ تَمَلْمَلُ، أَرَابَكَ منا أمرٌ فَنُعْتِبَكَ؟ قال: لا، لَنِعْمَ زوجةُ المرءِ أنت! ولكنْ تفكَّرْتُ منذ الليلة، فقلتُ: ما ظنُّ رجلٍ بربِّه يبيتُ وهذا المال عنده في بيته؟ قالت: فأين أنت عن بعض أخلاقك؟ قال: وما هو؟ قالت: إذا أصبَحْتَ، دَعَوْتَ بِجِفَانٍ وقِصَاع، فقسَّمْتَها على بيوت المهاجِرين والأنصار على قَدْرِ منازلهم، قال: فقال لها: يَرْحَمُكِ الله، إنَّك ما عَلِمْتُ موفَّقةٌ ابنةُ موفَّق ـ وهي أمُّ كلثوم بنت أبي بكر الصِّدِّيق ـ فلما أصبَحَ، دعا بِجِفَانٍ وقِصَاع، فقسَّمها بين المهاجرين والأنصار[2].

٦ ـ العمل للآخرة:

كما قيل: «لو طالَعَتْ قلوبُ المتقين بفِكْرِها إلى ما قُدِّرَ في حُجُبِ الغَيْبِ مِن خير الآخرة، لم يَصْفُ لهم في الدنيا عيش، ولم تَقَرَّ لهم فيها عين»[3]؛ أي: فهم خُلِقُوا للآخرة.

يقول الحسن: «مَن لم يكن كلامه حِكْمة، فهو لَغْو، ومَن لم يكن سكوته تفكُّرًا، فهو سَهْو، ومَن لم يكن نظره اعتبارًا، فهو لَهْو»[4].

وكتب مرة لعمر بن عبد العزيز يعظه: «اعلم: أن التفكير يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه، وليس ما يفنى وإنْ كان كثيرًا يَعدِلُ ما يَبقَى وإنْ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٥٩)، وصحَّحه أبو عَوَانة (٢/ ١٩٧، ١٩٨، ٣٢٩)، وابن حبان (٢٥٩٤)؛ وأصله في مسلم (٤٨٩).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٥/ ٩٩). (٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٩).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التفكُّر»؛ كما في «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ١٦٤).

كان طلبه عزيزًا، واحتمالُ المؤونة المنقطِعة التي تُعقِبُ الراحةَ الطويلة خيرٌ من تعجيل راحة منقطِعة، تُعقِبُ مؤونةً باقية»[(١)].

وقد أحسَنَ مَن قال[(٢)]:

تَفَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا فَأَبْصَرْتُ رُشْدَهَا ... وَذَلَّلْتُ بِالتَّقْوَى مِنَ اللَّهِ خَدَّهَا
أَسَأْتُ بِهَا ظَنًّا فَأَخْلَفْتُ وَعْدَهَا ... وَأَصْبَحْتُ مَوْلَاهَا وَقَدْ كُنْتُ عَبْدَهَا

ولإبراهيم بن المَهْدِيّ[(٣)]:

قَدْ شَابَ رَأْسِي وَرَأْسُ الحِرْصِ لَمْ يَشِبِ ... إِنَّ الحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لَفِي تَعَبِ
مَا لِي أَرَانِي إِذَا طَالَبْتُ مَرْتَبَةً ... فَنِلْتُهَا طَمَحَتْ عَيْنِي إِلَى رُتَبِ
قَدْ يَنْبَغِي لِيَ مَعْ مَا حُزْتُ مِنْ أَدَبٍ ... أَلَّا أُخَوِّضَ فِي أَمْرٍ يُنَقِّصُ بِي
لَوْ كَانَ يَصْدُقُنِي ذِهْنِي بِفِكْرَتِهِ ... مَا اشْتَدَّ غَمِّي عَلَى الدُّنْيَا وَلَا نَصَبِي
أَسْعَى وَأَجْهَدُ فِيمَا لَسْتُ أُدْرِكُهُ ... وَالمَوْتُ يَكْدَحُ فِي زَنْدِي وَفِي عَصَبِي

وقال آخر[(٤)]:

الْمَرْءُ آفَتُهُ هَوَى الدُّنْيَا ... وَالمَرْءُ يَطْغَى كُلَّمَا اسْتَغْنَى
إِنِّي رَأَيْتُ عَوَاقِبَ الدُّنْيَا ... فَتَرَكْتُ مَا أَهْوَى لِمَا أَخْشَى
فَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا وَجِدَّتِهَا ... فَإِذَا جَمِيعُ جَدِيدِهَا يَبْلَى
وَإِذَا جَمِيعُ أُمُورِهَا عُقَبٌ ... بَيْنَ الْبَرِيَّةِ قَلَّمَا تَبْقَى
وَبَلَوْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا فَإِذَا ... كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ يَسْعَى
أَسْمَى مَنَازِلِهَا وَأَرْفَعُهَا ... فِي الْعِزِّ أَقْرَبُهَا مِنَ المَهْوَى
وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى الْقُبُورِ فَمَا ... مَيَّزْتُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالمَوْلَى
تَقْفُو مَسَاوِيهَا مَحَاسِنَهَا ... لَا شَيْءَ بَيْنَ النَّعْيِ وَالْبُشْرَى
وَلَقَلَّ يَوْمٌ ذَرَّ شَارِقُهُ ... إِلَّا سَمِعْتَ بِهَالِكٍ يُنْعَى
لَا تَعْتِبَنَّ عَلَى الزَّمَانِ فَمَا ... عِنْدَ الزَّمَانِ لِعَاتِبٍ عُتْبَى
يَا بَانِيَ الدَّارِ المُعِدَّ لَهَا ... مَاذَا عَمِلْتَ لِدَارِكَ الْأُخْرَى
وَمُمَهِّدَ الْفُرُشِ الْوَثِيرَةِ لَا ... تُغْفِلْ فِرَاشَ الرَّقْدَةِ الْكُبْرَى

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥).
(٢) «تاريخ بغداد» (٢/ ٧٤)؛ ونسبه لأبي حاتم الرازي.
(٣) المصدر السابق (٦/ ١٤٥).
(٤) مختصر من قصيدة لأبي العتاهية. انظر: «التدوين» للرافعي (٣/ ١٤٤)، و«أدب الدنيا والدين» للماوَرْدي (ص٤٦٧).

أَتُـرَاكَ تُـحْـصِـي مَـنْ رَأَيْـتَ مِـنَ الْـ أَحْـيَـاءِ ثُـمَّ رَأَيْـتَـهُـمْ مَـوْتَـى
فَـلَـتَـلْـحَـقَـنَّ بِـعَـرْصَـةِ الـمَـوْتَـى وَلَـتَـنْـزِلَـنَّ مَـحَـلَّـةَ الـهَـلْـكَـى

والحاصل: أن الفكر يُثمِر حصول المطلوب تامًّا بحسب الإمكان، والعَمَلُ بموجَبِهِ رعاية لحقه؛ فإن العقل حال التفكُّر كان قد كَلَّ بأعماله في تحصيل المطلوب، فلما حصَلَتْ له المعاني، وتخمَّرَتْ فيه ورسَخَتْ، واستراح العقل، عاد فتذكَّر هذه الأمور التي تفكَّر فيها وطالَعَها؛ فابتهج بها وفَرِح؛ ومِن ثَمَّ يصحِّح العمل والسير إلى الله ﷻ.

فهذا مقام شريف من مقامات العبد، وهذا تمامًا كالتاجر الذي يفكِّر كيف يحصِّل الأرباح في تجارته، ثم يَتْعَب في تحصيلها والسعي في جلبها، ثم إذا حصَّلها وطالعها بين يديه، ركَنَ إليها، وسُرَّ بها، ونسي ذلك التعب الذي تَعِبَهُ في سبيل تحصيلها؛ فتَبرُدُ نفسه، ويطيب خاطره(١).

٧ ـ أن التفكُّر يُورِث العبد القناعة والزهد في الدنيا:

فعن أبي هريرة ﵁؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ**»(٢).

قال ابن بطَّال: «لا يكون المرء على حال خَسِيسة من الدنيا إلا وُجِدَ مِن أهلها مَن هو أخسُّ حالًا منه، فإذا تفكَّر في ذلك، عَلِمَ أن نعمة الله وصَلَتْ إليه دون كثير ممن فضِّل عليه بذلك من غير أمرٍ أوجَبَه، فيُلزِمُ نفسه الشكر؛ فيعظُمُ اغتباطُهُ بذلك في مَعَادِه»(٣).

وجاء رجل إلى يونس بن عُبَيْد، يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: أَيَسُرُّكَ ببصَرِكَ هذا الذي تُبصِر به مائةُ ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيدَيْك مائة ألف؟ قال الرجل: لا، قال: فبِرِجْلَيْكَ؟ قال الرجل: لا... فذكَّره بنعم الله عليه، وقال يونس: أرى عندك مِئِينَ ألوفًا وأنت تشكو الحاجة!»(٤).

ودخل ابن السَّمَّاك يومًا على الرشيد، فدعا الرشيد بماء ليشربه، فأُتِيَ به، فلما رفعه ليشربه، قال له ابن السماك: على رِسْلِكَ يا أمير المؤمنين، لو مُنِعْتَ هذه الشَّرْبَةَ، بكم كنت تشتريها؟ قال: بِنِصْفِ مُلْكِي، قال: اشْرَبْ هَنَّاكَ الله، فلما شرب، قال: لو

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥).
(٢) أخرجه مسلم (٩/ ٢٩٦٣).
(٣) «شرح صحيح البخاري» (١٠/ ١٩٩)؛ بتصرُّف، ونسبه للطبري، ولم أجده فيما طُبع من كتبه.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٠٠)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٤٩) بنحوه.

مُنِعْتَ خروجَها مِن بَدَنِكَ، بما كنتَ تشتريها؟ قال: بنِصْفِ ملكي، قال ابن السماك: مُلْكٌ قيمته شربة ماء لجديرٌ ألَّا تُنافِسَ فيه؛ فبكى الرشيد[1].

وقال فتح الموصلي: «مَن أدام النظر بقلبه، ورَّثه ذلك الفرَحَ بالمحبوب»[2]؛ فلا يحزن على الدنيا، ولا يأسى على ما فاته منها.

٨ ـ التعرُّف على النفس وما لها وما عليها:

فإنَّ العاقل لا يزال يُعمِلُ عقله وفكره في كل ما أهمَّه من شأن الدنيا والآخرة؛ فإذا وقَعَ على عَوْرة ستَرَها، أو ثُلْمَة سَدَّها، أو عيب أصلحه، ولا يزال هذا حاله ودأبه حتى يستقيم له أمره، ولا يكون ذلك إلا للعاقل الرشيد الذي يجول بفِكْره، وينظُرُ بعقله، يعلم أنه ليس بمعصوم؛ فيتوقَّع الخلل في عمله؛ فيُعِدُّ له ما يحتاجه في ترميمِهِ وإصلاحه، ويظُنُّ بنفسه العجز والتقصير؛ فيُحسِنُ الاستعانةَ بربِّه.

وأمَّا من يكبُرُ ذلك عليه، فإنه يرفع نفسه عن تصوُّر النقص بها، ويُجِلُّ عمله عن حصول التقصير فيه.

وقد قال الفضيل: «الفِكْرُ مرآةٌ تُرِيكَ حسناتِك وسيئاتِك»[3].

وهذا مِن تمام طلَبِ استدامة المستقيم من الأعمال، والرغبة في استقامة المُعوَجِّ منها، ولا يحسُنُ إلا بِحُسْنِ النَّظَرِ الذي يولِّدُهُ التفكُّر والتدبُّر بحُسْنِ سياسة العقل الرشيد.

٩ ـ تجديد الإيمان:

فالمؤمن إذا أحسَنَ التفكير، وأمعَنَ النظر، هداه الله وأحيا قلبه؛ فالإيمان ـ كما مثَّله الله ﷻ ـ: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤][4].

وشجرة الإيمان: عروقُها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمَرَتُها ما تُوجِبُه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكيَّة، والسَّمْتِ الصالح، والهَدْيِ والدَّلِّ المَرْضِيّ؛ فيستدِلُّ الناظر على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور؛ فإذا كان العلم

(١) أخرجه الرافعي في «تاريخ قزوين» (٢/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٣).
(٣) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٤/ ٤٢٤)، ونسبه للفضيل، فيما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٨ ـ ١٠٩) بسنده مِن طريق الفُضَيْل، عن الحسن البصري.
(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٩٩ وما بعدها).

صحيحًا مطابِقًا لمعلومه الذي أنزَلَ الله كتابه به، والاعتقادُ مطابِقًا لما أخبَرَ به عن نفسه، وأخبَرَتْ به عنه رسله، والإخلاصُ قائمًا في القلب، والأعمالُ موافِقةً للأمر، والهديُ والدَّلُّ والسَّمْتُ مشابِهةً لهذه الأصول، مناسِبةً لها: عُلِمَ أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإذا كان الأمر بالعكس، عُلِمَ أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار.

فالشجرة لا تبقى حيَّةً إلا بمادَّةٍ تَسقِيها وتنمِّيها، فإذا قُطِعَ عنها السقي، أوشك أن تَيْبَس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب: إنْ لم يتعهَّدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع، والعمل الصالح، والعَوْدِ بالتذكُّر على التفكُّر، وبالتفكُّر على التذكُّر؛ وإلا أوشَكَتْ أن تيبس.

وقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ؛ قال: «**إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الخَلِقُ؛ فاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»[(١)].

وبالجملة: فالغَرْسُ إن لم يتعاهده صاحبه، أوشك أن يَهْلِك[(٢)].

١٠ ـ أنه سبيلٌ قويٌّ لمدافعة الهوى:

قال ابن الجوزي: «اعلَمْ: أن مُطْلَقَ الهوى يدعو إلى اللذَّة الحاضرة مِن غير فِكْرٍ في عاقبة، ويَحُثُّ على نيل الشهوات عاجلًا وإنْ كانت سببًا للألم والأذى في العاجل ومنع لَذَّاتٍ في الآجل.

فأمَّا العاقل، فإنه ينهى نَفْسَهُ عن لذَّةٍ تُعقِبُ ألمًا، وشهوةٍ تُورِثُ ندمًا، وكفى بهذا القدرِ مدحًا للعقل وذمًّا للهوى.

أَلَا ترى أنَّ الطفل يُؤثِرُ ما يهوى وإنْ أدَّاه إلى التلف، فيفضُلُ العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك، وقد يقع التساوي بينهما في الميل بالهوى؟!

وبهذا القدر فُضِّلَ الآدمي على البهائم؛ أعني: مَلَكَة الإرادة؛ لأن البهائم واقفةٌ مع

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤/ ٦٩)؛ واللفظ له، والحاكم (١/ ٥٤) وصحَّحه، وقال الذهبي: «رواته ثقات»، وحسَّنه الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥٢)، والألباني في «الصحيحة» (١٥٨٥). وفي الباب: عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه؛ أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩)، والحاكم (٤/ ٢٥٦)، وصحَّحه؛ إلا أنه لا يثبُت؛ فقد ضعَّفه الذهبي، والألباني في «الضعيفة» (٨٩٦).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ٣٠٢).

طِباعها، لا نظَرَ لها إلى عاقبة، ولا فِكْرَ في مآل، فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبع مِن الغذاء إذا حَضَر، وتَفعَلُ ما تحتاج إليه من الروث والبول أيَّ وقت اتفق، والآدمي يَمتنِع عن ذلك بقهر عقله لطبعه.

وإذا عرَفَ العاقل أن الهوى يصير غالبًا، فعليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل؛ فإنه سيُشِيرُ عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كَفِّ الهوى إلى أن يتيقَّن السلامة من الشر في العاقبة.

وينبغي للعاقل أن يَتمَرَّنَ على دفع الهوى المأمون العواقب؛ ليستمِرَّ بذلك على ترك ما تُؤْذِي غايته، وليعلم العاقل أن مُدْمِني الشهوات يصيرون إلى حالةٍ لا يلتذُّونها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تَرْكَها؛ لأنها قد صارت عندهم كالعَيْشِ الاضطراري؛ ولهذا ترى مُدمِنَ الخمرِ والجِمَاعِ لا يلتذُّ بذلك عُشْرَ التذاذ مَن لم يُدْمِن؛ غيرَ أن العادة تقتضيه ذلك، فيُلْقِي نفسه في المهالك لنيل ما يقتضيه تعوُّدُه، ولو زال رَيْنُ الهوى عن بصر بصيرته، لرأى أنه قد شَقِيَ مِن حيث قدَّر السعادة، واغتمَّ من حيث ظنَّ الفرح، وأَلِمَ من حيث أراد اللذَّة.

فإنْ قال قائل: فكيف يَتخلَّصُ مِن هذا من قد نَشِبَ فيه؟

قيل له: بالعزم القوي في هِجْران ما يُؤذِي، والتدرُّج في ترك ما لا يُؤمَنُ أذاه؛ وهذا يفتقِرُ إلى صبر ومجاهدة يهوِّنهما **سبعة أشياء**:

أحدها: التفكُّرُ في أن الإنسان لم يُخلَقْ للهوى، وإنما هُيِّئَ للنظر في العواقب، والعمل للآجل؛ ويدُلُّ على هذا: أن البهيمة تُصِيب من لذَّة المَطعَم والمَشرَب والمَنكَح ما لا يناله الإنسان، مع عيش هَنِيٍّ خال عن فكر وهَمّ؛ ولهذا تُسَاقُ إلى مَنْحَرِها وهي مُنهَمِكةٌ على شهواتها لِفِقْدان العلم بالعواقب.

والآدمي لا ينال ما تناله؛ لقوَّة الفكر الشاغل، والهمِّ الواغل، وضعف الآلة المستعمَلة.

والثاني: أن يفكِّر في عواقب الهوى؛ فكم قد أَفَاتَ من فضيلة! وكم قد أوقَعَ في رذيلة! وكم مِن مطعم قد أوقع في مرض! وكم مِن زلَّة أوجَبَتِ انكسارَ جاه، وقُبْحَ ذِكْر، مع إثم؛ غيرَ أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى!

فأقرَبُ الأشياء شَبَهًا به: مَن في المَدْبَغة؛ فإنه لا يجدُ رِيحَها حتى يخرُجَ فيعلم أين كان.

والثالث: أن يتصوَّر العاقل انقضاء غرضه من هواه، ثم يتصوَّر الأذى الحاصل عَقِيبَ اللذَّة؛ فإنه يراه يُرْبِي على الهوى أضعافًا؛ وقد أنشد بعض الحكماء:

وَأَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَرْتَكِبْ سَبَبًا ... حَتَّى يُمَيِّزَ مَا تَجْنِي عَوَاقِبُهُ

والرابع: أن يتصوَّر ذلك في حق غيره، ثم يتلمَّح عاقبته بفِكْره؛ فإنه سيرى ما يعلم به عَيْبه إذا وقف في ذلك المقام.

والخامس: أن يتفكَّر فيما يطلُبُهُ من اللذَّات؛ فإنه سيُخبِرُهُ العقل أنه ليس بشيء؛ فعَيْنُ الهوى عَمْياء.

ويروى عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ **قال:** «إذا أعجَبَتْ أحدَكُمُ امرأةٌ، فلْيَذْكُرْ مَنَاتِنَهَا»[(١)].

وهذا أحسَنُ من قول أبي الطيِّب[(٢)]:

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَى ... حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

لأن ابن مسعود ذكر الحال الحاضرة المُلازِمة، وأبو الطيِّب أحال على أمور متأخِّرة، إلا أن يكون أشار إلى هذا المعنى.

والسادس: أن يتدبَّر عِزَّ الغَلَبة وذُلَّ القهر، فإنه ما من أحد غلَبَ هواه إلا أَحَسَّ بقوَّة عِزّ، وما من أحد غلبه هواه إلا وجد في نفسِهِ ذُلَّ القهر.

والسابع: أن يتفكَّر في فائدة المخالفة للهوى من اكتساب الذِّكْرِ الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعِرْض، والأجر في الآخرة.

ثم يَعكِسُ فيتفكَّر لو وافق هواه في حصول عكس ذلك على الأَبَد»[(٣)].

وعن عبد الرحمٰن ابن أخي الأصمعي، عن عَمِّه؛ قال: قال لي الرشيد: ما حَدُّ العِشْق وصفته؟ فقلت: «أن تكون رِيحُ البَصَل مِن المعشوق أطيَبَ عند العاشِق من ريح المِسْك مع غيره»[(٤)].

وقال الحكماء: «عَيْنُ الهوى عوراء»[(٥)].

قال ابن الجوزي: «بهذا السبب يُعرِضُ الإنسان عن زوجته، ويُؤثِرُ عليها الأجنبيَّة، وقد تكون الزوجة أحسن، والسبب في ذلك: أن عيوب الأجنبيَّة لم تَبِنْ له، وقد تكشفها المخالطة؛ ولهذا إذا خالط هذه المحبوبة الجديدة، وكشَفَتْ له المخالَطة ما كان مستورًا، مَلَّ وطلب أخرى، إلى ما لا نهاية له.

---

(١) قال الألباني في «الإرواء» (١٧٨٩): «لم أقفْ على سنده إلى ابن مسعود»، وأخرجه أبو يوسف في «الآثار» (٨٩٤) عن إبراهيم النخعي؛ بلفظ: «إذا رأَيْتَ المرأةَ، فأَعْجَبَتْكَ، فاذْكُرْ مَنَاتِنَهَا» وأخرجه كذلك ابن أبي شيبة (١٧٤٩٠) بنحوه.

(٢) «الأمثال السائرة، من شعر المتنبي» (ص٧٦).

(٣) «ذم الهوى» (ص٣٧ ـ ٣٨)؛ باختصار وتصرُّف.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص٥٤٧).

(٥) «ذم الهوى» (ص٥٤٧).

وقد بلغنا عن المتوكِّل أنه خرَجَ يومًا واجمًا، فسأله وزيره عن حاله، فقال: في الدار عشرون ومائة جارية ما فِيهِنَّ مَن تطلُبُها نفسي... فاستعمالُ الفِكْرِ في بدَنِ الآدمي وما يحوي من القذارة، وما تستُرُ الثياب من المُستقبَحِ يهوِّنُ العشق؛ **ولهذا قال ابن مسعود**: «إذا أعجَبَتْ أحدَكُمُ امرأةٌ، فلْيَذْكُرْ مَنَاتِنَها»(١).

وقال بعض الحكماء: مَن وجد ريحًا كريهة من محبوبة، سَلَّاه؛ وكفى بالفكر في هذا الأمر دفعًا للعِشْق المُقْلِق.

ولقد بلَغَنا أن رجلًا عَشِقَ امرأة، فمَدَّ يده إليها مع طَيْش، فقالت له: تأمَّلْ أمرَكَ، أتدري ما تريد أن تصنع؟! إنما تريد أن تَبُولَ في بالوعةٍ لو شَاهَدتَّ داخلها لوجَدتَّهُ أنتن من الكَنِيف! فبرَدَ وسكَنَ ولم يعاوِدْ.

وقال أبو نَصْر ابن نُبَاتة:

مَا كُنْتُ أَعْرِفُ عَيْبَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ ... حَتَّى سَلَوْتُ فَصِرْتُ لَا أَشْتَاقُ
وَإِذَا أَفَاقَ الْوَجْدُ وَانْدَمَلَ الْهَوَى ... رَأَتِ الْقُلُوبُ وَلَمْ تَرَ الْأَحْدَاقُ»(٢)

وهناك أمور أخرى يُثمِرُها التفكُّر؛ فهو على كل حال يشرح الصدر، ويُورِث سكينة القلب، ويُورِث العبد الخوف والخشية، والمراقَبة لله ﷻ، وهو نعمة كبيرة؛ فمن الغَبْن أن يضيِّعها الإنسان، أو يجعلها في أمور مرذولة.



(١) تقدم تخريجه.

(٢) «ذم الهوى» (٥٤٧ ـ ٥٤٨).

من أخبار أهل التفكُّر

التفكُّر والاعتبار، خُلُقُ أهل الفَضْل والادِّكَار، ودُونَك طَرَفًا من أخبارهم:

١ ـ **يقول شَقِيق البَلْخي**: «أَخَذْتُ الخشوع من إسرائيل بن يونس؛ كنا جلوسًا حوله لا يَعرِفُ مَن عن يمينه ولا مَن عن شماله مِن تفكُّرِهِ بالآخرة»[(١)].

٢ ـ **ويقول يوسف بن أسباط**: «قال لي سفيان الثوري ـ وقد صلَّينا العشاء الآخرة ـ: نَاوِلْني المِطْهَرة، فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خَدِّه، ونمت، فاستيقظتُ وقد طلع الفجر؛ فإذا المِطْهَرة بيمينه كما هي، فقلتُ: هذا الفجر قد طلع، فقال: لم أزل منذ ناوَلْتَني المِطْهَرة أتفكَّر في الآخرة حتى الساعة»[(٢)].

٣ ـ **وقال ابن المبارَك لبعض أصحابه، وقد رآه مفكِّرًا**: «أين بلغتَ؟ قال: الصِّرَاط»[(٣)].

٤ ـ **وعن محمد بن واسع**: «أن رجلًا من أهل البصرة رَكِبَ إلى أم ذر بعد موت أبي ذر، يسألها عن عبادة أبي ذر... قالت: كان النهار أجمَعَ خاليًا يتفكَّر»[(٤)].

٥ ـ **وعن عون بن عبد الله؛ قال**: «سألنا أمَّ الدرداء، قلنا: ما كان أفضَلَ عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكُّر والاعتبار»[(٥)].

٦ ـ **وهذا السَّرِيُّ السَّقَطِيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «إني لأنظُرُ إلى أنفي كل يوم مرارًا؛ مخافة أن يكون وجهي قد اسْوَدَّ»[(٦)].

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أُحِبُّ أن أموت حيث أُعرَف، فقيل له: ولِمَ ذاك يا أبا الحسن؟ قال: أخاف أَلَّا يَقْبَلَني قبري فأُفتضَح»[(٧)].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨)، ووقع فيه: «مِن تفكُّرِ الآخرة».
(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٥٧).
(٣) نسبه الزَّبِيدي في «الإتحاف» (١٠/ ١٦٤) لأبي نعيم في «الحلية»، ولم أجده فيه، وهو في «الإحياء» (٤/ ٤٢٥)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٩).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٤).
(٥) أخرجه ابن المبارك (٢٨٦)، والإمام أحمد (١٣٥)؛ كلاهما في «الزهد»، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ١٤٩)؛ من طريق ابن المبارك؛ وإسناده صحيح.
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩١).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩٢).

٧ ـ **وعن أبي أسامة المصري؛ قال:** بينا أبو شُرَيْح يمشي إذْ جلس فتقنَّع بكسائه، فجعل يبكي، فقلنا: ما يبكيك؟ قال: «تفكَّرْتُ في ذَهَابِ عمري، وقِلَّةِ عملي، واقترابِ أجلي»(١).

٨ ـ **وبكى عمر بن عبد العزيز يومًا، فسُئِلَ عن ذلك، فقال:** «فكَّرْتُ في الدنيا ولذَّاتها وشَهَواتها، فاعتبَرْتُ منها بها؛ ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدِّرَها مَرَارتُها، وإنْ لم يكن فيها عِبْرة لمن اعتَبَر، إنَّ فيها مَواعِظَ لمن ادَّكَر»(٢).

٩ ـ **وعن فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز؛** أنها دخلت على عمر، فإذا هو جالس في مصلَّاه، معتمِدًا يده على خَدِّه، سائِلةً دموعُهُ على لحيته؛ قالت: فقلت: يا أمير المؤمنين، أيُّ شيءٍ حدَث؟ قال: «يا فاطمة، إني تقلَّدتُّ أَمْرَ أمَّة محمد ﷺ أحمَرِها وأسوَدِها، فتفكَّرْتُ في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والغازي المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباهِهم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعَلِمْتُ أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، وأنَّ خَصْمي دونهم محمَّد ﷺ، فخَشِيتُ ألَّا يثبُتَ لي حجة عند خصومته، فرَحِمْتُ نفسي فبَكَيْتُ»(٣).

١٠ ـ **وعن عبد السلام مولى مَسْلَمة بن عبد الملك؛ قال:** بكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة ـ زوجته ـ فبَكَى أهل الدار، لا يدري هؤلاءِ ما أبكى هؤلاء، فلما تجلَّى عنهم العَبْر، قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين، مِمَّ بَكَيْتَ؟ قال: «ذكرت يا فاطمة مُنصَرَفَ القوم مِن بين يدي الله؛ فريق في الجنَّة، وفريق في السعير»(٤).

١١ ـ **وكان داود الطائي في ليلة مُقْمِرة،** فتفكَّر، فقام فمشى على السطح وهو شاخص حتى وقع في دار جار له، قال: فوثَبَ صاحب الدار عُرْيانًا من الفراش، فأخذ السيف ـ ظن أنه لِصّ ـ فلما رأى داود، رجع فلبس ثيابه، ووضع السيف، وأخذ بيده حتى رَدَّهُ إلى داره، فقيل لداود، فقال: «ما دَرَيْت، أو ما شَعَرْت»(٥).

١٢ ـ وكان هشام الدستوائي إذا فقَدَ السراج من بيته، يتململُ على فراشه، فكانت امرأته تأتيه بالسراج، فقالت له في ذلك، فقال: «إني إذا فَقَدتُّ السراج، ذكَرْتُ ظُلْمَةَ القبر»(٦).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العمر والشيب» (٢٢).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٥).
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ١٩٧).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٥٥)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٦٩).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٥٨).
(٦) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٥٢).

١٣ ـ **وعن يوسف بن أسباط؛ قال:** «كان سفيان الثوري طويل الفكرة، وكان يفور الدَّمُ مِن حزنه وفكرته»[(١)].

١٤ ـ **وذكر محمد بن الصَّبَّاح الدولابي سيف بن هارون، فقال:** «كان قد احتفَرَ في داره أو بيته قبرًا، فكان يدخُلُ فيه كل قليل، ثم يقول: أهيلوا عليَّ التراب، ثم يصيح: أرجعوني لعلي أعمل صالحًا فيما تَرَكْتُ»[(٢)].

١٥ ـ **وعن عاصم الرقاشي؛ قال:** «انطلَقَ غَزْوان وحَمَمَة إلى عامر بن عبد الله، فوجداه مغلِقًا عليه بابه، فسمعاه يبكي، فجلسا ببابه يبكيان لبكائه، ثم أَذِنَ لهما، فرأى أثر البكاء على وجوههما، فقال: ما أبكاكما؟ قالا: سمعناك تبكي، فبكينا لبكائك، قال: أُخبِرُكما ما أبكاني، إني ذكَرْتُ الليلة التي صبيحتها يوم القيامة، قلت: إنها لَتَمَخَّضُ بأمر عظيم»[(٣)].

١٦ ـ **وعن النضر بن إسماعيل؛ قال:** «مَرَّ الربيع بن أبي راشد برجل به زَمَانَة، فجلس يحمد الله ويبكي، فمَرَّ به رجل، فقال: ما يبكيك رحمك الله؟ قال: ذكَرْتُ أهل الجنة وأهل النار، فشبَّهْتُ أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء؛ فذلك الذي أبكاني»[(٤)].

١٧ ـ **وعن رُشَيْد بن حُبَاب؛ قال:** «مرض حازم بن الوليد بن بُجَيْر الأزدي، فدعوتُ له طبيبًا، فنظر إليه، فقال: ما بصاحبك هذا إلا الحُزْن، فقال حازم: إني ذكَرْتُ مواقف يوم القيامة، ففَزِعَ لذلك قلبي»[(٥)].

١٨ ـ **وقالت أخت بشر بن الحارث:** «دخل بِشْرٌ عليَّ ليلةً من الليالي، فوضَعَ إحدى رجليه داخل الدار والأخرى خارجها، وبقي كذلك يتفكَّر حتى أصبح، فلما أصبح، قلت له: فيماذا تفكَّرْتَ طول ليلتك؟ فقال: تفكَّرت في بِشْر النصراني، وبِشْر اليهودي، وبِشْر المجوسي، ونفسي واسمي بِشْر، فقلت: ما الذي سَبَقَ منك إليه حتى خَصَّك؟! فتفكَّرْتُ في تفضُّلِهِ عليَّ وحَمِدَتُّهُ على أن جعلني من خاصَّته، وألبسني لباس أحبَّائه»[(٦)].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٦٠).
(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٤٣٠).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٢٩٩)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/ ٣٨ ـ ٣٩).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٧٨).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (٩٢٨).
(٦) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٤٣٨).

١٩ ـ **وعن أبي بكر الحربي؛ قال**: سمعتُ السَّرِيَّ السَّقَطِيَّ يقول: «حَمِدتُّ الله مرَّة، فأنا أستغفِرُ الله من ذلك الحمد منذ ثلاثين سنة، قيل: وكيف ذاك؟ قال: كان لي دُكَّان، وكان فيه متاع، فوقع الحريق في سوقنا، فقيل لي، فخرجتُ أتعرَّفُ خبر دُكَّاني، فلقيت رجلًا، فقال: أَبشِرْ؛ فإنَّ دكَّانك قد سَلِمَ، فقلت: الحمد لله، ثم إني فكَّرْتُ فرأيتُها خطيئةً»[1]؛ يعني: أنه كان يهتمُّ لنفسه.

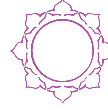
هذا آخِرُ الكلام على التفكُّر، واللهَ أسأل أن يطهِّر قلوبنا وأعمالنا؛ إنه سميع مجيب.



(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٨٧)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٠/ ١٧٥).

رابعًا

الخشوع



توطئة

الخشوع مِن صفات الأنبياء والصالحين، ومِن مراتب الصِّدِّيقِينَ ومنازل المقرَّبِين، وهو حال القلب إذا تمكَّن خوف الله منه، فيُخبِتُ لربه، ويخضع لعظمته، ويَنكَسِرُ لهيبته، ويَذِلُّ لعِزَّته، ثم تظهر آثار هذا التمكُّن على الجوارح، فتنقاد لله رب العالمين.

فالله أسأل أن يَجعَلَنا له خاشعين؛ إنه سميع مجيب.



معنى الخشوع وحقيقتُه

الخشوعُ في اللغة: يدور على معنى واحد تدور عليه جميع استعمالات هذه الكلمة؛ وهو التواضُعُ والتَّطَامُن؛ **ومن هنا قيل**: «الخاشع: المستكينُ والراكع»، **وقيل**: «المتضرِّع»، **وقيل**: «المتخشِّع: هو الذي طأطأ رأسه وتواضَعَ»، وقيل غير ذلك مما يقاربه[(١)].

وأما الخشوع في معناه الشرعي: فعبارات العلماء فيه متقاربة أيضًا[(٢)]:

فقيل: هو قيام القلب بين يَدَيِ الربِّ بالخضوعِ والذُّلّ.

وقيل: هو الانقياد للحق؛ وهو تفسيرٌ بالمقتضَى واللازم؛ فالانقياد من موجَبات الخشوع.

وقيل: هو تذلُّل القلوب، لعلَّام الغيوب.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحقُّ: أن الخشوع معنًى يَلْتَئِمُ من التعظيمِ والمحبَّة، والذُّلِّ والانكسار»[(٣)].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخشوعُ تارَةً يكون من فعل القَلْب كالخشية، وتارَةً من فِعْلِ البَدَنِ كالسكون، وقيل: لا بد من اعتبارهما؛ حكاه الفخر الرازِيّ في «تفسيره»[(٤)]، وقال غيره: هو معنًى يقوم بالنَّفْس، يظهر عنه سكون في الأطراف، يلائِمُ مقصود العبادة»[(٥)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأصل الخشوع: هو لِينُ القَلْبِ ورِقَّتُهُ وسكونه، وخضوعه وانكساره وحُرْقَتُه، فإذا خشَعَ القلب، تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له؛ كما قال ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً...**»؛ الحديثَ[(٦)]، وكان ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: «**خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي**»[(٧)]»[(٨)].

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ١٨٢)، (خ ش ع).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١ ـ ٥٢٤).
(٣) المصدر السابق (١/ ٥٢٢).
(٤) انظر: «مفاتيح الغيب» (٢٣/ ٢٥٩).
(٥) «فتح الباري» (٢/ ٢٦٤).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه مسلم (٧٧١)؛ من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٨) «الذل والانكسار» (ص٣٥ ـ ٣٨).

فهو يرى أن خضوع الجوارح ثَمَرَةٌ لخضوع القلب ولِينِه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والخشوع يتضمَّن **معنيَيْن**:

أحدهما: التواضُع والذل.

والثاني: السكون والطمأنينة.

وذلك مستلزِم لِلِينِ القلب المنافي للقسوة؛ فخشوع القلب يتضمَّن عبوديَّته لله وطمأنينته أيضًا؛ ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمَّن هذا وهذا: التواضع والسكون»[1].

فهو يرى أنَّ لِينَ القلبِ نتيجة وأَثَرٌ ولازم من لوازم الخشوع؛ كما أن خشوع الجسد تبع لخشوع القلب، وأن الخشوع هو التواضع والتذلل، والسكون والطمأنينة؛ ولهذا جاء عن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنه قال: «الخشوع في القلب، وأن تُلِينَ كَنَفَك للمرء المسلم، وألَّا تَلتفِتَ في صلاتك»[2].

وهكذا جاء عن إبراهيم النَّخَعي[3]، وقتادة[4]، وطائفة من السلف أيضًا: أنَّ الخشوعَ في القلب.

وكان ابن سِيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول**: «كانوا يقولون: لا يُجاوِزُ بصرُهُ مصلَّاه»[5].

وسُئِلَ الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن الخشوع، فقال**: «غَضُّ البصر، وخَفْضُ الجَنَاح، وأَنِين القلب؛ وهو الحزن»[6].

وقال بشر بن الوليد: «رأيت الأوزاعيَّ كأنه أعمى مِن الخشوع»[7].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]: «القنوت: الركوع، والخشوع، وغَضُّ البصر، وخَفْضُ الجَنَاح من رهبة الله تعالى»[8].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨ ـ ٣٠).

(٢) أخرجه وكيع (٣٢٨)، وابن المبارك (١١٤٨)؛ كلاهما في «الزهد»، وابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٩٣)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٢/ ٢٧٩)، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفي إسناده ضعف. انظر: تخريج «الزهد» لوكيع بن الجراح (٣٢٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ١٠).

(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ٨)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤٣).

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٩٠٠).

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٤٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٥/ ١٩٦).

(٨) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٧٧)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٢)، =

والخلاصة: أن الخشوع معنًى ينتظِمُ خضوع القلب وذُلَّهُ وانكساره وعبوديَّته، وسكونه وتواضعه، وطمأنينته، مع التعظيم والمحبة والخشية لله تعالى، ويظهر أثره على الجوارح بسكونها، والتواضُع للخلق؛ فيكون القلب عامرًا بالسكون والطمأنينة، والتذلُّل والمحبَّة والتعظيم، مع خضوع الجوارح، وتواضع العبد، وسكون الجسم، وسكون الطَّرْف والنَّظَر.



= وسعيد بن منصور في «التفسير» (٤٠٦)، وابن جرير في «تفسيره» (٥/ ٢٣٥)، ومن طريق سعيد بن منصور أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٨٨٣). وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر؛ كما ذكر ذلك السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٩٦ ـ ٩٧).

الفرقُ بين الخشوعِ وبين الإخباتِ والخضوعِ والضَّرَاعة

أولًا: الفرق بين الخشوع والإخبات:

قال الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ [الحج: ٣٤]، ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحج: ٣٥]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٢٣﴾ [هود: ٢٣].

وأصل الخَبْتِ في اللغة: المكانُ المنخفِضُ من الأرض.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ [الحج: ٣٤]: «هم المتواضِعون»[(١)]، وكذا قال قتادة[(٢)]، وقال مجاهد: «المطمئنِّين إلى الله»[(٣)]، وقال الأخفش: «الخاشعين»[(٤)]، وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ رحمه الله: «المخلِصين»[(٥)]، وقال الكلبي: «هم الرقيقة قلوبهم»[(٦)]، وقال عمرو بن أوس: «المخبِتون: الذين لا يَظلِمُون، وإذا ظُلِمُوا لم يَنتصِروا»[(٧)].

وهذه الأقوال جميعًا ـ كما يقول ابن القيِّم رحمه الله ـ: «تدور على معنيَيْنِ: التواضُعُ والسكون إلى الله ﷻ»[(٨)]؛ وبهذا نعرف أن الإخبات مقارِبٌ للخشوع، لكن الخشوع يصحبه ذُلُّ القلب وانكساره، مع المحبَّة والتعظيم.

ثانيًا: الفرق بين الخشوع والخضوع:

وأما الخشوع والخضوع، فهما متقارِبان أيضًا.

---

(١) «تفسير البغوي» (٥/٣٨٦)؛ بتصرف.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/٥٥١).
(٤) «تفسير البغوي» (٥/٣٨٦).
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.
(٧) أخرجه سعيد بن منصور (١٤٩٣ط.آل حميد)، وابن أبي شيبة (١٣/٥٧٨)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٨١)، والطبري في «تفسيره» (١٦/٥٥١)؛ واللفظ له، والدينوري في «المجالسة» (٤١٦، ٣٠٣١)، والبيهقي في «الشُّعَب» (٧٧٣٣).
(٨) «مدارج السالكين» (٢/٣).

وقد قيل: إن الخضوع يكون بالبَدَن؛ فيقال: فلان خضَعَ لفلان، وإنْ كان قلبُهُ لم يَخضَعْ له.

وأمَّا الخشوع، فيكون في القلب، والبدن، والصوت، والبصر؛ فيظهر هذا على بصره وجوارحه[١].

فأصلُ الخضوع: هو الذلُّ والانقياد، فإذا قيل: «خضوع القلب»، فهو ذُلُّهُ، وإذا قيل: «خضوعُ البَدَن»، فهو انقيادُهُ واستسلامه.

ثالثًا: الفرق بين الخشوع والضراعة:

وأما الفرق بين الخشوع والضَّرَاعة، فكذلك بينهما تقارُب.

وقد قيل: أكثر ما يستعمَلُ الخشوع فيما يُوجَدُ على الجوارح في الظاهر، وإنْ كان أيضًا يرتبِطُ بالقلب بلا شك، وأما الضَّرَاعةُ، فأكثر ما تستعمَلُ فيما يوجد في القلب[٢]، **وأصل الضَّرَاعة في اللغة**: الذُّلُّ والخضوع؛ وبهذا نعرف أنها معانٍ متقاربةٍ.



(١) انظر: «لسان العرب» (٢/ ١١٦٥)، (خ ش ع).

(٢) «مفردات القرآن» للأصبهاني (ص١٤٨)؛ بتصرف.

أهميَّة الخشوعِ ومنزلتُهُ

الخشوع بلا شكٍّ في غاية الأهميَّة، ومَن فقَدَه، فقَدَ واجبًا من واجبات الإيمان؛ **ومما يَدُلُّ على أهميَّته:**

أولًا: أنه واجب من واجبات الصلاة؛ على قول طائفة من أهل العلم:

وممن اختار هذا القول: القرطبي صاحب «التفسير»(١)، وشيخ الإسلام ابن تيميَّة(٢)، والحافظ ابن القيِّم(٣)، وطائفة من السلف والخلف، وقد استدَلَّ شيخ الإسلام ابن تيميَّة على أن الخشوعَ واجبٌ من واجبات الصلاة بأدلَّة متعدِّدة، **منها**(٤):

١ ـ أن الله ﷻ قال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]؛ يقول ﵀ مبينًا وجه هذا الاستدلال: «وهذا يقتضي ذَمَّ غير الخاشعين؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣]؛ فقد دَلَّ كتاب الله ﷻ على مَن كَبُرَ عليه ما يُحِبُّهُ الله، وأنه مذموم بذلك في الدين مسخوط منه، والذم أو السخط لا يكون إلا لترك واجب، أو فعل محرَّم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين، دَلَّ ذلك على وجوب الخشوع، فمِن المعلوم أن الخشوع المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥] لا بُدَّ أن يتضمَّن الخشوع في الصلاة؛ فإنه لو كان المراد الخشوع خارج الصلاة، لَفَسَدَ المعنى؛ إذْ لو قيل: إن الصلاة لكبيرةٌ إلا على من خشَعَ خارجها، ولم يخشع فيها، كان يقتضي أنها لا تكبُرُ على من لم يخشع فيها، وتكبُرُ على من خشَعَ فيها، وقد انتفى مدلول الآية؛ فثبَتَ أن الخشوع واجب في الصلاة»(٥).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ٩).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٥٣ ـ ٥٥٧).
(٣) انظر: «الوابل الصيب» (ص١٧ وما بعدها).
(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٥٣ وما بعدها).
(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٥٣ ـ ٥٥٤).

ﭐللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٤]، إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]؛ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أنَّ هؤلاء هم الذين يَرِثُونَ فِرْدَوْسَ الجنَّة، وذلك يقتضي أنه لا يَرِثُها غيرهم، وقد دَلَّ هذا على وجوب هذه الخصال؛ إذْ لو كان فيها ما هو مستحَبٌّ، لكانت جنة الفردوس تُورَث بدونها؛ لأنَّ الجنة تُنَالُ بفعل الواجبات دون المستحَبَّات؛ ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلا ما هو واجب»[(١)].

٣ ـ **أن النبي ﷺ توعَّد تَارِكِيهِ؛ كالذي يرفع بصَرَهُ إلى السماء**؛ فعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال النبي ﷺ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ؟!**»، فاشتدَّ قوله في ذلك حتى قال: «**لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ**»[(٢)]؛ وكذلك حديث جابر بن سَمُرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ**»[(٣)]؛ فدلَّ ذلك على وجوب الخشوع في الصلاة؛ وبهذا استدل أيضًا الحافظ العراقي[(٤)].

وقد ذمَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَسْوَةَ القلوبِ المنافيةَ للخشوع في غير موضع من كتابه؛ ومن ذلك قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

قال الزجَّاج: «قسَتْ في اللغة: غَلُظَتْ ويَبِسَتْ وصَلُبت، فتأويل القسو في القلب: ذَهَابُ اللِّينِ والرحمةِ والخضوعِ والخشوعِ منه»[(٥)]، والقلبُ القاسي والعاسي: الشديدُ الصلابة.

ويقول ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوَّة القلب المحمودة غيرُ قسوته المذمومة؛ فإنه ينبغي أن يكون قويًّا مِن غير عُنْف، وليِّنًا مِن غير ضَعْف... وهذا كاليد؛ فإنها قويَّة ليِّنة، بخلاف ما يقسو من العَقِب، فإنه يابس لا لِين فيه، وإنْ كان فيه قوَّة»[(٦)].

ثانيًا: أن العبادة التي يُصاحِبها الخشوع تفضُلُ العبادة التي لا خشوع فيها:

وشتَّان بين اثنَيْنِ أحدُهما يصلِّي وهو خاشع، والآخر يصلِّي وهو أبعد ما يكون من الخشوع.

يقول حسَّان بن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الرَّجُلَيْنِ ليكونان في صلاة واحدة وإن بينهما في الفضل لكما بين السماء والأرض»[(٧)].

(١) المصدر السابق (٢٢/ ٥٥٤).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠).
(٣) أخرجه مسلم (٤٢٨).
(٤) انظر: «طرح التثريب» (٢/ ٣٧٢).
(٥) «معاني القرآن» للزجاج (١/ ١٥٥).
(٦) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٠).
(٧) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٩٦).

ثالثًا: أن الخشوع أول ما يُفقَدُ من هذه الأمَّة:

فعن شدَّاد بن أَوْسٍ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ ما يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الخُشُوعُ**»[(١)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قالَ: «**أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الخُشُوعُ؛ حَتَّى لَا تَرَى فِيها خَاشِعًا**»[(٢)].

ورُوِيَ عن حذيفة رضي الله عنه؛ أنه قال: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ: الخُشُوعُ، وآخِرُ ما تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ: الصَّلَاةُ»[(٣)].

رابعًا: أن الله استبطأَ المؤمنين في تحقيق هذا الوصف:

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «فدعَاهُمْ إلى خشوع القلب لِذِكْرِهِ وما نزَلَ من كتابه، ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمَدُ فقسَتْ قلوبهم، وهؤلاء هم الذين: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وكذلك قال في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ والذين يَخشَوْنَ ربَّهم هم الذين إذا ذُكِرَ الله تعالى، وَجِلَتْ قلوبُهم.

فإن قيل: فخشوع القلبِ لذِكرِ الله وما نزل من الحق واجب؟

قيل: نعم»[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٨٣)، و«مسند الشاميين» (٢٦٣٧) مرفوعًا، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٤٣)، وأشار ابن كثير إلى تضعيفه في «التفسير» (٨/ ٢٠)، وقد رُوِيَ موقوفًا عليه، أخرجه أحمد (٦/ ٢٦)، وصحَّحه ابن حبان (٤٥٧٢)، والحاكم (١٩٨)، والذهبي، ورجَّح المنذري الوقف في «الترغيب» (١/ ٣٥١).

(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٧٩)، وحسَّن إسناده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ١٣٦)، والمنذري في «الترغيب» (١/ ٣٥١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٦٩)، إلا أن ابن رجب أشار في «الذل والانكسار» (ص٥٠ ـ ٥١) إلى إعلاله، ولم يجزم.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٨١)، والحاكم (٤/ ٤٦٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٨١)، وصحَّحه الحاكم، والذهبي.

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٩).

خامسًا: أن صلاة الظهر يُشرَع تأخيرها عن أول الوقت إلى حَدِّ الإبراد:

مع أن الصلاة في أول الوقت محبوبةٌ إلى الله ﷻ، وهو أفضل العمل؛ كما ثبَتَ عن النبي ﷺ[1]، ومع ذلك شرَعَ لنا النبي ﷺ الإبراد بالصلاة؛ وحِكْمةُ هذا التأخير ـ كما ذكره ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «أن الصلاة في شدَّة الحَرِّ تمنع صاحبها من الخشوع وحضور القلب والتأثُّر بها»[2].



(١) أخرجه أبو داود (٤٢٦)؛ من حديث أم فَرْوة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والدارقطني في «سننه» (٩٦٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه ابن خزيمة (٣٢٧)، والحاكم (١/ ١٨٨)، والألباني في «صحيح أبي داود» (١/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، و«صحيح الجامع» (١٠٩٣)، إلا أنه قد تُكُلِّمَ في صحَّتها. انظر: «نصب الراية» (١/ ٢٤١)، و«الفتح» (٢/ ١٣).

(٢) «الوابل الصيِّب» (ص٢٧)؛ بتصرف يسير.

الخشوع في الكتاب والسُّنَّة

أولًا: الخشوع في القرآن الكريم:

تكرَّر ذكر الخشوع في كتاب الله ﷻ، وجاء في معان متعدِّدة، **منها**:

المعنى الأول: **الذُّلُّ**؛ قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه: ١٠٨]؛ أي: ذَلَّتْ، ويقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ [الحشر: ٢١]؛ أي: ذليلًا، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ [الغاشية: ٢]؛ أي: ذليلة.

المعنى الثاني: **سكون الجوارح**؛ قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ٢].

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان خشوعُهم في قلوبهم؛ فغَضُّوا بذلك البصر، وخفَضُوا به الجناح»(١).

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السكون»(٢).

وجاء عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا قاموا في الصلاة، أقبَلُوا على صلاتهم، وخفَضُوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وعَلِمُوا أن الله يُقبِلُ عليهم؛ فلا يَلتَفِتون يمينًا ولا شمالًا»(٣).

وقال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **في تفسيرها**: «خائفون ساكنون»(٤)، وبه قال طائفة من السلف؛ كقتادة(٥)، والزُّهْري(٦)، وإبراهيم النَّخعي(٧).

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ٨ ـ ٩).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٩)، وعبد الرزاق (٣٢٦٨)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٢/ ٢٨٠).

(٣) أخرجه ابن مردويه؛ كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ١٠).

(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ١٠)، وابن المنذر، وعبد بن حميد؛ كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٥٥٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ٨).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٥٣)، وابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ٩).

وقال سعيد بن جُبَيْر رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: متواضعين، لا يَعرِفُ مَن عَن يمينه، ولا مَن عَن شِمَاله، ولا يَلتفِتُ مِن الخشوع لله عَزَّ وَجَلَّ»(١)؛ فهو ساكن الجوارح، مُنكسِرُ القلب، لا يرفع بصره(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى: «ومنه: خشوع البصر وخفضه وسكونه، ضد تقليبه في الجهات؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝﴾ [القمر: ٦ ـ ٨]، وقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝﴾ [المعارج: ٤٣ ـ ٤٤]... في هاتَيْن الآيتَيْن وصف أجسادهم بالحركة السريعة؛ حيث لم يصف بالخشوع إلا أبصارَهم، بخلاف آية الصلاة؛ فإنه وصف بالخشوع جملة المصلِّين بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝﴾ [البقرة: ٤٥]... ومِن ذلك: خشوع الأصوات؛ كقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، وهو انخفاضُها وسكونُها»(٣).

ومما يدخل في هذا المعنى ـ وهو السكون ـ قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢٣٨].

فقد جاء عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢٣٨]؛ **قال:** «مِن القنوت: الركوع والخشوع، وغَضُّ البصر وخفض الجناح من رَهْبة الله، كان العلماء إذا قام أحدهم في الصلاة، يهاب الرحمٰن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَشُدّ نَظَره إلى شيء، أو يَلتفِت، أو يقلِّب الحصى، أو يَعبَث بشيء، أو يحدِّث نفسه بشيء من شأن الدنيا إلا ناسيًا ما دام في صلاته»(٤).

والمعنى الثالث: الخَوْف:

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخشوع في القلب: هو الخوف، وغَضُّ البصر في الصلاة»(٥).

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥/٤٠٨).

(٢) ذكر شيخ الإسلام في غير ما موضع من كتبه هذه المعاني وغيرها. انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/٢٨ ـ ٣٠)، (٢٢/٥٥٣ ـ ٥٥٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥٥٦ ـ ٥٥٧).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه عَبْد بن حُمَيْد، وابن المنذر؛ كما في «الدر المنثور» (١٠/٥٥٩)، وابن جرير في «تفسيره» (١٧/١٠)، والقرطبي في «تفسيره» (١/٤١٤).

قال الله ﷻ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ **قال الحسَن:** «هو الخوف الدائم في القلب»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

قال عبد الرحمن بن زيد: «الخشوعُ: الخَوْفُ والخَشْية لله، وقرأ قول الله: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٥]؛ قال: قد أذلَّهم الخوف الذي نزَلَ بهم وخشَعُوا له»[(٢)].

«فهم ينظُرون إلى النار مِن طَرْفٍ خفي، متذلِّلين متضائلين مما دهاهم، يبتدئ نَظَرُهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف؛ كالمصبور ينظر إلى السيف»[(٣)].

والمعنى الرابع: التواضع:

وقد فُسِّرَ بذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وكذا قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ قال مجاهد: «الخشوع والتواضع»[(٤)].

والمعنى الخامس: اليُبْسُ والجمود؛ كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصِّلت: ٣٩]؛ يعني: هامدةً يابسةً لا نبات فيها[(٥)].

ثانيًا: الخشوع في السُّنَّة:

١ ـ عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«مَا مِن امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا**

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٨)، وروى أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٧٨) عن سفيان الثوري مثله.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/ ٥٣٢).

(٣) «تفسير أبي السعود» (٨/ ٧١ ـ ٧٢)؛ بتصرف.

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٧٤)، وابن جرير في «تفسيره» (٢١/ ٣٢٣)؛ وبه قال غير واحد. انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦١)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣١٣ ـ ٣١٤).

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٣٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٦٧).

قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً؛ وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»(١).

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ ـ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الخَاشِعِ الرَّاكِعِ السَّاجِدِ**»(٢).

٣ ـ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ، لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي**»(٣).

وهذا الحديث يدلُّ على أن الخشوع ينتظِمُ جوارح العبد جميعًا، وأنه من الأعمال القلبيَّة التي تظهر على الجوارح وتؤثِّر فيها، وأن الخشوع في كل جارحة بحَسَبِها؛ فخشوع السمع غير خشوع البصر، والمُخّ، والعَظْم، وهكذا.

وتظهر ثَمَرة القول بالتلازُم في الأعمال القلبيَّة في مثل ذلك؛ ولذلك فإنه إذا كان خشوع الجارحة أثرًا من آثار خشوع القلب، كان ذلك أقوى من القول بأن الجارحةَ خشَعَتْ؛ لأن خشوع الجارحة مجرَّدًا يمكن أن يكون من خشوع النفاق، بخلاف ما لو اتصل خشوعها بخشوع القلب.

قال ابن الجَوْزي رحمه الله: «وإني لأعرف خَلْقًا يحضُرُون المجلس منذ سنين، ويبكون ويخشعون ولا يتغيَّر أحدهم عما قد اعتاده من المعامَلة في الربا، والغش في البيع، والجهل بأركان الصلاة، والغِيبَة للمسلمين، والعقوق للوالدَيْن، وهؤلاء قد لبَّس عليهم إبليس؛ فأراهم أن حضور المجلس والبكاء يدفع عنه ما يُلابِسُ من الذنوب»(٤).

٤ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَرَرْتُ بِجِبْرِيلَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالمَلَأِ الأَعْلَى، وَهُوَ كَالحِلْسِ البَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عز وجل**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨).

(٢) أخرجه النسائي (٣١٢٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٢٠)، وأصل الحديث عند البخاري (٢٧٨٧)، دون قوله: «الخاشع الراكع الساجد». انظر للاستزادة: «السبيل الهاد، إلى تخريج أحاديث الجهاد» للشيخ مساعد الحميد (٢٩، ٣٠، ٣٢١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «تلبيس إبليس» (ص٤٤٦).

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٦٢١)؛ ومن طريقه أبو القاسم الأصبهاني في «الحُجَّة» (٢٤٨). وقال فيه الهيثمي في «المجمع» (١/ ٧٨): «رجاله رجال الصحيح»، وصحَّحه السيوطي في «الخصائص» (١/ ١٥٨)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٨٩)، وفي الباب عن أنس رضي الله عنه.

٥ ـ **وعن هشام بن إسحاق بن عبد الله بن كِنَانة، عن أبيه؛ قال**: أرسَلَني أميرٌ من الأمراء إلى ابن عبَّاس أسأَلُهُ عن الصلاة في الاستسقاء، فقال ابن عبَّاس: ما منعه أن يسألني؟ قال: «خرَجَ رسولُ الله ﷺ: متواضِعًا متبذِّلًا متخشِّعًا مترسِّلًا متضرِّعًا، فصلى ركعتَيْن، كما يصلِّي في العيد، ولم يخطُبْ خُطْبَتَكُمْ هذه»[1].



(١) أخرجه الترمذي (٥٥٨، ٥٥٩)، والنسائي (١٥٢١)، وابن ماجه (١٢٦٦)؛ واللفظ له، وصحَّحه الترمذي، وابن خزيمة (١٤٠٥، ١٤١٩)، وابن حبان (٢٨٦٢)، والحاكم (١/٣٢٦ ـ ٣٢٧)، والنووي في «المجموع» (٥/ ٩٤)، والألباني في «الإرواء» (٦٦٥)، (٢/ ٩٥).

دَرَجاتُ الخشوع

للخشوع ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: التذلُّل لأمر الله ﷻ، مع الاستسلامِ لحُكْمه، والتواضُعِ لنظر الله تعالى له.

فالتذلُّل لأمر الله تبارك وتعالى: تَلَقِّيهِ بصدق العبودية من غير استنكاف، ولا نُفْرة، ولا تعالٍ عليه، وإنما يخضع العبد لأمر ربه ومولاه سبحانه، فيتقبَّل أمره، وينقاد له، ويتمثَّل لهذا التوجيه الرباني، مع موافقة باطنه لظاهره، وإظهار الضعف والافتقار لهداية الله ﷻ؛ فهو منقاد لأمر ربِّه بقلبه وجوارحه، متواضِع له سبحانه.

وأما الاستسلام لحكمِ الله ﷻ: فيشمل الحُكْمَ **بنوعَيْه:**

الحكم الشرعي: فلا يعترِضُ على شرائع الدين، وأحكام الله ﷻ الدينيَّة.

والحكم الكَوْني: فلا يعترِضُ على أحكام الله القدريَّة الكونيَّة.

فإذا نزَلَتْ به مصيبة أو بمن يُحِبُّ، تلقَّى ذلك بالصبر والرضا دون اعتراض بالتسخُّط؛ فهو لا يعارِضُ أمر الله الشرعي بشهوة ولا برأي، ولا يعارِضُ قدر الله بتسخُّط، أو تذمُّر.

وأما التواضُعُ لنظر الله ﷻ: فإنما يحصُلُ بدوام استشعاره مراقبة الله ﷻ له، فيَذِلُّ قَلْبُهُ، وتَنكَسِرُ نفسه، وتَخضَعُ جوارحه.

الدرجة الثانية: الرجوع إلى النفس باستشعار نَقْصِها وضعفها وعجزها، فيُورِثُه ذلك تواضعًا.

وأمَّا في نظره إلى الخلق، فإنه يرى فضائِلَهم ومحاسنهم.

فنظَرُهُ إلى النفس نَظَرُ انتقاص يزهِّده في مطالبة الخلق بحقِّه عليهم، فضلًا عن إكرامهم وإعظامهم له.

ثم إذا نظر إلى الناس، لم ير إلا إفضالهم وإكرامهم، ومناقبهم ومحاسنهم؛ فيثني عليهم، ويشكُرُ معروفهم، ويَحفَظ صنائعهم، فلا تَضِيع ولا تُنسَى؛ وهذا لا شك أنه مِن أكمل المنازل، ومِن أحسن أحوال النفس.

الدرجة الثالثة: أن يصفِّي قلبه من النظر إلى المخلوقين؛ فلا يَلتفِت إليهم بعمله

الصالح، ولا يَنشغِل بهم طلبًا لمدحهم، ورغبةً فيما عندهم، بل قد جعَلَ عمله كلَّه لله؛ فشغله ابتغاء مرضاته عن الانشغال بمن سواه[١].



(١) ذكر هذه الدَّرَجات الحافظ ابن القيِّم نقلًا عن صاحب «المنازل». انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٢ ـ ٥٢٤).

مراتب الناس في الخشوع

فكما أن الخشوع يتفاوت في نفسه، فكذلك الناس يتفاوتون فيه؛ بحَسَب ما يقع في قلوبهم من معرفة الله ﷻ، ومعرفة صفات عظمته وجلاله، واستشعار مراقبته، وكذلك ما يكون في قلوبهم من معرفة النَّفْس ونقائصها وعيوبها، وكذلك بحَسَبِ فهمهم وتدبُّرهم لمعاني القرآن، فيتفاوَت الناس في ذلك تفاوُتًا كبيرًا، حتى يكون بين الرجل وصاحبه في الصلاة كالذي بين السماء والأرض؛ «هذا تُرفَعُ صلاته، تتوهَّج بالنور حتى تَخترِق السمٰوات إلى عرش الرحمٰن ﷻ، وهذا تخرُجُ مُظْلِمةً لِظُلْمة قلبه، فتُغلَقُ أبواب السماء دونها، فتُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخَلِق، فيُضرَبُ بها وجه صاحبها، وهذا يُكتَبُ له أضعافها وأضعاف مضاعفة، وهذا يخرُجُ منها وما كُتِبَ له إلا نصفها إلا ربعها إلا ثمنها إلا عشرها، وهذا يحضُرُها صورة ولم يُكتَبْ له منها شيء»[(١)].

فمن الناس: مَن يحقِّق هذا الخشوع؛ لقوَّة مطالعته لقرب الله ﷻ منه، واطلاعه على سِرِّه وضميره ومكنوناته؛ فيستحيي من الله، ويراقبه في حركاته وسكناته.

ومنهم: من يحقِّقه بمطالعته لكمال الله وجماله المقتضي الاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه.

وبعضهم: يخشع حين يستشعِرُ قوَّة الله ﷻ، وجبروته، وبطشه، وشدَّة أخذه، ونكاله بالظالمين المُجرِمين الخارجين عن حدوده وطاعته.

والناس في هذا الباب ما بين ظالم لنفسه، أو مقتصِد، أو سابق بالخيرات بإذن الله[(٢)]؛ لأن مراتب السالكين إلى الله ﷻ في العبوديَّة لا تخرُجُ عن هذه المراتب الثلاث؛ كما قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢].

فالظالم لنفسه: هو المقصِّر في الواجبات، المرتكِب للمحظورات.

والمقتصِد: مَن اقتصَر على الأمر الواجب دون زيادة أو نقص، وترَكَ المحرَّم.

والسابق بالخَيْرات: من جاء بالواجب، وفارَق المحرَّم، مع مجانبته للمكروه، وفعله المستحبَّات.

(١) «معارج القبول» (٣/ ١٠١٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨ ـ ٣٠).

فالخشوع: عمَلٌ من أعمال القلب التي تظهر على الوجه والجوارح، والناس يتفاوتون فيه على هذه المراتب؛ فالسابقون في هذا الباب: هم الأوَّلون، ثم يلي ذلك من هو مقتصِد، ثم يلي ذلك الظالم لنفسه، والظالم لنفسه متوعَّدٌ بالعقوبة.

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بربه: «**مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**»(١)؛ فدَلَّ على أن تحقيق الخشوع وتحصيله من الواجبات في الحد الذي لا يرخَّص للمكلَّف في تركه والتقصير فيه.

وهكذا تتفاوَتُ أحوال العباد في صلاتهم من جهة الخشوع، وقد جعَلَهم ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ على **خمس مراتب**(٢):

الأولى: الظالم لنفسه المفرِّط، وهو الذي انتقَصَ من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها؛ ولا شك أن هذه الأمور تؤثِّر في خشوع العبد، بل إن الإمام يتأثَّر في خشوعه وإدراكه في صلاته بسبب إخلال بعض المأمومين بطهارتهم، أو في إقامة صلاتهم؛ كما جاء عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، عن النبي ﷺ؛ أنه صلَّى صلاة الصبح، فقرأ الرُّومَ، فالْتَبَسَ عليه، فلمَّا صلَّى، قال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الطُّهُورَ؛ فَإِنَّمَا يُلَبِّسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ أُولَئِكَ**»(٣).

قال ابن كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ، **بعد أن ذكر هذا الحديث**: «وهذا إسناد حسن، ومتن حسن، وفيه سِرٌّ عجيب، ونبأ غريب، وهو أنه ﷺ تأثَّر بنقصان وضوء من ائتم به؛ فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلِّقة بصلاة الإمام»(٤).

الثانية: رجل يحافظ على المواقيت والأركان الظاهرة، ولكنه يضيِّع مجاهدة ما يَعرِضُ له من الوساوس والخواطر، فيسترسِلُ معها.

الثالثة: مَن حافَظَ على حدودها وأركانها، وجاهد نفسه بدفع الوساوس؛ فهو مشغول بين صلاة وجهاد، يحاول أن يستحضِر ويجاهِد؛ فهو مأجور على مجاهدته، ومأجور على صلاته؛ ولكنه لم يَعْتَلِ سَنَامَ المراتب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)؛ من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «الوابل الصيِّب» (ص٤٩ ـ ٥١).

(٣) أخرجه النسائي (٩٤٧)، وحسَّنه ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٣٢٩)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣)، وضعَّفه الألباني في «تمام المنة» (ص١٨٠)، ثم تراجع إلى تحسينه في «أصل صفة الصلاة» (٢/ ٤٤٠)، و«صحيح سنن النسائي» (١/ ٣١٥). وفي الباب عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: «الضعيفة» (١٦٢٥).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٢٩).

الرابعة: وهذه فوق الثالثة؛ وهو مَن قام إليها، فأكمَلَ حقوقها وأركانها، واستغرق قلبه شأن الصلاة وعبوديَّة ربه فيها؛ فلا تشغله الوساوس، ولا ينشغل بمجاهدة النفس، وإنما شُغْلُه في تكميل صلاته، وهمه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي.

الخامسة: وهي أعلى المراتب، وأرفع درجات الخاشعين في الصلاة؛ فهو مع تحقيق الشروط والواجبات والأركان، وحضور القلب، قد امتلأ قلبه محبَّةً لله، وإجلالًا له تعالى، يصلِّي وكأنه يَرَى ربه ﷻ؛ فتندفِعُ عنه تلك الوساوس والخطرات التي شغَلَتْ غيره، ولا تأتي إليه أصلًا؛ فهو مشغول بربه، قرير العين به.

فالأول: معاقَب، **والثاني:** محاسَب، **والثالث:** مكفَّرٌ عنه لمجاهَدته، **والرابع:** مُثَاب، **والخامس:** مقرَّبٌ إلى ربه في أعلى المنازل والدرجات.



أنواع الخشوع

للخشوع نوعان:

الأول: خشوع الإيمان: وهو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوَقَار والمهابة والحياء، فينكسِرُ القلب كَسْرةً مُلتئِمةً من الوَجَلِ والحبّ والحياء، وشهود نعم الله وجناياته هو؛ فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوع الجوارح.

والثاني: خشوع النفاق: وهو خشوع الظاهر دون مواطَأة الباطن؛ فيبدو على الجوارح تصنُّعًا وتكلُّفًا والقلب غير خاشع[(١)].

ومتى تكلَّف الإنسان تعاطِيَ الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه منه، فإنَّ ذلك يكون من قَبِيلِ خشوع النفاق، إلا إذا أراد العبد بفعل ذلك تحقيق خشوع الإيمان، على ألَّا يكون ذلك بحضرة الناس، وإنما يفعله خاليًا.

وقد قال بعض السلف: «استعيذوا بالله مِن خشوع النفاق»، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ فقال: «أن ترى الجَسَدَ خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[(٢)].

وكان الفُضَيْل بن عِيَاض رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول:** «كان يُكْرَهُ أن يُرِيَ الرجلُ من الخشوع أكثَرَ مما في قلبه»[(٣)].

وقد ذُكِرَ أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **رأى رجلًا طأطأ رَقَبَتَهُ في الصلاة، فقال:** «يا صاحب الرَّقَبة، ارفع رقَبَتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب»[(٤)].

ولما ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أنواع البكاء، قال:** «والثامن: بكاءُ النفاق، وهو أن تدمع العين، والقلب قاس، فيُظهِرُ صاحبه الخشوع، وهو من أقسى الناس قلبًا»[(٥)].

---

(١) انظر: «الروح» (٢/ ٦٩٤).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٤٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٥٦٧)، عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد جاء نحوه مرفوعًا من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٥٦٨)، والحكيم في «النوادر» (ص٣١٧)، وقد ضعَّفه العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٩٤٢)، والألباني في «تحقيق الإيمان لشيخ الإسلام» (ص٢٧).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١)؛ ولم أجده مسندًا.

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١)، وروَى نحوه الدِّينَوري في «المجالسة» (١٦٩١، ٣١٩١).

(٥) «زاد المعاد» (١/ ١٧٨).

وقد رأى بعضهم رجلًا خاشع المَنْكِبَيْنِ والبدن، فقال: «يا فلان، الخشوع ها هنا»، وأشار إلى صدره، «لا ها هنا»، وأشار إلى مَنْكِبَيْه[(١)].

وذُكِرَ أن عائشة ﵂ رأت أناسًا يتماوتون في مِشْيَتِهم، فسألت عن هؤلاء، فقيل لها: نُسَّاكٌ؛ أي: عُبَّاد، فقالت: «كان عمر بن الخطاب ﵁ إذا مشى أسرَع، وإذا قال أسمَع، وإذا ضرَبَ أوجَع، وإذا أطعَمَ أشبَع؛ كان هو الناسكَ حقًّا»[(٢)].

وعن محمد بن عُبَيْد الطَّنَافسي؛ قال: «سمعتُ سفيانَ ـ يعني: الثوري ـ يقول: يا معشَرَ القرَّاء، ارفعوا رؤوسكم، لا تزيدوا التخشُّعَ على ما في القلب؛ فقد وضَحَ الطريق؛ فاتقوا الله، وأَجمِلوا في الطلب»[(٣)].

يقول ابن القيِّم ﵀: «فالخاشع لله: عَبْدٌ قد خمَدَتْ نيران شهوته، وسكَنَ دُخَانُها عن صدره؛ فانجلى الصدر، وأشرق فيه نور العظمة؛ فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي حُشِيَ به، وخمَدَتِ الجوارح، وتوقَّر القلب، واطمأنَّ إلى الله وذِكْرِهِ بالسكينة التي نزَلَتْ عليه من ربه، فصار مخبِتًا له، والمخبِتُ: المطمئنُّ؛ فإن الخَبْتَ من الأرض: ما اطمأنَّ فاستنقَعَ فيه الماء؛ فكذلك القلب المُخبِت: قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنَّة من الأرض التي يجري إليها الماء فيستقِرُّ فيها، وعلامتُه: أن يسجُدَ بين يدي ربه إجلالًا وذلًّا وانكسارًا بين يديه سَجْدةً لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه.

وأما القلب المتكبِّر: فإنه قد اهتزَّ بتكبُّره ورَبَا، فهو كبُقْعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء.

فهذا خشوع الإيمان.

وأما التماوُتُ وخشوع النفاق: فهو حالٌ عند تكلُّف إسكان الجوارح تصنُّعًا ومراءاةً، ونفسه في الباطن شابَّةٌ طَرِيَّة، ذاتُ شهوات وإرادات؛ فهو يَخشَعُ في الظاهر، وحيَّةُ الوادي وأسدُ الغابةِ رابِضٌ بين جنبَيْهِ ينتظِرُ الفريسة»[(٤)].



---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١)؛ ولم أجده عن عائشة ﵂، وإنما أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٧٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٤/ ٢٨٨)، من كلام الشَّفَّاء بنت عبد الله.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٨٢).

(٤) «الروح» (٢/ ٦٩٤ ـ ٦٩٥).

الطريق إلى الخشوع

وإليك بعضَ الوسائل الموصِّلة إلى الخشوع:

١ ـ استحضار نظر الله تعالى إليك:

في حَرَكاتك وسَكَناتك، في صلاتك وقراءتك، في قيامك وقعودك؛ فالخشوعُ لا يختصُّ بالصلاة، وإنما هو عبادة قلبيَّة يظهر أثرها على الجوارح في كل أحوال العبد؛ وإنما يفارِقُ الخشوع القلب إذا حصلت الغَفْلة عن استشعار نظر الله ﷻ ومراقبته.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «الخشوع هو الاستسلام للحُكْمَيْنِ: الديني الشرعي: بعدم معارَضَته برأي أو شهوة، والقَدَريِّ: بعدم تَلَقِّيهِ بالتسخُّطِ والكراهِيَةِ والاعتراض، وهو الانقياد بالمَسْكَنة والذل لأمر الله وقضائه، والاتِّضَاعُ لنظر الحق، وهو اتِّضَاع القلب والجوارح وانكسارها لنظرِ الربِّ إليها، واطِّلاعِهِ على تفاصيل ما في القلب والجوارح، وخوفُ العبد الحاصل من هذا يُوجِب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشدَّ استحضارًا له، كان أشدَّ خشوعًا، وإنما يُفارِق الخشوع القلب إذا غفَلَ عن اطلاع الله عليه، ونظَرِه إليه»[(١)].

فهذا الذي أورَثَ قلوب القوم ما أورَثَها من خشية الله في السرِّ والعلن، بالليل والنهار، وعلى كل حال؛ فظهَرَ ذلك على جوارحهم، وقَسَمات وجوههم.

فعن عبد الله بن أبي سليمان؛ قال: كان علي بن الحسين زين العابدين إذا مشى لا تجاوِزُ يدُهُ فخذَيْه، ولا يَخطِرُ بيده، وكان إذا قام إلى الصلاة، أخذته رِعْدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: «ما تدرون بين يَدَيْ مَن أقوم؟! ومَن أناجي؟!»[(٢)]، وكان إذا توضَّأ للصلاة، اصفَرَّ لونه من شدة الوَجَل، والحَيَاء، والخوف، واستشعار عظمة الله، والنظر إليه، فيُقدِمُ على صلاةٍ يُناجِي فيها ربه؛ فيظهر ذلك صُفْرةً في وجهه.

فعن عبد الرحمٰن بن حَفْص القُرَشي؛ قال: «كان علي بن حسين إذا توضَّأ، اصفَرَّ، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك؟ فيقول: تدرون بين يَدَيْ مَن أريد أن

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣)؛ بتصرف.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٣٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤١/ ٣٧٨)؛ واللفظ له.

أقوم؟!»[١].

وكان خَلَف بن أيوب لا يطرُدُ الذباب عن وجهه في الصلاة، فقيل له: كيف تصبر على ذلك؟ قال: «بلغني أن الفسَّاق يَصبِرُونَ تحت أسواط السلطان ليقال: فلان صبور، ويَفتخِرون بذلك، فأنا قائم بين يَدَيْ ربي؛ أفأتحرَّك لذبابة؟!»[٢].

٢ ـ ترقُّبُ آفات النَّفْس والعمل بالنَّقْد، ورؤيةُ فضل كل ذي فضل:

فارجِعْ إلى نفسك، وانظُرْ إلى عيوبها؛ فإن ذلك يُورِثُك انكسارًا، وأما الخَلْق، فلا تنظر إلى عيوبهم، بل انظر إلى محاسنهم، فيُورِثُك ذلك شعورًا بأنك أقلُّ من هؤلاء جميعًا، وأنك المقصِّر المذنب، المحتاج إلى عفو ربك ومسامحته، وإلى التشمير للتقرُّب إليه وطاعته[٣].

٣ ـ معرِفة الربِّ ﷻ معرِفةً صحيحةً تُورِثُ التعظيم:

فكلما كان العبد أعرَفَ بالله، كان له أخوَفَ وأشدَّ تعظيمًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فإذا عرَفَ العبدُ ربَّه بصفات كماله ونعوت جلاله، وعرَفَ نفسه بضَعْفها وعَجْزها وفَقْرها، انكسَرَ وتواضَعَ وخشَعَ لله ربِّ العالمين[٤].

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «الفقرُ فقران:

فَقْرٌ اضطراريّ؛ وهو فقر عام لا خروج لِبَرٍّ ولا فاجرٍ عنه؛ وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذَمًّا، ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزِلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

والفقرُ الثاني: **فَقْرٌ اختياري**، هو نتيجة عِلْمَيْنِ شريفَيْن:

أحدهما: معرفة العبد بربِّه.

والثاني: معرفته بنَفْسِه.

فمتى حصَلَتْ له هاتان المعرفتان، أنتجتا فقرًا هو عين غِنَاه، وعنوانُ فلاحه وسعادته. وتفاوُتُ الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتَيْن المعرفتَيْن؛ فمَن عرَفَ ربَّه بالغِنَى المطلق، عرَفَ نفسَهُ بالفقر المطلق، ومن عرَفَ ربه بالقدرة التَّامَّة، عرَفَ نفسه بالعجز التام، ومن عرَفَ ربه بالعِزِّ التام، عرَفَ نفسه بالمسكنة التامة»[٥].

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٣٦٧).
(٢) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٥١). وانظر: «إتحاف السادة المتقين» (٣/ ٢٤).
(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).
(٤) انظر: «الخشوع في الصلاة» لابن رجب (٤٦ ـ ٤٧).
(٥) «طريق الهجرتين» (١/ ١٣ ـ ١٤).

فإذا حصَّل العبد هذا المقام، ونزَلَ بتلك المنزِلة، خضَعَ لله، وخشَعَ قلبه وجوارحه؛ سواءٌ كان في الصلاة أو كان خارجًا عنها، ولما كان القيام في الصلاة بين يَدَيِ الله أكمَلَ حال الخاشعين، جُعِلَت قُرَّةُ عينه فيها، فإذا تلبَّس بها، استكان لها، وإذا انصرَفَ عنها، اشتاق إليها.

٤ ـ أن يصلِّيَ صلاة رجل يظنُّ أنه لن يعود إليها أبدًا:

فإن ذلك أدعى أن يفرِّغ لها قلبه، وأن يستحضِرَ فيها عظمة ربه.

وقد جاء عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ؛ فقال: عِظْني وأَوْجِز، فقال: «**إذا قُمْتَ فِي صَلَاتِك، فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ...**»، الحديث[(١)].

وفي حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**اذْكُرِ المَوْتَ فِي صَلَاتِك؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ المَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنَّهُ يُصَلِّي صَلَاةً غَيْرَهَا...**»، الحديث[(٢)].

وخطب علي بن أرطأة على منبر المدائن، فجعل يَعِظُ الناس حتى بَكَى وأَبْكَى، فقال: «كونوا كرجل قال لابنه وهو يعظه: يا بُنَيَّ، أُوصِيكَ لا تُصَلِّ صَلَاةً إلا ظننتَ أنك لا تصلِّي بَعْدَها غيرها حتى تموت»[(٣)].

٥ ـ أن تستشعِرَ وتستحضِرَ أنك على الصراط فوق جهنَّم:

وكأنك تشاهد الجنة والنار أمام عينَيْك، وكأنك قمتَ بين يدي الله عز وجل في موقف الحساب؛ وكان بعض السلف إذا سَمِعُوا الأذان، تغيَّرت ألوانهم، وفاضت عيونهم، كانوا يَرَوْنَ أنه يذكِّرهم بالنداء يوم العرض الأكبر[(٤)]؛ كانوا يستشعرون هذه المعاني في كل شيء حولهم.

وهذا حاتم الأصم لما سُئِلَ عن صلاته، قال: «إذا حانت الصلاة، أسبَغْتُ الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعُدُ فيه حتى تجتمِعَ جوارحي، ثم أقوم إلى

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١)، وقد ضعَّفه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/٢٢٧)، ط. دار العربية، ولكن له شواهد بها حسَّنه ابن حجر والسَّخاوي؛ كما في «المقاصد» (٢٧٥)، والألباني في «الصحيحة» (٤٠١).

(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (١٧٥٥)، كما في «المقاصد» (٢٧٥)، وحسَّنه ابن حجر، كما في «المقاصد» (٢٧٥)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٢١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٠٥).

(٤) انظر: «الرقة والبكاء» (١٤٠ ـ ١٤٧).

صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي؛ أظنُّها آخر صلاتي»(١).

وقال أبو عبد الرحمٰن الأسدي: «قلت لسعيد بن عبد العزيز: يا أبا محمَّد، ما هذا البكاء الذي يَعرِضُ لك في الصلاة؟ فقال: يا ابن أخي، وما سؤالك عن ذلك؟ قلت: يا عم، لعل الله أن ينفعني، فقال سعيد: ما قمتُ في صلاتي إلا مُثِّلَتْ لي جهنَّم»(٢).

ومن استشعَرَ هذه المعاني في الصلاة، لم يتغيَّر حاله في النافلة عنه في الفريضة، ولا في السِّرِّيَّة عنه في الجهريَّة، ولكن قد تتفاوت درجات الخشوع بحسب حاله في كل صلاة.

وترى كثيرًا من الناس يتعجَّبون ممن يخشع في الصلاة السرية، وكيف لا يخشع وهو يقف بين يدي الله، ويستحضِرُ الجنة والنار، وأن الله يراه وينظُرُ إليه؟! ولكن الكثير من الناس لما قَسَتْ قلوبهم، ذهَبَتْ خشية الله منها، بينما لو قاموا لعظيم في الدنيا، قاموا خُشَّعًا صَامِتِينَ، ثم لا تراهم خاشعين لله ربِّ العالمين.

قال مسلم بن يَسَار: «لو كنتَ بين [يَدَيْ] مَلِكٍ تطلُبُ حاجةً، لَسَرَّكَ أن تَخشَعَ له»(٣).

وقال ذو النُّون المِصْرِي: «لو رأيتَ أيها البَطَّالُ أحدهم وقد قام إلى صلاته وقراءته، فلما وقف في محرابه، واستفتح كلام سيده، خطَرَ على قلبه أن ذلك هو المقام الذي يقوم فيه الناس لربِّ العالمين؛ فانخلَعَ قلبُه، وذهَلَ عقلُه»(٤).

وكان منصور بن صفيَّة ـ وهو منصور بن عبد الرحمٰن ـ يبكي في وقت كل صلاة؛ فكانوا يَرَوْنَ أنه يذكُرُ الموت والقيامة عند الصلوات(٥).

٦ ـ أن تفرِّغَ قلبك للصلاة، وأن تُؤثِرَها على ما سواها:

قال ابن كَثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخشوع في الصلاة إنما يحصُلُ بمن فرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها؛ وحينئذ تكون راحة له وقرة عَيْن؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي جاء عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول ﷺ؛ أنه قال: «**حُبِّبَ إِلَيَّ**

(١) «الإحياء» (١/ ١٥١).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٧٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١/ ٢٠٣).
(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٨١)؛ ومن طريقه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٥١)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٦٨).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٤٠).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٤١).

الطِّيبُ والنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(١)».

وكان ابن المنكَدِر رَحِمَهُ اللهُ **يقول**: «إني لأدخُلُ في الليل فيَهُولُني، فأُصبِحُ حين أصبح وما قضَيْتُ منه أَرَبِي»(٢)؛ أي: إذا أقبل الليل، ودخلْتُ فيه، وبادرت إلى الصلاة، وخلوت بربي؛ فإذا بالليل قد انقضى، وتصرَّمت ساعاته، ولم أشعُرْ بذلك، ولم يحصُلْ ما كنت أؤمِّله من طول المناجاة، فهي قصيرة في نظره؛ لشدة شَغَفه وتعلُّقه بذلك!

وقيل لعامر بن عبد القيس: أتحدِّثُ نَفْسَكَ بشيء في الصلاة؟ فقال: «أوَشَيْءٌ أحبُّ إليَّ من الصلاة أحدِّث به نفسي؟!»، قالوا: إنَّا لَنُحَدِّث أنفسنا في الصلاة! فقال: أبالجنة والحُور؟ قالوا: لا، بأهلينا وأموالِنا، فقال: «لَأَنْ تختلِفَ الأَسِنَّةُ فيَّ أحبُّ إليَّ من أن يكون هذا مِنِّي في صَلَاتِي»(٣).

وقيل له: أما تسهو في صلاتك؟ قال: «أَوَحَدِيثٌ أحبُّ إليَّ مِن القرآن حتى أشغل به؟! هيهات، مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس»(٤).

فينبغي على الواحد منا إذا أراد أن يدخُلَ في الصلاة أن يفرِّغ نفسه من شواغلها

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٦١).
والحديث أخرجه النسائي (٣٩٣٩)، و(٣٩٤٠)، بتقديم النِّسَاء على الطِّيب، وقد ضعَّفه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٥٣١)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٠٣)، والدارقطني في «أطراف الأفراد» (٦٧٩)، وقد نقل ذلك عنه الضياء (١٧٣٧)، وقد صحَّحه جمع من أهل العلم؛ كالحاكم(٢/ ١٦٠)، والضياء، والذهبي في «الميزان» (٢/ ١٧٧)، وابن القيِّم في «زاد المعاد» (١/ ١٤٥)، و«الجواب الكافي » (٣٦٦)، والحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٣/ ١١٦)، و«الفتح» (١١/ ٣٥٣)، والألباني في «الصحيحة» (٣٢٩١)، وغيرهم.
وانظر: «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢٠٦)، و«المقاصد» (٣٨٠)، والله أعلم.
تنبيه: ورد هذا الحديث في بعض التفاسير بلفظ: «**حُبِّبَ إليَّ مِن دنياكم ثلاث**...»؛ ولكنْ لا يُعلَمُ له أصلٌ؛ كما ذكر ذلك ابن القيِّم في «الجواب الكافي » (ص٣٦٦)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٤٣١)، وابن حجر في «التلخيص» (٣/ ١١٦)، والسخاوي في «المقاصد» (٣٨٠)، والمُنَاوي في «الفتح السماوي» (٢٧٥)، و«فيض القدير» (٣/ ٣٧٠)، والقاري في «المصنوع، في معرفة الحديث الموضوع» (١٠٦)، والزرقاني في «مختصر المقاصد» (٣٥٥)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص١٢٥).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٦٠٥)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٩٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/ ٢٣) مختصرًا.
(٤) «المُدْهِش» (ص٤٧٢).

حتى يُحسِنَ مناجاةَ ربِّه؛ فكما أنه لا ينبغي أن يكون في مصلَّاه ما يشغل بصره، فكذا لا ينبغي أن يكون في نفسه ما يشغل قلبه.

ولما كَثُرَتْ شواغل الدنيا، وانصرَفَ كثير من الناس عن الاهتمام بأمر الآخرة، صار كثير منهم ينشغلون في صلاتهم بما أهمَّهم خارِجَها، حتى ذهب خشوع القلب وتذلُّلُهُ وهو بين يدي ربه، وإن الرجل ليقوم في صلاته وهو يعلم أن الله ينظر إليه، فما يمنعه ذلك من التفكُّر بما يشغله من أمر دنياه، ولو كان حقيرًا تافهًا، ولو كان محرَّمًا.

يقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا قُمْتَ إلى الصلاة، فقُمْ قانتًا كما أمرك الله، وإيَّاك والسهوَ والالتفات؛ أن ينظُرَ الله إليك وتنظُرَ إلى غيره، تسألُ الله الجنة وتعوذُ به من النار، وقلبك ساهٍ، ولا تدري ما تقول بلسانك؟!»(١).

٧ ـ تدبُّر القُرْآن:

فإن تدبُّر القرآن يفتح مغاليق القلوب، ويُشغِل النفس بأخباره وقصصه ومَوَاعِظِه، وأوامره ونواهيه؛ فتدمع العين، ويَرِقُّ القلب ويخشع، ويتذلَّل العبد بين يَدَيْ ربه منكسِرًا خائفًا وَجِلًا، فإذا مَرَّتْ به آيات الرحمة، سأل ربه من فضله، وإذا مَرَّتْ آيات العذاب، استعاذ بالله من عذابه؛ فهو في صلاته بين خوف ورجاء؛ يذهب به الخوف كل مَذْهَب، حتى لَيُوشِكُ قلبه أن يتفطَّر، ثم يسكُنُ برجائه عند حسن ظنِّه بربه، وموفور الثقة به، وتمام التوكُّل عليه.

هنالك تنفتح مغاليق تلك القلوب، وتستهدي بهدي الله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

وقد قيل: «الخشوع في الصلاة: هو جمعُ الهِمَّة، والإعراضُ عما سواها، والتدبُّر فيما يجري على لسانه من القرآن والذِّكْر»(٢).

ومعلوم أن التدبُّر لا يقع إلا إذا عُرِفَ المعنى.

يقول ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَجِبْتُ لمن يقرأ القرآن ولا يَعرِفُ معانيه؛ كيف يَلتَذُّ بقراءته؟!»(٣).

فمعرفة معاني القرآن طريق للتدبُّر، والتدبُّرُ طريق للفهم والاتعاظ والاعتبار والخشوع؛ لذلك كان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقوم الواحد منهم بآيةٍ واحدة، يردِّدها إلى الفجر،

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤٠).
(٢) «تفسير البغوي» (٤/ ١٦١).
(٣) «معجم الأدباء» (٦/ ٢٤٥٣)؛ بتصرف.

مع الخشوع والبكاء[١].

وكان مالك بن دِينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرأ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ثم يقول: «أُقسِمُ لكم لا يُؤمِن عبدٌ بهذا القرآن إلا صُدِعَ قلبه»[٢].

وقال أبو عمران الجَوْني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله، لقد صرَّف إلينا ربُّنا عَزَّ وَجَلَّ في هذا القرآن ما لو صُرِّفَ إلى الجبال، لَحَتَّها وحَنَاها»[٣].

ويقول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا ابن آدم، إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة، أو حَدَّثْتَ بها نفسَك، فاذكُرْ عند ذلك ما حمَّلك الله من كتابه مما لو حمَلَتْهُ الجبال الرواسي، لَخَشَعَتْ وتصدَّعت؛ أَمَا سمعتَهُ يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]؟!»[٤].

وقد وصف النبي ﷺ الخوارج الذين هم كِلَاب النار[٥]؛ بأنهم: «**يَقْرَؤُونَ القُرْآن لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**»[٦]، وقد كانوا من أكثر الناس قراءةً لكتاب الله، حتى إنه كان يُسمَعُ لهم في بيوتهم دَوِيٌّ كدَوِيِّ النَّحْلِ من قراءة القرآن، ولكنَّهم ما انتفَعُوا به، وكانت جباههم قَرِحةً من السجود، وأيديهم كأنها ثَفِنُ الإبل، عليهم قُمُصٌ مرخَّصة، مشمَّرِينَ مُسْهِمةً وجوهُهم من السهر، قد خشَعَتْ أبدانهم، ولم تَخشَعْ قلوبهم؛ ولذلك لما جاءهم ابن عبَّاس يكلِّمهم قبل النَّهْرَوان، قال لهم: «جئتُ أحدِّثكم؛ على أصحاب رسول الله ﷺ نزَلَ الوحي، وهم أعلم بتأويله»[٧].

---

(١) انظر: «الزهد» لأحمد بن حنبل (١٨٢)، و«الرقة البكاء» (٤٢٦ ـ ٤٢٨)، و«التهجد وقيام الليل» (٤٨ ـ ٥٤).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣١١).

(٤) «الذل والانكسار» (ص٥٨).

(٥) قد جاء في وَصْفِهم بأنهم كلاب النار حديثٌ، أخرجه الترمذي (٣٠٠٠)، وابن ماجه (١٧٦)؛ من حديث أبي أُمَامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الحاكم (٢/ ١٤٩ ـ ١٥٠)، والألباني في «صحيح الترمذي» (٣٠٠٠).

(٦) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤)؛ من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٧) أخرجه عبد الرزَّاق (١٨٦٧٨)؛ ومن طريقه الطبراني (١٠٥٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٨)؛ واللفظ له. والحاكم (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١)، وصحَّحه على شرط مسلم؛ قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٤١): «أخرجه الطبراني، وأحمد ببعضه، ورجالهما رجال الصحيح»، وصحَّح إسناده ابن تيميَّة في «منهاج السُّنَّة» (٨/ ٥٣٠).

فكان خشوعهم كخشوع النفاق؛ ترى البدن خاشعًا والقلب ليس بخاشع؛ والسبب: أنهم يقرؤون القرآن ولا يُجاوِزُ تراقيهم.

٨ ـ تَرْكُ التكلُّف في كل الشؤون:

فالأفضل للمرء أن يصلِّي في مكان لا يتكلَّف لأحدٍ فيه، ولِينشغِلَ بمن يناجيه؛ فهو أقرب إليه، مطَّلِع عليه؛ فلا يكن أهون الناظرين إليه.

ولذلك من الأشياء التي تُذهِبُ الخشوع على الإمام والمأمومين: التكلُّف في الدعاء، فحينما يتكلَّف الإنسان في الدعاء على غير سجيَّته المعهودة فيه، يكون ذلك مدعاة لِذَهَابِ الخشوع من قلبه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا مَن دَعَا الله مخلِصًا له الدِّينَ بدعاء جائز، سَمِعَهُ الله وأجاب دعاءه؛ سواءٌ كان مُعرَبًا أو ملحونًا، بل ينبغي للداعي إذا لم تكنْ عادته الإعرابَ: ألَّا يتكلَّف الإعراب، وقد قال بعض السلف: إذا جاء الإعراب، ذهَبَ الخشوع، فإذا وقَعَ بغير تكلُّف، فلا بأس به؛ فإن أصل الدعاء من القلب، واللسان تابع للقلب، ومن جعَلَ هِمَّته في الدعاء تقويم لسانه، أضعَفَ توجُّهَ قلبه؛ ولهذا يدعو المضطر بقلبه دعاءً يُفتَحُ عليه لا يحضُرُه قبل ذلك؛ وهذا أمر يجدُهُ كل مؤمن في قلبه.

والدعاء يجوز بالعربيَّة وبغير العربيَّة، والله سبحانه يعلم قصد الداعي ومراده وإنْ لم يقوِّم لسانه؛ فإنه يعلم ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تنوُّع الحاجات»[(١)].

وكذا الموعظة؛ فإنه إذا كان هَمُّ الواعظ توقِّيَ اللَّحْن ـ سواءٌ في الموعظة، أو الخطبة، أو المحاضرة ـ فإن ذلك يؤثِّر في وَقْعِها على القلوب؛ فقد يكون الكلام مؤثِّرًا في ذاته، ولكنْ لما كانت هِمَّةُ الخطيب في إصلاح لسانه وتقويمه مخافة اللحن، قَلَّ تأثير كلامه في الحاضِرين، وإنك لترى الناس يتأثَّرون كثيرًا ببعض المواعظ والخطب، ويَبكُونَ عند سماعها بأنفُس خاشعة، وقلوب ضارعة، وهي عند البلغاء ركيكة مُستهجَنة، تَمُجُّها أسماعُهم، وتنبو عنها قلوبُهم، قد جعَلَ صاحبُها الفاعلَ مفعولًا، والمفعولَ فاعلًا، ومع ذلك استقرَّت في قلوب الآخرين! فمَن كانت عنايته في إصلاح مَنطِقِهِ ولسانه، وتتبُّع وَحْشِيِّ اللغة وغريبها، كان هذا حظَّه منها، ومَن تكلَّم بغير كُلْفة، وهو على هُدًى مُخلِصًا، كان حظُّه منها مثل حظوظ المخلِصين.

والجزاء من جنس العمل؛ فمَن كان كلامه مِن لسانه، كان سمع الناس له بآذانهم، ومَن كان كلامه مِن قلبه، كان سمع الناس له بقلوبهم؛ وكأن القلوب يُلاحِظُ بعضها

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩)؛ باختصار وتصرُّف.

بعضًا، ويتأثَّر بعضها ببعض، وكما تقدَّم: «ليست النائحة المستأجَرة كالنائحة الثَّكْلَى».

فعن سعيد بن عاصم؛ قال: «كان قاصٌّ يجلس قريبًا من مسجد محمد بن واسع، فقال يومًا وهو يوبِّخُ جلساءه: ما لي أرى القلوب لا تخشع، وأرى العيون لا تدمع، وما لي أرى الجلود لا تقشعِرّ؟! فقال محمد بن واسع: يا عبد الله، ما أرى القوم أُتُوا إلَّا[1] مِن قِبَلِك؛ إنَّ الذِّكْر إذا خرج من القلب، وقع على القلب»[2].

والتكلُّف يُفسِد الأعمال القلبية ببَهْرَجَته؛ فإنه لا يصلُحُ معها إلا الإخلاص والصدق.



(١) في «الحلية»: «إثمًا»؛ وهو تحريف، والتصويب من «تحذير الخواصّ، من أكاذيب القصَّاص» للسيوطي (ص١٨٦)، و«الأسرار المرفوعة» للقاري (ص٦٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٥١).

ثَمَرات الخشوع

للخشوع فوائد كثيرة، منها:

أولًا: طَرْد الشيطان، والقضاء على هواجس النَّفْس:

فالخَطَرات والوساوس التي تَعرِضُ للعبد من هواجس النَّفْس ووساوس الشيطان تشغل قلبه، والخشوع خضوع القلب بكليَّته؛ فصاحب القلب الخاشع لا يجد الشيطان طريقًا إليه؛ ولذلك قال بعض أهل العلم: «من خشَعَ قلبه، لم يقرُبْ منه الشيطان»(١).

ثانيًا: الرِّفْعة وعلوُّ المنزِلة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: **«وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»**(٢).

قال النووي رحمه الله: **«فيه وجهان:**

أحدهما: يرفعه في الدنيا، ويثبِّت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويُجِلُّ مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعُهُ فيها بتواضُعه في الدنيا.

وقد يكون المراد الوجهَيْنِ معًا في الدنيا والآخرة»(٣).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «مَن تطاوَلَ تعظُّمًا، خفَضَهُ الله عز وجل، ومَن تواضَعَ لله تخشُّعًا، رفَعَهُ الله عز وجل»(٤).

ثالثًا: حصول الفلاح:

قال الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]؛ فوصفهم بالفلاح المحقَّق، وجعَلَ أوَّل أوصافهم التي نالوا بها الفلاح: خشوعَهُمْ في صلاتهم. **والفلاح:** تحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب؛ **قال رجل**

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).
(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٦/ ١٤٢)؛ باختصار.
(٤) أخرجه وكيع (٢١٦)، وأحمد (١٥٦)؛ كلاهما في «الزهد»؛ واللفظ لأحمد، والطبراني في «الكبير» (٨٥١٢) مختصرًا.

للحسن رَحِمَهُ اللهُ: أوصني، قال: «رَطِّبْ لسانَكَ بذِكْرِ الله، ونَدِّ جفونَكَ بالدموع من خشية الله؛ فقلَّ مَن طَلَبْتَ لديه خيرًا، فلم تُدرِكْه»[١].

فمَن كان بهذه المثابة، حصل له مطلوبه من ربِّه تبارك وتعالى؛ فأكرمه وقرَّبه.

رابعًا: أنه يُورِثُ صاحبه محاسن الأخلاق:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أصلُ الأخلاقِ المحمودةِ كلِّها: الخشوعُ وعلوُّ الهمَّة، وأصل الأخلاق المذمومة كلِّها: الكِبْرُ، والمهانة والدناءة؛ فالفخرُ والبَطَر والأَشَر، والعُجْب والحسد، والبغي والخُيَلاء، والظلم والقسوة، والتجبُّر والإعراض وإباءُ قبول النصيحة، والاستئثار وطَلَب العلوّ، وحبُّ الجاه والرياسة، وأن يُحمَدَ بما لم يفعل، وأمثال ذلك؛ كلُّها ناشئة من الكِبْر.

وأمَّا الكذب والخِسَّة والخيانة، والرياء والمكر والخديعة، والطمع والفَزَع، والجبن والبخل، والعجز والكسل، والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونحو ذلك؛ [فكلُّها] من المهانة والدناءة وصِغَر النَّفْس.

وأمَّا الأخلاق الفاضلة؛ كالصبر والشجاعة، والعدل والمروءة، والعِفَّة والصيانة، والجُود والحلم، والعفو والصفح، والاحتمال والإيثار، وعزَّة النفس عن الدناءات، والتواضع والقناعة، والصدق والإخلاص، والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زَلَّات الناس، وترك الانشغال بما لا يعنيه، وسَلَامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة، ونحو ذلك؛ فكلُّها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمَّة.

والله سبحانه أخبَرَ عن الأرض بأنها تكون خاشعة، ثم يُنزِلُ عليها الماء، فتهتزُّ وتربو، وتأخذ زينتها وبهجتها، فكذلك المخلوق منها: إذا أصاب حظَّه من التوفيق... فمَن عَلَتْ هِمَّتُه، وخشَعَتْ نَفْسُه، اتصف بكل خُلُقٍ جميل، ومَن دَنَتْ هِمَّتُه، وطغَتْ نَفْسُه، اتصف بكل خُلُقٍ رَذِيل»[٢].

خامسًا: أنه يَرُدُّ العبد إلى حكم العبوديَّة:

والكِبْرُ يرفعه عن هذا المقام؛ ولذا كان الكِبْر لا يناسِبُ عبوديَّة القلب؛ فالكبرياء لله عَزَّ وَجَلَّ؛ أمَّا المخلوق: فكماله في الخشوع والتواضُع والإخبات؛ فالعبد لو

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٩).
(٢) «الفوائد» (ص٢٠٩ ـ ٢١٠).

تُرِكَ لنَفْسِه، دعَتْهُ صفاته القبيحة الذميمة إلى التعالي على الخَلْقِ، والأَشَرِ والبَطَر، والخروجِ عن طَوْره، والتنكُّر لأصله، فيَثِبُ على حق ربه من الكبرياء والعظمة، فينازع ربه ذلك.

وقد أُمِرَ العبد بالسجود ـ كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «خضوعًا لعظمة ربه، وخشوعًا له، وتذلُّلًا بين يديه، وانكسارًا له؛ فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلُّل ردًّا له إلى حكم العبوديَّة، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرَجَ به عن أصله، فتمثَّل له حقيقة التراب الذي خُلِقَ منه وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه؛ وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله خضوعًا بين يَدَيْ ربه الأعلى، وخشوعًا له، وتذلُّلًا لعظمته، واستكانة لعزَّته.

وهذا غاية خشوع الظاهر؛ فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذلَّلة للوَطْءِ بالأقدام، واستعمله فيها، وردَّه إليها، ووعَدَهُ بالإخراج منها، فهي أمُّه وأبوه، وأصلُهُ وفصلُه، فضمَّته حيًّا على ظهرها، وميِّتًا في بطنها، وجُعِلَتْ له طُهْرًا ومسجدًا، فأُمِرَ بالسجود؛ إذْ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبوديَّة لسائر الأعضاء، فيعفِّرُ وجهه في التراب؛ استكانةً وتواضعًا وخضوعًا وإلقاء باليدَيْن.

وقال مسروق لسعيد بن جُبَيْر: «ما بَقِيَ شيءٌ يُرغَبُ فيه إلا أن نعفِّرَ وجوهَنا في التراب له»[(١)]، وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بوَجْهِه قصدًا[(٢)]، بل إذا اتفق له ذلك، فعَلَهُ؛ ولذلك سجد في الماء والطين[(٣)]»[(٤)].

سادسًا: ما يحصُلُ به مِن تفاضُلِ الأعمال وتفاوُتِها:

قال حسَّان بن عطيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الرجلَيْنِ ليكونان في صلاة واحدة، وإنَّ بينهما في الفضل لكما بين السماء والأرض»[(٥)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى: «فإذا قيل إنَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الصمد] يَعدِل ثوابُها ثواب ثلث القرآن؛ فلا بد من اعتبار التماثُل في سائر

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٤٩)، وهناد في «الزهد» (٥٥٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٣)؛ من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد ضعَّفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٢/ ٥٧)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق «سنن أبي داود» (١٣٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٩)، ومسلم (١١٦٧)؛ من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) «كتاب الصلاة» لابن القيِّم (ص٣٦٣ ـ ٣٦٤).

(٥) تقدم تخريجه.

الصفات؛ وإلا فإذا اعتُبِرَ قراءة غيرها، مع التدبُّر والخشوع بقراءتها، مع الغفلة والجهل، لم يكن الأمر كذلك، بل قد يكون قول العبد: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر»، مع حضور القلب واتصافه بمعانيها أفضلَ مِن قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة، والناس متفاضِلون في فهم هذه السورة وما اشتمَلَتْ عليه؛ كما أنهم متفاضِلون في فهم سائر القرآن»[1].



(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ١٤٠).

الأمور المنافية للخشوع

للخشوع معوِّقات، ينبغي تجنُّبها؛ فمن ذلك:

أولًا: كثرة الحَرَكة:

فإنها تنافي السكينةَ والوَقَار، وخاصَّةً في الصلاة، وقلةُ الحركة تُنبِئُ عن تُؤَدَةٍ وخشوع، والله ﷻ يقول: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨]، والمراد به: أن يكون العبد ساكنًا مع طول القيام فيها، لا يَلتفِت، ولا يرفع بصره، ولا يتحرَّك، ولا ينشغل بشيء من جوارحه عما هو بصدده؛ لأن الخشوع يتضمَّن السكينة والتواضع جميعًا؛ **ولهذا نُقِلَ عن سعيد بن المسيَّب**: أنه رأى رجلًا يعبث بلِحْيته، فقال: «لو خشَعَ قلبُ هذا، لخشَعَتْ جوارحه»(١)؛ أي: لَسَكَنَتْ وخضَعَتْ.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]؛ فأخبر أنها بعد الخشوع تهتَزُّ، وتربو، والاهتزاز: حركة، والربو: الارتفاع؛ فعُلِمَ أن الخشوع فيه سكون وانخفاض؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يقول في حال ركوعه: «**اللَّهُمَّ، لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي**»(٢)؛ فوصف نفسه بالخشوع في حال الركوع؛ لأن الراكع ساكنٌ متواضِع(٣).

ثانيًا: رفع البَصَر في الصلاة:

وهو منهيٌّ عنه؛ لأنه ينافي الخشوع المأمور به؛ فخشوع القلب يستلزِمُ خشوع البصر وذُلَّه، وذلك ينافي رفعه، والله ﷻ قد ذكر خشوع أهل الموقف؛ فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القمر: ٦، ٧]، وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٨٨)، وعبد الرزاق (٢٣٠٨)، والإمام أحمد في «مسائل صالح» (٧٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٨٦)؛ واللفظ له، ورُوِيَ مرفوعًا؛ أخرجه الحكيم في «النوادر» (ص١٨٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولا يثبُتُ؛ إذْ ضعَّفه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ١٠٥)، وحكم الألباني بوضعه في «الضعيفة» (١١٠)، و«الإرواء» (١٠٧٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «القواعد النورانيَّة» (ص٨٢ ـ ٨٣).

ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤]، وقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]؛ أي: أنهم لا يحرِّكون أبصارَهُمْ يَمْنةً ويَسْرةً، وينظرون إلى أعلى، ولا يحرِّكون جوارحهم، وإنما ينظُرُونَ من طَرْفٍ خَفِيّ، يُسارِقون فيه النظر مسارَقةً[1].

وعن العَوَّام بن حَوْشَب؛ قال: «ما رأيت رجلًا قَطُّ خَيْرًا من إبراهيم التيمي، وما رأيته رافعًا بصَرَهُ إلى السماء؛ لا في صلاة ولا في غيرها»[2].



(١) انظر: «درء التعارض» (٧/ ٢٤)، و«مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٧٨).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٣).

مِن أخبار أهل الخشوع

لمَّا كان البكاء مِن خشية الله آيةَ الخشوعِ وأثرًا من آثاره، فإنا نذكُرُ بعض أخبارهم التي يُتعرَّفُ بها على أحوالهم، وهم قيام خاشعون بين يَدَيْ ربِّهم، تَسَّاقَطُ دموعهم في محاريبهم.

فأولهم: سيِّدُهم وإمامُهم نبيُّهم ﷺ؛ فعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه؛ قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يصلِّي وفي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كأَزِيزِ الرَّحَى مِن البُكَاءِ»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قلتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنزِلَ؟! قال: «**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فقرأتُ عليه سورةَ النساء حتى بلَغْتُ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، قال: «**أَمْسِكْ**»؛ فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ(٢).

وهذا أبو بكر رضي الله عنه، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: لما مَرِضَ النبيُّ ﷺ مرَضَهُ الذي مات فيه، أتاه بلالٌ يُؤذِنُهُ بالصلاة، فقال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ**»، قلتُ: إنَّ أبا بكرٍ رجُلٌ أَسِيفٌ، إنْ يَقُمْ مَقَامَكَ يَبْكِي، فلا يَقْدِرُ على القراءة(٣).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامِنَا وبينَ أنْ عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، إلَّا أربعُ سِنِينَ»(٤)؛ وأنت! كم مضى عليك وأنت تَسمَعُ القرآن، وتَشهَدُ مع الناس الصلاة، وقلبك لا يتحرَّك؟!

وكان ابن عمر رضي الله عنه **إذا تلا هذه الآية**: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، **بكى حتى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ البكاءُ، ويقول**: «بلى يا رَبِّ»(٥).

(١) أخرجه أبو داود (٩٠٤)؛ واللفظ له، والنسائي (١٢١٤)، وصحَّحه ابن خزيمة (٩٠٠)، وابن حبان (٦٦٥، ٧٥٣)، والحاكم (١/ ٢٦٤)، والنووي في «الخلاصة» (١/ ٤٩٧)، والذهبي، وابن رجب في «فتح الباري» (٦/ ٢٦٢)، وابن حجر في «فتح الباري» (٢/ ٢٤٢)، والألباني في «مختصر الشمائل» (٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٠)؛ واللفظ له، ومسلم (٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٢)؛ واللفظ له، ومسلم (٤١٨).

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٢٧).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٧٧)؛ وإسناده جيد.

وحكى علي بن المحسِّن التَّنُوخي، عن أبيه: «أن **جعفر بن حرب** كان يتقلَّد كبار الأعمال للسلطان، وكانت نعمته تُقارِبُ نعمة الوزارة، فاجتاز يومًا راكبًا في موكب له عظيم، ونعمته على غاية الوفور، ومنزلته بحالها في الجلالة، فسَمِعَ رجلًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فصاح: اللَّهُمَّ بَلَى، يكرِّرُها دفعات، وبكى، ثم نزَلَ عن دابَّتِه، ونزَعَ ثيابه، ودخَلَ إلى دِجْلة، واستتَرَ بالماء، ولم يخرُجْ منه حتَّى فرَّق جميع ماله في المظالم التي كانت عليه وردَّها، وتصدَّق بالباقي، ثم انقطَعَ إلى العلم والعبادة حتى مات»(١).

وكان ابن المبارَك رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قَرَأَ كتاب الرَّقائِق؛ كأنه بَقَرةٌ منحورة من البكاء(٢).

وجاء ناس إلى الفُضَيْل بن عِيَاض، واستأذنوا عليه عند بابه، فلم يُؤذَنْ لهم، فقال قائل: إنه لا يخرُجُ إليكم إلا إذا سَمِعَ القرآن، فكان معهم رجل مؤذِّنٌ حسَنُ الصوت، فقالوا له: اقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: ١] فقرأ، ورفَعَ بها صوته، فأشرَفَ عليهم الفُضَيْل، وقد بكى حتى بَلَّ لحيته بالدموع، ومعه خِرْقةٌ ينشِّفُ بها الدموع من عينَيْهِ، ويقول:

بَلَغْتُ الثَّمَانِينَ أَوْ جُزْتُهَا ... فَمَاذَا أُؤَمِّلُ أَوْ أَنْتَظِرْ؟!
أَتَى لِي ثَمَانُونَ مِنْ مَوْلِدِي ... فَبَعْدَ الثَّمَانِينَ مَا يُنْتَظَرْ؟!
عَلَتْنِي السِّنُونَ فَأَبْلَيْنَنِي ... .

ثم انقطع وخنقته العَبْرة، وكان معهم علي بن خَشْرَم، فأتمَّه لهم:

عَلَتْنِي السِّنُونَ فَأَبْلَيْنَنِي ... فَدَقَّتْ عِظَامِي وَكَلَّ الْبَصَرْ(٣)

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله، صدَّقوا بها، وأفضى يقينها إلى قلوبهم، وخشَعَتْ لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم، وكُنْتُ واللهِ إذا رأيتُهُمْ، رأيتُ قومًا كأنهم رأي عين ـ يعني: للجنة والنار ـ فوالله، ما كانوا بأهل جدَل ولا باطل، ولا اطمأنُّوا إلا إلى كتاب الله، ولا أظهروا ما ليس في قلوبهم، ولكن جاءهم عن الله أمر؛ فصدَّقوا به، فنَعَتَهُمُ الله تعالى في القرآن أحسن نَعْت، فقال:

---

(١) ذكرها المحسِّن التنوخي في كتابه «نِشْوار المحاضرة، وأخبار المذاكرة» (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤)؛ وهي في «صفة الصفوة» (٢/ ٤٦٩)، و«المنتظم» (١٤/ ١٢٧ط. دار الكتب العلمية)، و«البداية والنهاية» (١٥/ ٢٤٣)؛ بتصرف.

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٦٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٤٣٦).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٥١)؛ بتصرف.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]، تجري دموعهم على خدودهم فَرَقًا من ربهم».

وقال: «لِأَمْرٍ مَّا سَهِروا ليلهم، لأَمْرٍ مَّا خَشَعُوا نَهَارَهُمْ، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: ٦٥].

قال: «كلُّ شيء يصيب ابن آدم، ثم يزول عنه، فليس بغَرَام، إنما الغرامُ الملازِمُ له ما دامت السمٰوات والأرْض، قال: صدَقَ القوم، واللهِ الذي لا إلٰه إلا هو، فعملوا وأنتم تتمنَّوْن، فإياكم وهذه الأماني؛ فإن الله لم يُعْطِ عبدًا بأُمْنِيَّتِهِ خيرًا قطُّ في الدنيا والآخرة».

وكان يقول: «يا لها مِن موعظة لو وافَقَتْ من القلوب حياة!»[1].

فِتْيَةٌ يُعْرَفُ التَّخَشُّعُ فِيهِمْ ... كُلُّهُمْ أَحْكَمَ الْقُرَانَ غُلَامَا
قَدْ بَرَى جِلْدَهُ التَّهَجُّدُ حَتَّى ... عَادَ جِلْدًا مُصَفَّرًا وَعِظَامَا
تَتَجَافَى عَنِ الْفِرَاشِ مِنَ الخَوْ ... فِ إِذَا الجَاهِلُونَ بَاتُوا نِيَامَا
بِأَنِينٍ وَعَبْرَةٍ وَنَحِيبٍ ... وَيَظَلُّونَ بِالنَّهَارِ صِيَامَا
يَقْرَؤُونَ الْقُرَانَ لَا رَيْبَ فِيهِ ... وَيَبِيتُونَ سُجَّدًا وَقِيَامَا[2]

وقال وكيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: ثنا الأعمش، عن زيد بن وهب؛ قال: «رأيتُ ابن مسعود بكى حتى رأيتُ دموعَهُ في الحصى».

وكان سعيد بن عبد العزيز الدمشقي يُسمَعُ منه وَقْعُ دموعه على الحصير في الصلاة[4].

وقال بِشْر بن الحسين: «ما رأيتُ سعيد بن عبد العزيز قطُّ قام إلى صلاة مفروضة إلا ودموعُهُ تَسِيلُ على لحيته»[5].

وجاء عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ **أنه قال:** «لو تعلمون ما أعلم، لضَحِكْتُمْ قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، ولو تعلمون حَقَّ العِلْمِ، لَصَرَخَ أحدكم حتى يَنقطِع صوته، ولسجد حتى

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٠)، وذكره محمد بن نصر المروزي مختصرًا بلا إسناد في: «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٧٦٠ ـ ٧٦١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٨) بنحوه.

(٢) «التهجد» لابن أبي الدنيا (٢٨٣)؛ وعزاه إلى عبَّاد بن تَمِيم التميمي.

(٣) في «الزهد» (٢٢).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١/ ٢٠٣).

يَنقطِع صلبه»[١].

وبات رجل عند الربيع بن خُثَيْم ذات ليلة، فقام يصلي، فمَرَّ بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾ الآية [الجاثية: ٢١]؛ فمكث ليلته حتى أصبح، ما جاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاء شديد»[٢].

لَهُمْ دُمُوعٌ مِنْ خُشُوعِ نُفُوسِهِمْ وَدُمُوعُهَا فَوْقَ الخُدُودِ غِزَارُ

وقال مسروق: «قال لي رجلٌ من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، صلى ليلة حتى أصبح أو كَرَبَ أن يصبح، يقرأ آيةً يردِّدها ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]»[٣].

بَكَى البَاكُونَ لِلرَّحْمَنِ لَيْلًا وَبَاتُوا دَمْعُهُمْ مَا يَسْأَمُونَا
بِقَاعُ الْأَرْضِ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهِمْ تَحِنُّ مَتَى عَلَيْهَا يَسْجُدُونَا[٤]

وكان إبراهيم النَّخَعي إذا سمع قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]، اضطرَبَ حتى تضطرِبَ أوصاله[٥].

واشتكى ثابت البُنَاني عينه، فقال له الطبيب: اضْمَنْ لي خصلة، تبرَأْ عيناك، قال: «وما هي؟»، قال: لا تَبْكِ، قال: «وما خيرٌ في عَيْنٍ لا تبكي»[٦].

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرْ عَيْنًا لِغَيْرِكَ دَمْعُهَا مِدْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا بِالدُّمُوعِ تُعَارُ[٧]

وكان ابن الزُّبَيْر رضي الله عنهما يصلِّي يومًا في بيته، فسقطت حيَّة على ابنه هاشم، فصاحوا: الحيَّة! الحيَّة! ثم قتلوها، وما قطَعَ صلاته، ولما سئل بعد الصلاة، قال: «ما شعَرْتُ

---

(١) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٨٩)، وقال الذهبي: «على شرط البخاري ومسلم».

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٢٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٢)؛ واللفظ له.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٩٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١١/ ٧٦)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١٨٢)، وابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٤٩)، وصحَّحه الحافظ في «الإصابة» (١/ ١٨٤).

(٤) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (١٢٢)؛ أخرجها عن صالح بن عبد الكريم.

(٥) أورده الغزالي في «الإحياء»، ونسبه مَرَّةً إلى إبراهيم النخعي (١/ ١٦٨)، ومَرَّةً إلى إبراهيم بن أدهم (٢/ ٢٩٨).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٢١٠).

(٧) البيتان للعباس بن الأحنف. ينظر: ذم الهوى (ص٣٨١).

بشيء من ذلك»[١].

وعن هشام بن عُرْوة؛ قال: قال لي محمَّد بن المُنكدِر: «لو رأيتَ عبد الله بن الزبير قائمًا يصلِّي، لَقُلْتَ: شجرةٌ تصفِّقها الرياح، وحجارة المنجنيق تقع هاهنا وهاهنا ما يَلْتفِت»[٢].

يقول ثابت البُنَاني رَحِمَهُ اللهُ: «كنتُ أَمُرُّ بابنِ الزُّبَيْرِ وهو خلف المقام يصلِّي كأنه خَشَبة منصوبة لا يتحرَّك»[٣].

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «كان عبد الله بن الزبير إذا قام في الصلاة كأنَّه عُودٌ»، وكان يقول: «ذلك من الخشوع»[٤]، وكان إذا سجد، وقَعَتِ العصافير على ظهره، تَصعَدُ وتَنزِلُ لا تراه إلا جِذْمَ حائط[٥].

ولقد مرَّت آجُرَّةٌ من رَمْيِ المنجنيق بين لحيته وصدره، فوالله ما خشَعَ لها بصره، ولا قطَعَ لها قراءته، ولا ركَعَ دون ما كان يركع، وكان إذا دخل في الصلاة، خرَجَ من كل شيء إليها[٦].

قال محمد بن أبي حاتم الورَّاق: «دُعِيَ محمد بن إسماعيل ـ يعني: البخاري ـ إلى بستان بعض أصحابه، فلما حضَرَتْ صلاة الظهر، صلى بالقوم، ثم قام للتطوُّع، فأطال القيام، فلما فرَغَ من صلاته، رفَعَ ذَيْلَ قميصه، فقال لبعض مَن مَعَهُ: انظروا هل ترون تحت قميصي شيئًا؟ فإذا زنبورٌ قد أَبَرَهُ في ستةَ عشَرَ، أو سبعةَ عشَرَ موضعًا، وتورَّم من ذلك جَسَده، وكان آثار الزنبور في جسده ظاهرة، فقال له بعض القوم: كيف لم تخرُجْ من الصلاة في أول ما أَبَرَكَ؟ فقال: كنتُ في سورة، فأحببتُ أن أتمَّها»[٧].

وهذا محمد بن يعقوب الأخرم؛ يقول: «ما رأيت أحسن صلاة من أبي عبد الله محمد بن نصر ـ يعني: المَرْوَزي ـ كان الذُّبَاب ـ يعني: الزُّنْبُور ـ يقع على أذنه، فيسيل الدم ولا يَذُبُّهُ عن نفسه، ولقد كنا نتعجَّب من حُسْنِ صلاته وخشوعه وهيئته للصلاة، كان يضع ذَقَنَهُ على صدره، فيَنتصِبُ كأنه خشبة منصوبة»[٨].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/ ١٧٤).
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٨١).
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/ ١٧٠).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٣٥).
(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٤٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/ ١٧٠)؛ واللفظ له.
(٦) انظر: «تاريخ دمشق» (٢٨/ ١٧٣).
(٧) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ١٢ ـ ١٣)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٢/ ٨٠).
(٨) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤/ ٥١٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ١١٤).

ووصفه آخر؛ فقال: «ما رأيت أحسن صلاة منه، ولقد بلغني أن زُنْبُورًا قعَدَ على جبهته، فسال الدم على وجهه، ولم يتحرَّك»(١).

وكان كُرْز بن وَبْرَة إذا دخل في الصلاة، لا يرفع طَرْفَهُ يَمْنَةً ولا يَسْرةً، وكان من المُخبِتين، وربما كُلِّمَ خارج الصلاة، فلا يُجِيبُ إلَّا بعد مدَّة؛ من شدة تعلُّق قلبه بالله واشتياقه إليه(٢).

يقول الذهبي رَحِمَهُ اللهُ **ـ معلقًا على ذلك ـ**: «هكذا كان زُهَّادُ السلف وعُبَّادُهم، أصحابَ خوف وخشوع وتعبُّد»(٣).

ووقع حريق في بيت فيه علي بن الحسين رَحِمَهُ اللهُ، وهو ساجد، فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول اللهِ، النار! يا ابن رسول الله، النار! فما رفع رأسه حتى أُطْفِئَتْ، فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟ قال: «أَلْهَتْنِي عنها النار الأخرى»(٤).

وكان مسلم بن يَسَار رَحِمَهُ اللهُ **إذا دخَلَ في صلاته في بيته، قال لأهله**: «تحدَّثوا؛ فلستُ أسمع حديثكم»(٥).

وكان في المسجد، فانهدَمَ طائفة منه، فقام الناس وهو لم يشعُرْ أن أسطوانة المسجد قد انهدمت(٦).

وسُرِقَ رداء يعقوب الحضرمي عن كتفه، وهو في الصلاة، ولم يشعُرْ، ورُدَّ إليه ولم يشعُرْ(٧).

قال محمد بن عوف الحِمْصي: «رأيت أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ عندنا بأنطرسوس، فلما صَلَّى العَتَمة، قام يصلي، فاستفتَحَ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢]، إلى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فطفت الحائط كله، ثم رجعت، فإذا هو لا يُجاوِزُها، ثم نمت ومَرَرْتُ في السَّحَرِ وهو يقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فلم يزل يردِّدُها إلى الصبح»(٨).

وعن بَهْز بن حَكِيم؛ قال: «صلى بنا زُرَارَةُ بنُ أوفى القرشي في مسجد بني قُشَيْر

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٥٠٨)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ١١٣).
(٢) «تاريخ جرجان» (ص٣٤٠)؛ بتصرف.
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٨٦).
(٤) «تهذيب الكمال» (٢٠/ ٣٨٨ ـ ٣٩٠)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٩٤).
(٥) أخرجه ابن نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٩٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ١٣٤).
(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٨٢)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ١٣٥)، وأخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٥١).
(٧) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٧٣).
(٨) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٨٧ ـ ٨٨).

الأعظم، فقرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدثر: ٨]، فخَرَّ ميتًا، فحُمِلَ إلى داره، فكنت فيمن حَمَلَهُ إلى داره»[١].

وعن يعلى بن حَكِيم؛ قال: قال سعيد بن جُبَيْر: «ما رأيتُ أرعى لحرمة هذا البيت ولا أحرَصَ عليه من أهل البصرة، لقد رأيت جارية ذات ليلة تعلَّقت بأستار الكَعْبة، فجعَلَتْ تدعو وتبكي وتتضرَّع حتى ماتت»[٢].

وعن ابن عَوْن؛ قال: «كان إذا دخَلَ محمد بن سِيرِين السوق، لا يراه أحد إلا كَبَّرَ الله لصلاحه وخشوعه»[٣].

وقال خلف: «كان محمد بن سِيرِينَ قد أُعطِيَ هَدْيًا وسَمْتًا وخشوعًا؛ فكان إذا رأوه، ذَكَرُوا الله»[٤].

وقال بَكَّار السِّيْرِيني، عن ابن عَوْن: «كان إذا جاء إخوانه؛ كأنَّ على رؤوسهم الطير؛ لهم خضوع وخشوع»[٥].

قال الذهبي معلِّقًا عليه: «لابن عَوْنٍ جَلَالةٌ عجيبة، ووَقْعٌ في النفوس؛ لأنه كان إمامًا في العلم، رأسًا في التألُّه والعبادة»[٦].

هذا آخر ما أردتُّ ذكره في الكلامِ على الخشوعِ، والله الموفِّق.



---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٢٤٧)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٥٨)، وأخرجه الترمذي (٤٤٥)، والدينوري في «المجالسة» (١٣٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧٦)، وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٣٤): «إسنادها صحيح».

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١١٧٦)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٣/ ١٩٧).

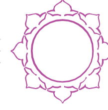
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٣١).

(٥) «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٥٧).

(٦) المصدر السابق.

خامسًا

المراقبة



توطئة

المراقبة عمَلٌ من أعمال القلب، هو بِذْرُها وأُسُّها الذي تتفرَّع منه، وترتكِزُ عليه، متى أقامه العبد، صلَحَ قلبه واستقام، ومتى سيَّبه، تكالبت عليه الأسقام.

ثم إن مراقبة الله ﷻ صفة من صفات المؤمن الحق؛ فـ«العبد المؤمن متيقِّن باطِّلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه؛ فهو ناظرٌ إليه، سامع لقوله، مُطَّلِع على عمله في كل وقت، وفي كل لحظة، وكل نَفَس، وكل طَرْفة عَيْن: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: ١٨]»(١).

هذا بالإضافة إلى أن الحديث عن مراقَبة الله تعالى في عَصْرنا هذا مما تَمَسُّ الحاجة إليه؛ وذلك لِمَا فُتِحَ على الناس من وسائل الاتصالات الحديثة؛ الأمر الذي صيَّر الوصول إلى المعصية في غاية السهولة؛ فأصبَحَ المرء يتمكَّن عبر تلك الوسائل المتنوِّعة أن يَطُوفَ بين ألوان المنكَرات وهو في داخل حجرته، لا يَطَّلِعُ عليه إلا الله تعالى، فإذا لم يكن له وازعٌ من تقوى الله ومراقبته، فإن الشيطان سيقوده إلى الهَلَكة ولا بُدَّ!

ومِن هنا: فإنه يتعيَّن على المربِّين إحياء هذا المعنى في النفوس؛ كي يكون حاجزًا بينها وبين مَسَاخِطِ الله تعالى.



(١) «المنهاج الأسنى» (٢/ ٥٢٥).

معنى المراقبة وحقيقتها

المُرَاقَبَة لغةً: مصدرٌ مِن قولهم: رَاقَبَ مُرَاقَبةً، وهو مأخوذٌ من مادَّة: (ر ق ب) التي تَدُلُّ على الانتصاب لمراعاة شيء، ومن ذلك الرَّقِيب؛ وهو الحافظ.

تقول: رَقَبْتُ الشيءَ أَرْقُبُهُ رُقُوبًا ورِقْبةً ورِقْبانًا ورَقَابةً: إذا رَصَدتَّهُ، والمَرْقَبُ والمَرْقَبة: الموضع المُشرِفُ العالي، يقف عليه الناظر، ومِن ذلك اشتقاق الرَّقَبة؛ لأنها مُنتصِبةٌ، ولأن الناظِرَ لا بدَّ أن ينتصِب عند نَظَره، ورَقَبَ الشيءَ يَرْقُبُهُ أيضًا: حَرَسَهُ.

ومن أسماء الله تعالى: الرَّقِيبُ، وهو الحافظُ الذي لا يغيب عنه شيء، وهو فَعِيلٌ بمعنى فاعل[(١)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ[(٢)]:

وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الخَوَاطِرِ وَاللَّوَا حِظِ كَيْفَ بِالْأَفْعَالِ بِالْأَرْكَانِ؟!

وأما المراقَبة في المعنى الشرعي: فقد عرَّفها ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ بأنها: «دوامُ علمِ العبدِ وتيقُّنِهِ باطلاع الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ظاهره وباطنه؛ فاستدامتُهُ لهذا العلم واليقين هي المراقَبة، وهي ثَمَرة علمه بأنَّ الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مُطَّلِعٌ على عمله كل وقت، وكل لحظة، وكل نَفَس، وكل طَرْفَة عين...

والمراقَبةُ هي التعبُّدُ باسمه الرَّقِيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير.

فمن عقَلَ هذه الأسماء، وتعبَّد بمُقْتَضاها، حصَلَتْ له المراقَبة»[(٣)].

وهذا المعنى جامع لما قيل في تعريف المراقَبة، وإليه تَرجِعُ عباراتُهم في بيان معناها.

«**وقيل:** المراقَبةُ: مراعاةُ القلبِ لملاحظة الحقِّ، مع كل خَطْرَة وخَطْوة.

وقيل: خلوص السر والعلانية لله عَزَّ وَجَلَّ»[(٤)].

وقيل: «مراعاة القلب للرَّقِيب، واشتغالُه به، والتفاته إليه، وملاحظته إياه، وانصرافه إليه»[(٥)].

---

(١) انظر: «الصحاح في اللغة» (١/ ١٣٧)، (ر ق ب)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٧٩)، (ر ق ب)، و«القاموس المحيط» (١/ ٧٥)، فصل: (الراء).

(٢) «نونية ابن القيم» (٣٢٩٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٥ - ٦٦).

(٤) من كلام ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٢/ ٦٦)؛ بتصرف يسير.

(٥) ما بين الأقواس من كلام الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٩٨).

وفي حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان، فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[(١)].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا من جوامع الكَلِم التي أُوتِيَها ﷺ؛ لأنَّا لو قدَّرنا أن أحدَنا قام في عبادة، وهو يعايِنُ ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لم يترُكْ شيئًا مما يَقدِرُ عليه؛ من الخضوع والخشوع وحُسْنِ السَّمْتِ واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها، إلا أتى به؛ فقال ﷺ: «**اعبُدِ اللهَ في جميع أحوالك؛ كعبادتك في حال العِيَان**»[(٢)].

فإن التَّتْمِيم المذكور في حال العِيَان، إنما كان لعلم العبد باطِّلَاع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه؛ فلا يُقدِمُ العبد على تقصيرٍ في هذه الحال للاطِّلاع عليه...

فمقصود الكلام: الحَثُّ على الإخلاص في العبادة، ومراقَبَةِ العبد ربه تبارك وتعالى؛ في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك»[(٣)].

قال ابن القيِّم: «ومقام المراقبة جامعٌ للمعرِفة مع الخشية، فبحسبهما يصح مقام المراقبة»[(٤)].



---

(١) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ضمن حديث طويل. وأخرجه مسلم أيضًا (٨)؛ من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ليس هذا لفظ حديث النبي ﷺ إنما قاله النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تفسيرًا لما يظهر من السياق.

(٣) «شرح مسلم» (١/ ١٥٧ ـ ١٥٨).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ١٣٧).

منزلةُ المراقَبِة من أعمال القلوب

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمراقَبةُ أساس الأعمال القلبيَّة كلِّها، وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمةٍ واحدة، وهي قوله في الإحسان: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»[(١)]؛ فتأمَّل كلَّ مقام من مقامات الدِّين، وكل عمل من أعمال القلوب؛ كيف تجد هذا أصلَهُ ومَنْبَعَهُ؟!»[(٢)].

فقوله: ««**اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فهذا مقام المراقَبة، الجامعُ لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، ثم قال: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»؛ فحَطَّهُ عند العجز عن المقام الأول إلى المقام الثاني، وهو العلم باطِّلاع الله عليه، ورؤيته له، ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء»[(٣)].

وهذا يعني: أن للإحسان مرتبتَيْنِ: «**أن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»؛ فهذه هي المرتبة العُلْيا، فإذا عجز العبد عن الارتقاء لتلك المرتبة؛ وهي عبادةُ الله كأنه يشاهده، وينظُرُ إليه، انحَطَّ إلى المرتبة الثانية من مراتب الإحسان؛ وهي أن يستحضِرَ نظَرَ الربِّ تبارك وتعالى إليه: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

ومِن أهلِ العلم: مَن عَدَّ هاتَيْن المرتبتَيْن مرتبةً واحدةً، فقالوا: إن النبيَّ ﷺ يفسِّرُ قوله: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، ويعلِّله ويوضِّحه ويُبرِزُ معنًى يحض العبد ويحثُّه عليه بقوله: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

وهذان قولان معروفان لأهل العلم في هذا الحديث، ولعل القول بأنها منزِلة واحدة أقرَبُ للصواب؛ باعتبار أنه من قَبِيلِ التنبيه على ما يدعو إلى المراقَبة مِن استحضارِ نظَرِ الله إلى العبد بكل حال؛ لأن الرؤية منتفية كما لا يخفى، والله أعلم.

فـ«مشهدُ الإحسانِ هو أصلُ أعمالِ القلوبِ كلِّها؛ فإنه يُوجِبُ الحياء والإجلال والتعظيم، والخشية والمحبَّة، والإنابة والتوكُّل، والخضوع لله سبحانه والذُّلَّ له، ويقطع الوَسْواسَ وحديث النفس، ويجمع القلب والهَمَّ على الله؛ فحَظُّ العبد من القُرْب من الله على قَدْرِ حظِّه من مقام الإحسان، وبحَسَبِهِ تتفاوت الصلاة؛ حتى يكون

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «إعلام الموقعين» (٦/ ١١٢).
(٣) من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٧).

بين صلاة الرَّجُلَيْنِ من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامُهما وركوعُهما وسجودهما واحد»[(١)].

وقد سُئِلَ محمد بن المبارَك: ما علامة المحبَّة لله؟ فقال: «المراقَبةُ للمحبوب، والتحرِّي لمرضاته»[(٢)].

وسُئِلَ إسماعيل بن نُجَيْد: ما الذي لا بد للعبد منه؟ فقال: «ملازمة العبوديَّة على السُّنَّة، ودوامُ المراقَبة»[(٣)].

فالعبد متى لزم العبوديَّة على السُّنَّة، كان على الشريعة، ومتى داوم على المراقَبة، كان على الإخلاص؛ وبذلك يُحفَظُ بإذن الله ﷻ من الخروج عن الصراط المستقيم.

وقال بعضهم: «أفضل الطاعات: حفظ الأوقات؛ وهو ألَّا يطالِعَ العبد غير حَدِّه، ولا يراقِبَ غير ربِّه، ولا يقارِنَ غير وَقْتِه»[(٤)].

وسُئِلَ آخر: «ما أفضَلُ الطاعات؟ فقال: مراقَبةُ الحق على دوام الأوقات»[(٥)].

فينبغي للعبد أن يُعنَى بهذا الجانب غايةَ العِنَاية؛ ناظرًا للربِّ، غير مُلتَفِتٍ للخلق بحالٍ من الأحوال، والمشتغِلُ بالتعليم والتوجيه والخطابة والدعوة أحوَجُ من غيره إلى هذا المعنى.

وقد قال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: «إذا جلَسْتَ للناس، فكُنْ واعظًا لقلبك ولنفسك، ولا يَغُرَّنَّكَ اجتماعُهم عليك؛ فإنهم يراقِبُونَ ظاهرك، والله تعالى يراقِبُ باطنك»[(٦)].

وإذا غفَلَ العبد عن هذا المعنى، صار قلبه منجذِبًا إلى الناس؛ فيقع الخَلَلُ في كلامه وأفعاله وأحواله كلها، ويُرضِيهم ولو بسخط الله تعالى.



---

(١) «رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه» (ص٤٥).
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/ ٢٢٤).
(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٤٧٢).
(٤) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٣٢).
(٥) المصدر السابق (١/ ٣٣١).
(٦) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٣١)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٦٦).

المراقَبَة في الكتاب والسُّنَّة

بين دفَّتي الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهَّرة نصوصٌ جمَّة تحث على المراقبة، وتَغْرِسها في النفوس؛ تارَةً بالتلميح، وتارَةً بالتصريح:

فمن التلميح: تَضَافُر الأدلَّة على أن الله ﷻ محيطٌ بكلِّ مخلوقاته، وأنه لطيفٌ خبير، وأنه بكل شيءٍ عليم، لا تَخفَى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وذلك من شأنه تنمية المراقَبَة في قلوب العباد؛ لذا كثيرًا ما يختم بها الله تعالى آيات الأحكام والمواعظ في كتابه؛ كقوله تعالى عَقِبَ ترغيبه في النفقة: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وكقوله عقب ذكر أحكام المدايَنة: ﴿وَٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن التصريح: ما صرَّح فيها ـ سبحانه ـ باطِّلاعِهِ على أحوال خلقه، وإحاطة علمه بما يصدُرُ عنهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤]؛ أي: بعلمه وإحاطته، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ١٤]، وقوله: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقوله: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]، وقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق: ١٤]، وقوله ﷻ في ذكر معيَّتِهِ الخاصَّة لموسى ﷺ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه: ٣٩].

ومما جاء في السُّنَّة: حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ** ﷻ: **إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً** ـ إلى أن قال ـ: **قَالَتِ المَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً ـ وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ ـ فَقَالَ: ارْقُبُوهُ؛ فَإِنْ عَمِلَهَا، فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا، فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً؛ إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ**»[(١)].

والمعنى: أنه كان يراقِبُ الله ﷻ، فلمَّا لاحت له الشهوةُ والطمع، وكان قادرًا على مقارَفَةِ ذلك، ترَكَهُ خوفًا من الله ﷻ؛ فكُتِبَتْ له حسنةً.

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٩)؛ واللفظ له.

وفي حديث جبريل المشهور؛ أنه سأل النبيَّ ﷺ عن الإحسان، فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١).

وعن معاذ رضي الله تعالى عنه؛ أنه قال: يا رسولَ اللهِ، أَوْصِني؟ قال: «**اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي المَوْتَى...**»، الحديث(٢).

وفي حديث أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**»(٣)، وإذا تأمَّلت هؤلاء السبعة، وَجَدتَّ أنَّ عامَّةَ أمرهم يرجع إلى المراقَبة:

فالإمام لا يَخَافُ الناس ولا يخافُ محاسَبَتهم، وإنما يقوم بالعدل بينهم إذا كان مراقبًا لله ﷻ.

والشابُّ الذي نَشَأَ في عبادة الله إنما صرَفَهُ عن المعصية مع قوَّة الداعي إليها، وفَوَران الشهوة، ودفَعَهُ للطاعة: مراقَبَتُهُ لله تبارك وتعالى.

والرجل الذي دَعَتْهُ امرأة ذات منصب وجمال، فقال: «**إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»، لا شك أن الدافِعَ لتَرْكِهِ متابَعةَ هواه، مع قوة الداعي: ناتجٌ عن مراقبته لله ﷻ.

وكذلك أيضًا: الذي تصدَّقَ بصدقة، فأخفاها حتى لا تَعلَمَ شماله ما تُنفِقُ يمينه! فإن الذي دفَعَهُ إلى أن يُخفِيَ هذه الصدقة هذا الإخفاء الشديد، ويَحترِزَ هذا الاحتراز: مراقبةُ الله تعالى.

وقُلْ مثل ذلك في الذي ذكَرَ الله خاليًا، ففاضت عيناه؛ فإنَّ بكاءه خاليًا مِن خَشْية الله من مراقَبته لربه سبحانه.

ومن الأدلَّة أيضًا:

ما جاء عن أبي هريرة ﵁؛ أن النبي ﷺ قال: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمُ ربُّهم ـ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ـ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ،**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٢٥)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٧٥/ ٣٧٤)؛ قال المنذري في «الترغيب» (٤/ ١٢٢): «رواه الطبراني بإسناد جيد؛ إلا أن فيه انقطاعًا»، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٧٦٩): «رجاله ثقات؛ وفيه انقطاع»، وأشار الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢١٨) إلى انقطاعه، وقال: «رجاله ثقات»، وحسَّنه السيوطي في «الجامع الصغير» (١٩٢٠)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٧٥).
وفي الباب: عن أبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عمر ﵃.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[١]؛ وهؤلاء الملائكة يكتبون كلَّ ما يتكلَّم به الناس مِن خَيْرٍ أو شَرّ.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إنه لَيُكتَبُ قوله: أَكَلْتُ، شَرِبْتُ، ذَهَبْتُ، جئتُ، رأيتُ»[٢].

وهذا غَيْضٌ من فَيْض، وقليلٌ من كثير، وفيما أورَدْنا كفايةٌ للدَّلَالةِ على المراد، وهو تذكيره سبحانه لعباده بهذا الأصل؛ ليَحفَظُوا حدوده، ويتَّقوا مَحَارِمَهُ، ويفعلوا ما أمرهم به؛ ليبعثَ في نفوسهم الرقابة الذاتيَّة، التي تستحِثُّهم على التقوى، والخوف من الله، والقيام بأمره في كل مكان وزمان، في حضرةِ الخلقِ وفي غَيْبَتهم عن العِيَان.



(١) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)؛ واللفظ له.

(٢) أورده ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/٣٣٠٨).

مَراتِبُ المراقَبة

قسَّم بعض أهل العلم المراقَبة إلى ثلاث مراتب؛ وذلك باعتبار الحامل عليها، والدافع إليها:

المرتبة الأولى: ما كان الحامل عليه الخوفَ من الله.

والمرتبة الثانية: ما كان الحامل عليه الحياءَ من الله تبارك وتعالى.

المرتبة الثالثة: ما كان الحامل عليه المحبَّة.

فالخائفُ: مراقِبٌ لله ﷻ بالحَذَرِ وغَلَبة الفَزَع، والمستَحْيِي[(١)]: مراقِبٌ له بشدَّة انكسار وغَلَبة إخبات، والمُحِبُّ: مراقِبٌ له بشدَّة السرور وغَلَبةِ النَّشَاط وسَخَاءِ النَّفْس، فيُقبِلُ على العبادة بانشراح صدر[(٢)].

وقسَّمها الهَرَويُّ إلى ثلاث مراتب أيضًا[(٣)]:

الأولى: مراقَبة الله ﷻ في السَّيْرِ إليه على الدَّوَام، مع ملاحظة التعظيم الذي يمتلئ به القلب في حال سير العبد إلى ربه ﷻ:

فيكون هذا التعظيم الذي ملأ قلبه به شاغلًا له وصارفًا عن تعظيم المخلوقين، التعظيمَ الذي يزاحِمُ تعظيمَ المعبود تبارك وتعالى، وكذلك أيضًا: أن يكون مُجِدًّا مجتهِدًا في القرب منه تبارك وتعالى؛ فإنه كلما ازداد قُرْبًا من الله، ازداد تعظيمًا له، مع سرور وانشراح يَبعَثُهُ على العمل؛ فيَجِدُ لَذَّةً في عمله الصالح، وتكون قُرَّةُ عينه في طاعة الله ﷻ؛ كما قال النبي ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[(٤)]، فيَجِد نعيمًا عند القيام بوظائف العبودية لا يدانِيهِ نعيم الدنيا بِأَسْرِها بمختلِفِ أنواعه، وهذا حالٌ من أحوال أهل الجنَّة، حتى قال بعض العارفين: «إنه لَتَمُرُّ بي أوقات أقول فيها: إنْ كان أهل الجنَّة في مثل هذا، إنهم لفي عَيْشٍ طَيِّب»[(٥)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله ﷻ،

(١) هكذا في «الحلية»؛ وهي اللغة العالية لغة أهل الحجاز.
(٢) انظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ٩٣ ـ ٩٤).
(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٦٦ ـ ٧٢).
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١).

وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته، ومَن لم يجد هذا السرور، ولا شيئًا منه، فليتَّهم إيمانه وأعماله؛ فإن للإيمان حلاوة، مَن لم يذقها، فلْيَرْجِعْ، وليقتبسْ نورًا يجدُ به حلاوة الإيمان»(١).

ونقَلَ عن شيخه ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: «إذا لم تَجِدْ للعملِ حلاوة في قلبك، وانشراحًا، فاتَّهِمْه؛ فإن الربَّ تعالى شكور؛ يعني: أنه لا بد أن يُثِيبَ العامل على عملِهِ في الدنيا مِن حلاوةٍ يجدها في قلبه، وقوَّة انشراح، وقرَّة عين؛ فحيث لم يجد ذلك، فعَمَلُهُ مدخول»(٢).

والثانية: مراقَبة نَظَرِ الحقِّ برفض المعارَضة:

«وهذه مراقَبة لمراقَبة الله عَزَّ وَجَلَّ لك، وهذه المراقَبة تُوجِبُ للعبدِ صيانة الباطن والظاهر؛ فصيانةُ الظاهر: بحفظ الحَرَكات الظاهرة، وصيانةُ الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحَرَكات الباطنة، التي منها رفض معارَضة أمره وخبره، فيتجرَّدُ الباطن من كل شهوةٍ وإرادةٍ تعارِضُ أمره، ومن كُلِّ إرادة تعارِضُ إرادته، ومِن كل شبهة تعارِضُ خبَرَه، ومِن كلِّ محبَّة تزاحِمُ محبَّته؛ وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله عَزَّ وَجَلَّ به»(٣).

فتكون المراقَبة بهذا الاعتبار دافعةً لكل مناوأَةٍ وتشكُّكٍ واعتراض على أحكام الله القدريَّة، وأحكامه الشرعيَّة، ولا يَعترِضُ على أسمائه وصفاته، ولا يَعترِضُ على شرعِهِ وأمرِهِ عَزَّ وَجَلَّ، ولا يكون متردِّدًا متشكِّكًا في الأخبار التي أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ بها، ولا يقدِّمُ على قول الله عَزَّ وَجَلَّ قولًا لأحد مهما عَظُمَ وعَلَتْ مرتبته؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]؛ فلا يقدِّمُ عليه معقولًا، ولا فلسفة من الفلسفات، ولا سياسة من السياسات، وإنما يكون المقدَّمُ في قلبه هو أمر الله وأمر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأين مِن هذا أولئك الذين يصرِّحون بأن الدِّين الذي أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يصلُحُ لهذا العصر على الفهم الذي فَهِمَهُ أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! يريدون أن يأتوا بدِينٍ ممسوخٍ على أفهامهم المُعْوَجَّة؛ فهؤلاء لم يُراقِبوا الله عَزَّ وَجَلَّ المراقَبةَ التي تنفي المعارَضة، فهم معارِضُونَ لله، معارِضُونَ لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، معارِضُونَ لشرعِهِ وحُكْمِهِ وكتابه(٤).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٧).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٨).
(٣) من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٦٦ ـ ٦٨)؛ باختصار وتصرُّف.
(٤) انظر: مقدِّمة الإمام أحمد لكتابه «الرد على الجهميَّة والزنادقة» (ص٥٥ ـ ٥٧).

والثالثة: الإيمان الصادق بـ«انفراد الحَقِّ بأَزَلِيَّتِهِ وحده، وأنه كان ولم يكن شيءٌ غيرُهُ البتَّة، وكل ما سواه فكائن بعد عَدَمِهِ بتكوينه»[(١)].

و«فوق ذلك درجة هي أعلى وأرفع مما تقدَّم؛ وهي: مراقَبة مواقع رضا الربِّ تبارك وتعالى ومَسَاخِطِهِ في كلِّ حَرَكة»[(٢)]؛ فيسعى في مرضاته، ويتجنَّب مساخطه.

وفي الحديث القُدْسي: «**وَما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»[(٣)].

وبعضهم جعل المراقبة على مرتبتَيْن:

الأولى: «مراقَبةُ الصِّدِّيقين المقرَّبين:

وهي مراقَبة التعظيم والإجلال، وهي مراقَبة تتعطَّل فيها الجَوَارِحُ عن المباحات، فضلًا عن المحظورات؛ وإذا تحرَّكَتْ بالطاعات، كانت كالمستعمَلة بها؛ فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سَنَنِ السَّدَاد.

والثانية: مراقَبةُ الوَرِعِينَ أصحابِ اليمين:

وهم قومٌ غلَبَ يقين اطِّلَاع الله على ظاهرهم وباطنهم، وعلى قلوبهم، قد غلب عليهم الحياءُ من الله؛ فهم يمتنعون عن كل ما يُفْتضَحُون به يوم القيامة.

وإنما يُعرَفُ اختلاف الدَّرَجَتَيْنِ بالمشاهَدات؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطَى أعمالًا، فيحضُرُك صَبِيٌّ أو نحوه؛ فتَعلَمُ أنه مُطَّلِع عليك؛ فتستحيي منه؛ فتُحسِنُ جلوسك، وتراعِي أحوالك، لا عن إجلال وتعظيم، بل عن حياء؛ فإن مشاهدته وإنْ كانت لا تُدهِشُكَ، ولا تستغرِقُك، فإنها تهيِّجُ الحياء منك، وقد يدخُلُ عليك مَلِكٌ من الملوك، أو كبير من الأكابر، فيستغرِقُك التعظيم حتى تترُكَ كل ما أنت فيه شُغْلًا به لا حياء منه؛ فهكذا تختلِفُ مَرَاتِب العباد في مراقَبة الله تعالى.

ومن كان في هذه الدرجة، فيحتاج أن يراقب جميع حَرَكاته وسَكَناته وخَطَراته ولَحَظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نَظَرَان: نظَرٌ قبلَ العَمَل، ونظَرٌ في العَمَل؛ أمَّا قبلُ العمل: فلينظُرْ ما ظهر له وتحرَّك بفعله خاطِرُهُ: أهو لله خاصَّة، أو هو في هوى النَّفْسِ ومتابَعةِ الشيطان، فيتوقَّف فيه، ويتثبَّت حتَّى يَنكشِفَ له ذلك بنور الحقِّ؟ فإنْ كان لله تعالى، أمضاه، وإنْ كان لغير الله، استحيا من الله، وانكَفَّ عنه،

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٧٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٧٤)؛ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثمَّ لام نَفْسَهُ على رغبته فيه وهمِّه به ومَيْلِه إليه، وعرَّفها سوءَ فعلِها، وسَعْيَها في فضيحتها، وأنها عَدُوَّةُ نفسها إنْ لم يتداركها الله بعصمته»[١].

وبذلك نعلم ما تتطلَّبُهُ المراقبة في جميع صورها ومراتبها من تمام الإخلاص لله تعالى في الفعل والتَّرْك، وتمامِ المتابَعة لرسوله ﷺ.

وقد قال بعض السلف: «ما مِن فَعْلَة، وإنْ صَغُرَتْ، إلَّا يُنشَرُ لها ديوانان: لِمَ؟ وكَيْفَ؟ أي: لِمَ فَعَلْتَ؟ وكيف فَعَلْتَ؟»[٢].

وهكذا كان حال السلف:

يقول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان أحدهم إذا أراد أن يتصدَّقَ بصَدَقةٍ، تثبَّت؛ فإنْ كانت لله، أمضاها»[٣].

وكان يقول: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا وقَفَ عند هَمِّه؛ فإنَّ أحدًا لا يعمل حتى يَهُمَّ: فإنْ كان لله عَزَّ وَجَلَّ، مضى، وإن كان لغير الله، أمسك»[٤].

وقال بعضهم: «إن المؤمن وَقَّافٌ متأَنٍّ، يَقِفُ عند همِّه، ليس كحاطِبِ لَيْل»[٥].

وهذا لا يتحقَّق إلا بالعلم المَتِين، والمعرِفة بالله عَزَّ وَجَلَّ معرفةً تامَّة، والمعرِفة بالنَّفْس وأغوارِها وكثرةِ شرودِ النِّيَّةِ على الإنسان، والمعرفةِ بالشيطان ومكايده.

«ولا يخلو العبد أن يكون إمَّا في طاعة، أو معصية، أو مباح:

فمراقَبته في الطاعة: بالإخلاص، والكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات.

وإنْ كان في معصية: فمراقَبتُهُ بالتوبةِ والنَّدَم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكُّر.

وإنْ كان في مباح: فمراقَبتُهُ بمراعاة الأَدب، ثم بمعرِفة حق النعمة من الشُّكْرِ والحمد...

ففي الساعة التي يكون فيها مشغولَ الجوارح، بالطعام والشراب: فإنه لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو مِن أفضل الأعمال، وهو الذِّكْرُ والفِكْر؛ فإنَّ الطَّعَامَ الذي يتناوله مثلًا فيه من العجائب ما لو تفكَّر فيه وفَطِنَ له، كان ذلك أفضَلَ من كثير من أعمال الجوارح، ثُمَّ إن العبد ليس يخلو في جملة أحواله عن بليَّة لا بُدَّ له من الصبر عليها، ونِعْمة لا بدَّ له من الشُّكْرِ عليها؛ وكلُّ ذلك من المراقَبة»[٦].

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٩٨ ـ ٤٠٠)؛ باختصار وتصرُّف.
(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٢).
(٣) «مقاصد المكلَّفين» (ص٤٢٩).
(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩/ ٤١١).
(٥) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٠٠).
(٦) المصدر السابق (٤/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣)؛ بتصرف.

وهكذا: فإنه ينبغي على العبد أن يراقِبَ ربَّه فيما يصدُرُ عن لسانه، أثناء الكلام وقبله؛ ماذا يريد بهذا الكلام؟ أيريد به وجه الله ﷻ، أم يريد به شيئًا من الدنيا؟ وهل سيَرْضَى الله ﷻ به؟

فمراقَبةُ ذلك في الكلام أشدُّ مِن مراقَبةِ العمل؛ ولهذا قال بعض الصالحين: «عالجتُ الصَّمْتَ عمَّا لا يعنيني عشرين سنة؛ قَلَّ أن أَقدِرَ منه على ما أُرِيد»[(١)]، وكان هذا الرجل نتيجة لذلك لا يَدَعُ أحدًا يَغتَابُ أحدًا في مجلسه، وكان يقول لجلسائه: «إنْ ذكرتم الله أعنَّاكم، وإنْ ذكرتم الناس تَرَكْناكم»[(٢)]؛ **ولهذا قيل: «أشَدُّ الورع في اللسان»**[(٣)].

وسيأتي الكلام على هذا في ذكر الوَرَع بمشيئة الله.

وكان الشيخ محمد الأمين الشِّنْقِيطي رحمه الله ـ كما حدَّثني أحد أبنائه ـ لا يمكِّنُ أحدًا في مجلسه أن يخوض في أعراض الناس؛ فكان ينهاهم عن ذلك، ويُسْكِتُهم، ويقول: أنا شايب قليل الحسنات؛ فلا تُذهِبوا حسناتِنا بغِيبَتِكُم للناس، فكان لا يسمح لأحد مهما كان قدرُهُ أن يَغتَابَ أحدًا بحضرته.



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٥٥٢)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٥٥٢، ٥٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٤٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩١)؛ من كلام الفضيل بن عياض، ورُوِي نحوه عن ابن المبارك؛ أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٦).

الطريق إلى تحقيق المراقبة

السبيل إلى نيل هذه المراقبة يتأتى بأمور:

أولًا: أن يستحضِرَ العبد معاني الأسماء الحسنى التي تؤثِّرُ في هذا المقام، وأن يتعبَّد لربِّه تبارك وتعالى بمقتضى هذه الأسماء: الرَّقِيب، والشهيد، والحفيظ، والمحيط، والعليم، والخبير، واللطيف، والسميع، والبصير، والمهيمن، والقريب:

١ ـ أما الرقيب:

فقد قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ **في قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١]: «ويعني بقوله: (رقيبًا): حفيظًا مُحصِيًا عليكم أعمالكم، متفقِّدًا رِعَايَتَكُمْ حُرْمَةَ أرحامكم وصِلَتَكُمْ إياها، وقَطْعَكُمُوها وتضييعَكُم حُرْمَتَها»[١].

وقال في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ۝٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢]: «وكان الله على كل شيء ما أحَلَّ لك وحرَّم عليك، وغير ذلك من الأشياء كلها، حفيظًا، لا يَعْزُبُ عنه علم شيء من ذلك، ولا يؤوده حِفْظُ ذلك كلِّه»[٢].

وقال الزجاج: «الرقيب: هو الحافظ الذي لا يغيب عما يحفَظُه؛ يقال: رَقَبْتُ الشيءَ أَرْقبُهُ رِقْبَةً، وقال الله تعالى ذكره: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]»[٣].

وقال الخطَّابي بعد أن نقَلَ قول الزجَّاج: «وهو ـ أي: الرقيب ـ في نعوت الآدميِّين: الموكَّل بحفظ الشيء، والمترصِّد له، المتحرِّز عن الغفلة فيه»[٤].

فالرقيب في أسماء الله ﷻ: بمعنى الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يغفُلُ[٥]؛ فهو مُطَّلِعٌ على جميع الخلق، لا يعزُبُ عنه قليل ولا كثير من ذلك؛ يَرَى أحوالهم، ويُحصِي أعمالهم، فهو مُطَّلِع على الضمائر والسرائر، يَعلَم ويرى، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، «مُطَّلِعٌ على مكنونات الصدور، قائمٌ على كل نفس بما كَسَبَتْ، وهو الذي حَفِظَ المخلوقات وأَجْرَاها على أحسن نظام وأكمل تدبير»[٦]؛

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ٥٢٣).
(٢) المصدر السابق (١٩/ ١٥٧).
(٣) «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص٥١).
(٤) «شأن الدعاء» (ص٧٢).
(٥) انظر: «الصحاح» (١/ ١٣٧)، (ر ق ب)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٧٩)، (ر ق ب).
(٦) من كلام ابن سعدي في «تفسيره» (١/ ٢٦)؛ بتصرُّف.

كما أنه يراقِبُ الأشياء ويلاحظها؛ فلا تفوته لَفْتَةُ ناظر، ولا فَلْتَةُ خاطر، ولا تَغِيبُ عنه ذَرَّةٌ في السمٰوات ولا في الأرض[١]، رقيبٌ يراقِبُ العباد، يَعُدُّ الأنفاس، حفيظٌ لا يغفُل، حاضِرٌ لا يغيب.

وإنما يذكر الله ﷻ هذا الاسم الكريم المقتضي لهذه الصفة ـ وهي رقابته ﷻ لخلقه ـ لِنَرْعَوِيَ ونَكُفَّ عما لا يليق.

فإذا تيقَّن العبد ذلك، وعَلِمَهُ، وآمَنَ به، وعَلِمَ أن ربَّه يراه ويشاهِدُهُ، وهو مطَّلِعٌ على أحوال العباد كلِّها، يراقِبُ حَركاتهم وسَكَناتهم وأقوالهم وأفعالهم، بل ما يجول في خواطرهم؛ فإنه يتأدَّب مع الله ﷻ الأدب اللائق، ولا يفعل شيئًا في سِرِّهِ يستحيي مِن إظهاره في علانيته؛ لأن الله ﷻ يراقِبُهُ ويشاهِدُه.

رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ الوُجُودِ مُهَيْمِنٌ ... عَلَى الْفَلَكِ الدَّوَّارِ نَجْمًا وَكَوْكَبَا
رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ النُّفُوسِ وَإِنْ تَلُذْ ... بِصَمْتٍ وَلَمْ تَجْهَرْ بِسِرٍّ تَغَيُّبَا
رَقِيبٌ تَعَالَى مَالِكُ المُلْكِ مُبْصِرٌ ... بِهِ كُلَّ شَيْءٍ ظَاهِرًا أَوْ مُحَجَّبَا[٢]

فهذه الأحوال التي تحصُلُ للعبد إنما هي ثَمَرة لعلِمِه بمراقَبة الله تبارك وتعالى له.

وأنشد الإمام الشافعي، والإمام أحمد رحمهما الله[٣]:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّه يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

وقال رجل لوُهَيْب بن الوَرْد: عِظْنِي؛ قال: «اتَّقِ أن يكون اللهُ أهوَنَ الناظِرِينَ إليك»[٤].

وقال عاصم الدِّمَشْقي: كان آدم بن أبي إِيَاس يجثو على ركبتَيْهِ قبل أن يحدِّث في المجلس، ويقول: «والله الذي لا إلٰه إلا هو، ما من أحد إلا وسيخلو به ربُّه، ليس بينه وبينه تَرْجُمان؛ يقول الله له: ألم أكُنْ رقيبًا على قلبك إذِ اشتهَيْتَ به ما لا يَحِلُّ لك عندي؟! ألم أكُنْ رقيبًا على عَيْنَيْكَ إذْ نظَرْتَ بهما إلى ما لا يَحِلُّ لك عندي؟! ألم أكن رقيبًا على سمعك إذْ أنصَتَّ به إلى ما لا يَحِلُّ لك عندي؟! ألم أكن رقيبًا على يَدَيْكَ إذْ بَطَشْتَ بهما إلى ما لا يَحِلُّ لك عندي؟! ألم أكن رقيبًا على قَدَمَيْكَ إذْ سَعَيْتَ بهما إلى

(١) انظر: «النَّهج الأسمى» (١/ ٣٩٣ ـ ٤٠٠).
(٢) الأبيات للشاعر: أحمد مُخَيْمر.
(٣) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٢٠)، و«شعب الإيمان» (٤/ ١٠٤)، و«تاريخ بغداد» (٥/ ٢٠٥)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٤٥٥) (٥١/ ٤١٥).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٤٢).

ما لا يحلُّ لك؟! آستحييتَ من المخلوقين، وكنتُ أَهْوَنَ الناظرين إليك؟!»[(١)].

وربما يستحيي الإنسان ويَنقبِضُ من صبي صغير؛ فلا يفعل بحضرته ما لا يليق، وربما ارعوى مِن أدنى الناس مرتبةً ممَّن لا يعظِّمه، ولكنه يفعل بخَلْوته أمورًا لا تَدُلُّ على أنه مستحضِرٌ لنظَرِ الله ﷻ ورقابته على أعماله، وأنَّ الله يشاهِده، وأنَّ الملائكة تكتُبُ ذلك جميعًا؛ فلو تيقَّن ذلك، لكفَّ عن ذلك؛ خوفًا من ربِّه، أو حياءً منه، أو محبَّةً له؛ كما تقدَّم ذكره.

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَرْعَى خَوَاطِرِي ... وَآخَرَ يَرْعَى نَاظِرِي وَلِسَانِيَا[(٢)]

فمِن أَدَبِ المؤمِن مع اسم الله «الرقيب»: أن يَعلَم أن الله هو رقيبه وشهيده في كل شيء، وأن يَعلَم أنَّ نفسه عدوَّة له، وكذلك الشيطان؛ فهما يَنتهِزَانِ كُلَّ فرصة ليحملاه على الغفلة.

وَغَفْلَةُ قَلْبِ الْمَرْءِ بُعْدٌ وَحَسْرَةٌ ... فَمَا نَالَ عُقْبَى رَبِّهِ غَافِلُ الْقَلْبِ

٢ ـ **ومِن هذه الأسماء التي تُورِثُ المراقَبة: الشَّهِيد**، وهو مشتقٌّ من الشُّهُودِ بمعنى الحضور، ويستلزِمُ ذلك العلم؛ فالله ﷻ شهيد؛ أي: مطَّلِعٌ على كل الأشياء، يسمع جميع الأصوات، الخفيَّ منها والجليّ، يُبصِرُ جميع المخلوقات، الدقيقَ والجليل، الصغير والكبير، أحاط علمه بكل شيء... وهو شهيدٌ على الخَلْقِ يوم القيامة بما علم وشاهد من أفعالهم.

فهذه المعاني التي يذكُرُها السَّلَفُ رضي الله تعالى عنهم صحيحة، وهي تجتمِعُ تحت هذا الاسم الكريم، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨﴾ [آل عمران: ٩٨]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾ [النساء: ٣٣]، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، ويقول ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾ [النساء: ٧٩]، ويقول: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: ١٩]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [يونس: ٦١][(٣)].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٥/ ٢٩٤). والمُراد: أن العبد سيُحاسَبُ، مع صَرْفِ النظر عن خصوص هذه العبارات؛ فإنَّ ذلك إنما يُتَلَقَّى من الوحي، والنصوصُ الواردةُ في الحساب معلومة لا تخفى.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخه» (١٤/ ٣٩٠).

(٣) انظر: «المنهاج الأسنى» (٢/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨).

وإذا عَلِمَ العبد أن ربَّه مشاهِدٌ له، هان عليه كل ما يعانِيهِ في طلب مرضاته، ولو كان ذلك من الأعمال التي تَشُقُّ على الأبدان وتُوهِنها؛ فإن العبد يتلذَّذ بهذا العمل؛ لأنَّ الله ﷻ مطَّلع عليه، ناظر إليه، وهو يتقرَّب بهذه القربات.

«**والفرق بين الرقيب والشهيد**: أن الرقيب: فيه زيادةُ حفظ؛ تقول: رَاقِبْ هذا؛ أي: احْفَظْه، فأنت تنظُرُ إليه، وتَطَّلِعُ عليه في كل حين.

أمَّا الشَّهِيدُ: فهو مطَّلِعٌ على جميع الأشياء، لا يغيب عنه شيء في الوجود، والرَّقيب: مُطَّلِع عليها وحفيظ لها»(١).

٣ ـ ومن أسمائه المؤثِّرة في هذا الباب أيضًا: الحفيظُ؛ وله معنيان(٢):

الأول: أنه قد حَفِظَ على العباد ما عملوه من خير وشر، وطاعة ومعصية؛ وهذا المعنى مِن حفظه يقتضي أن عِلْمَهُ محيط بأحوالهم الظاهرة والباطنة، وأنه قد كتَبَ ذلك في اللوح المحفوظ، وفي الصُّحُفِ التي بأيدي الملائكة، ويعلم مقاديرها، وما لها من الكمال، وما يَعْتَوِرُها من النقائص، ويعلم مقادير الجزاء والثواب والعقاب الذي يستحقُّه خلقه على تلك الأعمال؛ فيُجازِيهم بعدله ﷻ.

والثاني: أنه الحافظ لعباده مِن كلِّ ما يَكْرَهون: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ [يوسف: ٦٤]؛ كما قال يعقوب ﷺ.

وقد ذكر المعنيَيْنِ الحافظ ابن القيِّم رحمه الله في «نونيَّتِهِ»، فقال(٣):

وَهُوَ الحَفِيظُ عَلَيهِمُ وَهُوَ الْكَفِيـ ... ـلُ بِحِفْظِهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانِي

ومِن آثار رقابتِهِ وحفظِهِ ﷻ: أنْ جعل ملائكةً يكتُبُون ويسجِّلون أعمال العباد: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: ١٨].

يحفظ أعمالهم، وهو أيضًا يحفظهم من كل ما يكرهون ويتخوَّفون.

جَلَّ الحَفِيظُ فَلَوْلَا لُطْفُ قُدْرَتِهِ ... ضَاعَ الْوُجُودُ وَضَلَّ النَّجْمُ وَالْفَلَكُ
حَتَّى القُطَيْرَةُ مِنْ مَاءٍ إِذَا نَزَلَتْ ... مِنَ السَّحَابِ لَها فِي حِفْظِهَا مَلَكُ(٤)

وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾ [هود: ٥٧]، فمَن عَلِمَ أن الله حفيظ، حَفِظَ جوارِحَه، وحفظ قلبه، وحَفِظَ عملَهُ ولسانَهُ مِن كلِّ ما لا يليق، وحفظ دينه من كل ما يُخِلُّ به، ويؤثِّر

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٠٧)؛ بتصرف يسير.
(٢) انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩).
(٣) «نونية ابن القيم» (٣٢٩٩).
(٤) «المنهاج الأسنى» (٢/ ٥١٤).

عليه من الشهوات، ولا تستهويه أهواء النفس ومطلوباتها، وما يدعوه إليه الشيطان ويَغُرُّهُ ويمنِّيه به، ثم إنَّ مَن حَفِظَ جَوَارِحَهُ، حفظ اللهُ عليه قلبه، ومَن حَفِظَ لله حقَّه، حفظ اللهُ له حقَّه.

«فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رقيبٌ شهيدٌ حفيظ، يحفظ بانتظام وميزان ما في السمٰوات والأرض، وما في البر والبحر، من رَطْب ويابس؛ فلا يغادِرُ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؛ فخالقُ هذا الكون يضبِطُ كلَّ شيء فيه ويرعاه، ويحفظه ولا ينساه...

وقد أثبت العلم الحديث إمكانيَّة استرجاع ما يصدُرُ عن الإنسان من الأصوات؛ ذلك أن كلام الإنسان يتحوَّلُ إلى موجات هوائية، وأن هذه الموجات تَبْقَى كما هي في الأَثِيرِ إلى الأبد بعد حدوثها، ومن الممكن سماعه مرة أخرى، ولكنَّ عِلْم البشر الآن قاصر عن إعادة هذه الأصوات، أو حِفْظِ تلك الموجات مرَّة أخرى، ولكنْ من ناحية علميَّة نظريَّة: من الممكن التقاط هذه الأصوات مرَّة أخرى، وسماع الأصوات القديمة؛ إذا ما نجَحَ الإنسان في اختراع آلة تقوم بذلك.

وهذا يجعل ما أخبَرَ به القرآن من تسجيل ما ينطق به الإنسان أمرًا سهلًا ميسورًا»[(١)].

٤ ـ ومن الأسماء التي تؤثِّر في هذا أيضًا: المحيط:

فالله عَزَّوَجَلَّ قد أحاط بكل شيء علمًا، فلا يَنِدُّ عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ومِن ذلك أعمال العباد[(٢)].

وهذه الأسماء: الرقيب، والشهيد، والحفيظ، والمحيط، تَشترِكُ في صفة العلم؛ لكنَّ الرقيب يُفِيدُ العلمَ مع الحفظ ـ كما سبق ـ مثل اسمه: الحفيظ، والشهيدُ يفيدُ مع العلم: الحضورَ، والمحيطُ يفيد مع العلم: القُدْرةَ والشمول.

٥ ـ ومن الأسماء أيضًا: العليم:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

يقول الحافِظ ابن القيِّم في «نونيَّته»:

وَالرَّبُّ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ لَا ... يَخْفَى عَلَيْهِ خَوَاطِرُ الْإِنْسَانِ[(٣)]

---

(١) ما بين الأقواس من كتاب «المنهاج الأسنى» (٢/ ٥١١ ـ ٥١٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٣٧)؛ على خلاف بين العلماء في ثبوت هذا الاسم لله تعالى.

(٣) «نونية ابن القيم» (٤٧٤٤).

ومَن عَلِمَ أنَّ ربَّه تبارك وتعالى عالم بكلِّ شيء حتى بخَطَرات الضمائر، ووساوس الخواطر، فعليه أن يُراقِبه، ويستحيي منه، ويَكُفَّ عن معاصيه في السر والعلانية، ولا يَغتَرَّ بجميل ستر الله ﷻ عليه، بل يخشى مِن بَغتات قَهْرِه، ومفاجآت مَكْرِه؛ قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

إِحَاطَةٌ بِجَمِيعِ الغَيْبِ عَنْ قَدَرٍ ... أَحْصَى بِهَا كُلَّ مَوْجُودٍ وَمُفْتَقَدِ
وَكُلُّهُمْ بِاضْطِرَارِ الفَقْرِ مُعْتَرِفٌ ... إِلَى فَوَاضِلِهِ فِي كُلِّ مُعْتَمَدِ
ٱلْعَالِمُ الشَّيْءَ فِي تَصْرِيفِ حَالَتِهِ ... مَا عَادَ مِنْهُ ومَا يَمْضِي فَلَمْ يَعُدِ
وَيَعْلَمُ السِّرَّ مِنْ نَجْوَى الْقُلُوبِ وَمَا ... يَخْفَى عَلَيْهِ خَفِيٌّ جَالَ فِي خَلَدِ[(١)]

٦ ـ وَمِن هذه الأسماء أيضًا: الخبير:

وقد قال بعض السلف: «عليك بالمراقَبَةِ ممَّن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرَّجَاء ممن يَملِكُ الوَفَاء»[(٢)].

والخبير: هو الذي يَعلَمُ بواطن الأشياء، فلا تَخفَى عليه خافية.

وبين هذه الأسماء: العليم والخبير والشهيد: ارتباطٌ لا يَخفَى، فإذا اعتُبِرَ العلم مطلقًا، فهو العليم، وإذا أُضِيفَ إلى الغيب والأمور الباطنة والخفيَّة، فهو الخبير، وإذا أُضِيفَ إلى الأمور الظاهرة، فهو الشهيد.

٧ ـ ومن هذه الأسماء أيضًا: اللَّطِيفُ[(٣)] **ـ على بعضِ تفسيراته ـ** وهو: العليمُ بدقائق الأشياء.

والاسم الواحد من أسمائه تعالى قد يتضمَّن أوصافًا متعدِّدة.

٨ ـ ٩ـ ومن هذه أيضًا: السميع والبصير:

فهو يسمع السِّرَّ والنجوى، وكلَّ الأصوات، وما تحت الثَّرَى، يسمع دَبِيبَ النَّمْلة السوداء، على الصَّخْرة الصماء، في اللَّيْلة الظلماء؛ فمَن عرَفَ أنَّ ربَّه بهذه الصفة، فإنه يتأدَّبُ بالمراقَبة، ويحاسِبُ نفسه بدقيق المحاسَبة[(٤)]؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]،

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٣٨٨). (٢) «الإحياء» (٤/ ٣٩٨).
(٣) انظر: «المنهاج الأسنى» (٢/ ٥٤٧).
(٤) انظر: «الآثار السلوكية لمعاني أسماء الله الحسنى» لرياض أدهمي (ص٦٣).

وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وفي حديث جبريل؛ أنَّه سأل النبي ﷺ عن الإحسانِ، فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[(١)].

وَيَسْمَعُ الحِسَّ مِنْ كُلِّ الوَرَى وَيَرَى ... مَدَارِجَ الذَّرِّ فِي صَفْوَانِهِ الْجَلَدِ
وَمَا تَوَارَى مِنَ الأَبْصَارِ فِي ظُلَمٍ ... تَحْتَ الثَّرَى وَقَرَارِ اليَمِّ وَالثَّمَدِ[(٢)]

١٠ ـ ومن أسمائِهِ أيضًا المتعلِّقة بهذا المعنى: «المُهَيْمِنُ ـ على بعضِ تفسيراته:

وهو: الرَّقِيبُ الحافظ لكل شيء، الخاضع لسلطانه كل شيء، وهو القائم على خَلْقه، الشهيد عليهم، المُطَّلِع على كل شيء، لا يعزُبُ عنه مثقال ذرَّة في السمٰوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو مُطَّلِعٌ على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، أحاط بكُلِّ شيء علمًا؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران: ٥].

مَا شَاءَ كَانَ وَمَا فِي الْكَوْنِ خَافِيَةٌ ... تَخْفَى عَلَى عِلْمِهِ بَدْءًا وَمُنْقَلَبَا
إِنَّا إِلَيْهِ أَنَبْنَا خَاشِعِينَ لَهُ ... وَجَاعِلِينَ لَهُ مِنْ ذِكْرِهِ سَبَبَا
لَا شَيْءَ فِي مُلْكِهِ أَوْ عَنْ إِرَادَتِهِ ... بِمُسْتَطِيعٍ خُرُوجًا أَيْنَمَا ذَهَبَا
جَلَّ المُهَيْمِنُ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ ... وَجَلَّ إِنْ لَمْ يَهَبْ شَيْئًا وَإِنْ وَهَبَا»[(٣)]

١١ ـ ومن هذه الأسماء المؤثِّرة في هذا المعنى: القَرِيبُ[(٤)]: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]:

وقربُهُ تعالى نوعان:

الأول: قُرْبٌ عامٌّ بمعنى الإحاطة، وهو عِلْمُ الله ﷻ بجميع الأشياء، وهو أقرَبُ إلى الإنسان من حَبْلِ الوريد[(٥)].

والثاني: قُرْبٌ خاصٌّ بالداعِينَ والعابِدين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٣٨٨).
(٣) ما بين الأقواس من كتاب «المنهاج الأسنى» (٢/ ٥٣٥)؛ بتصرُّف واختصار.
(٤) انظر: المصدر السابق (٢/ ٦٦٢).
(٥) وهذا على أحد القولَيْن في تفسير الآية: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، والقول الآخر: أنه قُرْب الملائكة؛ وهو اختيار شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٠٣ ـ ٥٠٥)، والحافظ ابن كَثِير في «التفسير» (٧/ ٣٩٨)، وغيرهما.

وذهب شيخ الإسلام ابن تيميَّة: إلى أن القُرْبَ لا يكونُ إلا خاصًّا، بخلاف المعيَّة؛ قال: «وجميع ما وصَفَ به الرب ﷻ نفسَهُ من القُرْب، فليس فيه ما هو عامٌّ لجميع المخلوقات، كما في المعيَّة؛ فإن المعيَّة وصَفَ نفسَهُ فيها بعمومٍ وخصوص»[(١)].

يقول ابن الجَوْزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحقُّ ﷻ أقرَبُ إلى عبده سبحانه من حَبْلِ الوريد، لكنه عامَلَ العبدَ معامَلةَ الغائبِ عنه، البعيدِ منه، فأمره بقَصْدِ بَيْته، ورَفْعِ اليدين إليه، والسؤال له؛ فقلوبُ الجُهَّالِ تستشعرُ البُعْدَ؛ ولذلك تقع منهم المعاصي؛ إذ لو تحقَّقت مراقَبَتُهم للحاضر الناظر، لكفُّوا الأَكُفَّ عن الخطايا»[(٢)].

وقال الحارث المحاسبي: «المراقَبة: عِلْمُ القَلْب، بِقُرْبِ الربّ»[(٣)].

والكلامُ على هذه الأسماء الحسنى يطول، وفيما تقدَّم كفاية.

والمقصودُ: أن ذلك كله يُثمِرُ «المعرِفةَ التي تُثمِرُ هذه الحال؛ وهي علم العبد بأنَّ الله مُطَّلِعٌ على الضمائر، عالِمٌ بالسرائر، رقيبٌ على أعمال العباد، قائمٌ على كلِّ نَفْس بما كسبت، وأن سِرَّ القَلْب في حقِّه مكشوف، كما أنَّ ظاهر البَشَرةِ للخَلْق مكشوف، بل أشدُّ من ذلك.

فهذه المعرِفة إذا صارت يقينًا ـ أعني: أنها خَلَتْ عن الشك، ثم استَوْلَتْ بعد ذلك على القلب ـ قَهَرَتْهُ؛ فرُبَّ علم لا شكَّ فيه لا يَغلِبُ على القلب؛ كالعلم بالمَوْت، فإذا استَوْلَتْ على القلب، استجَرَّتِ القلب إلى مراعاة جانب الرقيب، وصرَفَتْ همَّه إليه، والموقنون بهذه المعرِفة هم المقرَّبون، وهم يَنقسِمون إلى الصِّدِّيقين، وإلى أصحاب اليمين»[(٤)].

ثانيًا: **تحقيقُ مرتبة الإحسان**؛ وذلك مرتبِطٌ كلَّ الارتباط بما قبله مِن معرِفة الرب ﷻ معرِفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحقيقةُ مَشْهَدِ المراقَبة: هو أن يعبد اللهَ كأنه يَرَى ربَّه تبارك وتعالى فوق سمٰواته، مستويًا على عرشِه، يتكلَّم بأمره ونهيه، ويدبِّرُ أمرَ الخليقة، فيَنزِلُ الأمر من عنده، ويَصعَدُ إليه، وتُعرَضُ أعمالُ العباد عليه، وأرواحُهم عند الوفاة إليه؛ فيَشهَدُ العبد ذلك كلُّه بقلبه، ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قَيُّومًا حيًّا، سميعًا بصيرًا، عزيزًا حكيمًا، آمِرًا ناهيًا، يُحِبُّ ويُبغِض، ويَرضَى ويَغضَب، ويَفعَلُ ما يشاء، ويحكُمُ

---

(١) «شرح حديث النزول» (ص١١٤).
(٢) «صيد الخاطر» (ص٢١٣).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٠٣).
(٤) ما بين الأقواس من كتاب «الإحياء» (٤/٣٩٨)؛ بتصرُّف يسير.

ما يريد، وهو فوق عرشِهِ لا يَخفَى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور»[(١)].

وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان؛ قال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[(٢)]؛ أراد بذلك: استحضارَ عَظَمةِ الله، ومراقَبَتَهُ في حال العبادة.

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: «أراد بالإحسان: الإشارة إلى المراقَبة، وحُسْنِ الطاعة؛ فإنَّ مَن راقب الله أحسَنَ عمله»[(٣)].

ثالثًا: ذِكْر الله تبارك وتعالى، وقد ذكر الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في «الوابل الصَّيِّب» للذِّكْرِ أكثر من مائة فائدة، وذكر في العاشرة: «أنه يُورِثُهُ المراقَبة، حتى يدخُلَ في باب الإحسان، فيعبُدَ الله كأنَّه يَرَاهُ، ولا سبيلَ للغافل عن الذِّكْرِ إلى مقام الإحسان؛ كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت...

فأفضَلُ الذِّكْرِ: ما تواطأ عليه القلبُ واللسان، وإنما كان ذِكْرُ القلب وحدَهُ أفضلَ مِن ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يُثمِرُ المعرِفة، ويهيِّجُ المحبَّة، ويُثِيرُ الحياء، ويَبعَثُ على المَخَافة، ويدعو إلى المراقَبة»[(٤)]؛ فلا يكون العبد بحالٍ مِن الغافِلِين.

رابعًا: محاسَبةُ النَّفْس، وملاحَظةُ الأنفاس والخواطر على كل حال؛ فالعَبْدُ بحاجة إلى محاسَبةِ النفس، وملاحَظةِ الأنفاس والخَطَراتِ في سِرِّهِ وعَلَانِيَتِه.

قال خالد بن مَعْدَان: «ما مِن عبدٍ إلا وله أربع أعين؛ عينان في وجهه، يُبصِرُ بهما أمورَ الدنيا، وعينانِ في قلبه، يُبصِرُ بهما أمورَ الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا، فتح عينَيْهِ اللَّتَيْنِ في قلبه؛ فيُبصِر بهما ما وُعِدَ بالغيب»[(٥)].

وقال بلال بن سعد: «لا تنظُرْ إلى صغر الخطيئة، ولكنِ انظر إلى مَن عَصَيْت»[(٦)].

فإذا كان العبدُ مستحضِرًا لرؤية الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه لا يُقدِمُ على معصيةٍ ولو كانت من صغائر الذنوب؛ فإنَّ مِن آداب المؤمِنِ أن يراقِبَ نفسَهُ وحِسَّه، ويتيقَّظَ لأنفاسه؛ كما قال بعض السلف لرجلٍ: «راقِبِ الله تعالى»، فسأله عن تفسيره، فقال: «كُنْ أَبَدًا كَأَنَّكَ تَرَى اللهَ»[(٧)].

---

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص٤٤ ـ ٤٥)؛ بتصرُّف يسير.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٣٨٧).
(٤) «الوابل الصيِّب» (ص٩٥، ٢٢١).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٢).
(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧١)؛ ومن طريقه الإمام أحمد في «الزهد» (ص٣٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٢٣)؛ واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٢).
(٧) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٩٧).

وقال بعض المتقدِّمين: «إنما هي أربعة أشياء: عَيْناك، ولِسَانُكَ، وهَوَاك، وقلبُك، فانظُرْ عينيك؛ لا تنظُرْ بهما إلى ما لا يَحِلُّ لك، وانظر لسانك؛ لا تَقُلْ به شيئًا يعلم الله خلافَهُ مِن قَلْبِك، وانظر قلبك؛ لا يَكُنْ فيه غِلٌّ ولا دَغَلٌ على أحدٍ من المسلِمِين، وانظر هواك؛ لا تَهْوَ شيئًا من الشرِّ؛ فما دام لم تكن فيك هذه الأربعُ خصال، فأَلْقِ الرَّمَادَ على رأسك»[١].

ويقول آخر: «تعاهَدْ نَفْسَكَ في ثلاثِ مواضع[٢]: إذا عَمِلْتَ، فاذكُرْ نظَرَ الله تعالى عليك[٣]، وإذا تكلَّمْتَ، فانظُرْ سمع الله منك، وإذا سَكَتَّ، فانظُرْ علم الله فيك»[٤].

فيكون الإنسان في حال نطقِهِ وسكوتِهِ، وفي حال حَرَكتِهِ وسُكُونه، مراقِبًا لربِّه ﷻ.

وقال أبو حفص لأبي عُثْمان النيسابوري: «إذا جَلَسْتَ للناس، فكُنْ واعِظًا لقلبِك ولنفسِك، ولا يَغُرَّنَّكَ اجتماعُهم عليك؛ فإنَّهم يراقِبُونَ ظاهِرَك، والله تعالى يراقِبُ باطِنَك»[٥].

ولله دَرُّ إمام السُّنَّة أحمد بن حنبل وهو يُنشِد[٦]:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ
لَهَوْنَا عَنِ الأَيَّامِ حَتَّى تَتَابَعَتْ ... ذُنُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ ذُنُوبُ
فَيَا لَيْتَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ مَا مَضَى ... وَيَأْذَنُ فِي تَوْبَاتِنَا فَنَتُوبُ
إِذَا مَا مَضَى الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمُ ... وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «احذَرْ سخَطَ اللهِ في ثلاث: احذَرْ أن تقصِّرَ فيما أمَرَك، واحذَرْ أن يَرَاكَ وأنت لا ترضى بما قُسِمَ لك، وأن تطلُبَ شيئًا من الدنيا فلا تجده: أن تسخَطَ على ربِّك»[٧].

وقال حُمَيْد الطويل لسليمان بن علي: عِظْني، فقال: «لَئِنْ كنتَ إذا عصَيْتَ الله خاليًا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٦٨).
(٢) هكذا في المطبوع من «الحلية»، والجادَّة: «ثلاثة مواضع»، ويمكن تخريج ما وقع هنا على أنَّ التقدير: «ثلاث حالات»؛ من باب الحمل على المعنى، وهو كثير في العربية.
(٣) هكذا في الأصل، والأصل أن تكون تعدية «النظر» بـ «إلى» في مثل هذا الموضع، لكنْ يُمكِنُ أن يُحمَلَ ذلك على تضمين: «نَظَرٍ» معنى «اطِّلَاعٍ»؛ فيعدَّى بـ «على».
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٧٥).
(٥) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٣٣١).
(٦) تقدَّم.
(٧) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٤٤).

ظَنَنْتَ أنه يراك، لقد اجتَرَأْتَ على أمرٍ عظيم، ولَئِنْ كنتَ تَظُنُّ أنَّه لا يراك، فلقد كَفَرْتَ»[(١)].

هذا؛ وينبغي للعبد أن يجعل لنفسه وقتًا يفرِّغ فيه قَلْبَهُ للمحاسَبة والمراقَبة: «يقول للنَّفْس: ما لي بضاعةٌ إلَّا العمر، فإذا فَنِيَ مني رأس المال، وقع اليأس عن التجارة وطَلَبِ الرِّبْح؛ هذا يومٌ جديد قد أَمْهَلَني الله فيه، وأخَّر أجلي، وأَنْعَمَ عليَّ به، ولو توفَّاني، لكنتُ أتمنَّى أن يَرْجِعَنِي إلى الدنيا حتى أعمل صالحًا، فاحْسَبِي يا نفسُ أنك قد تُوُفِّيتِ، ثم قد رُدِدتِّ، فإيَّاكِ أن تضيِّعي هذا اليوم؛ فإنَّ كل نَفَس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها»[(٢)].

يقول بعضهم: «كان لبعض الأمراء وزير، وكان بين يديه يومًا، فالتفَتَ إلى بعض الغِلْمان الذين كانوا وقوفًا لا لِريبة، ولكنْ لحركة أو صَوْتٍ أَحَسَّ به منهم، فاتَّفَقَ أن ذلك الأمير نظَرَ إلى هذا الوزير في تلك الحالة، فخاف الوزيرُ أن يتوهَّمَ الأمير أنه نظر إليهم لِريبة، فجعَلَ ينظُرُ إليه كذلك، فبَعْدَ ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخُلُ على هذا الأمير، وهو أبدًا ينظُرُ إلى جانب، حتى توهَّم الأمير أن ذلك خِلْقةٌ وحَوَلٌ فيه.

فهذا مراقَبة مخلوق لمخلوق؛ فكيف مراقَبة العبد لسيِّده؟!»[(٣)].

وكان الشيخ محمد الأمين الشِّنْقِيطي رَحِمَهُ اللهُ في دَرْسِهِ في المسجد النبوي كثيرًا ما يردِّدُ بعض الأمثال في المراقَبة، ومِن ذلك: أنَّه قال: «لو فرَضْنا أنَّ في هذا البَرَاحِ من الأرض مَلِكًا عظيمًا شديد البَأْس، عظيم النَّكَال، شديدَ الغضب؛ إذا انتُهِكَتْ حُرُماتُه، قَتَّالًا للرجال، سَفَّاكًا للدماء، وحوله سيَّافه، والنِّطَعُ مبسوط، والسيف يقطُرُ دمًا، وحول هذا المَلِكِ بناته ونساؤه وجواريه، أيخطُرُ في البال أن أحدًا من الحاضرين يُطِلُّ بِريبة أو غَمْزة، أو إشارة عَيْن؟! لا وكلا، كلُّهم خاضع الطَّرْف، خاشع الجوارح، أُمنيته السلامة.

ونحن نؤكِّدُ لكم أن خالق السمٰوات والأرض أعظم اطِّلاعًا، وأشدُّ بطشًا، وأفظع فَتْكًا؛ إذا انتُهِكَت حُرُماتُه جلَّ وعلا»[(٤)].

فكيف بِمَن يَسرَحُ بطَرْفه في كل مكان، ينظُرُ في القنوات وفي الإنترنت، ويلاحِقُ النساء في الشوارع والأسواق والمتنزَّهات، هل استحضَرَ هذا نظَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ إليه وراقبه؟!

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٩٨).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥)؛ بتصرُّف.

(٣) ما بين الأقواس من كلام أبي علي الدقَّاق؛ نقله القشيري في «رسالته» (١/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

(٤) «العذب النمير» (٢/ ١٩٢)، (٣/ ٦٥)، (٤/ ٢٦٦)، (٥/ ٦٩).

فحَذَارِ أن يكون الله هو أهوَنَ الناظرين إلينا، وليكنِ الحالُ كما قيل[(١)]:

كَـأَنَّ رَقِـيـبًـا مِـنْـكَ يَـرْعَـى خَـوَاطِـرِي ... وَآخَـرَ يَـرْعَـى نَـاظِـرِي وَلِـسَـانِـي

«جاء عن بعض الملوك: أنه كان له عَبْدٌ يُقبِلُ عليه أكثر ممَّا يُقبِلُ على أمثاله، ولم يكن العبد بحَسَنِ الصورة، ولا أكثَرَ قيمة، فكانوا يتعجَّبون من هذا؛ فركِبَ المَلِكُ يومًا إلى الصحراء ومعه أصحابه وعبيده، ونظَرَ إلى جبل بعيد عليه قطعة ثَلْج، نظَرَ إليه نظرةً واحدة، ثم أطرَقَ، فركض ذلك العبد بفَرَسِهِ قبل أن ينظُرَ الملك إليه، ولم يعلم الجماعة بشيء، وما لَبِثَ ساعةً حتى جاء ومعه شيء من الثلج، فقال الملك: إنَّما أَخُصُّهُ بإكرامي ونَوَالي، وأقرِّبه، وأقدِّمه عليكم؛ لأنَّ لكل أحد منكم شُغْلًا، إنكم مشغولون بأنفسكم، وهو مشغول بمراقَبَة أحوالي»[(٢)].

شُغْلُهُ ذلك! شَغَلَتْهُ مراعاة لَحَظات الملك عن نفسه، وعن شَهَواته ولذَّاته، فهل شُغِلْنا بمراقَبة الله ﷻ عن مُعافَسةِ المحرَّمات، ومُقارَفةِ المدنِّسات؟!

اُذْكُـرِ الـلَّـهَ مَـا خَـلَـوْتَ كَـثِـيـرًا ... فَـهْـوَ أَزْكَـى مَـا يَـكْـتُـبُ الْـمَـلَـكَـانِ
وَاخْـشَـهُ إِنْ لَـهَـوْتَ فَـهْـوَ رَقِـيـبٌ ... وَقَـرِيـبٌ لِـلْـقَـلْـبِ وَالـشِّـرْيَـانِ
لَا تَـقُـلْ إِنْ خَـلَـوْتَ إِنِّـي وَحِـيـدٌ ... فَـمَـعَ الـلَّـهِ أَنْـتَ فِـي كُـلِّ شَـانِ
إِنَّ عَـيْـنَ الْإِلَـهِ مَـا غَـابَ عَـنْـهَـا ... أَيُّ حَـيٍّ فِـي عَـالَـمِ الْأَكْـوَانِ
تَـرَقَّـبِ الـخَـلْـقَ فِـي جَـلَالٍ وَحُـكْـمٍ ... وَاقْـتِـدَارٍ وَرَحْـمَـةٍ وَجِـنَـانِ[(٣)]

قال يعلى بن عُبَيْد: سمعت سفيان الثَّوري يقول: «لو كان معكم مَن يَرفَعُ الحديث إلى السلطان، أكنتم تتكلَّمون بشيء؟ قلنا: لا، قال: فإنَّ مَعَكُمْ مَن يَرفَعُ الحديث»[(٤)].

ويقول آخر: «لو أن صاحب خبر جلس إليك ـ أي: مَن ينقُلُ إلى السلطان حديث الناس ـ لِيَكتُبَ كلامك، لاحترَزْتَ منه، وكلامُكَ يُعرَضُ على الله؛ فلا تحرز!»[(٥)].

وذُكِرَ أنَّ أحد الشيوخ كان له جَمْعٌ من التلاميذ، وكان قد خَصَّ واحدًا منهم بمَزِيدٍ من العناية والرعاية؛ فسألوه عن السبب؟ فقال: سأبيِّنُهُ لكم، وبعد حِينٍ أعطى كل واحد من التلاميذ طائرًا، وقال لكل واحد: اذْبَحْ هذا الطائر حيثُ لا يراك أحد؛ فمضى كلُّ واحد منهم إلى جهة، ثم رجَعَ إلى شيخه، وقد ذبَحَ الطائر، ما عدا ذلك

---

(١) تقدم.
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥٧)؛ بتصرف.
(٣) «ديوان إسماعيل صبري» (٣٩).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٦٩ ـ ٧٠).
(٥) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٢٤٣).

التلميذ؛ فقد رجع إلى شيخه والطائر في يده لم يَذْبَحْه، فسأله الشيخ، فأجابه: أنتَ أَمَرْتَني أن أَذبَحَ الطائر حيثُ لا يراني أحد، ولم أَجِدْ موضعًا لا يراني الله فيه! فالتفَتَ الشيخُ إلى بقيَّة التلاميذ، وقال: مِن أجلِ هذا خصَصْتُهُ بمزيدٍ من العِنَايَة(١).

وما أحوج العبد أن يكون له فقهٌ ونَظَرٌ مع هذه النفس؛ بحيث يُلاحِظها في حَرَكاتها وسَكَناتها.

وقد مثَّل ابن القيِّم هذه النَّفْسَ مع صاحبها بحال الشريك مع صاحبه المشارِك في المال؛ فقال: «فكما أنه لا يَتِمُّ مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارَطةِ على ما يفعل الشريك أولًا، ثم بمطالَعةِ ما يعمل، والإشرافِ عليه، ومراقَبتِهِ ثانيًا، ثم بمحاسبتِهِ ثالثًا، ثم بمنعِهِ من الخيانة إن اطَّلَعَ عليه رابعًا، فكذلك النَّفْسُ يشارِطُها ـ صاحبها ـ أولًا على حفظ الجوارح السبعة التي حِفْظُها هو رأس المال والربح بعد ذلك، فمَن ليس له رأس مال، فكيف يطمع في الرِّبْح؟! وهذه الجوارح السبعة ـ وهي: العين، والأذن، والفم، واللسان، والفَرْج، واليد، والرِّجْل ـ هي مراكب العَطَب والنجاة؛ فمنها عَطِبَ مَن عَطِبَ بإهمالها وعدَم حفظها، ونَجا مَن نَجا بحفظِها ومراعاتِها؛ فحِفْظُها أساسُ كلِّ خير، وإهمالُها أساس كل شر؛ قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

فإذا شارَطَها على حفظِ هذه الجوارح، انتقَلَ منها إلى مطالَعتِها، والإشرافِ عليها، ومراقَبَتِها، فلا يُهمِلها؛ فإنه إنْ أهملها لحظة، رَتَعَتْ في الخيانة ولا بد، فإنْ تمادى على الإهمال، تمادت في الخيانة حتى تُذهِبَ رأس المال كله، فمتى أحسَّ بالنقصان، انتقَلَ إلى المحاسَبة؛ فحينئذٍ يتبيَّن له حقيقة الربح والخُسْران، فإذا أَحَسَّ بالخسران، وتَيَقَّنَهُ، استَدْرَكَ منها ما يستدرِكُهُ الشريك من شريكه؛ مِن الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقَبة في المستقبل، ولا مطمع له في فَسْخِ عقد الشركة مع هذا الخائن والاستبدال بغيره؛ فإنه لا بُدَّ له منه، فليجتَهِدَ في مراقَبَتِهِ ومحاسَبَته، وليحذَرْ من إهماله.

(١) نقله القشيري في «رسالته» (١/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

ويُعِينُهُ على هذه المراقَبة والمحاسَبة معرفتُهُ أنه كلَّما اجتهد فيها اليوم، استراح منها غدًا إذا صار الحساب إلى غيره، وكلَّما أهملها اليوم، اشتَدَّ عليه الحساب غدًا، ويُعِينُهُ عليها أيضًا: معرفتُهُ أنَّ رِبْحَ هذه التجارة سُكْنَى الفردوس، والنظَرُ إلى وجه الرب سبحانه، وخسارَتُها دخول النار والحجاب عن الربِّ تعالى.

فإذا تيقَّن هذا، هان عليه الحساب اليوم، فحَقٌّ على الحازم المؤمِنِ بالله واليوم الآخر: ألَّا يغفُلَ عن محاسَبة نفسه، والتضييق عليها في حَرَكاتها وسَكَناتها، وخَطَراتها وخَطَواتها؛ فكلُّ نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يَجلِبُ هلاكه، خسران عظيم، لا يسمح بمثله إلَّا أجهَلُ الناس، وأحمَقُهم، وأقلُّهم عَقْلًا، وإنما يَظهَرُ له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]»[(١)].

وكل ذلك إنما يُمكِنُ بصبر ساعة واحدة، وهي الساعة الراهِنة، فيكونُ ابنَ وَقْته؛ كأنه في آخِرِ أنفاسه، ولعلَّه في آخر أنفاسه وهو لا يدري، وعليه ألَّا يَطُولَ أملُهُ خمسين سَنَةً، فيطول عليه العزم على المراقَبة فيها.



(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٦٠ ـ ١٦١).

ثَمَرات المراقبة

أولًا: التأدُّبُ مع الله تبارك وتعالى:

فإذا كان العبد مراقِبًا لله، فإنه يتأدَّب معه في كل حَرَكاته وسَكَناته؛ لأنه يُدرِك أن الله يَرَاهُ ويسمعه ويراقبه، وهذا الأدب ـ كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ ـ «**ثلاثة أنواع**:

الأول: صيانة معاملَته أن يَشُوبها بنقيصة.

والثاني: صيانة قلبه أن يَلتفِتَ إلى غيره.

والثالث: صيانة إرادته أن تتعلَّق بما يمقُتُه عليه»[(١)].

وقال بعضهم: «المراعاةُ تُورِث المراقَبة، والمراقَبةُ تُورِثُ خلوص السرِّ والعلانِيَة لله تعالى»[(٢)].

وقد قيل: «أَسْرَعُ الأشياء عِظَةً للقلب وانكسارًا له: ذِكْرُ اطِّلَاع الله بالتعظيم له»[(٣)].

فإذا راقَبْنا الله، فإن ذلك يُوجِبُ صيانة الظاهر والباطن؛ نَصُونُ الظاهر: بحِفْظِ الحركات الظاهرة، ونَصُونُ الباطن: بحِفْظِ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة؛ فلا يكون في القلب معارَضة لأمر الله أو خبرِهِ أو قضائِهِ وقَدَرِه، كما يتجرَّد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارِضُ أمره، ومِن كل إرادة تعارِضُ إرادته، ومِن كل شبهة تعارِضُ خَبَرَهُ، ومِن كل محبَّة تزاحِمُ محبَّته، وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وقد قيل: «مَن راقَبَ اللهَ تعالى في خواطِرِه، عصَمَهُ الله تعالى في جوارحِه»[(٤)].

وسُئِلَ بعضهم: «بِمَ يستعينُ الرجُلُ على غَضِّ بصرِهِ عن المحظورات؟ قال: بعلمه أن رؤية الله تعالى سابقةٌ على نظره ذلك المحظور»[(٥)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧٦)؛ بتصرف.

(٢) ذكره القشيري في «رسالته» (١/ ٣٣١)؛ من كلام إبراهيم الخَوَّاص.

(٣) «حلية الأولياء» (١٠/ ٨٦).

(٤) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٣٠)، وأخرج البيهقي نحوه في «شعب الإيمان» (٦٩٠٧).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٩٧)؛ بتصرف.

وقد أجمع العُبَّادُ والعارفون على أن مراقَبة الله تعالى في الخواطر سبَبٌ لحفظها في حَرَكات الظواهر؛ «فمَن راقَبَ الله في سِرِّه، حَفِظَهُ الله في حَرَكاتِهِ في سِرِّهِ وعلانِيَتِهِ»(١).

وقيل لبعضهم: «متى يَهُشُّ الراعي غَنَمَهُ بعصا الرِّعاية مِن مَراتِع الهَلَكة؟ فقال: إذا عَلِمَ أن عليه رقيبًا»(٢).

ومعلوم أن «مبدأ كل عِلْمٍ نظري، وعملٍ اختياريٍّ هو الخَوَاطِرُ والأفكار؛ فإنها تُوجِبُ التصوُّرات التي تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرةُ تكراره تُعطِي العادة، فصلاحُ هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادُها بفسادها؛ فصلاح الخواطر بأن تكون مراقِبةً لوليِّها وإلٰهها، صاعدةً إليه، دائرةً على مرضاته ومَحَابِّه؛ فإنه ﷻ به كل صلاح، ومِن عنده كل هدى؛ ومِن توفيقه كل رُشْد، ومِن تولِّيه لعبده كل حفظ، ومِن تولِّيه وإعراضه عنه كلُّ ضَلَال وشقاء، فيَظفَرُ العبد بكل خير وهدى ورشد؛ بقدر إثبات عَيْنِ فكرته في آلائه ونعمه وتوحيده، وطُرُقِ معرفتِهِ وطرق عبوديَّته؛ فيكون العبد حافظًا لأفعاله وأقواله وخَوَاطره مِن كُلِّ ما لا يليق، فلا يَطَّلِع ربُّه منه على عَوْرة يستحيي من اطِّلاع المخلوقين عليها، ويكون بذلك مترفِّعًا عن المَدَانِس والأقذار؛ وبهذا يكون نقيًّا سليمًا في باطنه وظاهره، وإذا تباعد العبد عن ذلك، لَحِقَهُ كل شر وفساد في الظاهر والباطن؛ فكل شرٍّ إنما يكون بالتباعد عن الله ﷻ، وكل خير يحصُلُ بالقرب منه»(٣).

وانظُرْ إلى حال كثير منا مع الصيام؛ فإنه يراقِبُ الله ﷻ مراقَبةً لو جعلها في كل أحواله وأعماله، فإنه يكون بذلك محفوظًا بإذن الله تعالى، ويكون له سلطانٌ عظيم على هذه النَّفْس؛ حتى يصير ذلك عادةً وسجيَّة له، لكنَّ العبد إنما يراقِبُ ربه في بعض الأعمال وفي بعض الأحوال، ويغفُلُ عنه في أحوالٍ وأعمالٍ أخرى، فتجد الواحد منَّا عند فِطْرِهِ يرقُبُ الأذان أو غروب الشمس، فلا يأكل هذه التمرة، ولا يشرب شَرْبة ماء حتى تغرب الشمس، ولكنه بعد أن يُفطِرَ ربما ينظر إلى الحرام، ويسمع الحرام، بل ربَّما أفطر على الحرام، وهذا تناقُضٌ يجب على العبد أن يعالِجَهُ، وأن يراجِعَ نفسه، وأن يراقِبَ ربَّه ﷻ في جميع أحواله، فإذا وُجِدَتْ هذه المراقَبة، انتظَمَتْ أحوال العبد، وكانت تربيتُهُ كاملة، وهذه حقيقة التربية.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٠).
(٢) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٣٠).
(٣) «الفوائد» (ص٢٥٢ ـ ٢٥٣)؛ بتصرف.

إنَّ وازع الدِّين والمراقبة لربِّ العالمين، يفعل في النفوس ما لا يفعله وازع القوَّة والسلطان، فإذا أَلِفَ العبدُ مراقبة ربِّه، واستحضر شهودَهُ واطِّلَاعَهُ عليه؛ فإنَّ المجتمَع يأمَنُ بوائِقَه، ويستريحُ كثيرًا من شروره.

وإذا أراد الله تعالى عبدًا بخير، «بذَرَ في قلبه بُذُورَ التوفيق، ثُمَّ سقاه بماء الرَّغْبة والرَّهْبة، ثم أقام عليه بأطوار المراقَبة، واستخدَمَ له حارس العلم، فإذا الزرعُ قائمٌ على سُوقِه»[(١)].

أمَّا إذا كان الاعتمادُ على وازع القوَّة، وحارس القانون، فإن القوَّة قد تضعُفُ، والحارس قد يغفُلُ، والقانون قد يؤوَّل، وقد يُتَحَايَلُ عليه للتخلُّص من سلطانه؛ ولذلك تكثُرُ الجرائم والمفاسد إذا قلَّت التربية الدينيَّة في المجتمع.

«فمراقَبةُ الحقِّ تعالى هي المُوجبةُ لكلِّ صلاح وخير، عاجل وآجل؛ فمراقَبةُ الحقِّ ﷻ تُوجِبُ إصلاحَ النَّفْس، واللُّطْفَ بالخَلْق»[(٢)].

ولا يخفى أنَّ هناك ملازَمة بين ظاهر الإنسان وباطنه؛ فالإنسان الذي يحمل في قلبه معاني سيِّئة مهما حاول أن يَظهَرَ أمام الآخرين بصورة طيِّبة، لا بُدَّ أن يُفتضَحَ، والإنسان الذي يكون في الخَلْوة على حال غير مرضيَّة، وفي حال الجَلْوة على حال التأدُّب والصيانة، لا بُدَّ أن يُفتضَحَ إلا من ستَرَهُ الله ﷻ، ولطَفَ به.

يقول سليمان التيمي رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيُذْنِبُ الذنب، فيصبحُ وعليه مَذَلَّتُه»[(٣)].

وكما قيل: «إن أحدًا لا يُسِرُّ منكرًا إلَّا ظهَرَ في فَلَتات لسانه، وصَفَحات وجهه، وطَوَالع نَظَره»[(٤)].

وقال أبو حازم: «لا يُحسِنُ عبد فيما بينه وبين الله تعالى إلا أحسَنَ الله فيما بينه وبين العباد، ولا يعوِّرُ فيما بينه وبين الله تعالى إلا عوَّر الله فيما بينه وبين العباد، ولَمُصَانَعةُ وجه واحد أَيْسَرُ مِن مصانَعةِ الوجوه كلها، إنك إذا صانَعْتَ الله، مالت الوجوه كلُّها إليك، وإذا أَفْسَدتَّ ما بينك وبينه، شَنَأَتْكَ الوجوهُ كلُّها»[(٥)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «نظَرْتُ في الأدلَّة على الحق ﷻ، فوجدتُّها أكثر من الرَّمْل، ورأيتُ مِن أعجَبِها أنَّ الإنسانَ قد يُخفِي ما لا يرضاه الله ﷻ، فيُظهِرُه الله

---

(١) «الفوائد» (٦٩)؛ بتصرف.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٥١١)؛ بتصرف.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٣٩)؛ واللفظ له.

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٢٠٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٥/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣٩).

سبحانه عليه ولو بعد حين، ويُنطِقُ الألسنةَ به وإن لم يشاهده الناس، وربَّما أوقع صاحبَهُ في آفة يَفضَحُهُ بها بين الخلق، فيكون جوابًا لكل ما أَخفَى من الذنوب؛ وذلك ليعلم الناس أن هناك مَن يجازي على الزَّلَل، ولا ينفع مِن قَدَرِهِ وقدرته حجاب ولا استتار، ولا يُضَاعُ لديه عَمَل.

وكذلك يُخفِي الإنسان الطاعة، فتَظهَرُ عليه، ويتحدَّثُ الناس بها وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنبًا، ولا يذكُرُونَهُ إلَّا بالمحاسن؛ لِيُعلَمَ أن هنالك رَبًّا لا يضيِّعُ عمَلَ عامل، وإنَّ قلوبَ الناس لَتَعْرِفُ حال الشخص وتحبُّه أو تأباه، وتذمُّه أو تَمدَحُهُ وَفْقَ ما يتحقَّق بينه وبين الله تعالى؛ فإنَّه يكفيه كل هَمّ، ويَدفَعُ عنه كل شرّ، وما أصلَحَ عبدٌ ما بينه وبين الخلق دون الحَقِّ إلا انعكَسَ مقصوده، وعاد حامدُهُ ذامًّا»[1].

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ لِلخَلْوةِ تأثيرات تَبِينُ في الجَلْوة، كم مِن مؤمن بالله عَزَّ وَجَلَّ يَحترِمُهُ عند الخلوات، فيترُكُ ما يشتهي حذرًا من عقابه، أو رجاءً لثوابه، أو إجلالًا له؛ فيكون بذلك الفعل كأنه طرَحَ عُودًا هنديًّا على مِجْمَر، فيفوح طِيبُهُ، فيستنشقُهُ الخلائق ولا يدرون أين هو.

وعلى قدر المجاهدة في تَرْكِ ما [يهوى] تَقوَى محبَّته، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطِّيب، ويتفاوت تَفَاوُتَ العُود، فترى عيونَ الخلق تعظِّمُ هذا الشخص، وألسنتهم تمدحه، ولا يعرفون لِمَ، ولا يَقدِرون على وصفه لِبُعْدِهم عن حقيقة معرفته، وقد تمتدُّ هذه الأراييح ـ يعني: الروائح ـ بعد الموت على قَدْرِها؛ فمنهم: مَن يُذْكَرُ بالخير مُدَّة مديدة، ثم يُنْسَى، ومنهم: مَن يُذْكَرُ مائة سنة، ثُمَّ يُخفَى ذِكْرُهُ وقبره، ومنهم: أعلامٌ يبقى ذكرهم أبدًا، وعلى عَكْس هذا: من هاب الخَلْقَ ولم يحترِمْ خَلْوته بالحقِّ، فإنَّه على قَدْرِ مبارَزَتِهِ بالذنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب: يفوح منه ريح الكَرَاهِيَة؛ فتمقته القلوب. . .

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ العَبْدَ ليخلو بمعصية الله تعالى، فيُلقِي اللهُ بُغْضَهُ في قلوب المؤمنين مِن حيثُ لا يشعُرُ[2]»[3].

ومعلومٌ أن الأسباب التي يمكن أن يُتوصَّلَ بها إلى الشرِّ في مثل هذا الزمان ـ والتي لا يَطَّلِعُ عليها الخلق ـ كثيرةٌ جدًّا؛ فينبغي للإنسان أن يلاحظ هذا المعنى، وأن يَحرِص عليه غاية الحرص، لا سيَّما مع ضعف الوازع لدى الكثيرين، وكثرةِ الطمع

(١) «صيد الخاطر» (ص٦٧ ـ ٦٨).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٥).
(٣) المصدر السابق (ص١٦١).

والأمورِ العارضة التي تستهوي الناس من ألوان الشهوات في الأموال والمكاسب، وفيما يتعلَّق بغير ذلك أيضًا، مما تَمِيلُ إليه النفوس، وجُبِلَتْ على محبَّته والانصراف إليه.

ثانيًا: دخولُ الجَنَّة:

فإذا صَلُحَتْ أعمال العباد الظاهرة والباطنة، وصَلُحَتْ قلوبُهم وأعمالهم، واستقامت ألسنتهم، فإن مآلهم إلى جَنَّةٍ عَرْضُها السمٰوات والأرض؛ قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٥]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقد سُئِلَ بعض المتقدِّمين: بِمَ ينالُ العبد الجنَّة؟ فقال: «بخمسٍ: استقامةٍ ليس فيها رَوَغَان، واجتهادٍ ليس معه سَهْو، ومراقَبةِ الله تعالى في السرِّ والعَلَانِيَة، وانتظارِ الموت بالتأهُّب له، ومحاسَبةِ نَفْسِك قبل أن تحاسَبَ»(١).

والواقع: أن هذه جميعًا تَرجِعُ إلى المراقَبة؛ لأن الاستقامة التي ليس معها رَوَغَان إنما تكون بمراقَبة الله ﷻ، وهكذا الاجتهاد الذي ليس معه سَهْو؛ فإنَّ الغَفْلة إنما تقع في قلب العبد، ويحصُلُ التفريط في عمله بسبب ضَعْفِ مراقبته، وهكذا.

ثالثًا: الوصول إلى القُرْب من المعبود ﷻ:

فإن المعاصي والغَفَلات تُبعِدنا عنه، فكلَّما كان العبد أكثر استحضارًا لنظر الله ﷻ إليه، كان أكثرَ قُرْبًا، وذلك حال يَصِلُ إليه العبد بعد ألوان من الترويض والمجاهَدات التي يجاهد فيها نَفْسه، وقد قال الجُنَيْد: «اعلم أنه ﷻ يقرُبُ مِن قلوب عباده على حسَبِ ما يرى من قُرْبِ قلوب عباده منه؛ فانظر ماذا يقرُبُ من قلبك؟!»(٢).

وسأله رجل: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: «توبةٌ تَحُلُّ الإصرار ـ يعني: على الذنوب والمعاصي ـ وخوفٌ يُزِيلُ الغِرَّة، ورجاءٌ مُزعِجٌ إلى طريق الخَيْرَات، ومراقَبةُ الله في خواطر القلوب»(٣).

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

(٢) «اللمع في التصوُّف» للطوسي (ص٨٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٦٩).

والمراقَبة تقتضي حالَ القُرْب، وحالُ القُرْبِ لعبدٍ شاهَدَ بقلبه قُرْبَ الله منه، فتقرَّب إلى الله تعالى بطاعته، وجمَعَ هَمَّهُ بين يدي الله بدوام ذكرِهِ في علانيته وسِرِّه.

يقول عامرُ بن عبد قيس: «ما نَظَرْتُ إلى شيءٍ إلَّا رأيتُ الله أقرَبَ إليه منِّي»(١).

رابعًا: السعادة والانشراح وقُرَّة العين:

وذلك لأن الإنسان إذا كان مستحضِرًا لنظر المعبود ﷻ، فإن ذلك يُثمِرُ عنده استعدادًا لملاقاته، وحفظًا لجوارحِهِ وقلبِهِ من سائر ما يدنِّسه، وإذا فعل ذلك، حصل للقلب أنواع النعيم والسرور والبهجة والانشراح، وإنما يشقى قلب العبد إذا كان كثير الالتفات إلى غير مليكه ومعبوده ﷿، فيعذَّب بتلك التعلُّقات التي يتعلَّق بها؛ فإنَّ هذا القلب إنَّما رُكِّبَ تركيبًا خاصًّا ليتوجَّه إلى المعبود دون سواه، فإذا تعلَّق بغيره، وتشاغَلَ به، فإنه يَقلَقُ ويتعذَّب ويَحزَنُ بقدر تعلُّقاته التي قد تعلَّقها بغير ربِّه ومعبوده ومليكه ﷻ؛ ولذلك قال شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة: «إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها لا يدخُلْ جَنَّةَ الآخرة»(٢).

خامسًا: تعظيم الجزاء على العمل:

ولذلك قال الله ﷿ في الحديث القُدْسي: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»(٣)، وهذا بيانٌ لعِظَم فضله، وكثرة ثوابه؛ لأن الكريم إذا أخبر بأنه يتولَّى بنفسه الجزاء، اقتضى عِظَمَ قدر الجزاء وسَعَةَ العطاء؛ إذْ لم يَحُدَّهُ بحدٍّ معيَّن، كما هو الحال في كثير من فضائل الأعمال؛ ولذلك قال الله ﷿: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]، والصومُ مِن الصبر؛ فهذا الصائِمُ لا يمنعه من الفطر إلا مراقَبة الله ﷿، وتلك المراقَبة هي التي دَلَّتْ على عِظَمِ هذا العمل، وأثمَرَتْ هذا الجزاء الموفور.

سادسًا: السكينة والحياء، والمحبَّة والخشوع، والخوف والرجاء، والاستعانة والتوكُّل، وما إلى ذلك مِن كل عمل طيِّب من أعمال القلوب والجوارح:

وقد ذكر الإمام ابن القيِّم ﵀ جملةً من الأسباب التي يُتوصَّلُ بها إلى السكينة، ثم أجمَلَ ذلك بقوله: «سبَبُها: استيلاءُ مراقَبةِ العبد لربِّه ﷻ، حتى كأنَّه يَرَاهُ، وكلَّما اشتدَّت هذه المراقبة، أوجَبَتْ له من الحياء والسكينة والمحبَّة، والخضوع والخشوع،

---

(١) ذكره ابن عطيَّة في «تفسيره» (٥/ ٢٥٣).
(٢) «الوابل الصيِّب» (ص١٠٩).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)؛ من حديث أبي هريرة ﵁.

والخوف والرجاء: ما لا يحصُلُ بدونها؛ فالمراقَبةُ أساس الأعمال القلبية كلِّها، وعمودُها الذي قيامها به»[(١)].

وإذا كان الإنسان إذا خاطب ذوي الهيئات، تأدَّب وحرَصَ ألَّا يبدر منه ما يؤاخَذُ به، فكيف إذا استحضَرَ نظَرَ الله ﷻ إليه، وكتابة الملائكة، وأنهم يشاهِدُونَ عمله، ويدوِّنونَهُ؛ فإنه يتأدَّب غاية الأدب، ويستحيي من الله حق الحياء، ويخافه ويخشاه.

وقد قيل لبعض الخاشعين المستكينين: علَامَ بَنَيْتَ أَمْرَكَ في التوكُّل؟ قال: «على أربعِ خلال: عَلِمْتُ أنَّ رزقي لا يأكُلُهُ غيري؛ فلستُ أهتمُّ له، وعَلِمْتُ أن عملي لا يعملَه غيري؛ فأنا مشغولٌ به، وعَلِمْتُ أنَّ الموتَ يأتيني بغتةً؛ فأنا أبادِرُه، وعَلِمْتُ أني بعَيْنِ الله في كل حال؛ فأنا مُسْتَحْيٍ منه»[(٢)].

سابعًا: صحة الفِرَاسة:

وإنما تَقوَى فراسة العبد كلَّما قَوِيَتْ مراقبتُهُ وتقواه لله تعالى؛ وذلك أنه إذا صَحَّ سلوك العبد في سَيْرِهِ إلى ربِّه وصَفَا قلبه، فإنَّ نظر عين القلب لا يكادُ يخطئ، وعين القلب هي البصيرة التي يفرِّقُ بها بين الحق والباطل، وقد قال شاه بن شجاع الكِرْماني: «مَن عمَّر ظاهره باتِّبَاعِ السُّنَّة، وباطنَهُ بدوام المراقَبة، وكَفَّ نفسه عن الشهوات، وغَضَّ بصَرَهُ عن المحارم، واعتاد أكلَ الحلال؛ لم تخطئ له فِرَاسة»[(٣)].

ثامنًا: إيثار ما أنزَلَ الله، وتعظيمُ ما عظَّم الله، وتصغيرُ ما صغَّر الله ﷻ:

وهذا في كل شيءٍ من عرَضِ الحياة الدنيا وسائر الأعمال، والأشخاص والطوائف والأمم والأملاك وما إلى ذلك، **وقد قال ذو النُّون:** «ثلاثةٌ مِن أعمال المراقَبة: إيثارُ ما أنزَلَ الله، وتعظيمُ ما عظَّم الله، وتصغيرُ ما صغَّر الله»[(٤)].

تاسعًا: حِفْظُ الأنفاس والأوقات:

فإذا عرَفَ الإنسان أن ربَّه ينظر إليه، ويكتب كل شيء يصدر عنه، فلن يضيِّع لحظةً

---

(١) «إعلام الموقعين» (٦/ ١١١ ـ ١١٢).

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٦١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٢١٦)؛ واللفظ له.

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٠٥)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣٧) بنحوه.

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٥٢٨).

بِعَبَث، وما أحسن ما قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ابنَ آدَمَ، إنما أنت أيَّام، كلَّما ذهَبَ يومٌ، ذهَبَ بعضُك»[١].

وقال الجُنَيْد: «مَن تحقَّق في المراقَبة، خاف على فَوَات لحظةٍ من ربِّه لا غَيْرُ»[٢].



(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (ص٢٧٨)، والدينوري في «المجالسة» (٥٨٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٤٨)؛ واللفظ له. وقد رُوِيَ من كلام أبي الدرداء؛ أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٢٦)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٠١٨٠)، و«الزهد» (٥٠٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٥).

مِن أخبار أهل المراقَبة

قال عُرْوة بن الزُّبَيْر رَحِمَهُ اللهُ: «خَطَبْتُ إلى عبد الله بن عُمَرَ ابنتَهُ ونحن في الطواف، فسكَتَ ولم يُجِبْنِي بكلمة، فقلتُ: لو رَضِيَ لأجابني، واللهِ، لا أراجِعُهُ فيها بكلمةٍ أبدًا، فقُدِّرَ له أنْ صدَرَ إلى المدينة قَبْلِي، ثم قَدِمْتُ، فدخَلْتُ مسجد الرسول ﷺ، فسَلَّمْتُ عليه، وأَدَّيْتُ إليه من حقِّه ما هو أهله، فأتيتُهُ، ورحَّب بي، وقال: متى قَدِمْتَ؟ فقلت: هذا حين قدومي، فقال: أكُنْتَ ذكرتَ لي سَوْدَةَ بنت عبد الله، ونحن في الطوافِ نَتَخَايَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بين أَعْيُنِنا، وكنتَ قادرًا أن تَلْقانِي في غير ذلك الموطن؟ فقلتُ: كان أمرًا قُدِرَ، قال: فما رأيُكَ اليوم؟ قلتُ: أحرَصُ ما كُنْتُ عليه قطُّ، فدعا ابنَيْهِ سالمًا وعبد الله، فزوَّجني»[(١)].

فقد كانت مراقَبة الله عَزَّوَجَلَّ مستولِيَةً على قلبه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فما عاد يَنطِقُ بشيء من أمر الدنيا.

وقال زيد بن أسلم: «مَرَّ ابن عمر براعي غَنَم، فقال: يا راعي الغنم، هل من جَزَرةٍ؟ قال الراعي: ليس هاهنا ربُّها، فقال ابن عمر: تقول: أكَلَها الذئب، فرفَعَ الراعي رأسه إلى السماء، ثم قال: فأين الله؟ فاشتَرَى ابنُ عمر الراعي، واشتَرَى الغنم؛ فأَعْتَقَهُ وأعطاه الغنم»[(٢)].

ونَظَر عُبَادةُ بن الصامت رضي الله تعالى عنه إلى الصُّنَابِحِيِّ ـ وهو من أئمَّة التابعين ـ فقال: «مَن سَرَّهُ أن ينظُرَ إلى رجل كأنَّما رُقِيَ به فوق سبع سمٰوات، فعَمِلَ ما عمل على ما رأى؛ فلينظُرْ إلى هذا»[(٣)]؛ يعني: أنَّ الصُّنَابِحِيَّ كان يراقِبُ الله عَزَّوَجَلَّ، وكان شديد الخوف والحياء منه سبحانه.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٣٠٦)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠٥٤)؛ واللفظ له، والأثر احتج به الذهبي في «مختصر العلو» (٩٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٤٧) «رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن الحارث الحاطبي؛ وهو ثقة»، وصحَّح إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧/ ٤٧٠).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٥٧)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٥/ ١٣٠).

وذُكِرَ عند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لمَّا كان في مرض الموت ـ عن طاوُس؛ أنَّه كان يكره الأَنِينَ؛ فلم يَئِنَّ حتَّى مات[(١)].

وقال ابن دَقِيق العِيدِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما تكلَّمْتُ كلمةً، ولا فَعَلْتُ فعلًا إلا وأعدَدتُّ له جوابًا بين يَدَي الله»[(٢)].

وقيل للجُنَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ: قل: لا إله إلا الله، فقال: «ما نَسِيتُهُ فأَذْكُرَهُ، وقال:

حَاضِرٌ فِي القَلْبِ يَعْمُرُهُ ... لَسْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ
فَهْوَ مَوْلَايَ وَمُعْتَمَدِي ... وَنَصِيبِي مِنْهُ أَوْفَرُهُ»[(٣)]

وقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما اغتَبْتُ أحدًا قطُّ منذ علمتُ أن الغِيبَةَ تَضُرُّ أهلها»[(٤)].

وكان يقول: «إني أرجو أن ألقى الله ولا يُحاسِبُني أني اغتبتُ أحدًا»[(٥)].

ولذلك تجد في كلامه عن الرجالِ توقِّيًا زائدًا، وتحرِّيًا بليغًا.

وبالجملة: فالمراقَبةُ مِن أعظم منازل السائرين، وأجلِّ دَرَجَات السالكين؛ بها يَتِمُّ إيمان العبد، حيثُ لا يصل إلى مقام الإحسان إلَّا بها، وهو أكمَلُ مقامات العابدين.

أسأل الله تعالى أن يَرزُقَنا مراقبَتَهُ في السرِّ والعلانية؛ إنه سميع مجيب.



---

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٨٣)، وابن الجوزي في «مَنَاقب الإمام أحمد» (ص٥٤٦)، وهو في «سيرة الإمام أحمد» لابنه صالح (١٢٢ ـ ١٢٣)؛ غير أنه قال: «فلم يَئِنَّ إلا في الليلة التي تُوُفِّيَ فيها».
أما أثر طاوس: فأخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٤)، و(٥/ ١٨)، وغيرهما. انظر: «الفتح» (١٠/ ١٢٩)، و«الفتاوى الحديثية» للسخاوي (٧٧).

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» (٩/ ٢١٢).

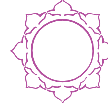
(٣) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٤٧٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٤١).

(٥) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ١٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٢/ ٨١).

سادسًا

الوَرَع



توطئة

الورَعَ خَصْلةٌ من الخصال الكريمة، وشِيمَةٌ من شِيَم النفوس العظيمة؛ فهو موضوع جدير بالعناية والاهتمام؛ لِتَرَحُّلِهِ في هذا الزمان عن قلوب الكثيرين، مع حاجتنا إليه في تعامُلنا مع الله ﷻ، وفي تعامُلنا مع أنفسنا، وفي تعامُلنا مع الآخرين؛ سواءٌ كان ذلك في أمور العبادة، أم كان في أمور العادة.

لقد صار المتورِّع في هذا العصر عند كثير من الناس متشدِّدًا ومتكلِّفًا، ولربَّما نظروا إليه على أنه قد وَلَجَ أبوابًا من التنطُّع والغُلُوِّ في الدين ليس له أن يَلِجَ فيها، ولربما ظنَّ ذلك أيضًا بعض المنتسِبين إلى العلم، أو التديُّن؛ وما ذلك إلا لِقِلَّةِ بَصَرِهم في هذا الباب، ولِقِلَّةِ نصيبهم من العمل بما جاء فيه.

ومِن هنا جاء الحديث عن هذا الموضوع هنا، فأسأل الله أن يكون ذلك باعثًا للوَرَعِ في نفوسنا؛ إنه سميع مجيب.



معنى الوَرَع وحقيقته

الوَرَعُ لغةً: هو الكَفُّ والانقباض، ويمكن أن يقال: إنه الكفُّ عما لا ينبغي؛ يقال: تورَّعَ فلانٌ عن كذا: إذا تحرَّجَ عنه[(١)].

وأما الوَرَعُ في معناه الشرعي:

فيمكن أن يقال: «هو تَرْكُ ما يَرِيبُكَ، ونَفْيُ ما يَعِيبُكَ، والأخذُ بالأوثَق، وحملُ النفس على الأحوط»[(٢)].

وعبَّر عنه يونس بن عُبَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ **بقوله**: «الخروجُ من كلِّ شُبْهة، ومحاسَبةُ النفس في كل طَرْفة عَيْن»[(٣)].

وعرَّفه بعضهم بأنَّه: «تجنُّبُ الشُّبُهات، ومراقَبةُ الخَطَرات»[(٤)].

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الوَرَعُ: ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك»[(٥)].

وقال بعضهم: «هو تَوَقٍّ مستقصًى على حَذَر، وتحرُّجٌ على تعظيم»[(٦)].

وقال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورَعُ: الوقوف على حَدِّ العِلْم، من غير تأويل»[(٧)]؛ أي: مِن غير تأوُّل للنَّفْس بالبحث عن المخارج.

ويقول أيضًا: «الورَعُ على وجهَيْن: ورَعٌ في الظاهر، وورَعٌ في الباطن؛ فورَعُ الظاهر: ألَّا يتحرَّك إلَّا لله، وورَعُ الباطن: هو ألَّا تُدخِلَ قلبك سواه»[(٨)]؛ أي: سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الورَعُ: فإنه الإمساك عما قد يَضُرّ؛ فتدخُلُ فيه المحرَّمات والشبهات؛ لأنها قد تضرّ؛ فإنه مَن اتقى الشبهات، استبرأ

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٦/ ١٠٠)، (و ر ع).
(٢) «التوقيف، على مهمَّات التعاريف» (ص٣٣٦)؛ بتصرف يسير.
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢).
(٤) «التوقيف، على مهمَّات التعاريف» (ص٣٣٦).
(٥) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٣٣).
(٦) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٣).
(٧) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٣٤).
(٨) «منازل السائرين» (ص٣١)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٢١)؛ نقلًا عن صاحب «المنازل».

لِعِرْضِهِ ودِينه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام؛ كالراعي حول الحِمَى يُوشِكُ أن يواقِعَهُ»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ عن «الوَرَعِ المشروع»: «هو الوَرَعُ عمَّا قد تُخَافُ عاقبته، وهو ما يُعرَفُ تحريمه، وما يُشَكُّ في تحريمه، وليس في تركه مفسدةٌ أعظَمُ من فعله»[(٢)]؛ أي: أنه في موضع اشتباه، وسيأتي معنا مزيد بيان لهذا الضابط بمشيئة الله تعالى.

والخلاصة: أنَّه يمكن أن نقول: إنَّ معنى الورع: **هو تركُ ما يُخشَى ضَرَرُهُ في الآخِرة**، وهذا الذي يُخشَى ضرره في الآخرة قد يكون شيئًا محرَّمًا ظاهر التحريم، وقد يكونُ شيئًا مشتبِهًا، وقد يكون من باب التوسُّع في المباح الذي يَجُرُّ صاحبَهُ إلى الوقوع في المكروه أو الحرام.



(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦١٥).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٥١١ ـ ٥١٢).

الفرق بين الوَرَع والزُّهْد

كثيرًا ما يَشتبِهُ ويَلتبِسُ الورع بالزُّهْد، مع أن بينهما فروقًا، **ومن تلك الفروق:**

أولًا: أن الزهد المشروع: تركُ الرَّغْبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة؛ فيُعرِضُ عنه الإنسان؛ لأنه لا ينفعه في الآخرة؛ والمقصودُ به: فضولُ المُبَاحِ الذي لا يستعانُ به على طاعة الله ﷻ.

وأما الوَرَعُ المشروع: فهو **تركُ ما قد يَضُرُّ في الآخرة،** وهو ترك المحرَّمات والشبهات، وكذا المباحات التي يُخشَى أن تَجُرَّ صاحبَها إلى المكروهات أو المحرَّمات(١).

وبهذا الاعتبار يمكن أن يقال كما قال بعض أهل العلم: بأنَّ الوَرَعَ هو أوَّل الزهد؛ كما أن القناعةَ هي أوَّل الرضا.

وعليه؛ فإن المرء قد يكون وَرِعًا، ولا يكون زاهدًا، وأن الزاهِد لا بد أن يكون وَرِعًا؛ لأن الزُّهْدَ أبلَغُ من الوَرَع؛ فإن الزاهد يترك المحرَّمات والمكروهات، والمشتبِهات، كما أنه يترك المباحات التي يُخشَى أن تَجُرَّ إلى المحرَّمات، كما يترك التوسُّع في المباحات، وما لا ينفع في الآخرة، فيكتفي بالقليل من الدنيا، ولا يتعلَّقُ بها، ولا يتوسَّعُ في حُطَامها؛ فمَنْ ترك التوسُّع في هذه المباحات، وتقلَّل منها، فهو زاهد، ولا شكَّ أن مَن كان بهذه المثابة، فإنه يكون قد ترك المكروهات والمشتبِهات، فضلًا عن المحرَّمات.

ثانيًا: أن الزهد من باب الترك المجرَّد، وعدم الرَّغْبة، لكن ليس له موقفٌ يوجِبُ النُّفْرة من هذا الذي زَهِدَ فيه، فهو لا يتوسَّع في المباحات، بل يأخذ ما يكفِيهِ من الدنيا دون توسُّع وتعلُّق بها، ودون نُفْرةٍ ومعاداة لها.

وأما الوَرَعُ: فإنه يعني التَّرْك، كما يعني المنافَرة؛ لأن هذا الأمر قد يَضُرُّهُ في الآخرة، يُجافِيهِ ويَنفِرُ منه غاية النفور، فصار الوَرَعُ أبلَغَ من الزهد من هذه الجهة؛ لأن الزهد تَرْكٌ مجرَّد، والورع تَرْكٌ مع نُفُور(٢).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢١)، و«الفوائد» (ص١٧١).

(٢) هذا على ما ذكره بعض العلماء، وقد يُنازَعُ في كون الزُّهْدِ مِن قبيل الترك المجرَّد.

هل الورع أمر سلبي أو إيجابي؟

قد تبيَّن من خلال ما سبق: أن الورع يُوجِب نُفْرة، وهذه النُّفْرة عمل قلبي؛ أي: أن الوَرِعَ قلبه يَنفِرُ ويَنقبِضُ من هذا الشيء ولا يحبُّه، بل يكرهه كراهةً تليق بمثله: إنْ كان محرَّمًا، فإنه يكرهه كراهة المحرَّم، وإنْ كان مكروهًا، فإنه يكرهه كراهة المكروه، وإنْ كان مشتبِهًا، كرهه الكراهة اللائقة به؛ ولهذا نجد من العلماء رحمهم الله من يقول: هذا أَكْرَهُه، أَكْرَهُ كذا؛ وذلك على سبيل التورُّع.

إذنِ؛ الورع ليس أمرًا سلبيًّا، بل هو أمر إيجابي، يُوجِبُ نُفْرةً في القلب، فضلًا عن مجانَبةِ هذا الأمر الذي يُتورَّعُ عنه؛ فلا يسمَّى الشخص وَرِعًا، ولا متورِّعًا، ولا مُتَّقِيًا، إلا إذا وُجِدَ منه الامتناعُ والإمساك الذي هو فِعْلُ ضِدِّ المنهيِّ عنه، إضافةً إلى نُفْرةِ القلب من هذا الشيء، وقد صرَّح بهذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث قال: «فالورَعُ: اجتنابُ الفعل واتقاؤه، والكفُّ والإمساك عنه، والحذَرُ منه؛ وهذا يرجع إلى كراهةِ هذا الشيء، والنُّفْرةِ منه، والبغضِ له؛ وهذا أمر وُجُودي»(١).



(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦١٨)؛ بتصرف.

أهمِّيَّةُ الوَرَع ومنزلته

جاء عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ**»[(١)].

ففي قوله: «فضلُ العلمِ أحبُّ إليَّ مِن فضلِ العبادة»، دليل على أن الاشتغال بالعلمِ الشرعيِّ أفضل مِن الاشتغال بنوافل العبادات.

وفي قوله: «وخيرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ»، دليل على أن الوَرَعَ من أفضل ما تقرَّب به المتقرِّبون إلى الله ﷻ.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ...**»[(٢)].

وجاء عن عائشة رضي الله عنها؛ **أنها قالت**: «إنَّ الناس قد ضيَّعوا أعظَمَ دينهم: الوَرَع»[(٣)].

ويقول الحسن رحمه الله: «ما عبَدَ العابِدون بشيءٍ أفضَلَ مِن تَرْكِ ما نهاهم الله عنه»[(٤)].

---

(١) أخرجه البزار (٢٩٦٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢١١ ـ ٢١٢)، وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٢٩)، والطبراني في «الأوسط» (٩٣٦٠)، والحاكم (١/ ٩٢ ـ ٩٣)، ومن طريقه البيهقي في «المدخل» (٤٥٥)؛ كلُّهم من حديث حُذَيْفة رضي الله عنه. وقد أعلَّه أبو نعيم، والدارقطني، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٩)، وابن حجر في «المطالب العالية» (٢/ ٦٨٣)، وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (١/ ٩٣)، والرباعي الصنعاني في «فتح الغفار» (٦٤٢٥)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٦٨)، وفي الباب: عن سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وابن عمر، وعائشة، وأبي هريرة رضي الله عنهم.
وقد رُوِيَ من كلام مطرِّف بن الشِّخِّير. قال الدارقطني في «العلل» (١٠/ ١٤٦): «الصحيح أنه من قول مُطَرِّف بن الشِّخِّير»، وأقرَّه، انظر للتوسُّع في الكلام على هذه الشواهد: حاشية الفريوائي على «الزهد» لوكيع (٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٣)، و«الضعيفة» (٣٩٣٩ ـ ٣٩٤٣)، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٧)، وحسَّنه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٤٠)، ط. دار العربية، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٦٠٢)، وضعَّفه الدارقطني (٢٦٥)، والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٨٨٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٨)؛ وهذا يُذكَرُ في سياق الكلام على منزلة الورع؛ وإلا فإن جِنْس فِعْل الحسنات أنفع من جنس تَرْك السيئات؛ فالأول من باب الغِذَاء، والثاني من باب الاحتماء، والنفوس إنما خُلِقَت للفعل، لا للترك؛ إذِ الترك مقصود لغيره، من باب تنقية المَحَلِّ، وتخليته. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٥، ١٨٨)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١٢٦).

ويقول أيضًا: «أفضَلُ العلمِ: الورَعُ، والتفكُّر»[١].

وكان طاوس بن كَيْسانَ رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول:** «مثَلُ الإسلام كمثَلِ شَجَرة، فأصلُها الشهادة... وثمَرُها الورَع، لا خيرَ في شَجَرة لا ثمَرَ لها، ولا خير في إنسان لا وَرَعَ له»[٢].

ويقول خالد بن مَعْدَان: «مَن لم يكنْ له حِلْمٌ يَضبِطُ به جهله، وورَعٌ يَحجِزُهُ عمَّا حرَّم الله عليه، وحُسْنُ صَحَابةِ مَن يَصحَبُهُ، فلا حاجة لله فيه»[٣].

فهذا وغيره مما يَدُلُّ على أن للوَرَع مَنزِلةً عالية عند الله تبارك وتعالى، وسيأتي مزيد إيضاح لذلك عند الكلام على ثَمَراتِ الوَرَعِ وآثاره، بإذن الله تعالى.



(١) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (١١٩)؛ واللفظ له، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٦٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٧٣).

(٣) المصدر السابق (٣٢).

الوَرَعُ فِي الكتابِ والسُّنَّة

عن النعمان بن بَشِير رضي الله تعالى عنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

فالنبيُّ ﷺ جعل القسمة ثلاثية:

أولًا: الحلال البيِّن الذي لا خفاءَ فيه.

وثانيًا: الحرام البيِّن الذي لا شُبْهَةَ فيه.

وثالثًا: المشتَبِهُ الذي يخفى على كثيرٍ من الناس، فيتردَّدُون في حُكْمه.

وهذا معرفته ومعرفة حكمه هو الفقه؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «ليس العاقل الذي يَعلَمُ الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يَعلَمُ خير الخَيْرَيْنِ وشرَّ الشَّرَّيْنِ»(٢).

وقال أيضًا: «وتمامُ الوَرَعِ أن يعلم الإنسان خير الخيرَيْن وشر الشَّرَّيْن، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها»(٣).

والحقيقة: أنَّ الوَرَعَ إنما هو مجانَبة المحرَّمات والمُشتَبِهات، وهذا المشتَبِه كالسِّيَاج على الحرام، والحرامُ من ورائه، والبُعْدُ عن هذا المشتَبِه طريق للخلاص من الحرام، والوقوعُ في هذه المشتَبِهات، والخوضُ فيها، واقتحامُها، سببٌ أكيد في الوقوع في الحرام؛ كما قال النبي ﷺ: «**كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أو: يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ**».

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)؛ واللفظ له.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٥٤)؛ وقد رُوِيَ نحو هذا عن عمرو بن العاص، وسفيان بن عيينة، والشافعي. انظر: «المجالسة» (٦٧٠)، و«حلية الأولياء» (٨/ ٣٣٩)، (٩/ ١٣٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥١٢).

وقد أوضحَتْ هذا المعنى إحدى روايات البخاري لهذا الحديث؛ وفيها: «**فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ، كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ، أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، وَالمَعَاصِي حِمَى اللهِ؛ مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكْ أَنْ يُوَاقِعَهُ**»(١).

ومما يؤكِّد هذا المعنى قول النبي ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»(٢).

وقد سأل النَّوَّاسُ بن سَمْعَانَ الأنصاريُّ رسولَ الله ﷺ عن البرِّ والإثم، فقال: «**البِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»(٣)؛ أي: أنه أورَثَ تردُّدًا ورِيبةً وانقباضًا.

فلو كان حلالًا صِرْفًا، فإنه لا يَحِيكُ في الصدر، ولا يَتَلَجْلَجُ فيه، ولا يكره الإنسان أن يُطَّلَعَ عليه، إنما يتردَّد في النَّفْس ما كان مشتبِهًا، فيكره الإنسانُ أن يَطَّلِعَ الناس عليه، ويخشى أن يكون من الحرام.

فينبغي أن تُزَمَّ النفوس بهذا الزِّمام، وأن تنضبِطَ بهذا الضابط: ما حاك في النَّفْسِ، فهو من الإثم، كما صرَّح النبي ﷺ؛ فالوَرَعُ اجتنَابُهُ، وتركه، والتباعُدُ عنه.

فهذان الحديثان يَجعَلان من فِطْرة الإنسان مقياسًا في معرِفة الخير والشر عند الاشتباه؛ ليتجنَّب مواطِنَ الخطر، ومواقِعَ حدود الله ﷻ؛ **وهذا له علامتان:**

الأولى: عدم الارتياح النفسي، والانقباضُ والتردُّد.

الثانية: كراهية اطلاع الناس، فيُخفِي ذلك، ويتحاشى أنظارهم، فلا يفعل ذلك أمامهم، أو حيث يَطَّلِعون عليه؛ وقد جاء عن وابِصَة بن مَعْبَدٍ، قال: جئتُ إلى رسول الله ﷺ أسأَلُهُ عن البرِّ والإثْم، فقال: «**جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ البِرِّ وَالإِثْمِ؟**»، فقلتُ: والذي بعثَكَ بالحقِّ ما جِئْتُكَ أسأَلُكَ عَنْ غيره، فقال: «**البِرُّ: مَا انْشَرَحَ لَهُ صَدْرُكَ،**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١)؛ من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما. قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٣٣٣): «لا بأس به»، وصحَّحه الترمذي، وابن خزيمة (٢٣٤٨)، وابن حبان (٧٢٢)، والحاكم (٢/ ١٣)، والذهبي، وأحمد شاكر في «التعليق على المسند» (١٧٢٣)، والألباني في «الإرواء» (١٢، ٢٠٧٤). وفي الباب: عن أنس، وابن عمر، وأبي هريرة، وواثلة بن الأسقع، وغيرهم، رضي الله عنهم. انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص٢٠٠ - ٢٠١)، و«المقاصد الحسنة» (ص٢١٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وإِنْ أَفْتَاكَ عَنْهُ النَّاسُ»[1].

«البِرُّ: ما انشرَحَ له صَدْرُك»؛ لا تجد مَعَرَّةً فيه ولا انقباضًا، ولا تردُّدًا ولا تَحَرُّجًا، «والإثم: ما حاك في صدرك وإنْ أفتاك عنه الناس».

ومن يتأمَّل أحوال الناس اليوم يجد كثيرًا منهم يبحثون عن فتوى تبيح لهم ما تهواه نفوسهم، ثم يقفون عند ذلك تعلُّقًا بهذه الفتوى!

وهذا في الواقع لا يُبيحُ محرَّمًا، ولا يحرِّمُ حَلَالًا؛ فإن الحلال ما أحلَّه الله، والحرامَ ما حرَّمه الله، والفتوى لا تغيِّرُ الحكم في نفس الأمر مهما أفتاك الناس؛ فإنَّ الحكم عند الله ثابت، لا تغيِّره فُتْيَا المُفْتِين.

فيجب على العبد أن يحتاط لدينه، وأن يَبحَثَ عند السؤال عن الأَعْلَم والأَوْرَع من المفتين، لا أن يبحث في القضايا المالية عمَّن يرخِّص له، وفي قضايا الشهوات الأخرى عمَّن يُبِيحُ له ما تشتهيه نفسه من المعازف أو التبرُّج، إلى غير ذلك.

فالحكم لا يتغيَّر بالفتوى، ولا تَبْرَأُ الذمَّة إلا ببذل الوسع في التحرِّي عمن يستفتيه مِن حيثُ الوَرَعُ، فإذا بَذَلْتَ الوسع، وتحرَّيْتَ وسَأَلْتَ من تعتقِدُ فيه الديانة، مع توافُر العِلْمِ والمُكْنة من الفتيا بشروطها ـ: بَرِئَتْ ذِمَّتُك، أَمَّا أن يسأل الإنسان كيفما اتفق، ويبحث عمن يحلِّل له ما يهواه، فإنَّ هذا لا يُخْرِجُه من العُهْدة، ولا يَسْلَمُ معه من التَّبِعة.

وثَمَّةَ آخرون لهم شأن آخر، فهم يتورَّعون ـ تورُّعًا فاسدًا ـ عن السؤال؛ لئلا يتورَّطوا بجواب يُوقِعهم في الحَرَج، فيقولُ أحدهم: لا تسأل، لا تبحث، لا تراجع فتسمع ما تكره!

يريدون مِن الإنسان أن يَنْساق مع عَمَاهُ وجهلِه، وراء هَوَاهُ وغيِّه، ويظنُّون بهذا أنهم يَسْلَمُون من التَّبِعة، والواقع أنهم لا يَسْلَمُونَ بذلك بحال من الأحوال.

فيجب على المسلِم أن يسأل، وأن يبحث عن العلم في مظانِّه؛ فالنبي ﷺ يقول: «البِرُّ: مَا انْشَرَحَ لَهُ صَدْرُكَ، وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَإِنْ أَفْتَاكَ عَنْهُ النَّاسُ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٢٨)، وضعَّفه ابن رجب في «شرح الأربعين» (ص٤٧٤)، والهيثمي في «المجمع» (١/ ١٧٥)، وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (١٧٣٤)، والنووي في «الأربعين» (٢٧)، والألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٣٤).

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وقَالَ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّماء: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَام؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!**»[١].

فهؤلاء الذين لا يأكلون الطيِّبات هم الذين لا يتورَّعُونَ في المكاسب، وإنما يَعُدُّون الحلال ما حَلَّ في اليد من أي وجه جاء، دون أن يفتِّشُوا أو ينظُرُوا في وجوه مكاسبهم.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ**»[٢].

وجاء في حديث آخر: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي المَرْءُ بما أَخَذَ المَالَ: أَمِنَ حَلَالٍ أَمْ مِنَ حَرَام!**»[٣].

وهذا مِن دلائلِ نبوَّته ﷺ؛ فإنَّ زماننا شاهِدٌ بما أخبَرَ به ﷺ.



---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٢٨، ٣٥٢٩)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٤٤٤٩، ٤٤٥٠)، وابن ماجه (٢١٣١، ٢٢٩٢)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبان (٤٢٦٠، ٤٢٦١)، والحاكم (٢/٤٦)، والذهبي، والألباني في «الجامع» (٢٢٠٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٨٣)؛ مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأمور التي يدور عليها الوَرَع

وأعني بذلك: ما للوَرَع فيه مدخل صحيح؛ **وهو أربعة أمور**:

أولًا: ترك المحرَّمات، وفعل الواجبات:

فيجب على كل إنسان أن يَتَّقي ما حرَّم الله ﷻ، ويأتي بما أوجَبَ عليه.

ثانيًا: ترك المكروهات:

ومعلوم أن المكروه: ما نهى الشارع عنه لا على سبيل الحَتْمِ والإلزام؛ ولا يعاقَبُ الإنسان على فِعْله، لكنه يثاب إذا تركه امتثالًا؛ فالشارع لم يسوِّ بينه وبين المباح، وإنما هو مرتبة بين الحرام والمُبَاح، وهذه المرتبة أعلى من مرتبة تَرْكِ المحرَّمات، مع فعل الواجبات فقطْ.

ثالثًا: فِعْلُ ما يُشَكُّ في وجوبه، وتَرْكُ ما يُشَكُّ في تحريمه، إضافة إلى ما سبق:

فهذا لم يثبُتْ فيه أنه من المكروهات، ولكنه حصَلَ عنده فيه شيء من التردُّد، وانقبضت نفسه منه؛ فالورَعُ أن يُجانِبه، ويتباعَدَ عنه، ما لم يكن ذلك التردُّد من قبيل التكلُّف أو الوسوسة؛ وهذه المرتبة أعلى مما قبلها.

رابعًا: وهو رأس هذا السُّلَّم؛ وهو تَرْكُ فضول المُبَاحِ خشيةَ الوقوع في المكروه أو الحرام:

وهنا أذكِّرُ بما أشرت إليه من الضابط الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يُترَكُ وما يُفعَلُ: فالواجبات يجب أن تُفعَل، والمحرَّماتُ يجب أن تُترَك؛ وهذا ورَعٌ واجب.

وأما الوَرَعُ المستحَبّ، فهو **على ثلاث مراتب**:

الأولى: ترك المكروهات، وفعل المستحبَّات.

الثانية: أن تفعل ما يُشَكُّ في وجوبه احتياطًا، وأن تترُكَ ما يُشَكُّ في تحريمه احتياطًا.

الثالثة: أن تترُكَ فضول المباح التي يُخشَى أن تجرَّ إلى الحرام، بشرط ألَّا يكون في

الفعل أو الترك مفسَدةٌ أعظم، أو تفويتُ مصلحة أكبر؛ وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ**؛ في بيان نوع الورع المشروع الذي بُعِثَ به محمد** ﷺ: «هو اتقاء ما يُخَافُ أن يكون سببًا للذمِّ والعذاب عند عدم المعارِضِ الراجح، ويدخُلُ في ذلك أداء الواجبات والمشتبِهاتِ التي تُشبِهُ الواجب، وترك المحرَّمات والمشتبِهات التي تُشبِهُ الحرام، وإن أُدخِلَتْ فيها المكروهات، قلت: نخاف أن يكون سببًا للنقص والعذاب.

وأما الورَعُ الواجب: فهو اتقاء ما يكونُ سببًا للذمِّ والعذاب، وهو فعلُ الواجب وترك المحرَّم. والفرق بينهما فيما اشتَبَهَ: أَمِنَ الواجب هو أم ليس منه؟ وما اشتبَهَ تحريمُهُ: أمِنَ المحرَّم أم ليس منه؟»[(١)].

فصار الورع من حيث الوجوبُ وعدمُه ينقسِمُ إلى قسمين: وَرَعٍ واجب؛ وهو ترك الحرام وفعل الواجبات، ووَرَعٍ مستحَبٍّ؛ وهو ثلاث درجات ومراتب.

وقد أوضح هذا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ **في موضع آخر؛ حيث قال**: «الورَعُ المشروع هو الورع عمَّا قد تخاف عاقبته، وهو ما يُعلَمُ تحريمه، وما يُشَكُّ في تحريمه، وليس في تركه مفسدة أعظَمُ مِن فِعْلِه... وكذلك مِن الورَعِ: الاحتياطُ بفعل ما يُشَكُّ في وجوبه، لكنْ على هذا الوجه»[(٢)].

وقال في موضع آخر: «أمَّا الورع: فإنه الإمساك عما قد يضُرّ، فتدخُلُ فيه المحرَّمات والشُّبُهات؛ لأنها قد تضر؛ فإنه من اتقى الشبهات، استبرَأَ لعرضه ودينه»[(٣)].

وقال في موضع آخر أيضًا: «وإنما ذلك عائدٌ إلى ترك المحرَّمات والمكروهات وفضولِ المباحَات»[(٤)].



(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٣٧ ـ ١٣٨).
(٢) المصدر السابق (١٠/ ٥١١ ـ ٥١٢).
(٣) المصدر السابق (١٠/ ٦١٥).
(٤) المصدر السابق (٢٠/ ١٣١).

ما لا مَدخَلَ للورَع فيه

لا مدخل للورع فيما لا مضرَّةَ فيه، أو كان فيه مضرَّةٌ قليلة مرجوحة، ويَقترِنُ بها منافع عظيمة، تُهدَرُ في جانبها تلك المضرَّة اليسيرة، وقد أشار الشاطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّه لا توجد مصلحة خالصة مِن كلِّ وجه، كما أنه لا تُوجَدُ مفسدة خالصة من كل وجه في هذه الحياة الدنيا، وإنما العِبْرةُ بما غلَبَ[(١)]:

فعلى سبيل المثال: لحومُ الأبقارِ لا تخلو من ضرَر؛ فإن النبي ﷺ يقول: «**أَلْبَانُهَا شِفَاءٌ، وَسَمْنُهَا دَوَاءٌ، وَلُحُومُهَا دَاءٌ**»[(٢)]، ومع ذلك: فالنفع الذي فيها أعظم من هذا الضرر؛ لذلك صارت من الطيِّباتِ المباحِ أكلُها؛ كما بيَّن الله ﷻ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وكذلك أيضًا: ما أخبر عنه ربُّنا ﷻ فيما غلَبَ ضرَرُهُ على نَفْعِه بقوله: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ فالخمر فيها منافِعُ؛ فالجَبَانُ يتشجَّعُ بها للحرب، والبخيلُ يجودُ بماله إذا شَرِبَها، فإذا أفاقَ نَدِم، فمع وجود بعض المنافع فيها، إلا أنه يُوجَدُ فيها مفاسِدُ أعظم، يكفي أنها تَذهَبُ بالعقول، فتجعل الإنسان في حكم المَجَانِين.

وعلى العكس من ذلك: يُوجَدُ ما ترجَّح مصلحته على مفسدته؛ كما في زراعة

---

(١) انظر: «الموافقات» (٢/ ٤٤).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٥/ ٤٢)، (٧٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣٤٥)؛ من حديث مُلَيْكة الجُعْفِيَّة، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٥٥٥)، عن مُلَيْكة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأخرجه الحاكم (٤/ ٤٠٤)؛ من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن حديث صهيب الخير؛ أخرجه أبو نعيم في «الطب» (٣٢٥)، والحديث صحَّحه الحاكم، وتعقَّبه الذهبي، والزركشي في «اللآلئ المنثورة» (١٢٩)، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (٨٥٤)، و«الفتاوى الحديثيَّة» (٢٥)؛ إلا أنه قال في حديث مُلَيْكة: «رجاله ثقات؛ لكن الرواية عن مليكة لم تُسَمَّ، وقد وصَفَها الراوي عنها زهير بن معاوية، أحد الحفَّاظ بالصدق، وأنها امرأته، وذِكْرُ أبي داود له في مراسيله لتوقُّفه في صحبة مُلَيْكة ظنًّا، وقد جزم بصحَّتها جماعة، وله شواهد»، وقال ابن القيِّم في «زاد المعاد» (٤/ ٢٩٨) بعد أن أورده من حديث صهيب الخير: «لا يثبُتُ ما في هذا الإسناد». وصحَّحه من حديث مُلَيكة الألباني في «الصحيحة» (١٥٣٣)، و«الجامع الصغير» (١٢٣٣).

العنب؛ فإنَّ فيها مصالح كثيرة جدًّا، وفيها مفسدة يسيرة، وهي أن العِنَبَ قد يُعصَرُ خمرًا، ولكنْ هذا قليل بالنسبة لِعِظَمِ مصالح العنب ومنافعها؛ كما قال في «مَرَاقي السعود»[(١)]:

وانْظُرْ تَدَلِّيَ دَوَالِي الْعِنَبِ   فِي كُلِّ مَشْرِقٍ وَكُلِّ مَغْرِبِ

أي: لم يحرِّمها الشارع، بل تُزرَعُ بلا غضاضة ولا حَرَج ولا إثم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «وأما الوَرَعُ عمَّا لا مضرَّة فيه، أو فيه مضرَّةٌ مرجوحة لِمَا تَقترِن به من جلبِ منفعةٍ راجحة، أو دفع مضرَّةٍ أخرى راجحة ـ: فجهلٌ وظلم؛ وذلك يتضمَّن ثلاثة أقسام لا يُتورَّع عنها: المنافع المكافِئة، والراجحة، والخالصة؛ كالمباح المحض، أو المستحبّ، أو الواجب؛ فإن الورَعَ عنها ضلالة»[(٢)].

وقال في موضع آخر: «أمَّا ما لا ريبَ في حلِّه، فليس تركُهُ من الوَرَع، وما لا ريب في سقوطه، فليس فعله من الوَرَع»[(٣)].

يعني: أن بعض الناس قد يترُكُ أشياء، ويقول: مِن باب الاحتياطِ والورع؛ خشية أن يكون هذا محرَّمًا، أو مكروهًا، أو من فضول المباحات، مع أنه من المعلوم قطعًا أنه واجبٌ مثلًا أو مستحَبٌّ، وأيضًا: لو ورد ذلك في حديث موضوع، فيأتي إنسانٌ فيقول: مِن بابِ الورَعِ أريدُ أن أَفعَلَ هذه العبادة التي ورَدَتْ في هذا الحديث، فيقال له: لا يجوزُ لك أن تفعل ذلك، وليس الوَرَعُ في فعله.

وهنا قاعدة نافعة ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يحسُنُ أن تُحفَظَ، يقول:

«الواجبات والمستحَبَّات لا يصلُحُ فيها زهد ولا وَرَع، وأمَّا المحرَّمات والمكروهات، فيصلُحُ فيها الزهد والورع، وأمَّا المباحات، فيصلُحُ فيها الزهد دون الورَع»[(٤)].

والمرادُ: أنه لا يُتورَّعُ في ترك واجب أو مستحب؛ كما لا ورَعَ في جنس المباح، وإنما فيه الزهد.



---

(١) رقم (٨٤٢).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦١٥ ـ ٦١٦).
(٣) المصدر السابق (٢٠/ ١٣٨).
(٤) المصدر السابق (١٠/ ٦١٩).

مراتب الوَرَع

قسَّم بعضهم الوَرَعَ إلى ثلاث مراتب[(١)]:

الأولى: **الورَعُ الواجب**؛ وهو اجتناب المحرَّم؛ وهذا يجبُ على جميع الناس.

الثانية: **المندوب**؛ وهو الوقوف عند المشتبِه؛ وهذا لأوسط الناس في العبوديَّة.

الثالثة: **وهي درَجَةُ السابق إلى الخيراتِ التي قد بلَغَ بها أعلى الكَمَالاتِ**؛ وهو الكف عن كثير من المباحَات التي يُخشَى أن تجرَّه إلى المحرَّمات، أو إلى المكروهات.

ومِن هذا النوع ما جاء عن قَزَعَة؛ قال: «رأيت على ابن عمر ثيابًا خَشِنة، فقلت له: يا أبا عبد الرحمٰن، إني قد أتيتُكَ بثوب لَيِّنٍ مما يُصنَعُ بخراسان وتَقَرُّ عيناي أن أراه عليك؛ فإنَّ عليك ثيابًا خَشِنة، فقال: أَرِنيهِ، فلمَسَهُ بيده، وقال: أحريرٌ هذا؟ قلت: لا؛ إنه من القُطْن، قال: إني أخاف أن أَلْبَسَهُ، أخاف أن أكون مختالًا فخورًا»[(٢)].

وهذا يعني: أن المَلَابِس والمَرَاكِب التي يَجِدُ الإنسان من نفسه إذا رَكِبَها أو لَبِسَها زَهْوًا وغرورًا وتعاليًا على الناس، فمُقتضَى الورع أن يتجنَّبه؛ لأن الغرور والزَّهْوَ والإعجاب بالنَّفْسِ أمر محرَّم، فالورَعُ تجنُّب ذلك، مع أن هذا الثوب اللَّيِّن والمَرْكَب الجيِّد مباحان.

وقد روى ابن عمر نفسه عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ تَعَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»[(٣)].

وفي ذلك يقول بِشْر بن الحارث رَحِمَهُ اللهُ: «ما ينبغي للرجُلِ أن يَشبَعَ اليومَ مِن الحلال؛ لأنه إذا شَبِعَ من الحلال، دَعَتْهُ نفسه إلى الحرام»[(٤)].

---

(١) كما فعل ذلك الراغب الأصفهاني في «الذريعة، إلى مكارم الشريعة» (ص٢٢٧).

(٢) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في «زوائده على الزهد» (ص١٩٣)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٠٢)؛ واللفظ له.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١١٨)، وصحَّحه الحاكم (١/ ٦٠)، والألباني في «الصحيحة» (٥٤٣).

(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٣١)؛ رواية المَرُّوذِي.

ومن لطيف ما حدَّث به ابن القيِّم عن شيخ الإسلام رحمهما الله؛ أنه قال له في شيء من المباح: «هذا ينافي المُراتِبَ العالية، وإنْ لم يكن تَرْكُهُ شرطًا في النجاة»(١).

فللَّه دَرُّ تلك الهمم العَلِيَّة! لا قناعة لها إلا بالمراتب السَّنِيَّة؛ لم تقنع بترك الحرام حتى جَانَبَتْهُ وحِمَاهُ من المباح، ثم رَبَأَتْ بنفسها عن مباح يقعُدُ بها عن درجة أعلى؛ فهذا لمثلها تركه أولى.

ومعلوم أن اللباس الفاخر أمرٌ مباحٌ ما لم يصل إلى حد الإسراف والتبذير، لكنْ مَن ترَكَ رفيعَ اللِّبَاسِ تواضعًا لله، وهو يَقدِرُ عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيَّرَ من أي حُلَلِ الإيمانِ شاء يَلبَسُها؛ كما صح عن النبي ﷺ(٢).

فهل يليق بإنسان عُرِفَ بالعبادة والزهد أن يَلبَسَ بأغلى الأثمان أغلى الأقمشة؟! ويهتم بالتفصيل عند أبرع الخيَّاطين؟! فحِلْيَةُ هذا الزاهد، أو العالم، أو العابد: البَذَاذةُ، والبَذَاذةُ هي خلاف الهيئة الرفيعة في المظهر واللباس.

وليس معناها أن يكون الثوب مُتَّسِخًا، وإنما يلبس لباسًا نظيفًا، يصلُحُ لمثله؛ فإنَّ «**البَذَاذةَ من الإيمان**»(٣).

ومع أن لبس رفيع الثياب أمرٌ مباحٌ لا إشكال فيه، ولكنْ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله عن بعض المُبَاحِ بأنه: «يُنافِي المراتب العالية، وإنْ لم يكن تركه شرطًا في النجاة»(٤).

وقسَّم بعضهم الوَرَعَ أربعة أقسام(٥):

الأول: ورَعُ العَدْلِ؛ وهو الورع عما يُوجِبُ فعلُهُ فسق صاحبه، وإذا تركه، ثبتت عدالته، وهو الوقوع في الأمور المحرَّمة التي تُوجِبُ سقوط العدالة، والحكمَ بالفسق؛ فهذا وَرَعُ العدول، ومَن واقع شيئًا مِن ذلك، فهو متوعَّدٌ بالعقوبة.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٨١)، وحسَّنه، والألباني في «الصحيحة» (٧١٨)، وصحَّحه الحاكم (١/ ٦١، ٤/ ١٨٣)، والذهبي.

(٣) أخرجه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)؛ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وضعَّفه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ١٢)، وحسَّنه العراقي في «أماليه» ـ كما نقل ذلك المناوي في «فيض القدير» (٣/ ٢١٧) ـ وصحَّحه ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٣٨١)، والألباني في «الصحيحة» (٣٤٣).

(٤) مضى قريبًا.

(٥) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (١١٤ ـ ١١٥).

الثاني: **وَرَعُ الصالحين**؛ وهو الورَعُ عما يُشتَبَهُ في حُرْمَته.

الثالث: **ورع المتقين**؛ وهو تَرْكُ بعض الأمور المباحة التي يخشى أن تجرَّه إلى الحرام.

الرابع: **ورَعُ الصِّدِّيقين**؛ وهو الورَعُ عن كل ما ليس لله تعالى.



مراتب الناس في الورع

كما أن الوَرَعُ على مراتب، فكذلك الناس فيه على مراتب:

فمنهم: مَن انخرَمَ ورَعُهُ، وصار مُواقِعًا لما حرَّم الله ﷻ؛ كأكل الربا، والنوم عن الصلاة، فلا يصلِّي الفَجْرَ إلا بعد طلوع الشمس، ويترك صلاة الجماعة؛ فهذا يحتاج إلى ورَعٍ واجِبٍ بفعل الواجب، وتَرْك المحرَّم.

ومنهم: مَن لزم الوَرَعَ الواجب؛ فجاء بالواجب، وترك المحرَّم، ولكنه إذا اشتَبَهَ عليه أمر، لم يترُكْهُ، بل يدقِّقُ يسأل: أحرام هو؟ والمفتي قد لا يستطِيعُ أن يفتي بحرمته، بل يقول: دعه، أكره لك هذا، لا يعجبني فعله، أو يقول له في شيء يشتَبِهُ في وجوبه: الأحوط أن تفعله؛ لأنه قد يكون واجبًا، ولكنه يقفُ ويسأل: هل هو واجب؟ فلا يريد أن يفعل ما زاد عن الواجب، ولا يريد أن يترُكَ سوى المحرَّم.

فمثل هذا يكون من المقتصِدين؛ والله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]؛ **وهم هذه الأمَّة على طوائفها الثلاث**:

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ وهو مَن وقع في بعضِ الحرام، أو ترَكَ بعض الواجب.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ وهو مَن لزم الواجب، وترَكَ المحرَّم، دون فعل المستحَبّ، أو اجتناب المكروه أو المُتشابِه.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ وهذا هو الذي ترَكَ الحرام، وترك المكروه والمُشتبِه، وفعَلَ الواجب والمستحبّ.

فهذه مراتبُ الناس في هذا الباب؛ ولهذا فإنَّ أحكامهم تتفاوَتُ ـ بناء على ذلك ـ غايةَ التفاوت، وهذه المسألة مفيدة، ويحتاج إلى معرفتها الإنسان الذي يفعل المحرَّم، ويترك بعض الواجبات:

وذلك كمَن يُفطِر بعض الأيَّام من رمضان من غير عذر، ثم هو يسأَلُ عن صيام الستِّ مِن شوال!

وكمَن يقصِّر في إخراج الزكاة المفروضة، وهو مع ذلك يتصدَّق.

وكمَن يَقترِفُ المحرَّمات الواضحة، ثم يتورَّع عن بعض الأمور المُشتبِهة؛ وهذا تناقض!

وكمَن يبدأ عَمَلُهُ من الساعة السابعة إلى الساعة الواحدة، أو إلى الثانية ظهرًا، ولا يحضُرُ إلا الساعة التاسعة أو العاشرة!

وطبيعةُ العمل فيها: حضور وانصراف، لا يَحِقُّ له أن يخرُجَ إلا بإذن، ومع ذلك يخرج ويرجع، مِن غير أن يشعُرَ به أحد، ولربما غابَتِ المعلِّمة واحتسَبَتْ لها المديرة حضور هذه الأيام، وقد يكون ذلك عن تواطُؤٍ معها؛ كأن تتفق معها على توقيع الحضور والانصراف قبل الذَّهَاب، ومع ذلك قد تجد هذه المعلِّمة أو المعلِّم، أو الموظَّف يتحرَّجُ أن يكتب بقلم المكتب، أو يتحرَّج أن يأخُذَ ورقة من المكتب لمصلحة لا تتعلَّق بطبيعة العمل؛ فهذا ورَعٌ بارد!

فالإنسان الذي يفعل المحرَّمات، أو يترُكُ الواجبات، لا يصلح له أن يتورَّعَ عن المكروهات والمُشتبِهات؛ فمثل هذا «كمثَلِ رجلٍ زنى بامرأة فأحبَلَها، فقيل له: لِمَ لَمْ تَعزِلْ؟ فقال: بلغني أنَّ العَزْلَ مَكرُوه! فقيل له: وما بلغَكَ أن الزِّنا حرام؟!»[(١)].

يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن التدقيق في التوقُّف عن الشُّبُهات إنما يصلُحُ لمن استقامت أحوالُهُ كلُّها، وتشابهت أعماله في التقوى والوَرَع، فأمَّا مَن يقع في انتهاك المحرَّمات الظاهرة، ثم يريد أن يتورَّعَ عن شيء مِن دقائقِ الشُّبَهِ، فإنه لا يُحتَمَلُ له ذلك، بل يُنكَرُ عليه»[(٢)].

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **مصوِّرًا هذا المعنى في بيان مراتب الناس، وأنه قد يصلُحُ لهذا ما لا يصلُحُ لآخر**: «كنا نَضحَكُ ونمزح، فلما صِرْنا يُقتدَى بنا، خَشِيتُ ألَّا يسعنا التبسُّمُ»[(٣)].

لكنْ يقال: هديُ النبيِّ ﷺ أولى؛ فقد كان يبتسِمُ ويضحك مع أصحابه.

ولعل الأوزاعي أراد أن يبيِّنَ أن المفاكَهةَ والضَّحِكَ ممَّا يفعله الإنسان عادة، ولكنه قد يصل إلى مرتبة يترُكُ بعض ذلك حفظًا وصيانةً لمرتبته؛ فلا ينبسِطُ في هذه الأمور انبساط مَن لم يبلُغْ تلك المرتبة، فيكون فيه شيء من الحِشْمة والوَقَار، ويطالَبُ بشيء من ذلك مطالَبةً لا تكون لغيره.

ولهذا تكلَّم الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)] عن الإغراق في المباحات؛ ككثرة التنزُّهِ والذَّهَابِ إلى البساتين والحدائق وأماكن اللهو والتَّرْفِيه، وأن اعتياد ذلك يُنْسَبُ صاحبه إلى قلَّة

---

(١) «تلبيس إبليس» (ص٤٠٢).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٢٠٤).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٤٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٥/ ٢٠٦)؛ واللفظ له.
(٤) انظر: «الموافقات» (١/ ٢٠٩).

العقل، مع أنه لم يفعل شيئًا محرَّمًا، لكنه أكثَرَ مِن اللعب والتنزُّه في البساتين؛ فهذا الإكثار لا يصلُحُ له.

كما نبَّه في موضع آخر على أن «رفيعَ المَنصِبِ مطالَبٌ بما يَقتضِي مَنصِبُهُ»(١)؛ كما قيل: «على قَدْرِ المَقَام، يكون المَلَام».

ومِن لطائف هذا المعنى: «أن رجلًا سأل بِشْرًا رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: إنَّ أمي تأمُرُني أن أطلِّقَ امرأتي، هل أُطِيعُها في ذلك؟ فقال: إنْ كان بَرَّ أُمَّهُ في كلِّ شيءٍ، ولم يَبْقَ عليه مِن بِرِّها إلَّا طلاقُ زوجتِهِ، فلْيَفْعَلْ.

وسُئِلَ الإمام أحمد عن رجل يشتري بقلًا، ويشترِطُ الخُوصَةَ التي يُربَطُ بها البقل؟ فقال: أَيْشٍ هذه المسائل؟! قيل له: إنه إبراهيم بن أبي نُعَيْم ـ فذكروا له رجلًا غاية في الوَرَع؛ يترُكُ المحرَّمات، ويفعَلُ الواجبات، ويحتاطُ غاية الاحتياط ـ فقال: إنْ كان إبراهيمَ بنَ أبي نُعَيْم، فنَعَمْ؛ هذا يُشبِهُ ذاك»(٢).

فإبراهيم بن أبي نُعَيْم وصل إلى مرتبة عالية ما بَقِيَ إلا أن يسأل عن الخُوصَة.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما أنكَرَ هذه المسائل ممَّن لا يُشبِهُ حاله، وأما أهل التدقيق في الوَرَع، فيشبه حالهم هذا، وقد كان الإمام أحمد نفسه يستعمِلُ في نفسه هذا الورع؛ فإنه أمَرَ مَن يشتري له سمنًا، فجاء به على ورقة، فأمَرَ بردِّ الورقة إلى البائع، وكان الإمام أحمَدُ لا يَستمِدُّ مِن مَحَابِرِ أصحابه، وإنما يُخرِجُ معه مَحْبَرَتَهُ يستمِدُّ منها، واستأذَنَهُ رجل أن يكتب من مَحْبَرَتِه، فقال له: اكتب؛ فهذا ورَعٌ مُظلِم. واستأذنه آخر في ذلك، فتبسَّم، فقال: لم يبلُغْ ورَعِي ولا ورَعُكَ هذا.

وهذا قاله على وجه التواضُع؛ وإلَّا فقد كان في نفسه يستعمِلُ هذا الوَرَع، وكان ينكِرُهُ على مَن لم يَصِلْ إلى هذا المقام، بل يتسامَحُ في المكروهات الظاهرة، ويُقدِمُ على الشبهات مِن غير توقُّف»(٣).

فالوَرَعُ كما أنَّه حِلْية وزينة إلَّا أنه أحيانًا يكون شَيْنًا في حق بعض الناس:

ومِن هذا: ما جاء عن ابن أبي نُعْم؛ قال: كنتُ عند ابن عمر، فسأله رجلٌ عن دم البعوض، فقال: ممَّن أنت؟ قال: مِن أهلِ العراق، قال: انظُرُوا إلى هذا، يسألني عن دم البعوض، وقد قتَلُوا ابن رسول ﷺ؟! وقد سمعتُ رسول ﷺ يقول: «**هُمَا رَيْحَانَتَايَ**

(١) المصدر السابق (٤/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠).

(٢) ما بين الأقواس منقول من: «جامع العلوم والحكم» (ص٢٠٤)؛ بتصرف.

(٣) المصدر السابق (ص٢٠٤ ـ ٢٠٥).

مِنَ الدُّنْيَا[(١)]»[(٢)].

وكذلك: خبَرُ الخوارج لما أتَوْا على نخل، فتناوَلَ رجل منهم تَمْرة؛ فأقبَلَ عليه أصحابه، فقالوا له: أَخَذْتَ تَمْرةً مِن تَمْرِ أهلِ العَهْد، وأتوا على خنزير، فنَفَخَهُ رجلٌ منهم بالسيف، فأقبَلَ عليه أصحابه، فقالوا له: قتَلْتَ خنزيرًا من خنازير أهل العهد، فقال عبد الله ـ بن خَبَّاب ـ: ألا أُخبِرُكم مَن هو أعظَمُ عليكم حقًّا من هذا؟ قالوا: مَن؟ قال: أنا، ما ترَكْتُ صلاة، ولا تركتُ كذا، ولا تركتُ كذا؛ فقتلوه[(٣)].



(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٧٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٤/ ١٣٠)؛ واللفظ له.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢١/ ٤٥٠).

فِقْهُ الوَرَع

ما أحوَجَ الورَعَ إلى فِقْه! فإنَّ الإنسان قد يتورَّع فيُورِثُهُ ذلك تكلُّفًا، بل قد يُوقِعه في أمور لا يحلُّ له أن يقع فيها، وهو في زعمه يريد التورُّع، فيكون ورَعُهُ فاسدًا ـ كما سبق ـ فإذا تقرَّر ذلك، فلْيُعْلَمْ أن فقه الورَعِ **ينبني على أمور**:

أولًا: التوسُّط والاعتدال:

والحقُّ وسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، والنبي ﷺ كان في غاية الاعتدال؛ ولهذا فإن مَن تكلَّم في الورَع، وشدَّد فيه، وحثَّ عليه، فإنه يستشهِدُ بأشياءَ عن رسول الله ﷺ؛ كما سيأتي في تورُّعه عن أكل التَّمْرة التي خشي أن تكون من تَمْرِ الصدقة، ومَن لم يَرَ مشروعيَّة التورُّع في بعض الأشياء، ويسَّر في ذلك، فإنه يستشهِدُ أيضًا بأشياءَ فعَلَها رسول الله ﷺ؛ فقد كانت حاله ﷺ في غاية التوسُّط؛ كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)].

ثانيًا: مَعْرِفةُ خيرِ الخيرَيْن، وشرَّ الشرَّيْن:

وقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «تمامُ الورَعِ: أن يَعلَمَ الإنسانُ خيرَ الخيرَيْن، وشرَّ الشرَّيْن، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ وإلَّا فمَن لم يوازِنْ ما في العمل والترك من المصلحة الشرعيَّة، والمفسدة الشرعيَّة، فقد يَدَعُ واجبات، ويفعل محرَّمات، ويرى ذلك مِن الوَرَع؛ كمن يَدَعُ الجهاد مع الأمراء الظَّلَمة، ويَرَى ذلك وَرَعًا، ويدَعُ الجُمُعةَ والجماعة خلف الأئمَّة الذين فيهم بِدْعةٌ أو فجور، ويَرَى ذلك من الورع، ويمتنِعُ عن قَبُولِ شهادة الصادق، وأخذِ عِلْم العالم؛ لما في صاحبه مِن بِدْعةٍ خَفِيَّة، ويرى ترك قَبُولِ سماع هذا الحق الذي يجبُ سماعه من الوَرَع»[(٢)].

ومثَّل على ذلك أيضًا في موضع آخر بـ«مَن يترُكُ أخذ الشُّبْهةِ وَرَعًا، مع حاجته إليها، ويأخذ بدَلَ ذلك محرَّمًا بيِّنًا تحريمه، أو يترك واجبًا تركُهُ أعظَمُ فسادًا من فِعْلِهِ مع الشبهة؛ كمَن يكونُ على أبيه، أو عليه ديونٌ، هو مطالَبٌ بها، وليس له وفاءٌ إلا مِن

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص٥١٨).
(٢) تقدم.

مالٍ فيه شُبْهة، فيتورَّعُ عنها، ويَدَعُ ذِمَّتَهُ، أو ذِمَّةَ أبيه مرتَهَنَة»[(١)].

كما ذكر نَمُوذَجًا لهذا الورع الفاسد عن شيخ مِن شيوخ الرافضة، فقال: «قيل لبعض شيوخ الرافضة: إذا جاء الكفَّار إلى بلادنا، فقتَلُوا النفوس، وسَبَوُا الحَرِيم، وأخذوا الأموال؛ هل نقاتِلُهم؟ فقال: لا، المذهَبُ: أنَّا لا نغزو إلا مع المعصوم، فقال ذلك المستفتي ـ مع عامِّيَّتِه ـ: واللهِ، إنَّ هذا لمذهَبَ نَجِسٌ؛ فإنَّ هذا المذهبَ يفضي إلى فساد الدِّين والدنيا»[(٢)].

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وصاحبُ هذا القول تورَّع فيما يظنُّه ظلمًا؛ فوقع في أضعاف ما تورَّع عنه بهذا الورَعِ الفاسد؛ وأين ظُلْمُ بعض ولاة الأمور مِن استيلاء الكفَّار، بل مِن استيلاء مَن هو أظلم منه؛ فالأقلُّ ظلمًا ينبغي أن يُعاوَنَ على الأكثر ظلمًا؛ فإنَّ الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ بحسَبِ الإمكان، ومعرفةِ خيرِ الخيرَيْن، وشر الشرَّيْن، حتى يقدَّم عند التزاحم خيرُ الخيرَيْن، ويُدفَعَ شرُّ الشرَّيْن، ومعلوم أن شر الكفار والمرتدِّين والخوارج أعظَمُ من شر الظالم»[(٣)].

وهذا له أمثلة كثيرة جِدًّا:

فلو أن أحدًا مِن هؤلاء المتورِّعِين أشرَفَ على الهَلَكةِ مِن الجوع، فوجَدَ طعامًا لغيره، فقال: لا آكُلُ مِن هذا الطعام، ولا أشرَبُ من هذا الشراب؛ لأنه مالٌ محترَم، له مالك، فلا يحلُّ لي، فتركه حتى مات: فإنه بذلك يكون آثمًا؛ فقد تسبَّب في قتل نفسه؛ وهذا من الوَرَعِ الفاسد؛ فليس في كل الحالات يحسُنُ الوَرَعُ.

وقد روى البيهقي بإسناد صحيح، عن مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ**؛ قال**: «مَن اضطُرَّ إلى المَيْتةِ والدم ولحمِ الخنزيرِ، فلم يأكُلْ ولم يَشرَبْ، حتى يموتَ، دخَلَ النارَ»[(٤)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو أن إنسانًا جاع فلم يأكُلْ، أو احتاج فلم يسأل، أو عَرِيَ فلم يَلْبَسْ، فماتَ، دخَلَ النارَ»[(٥)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وانتفاءُ الإرادة إنما يصلُحُ فيما ليس فيه منفعة خالصة، أو راجحة، وأمَّا وجود الكَرَاهة، فإنما يصلُحُ فيما فيه مضرَّةٌ خالصة، أو راجحة، فأمَّا إذا فُرِضَ ما لا منفعة فيه ولا مضرَّة، أو منفعَتُهُ ومضرَّته سواءٌ من كل

(١) «جامع الرسائل» (٢/ ١٤١).

(٢) «منهاج السُّنَّة النبوية» (٦/ ١١٨).

(٣) المصدر السابق (٦/ ١١٨).

(٤) أخرجه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (٩/ ٣٥٧)، ونسبه ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «عدة الصابرين» (ص٥٤) إلى طاوس، والإمام أحمد.

(٥) «صفة الصفوة» (١/ ٢٨).

وجه، فهذا لا يصلُحُ أن يُراد، ولا يصلُحُ أن يُكرَه، فيصلُحُ فيه الزهد، ولا يصلُحُ فيه الورع.

فظهَرَ بذلك: أن كل ما يصلُحُ فيه الوَرَع، يصلُحُ فيه الزهد، مِن غير عكس، وهذا بيِّن؛ فإنَّ ما صَلُحَ أن يُكرَهَ ويُنفَرَ عنه، صَلُحَ ألا يُرادَ ولا يُرغَبَ فيه؛ فإنَّ عدم الإرادة أولى من وجود الكراهة، ووجود الكراهة مستلزِمٌ عدَمَ الإرادة، من غير عكس، وليس كلُّ ما صَلُحَ ألَّا يُرادَ يصلُحُ أن يُكرَهَ، بل قد يَعرِضُ من الأمور ما لا تصلُحُ إرادته ولا كراهته، ولا حبُّه ولا بغضه، ولا الأمر به ولا النهي عنه.

وبهذا يتبيَّنُ: أن الواجبات والمستحبَّات لا يصلُحُ فيها زهد ولا وَرَع، وأمَّا المحرَّمات والمكروهات، فيصلُحُ فيها الزهد والورع، وأمَّا المباحات، فيصلُحُ فيها الزهد دون الوَرَع؛ وهذا القَدْر ظاهر، تَعرِفه بأدنى تأمُّل.

وإنما الشأن فيما إذا تعارَضَ في الفعل؛ هل هو مأمور به، أو منهيٌّ عنه، أو مباح؟ وفيما إذا اقترَنَ بما جنسه مباح ما يَجعَلُهُ مأمورًا به، أو منهيًّا عنه، أو اقترَنَ بالمأمور به ما يجعله منهيًّا عنه، وبالعكس؛ فعند اجتماع المصالح والمفاسد، والمنافع والمَضَارِّ، وتعارُضِها: يُحتاجُ إلى الفُرْقان»[(١)].

ثم يقول في شرح الضابط الذي أشَرْتُ إليه سابقًا: «وقولي: عندَ عدَم المعارِضِ الراجِحِ، فإنه قد لا يتركُ الحرامَ البيِّنَ أو المشتبِهَ، إلا عند تركِ ما هو حسنةٌ موقعُها في الشريعة أعظمُ مِن ترك تلك السيِّئة؛ مثلُ مَن يترُكُ الائتمام بالإمام الفاسق، فيترُكُ الجمعة والجماعة والحجَّ والغزو، وكذلك قد لا يؤدِّي الواجبَ البيِّنَ أو المشتبِهَ إلا بفعل سيئةٍ أعظَمَ إثمًا من تركِه؛ مثلُ مَن لا يمكنُهُ أداءُ الواجباتِ من الأمر بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكَرِ لذوي السلطان إلا بقتالٍ فيه من الفساد أعظمُ مِن فساد ظُلْمِه.

والأصلُ في الورع المشتبِهِ: قولُ النبيِّ ﷺ: «**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ عِرْضَهُ وَدِينَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ**»[(٢)]... وقولُهُ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»[(٣)]، وقولُهُ: «**الْبِرُّ: مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَسَكَنَ إِلَيْهِ الْقَلْبُ**»[(٤)]، وقولُهُ: «**الْبِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ، وَالْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي**

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦١٨ ـ ٦١٩).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.

نَفْسِكَ؛ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ»[١]، وأنه رأى عَلَى فِرَاشِهِ تَمْرة، فقال: «**لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، لَأَكَلْتُهَا**»[٢]. . .

لكنْ يقعُ الغلطُ في الوَرَعِ من ثلاث جهات:

أحدُها: اعتقادُ كثيرٍ من الناس أنه من باب التَّرْك؛ فلا يَرَوْنَ الورَعَ إلا في تركِ الحرام، لا في أداء الواجب، وهذا يُبتَلى به كثيرٌ من المتديِّنة المتورِّعة؛ ترى أحدهم يتورَّع عن الكلمة الكاذبة، وعن الدِّرْهَم فيه شبهة؛ لكونه مِن مال ظالم أو معامَلة فاسدة، ويتورَّعُ عن الركون إلى الظَّلَمة من أهل البِدَع في الدِّين وذوي الفجور في الدنيا، ومع هذا: يترُكُ أمورًا واجبة عليه؛ إما عينًا، وإمَّا كفاية، وقد تعيَّنت عليه؛ مِن صلةِ رَحِم، وحقِّ جارٍ ومسكين؛ وصاحبٍ ويتيم وابن سبيل، وحقِّ مسلم وذي سلطان وذي علم، وعن أمرٍ بمعروف ونهيٍ عن منكَر»[٣].

وهذا أمر يغفُلُ عنه كثير من الناس.

إِذَنْ: لا بد مِن النظر في المصالح والمفاسد، والموازَنة بينهما؛ فمتى رجَحَتْ كِفَّةُ المصلحة في الأمر، فعلناه، ومتى رجَحَتْ كِفَّةُ المفسدة، تركناه؛ وهذا هو الفقه في هذا الباب.

ثالثًا: **مراعاة مراتب الناس**: وقد أشَرْتُ إلى هذا المعنى سابقًا.



---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٣٢)؛ واللفظ له، ومسلم (١٠٧١)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٠/١٣٨ ـ ١٤٠)؛ باختصار.

الوَرَعُ الفَاسِدُ

وهو ما اشتبَهَ على كثير من الناس؛ لقلَّة العلم، وفساد التصوُّر، وإنما يكون مبنى التعقُّل في الأمور جميعًا على صحَّة التصوُّر؛ ولذلك فإنه لما فسَدَتِ التصوُّرات لدى المنافقين، رأَوُا المنكَرَ معروفًا، والمعروفَ منكَرًا.

والمقصود: أن الإخلال بالأُسُسِ والمقوِّماتِ الثلاثة التي ذكَرْناها عند الكلام على فقه الورَعِ يُوقِعُ في الورع الفاسد ـ ولا بُدَّ ـ بأنواعه المختلِفة؛ **وإليك أربعةً منها**:

الأوَّل: ما التبَسَ فيه الورَعُ بغيره مما يُذَمُّ:

حيث يُظهِرُ أنه متورِّعٌ ومتحرِّجٌ ومتحرِّزٌ من هذا الشيء، والواقع: أن هذا مِن قبيل الضعف أو غير ذلك مما يَرجِعُ إلى صفات النَّفْسِ وأحوالها؛ كمَن يقال له: هناك منكَرٌ في السُّوق، ويجب عليك أن تُنكِره؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يغيِّر هذا المنكر إلا مَنْ كان في مرتبتك أنت! فيقول: الأسواق فيها فِتْنة، ويَغرِزُ الشيطان فيها رايته، فلا أعرِّضُ نفسي لفتنة! فنقول: هذا ورَعٌ فاسد.

وقد قال شيخ الإسلام مقرِّرًا هذا المعنى، ضمن كلامه على صفة الخوارج الذين أمَرَ النبيُّ ﷺ بقتالهم: «وهؤلاءِ أمَرَ النبيُّ ﷺ بقتالهم؛ لأن معهم دِينًا فاسدًا لا يصلُحُ به دنيا ولا آخرة...

كثيرًا ما يشتبِه الوَرَعُ الفاسِدُ بالجُبْنِ والبخل؛ فإنَّ كلاهما فيه ترك، فيشتبِهُ ترك الفساد لخشية الله تعالى بترك ما يُؤمَرُ به من الجهاد والنفقة جبنًا وبخلًا؛ وقد قال النبي ﷺ: «**شَرُّ مَا فِي المَرْءِ: شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ**»[(١)]...

كذلك: قد يترُكُ الإنسان العمل ظَنًّا أو إظهارًا أنه وَرِعٌ؛ وإنما هو كِبْرٌ وإرادةٌ للعُلُوّ»[(٢)].

وأوضح مِن ذلك كلِّه: ما أخبَرَ الله تعالى به في كتابه عن عُذْرِ بعض المنافقين في

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١١)، وصحَّحه ابن حبان (٣٢٥٠)، وشيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٣٧)، وأحمد شاكر في تخريج «المسند» (٧٩٩٧)، والألباني في «الصحيحة» (٥٦٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٩١).

تخلُّفه عن غزوة تبوك: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ﴾ [التوبة: ٤٩].

ومِن ذلك أيضًا: ما يراه بعض الفقهاء من أنه لا يجوز التصدُّقُ على الفقير في المسجد[١]؛ فلو جاء إنسان وليس ممَّن يعتقِدُ هذا، ورأى إنسانًا فقيرًا، فلم يتصدَّقْ عليه بخلًا، وقال معلِّلًا فِعْلَهُ: إنَّ بعض الفقهاء يمنع الصدقة عليه؛ ومِن ثَمَّ: فأنا أتورَّعُ عن الصدقة؛ فقد فسَّر بخلَهُ بهذا التفسير، وخرَّجه بهذا التخريج؛ فإنَّ ورعه يُعَدُّ من الورَعِ الفاسد.

الثاني: التورُّعُ عن أمور فعلها النبيُّ ﷺ:

كالذي يتورَّع عن أكل الحَلْوَى، أو عن الزواج؛ معلِّلًا ذلك بأن الزواج مَشْغَلةٌ، والأولاد فِتْنة.

فهذا التحرُّجُ من الأمور التي رخَّص فيها النبيُّ ﷺ يُعَدُّ من الاعتداء في الورَع[٢]؛ وهو أمر محرَّم؛ فلا يجوز أن يتحرَّج، أو يتورَّع، أو يتنزَّه عن أشياءَ فعَلَها أفضل الخلق وأتقاهم وأشدُّهم لله خشية؛ فعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: صنَعَ النبيُّ ﷺ شيئًا، فرَخَّصَ فيه، فتَنَزَّهَ عنه قومٌ، فبلَغَ ذلك النبيَّ ﷺ، فخَطَبَ، فحَمِدَ اللهَ، ثم قال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيءِ أَصْنَعُهُ؟! فَوَاللهِ، إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»[٣].

الثالث: ما بُنِيَ على أصلٍ فَاسِدٍ[٤]:

فمِن ذلك: أنَّ بعض الفقهاء وضَعَ قاعدةً فاسدة، وهي أنَّ الحلال في تلك الأزمان ـ التي قرَّروا فيها قاعدتهم ـ متعذِّرٌ، وأن الحرام قد أطبَقَ على الدنيا؛ فلا سبيل إلى الكسب الحلال؛ وإنما يأخُذُ الناس من هذا الحرام بقَدْرِ الضرورة، فانتهَكُوا حدود الله عز وجل ومحارمه، وجانبوا الوَرَعَ مجانَبةً تامَّةً، والواقع خلاف ذلك، وكان بعض أهل العلم يحضُّ على كسب الحلال، ويحذِّر من الوسوسة فيه، وكثرة البحث، ويَرُدُّ على مَن قال: إنَّه قد انقطع، ويستدِلُّ على بقاء الحلال بقول النبي ﷺ:

(١) «الآداب الشرعية»، لابن مُفلِح (٣/ ٣٨٥).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٤٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦١٠١)؛ واللفظ له، ومسلم (٢٣٥٦).
(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٩/ ٣١٢ ـ ٣١٣).

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ»[(١)]؛ فيقول: «لو لم يأكُلُوا الحلالَ، ما كانوا على الحَقّ»[(٢)].

ثم إن الأصل في معامَلاتِ المسلمين الحِلّ، ولا يَنتقِضُ هذا الأصل أبدًا إلا في صُوَرٍ مخصوصة دلَّ الدليلُ على منعها وتحريمها.

وقد بيَّن ابن قُدَامةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يَصِحُّ «إثباتُ حكم يخالِفُ الأصلَ بغير نصٍّ ولا إجماعٍ ولا قياسٍ صحيح»[(٣)].

الرابع: ما كان على سبيل المبالَغةِ والغلوِّ، والتنطُّعِ والوسوسة:

وقد نبَّه على ذلك ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ، وذكَرَ بعض أمثلته المَعِيبَةِ، فقال: «وأمَّا تعريض الأمر والنهي للتشديد الغالي، فهو كمَن يتوسوَسُ في الوضوء متغاليًا فيه حتى يفوتَ الوقت، أو يردِّدُ تكبيرة الإحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة، أو يكاد تفوته الركعة، أو يتشدَّدُ في الورَعِ الغالي حتى لا يأكُلَ شيئًا من طعامِ عامَّةِ المسلمين؛ خشية دخول الشُّبُهات عليه.

ولقد دخل هذا الورَعُ الفاسد على بعض العُبَّادِ الذين نقَصَ حظُّهم من العلم؛ حتى امتنَعَ أن يأكُلَ شيئًا من بلاد الإسلام، وكان يتقوَّتُ بما يُحمَلُ إليه من بلاد النصارى، ويَبعَثُ بالقصد لتحصيل ذلك! فأوقعه الجهل المُفرِطُ والغُلُوُّ الزائد في إساءةِ الظنِّ بالمسلِمين، وحُسْنِ الظنِّ بالنصارى؛ نعوذ بالله من الخذلان!».

ثم عقَّب على ذلك بقوله: «فحقيقةُ التعظيم للأمر والنهي: ألَّا يُعارَضَا بترخُّصٍ جافٍ، ولا يُعَرَّضا لتشديدٍ غالٍ؛ فإنَّ المقصود هو الصراط المستقيم الموصِّل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بسالكه، وما أمَرَ الله عَزَّوَجَلَّ بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نَزْغَتانِ: إمَّا تقصيرٌ وتفريط، وإمَّا إفراطٌ وغلوٌّ؛ فلا يبالي بما ظَفِرَ مِن العبد من الخطيئتَيْنِ؛ فإنه يأتي إلى قلب العبد فيستامه:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١)؛ مِن حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (١٩٢٠)؛ واللفظ له؛ مِن حديث ثَوْبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد رُوِيَ من حديث أبي هريرة، وجابر، ومعاوية، وزيد بن الأرقم، وعمران بن حُصَيْن، وجابر بن سمرة، وأبي أمامة، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وبعضها في «الصحيحَيْن». انظر: «الصحيحة» (٢٧٠)، و(١٩٥٥ ـ ١٩٦٢).

(٢) انظر: كتاب «نشر المثاني، في أعلام القرن الحاديَ عشَرَ والثاني»، ترجمة محمد الكبير السرغيني.

(٣) «المغني» (٦/ ٦٦).

فإنْ وجَدَ فيه تقصيرًا وفتورًا وتوانيًا وترخيصًا، أخذَهُ من هذا الخُطَّة، فثبَّطه وأقعَدَه، وضرَبَهُ بالكسل والتواني والفتور، وفتَحَ له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترَكَ العبدُ المأمورَ جملة.

وإنْ وجَدَ عنده حَذَرًا وجِدًّا، وتشميرًا ونهضة، وأَيِسَ أن يأخذه من هذا الباب، أمره بالاجتهاد الزائد، وسوَّل له أن هذا لا يكفيك، وهِمَّتُكَ فوق هذا، وينبغي لك أن تزيدَ على العامِلين، وألَّا ترقُدَ إذا رقَدُوا، ولا تُفطِرَ إذا أفطَرُوا، وألا تفتُرَ إذا فتَرُوا، وإذا غسَلَ أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرَّات، فاغسِلْ أنت سبعًا، وإذا توضَّأ للصلاة، فاغتسِلْ أنت لها، ونحو ذلك مِن الإفراط والتعدِّي؛ فيَحمِلُهُ على الغلوِّ والمجاوَزةِ وتعدِّي الصراطِ المستقيم؛ كما يحمل الأوَّلَ على التقصير دونه وألَّا يَقرَبَهُ»[(١)].

وقد مثَّل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ **لِوَرَعِ الموسوِسِينَ، فقال**: «كمَن يَمتنِعُ من أَكْلِ الصيدِ خشيةَ أن يكون الصيدُ كان لإنسانٍ، ثم أَفْلَتَ منه، وكمَن يترُكُ شراء ما يحتاج إليه مِن مجهول لا يدري أَمَالُهُ حلال أم حرام»[(٢)].

ولا شك أن هذا من التنطُّع في الدِّينِ الذي يَهلِكُ به صاحبه.

وقد كان النبي ﷺ يعامِلُ اليهود، ومات ودِرْعُهُ مرهونةٌ عند يهودي[(٣)]، وهو يعلم أنهم لا يتحرَّجُونَ من الربا والكَسْبِ الحرام.

ويقول أسعد بن زِيَاد عن شيخه الداوُودِيِّ[(٤)]: «بقي أربعينَ سنةً لا يأكُلُ لحمًا وَقْتَ تشويشِ التُّرْكُمان، واختلاط النَّهْب، فأضَرَّ به، فكان يأكُلُ السمك، ويُصطادُ له مِن نهرٍ كبير؛ فحُكِيَ له أن بعض الأمراء أكَلَ على حافَّةِ ذلك النَّهْر، ونُفِضَتْ سُفْرَتُهُ وما فضَلَ في النهر، فما أكَلَ السمكَ بعدُ»[(٥)].

وهذا من الوَرَعِ المتنطَّع فيه، والمتكلَّف.

ومِن فقهِ الإمام البخاريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه ذكَرَ في كتاب البيوع مِن «صحيحه»: «بابٌ: الحلالُ بَيِّنٌ، والحَرَامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ»[(٦)]، وأخرَجَ فيه حديثَ النعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) «الوابل الصيِّب» (٢٨ ـ ٣٠).
(٢) «فتح الباري» (٤/ ٣٤٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢٩١٦، ٤٤٦٧)؛ من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٤) المتوفى سنة سبعٍ وستِّين وأربعمائة.
(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٢٤).
(٦) «صحيح البخاري» (٢/ ٥).

ثم تَرجَمَ للباب الذي بعده بقوله: «بابُ: ما يُتَنَزَّهُ مِن الشُّبُهَاتِ»[(١)]، وأخرَجَ فيه حديثَيْنِ في تنزُّه النبيِّ ﷺ عن تمرةٍ خشيةَ أن تكون مِن تَمْرِ الصدقة.

ثم ذكر بعد ذلك بابًا ترجَمَ له بقوله: «بابُ: مَن لَمْ يَرَ الوَسَاوِسَ ونحوَها مِن الشُّبُهاتِ»[(٢)]، وأخرَجَ فيه حديثَ عبَّاد بن تَمِيم عن عمِّه في قطع الصلاة حالَ الشكِّ في انتقاض الطهارة، وحديثَ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في جوابِه ﷺ لِمَن سألوه عن اللحم الذي يأتيهم ولا يَعلَمُونَ أذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه أم لا؟



---

(١) «صحيح البخاري» (٢/ ٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢/ ٧).

الطريق إلى تحقيق الوَرَع

الورَعُ كغيره من الأعمال والعبادات التي تحتاج إلى توطينِ النَّفْسِ وتهيئتها للتحلِّي بهذه الخَصْلة الحميدة؛ وذلك يحصُلُ بأمور، **منها**:

أولًا: أن تَجعَلَ بينك وبين الحرام سُتْرةً مِن الحلال:

كما قال بعض السلف: «ما ينبغي للرجُلِ أن يَشبَعَ اليوم من الحلال؛ لأنه إذا شَبِعَ مِن الحلال، دَعَتْهُ نفسُهُ إلى الحرام»[(١)].

وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه **يقول**: «تمامُ التقوى: أن يَتَّقِيَ اللهَ العبدُ حتى يتَّقيه في مثقال ذرَّة، حتى يترُكَ بعض ما يرى أنه حلالٌ؛ خشيةَ أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام»[(٢)].

ولهذا كان ابن عمر رضي الله عنهما **يقول**: «إني لَأُحِبُّ أن أدَعَ بيني وبين الحرامِ سُتْرَةً من الحلال، ولا أَخرِمها»[(٣)].

وكان بعضهم يقول: «كنا ندَعُ سبعين بابًا مِن الحلال؛ مَخافةَ أن نقَعَ في الحرام»[(٤)].

وجاء عن ميمون بن مِهْران رحمه الله؛ **أنه قال**: «لا يَسلَمُ للرجلِ الحلالُ حتى يجعل بينه وبين الحرامِ حاجزًا من الحلال»[(٥)].

وقال سفيان بن عُيَيْنة رحمه الله: «لا يصيبُ العبدُ حقيقةَ الإيمان حتى يَجعَلَ بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال، وحتَّى يدَعَ الإثمَ وما تشابَهَ»[(٦)].

وقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «**إنَّ الحلال حيث يُخشَى أن يؤولَ فِعْلُهُ مطلَقًا إلى مكروهٍ أو محرَّمٍ، ينبغي اجتنابُهُ**، كالإكثار مثلًا من الطيِّبات؛ فإنه يُحوِجُ إلى كثرةِ

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٣١)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٢) أخرجه نعيم بن حمَّاد في «زياداته على كتاب الزهد» (٧٩)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٢).
(٣) «الورع» للمَرْوَزي (١٧٨).
(٤) «الرسالة القشيريَّة» (١/ ٢٣٣)؛ ونسبه لأبي بكر رضي الله عنه.
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٨٤).
(٦) أخرجه أحمد في «الورع» (٤٣٩)؛ رواية المَرُّوذِي، واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٨٨).

الاكتسابِ الموقِع في أخذِ ما لا يُستحَقُّ، أو يُفضِي إلى بَطَرِ النفس، وأقلُّ ما فيه: الاشتغالُ عن مواقفِ العبوديَّة؛ وهذا معلوم بالعادَة، مشاهَدٌ بالعِيَان»(١).

ويقول بعضهم: «المكروهُ: عقَبَةٌ بين العبد والحرام؛ فمَن استكثَرَ من المكروه، تطرَّق إلى الحرام، والمباحُ: عقَبَةٌ بينه وبين المكروه؛ فمَن استكثَرَ منه، تطرَّق إلى المكروه»(٢).

ثانيًا: إذا رابَك شيءٌ، فدَعْه:

وهذا أمر في غاية السهولة؛ **ولهذا قال حسَّان بن أبي سِنَان** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ شيئًا أهوَنَ مِن الورَع؛ دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ»(٣).

وهكذا قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ أسهَلَ مِن الوَرَع؛ ما حاك في نفسِكَ، تَرَكْتَهُ»(٤).

وقال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ اللَّهُ: «لي أربعونَ سَنَةً ما حاك في صدري شيءٌ إلا تركتُهُ»(٥).

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**البِرُّ: مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ، وَالإِثْمُ: مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ**»(٦).

ويقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إيَّاكم وحزائِزَ القلوب، وما حَزَّ في قلبِكَ مِن شيء، فدَعْهُ»(٧).

وحزائزُ القلوب: هي الأمور التي تتردَّدُ في النفس: «**الإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ**»(٨).

(١) «فتح الباري» (١/ ١٥٥).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٥٥).
(٣) ذكره البخاري في «صحيحه» تعليقًا (٢/ ٥).
(٤) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٣٥)؛ ونقله في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٤).
(٦) أخرجه أحمد (١٧٧٤٢)؛ من حديث أبي ثعلبة الخُشَني، وجوَّد إسناده المنذري في «الترغيب» (٢/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨)، وابن رجب في «الجامع» (ص٤٧٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٧٦): «رجاله ثقات»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٧٧).
(٧) علَّقه أحمد في «الورع» (١٦٤)؛ رواية المرُّوذي، ووصَلَهُ أبو داود في «الزهد» (١٣٢)؛ واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٤٩ ـ ١٥٠/ ٨٧٤٨ ـ ٨٧٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٥)، وصحَّحه ابن رجب في «جامع العلوم» (ص٤٧٦)، والألباني بنحوه في تحقيق «صفة الفتوى»، لابن حَمْدان (ص٥٦).
(٨) تقدم تخريجه.

ثالثًا: محاسَبة النَّفْس:

فلا يتكلَّم إلا ولسانه بين يدي عقلِه، لا تخرُجُ كلمةٌ مِن فيه إلا وهو يَخطِمُها، ولا يَعمَلُ عملًا إلا وهو ينظُرُ فيه؛ كيف هو؟ وماذا قصد به؟ ولا يترُكُ شيئًا كان يَعمَلُهُ إلا وهو يسأل نفسه: لِمَ تركْتُهُ وقد كنتُ أعمله؟ ولِمَ عَمِلْتُهُ وقد بان لي تركه؟ وقد رُوِيَ عن أمير المؤمنين عُمَرَ رضي الله عنه؛ قال: «حاسِبُوا أنفُسَكم قبل أن تحاسَبُوا، وزِنُوا أنفُسَكم قبل أن تُوزَنُوا؛ فإنَّه أَهْوَنُ عليكم في الحسابِ غدًا أنْ تُحاسِبُوا أنفُسَكم اليومَ»[(١)].

قال أبو جعفر العَبَّادَاني: «ينبغي للرجلِ أن ينظُرَ رَغِيفَهُ مِن أين هو؟ ودِرْهَمَهُ مِن أين هو؟»[(٢)].

ويقول بشر الحافي: «ينبغي للرجلِ أن ينظُرَ خُبْزَهُ مِن أين هو؟ ومسكَنَهُ الذي سَكَنَهُ أصله مِن أَيْشٍ هو؟ ثم يتكلَّم»[(٣)].

ويقول الحسن: «إن أيسَرَ الناس حسابًا يوم القيامة الذين حاسَبُوا أنفُسَهم لله في الدنيا؛ فوقَفُوا عند همومهم وأعمالهم؛ فإنْ كان الذي هَمُّوا لهم، مَضَوْا، وإنْ كان عليهم، أَمْسَكُوا، وإنما يثقُلُ الحساب يوم القيامة على الذين جازَفُوا الأمر في الدنيا، أخَذُوها مِن غير محاسَبةٍ؛ فوجَدُوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذَّرِّ، وقرأ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]»[(٤)].

رابعًا: إحياءُ الشعورِ بأهمِّيَّة الورع:

فربَّما كان الناس في غَفْلة عنه، وعن عظيم مكانته، وحَمِيدِ عاقبته، فإذا أُثِيرَ وبُحِثَ فيه، فاح أَرِيجُه؛ فأحسَّت به النفوس، ووُجِدَتِ الدواعي إلى تحقيقِه، والتضوُّعُ بأَرِيجِه.

وفي الحثِّ على الورع، وتقريبِهِ للأفهام بالمثال، وإحياءِ الشعور بأهمِّيته؛ يقول أبو

---

(١) ذكره الترمذي في «جامعه» (٢٤٥٩)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠٦)، وابن أبي شيبة (٣٤٤٥٩)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص١٢٠)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النَّفْس» (٢)، والدينوري في «المجالسة» (١٢٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٢)؛ واللفظ له. قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٦١٨): «أثر مشهور؛ وفيه انقطاع»، وقال الألباني في «الضعيفة» (١٢٠١): «إسناده جيِّد في «حلية الأولياء»؛ إنْ كان ثابت سمعه من عمر».

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٨)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٣) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٧)؛ رواية المَرُّوذِي؛ واللفظ له، والبيهقي في «الزهد» (٩١٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٥١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٩٦)؛ واللفظ له.

حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَوَدِدتُّ أنَّ أحدَكم يتقي على دِينِهِ؛ كما يتقي على نَعْلِه»[1].

فربما احتاط الرجل لنَعْلِهِ وثوبِهِ ما لا يحتاط لدينِهِ في كثير من الأحيان.

وهذا الضَّحَّاك بن عثمان يقول: «أَدْرَكْتُ الناس وهم يتعلَّمون الوَرَع، وهم اليوم يتعلَّمون الكلامَ[2]»[3].

خامسًا: تحقيق اليقين:

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ مِن حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ؛ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا؛ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ**»[4].

فإذا أيقَنَ العبد أن رزقه قد كُتِبَ في اللَّوْح المحفوظ، وقدَّره الله له قبل أن يخلُقَ السمٰوات والأرض بخمسينَ ألفَ سَنَة، كما أن الله أرسَلَ إليه مَلَكًا بعد ما تَمَّ له أربعةُ أشهر، وأمَرَهُ بأربع كلمات، ومنها: كَتْبُ رِزْقه، فإذا كان كذلك، فلماذا يَجترِئُ العبدُ على المكاسب المحرَّمة، أو المشتَبِهة؟!

فإنَّ ما كتبه الله لك فسيأتي قطعًا لا محالة، فإنِ استعجَلْتَ، أَخَذْتَهُ بالحرام، وإنْ صبَرْتَ، جاءك عن طريق الحلال؛ فلماذا التهافُتُ على الدنيا؟! ولهذا يقول النبي ﷺ: «**فَاتَّقُوا اللهَ**»؛ أي: دعوا ما حُرِّمَ واشتَبَهَ، «**وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»؛ أي: لا تَتَهَافَتُوا على الدنيا، وتَذهَبْ أنفُسُكم عليها حَسَرات، فليس لكم إلا ما كُتِبَ، وما لم يُكتَبْ لكم؛ فإنه لا يُمكِنُ أن تحصُلُوا عليه[5].

سادسًا: تنمية الخَوْفِ مِن الله تعالى وخشيتِهِ وتعظيمِهِ في النفوس:

فمَن عرَفَ الله، وعرَفَ عظمَتَهُ وقَدْرَه، وقدَّره وعظَّمه وعظَّم حُرُماتِه، احتاط لِدِينِه، فترَكَ ما لا يليق، وجانَبَ ما فيه اشتباه، فضلًا عن المحرَّمات؛ وهذا أمر لا خفاء فيه.

سابعًا: العمَلُ على تحقيق التقوى في النفوس:

فإنَّ التقوى إذا وُجِدَتِ، استقامت أحوالُ الإنسان، فلا يُرَى حيثُ نُهِيَ، ولا يُفقَدُ

---

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٦٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) أي: ما يسمَّى بعلم الكلام.

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٤٠)، وابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٦)؛ واللفظ له.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصحَّحه ابن الجارود (٥٥٦)، والحاكم (٤/ ٣٢٥)، والذهبي والألباني في «الصحيحة» (٢٦٠٧).

(٥) انظر: «الشافي، في شرح مسند الشافعي» (٥/ ٥٤٧).

حيثُ أُمِرَ، وارتقى عالي الدرجات بالتورُّعِ عن المشتبِهات، وإذا ضَعُفَت التقوى، تساهَلَ العبد في اجتراح المنكَرات.

وإنما يتفاوَتُ الناس في مثل هذا بتفاوُتِ ما في قلوبِهم مِن التقوى؛ فالتقوى مِن القلب بمنزِلةِ الماء مِن الأرض، فإذا عُمِّرَ القلبُ بالتقوى، اهتزَّ ورَبَا، وهُزِمَ داعي المعصية وخَبَا، وإذا أجدَبَ منه، غدا هشيمًا تَذرُوهُ الرياح، وضَلَّ صاحبُهُ سبيل الفلاح؛ **ولهذا يقول الحسن** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما زالتِ التقوى بالمُتَّقِينَ، حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافةَ الحرام»(١).

ويقول سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما سُمُّوا المُتَّقِينَ؛ لأنهم اتقَوْا ما لا يُتَّقَى»(٢)؛ يعني: مِن غيرهم.



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا؛ كما في «الدر المنثور» (١/ ١٣٢).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٨٤)، وذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٣).

علامة أهل الوَرَع

إن صاحب الوَرَع يمكن أن يُعرَفَ بأمرٍ واحد، وهو قدرتُهُ على ترك ما فيه مجرَّد الشبهة، أو على فعلِ ما يُمكِنُ أن يكون لازِمًا لمثله.

يقول الخَطَّابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ ما شَكَكْتَ فيه، فالورَعُ اجتنابُه»(١).

فالوَرِعُونَ يكثُرُ حذَرُهم من الحرام، وتضعُفُ جُرْأَتُهم على الإقدام إلى ما قد يَجُرُّ إليه؛ وفي هذا يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ**...»، إلى أن قال ـ كما في بعض الروايات ـ: «**فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ، كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ، أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، وَالمَعَاصِي حِمَى اللهِ؛ مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ**»(٢).



(١) نقله الحافظ في «الفتح» (٤/٣٤٣)، وهو بنحوه في «أعلام الحديث» (٢/٩٩٧).

(٢) تقدم تخريجه.

ثَمَرات الوَرَع، وآثارُهُ السلوكيَّة

للوَرَعِ ثَمَرات وآثار، فمِن ذلك:

أولًا: أنَّ القليل معه كثير:

لأن صاحبه نقيُّ الثوب؛ لاتقائِهِ الأوزار، فلا تدنِّسُهُ المشتبِهاتُ، فهو طيِّب، خفيف الحمل من الذنوب، يترُكُ ما اشتَبَهَ عليه، فضلًا عما تحقَّق تحريمه؛ وبهذا يكون العمل الصالح بالنسبة لمثل هذا ـ وإنْ قَلَّ ـ كثيرًا؛ لأن العِبَرة بالموازَنة؛ فمَن غلَبَتْ حسناتُهُ سيِّئاتِهِ، فقد نجا، ومَن غلَبَتْ سيئاتُهُ حسناتِهِ، فقد هلَك؛ ولهذا قيل: «ويلٌ لمَنْ غلَبَتْ آحادُهُ أعشارَهُ»[(١)]؛ أي: أنَّ الحسَنة بعَشْرِ أمثالها، والسيِّئة بسيِّئة؛ فمَن غلَبَتْ آحادُهُ ـ وهي السيِّئات ـ عَشَراتِه؛ فلا شك أنه مُفلِسٌ خاسر؛ وهذا يدل على أنَّ الحسَنات عنده قليلةٌ مع كثرة السيِّئات.

أمَّا إذا كان الرجل متورِّعًا عن الأمور المشتبِهة، لا يفرِّطُ في أمر الله ﷻ، وإذا حاك في نفسِهِ أمرٌ: هل هو مستحَبٌّ، أو واجب، فعَلَهُ وأتى به؛ إبراءً لذمَّته ـ: فهذا يُرجَى له الفوز والنجاة.

وقد قال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُجزِئُ قليلُ الوَرَعِ عن كثيرِ العمل، ويُجزِئُ قليلُ التواضُعِ عن كثيرِ الاجتهاد»[(٢)].

وجاء عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ؛ قال: «مثقالُ ذَرَّةٍ مِن الوَرَعِ السالم خيرٌ مِن ألفِ مثقالٍ من الصومِ والصلاة»[(٣)].

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَطِبْ مَطْعَمَكَ ولا عليك ألَّا تقومَ مِن الليل، وتصومَ النهار»[(٤)].

---

(١) قد رُوِي مرفوعًا. انظر: «تفسير الثعالبي» (٤/ ٢١١)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٩٠). ورُوِيَ موقوفًا على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٥/ ٢٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٨٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٣)؛ واللفظ له.

(٣) «الرسالة القشيريَّة» (١/ ٢٣٦)؛ ونقله ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (٢٤٦)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٢٨٢).

وجاء رجل إلى العُمَريِّ العابدِ، فقال: عِظْني، فأخذ حَصَاةً من الأرض، فقال: «زِنَةُ هذه من الورع يدخُلُ قلبَكَ خيرٌ لك مِن صلاة أهل الأرض»، قال: زِدْني، قال: «كما تُحِبُّ أن يكونَ الله لك غدًا، فكُنْ له اليومَ»[١].

وقال محمد بن واسع رَحِمَهُ اللهُ: «يكفي مِن الدعاءِ مع الورَعِ: اليسيرُ منه»[٢].

فهذه الآثار جميعًا تدُلُّ على أن الورع سبيل إلى تكثير الأعمال، وتثقيل موازين الحَسَنات؛ لأنَّ كِفَّةَ السيِّئات تكون خاوية.

ثانيًا: أن صاحبه يحصِّلُ الأجور العظيمة عند الله عَزَّ وَجَلَّ:

وقد قيل: «مَن لم ينظُرْ في الدقيق مِن الوَرَع، لم يَصِلْ إلى الجليل مِن العطاء»[٣].

فالله يعطي هؤلاءِ ويُثِيبُهم الثواب الجزيل؛ لأنهم ترَكُوا مشتَهَيَاتهم وما تطمح إليه نفوسُهم، تركوا ذلك لله عَزَّ وَجَلَّ، فعوَّضهم الله تبارك وتعالى خيرًا، وجزاهم الجزاء الأوفى.

ثالثًا: أن ذلك أيسَرُ في حساب العبد:

فإذا تخفَّف العبد من الأمور المشتبِهة، والأمور المحرَّمة؛ فإنَّ ذلك يكون أيسَرَ في حسابه؛ لأنه إنما يكثُرُ الحساب ويطولُ بسببِ كثرةِ ما يقارِفُ العبد من الأمور التي لا ينبغي أن يقَعَ فيها:

وقد قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «مَن لم يَسْتَحِ من الحلال، خَفَّتْ مؤنته، وأراح نَفْسَه، وقَلَّ كِبْرُه»[٤].

ويقول سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «عليك بالزُّهْد، يبصِّرْكَ اللهُ تعالى عَوْراتِ الدنيا، وعليك بالوَرَع، يخفِّفِ الله عَزَّ وَجَلَّ حسابَكَ، ودَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ، وادفَعِ الشك باليقين، يَسْلَمْ لك دِينك»[٥].

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٣)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٦).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٢٤ ـ ٢٢٥)؛ واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (١١٠٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ١٦٥).
(٣) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٣٤)؛ ونقله ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢).
(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧٨)، و«الورع» (٩٢)؛ رواية المَرُّوذِي؛ ومِن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٤)؛ مِن كلام مجاهد، وأخرجه ابن المبارك (٥٩١)؛ ومِن طريقه هنَّاد (٨١٣)؛ كلاهما في «الزهد»، وابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (١٧٧)؛ مِن كلام يزيد بن أبي حَبِيب، وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٦٤٩)، عن بعض الزهَّاد.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٨٣)؛ واللفظ له؛ ومِن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٠)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٨٣)؛ من وجه آخر عن سفيان مطوَّلًا.

رابعًا: أنه يبلُغُ بصاحبِهِ المراتبَ العُلْيا في سُلَّمِ العُبُودِيَّة:

فيكون في أعلى مراتب العابِدِين؛ كما قال النَّضْرُ بن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «نُسُكُ الرجلِ على قَدْرِ ورَعِه»[(١)]؛ فالعبادة على قَدْرِ الوَرَع.

ويقول إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أدرَكَ مَن أدرَكَ إلا مَن كان يَعقِلُ ما يدخُلُ جوفَهُ»[(٢)].

ويقول الفُضَيْل رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن عرَفَ ما يدخُلُ جوفَهُ، كُتِبَ عند الله صِدِّيقًا؛ فانظُرْ عند مَن تُفطِرُ يا مسكين»[(٣)].

ويقول يحيى بن أبي كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول الناس: فلانٌ الناسك، فلانٌ الناسك ـ يعني: العابدَ ـ إنما الناسِكُ الوَرِعُ»[(٤)].

وعن حَبِيب بن صُهَيْب؛ قال: «كان يقال: لا يُعْجِبَنَّكُمْ صيامُ امرئ ولا قيامُه، ولكن انظروا إلى وَرَعِه؛ فإنْ كان وَرِعًا مع ما رزَقَهُ الله من العبادة، فهو عَبْدُ اللهِ حقًّا»[(٥)].

وعن معاوية بن قُرَّة رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال**: دخَلْتُ على الحسن ـ البصري رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وهو متكئ على سريره، فقلتُ: يا أبا سعيد، أيُّ الأعمال أحَبُّ إلى الله؟ قال: الصلاة في جَوْفِ الليل، والناس نيام، قلتُ: فأيُّ الصوم أفضَل؟ قال: في يوم صائف، قلتُ: فأي الرقاب أفضل؟ قال: أنفَسُها عند أهلِها، وأغلاها ثمنًا، قلتُ: فما تقول في الورع؟ قال: «ذلك رأسُ الأمرِ كلِّه»[(٦)].

وقال بعضهم: «لا يبلُغُ العبدُ حقيقةَ الإيمان حتى يكون فيه أربَعُ خصال: أداءُ الفرائضِ بالسُّنَّة، وأكلُ الحلال بالوَرَع، واجتنابُ النهيِ من الظاهر والباطن، والصبرُ على ذلك إلى الموت»[(٧)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٣٨).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٩١)؛ وقد مضى قريبًا بنحوه.
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٣٩٣).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٥٧)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٨).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٥٧)، ط. الدار السلفية، وقد سقط من ط. ابن حزم، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٠٤).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٠)، وبنحوه أحمد في «الزهد» (ص٢٥٩).
(٧) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٩١).

خامسًا: الرِّفْعة وعلوُّ المَنزِلة:

يقول المَرُّوذِيُّ: سمعتُ أبا عبد الله ـ يعني: أحمد بن حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ ـ وذكر ورَعَ ابن المبارَك، فقال: «إنما رفَعَهُ الله بمثلِ هذا»؛ يعني: بالورَع[١].

وقال إبراهيم بن أدهم لشَقِيق البَلْخي: «يا شقيقُ، لم ينبُلْ عندنا مَن نَبُلَ بالحجِّ ولا بالجهاد، وإنما نَبُلَ عندنا مَن نَبُلَ مَن كان يَعقِلُ ما يدخُلُ جَوْفَهُ ـ يعني: الرغيفَيْنِ ـ مِن حِلِّه»[٢].

وقد قيل: «مَن دَقَّ في الدنيا ورَعُه، جَلَّ في القيامةِ خطَرُه»[٣].

والله عَزَّ وَجَلَّ قد رفَعَ أقوامًا بهذا الورَع، فطرَحَ لهم القَبُول، وأحبَّهم الخلق؛ بخلاف مَن تدنَّسوا بأوضار المحرَّمات، وقارَفُوا المشتبِهات؛ فإنَّ ذلك يكون حَطًّا في مرتبتهم.

سادسًا: أنَّ مَن ترَكَ شيئًا للهِ، عوَّضه اللهُ خيرًا منه:

فمَن تورَّع عن بعض ما لا يليق؛ رجاءَ ما عند الله، أو خوفًا منه عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنَّ الله تعالى يعوِّضُهُ ويفيضُ عليه من ألوان النِّعَم والأرزاق والبَرَكات ما لا يُقادِرُ قَدْرَه، **وقد قال بعض أهل العلم**: «لن يَعدَمَ المتورِّعُ عن الحرام فتوحًا من الحلال»[٤].

فإبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ترَكَ الأهل والوطن والعشيرة، واعتزَلَ قومه، وهجَرَهم لله وفي الله، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: ٤٩]؛ فعوَّضه الله عَزَّ وَجَلَّ بالذُّرِّيَّةِ الطيِّبة الصالحة، والتي لها لسانُ صِدْقٍ في العالمين[٥].

سابعًا: أنَّ صاحبه يوفَّقُ للأعمال الصالحة:

لأنه كما قيل: «مَن أكَلَ الحرامَ، عصَتْ جوارِحُهُ؛ شاء أم أبى»[٦].

فأكلُ الحرام يؤثِّرُ في سلوك العبد؛ فيحصُلُ له تمرُّدٌ على العبوديَّة، وخروجٌ عن طَوْرِه، واستشرافٌ لما لا يليق.

---

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٦٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٢٩٥).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢). والمراد بقوله: «خطره»: ارتفاع المكانة والمنزِلة والشرف. انظر: «تهذيب اللغة» (٧/ ١٠٢)، (خ ط ر).

(٤) «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٢٣).

(٥) انظر في هذا المعنى: ما ذكره ابن كَثِير في تفسير الآية (٨٤)، من سورة الأنعام (٣/ ٢٩٧)، و«القواعد الحِسَان» للسعدي: (القاعدة التاسعة والستون: مَن ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه) (ص١٣٦).

(٦) المصدر السابق (٢/ ٩١).

ومَن تورَّع عن الحرام، ضبَطَ جوارحَهُ وأعماله، ومَن كانت طُعْمَتُهُ حلالًا، أطاعَتْهُ جوارحُه، ووُفِّقَ للخيرات.

ثامنًا: أنه يكون حاجزًا وحائلًا دون الوقوع في الحرام:

فهو يَعصِمُ صاحبَه ـ بإذن الله ﷻ ـ من مُقارَفة الآثام والمعاصي، وهو أبعد ما يكون عن الفواحش والمُوبِقات، بخلاف مَن لا ورَعَ له؛ فإنه لا يزالُ يتنقَّلُ بين أنواع المخالَفاتِ مِن الصغائر، فما يَلبَثُ حتى يقَعَ في الكبائر؛ فإنَّ أصحابَ المُوبِقات لم تكنْ بدايتُهم في الانحراف بفِعْلِها والجرأةِ عليها، ولكنْ أفضى بهم قلَّة الوَرَعِ أو انعدامُهُ إلى ذلك المصير.

تاسعًا: أنه يصون عِرْضَ صاحِبِه:

فإن مَن تنزَّه عن المحرَّمات والشبهات، كان عِرْضُهُ نقيًّا، فيَسلَمُ من الأذى، ولا يكونُ لقائل فيه مقال، ولا يكون موضعَ رِيبَةٍ ولا تُهَمة، فيكونُ سالمًا بإذن الله ﷻ، مستبرِئًا لدِينِهِ وعِرْضِهِ؛ كما قال النبي ﷺ: «**فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»[(١)].

أما الدِّينُ: فالسلامة، وأما العِرْضُ: فيُحفَظُ بسببِ هذا الورَعِ مِن تُهَمةِ الناس، ومِن مقالة السوء، ومِن الوقيعة في عِرْضه.

عاشرًا: أنه يطهِّرُ دَنَسَ القلب:

كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «إن الورَعَ يطهِّر دَنَس القلب ونجاسته كما يطهِّر الماءُ دَنَس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة؛ ولذلك تَدُلّ ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثِّر كل منهما في الآخر؛ ولهذا نُهِي عن لبس الحرير والذهب، وجلود السِّباع؛ لما تؤثِّر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع، وتأثير القلب والنَّفْس في الثياب أمر خفيّ يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودَنَسِها، ورائحتها، وبَهْجَتِها، وكَسْفَتِها، حتى إن ثوب البَرِّ ليُعرَف من ثوب الفاجر وليس عليهما، وقد جمع النبي ﷺ الورَعَ كله في كلمة واحدة، فقال: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[(٢)]؛ فهذا يَعُمُّ الترك لما لا يعني من الكلام والنظر،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٨)، وابن ماجه (٣٩٧٦)؛ مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه ابن حبان (٢٢٩)، وحسَّنه ابن عبد البر. انظر: «التمهيد» (٩/ ١٩٥ ـ ١٩٨)، والنووي في «الأربعين» (١٢)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٨٨١)، إلا أنه معلول بالإرسال؛ إذْ رواه =

والاستماع والبطش، والمشي والفِكْر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة؛ فهذه الكلمة كافية شافية في الوَرَع.

قال إبراهيم بن أدهم: «الوَرَعُ: تركُ كلِّ شُبْهة، وتركُ ما لا يعنيك: هو ترك الفَضَلَات[(١)]»[(٢)].

حاديَ عشَرَ: أنه يُثمِرُ الزهد في الدنيا:

وذلك أن الورَعَ ـ كما تقدَّم عند الكلام على الفرق بينه وبين الزهد ـ أوَّلُ الزهد، ولا يكونُ المرء زاهدًا حتى يكون وَرِعًا[(٣)].

وبالجملة: فالورَعُ له آثار كثيرة مما ذكَرْتُ ومما لم أذكُرْ؛ مِن راحة البال، وطمأنينةِ النَّفْس، واستراحة القلب، ونظافة المجتَمَع، فضلًا عن إجابة دعاء صاحِبِه.



= مالك (٢٦٢٨)، والترمذي (٢٣١٨)، وغيرهما، عن علي بن حسين؛ مرسلًا؛ وهو أصحُّ؛ كما قال أحمد، وابن مَعِين، والبخاري؛ كما في «جامع العلوم والحكم» (ص٢٠٧)، والترمذي، والدارقطني في «العلل» (١٣/ ١٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٦٣٣)، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٢٠٧)، وابن حجر في «إتحاف المَهَرة» (١٦/ ١٤٧)، وغيرهم، وفي الباب: عن الحسين بن علي موصولًا، وعلي، وأبي ذَرّ، وزيد بن ثابت، وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ إلا أنها كلها ضعيفة؛ كما قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٢٠٧). انظر: «الضعفاء» للعقيلي (٢/ ٣٥٦)، و«الشُّعَب» (٦٥٣٢).

(١) ذكره القشيري في «رسالته» (١/ ٢٣٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢١).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/ ٢٨).

مُفسِداتُ الوَرَع، والأمورُ التي تضادُّه

وهذا أمرٌ ينبغي أن يَعرِفَه العبد؛ لأن الإنسان قد يَجتهِدُ في تحصيل مطلوب من المطلوبات، فتَجتمِعُ له شروط تحصيل هذا الأمر، ولكنه في نفس الوقت لا يَدفَعُ الموانع التي تمنع مِن تحقُّقه، فلا يحصُلُ له ذلك، فلا بد في تحصيل الورع من تحقيق الشروط، وانتفاء الموانع، وهكذا في كل الأشياء؛ فمَن أراد مالًا ـ مثلًا ـ فعليه أن يحقِّقَ شروط ذلك بالسعي والجِدِّ والاكتساب، وأن يدفع الموانع؛ وهي المُتلِفاتُ للأموال من التفريط والإسراف، ونحو ذلك.

وهكذا في الوَرَعِ: لا بدَّ مِن مجاهدة النَّفْسِ، وتحقيق الأمور التي ذكَرْناها عند الكلام على الطريق إلى الوَرَعِ والأمور الموصِّلة إليه، هذا مع دفع الأضداد، والأمور التي لا تَجتمِعُ معه بحال من الأحوال، **ورأسُ ذلك أمور**:

١ ـ حبُّ الدُّنْيا وشهواتِها:

فهو أمر يناقِضُ الورع؛ وذلك أن الإنسان إذا امتلأ قلبه من محبَّة الدنيا ومحبَّة شهواتها، فإنه يتهافَتُ عليها، ويُقبِلُ على تحصيلها وجمعها كيفما اتفَقَ، فكيف يحصُلُ له الورع وهو بهذه المثابة، وقلبُهُ بهذه الحال؟!

٢ ـ التأويلات الفاسِدَة:

فقد يريد الإنسان أحيانًا أن يتورَّع، ولكنْ إذا حضَرَ الطمع، تأوَّل لنفسه، وبحَثَ عن المخارج؛ فتبدَّت له التأويلات والمخارج والمحامل؛ سواءٌ تأوَّل لنفسه، أو تأوَّل له غيره، ومِثْلُ هذا مِن أين له الورَع؟!

وقد يُعرَضُ على المرء أحيانًا أنواعٌ مِن المكاسب التي لا تخلو مِن شُبْهة، ثم يبدأ يوصِّفُ ذلك توصيفًا فقهيًّا لا يتأتَّى مع الورع؛ فالفتوى والتخريج الفقهي شيء، والورَعُ شيء آخر؛ فالعالِمُ يُفتِي في بيان الحلال والحرام، ولا يُمكِنُهُ أن يُلزِمَ بالأحوَط، وإنما يُرشِدُ إليه.

فلو سُئِلَ عن الأكل مع إنسان أموالُهُ مختلِطة، فإنه يُفتِي بحِلِّ ذلك من الناحية الفقهيَّة؛ لأن الكسب المُشارَ إليه إنما يتحمَّل وِزْرَهُ مَن اكتسَبه، وهو ليس محاسَبًا عنه، ولكنَّ مقام الوَرَعِ أرفَعُ من ذلك؛ وهو التنزُّه عن هذا الأكل.

٣ ـ الجُرْأة والإقدام على فعل المعاصي، وتَرْكِ الواجبات:

فإن ذلك يجتثُّ الوَرَعَ من القلب، فأيُّ ورَع يبقى عند مَن يجترئ على ترك الواجب، وفعل المحرَّم؟! وهل يُمكِنُ لهذا أن يترُكَ الشُّبْهة، أو يفعل المستحَبَّ، وهو يترُكُ الواجب الصريح، ويفعل المحرَّم الواضح؟!

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والزِّنا يَجمَعُ خلالَ الشرِّ كلها: من قلَّة الدِّين، وذَهَابِ الوَرَع، وفسادِ المروءة، وقلَّة الغَيْرة، فلا تجد زانيًا معه وَرَع، ولا وفاءٌ بعهد، ولا صِدْقٌ في حديث، ولا محافَظة على صديق، ولا غَيْرةٌ تامَّة على أهله، فالغَدْرُ، والكذب، والخيانة، وقلَّة الحياء، وعدَمُ المراقَبة، وعدَمُ الأَنَفةِ للحُرَم، وذَهَابُ الغَيْرةِ من القلب: من شُعَبِهِ ومُوجَباته»[(١)].

فالمعاصي ـ لا سيَّما ما عَظُمَ قبحه منها ـ تؤدِّي إلى ذَهَابِ الورَع وتلاشِيهِ من القلب، وهذا هو السرُّ في أن كثيرًا من الناس إذا حدَّثْتَهُ عن هذا الباب، امتعَضَ وكره ما يسمع، فهو يرى أن المهارة والحِذْقَ إنما هو في جمع المال مِن أيِّ طريق كان، فيحتالُ ويَكذِبُ ويَغُشُّ ويظُنُّ أن ذلك من المهارة، وإذا وجَدَ إنسانًا ليس له بصر وخبرة بنوعٍ مِن التجارة مثلًا؛ رأى أن تلك مِن الفرص التي لا تستعاضُ، فغَشَّ وخدَعَ، وأوقَعه في شِرَاكه؛ لأنه مجترِئٌ على الله، غافِلٌ عن أمر آخِرَته.

٤ ـ الغَفْلة؛ ويُرادُ بها عدَمُ التفطُّن لهذه الأمور التي يُتورَّعُ فيها، وإنما هو اللهوُ في الدنيا، والاشتغالُ بأمر المَعَاش:

وتجدُرُ الإشارة هنا إلى أن سبب الكتابة في مثل هذه الأعمال القلبيَّة؛ إنما هو إيقاظُ الغافل، وتبصيرُ الجاهل ـ وإنْ ظنَّ بعض الناس أن ذلك فيه شيء من المبالَغة؛ لغَلَبةِ الغَفْلة عليهم ـ فإن المؤمِن إذا سمع مثل هذه الأمور، راجَعَ نَفسَهُ، ونظَرَ في تصرُّفاته وأعماله، ولو تُرِكَ مع نفسه مِن غيرِ تذكير، فإنَّ الغَفْلةَ قد تَغلِبُ عليه.

٥ ـ قِلَّةُ الحياء؛ وذلك أن الحياء لا يأتي إلا بخير:

فيَحجِزُهُ حياؤه عن فعل ما لا يليق، بخلاف مَن لا حياء عنده؛ وفي ذلك **يقول عمر بن الخطَّاب للأحنف بن قَيْس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا أحنَفُ، مَن كَثُرَ ضحكُهُ، قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، ومَن مزَحَ، استُخِفَّ به، ومَن أكثَرَ مِن شيءٍ، عُرِفَ به، ومَن كَثُرَ كلامُهُ، كَثُرَ سَقَطُه، ومَن كَثُرَ سَقَطُه، قَلَّ حياؤُه، ومَن قَلَّ حياؤُه، قَلَّ ورَعُه، ومَن قَلَّ وَرَعُه،

(١) «روضة المحبِّين» (ص٤٩٣).

مات قلبه»[(١)].

فالذي لا يستحيي لا يتنزَّه عن اقتراف الحرام؛ كما وصَفَ الله المنافقين في حال الخوف؛ فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٩﴾ [الأحزاب: ١٩].

فهؤلاء مِن أحَطِّ الناس، ليس لهم هَمٌّ إلا الدنيا، يتلوَّنون في كلِّ يومٍ على أحوالٍ شتَّى، فهم مع مَن غلَبَ مِن أجلِ حقنِ دمائهم، وإحراز أموالهم؛ فمثلُ هؤلاء إذا جاء الخوف، كانوا في غاية الهَلَع والجُبْن: ﴿رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ يحرِّكُ عينَيْهِ يَمْنةً ويَسْرةً ببطءٍ شديد؛ لأنه لا يستطيعُ أن يحرِّكَ رأسَهُ مخافةَ أن يُؤتَى من الناحيةِ الأخرى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾؛ أي: بسَطُوا إليكم تلك الأَلْسِنةَ الحِدَاد؛ وذلك بالقول القبيح الشنيع، فهم لا يتورَّعون مِن القول الجارح ولو كان موجَّهًا إلى رسول الله ﷺ؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ٨]، وهكذا قولهم: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ [المنافقون: ٧]؛ أي: حاصِرُوهم محاصَرةً اقتصاديَّةً حتى يتفرَّقوا عن بلَدِكُم؛ وينفضُّوا مِن حولِ صاحبهم.

فهذه هي حال المنافِق، ليس له حياء، بل هو دنيءٌ لا يستحيي مِن الله ولا مِن الناس.

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «كان عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ يقول لجاريةٍ له: اذهبي، فابْغِينَا شيئًا؛ فأنزَلَ الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور: ٣٣]»[(٢)]؛ فكان يُرغِمُها على الزِّنا مِن أجل أنْ يَكسِبَ مِن ورائِها.



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٢٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢٢٥٩).
وقد رُوِيَ بنحوه مرفوعًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٧٤)، وغيرهما، ولكنْ لا يثبُت؛ فقد ضعَّفه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ١٠٨٤)، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٢٤٩)، والألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨١٥)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢٩)؛ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

أبواب الوَرَع

الوَرَعُ لا يقتصر على باب معيَّن من أبواب العبادات أو المعامَلات؛ كما لا يختص بالقضايا الفعليَّة أو التركيَّة، بل يشمل أمورًا كثيرة يَجمَعها قول النبي ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(١).

فيترك ما لا يعنيه من الأمور المالية، والأمور المتعلِّقة باللسان، وبغيره من الجوارح، ويَفعَل ـ أيضًا ـ ما هو بصددِه، ويشتغل بما يعنيه من الواجبات والمستحبَّات، ولا يترك فعل ما يَخشَى أن يكون واجبًا عليه فعله.

والمقصود: أن الورع كما يكون في التنزُّهِ والمباعَدة والترك، فإنه يكون أيضًا في الفعل، ويدخل في ذلك أبوابٌ كثيرةٌ جِدًّا؛ كالورع في المنطق، وفي المأكل والمشرب، وفي المكاسب، وفي المخالَطة والمجالَسة، وفي الفُتْيا والأحكام، وفي الكلام في التفسير وغيره، وفي النَّظَر والسمع، وفي الشَّمِّ، وفي أمور متنوِّعة غير ما ذكَرْتُ.

وإليك تفصيلَ ذلك:

أولًا: الوَرَع في المنطق؛ فلا يخفى أن الإنسان محاسَبٌ على ما يقوله: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(٢).

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**»(٣)؛ وما ذاك إلا لأن أكثر ما يُؤْتَى الناسُ من ألسنتهم ومن شَهَواتِهم.

قال إبراهيم النَّخَعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هلَكَ الناس في خَلَّتَيْنِ: فضولِ الكلام، وفضولِ المال»(٤).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)؛ من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٢١٤)، والحاكم (٢/٧٦)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٤١٢). وأعله الدارقطني في «العلل» (٦/٧٧)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/٥٢٩)، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٥٠٦ ـ ٥٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٧٤)؛ من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٠٣، ٦٧٧).

وقال الحسن بن حَيٍّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَتَّشْتُ عن الوَرَع، فلم أَجِدْهُ في شيءٍ أَقَلَّ منه في اللسان»[(١)].

تجد الرجل فيه إقبال على الله عَزَّ وَجَلَّ، ودِين، وعِبَادة، ولكن إذا نظَرْتَ إلى لسانه، وجدتَّه لا يتورَّعُ عن الغِيبَة والنميمة، وعَيْب الناس، ولَمْزِهم، وهَمْزِهم، وانتقاصِهم.

وسُئِلَ ابن المبارَك رَحِمَهُ اللهُ: أيُّ الورع أشدُّ؟ قال: «اللسان»[(٢)].

وقال أبو حيان التيمي: «كان يقال: ينبغي للعاقل أن يكون أحفَظَ للسانه منه لموضع قدمه»[(٣)].

ويقول عبد الكريم الجَزَري: «ما خاصم وَرِعٌ قطُّ»؛ يعني: في الدِّين[(٤)].

فهل يعي ذلك من اتخذوا الجَدَلَ والخصومات في الدين عملًا على مواقع الشَّبَكة، أو التواصل؛ مع قلة العلم، وضعف البصيرة، وغايةُ الكثير منهم: تسجيل مشارَكة، أو انتصار لمتبوع، أو تحيُّز لطائفة على غيرها على سبيل العصبيَّة.

يقول إسحاق بن خَلَف رَحِمَهُ اللهُ: «الوَرَعُ في المنطق أشدُّ منه في الذهب والفِضَّة، والزهدُ في الرياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة؛ لأنه يبذلهما في طلب الرياسة»[(٥)].

وذكروا عند الربيع بن خُثَيْم رَحِمَهُ اللهُ **رجلًا بسوء، فقال**: «ما أنا عن نفسي براضٍ فأتفرَّغَ من ذمِّها إلى ذمِّ غيرها؛ إنَّ الناس خافوا الله على ذنوب الناس، وأَمِنُوهُ على ذنوبهم!»[(٦)].

أي: أنهم اشتغَلُوا في توصيف جرائر العباد وجناياتهم؛ وكان أحرى بهم أن يشتغلوا بذنوبهم وإصلاح نفوسهم عن الاشتغال بعيوب الناس؛ ففي النَّفْسِ شُغْلٌ عن الوقيعة في أعراض الآخرين.

وكثير من الناس يتأوَّل في ذلك تأويلاتٍ فاسدة؛ فيُحِلُّونَ ما حرَّم الله بأدنى الحِيَل؛ فيقول أحدهم: هذا يجب أن يُذكَرَ لِيُحذَرَ، فلانٌ لا حُرْمَةَ له، فلانٌ أقول فيه ما أقول

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٢)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦٣٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٢)، و«الورع» (٩٧).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٥٥)، و«الورع» (٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٨١٢٩).

(٥) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٨٥٧)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٨/ ٢٠٥).

(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٥٢)؛ واللفظ له.

ديانة، وأذكُرُهُ في هذا المقام وأنا مستحضِرٌ أمرَ الغِيبة، ولكن أقول فيه ذلك تقرُّبًا إلى الله ﷻ!

وما يدري المسكين أن مَن فتَحَ على نفسه باب التأويل، ذهَبَ وَرَعُه.

يقول إبراهيم بن بَشَّار رَحِمَهُ اللَّهُ: سُئِلَ إبراهيم بن أدهم: بِمَ يَتِمُّ الوَرَع؟ قال: «بتسوية كل الخلق مِن قَلْبِك، واشتغالِك عن عيوبهم بذَنْبِك، وعليك باللَّفْظِ الجميل، مِن قلب ذليل، لِرَبٍّ جَلِيل، فَكِّرْ في ذنبك، وتُبْ إلى رَبِّك، يَثْبُتِ الورع في قلبك، واحسِمِ الطَّمَعَ إلا مِن ربِّك»[(١)].

ومِن عجيب ما جاء في باب الورع في المنطق: ما ذكَرَ مَخْلَد بن الحسين: «أن إنسانًا استسقى من منزل أبي السَّوَّارِ العَدَوِيّ ـ وهو رجل من الصالحين، العابدين، المتعفِّفِين عن أعراض المسلمين ـ فقالت امرأته: ما في الجُبِّ قَطْرَة ـ أي: ما في البئر ماءٌ يصلُحُ للشرب ـ فذهب، فأخذ عُكَّةَ الجُبِّ أو ما في أسفله، فجاء فصَبَّ على رأسها، وقال: يا أم السَّوْءات، كم هاهنا من قطرة؟!»[(٢)].

وأقبل عليه رجل بالأذى، فسكت، حتى إذا بلغ منزله ـ أو دخل ـ قال: «حَسْبُكَ إنْ شئتَ»[(٣)].

وهذا أبو فَرْوَة يزيد بن محمد الرَّهَاوي، لَقِيَ أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في بغداد، فسأله الإمامُ عن رجل، فقال له: «ما فعَلَ الرجل الذي عندكم بحَرَّان ـ الجوهري ـ عنده علم؟»؛ يقول: فقلتُ له: ما أعرف بحَرَّانَ جوهريًّا يُكْتَب عنه، فقال: «بلى؛ صاحبُ أبي مَعْبَد حفص بن غَيْلَان»، قلت: ما أعرفه، قال: «يغفر الله لك، له نَفْس»، فقلتُ: لعلك تريد البُومَة؟! قال: «إياه أعني»[(٤)].

فهذا الرجل كان يلقَّبُ بالبُومة، ولا يُعرَفُ إلا بذلك، وكان يُمكِنُ للإمام أحمد أن يقول: البُومَة، ولكنه ترك ذلك تورُّعًا.

وجاءت ابنة للربيع بن خُثَيْم رَحِمَهُ اللَّهُ، فقالت: يا أَبَتَاه، أَذْهَبُ أَلْعَب؟ فلما أكثَرَتْ عليه، قال له بعض جلسائه: لو أمرتها فذهبَتْ! قال: «لا يُكْتَبُ عليَّ اليومَ أني آمُرُها تلعب»[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٦)، والبيهقي في «الزهد» (٨٣٢)؛ بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣١٦).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٥٠).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٣/ ١٢٣).

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٧١)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٦٨٦)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٣٣١).

أراد أن ينزِّهَ صحيفتَهُ مِن أن يُكتَبَ فيها مثل هذه اللفظة: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]؛ فكم في صحائفنا مِن العَبَث، والقيل والقال، والأمور التي لا تَرجِعُ علينا بطائل، ولا تعودُ علينا بنائل؟!

ثانيًا: الوَرَع في المأكل والمشرب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ**: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وَقَالَ**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وغُذِيَ بِالحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!**»(١).

وعن عاصم بن كُلَيْب، عن أبيه، عن رجل مِن الأنصار؛ قال: خرَجْنا مع رسول الله ﷺ في جَنَازة، فرأيتُ رسول الله ﷺ وهو على القَبْرِ يُوصِي الحافِرَ: «**أَوْسِعْ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، أَوْسِعْ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ**»، فلما رجع، استقبَلَهُ داعي امرأة، فجاء، وجيء بالطعام، فوضَعَ يدَه، ثم وضَعَ القومُ، فأكلوا، فنظر آباؤنا رسولَ الله ﷺ يَلُوكُ لُقْمةً في فَمِهِ، ثم قال: «**أَجِدُ لَحْمَ شَاةٍ أُخِذَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ أَهْلِهَا**»، فأرسلَتِ المرأةُ، قالت: يا رسول الله، إني أرسَلْتُ إلى البقيعِ يُشترى لي شاة، فلم أَجِدْ، فأرسَلْتُ إلى جار لي قد اشتَرَى شاة أن أَرسِلْ إليَّ بها بثمنها، فلم يُوجَدْ، فأرسَلْتُ إلى امرأته، فأرسَلَتْ إليَّ بها؛ فقال رسول الله ﷺ: «**أَطْعِمِيهِ الأُسَارَى**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: أخذ الحسَنُ بن علي رضي الله عنهما تَمْرةً من تَمْرِ الصَّدَقة؛ فجعَلَها في فِيهِ، فقال النبي ﷺ: «**كِخْ كِخْ**»؛ ليَطْرَحَها، ثم قال: «**أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟!**»(٣).

وعن أنس رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ مَرَّ بتَمْرةٍ في الطريق، فقال: «**لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ، لَأَكَلْتُهَا**»(٤).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٣٢)، وصحَّحه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٤٥٠)، وابن حجر في «التلخيص» (٥/ ٢٠١)، والألباني في «الصحيحة» (٧٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٩١، ٣٠٧٢)؛ واللفظ له، ومسلم (١٠٦٩).

(٤) تقدم تخريجه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعًا إلى النبي ﷺ؛ قال: «**إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي، فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، فَأَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيهَا**»(١).

وقد علَّق عليه ابن القيِّم رحمه الله **بقوله**: «وأمَّا التمرةُ التي ترك رسول الله ﷺ أكْلَها، وقال: «**أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً**»، فذلك من باب اتقاء الشبهات، وترك ما اشتبَهَ فيه الحلال بالحرام؛ فإنَّ التمرة كانت قد وجَدَها في بيته، وكان يُؤتَى بتمر الصدقةِ يَقْسِمُهُ على مَن تحلُّ له الصدقة، ويدخُلُ بيتَهُ تمرٌ يَقْتات منه أهله، فكان في بيته النوعان، فلما وجَدَ تلك التمرة، لم يَدْرِ عليه الصلاة والسلام مِن أيِّ النَّوْعَيْنِ هي، فأمسَكَ عن أكلها؛ فهذا الحديث أصل في الورع واتقاء الشُّبُهات»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها؛ **قالت**: «كان لأبي بكر رضي الله عنه غلامٌ يُخرِجُ له الخَرَاج، وكان أبو بكر يأكُلُ من خَرَاجِه، فجاء يومًا بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنتُ تَكَهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهليَّة، وما أُحْسِنُ الكِهَانَةَ؛ إلَّا أني خَدَعْتُه، فلَقِيَنِي فأعطاني بذلك الذي أَكَلْتَ منه، فأدخَلَ أبو بكرٍ يدَهُ، فقاءَ كلَّ شيءٍ في بَطْنه»(٣).

ولما قَدِمَ شُعَيْب بن حَرْب على يوسف بن أسباط، رأى عنده شابًّا يكلِّم يوسف ويغتاظ له، ويَرفَع صوته، فقال شُعَيْب: «ترفع صوتك؟!»، فقال له يوسف بن أسباط: يا أبا صالح، إنه محمَّد بن إدريس؛ إنه يَدرِي مِن أين يأكل!(٤).

ويقول بِشْر بن الحارث: سمعتُ المُعَافَى بنَ عِمْران رحمه الله **يقول**: «كان عَشَرةٌ فيمن مضى من أهل العلم ينظُرُون في الحلال النظر الشديد، لا يُدْخِلُونَ بطونهم إلا ما يَعْرِفون من الحلال، وإلا استفُّوا التراب»، ثم عَدَّ: بِشْرٌ: إبراهيمَ بنَ أَدهَم، وسليمان الخَوَّاص، وعلي بن الفضيل، وأبا مُعَاوية الأسود، ويوسف بن أسباط، ووُهَيْب بن الوَرْد، وحُذَيْفة ـ شيخ من أهل حَرَّان ـ وداود الطائي(٥).

وقد قيل لبِشْر الحافي رحمه الله: **مِن أين تأكُل؟ فقال**: «مِن حيثُ تأكلون، ولكن ليس مَن يأكُلُ وهو يبكي، كمن يأكل وهو يضحك، وقال: يدٌ أقصَرُ مِن يد، ولُقْمةٌ أصغَرُ مِن لُقْمة»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٣٢)، ومسلم (١٠٧٠).
(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٢١٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٤٢).
(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٠)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٥) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٦)؛ رواية المَرُّوذِي؛ واللفظ له؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٥٣٨٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٧١). والمذكورون ثمانية؛ فهم مِن جملة العَشَرة.
(٦) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٩٢).

وكان يقول: «ينبغي للرجل أن ينظر خُبْزَهُ مِن أين هو، ومسكَنَهُ الذي سكنه، أصله مِن أَيْشٍ هو، ثم يتكلَّم»[(١)].

وهذه امرأة من الصالحات أتاها نَعْيُ زوجها وهي تَعْجِن العجين، فرفَعَتْ يديها من العجين، وقالت: «هذا طعام قد صار لنا فيه شريك»[(٢)]؛ تعني: أن هذا العجين صار إلى الميراث، فصار فيه شركاء؛ وهذا باب دقيق من الوَرَع.

وعن عَلْقمة؛ قال: «خرَجْنا ومعنا مسروق وعمرو بن عُتْبَة ومِعْضَد غَازِينَ، فبلغوا مكانًا يُقَال له: ماءُ سِنْدان، وأميرها عُتْبة بن فَرْقَد، قال لنا ابنه عمرو بن عُتْبة: إنكم إنْ نزَلْتم عليه، صنَعَ لكم نُزُلًا ـ يعني: ما يقدَّم للضيف من الطعام ـ ولعله يَظلِم فيه أحدًا، ولكنْ إذا شئتم قِلْنا في ظِلِّ هذه الشجرة، فأَكَلْنا كِسَرَنا، ثم رَجَعْنا، ففعَلْنا»[(٣)].

وبعث أمير البَصْرة إلى عامر بن عبد قَيْس، فقال له: «إنَّ أمير المؤمنين أمرَني أن أسألك... ما لك لا تأكُلُ الجبن؟ قال: أنا بأرض فيها مجوس، فإنْ شَهِدَ شاهدان من المسلمين أنْ ليس فيه مَيْتة، أَكَلْتُه»[(٤)].

وأما عَبِيدة السَّلْماني، فإنه لما كان بأرضٍ قد كَثُرَ فيها أشربة النبيذ الذي كان يترخَّصُ فيه أهل الكوفة، ترَكَ ذلك جميعًا، وتورَّعَ عنه، وقال: «فما لي شَرَابٌ منذ ثلاثين سنة إلا العَسَل واللبن والماء»[(٥)].

وصحب يحيى بن سعيد أبا بكر بن عيَّاش إلى مكة، فقال: «ما رأيتُ أورَعَ منه، ولقد أهدى له رجل بالكوفة رُطَبًا، فبلَغَهُ أنه مِن البُسْتان الذي قُبِضَ عن خالد بن سَلَمة المخزومي، فأَتَى آلَ خالد، فاستحَلَّهُمْ، وتصدَّق بقيمته»[(٦)].

ولما احتُضِرَ ابن المبارَك في السفر، قال: «أشتهي سَوِيقًا»، فلم يجدوه إلا عند رجل كان يَعمَل لبعض الظَّلَمة، فقالوا له: إنه عند فلان، فقال: «دعوه»، فمات ولم يَشرَبْه[(٧)]! لم يقل: عليه إثمُه، وقد وصَلَ إليَّ بطريق مباح.

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٧)؛ رواية المَرُّوذِي؛ واللفظ له؛ ومن طريقه البيهقي في «الزهد الكبير» (٩١٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٠١/١٠).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٥٠).
(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٥٢)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٥٥/٤).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩٠/٢). (٥) «سير أعلام النبلاء» (٤٢/٤).
(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٩٤/١٦).
(٧) «سير أعلام النبلاء» (٤١١/٨)؛ بتصرف.

ثالثًا: الورع في المكاسب:

وقد مَرَّ رجل يحمل حشيشًا، فتناول رجل منه طاقة ـ يعني: شيئًا يسيرًا ـ فقال له عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لمَّا رآه: «أرأيتَ لو أن أهل مِنًى أخذوا مِن هذا طاقةً طاقةً، بقي منها شيء؟»، قال: لا، قال: «فَلِمَ فَعَلْتَ؟!»[(١)].

وكان عطاءُ سَلْمانَ الفارسيِّ رضي الله عنه خمسةَ آلاف، وكان أميرًا على زُهَاءِ ثلاثين ألفًا من المسلمين، وكان يخطُب الناس في عَبَاءة، يفترش بعضها، ويلبس بعضها ـ وهو الأمير ـ فإذا خرج عطاؤه، أمضاه، ويأكُلُ من سَفِيفِ[(٢)] يَدَيْه[(٣)].

ورُوِيَ أن عُبَادةَ بن الصامت رضي الله عنه مَرَّ بقريةٍ يُقال لها: (دُمَّر)، من قرى الغُوطَة، فأمر غلامه أن يَقطَع له سِوَاكًا مِن صَفْصَافٍ على نهر بَرَدَى، فمضى ليفعل، ثم قال له: «ارْجِعْ؛ فإنه إلا يكنْ بثمن ـ يعني: لا قيمة له ـ فإنه يَيْبَسُ، فيعود حطبًا، فيبيعونه»[(٤)].

وكان المِسْوَر لا يشرب من الماء الذي يُسْتَقَى في المسجد، ويكرهه؛ يرى أنه صدقة[(٥)]؛ فكان يتورَّع عن الصدقة؛ لأنه غنيٌّ؛ مع أنه يجوز له أن يَشرَب منه، وهو مال مبذول للجميع، ولم يُخَصَّ به الفقراء.

وهذا حمَّاد بن زيد الإمام المعروف رحمه الله **يقول**: «كنتُ مع أبي، فأخذتُ تِبْنَةً من حائط»، قال: فقال لي: لِمَ أخذتَ؟ قال: قلتُ: «إنما هي تِبْنة!»، قال: لو أن الناس أخذوا تِبْنَةً تِبْنَةً، كان يبقى في الحائط تِبْن؟!»[(٦)].

وعن صالح الدَّهَّان؛ أن جابر بن زيد كان يتحدَّث مع بعض أهله، فمَرَّ بحائطِ قوم، فانتزَعَ منه قَصَبةً، فجعَلَ يطرُدُ بها الكلاب عن نفسه، فلما أتى البيتَ، وضَعَها في المسجد، فقال لأهله: «احتفِظوا بهذه القَصَبة؛ فإني مررتُ بحائط قوم، فانتزعتُها منه»، قالوا: سبحان الله! يا أبا الشعثاءِ، ما بلَغَ بقَصَبة؟! فقال: «لو كان كل مَن مَرَّ بهذا الحائط أخذ منه قَصَبة، لم يبق منه شيء»، فلما أصبح، رَدَّها[(٧)].

ودخلَتْ جاريةٌ منزِلَ طَلْحة بن مصرِّف تقتبس نارًا، وطلحةُ يصلي، فقالت لها امرأة

---

(١) ذكره أحمد في «الورع» (٥٩)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) أي: يأكُلُ مِن عمل يديه؛ يقال: سَفَفْتُ الخُوصَ، أَسُفُّهُ؛ وأَسْفَفْتُه؛ أي: نَسَجْتُهُ.

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٥٠)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٩٧).

(٤) أخرجه أبو عُبَيْد في «الأموال» (٤٤١)؛ واللفظ له، وابن زنجويه في «الأموال» (٦٢٨)؛ ومن طريق أبي عُبَيْد أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/ ٢٠٣).

(٥) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٣٨)؛ رواية المَرُّوذِي، بسند صحيح، عن أم بكر بنت المِسْوَر.

(٦) المصدر السابق (٦٠).

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٨٧).

طلحة: مكانَكِ يا فلانة؛ حتى نَشْوِيَ لأبي محمَّدٍ هذا القَدِيدَ على قَصَبَتِكِ يُفْطِرُ عليها، فلما قضى الصلاة، قال: «ما صَنَعْتِ؟ لا أذوقها حتى تُرسِلي إلى سيِّدتها تستأذنيها حَبْسَكِ إياها وشِواءَكِ على قصبتها»[(١)].

وكان محمَّد بن سِيرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَكرَهُ أن يَشترِيَ بالدنانير المحدَّثة، والدراهم التي عليها اسم الله[(٢)]؛ يكره ذلك تعظيمًا وتنزيهًا لله؛ لئلا يُمْتَهَنَ اسمه.

وعن ابن عَوْن رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال**: كان لابن سيرينَ منازلُ لا يُكْرِيها إلا مِن أهل الذمَّة، فقيل له في ذلك؟ فقال: «إذا جاء رأس الشهر، رُعْتُهُ، وأنا أكره أن أروِّع مسلمًا»[(٣)].

ويقول الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ **عن يزيد بن زُرَيْع**: «كان من أورَع أهل زمانه، مات أبوه، وكان واليًا على الأُبُلَّة، فخلَّف خمسمائة ألف، فما أخذ منها حبَّة»[(٤)].

وكذلك البَرْبَهاري رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنه تورَّع عن مال أبيه، وكان سبعين ألفًا[(٥)]؛ مع أن الميراث يَطِيبُ للوارث؛ لأنه لا تَبِعةَ عليه فيه.

ويقول يونس بن عُبَيْد: «ما السارق عندي بأسوَأَ سرقةً من التاجر يشتري المتاع إلى أَجَل، ثم يضربُ فيه إلى البُلْدان، لا يكتسِبُ دِرْهَمًا بعد الأجل إلا كان حرامًا»[(٦)].

وذلك أن هذا التاجر اشتَرَى هذه البضاعة على أن يوفِّي ثمنها في مُدَّةِ شهرٍ مثلًا، ثم جعَلَ يسافر بها ويبيعها في البلدان، وزادت المُدَّة عن الشهر، فيرى أن كَسْبَهُ بعد الشهر حرام؛ لأنه لم يُوَفِّ صاحبه قيمته، وقد اشترط عليه شهرًا.

ومثلُهُ مَن يأخذ من الناس أموالهم ليضارِبَ فيها، ثم بعد ذلك تنقضي مدة العَقْد، ولا تزال هذه الأموال بيده، والناس يُطالِبونه بأموالهم، وهو يتصرَّف فيها، فهو لا يكتسِبُ درهمًا واحدًا من هذا المال بعد تمام مُدَّة العقد، إلا كان سُحْتًا حَرَامًا في حقِّه.

ويقول شُعَيْب بن حَرْب رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تَحقِرَنَّ فَلْسًا تطيعُ الله في كَسْبِه، ليس الفَلْسُ

---

(١) المصدر السابق (٥/ ١٤ ـ ١٥).
(٢) ذكره أحمد في «الورع» (٢٣٢)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٣) «صفة الصفوة» (٣/ ٢٤٦)، وأخرجه المَرُّوذِيُّ في «أخبار الشيوخ» (ص١٩٤)، وذكره ابن الجوزي في موضع آخر من «صفة الصفوة» (٣/ ٣١٠)؛ بلفظ: «عن ابن عَوْن؛ قال: كانت له حوانيتُ يُكْرِيها، فكان لا يُكْرِيها من المسلمين...»، والظاهر: أن ابن عَوْن كان يرويه عن ابن سِيرِينَ؛ كما يُشعِرُ به قوله: «عن ابن عَوْن؛ قال: كانتْ له حوانيت...»، ويَحتمِلُ أن ذلك وقع له أيضًا؛ كما كان ابن سيرين يَفعَل.
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٩٩).
(٥) انظر: «طبقات الحنابلة» (٣/ ٧٦ ـ ٧٧).
(٦) أخرجه أحمد في «الورع» (٩١)؛ رواية المَرُّوذِي.

يرادُ، إنما الطاعةُ ترادُ، عسى أن تشترِيَ به بَقْلًا، فلا يستقر في جَوْفك حتى يُغفَرَ لك»[(١)].

أي: لا تتهاوَنْ في هذه الأمور؛ فإن أكل الحلال قد يكون سببًا لمغفرة اللهَ ﷻ ذنوب العبد.

وهذا زكريَّا بن عَدِيّ؛ كلَّموا له إنسانًا، وكان شغلُهُ في ضَيْعة، وأجرى عليه ثلاثين درهمًا ـ وهو شيء يسير ـ وكَرِهَ أن يزيده فلا يذهب، فلما كان بعد شهر، قَدِمَ، فقالوا: ما حالك؟ فقال: «ليس أراني أَعمَل بقَدْرِ ما آخذ»[(٢)].

فماذا يقول الذي يتولَّى أعمالًا ووظائف، ثم بعد ذلك يضيِّع هذا العمل الذي رُبِطَ به، ويقصِّر فيه، ولا يأتي به على الوجه المطلوب؟! وقُلْ مثل ذلك في أصحاب الشركات والمؤسَّسات الذين يتنافسون على مناقَصة، فيَطْرَح أحدهم أقلَّ الأسعار، ويضع أعلى المزايا، ثم إذا استقَرَّ ذلك في حقِّه، فرَّط، وضيَّع، وأخلَّ بالشروط إذا وجَدَ منهم غَفْلة، أو استطاع أن يحتال عليهم، وما عَلِمَ أن الله ﷻ على كل شيء حسيب رقيب.

وقد اشتكَتْ عينُهُ، فأتاه [إنسان] بكُحْل، فقال: «أنت ممن يسمع [مِنِّي] الحديث؟»، قال: نعم، فأبى أن يأخذه[(٣)]؛ لئلا يكون ذلك في مُقابِل بذل حديث رسول الله ﷺ وتعليم العلم.

ويقول الحسين الجُعْفي: «ربما عَطِشَ حمزة[(٤)]، فلا يستسقي؛ كراهية أن يصادِفَ مَن قرأ عليه»[(٥)].

وعن الحسين بن حَرْب؛ قال: «بَعَثَ بي أبي إلى السَّرِيِّ ـ السَّقَطِيّ ـ بشيء من حَبِّ السُّعَال؛ لسعال كان به، فقال لي: كم ثمنه؟ قلت له: «لم يُخبِرْني بشيء»، فقال: اقرأ عليه السلام، وقل له: نحن نعلِّمُ الناس منذ خمسين سنةً ألَّا يأكُلوا بأديانهم، تُرَانا اليوم نأكُلُ بأدياننا؟!»[(٦)].

---

(١) المصدر السابق (٨٣).
(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٤٥٧).
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٤٥٧)، وذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٩١).
(٤) وهو: حمزة القارئ، الإمام المعروف، كان يَعطَشُ أثناء الإقراء، فلا يطلُبُ من أحد أن يأتيه بالماء؛ لأنه يريد أن يكون الإقراء لله، ولا يأخُذُ على ذلك عوضًا.
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٩١).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١١٧).

وقد سُئِلَ ابن المبارَك: مَنِ السَّفِلَة؟ قال: «الذين يعيشون بدينهم»[(١)].

وهذا محمد بن واسع الإمام العابد المعروف، خرَجَ إلى السوق ليبيع حمارًا، فقال له رجل: أترضاه لي؟ قال: «لو رَضِيتُهُ، لم أبعه»[(٢)].

وقال أبو بكر بن عيَّاش: «رأيت مجمِّعًا التيميَّ كأني أنظُرُ إليه في سوق الغَنَم، قالوا له: كيف شاتُكَ هذه؟ قال: ما أرضاها!»[(٣)].

وعن أبي عُتْبة؛ قال: بعنا جاريةً للحسن بن صالح، فقال: «أَخبِرُوهم أنها تَنَخَّمَتْ عندنا مرةً دَمًا»[(٤)].

فأين هذا مما يصنعه كثير من الناس اليوم؟! يبيع أحدُهم السيَّارة وبها عيوب يعلم بها، ومع ذلك لا يبيِّنُ للمشتري، بل يقولُ دُلْسَة: أبيع لك كَوْمًا من حديد؟! ثم إذا اشتراها هذا المسكين، واكتشَفَ بعد ذلك فيها من العِلَلِ ما شاء الله أن يَكتشِف، وعاد إليه، قال: إنما بِعْتُكَ كَوْمًا من الحديد! وهذا لا يُبرِئ ذمَّته.

وهذا أبو شُعَيْب أيوب بن راشد، كان مِن أورَعِ الناس؛ كان يكنُسُ حيطان بيته، فإذا وقع شيء من حيطان جيرانه، جمَعَهُ، فذهَبَ به إليهم[(٥)].

ويقول ابن المبارَك: «استعَرْتُ قَلَمًا من أرض الشام، فذهب عليَّ أن أَرُدَّه إلى صاحبه، فلما قَدِمْتُ مَرْوَ، نظَرْتُ فإذا هو معي، فرجَعْتُ... إلى الشام، حتى رَدَدتُّهُ على صاحبه»[(٦)].

لم يقل: هذا شيء يسير، لا يُكترَثُ له، ولا يُبحَثُ عنه عادة، ويمكن أن يُتصدَّقَ به عن صاحبه، والتَّبِعةُ مِن مشقَّة الرجوع من مرو إلى الشام أعظم بكثير من قيمة هذا القلم، بل رجع ورَدَّه إليه.

وهذا أبو إسحاق الشِّيرازي ـ وهو من أَجَلِّ علماء الشافعية ـ «دخل مسجدًا ليتغدَّى، فنسي دينارًا في المسجد، ثم ذكر فرجَعَ، فوجَدَهُ، ففكَّر، وقال: لعلَّه وقع من غيري، فتركه»[(٧)].

---

(١) المصدر السابق (٨/ ١٦٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٦٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤٩١٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٨٩).

(٤) المصدر السابق (٧/ ٣٢٩).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٩٢).

(٦) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٦٥)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٤٣٤).

(٧) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٥٦).

وجاء سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ إلى صَيْرَفيٍّ بمَكَّةَ يشتري منه دراهم بدينار، فأعطاه الدينار، وكان معه آخر، فسقَطَ من سُفْيان، فطلبه، فإذا إلى جانبه دينار آخر، فقال له الصَّيْرَفيُّ: خذ دينارك! قال: «ما أَعرِفُه»، قال: خذ الناقص، قال: «فلعلَّه الزائد»، قال: فترَكَهُ ومَضَى[1].

وهذا كَهْمَس بن الحسَن رَحِمَهُ اللهُ؛ سقَطَ منه دينار، فأخذوا غِرْبالًا، فغربلوا التراب، فوجدوا دينارًا، فأبى أن يأخذه، وقال: «لعله ليس ديناري»[2].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ[3] ـ وقد ذَكَرَ ورَعَ عطاء بن محمد الحَرَّاني ـ: «كان إذا قَدِمَ مكة، حمل معه أحمال الطعام، وقال: لا أُنافِسُ أهل مكة في سِعْرهم، وكان يتأوَّل هذه الآية: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥]».

يعني: هو الآنَ طارئ على مكة، ليس من أهلها، فإذا زاد الطلب، ارتفَعَتِ الأسعار على أهل مكَّة.

ويقول يونس بن عُبَيْد رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّك لَتَعرِفُ ورَعَ الرجل في كلامه؛ إذا تكلَّم»[4]، وقال: «ما أَهَمَّ رجلًا كسبُهُ، حتى أهمَّهُ أين يضَعُ درهمه»[5].

فالرجل الذي يتورَّع في المكاسب يتجنَّب المساهمة الفلانية؛ لأن فيها شُبْهة، والمشروع الفلاني؛ لأن فيه شبهة، والعمل الفلاني؛ لأنه لا يخلو من محظور.

وعن النَّضْر بن شُمَيْل، وسعيد بن عامر؛ قالا: «غَلَا الحرير ـ وقال أحدهما: الخزّ ـ في موضع كان إذا غَلَا هناك، غَلَا بالبَصْرة، وكان يونس بن عُبَيْدٍ خَزَّازًا، فعلم بذلك، فاشتَرَى من رجلٍ متاعًا بثلاثين ألفًا، فلما كان بعد ذلك، قال لصاحبه: هل عَلِمْتَ أن المتاع كان غلا بأرض كذا وكذا؟ قال: لو علمتُ لم أَبِعْ، قال: هلمَّ إلى مالي، فخذ مالك، فرَدَّ عليه الثلاثين ألفًا»[6].

وعن فُرَات بن مسلِم؛ قال: «كنتُ أَعرِضُ على عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ كتبي في كلِّ جمعة، فعرَضْتُها عليه، فأخذ منها قِرْطاسًا قدر أربع أصابع، فكتب فيه حاجة،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٣).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٥٦)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١١).
(٣) في «الورع» (٥)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٣٣)؛ رواية المَرُّوذِي؛ واللفظ له، وابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٠).
(٥) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٣٣)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٦).

قال: فقلتُ: غفَلَ أمير المؤمنين، فأرسَلَ من الغد أن جئني بكُتُبِك، قال: فجئتُ بها، فبعثني في حاجة، فلما جئتُ، قال لي: ما لنا أن ننظُرَ فيها، قلتُ: إنما نظرتَ فيها أمسِ، قال: فاذهب، أبعث إليك، فلما فتحتُ كتبي، وَجَدتُّ فيها قرطاسًا قدر القرطاس الذي أخذ»[(١)].

وبلغ مِن ورَع عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه كانت تُسْرَجُ له الشَّمْعة ما كان في حوائج المسلمين، فإذا فرَغَ من حاجتهم، أطفأها ثم أسرَجَ عليه سراجه[(٢)].

وأرسَل ذات مرَّة غلامه يشوي بكَبْكَبَةٍ[(٣)] مِن لحم، فعَجِلَ بها، فقال: «أسرعتَ بها؟!»، قال: شوَيْتُها في نار المطبخ ـ وكان للمسلمين مطبخ يغدِّيهم ويعشِّيهم ـ فقال لغلامه: «كُلْها يا بُنَيَّ؛ فإنك رُزِقْتَها ولم أُرْزَقْها»[(٤)].

وأُتِيَ بماء قد سُخِّنَ في فَحْمِ الإمارة، فكَرِهَهُ ولم يتوضَّأ به[(٥)].

وكان لا يَحمِلُ على البَرِيد إلا في حاجة المسلمين، وكتَبَ إلى عاملٍ له يشتري له عَسَلًا، ولا يسخِّر فيه شيئًا، وأنَّ عامله حمله على مَرْكَبةٍ من البريد، فلما أتى، قال: علامَ حَمَلَه؟ قالوا: على البريد، فأمر بذلك العسل فبِيعَ، وجعَلَ ثمنه في بيت مال المسلمين، وقال: أفسدتَّ علينا عسلك[(٦)].

وتقول زوجُهُ فاطمة بنت عبد الملك رحمها الله: «اشتهى عمر بن عبد العزيز يومًا عَسَلًا، فلم يكن عندنا عسل، فوَجَّهْنا رجلًا على دابَّة من دوابِّ البريد إلى بَعْلَبَكَّ، فأتى بعسل، فقلنا يومًا: إنك ذكَرْتَ عسلًا، وعندنا عسل؛ فهل لك فيه؟ قال: نعم، فأتيناه به فشَرِب، ثم قال: «مِن أين لكم هذا العسل؟»، قالت: قلتُ: وَجَّهْنا رجلًا على دابَّة من دوابِّ البريد بدينارَيْن إلى بعلبك، فاشترى لنا عسلًا، فأَرْسَل إلى الرجل، فجاء، فقال: انطلِقْ بهذا العسل إلى السوق، فبِعْهُ، فارْدُدْ إلينا رأسَ مالنا، وانظر الفَضْلَ، فاجعله في عَلَفِ دوابِّ البريدِ ـ لأنه جاء به على دابَّة من دوابِّ البريد ـ لو كان ينفع المسلمين قَيْءٌ، لَتَقَيَّأْتُ!»[(٧)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢١٧).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٢٤).
(٣) كبَّبوا اللحمَ تكبيبًا، مِن الكَبَاب، وهو اللحم يُكَبُّ على الجَمْر. «أساس البلاغة» (٢/ ١١٧)، (ك ب ب).
(٤) المصدر السابق (٥/ ٢٩١).
(٥) المصدر السابق (٥/ ٢٩٤).
(٦) المصدر السابق (٥/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤).
(٧) أخرجه أحمد في «الورع» (٣١٣)؛ رواية المَرُّوذِي، وابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٢٠)؛ واللفظ له.

فهذا ورع نحتاج إليه؛ فقد يعمل الإنسان في جهة من الجهات، فيَستغِلُّ سيَّارة العمل لشؤونه الخاصَّة، وربَّما كان يَعمَلُ في مؤسَّسةٍ خيريَّة، ثم لا يتورَّع عن مثل ذلك.

يقول مَسْلَمة بن عبد المَلِك: دخلتُ على عمر بن عبد العزيز بعد الفَجْر في بيت كان يخلو فيه، فلا يدخُلُ عليه أحد، فجاءته جارية بطَبَقٍ عليه تمرٌ صَيْحَاني، وكان يُعجِبُه التمر، فرفَعَ بكفِّه منه، فقال: «يا مَسْلَمَةُ، أترى لو أن رجلًا أكَلَ هذا، ثم شرب عليه من الماء، أكان يُجْزِيه إلى الليل؟»، قلتُ: لا أدري، قال: فرفع أكثر منه، فقال: «هذا؟»، قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين! كان كافيه دون هذا حتى لا يُبالِيَ ألَّا يذوق طعامًا غيره، فقال: «فعَلَامَ يدخل النار؟!»، قال مَسْلَمَة: فما وقعَتْ مني موعظةٌ ما وقعَتْ هذه[(١)].

والمقصودُ من إيراد ذلك كله: الاعتبارُ والاتعاظ، وتحريكُ دواعي الورَع في النفوس، مع مراعاة مراتب الناس في ذلك كله؛ وليس ذلك يعني محاكاة ما سبق لكل أحد، إضافةً إلى أن هذه المرويَّات عن غير المعصوم يُؤخَذُ منها ويُترَك، لكنَّ المؤمِن ينتفع بها، فيكون ذلك باعثًا له على محاسَبة النفس في هذا الباب.



(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧٨٣)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٧٧)، وأخرجه أحمد في «الورع» (٣٣٠)؛ رواية المَرُّوذِي؛ واللفظ له.

الأمور الدقيقة في الوَرَعِ في المكَاسِب

(نماذجُ من فتاوى الإمام أحمد في مسائلَ دقيقةٍ في هذا الباب)

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِن دقيق الورع: ألَّا يَقبَلَ المبذولَ حالَ هَيَجان الطَّبْع من حزن أو سرور؛ فذلك كبذل السَّكْران، ومعلوم أن الرأي لا يتحقَّق إلا مع اعتدال المزاج، ومتى بذَلَ باذل في تلك الحال يعقُبُهُ ندم؛ ومن هنا لا يقضي القاضي وهو غَضْبان، وإذا أردتَّ اختبار ذلك، فاختبِرْ نفسك في كل مواردك من الخير والشر: فالبِدَارُ بالانتقام حال الغضب يُعْقِب ندمًا، وطالما نَدِمَ المسرور على مجازَفَتِه في العطاء، ووَدَّ أن لو كان اقتصَر، وقد نَدِمَ الحسن على تمثيله بابن مُلْجِم»(١).

والمقصود: أن الورَع في المكاسب باب واسع، يدخُلُ فيه أشياء كثيرة يتساهل الناس فيها.

فهذا الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وهو إمام في العلم والورع ـ وُجِّهَتْ إليه سؤالات، فأجاب عنها بأجوِبة يَستغرِبُها أهلُ زماننا؛ **فمن ذلك**:

يقول المَرُّوذِيُّ: «قلت لأبي عبد الله: ما تقول في طَيْرَة أنثى، جاءت إلى قوم، فازَّوَّجَتْ عندهم، وفَرَّخَتْ، لمن الفرخ؟ قال: يَتَّبِعون الأمَّ.

وأظُنُّ أني سمعته يقول في الحَمَام الذي يرعى في الصحراء: أكره أكل فراخها، وكره أن يُرْعَى في الصحراء، وقال: تأكل طعام الناس»(٢).

وسأله أيضًا عن: «بئر احتُفِرَتْ وقد أوصى مخنَّثٌ أن يُعَانَ فيها ـ أي: بماله ـ تَرَى الشرب منها؟ قال: لا، كسبُ المخنَّثِ خبيثٌ؛ يكسبه بالطبل.

قلتُ له: فإنْ رُشَّ منها المسجد ترى أن يُتوقَّى؟ فتبسَّم»(٣).

ويقول أيضًا: سمعتُ أبا عبد الله ـ يعني: أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ يقول: «أكرَهُ الشرب من هذه الآبار التي في الطُّرُقات»(٤).

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٠٦٥ ـ ١٠٦٦).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٢١٥)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٣) المصدر السابق (١١٩).

(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (١٢٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

وذلك أن الطريق: هي المَمَرُّ للسابلة، وليست محلًّا لحَفْرِ البِئْر.

ويقول أيضًا: «قلت لأبي عبد الله: إني أُدعَى أغسِّلُ الميِّت في يوم بارد، فيفضُلُ من الماء الحار؛ تَرَى أن أتوضَّأ منه؟ قال: لا؛ ذاك قد أُسخِنَ بكُلْفةٍ ـ أي: بأجرة ـ كأنه ذهب إلى أمر الوَرَثة»[(١)]؛ يعني: هذا من حق الوَرَثة.

ويقول ولده عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: كان هاهنا شيخ، قال: رأيتُ على يد أبي عبد الله جَرَبًا، فجئتُ بدواء، فقلتُ: ضع هذا عليه، فأخذه ثم ردَّه، فقلتُ له: لِمَ رَدَدتَّهُ؟ فقال: «أنتم تسمعون ـ يعني: مني ـ»[(٢)].

يعني: تسمعون مني الحديثَ والعلم؛ فلا يكون ذلك عِوَضًا عنه، مع أنه يجوز له أن يأخُذ.

وقال محمد بن عيَّاش: «أَرْسَلَني أبو عبد الله، فاشتَرَيْتُ له سَمْنًا بقطعة؛ فجئتُ به على وَرَقةِ بَقْلٍ، فأخذ السَّمْن، وأعطاني الورقة، وقال: رُدَّها»[(٣)].

وهذا الورع يصلح للإمام أحمد وأمثاله، وأما مَن دُونَهم، فيُقالُ لهم ـ إذا وقع منهم شيء من ذلك ـ: «هذا ورَعٌ بارد»؛ كما قدَّمنا.

وقيل له: إن عيسى الفَتَّاح قال: سألت بِشْر بن الحارث: هل للوالدَيْنِ طاعة في الشُّبْهة؟ قال: لا، فقال أبو عبد الله: «هذا سديد[(٤)]»[(٥)].

وقال المَرُّوذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قلت لأبي عبد الله: إني أكون في المسجد في شهر رمضان، فيُجَاءُ بالعُودِ من الموضع الذي يُكْرَه، فقال: وهل يُرادُ من العُودِ إلا رائحتُه؛ إنْ خفي خروجُك، فاخرُجْ»[(٦)].

وسُئِلَ عمَّن سقَطَتْ منه ورَقَة فيها أحاديث؛ فهل لِمَن وجَدَها أن يكتُبَ منها، ثم يَرُدَّها؟ قال: «لا، بل يستأذِنُ، ثم يكتُبُ»[(٧)].

وقد قيل للإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: ما تقول فيمن بنى سُوقًا وحشَرَ الناس إليها غصبًا؛ ليكون البيع بها والشراء؟ فقال: «تجد موضعًا غيره؟»، وكَرِهَ الشراء منها، قيل له: مَنِ

---

(١) المصدر السابق (١٢٨).

(٢) «زوائد الزهد» لعبد الله بن أحمد (ص٢٨٣ ٩)؛ وعنه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٨٥٥).

(٣) ذكره ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٣٥٣).

(٤) في طبعة أخرى: «هذا شديد».

(٥) أخرجه أحمد في «الورع» (١٧٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٦) المصدر السابق (١٤٠).

(٧) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٩٦).

اشترى منها يُشتَرى منه؟ قال: «إذا كان بينك وبينهم رجل، فهو أسهل»[(١)].

وقيل له: إن قومًا يتوقَّوْنَ أن يُوقَدَ بِخِثْيِ الجواميسِ[(٢)]، فقال: «نعم؛ يقال: إن أصلها ليس بصحيح»[(٣)].

أي: أن الجواميس بتلك الناحية في طَرَسُوسَ كانت لبني أميَّة، فلما جاء بنو العبَّاس، أخذوها غصبًا، فكان بعض المتورِّعين يتورَّعون من الإيقاد بِرَوْثها.

وقال له المَرُّوذِيُّ: بِعْتُ ثوبًا من رجل ـ أعني: أكره كلامه ومُبايَعَتَه ـ (وكانوا يكرهون البيع والشراء من أصحاب البدع كالجهميَّة)؟ فقال: «دعه حتى أنظُرَ فيها»، فلما كان بعدُ، سألتُهُ قال: «تَوَقَّ أن تبيعه».

قلتُ: فإني بِعْتُه، وأنا لم أعلم، قال: «إنْ قَدَرْتَ أن تستردَّ البيع، فافعل»، قلتُ: فإنْ لم يمكنِّي، أتصدَّق بالثمن؟ قال: «أكره أن أَحْمِلَ الناس على هذا، فتَذهَبَ أموالهم». قلت: فكيف أصنع؟ قال: «ما أدري! أكره أن أتكلَّم فيها بشيء، ولكنْ أَقَلُّ ما هاهنا: أن تتصدَّق بالرِّبْح، وتتوقَّى مبايَعَتَهم»[(٤)].

وقال له المَرُّوذِيُّ أيضًا: يُروَى عن يوسف بن أسباط؛ أن الثوري وابن المبارك اختلَفَا في رجل خلَّف متاعَهُ عند غلامه، فباع ثوبَهُ ممن يكره مبايَعَتَهُ، قال الثوري: «يُخرِجُ قيمته»؛ يعني: قيمة الثوب، وقال ابن المبارك: «يتصدَّق بالرِّبْح»، فقال الرجل: ما أجد قلبي يسكُنُ إلا أن أتصدَّق بالكِيس، وقد كان ألقى الدراهم في الكيس، فقال أبو عبد الله: «بارَكَ اللهُ فيه»[(٥)].

وقال له أيضًا: رجل له والدة مريضة، وقد كان أبوه اشترى طَوَابِيق[(٦)] مِن مكانٍ يُكْرَه؛ وهو الغصب ـ يعني: من مكان فيه غصب ـ وقد فَرَشَ الدارَ بها؛ ترى للابن أن يدخُلَ إلى أمه؟ قال: «لا؛ كيف يدخُلُ؟ أليس يريد أن يطأها؟!»[(٧)].

وقال الإمام أحمد في المال المشتبِهِ حلالُهُ من حرامه: «إنْ كان المال كثيرًا، أخرَجَ منه قدر الحرام، وتصرَّف في الباقي، وإنْ كان المال قليلًا، اجتنَبَهُ كلَّه»[(٨)].

---

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٩٥)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٢) اسمٌ لروث البقر. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ١١)، (خ ث ا).
(٣) أخرجه أحمد في «الورع» (٥٣)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٤) المصدر السابق (٩٩).
(٥) المصدر السابق (١٠٠).
(٦) **الطوابيق**: البلاط.
(٧) «الورع» للإمام أحمد (١٠٦)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٨) «جامع العلوم والحكم» (ص١٣٧).

مع أن هذا كما قال الزُّهْري رَحِمَهُ اللهُ: «لا بأس أن يأكُلَ منه ما لم يُعْرَفْ أنه حرام بعينه»(١).

وأما سُفْيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ **فيقول**: «لا يعجبني ذلك، وتركُهُ أعجَبُ إليَّ»(٢).

وكان رَحِمَهُ اللهُ **يقول في الرجل يجد في بيته الأَفْلُسَ أو الدراهم**: «أَحَبُّ إليَّ أن يتنزَّه عنها؛ يعني: إذا لم يَدْرِ مِن أين هي»(٣).

وقال الإمام أحمد: «هؤلاء الذين يَجلِسون على الطريق يبيعون ويشترون، ما ينبغي لنا أن نَشترِيَ منهم»(٤)؛ يعني: لأن الطريق ليس موضعًا لذلك.

وسُئِلَ عن رجل أَخَذَ من الطريق شيئًا(٥)، هل يكون مقبولَ الشهادة؟ قال: «ما هذا بعَدْل»(٦).

وسُئِلَ عن الصلاة في مسجد بُنِيَ على سَابَاط ـ يعني: سقيفةً بين دارَيْنِ ـ قال: «لا؛ هذا طريق المسلمين، قال: وكان جعفر بن محمد بن علي نهى أن يصلَّى في هذه المساجد التي في الطُّرُقات»(٧).

وذلك؛ لأنه بناه في غير الموضع الذي ينبغي أن يُبْنَى فيه، بناه في طريق المسلمين، فضيَّق عليهم.

وقال: «كان ابن مسعود يَكرَهُ أن يصلِّيَ في المسجد الذي بُنِيَ على القَنْطَرة»(٨).

وسُئِلَ عن بَوَارِي المسجد ـ الحُصُر والسجاد ـ ترى أن يُقْعَدَ عليها خارج المسجد لجنازة تكون؟ قال: «لا يُقْعَدُ عليها خارج المسجد»(٩).

وجاء يعزِّي رجلًا وباريَّةٌ على الباب، فلم يقعد مع الناس على الباريَّة، وقعد على التراب(١٠).

وذلك أنه صار من جملة الميراث.

وقال موسى بن عبد الرحمٰن بن مَهْدِي: «لما قُبِضَ عمِّي، أُغمِيَ على أبي، فلما أفاق، قال: البِسَاطُ نَحُّوهُ ـ أي: أَدْرِجُوهُ ـ لعله للورثة»(١١).

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٦ ـ ١٣٧).
(٢) المصدر السابق (ص١٣٦).
(٣) المصدر السابق (ص١٤١).
(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (١١١)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٥) قوله: «أَخَذَ من الطريق شيئًا»؛ أي: ليوسِّع داره ونحو ذلك؛ كالدَّرَج.
(٦) أخرجه أحمد في «الورع» (١١٢)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٧) المصدر السابق (١٠٨).
(٨) المصدر السابق (١٠٩).
(٩) المصدر السابق (١٢٦).
(١٠) المصدر السابق (١٢٧).
(١١) المصدر السابق (١٢٩).

وسُئِلَ الإمام أحمد عن الذي يتعامل بالربا؛ يُؤكَلُ عنده؟ قال: «لا، قد رُوِيَ ذلك عن ابن مسعود»[(١)].

وقال **المَرُّوذِيّ**: «قلتُ لأبي عبد الله: هل للوالدَيْنِ طاعةٌ في الشُّبْهة؟ فقال: في مِثْلِ الأكل؟ فقلتُ: نعم، قال: ما أُحِبُّ أن يقيم معهما عليها، وما أُحِبُّ أن يَعصِيَهُما، يُدارِيهما، ولا ينبغي للرجل أن يُقِيمَ على الشُّبْهة مع والدَيْه»[(٢)].

وأُدْخِلَ عليه رجل حَطَّاب، فقال: إن لي إخوة، وكَسْبُهم من الشبهة، فربَّما طَبَخَتْ أُمُّنا، وتسألنا أن نجتمع ونأكل؟ فقال له ـ على سبيل التواضع ـ: «هذا موضعُ بِشْر» ـ يعني: بشرًا الحافي، يقول: أنا لست بأهل أن أتكلَّم في هذه الدقائق ـ «لو كان حيًّا، كان موضعًا تسأله، أسأل الله ألَّا يَمْقَتُنا، ولكنْ تأتي أبا الحسن عبد الوهاب، فتسأله»، فقال له الرجل: فتُخبِرُني بما في العلم؟ قال: «قد رُوِيَ عن الحسن: إذا استأذَنَ والدته في الجهاد، فأَذِنَتْ له، وعلم أن هواها في المقام، فليُقِمْ»[(٣)]؛ أي: لا يخرُجُ للجهاد ما لم يكنْ فرضَ عين.

وسُئِلَ عن الدراهم تُدفَعُ إلى رجل يشتري بها الحاجة، فيَرَى المسكينَ؛ تَرَى أن يتصدَّق بها، ويَرُدَّ مكانها؟ قال: «لا يُعطِي ـ يعني: الناس ـ لا ينبغي له أن يَفعَل»[(٤)].

وهذا يقال للذين يأخُذُونَ التبرُّعات ـ سواءٌ كانوا مؤسَّسات أو أفرادًا ـ لا يجوز لهم أن يضَعُوها في مساهمات فيها مخاطَرةٌ؛ فتضيع، ولا يجوز لهم أن يتصرَّفوا فيها بتأويلات؛ فيضعوا شيئًا منها على غير الوجه الذي جُمِعَتْ له.

وسُئِلَ عن الرجلِ يَكْسِبُ[(٥)] بالأجر، فيجلس في المسجد؟ قال: «أمَّا الخيَّاطُ وأشباهه، إنما بُنِيَ المسجدُ لِيُذكَرَ اسم الله فيه، وكُرِهَ البيع والشراء فيه»[(٦)].

ونقَلَ عن عطاء بن يَسَار رَحِمَهُ اللهُ؛ أنه رأى رجلًا يبيع في المسجِدِ، فدعاه، فقال: «هذه سُوقُ الآخرة؛ فإنْ أردتَّ البيع، فاخرُجْ إلى سوق الدنيا»[(٧)].

وذكَرَ أيضًا عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أنه رأى رجلًا يقول لصاحبه في المسجد: اشتريتُ وَسْقَ حطبٍ بكذا وكذا، فقال أبو الدرداء: «إن المساجد لا تعمَّرُ بهذا»[(٨)].

وقال المَرُّوذِيّ: قلتُ لأبي عبد الله: فترى للرجل أن يَعمَلَ المَغازِل، ويأتي

---

(١) المصدر السابق (١٦١).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه أحمد في «الورع» (١٨١)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٤) المصدر السابق (١٩٧).
(٥) في نسخة أخرى: «يكتب».
(٦) أخرجه أحمد في «الورع» (١٩٩)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٧) المصدر السابق (٢٠٠).
(٨) المصدر السابق (٢٠١).

المقابر، فربما أصابه المطر، فيدخُلُ في بعض القِبَاب، فيعمل فيها؟ فقال: «المقابر إنما هي أمر الآخرة»؛ وكأنه كَرِهَ ذلك[(١)].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: كنتُ مع أبي يومًا من الأيام في المنزل، فدَقَّ داقٌّ الباب، قال لي: اخرُجْ فانظر مَن بالباب، فخرجتُ، فإذا امرأة، قال: قالت لي: استأذِنْ لي على أبي عبد الله، قال: فاستأذنتُهُ، فقال: «أَدْخِلْها»، قال: فدخلَتْ، فجلسَتْ، فسلَّمت عليه، وقالت له: يا أبا عبد الله، أنا امرأة أَغْزِلُ بالليل في السراج، فربما طُفِئَ السراج، فأَغْزِلُ في القمر؛ فعليَّ أن أبيِّنَ غَزْلَ القمر مِن غَزْلِ السراج؟ قال: فقال لها: «إنْ كان عندكِ بينهما فرقٌ، فعليكِ أن تبيِّني ذلك»، قال: قالت له: يا أبا عبد الله، أَنِينُ المريضِ شكوى؟ قال: «أرجو أَلَّا يكون شكوى، ولكنه اشتكاءٌ إلى الله»، قال: فوَدَّعَتْهُ وخرَجَتْ.

قال: فقال لي: «يا بُنَيَّ، ما سمعتُ قطُّ إنسانًا سأل عن مثل هذا، اتْبَعْ هذه المرأة، فانظُرْ أين تدخُلُ؟»، قال: فاتبعتُها، فإذا قد دخلَتْ إلى بيت بِشْر بن الحارث، وإذا هي أخته، قال: فرجعتُ، فقلتُ له، فقال: «مُحَالٌ أن تكون مثلُ هذه إلا أختَ بشر»[(٢)].

وقال عبد الله بن أحمد: جاءت مُخَّةُ أختُ بشر بن الحارث إلى أبي، فقالت له: إني امرأةٌ رأسُ مالي دَانِقَانِ، أشتري القطن فأُرْدِنُهُ، فأبيعُهُ بنصف درهم، فأتقوَّتُ بدانِق من الجُمُعة إلى الجمعة، فمَرَّ ابن طاهر الطائف ومعه مِشْعَل، فوقف يكلِّمُ أصحاب المصالح، فاستغنَمَتُ ضوءَ المِشْعَل، فغَزَلْتُ طاقات، ثم غاب عني المِشْعَل، فعَلِمْتُ أن لله فيَّ مطالَبة، فخَلِّصْني خَلَّصَكَ الله، فقال لها: «أتُخْرِجِينَ الدانِقَيْنِ، ثم تَبْقَيْنَ بلا رأس مال حتى يعوِّضَكِ الله خيرًا منهما»، فقلتُ لأبي: يا أَبَتِ، لو قلتَ لها: لو أخرجتِ الغَزْلَ الذي أَدْرَكْتِ فيه الطاقات، فقال: «يا بُنَيَّ، سؤالها لا يَحتمِلُ التأويل»، ثم قال: «مَن هذه؟»، قلتُ: مُخَّةُ أختُ بشر بن الحارث، فقال: «مِن ههنا أُتِيتُ»[(٣)].

هذه بعض فتاوى الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في أبوابٍ من الورع؛ وبذلك نَعرِفُ مدى ما نحن فيه من التخليط!

وذلك لا يعني ـ كما سبق ـ أن نَلِجَ في هذه الدقائق، أو نتكلَّفَ مثل هذه المراتب،

(١) المصدر السابق (٢٠٤).
(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٤٣٧).
(٣) المصدر السابق (١٤/ ٤٣٧).

والواقع: أن بيننا وبينها مَفَاوِز، ولكنْ نحن بحاجةٍ إلى تركِ الحرام الواضح، ومجانَبةِ المشتبِهاتِ التي هي بَرْزَخٌ بين الحلال والحرام.

وهذا نُور الدين زِنْكي رَحِمَهُ اللهُ، القائد الفاتح المعروف؛ **يقول ابن الأثير** رَحِمَهُ اللهُ: «طَالَعْتُ سِيَرَ الملوكِ المتقدِّمين، فلم أَرَ فيها بعد الخلفاء الراشِدِينَ وعمر بن عبد العزيز أحسَنَ مِن سيرته، ولا أكثَرَ تحرِّيًا منه للعَدْل... كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرَّف في الذي يخُصُّهُ إلا مِن مُلْكٍ كان له قد اشتراه من سَهْمِه من الغنيمة... ولقد شكَتْ إليه زوجتُهُ من الضائقة، فأعطاها ثلاثة دَكَاكِينَ في حِمْص كانت له، منها يحصُلُ له في السنة نحوُ عشرين دينارًا، فلما استقَلَّتْها، قال: ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين؛ لا أَخُونُهم فيه، ولا أَخُوضُ نار جهنَّم لأَجْلِكِ»[(١)].

رابعًا: الورَعُ في المخالَطةِ والمجالَسة:

ويرادُ به التورُّعُ في مجالَسة الناس ومخالَطتهم؛ فقد كان السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُم يتورَّعون في ذلك، ويتخيَّرون المَجَالِسَ، ويتنزَّهون عن المجالس التي تَشغَلُهم عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، وتتغيَّر فيها قلوبُهم.

يقول يوسف بن أسباط لسفيان الثَّوْري: مَن أُجِيبُ ومَن لا أُجِيب؟ ـ أي: في الدعوة ـ قال: «لا تدخُلْ على رجل إذا دخَلْتَ عليه، أفسَدَ عليك قلبك»[(٢)].

وهكذا إذا كانت تلك المجالس يحصُلُ فيها فتنةٌ للعبد بسبب ما يَرَى من الأُبَّهةِ والبَطَر، ومظاهرِ التَّرَف الكثيرة، التي لا يَتمالَك معها قلبُ العبد؛ فإذا عرَفَ من نفسِهِ أن ذلك يشغله، فإن الورع في حقه أن يتجنَّب ذلك؛ ولهذا كان السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُم يكرهون الدخول على أهل البَسْطة.

والواقعُ: أن الناس يَتفاوَتُونَ في ذلك تفاوتًا بيِّنًا، لا سِيَّما النساء؛ فالمرأة قد تكون في حالٍ لا تَملِكُ فيها الكثير مما يملكه هؤلاء؛ فإذا دخَلَتْ عليهنَّ، ورأت ما عندهنَّ، وقارنت بحالها وبأَثَاثِها، وطعامها وشرابها ومسكنها، وغير ذلك، فلربما أفسَدَ ذلك قلبها، وغيَّرها على زوجها، ولربَّما تسخَّطت على مقدورها، وتحسَّرت على حالها؛ كيف أنها تعيش في هذه الحال، وهؤلاء يعيشون في سَعَةٍ وغِنًى؟! وقد تَكذِب وتتصنَّع وتتشبَّع بما لم تُعْطَ، وتسعى في تحصيل المال من غير وجهه المشروع؛ لتتوسَّع كما توسَّع هؤلاء.

ولذلك كان الأفضل في حق كل امرئ، ذَكَرًا كان أم أنثى: ألَّا يُخالِطَ إلا من يقرِّبُه

---

(١) «الكامل في تاريخه» (١٠/٥٦ ـ ٥٧).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٤٥٤)؛ رواية المَرُّوذِي.

من الله، ويرغِّبُه فيما عنده، ويزهِّدُه في الدنيا، ولا يتغيَّر حاله بمجالَسَتهم ومزاوَرَتهم إلا إلى الأحسن والأكمل، والمرء على دِينِ خليله.

خامسًا: الورع في الفُتْيا، والكلام على الأحكام، ومعاني القرآن:

وهو بابٌ واسع، وكلامُ السلف ﷺ فيه كثير، وهو أمر ينبغي للعبد أن يتفطَّن له، وأن يجعله نُصْبَ عينيه؛ لأن القائل فيه بلا علم متوعَّدٌ بالعقوبة، والله ﷻ حرَّم الفواحش ما ظهَرَ منها وما بطَن، والإثم والبغي بغير الحق، كما حرَّم الإشراك، والقول عليه بغير علم، وذكَرَ ذلك في سياق واحد: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وإذا نَظَرْتَ إلى أخبار السلف ﷺ وأحوالهم، رأيتَ الاحتياط التامّ، والورَعَ في هذه الأبواب؛ **وإليك نماذجَ من ذلك التورُّع:**

١ ـ وَرَعُهم عند الكلام في التفسير ومعاني القرآن:

فعن ابن أبي مُلَيْكَة رحمه الله: «أن ابن عبَّاس ﷺ سُئِلَ عن آية لو سُئِلَ عنها بعضكم، لقال فيها، فأبى أن يقول»[١]؛ وهو تَرْجُمان القرآن.

وثبَتَ عنه أيضًا: أن رجلًا سأله عن يوم كان مقدارُهُ ألف سنة؟ فقال ابن عباس: «فما يومٌ كان مقداره خمسين ألف سنة؟»، قال الرجل: إنما سألتُكَ لتحدِّثني، فقال ابن عباس: «هما يومان ذكَرَهُما الله في كتابه، اللهُ أعلم بهما»؛ فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم[٢]؛ وهو حَبْرُ هذه الأمة، لم يَسْتَحِ، ولم يتحَرَّج من سائله أن يقول لما لا يعلم: لا أَعْلَمْ.

وجاء طَلْقُ بن حَبِيب إلى جُنْدُب بن عبد الله ﷺ، **فسأله عن آية من القرآن؟ فقال:** «أحرِّجُ عليك إنْ كنتَ مُسلِمًا لمَّا قُمْتَ عني»[٣].

وكان سعيد بن المسيَّب رحمه الله تعالى إذا سُئِلَ عن شيء من القرآن؟ قال: «أنا لا أقول في القرآن شيئًا»[٤]؛ وكان لا يقول إلا في المعلوم مِن القرآن[٥].

---

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ٨٦)؛ وإسناده صحيح؛ كما قال ابن كَثِير (١/ ١٢).
(٢) أخرجه أبو عُبَيْد في «فضائل القرآن» (ص٣٧٦)؛ وإسناده صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٨٦)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (٨٦٤).
(٤) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٧٦ ـ ٣٧٧)؛ واللفظ له، وابن سعد (٢/ ٣٢٨)، وابن جرير (١/ ٨٥)؛ بإسناد صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير (١/ ٨٦)؛ وإسناده صحيح.

وسأله رجل عن آية من القرآن؟ فقال: «لا تسأَلْنِي عن القرآن، واسأَلْ مَن يزعُمُ أنه لا يخفى عليه شيء منه»؛ يعني: عِكْرِمَةَ[(١)].

ويقول يزيد بن أبي يزيد: «كنا نسأل سعيد بن المسيَّب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، وإذا سألناه عن آية من القرآن، سكَتَ كأنْ لم يَسْمَعْ»[(٢)].

وقال عُبَيْد الله بن عمر رَحِمَهُ اللهُ: «لقد أدركْتُ فقهاء المدينة، وإنهم لَيُعَظِّمُونَ القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيَّب، ونافع»[(٣)].

ويقول هشام بن عُرْوة رَحِمَهُ اللهُ: «ما سمعتُ أبي يتأوَّل آية من كتاب الله قطُّ»[(٤)].

وهذا عَبِيدة السَّلْماني رَحِمَهُ اللهُ سأله محمد بن سِيرِينَ عن آية من القرآن؟ فقال: «ذهب الذين كانوا يَعْلَمونَ فِيمَ أُنزِلَ القرآن؛ اتق الله، وعليك بالسداد»[(٥)].

وكان مسلِم بن يَسَار رَحِمَهُ اللهُ **يقول**: «إذا حَدَّثْتَ عن الله حديثًا، فقِفْ حتى ترى ما قبله وما بعده»[(٦)].

وقال إبراهيم النَّخَعي عن أصحاب ابن مسعود رحمهم الله: «كان أصحابُنا يَكْرَهُونَ تفسير القرآن ويهابونه»[(٧)].

وهذا الحافظ الكبير الشَّعْبي الذي كان يقول: «ما أروي شيئًا أقلَّ من الشِّعْر، ولو شئتُ لَأَنْشَدتُّكُمْ شهرًا لا أُعِيدُ»[(٨)]، ومع ذلك يقول: «واللهِ، ما مِن آية إلا وقد سَأَلْتُ عنها، ولكنها الرواية عن الله عَزَّ وَجَلَّ»[(٩)]؛ ولهذا قال مسروق بن الأَجْدَع: «اتقوا التفسير؛ فإنما هو الرواية على الله»[(١٠)].

---

(١) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٧٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥١١)، وابن جرير (١/ ٨٦ ـ ٨٧)؛ وإسناده صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٨٦)؛ وإسناده صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير (١/ ٨٥)؛ وإسناده صحيح.
(٤) أخرجه أبو عبيد في «الفضائل» (٨٥٢).
(٥) أخرجه سعيد بن منصور في «التفسير» (٤٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥١١)، وابن جرير في «تفسيره» (١/ ٨٦)؛ واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٨٥)؛ وإسناده صحيح.
(٦) أخرجه أبو عبيد في «الفضائل» (٨٥٠)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٩٢)؛ وإسناده صحيح.
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٢٢).
(٨) انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٨٤)؛ لتعلم مبلَغَ هذا الحافظ من العلم.
(٩) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٨٧)؛ وإسناده صحيح.
(١٠) أخرجه أبو عبيد في «الفضائل» (٨٤٩)؛ وإسناده صحيح.

«وكان الأصمعي ـ وهو إمام اللغة ـ مِن أشدِّ الناس ورعًا في هذا الباب، وكان لا يفسِّرُ شيئًا من غريب القرآن، وحُكِيَ عنه أنه سُئِلَ عن قول الله تعالى: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]؟ فسكَتَ، وقال: «هذا في القرآن»، ثم ذكَرَ قولًا لبعض العرب في جاريةٍ أرادوا بيعها: أتبيعونها وهي لكم شَغَاف؟»[(١)]، لم يتكلَّم في معناها من جهة اللغة؛ لأنها واردةٌ في القرآن، واكتفى بذكر هذه الجملة فقطْ.

كما أبى أن يتكلَّم في أنَّ: (سَرَى، وأَسْرَى) بمعنى واحد؛ لأن (أسرى) ذُكِرَتْ في القرآن، كما أنه أبى أن يتكلَّم في: (عصَفَتِ الريحُ، وأَعْصَفَتْ)؛ أي: أنهما بمعنى واحد؛ لأنها في القرآن، وقال: «الذي سمعتُ أن معنى: (الخليل): أصفى المودَّةِ وأَصَحُّها، ولا أزيد فيها شيئًا؛ لأنها في القرآن»[(٢)].

٢ ـ وَرَعهم في الفُتْيا والأحكام:

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «واللهِ، إنَّ الذي يُفْتي الناس في كل ما يسألونه لمجنون»[(٣)].

وسُئِلَ عن شيء؟ فقال: «إني لَأَكْرَهُ أن أُحِلَّ شيئًا قد حرَّمه الله عليك، أو أحرِّمَ ما أحلَّه الله لك»[(٤)]؛ ولم يُجِبْ.

وقال مَرَّةً: «مَن عَلِمَ شيئًا، فليقل به، ومن لم يعلم، فليقل: الله أعلم؛ فإنَّ مِن العِلْم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم؛ قال الله عز وجل لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]»[(٥)].

وجاء إليه رَجُلٌ، فقال: إني طلَّقتُ امرأتي ثمانيًا، فقال عبد الله: «واحدةً قُلْتَها؟»، قال: نعم، قال: «تريد أن تَبِينَ منك امرأتُكَ؟»، قال: نعم، قال: «هو كما قُلْتَ»، ثم جاءه رجل، فقال: طلَّقتُ امرأتي عدد النجوم، فقال: «مرةً واحدةً قُلْتَها؟»، قال: نعم، قال: «فتريد أن تَبِينَ منك؟»، قال: نعم... قال عبد الله: «قد بيَّن الله لكم كيف الطلاق؛ فمَن طلَّق كما أمَرَهُ الله، فقد بُيِّنَ له، ومَن لَبَسَ، جعَلْنا به لَبْسَهُ، والله، لا

---

(١) ذكره الزركشي في «البرهان» (١/ ٢٩٥).

(٢) انظر: «المُزْهِر» للسيوطي (٢/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٣) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (١٠)؛ بسند صحيح، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٢٠٤).

(٤) أخرجه الدارمي (١٤٩).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٠٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨).

تَلبِسُونَ على أنفسِكم ونتحمَّلُهُ عنكم؛ هو كما تقولون»[(١)].

ورُوِيَ عن علي رضي الله عنه؛ **أنه قال**: «إذا سُئِلْتُم عمَّا لا تَعلَمُونَ، فاهرُبُوا»، قالوا: وكيف الهَرَبُ يَا أميرَ المؤمنين؟! قال: «تقولون: الله أعلم»[(٢)].

وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما؛ أن رجلًا سأله عن مسألة؟ فقال: «لا عِلْمَ لي بها»، فلمَّا أدبَرَ الرجُلُ، قال ابن عمر: «نِعْمَ ما قال ابنُ عُمَرَ؛ سُئِلَ عمَّا لا يعلم، فقال: لا عِلْمَ لي به»![(٣)].

فهذا إنما يقوله العالم الذي يَخافُ الله عز وجل، أمَّا مَن قلَّ علمُهُ، وقلَّ ورَعُهُ، فإن ذلك مما يشتدُّ عليه أن يُسأَلَ عن شيء لا يعلمه، فيقول: لا أعلمه.

وعن عُبَيْد بن جُرَيْج؛ قال: «كنتُ أجلِسُ بمَكَّةَ إلى ابن عمر يومًا، وإلى ابن عبَّاس يومًا، فما يقول ابن عمر فيما يُسْأَلُ: لا عِلْمَ لي! أكثرُ ممَّا يُفتِي به»[(٤)].

وعن معاوية بن أبي عَيَّاش الأنصاري؛ أنه كان جالسًا مع عبد الله بن الزُّبَيْر، وعاصم بن عُمَر بن الخطاب، قال: فجاءهما محمد بن إيَاس بن البُكَيْر، فقال: إن رجلًا من أهل البادية طلَّق امرأتَهُ ثلاثًا قبل أن يدخُلَ بها؛ فماذا تريان؟ فقال عبد الله بن الزُّبَيْر: «إنَّ هذا الأمر ما لنا فيه قول؛ فاذهَبْ إلى عبد الله بن عبَّاس وأبي هريرة؛ فإني تركتُهُما عند عائشة، فسَلْهُما، ثم ائتِنَا فأخبِرْنا»، فذهَبَ فسألهما، فقال ابن عبَّاس لأبي هريرة: «أَفْتِهِ يا أبا هريرة؛ فقد جاءَتْكَ مُعْضِلة!»، فقال أبو هريرة: «الواحدةُ تُبِينُها، والثالثةُ تحرِّمُها حتى تَنكِحَ زوجًا غيرَهُ»[(٥)].

وعن أبي المنهال؛ قال: سأَلْتُ البَرَاء بن عازب رضي الله عنه عن الصَّرْف؟ فقال: «سَلْ زَيْدَ بن أَرْقَم؛ فهو أعلم»، فسألتُ زيدًا، فقال: «سَلِ البَرَاء؛ فإنه أعلم»[(٦)].

وقال عبد الرحمٰن بن أبي ليلى رحمه الله: «لقد أَدْرَكْتُ في هذا المسجِد عشرين ومائةً من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما أحدٌ منهم يحدِّثُ حديثًا إلا وَدَّ أن أخاه

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (١٥٨٢) بلاغًا، ووصله الطبراني في «الكبير» (٩٦٢٩)؛ واللفظ له، وصحَّحه ابن حجر في «المطالب» (١٧٠١).

(٢) أخرجه الدارمي (١٨٣).

(٣) أخرجه الدارمي (١٨٥)؛ واللفظ له، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٦٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١٠٧).

(٤) أخرجه الدارمي (١٥٧)؛ بسند حسن.

(٥) أخرجه الإمام مالك (١٦٥٩)؛ واللفظ له، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٥٧)، والبيهقي في «سننه» (٧/ ٣٣٥).

(٦) أخرجه البخاري (٢١٨٠، ٢١٨١)، ومسلم (١٥٨٩)؛ واللفظ له.

كفاه الحديث، ولا يُسأَلُ عن فتيا إلا وَدَّ أن أخاه كفاه الفُتْيا»(١).

وقال شيخ من أهل المدينة يُكْنَى بأبي إسحاق: «كنتُ أرى الرجل في ذلك الزمان، وإنه لَيَدْخُلُ يسأَلُ عن الشيء، فيَدفَعُهُ الناسُ من مجلس إلى مجلس حتى يُدفَعَ إلى مجلس سعيد بن المسيَّب؛ كراهيةً للفتوى»(٢).

وسُئِلَ الشَّعْبيُّ رحمه الله: **كيف كنتم تصنعون إذا سُئِلتُمْ؟ قال:** «على الخبير وَقَعْتَ؛ كان إذا سُئِلَ الرجل، قال لصاحبه: أَفْتِهِمْ؛ فلا يزال حتى يَرجِعَ إلى الأوَّل»(٣).

ويقول محمد بن المُنْكَدِر رحمه الله: «إن العَالِم يدخُلُ فيما بين الله وبين عباده؛ فلْيَطْلُبْ لنفسه المَخرَج»(٤).

وقال ابن عُيَيْنة رحمه الله: سمعتُ أيوبَ السَّخْتِيانيَّ يقول: «أَجْسَرُ الناس على الفُتْيَا أقلُّهم علمًا باختلاف العلماء»(٥).

وقال سُحْنُون بن سعيد من المالكية رحمه الله: «أجرَأُ الناس على الفتيا أقلُّهم علمًا؛ يكون عند الرجل الباب الواحد مِن العلم يظنُّ أن الحق كله فيه».

وقال عن نفسه: «إنِّي لَأَحْفَظُ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال مِن ثمانية أئمة من العلماء؛ فكيف ينبغي أن أعجِّلَ بالجواب حتى أتخيَّر؟! فلِمَ أُلَامُ على حبس الجواب؟!»(٦).

وقال يومًا: «إنَّا لله، ما أشقى المفتيَ والحاكم!»، ثم قال: «ها أنا ذا يُتعلَّمُ مني ما تُضرَبُ به الرِّقَاب، وتُوطَأُ به الفروج، وتُؤخَذُ به الحقوق؛ أما كنتُ عن هذا غنيًّا؟!»(٧).

ولهذا قال أبو عثمان الحدَّاد: «القاضي أيسَرُ مأثمًا وأقرَبُ إلى السلامة من الفقيه؛ لأن الفقيه مِن شأنه إصدارُ ما يَرِدُ عليه مِن ساعته بما حضَرَهُ من القول، والقاضي شأنه

---

(١) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (٢١)، والفسوي في «تاريخه» (٢/ ٨١٧ ـ ٨١٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢١٩٩)، (٢٢٠١).
(٢) أخرجه الفسوي في «تاريخه» (١/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٢٠٥)؛ واللفظ له.
(٣) أخرجه الدارمي (١٣٨).
(٤) أخرجه الدارمي (١٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٥٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٠٨٨).
(٥) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٢٥).
(٦) المصدر السابق (٢٢١١).
(٧) المصدر السابق (٢٢٢٠).

الأناةُ والتثبُّت، ومن تأنَّى وتثبَّت، تَهَيَّأَ له من الصواب ما لا يَتَهَيَّأ لصاحب البديهة»[(١)].

ذلك أن المفتي يُجِيبُ عن المسألة مباشَرة، أما القاضي فيَتَّخِذُ المجالس، ويتأنَّى في المسألة، ويُراجِعُ الكتب، ويستشير، وبعد ذلك يَحكُم.

وقال القاسم بن محمد رَحِمَهُ اللهُ: «لَأَنْ يعيشَ الرجلُ جاهلًا بعد أن يَعلَمَ حقَّ الله عليه خيرٌ له من أن يقولَ ما لا يعلم»[(٢)].

وجاء عن موسى بن علي؛ أنه سأل ابنَ شِهَاب ـ الزُّهْريَّ ـ عن شيء؟ فقال ابن شهاب: «ما سمعتُ فيه بشيء، وما نزَلَ بنا، وما أنا بقائل فيه شيئًا»[(٣)].

ويقول الأعمش: «ما سمعتُ إبراهيم ـ أي: النخعيَّ ـ يقول برأيه في شيء قطُّ»[(٤)].

ويقول قتادة: «ما قلتُ برأيي منذ ثلاثين سنة»، وقال بعضهم: «منذ أربعين سنة»[(٥)].

وسُئِلَ عَطَاء عن شيء؟ فقال: «لا أدري»، قيل له: أَلَا تقول فيها برأيك؟ قال: «إني أَسْتَحْيِي من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أن يُدَانَ في الأرض برأيي»[(٦)].

وسُئِلَ القاسم بن محمد رَحِمَهُ اللهُ **عن مسألة؟ فقال:** «إنَّا واللهِ ما نَعلَمُ كُلَّ ما تَسأَلُونَ عنه، ولو عَلِمْنا ما كَتَمْنَاكم، ولا حَلَّ لنا أن نَكْتُمَكُمْ»[(٧)].

وسُئِلَ عن مسألة؟ فقال: «ما اضْطَرَّني إلى هذه المَشُورة، وما أنا منها في شيء»[(٨)].

والمراد ـ كما فسَّره محمد بن عبد الله الأنصاري؛ وهو أحد رواته ـ كأنه يرى أنَّ الوالي إذا شاوَرَ مَن عنده في شيء مِن العلم، فالواجب عليه أن يَجتهِدَ.

وقال له قائل: يا أبا محمَّد، إنه قبيحٌ على مِثْلك، عظيمٌ أن تُسأَلَ عن شيء مِن أمرِ هذا الدِّين، فلا يوجد عندك منه علمٌ ولا فَرَج، أو علمٌ ولا مَخْرَج! فقال له القاسم: «وعَمَّ ذلك؟»، قال: لأنك ابنُ إمامَيْ هُدًى: ابنُ أبي بكر وعمر، قال: يقول له القاسم: «أَقْبَحُ من ذاك عند مَن عقَلَ عن الله: أن أقولَ بغير علم، أو آخُذَ عن غير ثقة»[(٩)].

---

(١) المصدر السابق (٢٢٢١).

(٢) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (٩٠)، والدارمي (١١٢)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٨٤)؛ وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٦٢٨)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢٢١٥)؛ واللفظ له.

(٤) أخرجه الدارمي (١٠٦)؛ بسند صحيح.

(٥) أخرجه الدارمي (١٠٧).

(٦) أخرجه الدارمي (١٠٨)؛ بسند صحيح.

(٧) أخرجه الدارمي (١١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٨٤)؛ واللفظ لهما، وابن عبد البر في «الجامع» (١٥٦٧)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١١٧).

(٨) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ١٨٧)، والدارمي (١١٤)؛ بنحوه.

(٩) أخرجه مسلم في مقدِّمة «صحيحه» (١/ ١٦).

ويقول سَلْمُ بن جُنَادة: حَدَّثنا ابنُ إدريس عن عمِّه؛ قال: «خرَجْتُ من عند إبراهيم ـ يعني: النَّخَعيَّ ـ فاستقبَلَني حمَّاد، فحمَّلني ثمانيةَ أبوابٍ، مسائل، فسألته، فأجابني عن أربعٍ، وتَرَكَ أربعًا»[(١)].

ويقول بعض مَن عرَفَهُ ـ أي: إبراهيمَ النَّخَعيَّ ـ: «ما سألتُ إبراهيمَ عن شيءٍ إلا عَرَفْتُ الكراهيةَ في وَجْهِه»[(٢)]؛ فهو يستثقل الإجابة؛ لأنَّه مبلِّغ عن الله ﷻ.

وعن عُمَرَ بن أبي زائدة؛ قال: «ما رأيتُ أحدًا أكثَرَ أن يقولَ إذا سُئِلَ عن شيءٍ: لا عِلْمَ لي به، من الشَّعْبي»[(٣)].

وعن جعفر بن إياس؛ قال: قلتُ لسعيد بن جُبَيْر: ما لك لا تقولُ في الطلاق شيئًا؟ قال: «ما منه شيءٌ إلا قد سَأَلْتُ عنه، ولكنِّي أَكْرَهُ أن أُحِلَّ حَرَامًا، أو أحرِّمَ حلالًا»[(٤)].

ويقول حُمَيْد بن عبد الرحمٰن: «لَأَنْ أَرُدَّهُ بعِيِّهِ أحبُّ إليَّ مِن أن أتكلَّف له ما لا أَعلَم»[(٥)].

وهذا محمد بن سِيرِينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان لا يُفتِي في الفروجِ بشيء فيه اختلاف[(٦)]؛ تورُّعًا وتحرُّزًا؛ لأنه بابٌ شديدٌ من أبواب العلم؛ فهو يَخْشَى أن يُحِلَّ شيئًا حرامًا، أو أن يحرِّم شيئًا حلالًا.

وكان الشَّعْبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول:** «لا أدري: نصفُ العلم»[(٧)].

وكان إذا سُئِلَ عن شيء يقول: «لا أدري»؛ فإن رَدُّوا عليه، قال للسائل: «إني حلَفْتُ لك بالله إنْ كان لي به علم»[(٨)].

وعن ابن سيرين؛ قال: «ما أُبالِي، سُئِلْتُ عمَّا أعلم أو ما لا أعلمُ؛ لأنِّي إذا سُئِلْتُ عمَّا أعلَمُ، قلتُ: ما أَعلَم، وإذا سُئِلْتُ عمَّا لا أعلَمُ، قلتُ: لا أَعلَم»[(٩)].

ويقول الأعمش: «ما سمعتُ إبراهيم ـ يعني: النَّخَعيَّ ـ يقول قطُّ: حلال، ولا حرام؛ إنما كان يقول: كانوا يَكْرَهون، وكانوا يستحبُّون»[(١٠)].

---

(١) أخرجه الدارمي (١٣٢).
(٢) أخرجه الدارمي (١٣٣)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٢٠).
(٣) أخرجه الدارمي (١٣٤).
(٤) المصدر السابق (١٣٦).
(٥) المصدر السابق (١٤٩).
(٦) المصدر السابق (١٥٤).
(٧) المصدر السابق (١٨٦)؛ بسند صحيح. وجاء مثله عن غير واحد من أهل العلم. انظر: «تعظيم قدر الصلاة» (٤٤١ ـ ٤٤٢)، و«تاريخ دمشق» (٢١/ ٢٠٨).
(٨) أخرجه الدارمي (١٨٨).
(٩) المصدر السابق (١٨٩).
(١٠) المصدر السابق (١٩٠).

ولذلك تجد كثيرًا في أجوبة بعض الأئمة ـ رحمهم الله تعالى ـ يقولون: أَكْرَهُ كذا، ولا يُعجِبُني كذا، مع أن المعروف مِن مذهبِهِ التحريمُ في هذه المسائل؛ ولكنه يتحرَّز من ذلك.

يقول المَرُّوْذِي: «سألت أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ ما لا أُحصِي عن أشياء، فيقول فيها: لا أدري»[(١)].

وقال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ربما مَكَثْتُ في المسألة ثلاث سنين قبل أن أعتقِدَ شيئًا»[(٢)].

وأما الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: فالأخبار عنه في هذا كثيرة مستفيضة، وهو مِن أشدِّ الناسِ تحرُّزًا وتورُّعًا في هذا الباب، وكان يقول: «إني لَأُفكِّرُ في مسألة منذ بضعَ عَشْرَةَ سنةً، فما اتفق لي فيها رأي إلى الآن»[(٣)]، وكان يقول: «ربما وَرَدَتْ عَلَيَّ المسألة، فأَسهَرُ فيها عامَّةَ ليلي»[(٤)]؛ لا يُجِيبُ من ساعته.

وكان إذا سُئِلَ عن المسألة، قال للسائل: «انصَرِفْ حتى أنظر فيها»، فينصرف، ويتردَّد فيها، فقيل له في ذلك، فبكى، وقال: «إني أخاف أن يكون لي مِن المسائلِ يومٌ وأيُّ يوم!»[(٥)].

وكان إذا جلس ـ أي: في مجلس العلم ـ نَكَّسَ رأسه، وحرَّك شَفَتَيْهِ يذكُرُ الله، ولم يَلتفِتْ يمينًا ولا شمالًا، فإذا سُئِلَ عن مسألةٍ، تغيَّر لونُهُ، وكان أحمر فيَصفَرُّ، وينكِّسُ رأسَهُ، ويحرِّكُ شفتيه، ثم يقول: «ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله»؛ فربما سُئِلَ عن خمسين مسألة، فلا يجيب منها في واحدة[(٦)].

ولو أن أحدًا في هذه الأيام سُئِلَ عن خمسين مسألة، فقال في الجميع: لا أدري؛ لقال الناس: هذا لا فِقْهَ له، ولا علم!

وكان يقول: «مَن أحَبَّ أن يُجِيبَ عن مسألة، فلْيَعْرِضْ نفسه قبل أن يُجِيبَ على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصُهُ في الآخرة، ثم يجيب»[(٧)].

وقال بعضهم في صفته رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللهِ، إنْ كان مالكٌ إذا سُئِلَ عن مسألة؛ كأنه واقفٌ

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٣٥٨).
(٢) المصدر السابق (٣٥٩).
(٣) «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٨)، و«الموافقات» (٥/ ٣٢٣).
(٤) المصدران السابقان، ولفظه في الموافقات: «فأفكر فيها ليالي».
(٥) «الموافقات» للشاطبي (٥/ ٣٢٣). وانظر: «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٨).
(٦) المصدرين السابقين.
(٧) «الموافقات» للشاطبي (٥/ ٣٢٤). وانظر: «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٨ ـ ١٧٩).

بين الجنة والنار»[١].

وكان يقول: «ما شيءٌ أشدَّ عليَّ مِن أن أُسأَلَ عن مسألة من الحلال والحرام؛ لأن هذا هو القَطْعُ في حكم الله، ولقد أَدْرَكْتُ أهل العلم والفقه ببَلَدِنا، وإنَّ أحدَهُمْ إذا سُئِلَ عن مسألةٍ؛ كأنَّ الموت أشرَفُ عليه، ورأيتُ أهل زماننا هذا يشتهون الكلام فيه والفتيا، ولو وُقِفُوا على ما يصيرون إليه غدًا، لقَلَّلُوا من هذا، وإن عمر بن الخطاب وعليًّا، وعامَّة خيار الصحابة، كانت تَرِدُ عليهم المسائل وهم خير القرون الذين بُعِثَ فيهم النبي ﷺ، وكانوا يجمعون أصحاب النبي ﷺ ويسألون حينئذٍ، ثم يُفْتُونَ فيها، وأهل زماننا هذا قد صار فَخْرُهُمُ الفُتْيا، فبِقَدْرِ ذلك يُفتَحُ لهم من العلم»[٢].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يكنْ مِن أمر الناس، ولا مَن مضى مِن سلفنا، ولا أدري أحدًا اقتُدِيَ به يقول في شيء: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، ما كانوا يَجترِئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نَكْرَهُ هذا، ونرى هذا حَسَنًا، ونتَّقي هذا، ولا نرى هذا، ولا يقولون: حلالٌ، ولا حرامٌ - يعني: فيما ليس فيه نصٌّ قاطع - أَمَا سَمِعْتَ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ [يونس: ٥٩]؟! الحلالُ: ما أحلَّه اللهُ ورسوله، والحرامُ: ما حرَّمه الله ورسوله»[٣].

قال ابن عبد البَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **معلِّقًا عليه:** «معنى قول مالك هذا: أن ما أخَذَهُ من العلم رأيًا واستحسانًا، لم يقل فيه: حلال ولا حرام، والله أعلم»[٤].

وقال موسى بن داود: «ما رأيتُ أحدًا من العلماء أكثَرَ أن يقول: (لا أُحسِنُ) مِن مالِك، وربما سمعتُهُ يقول: ليس نُبْتَلَى بهذا الأمر؛ ليس هذا بِبَلَدِنا»[٥].

وكان يقول للرجل يسأله: «اذهب حتى أنظُرَ في أمرك»[٦].

وسأله رجل عن مسألةٍ استودَعَهُ إياها أهلُ المغرب؟ فقال: «لا أدري، ما ابتُلِينا بهذه المسألة ببَلَدِنا، ولا سَمِعْنا أحدًا من أشياخنا قد تكلَّم فيها، ولكنْ تَعُودُ، فلما كان

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٠٨٧).
(٢) «الموافقات» للشاطبي (٥/ ٣٢٤). وانظر: «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٩).
(٣) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٠٩١).
(٤) «جامع بيان العلم» (٢/ ١٠٧٥).
(٥) «الموافقات» (٥/ ٣٢٥). وانظر: «ترتيب المدارك» (١/ ١٤٥).
(٦) «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٠)، و«الموافقات» (٥/ ٣٢٥).

من الغد، جاء وقد حمل ثِقَلَهُ على بَغْلِهِ يقودُهُ، فقال: مسألتي! فقال: «ما أدري، ما هي»، فقال الرجل: يا أبا عبد الله، تَرَكْتُ خلفي مَن يقول: ليس على وجهِ الأرضِ أعلَمُ منك! فقال مالِكٌ غيرَ مستوحِشٍ: «إذا رجَعْتَ، فأَخْبِرهم أني لا أُحسِنُ»[(١)].

وسأله آخر، فقال له: يا أبا عبد الله، أجبني، فقال: «وَيْحَكَ؛ تريد أن تجعلني حُجَّةً بينك وبين الله؟ فأحتاج أنا أولًا أن أنظر كيف خلاصي، ثم أُخَلِّصُكَ!»[(٢)].

وهذا هو الواجب على المفتي قبل أن يَجعَلَ مِن نفسه حاجزًا بين الناس والنار؛ أن يبحث عن المَخْرَج، وأن يُجِيبَ بجوابِ عالِمٍ تَقِيٍّ وَرِعٍ يَخشَى الله ﷻ.

وسُئِلَ مَرَّةً عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنَتَيْنِ وثلاثين منها: «لا أدري»[(٣)].

وقال خالد بن خِدَاش: «قدمتُ على مالكٍ من العراق بأربعين مسألةً، فسألته عنها، فما أجابني منها إلا في خمس مسائل»[(٤)].

وقال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: **قال ابن عَجْلان:** «جُنَّةُ العالم: يورِّث العلمَ جلساءَهُ: لا أدري»[(٥)].

وقال ابن عَجْلان رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أخطأ العالم: (لا أدري)، أُصِيبَتْ مَقَاتِلُه»[(٦)]، وقد جاء نحوه عن ابن مسعود[(٧)]، وابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم[(٨)].

وعن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **أنه سمع ابنَ هُرْمُزٍ يقول:** «ينبغي للعالم أن يورِّثَ جلساءَهُ مِن بعده: (لا أدري)؛ حتى يكونَ ذلك أصلًا في أيديهم يَفْزَعُونَ إليه، إذا سُئِلَ أحدهم عما لا يدري، قال: لا أدري»[(٩)].

وكان الإمام مالك يقول في أكثر المسائل: «لا أدري»، قال عمرو بن يزيد: قلتُ

---

(١) «الموافقات» (٥/ ٣٢٦)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٣)؛ بنحوه. وانظر رواية مقارِبة في: مقدمة «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (ص١٨).

(٢) «ترتيب المدارك» (١/ ١٨١)، و«الموافقات» (٥/ ٣٢٦).

(٣) «الانتقاء» لابن عبد البر (ص٣٨).

(٤) المصدر السابق.

(٥) أخرجه أبو الشيخ في «طبقات المحدِّثين بأصبهان» (٣/ ١٤٢)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٤١٠)؛ وهو من رواية أحمد، عن الشافعي، عن مالك.

(٦) أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» (١٠٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١١٣)؛ واللفظ له.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «الأمالي في آثار الصحابة» (١٦٢).

(٨) أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» (١٠٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٥٨٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١١٢).

(٩) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١١٤).

لمالك: يا أبا عبد الله، يأتيك ناسٌ مِن بُلْدانٍ شتَّى، قد أَنْضَوْا مطاياهم، وأنفقوا نفقاتهم، يسألونك عما جعَلَ الله عندك من العلم، تقول: لا أدري؟! فقال: «يا عبد الله، يأتيني الشاميُّ مِن شامه، والعراقيُّ مِن عراقه، والمصري من مصره، فيسألونني عن الشيء، لعلي أن يبدو لي فيه غيرُ ما أجيب به؛ فأين أجدهم؟!»، قال عمرو: فأخبرتُ الليث بن سعد بقول مالك، فبكى، وقال: «مَالِكٌ واللهِ أقوى من الليث»، أو نحو هذا[(١)].

وقال ابن أبي أُوَيْس: سُئِلَ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ مَرَّةً عن نَيِّفٍ وعشرين مسألة، فما أجاب منها إلا في واحدة.

وربما يُسأَلُ عن مائة مسألة، فيجيب عن خمس أو عشر، ويقول في الباقي: لا أدري[(٢)]!

وقال أبو مصعب: قال لنا المُغِيرة ـ وهما من أصحاب مالك ـ: «تعالَوْا نجتمِعُ، ونستذكِرُ كلَّ ما بقي علينا مما نريد أن نسأل عنه مالكًا، فمكَثْنَا نجمع ذلك، وكتبناه في قُنْدَاق[(٣)]، ووجَّه به المغيرة إليه، وسأله الجواب، فأجابه في بعضه، وكتب في الكثير منه: لا أدري، فكان المغيرة يقول: «لا والله، ما رُفِعَ هذا الرجلُ إلا بالتقوى؛ مَن كان منكم يُسأَلُ عن هذا، فيرضى أن يقول: لا أدري»[(٤)].

والروايات عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: لا أدرى، ولا أُحسِنُ؛ كثيرة، حتى قال بعضهم: «لو كتبنا عن مالِك: (لا أدري)، لَمَلَأْنا الألواح»[(٥)].

وقيل له مرةً: إذا قلتَ أنت يا أبا عبد الله: (لا أدري)، فمَنْ يدري؟! قال: «وَيْحَكَ، ما عرفتَنِي؟ وما أنا؟ وأيُّ شيءٍ منزلتي حتى أدري ما لا تدرون؟ ثم أخَذَ يحتجُّ بحديث ابن عمر؛ يقول ـ يعني: ابن عمر ـ: لا أدري فمَن أنا؟! إنما أهلَكَ الناسَ العُجْبُ، وطلَبُ الرياسة، وهذا يضمحِلُّ عن قليل، وقال مرة أخرى: قد ابتُلِيَ عمر بن الخطاب بهذه الأشياء، فلم يُجِبْ فيها»، وقال ابن الزُّبَيْر: لا أدري، وابنُ

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٠/ ٣٦٠). وانظر: «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٢).
(٢) «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٣)، و«الموافقات» (٥/ ٣٢٨).
(٣) صحيفة الحساب.
(٤) «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٣). وانظر: «الموافقات» (٥/ ٣٢٨).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٧٦)؛ واللفظ له.

عمر: لا أدري»[١].

وسُئِلَ عن مسألة؟ فقال: «لا أدري»، فقال له السائل: إنها مسألةٌ خفيفةٌ سهلة، وإنما أَرَدتُّ أن أُعلِمَ بها الأمير! ـ وكان السائل ذا قَدْر ـ فغَضِبَ مالكٌ، وقال: «مسألة خفيفة سهلة؟! ليس في العلم شيء خفيف؛ أما سمعتَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥]؟!»[٢].

قال ابن عبد البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ: «وقد رُوِيَ عن مالك: أنه قال في بعض ما كان يَنزِلُ، فيُسأَلُ عنه، فيَجتهِدُ فيه رَأْيَهُ: إنْ نظنُّ إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين»[٣].

وكان يقول رَحِمَهُ اللهُ: «إنما أنا بَشَرٌ أُخطِئ وأرجع، وكل ما أقول يُكْتَب»[٤].

وقال أَشْهَب: ورآني أكتُبُ جوابه في مسألة، فقال: «لا تكتبها؛ فإني لا أدري أَثْبُتُ عليها أم لا»[٥].

ويقول ابن وَهْب رَحِمَهُ اللهُ: «سمعتُهُ يعيب كثرة الجواب من العالم حين يُسْأَل»[٦].

وكان عندما يُكْثَرُ عليه بالسؤال، يَكُفُّ ويقول: «حسبكم؛ مَن أكثَرَ أخطَأَ».

وكان يعيب كثرةَ ذلك، وقال: يتكلَّم كأنه جملٌ مغتلِمٌ ـ أي: هائج ـ ويقول: هو كذا، هو كذا؛ يَهْدِرُ في كل شيء[٧].

وسأله رجل عراقي عن رجل وَطِئَ دجاجة ميِّتة، فخرَجَتْ منها بَيْضة، فأَفْقَسَتِ البيضةُ عنده عن فَرْخ، أيأكله؟ ـ وهذه مسألة من المسائل الفَرضِيَّة ـ فقال مالك: «سَلْ عما يكون، ودَعْ ما لا يكون»[٨].

وسأله آخر عن مسألة تُشبِهُ هذه، فلم يجبه، فقال الرجل: يا أبا عبد الله، أَلَا تجيبني عما أسألك عنه؟ فقال له مالك: «لو سألتَ عما تَنتفِعُ به ـ أو قال: عما تحتاج إليه ـ في دينك، أَجَبْتُك»[٩].

---

(١) «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٣)؛ وحديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا المشار إليه، هو ما أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» (١٠٥)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٥٦٦)؛ أنه سُئِلَ عن فريضة هَيِّنة من الصلب؟ فقال: لا أدري... إلخ.

(٢) «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، و«الموافقات» (٥/ ٣٢٩).

(٣) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٤٤٥)، وروى أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٣) نحوَهُ.

(٤) «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٩). وانظر: «الموافقات» (٥/ ٣٣١).

(٥) «ترتيب المدارك» (١/ ١٩٠)، و«الموافقات» (٥/ ٣٣٢).

(٦) المصدران السابقان. (٧) المصدران السابقان.

(٨) المصدران السابقان. وهو في «ترتيب المدارك» (١/ ١٩١).

(٩) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١٩٨).

وقال ابن القاسم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان مالكٌ لا يكاد يُجِيبُ، وكان أصحابه يحتالُون أن يجيء رجل بالمسألة التي يُحِبُّونَ أن يعلموها كأنها مسألةُ بَلْوَى، فيجيب فيها»[١].

لأنهم كانوا يهابونه، ويتحرَّجون من سؤاله؛ لكراهيته ذلك.

وقال مَرَّةً لابْنِ وَهْب: «اتَّقِ هذا الإكثارَ، وهذا السماعَ الذي لا يستقيم أن يحدَّثَ به»، فقال له: إنما أسمعه لأعرفه، لا لأحدِّثَ به، فقال له: «ما سمع إنسان شيئًا إلا يحدِّث به، وعلى ذلك، لقد سمعتُ مِن ابن شهاب أشياء ما تحدَّثتُ بها، وأرجو ألَّا أفعَلَ ما عِشْتُ»[٢].

ورُوِيَ عنه أنه قال: «لقد نَدِمْتُ ألَّا أكون طَرَحْتُ أكثَرَ مما طَرَحْتُ من الحديث»[٣].

٣ ـ تحرُّجُهم عند الرواية والتحديث عن الرسول ﷺ:

وقد جاءت عنهم في ذلك أخبار كثيرة؛ **فمن ذلك:**

ما رُوِيَ عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ **أنه قال:** قال رسول الله ﷺ، ثم ارتعَدَ، ثم قال: نحو ذلك، أو فوق ذلك[٤].

وعن عمرو بن مَيْمون رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال:** «ما أخطأني ابنُ مسعودٍ عَشِيَّةَ خميسٍ إلا أتيته فيه، قال: فما سمعتُهُ يقول لشيءٍ قطُّ: قال رسول الله ﷺ، فلما كان ذاتَ عشيَّة، قال: قال رسول الله ﷺ، قال: فنكَسَ، قال: فنظَرْتُ إليه، فهو قائمٌ محلَّلةٌ أزرارُ قميصه، قد اغرَوْرَقَتْ عيناه، وانتفَخَتْ أوداجُه، قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريبًا من ذلك، أو شبيهًا[٥].

سُئِل الشَّعْبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن حديث، فحدَّث به، فقيل له: إنه يُرفَعُ إلى النبي ﷺ؟ فقال: «لا، على مَن دُونَ النبيِّ ﷺ أَحَبُّ إلينا، فإنْ كان فيه زيادة، أو نقصان، كان على مَن دون النبي ﷺ»[٦].

وعن إبراهيم النَّخَعي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ قال: «نهى رسول الله ﷺ عن المحاقَلَةِ والمزابَنَة»، فقيل له: أمَا تَحفَظُ عن رسول الله ﷺ حديثًا غير هذا؟ قال: «بلى، ولكنْ أقولُ: قال عبد الله، قال عَلْقَمَةُ، أحبُّ إليَّ»[٧]؛ يعني: يحترِزُ ويتهيَّب.

(١) «ترتيب المدارك» (١/ ١٩١)، و«الموافقات» (٥/ ٣٣٢).
(٢) «الموافقات» (٥/ ٣٣٣). وانظر: «ترتيب المدارك» (١/ ١٩١).
(٣) «ترتيب المدارك» (١/ ١٩١). وانظر: «الموافقات» (٥/ ٣٣٣).
(٤) أخرجه الدارمي (٢٨٩).
(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٣)، وصحَّحه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٤٨).
(٦) أخرجه الدارمي (٢٧٤).
(٧) المصدر السابق (٢٧٥).

يقول تَوْبة العَنْبَري رَحِمَهُ اللَّهُ: **قال لي الشَّعْبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أرأيتَ فلانًا الذي يقول: قال رسولُ الله، قال رسول الله؟! قعدتُّ مع ابن عمر سنتين أو سنةً ونصفًا، فما سمعتُهُ يحدِّثُ عن رسول الله ﷺ شيئًا إلا هذا الحديث»[١].

وكان أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قليل الحديث عن رسول الله ﷺ، وكان إذا حدَّث عن رسول ﷺ، قال: «أو كما قال ﷺ»[٢].

وعن السائب بن يَزِيد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال**: «خرجتُ مع سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكَّة، فما سمعتُهُ يحدِّثُ حديثًا عن رسول الله ﷺ حتى رَجَعْنا إلى المدينة»[٣].

وعن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **قال**: صَحِبْتُ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى المدينة، فلم أسمَعْهُ يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثًا واحدًا، قال: كنا عند النبيِّ ﷺ، فأُتِيَ بجُمَّارٍ، فقال: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مَثَلُهَا كَمَثَلِ المُسْلِمِ**»، فأَرَدتُّ أن أقول: هي النَّخْلةُ، فإذا أنا أَصغَرُ القوم، فسَكَتُّ، قال النبي ﷺ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»، قال عبدُ اللهِ: فحَدَّثْتُ أبي بما وقَعَ في نَفْسِي، فقال: «لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَها أَحَبُّ إليَّ مِن أن يَكُونَ لي كذا وكذا»[٤].

وهذا صالحُ الدَّهَّان رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «ما سمعتُ جابر بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قطُّ يقول: قال رسول الله ﷺ؛ إعظامًا واتِّقاءً أنْ يَكذِبَ عليه»[٥].

فهذه بعض النماذج فيما يتعلَّق بالوَرَع في العلم والفُتْيا، والتفسير والتحديث عن رسول الله ﷺ، وكلَّما قَوِيَ دِينُ العبد وازداد علمه، كان أقرَبَ إلى قولِ: لا أَدرِي، فإذا قَلَّ العلم، قَلَّ بَصَرُ العبد، وظنَّ أنه قد أحاط بكثيرٍ من العلم، فإذا ازداد بصَرُه، تعدَّدت لديه الاحتمالات عند تفسير الآية، أو عند الكلام في الأحكام؛ لأن ذلك يتنازَعُهُ في نظره مجموعة مِن القواعد والأدلَّة التي يصعُبُ معها الترجيح، أو القطع بشيء، وغاية ما يقول فيما لم يَرِدْ فيه نص: الأقرَبُ في هذه المسألة كذا، وأظن الصواب كذا، وإذا قَلَّتْ بضاعته، قال: وعندي أنه كذا، والذي أراه كذا، والتحقيق الذي لا يجوز العدولُ عنه هو كذا وكذا! وهو صغير في العلم، ولم يحصِّلْ كثيرًا منه، ولربَّما دعا للمباهَلة في المسألة، وهو لم يَجمَعْ أطرافَها، ولم يُحِطْ بجوانِبِها!

وهذا أمر يقع كثيرًا لبعض طلبة العلم، ويقع كثيرًا أيضًا للعامَّة، والواجب على مَن

(١) المصدر السابق (٢٨٠).
(٢) المصدر السابق (٢٨٤).
(٣) المصدر السابق (٢٨٦).
(٤) المرفوع أخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١)؛ ومحلُّ الشاهد عند مسلم.
(٥) أخرجه الدارمي (٢٩١)؛ بسند جيد.

يُفتِي: أنْ يتريَّثَ؛ لأنَّه موقِّعٌ عن الله ﷻ؛ ولذلك سمَّى ابن القيِّم رحمه الله كتابه المعروف المشهور بـ«إعلام الموقِّعين، عن ربِّ العالمين»، فهذا الذي يفتي الناس كأنَّه يقول: هذا حُكْمُ الله، وأنا أوقِّع عنه؛ ومَن يستطيع ذلك؟!

وكثير من العامَّة إذا طُرِحَتِ المسألة على أحد من أهل العلم في مجلس، ابتدَرُوهُ بالجواب، ولم يُسأَلُوا عنها! ولربَّما أفتى بعضهم بعضًا في كثير مِن الأشياء مِن غير بَصَرٍ ولا رجوع إلى أهل العلم، ولو عقَلُوا عن الله ﷻ، وعرَفُوا ما يُقدِمُونَ عليه، وعرَفُوا حال السلف رضي الله عنهم في هذه الأبواب، لما اجترَؤُوا هذه الجُرْأة.

فأَكثِرْ من قولك: لا أدري، تُلْقِ التَّبِعةَ عن كاهِلِك، وتكنْ في سلامة وعافية في دينك.

والله ﷻ قد قرَنَ بين القول عليه بلا علم والإشراك به؛ كما تقدَّم؛ فينبغي التحرُّز في هذا الباب والاحتياط، وألَّا يُوقِعَ الإنسانُ نفسه في مضايِقَ هو في غِنًى عنها.

سادسًا: الوَرَع في النَّظَر:

قد ذكرتُ فيما سبق: أن من الأمور التي تَضُرُّ العبد في دينه ودنياه: الفضولَ مِن كل شيء، ومن ذلك: فضولُ النَّظَر، فإذا أطلَق الإنسان بصرَهُ، وصار ينظر هنا وهناك، فيما يَحِلُّ له وما يحرُمُ عليه، فإنه لا يخرُجُ من ذلك بالسلامة، بل يخرج بتَبِعةٍ وذنوب، كما أنه يخرج بقلبٍ ملوَّثٍ متدنِّس؛ لأن البَصَرَ بريدٌ للقلب، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالسمعُ والبصرُ مِيزَابانِ يَصُبَّانِ في القلب، فالمَشاهِدُ التي يراها الإنسان تؤثِّرُ في قلبه حتمًا لا محالةَ.

يقول وكيع بن الجرَّاح رحمه الله: سمعتُ سفيانَ ـ وسئل عن البناء الذي بنوه حول الكعبة؟ ـ قال: «لا تنظُروا إليه؛ فإنهم إنما بَنَوْهُ لِيُنظَرَ إليه»[(١)].

وقال يحيى بن اليَمَان: كنتُ مع سفيان، فرأى دارًا، فرفَعْتُ رأسي أنظر إليها، فقال سفيان: «لا تنظُرْ إليها؛ فإنَّما بُنِيَتْ لكي يَنظُرَ إليها مثلك»[(٢)]؛ أي: لِجَذْبِ الأنظار إليها، مع أن النظر إليها ليس بالأمر المحرَّم، لكنَّ سفيان نهاه عن هذا النظر؛ لكونه من الفضول الذي لا يعود عليه بفائدة، بل قد يتضرَّر به.

فهذا مِن كمالات الوَرَع، في باب إطلاق البَصَر.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٧٦)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٧٩).

وَرُئِيَ على داود الطائي جُبَّةٌ متخرِّقة، فقال له رجل: لو خيَّطتها؟ قال: «أَمَا علمتَ أنه نُهِيَ عن فضول النظر»[١].

وقد كان السلف ﷺ يبالِغُونَ في الاحتراز في هذا الباب؛ فقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ إذا نظر إلى نصرانيٍّ، غمَّض عينيه، فقيل له في ذلك؟ فقال: «لا أَقدِرُ أنظُرُ إلى مَن افترى على الله، وكذَبَ عليه»[٢].

وعن كَثِير بن هشام؛ قال: كان سُفْيانُ الثوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قاعدًا بالبصرة، فقيل له: هذا مساوِرُ بنُ سَوَّارٍ يَمُرُّ ـ وكان على شرطة محمد بن سليمان ـ فوثَبَ ـ يعني: سفيان ـ فدخَلَ في داره، وقال: «أَكْرَهُ أن أرى من يعصي الله، ولا أستطيع أن أغيِّر عليه»[٣].

ويقول فُضَيْل بن عِيَاض رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تنظُرُوا إلى مَرَاكِبِهم؛ فإنَّ النظر إليها يُطفِئُ نُورَ الإنكار عليهم»[٤].

ويقول سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تنظروا إلى دُورِهم، ولا إليهم إذا مَرُّوا على المراكب»[٥]؛ لأن ذلك يؤثِّرُ في القلب، وأقلُّ ذلك: أن يُورِثَ مهابةً وتعظيمًا، فيَجبُنَ الإنسان عن الإنكار والتغيير على أصحاب المعاصي.

وأما مَن أطلَقَ بصره في الأمور المحرَّمة الواضحة، فإنَّ هذا لا شك أنه قد اقتحَمَ بابًا من حدود الله ﷻ، وأدخَلَ نفسه في تَبِعاتٍ يحاسِبُهُ الله عليها إن لم يَغفِرْ له.

فإذا كان السلف يتحرَّزُونَ من هذه الأمور اليسيرة في نَظَرنا، فكيف بالنَّظَر إلى الأمور المحرَّمة؟! كمَن يجلس خاليًا ينظر إلى الشاشة، ويَرَى فيها أمورًا تُفسِدُ عليه قلبه، وقد جعل اللهِ ﷻ أهوَنَ الناظرين إليه؟!

وأين هذا كلُّه من أولئك الذين يُسافِرون للترفيه والنُّزْهة؛ فيَقصِدُونَ بلادًا يكثُرُ فيها الفساد بأنواعه، ولا يستطيعون الإنكار والتغيير، ويسمُّون ذلك: (سياحة)؟!

هذا؛ والورَعُ في باب النَّظَرِ ينقسمُ إلى ورَعٍ واجِب، وورَعٍ مستحَبٍّ؛ كما لا يخفى.

سابعًا: الوَرَع في السَّمْع:

وذلك بأن يَحترِزَ في سمعه؛ فلا يسمع شيئًا يؤثِّر على قلبه؛ كسماع شيء من المحرَّمات؛ كالغِيبَة والنميمة والمَعازِف، أو مِن غيرها مما يُورِثُ غفلةً في القلب، فينأى بنفسه عن سماع الحرام.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٥٢).
(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٧).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٧٤).
(٤) المصدر السابق (٧٥).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٤٠).

فعن نافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ قال: «سمع ابن عمر مِزْمارًا، قال: فوضع إصبعَيْهِ على أذنيه، ونأى عن الطريق، وقال لي: يا نافعُ، هل تسمع شيئًا؟ قال: فقلتُ: لا، قال: فرفَعَ إصبعيه من أذنيه، وقال: كنتُ مع النبي ﷺ، فسَمِعَ مثل هذا، فصنع مثل هذا»(١).

ثامنًا: الورع في الشَّمِّ:

الشَّمُّ: حاسَّةٌ من الحواس، يحاسَبُ عليها الإنسان، كما يحاسَبُ على كل نعمة أنعم الله بها عليه؛ هل أدَّى شكرها؟! جاء عن عبد الله بن راشد صاحب الطِّيبِ؛ قال: أتيتُ عمر بن عبد العزيز بالطِّيبِ الذي كان يُصنَعُ للخلفاء من بيت المال، فأمسَكَ على أنفه، وقال: «إنما يُنتَفَعُ بريحِهِ»(٢).

وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتحرَّز من أمور كثيرة مما كان يصنعه الخلفاء مِن قبله، ومن ذلك: صَرْفُ العطور مِن بيت مال المسلمين، فكان يترُكُ ذلك، ولا يأخُذُ من بيت المال شيئًا من هذه الأطياب، فلما جاء به هذا الرجل على عادته، وضع إصبَعَهُ على أنفه؛ لئلا يَشَمَّ من ذلك شيئًا.

وجيء له مرةً بغنائم مِسْكٍ، فأخَذَ بأنفه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، تأخذ بأنفك لهذا؟ قال: «إنما يُنتَفَعُ مِن هذا برِيحِهِ؛ فأكرَهُ أن أَجِدَ رِيحَهُ دون المسلمين»(٣).

تاسعًا: ذكر نماذج متنوِّعة من أبوابٍ شتَّى في الورع:

أبوابُ الورع كثيرةٌ جِدًّا، وما ذكرته إنما هو نماذج، وأَختِمُ بذكر نماذج أخرى متفرِّقة ومتنوِّعة من ورع السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في شتَّى الأمور:

فعن معاوية بن قُرَّة؛ قال: كان لأبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جمَلٌ يقالُ له: الدَّمُونُ، فكان إذا استعاره منه رجل، قال: «لا تَحْمِلْ عليه إلا طاقتَهُ»، فلما كان عند الموت، قال: «يا دَمُونُ، لا تُخاصِمْني عند ربي؛ فإني لم أَكُنْ أحمل عليك إلا ما كنتَ تُطِيق»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٢٤ ـ ٤٩٢٦)، وحكَمَ بنكارته، وضعَّفه شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٣٠/ ٢١١ ـ ٢١٦)، وصحَّحه ابن حبان (٦٩٣)، وأحمد شاكر في تحقيق «المسنَد» (٤٥٣٥)، والألباني في «صحيح أبي داود» (٣/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨). وانظر: «عون المعبود» (٤/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (١٤١)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٨٧).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٧٣)، وابن أبي الدنيا في «الورع» (١٧٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٨٥).

فكيف بالذي يَظلِمُ الناس؟! وكيف بمَن يسترعيه الله ﷻ رعيةً مِن الزوجات والأولاد، أو الموظَّفين أو الطلاب أو غيرهم، ثم بعد ذلك يَظلِمُهم؟!

فأبو الدرداء رضي الله عنه يتحرَّز من دابَّة أَحَلَّ الله له الانتفاع بها، ويعتذِرُ لجَمَلِهِ عند موته؛ فكيف بمن ظلَمَ إخوانَهُ المسلمين، وأكَلَ حقوقهم وأموالهم، وتوسَّع فيها، وعبَثَ بها، وماطَلَهُم في القضاء والوفاء وأداء الحقوق؟!

وهذا أبو العبَّاس الخَطَّاب جاء يعزِّي رجلًا ماتت امرأتُهُ، وفي البيت بِسَاطٌ، فقام أبو العباس على باب البيت، فقال - للمعزَّى -: «أيها الرجل، معك وارثٌ غيرك؟»، قال: نعم، قال: «فما قعودُكَ على ما لا تَمْلِك؟»[(١)]؛ أي: أن هذا البساط صار من حقوق الوَرَثة؛ فكيف تَجلِس عليه؟! فتنحَّى الرجل عن البساط.

وهذا إنما نذكُرُهُ ليعرف الإنسان مدى تقصيرِه، وإنْ كان عامَّة الناس اليوم لا يطالَبُونَ بهذه الأمور الدقيقة مِن الوَرَع:

قال ابن القيِّم رحمه الله: «كان أهل الورَعِ مِن أهل العلم يتجنَّبُونَ تهنئةَ الظَّلَمة بالوِلَايات، وتهنئةَ الجهال بمنصِبِ القضاء والتدريس والإفتاء؛ تجنُّبًا لمقت الله وسقوطهم من عينه، وإن بُلِيَ الرجل بذلك، فتعاطاه؛ دفعًا لشرٍّ يتوقَّعه منهم، فمشى إليهم ولم يَقُلْ إلا خيرًا، ودعا لهم بالتوفيق والتسديد، فلا بأس بذلك، وبالله التوفيق»[(٢)].

وعن عُبَادة بن قُرْط رضي الله عنه؛ **قال**: «إنَّكم لَتعمَلُونَ اليوم أعمالًا هي أَدَقُّ في أَعْيُنِكُم مِن الشَّعْر، إنْ كنَّا لَنَعُدُّها على عهدِ النبيِّ ﷺ من المُوبِقات»[(٣)].

فكيف لو رأى كثيرًا من أعمالنا اليوم؟!

وقيل لأبي قتادة: فكيف لو أدرَكَ زماننا هذا؟ فقال أبو قَتَادة: «لكان لذلك أَقْوَلَ»[(٤)]؛ أي: مِن باب أولى.

وقد ذُكِرَ ذلك لمحمد بن سِيرِينَ، فقال: «صدَقَ، وأَرَى جَرَّ الإزارِ منها»[(٥)]؛ أي: الإسبالَ؛ يقول: هذه من الأمور التي يَتساهَلُ بها الناس، وقد لا نَجِدُ من ينكر ذلك،

---

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (١٣٠)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٢) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٠٦).
(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٧٥١، ٢٠٧٥٢). وقد رُوِيَ عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أخرجه البخاري (٦٤٩٢).
(٤) أخرجه أحمد (٢٠٧٥٢) بهذه التَّتِمَّة.
(٥) أخرجه أحمد (١٥٨٥٩)؛ وإسناده صحيح.

وهي في أعينهم أدَقُّ مِن الشَّعْر، وكانوا يرونها في زمن الرسول ﷺ من المُوبِقات.

ولا غرابة في ذلك؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فالأمر شديد، واللهُ ﷻ لا يَضِلُّ ولا ينسى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقول: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦]، ولم يُنْسَ شيءٌ مِن ذلك على تطاوُل الأزمان، وكثرة الأعمال مِن الذنوب والمعاصي، مع كثرة الخلائق جِيلًا بعد جِيل؛ فكل ذلك مضبوط عند الله ﷻ: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: ١٨].

ومَن تتبَّع أخبار القوم في هذه الأبواب، رأى أمورًا عجيبة من ذلك، حتى إنَّ بعضهم وزَنَ الذَّرَّ!

قال أبو العباس الخَطَّاب: «وَزَنْتُ عشرين ومائة ذَرَّةً - والذَّرَّةُ هي صغار النمل - بحِذَاءِ خردلة، أو قال: شعيرة»[١].

وهذا رجل آخر - كما قال معاوية بن قُرَّة رَحِمَهُ اللهُ - أخذ خمسًا وعشرين ذَرَّةً، فوضعها في كِفَّةِ الميزان، فلم تَمِلْ بها عَيْنُ الميزان[٢]؛ أي: أنها خفيفة؛ فهل فكَّرنا في هذا؟!

ويقول معاوية بن قُرَّة رَحِمَهُ اللهُ: «بعَثَ إليَّ رجل بطعام، فأكَلْتُ منه ما أكلتُ، وفَضُلَتْ منه فَضْلة، فأصبحتُ وقد اسوَدَّ مِن الذَّرّ، فوزنتُهُ بِذَرِّه، ثم نَقَّيْتُهُ من الذَّرِّ، فوزنتُهُ، فلم يَزِدْ ولم يَنْقُص[٣]؛ أي: أنه مع كَثْرة هذا الذَّرِّ لم يغيِّرْ في وزنِهِ شيئًا؛ فكيف بالذرَّة الواحدة؟!

وعن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أنه كان فرَضَ للمهاجرين الأوَّلين أربعة آلاف في أربعة[٤]، وفرَضَ لابن عمر ثلاثة آلاف وخَمْسَمِائة، فقيل له: هو مِن المهاجِرينَ، فلِمَ نَقَصْتَهُ مِن أربعةِ آلاف؟ فقال: إنما هاجَرَ به أَبَوَاهُ[٥].

وقسَمَ مُرُوطًا بين نساء من نساء المدينة، فبَقِيَ مِرْطٌ جَيِّدٌ، فقال له بعضُ مَن عنده: يا أميرَ المؤمنين، أعطِ هذا ابنَةَ رسولِ الله ﷺ التي عِنْدَكَ؛ يريدون: أمَّ كُلْثُوم بنت

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٥٦)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) المصدر السابق (٥٧). (٣) المصدر السابق (٥٨).

(٤) أي: في أربعة آلاف، وقيل: في أربعة أعوام، وقيل: في أربعة فصول، وقيل: إنما ذُكِرَتْ لبيان أن لكل مهاجر أربعةَ آلاف. انظر: «عمدة القاري، شرح صحيح البخاري» (١٧/ ٥٤).

(٥) أخرجه البخاري (٣٩١٢).

علي، فقال عمر: «أُمُّ سَلِيطٍ أحقُّ»، وأمُّ سَلِيطٍ من نساء الأنصار ممَّن بايَعَ رسولَ الله ﷺ، قال عمر: «فإنَّها كانت تَزْفِرُ لنا القِرَبَ يَوْمَ أُحُدٍ»[١]؛ قال أبو عبد الله البخاري: تَزْفِرُ: تَخِيط.

ويقول العلاء بن زِيَاد رحمه الله: «لو كنتُ متمنِّيًا، لَتَمَنَّيْتُ فِقْهَ الحسن، وورَعَ ابن سِيرِين، وصوابَ مطرِّف، وصلاةَ مُسلِم بن يَسَار»[٢].

وقال بكر بن عبد الله رحمه الله: «مَن سَرَّهُ أن ينظُرَ إلى أعلَم رجلٍ أدرَكْناه في زمانه، فلينظُرْ إلى الحسن، فما أدرَكْنا أعلَمَ منه، ومَن سَرَّهُ أن ينظُرَ إلى أورَعِ رَجُلٍ أدرَكْناه في زمانه، فلينظُرْ لابن سِيرِين؛ إنه لَيَدَعُ بعض الحلال تأثُّمًا»[٣].

ويقول مورِّق رحمه الله: «ما رأيت رجلًا أفقَهَ في وَرَعه، ولا أورَعَ في فِقْهه من محمد بن سِيرِين»[٤]؛ يعني: حيث جمع بين الوَرَع، والفقهِ في الوَرَع.

ويقول يوسف بن أسباط رحمه الله: «مَرَّ طاوسٌ بنهر قد كُرِيَ ـ أُجِّرَ ـ فأَرَادَتْ بغلته أن تشرب ـ يعني: من ذلك النهر ـ فأَبَى أن يَدَعَها»[٥]؛ احتياطًا وتورُّعًا.

وذكر المَرُّوذِيُّ عن الإمام أحمد رحمه الله؛ **أنه قال**: «طاوُسٌ كاسمِه؛ لقد افتعَلَ ابنُهُ على لسانِهِ كتابًا إلى عمر بن عبد العزيز ـ أي: خطابًا يطلُبُ فيه العطاء ـ فأعطاه ثلاثمائة دينار، فباع طاوُسٌ ضَيْعة له، فبعَثَ بها إلى عمر، فأُرِيدَ طاوسٌ على أن يدخُلَ على ابنه وهو في الموت، فأبى، أو قال: دخَلَ عليه في وقت الموت»[٦].

ولما بنَوُا لمسجد شُعَيْب بن حرب رحمه الله **دَرَجًا في الطريق**، قال: «لا وَضَعْتُ رجلي عليها حتى تُهدَمَ»[٧].

أي: أن دَرَجةَ المسجد صارت زائدة في الطريق، فلم يَضَعْ رِجلَهُ عليها حتى هُدِمَتْ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨١).
(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٢٦)؛ رواية المَرُّوذِي، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ١٢٩).
(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٠٨)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٦٦)، والدينوري في «المجالسة» (١٩٤٢/ ٢٨٣١)؛ كلاهما مختصرًا.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٤٨٥، ٥٣٢)، وأحمد في «الورع» (٢٢٨)؛ رواية المَرُّوذِي، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٦٦)؛ واللفظ له، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٤١٨).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٠٥).
(٦) أخرجه أحمد في «الورع» (٣١٩)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٧) المصدر السابق (١٠).

وقد أشرتُ إلى هذا المعنى سابقًا؛ حيث كانوا يتحرَّزون أن يأخُذُوا من طريق المسلمين شيئًا، فإذا بنى أحدُهم بيتًا أو مسجدًا، فلا يأخُذُ من الرَّصِيفِ شيئًا لدَرَجٍ أو لخَزَّانٍ أو لمِظَلَّةِ السيارة أو غير ذلك.

وعن شعيب بن حرب رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا**؛ أنه كان يقول: «لك أن تطيِّنَ الحائط من خارج، وليس لك أن تجصِّصه؛ لعله أن يخرُجَ في الطريق»(١).

ومثل هذا قد يصلح لمثل شُعَيْب، لكن لا يصلح لعامَّة الخلق.

ولما كان زمَنُ الحجَّاج، خرَجَ عليه جماعة من الفقهاء والعلماء، ولكنهم كُسِرُوا وهُزِمُوا وتفرَّقوا، فصار الحجَّاج يبحث عنهم في كل مكان، فاختفى بعضهم في مكَّة، وبعضهم في البَصْرة، وتفرَّقوا، ومنهم سعيد بن جُبَيْر، والحسَن البَصْري، وجماعة؛ فعُثِرَ على سعيد بن جُبَيْر، وطَلْق بن حَبِيب في مكَّة، فجاء بهم رجلٌ من الشُّرَط؛ يقول الأعمش: «دخلتُ عليهم السجنَ، فقلتُ: جاء بكم شُرْطِيٌّ أو جُلَيْويز؛ أفلا كَتَّفْتُمُوهُ وأَلْقَيْتُمُوهُ في البَرِّيَّة؟ فقال سعيد: فمَن كان يسقيه الماء إذا عَطِشَ؟!»(٢).

فاعتبِرْ هذا وما يقع في هذه الأوقات من إراقة دماء معصومة ممن يدَّعي أن ذلك مِن قبيلِ الدِّينِ الذي يُتقرَّبُ به إلى الله!

وهذا محمَّد بن سِيرِين رَحِمَهُ اللَّهُ: كان محبوسًا في دَيْنٍ، وأوصى أنسُ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يغسِّله ابن سِيرِين، فلما مات، أُتِيَ محمدٌ، فقيل له ذلك، فقال: «أنا محبوس في السجن»، قالوا: فإنا قد استأذنَّا الأمير، فأَذِنَ لك، قال: «إنَّ الأمير لم يَحْبِسْنِي، وإنما حبسني الذي له الحقُّ عليَّ»، قال: فَأُتِيَ الذي له الحق، فأَذِنَ له، فخرَجَ فغسَّله(٣).

وشَرِبَ يحيى بن يحيى شَرْبةً، فقالت له امرأته: لو قُمْتَ فتَرَدَّدتَّ في الدار، فقال يحيى: «ما أدري ما هذه المِشْيَة، أنا أُحاسِبُ نفسي منذ أربعين سنة»(٤).

فكيف بالذي يمشي إلى الحرام، والذي يمشي إلى أماكن العَبَث والغفلة؟!

ويقول سفيان بن عُيَيْنة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أن رجلًا لَعِبَ بغلام بين إصبعَيْنِ من أصابع رِجْلِهِ، يريد بذلك الشهوة؛ لكان ذلك لِوَاطًا»(٥).

وكان أبو منصور ابن عساكِرَ رَحِمَهُ اللَّهُ قد خالَفَ في بعض مسائل الصفات؛ فـ«كان يتورَّعُ من المرور في زُقَاقِ الحنابلة؛ لئلا يأثموا بالوقيعة فيه؛ وذلك لأنَّ عوامَّهم

---

(١) المصدر السابق (٩).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٤٠).
(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٠٨ ـ ٣٠٩)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٦٧).
(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٩٩)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٣٧).

يبغضون بني عساكر؛ لأنهم على مذهب الأشعريَّة»[(١)] .

وهذا رجل من العلماء ـ وهو تاج الدين المَرَّاكُشي ـ ترك التدريس في مدرسةٍ يقال لها: «المسروريَّة»، لَمَّا نظر في شرط الواقف، وهو أن يكون المتصدِّرُ للتعليم في المدرسة الوقفيَّة عالمًا بالخلاف، فقال: «أنا لا أعلَمُ الخلاف»[(٢)] .

فهل فكَّر المرء في هذا حينما يسابِقُ وينافِسُ على مسجد يَؤُمُّ فيه، ولربما فعَلَ كل مستطاع من أجل أن يحصِّلَ هذا المسجد، فيأتي بالشفاعات والوسطاء، وبكل ما يستطيع من جهد؛ مِن أجل راتب، أو وجاهة؛ وهو مع ذلك ليس بأهل للإمامة أو الخطابة؟!

وهكذا مَن يتولَّى التدريس، وهو لا يُحسِنُ.

كلُّ هذا من أجل الدنيا، ولن تموت نَفْسٌ حتى تستوفي رِزْقَها وأَجَلَها؛ فلو اتَّقَى الله ﷻ، لَجَاءَهُ رزقُهُ في أيِّ عَمَلٍ كان، فيكون كسبه في هذه الحالة غيرَ مبارَكٍ فيه، وكان الواجب أن يتورَّع، ويقول: أنا لستُ بأهلٍ أن أدرِّسَ هذه العلوم، أو أدرِّسَ هذا الفن من الفنون، ولا يجوزُ أن أتقاضَى عليه مالًا؛ لأني لا أُحسِنُه.

هذا آخِرُ ما أردتُّ ذِكْرَهُ في هذا الباب «باب الوَرَع»؛ والله الموفِّق.



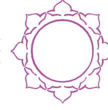
---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ١٨٨)؛ بتصرف.

(٢) انظر: «الدرر الكامنة» (٣/ ٣٠٠)، و«بغية الوعاة» (١/ ١٦).

سابعًا

التوكُّل



توطئة

إنَّ العبدَ إذا عرَفَ ربَّه معرفةً صحيحة بأسمائه وصفاته، فإن ذلك يُورِثُ في نفسه ثقة عظيمة بالله ﷻ؛ فيَرْكَنُ إليه العبد، ويفوِّضُ أمره إليه، ويعلِّقُ قلبه به وحده دون سواه؛ لأن الله تعالى وحده الذي يملك النفع والضر، والعطاء والمنع، والكفاية والنصر.

وبهذا يجتمِعُ شَعَثُ القلب، وتسكُنُ النَّفْس، ويطمئنُّ الإنسان، ويستريح من ألوان المعاناة التي تحصُلُ لغير المتوكِّلين على الله ﷻ.

ومن هنا جاء هذا الحديث عن التوكُّل؛ فأسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه؛ إنه سميع مجيب[١].



(١) **تنبيه**: بعد أن جمَعْنا مادَّة ثريَّة في هذا الموضوع من جميع المصادر التي أمكَنَ الوقوف عليها، وَقَفْتُ على كتاب «التوكُّل» للدكتور عبد الله الدّميجي حفظه الله.
فوجدتُّه قد أورد عامَّة ما وقَفْتُ عليه في هذا الموضوع، ورتَّبه ترتيبًا حسنًا. وقد استفدتُّ من ترتيبه وتنويعه وتقسيماته.

معنى التوكُّل وحقيقته

التوكُّل في اللغة: تقول العرب: وَكَلَ بالله يَكِلُ، وتَوَكَّلَ على الله، وأَوْكَلَ، واتَّكَلَ: إذا استسلَمَ إليه، وتقول: وَكَلَ إليه الأمرَ وَكْلًا ووُكُولًا؛ يعني: سلَّمه وترَكَه.

والوكيل: هو الذي يقوم بأمرِ موكِّله، وسُمِّيَ وكيلًا؛ لأن موكِّله قد وكَلَ إليه القيامَ بأمره، فهو موكولٌ إليه الأمرُ.

وقد ورد لفظ «الوكيل» في القرآن مَرَّاتٍ عديدة، وذكَرَ المفسِّرون في معناه **أقوالًا**:

منها: الحفيظ.

ومنها: الكفيل.

ومنها: الكافي.

وقيل غير ذلك[(١)].

قال الشِّنْقِيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعاني متقارِبة، ومرجعها إلى شيءٍ واحد، وهو أنَّ الوكيل: مَن يُتوكَّلُ عليه؛ فتُفوَّضُ الأمور إليه؛ ليأتي بالخير، ويدفع الشرّ؛ وهذا لا يصحُّ إلا لله وحده جلَّ وعلا؛ ولهذا حذَّر من اتِّخاذِ وكيل دونه؛ لأنه لا نافع ولا ضارّ، ولا كافيَ إلا هو وحده جلَّ وعلا»[(٢)].

والتوكيل: أن تَعتمِدَ على غيرك، وتَجعَلَهُ نائبًا عنك.

والتوكُّل: إظهارُ العَجْز، والاعتمادُ على الغير، والاسمُ من ذلك: التُّكْلان؛ يقالُ: توكَّل بالأمر: إذا ضَمِنَ القيام به، يقولُ: أنا أتوكَّلُ لك بهذا، ووَكَّلْتُ أمري إلى فلان؛ أي: أَلْجَأْتُهُ إليه، واعتمَدتُّ فيه عليه، وتَوَكَّلْتُ لفلان؛ بمعنى: تولَّيْتُ له؛ يعني: كنتُ وكيلًا له، ويقالُ: وكَّلتُهُ فتوكَّل لي، وتقول: توكَّلْتُ عليه؛ بمعنى: اعتمَدتُّهُ.

والحاصل: أن التوكُّل بمعنى الاعتماد والتفويض، وتوكيلُ الأمر إلى الشخص؛ أي: تفويضُهُ به والاعتمادُ فيه، ووكَّل فلان فلانًا: إذا استكفاه، واعتمَدَ عليه، وفوَّض الأمر إليه، ووَثِقَ به[(٣)].

---

(١) انظر: «الهداية، إلى بلوغ النهاية» (٣/ ٢١٣٣)، (٦/ ٤١٣٥)، و«زاد المسير» (١/ ٣٤٩).

(٢) «أضواء البيان» (٣/ ٤٨١).

(٣) انظر: مادَّة (و ك ل)، من: «تهذيب اللغة» (١٠/ ٣٧١)، و«القاموس المحيط» (٤/ ٦٧)، و«تاج العروس» (٣١/ ٩٦).

«**والوَكَالَةُ** ـ كما يقول الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ **يُراد بها أمران**:

أحدهما: التوكيل؛ وهو الاستنابة والتفويض.

والثاني: التوكُّل؛ وهو التصرُّف بطريق الإنابة عن الموكِّل.

وهذا من الجانبَيْن؛ فإن الله تبارك وتعالى يُوكِّلُ العبد، ويقيمه في حفظ ما وكَّله فيه، والعبد يوكِّل الرب، ويَعتمِد عليه»(١).

التوكُّل في الشرع: تنوَّعت عبارات أهل العلم فيه وكَثُرَتْ؛ وذلك لأنه حالٌ من أحوال القَلْبِ يصعُبُ ضبطها وحصرها وتحديدها بحدٍّ دقيق يبيِّن ما يدخُلُ فيها وما يخرُجُ عنها؛ ولذلك تنوَّعت تفسيراتُهم:

فمنهم: مَن فسَّره بلازمه.

ومنهم: مَن فسَّره بجزء معناه.

ومنهم: من فسَّره بثمرته.

ومنهم: مَن فسَّره بسببه وداعيه.

إلى غير ذلك مِن أقوالهم.

وهذا يتعلَّق بأمور دقيقة من الركون إلى الأسباب، أو تركِها؛ فيكون خارجًا عن حدِّ التوكُّل؛ فإن الاعتماد على الأسباب: شِرْكٌ بالله عَزَّ وَجَلَّ كما سيأتي، والإعراض عن الأسباب: عجز وضعف وتفريطٌ؛ ولذلك:

فمِن أهل العلم: مَن نظَرَ إلى هذه الحيثيَّة؛ ففسَّره بأمر يعالِجُ هذا المعنى.

ومنهم: مَن فسَّره بما يحصُلُ به.

ومنهم: من فسَّره بأثرِهِ ونتيجته؛ فلاحَظَ هذا المعنى، فذكَرَ ذلك في تعريفه ومعناه.

ومنهم: مَن جعله خالصَ عمَلِ القلب؛ كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوكُّلُ: عمَلُ القلب»(٢)؛ بمعنى: أنه ليس من العلوم والإدراكات.

ومنهم: مَن جعله مِن باب العلوم والإدراكات والمعارف؛ فهو عندهم عِلْمُ القلبِ بكفايةِ الربِّ للعبد(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوكُّلُ يجمع أصلَيْن: عِلْمُ القلبِ وعملُهُ:

أما عِلْمُهُ: فيقينه بكفاية وكيله، وكمالِ قيامِهِ بما وكَلَهُ إليه، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١١٤).

(٣) المصدر السابق.

وأما عمَلُهُ: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه، وتسليمه أمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرُّفه له فوق رضاه بتصرُّفه هو لنفسه.

فبهذَيْنِ الأصلَيْنِ يتحقَّق التوكُّل؛ وهما جِمَاعُهُ»[١].

«**ومنهم: مَن فسَّره بالسكون**، بسكون القلب وخمود حركته؛ فهو انطراح القلب عندهم بين يَدَيِ الربِّ؛ كانطراح المَيِّتِ بين يدي الغاسل يقلِّبه كيف يشاء»[٢]؛ بمعنى ألَّا يكون له اعتراضٌ على تدبير الربِّ ﷻ وتقديره.

ومنهم: **من فسَّره بسببه**؛ كما جاء عن ابن عبَّاس ﵄ بأنه الثقةُ باللهِ ﷻ[٣]، وكذا قول مَن قال: بأنه حُسْنُ الظنِّ بالله[٤]، ومَن قال: أنْ يَعلَمَ أنَّ الله هو ثقته[٥].

فهذا مِن قَبِيل السبب؛ لأن التوكُّل لا يمكن أن يحصُلَ إلا بحسن الظنِّ بمَن وكَّلْتَهُ، فإنْ كنتَ تسيءُ الظن به، فلا يمكن أن توكِّله، وكذلك لا يمكن أن يحصُلَ التوكُّل إلَّا بمن تَثِقُ به، فإذا عُدِمَتِ الثقة وحُسْنُ الظنِّ، فلا محل للتوكُّل.

ومنهم: **مَن فسَّره بلازمه**؛ كما قال الإمام أحمد ﵀: «قطعُ الاسْتِشْراف بالإياس من الخلق»[٦]؛ بمعنى: ألَّا يتطلَّع إلى المخلوقين.

وهذا من لازم التوكُّل؛ فإنَّ مَن ادَّعَى التوكُّل؛ وزعم أنَّه حقَّقه، لَزِمَهُ من ذلك ألَّا يتطلَّع قلبه إلى الخلق، فيرجوهم.

وكذا قولُ مَن قال: «قطعُ علائق القلب بغير الله ﷻ»[٧]، وقولُ الآخر: «التبرِئة مِن حَوْلِكَ وقوَّتِك، وحولِ مِثْلِكَ، وقُوَّةِ مِثْلِك»[٨]، وقولُ الآخر: «هو التعلُّقُ بالله تعالى في كل حال»[٩].

ومنهم: **مَن فسَّره ببعض معناه**؛ كما قال بعضهم: «هو قطع النظر عن الأسباب، بعد تهيئة الأسباب»[١٠].

وهذا في الواقع جزءٌ مِن معنى التوكُّل؛ فلا بدَّ من أمورٍ أُخرى؛ كحُسْنِ الظنِّ،

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٦٠).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٤)؛ بتصرف، وانظر في نقد هذه المقولة: «جامع المسائل» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (المجموعة السادسة/ ص٩).
(٣) «زاد المسير» (١/ ٤٥٠).
(٤) «شعب الإيمان» (١٢١٤).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (١٨)، عن الحسن.
(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥/ ٣٠٨).
(٧) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٥).
(٨) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٢١).
(٩) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٠١)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١١٥).
(١٠) «فتح الباري» (٢/ ٤٤٩)، و«عمدة القاري» (١/ ١٣٩).

واليقين، واعتماد القلب على الله ﷻ، وما إلى ذلك من الأمور.

وقيل: «هو: صِدْقُ الفاقة والافتقار»[(١)]؛ يعني: إلى الله ﷻ.

وقيل: «هو الثقة بما في يد الله، واليأسُ عمَّا في أَيْدِي الناس»[(٢)].

وقيل: «هو الاعتماد على الله»[(٣)].

وقيل: «هو قطع علائق القلب بغير الله»[(٤)].

ويقول الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: «هو: إسناد العبد أمره إلى الله تعالى، وحده لا شريك له، في جميع أموره؛ الدينيَّة والدنيوية»[(٥)].

ومنهم: مَن فسَّره بنتيجته وثَمَرته، وما يؤثِّره التوكُّل ويُنتِجُه؛ كقول الحسن: «التوكُّل: الرضا عن الله»[(٦)]، **وقولِ شَقِيق**: «طُمَأْنينة القلب بموعود الله»[(٧)]، **وقولِ بعضهم**: «الرضا بالمقدور»[(٨)].

يقول بِشْر الحافي: «يقول أحدهم: توكَّلتُ على الله، يَكْذِب على الله؛ لو توكَّلَ على الله، رَضِيَ بما يفعل الله»[(٩)].

وسُئِل يحيي بن معاذ: متى يكون الرجل متوكِّلًا؟ فقال: «إذا رَضِيَ بالله تعالى وكيلًا»[(١٠)].

وقال له رجل: متى أدخُلُ حانوت التوكُّل، وألبس رداء الزاهدين، وأَقْعُد معهم؟ قال: إذا صِرْتَ مِن رياضتك لنفسك إلى حدٍّ لو قطَعَ الله الرزق عنك ثلاثة أيام، لم تضعُفْ نفسُك»[(١١)].

فهذا في الواقع كله نتيجة للتوكُّل وثمرة له: أن يرضى الإنسان بما قدَّره الله ﷻ عليه؛ فلا يَجزَع، ولا يعترِض على أقدار الله تبارك وتعالى.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «من المقامات: ما يكون جامعًا لمقامَيْن، ومنها: ما يكون جامعًا لأكثَرَ من ذلك، ومنها: ما يَندرِجُ فيه جميع المقامات؛ فلا يستحِقُّ صاحبُهُ اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه»[(١٢)].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٥٨).
(٢) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٠٥).
(٣) «حلية الأولياء» (١٠/ ١٠٣).
(٤) تقدم قريبًا.
(٥) «الدرر السنية، في الأجوبة النجدية» (١٠/ ١٥٧).
(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٧).
(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٥).
(٨) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٥).
(٩) المصدر السابق.
(١٠) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٩٩).
(١١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢).
(١٢) المصدر السابق (١/ ١٣٦).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتوكُّلُ: جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا؛ لا يُتصوَّرُ وجودُهُ بدونها»[(١)].

وقال أيضًا: «والتوكُّل: معنًى يَلتئِمُ من أصلَيْن: مِن الثقة، والاعتماد»[(٢)].

«**وحقيقة الأمر**: أن التوكُّل: حال مركَّبة من مجموعة أمور، لا تَتِمُّ حقيقة التوكُّل إلا بها:

فأوَّل ذلك: معرفة بالربِّ وصفاتِه؛ مِن قدرته وكفايته وقيوميَّته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته؛ وهذه المعرِفة أوَّل مقام التوكُّل.

ثانيًا: إثبات للأسباب والمسبَّبات، فلا يُعرِضُ الإنسان عن ذلك؛ فإنَّ مَن نفاها، فتوكُّلُهُ مدخول.

ثالثًا: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكُّل؛ فإنه لا يستقيم توكُّل العبد حتى يصح له التوحيد، وعلى قَدْرِ تجريد التوحيد تكون صحة التوكُّل»[(٣)].

وإذا ضَعُفَ هذا التوحيد، ضَعُفَ التوكُّل على الله عَزَّ وَجَلَّ، ومتى التفَتَ القلب إلى غير الله تبارك وتعالى، كان نقصًا في توحيد العبد.

وهذه أمورٌ قد لا يُدرِكُها الإنسان إلا في أوقات الحاجات وأوقات الكروب، وفي أوقات الخوف والشدائد؛ فيجد قلبه أحيانًا فارغًا، لا مَحَلَّ للتوكُّل على الله عَزَّ وَجَلَّ فيه، فيَرتبِط ذلك القلب كل الارتباط بهؤلاء المخلوقين، فيرى أنَّ مصيره في أيديهم، وأنَّ أَزِمَّةَ الأمور إليهم، وأن مستقبله مرتبِطٌ بهم غاية الارتباط، وهذا يكون للمريض مع الطبيب، وللمريض مع الدواء، وللمُزارِع مع مزرعته، وللتاجر مع ضَيْعَته وتجارته، ويكون أيضًا للموظَّف مع رئيسه، ونحو ذلك.

«**رابعًا**: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه وسكونه إليه.

خامسًا: حُسْنُ الظنِّ بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ فعلى قدر حُسْنِ ظنِّك به يكون توكُّلك عليه.

سادسًا: استسلام القلب له.

سابعًا: التفويض.

ثامنًا: الرضا بما يقدِّره عليه؛ فمن لم يَرْضَ، فليس بمتوكِّل حقيقةً، والرضا أجلُّ ثمرات التوكُّل وأعظم فوائده؛ وذلك أنَّ مَن توكَّل على الله عَزَّ وَجَلَّ حق التوكُّل، فإنه يرضى بما يَصنَعُ الله عَزَّ وَجَلَّ به»[(٤)].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق (١/ ٧٥).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١١٨ ـ ١٢٠)؛ باختصار وتصرُّف.
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٢١ ـ ١٢٢)؛ باختصار وتصرُّف.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحقيقةُ التوكُّل: هو صدقُ اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح، ودفع المَضَارِّ، مِن أمور الدنيا والآخرة كلِّها، وكِلَةُ الأمور كلها إليه، وتحقيقُ الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يَضُرُّ ولا ينفع سواه»(١).

قال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ: «جملة التوكُّل: تفويضُ الأمر إلى الله جلَّ ثناؤه، والثقة به»(٢).

وقال أبو إسماعيل الأنصاري: «التوكُّل: كِلَةُ الأمر إلى مالكه، والتعويلُ على وَكَالته»(٣).

وسُئِل أبو بكر الواسطي عن ماهيَّة التوكُّل؟ فقال: «الصبر على طوارق المِحَن، ثم التفويض، ثم التسليم، ثم الرضا، ثم الثقة»(٤).

وقال الزَّبِيدي: «هو الثقة بما عند الله تعالى، واليأسُ مما في أيدي الناس»(٥).

وأحسَنُ مِن هذا: ما ذكره الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ **في معناه، فقال:** «هو حالٌ للقلبِ ينشأ عن معرفتِهِ بالله، والإيمانِ بتفرُّده بالخلقِ والتدبير، والضُّرِّ والنفع، والعطاءِ والمنع، وأنه ما شاء كان، وإنْ لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإنْ شاءه الناس، فيُوجِبُ له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته؛ لما توكَّل عليه فيه»(٦).

والله سبحانه قد أمر العبدَ بأمر، وضَمِنَ له ضمانًا، فإنْ قام بأمره بالنصح والصِّدْق، والإخلاص والاجتهاد، قام الله سبحانه له بما ضَمِنَهُ له من الرِّزْق والكفاية، والنصر وقضاء الحوائج؛ فإنه سبحانه ضَمِنَ الرِّزْقَ لمن عبَدَهُ، والنصرَ لمن توكَّل عليه واستنصَرَ به، والكفايةَ لمن كان هو هَمَّهُ ومراده، والمغفرةَ لمن استغفرَهُ، وقضاء الحوائج لمن صدَقَهُ في طلبها، ووَثِقَ به، وقَوِيَ رجاؤُهُ وطمعُهُ في فضله وجُوده: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الشورى: ٣٦].

وأجمعُ ما رأيتُ في تفسيرِه: هو ما ذكره الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ يقول: «وحقيقةُ التوكُّل على الله: أن يَعلَمَ العبدُ: أن الأمر كلَّه لله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافعُ الضارُّ، المُعطِي المانع، وأنه لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، فبعد هذا العلم: يعتمِدُ بقلبه على ربِّه في جلبِ مصالحِ دينه ودنياه، وفي دفعِ المضارِّ، ويَثِقُ غايةَ الوثوق بربِّه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذلٌ جُهْدَهُ في فعل

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص٨١٢).
(٢) «شعب الإيمان» (٣/ ١٠٤).
(٣) «منازل السائرين» (ص٤٣).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٥٨).
(٥) «تاج العروس» (٣١/ ٩٨).
(٦) «مدارج السالكين» (١/ ٨٢).

الأسباب النافعة؛ فمتى استدام العبد هذا العلم، وهذا الاعتماد والثقة، فهو المتوكِّلُ على الله حقيقة، ولْيُبْشِرْ بكفاية الله له، ووعده للمتوكِّلين»(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوكُّل: الاعتماد على الله، مع إظهار العجز»(٢).

وبهذا نعلم: أن المتوكِّل على الله عَزَّ وَجَلَّ **هو الذي يعلم أنَّ الله كافِلٌ رزقَهُ وأمره؛ فيَرْكَنُ إليه وحده، ولا يتوكَّل على غيره في أمرٍ من أموره.**

فهو يعلم: «أن الله على كل شيء قدير، وأنه المتفرِّد بالاختيار والتدبير، وأن تدبيرَهُ لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وأنه أعلم بمصلحته من العبد، وأقدر على جلبها وتحصيلها منه، وأنصح للعبد منه بنفسه، وأرحم منه بنفسه، وأَبَرُّ به منه بنفسه، ويعلم مع ذلك: أنه لا يستطيع أن يتقدَّمَ بين يَدَيْ تدبيرِهِ خطوةً واحدة، ولا يتأخَّرَ عن تدبيره له خطوةً واحدة؛ فلا متقدَّم له بين يدي قضائه وقدرِهِ ولا متأخَّر، فأَلْقَى نَفْسَهُ بين يديه، وسلَّم الأمر كله إليه، وانطرَحَ بين يديه انطراحَ عبدٍ مملوكٍ ضعيفٍ بين يدي مَلِك عزيز، له التصرُّف في عبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف فيه بوجهٍ من الوجوه؛ فاستراح حينئذ من الهموم والغموم، والأنكاد والحسرات، وحمَّل مصالحه وحوائجه مَن لا يبالي بحملها، ولا يُثقِلُهُ ذلك، ولا يَكْترِثُ بها، فتولاها دونه، وأراه لطفه وبِرَّهُ ورحمته وإحسانه؛ مِن غير تعبٍ من العبد ولا نصَبٍ ولا اهتمامٍ منه؛ لأنه قد صرَفَ اهتمامه كله إليه، وجعله وحده هَمَّه، فصرَفَ عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه، وفَرَّغَ قلبه منها»(٣).

وينبغي للعاقل إذا عرَفَ هذه الحقيقة: أن يَعرِضَ نفسه عليها، فينظر أحقَّق التوكُّل على الله عَزَّ وَجَلَّ حقيقةً أم لا؟

والمتوكِّلون هم الذين يتوكَّلون على الله، ويَعتمِدون عليه، مع إظهار العجز، ويفوِّضون جميع أمورهم إليه، ويثقون به، ويُوقِنون بأنَّ قضاءَهُ ماضٍ، ويتَّبِعون سُنَّة نبيه ﷺ في السَّعْي فيما لا بد منه من الأسباب؛ مِن مَطْعَم، ومَشْرَب، وتحرُّزٍ من عدوٍّ، وإعداد الأسلحة، واستعمال ما تقتضيه سُنَّة الله تعالى المعتادة، ولا يطمئنُّون إلى شيء من تلك الأسباب، ولا يلتفتون إليها بالقلوب، ولا يتعاطَوْنها إلَّا بحكمِ الأمر؛ فإنَّها لا تَجلِب نفعًا، ولا تَدفَع ضرًّا(٤).

---

(١) «القول السديد، شرح كتاب التوحيد» (ص١٢٠ط. مجموعة التحف النفائس).
(٢) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٨٥).
(٣) من كلام ابن القيم في «الفوائد» (١٦٥ ـ ١٦٦)؛ بتصرُّف.
(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (٥/ ٢٩١)، و«فتح الباري» (١١/ ٤١٧ ـ ٤١٨).

ونحن نعلم: أن رسول الله ﷺ أعظم الناس توكُّلًا على الله ﷻ، فإذا ذكَرْتَ المتوكِّلين وحالهم، فإن أوَّل ما تَتَّجِهُ الأنظار إليه هو حال رسول الله ﷺ، ومِن أسمائه المتوكِّلُ[(١)]؛ وذلك لكمال توكُّله، وإنما قيل له ذلك؛ «لقناعتِهِ باليسير، والصبرِ على ما كان يَكْرَه»[(٢)].

وكان من دعائه ﷺ ـ كما في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما ـ: «**اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ**»[(٣)].



(١) كما في حديث عبد الله بن عمرو في صفة النبي ﷺ في التوراة: «**سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ**»؛ أخرجه البخاري (٢١٢٥).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٤٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

الفروقات في باب التوكُّل

وإنما ذُكِرَ ذلك؛ لما قد يقع من الالتباس والاشتباه بين التوكُّلِ الحقيقيِّ وبعضِ الأمور الأخرى.

أولًا: الفرق بين التوكُّل والإضاعة:

فقد يَلتبِس علينا التوكُّلُ والتفويضُ إلى الله ﷻ بالإضاعة؛ فيكونُ العبد مضيِّعًا لحظِّه؛ ظنًّا منه أن ذلك من التفويض والتوكُّل، وإنما هو من الإضاعة والإهمال؛ كما سيتضح فيما سيأتي بعده.

ثانيًا: الفرق بين التوكُّل والرَّاحة:

فقد يَلتبِس التوكُّل بالراحة، والواقع: أن المتوكِّل مجتهد، مُجِدٌّ في تحصيل الأسباب والقيام بما أمره الله ﷻ به؛ فهو يَنصَبُ ويَتعَبُ في نيلِ الزُّلْفَى عند الله ﷻ؛ لأنَّ التوكُّل ـ كما سيأتي في ذكر متعلَّقاته ـ يكون مما يتصِلُ بأمور الآخرة والنجاة، ويكون أيضًا مما يتعلَّق بأمور المعاش في هذه الدنيا.

فالمتوكِّل ممتثِلٌ لقول النبي ﷺ: «**فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»[١]، لا يَتهافَتُ على الدنيا، ولكنه يبذُلُ السبب، فيعمل لآخرته كأنه سيموت غدًا، ويعمل لدنياه كأنه سيعيش أبدًا.

وأمَّا مَن التبَسَ عليه التوكُّل بالرَّاحة، فإنه يخلُدُ إلى الأرض، ويترُكُ الجِدَّ والعمل في سعي الآخرة والدنيا، ثم بعد ذلك ينتظِرُ ما يحصُلُ به المطلوب!

ثالثًا: الفرق بين الركون إلى الأسباب وتعطيلها:

فلربَّما اشتبَهَ خلع الأسباب بتعطيلها في باب التوكُّل، وخلعُ الأسباب: أن تُخلَعَ من القلب، فلا يُعتمَدَ عليها، ولا يُركَنَ إليها؛ وهذا حقيقة التوحيد؛ فالركونُ إلى الأسباب: شِرْك، لكنَّ ترك الأسباب: نقصٌ في العقل؛ فلا يترُكُ العمل والأسباب بدعوى أنَّه محقِّق للتوكُّل[٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصحَّحه ابن الجارود (٥٥٦)، والحاكم (٤/ ٣٢٥)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٢٦٠٧).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٣).

رابعًا: الفرق بين التوكُّل والعجز:

فالتوكُّلُ: عمَلُ القلبِ وعبوديَّته؛ اعتمادًا على الله، وثقةً به، والتجاءً إليه، وتفويضًا إليه، ورضًا بما يقضيه للعبد؛ لعلمِهِ بكفايته سبحانه، وحسنِ تدبيرِهِ لعبده: إذا فوَّض إليه أمره، مع قيامِه بالأسباب المأمور بها، واجتهادِه في تحصيلها.

وقد كان النبي ﷺ أعظم المتوكِّلين، وقد ظاهَرَ بين دِرْعَيْنِ في يوم أُحُد[١]، ولَبِسَ ﷺ المِغْفَرَ على رأسه، ودخل مكة وعلى رأسه المِغْفَر[٢]، واختفى في الغار ثلاثة أيَّام لمَّا خاف المشركين[٣]؛ حيث كانوا في طَلَبِه؛ فكان متوكِّلًا في السبب، لا متوكِّلًا على السبب.

«وأمَّا العاجز، فهو معطِّل؛ إمَّا أن يعطِّل السبب عجزًا منه، ويزعُمَ أن ذلك توكُّل، وإمَّا أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه، معتمِدًا عليه، غافلًا عن المسبِّب، معرِضًا عنه»[٤].

خامسًا: الفرق بين الثقةِ بالله ﷻ والغرورِ والعَجْز:

فالمتوكِّل الواثق: يفعل ما أمره الله ﷻ به، ويَثِقُ بالله في طلوع ثَمَرته؛ كالزارع الذي يَزرَع، ويُحسِنُ الظنَّ بربِّه تبارك وتعالى، ويَعمَل، ويصلِّي، ويَجتهِد، ويَثِقُ بربه تبارك وتعالى، وأنَّ الله لا يُضِيع أَجْرَ المحسنين.

وأما المغترُّ العاجز: فهو مفرِّط في العمل، وعند نفسه أنه واثقٌ بالله تبارك وتعالى، وأن حاله أكمل من حال أولئك الذين يعملون ويتعاطَوْنَ الأسباب[٥].

سادسًا: الفرق بين الطمأنينةِ والسكونِ إلى الله ﷻ، والسكونِ والطمأنينة إلى المعلومِ من الأقوات والأرزاقِ والأشخاصِ وغير ذلك[٦]:

فربَّما ادَّعى العبد: أنه متوكِّل على الله ﷻ، وأنه يَثِقُ بما عنده، وأنه راضٍ بما قسَمَ الله له، وأن ذلك هو بَرْدُ اليقين، ولكنه في الحقيقة مطمئِنٌّ إلى مؤسَّسته أو دُكَّانه، ولو أنه قُطِعَ عنه ذلك بكَسَادٍ في كسبه، أو آفةٍ في رزقه، لَجَزِعَ أشدَّ الجَزَع.

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٠) عن السائب بن يزيد، عن رجل قد أسماه، وابن ماجه (٢٨٠٦) عن السائب بن يزيد.
(٢) أخرجه البخاري (١٨٤٦)، ومسلم (١٣٥٧)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٣٩٠٥)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) من كلام ابن القيم في «الروح» (٢/ ٧٤٧)؛ بتصرُّف.
(٥) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٤)، و«الروح» (٢/ ٧٤٨).
(٦) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٤).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأكثرُ المتوكِّلين: سكونُهم وطمأنينتهم إلى المعلوم، وهم يظنُّون أنه إلى الله، وعلامةُ ذلك: أنه متى انقطَعَ معلوم أحدهم، حضره همُّه وبثُّه وخوفه؛ فعُلِمَ أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله»[(١)].

سابعًا: الفرقُ بين التوكُّل والعَزْمِ على التوكُّل:

فقد يَلتبِس على الإنسان التوكُّل على الله والرِّضا عنه بكلِّ ما يفعله به؛ سواءٌ كان ذلك مما يحبه العبد أو يكرهه، مع العزمِ على ذلك أو حديثِ النفس به؛ فقد يقول الإنسان: أنا متوكِّلٌ وراضٍ بما يَقسِمُ الله عَزَّ وَجَلَّ لي، ولو وقَعَ له ما يَكرَهُ، لَتَغَيَّرَتْ حاله، فيكون ذلك من قَبِيل حديث النَّفْس، وليس له حقيقة في الواقع[(٢)]؛ فكثيرٌ من الناس قد يَعرِفُ التوكُّل بتفاصيلِه ومعانيه دراسةً وفهمًا وعلمًا، ولكنَّ الحقيقة والامتثال والتطبيق شيءٌ آخر.



(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

منزلة التوكُّل

يمكن بيان هذا الأمر من جهات متعدِّدة، تظهر مِن خلالها قيمةُ التوكُّلِ وشِدَّةُ الحاجة إليه.

فأوَّل ذلك: هو ما يقترِن به التوكُّل ويرتبِطُ به من الأمورِ العِظَام؛ كالإسلامِ والإيمانِ والإحسان، والهدايةِ والتقوى لله ﷻ، وما إلى ذلك من الأمور المهمَّة.

أما وجه اتصالِهِ بالإيمان: فذلك أنَّ التوكُّل شرط له، ولازمٌ من لوازمِه؛ فهذا موسى ؈ يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ [يونس: ٨٤]؛ فجعَلَ ذلك لازمًا من لوازم الإيمان، بل كأنه جعله شرطًا مِن شروطه.

وفي قصة بني إسرائيل لما أُمِرُوا بدخول القرية المقدَّسة التي أمَرَهم الله ﻷ بدخولها، قال الله ﻷ: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن القيِّم: «وشرَطَ في إيمانهم أن يكونوا متوكِّلين، والمعلَّق على الشرط يُعْدَمُ عند عدمِه؛ وهذا يدلُّ على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكُّل؛ فمَن لا توكُّل له لا إيمان له»[(١)].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: ٢٩]؛ فربَطَ بين الإيمان والتوكُّل، ولا يَخفَى أن كلمة التوحيد «لا إلٰه إلا الله» تقتضِي الإخلاص والتوكُّل.

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢]؛ أي: على اللهِ وحدَهُ دون ما سواه.

قال ابن القيم ؒ: «فذِكْرُ اسم الإيمان ها هنا، دون سائر أسمائهم: دليل على استدعاء الإيمان للتوكُّل، وأن قوَّة التوكل وضعفه بحَسَب قوة الإيمان وضعفه، وكلَّما قَوِيَ إيمان العبد، كان توكُّله أقوى، وإذا ضَعُفَ الإيمان، ضَعُفَ التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا، فهو دليلٌ على ضَعْفِ الإيمان ولا بُدَّ»[(٢)].

وقد جاءت عبارات كثيرة عن السلف تَدُلُّ على هذا المعنى:

ومِنْ ذلك: ما قاله ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبَيْر، وغيرهما: «التوكُّل على الله

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٢٩).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٥٦ ـ ٥٥٧).

جِمَاعُ الإيمان»[(١)].

وكان سعيد بن جُبَيْر رَحِمَهُ اللَّهُ **يدعو**: «اللَّهُمَّ، إني أسألك صِدْقَ التوكُّل عليك، وحُسْنَ الظنِّ بك»[(٢)].

وقال: «التوكُّل على الله نصف الإيمان»[(٣)].

وقال سهل التُّسْتَري: «مَن طعَنَ في الاكتساب، فقد طعَنَ في السُّنَّة، ومَن طعَنَ في التوكُّل، فقد طعَنَ في الإيمان»[(٤)].

ويقول الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوكُّل على الله مِن أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحَسَبِ قوَّة توكُّل العبد على الله يَقوَى إيمانه، ويَتِمُّ توحيده، والعبد مضطرٌّ إلى التوكُّل على الله والاستعانة به، في كل ما يريد فعله أو تركه، من أمورِ دِينه أو دنياه»[(٥)].

وبهذا نعلم: أنَّ التوكُّل على الله عَزَّوَجَلَّ من أعلى المقامات، ومن أهمِّ المهمَّات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطَحِبًا له في كل شؤونه وحالاته.

ونحن حينما نقول: إن التوكُّل جزءٌ من الإيمان ـ في الوقت الذي نقول فيه: إنَّه من مقتضَيَاته أو من شروطه ـ فإنَّ ذلك لا مناقضةَ فيه؛ وذلك أننا إذا نظرنا إلى حقيقة الإيمان؛ فإن الإيمان قولٌ وعملٌ، والتوكُّلُ يدخُلُ في قول القلب، ويدخُلُ في عمل القلب؛ وذلك إذا أُفرِدَ لفظ الإيمان، وأمَّا إذا قُرِنَ التوكُّل بالإيمان، فإنه يكون قَسِيمًا له؛ فيكون التوكُّل بهذا الاعتبار من مقتضيات الإيمان أو من شروطه، والشيء قد يُنظَرَ إليه باعتبارَيْنِ أو أكثر، فيُحكَمُ عليه بهذه الاعتبارات؛ فمع كلِّ اعتبارٍ يكون هناك حكمٌ يناسبه.

ولتوضيح ذلك نقول: مِن الفقهاء: مَن يذكُرُ النيَّة على أنها مِن شروط الصلاة، ومنهم: مَن يذكُرُها على أنها مِن الأركان.

والواقع: أنه لا منافاةَ بين هذا وهذا؛ فالنية إذا نَظَرْتَ إليها باعتبار أنه لا يصحُّ الدخول في الصلاة إلا بعد الإتيان بها؛ فهي شرطٌ بهذا الاعتبار، وإذا نَظَرْتَ إلى أنَّ

---

(١) أخرجه عن ابن عباس: البيهقي في «الشعب» (١٢٦٣)، وعن سعيد: أحمد في «الزهد» (ص١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٦٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٣١)؛ واللفظ له.

(٥) «القول السديد» (ص١٢٠ط. مجموعة التحف النفائس).

النية تُستَصْحَبَ في سائر الصلاة؛ مِن أوَّلها إلى آخرها، فهي جزءٌ لا يتجزَّأ منها؛ فهي بهذا الاعتبار ركنٌ من أركانها.

وأمَّا ارتباط التوكُّل بالإسلام: فكما جاء أيضًا من قول موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [يونس: ٨٤، ٨٥]؛ فجعل دليل صحة الإسلام التوكُّل؛ كما قال الحافظ ابن القيِّم رحمه الله[(١)].

والآيات والنصوص الدالَّة على هذا المعنى كثيرة لا تخفى.

وأما عَلَاقَتُهُ بالإحسان: فيمكن أن يُؤخَذَ ذلك من قول الله تبارك وتعالى في صفة أهل الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

قال الشيخ سُلَيْمان بن عبد الله رحمه الله: «في الآية: وصفُ المؤمنين حقًّا بثلاثِ مقاماتٍ مِن مقامات الإحسان، وهي: الخَوْف، وزيادة الإيمان، والتوكُّل على الله وحده...»[(٢)].

فهذه الصفات التي ذكَرَها لا تكون لكلِّ أهل الإيمان، وإنما تكون للمخصوصين منهم مِن أهل الإحسان.

وأما اقتران التوكُّل مع الهداية: فقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: ١٢].

يقول ابن القيِّم رحمه الله: «وأمَّا الجمع بين التوكُّل والهداية، ففي مثل قول الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال الله تعالى لنبيِّه: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ۝٧٩﴾ [النمل: ٧٩]؛ فأمَرَ رسوله بالتوكُّل عليه، وعقَّب هذا الأمر بما هو موجِبٌ للتوكُّل، مصحِّح له، مستدعٍ لثبوته وتحقُّقه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ۝٧٩﴾؛ فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكُّل على الله، والاكتفاء به... كما قالت الرسل لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾، فعَجِبوا مِن تركِهِم التوكُّل على الله وقد هداهم، وأقرُّوا أن ذلك لا يكون أبدًا.

وهذا دليل على أن الهداية والتوكُّل متلازمان.

فصاحبُ الحقِّ لعلمِهِ بالحقِّ وليقينه بأن الله ولي الحق وناصره، مضطرٌّ إلى توكُّله

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٥٧).

(٢) «تيسير العزيز الحميد، في شرح كتاب التوحيد» (ص٤٣٠).

على الله، لا يَجِدُ بُدًّا من توكُّله؛ فإن التوكل يجمع أصلَيْن: عِلْمَ القلبِ وعمَلَه».

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فظهَرَ أن التوكُّل أصلٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأنَّ منزلته منها منزلةُ الجَسَدِ من الرأس**»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود: أن القلب متى كان على الحق، كان أعظَمَ لطُمَأْنينتِهِ ووثوقِهِ بأن الله وليُّه وناصره، وسكونِهِ إليه؛ فما له ألَّا يتوكَّل على ربه؟! وإذا كان على الباطل علمًا وعملًا أو أحدِهما، لم يكن مطمئنًّا واثقًا بربِّه؛ فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده؛ فإن الله سبحانه لا يتولَّى الباطل، ولا ينصُرُه، ولا يُنسَبُ إليه بوجه؛ فهو منقطِعُ النَّسَب إليه بالكليَّة؛ فإنه سبحانه هو الحق، وقوله الحق، ودِينه الحق، ووَعْدُه حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق، ليس في أفعاله شيءٌ باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل؛ كما أن أقواله سبحانه كذلك، فلما كان الباطل لا يتعلَّق به سبحانه، وكان منقطِعًا عن ربه، لم يكنِ الله وليَّه، ولا ناصرَهُ، ولا وكيلَه.

فتدبَّر هذا السر العظيم في اقتران التوكُّل والكفاية بالحق والهدى، وارتباط أحدهما بالآخر»[(٢)].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ **في قوله تعالى:** ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]: «أي: أيُّ شيءٍ يمنعنا من التوكُّل على الله، والحالُ أننا على الحق والهدى؟! ومَن كان على الحق والهدى، فإنَّ هداه يُوجِبُ له تمام التوكُّل، وكذلك ما يُعلَمُ مِن أنَّ الله متكفِّل بمعونة المهتدي، وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف مَن لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامِنًا على الله؛ فإنَّ حاله مناقِضةٌ لحال المتوكِّل»[(٣)].

وقال ابن القيِّم: «فالعبدُ آفتُه: إمَّا مِن عدم الهداية، وإمَّا من عدم التوكُّل؛ فإذا جمع التوكُّل إلى الهداية، فقد جمع الإيمان كلَّه»[(٤)].

وأما اقتران التوكُّل مع التقوى[(٥)]: فكما قال الله ﷻ في أول الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ①﴾ [الأحزاب: ١]؛ ولا شك أنَّ هؤلاء الكفَّار والمنافقين سيُمارِسونَ ضغوطًا كبيرة عليه، ويتسبَّبون له في أنواع الأذى، ويَحِيكُونَ ضدَّه المؤامرات، فأمره بعد ذلك مباشرة بالتوكُّل، فقال:

---

(١) «طريق الهجرتَيْن» (٢/ ٥٦٢).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٦١).
(٣) «تفسير السعدي» (ص٨٤٣).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٧).
(٥) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٥٧ ـ ٥٦٣).

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٨١﴾ [النساء: ٨١]؛ فإنك إذا كنت على أمر الله ﷻ وعلى طاعته، وقد اتَّبَعْتَ وحي الله الذي أنزَلَهُ إليك، فإنه لا يضرُّك كيد الأشرار، وفجور الفجار، ومهما تَمالأَ عليك ظلَمَةُ الإنس والجن، فإنهم لا يَصِلُونَ إليك بالضرر، إنما هو شيءٌ من الأذى العابر، ثم يزول بعد ذلك، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]؛ أي: كافيه، فجزاءُ التوكُّل هو الكفاية؛ وهذا هو مقصودُ العبدِ مِن توكُّله على الله تبارك وتعالى.

وأما اقترانُ التوكُّل مع الدعاء: فقد جاء ذلك في دعاء إبراهيم ﷺ والذين آمنوا معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾ [الممتحنة: ٤، ٥]؛ فلا بدَّ للعبد أن يفوّض أمره إلى الله ﷻ قبل أن يتوجَّه إليه بالدعاء؛ وذلك لأنه يَعلَمُ أن الله ﷻ يملك أَزِمَّةَ الأمور، وأنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن سُؤْلَهُ ومطلوبه وحاجته إنما هي بيده؛ فينبغي أن يتوكَّل عليه، وأن يَثِقَ بما عنده، وأن يَركَنَ إليه، وأن يفوِّضَ كلَّ أموره إليه.

وجاء ذلك أيضًا في دعاء شُعَيْبٍ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال قومُ موسى عليه السلام: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥﴾ [يونس: ٨٥].

وجاء في دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١).

وهذا الذي ذكره النبيُّ ﷺ مناسِبٌ غاية المناسبة لهذا المذكور بعده.

وأما اقترانُ التوكُّل مع الصَّبْر: فقد جاء ذلك في عدَّة آيات، ووجهُ ذلك ظاهر؛ وذلك أن الإنسان لا يمكِنُ أن يتصبَّر إلا إذا كان يَركَنُ إلى الله ﷻ، ويَثِقُ به، ويفوِّض أموره إليه؛ وإلا فإن الإنسان سَرْعانَ ما ينقطِع، ويفتقِر، ويتخلَّف عنه الصبر أحوجَ ما يكون إليه؛ والله ﷻ يقول: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [إبراهيم: ١١]، إلى أن قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم: ١١، ١٢]؛

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)؛ واللفظ له، ومسلم (٧٦٩)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فإنهم لا يستطيعون تحقيق هذا الصبر إلا بتحقيق التوكُّل على الله تعالى، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

ففرقٌ بين مَن أظهَرَ التجلُّد والتصبُّر مِن أجلِ دفعِ الشماتة، أو مِن أجل أن يقول الناس عنه: إنه صابر، ومَن كان صبره لثقتِهِ بربِّه، وتفويضِه لله تبارك وتعالى؛ فهذا الصبر هو الصبر الذي يُحمَد، والذي ينَفَع صاحبه، والذي يعقُبُهُ الظَّفَر والفرج بإذن الله.

وجاء ذلك أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].

يقول الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صَبْرُهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحارَبةَ العظيمة للشيطان الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك، وتوكُّلُهم يقتضي شدَّة اعتمادهم على الله، وحُسْنَ ظنِّهم به أن يحقِّق ما عزموا عليه من الأعمال ويكمِّلها، ونَصَّ على التوكُّل وإن كان داخلًا في الصبر؛ لأنه يُحتاجُ إليه في كل فعلٍ وتركٍ مأمورٍ به، ولا يتم إلا به»(١).

وأما اقتران التوكُّل مع العبادة: فقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنَّ المراد بالاستعانة هنا التوكُّل، وهي طلَبُ العون من الله، وإسنادُ الأمر إليه، وتفويضُ الحاجات إلى مَن يَملِكها، ويملك النفع والضرّ.

وجاء ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ [المزمل: ٨، ٩]؛ فقرَنَ بين التوكُّل والتبتُّل؛ وهو العبادة أو الانقطاع للعبادة.

وكذلك في قوله تعالى حكايةً عن شُعَيْبٍ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨].

وقوله حكايةً عن الخليل ﷺ والذين معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة: ٤]، وقوله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد: ٣٠]، وكذا في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ [الشورى: ١٠].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص١٣٢٢).

فهذه المواطن جمَعَتْ بين هذَيْنِ الأصلَيْن: التوكُّلِ والعبادة؛ فالتوكُّلُ كما يقول الفُضَيْل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «قِوَامُ العبادة»[١]، وهو الغاية القصوى منها؛ كما يقول وهب بن منبِّه رَحِمَهُ اللَّهُ[٢].

والعبادةُ هي غايةُ العبادِ التي خُلِقُوا مِن أجلِها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

والاستعانةُ والتوكُّلُ هما وسيلتهم إلى ذلك.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن العبد لا بُدَّ له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصِّلة إلى تلك الغاية؛ فأشرَفُ غاياته التي لا غايةَ له أجلُّ منها: عبادة ربِّه، والإنابة إليه، وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتَّة: التوكُّل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة؛ فهذه أشرَفُ الغايات، وتلك أشرَفُ الوسائل»[٣].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «تأمَّلْتُ أنفَعَ الدعاء، فإذا هو سؤال العَوْنِ على مرضاته، ثم رأيتُهُ في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]»[٤].

وهو الدعاء الذي علَّمه النبي ﷺ لمعاذ بن جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقال: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فقال: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ، أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[٥].

فالله عَزَّ وَجَلَّ: «لم يأمر بالتوكُّل فقطْ، بل أمَر مع التوكُّل بعبادته وتقواه التي تتضمَّن فِعْلَ ما أمر، وتَرْكَ ما حذَّر؛ فمَن ظنَّ أنَّه يُرضِي ربَّه بالتوكُّل بدون فعل ما أُمِرَ به، كان ضالًّا، كما أنَّ مَن ظنَّ أنه يقوم بما يُرضِي الله عليه دون التوكُّل، كان ضالًّا.

وإذا أُطلِقَ لفظ العبادة، دخل فيها التوكُّل، وإذا قُرِنَ أحدهما بالآخر، كان للتوكُّل اسم يخصُّه»[٦].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٦٤).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٥٨). (٣) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٥٩).
(٤) «المستدرَك على مجموع الفتاوى» (١/ ١٧٥)، و«مدارج السالكين» (١/ ٧٨).
(٥) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)؛ واللفظ له، والنسائي (١٣٠٣)؛ من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠)، والحاكم (١/ ٢٧٣) و(٣/ ٢٧٣)، والنووي في «الأذكار» (ص١٤٢)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ٢٨٣)، والألباني في «تخريج الكَلِم» (١١٤).
(٦) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٢٧).

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «وإتيانُهُ بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يُتوكَّل إلا على مَن يستحِقُّ العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر»[(١)].

التوكُّل أعمُّ من الاستعانة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «التوكُّلُ يتناول التوكُّل عليه ليُعِينَهُ على فعل ما أمَر، والتوكُّلَ عليه ليُعطِيَهُ ما لا يَقدِر العبد عليه؛ فالاستعانة تكون على الأعمال، وأما التوكُّل، فأعمُّ من ذلك»[(٢)].

الناس في مقام التوكُّل والعبادة أربعةُ أقسام:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «فهذا الموضع قد انقسَمَ الناسُ فيه إلى **أربعة أقسام:**

قومٌ: ينظُرُونَ إلى جانب الأمر والنهي، والعبادة والطاعة، شاهِدِينَ لإلٰهيَّة الرب سبحانه الذي أُمِرُوا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقَدَر، والتوكُّل والاستعانة.

وهو حال كثير من المتفقِّهة والمتعبِّدة؛ فهم مع حُسْنِ قصدهم وتعظيمِهم لحرمات الله ولشعائره يَغلِب عليهم الضعف والعجز والخِذْلان؛ لأن الاستعانة بالله، والتوكُّل عليه، واللَّجَأَ إليه، والدعاء له؛ هي التي تقوِّي العبد، وتيسِّر عليه الأمور...

وقسمٌ ثانٍ: يَشهَدُون ربوبيَّة الحقِّ وافتقارَهم إليه، ويستعينون به، لكنْ على أهوائهم وأذواقهم، غيرَ ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه، ورضاه وغضبه ومحبَّته.

وهذا حال كثير من المتفقِّرة والمتصوِّفة...

وأما القسم الثالث: وهو مَن أعرَضَ عن عبادةِ الله واستعانتِهِ به؛ فهؤلاءِ شرُّ الأقسام.

والقسم الرابع: هو القسم المحمود، وهو حالُ الذين حقَّقوا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، وقولَهُ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]؛ فاستعانوا به على طاعته، وشَهِدُوا أنه إلٰههم الذي لا يجوزُ أن يُعبَدَ إلا إياه بطاعته وطاعة رسوله»[(٣)].

وبهذا يتبيَّن لنا: أن التوكُّل على الله عَزَّ وَجَلَّ أصلٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلتَهُ بمنزلةِ الجسَد مِن الرأس؛ فكما لا يقوم الرأس إلا

---

(١) «أضواء البيان» (١/ ٥٠).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٧٧).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢ ـ ٣٥). وانظر في هذه الأقسام أيضًا: «التدمرية» (ص٢٣٤ ـ ٢٣٥).

على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكُّل ـ كما حقَّق ذلك الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] ـ وقد جاء الجمع بين هذه المعاني الإيمانيَّة في قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ**...»، الحديثَ[(٢)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوكُّل نصف الدِّين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإنَّ الدِّين: استعانةٌ وعبادة؛ فالتوكُّل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزِلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورةً بالنازِلِين؛ لسَعَة متعلَّق التوكُّل، وكثرةِ حوائج العالمين، وعمومِ التوكُّل ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفُجَّار، والطير والوحش والبهائِم؛ فأهلُ السمٰوات والأرض ـ المكلَّفون وغيرهم ـ في مقام التوكُّل، وإن تبايَنَ متعلَّق توكُّلهم»[(٣)].

ثانيًا: مما يدل على أهمية التوكُّل: أن الله أمر به نبيَّه ﷺ، كما أمر به الأنبياء قبله؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال جلَّ في علاه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣]، وقال ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وكذا في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١]، ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوكُّل على الله واجبٌ مِن أعظم الواجبات، كما أنَّ الإخلاصَ لله واجب، وحُبَّ الله ورسوله واجب، وقد أمر الله بالتوكُّل في غيرِ آيةٍ أعظمَ مما أمر بالوضوء والغُسْل من الجَنَابة، ونهى عن التوكُّل على غير الله»[(٤)].

فمع الأمر بالتوكُّل عليه سبحانه، نهى عن ضدِّه؛ قال ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ٢]:

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٦١ ـ ٥٦٢).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٣).
(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٦).

«**أي**: شَرِيكًا؛ عن مجاهد[(١)].

وقيل: كفيلًا بأمورهم؛ حكاه الفَرَّاء[(٢)].

وقيل: يتوكَّلون عليه في أمورهم»[(٣)].

وقد أمَرَ الله ﷻ الأنبياء السابقين بأن يتوكَّلُوا على الله ﷻ، وأمَرَ أقوامَهم بذلك؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [يونس: ٨٤، ٨٥].

وقد صرَّح الأنبياء السابقون عليهم الصلاة والسلام بتحقيق التوكُّل؛ فقال تعالى عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ [يونس: ٧١]، وقال عن هود عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود: ٥٦]، ويقول عن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود: ٨٨]، وقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال عن يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال عن الخليل إبراهيم ﷺ: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال لنبيِّنا ﷺ: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد: ٣٠].

ثالثًا: أن الله جعَلَ التوكُّل شعارًا لعباده المؤمنين، وأثنى عليهم به؛ فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾ [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠]، في سياق المدح والثناء عليهم في سبعة مواضع من كتابه، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال: ٢]؛ **قال قتادة**: «هذا نعتُ أهل الإيمان؛ فأثبَتَ نَعْتَهم، ووصَفَهم؛ فأثبَتَ وَصْفَهم»[(٤)]، ويقول جلَّ في علاه: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾ [النحل: ٤٢، والعنكبوت: ٥٩]، ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ [النحل: ٩٩]، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩]، ويقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾ [الشورى: ٣٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ٤٥٠). (٢) انظر: «معاني القرآن» للفرَّاء (٢/ ١١٦).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ٣٨٧).

رابعًا: أن العبد مضطرٌّ إلى التوكُّل، لا يستغني عنه طَرْفةَ عَيْنٍ في أحوالِهِ وأمورِهِ كلها؛ وذلك أن العبد فقيرٌ، ضعيفٌ، محتاجٌ، مسكينٌ، والله ﷻ هو الغنيُّ الغِنَى الكاملَ المطلَقَ.

وتظهر حاجتنا إلى هذا التوكُّل من وجوه متعدِّدة:

الأوَّل: أن العبد فقير لا يَملِك شيئًا لنفسه، فضلًا عن أن يَملِك شيئًا لغيره؛ فهو بحاجة إلى ربِّه ليعطيه، وينصُرَهُ، ويَحفَظَهُ، ويَكلَأَهُ، ويُغْدِقَ عليه أنواع النعم، فإذا كان الأمر كذلك، فإنه يتوجَّه بحاجاته إلى الله ﷻ، ولا يتوجَّه إلى أحد من المخلوقين يرجوهم، ويؤمِّلهم، ويُذِلُّ نفسه لهم، فيكون عبدًا أسيرًا لهم، وكما قيل: «احتَجْ إلى مَن شِئْتَ تكنْ أسيره»[(١)]؛ فالحاجة إلى الناس مَذَلَّةٌ ونوعُ عبوديَّة، واليد العليا خير من اليد السفلى؛ ولهذا نجد أكمَلَ الخلق ﷺ يأمره ربه أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن: ٢١]، وخليل الرحمٰن ﷺ يقول لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤]، فإذا كان هذا في حقِّ الخليلَيْنِ، أفضلِ الرسل عليهم الصلاة والسلام، فما بالك بمَن هو دونهم؟!

وإنما يكون التوكُّل على الحَيِّ الذي لا يموت، الذي بيده مقاليد السمٰوات والأرض؛ كما قال ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقد قال أبو قدامة الرَّمْلِي ؒ: «قرأ رجل هذه الآية: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾، فأقبَل عليَّ سليمان الخوَّاص، فقال: يا أبا قُدَامة، ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحدٍ غيرِ الله في أمره، ثم قال: انظر كيف قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، فأعلمَكَ أنه لا يموت، وأنَّ جميع خلقه يموتون، ثم أمَرَكَ بعبادته، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ﴾، ثم أخبَرَك بأنه خبير بصير، ثم قال: واللهِ، يا أبا قدامة، لو عامَلَ عبدٌ الله بحُسْنِ التوكُّل وصدق النية له بطاعته، لاحتاجت إليه الأمراءُ فمَن دونهم؛ فكيف يكون هذا محتاجًا ومَوئِلُهُ ومَلْجَؤُهُ إلى الغني الحميد؟!»[(٢)].

الثاني: أن الأمور بيد الله ﷻ، وأن المخلوق ليس بيده من الأمر شيء؛ قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

(١) «الفتاوى الكبرى» لابن تيميَّة (٥/ ١٨٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكل» (٣٦).

ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس: ١٠٧].

فإذا كان ذلك كذلك، فإلى أيِّ شيء يلتفِتُ الإنسان؟! إلى أمثاله من الفقراء، المساكين، المحتاجين، الذين لا يَمْلِكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا؟! بل ذلك يقتضي أن نفوِّض كل أمورنا إلى الله ﷻ.

قال ابن القيِّم ؒ: «**فإنْ قيل**: فإذا كان الأمر كله لله، وليس للعبد من الأمر شيء، فكيف يوكِّلُ المَالِكُ على ملكه، وكيف يَستنِيبُهُ فيما هو مُلْكٌ له، دون هذا الموكِّل؟

قيل: لما كان الأمر كلُّه لله ﷻ، وليس للعبد فيه شيء البتة، كان توكُّلُهُ على الله تسليمَ الأمر إلى مَن هو له، وعَزْلَ نفسه عن منازَعات مالكه، واعتمادَهُ عليه فيه، وخروجَهُ عن تصرُّفه بنفسه وحوله وقوَّته وكونه به، إلى تصرُّفه بربِّه، وكونه به سبحانه دون نفسه؛ وهذا مقصود التوكُّل»[(١)].

الثالث: أن العبد كلَّما تعلَّق بغير الله ﷻ، فإنَّ ذلك يُؤذِنُ بحصول الضرر عليه مِن هذه الجهة.

إذا أَمَّلْتَ المخلوقَ، وفَوَّضْتَ إليه، ورجوته، وأعرضتَ عن الخالق، فإنَّ ذلك هو الطريق الذي تستجلِبُ به الضرر لنفسك وتستدعيه، مع أنك إنما تريد تحصيل مطلوباتك ومنافعك وحاجتك؛ ولذلك فإن أولئك الذين يتوكَّلون على غير الله ﷻ يحصُلُ لهم من الألم، والحسرة، وخَيْبة الأمل ما لا يقادَرُ قَدْرُه، ولا يَصِلُون إلى مطلوباتهم؛ وإنما كان ذلك لأنهم أعرَضُوا عن الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة ؒ: «فإنه إنْ نال من الطعام والشراب فوق حاجته، ضرَّه وأهلكه، وكذلك من النكاح واللباس؛ وإنْ أحبَّ شيئًا حبًّا تامًّا، بحيث يُخَالِلُهُ، فلا بد أن يَسأَمَه، أو يُفارِقَه... فالضرر حاصل له إن وُجِدَ، أو فُقِد؛ فإن فُقِد، عُذِّبَ بالفراق وتألَّم، وإن وُجِدَ، فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذَّة؛ وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء، وكلُّ من أحبَّ شيئًا دون الله لغير الله، فإن مضرَّته أكثر من منفعته؛ فصارت المخلوقات وَبَالًا عليه إلا ما كان لله وفي الله؛ فإنه كمال وجمال للعبد»[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨ ـ ٢٩).

الرابع: أن اعتماده على المخلوق وتوكُّله عليه يُوجِبُ له الضرر من جهته؛ عكسَ ما أمَّله منه.

وهذا ثابت في القرآن والسُّنَّة؛ كما أنه معلوم بالاعتبار والاستقراء؛ قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]؛ «أي: بخلاف ما ظنُّوا فيهم»[(١)]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن المشرِك يرجو بِشِرْكِهِ النصر تارَةً، والحمد والثناء تارَةً؛ فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصُلُ له الخِذْلان والذم»[(٢)].

قال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: «اجتمَعَ إليَّ أصحابُ محمَّد، فقالوا: يا أبا العالية، لا تَعمَلْ عملًا تريد به غير الله؛ فيَجعَلَ الله ثوابك على ما أردتَّ، قال: واجتمَعَ إليَّ أصحابُ محمَّد، فقالوا: يا أبا العالية، لا تَتَّكِلَنَّ على غير الله؛ فيَكِلَكَ الله إلى مَن اتَّكَلْتَ عليه»[(٣)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما علَّق العبد رجاءه وتوكُّله بغير الله إلَّا خاب مِن تلك الجهة، ولا استنصَرَ بغير الله إلا خُذِلَ... وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق، فلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته، وكان في عبادة ما سواه والاستعانة بما سواه مضرَّتُهُ وهلاكُهُ وفساده»[(٤)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما رجا أحدٌ مخلوقًا أو توكَّل عليه إلا خاب ظنه فيه؛ فإنه مشرِكٌ؛ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]»[(٥)].

وقد جاء في وصيَّة النبي ﷺ لابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»[(٦)].

وقد تربَّى على هذا أصحابُ النبي ﷺ؛ فكانوا يتعفَّفون عن سؤال الناس والاستعانة بهم ولو في الأمور الهيِّنة؛ كما في حديث عَوْف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعةً أو ثمانيةً أو سبعة، فقال: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟**»...

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٦١).
(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٩٣).
(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٤٤)، وابن أبي الدنيا في «التوكل» (٣٨).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩).
(٥) المصدر السابق (١٠/ ٢٥٧).
(٦) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)؛ من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصحَّحه، وحسَّنه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

فبسَطْنَا أيدينا، وقلنا: قد بايَعْنَاكَ يا رسولَ اللهِ؛ فعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قال: «**أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَتُطِيعُوا** ـ وأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً ـ **وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**»، يقول عَوْف بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فلقد رأيتُ بعضَ أولئك النَّفَرِ يسقُطُ سَوْطُ أحدِهم؛ فما يَسأَلُ أحدًا يناوِلُهُ إيَّاه»[(١)].

وهذه مرتبة عالية من مراتب العبوديَّة، لا يخاطَبُ بها مَن كان مقترِفًا للمعاصي، وتاركًا للواجبات، إنما يكون ذلك لمن عَلَتْ هِمَّته، وعَظُمَتْ مرتبته؛ وذلك أن الطلبَ مِن الناس والحاجةَ إليهم نوعُ افتقارٍ إلى المخلوق، وإنما يكون فقرُكَ وحاجتُكَ وتوجُّهُ القلبِ: إلى الله وحده لا شريك له، حتى في الأمور العاديَّة؛ فإذا استَطَعْتَ ألَّا يكونَ لأحدٍ من الناس يدٌ عليك وإحسانٌ، فافعَلْ، وكُنْ أنت صاحبَ اليد العليا، لا صاحبَ اليد السفلى؛ كُنْ أنت المتفضِّلَ على الناس، ولا تَنتظِرْ من الآخرين أن يتفضَّلوا عليك.

وقد قال النبي ﷺ: «**لا تَزَالُ المَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**»[(٢)].

وذكر النبيُّ ﷺ على المنبر الصدقةَ والتعفُّف والمسألة، فقال: «**الْيَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى؛ فَالْيَدُ العُلْيَا هِيَ المُنْفِقَةُ، والسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ**»[(٣)].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**»[(٤)].

وأصل الطلب من المخلوق لا يجوز إلا لضرورة، وقد جاء تفصيل أصحاب الضرورات في حديث قَبيصةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ؛ قال: «**إِنَّ المَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ...**»؛ الحديثَ، وفي آخره: «**فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ المَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا**»[(٥)].

وقد بيَّن ابن القيِّم خطورة سؤال المخلوقِينَ، وذكر أنه ظُلْمٌ في حق الربِّ، وظلمٌ في

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠)؛ واللفظ له؛ من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٩)؛ واللفظ له، ومسلم (١٠٣٣)؛ من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٤) أخرجه مسلم (١٠٤١).

(٥) أخرجه مسلم (١٠٤٤). وقال النووي في «شرحه» (٧/ ١٣٤): «فما سِوَاهُنَّ مِن المسألةِ يا قَبيصةُ سُحْتًا»؛ هكذا هو في جميع النسخ: «سُحْتًا»، وروايةُ غير مسلم: «سُحْتٌ»؛ وهذا واضحٌ، وروايةُ مسلم صحيحةٌ؛ وفيه إضمارٌ؛ أي: اعتقِدْهُ سُحْتًا، أو يُؤكَلُ سحتًا».

حق الخَلْق، وظلمٌ في حقِّ النَّفْس؛ فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أمَّا في حق الربوبيَّة:** فلِمَا فيه مِن الذلّ لغير الله، وإراقةِ ماء الوجه لغير خالقه، والتعوُّض عن سؤاله بسؤال المخلوقين، والتعرُّض لمقتِهِ إذا سأل وعنده ما يكفيه.

وأما في حقِّ الناس: فبمنازَعَتهم ما في أيديهم بالسؤال، واستخراجه منهم، وأبغَضُ ما إليهم: مَن يسألهم ما في أيديهم، وأحبُّ ما إليهم: مَن لا يسألهم؛ فإنَّ أموالهم محبوباتُهم، ومَن سألَكَ محبوبَكَ، فقد تعرَّض لمقتِكَ وبُغْضِك.

وأما ظُلْمُ السائل نفسه: فحيث امتهَنَها، وأقامها في مقام ذُلِّ السؤال، ورَضِيَ لها بذلِّ الطَّلَب ممَّن هو مثله، أو لعلَّ السائل خير منه وأعلى قدرًا، وترَكَ سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ فقد أقام السائلُ نفسَهُ مقامَ الذل، وأهانها بذلك، ورَضِيَ أن يكون شَحَّاذًا من شَحَّاذٍ مثلِه؛ فإن مَن تَشحَذُهُ فهو أيضًا شَحَّاذٌ مثلك، والله وحده الغَنِيُّ الحميد»[(١)].

قال الشاعر[(٢)]:

أَللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

الخامس: أن العبد في سلوكه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وسَيْرِهِ إليه يحتاج إلى هذا التوكُّل؛ لأنَّ العبد لا يُمكِنُ أن يقوم بوظيفةٍ من وظائف العبوديَّة إلَّا بالتوكُّل، فأنت حينما تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، تكون بحاجة إلى عون الله عَزَّ وَجَلَّ، بحاجة إلى عونه في القيام بأمره واجتناب نهيه؛ وإلَّا فإن الله عَزَّ وَجَلَّ متى تخلَّى عن العبد، سقَطَ في أودية الهَلَكة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتوكُّل مصاحِب للصادق مِن أوَّل قَدَم يضعه في الطريق إلى نهايته، وكلما ازداد قُرْبُه، وقَوِيَ سَيْرُه، ازداد توكُّلُه؛ فالتوكُّل مركبُ السائر الذي لا يتأتَّى له السير إلا به، ومتى نزَلَ عنه، انقطَعَ لوقته»[(٣)].

السادس: أنَّ التوكُّل على الله عَزَّ وَجَلَّ مرتبِطٌ بالقلب، والقلبُ هو مَلِكُ الجوارح؛ ومِن المعلوم: أن جنس أعمال القلوب أفضل من جنس أعمال الجوارح، كما أن العبوديَّة منقسِمة إلى عبوديَّة تتعلَّق باللسان، وعبوديةٍ تتعلَّق بالجوارح، وعبودية تتعلَّق بالقلب، وما كان يتصل منها بالقلب، فهو أشرف من قَسِيمَيْهِ مما يتعلَّق باللسان أو بالجوارح.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٥٧).

وهذه الأشياء التي يدور عليها التكليف مما يتَّصِلُ بتعبيد المكلَّفين لا تخرُجُ **عن خمسة أمور:**

إمَّا أن يكون هذا المكلَّف قد توجَّه إليه الخطاب بالإيجاب، أو بالاستحباب، أو بالتحريم، أو بالكراهة، أو كان الأمر مستوِيَ الطَّرَفَيْنِ فيكون مباحًا:

وأما ما يتعلَّق بالقلب، فإنه يدور بين الإيجاب والاستحباب، ولا شَكَّ أنه بالوجوب أعلَقُ؛ فإن التوكُّل على الله ﷻ هو من جملة الأمور القلبيَّة الواجِبة؛ كالإخلاص.

ولا شك أن الواجبات أفضل من المستحبَّات؛ ولهذا فإن الله ﷻ لم يتقرَّب إليه المتقرِّبون بأفضلَ مما افترَضَ عليهم؛ كما في الحديث القدسي: «**مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**...»، الحديثَ[1].

فالمقصود: أنه ذكَرَ الأعمال المفروضة أوَّلًا؛ وذلك يدل على أن القيام بالفرائض أفضلُ وأثقلُ في الميزان من القيام بالنوافل.

ثُمَّ إذا نظَرْنا إلى عناصر الإيمان، نَجِدُ أنها تنقسم إلى أربعة أقسام: إلى قول القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح.

وعلى هذا التقسيم، نجد أن التوكُّل داخلٌ في أهمِّ هذه العناصر وأشرَفِها، الذي هو قول القَلْب وعمله.

وقد مضى قول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن التوكُّل يجمع أصلَيْنِ: علم القلب وعمله، **أما علمُهُ**: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكَلَهُ إليه، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك، **وأما عمَلُهُ**: فسكونُهُ إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه، وتسليمه أمره إليه، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرُّفه له فوق رضاه بتصرُّفه هو لنفسه»[2].

ولذا فسَّره بعضهم: بأنه «عِلْمُ القلب بكفاية الربِّ للعبد»[3].

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ مِن توكُّلِ العبد على الله أن يكون الله تعالى هو ثِقَتَه»[4].

وقال الجُنَيْد بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوكُّل: عمَلُ القَلْب، والتوحيد: قولُ [القَلْب][5]»[6].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٦٠).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكل» (١٨)، و«القناعة» (٩٩).

(٥) في الأصل: «العبد»؛ وهو تصحيف.

(٦) «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٥٦).

وقال: «ليس التوكُّل الكسب، ولا ترك الكسب؛ التوكُّل شيءٌ في القلوب»[(١)].

وقال: «إنما هو سكون القلب إلى موعود الله ﷻ»[(٢)].

قال البيهقي رَحِمَهُ اللهُ **معلِّقًا عليه**: «وعلى هذا ينبغي ألَّا يكون تجريدُ هذا السكون عن الكسب شرطًا في صحَّة التوكُّل، بل يكتسِب بظاهر العلم[(٣)]، معتمِدًا بقلبه على الله تعالى... وإنما يكون اعتماده في كفاية أَمْرِهِ على الله ﷻ»[(٤)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فبهذَيْنِ الأصلَيْنِ يتحقَّق التوكُّل؛ وهما جِمَاعُه، وإنْ كان التوكُّل دخل في عمل القلب مِن [علمه][(٥)]؛ كما قال الإمام أحمد: «التوكُّلُ عمَلُ القلب».

ولكن لا بد فيه من العِلْم، وهو إمَّا شرط فيه، وإمَّا جزءٌ من ماهيَّته»[(٦)].

وإذا نظَرْنا إلى ما يتعلَّق بترتب الثواب والعقاب، نجد أن «أقوال القلب وأفعاله تَنقسِم بهذا الاعتبار إلى **ثلاثة أقسام**:

١ ـ ما هو حَسَنة وسيِّئة بنفسه.

٢ ـ ما ليس سيِّئة بنفسه حتى يُفعَلَ، وهي السيئة المقدورة.

٣ ـ ما هو مع العجز كالحَسَنة والسيِّئة المفعولة، وليس هو مع القدرة كالحسَنة والسيِّئة المفعولة:

فالقسم الأوَّل: هو ما يتعلَّق بأصول الإيمان؛ مِن التصديق والتكذيب، والحُبِّ والبغض؛ فهذه يحصل بها الثواب والعِقَاب بما يكون في القلوب من هذه الأمور، وإنْ لم يَظْهَرْ على الجوارح.

وأما القسم الثاني والثالث: فمَظِنَّةُ الأفعال التي لا تنافي أصول الإيمان؛ مثل المعاصي الطَّبَعِيَّة؛ كالزِّنا، والسَّرِقة، وشرب الخمر...»[(٧)].اهـ.

وعلى ذلك، فالتوكُّلُ يُعَدُّ من القسم الأوَّل، الذي هو أشرَفُ هذه الأقسام وأعلاها.



(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٣).
(٢) المصدر السابق.
(٣) كذا في المطبوعتَيْن: «بظاهر العلم»؛ ولعل الصواب: «بظاهر العمل».
(٤) المصدر السابق.
(٥) في بعض النسخ: «عمله».
(٦) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦١).
(٧) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٥٩ ـ ٧٦٠)؛ بتصرف واختصار، وللاطلاع على كامل كلامه انظر: (١٠/ ٧٥٨ ـ ٧٦٥).

التوكُّل في الكتاب والسُّنَّة

مضى كثير من النصوص مِن كتاب الله ﷻ التي تتحدَّث عن التوكُّل مِن حيثُ الأمرُ به، أو أنه مِن شعار الصالحين، وكذلك ما ذكَرَ الله ﷻ عن توكُّل الأنبياء والمرسَلِين عليهم الصلاة والسلام.

وأما في السُّنَّة: فقد أخرج الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه»؛ أن النبي ﷺ قال: **«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا»**(١)؛ فالنبي ﷺ «أمره بالحرصِ على ما ينفعه، والاستعانة بالله، ونهاه عن العَجْزِ الذي هو الاتِّكَالُ على القَدَر»(٢)، ثم أمَرَهُ بعد ذلك بالرضا.

وقد جاء في حديث السبعين ألفًا الذين يدخُلُونَ الجَنَّةَ بغير حساب: **«هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»**(٣).

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: «حَسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل؛ قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أُلقِيَ في النار، وقالها محمَّدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]»(٤).

وجاء في «الصحيحَيْن»؛ مِن دعاء النبي ﷺ: **«اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ...»**، إلى آخر الحديث(٥).

وعن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: **«لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»**(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٨٥). وانظر: (٧/ ٦٥٣ ـ ٦٥٤)، (٨/ ٧٣ ـ ٧٤، ١٧٨، ٢٨٤ ـ ٢٨٥، ٥٤٧ ـ ٥٤٩)، (١٠/ ٣١ ـ ٣٢، ٥٠٦ وما بعدها)، (١٨/ ١٨١ وما بعدها، ٣٤٧ ـ ٣٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨)؛ من حديث عِمْران بن حُصَيْن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)؛ واللفظ له، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٧٣٠)، والحاكم (٤/ ٣١٨)، وأقرَّه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٣١٠).

وعن أنس رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقالَ: بِاسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ قال: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ، وَكُفِيَ، ووُقِيَ؟!**»[1].



(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)؛ واللفظ له، والترمذي (٣٤٢٦) وحسَّنه، وصحَّحه ابن حبان (٨٢٢)، والألباني في «صحيح الموارد» (٢٠١٥)، وقد أعلَّه البخاري، والترمذي في «العلل الكبير» (٦٧٣)، والدارقطني في «العلل» (١٢/١٢)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/١٦٢ ـ ١٦٤).

التوكُّل إنما يكون على الله وَحْدَهُ، دون أحدٍ سواه

إذا نظَرْتَ إلى كثيرٍ من الآيات التي أمَرَ الله ﷻ فيها بالتوكُّل، تجد أنها تَدُلُّ على الحصر، أو تُشْعِرُ به؛ وذلك بتقديم المعمول على عامله، وقد عرَفْتَ أن تقديم المعمول على العامل يُؤذِنُ بالحصر والاختصاص؛ قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فقدَّم المعمول على العامل؛ لِيَدُلَّ على اختصاصه به، والمعنى: توكَّلوا على الله وحده، ولا تتوكَّلوا على أحدٍ سواه.

وكذا في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٢٢﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقولِه جلَّ في علاه: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التوبة: ٥٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فجعَلَ الإيتاءَ للهِ والرسولِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وأما التوكُّلُ والرغبةُ، فلِلَّهِ وحده... وذلك موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ٨﴾ [الشرح: ٧، ٨]؛ فالعبادةُ والخشيةُ والتوكُّل، والدعاءُ والرجاءُ والخوف لله وحده، لا يَشْرَكُهُ فيه أحد»[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٤﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: إنَّ الله كافيك وكافي مَنْ معك مِن أتباعك مِن أهل الإيمان، وليس المعنى: أنَّ أهلَ الإيمان الذين هم أتباع النبي ﷺ يكفُونَهُ عليه الصلاة والسلام.

وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ٩﴾ [المزمل: ٨، ٩]؛ ففي قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ﴾ يَدُلُّ على تخصيصه بالتوكُّل دون أحد سواه، والله يقول: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٣٨).

مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ [الإسراء: ٢]؛ فنهاهم أن يتَّخِذُوا أحدًا من المخلوقين مهما كانت منزلَتُهُ وقوَّته وقَدْره.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأمَرَ ـ أي: الله ـ أن يُتَّخَذَ وكيلًا، ونهى أن يُتَّخَذَ مَن دونه وكيلًا؛ لأن المخلوق لا يستقِلُّ بجميع حاجات العبد، والوَكَالةُ الجائزة: أن يُوكِّلَ الإنسانُ في فعلٍ يَقدِرُ عليه، فيحصُلُ للموكِّل بذلك بعض مطلوبه، فأما مطالبُهُ كلُّها فلا يَقدِر عليها إلا الله؛ وذلك الذي يوكِّلُهُ لا يفعل شيئًا إلا بمشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ وقدرته؛ فليس له أن يتوكَّل عليه وإنْ وكَّله، بل يعتمِدُ على الله في تيسير ما وكَّله فيه.

فلو كان الذي يحصُلُ للمتوكِّل على الله يحصُلُ وإن توكَّل على غيره، أو يحصُلُ بلا توكُّل، لكان اتخاذُ بعضِ المخلوقين وكيلًا أنفَعَ مِن اتخاذ الخالق وكيلًا؛ وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: اللهُ كَافِيكَ وكافِي مَنِ اتَّبَعك من المؤمنين»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «يذكُرُ الله الأسباب، ويأمر بألَّا يُعتمَدَ عليها، ولا يُرجَى إلا الله؛ قال تعالى لما أنزل الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠]»[(٢)].

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا كان الله أمَرَهُ بالتوكُّل، ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣]، عُلِمَ أنَّ الله وكيلٌ كافٍ لِمَن توكَّل عليه... وإذا كان كفى به وكيلًا، فهذا مختصٌّ به سبحانه، ليس غيرُهُ من الموجودات كفى به وكيلًا؛ فإنَّ من يتخِذ وكيلًا مِن المخلوقين غايتُهُ أن يفعل بعضَ المأمور، وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله له، وهو عاجزٌ عن أكثر المطالب»[(٣)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا وما يُشبِهه مما يبيِّنُ أنَّ العبدَ في طلبِ ما يَنفَعُه ودفعِ ما يضرُّه لا يوجِّه قلبه إلا إلى الله»[(٤)].

وَهْوَ الْقَرِيبُ الْمُجِيبُ الْمُسْتَغَاثُ بِهِ ... قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ مَعْبودِي وَمُتَّكَلِي

فينبغي أن نراجع أنفسنا، وأن ننظُرَ إلى أي شيءٍ تتوجَّه قلوبنا؟! وبأي شيءٍ تتعلَّق؟!

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٨٩).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٨).
(٣) «جامع الرسائل» (١/ ٩٢).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٦٠).

إِذَا مَا حَذِرْتَ الأَمْرَ فَاجْعَلْ إِزَاءَهُ ... رُجُوعًا إِلَى رَبٍّ يَقِيكَ المَحَاذِرَا
وَلَا تَخْشَ أَمْرًا أَنْتَ فِيهِ مُفَوِّضٌ ... إِلَى اللَّهِ غَايَاتٍ لَهُ وَمَصَادِرَا
وَلَا تَفْخَرَنْ إِلَّا بِثَوْبِ صِيَانَةٍ ... إِذَا كُنْتَ يَوْمًا بِالْفَضِيلَةِ فَاخِرَا
وَإِنِّي كَفِيلٌ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْأَذَى ... لِمَنْ لَمْ يَبِتْ يَدْعُو سِوَى اللَّهِ نَاصِرَا

وإن الناظر في حال الناس يجد أنَّ:

منهم: مَن يتوكَّلُ على غير الله ﷻ فيما لا يَقدِرُ عليه إلا الله؛ وهذا من قَبِيل الشرك الأكبر.

ومنهم: مَن يتوكَّلُ على غير الله ﷻ في أمورٍ يَقدِرُ عليها هذا المخلوق؛ وهذا قد يُدخِلُه في الشرك الأصغر؛ وسيأتي الكلام على ذلك.

ومنهم: مَن يُفرِدُ ربَّه بالتوكُّل في أموره كلها؛ وهذا هو المؤمن.

صَدَقَ الْكَذُوبُ وَلَمْ يَكُنْ بِصَدُوقِ ... مَا الحِرْصُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ المُوقِي
قَدْ قَدَّرَ اللَّهُ الأُمُورَ بِعِلْمِهِ ... فِيهَا عَلَى المَحْرُومِ وَالمَرْزُوقِ
فَإِذَا طَلَبْتَ فَلَا إِلَى مُتَطَلِّبٍ ... وَإِذَا اتَّكَلْتَ فَلَا عَلَى مَخْلُوقِ
فَإِذَا اتَّكَلْتَ فَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا ... لَا مَا تَحَصَّلَ عِنْدَكَ المَوْثُوقِ(١)



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكل» (٥١)؛ من قول سعيد العاقري.

دَرَجات التوكُّل

الأولى: **مَعرِفة الربِّ وصفاته**؛ فالتوكُّلُ لا يتمُّ ولا يحصُلُ للإنسان إلا بمعرِفة الله ﷻ معرفةً صحيحةً بذاته وأسمائه وصفاته، فإذا اكتمَلَتْ له هذه المعرِفة، عرَفَ أن له ربًّا قادرًا، قويًّا، عزيزًا، رازقًا، يُعطِي ويمنع، يَخفِضُ ويرفع، يُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء، بيده الخير، فكلَّما كان العبد بربه أعرَفَ وأعلَمَ، كان متأهِّلًا للتوكُّل أكثَرَ من غيره.

فيحتاج العبد إلى الدرجة الأُولى؛ وهي العلم بالمعبود، وأن الأمور إنما تصدُرُ عن مشيئته وإرادته ﷻ؛ فهذه أوَّلُ درجةٍ تضع قَدَمَك عليها في سُلَّم التوكُّل على الله ﷻ.

والثانية: **إثبات الأسباب ورعايتها، والأخذ بها**؛ فإنها لا تُطرَح بالكليَّة.

«والثالثة: **رسوخ القلب في مَقَام التوحيد**؛ فإنه لا يستقيم توكُّلُ العبد حتى يَصِحَّ له توحيده، بل حقيقةُ التوكُّل توحيدُ القلب، فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكُّلُهُ معلولٌ مدخول»[1].

والرابعة: **أن يعتمِدَ القلبُ على الله** ﷻ، ويَطْمَئِنَّ إليه، ويسكُنَ إليه، ويثق بتدبيره ﷻ، فيكون ـ كما قال بعضهم ـ كالطِّفْلِ الذي لا يَعرِف إلا ثَدْيَ أُمِّه، ولا يسكُنُ إلا إليه، ولا يطمئنُّ إلا إليه.

ولذلك يقول ابن القيِّم رحمه الله: «التوكُّلُ: معنًى يَلتئِمُ من أصلَيْن: مِن الثقة والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]»[2].

والخامسة: **حُسْنُ الظنِّ بالله** ﷻ؛ فحُسْنُ الظَّنِّ به يدعو إلى التوكُّل عليه، وعلى قدر حُسْنِ ظن العبد بربِّه ورجائه له؛ يكون توكُّله عليه.

وإذا ساءت الظنون بالله ﷻ، ضَعُفَ التوكُّل؛ ولهذا ذمَّ الله ﷻ الظانِّينَ بالله ظنَّ السَّوْءِ، ومن الظنون السيئة به سبحانه: ظنونُ أولئك الذين يظنُّون أن الله لا ينصُرُ أولياءه، أو أن الله يُدِيلُ أعداءَهُ على أوليائه إدالةً مستمرَّة، وكذا قولُ الذين قالوا؛ وهم أهل النفاق في وقعة الأحزاب: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ [الأحزاب: ١٢]؛

(١) من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).
(٢) المصدر السابق (١/ ٧٥).

وذلك أن النبي ﷺ وعَدَهم بكنوز كسرى وقيصر، ووعَدَهم بفتوح عظيمة؛ فَتْح اليمن والشام وفارس، فلمَّا رأوا الأحزاب قد أحاطوا بالمدينة، قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾، فهؤلاء ساءت ظنونُهم بالله، بخلاف مَن رسَخَتْ أقدامهم في التوكُّل، وثبت ذلك في قلوبهم، وهم أهل الإيمان؛ حيث قالوا لمَّا رأوا الأحزاب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ونحن في هذه الأيَّام في أمسِّ الحاجة إلى حسن الظنِّ بالله، وإلى تكثيره في القلوب، وتعظيمه، وشرح القلوب وتوسيعها ببَعْثِ الأمل، وتعريفِها بصفات الله ﷻ التي تَدُلُّ على اقتداره، وعلى حِلْمِهِ وإمهالِهِ للظالمين، والناسُ في حاجة إلى أن يذكَّرُوا بسنن الله ﷻ في التغيير ما يحتاجون إليه في مثل هذه الأيام؛ وإلا فإن الكثيرين قد يحصُلُ لهم من الانهزام الداخلي، والتشكُّك بوعد الله ﷻ ما يُفضِي بهم إلى أمورٍ عظيمةٍ من جهة الاعتقاد.

ولهذا نَجِدُ أن مِن أهل العلم مَن فسَّر التوكُّلَ بحُسْنِ الظنِّ بالله؛ كما تقدَّم.

«والسادسة: **أن يستسلِمَ القلبُ لربِّه**، وأن تَنجذِبَ دَوَاعِيهِ كلها إليه»[(١)]؛ فلا يلتفت هنا أو هناك.

والسابعة: **أن يفوِّضَ أمرَهُ إلى ربِّه تبارك وتعالى**؛ لأنه يعلم أن الله عليم؛ يَعلَمُ الأمور كلَّها، وهو حكيم؛ يضع الأمور في مواضعها، ويُوقِعُها في مواقعها، فإذا حصَلَ اليقين بذلك، مع وثوقٍ بقوة الله ﷻ وقدرته، فإنَّه يستسلِمُ، ويفوِّضُ أمرَهُ إلى الله ﷻ.

فالتفويضُ: «هو رُوح التوكُّل ولبُّه وحقيقته؛ وذلك أن تسلِّمَ أمورَكَ كلَّها إلى فاطِرك وبارِئك سبحانه، وأن تُنزِلَ به حوائِجَكَ اختيارًا لا اضطرارًا»[(٢)].

والثامنة: **الرضا**؛ «وهي ثمرة التوكُّل، ومَن فسَّر التوكل بها، فإنما فسَّره بأجلِّ ثمراتِه، وأعظم فوائده؛ فإنه إذا توكَّل حَقَّ التوكل، رَضِيَ بما يفعله وكيله»[(٣)].

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الرضا والتوكُّل يَكتنِفان المقدور؛ فالتوكُّل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه[(٤)].

وقد قرَنَ الله ﷻ بينهما بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٢)؛ بتصرُّف.
(٢) المصدر السابق؛ بتصرُّف.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: المصدر السابق.

حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩]، وجمع بينهما ﷺ في حديث الاستخارة المشهور، الذي كان يعلِّمُهُ أصحابه كما يعلِّمهم السورة من القرآن: «**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ**»؛ فهذا توكُّل وتفويضٌ، ثم ختمه بسؤال الرِّضَا بقوله: «**واقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي**»[(١)].

ومِن دعائه ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ**»[(٢)]؛ فهذا سؤال لتحقيق الرضا بعد وقوع المقدور.

فهذه دَرَجاتٌ ثمانٍ، إذا اجتمَعَتْ للإنسان، كَمُلَ له التوكُّل، وإذا نقَصَ شيءٌ منها أو اختَلَّ، اختَلَّ توكُّله[(٣)].

والإنسان بحاجة إلى ملاحظة قلبه، وعَرْضِ توكُّلِه على هذه الدرجات مِن أجلِ إصلاحِهِ وتكميله.

وقال بعضهم: «التوكُّل ثلاث درجات: التوكُّلُ، ثم التسليمُ، ثم التفويضُ»[(٤)].

وقال بعضهم: «عن بعض الحُكَماء قال: التوكُّلُ ثلاثُ دَرَجات: **أولاها**: تركُ الشِّكاية، **والثانية**: الرضا، **والثالثة**: المحبَّة؛ فترك الشِّكاية: درجة الصبر، والرضا: سكونُ القلب بما قسَمَ الله له، وهي أرفع من الأولى، والمحبَّة: أن يكون حبُّه لما يصنع الله به؛ **فالأولى**: للزاهِدِين، **والثانية**: للصادِقِين، **والثالثة**: للمُرْسَلين»[(٥)].

و«على قدر إيمان العبد يكون توكُّله»؛ كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٦)].

و«أعظمُ أنواع التوكُّل: التوكُّلُ في الهداية، وتجريدِ التوحيد، ومتابعةِ الرسول ﷺ، وجهادِ أهل الباطل؛ فهذا توكُّل الرُّسُل، وخاصَّة أتباعَهم»[(٧)].

«والناس بعد ذلك في التوكُّلِ على حَسَبِ هِمَمهم ومقاصدهم؛ فمِن متوكِّلٍ على الله

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٢)؛ من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٢٢٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٩)، وابن حبان (١٩٧١)، والدارقطني في «رؤية الله» (١٥٨)، والحاكم (١/ ٥٢٤)؛ وعنه البيهقي في «الدعوات» (٢٥١)، وغيرهم؛ من حديث عمَّار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه ابن حبَّان، والحاكم، والألباني في «صحيح الجامع» (١٣٠١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٥ ـ ١٢٨).

(٤) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٣٠٢).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكل» (٤٦).

(٦) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٦٧).

(٧) «الفوائد» لابن القيِّم (١٢٥)؛ بتصرُّف يسير.

في حصول المُلْك، ومِن متوكِّلٍ في حصول رغيف، ومَن صدَقَ توكُّلُهُ على الله في حصول شيء، ناله، فإنْ كان محبوبًا لله مرضيًّا، كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإنْ كان مسخوطًا مبغوضًا، كان ما حصل له بتوكُّله مضرَّةً عليه، وإنْ كان مباحًا، حصلت له مصلحةُ التوكُّل دون مصلحة ما توكَّل فيه، إنْ لم يَستعِنْ به على طاعته»[(١)].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن مِن الناس: مَن يكون توكُّله ودعاؤه في حصول مباحات، ومنهم: مَن يكون في حصول واجبات ومستحبَّات، ومنهم: مَن يكون في حصول محرَّمات؛ وهو الظالم لنفسه، ومَن أعرَضَ عن التوكُّل، فهو عاص لله ورسوله، بل خارجٌ عن حقيقة الإيمان»[(٢)].



(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٤)؛ بتصرُّف يسير.
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٦)؛ بتصرُّف.

أنواع التوكُّل

التوكُّل يَنقسِمُ من حيثُ المتوكَّلُ عليه إلى قسمَيْن:

أولًا: التوكُّل على الله؛ وهو ينقسِمُ بحَسَبِ موضوعِه إلى **أربعة أقسام**:

الأول: توكُّل العبد في إقامة نفسه، وإصلاح قلبه وعمله، وتقويم سلوكه، وما إلى ذلك، دون أن يحاوِل التأثير في الآخَرين.

الثاني: توكُّل على الله تعالى في استقامة النفس، كما تقدَّم، بالإضافة إلى التوكُّل عليه تعالى في إقامةِ دِينِ الله في الأرض، ودفعِ الفساد، وقمعِ البِدَع، وجهاد الكفار والمنافقين، والاهتمام بمصالح المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتأثير في الآخرين حتى يُعبَدَ الله وحده.

وهذا توكُّلُ الأنبياء، وتوكُّل ورَثَتِهم مِن بعدهم مِن العلماء، وما انتشَرَ دين الله ﷻ إلا بهذه الدعوة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حالُ النبيِّ ﷺ وحالُ أصحابه مَحَكُّ الأحوال ومِيزانها؛ بها يُعلَمُ صحيحها مِن سقيمها؛ فإنَّ هِمَمَهُمْ كانت في التوكُّل أعلى مِن هِمم مَن بعدهم؛ فإنَّ توكُّلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يُعبَدَ الله في جميع البلاد، وأن يوحِّده جميع العباد... فكانت هِمَمُ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أعلى وأجلَّ من أن يصرف أحدهم قوَّة توكُّله واعتماده على الله في شيءٍ يحصُلُ بأدنى حِيلةٍ وسعي؛ فيجعله نصب عينيه، ويَحمِل عليه قوى توكُّله»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأفضل التوكُّل: التوكُّل في الواجب ـ أعني: واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النَّفْس ـ وأوسَعُهُ وأنفعه: التوكُّل في التأثير في الخارج؛ في مصلحة دينيَّة، أو في دفع مفسدة دينيَّة، وهو توكُّل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المُفسِدين في الأرض؛ وهذا توكُّل وَرَثَتهم»[(٢)].

وقال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلَمْ: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكُّلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب؛ وهو التوكُّل على الله في إقامة دِينه ونصره،

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٥).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١١٤).

وهداية عَبِيده، وإزالة الضلال عنهم؛ وهذا أكمَلُ ما يكون من التوكُّل»[١].

والثالث: وهو أن يتوكَّل على الله ﷻ في تحصيل حظوظ النَّفْس الدنيويَّة، ودفع المكروهات؛ كمَن يتوكَّل في حصول رِزْق أو عافية، أو زوجة أو وَلَد؛ فهذا يُؤجَر على هذا التوكُّل؛ لأنه عبادة، وعلى تفويض الأمر إلى الله ﷻ، وأما تلك الأمور: فإنه لا يُؤجَرُ عليها إلا إذا قصَدَ بها الاستعانة على طاعة الله تبارك وتعالى.

فهذا دون الذي قبله، مع أنه مطلوب؛ إذْ لا بدَّ من أن يتوكَّل الإنسان على الله ﷻ في أمورِهِ كلِّها، لكن لا يكون توكُّله مختصًّا بهذه الأشياء، مقتصِرًا عليها دون غيرها، فلا يكون له توجُّهٌ وتوكُّلٌ وتفويضٌ إلَّا في تحصيل حظوظ النَّفْس فقطْ، أما ما يتعلَّق بإقامة دِينِ الله ﷻ في نَفْسه وفي غيره، فإنه قد لا يَهْتَمُّ به.

وهذا غير محمود؛ بل إنَّ مَن حقَّق التوكُّل في النوع الأوَّل والثاني؛ وهو التوكُّل في إصلاح النَّفْسِ وإصلاحِ المجتمَع، كفاه الله ﷻ النوعَ الثالث؛ وهو ما يتعلَّق بحاجاتِهِ ومطالبِهِ الشخصيَّة[٢]؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[٣].

وكذلك لمَّا أقام النبي ﷺ دِينَ الله ﷻ، كانت العاقبةُ كما قال ﷺ: «**وجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي**»[٤].

والرابع: التوكُّلُ على الله ﷻ في جلب الأمورِ المحَرَّمةِ وتحصيلِها، أو دفعِ الأمورِ المأمور بها.

وهذا أمر لا يجوز.

وتسمية هذا النوع توكُّلًا فيه نظَرٌ ظاهر؛ وكيف يقال: إنَّ الكفار يوم أُحُدٍ كان معهم نَوْعُ توكُّلٍ على الله؛ هذا من تسمية الكفر بالإيمان، والعصيان بالطاعة، والفساد بالصلاح.

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (٢/ ٨٤٣ ـ ٨٤٤).

(٢) انظر: «الفوائد» (ص١٢١ ـ ١٢٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠، ٩٢)، وعلَّقه البخاري في «صحيحه» (٤/ ٤٠)؛ من حديث ابن عمر ﵄، وقال شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١/ ٢٦٩): «إسناده جيِّد»، وقال الذهبي في «السير» (١٥/ ٥٠٩): «إسناده صالح»؛ كما صحَّحه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٧٠)، وابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٢٣٠)، وأحمد شاكر في التعليق على «المسنَد» (٥١١٤، ٥١١٥)، والألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).

ولو قال العاصي: توكَّلتُ على الله في مَعْصِيتي، هل نسمِّي هذا توكُّلًا، وينطبِق عليه ما تقدَّم أو بعضه مِن تلك المعاني الجليلة التي يَحمِلُها اللفظ؟!

وعلى ذلك: فإبليس مِن أعظَم المتوكِّلين؛ لأنه يَعلَمُ أن ما أصابه لم يكن لِيُخطِئَه، وما أخطأه لم يكن لِيُصِيبَه.

ومَن تعرَّف على المعاني الجليلة، واستخدَمَها في طاعة الشيطان، والصدِّ عن سبيل الله، وإشاعةِ الفاحشة في الأرض، ونحو ذلك مِن أنواع الفساد، لَهُوَ أبعدُ ما يكون عن تلك المعرِفة الحقَّة، وهذا المقام الكريم.

وإذا كان قد تقدَّم أن التوكُّل عمَلُ القلب؛ فلا بدَّ أن نقيِّده إِذَنْ بأنه: عمَلُ القلبِ السليمِ المؤمِنِ غيرِ المفتون، الذي يَعرِفُ المعروف معروفًا، والمنكَر منكَرًا.

والحقيقة: أن التوكُّل نوعٌ واحد، كما أن الإخلاص نوعٌ واحد، والخوفَ نوعٌ واحد، وإنما الاختلاف في المتوكِّلِينَ والمُخلِصينَ والخائِفِين ونحوهم؛ ومَن توكَّل على الله في النَّزْر اليسير من أمور الدنيا، فهو في الحقيقة من أعظم المتوكِّلين عند التحقيق، ولا يَتَّسِعُ المجال للإفاضة؛ لأنها ستفضي للإطالة، التي قد تُفضِي إلى المَلَالَة.

ثانيًا: التوكُّل على غير الله تعالى(١):

وهذا النوع يَنقسِمُ إلى قسمَيْن:

القسم الأول: **التوكُّل الشِّرْكيُّ الذي يكون شركًا بالله ﷻ؛ وهو أيضًا على نوعَيْن:**

١ ـ التوكُّل على المخلوق فيما لا يَقدِرُ عليه إلا الله تبارك وتعالى؛ كأولئك الذين يتوكَّلون على الأموات والطواغيت فيما لا يَقدِرون عليه؛ إما أصلًا، وإما حالًا؛ فيتوكَّلُ عليه في إنزال المطر، أو رفع الضرّ، ونحو ذلك، أو يتوكَّل عليه فيما يستطيعه في مَجَارِي العادات، لكنه ليس بحضرته، ولا يَسمَعُه، ولا يتمكَّن من إيصال حاجته إليه؛ كالذي يكون في وسط البحر، فيتوكَّل على الولي الفلاني في إنقاذه؛ فهذا يكون من قَبِيل الإشراك بالله تبارك وتعالى؛ ومن ذلك: طلَبُ هؤلاء المشرِكِينَ من هذه المعبودات أن تَنصُرَهم، أو تَشفَع لهم في الآخرة، ونحو هذا.

وهذا الذي يسمِّيه بعض العلماء بتوكُّل السِّرِّ، نظير: خوف السِّرِّ؛ وذلك أن يَعتقِد في هذا المتوكَّل عليه خاصِّيَّةً وقدرةً خفيَّةً يمكنه بها أن يُوصِل إليه المطلوب، وأن يدفع

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٤٢٨ ـ ٤٢٩).

عنه المكروه والمرهوب، فيكون له نوعُ اعتقاد في هذا الإنسان، وهذا الاعتقاد يَحمِله على التوكُّل عليه.

٢ ـ التوكُّل على المخلوق في الأمور التي يَقدِرُ عليها ـ فيما يَظُنُّ ـ المتوكَّلُ عليه.

وهذا شرك أصغر ـ عند بعض أهل العلم ـ؛ وذلك كالتوكُّل في الأسباب العاديَّة الظاهرة فيما يَظُنُّ أن ذلك الإنسان يقدر على تحقيق ذلك؛ كمن يتوكَّلُ على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرِّزْق أو دفع الأذى، وكمن يعلِّقُ قلبه برئيسه في العمل، أو بوظيفته، أو بالطبيب، ونحو ذلك، فيَعتمِدُ عليه اعتماد افتقار؛ فهذا شرك خفي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى: «فالقلبُ لا يتوكَّلُ إلا على مَن يرجوه؛ فمَن رجا قوَّته، أو عمله، أو عِلْمه، أو حاله، أو صديقه، أو قرابته، أو شيخه، أو مَلِكَهُ، أو ماله، غيرَ ناظرٍ إلى الله تعالى: كان فيه نوعُ توكُّلٍ على ذلك السبب، وما رجَا أحدٌ مخلوقًا، أو توكَّل عليه، إلا خاب ظنُّه فيه؛ فإنه مُشرِك»(١).

ولهذا قال شَقِيق البَلْخي رَحِمَهُ اللهُ: «لكل واحد مقام؛ فمتوكِّلٌ على ماله، ومتوكِّلٌ على نَفْسه، ومتوكِّلٌ على لسانه، ومتوكِّل على سيفه، ومتوكِّل على سَلْطَنته، ومتوكِّل على الله عَزَّ وَجَلَّ.

فأما المتوكِّل على الله عَزَّ وَجَلَّ، فقد وجَدَ الاسترواح؛ نوَّه الله به، ورفع قدره، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وأما مَن كان مستروِحًا إلى غيره، يُوشِك أن يَنقطِع به فيَشْقَى»(٢).

لكنْ لو أنَّه التفَتَ إليه باعتباره سببًا، وأنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي قدَّر ذلك على يَدَيْهِ، فهذا لا بأس به؛ إذا كان لهذا السبب المنظور إليه ارتباطٌ صحيح في مثل هذا المعنى الذي التفَتَ إليه فيه.

فإنَّ مِن الكذب على القَدَر: أن يَعتقِد في شيءٍ ـ كالدواء مثلًا ـ أنه ينفع، لكنه في مَجَارِي العادات والتجارِب ليس كذلك؛ كأن يعتقِدَ في نوع من الأعشاب أنه إذا أكَلَه، أفاده في علاج المرض الفلاني؛ فهو لا يَظُنُّ أن فيه خاصيَّةً سِرِّية، وقدرةً خفيَّةً، ولكن يَعتقِد أنه بتركيبه وبطبيعته يفيد في هذا المعنى، فإنْ لم يكن كذلك، فهو كَذِبٌ على

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٣٨).

القدر، وقُلْ مثل ذلك فيمن يَعتقِد أنه إذا اغتسَلَ بماءٍ مِن عَيْنٍ معيَّنةٍ: أنه يبرأ من الرُّومَاتِيزم.

وهذا الاعتقاد في الحقيقة ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يَعتقِد في هذا الشيء خاصيَّة خفيَّة سِرِّيَّة؛ فهذا شرك.

النوع الثاني: أن يَعتقِد أن هذه العَيْنَ مثلًا يوجد فيها مياه مَعدِنيَّة، أو مادة معيَّنة تفيد في العلاج من بعض الأمراض.

ولكنَّ الطبَّ يُثبِتُ خلاف ذلك؛ إما أنه لا يُوجَد فيها هذه المادَّة، أو أن هذه المادَّة لا تعلُّق لها بعلاج هذا المرض؛ فيكون ذلك من قبيل الكذب على القَدَر؛ وهو لا يجوز.

النوع الثالث: أن يكون ذلك صحيحًا في مَجَارِي العادات؛ فهذا لا إشكال فيه إذا تسبَّب به، وكان توكُّله على الله وحده.

ومما يتعلَّقُ بهذا النوع الشركي في التوكُّل: شركُ الألفاظ؛ كأن يقول لآخر: أنا متوكِّلٌ عليك يا فلان، فهذا لا يجوز، فإنْ كان في أمرٍ لا يَقدِرُ عليه إلا الله ﷻ، فهو شرك أكبر، وإنْ كان في أمرٍ يَقدِرُ عليه هذا المخلوق؛ كأن يقول: أنا متوكِّلٌ عليك لتقضي لي الحاجة الفلانيَّة، أو تشتري لي الجهاز الفلاني، وهو يَقدِرُ على ذلك؛ فإن هذا يكون من قبيل شرك الألفاظ عند بعض أهل العلم.

ويختلِفُ التوكُّلُ في ذلك عن الاستعانة والاستغاثة؛ فيجوز أن يستغيث الإنسان ويستعين بمخلوق يَقدِرُ ويَملِك ذلك الغَوْثَ والعونَ بعد الله، والله ﷻ يقول: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]؛ فاستغاثه في أمرٍ يَقدِرُ عليه؛ وهذا يجوز.

أما التوكُّل، فلا يجوز أن يُصرَفَ قليلُهُ ولا كثيرُهُ إلا لله ﷻ، فهو مختصٌّ به، فإذا قال العبد للعبد: أنا متوكِّلٌ عليك، أو قال: أنا متوكِّلٌ على الله وعليك؛ فهذا مِن شِرْكِ الألفاظ، وإنْ كان يَقدِرُ عليه.

وقد سُئِل الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله **عن قول العامَّة**: توكَّلْتُ عليك يا فلان في كذا، فأجاب: «هذا شِرْكٌ، أما التوكيلُ، فيجوز؛ لأنه استنابة»(١).

وكذا لا يجوز أن يقول: أنا متوكِّلٌ على الله وفلان، وهو على نحو ما ورَدَ عن

(١) «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ١٧٠).

النبي ﷺ مِن النهي عن قول: ما شاء الله وشِئْت[(١)].

كما أنه لا يجوز أن يقال: أنا متوكِّلٌ على الله ثُمَّ عليك، كما يجوز في المشيئة؛ لأن التوكُّلَ كلَّه عبادة.

وقد سُئِلَ الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن قول بعض العامَّة: توكَّلْتُ عليك يا فلانُ في كذا؟ فقال: «شِرْكٌ، يقول: موكِّلك، ولا يقول: موكِّلُ الله ثم موكِّلُكَ على هذا الشيء، هذه عامِّيَّة، وليست في محلِّها»[(٢)].

القسم الثاني: الوَكَالة الجائزة:

وذلك أن يقول لصاحبه مثلًا: وكَّلتُكَ في عمل كذا، أو بَيْعِ كذا، أو شراءِ كذا، ونحو ذلك، فمثل هذا مِن توكيله، وليس من التوكُّل عليه؛ وهي الوكالة الجائزة، وهي بمعنى التفويض والحِفْظ؛ تقول: وَكَّلْتُ فلانًا: إذا استحفَظْتَهُ، ووَكَلْتُ الأمر إليه: إذا فَوَّضْتَهُ إليه.

وهي في الشرع: «إقامةُ الشخصِ غيرَهُ مُقَامَ نَفْسِهِ مطلَقًا أو مقيَّدًا»[(٣)].

والوَكَالةُ بهذا المعنى: جائزةٌ بالكتاب والسُّنَّة والإجماع؛ قال الله تعالى على لسان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطِبًا بنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

ووكَّل رسول الله ﷺ عُمَّالًا وحُفَّاظًا؛ قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وكَّلني رسولُ اللهِ ﷺ بحِفْظِ زكاةِ رَمَضانَ...»، الحديث[(٤)].

ووكَّل ﷺ في إثبات الحدود وإقامتها؛ كما في حديث أُنَيْس: **«واغْدُ يَا أُنَيْسُ، إِلَى امْرَأَةِ هَذَا؛ فَإِنِ اعْتَرَفَتْ، فَارْجُمْهَا»**[(٥)].

---

(١) ورد ذلك في عدَّة أحاديث؛ من ذلك: حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أخرجه ابن ماجه (٢١١٧)، وحسَّن إسناده الألباني في «الصحيحة» (١٣٩)، وورد كذلك في حديث قُتَيْلَةَ امرأةٍ من جُهَيْنة؛ أخرجه النسائي (٣٧٧٣)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٢٩٧)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (١٣٦). ومن حديث حُذَيْفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وصحَّحه العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٨٣٥)، وابن حجر في «المطالب العالية» (١٣/ ٤٢٤)، والألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٠١).

(٢) «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ١٧٠).

(٣) «فتح الباري» (٤/ ٥٥٩)، و«نيل الأوطار» (٥/ ٥٣١)، و«الموسوعة الفقهية» (٤٥/ ٧).

(٤) ذكره البخاري معلَّقًا (٢٣١١)، ووصله النسائي في «الكبرى» (١٠٧٢٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦١٠).

(٥) أخرجه البخاري (٢٣١٥)، ومسلم (١٦٩٧/ ١٦٩٨)؛ عن أبي هريرة، وزيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ووكَّل عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه في هَدْيِهِ في حَجَّة الوداع؛ بأن يتصدَّق بجلودها وجِلَالها، وأن يَنحَرَ ما بَقِيَ[١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «أمَرَ ـ أي: الله ـ أن يُتَّخَذَ وَكِيلًا، ونهى أن يُتَّخَذَ مَن دونه وكيلًا؛ لأن المخلوق لا يستقِلُّ بجميع حاجات العبد، والوَكَالةُ الجائزة: أن يوكِّلَ الإنسانَ في فعلٍ يَقدِرُ عليه، فيحصُلَ للموكِّل بذلك بعضُ مطلوبه، فأمَّا مطالبُهُ كلُّها فلا يقدر عليها إلا الله، وذلك الذي يوكِّلُهُ لا يفعل شيئًا إلا بمشيئة الله عز وجل وقدرته؛ فليس له أن يتوكَّل عليه وإن وكَّله، بل يَعتمِدُ على الله في تيسير ما وكَّله فيه»[٢].



(١) أخرجه البخاري (١٧٠٧)، ومسلم (١٣١٧)؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) «جامع الرسائل» (١/ ٨٩)؛ وقد تقدَّم هذا النقل.

التوكُّلُ وفعلُ الأسباب

إن الحديث عن الأسباب في موضوع التوكُّل يُعَدُّ مِن أهمِّ ما يتعلَّق بهذا الباب، وفيه من المسائل والتفاصيل الكثيرة ما يتطلَّب شيئًا من البسط.

إذْ إن الحديث عن هذا الموضوع ينتظِمُ أمورًا متعدِّدةً، **منها**:

أولًا: مواقف الناس من الأسباب:

ويُمكِن أن نُجمِل ذلك **بأربعة مواقف**:

الأول: موقف مَن يلتفِتُ إلى الأسباب التفاتًا كُلِّيًّا، ويعتمِدُ عليها بقلبه وجوارحه من غير نَظَر إلى مسبِّبها؛ وهو الله تبارك وتعالى.

وهذا الذي عناه العلماء رحمهم الله بأنه شركٌ في التوحيد؛ لأن الأسباب في نَظَر هذا الصنف هي المسبِّبة بذاتها، وهي المُوجِدةُ بنفسها، وهي الضارَّةُ والنافعة استقلالًا.

فأعرَضُوا عن التوكُّل؛ «فلم يكن لهؤلاء قُوَّةُ أصحاب التوكُّل، وعَوْنُ الله لهم، ودفاعُه عنهم، بل هي طائفةٌ مخذولةٌ بحَسَبِ ما فاتها من التوكُّل»[(١)].

وهذا حال الملاحدة والكُفَّار الذين لا يتوكَّلون على الله ﷻ ولا يَعرِفونه، وإنَّما يَعتقِدون أنَّهم مِن خلال الصناعات وقُوَّةِ السلاح والتكنولوجيا وخِبْراتهم في علوم الدنيا؛ أنهم يستطيعون تحقيق ما أرادوه؛ فهؤلاء قد اغتَرُّوا بأنفسهم، وتَعَدَّوْا طَوْرَهم.

الثاني: موقف مَن أهمَلُوا الأخذ بالأسباب بالكُلِّيَّة؛ فأعرضوا عنها من الناحية العملية، وهؤلاء عكس الطائفة الأولى تمامًا؛ فهؤلاء قالوا: إن الله هو الذي يَملِكُ النفع والضر، وبيده مقاليد الأمور، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يَكُنْ، وقد كتَبَ الله مقادير الأشياء؛ فلا نَلتفِتُ إلى الأسباب، وإنَّما نكتفي بالتوكُّل على الله تبارك وتعالى.

وهؤلاء أحسَنُ حالًا ممَّن قبلهم[(٢)]، لكنهم مُخطِئُون مقصِّرون فيما أمر الله ﷻ به، وهؤلاء حصَلَ لهم من الأمور الشنيعة ما سيأتي ذكره، بإذن الله تبارك وتعالى؛ وهذا هو مفهومُ غالبِ الصوفيَّة للتوكُّل.

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، و«الروح» (٢/ ٧٤٧ ـ ٧٤٨)؛ بتصرُّف.

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، و«الروح» (٢/ ٧٤٧ ـ ٧٤٨).

يقول ذو النُّون المِصْرِي عن التوكُّل: «خَلْعُ الأرباب، وقطعُ الأسباب»[١].

وعن سهل بن عبد الله؛ قال: «التوكُّل: أن يكون العبد بين يَدَيِ الله ﷻ كالميِّتِ بين يَدَيِ الغاسل؛ يقلِّبُهُ كيف يريد»[٢]؛ أي: لا يكون له حركةٌ ولا تدبير.

وسُئِلَ ابن عطاء عن حقيقة التوكُّل؟ فقال: «ألَّا يَظهَر فيك انزعاج إلى الأسباب، مع شدَّة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق، مع وقوفك عليها»[٣].

وقال أبو عبد الله بن سالم: «مَن أطاق التوكُّل، فغيرُ مباحٍ له كسبٌ يعتمِدُ عليه، ومَن ضَعُفَ عن التوكُّل، أُبيحَ له طلب المعاش في كسبه»[٤].

وقد جرَّهم هذا المفهوم إلى ترك الاحتراز وعدَمِ الاحتياط، واعتبروه منافيًا للتوكُّل.

يقول أبو سُلَيْمان الدَّارَانيّ: «لو توكَّلنا على الله، ما بَنَيْنا الحائط، ولا جعلنا لباب الدار غَلَقًا؛ مخافةَ اللصوص»[٥].

وقال أبو علي الرُّوذَباري: «إذا قال الصُّوفيُّ بعد خمسة أيَّام: أنا جائع، فأَلْزِمُوهُ السُّوق، ومُرُوهُ بالكسب»[٦].

ونظر أبو تراب النَّخْشَبي إلى صوفيٍّ مَدَّ يَدَهُ على قشر بِطِّيخ ليأكُلَه بعد ثلاثة أيام، فقال له: «لا يصلُحُ لك التصوُّف؛ الزم السوق»[٧].

فهذا مفهومٌ سَلْبيٌّ منحرفٌ للتوكُّل، أدَّى بهم إلى انحرافاتٍ خطيرةٍ جِدًّا؛ فتركوا التكسُّب، ورأوا أنه ينافي التوكُّل، وترَكُوا عِمَارة الأرض، والأخذ بأسباب القوَّة، ومجاهدة الأعداء؛ فصاروا في غاية الخِذْلان.

إن هؤلاء حينما يهجُمُ العدوُّ على بلدٍ من البلاد يكتفون بترديد الأذكار والأوراد وقراءة «صحيح البخاري»؛ فيظنُّون أنهم بهذه الأمور يستطيعون دفع عادية الأعداء.

ونحن إنما ننبِّه إلى مثل هذا؛ لأننا في زمان أصبَحَ التصوُّفُ يروَّجُ له؛ من أجل أن يكون أحدَ الأسباب المخدِّرة للأمَّة عن مواجهة عدوِّها.

إن دول الشرِّ اليوم تُعلِنُ عن دعمها للحَرَكات الصوفيَّة، وقد دعَمُوها في الاستخراب الذي يسمُّونه بالاستعمار الأوَّل، وها هم اليوم يعودون من جديد يشجِّعون

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٣٣).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٥٠)، وسيأتي له عبارة أخرى في لزوم الأخذ بالأسباب.
(٣) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٣٠٠)، ونقله ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٢/ ١١٥).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٧٨). (٥) المصدر السابق (٩/ ٢٥٦).
(٦) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٢١٨).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٤٩)، وذكره القشيري في «رسالته» (١/ ٣٠٦)؛ واللفظ له.

هذه الحَرَكات، ويَدعَمُونها، ويَمُدُّون جسور التواصل معها؛ فلا بُدَّ من بيان شيءٍ من شَنَاعةِ هؤلاء، وقُبْحِ فِعَالهم.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «لو قال رجل للصوفية: مِن أين أُطعِمُ عيالي؟ لقالوا: قد أشرَكْتَ، ولو سُئِلُوا عمَّن يخرُجُ إلى التجارة؟ لقالوا: ليس بمتوكِّل ولا مُوقِن؛ وكلُّ هذا لجهلهم بمعنى التوكُّل واليقين»[١].

وذكر الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ **عنهم؛ أنهم قالوا**: «لا يستحقُّه ـ أي: اسمَ التوكُّل ـ إلا مَن لم يخالِطْ قلبَهُ خوفُ غيرِ اللهِ؛ من سَبُعٍ أو غيره، وحتَّى يترك السعيَ في طلب الرِّزْقِ؛ لضمان الله تعالى»[٢].

وقد جرَّهم هذا المفهوم الفاسد إلى الخروج إلى البَرِّيَّة، وركوب الأخطار، والإقدام على الأسفار، من غير تزوُّد، وربما جاء أحدهم إلى الحجِّ أو العمرة مِن مكان بعيد، وهو لا يحمل زادًا، وليس معه راحلة، ولا يَدفَع عن نفسِهِ ما يعترضه من آفات الطريق؛ بدعوى أن ذلك ينافي التوكُّل.

وقد أخرج البخاري وغيره؛ مِن حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: «كان أهلُ اليَمَنِ يَحُجُّون، ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قَدِمُوا مَكَّةَ، سألوا الناس، فأنزَلَ الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]»[٣].

قال البيهقي رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذا: أنَّ الله تعالى أَمَرَ زُوَّارَ بيته بالتزوُّد، وقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾؛ يعني ـ والله تعالى أعلم ـ: فإنَّ خير الزاد ما عاد على صاحبِهِ بالتقوى».

وقال الحَلِيمي رحمه الله تعالى: «وهو ألَّا يتوكَّل على أزواد الناس، فيُؤْذِيهم، ويضيِّق عليهم، ومَن دخَلَ البادية بلا زاد متوكِّلًا، فإنما يرجو أن يقيِّضَ الله تعالى مَن يُواسِيهِ مِن زاده؛ وهذا عين ما أشارت الآية إلى المَنْعِ منه؛ فبان أنَّه لا معنى لاستحبابه، وإنما المستحَبُّ: هو التزوُّدُ، أو الجلوسُ إذا لم يكن زادٌ حتى يكون»[٤].

وقال الحسين الرازي: «شَهِدتُّ أحمد بن حنبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، جاءه رجل مِن أهل خراسان، فقال له: يا أبا عبد الله، معي دِرْهَمٌ، وأُرَاهُ ـ قال ـ أَحُجُّ بهذا الدرهم؟ فقال له أحمد: اذهَبْ إلى باب الكَرْخِ، فاشتَرِ بهذا الدرهم مَنًّا، واحمِلْ على رأسك حتى

(١) «تلبيس إبليس» (٢٨٤).
(٢) «المفهم، لما أشكَلَ من تلخيص كتاب مسلم» (١/ ٤٦٧).
(٣) أخرجه البخاري (١٥٢٣).
(٤) «شعب الإيمان» (٢/ ١٣٦).

يصير عندك ثلاثمائة، فإذا صار عندك ثلاثمائة، فحُجَّ. قال: يا أبا عبد الله، ما ترى مكاسِبَ الناس؟ قال أحمد: انظُرْ إلى هذا الخبيث؛ يريد أن يُفسِدَ على الناس معايشَهم، قال: يا أبا عبد الله، أنا متوكِّلٌ، قال: فتدخُلُ الباديةَ وحدَكَ أو مع الناس؟ قال: لا، مع الناس، قال: كَذَبْتَ، لستَ أنت بمتوكِّل، فادخُلْ وحدك، وإلا فأنت متوكِّلٌ على جُرُبِ الناس»(١).

وسُئِل سفيان بن عُيَيْنة رَحِمَهُ اللهُ **عن قوم يَلبَسُون الشَّعْر، ويَحُجُّونَ، ولا يتزوَّدون، ويزعُمُون أن مَن حمل الزاد، فليس بمؤمن؟ فقال:** «كذَبُوا؛ هؤلاء أعداء السُّنَّة، لا تجالِسُوهم، ولا تحدِّثوهم»(٢).

وهذا القول ـ أعني: الإعراضَ عن الأسباب بالكليَّة ـ هو الذي حكَمَ عليه العلماء: بأنه قَدْحٌ في الشرع.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وطائفةٌ قدَحُوا في أربابها ـ أي: أصحابِ الأسباب ـ وجعَلُوهم مخالفين للشَّرْعِ والعَقْل، مدَّعين لأنفُسِهم حالًا أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه؛ إذْ لم يكن فيهم أحدٌ قَطُّ يفعل ذلك، ولا أخلَّ بشيءٍ من الأسباب، وقد ظاهر النبي ﷺ بين دِرْعَيْنِ في يوم أُحُد(٣)، ولم يحضُرِ الصفَّ قطُّ عريانًا ﷺ ـ يعني: مِن غير دِرْع ـ... واستأجر دليلًا مشرِكًا على دِينِ قومه يَدُلُّهُ على طريق الهجرة... وكان يَدَّخِر لأهله قوت سَنَةٍ، وهو سيِّد المتوكِّلين، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة، حمَلَ الزاد والمَزَاد، وجمَعَ أصحابه، وهم أولو التوكُّل حقًّا، وأكملُ المتوكِّلين بعدهم هو مَن اشتَمَّ رائحة توكُّلهم من مسيرة بعيدة، أو لَحِقَ أثرًا من غُبَارهم؛ فحالُ النبي ﷺ وحال أصحابه مَحَكُّ الأحوال وميزانها؛ بها يُعلَمُ صحيحها من سقيمها»(٤).

فالحاصل: أن هؤلاء الصوفيَّة قد وقَعُوا في أمرٍ قبيح، ولكنْ ليس ذلك عند جميعهم:

فهذا سهل بن عبد الله التُّسْتَري رَحِمَهُ اللهُ ـ وهو مِن أئمَّة الصوفيَّة الأوائل ـ **يقول**: «مَن قال: إن التوكُّل يكون بتركِ السبب، فقد طعَنَ في سُنَّة رسول الله ﷺ؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]؛ فالغنيمة اكتساب، وقال الله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢﴾ [الأنفال: ١٢]؛ فهذا عمَلٌ»(٥).

---

(١) أخرجه الخَلَّال في «الحث على التجارة» (٩٤)؛ ومن طريقه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص٣١٨).

(٢) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (٨/ ٢٦٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥).

(٥) تفسير القرطبي (٥/ ١٩٢)، وقد مضى قريبًا من كلامه ما يخالِفُ هذا.

ويقول: «مَن طعَنَ في الاكتساب، فقد طعَنَ في السُّنَّة، ومَن طعَنَ في التوكُّل، فقد طعَنَ في الإيمان»(١).

وجاء عن الجُنَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ **أنه قال**: «سمعتُ السَّرِيَّ يذمُّ الجلوس في المسجد، ويقول: جعَلُوا مسجد الجامع حوانيتَ ليس لها أبواب»(٢)؛ أي: أنهم يَجلِسون في المسجد ينتظرون صلة الناس وعطاءهم؛ فكأنَّهم جعلوا المساجد دَكَاكِين، لكنْ ليس لها أبواب.

وقال إبراهيم الخَوَّاص: «أدَبُ التوكُّل ثلاثة أشياء: صحبةُ القافلة بالزَّاد، والجلوسُ في الزورق بالزَّاد، والجلوسُ في المجلس بالزَّاد»(٣).

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شِرْكٌ في التوحيد، والتثاقُلَ عنها بالكلِّيَّةِ طعنٌ في السُّنَّة، وقدحٌ في الشرع، والاعتماد على الأسباب من غير أن تُرَى أسبابًا تغييرٌ في وجه العقل، وانغماسٌ في غَمْرة الجهل»(٤).

ولذلك قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وذهب المحقِّقون منهم ـ يعني: الصوفيَّةَ وأصحابَ علم القلوب ـ إلى نحو مذهب الجمهور»(٥).

وقد علَّلوا هذا المفهوم الخاطئ للتوكُّل، وحاولوا تعليلَ قعودهم، وتركِ التكسُّب؛ ببعض الشُّبَهِ الضعيفة، أشار إليها ابن الجوزي، وأجاب عليها، فقال: «وقد تشبَّث القاعدون عن التكسُّب بتعلُّلات قبيحة:

منها: أنهم قالوا: لا بد من أن يَصِلَ إلينا رزقنا!

وهذا في غاية القُبْح؛ لأن الإنسان لو ترَكَ الطاعة، وقال: لا أَقدِرُ بطاعتي أن أغيِّرَ ما قضى اللهُ عليَّ؛ فإنْ كنتُ من أهل الجنة، فأنا إلى الجنة، أو مِن أهل النار، فأنا من أهل النار، قلنا له: هذا يَرُدُّ الأوامرَ كلَّها، ولو صَحَّ لأحد ذلك، لم يخرُجْ آدمُ من الجنَّة؛ لأنه كان يقول: ما فعلتُ إلا ما قُضِيَ عليَّ، ومعلوم أننا مطالَبون بالأَمْر لا بالقَدَر».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ومنها**: أنهم يقولون: أين الحلال حتى نَطلُبَ؟

وهذا قولُ جاهل؛ لأن الحلال لا ينقطِعُ أبدًا؛ لقوله ﷺ: «**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ**»(٦) ومعلومٌ أن الحلال ما أَذِنَ الشرع في تناوُله؛ وإنما قولهم هذا احتجاج للكَسَل»(٧).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩٥)، والقشيري في «رسالته» (٢٣٠٣).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١١٦٨).
(٣) المصدر السابق (١٢١٢).
(٤) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٤٣).
(٥) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٣/ ٩١).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) «تلبيس إبليس» (ص٣٢٠).

وقالوا: إذا كَسَبْنا أَعَنَّا الظَّلَمةَ والعصاة... ومما يُحكَى عن أحد أشياخهم ـ وهو فَتْحٌ المَوْصِلي ـ أنه قيل له: أنت صَيَّادٌ بالشَّبَكة؛ لِمَ لا تصطاد؟ فقال: «أخافُ أن أصطاد مُطِيعًا لله تعالى في جوف الماء، فأُطعِمَه عاصيًا لله على وجه الأرض!»[(١)]

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «**قلتُ**: إن صَحَّتْ هذه الحكاية عن فَتْح الموصلي، فهو من التعلُّل البارِدِ المخالف للشرع والعقل؛ لأن الله تعالى أباح الكَسْب، وندَبَ إليه، فإذا قال قائل: ربَّما خَبَزْتُ خُبْزًا، فأكَلَهُ عاص، كان حديثًا فارغًا؛ لأنه لا يجوز لنا إِذَنْ أن نبيع الخُبْزَ لليهود والنصارى»[(٢)].

إلى غير ذلك مما ذكروه؛ وهي عِلَلٌ باطلة، تدُلُّ على سفاهة عقولهم بأدنى تأمُّل.



(١) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (١٢/ ٣٨٣)؛ ومن طريقه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص٢٨٧).

(٢) «تلبيس إبليس» (ص٢٨٧).

المفاسِدُ المترتِّبة على تَرْك الكَسْب بدعوى التوكُّل

للإعراضِ عن الكسب، والخمول بدعوى التوكُّل، من الآفات والمفاسد ما يصعُبُ حصره، **ولكن نشير إلى أهمها:**

١ ـ تعلُّق قلب العبد بما يقيم أَوَدَه، ويسيِّرُ حياتَه؛ لأنه لا يمكن أن يعيش بغير ذلك، فيبقى منشغِلًا بالتفكير بين القيام بتحقيق ما لا بُدَّ منه من أجل الحياة، أو تحقيقِ التوكُّل على مفهومه المزعوم، ومجاهدةِ نفسه على تغيير فِطْرتها التي فطَرَها الله عليها.

٢ ـ تضييع كثيرٍ من الحقوق التي أوجَبَها الله تعالى على العبد، وقد قال سَلْمان لأبي الدرداء رضي الله عنهما: «إنَّ لِرَبِّكَ عليك حقًّا، ولنَفْسِكَ عليك حقًّا، ولأَهْلِكَ عليك حقًّا؛ فأَعْطِ كلَّ ذي حق حقَّه»، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**»[1].

٣ ـ تطلُّع النَّفْس إلى ما في أيدي الناس، وتعريضُها للحاجة والسؤال.

٤ ـ أنَّا لو سَلَّمْنا لصاحب هذه الحال بمقامه جَدَلًا، فإنه يُخشَى عليه أن يداخِلَهُ مِن العُجْب والكبر والغرور والاستعلاء على الآخرين ما يُفسِدُ عليه قَلْبَه.

الثالث: موقفُ مَن ينفي تأثير الأسباب بالكُلِّيَّة.

وهذا القول هو الذي وصَفَهُ العلماء بأنه نقصٌ في العقل، وهو قول القَدَريَّةِ الجبريَّة، أتباعِ جَهْم بن صَفوان في الجَبْر، وقد تابَعَهُ في ذلك بعض الأشاعرة.

يقول ابن القيِّم رحمه الله: «وعندهم: أن الله لم يخلُقْ شيئًا بسبب، ولا جعَلَ في الأسباب قوًى وطبائعَ تؤثِّر؛ فليس في النار قوَّةُ الإحراق، ولا في السُّمِّ قوةُ الإهلاك، ولا في الماء والخبز قوةُ الرِّيِّ والتغذِّي به، ولا في العين قوةُ الإبصار، ولا في الأُذُن والأنف قوةُ السمع والشمّ؛ بل الله سبحانه يُحدِثُ هذه الآثار عند ملاقاة هذه الأجسام، لا بها؛ فليس الشِّبَعُ بالأكل، ولا الرِّيُّ بالشرب، ولا العلمُ بالاستدلال، ولا الانكسار بالكسر، ولا الإزهاق بالذبح، ولا الطاعات والتوحيد سببًا لدخول الجنة والنجاة من النار، ولا الشرك والكفر والمعاصي سببًا لدخول النار، بل يدخُلُ هؤلاء

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨)؛ من حديث أبي جُحَيْفة رضي الله عنه.

الجَنَّةَ بمحض مشيئته، من غير سببٍ ولا حِكْمةٍ أصلًا، ويدخُلُ هؤلاء النار بمحض مشيئته، من غير سببٍ ولا حِكْمةٍ...

وطَرْدُ هذا المذهب: مُفسِد للدنيا والدين، بل ولسائر أديان الرسل؛ ولهذا:

لما طَرَدَهُ قوم، أسقَطُوا الأسباب الدنيويَّة وعطَّلوها، وجعلوا وجودها كعَدَمِها، ولم يمكنهم ذلك؛ فإنَّهم لا بدَّ أن يأكلوا ويشربوا، ويباشروا من الأسباب ما يَدفَعُ عنهم الحَرَّ والبَرْدَ والألم...

وقومٌ طردوه، فتركوا له الأسباب الأخرويَّة، وقالوا: سَبْقُ العِلْم والحُكْم بالسعادة والشقاوة، لا يتغيَّرُ البتة؛ فسواءٌ علينا الفعل والتَّرْك؛ فإنْ سبَقَ العلمَ والحُكْم بالشقاوة، فنحن أشقياء؛ عَمِلنا أو لم نعمل، وإنْ سبَقَ بالسعادة، فنحن سعداء؛ عَمِلنا أو لم نعمل...

قال شيخنا ـ أي: شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ: «وهذا الأصل الفاسد مخالِف للكتاب والسُّنَّة وإجماع السلف وأئمَّة الدين، بل ومخالِف لصريح العقل والحس والمشاهَدة»[(١)].

الرابع: موقف أهل الحَقِّ، أهلِ السُّنَّة والجماعة، وهم الذين قالوا: على الإنسان أن يَعمَل بجوارحه، وأن يقوم بالأسباب، وأن يَجتهِد، وأن يعلِّق قلبَهُ بمسبِّب الأسباب[(٢)]، ويعلم: أنه لا يحصُلُ له شيءٌ إلا بمشيئته وإرادته؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فيتوكَّلُ عليه حق التوكُّل، ويَعتقِد أن الله قد جعَلَ هذه أسبابًا يحصُلُ بها المطلوب؛ سواءٌ كان ذلك في أمور الدنيا، أو في أمور الآخرة.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فالموحِّدُ المتوكِّلُ لا يلتفِتُ إلى الأسباب؛ بمعنى أنه لا يطمئِنُّ إليها، ولا يرجوها، ولا يخافها، فلا يَركَنُ إليها، ولا يلتفِت إليها ـ بمعنى: أنه لا يُسقِطُها، ولا يُهمِلها ويُلغِيها ـ بل يكون قائمًا بها، ملتفِتًا إليها، ناظرًا إلى مسبِّبها سبحانه ومُجرِيها؛ فلا يصح التوكُّل ـ شرعًا وعقلًا ـ إلا عليه سبحانه وحده»[(٣)].



(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩٥ ـ ٤٩٧).
(٢) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ٣٣١)، و«الروح» (٢/ ٧٤٨).
(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٥٠٠).

الأدلَّة على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكُّل

والأدلَّة على هذا كثيرة جدًّا من الكتاب والسُّنَّة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال ﷻ: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال ﷻ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]؛ قال القرطبي: «فالغنيمة: اكتساب»[(١)]، وقال ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأما مِن السُّنَّة: فعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ؛ قال: «**وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي**»[(٢)].

قال الحَلِيمي رحمه الله: «فلو كان انتظارُ الرزق بالصبر والصمت أفضلَ مِن طلبه بما أَذِنَ الله تعالى فيه، لَمَا حرَمَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أفضل الوجهَيْن، وعرَّضه لأرذلهما»[(٣)].

وعن المِقْدام بن مَعْدِي كَرِب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «**ما أكَلَ أحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ** عليه السلام **كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[(٤)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي الحديث: أنَّ التكسُّبَ لا يَقدَحُ في التوكُّل»[(٥)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رجل: يا رسول الله، أَعْقِلُهَا وأَتَوَكَّلُ، أو أُطْلِقُهَا وأَتَوَكَّلُ؟ قال: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»[(٦)].

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٨٩).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) ذكره البيهقي في «الشعب» (٣/ ١٣٨).
(٤) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).
(٥) «فتح الباري» (٤/ ٣٥٨).
(٦) أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، واستنكَرَهُ يحيى القطَّان؛ فيما نقله الترمذي، والذهبي في «الميزان» (٤/ ١٦٥) وضعَّفه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «تخريج مشكلة الفقر» (٢٢)، وفي «صحيح الجامع» (١٠٦٤). وفي الباب: عن عمرو بن أمية الضَّمْري رضي الله عنه؛ أخرجه ابن خُزَيْمة في =

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «**خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ**»[(١)].

وعن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه مرفوعًا: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[(٢)].

قال البيهقي رحمه الله تعالى: «ليس في هذا الحديث دَلَالةٌ على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدُلُّ على طلب الرزق؛ لأن الطير إذا غَدَتْ فإنَّما تَغدُو لطلب الرزق»[(٣)].

قال ابن رجب رحمه الله: «وهذا الحديثُ أصلٌ في التوكُّل، وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلَبُ بها الرِّزْق»[(٤)].

وعن عمرو بن الشَّريد، عن أبيه رضي الله عنه؛ قال: كان في وَفْدِ ثقيفٍ رجلٌ مجذومٌ، فأرسَلَ إليه النبيُّ ﷺ: «**إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ؛ فَارْجِعْ**»[(٥)].

وعن عمر رضي الله تعالى عنه؛ قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُنفِقُ على أهلِهِ نَفَقةَ سَنَتِهِم مِن هذا المال، ثم يأخُذُ ما بَقِيَ فيَجعَلُهُ مَجعَلُ مال الله»[(٦)].

قال النووي رحمه الله: «وفي هذا الحديث: جوازُ ادِّخَارِ قُوتِ سَنَة، وجوازُ الادِّخَار للعيال، وأنَّ هذا لا يَقدَح في التوكُّل»[(٧)].

فهذا هَدْيُهُ ﷺ، وهو أكمل الهدي، وحال أصحابه هو مَحَكُّ الأحوال وميزانها، وبه يُعلَمُ صحيحها من سقيمها؛ فإن هِمَمَهم في التوكُّل كانت أعلى مِن همم مَن بعدهم؛ كما تقدَّم.

قال أبو عثمان الحِيْرِيّ رحمه الله: «اليقين لا يَمنَع المُوقِنينَ من طلب الحظِّ الوافي من الدنيا، وإنما يدُلُّ على ترك الفضول؛ رضًا بالقليل، وزهدًا في الكثير، اتِّباعًا

= «التوكل»؛ فيما نقَلَ ابن حجر في «إتحاف المهرة» (١٢/٤٤٦)، وابن حبان (٧٣١)، والحاكم (٣/٦٢٣)، وصحَّحه ابن حبان، والحاكم، والذهبي، والزركشي؛ كما في «الفيض» (٢/٨)، وجوَّد إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/١١٣١).

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٣٤، ٣٥٨)، والبيهقي في «الشعب» (١١٨٠)، و«الآداب» (١١١٤)، وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/٦٤)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٧٧٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «شعب الإيمان» (٣/١٢٢).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص٨١١ ـ ٨١٢).

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٣١).

(٦) أخرجه البخاري (٤٠٣٣)؛ واللفظ له، ومسلم (١٧٥٧).

(٧) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٢/٧٠).

لرسول ربِّ العالمين ﷺ ولأصحابه؛ فإنهم أئمَّة المتوكِّلين والزاهدين... ومَن زعَمَ أن اليقين يمنع طلَبَ القوت والكفاف، فقد جَهِلَ اليقين، وخالف سنن السلف الصالحين»(١).



(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/٤٥٨/١٢١٩).

هَدْيُ السلفِ الصالحِ في التوكُّلِ وفعلِ الأسباب

يقول علي بن الفُضَيْل: سمعتُ أبي يقول لابن المبارَك: «إنك تأمُرُنا بالزهد والتقلُّل والبُلْغة، ونراك تأتي بالبضائع مِن بلاد خُرَاسان إلى البلد الحَرَام؛ كيف ذا وأنت تأمُرُنا بخلاف ذا؟ فقال ابن المبارَك: يا أبا عليٍّ، إنما أفعل ذا لِأَصُونَ وجهي، وأُكرِمَ بها عِرْضي، وأستعينَ بها على طاعة ربِّي؛ لا أرى لله حقًّا إلا سارَعْتُ إليه حتى أقوم به، فقال له الفُضَيْل: يا ابن المبارَك، ما أحسَنَ ذا، إنْ تَمَّ ذا!»[(١)].

وكان ابن المبارَك يَتَّجِرُ لِيُنفِق على كثير من العلماء الذين قد شغَلَهم حفظُ حديث رسول الله ﷺ وجمعه وكتابته عن العمل والتجارة[(٢)].

وكتب أبو قِلَابة إلى تلميذه أيوب السَّخْتِيَانيّ رَحِمَهُ اللهُ بكتاب يقول فيه: «الْزَمْ سُوقَك، واعلَمْ أن الغنى معافاة»[(٣)].

وعن عبد الله بن محمَّد الباهلي؛ قال: جاء رجل إلى الثوري، فقال: يا أبا عبد الله، تُمسِكُ هذه الدنانير؟! فقال: «اسكُتْ؛ لولا هذه الدنانير، لَتَمَنْدَلَ بنا هؤلاءِ الملوك!»[(٤)].

وسأل رجلٌ الحسَنَ، فقال: يا أبا سعيد، أفتَحُ مصحفي فأقرأه حتى أُمْسِي، قال الحسن: «اقرأه بالغداة، واقرأه بالعشي، وكُنْ سائرَ نهارِكَ في صَنْعَتك وما يُصلِحك»[(٥)]؛ فأرشَدَهُ إلى الاكتساب والعمل.

وكان الإمام أحمد يأمر بالسُّوقِ، ويقول: «ما أحسَنَ الاستغناء عن الناس!»[(٦)].

وسُئِلَ عن قوم لا يعملون، ويقولون: نحن متوكِّلون؟ فقال: «هؤلاء مُبتدِعة»[(٧)].

وكان يقول: «ينبغي للناس كلِّهم أن يتوكَّلوا على الله، ولكنْ يَعُودُونَ على أنفسهم بالكسب... يعني: مَن قال بخلاف هذا، فهو إنسانٌ أحمق»[(٨)].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٩).
(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١١٦).
(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢١٠٢١)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٠٣).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٨١).
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٠١).
(٦) أخرجه الخَلَّال في «الحث على التجارة» (٤).
(٧) أخرجه الخلال في «الحث على التجارة» (١١١).
(٨) ذكره عبد الله في «مسائل والده» (ص٤٤٨)؛ ومن طريقه الخَلَّال في «الحث على التجارة» (١٠٩).

ويقول: «الاستغناء عن الناس بطَلَبٍ ـ يعني: العمل ـ أعجَبُ إلينا من الجلوس وانتظار ما في أيدي الناس»[(١)].

وكان يقول: «صِدْقُ التوكُّل على الله ﷻ: أن يتوكَّل على الله، ولا يكونَ في قلبه أحدٌ من الآدميين؛ يطمع أن يجيئه بشيء، وإذا كان كذلك، كان الله يرزُقُه، وكان متوكِّلًا»[(٢)].

وقال أيوب السَّخْتِيَاني رَحِمَهُ اللهُ: «لو أعلَمُ أنَّ أهلي يحتاجون إلى حُزْمةٍ أو دَسْتَجَةٍ ـ يعني: دستة ـ مِن بقلٍ، ما جلستُ معكم»[(٣)].

ويقول ابن المبارَك رَحِمَهُ اللهُ: «لا يقع من الفضل شيء، ولا الجهاد في سبيل الله، مثلُ السعي على العِيَال»[(٤)].

وقال مسلم بن يَسَار رَحِمَهُ اللهُ **في الكلام في القَدَر**: «هما واديان عريضان، يسلُكُ الناس فيهما، لن يُدرِكَ غَوْرُهما؛ فاعمَلْ عمَلَ رجلٍ يعلم أنه لن يُنجِيَكَ إلا عملك، وتوكَّلْ توكُّلَ رجلٍ يعلم أنه لن يصيبك إلا ما كتَبَ الله لك»[(٥)] **وهذا مِن أنفع الكلام، ومِن أجمعه في هذا الباب**.

وهذا سعيد بن المسيَّب لما حضَرَهُ الموت، ترك دنانير، وقال: «اللَّهُمَّ، إنك تعلَم أني لم أجمَعْها إلا لِأَصُونَ بها حَسَبي وديني»[(٦)]؛ وهذا محمود في الكسب، وفي الادِّخار.

وكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «يا معشر القرَّاء، ارفعوا رؤوسكم، ما أوضَحَ الطريق! فاستبِقُوا الخيرات، ولا تكونوا كَلًّا على المسلمين»[(٧)].

وقال سعيد بن المسيَّب رَحِمَهُ اللهُ: «مَن لَزِمَ المسجد، وقَبِلَ كُلَّ ما يُعطَى، فقد أَلْحَفَ في المسألة»[(٨)].

---

(١) أخرجه الخلَّال في «الحث على التجارة» (١٠٩).

(٢) أخرجه الخلَّال في «الحث على التجارة» (١٢٠٥).

(٣) أخرجه الفَسَوي في «تاريخه» (٢/ ٢٣٦)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٠٥).

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٠).

(٥) أخرجه ابن بطة العكبري في «الإبانة» (١٢٧٨)، وأبو نعيم (٢/ ٢٩٢) مختصرًا، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ١٤٥)؛ واللفظ له.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (١١٩٥)؛ واللفظ له.

(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١١٦٣).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (٢٢٨)، والبيهقي في «الشعب» (١١٦٧)؛ واللفظ له.

وليس هذا خاصًّا بهذه الأُمَّةِ فحَسْبُ؛ بل إن التكسُّبَ والأمر به هو دَيْدَنُ الأنبياء السابقين، وهم سادات المتوكِّلين.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «كان آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّاثًا، ونُوحٌ وزكريا نَجَّارَيْن، وإدريسُ خيَّاطًا، وإبراهيمُ ولوطٌ زرَّاعَيْن، وصالحٌ تاجرًا، وكان سليمان يعمل الخُوص، وداودُ يصنع الدِّرْع، ويأكُلُ من ثمنه، وكان موسى وشُعَيْبٌ ومحمَّد رُعَاةً؛ صلى الله عليهم وسلم أجمعين»[(١)].

فهذا الذي تدلُّ عليه النصوص، وحال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحال السلف الصالح، وهو أن الأخذ بالأسباب لا يُنافِي التوكُّل، بل الإنسان يبذُلُ الأسباب في جلب المنافع ودفع المَضَارّ، والتوكُّلُ من جملة الأسباب؛ فنحن مأمورون بالأخذ بهذه الأسباب، و«لا تقوم عبوديَّةُ الأسباب إلا على ساق التوكُّل، ولا يقوم ساق التوكُّل إلا على قدَمِ العبوديَّة»[(٢)].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «والمراد بالتوكُّل: اعتقادُ ما دلَّت عليه هذه الآية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، وليس المراد به: تَرْكَ التسبُّب، والاعتمادَ على ما يأتي من المخلوقين؛ لأن ذلك قد يَجُرُّ إلى ضدِّ ما يراه من التوكُّل»[(٣)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم: أن تحقيق التوكُّل لا يُنافِي السعيَ في الأسباب التي قدَّر الله سبحانه المقدورات بها، وجَرَتْ سُنَّته في خلقه بذلك؛ فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمرِهِ بالتوكُّل؛ فالسعيُ في الأسباب بالجوارح طاعةٌ له، والتوكُّلُ بالقلب عليه إيمان به»[(٤)].

وقال سهل التُّسْتَري: «مَن طعَنَ في الاكتساب، فقد طعن في السُّنَّة، ومَن طعَنَ في التوكُّل، فقد طعَنَ في الإيمان»[(٥)]؛ فالتوكُّل حال النبي ﷺ، والكسب سُنَّته؛ فمن عمل على حاله، فلا يَترُكَنَّ سُنَّته.

وقال ابن عَقِيل رَحِمَهُ اللهُ: «يظنُّ أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكُّل، وأن التوكُّل هو إهمال العواقِب، واطِّرَاحُ التحفُّظ؛ وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط، الذي يقتضي من العقلاءِ التوبيخَ والتهجين»[(٦)].

---

(١) «تلبيس إبليس» (٢٨٤).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).
(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣١٢).
(٤) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٩٨).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) «تلبيس إبليس» (ص٣١٢ ـ ٣١٣).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحق: أن مَن وَثِقَ بالله، وأيقَنَ أن قضاءه عليه ماض، لم يَقدَح في توكُّله: تعاطيه الأسبابَ اتباعًا لسُنَّتِه وسُنَّةِ رسوله»[(١)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تَتِمُّ حقيقة التوحيد إلا بمباشَرة الأسباب التي نصَبَها الله مقتضِياتٍ لمسبَّباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يَقدَح في نفس التوكُّل، كما يَقدَح في الأمر والحِكْمة»[(٢)].



(١) «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٣).
(٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٤).

أقسام التوكُّل بالنظر إلى تعلُّقه بالأسباب[(١)]

وهو من هذه الحيثية يُجعَلُ على قسمَيْن:

الأول: توكُّل اضطرار؛ بحيث لا يجد العبد مَلجَأً ولا ملاذًا إلا التوكُّلَ على الله، كما إذا تقطَّعت به الأسباب، وضاقت عليه نفسه؛ فظنَّ أنْ لا مَلجَأَ من الله إلا إليه؛ وهذا لا يتخلَّف عنه الفرَجُ والتيسير؛ بحول الله.

الثاني: توكُّل اختيار؛ وهو التوكُّل مع وجود السبب المفضي إلى المراد؛ **وهو على ثلاثة أنواع:**

١ ـ **أن يكون السبب مأمورًا به**؛ فهنا يجبُ عليه الجمعُ بين اتخاذ السبب، وتحقيق التوكُّل.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الواجبُ: القيامُ بهما، والجمعُ بينهما»[(٢)]؛ والقيام به لا ينافي تحقيق التوكُّل، بل هو من تمام التوكُّل.

٢ ـ **أن يكون السبب منهيًّا عنه**؛ فهنا تحرُمُ مباشرة السبب، ويتعيَّن تحقيق التوكُّل، فلم يَبْقَ سببٌ سواه؛ لأن التوكُّل من أقوى الأسباب كما قدَّمنا، ومباشَرةُ الأسباب المحرَّمة أو المكروهة أو الموهومة قادحٌ في تحقيق التوكل، بل تلك الأسباب باطلة مُضِرَّة.

٣ ـ «**أن يكون السبب مباحًا**؛ فهنا يُنظَر: أيُضعِفُ قيامُكَ به التوكُّلَ أم لا؟:

فإنْ أضعَفَهُ، وفرَّق عليك قلبك، وشتَّت شَمْلَك، فتركُهُ أولى.

وإنْ لم يُضْعِفْهُ، فمباشرته أولى؛ لأن حكمةَ أحكم الحاكمين اقتضَتْ ربط المسبَّب به، فلا تعطَّل حكمته مهما أمكن القيام بها، ولا سيما إذا فَعَلْتَهُ عبوديَّةً، فتكون قد أتيتَ بعبوديَّة القلب بالتوكُّل، وعبوديَّة الجوارح بالسبب المَنْوِيِّ به القُرْبةُ»[(٣)].



(١) انظر: «الفوائد» (ص١٢٥).
(٢) المصدر السابق (ص٨٦).
(٣) المصدر السابق (ص١٢٥)؛ بتصرُّف.

أقسامُ الأعمالِ الصادرةِ عن العبد

الأول: **الطاعات التي أمَرَ الله بها، وجعَلَها سببًا للنجاة من النار، ودخول الجَنَّة:**

فهذا لا بدَّ من فعله، مع التوكُّل على الله فيه، والاستعانة به عليه؛ فإنه لا حَوْلَ ولا قوة إلا به، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: **ما أجرى الله به العادةَ في الدنيا، وأمَرَ عبادَهُ بتعاطيه**؛ كالأكلِ عند الجوع، والشرب عند العَطَش، والاستظلال من الحَرّ، والتدفُّؤ من البرد.

فهذا واجبٌ على المرء تعاطي أسبابه، ومَن قصَّر فيه حتى تضرَّر بتركه، مع القدرة على استعماله، فهو مفرِّط، يستحِقُّ العقوبة.

الثالث: **ما أجرى الله به العادةَ في الأعمِّ الأغلب**، وقد يَخرِقُ العادة في ذلك لمن شاء من عباده؛ فقوله ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ**»(١)، يبيِّن أن الناس إنما يُؤْتَوْنَ من قلَّة تحقيق التوكُّل، ووقوفِهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم، ومساكَنَتهم لها، فلو حقَّقوا التوكل على الله بقلوبهم، لساق إليهم أرزاقَهم مع أدنى سَبَب؛ كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرَّد الغُدُوِّ والرَّوَاح»(٢).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وسِرُّ التوكل وحقيقته: هو اعتماد القلب على الله وَحْدَه، فلا يضرُّه مباشَرة الأسباب، مع خُلُوِّ القلب من الاعتمادِ عليها، والركونِ إليها؛ كما لا ينفعه قوله: «تَوَكَّلْتُ على الله»، مع اعتماده على غيره، وركونِهِ إليه، وثقتِه به؛ فتوكُّلُ اللسان شيء، وتوكُّلُ القلب شيء»(٣).

ولذا: فإن «مِن تمام التوكُّل عدَمَ الركون إلى الأسباب، وقَطْعَ عَلَاقةِ القلب بها؛ فيكون حالُ قلبِهِ قيامَهُ بالله، لا بها، وحالُ بَدَنِهِ قيامَهُ بها»(٤).

قال الجُنَيْد رَحِمَهُ اللهُ: «ليس التوكُّل الكَسْبَ، ولا تَرْكَ الكسب؛ التوكُّلُ شيءٌ في القلوب»(٥).

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٨١٦)؛ باختصار وتصرُّف.
(٣) «الفوائد» (ص١٢٦).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).
(٥) تقدم تخريجه.

وقال أيضًا: «إنما هو: سكونُ القلبِ إلى موعود الله ﷻ»[(١)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «المتوكِّل على الله حقَّ التوكُّل لا يأتي بالتوكُّل ويَجعَلُهُ سببًا لحصول الكفاية له مِن الله بالرزق وغيره؛ فإنه لو فعَلَ ذلك، لكان كمَن أتى بسائر الأسباب لاستجلاب الرِّزْق، والكفاية بها؛ وهذا نوع نقص في تحقيق التوكُّل.

وإنما المتوكِّل حقيقة: مَن يَعلَم أن الله قد ضَمِنَ لعبده رزقَهُ وكفايته، فيصدِّقُ اللهَ فيما ضَمِنَه، ويَثِق بقلبه، ويحقِّق الاعتماد عليه فيما ضَمِنَه من الرزق؛ مِن غير أن يُخرِجَ التوكُّل مَخرَجَ الأسباب في استجلاب الرِّزْق به، والرزقُ مقسوم لكل أحد؛ مِن برٍّ وفاجر، ومؤمن وكافر: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ [هود: ٦] ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فما دام العبد حيًّا، فرزقُهُ على الله، وقد ييسِّرُهُ الله له بكسب وبغير كسب؛ فمَن توكَّل على الله لطلب الرِّزْقِ، فقد جعل التوكُّل سببًا وكَسْبًا، ومَن توكَّل عليه لثقتِهِ بضمانه، فقد توكَّل عليه؛ ثقةً به، وتصديقًا»[(٢)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكِّل في الكَسْب، وقلبُهُ ساكنٌ مفوِّضٌ إلى الحق؛ مُنِعَ أو أُعطِيَ؛ لأنه لا يرى إلا أن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يتصرَّف إلا بحِكْمة ومصلحة»[(٣)].

«كما قال بعضهم: اكتسِبْ ظاهرًا، وتوكَّلْ باطنًا؛ فهو مع كسبه لا يكون معتمِدًا على كسبه، وإنما يكون اعتماده في كفايةِ أمرِهِ على الله ﷻ»[(٤)].

ولذلك قيل: «الالتفاتُ إلى الأسبابِ شركٌ في التوحيد، ومَحْوُ الأسبابِ أن تكون أسبابًا تغييرٌ في وجه العقل، والإعراضُ عن الأسباب بالكليَّة قدحٌ في الشرع، والتوكُّل معنًى يلتئِمُ من معنى التوحيد والعقل والشرع»[(٥)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما التوكُّل المأمور به: ما اجتمَعَ فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع»[(٦)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «التجرُّدُ من الأسباب جملةً ممتنِعٌ عقلًا وشرعًا وحِسًّا»[(٧)].

والحاصل: أن «الالتفات إلى الأسباب ضَرْبان؛ **أحدهما**: شرك، **والآخر**: عبوديَّة وتوحيد.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٨٢١).
(٣) «تلبيس إبليس» (ص٣١٤).
(٤) «الشعب» للبيهقي (٢/ ٤٥٥).
(٥) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩٩).
(٦) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٥).
(٧) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٤).

فالشرك: أن يَعتمِد عليها، ويطمئِنَّ إليها، ويَعتقِد أنها بذاتها محصِّلة للمقصود؛ فهو معرِضٌ عن المسبِّب لها، ويَجعَل نظره والتفاته مقصورًا عليها.

وأما إنِ التفَتَ إليها التفاتَ امتثال وقيام بها، وأداءً لحق العبوديَّة فيها، وإنزالها منازِلَها، فهذا الالتفات عبوديَّة وتوحيد؛ إذْ لم يَشغَلْهُ عن الالتفات إلى المسبِّب.

وأما مَحْوُها أن تكون أسبابًا، فقدحٌ في العقل والحِسِّ والفِطْرة، فإنْ أعرَضَ عنها بالكليَّة، كان ذلك قدحًا في الشرع، وإبطالًا له.

فحقيقةُ التوكُّل: القيامُ بالأسباب، والاعتمادُ بالقلب على المسبِّب، واعتقاد أنها بيده؛ فإن شاء، أقام لها موانعَ وصوارفَ تُعارِض اقتضاءها وتَدفَعُه، فالموحِّدُ المتوكِّل لا يَلتفِت إليها؛ بمعنى: أنه لا يُسقِطُها، ولا يُهمِلُها ويُلْغِيها، بل يكون قائمًا بها، ملتفِتًا إليها، ناظرًا إلى مسبِّبها سبحانه ومُجْرِيها»[(١)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا جمَعْتَ بين هذا التوحيد، وبين إثبات الأسباب، استقام قَلْبُك على السير إلى الله، ووضَحَ لك الطريقُ الأعظم الذي مضى عليه جميعُ رُسُل الله وأنبيائه وأتباعهم؛ وهو الصراط المستقيم، صراطُ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم»[(٢)].



(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠)؛ بتصرُّف.
(٢) المصدر السابق (٣/ ٥٠٠).

ما يُطْلَب معرفتُهُ في الأسباب

١ ـ ألَّا يَجعَلَ منها سببًا إلا ما ثبَتَ أنه سببٌ شرعًا أو قَدَرًا:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجوز أن يَعتقِد أن الشيء سببٌ إلا بعِلْم؛ فمَن أثبَتَ شيئًا سببًا بلا علم، أو يُخالِف الشرع، كان مبطِلًا؛ مثلُ مَن يظُنُّ أنَّ النذر سبب في دفع البلاء، وحصول النَّعْماء»[(١)].

٢ ـ ألَّا يعتمِدَ العبد عليها، بل يَعتمِد على مسبِّبها ومقدِّرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحِرْصِهِ على النافع منها؛ وذلك لأن «السبب المعيَّن لا يستقِلُّ بالمطلوب، بل لا بد معه من أسبابٍ أُخَرَ؛ ومع هذا فلها موانع؛ فإنْ لم يكمِّل الله الأسباب، ويَدفَعِ الموانع، لم يحصُلِ المقصود»[(٢)].

فحصول المطلوب مع اتخاذ الأسباب، لا يُمكِن أن يكون قاعدة مُطَّرِدة، ولا يمكن أن يقال: «إنه لا بد من حصول المراد؛ إذا وُجِدَ السبب»، بل المطلوب من المؤمِن: التوكُّلُ على الله وحده، ثم الأخذُ بالأسباب، وقد يعطي سبحانه أو يَمنَعُ مع وجود السبب؛ لذا فإنه لا يجوز الاعتماد على الأسباب، وإنما على مسبِّبها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٣ ـ أن يَعلَمَ أنَّ الأسباب مهما قَوِيَتْ وعَظُمَتْ، فإنها مرتبِطةٌ بقضاء الله وقَدَره، لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرَّف فيها كيف شاء؛ فإن شاء، أبقى سببيَّتها جاريةً على مقتضى حِكْمته؛ ليقوم بها العباد، ويَعرِفوا بذلك تمام حِكْمته؛ حيث ربَطَ المسبَّبات بأسبابها، والمعلولات بعِلَلِها، وإنْ شاء، غيَّرها كيف شاء؛ لئلا يَعتمِد عليها العباد، وليَعلَمُوا كمال قدرته، وأن التصرُّف المطلَق والإرادة المطلَقة لله وحده.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما شاء [الله] كان وإنْ لم يشأِ الناس، وما شاء الناسُ لا يكون إلا أن يشاء الله»[(٣)].

وقال الإمام البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا هو الأصلُ في هذا الباب، وهو أن يَستعمِلَ هذه الأسباب التي بيَّنها الله تعالى لعباده وأَذِنَ فيها، وهو يَعتقِدُ أن المسبِّب هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما يصل إليه من المنفَعة عند استعمالها بتقدير الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه إنْ شاء، حرَمَهُ تلك

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٣٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

المنفعة مع استعماله السبب، فتكون ثقتُهُ بالله ﷻ واعتمادُهُ عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب»[(١)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالتوكُّل من أعظم الأسباب التي يحصُلُ بها المطلوب، ويَندفِع بها المكروه؛ فمَن أنكَرَ الأسباب، لم يستقِمْ منه التوكُّل، ولكنْ مِن تمام التوكل: عدَمُ الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها؛ فيكونُ حالُ قلبِهِ قيامَهُ بالله، لا بها، وحالُ بَدَنِه قيامَهُ بها.

فالأسباب محلُّ حِكْمة الله وأمره ونهيه، والتوكُّل متعلِّقٌ بربوبيَّته وقضائه وقَدَره؛ فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكُّل، ولا يقوم ساق التوكُّل إلا على قدَمِ العبوديَّة»[(٢)].

٤ ـ «**أنَّ الأعمال الدينيَّة لا يجوز أن يُتَّخَذَ منها شيءٌ سببًا إلا أن تكون مشروعة**؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف؛ فلا يجوز للإنسان أن يُشرِك بالله، فيدعو غيره، وإنْ ظن أن ذلك سببٌ في حصول بعض أغراضه.

فإنَّ الشياطينَ قد تُعِين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرَكَ، وقد يحصُلُ بالكفر والفسوق والعصيان بعضُ أغراض الإنسان؛ فلا يَحِلُّ له ذلك؛ إذِ المَفسَدةُ الحاصلة بذلك أعظَمُ من المصلحة الحاصلة به؛ إذِ الرسولُ ﷺ بُعِثَ بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ فما أمَرَ الله به، فمصلحته راجحة، وما نهى عنه، فمفسدته راجحة»[(٣)].



(١) «شعب الإيمان» (٣/ ١٤٨).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٣٧ ـ ١٣٨)؛ باختصار.

ما يُطلَبُ توقِّيه في الأسباب

على العبد أن يتقي في الأسباب أمرَيْن:

الأول: «**الاعتماد عليها، والتوكُّل عليها، والثقة بها، ورجاؤها، وخوفها**؛ فهذا شرك، يَرِقُّ ويغلُظ، وبين ذلك.

الثاني: **تركُ ما أمَرَ الله به من الأسباب**؛ وهذا أيضًا قد يكون كفرًا وظلمًا، وبين ذلك.

بل على العبد أن يَفعَل ما أمره الله به من الأسباب، ويتوكَّلَ على الله توكُّلَ مَن يعتقِدُ أن الأمر كله بمشيئة الله، سبَقَ به علمه وحُكْمه، وأن السبب لا يضُرُّ ولا ينفع، ولا يعطي ولا يَمنَع، ولا يقضي ولا يحكُم، ولا يحصِّل للعبد ما لم تَسبِقْ له به المشيئة الإلٰهيَّة، ولا يَصرِفُ عنه ما سبَقَ به الحُكْم والعلم.

فيأتي بالأسباب إتيانَ مَن لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها، ويتوكَّلُ على الله توكُّلَ مَن يرى أنها لا تُنْجيه، ولا تحصِّلُ له فلاحًا، ولا توصِّله إلى المقصود؛ فيجرِّد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا، ويفرِّغ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها؛ تجريدًا للتوكُّل، واعتمادًا على الله وحده»[(١)].

«وقد جمَعَ النبيُّ ﷺ بين هذَيْنِ الأصلَيْن في قوله: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ...**»[(٢)].

فأمَرَهُ بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبِّب، ونهاه عن العجز؛ **وهو نوعان:**

١ ـ تقصيرٌ في الأسباب، وعدَمُ الحرص عليها.

٢ ـ تقصير في الاستعانة بالله، وتركُ تجريدِها.

فالدِّينُ كلُّه؛ ظاهره، وباطنه، وشرائعه، تحت هذه الكلمات النبويَّة»[(٣)].



---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٥٠٠ ـ ٥٠١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٣/ ٥٠١)؛ بتصرُّف.

بعضُ مَظَاهِرِ ضعفِ التوكُّل

(قوادحُ التوكُّل)

لا شكَّ أن أعظم مظاهر ضعف التوكُّل على الله تعالى ـ وهو الجامع لكل المظاهر الجزئيَّة ـ: التفاتُ القلب إلى الأسباب، وتعلُّقُهُ بغير الله، وتَختلِف دَرَجات هذا الضعف باختلافِ أنواع الأسباب، واختلافِ دَرَجات تعلُّق القلب بها، والتفاتِهِ إليها.

والأسباب على ثلاث درجات[(١)]:

«**الأولى: المقطوعُ بها**؛ كالأسباب التي ارتبَطَتِ المسبَّبات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطًا مطَّرِدًا لا يتخلَّف؛ كما أن الطعام إذا كان موضوعًا بين يديك وأنت جائع محتاج، ولكنك لست تَمُدُّ اليد إليه، وتقول: «أنا متوكِّل، وشرطُ التوكُّل ترك السعي، ومَدُّ اليد إليه سعيٌ وحَرَكة»؛ فهذا جنونٌ مَحْضٌ، وليس من التوكُّل في شيء»[(٢)].

الثانية: الأسباب التي ليست متيقَّنة، وإنما هي ظَنِّيَّةٌ؛ كالرُّقى والاكتواء.

فهذه لا شك أن الاعتماد عليها، والتفات القلب إليها بذاتها ـ إذا ثبَتَتْ سببيَّتها ـ سواءٌ كانت أسبابًا شرعيَّة دلَّت عليها النصوص، أو قدريَّةً دلَّت عليها التَّجْرِبة ـ: لا شك أنه مُضعِفٌ للتوكُّل، مُنقِصٌ لكماله.

الثالثة: الأسباب الموهومة؛ فهي ليست من الأسباب الشرعيَّة، ولا من الأسباب القدريَّة، وإنما هي من الوَهْم والتخرُّص؛ كالتطيُّر مثلًا، وتعليقِ الحُرُوزِ والتَّمائم وغيرها؛ فلا شك أنَّ الالتفاتَ إليها واستعمالها محرَّم، وهي منافية لتحقيق التوكُّلَ وكمال التوحيد.

وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»[(٣)].

والمقصودُ بالحديثِ هنا: الدَّرَجة الثانية والثالثة، وقد جمَعَها النبيُّ ﷺ في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ قال: قال النبي ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ**...»، الحديث، وفيه:

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٦٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه ابن حبان (٦٠٩٠)، والحاكم (٤/ ٤١٧)، والألباني في «الصحيحة» (٢٩٧٢)، وغيرها.

«فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُون، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[(١)].

وظاهرُ الحديث: يدلُّ على أن هذه الأمور المذكورة تَقدَحُ في كمال التوكُّل؛ ولذلك ذيَّل الحديث بقوله: «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»، وهي تَحتمِلُ **أحد معنيَيْن**:

الأول: أن تكون الجملةُ مفسِّرةً لما تقدَّم من ترك الاسترقاء والاكتواء والطِّيَرة.

الثاني: أن تكون من العامِّ بعد الخاصّ؛ لأن كل واحدة منها صفة خاصَّة من التوكُّل، وهو أعمُّ من ذلك.

ولنستعرِضْ هذه الأمور الثلاثة بشيءٍ من الاختصار؛ لنرى الصور القادحة من غيرها:

أولًا: الاسترقاء:

وهو طلَبُ الرُّقْية، والرقية تنقسِمُ إلى **قسمَيْن**:

أ ـ **الرقية الجائزة**؛ وهي: ما اجتمَعَتْ فيها شروط ثلاثة:

١ ـ أن تكون بكلام الله تعالى وأسمائه وصفاته، أو كلام رسوله ﷺ.

٢ ـ أن تكون بلسانٍ عربيٍّ، أو بما يُعرَفُ معناه من غيره.

٣ ـ أن يُعتقَد أن الرقية لا تؤثِّر بذاتها.

وقد أجمَعَ العلماء على جواز الرقى عند اجتماع هذه الشروط؛ كما نقله ابن حجر في «الفتح»[(٢)].

ومما يدل على جواز الرقية الشرعية مستكمِلةِ الشروط، **ما يلي**:

١ ـ فِعْلُهُ ﷺ بنفسه؛ فقد ثبَتَ عنه ﷺ، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أَوَى إلى فراشِهِ، نَفَثَ في كَفَّيْهِ بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص]، وبالمعوِّذَتَيْنِ جميعًا، ثم يَمْسَحُ بهما وَجْهَهُ، وما بلَغَتْ يداه مِن جَسَدِه»[(٣)].

وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أن النبي ﷺ كان إذا اشتَكَى، نَفَثَ على نَفْسِهِ بالمعوِّذات، ومسَحَ عنه بِيَدِه[(٤)].

٢ ـ فعلُهُ ﷺ بغيره؛ كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أيضًا؛ قالت: كان النبي ﷺ يُعَوِّذُ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٢٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢).

بعضَهُمْ، يَمْسَحُ بيمينه: «**أَذْهِبِ البَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا**»[١].

وعنها قالت: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أهلِهِ، نفَثَ عليه بالمعوِّذات»[٢].

٣ ـ أمرُهُ ﷺ؛ كما في حديث أم سَلَمة رضي الله عنها؛ أن النبي ﷺ رأى في بيتها جاريةً في وجهها سَفْعَةٌ، فقال: «**اسْتَرْقُوا لهَا؛ فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ**»[٣].

٤ ـ إقرارُهُ ﷺ؛ كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه، لمَّا أقرَّهم النبيُّ ﷺ بقراءتهم الفاتحةَ على سَيِّدِ القومِ الذي لُدِغَ، وفيه: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!**»، ثم قال: «**قَدْ أَصَبْتُمْ**»[٤].

ب ـ **الرقية الممنوعة**؛ وهي: ما فقَدَتْ شرطًا من شروط الرقية الجائزة المتقدِّمة.

عن زينب، امرأةِ عبد الله؛ قالت: كان عبدُ اللهِ إذا جاء مِن حاجةٍ، فانتهى إلى البابِ، تَنَحْنَحَ وبَزَقَ؛ كراهيةَ أن يَهْجُمَ منا على شيءٍ يَكرَهُه، قالت: وإنه جاء ذاتَ يوم، فتَنَحْنَحَ، قالت: وعندي عجوزٌ تَرْقِينِي من الحُمْرَةِ، فأدخَلْتُهَا تحتَ السرير، فدخَلَ، فجلَسَ إلى جنبي، فرأى في عُنُقِي خَيْطًا، قال: ما هذا الخَيْطُ؟ قالت: قلتُ: خَيْطٌ أُرقِيَ لي فيه، قالت: فأخَذَهُ فقطَعَه، ثم قال: إنَّ آلَ عبدِ اللهِ لَأَغْنِيَاءُ عن الشِّرْك؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ: شِرْكٌ**»[٥].

وعن عَوْفِ بن مالك الأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه؛ قال: كنا نَرْقِي في الجاهليَّة، فقلنا: يا رسولَ اللهِ، كيف تَرَى في ذلك؟ فقال: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، وَلَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»[٦].



(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٥)؛ واللفظ له، ومسلم (٢١٩١).
(٢) أخرجه مسلم (٢١٩٢).
(٣) أخرجه البخاري (٥٧٣٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٢١٩٧).
(٤) أخرجه البخاري(٢٢٧٦)؛ واللفظ له، ومسلم(٢٢٠١).
(٥) أخرجه أحمد (٦/ ١١٠)؛ واللفظ له، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، وضعَّفه المنذري في «تهذيب السنن» (٥/ ٣٦٣)، والألباني في «الصحيحة» (٢٩٧٢)، وحسَّن إسناده أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٣٦١٥).
(٦) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

هل تنافي الرقيةُ التوكُّلَ، أو تَقدَحُ فيه؟

للعلماء في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

الأول: كراهيةُ الرُّقْيةِ والكَيِّ مِن بين سائر الأَدْوِيَة؛ وعمدةُ أصحاب هذا القول: حديث ابن عبَّاس في وصف السبعين ألفًا[(١)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «فتمسَّك بهذا الحديث: مَن كَرِهَ الرُّقَى والكَيَّ مِن بين سائر الأدوية، وزعم أنهما قادِحان في التوكُّل دون غيرهما»[(٢)].

الثاني: أنها لا تنافي التوكُّل، ولا تَقدَح في كماله؛ مستدلِّينَ بفعلِ النبيِّ ﷺ وقولِهِ وتقريرِه.

وأجابوا على استدلال الطائفة الأُولى **بعدَّة أجوبة:**

منها: «أنه محمول على مَن جانب اعتقاد الطبائعيِّين؛ في أن الأدوية تَنفَع بطبعها؛ كما كان أهل الجاهليَّة يَعتقِدون ذلك.

ومنها: أن المراد بالحديث: الذين يَجتنِبونَ فعلَ ذلك في الصِّحَّة؛ خشيةَ وقوع الداء، وأمَّا مَن يستعمِلُ الدواء بعد وقوع الداء به، فلا.

ومنها: أن المراد بتَرْك الرُّقَى والكَيِّ: الاعتمادُ على الله في دفع الداء، والرضا بقَدَره، لا القدحُ في جواز ذلك؛ فمقام الرضا والتسليم أعلى مِن تعاطي الأسباب»[(٣)].

ثم اعلَمْ: أن «الحديث لا يَدُلُّ على أنهم لا يُباشِرون الأسباب أصلًا؛ فإنَّ مباشَرة الأسباب في الجملةِ أمرٌ فِطْريٌّ ضروري، بل نفس التوكُّل مباشَرةٌ لأعظم الأسباب، وإنما المراد: أنهم يترُكُون الأمورَ المكروهة مع حاجتهم إليها، توكُّلًا على الله؛ كالاكتواء والاسترقاء.

وأمَّا مباشَرة الأسباب والتداوي على وجهٍ لا كراهةَ فيه، فغيرُ قادحٍ في التوكُّل؛ فلا يكون تركه مشروعًا»[(٤)].

الثالث: التفريق بين فعل الرقية ـ سواءٌ بنفسه أو بغيره ـ وبين طَلَبِها:

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٢).
(٣) ما بين الأقواس من «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣)؛ باختصار وتصرُّف.
(٤) «حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد» (٤٦).

ومِمن قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)].

واحتجُّوا لذلك: بأن لفظ الحديث ورَدَ في معظَم الروايات بلفظ: «**يَسْتَرْقُونَ**» مِن الاستفعال، وهو طلَبُ الفعل.

أمَّا ما ورد في رواية مسلم: «**لَا يَرْقُونَ**»[(٢)]، **فقد قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو غلَطٌ؛ فإنَّ رُقْيَاهم لغيرِهم ولأنفسِهم حَسَنةٌ، وكان النبي ﷺ يَرْقِي نفسه وغيره، ولم يكن يسترقي؛ فإنَّ رقيته نفسَهُ وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره؛ وهذا مأمور به»[(٣)].

و«لأنَّ الرَّاقِيَ مُحسِنٌ لأخيه، وقد قال النبي ﷺ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ، فَلْيَنْفَعْهُ**»[(٤)].

والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقِيَ سائلٌ مُستَعْطٍ، مُلتفِتٌ إلى غير الله بقلبه، والراقِيَ: مُحسِنٌ نافعٌ»[(٥)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنبيُّ ﷺ لا يَجعَل ترك الإحسان المأذون فيه سببًا للسَّبْقِ إلى الجنان، وهذا بخلاف ترك الاسترقاء؛ فإنه توكُّلٌ على الله، ورغبةٌ عن سؤال غيره، ورضاءٌ بما قضاه»[(٦)].

وسببُ عدمِ طلبِ هؤلاء المتوكِّلين الرُّقْيةَ مِن غيرهم:

١ ـ قوَّة اعتمادهم وتوكُّلهم على الله عَزَّ وَجَلَّ.

٢ ـ عزَّة نفوسِهم عن التذلُّل لغير الله.

٣ ـ لِمَا في ذلك من التعلُّق بغير الله.

ولا شك أن هذا من كمال تحقيق توكُّلهم على الله عَزَّ وَجَلَّ؛ وهذا مما يَدُلُّ على الفرق بين فعل الرُّقْية وطَلَبِها، فيكون الطلب قادحًا دون الفعل؛ وهذا هو الذي يدُلُّ عليه ظاهر الحديث؛ وهو الراجح؛ إن شاء الله تعالى.

ويشهد له: حديث المغيرة بن شُعْبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «**مَنِ اكْتَوَى أَوِ**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٨٢).
(٢) برقم (٢٢٠).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٨٢).
(٤) أخرجه مسلم (٢١٩٩)؛ من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن تيميَّة، نقله عنه ابن القيِّم في «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٢٧٩)؛ بتصرُّف يسير.
(٦) «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٢٧٩).

اسْتَرْقَى، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ التَّوَكُّلِ»[(١)].

قال الإمام البيهقي رَحِمَهُ اللهُ: «وذلك لأنه رَكِبَ ما يُستحَبُّ التنزيه عنه من الاكتواء والاسترقاء؛ لما فيه من الحَظْر، ومن الاسترقاء بما لا يُعرَفُ من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ أو ذِكْرِه؛ لجواز أن يكون شركًا، أو استعمَلَها معتمِدًا عليها، لا على الله تعالى فيما وضَعَ فيها من الشفاء؛ فصار بهذا أو بارتكابه المكروه، بريئًا من التوكُّل، فإنْ لم يُوجَدْ واحد من هذَيْن وغيرهما من الأسباب المباحة، لم يكن صاحبها بريئًا من التوكُّل، والله تعالى أعلم»[(٢)].

قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «وفيه: كراهةُ الاكتواء والاسترقاء:

أما الأوَّل: فلِمَا فيه من التعذيب بالنار.

وأما الآخر: فلِمَا فيه من الاحتياج إلى الغير فيما الفائدةُ فيه مظنونةٌ غيرُ راجحةٍ.

ولذلك: كان من صفاتِ الذين يدخُلون الجنَّة بغير حساب: أنهم لا يَستَرْقُونَ، ولا يَكتَوُونَ، ولا يتطيَّرُونَ، وعلى ربهم يتوكَّلون؛ كما في حديث ابن عبَّاس عند الشيخَيْن.

وزاد مسلم في روايته، فقال: «**لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ**»؛ وهي زيادةٌ شاذَّةٌ، كما بيَّنته فيما علَّقته على كتابي «مختصر صحيح مسلم» (رقم ٢٥٤)»[(٣)].

وقد صحَّ من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: «أَمَرَني رسولُ الله ﷺ أو أَمَرَ أن يُسْتَرْقَى مِنَ العَيْنِ»[(٤)].

وعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى في بيتها جاريةً في وَجْهِها سَفْعةٌ، فقال: «**اسْتَرْقُوا لهَا؛ فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ**»[(٥)].

فمثلُ هذا يُحمَل على الرُّخْصة والجَوَاز، ومَن أراد الكمال، ترك الاسترقاء، لكنْ لو رَقَاهُ غيره تبرُّعًا دون أن يسأله، فهذا لا بأس به، ولا ينافي تمامَ التوكُّل، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٥٥)، وابن ماجه (٣٤٨)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٦٠٨٧)، والحاكم، والذهبي (٤/ ٤١٥)، والمناوي في «التيسير» (٢/ ٤٠٤)، والألباني في «الصحيحة» (٢٤٤)، إلا أنَّ في إسناده اختلافًا، أشار إليه البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ٩٤)، وذكره الدارقطني في «عِلَلِه» (٧/ ١٢٤٣).

(٢) «شعب الإيمان» (٣/ ١١١).

(٣) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١/ ٤٩٠).

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٣٨)؛ واللفظ له، ومسلم (٢١٩٥).

(٥) تقدم تخريجه.

ثانيًا: الاكتواء:

والاكتواء معروف، وهو جائز في أصله، وليس بمحرَّم؛ كما يدلُّ على ذلك حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: «بعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أُبَيِّ بن كَعْبٍ طَبِيبًا، فقَطَعَ منه عِرْقًا، ثم كَوَاهُ عليه»(١).

وجاء أيضًا عنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أنه قال: «رُمِيَ أُبَيٌّ يومَ الأحزابِ على أَكْحَلِهِ، فكَوَاهُ رسولُ اللهِ ﷺ»(٢).

وعنه أيضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ، فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةٍ مِنْ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ، وَمَا اللهِ أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**»(٣).

وكذا حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ يقول: «كُوِيتُ مِن ذاتِ الجَنْبِ، ورسولُ اللهِ ﷺ حَيٌّ»(٤).

فهذه الأحاديثُ الصحيحة تدلُّ على جواز الكَيّ، وقد ورد عنه ﷺ ما يدُلُّ على عدم محبَّته الكَيَّ، وقد تقدَّم آنفًا قوله: «**وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**»، وفي لفظ: «**وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**»(٥).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فقد تضمَّنَتْ أحاديثُ الكيِّ **أربعةَ أنواع**:

أحدُها: فِعْله.

والثاني: عدم محبَّته له.

والثالث: الثناء على مَن تركَهُ.

والرابع: النهي عنه».

قال: «ولا تعارُضَ بينها ـ بحمد الله تعالى ـ فإنَّ فعله يَدُلُّ على جوازه، وعدم محبَّته له لا يدل على المنع منه، وأمَّا الثناء على تاركه، فيدُلُّ على أن تركه أولى وأفضل، وأما النَّهْيُ عنه، فعلى سبيل الاختيار والكَرَاهة، أو عن النوع الذي لا يُحتَاجُ إليه، بل يُفعَلُ خوفًا من حدوث الداء»(٦).

وقال ابن قُتَيْبة رَحِمَهُ اللهُ: «الكَيُّ جِنْسان:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٧). (٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٧).
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥)؛ واللفظ له.
(٤) أخرجه البخاري (٥٧٢١).
(٥) أخرجه البخاري (٥٦٨٠)؛ من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٦) «زاد المعاد» (٤/ ٦٠).

أحدهما: كيُّ الصحيحِ لئلَّا يَعتَلَّ؛ فهذا الذي قيل فيه: لم يتوكَّلْ مَنِ اكتوى؛ لأنه ظَنَّ أن اكتواءه يَدفَعُ عنه قَدَرَ الله تعالى.

والثاني: كيُّ الجرحِ إذا نَغِلَ، والعضوِ إذا قُطِعَ؛ ففي هذا الشفاء.

وأما إذا كان الكيُّ للتداوي الذي يجوز أن يَنجَعَ، ويجوز ألَّا يَنجَعَ، فإنه إلى الكراهة أقرب»[(١)].

وعن عِمْران بن حُصَيْن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن الكَيِّ، قال: «**فَابْتُلِينَا فَاكْتَوَيْنَا، فَمَا أَفْلَحْنَا، وَلَا أَنْجَحْنَا**»[(٢)].

قال ابن سِيرِينَ رَحِمَهُ اللهُ: «سُقِيَ بطنُ عِمْران بن حُصَيْنٍ ثلاثين سنةً، كلُّ ذلك يُعرَضُ عليه الكيُّ، فيأبى أن يكتوي، حتى إذا كان قبل وفاتِهِ بسنتين، اكتَوَى»[(٣)].

وعن مطرِّف رَحِمَهُ اللهُ؛ قال: قال لي عِمْران بن حصين: «قد كان يسلَّمُ عليَّ حتى اكتَوَيْتُ، فتُرِكْتُ، ثم تَرَكْتُ الكَيَّ، فعاد»[(٤)].

وقال ابن التِّينِ رَحِمَهُ اللهُ: «الرُّقى بالمعوِّذات وغيرها من أسماء الله هو الطبُّ الرُّوحاني؛ إذا كان على لسان الأبرار من الخَلْق، حصَلَ الشفاء بإذن الله تعالى، فلما عَزَّ هذا النوع، فَزِعَ الناس إلى الطبِّ الجِسْماني؛ وتلك الرُّقَى المنهيُّ عنها التي يستعملها المعزِّمُ وغيره ممَّن يدَّعي تسخير الجنِّ له، فيأتي بأمورٍ مشتبِهةٍ مركَّبةٍ مِن حقٍّ وباطل، يَجمَعُ إلى ذكر الله وأسمائه ما يَشُوبُهُ مِن ذكر الشياطين، والاستعانة بهم، والتعوُّذ بمَرَدَتِهم»[(٥)].



---

(١) «تأويل مختلف الحديث» (ص٤٦٢ ـ ٤٦٤)؛ باختصار وتصرُّف. وانظر: «زاد المعاد» (٤/ ٦٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٦٥)، والترمذي (٢٠٤٩)؛ واللفظ له، وابن ماجه (٣٤٩٠)، وصحَّحه التِّرْمِذي، وابن حبان (٦٠٨١)، والحاكم (٣/ ٢١٣)، والألباني في «صحيح الموارد» (١١٨٢).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٤) أخرجه مسلم (١٢٢٦).

(٥) «فتح الباري» (١٠/ ٢٠٧).

حكم التداوي، وهل ينافي التوكُّل؟

لما كانت الرقى والكَيُّ من جملة التداوي، ناسَبَ الحديثُ هنا عن التداوي، وهو أعم منهما؛ كما أنه من جملة الأسباب التي لها اتصال لا يخفى بباب التوكُّل.

حكم التداوي: الأصل في التداوي الجوازُ؛ فإنَّ مِن هديِهِ ﷺ فعلَ التداوي في نفسه، والأمرَ به لمن أصابه مرضٌ مِن أهلِهِ وأصحابه؛ كما ذكر ابن القيِّم رحمه الله(١).

ومما يدلُّ على ذلك:

١ ـ حديث أبي هُرَيْرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**»(٢).

٢ ـ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ** عز وجل»(٣).

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وفي قوله ﷺ: «**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ**»، تقويةٌ لنفس المريض والطبيب، وحَثٌّ على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عليه»(٤).

٣ ـ عن أسامة بن شَرِيك رضي الله عنه؛ قال: قالت الأعراب: يا رسول الله، أَلَا نَتَدَاوَى؟ فقال: «**نَعَمْ، يَا عِبَادَ اللهِ، تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا**»، قالوا: يا رسولَ الله، وما هو؟ قال: «**الْهَرَمُ**»(٥).

قال ابن القيِّم رحمه الله: «قد تضمَّنت هذه الأحاديثُ إثباتَ الأسباب والمسبَّبات، وإبطالَ قولِ مَن أنكَرَها... وفي الأحاديث الصحيحة: الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكُّل، كما لا ينافيه دفعُ داءِ الجُوع والعَطَش، والحَرِّ والبرد، بأضدادِها...

وفيها: رَدٌّ على مَن أنكر التداوي، وقال: إنْ كان الشفاءُ قد قُدِّرَ، فالتداوي لا

(١) انظر: «زاد المعاد» (٤/ ٩).
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨).
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٤).
(٤) «الطب النبوي» (١/ ١٥).
(٥) أخرجه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)؛ واللفظ له، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٦٠٦١)، والحاكم (١/ ١٢١)، والذهبي، والألباني في «غاية المرام» (٢٩٢)، ونقل ابن عبد الهادي في «المحرَّر» (١٢٦٤) تصحيحه عن ابن خزيمة، والدارقطني، والله أعلم.

يفيد، وإنْ لم يكن قد قُدِّرَ فكذلك»[١].

حكم التداوي بشيء محرَّم:

لا يجوز التداوي بمحرَّم؛ ويدلُّ عليه ما جاء عن وائل الحَضْرَميِّ؛ أنَّ طارق بن سُوَيْدٍ الجُعْفِيَّ سأل النبي ﷺ عن الخَمْرِ؟ فنهاه أو كَرِهَ أن يَصنَعَها، فقال: إنما أَصنَعُها للدَّوَاءِ، فقال: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ**»[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: «إنَّ اللهَ لم يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ»[٣].



---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٨٤).

(٣) علَّقه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الأشربة، باب شرب الحَلْواء والعسل (٣/ ٥٨٨)، ووصله أحمد في «كتاب الأشربة» (١٣٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٨١، ٤٨٨)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين؛ كما قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٨٢)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٢٤٢)، وابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٨٢)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٧٠)، والألباني في «الصحيحة» (٢/ ٣٧٧).

التَّداوي وموضعُهُ مِن الأحكام الخَمْسة

وقد اختلَفَ العلماء في التداوي: أهو مباحٌ وتركُهُ أفضل، أم مستَحَبٌّ، أم واجبٌ؟

فذهَبَ جمهورُ العلماء ـ الحنفية[(١)]، والمالكية ـ: إلى أنه مباح، غيرَ أن عبارة المالكية: «لا بأس بالتداوي»[(٢)].

ومذهب جمهور الحنابلة: أنَّ تركه أفضَلُ[(٣)].

والمعتمَدُ عند الشافعية: أنه مستحَبٌّ[(٤)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا التداوي: فليس بواجبٍ عند جماهير الأئمَّة، وإنما أوجَبَهُ طائفة قليلة؛ كما قاله بعض أصحاب الشافعي وأحمد»[(٥)].

وبالجملة: فالتداوي من الأسباب التي أمَرَ الله تعالى باتِّخَاذها، مِن غير اعتمادٍ عليها ـ كما تقدَّم ـ ويختلِفُ حُكْمُهُ باختلاف الحال؛ كما فصَّل ذلك العلامة ابن عُثَيْمِين رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث قال:

«قال بعض العلماء: إنه يجب التداوي إذا ظَنَّ نَفْعَهُ، والصحيح: أنه يجب إذا كان في تركه هلاكٌ».

ثم فصَّل قائلًا: «ما عُلِمَ أو غلَبَ على الظنِّ نفعُهُ مع احتمال الهلاك بعدمه، فهو واجب.

وما غلَبَ على الظنِّ نفعُهُ، ولكنْ ليس هناك هلاك محقَّق بتركه، فهو أفضل.

وما تساوى فيه الأمران، فتركه أفضل»[(٦)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ثبَتَ أنَّ التداوي مباحٌ بالإجماع، مندوبٌ إليه عند بعض العلماء؛ فلا يُلتفَتُ إلى قولِ قومٍ قد رأَوْا أن التداوي خارجٌ من التوكُّل؛ لأن

---

(١) «حاشية ابن عابدين» (٥/ ٢١٥، ٢٤٩)، و«الهداية تكملة فتح القدير» (٨/ ١٣٤).

(٢) «الكافي» لابن عبد البر (٢/ ١١٤٢)، و«الذخيرة» للقرافي (١٣/ ٣٠٧).

(٣) «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٣٣)، و«المبدع» (٢/ ٢١٣ ـ ٢١٤) و«الإنصاف» (٦/ ١١٠)، و«كشاف القناع» (١/ ٥٥١)، و«معونة أولي النهى» (٢/ ٣٨٢).

(٤) انظر: «روضة الطالبين» (٢/ ٩٦)، و«منهاج الطالبين» (١/ ٦١).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٦٩).

(٦) «الشرح الممتع» (٥/ ٢٣٤)؛ بتصرُّف يسير.

الإجماع على أنه لا يخرُجُ من التوكُّل، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه تَدَاوَى، وأمَرَ بالتداوي[١]، ولم يخرُجْ بذلك من التوكُّل، ولا أخرَجَ مَن أمَرَهُ أن يتداوى من التوكُّل»[٢].

وفي الصحيح؛ مِن حديث عثمان بن عَفَّان رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ رَخَّصَ إِذَا اشتَكَى المُحرِمُ عَيْنَهُ أَنْ يُضَمِّدَهَا بالصَّبِرِ[٣].

قال ابن جَرِير الطبري: «وفي هذا الحديث[٤]: دليل على فساد ما يقوله ذوو الغباوةِ مِن أهل التصوُّف والعُبَّاد؛ مِن أن التوكُّل لا يصحُّ لأحدٍ عالَجَ عِلَّةً به في جسده بدواء؛ إذْ ذاك عندهم طلَبُ العافية من غير مَن بيدِهِ العافيةُ والضرُّ والنفع.

وفي إطلاق النبي ﷺ للمُحرِمِ علاجُ عَيْنه بالصَّبِرِ لدفع المكروه: أَدَلُّ دليلٍ على أن معنى التوكُّل غيرُ ما قاله الذين ذكرنا قولهم، وأنَّ ذلك غير مُخرِجٍ فاعِلَهُ من الرِّضا بقضاء اللهِ؛ كما أنَّ مَن عرَضَ له كَلَبُ الجوعِ لا يُخرِجُه فزعه إلى الغذاء، من التوكُّل والرِّضا بالقضاء»[٥].

ثالثًا: التطيُّر:

التطيُّرُ من الطِّيَرة؛ وهي التشاؤم، «وأصل التطيُّر: أنهم كانوا في الجاهليَّة يَعتمِدون على الطَّيْر؛ فإذا خرَجَ أحدُهم لأمر، فإنْ رأى الطيرَ طار يَمْنةً، تيمَّن به واستمَرَّ، وإنْ رآه طار يَسْرةً، تشاءم به ورجَع، وربما كان أحدُهم يهيِّجُ الطير ليطير فيَعتمِدُها.

فجاء الشرع بالنهي عن ذلك[٦]، وكانوا يسمُّونه السانِحَ... والبارِحَ... فالسانح: ما ولَّاك مَيامِنَه، بأن يَمُرَّ عن يسارك إلى يمينك، والبارِحُ بالعكس،، وكانوا يتيمَّنون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح»[٧].

ثم صار التطيُّرُ اسمًا للتشاؤم بكلِّ مرئيٍّ ومسموعٍ ومعلوم، ويدخُلُ فيه التشاؤم بالأسماء والألفاظ، والأشخاص والأرقام والألوان، والشهور والأيام، ونحو ذلك.

---

(١) تقدم ذكر ذلك. (٢) «تلبيس إبليس» (ص٣٢٢).
(٣) أخرجه مسلم (١٢٠٤).
(٤) يقصد: حديث عثمان رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا اشْتَكَى الْمُحْرِمُ عَيْنَهُ، ضَمَّدَهَا بِالصَّبِرِ**».
(٥) نقله عنه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص٣٢٢).
(٦) سيأتي ذلك قريبًا؛ إن شاء الله.
(٧) ما بين الأقواس من كلام ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٣)، وبنحوه قال ابن الجوزي في «كشف المُشكِل، من أحاديث الصحيحين» (١/ ٤٨٢)، وانظر أيضًا: «النهاية» (٣/ ١٥٢)، و«القاموس المحيط» (٢/ ٨٢)، و«تاج العروس» (١٢/ ٤٥٣ وما بعدها).

قال ابن عبد البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصلُ التطيُّر واشتقاقُهُ عند أهل العلم باللغة والسِّيَر والأخبار: هو مأخوذٌ من زَجْرِ الطَّيْرِ ومرورِهِ سانحًا أو بارحًا، منه اشتَقُّوا التطيُّر، ثم استعملوا ذلك في كل شيء، مِن الحيوان وغير الحيوان؛ فتطيَّروا من الأَعْوَرِ والأَعْضَبِ[(١)] والأَبْتَرِ[(٢)]، وكذلك إذا رأوا الغُراب أو غيره مِن الطير يتفلَّى[(٣)] أو يَنتِف.

ولإيمان العرب بالطِّيَرةِ عقَدُوا الرَّتائِمَ[(٤)]، واستعمَلُوا القِدَاحَ بالآمر والناهي والمتربِّص[(٥)]»[(٦)].

حكم التطيُّر:

مِن خلال استقراء النصوص الشرعيَّة، وأقوال العلماء في مسألة التطيُّر؛ **نلاحظ ما يلي**:

أولًا: **أن التطيُّر من أعمال الجاهليَّة**؛ ولذلك لم يذكُرْه الله تعالى في القرآن إلا عن أعدائه؛ ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣﴾ [يس: ١٣]، إلى قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ۝١٩﴾ [يس: ١٨، ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ۝٤٧﴾ [النمل: ٤٥ ـ ٤٧].

ثانيًا: **أن التطيُّر من المحرَّمات الشِّرْكيَّة**؛ ومما يدل على ذلك:

١ ـ حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ** ـ ثلاثًا ـ **وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**»[(٧)].

---

(١) **الأَعْضَب**: المكسور أحد قرنَيْه. «تاج العروس» (٦/ ٢٥٩)، (و ش ج).

(٢) **الأبتر**: المقطوع الذَّنَب، وهو أيضًا الذي لا عَقِبَ له. انظر: «مختار الصحاح» (ص٢٩)، (ب ت ر).

(٣) أي: ينظِّفُ شَعْرَه بمِنْقاره.

(٤) **الرتائم**: جمع رَتِيمة، وهي خيطٌ يُشَدُّ في الإصبع؛ لتستذكر به الحاجة. «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ١٩٤)، (ر ت م).

(٥) هي: عبارة عن سهام كانوا يكتُبُون عليها: «أَمَرَني ربي»، وعلى بعضها: «نَهَاني ربِّي»، وعلى بعضها: «المتربِّص»، فإذا أرادوا سفرًا أو أمرًا مهمًّا، ضربوا بتلك القِدَاح، وصدَرُوا عما يخرُجُ من تلك السهام. انظر: «التذكرة الحمدونية» (٧/ ٣٢٧).

(٦) «التمهيد» (٩/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

(٧) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)؛ واللفظ له، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وصحَّحه =

٢ ـ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ**»، قالوا: يا رسول الله، ما كَفَّارَةُ ذلك؟ قال: «**أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمُ: اللَّهُمَّ، لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»(١).

ثالثًا: أنه لا ارتباط بين الأعيانِ المتطيَّرِ بها، وجَلْبِ المنافع، ودَفْعِ المَضَارّ:

قال القرطبي رحمه الله: «قال علماؤنا: وأمَّا أقوال الطَّيْر، فلا تعلُّق لها بما يُجعَل دلالةً عليه، ولا لها علمٌ بكائن، فضلًا عن مستقبَلٍ فتُخْبِرُ به، ولا في الناس مَن يَعلَمُ منطقَ الطَّيْر، إلا ما كان الله تعالى خَصَّ به سليمان ﷺ مِن ذلك؛ فالتحَقَ التطيُّر بجملةِ الباطل»(٢).

ومما يَدُلُّ على عدم ارتباط تلك الأعيان بجَلْبِ المنافع ودَفْعِ المضارّ؛ **ما يلي:**

١ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا صَفَرَ**»(٣).

و«لا» ـ هنا ـ للنفي، وليست للنهي، والنفيُ هنا أبلغ؛ لأنَّ النفيَ يَدُلُّ على البطلان وعدم التأثير، والنهي إنما يدُلُّ على المنع منه.

٢ ـ حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ**»، قال: قيل: وما الفأل؟ قال: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**»(٤).

٣ ـ حديث معاوية بن الحَكَم السُّلَمِيِّ رضي الله عنه؛ قال: قلتُ: يا رسول الله، أمورًا كنا نَصنَعُها في الجاهليَّة، كنا نأتي الكُهَّانَ؟ قال: «**فَلَا تَأْتُوا الْكُهَّانَ**»، قال: قلتُ: كنَّا نَتَطَيَّرُ؟ قال: «**ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ؛ فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ**»(٥).

رابعًا: تحريمُ الالتفات إلى ما يجده الإنسان في نَفْسه مِن التطيُّر:

يدلُّ على ذلك: حديث معاوية بن الحَكَم السابق.

= الترمذي، وابن حبان (٦١٢٢) والحاكم (١/ ١٧ ـ ١٨) والذهبي، والعراقي في «أماليه» ـ كما في «الفيض» (٤/ ٢٩٤) ـ والألباني في «صحيح الترغيب» (٣٠٩٨).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وصحَّحه أحمد شاكر في تحقيقه على «المسند» (٣٣٦٨)، والألباني في «الصحيحة» (١٠٦٥).

(٢) «تفسير القرطبي» (٩/ ٣٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠)؛ واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٣)؛ واللفظ له.

(٥) أخرجه مسلم (٥٣٧).

خامسًا: الإخبار عنه ﷺ أنه كان لا يتطيَّر:

فعن عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ كان لا يَتَطَيَّرُ مِنْ شيء[(١)].

سادسًا: مدحُ النبيِّ ﷺ لمن ترَكَ التطيُّر:

كما في حديث السبعين ألفًا[(٢)].

سابعًا: شِدَّةُ حَذَرِ السلفِ مِن ذلك:

ومما يَدُلُّ عليه:

- **عن عِكْرِمة؛ قال:** «كنا عند ابن عمر وعنده ابن عبَّاس رضي الله عنهما، فمَرَّ غرابٌ يَصِيح، فقال رجلٌ مِن القوم: خَيْرٌ خَيْرٌ، فقال ابن عبَّاس: لا خَيْرَ، ولا شَرَّ»[(٣)].

- **وعن زياد بن أبي مَرْيَم؛** أنَّ سعد بن أبي وقَّاص كان غازيًا، فبينما هو يسير إذْ أقبَلَ في وجوههم ظِبَاءٌ يَسْعَيْنَ، فلما اقْتَرَبْنَ منهم، وَلَّيْنَ مُدْبِراتٍ، فقال له رجل: انزِلْ أصلَحَكَ الله، فقال له سعد: «مِن ماذا تَطَيَّرْتَ؟ أَمِنْ قُرُونِها حين أَقْبَلَتْ؟ أم مِن أَذْنَابِها حِينَ أَدْبَرَتْ؟ إنَّ هذه الطِّيَرَةَ لَبَابٌ مِن الشِّرْكِ»، قال: فلم يَنْزِلْ سعدٌ، ومضى[(٤)].

وعَنِ ابن طاوُسٍ أو غيره: أنَّ رجلًا كان يسير مع طاوس، فسَمِعَ غُرَابًا نَعَبَ، فقال: خيرٌ، فقال طاوس: «أيُّ خيرٍ عند هذا أو شَرٍّ؟ لا تَصْحَبْني، أو لا تَسِرْ معي»[(٥)].

وعنِ ابن لَهِيعة؛ أن الرَّبِيع بن سَبْرةَ الجُهَنِيَّ حدَّثه؛ قال: لَمَّا غَزَا عمر، وأراد الخروجَ إلى الشام، خرَجْتُ معه، فلما أردنا أن نُدلِجَ، تَطَيَّرْتُ أن أُدلِجَ بالدَّبَرَانِ[(٦)]، فأَرَدتُّ أن أذكُرَ ذلك لعمر، فعرَفْتُ أنه يَكرَهُ ذكرَ النجوم، فقلتُ له: يا أبا حَفْص، انظُرْ إلى القمَر، ما أحسَنَ استواءَهُ الليلة! فنظَرَ؛ فإذا هو في الدَّبَرانِ، قال: «قد عَرَفْتُ ما تريدُ يا ابنَ سَبْرة! تقول: القمَرُ بالدَّبَران! واللهِ ما نخرُجُ لشمسٍ ولا لقمر، ولكنْ نخرُجُ باللهِ الواحِدِ القهَّار»[(٧)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٢٠)، وصحَّحه ابن حبان (٥٧٢٨)، والألباني في «الصحيحة» (٧٦٢)، وحسَّنه ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٧٦٢).

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) أخرجه الدِّينوري في «المجالسة» (٩٣٧).

(٤) أخرجه مَعْمَر بن راشد في «جامعه» (١٩٥٠٦)؛ واللفظ له، وابن أبي شيبة (٢٦٣٩٩).

(٥) أخرجه معمر بن راشد في «جامعه» (١٩٥١٣).

(٦) **الدَّبَران:** نجم بين الثُّرَيَّا والجوزاء، وسُمِّيَ: «دَبَرَان»؛ لأنه يدبُرُ الثريا؛ أي: يتبعها من منازل القمر. انظر: «لسان العرب» (٤/ ٢٨٠)، (د ب ر).

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٨/ ٧٢)، ونقل عن الخطيب البغدادي الحكم عليه بالانقطاع.

ثامنًا: نفورُ ذوي العقول السليمة، والطباع المستقيمة منه، وإنْ كانوا من أهل الجاهليَّة:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «كان بعض عُقَلاء الجاهلية يُنكِرُ التطيُّر، ويتمدَّح بتَرْكه؛ قال شاعرٌ منهم[(١)]:

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَكُنْتُ لَا ... أَغْدُو عَلَى وَاقٍ وَحَاتِمْ
فَإِذَا الْأَشَائِمُ كَالْأَيَا ... مِنِ وَالْأَيَامِنُ كَالْأَشَائِمْ
وَكَذَاكَ لَا خَيْرٌ وَلَا ... شَرٌّ عَلَى أَحَدٍ بِدَائِمْ

وقال آخر[(٢)]:

الزَّجْرُ وَالطَّيْرُ وَالْكُهَّانُ كُلُّهُمُ ... مُضَلِّلُونَ وَدُونَ الغَيْبِ أَقْفَالُ

وقال آخر[(٣)]:

وَمَا عَاجِلَاتُ الطَّيْرِ تُدْنِي مِنَ الْفَتَى ... نَجَاحًا وَلَا عَنْ رَيْثِهِنَّ قُصُورُ

وقال آخر[(٤)]:

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الطَّوَارِقُ بِالحَصَا ... وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ

وقال آخر[(٥)]:

تَخَبَّرَ طِيْرَةً فِيهَا زِيَادٌ ... لِتُخْبِرَهُ وَمَا فِيهَا خَبِيرُ
تَعَلَّمْ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا ... عَلَى مُتَطَيِّرٍ وَهْوَ الثُّبُورُ
بَلَى شَيْءٌ يُوَافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ ... أَحَايِينًا وَبَاطِلُهُ كَثِيرُ»[(٦)]

وقال آخر[(٧)]:

وَلَيْسَ بِهَيَّابٍ إِذَا شَدَّ رَحْلَهُ ... يَقُولُ عَدَانِي اليَوْمَ وَاقٍ وَحَاتِمُ
وَلَكِنَّهُ يَمْضِي عَلَى ذَاكَ مُقْدِمًا ... إِذَا صَدَّ عَنْ تِلْكَ الهَنَاتِ الخُثَارِمُ

---

(١) وهو لمرقِّش السَّدُوسي. انظر: «الحيوان» (٣/ ٢١٤).
(٢) نُسِبَ للخليل. انظر: «المجموع اللفيف» (ص٤٥٢).
(٣) هو: ضابئ البُرْجُمي. انظر: «الكامل في اللغة» (١/ ٢٥٣).
(٤) **القائل**: لَبِيد. انظر: «المنتخَب من كلام العرب» (ص٧٧١).
(٥) **القائل**: زَبَّان بن سيَّار. انظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).
(٦) «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤)، ووقَعَ فيه: «تخيَّر طِيْرَةً»؛ وهو تصحيف؛ والتصويب من «البيان والتبيين».
(٧) وهو: خُثَيْم بن عَدِيّ. انظر: «المنتخَب، من كلام العرب» (ص٧٧٦).

قَالَ ابن قتيبة: «الخُثارِمُ: هو الذي يتطيَّرُ، والواق: الصُّرَد، والحاتِمُ: الغُرَاب»[(١)].

تاسعًا: **بيان كفَّارة ذلك الإثم لمن وجَدَ في نفسِهِ شيئًا منه:**

يدل على هذا حديث ابن عمرو المتقدِّم: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ**»، قالوا: يا رسول الله، ما كَفَّارةُ ذلك؟ قال: «**أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ، لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[(٢)]؛ فهذه كفَّارة الطِّيَرةِ بعد وقوعها.

أما لدفعِ وقوعِها ـ وذلك عندما يَجِدُ أثرَها في نفسه قبل أن يعمل ـ فقد استدَلَّ بعضهم لذلك بما رُوِيَ من حديث عُرْوة بن عامر ﷺ، عن النبي ﷺ؛ قال: «**أَحْسَنُهَا الفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ، لَا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**»[(٣)].

عاشرًا: **الآثار النفسيَّة السلبيَّة للتطيُّر:**

قال الشيخ سليمان بن عبد الله ﷺ: «واعلم: أنَّ مَن كان معتنِيًا بها، قابلًا بها، كانت إليه أسرَعَ من السَّيْلِ إلى منحدَرِه، وتفتَّحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه، ويراه، ويُعطَاه، ويفتح له الشيطانُ فيها مِن المناسَبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يُفسِدُ عليه دينه، وينكِّدُ عليه عيشه.

فالواجبُ على العبد: التوكُّلُ على الله، ومتابعةُ رسول الله ﷺ، وأن يَمضِيَ لشأنه، لا يردُّه شيء من الطِّيَرة عن حاجته؛ فيدخُل في الشِّرْك»[(٤)].

وقال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي ﷺ، **مبيِّنًا أثر التطيُّر في قلب المتطيِّر**: «وأما الطِّيَرةُ: فإنه إذا عزَمَ على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدِّين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يَكْرَه، أثَّر في قلبه أحدُ أمرَيْن، أحدُهما أعظم من الآخر:

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي؛ فيترُكُ ما كان عازمًا على فعله، أو بالعكس؛ فيتطيَّرُ بذلك، وينكُصُ عن الأمر الذي كان عازمًا عليه.

---

(١) «تأويل مختلِف الحديث» لابن قتيبة (ص١٧١). وانظر: «كتاب الحيوان» للجاحظ (٣/ ٤٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٩١٩) وسكت عنه، وصحَّحه النووي في «رياض الصالحين» (٦٣٩)، وابن عبد الحق في «الصغرى» (٢/ ٥٢٠)، وصحَّح إسناده محمد بن عبد الوهاب في «كتاب التوحيد» (ص٨١)، وأعلَّه بالإرسال ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٤٧٦)، والشوكاني في «نيل الأوطار» (٧/ ٢١٨)، وضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (١٦١٩).

(٤) «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٦٠).

فهذا ـ كما ترى ـ قد علَّق قلبه بذلك المكروه غايةَ التعليق، وعمل عليه، وتصرَّف ذلك المكروهُ في إرادته وعزمه وعمله.

فلا شك أنه على هذا الوجه أثَّر على إيمانه، وأخَلَّ بتوحيده وتوكُّله، ثم بعد هذا لا تَسأَلْ عما يُحْدِثه له هذا الأمر من ضعف القلب، ووهنه، وخوفه من المخلوقين، وتعلُّقه بالأسباب، وبأمور ليست أسبابًا، وانقطاع قلبه مِن تعلُّقه بالله.

وهذا مِن ضَعْفِ التوحيد والتوكُّل، ومن طُرُقِ الشرك ووسائله، ومن الخرافات المُفسِدة للعقل.

الأمر الثاني: ألَّا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثِّر في قلبه حزنًا وهمًّا وغمًّا.

فهذا ـ وإن كان دون الأول ـ لكنه شَرٌّ وضرَرٌ على العبد، وضعفٌ لقلبه، ومُوهِنٌ لتوكُّله، وربما أصابه مكروه؛ فظنَّ أنه من ذلك الأمر؛ فقَوِيَ تطيُّره، وربَّما تدرَّج إلى الأمر الأول»[(١)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «هذه حال مَن تقطَّعت به أسباب التوكُّل، وتقلَّص عنه لباسه، بل تعرَّى منه، ومَن كان هكذا، فالبلايا إليه أَسْرَع، والمصائب به أَعْلَق، والمِحَنُ له أَلْزَم، بمنزلة صاحب الدُّمَّل والقُرْحة الذي يُهدِي إلى قُرْحته كلَّ مؤذٍ، وكل مصادم؛ فلا يكاد يُصدَمُ مِن جسدِهِ أو يُصاب غيرها.

والمتطيِّر مُتعَبُ القلب، منكَّدُ الصدر، كاسِف البال، سيِّئ الخُلُق، يتخيَّلُ مِن كل ما يراه أو يسمعه، أشدُّ الناس خوفًا، وأنكَدُهم عيشًا، وأضيَقُ الناس صدرًا، وأحزَنُهم قلبًا.

كثير الاحتراز والمراعاة لما لا يضرُّه ولا ينفعه، وكم قد حرَمَ نفسه بذلك من حَظٍّ، ومنَعَها من رزق، وقطَعَ عليها من فائدة!»[(٢)].

فهذا التفصيل يبيِّن لك وجه كراهة الشرع للطِّيَرة وذمِّها، ووجهَ منافاتها للتوحيد والتوكُّل، وينبغي لمن وجَدَ شيئًا من ذلك، وخاف أن تَغلِبه نفسه: أن يُجاهِد نفسه على دفع ذلك، ويستعين بالله على ذلك، ولا يَركَن إليها بوجهٍ؛ ليَندفِع الشرُّ عنه.

وجوه منافاة التطيُّر للتوحيد:

١ ـ كونها من إلقاء الشيطان وتخويفِهِ ووسوستِهِ.

٢ ـ كونها من ادِّعاء علم الغيب.

---

(١) «القول السديد، شرح كتاب التوحيد» (ص١٩٢ ـ ١٩٣).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٢٧٣).

٣ ـ فيها التعلُّق بغير الله تعالى خوفًا وطمعًا.

٤ ـ فيها الاعتماد على الأسباب الوهميَّة التي لا حقيقة لها، وإنما يتخيَّلها الإنسان أسبابًا، وهي ليست أسبابًا؛ لا شرعيَّةً ولا قَدَرِيَّة؛ وهذا ينافي التوكُّل.

٥ ـ فيها اعتقاد النفع والضرر مِن غير الله تعالى؛ وهذا شركٌ في الربوبية.

وحكى ابن الجوزي: أنه «لَقِيَ بعضُ الأكاسرة في مَوكِبِهِ رجلًا أعوَر، فحَبَسَه، فلما نزَلَ، خلَّاه، وقال: تطيَّرْتُ منك، قال: أنتَ أشأم مني؛ لأنك خرَجْتَ مِن مَنزِلك ولَقِيتَني، فما رأيتَ إلا خيرًا، وخرَجْتُ من منزلي فلَقِيتُك، فحبستَني؛ فلم يَعُدْ بعدها يتطيَّر»[(١)].

ولتعلم أن هذه الأمور ظنونٌ وتخمينٌ وحَدْسٌ، وما كان هذا سبيله، فيصيب تارَةً، ويُخطِئ تارَات.

وليس كل ما تطيَّر به المتطيِّرون، وقع جميعه وصدَقَ، بل أكثره كاذب، وصِدْقُهُ نادر، والناس في هذا المقام ينقُلُون ما صحَّ ووقَعَ، ويعتنون به، فيُرَى كثيرًا، والكاذب منه أكثر من أن يُنقَل.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال ابن قُتَيْبة**: «مِن شأن النفوس: حفظُ الصواب للعَجَب به، والاستغراب، وتناسي الخطأ»، قال: «**ومَن ذا الذي يتحدَّث أنه سأل منجِّمًا فأخطأ؟! وإنما الذي يُتحدَّثُ به ويُنقَلُ: أنه سأله، فأصاب**»...

وقد كانت عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تستحِبُّ أن تتزوَّج المرأةُ أو يُبْنَى بها في شوَّال، وتقول: «ما تَزَوَّجَنِي رسولُ الله ﷺ إلَّا في شوَّال، فأيُّ نسائه كان أحظَى عندَهُ مني؟!»[(٢)].

مع تطيُّر الناس بالنكاح في شوَّال، وهذا فِعْلُ أُولي العزم والقوة من المؤمنين، الذين صح توكُّلهم على الله، واطمأنَّت قلوبهم إلى رَبِّهم، ووَثِقوا به، وعلموا أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنهم لن يُصِيبهم إلَّا ما كتب الله لهم... أنَّ تطيُّرهم لا يَرُدُّ قضاءَهُ وقدره عنهم، بل قد يكون تطيُّرهم من أعظم الأسباب التي يجري عليهم بها القضاء والقدر؛ فيُعِينُون على أنفسهم، وقد جرى لهم القضاء والقدَر بأن نفوسهم هي سبب إصابة المكروه لهم؛ فطائِرُهم معهم.

وأمَّا المتوكِّلون على الله، المفوِّضون إليه، العالمون به وبأمره، فنفوسُهم أشرف من ذلك، وهِمَمُهم أعلى، وثقتهم بالله وحُسْنُ ظنِّهم به عُدَّةٌ لهم وقُوَّة وجُنَّة مما يتطيَّر به

---

(١) «الأذكياء» (ص١٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٢٣).

المتطيِّرُون، ويتشاءم به المتشائمون، عالمون أنه لا طَيْر إلا طَيْرُه، ولا خَيْر إلا خَيْرُه، ولا إلٰه غيره، أَلَا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العلمين»[(١)].

والله ﷻ «وحده هو النافع الضارّ، وأسبابُ الضرر والنفع كلُّها بيده، وهو الذي جعلها أسبابًا، وإنْ شاء، خلع منها سببيَّتها، وإن شاء جعَلَ ما تقتضيه بخلاف المعهود منها؛ ليُعلَمَ أنه الفاعل المختار، وأنه لا يَضُرُّ شيءٌ ولا يَنفَع إلا بإذنه، وأن التوكُّل عليه والثقة به تُحِيلُ الأسباب المكروهة إلى خلاف مُوجَباتها»[(٢)].

مسألة: هل التشاؤم من الطِّيَرة الشركيَّة؟ وكيف نجمع بين النصوص الدالَّة على تحريم الطيرة والأحاديث التي قد يُفهَمُ من ظاهرها إثبات التشاؤم؟

تقدَّم تعريف الطيرة: بأنها التشاؤم بكل مرئي، ومسموع، ومعلوم؛ ولذلك قال الحافظ ابن حجر: «الطِّيَرة والشؤم بمعنى واحد»[(٣)].

وقد وردت بعض الأحاديث التي قد يُفهَمُ من ظاهرها: إثباتُ الشؤم في بعض الأشياء، وهذا يُشكِل مع الأحاديث الكثيرة المتقدِّمة التي تنفي الطِّيَرة وتأثيرها، وتحرِّمُ تَعَاطِيَها، ونحن هنا نذكر أقوال العلماء في هذه المسألة الشائكة مع أدلَّتهم، ومناقشة هذه الأدلَّة؛ للتوصُّل إلى الراجح في هذه المسألة بإذن الله تعالى.

جاء في الحديث المشهور: «**إِنَّما الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي الْفَرَسِ، وَالْمَرْأَةِ، وَالدَّارِ**»[(٤)].

وعن أنس ﷺ؛ قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إنا كنا في دارٍ كثيرٍ فيها عَدَدُنا، وكثيرٍ فيها أموالُنا، فتحوَّلْنا إلى دارٍ أُخرى، فقَلَّ فيها عددُنا، وقَلَّتْ فيها أموالُنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ذَرُوهَا ذَمِيمَةً**»[(٥)].

فالحاصل: أنَّ أهلَ العلم تفرَّقت أقوالُهم في الجواب عن هذا، وتعدَّدت، وتنوَّعت، **وأحسَنُ ما وقفتُ عليه منها على كثرتها: ما ذكره الحافظ ابن القيِّم** رحمه الله.

يقول: «فإخبارُهُ ﷺ بالشؤم: أنه يكون في هذه الثلاثة، ليس فيه إثبات الطِّيَرَة التي

(١) «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٣٥٥).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٨٦)؛ بتصرُّف.
(٣) «فتح الباري» (٦/ ٧٢).
(٤) أخرجه البخاري (٢٨٥٨)؛ واللفظ له، ومسلم(٢٢٢٥)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٥) أخرجه أبو داود (٣٩٢٤)، وضعَّفه البخاري في «الأدب المفرد» (٩١٨)؛ إذ قال: «في إسناده نظَر»، وصحَّحه الضياء في «المختارة» (١/ ٤٨٢)، وقوَّاه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٦٨)، والحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٧٣)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٠).

نفاها، وإنما غايتُهُ: أن الله سبحانه قد يخلُقُ منها أعيانًا مشؤومة على مَن قارَبَها وسكَنَها، وأعيانًا مبارَكةً، لا يلحق مَن قارَبَها منها شؤم ولا شر.

وهذا كما يعطي سبحانه الوالدَيْنِ ولَدًا مبارَكًا، يَرَيَانِ الخير على وجهه، ويعطي غيرَهما ولدًا مشؤومًا نَذْلًا، يريان الشَّرَّ على وجهِه، وكذلك ما يُعطَاهُ العبدُ ولايةً أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفَرَس، والله سبحانه خالق الخير والشر، والسُّعود والنُّحوس، فيخلُقُ بعض هذه الأعيان سعودًا مبارَكة، ويقضي سعادةَ مَن قارَنَها، وحصولَ اليُمْنِ له والبركة، ويخلُقُ بعض ذلك نحوسًا، يتنحَّس بها مَن قارَنَها؛ وكلُّ ذلك بقضائه وقدره، كما خلَقَ سائر الأسباب وربَطَها بمسبَّباتها المتضادَّة والمختلِفة»[(١)].

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتحقيق: أن يقال في إثبات الشؤم في هذه الثلاث: ما ذكرناه في النهي عن إيراد المريض على الصحيح، والفرارِ من المجذوم، ومن أرض الطاعون: أن هذه الثلاث أسبابٌ يقدِّر الله تعالى بها الشؤم واليُمْن ويَقْرِنه»[(٢)].

ولذلك قال الخَطَّابِي: «اليُمْن والشؤم: اسمان لما يُصِيبُ الإنسانَ من الخير والشَّرّ، والنَّفْع والضُّرّ، ولا يكون شيء من ذلك إلا بمشيئة الله وقضائه، وإنما هذه الأشياء الثلاثة مَحَالٌّ وظروفٌ جُعِلَتْ مواقعَ لأَقْضِيَتِه، ليس لها بأنفسها وطِبَاعها فِعْلٌ ولا تأثير في شيء، إلا أنها لما كانت أَعَمَّ الأشياء التي يقتنيها الناس، وكان الإنسان في غالب أحواله لا يستغني عن دار يسكُنُها، وزوجة يُعاشِرها، وفرسٍ يرتبطه، وكان لا يخلو عن العارض فيها، أُضِيفَ اليُمْنُ والشؤم إليها إضافة مكان ومَحَلٍّ، وهما صادران عن مشيئة الله»[(٣)].

لكن قد يُعترَضُ على هذا: بأن هذا جاء في كلِّ شؤم؛ فما وجه خَصُوصيَّةِ هذه الثلاثة؟

وجوابه: أن أكثر ما يقع التطيُّر في هذه الثلاثة؛ فخُصَّتْ بالذكر لذلك، والله أعلم، أو لكونها أعم الأشياء التي يقتنيها الإنسان؛ كما قال الخَطَّابي.

هل الفَأْل من الطِّيَرة؟

مما لا شك فيه: أن الفأل الحسن مشروع، وكان ﷺ يُعجِبه الفأل[(٤)].

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٣٤٢).
(٢) «لطائف المعارف» (١٥٠).
(٣) «أعلام الحديث» (٢/ ١٣٧٩)؛ بتصرُّف.
(٤) تقدم تخريجه.

ولسائل أن يقول: هل الفأل من الطِّيَرة، واستُثْنِيَ من عموم النهي؟

وحاصل الجواب: أن ذلك على **قولَيْنِ لأهل العلم:**

الأول: أن الفأل من الطِّيَرة، وإنما استُثْنِيَ من الحكم؛ واحتجُّوا لذلك بأحاديث كثيرة، **منها:**

ـ حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لَا طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ**»[(١)].

ـ وعن حابس التَّمِيمي رضي الله عنه؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**العَيْنُ حَقٌّ، وَأَصْدَقُ الطِّيَرَةِ الفَأْلُ**»[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ففي هذا: التصريحُ أن الفأل من جملة الطِّيَرة، لكنه مستثنًى»[(٣)].

الثاني: أنَّ الفأل ليس من الطِّيَرة؛ **واستدلُّوا بما يلي:**

١ ـ عن أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ**»[(٤)].

٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: «كان النبيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ الفَأْلُ الحسَنُ، وَيَكْرَهُ الطِّيَرَةَ»[(٥)].

وأجابوا عن أدلَّة القول الأوَّل: بأن هذه الإضافة تُشعِرُ بأن الفأل من جملة الطِّيَرة، وليس كذلك، بل هي إضافةُ توضيح، وهذا هو الأقرب، والعلم عند الله عز وجل.

يقول الحافظ ابن حَجَر رحمه الله: «والحاصلُ: أن أفعَلَ التفضيل في ذلك ـ يعني: خيرَها وأحسَنَها وأصدَقَها ـ إنَّما هو بين القَدْر المشترَك بين الشيئين، والقَدْرُ المشترَكُ بين الطيرة والفأل: تأثيرُ كلٍّ منهما فيما هو فيه، والفأل في ذلك أبلغ»[(٦)]؛ أي: أن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٧٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩١٤)؛ واللفظ له، والترمذي (٢٠٦١)، وصحَّحه (وليس فيه محل الشاهد: «وأصدَقُ الطِّيَرة الفأل» عند الترمذي)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٤٩)، وضعَّفه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ٣٦١)، والله أعلم.

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٥).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٥٣٦)، وصحَّحه ابن حبان (٦١٢١)، والبوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ٧٧) ط. دار العربية، والألباني في «تخريج الكَلِم» (٢٤٩)، وحسَّنه ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٢٢٥).

(٦) «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٥).

الطيرة تؤثِّر في نفس صاحبها، ولَرُبَّما عُوقِبَ بسبب تطيُّره، فوقع به المكروه، والفأل فيه إحسان للظن بالله ﷻ؛ والله تعالى يقول: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[(١)].

ولهذا قال الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبرَ ﷺ في حديث أبي هريرة: أن الفأل مِن الطِّيَرة، وهو خيرُها، فقال: «**لَا طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ**»[(٢)]، فأبطَلَ الطيرة، وأخبرَ أن الفأل منها، ولكنه خيرها؛ ففصَلَ بين الفأل والطيرة لِمَا بينهما من الامتياز والتضادّ، ونَفْعِ أحدهما ومضرَّةِ الآخر؛ ونظيرُ هذا: منعُهُ من الرقى بالشرك، وإذنُهُ في الرقية إذا لم تكن شركًا؛ لِمَا فيها من المنفعة الخالية عن المفسَدة»[(٣)].

ومن الفروق بين الفألِ والطِّيَرة:

١ ـ ما ذكره الخَطَّابي؛ يقول: «مصدرُهُ ـ أي: الفأل ـ عن نطقٍ وبيان، فكأنه خبَرٌ[(٤)] جاءك عن غيبٍ، بخلاف غيره؛ فليس فيه شيء من هذا المعنى، وإنما هو تكلُّفٌ من المتطيِّر وتعاطٍ لما لا أصلَ له في نوعِ عِلْمٍ وبيان؛ إذْ ليس للطير والبهائم نُطْقٌ ولا تمييزٌ فيستدَلَّ بنُطْقِها على مضمون معنًى فيه؛ وطلبُ العلم من غير مظانه جَهْل؛ فلذلك تُرِكَتِ الطِّيَرة، واسْتُؤْنِسَ بالفَأْل»[(٥)].

٢ ـ أن الفأل يكون من طريق حُسْنِ الظنِّ بالله، والطيرة لا تكون ـ غالبًا ـ إلا في السوء؛ فلذلك كُرِهَتْ.

قال القُرْطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما هي من طريق الاتكال على شيءٍ سواه»[(٦)].

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء: يكون الفأل فيما يَسُرُّ، وفيما يسوء، والغالب في السرور، والطِّيَرة لا تكون إلا فيما يسوء...

قال العلماء: وإنما أَحَبَّ الفألَ؛ لأن الإنسان إذا أمَّل فائدة الله تعالى وفَضْلَهُ عند سبب قوي أو ضعيف، فهو على خيرٍ في الحال، وإنْ غلط في جهة الرجاء، فالرجاء له خير، وأمَّا إذا قطَعَ رجاءَهُ وأمَلَهُ من الله تعالى، فإنَّ ذلك شرٌّ له، والطِّيَرة فيها سوء الظن، وتوقُّع البلاء»[(٧)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) مضى قريبًا.
(٣) «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).
(٤) هكذا في «الفتح»، وهو أقرب بالنظر إلى السياق، وفي الأصل ـ «أعلام الحديث» ـ: «خير».
(٥) «أعلام الحديث» (٣/ ٢١٣٦)، وليس على إطلاقه؛ فقد تكون الطِّيَرةُ متعلِّقة بالنطق، كما قد يكون الفأل بأمر يشاهده؛ كصَبَاحةِ الوجهِ وإشراقِه، ونحو ذلك.
(٦) «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٩٠).
(٧) «شرح صحيح مسلم»، للنووي (١٤/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).

قال الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفأل والطِّيرة ـ وإنْ كان مأخذهما سواءً، ومجتناهما واحدًا ـ فإنهما يَختلِفان بالمقاصد، ويَفترِقان بالمذاهب؛ فما كان محبوبًا مستحسنًا، تفاءلوا به، وسمَّوْهُ الفأل، وأحبُّوه، ورَضُوه، وما كان مكروهًا قبيحًا منفِّرًا، تشاءموا به، وكرهوه، وتطيَّروا منه، وسمَّوْهُ طِيَرةً؛ تفرقةً بين الأمرَيْن، وتفصيلًا بين الوجهَيْن»[(١)].

٣ ـ الفأل: أن يفعل أمرًا ويَعزِم عليه متوكِّلًا على الله عَزَّ وَجَلَّ، فيَسمَعُ الكلمة الطيبة تَسُرُّه؛ مثل أن يسمع إنسانًا يتكلَّم، ويقول: يا نَجِيح، يا مُفلِح، يا راشد، يا سعيد، ونحو ذلك.

وأما الطِّيَرَةُ: فإنه قد يَعزِم على فعل شيءٍ متوكِّلًا على الله عَزَّ وَجَلَّ، فيسمع كلمةً مكروهة؛ مثل: ما يَتِمُّ، أو ما يفلح، أو خاسر، أو فاشل، فيتطيَّرُ، فإنْ كان لم يفعل، ترَكَ، وإنْ كان قد فعَلَ، فإنه يضيق صدره بسبب ذلك.

٤ ـ **قال ابن بطَّال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «جعَلَ الله في فِطَرِ الناس محبَّةَ الكلمة الطيِّبة، والفأل الصالح، والأُنْسَ به، كما جعل فيهم الارتياح للبشرى والمنظر الأنيق، وقد يمر الرجل بالماء الصافي فيُعجِبه وهو لا يشربه، وبالرَّوْضة المنثورة فتَسُرُّه وهي لا تنفعه»[(٢)].

قال ابن القيِّم: «وليس في الإعجاب بالفأل ومحبَّتِهِ شيءٌ من الشِّرْك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجَبِ الفطرة الإنسانية، التي تميل إلى ما يُلائِمُها ويُوافِقها مما ينفعها؛ كما أخبرهم أنه حُبِّبَ إليه من الدنيا: النساء والطِّيب[(٣)]»[(٤)].

٥ ـ ولعل أهم هذه الفروق: ما ذكره الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي، فقال: «إنَّ الفأل الحسن لا يُخِلُّ بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه مِن المصلحة: النشاطُ والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة.

وصفةُ ذلك: أن يَعزِمَ العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود، أو على حالةٍ من الأحوال المهمَّة، ثم يرى في تلك الحال ما يَسُرُّه، أو يسمع كلامًا يَسُرُّه؛ مثلُ: يا راشد أو سالم أو غانم، فيتفاءَل، ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه؛ فهذا كله خير، وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء»[(٥)].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٣٠٩).
(٢) «شرح صحيح البخاري»، لابن بطال (٩/ ٤٣٧).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٣٠٦).
(٥) «القول السديد» (ص١٩٢).

وأما قول النبي ﷺ: «**وخَيْرُهَا الْفَأْلُ**»، فإنه «ينفي عن الفأل مذهب الطِّيَرة من تأثير أو فعل أو شركة، ويخلُصُ الفأل منها، وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة، وهي أن التطيُّر: هو التشاؤم مِن الشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان، فرجَعَ بها مِن سَفَره، وامتنَعَ بها مما عزم عليه، فقد قرَعَ بابَ الشرك، بل وَلَجَهُ، وبرئ من التوكُّل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف، والتعلُّق بغير الله، والتطيُّر مما يراه أو يسمعه؛ وذلك قاطع له عن مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝﴾ [الشورى: ١٠]، فيصير قلبه متعلِّقًا بغير الله عبادةً وتوكُّلا، فيَفسُدُ عليه قلبه وإيمانه وحاله... فأين هذا من الفأل الصالح السارِّ للقلوب، المؤيِّد للآمال، الفاتح لباب الرجاء، المسكِّنِ للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله والتوكُّل عليه، والاستبشار المقوِّي لأمله، السارِّ لنفسه؛ فهذا ضد الطِّيَرة؛ ولهذا استحَبَّ النبي ﷺ الفأل، وأبطَلَ الطِّيَرة»(١).

ضابط كون الفأل سائغًا:

يشترط في الفأل: ألَّا يَقصِده المتفائل؛ فيكون من الطِّيَرة المنهي عنها.

وألَّا يَحمِله على العمل بموجَبه، فإنْ كان هو دافعه إلى العمل، فإنَّه يُعتبَرُ من الطِّيَرة الشركيَّة؛ وذلك لأنَّ القلب في مثل هذه الحالة له اعتمادٌ على غير الله(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة ؒ: «فهو في كل واحد من محبَّته للفأل، وكراهته للطِّيَرة، إنما يسلك مَسلَكَ الاستخارة لله، والتوكُّل عليه، والعمل بما شُرِعَ له من الأسباب، لم يَجعَلِ الفأل آمرًا له وباعثًا له على الفعل، ولا الطِّيَرةَ ناهيةً له عن الفعل، وإنما يأتمر وينتهي عن مثل ذلك أهلُ الجاهليَّة، الذين يَستقسِمون بالأزلام»(٣).

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٣١١ ـ ٣١٢)؛ باختصار وتصرُّف يسير.

(٢) وقد رُوِيَ هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ؛ من حديث ابن عبَّاس ﭭ، ولفظه: «**إِنَّمَا الطِّيَرَةُ: مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ**»؛ أخرجه أحمد (١/ ٢١٣)، وضعَّفه ابن مُفلِح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٣٥٨)، وأحمد شاكر في «التعليق على المسنَد» (١٨٢٤)، والشيخ سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٨٦). راجع: «النهج السديد» للدوسري (٢٩)، و«تخريج أحاديث منتقدة» للبهلال (ص٧٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٦٧).

ومِن هنا: فإن المشروع للعبد قبل الإقدام على الأمر استخارةُ الخالق، واستشارةُ المخلوق، والاستدلالُ بالأدلَّة الشرعيَّة التي تبيِّن ما يحبه اللهُ ويرضاه، وما يكرهه وينهى عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنَّ رسول الله ﷺ سَمِعَ كلمةً فأعجَبَتْهُ، فقال: «**أَخَذْنَا فَأْلَكَ مِنْ فِيكَ**»[(١)].

وعن عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه رضي الله عنهما: «أنَّ النبي ﷺ كان لا يَتَطَيَّرُ مِن شيء، وكان إذا بعَثَ عاملًا، سأَلَ عن اسمِهِ، فإذا أعجَبَهُ اسمُهُ، فَرِحَ به، ورُئِيَ بِشْرُ ذلك في وجهِهِ، وإنْ كَرِهَ اسمَهُ، رُئِيَ كراهيةُ ذلك في وجهِه، وإذا دخَلَ قريةً، سأل عن اسمها، فإنْ أعجَبَهُ اسمها، فَرِحَ، ورُئِيَ بِشْرُ ذلك في وجهِه، وإنْ كَرِهَ اسمَها، رُئِيَ كراهيةُ ذلك في وجهِه»[(٢)].



(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٧)، وسكت عنه، وحسَّنه السيوطي في «الجامع الصغير» (٢٢٥)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٧٢٦)، وفي الباب: عن ابن عمر، وسَمُرة بن جُنْدُب، وعمرو المُزَني رضي الله عنهم، وعن عمار بن سلام مرسَلًا.

(٢) تقدم تخريجه.

مَواطِن التوكُّل

التوكُّل لا يختصُّ بمصالح الدنيا، كما أنه لا يختصُّ بأمور الآخرة؛ فالعبد يستعينُ على أمور الآخرة بالتوكُّل على الله تبارَكَ وتعالى؛ فهو يتوكَّل على الله في صلاح قلبه ودينه، وحفظ لسانه وإرادته؛ وهذا من أهمِّ المطالب، فهو يتوكَّل على الله ﷻ في العمل الصالح بإطلاق، مع السعي والجهاد والصبر وغير ذلك مما يحتاج إليه العاملون؛ فالتوكُّل في الأمور الدينيَّة وما يتعلق بالمطالب الأخرويَّة، أعظَمُ من التوكُّل في تحصيل مطلوباته الدنيوية.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأيضًا: التوكُّل من الأمور الدينية التي لا تتمُّ الواجبات والمستحبَّات إلا بها»(١).

وقد قيل(٢):

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ ... فَمَا خَابَ حَقًّا مَنْ عَلَيْهِ تَوَكَّلَا
وَكُنْ وَاثِقًا بِاللَّهِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ ... تَفُزْ بِالَّذِي تَرْجُوهُ مِنْهُ تَفَضُّلَا

إن التوكُّل على الله ﷻ مطلوب في كلِّ شؤون الحياة؛ غير أن هناك مواطن كَثُرَ فيها الحَضُّ على التوكُّل، والأمر به، **فمِن ذلك**:

«**١** ـ إذا طلبتم النصرَ والفرَجَ، فتوكَّلُوا على الله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

٢ ـ وإذا أعرَضَ المؤمِنُ عن أعدائه، فإنَّ رفيقه التوكُّل: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١].

٣ ـ وإذا جفاه الخلق أو أعرَضُوا عنه أو لم يَقبَلوا دعوته، فإنه يتوكَّل على الله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ﴾ [التوبة: ١٢٩].

٤ ـ إذا كان في حال السِّلْم ومصالَحة الأعداء، وهو يتخوَّف من خيانتهم، فإنه يفوِّض أمره إلى الله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٦١].

٥ ـ وإذا وصَلَتْ قوافلُ القضاء، فإنه يَستقبِلُها بالتوكُّل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢١).

(٢) **القائل**: أبو الفتح الأبشيهي، صاحب «المستطرف» (١/ ٦٧).

كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة: ٥١].

٦ ـ إذا نصَبَ الأعداءُ حِبَالاتِ المَكْر، وتربَّصُوا بالمؤمنين، فإنه يدخُلُ في أرض التوكُّل، فيَعتصِم من كيد الأعداء وشر الأشرار: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حِينَ أُلْقِيَ في النار، وقالها محمَّد ﷺ حِينَ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]»(١).

٧ ـ إذا كانت الهداية من الله، فاستقبِلْها بالشكرِ والتوكُّل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢].

٨ ـ وإذا خَشِيتَ كَيْدَ الشيطان وتزيينه ووسوسته وتسويله حينما يزيِّن الباطل للنفوس، فالتجئ إلى الله، وتوكَّلْ عليه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩]»(٢).

وكلُّ مَن أراد أن يكون اللهُ وكيله، فإنه يتوكَّل عليه؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: كافيه، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩]، إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة.



(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما بين الأقواس من كلام الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٣١٣ ـ ٣١٨)؛ باختصار وتصرف.

عِلَل التوكُّل

«**للتوكُّل ثلاثُ عِلَلٍ:**

الأولى: أن يترُكَ ما أُمِرَ به من الأسباب؛ استغناءً بالتوكُّل عنها؛ فهذا توكُّلُ عجزٍ وتفريطٍ وإضاعة، لا توكُّلُ عبوديَّة وتوحيد؛ كمَن يترك الأعمال التي هي سبب النجاة، ويتوكَّل في حصولها.

وكمَن يترُكُ القيام بأسباب الرِّزْق؛ من العمل والحِرَاثة والتجارة ونحوها، ويتوكَّل في حصوله، ويترك طَلَبَ العلم، ويتوكَّل في حصوله؛ فهذا توكُّلُهُ عَجْزٌ وتفريط؛ كما قال بعض السلف: «لا تكنْ ممن يجعل توكُّلَهُ عجزًا، وعجزَهُ توكُّلًا».

الثانية: أن يتوكَّل في حظوظه وشهواته، دون حقوق ربِّه؛ كمَن يتوكَّل في حصول مال أو زوجة أو رياسة.

العلة الثالثة: أن يرى توكُّله منه، ويَغِيب بذلك عن مطالعة المِنَّة، وشهود الفضل من الله، وإقامتِهِ له في مقام التوكُّل.

فهذه العلل الثلاث هي التي تَعرِضُ في مقام التوكُّل وغيره من المقامات»[(١)].



(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠)؛ باختصار وتصرف.

أحوال الناس في التوكُّل

والناس في التوكُّل على أحوال، **ويمكن إجمال ذلك في أربعة أقسام**:

الأول: مَن يَجمَعُ بين العبادة والاستعانة والتوكُّل.

والثاني: المُعرِضون عن عبادة الله تعالى، وعن الاستعانة به والتوكُّل عليه؛ **وهؤلاء نوعان**:

١ ـ أهل دِين فاسد؛ يعبُدُونَ غير الله، ويستعينون بغيره.

٢ ـ أهل دنيا؛ حيث يطلُبُونها من الأسباب التي يَظُنُّونَ تحصيلها بها.

والثالث: مَن له عبادةٌ لله، من غير استعانةٍ به، أو توكُّلٍ عليه:

فمِن هؤلاء: مَن يَعُدُّ السبب المأمور به نقصًا أو قدحًا في التوكُّل.

ومنهم: مَن وقع في اتِّبَاع الهوى وما تدعوه إليه النفس من الإخلاد إلى الراحة والبطالة[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا تجد عامَّة هذا الضَّرْب، التاركين لما أُمِرُوا به من الأسباب يتعلَّقون بأسبابٍ دون ذلك؛ فإمَّا أن يعلِّقوا قلوبهم بالخلق رغبةً ورهبة، وإمَّا أن يتركوا لأجل ما تبتَّلوا له من الغلوِّ في التوكُّل واجباتٍ أو مستحبَّات أنفَعَ لهم من ذلك؛ كمَن يصرِفُ هِمَّتَهُ في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نَيْل رزقه بلا سَعْي، فقد يحصُلُ ذلك، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف، والسعي اليسير، وصرف تلك الهمَّة، والتوجُّه في عمل صالح، أنفَعَ له، بل قد يكون أوجَبَ عليه من تبتُّلِهِ لهذا الأمر اليسير الذي قدرُهُ درهم أو نحوه»[2].

ويوضِّحُ حال هؤلاء بقوله: «وهو مغلوب؛ إمَّا مع عدوِّه الباطن، وإما مع عدوِّه الظاهر، وربما يكثُرُ منه الجزع مما يصيبه، والحزن لما يفوته؛ وهذا حال كثيرٍ ممن يَعرِف شريعة الله وأمره، ويرى أنه مُتَّبعٌ للشريعة وللعبادة الشرعيَّة، ولا يعرف قضاءه وقدره، وهو حَسَنُ القصد، طالبٌ للحق؛ لكنه غير عارف بالسبيل المُوصِلَة، والطريق المُفضِيَة»[3].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٠ ـ ١٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ٧٨ ـ ٨١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٨٣).

(٣) المصدر السابق (١٤/ ١٠).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وطائفةٌ أخرى قد يَقصِدون طاعة الله ورسوله، لكن لا يحقِّقون التوكُّل عليه، والاستعانة به؛ فهؤلاء يُثابُونَ على حُسْن نيَّتهم، وعلى طاعتهم، لكنَّهم مخذولون فيما يَقصِدونه؛ إذْ لم يحقِّقوا الاستعانة بالله، والتوكُّل عليه؛ ولهذا يُبتلَى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارَةً، وبالإعجاب أُخرى، فإنْ لم يحصُل مراده من الخير، كان لضعفه، وربما حصَلَ له جَزَع، فإن حصل مراده، نظر إلى نَفْسِهِ وقُوَّته؛ فحصل له إعجاب.

وقد يُعجَبُ بحاله، فيظنُّ حصول مراده، فيُخذَل؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥]، إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: ٢٧]»[(١)].

الرابع: هم أولئك الذين قد يكون لهم توكُّلٌ واستعانة من غير عبادة؛ فهؤلاء يَلحَظُونَ تفرُّدَ الله عَزَّ وَجَلَّ بالنفع والضرّ، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فيستعينون به، ويتوكَّلُون عليه في تحصيل حظوظهم ومطالبهم وشهواتهم، لكنهم لا يَلتفِتون إلى ما يحبه الله عَزَّ وَجَلَّ ويرضاه؛ ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه قد يحصُلُ لبعض قطَّاع الطريق من التوكُّل ما لا يحصُلُ لبعض العُبَّاد وأهل العلم[(٢)].

فقُطَّاعُ الطريق قد يكون عندهم من الثبات، ورَبَاطة الجأْش، والتفويض إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والتسليم له، والاعتماد عليه، والوثوق به، وأنه لا يُصِيبُهم إلا ما كتب الله لهم، فيَركَبُونَ الأهوال والأخطار، ويُغامِرون، ويَحمِلون أرواحهم على أَكُفِّهم توكُّلًا على الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولعلَّك تجد مَن يسافِرُ إلى بلاد الكفر للمجون والفساد في الأرض، فإذا ذُكِّرَ بالله وخُوِّفَ مما قد يصيبه من أمراض بتلك البلاد، قال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

فهذا فيه نوعُ تفويض، ولكنَّ تسمية مثل هذا بالتوكُّل على الله، فيه نَظَر واضح.

كيف نسمِّي مَن يذهب ليزني ـ وهو يَعلَمُ أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ـ متوكِّلًا على الله؟! هذا أمرٌ في غاية الغرابةِ والشذوذ.

والمسمَّى شَرْعيٌّ؛ فلا بُدَّ من توافر الشرعيَّة التي لولاها لما تَسَمَّى بهذا الاسم.

ولذلك كان المصدِّق بالرسول مع عنادِه وكفره أشدَّ كفرًا من المكذِّب له؛ لقيام الحجة.

(١) المصدر السابق (١٠/ ٢٧٧).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٢٤)، (١٤/ ١١)، و«مدارج السالكين» (١/ ٨٢).

الطريق إلى تحقيق التوكُّل

يمكننا تحقيق التوكُّل بأمور:

أولًا: تفريغ القلب من الالتفات إلى غير الله ﷻ؛ فإن هذا القلبَ يُشبِهُ الوعاء، وهو بحسب ما مُلِئَ به:

فإذا ملئ هذا القلب خوفًا من المخلوقين ورهبةً منهم، فإنه يَعتمِد عليهم، ويتوجَّه إليهم رغبةً ورهبةً.

وإذا مُلِئَ بالنظر إلى محاسن هؤلاء المخلوقين، حتى صار لهم تأمُّله ونَظَره وفِكْره، فإنه يتعلَّق بهم غاية التعلُّق؛ فلا يَبقَى فيه محلٌّ لمحبَّة الله ﷻ والإقبال عليه.

وهكذا: إذا أَحبَّ الإنسانُ امرأةً، وتعلَّق قلبُهُ بها، فإنَّ ذلك يَشغَلُهُ في ليله ونهاره، ويَظهَرُ ذلك في حاله كلِّه؛ في مجلسه، وشرود ذِهْنه، وشخوص بَصَره، ويظهر ذلك عليه أيضًا في جوارحه، وفي هَيْئَته وشحوب وجهه، وقد قيل[1]:

ٱلْـحُـبُّ مَـشْـغَـلَـةٌ عَـنْ كُـلِّ صَـالِـحَـةٍ وَسَـكْـرَةُ الْـحُـبِّ تُـنْـسِـي سَـكْـرَةَ الْـوَسَـنِ

فالحاصل: أن الإنسان قد يُصِيبه من الأدواء ما يَعجِز الأطباء عن علاجها؛ وسبب ذلك: هو التعلُّق بمخلوق يفنى، ويزول حُسْنُهُ وجماله وبهاؤه.

ولذلك؛ تجد أعداء الله ﷻ يَعمَلون على إظهار قوَّتهم وإمكاناتهم المادِّية الهائلة، وما عندهم من العتاد والسلاح الذي يصوِّرون به للناس أنهم يَقدِرون على كل شيء، وأنهم يستطيعون أن يَسمَعُوا دبيب النمل تحت الأرض، وأنهم يستطيعون أن يَعرِفوا حال الإنسان في ليله ونهاره، وتقلُّباته وتحرُّكاته كلها، وأنه لا يخفى عليهم منه خافيةٌ في قليل ولا كثير.

فإذا قرَأَ الإنسان في هذه الأمور، فإنه يَرتجِفُ قلبه، ويخاف، ويتوجَّس من كل شيء، ويظنُّ أن هؤلاء الأعداء يرصُدُونَ جميع الحَرَكات والسَّكَنات.

وما عَلِمَ المسكينُ أن الله فوق الجميع، وأن هؤلاء خَلْقٌ ضعفاء، يُصِيبهم ما يصيب الخلق، فيَعجِزون عن أن يدفعوا عن أنفسهم قليل البلاء أو كثيره؛ فهم ضعفاء أمام جند الله ﷻ التي مِن أَضْعَفِها فيما يبدو لنظرنا: هذا الماءُ الرقيقُ السَّيَّال الذي نَشرَبُه،

(١) «نهاية الأَرَب» (٢/ ١٥٠).

وننتفع به؛ فكيف بالنار المُحْرِقة والصواعق؟! كيف بالشُّهُبِ التي يَرْجُم الله ﷻ بها مَن شاء مِن عباده؟!

ولذلك: لا يَحْسُن بالإنسان أن يُطِيلَ القراءة والنظر في إمكانات الأعداء، وما عندهم من وسائل التنصُّت، ومعرفة أحوال الناس، والاطلاع على خباياهم؛ فهم يتعمَّدون تضخيم هذه الأمور.

ولنا في هذا الواقع المُعَاش عِبْرة عظيمة؛ فإن العاقل إذا تأمَّل فيما يجري حوله، عرَفَ ضعف الخلق وعَجْزَهم، وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وما نَفَعَتْهم تلك الطائرات التي صوَّروا أنها تكتشف دبيب النمل تحت الأرض، وأنهم يسمعون بها أنفاس أعدائهم؛ فهم يقفون يُعْلِنون عجزهم أمام أعدائهم، وأنهم لم يحصِّلوا من وراء ذلك كبير طائل، مع تسخير جميع ما عندهم من القُدَرِ والإمكانات وصرف المِلْيارات، وما إلى ذلك؛ فهذه عِبْرة للناظرين.

فينبغي للعبد أن يفرِّغَ قلبه مما لا يحبُّه الله ﷻ، ويَملَأَهُ بما يحبُّه الله، وأن يفرِّغ قلبه مِن عبادة غير الله، ويملأه بعبادة الله وحده، وأن يُخرِج خوف المخلوقين من قلبه، ويملأه بالخوف من الله.

وهذا العبد الذي يتوجَّه بقلبه إلى المخلوق تعلُّقًا به ومحبةً له، وخوفًا منه ورغبةً فيما عنده، ونحو ذلك، إنما يحصُلُ له عكس مقصوده، ويعذَّبُ بسبب هذا التعلُّق بقدر ما حصَلَ له منه جزاءً وفاقًا؛ فهذا القلب إنما خُلِقَ ليُقبِلَ على ربه، ليكون عبدًا لله ﷻ؛ ففيه فقرٌ ذاتيٌّ لله تبارك وتعالى، فإذا صارت عبوديته لغير الله ﷻ، تعذَّب بهذا الشيء الذي توجَّه إليه، وتعلَّق به.

وهذا يقودنا إلى الأمر الثاني مما يتحقَّق به التوكُّل، ويكون سبيلًا إليه[(١)].

ثانيًا: تحقيق التوحيد؛ «فإنه لا يستقيم توكُّلُ العبد بحالٍ من الأحوال حتى يصلُحَ له توحيده، بل إن حقيقة التوكُّل هي توحيدُ القلب؛ فما دامت به علائق الشرك، فتوكُّلُهُ معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكُّل»[(٢)].

قال الجُنَيْد رَحِمَهُ الله: «التوكُّلُ: عمَلُ القلب، والتوحيدُ: قولُ القلب»[(٣)].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٤ ـ ١٨٦)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٥٦٠)، و«الفوائد» (٧٢)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٣١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠)؛ بتصرف. (٣) تقدم.

وقد فسَّر ذلك شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فقال: «أراد بذلك: التوحيدَ الذي هو التصديق؛ فإنه لمَّا قرَنَهُ بالتوكُّل، جعله أصله، وإذا أُفرِدَ لفظ التوحيد، فهو يتضمَّن قول القلب وعمله، والتوكُّل من تمام التوحيد»(١).

وهذا التلازُمُ والعَلَاقة بين التوحيد والتوكُّل ظاهرة في **أنواع التوحيد الثلاثة**:

فأوَّلها: توحيد الإلٰهيَّة؛ وعلاقته بالتوكُّل واضحة؛ وذلك أنه «على قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكُّل؛ فإنَّ العبد متى التفَتَ إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ، أخذ ذلك الالتفاتُ شعبةً من شُعَب قلبه، فنقَصَ من توكُّله على الله تبارك وتعالى بقدر ذَهَاب تلك الشعبة»(٢).

والثاني: توحيد الربوبية، وللعلماء في هذا كلامٌ طويل كثير، لا سيَّما شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ وتلميذه ابن القيِّم.

وخلاصة ذلك من مجموع كلامهم: أنَّ تحقيق هذا التوحيد، وتحقيق التوكُّل أيضًا، إنما يكون بعلم العبد بتفرُّد الربِّ تبارك وتعالى في المُلْكِ والتدبير؛ فلا يرى نفعًا ولا ضرًّا، ولا حركةً ولا سكونًا، ولا قبضًا ولا بسطًا، ولا خفضًا ولا رفعًا، إلا والله سبحانه فاعلُهُ وخالقه، وقابضه وباسطه، ورافعه وخافضه، وأنه لا يُشارِكُه في ذلك أحد.

وأما المخلوق، فليس عنده للعبد نفعٌ ولا ضُرّ، ولا منع ولا عطاء، ولا هُدًى ولا ضلال، ولا نَصْرٌ ولا رفع، ولا عِزٌّ ولا ذُلّ، بل ربنا عَزَّ وَجَلَّ هو الذي خلقنا، ورزقنا، وبَصَّرَنا، وهدانا، وأسبَغَ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وتحبَّب إلينا بها مع غناه عنَّا، ومع تبغيض العباد إليه بالمعاصي، ومع فَقْرهم إليه.

فإذا حقَّق العبد ذلك علمًا ومعرفة، وباشَرَ قلبه حالًا، لم يجد بُدًّا من اعتماد قلبه على الحق وَحْدَهُ، وثقتِهِ به، وسكونه إليه، وطمأنينته به وحده لا شريك له؛ وذلك لعلمه أن حاجاته، وفاقاته، وضروراته، وجميع مصالحه، كلُّها بيده وحده، لا بيد غيره.

ولذلك: فإنه يستحيل أن يحصُلَ تحقيقُ التوكُّل حتى يُؤمِن العبد بكمال ربوبيَّة الله تبارك وتعالى؛ ولذلك نَجِدُ في الآيات كثيرًا من الربط بين التوكُّل والإيمان بالربوبيَّة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة: ١٠]؛ فالضرُّ والنفعُ الذي يلحق الإنسان

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٦٨).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).

في هذا الكون إنما هو بيد الله؛ فكان حق المخلوق أن يتوكَّل على الله وحده، ولا يتوكَّل على أحدٍ سواه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].

فإذا تحقَّق العبد أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله ﷻ وقُدْرَتِه، وأن الخلق لا يَملِكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، وأن جميع النِّعَم من الله ﷻ، وأنه لا يَقدِر أن يأتي بها سواه، وإذا جاءت، لا يَقدِرُ على رفعها غيره؛ فلا يأتي بالحَسَنات إلا هو، ولا يدفع السَّيِّئات إلا هو.

فعندئذٍ: يَنقطِع طلب القلب للمعونة من المخلوقين، ويطلُبُ ذلك من الله وحده: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس: ١٠٧].

وبهذا يصير توكُّله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده لا شريك له[(١)].

والتوكُّل ينشأ من هذَيْن الأمرَيْن: من جهة كون الأمر بيد الله وإليه، ومِنْ جهة فقر العبد، وعدَمِ مُلْكِه شيئًا البتَّة[(٢)].

ومِن شأن الإنسان: أنه يتضرَّر من كل شيء يأخذ منه فوق حاجته، أو إذا أعطاه أكثر مِن قَدْره، وهذه سُنَّةُ الله ﷻ في هذا الخلق؛ فهذه الشمس يحتاج إليها الإنسان، فلو أنه جلَسَ تحتها قدرًا زائدًا، فإنه يتضرَّر مِن ذلك، وهذا الطعام إذا أكَلَ منه فوق حاجته، تضرَّر من ذلك، وهكذا إذا تعلَّق قلبه وجوارحه بالدنيا، وصار اشتغاله بدنياه فوق القدر المحتاج إليه، فإنَّ ذلك يكون على حساب عبوديَّته لله ﷻ، ومحبَّتِه له، وتفريغ قلبه لله تبارك وتعالى.

ثم هو يعذَّب قلبه بما تعلَّق به من أمور الدنيا إنْ وجَدَها أو فقَدَها، فيحصُلُ له من الألم أعظم مما يحصُلُ له من اللذة؛ وهذا يَعرِفه مَن تعلَّق قلبه بغير الله ﷻ، فالذي يتعلق قلبه بامرأةٍ، يجد من الألم والحَسْرة عند فراقها أضعاف ما يجده بالتلذُّذ عند الحديث معها أو رؤيتها ونحو ذلك، والذي تعلَّق قلبه بالدِّرْهَم والدينار، فهو بقدر ما

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٨٩) (١٣/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣) (١٤/ ٣٤١)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٩).

يتلذَّذ بذلك، فإنه يَشْقَى به ويتعذَّب؛ فهو مشغول الفكر؛ كيف يزيده؟! وكيف يَحُوطُهُ ويحفظه؟!

وهذا أمرٌ مشاهَد معلوم، وقد أخبر الله ﷻ عن حال هؤلاء المخذولين؛ فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]، وقد قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ـ وهو إمام الحُنفاء ـ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فالحاصل: أن صلاح العبد وصلاح قلبه وحاله في استعانتِهِ بربِّه ومليكه وخالقه ﷻ في كل ما أهمَّه من أمر الدنيا والآخرة[١].

والثالث: توحيد الأسماء والصفات؛ فإن مَعرِفةَ الربِّ ﷻ معرفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته، أساسٌ لا بُدَّ منه في تحقيق التوكُّل، والآيات التي تَربط بين التوكُّل والأسماء والصفات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢١٩]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٦١].

«فالتوكُّل من أعمِّ المقامات تعلُّقًا بأسماء الله ﷻ وصفاته؛ فإن له تعلُّقًا باسم الغفَّار والتوَّاب، والعفوِّ والرؤوف، والرحيم والفتَّاح، والوهَّاب والرَّزَّاق، والمُعْطِي والمُحْسِن، والمُعِزِّ والمُذِلّ، والخافض الرافع، والمانع؛ مِن جهة توكُّله عليه في إذلال أعداء دِينه وخَفْضِهم، ومنعِهم من أسباب النصر.

وله تعلُّق بأسباب القُدْرة والإرادة.

وله تعلُّق عامٌّ بجميع الأسماء الحُسْنى؛ ولهذا فسَّره مَن فسَّره من الأئمة بأنه: «المَعرِفة بالله ﷻ»، وإنما أراد: أنه بحسَب معرفة العبد يصحُّ له مقام التوكُّل، وكلما كان العبد بالله أعرَف، كان توكُّله عليه أقوى»[٢]؛ فإنه لا يُمكِن أن يتوكَّل على الله في تصريف أموره مَن لم يَعرِفْ أنه قويٌّ قادر، ولا يُمكِن أن يتوكَّل عليه في الرزق إلا مَن عَلِمَ أنه هو الرزَّاق، ولا يمكن أن يتوكَّل عليه في النصر إلا مَن علم أنه هو النصير،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨ ـ ٢٩)، و«طريق الهجرتين» (١/ ١٢٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٥)؛ بتصرف.

وأن مقاليد الأمور تحت قَبْضَته، ونواصي الخلق بيده؛ يتصرَّف فيهم كيف يشاء.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وإذا تجلَّى الله عَزَّ وَجَلَّ بصفات الكفاية والحَسْب، والقيامِ بمصالح العباد، انبعَثَ من العبد قوَّة التوكُّل عليه، والتفويض إليه، والرضا به، وما في كلِّ ما يجريه على عبده ويقيمه مما يَرضَى به هو سبحانه.

والتوكُّل: معنًى يَلتئِمُ مِن علم العبد بكفاية الله، وحُسْنِ اختياره لعبده، وثقتِهِ به، ورضاه بما يفعله ويختاره له»(١).

كما نَقَلَ عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة؛ أنه قال: «لا يصحُّ التوكُّل ولا يُتصوَّر من فيلسوف، ولا مِن القدريَّة النفاة، القائلين بأنه يكون في مُلْكِهِ ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضًا من الجهميَّة النفاة لصفات الربِّ جَلَّ جَلَالُهُ، ولا يستقيم التوكُّلُ إلا مِن أهل الإثبات.

فأيُّ توكُّل لمن يَعتقِدُ أن اللهَ لا يَعلَمُ جزئيَّات العالَم سُفلِيِّهِ وعُلوِيِّه، ولا هو فاعلٌ باختياره، ولا له إرادة ومشيئة، ولا يقوم به صفة؟! فكُلُّ مَن كان بالله وصفاته أعلَمَ وأعرَف، كان توكُّله أصحَّ وأقوى»(٢).

وقال ابن قُدَامة رَحِمَهُ اللهُ: «التوكُّل: عبارة عن اعتماد القلب على الموكَّل، ولا يتوكَّلُ الإنسان على غيره إلا إذا اعتقَدَ فيه أشياء: الشَّفَقة، والقوَّة، والهداية.

فإذا عَرَفْتَ هذا، فقِسْ عليه التوكُّل على الله سبحانه، وإذا ثبَتَ في نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقَدتَّ مع ذلك أنه تامُّ العلم والقُدْرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء عِلْمِه عِلْم، ولا وراء رحمته رحمة، اتَّكَلَ قلبُك عليه وحده لا مَحَالة، ولم يَلتفِتْ إلى غيره بوجه»(٣).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «عِلْمُ العبد بتفرُّد الربِّ تعالى بالضر والنفع، والعَطَاء والمَنْع، والخَلْقِ والرَّزْق، والإحياء والإماتة، يُثمِرُ له عبوديةَ التوكُّلِ عليه باطنًا، ولوازمَ التوكُّلِ وثمراتِهِ ظاهرًا»(٤).

ثالثًا: الثقة بالله عَزَّ وَجَلَّ، وحُسْنُ الظنِّ به؛ ومِن ثَمَّ التفويضُ له؛ فالإنسان الذي لا يثق بكفاية الله عَزَّ وَجَلَّ كيف يتوَكَّل عليه؟! والإنسان الذي يُسِيء الظن بربه تبارك وتعالى كيف يتوكَّل عليه؟! وكيف يفوِّضُ أمره إليه؟!

والثقة ـ كما قال صاحب «منازل السائرين»(٥) ـ: «سوادُ عَيْنِ التوكُّل، ونقطةُ دائرة التفويض، وسويداءُ قلب التسليم».

---

(١) «الفوائد» (ص٩٩)؛ باختصار وتصرف.
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٨).
(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (٤٢٠ ـ ٤٢١).
(٤) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥١٠).
(٥) انظر: «منازل السائرين» (ص٤٦).

وصدَّر الباب بقوله تعالى لأم موسى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص: ٧]؛ فإنَّ فِعْلَها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى؛ إذْ لولا كمال ثِقَتِها بربها، لما أَلْقَتْ بوَلَدِها، وفِلْذةِ كبدها في تيَّار الماء، تتلاعب به أمواجُهُ وجِرْياتُهُ إلى حيث ينتهي أو يَقِف.

ومراده: أن الثقة خلاصة التوكُّل ولبُّه؛ كما أن سواد العين أشرف ما في العين...

وقد تقدَّم أن كثيرًا من الناس: يفسِّرُ التوكُّل بالثقة، ويجعله حقيقتها، ومنهم: من يفسِّره بالتفويض، ومنهم: من يفسِّره بالتسليم.

فعلمتَ أن مقام التوكُّل يجمع ذلك كله.

فكأنَّ الثقة عند الشيخ هي رُوحٌ، والتوكُّل كالبدن الحامل لها، ونسبَتُها إلى التوكُّل كنسبة الإحسان إلى الإيمان، والله أعلم»[١].

وقد قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ مِن توكُّلِ العبد أن يكون الله هو ثِقَتَهُ»[٢].

وقيل لِسَلَمةَ بنِ دينار: ما مالُك؟ قال: «خيرُ مالي: ثقتي بالله تعالى، وإياسي مما في أيدي الناس»[٣].

ويستحيل أن يَتِمَّ توكُّل العبد على الله عَزَّ وَجَلَّ، ويحصُلَ له مطلوبه في هذا الباب، إلَّا بتحقيق **أمرَيْن**:

الأول: حُسْنُ الظَّنِّ بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ فعلى قدر حُسْنِ ظنِّ العبد بربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكون توكُّله عليه، وأما مَن ساءَتْ ظنونه بربِّه، فإنه لا يمكن أن يفوِّض أمره إليه[٤].

وقد سُئِلَ عبد الله بن داود الخُرَيْبِيُّ عن التوكُّل؟ فقال: «أرى التوكُّل حُسْنَ الظنِّ بالله عَزَّ وَجَلَّ»[٥].

وقال إبراهيم بن شَيْبان: «حُسْنُ الظنِّ بالله: هو اليأس عن كل شيء سوى الله عَزَّ وَجَلَّ»[٦].

وسُئِل الحارث: ما الذي يقوِّي المتوكِّل؟ قال: «ثلاث خصال:

الأُولى منها: حُسْن الظنِّ بالله.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤)؛ بتصرُّف.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (١٨٩).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣١)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٤٠)؛ واللفظ له.
(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٢١).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٢١٤)؛ واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/ ٣٢).
(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٤٨).

والثانية: نفي التُّهَم عن الله.

والثالثة: الرضا عن الله تعالى فيما جرى به التدبير لتأخير الأوقات وتعجيلها»[(١)].

فإذا تحقَّقت هذه الثقة، مع حُسْنِ الظنِّ، نتَجَ عن ذلك «اعتمادُ القلب على المولى ﷻ؛ فيستنِدُ إليه، ويسكُنُ إليه؛ بحيث لا يبقى فيه اضطرابٌ من تشويش الأسباب، ولا سكونٌ إليها، بل يَخلَعُ السكون إليها من قلبه، ويُلبِسُهُ السكون إلى سببها، وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرِبُ قلبه ويَخفِق»[(٢)].

وقد شبَّه هذا الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ**؛ فقال:** «فحاله حال مَن خرَجَ عليه عدو عظيم لا طاقة له به، فرأى حصنًا مفتوحًا، فأدخله ربه إليه، وأغلَقَ عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوَّه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوِّه في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك: مَن أعطاه مَلِكٌ درهمًا، فسُرِقَ منه، فقال له المَلِك: عندي أضعافه، فلا تَهتَمّ، متى جئتَ إليَّ، أعطيتُكَ مِن خزائني أضعافه، فإذا علم صحة قول المَلِك، ووَثِقَ به، واطمأنَّ إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك، لم يَحْزُنْه فواته.

وقد مُثِّلَ ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتمادِهِ وسكونِهِ وطمأنينتِهِ بثدي أُمِّه، لا يَعرِفُ غيره، وليس في قلبه التفاتٌ إلى غيره... كذلك المتوكِّل لا يأوي إلَّا إلى ربِّه سبحانه»[(٣)].

«فلا بُدَّ للعبد أن يشهد دائمًا فَقْرَهُ إلى الله، وحاجته في أن يكون معبودًا له، وأن يكون مُعِينًا له»[(٤)].

«لا يستشرِفُ إلى المخلوق؛ فإن «الحُرَّ عبدٌ ما طَمِع، والعبدُ حرٌّ ما قَنِع»[(٥)]، وقد قيل:

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي ....[(٦)]

فَكَرِهَ أن يُتبِعَ نفسَهُ ما استشرَفَتْ له؛ لئلَّا يبقى في القلب فَقْرٌ وطمعٌ إلى المخلوق؛ فإنَّه خلاف التوكُّل المأمور به، وخلاف غنى النَّفْس»[(٧)].

ومعلوم: «أن النفوس تَعلَم فَقْرَها إلى خالقها، وتَذِلُّ لمن افتقرَتْ إليه، وغناه من

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٠٤).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠ ـ ١٢١)؛ بتصرف.
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢١).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ٥٦).
(٥) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٩٩)، عن بُنَان الحمَّال.
(٦) «ديوان أبي العتاهية» (ص١٦٨).
(٧) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٢٩).

الصَّمَديَّة التي انفرَدَ بها؛ فإنه يسأله مَن في السمٰوات والأرض، وهو شهود الربوبيَّة بالاستعانة والتوكُّل، والدعاء والسؤال.

ثم هذا لا يكفيها حتى تَعلَمَ ما يُصلِحُها من العلم والعمل؛ وذلك هو عبادتُهُ والإنابة إليه؛ فإن العبد إنما خُلِقَ لعبادة ربه؛ فصلاحُهُ وكماله ولَذَّته، وفرحُهُ وسروره، في أن يعبُدَ ربه، ويُنِيب إليه؛ وذلك قَدْرٌ زائد على مسألته والافتقار إليه؛ فإنَّ جميع الكائنات حادثة بمشيئته، قائمة بقدرته وكلمته، محتاجة إليه، فقيرة إليه، مسلِّمة له طوعًا وكرهًا.

فإذا شَهِدَ العبد ذلك، وأسلَمَ له وخضع، فقد آمَنَ بربوبيَّته، ورأى حاجته وفَقْرَهُ إليه، [و]صار سائلًا له، متوكِّلًا عليه، مستعينًا به؛ إما بحالِهِ، أو بقالِهِ»[(١)].

والثاني: إلقاء الأمور كلِّها إلى الله تعالى، مع فعل الأسباب؛ وهذا هو التفويض، وهو رُوحُ التوكُّل وحقيقتُه.

فيكون قلبُهُ مستسلِمًا لله ﷻ، تنجذِبُ دواعيه إليه؛ فلا يكون في قلبه منازَعة لله تبارك وتعالى، بل يكون كحال الصبيِّ الصغير مع أبيه، فهو يَثِقُ به وبوَلَايته وحُسْنِ تدبيره؛ فيرى أن تدبير والده خيرٌ له من تدبيره هو، وأن ذلك أصلَحُ وأرفَقُ به؛ فلا يجد له أصلح من تفويضه أمورَهُ كلَّها إلى أبيه، وراحته من حملِ كُلَفِها وثِقَلِ حَمْلِها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم مَن فوَّض إليه، وقدرتِهِ وشَفَقته[(٢)].

وبهذا نعلم: أن التوكُّل يجمع مقام التفويض والاستعانة والرِّضا، وما إلى ذلك من المعاني التي ذُكِرَتْ.

رابعًا: الإيمان الراسخ بالقضاء والقدر؛ فإن ذلك يُثمِرُ التوكُّل لا محالة[(٣)].

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ قال: كنتُ خَلْفَ رسولِ الله ﷺ يومًا، فقال: «**يَا غُلَامُ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ؛ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[(٤)].

فما هو مقدَّرٌ حاصلٌ لا محالةَ، والإنسانُ قد كُتِبَ رِزْقُهُ وأجلُهُ وعمله، وشَقِيٌّ أم سعيد، وهو في بطن أُمِّه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٢).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٢).
(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٨).
(٤) تقدم تخريجه.

وكذلك قدَّر الله ﷻ مقادير الخلق قبل أن يخلُقَ السمٰوات والأرض بخمسين ألفَ سَنَة، وكان عرشُهُ على الماء.

أفلا يعقل ذلك أولئك الذين تروح نفوسُهم وتجيء كالرِّيشَة في مَهَبِّ الريح؛ خوفًا وقلقًا على أرزاقهم، أو على صِحَّة أبدانهم؛ فإذا أصاب الواحدَ منهم حاجةٌ وفَقْر، أو أصابه مرَض، اجتمَعَتْ عليه هموم الدنيا، وأظلَمَتِ الدنيا في وجهه، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: جاء سائلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فإذا تَمْرةٌ عائرة، فأعطاه إيَّاها، وقال النبي ﷺ: «**خُذْهَا لَوْ لَمْ تَأْتِهَا، لَأَتَتْكَ**»(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «**إِنَّ الرِّزْقَ يَطْلُبُ الْعَبْدَ، كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ**»(٢).

قال البيهقي رحمه الله **مفسِّرًا له**: «والمراد بهذا ـ والله تعالى أعلم ـ: أن ما قُدِّرَ له من الرِّزْقِ يأتيه؛ فلْيَثِقْ به، ولا يجاوزِ الحَدَّ في طلبه»(٣).

فالإنسان سيأتيه ما كَتَبَهُ الله ﷻ له، ولا داعي للجوءِ إلى الحرام والطُّرُقِ المشتبِهة في أنواع المعاملات المالية، وقد جاء عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ؛ فَلَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، وَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»(٤).

وقال أبو الدَّرْداء رضي الله عنه: «لو أنَّ رَجُلًا هرَبَ مِن رزقِهِ كهَرَبِهِ من الموت، لَأَدرَكَهُ رِزْقُهُ كما يُدرِكُهُ الموت»(٥).

وقال ابن حِبَّانَ رحمه الله: «العاقلُ يَعلَمُ أن الأرزاق قد فُرِغَ منها، وتضمَّنها العليُّ الوفيُّ على أن يوفِّرها على عباده في وقت حاجتهم إليها»(٦).

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٢٦٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٢٤٠)؛ واللفظ له، وصحَّحه المنذري، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٠٥)، و«ظلال الجنة» (٢٦٥).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٢٣٨)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٢٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٨٦)، وصوَّب وقفه الدارقطني في «العلل» (٦/ ٢٢٤)، والبيهقي في «الشعب» (١١٤٨)، وصحَّحه مرفوعًا المنذري في «الترغيب» (٢/ ٥٣٥)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٢).

(٣) «شعب الإيمان» (٣/ ١٣٠).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١١٤٨). وأخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» (٥٩)، والبيهقي في «الشعب» (١١٤٩)؛ من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بنحوه.

(٦) «روضة العقلاء» (ص١٥٥).

وقال الفُضَيْل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «ما اهتمَمْتُ لرزقٍ أبدًا»[(١)].

وقال أبو عثمان الحِيري: «يا عبد الله، في ماذا تُتعِبُ قلبَك، وتنازعُ إخوانَك... وتَعمَلُ في هَلَكة حَسَناتك بالحَسَد لمن هو فوقك؛ كأنَّك لم تُؤمِن بمن أخبَرَ أنه يُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء، ويؤتي الملك مَن يشاء، ويَنزِع الملك ممن يشاء؛ فاستعمِلِ العلم في ظاهرك إنْ كنتَ تاجرًا أو كاسبًا أو زارعًا، وأَجمِلْ في الطلب، واترُكِ الحرامَ والشُّبُهاتِ جميعًا؛ فإنَّ نَفْسًا لن تموت حتى تستوفي رِزْقَها وحظَّها من عِزِّها ورياستها ورزقها، ولو هرَبَ العبد من رزقه، لأدركَهُ رزقه كما لو فَرَّ مِن الموت»[(٢)].

وقال رجل لمعروف الكَرْخي: أَوصِني، قال: «توكَّلْ على الله عَزَّ وَجَلَّ؛ حتى يكونَ جليسَكَ وأنيسَكَ وموضعَ شكواك، وأَكْثِرْ ذكرَ الموت؛ حتى لا يكونَ لك جليس غيره، واعلَمْ: أن الشفاء لِمَا نزَلَ بك كتمانُه، وأن الناس لا يَنفَعُونك ولا يَضُرُّونك، ولا يُعطُونك ولا يَمنَعُونك»[(٣)].

خامسًا: تدبُّر القرآن؛ فالقرآن فيه من المواعظ والتذكير، وما أعلَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ به العبادَ مِن معاني أسمائه وصفاته، وقوَّته وقدرته، ما يربِّي في قلوبهم المحبَّة والمهابة، والإجلال والتعظيم.

يقول عامر بن عبد قيس رَحِمَهُ اللهُ: «ثلاثُ آياتٍ في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، اكتفَيْتُ بهنَّ عن جميع الخلائق:

أولهن: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

والآية الثانية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢].

والثالثة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦]»[(٤)].

ويُحكَى عن ابن بَابْشَاذَ النحويِّ؛ أنه كان يومًا في سَطْح جامع مصر، وهو يأكل شيئًا، وعنده ناس، فحضَرَهم قِطٌّ، فرمَوْا له لُقْمة، فأخَذَها في فيه، وغاب عنهم، ثم عاد إليهم، فرمَوْا له شيئًا آخر، ففعَلَ كذلك، وتردَّد مرارًا كثيرة، وهم يرمون له، وهو

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» (١٠٦). (٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٩).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٣٧)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٦٠).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٦٥).

يأخُذُه، ويَغِيبُ به، ثم يعود من فَوْره، حتى عَجِبوا منه، وعَلِموا أن مثل هذا الطعام لا يأكُلُهُ وحده لكثرتِهِ، فلما استرابوا حاله، تَبِعوه، فوجدوه يَرْقَى إلى حائط في سطح الجامع، ثم ينزل إلى موضع خال. . . وفيه قِطٌّ آخر أَعْمَى، وكل ما يأخذه من الطعام يَحمِله إلى ذلك القِطّ، ويضعه بين يديه، وهو يأكله، فعَجِبوا من تلك الحال.

فقال ابن بَابْشَاذ: «إذا كان هذا حيوانًا أخرَسَ، قد سَخَّرَ الله ﷻ له هذا القِطَّ، وهو يقوم بكفايته، ولم يَحْرِمْهُ الرِّزْق، فكيف يضيِّعُ مثلي؟!»(١).

وعن أبي قُدَامة الرَّمْلي؛ قال: قرأ رجل هذه الآية: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨]، فأقبلَ على سليمان الخَوَّاص، فقال: «يا أبا قُدَامةَ، ما ينبغي لعبدٍ بعد هذه الآيةِ أن يَلجَأَ لأحدٍ غيرِ اللهِ في أمرِه»(٢).

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إن أشد آية في القرآن تفويضًا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٣]»(٣).

سادسًا: أن يَعلَم العبد أن رِزْقَهُ لا يأكُلُهُ غيره:

قيل لحاتم الأصمّ: عَلَامَ بَنَيْتَ أمرَكَ هذا من التوكُّل؟ قال: «على أربع خلالٍ: عَلِمْتُ أن رزقي لا يأكله غيري؛ فلستُ أهتَمُّ له، وعَلِمْتُ أن عملي لا يعمله غيري؛ فأنا مشغولٌ به، وعَلِمْتُ أن الموت يأتيني بغتةً؛ فأنا أُبادِره، وعَلِمْتُ أني بعَيْن الله في كل حال؛ فأنا مُسْتَحْيي منه»(٤).

وقيل لحاتم أيضًا: «مِن أين تأكُل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: ٧]»(٥).

وقال سَلَمة بن دينار: «وجدتُّ الدنيا شيئَيْن: فشيءٌ منها هو لي؛ فلن أعجِّلَهُ قبل أجله، ولو طلبتُهُ بقوَّة أهل السمٰوات والأرض، وشيءٌ منها هو لغيري؛ فذلك ما لم أنله فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي، فيُمنَعُ الذي لي مِن غيري، كما يُمنَعُ الذي

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٥١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٣٦)، و«القناعة والعفاف» (١٧٥)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٧٢/ ٢٤٩).

(٣) أخرجه عبد الرزَّاق (٦٠٠٢)، والطبراني (٩/ ١٣٤) رقم (٨٦٦١)، وابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٥٠)؛ واللفظ له، وابن جرير (٢٣/ ٤٨)؛ ومن طريق عبد الرزاق أخرجه الطبراني أيضًا (٩/ ١٣٣) رقم (٨٦٦٠).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٧٤).

لغيري مني؛ ففي أيِّ هذَيْنِ أُفْنِي عمري؟! ووجَدتُّ ما أُعطِيتُهُ في الدنيا شيئَيْن: فشيءٌ يأتي أجله قبل أجلي، فأُغلَبُ عليه، وشيءٌ يأتي أجلي قبل أجله، فأموت وأخلِّفُهُ لمن بعدي؛ ففي أيِّ هذَيْنِ أعصي ربي؟!»[(١)].

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ابنَ آدم! لا تَحمِلْ هَمَّ سَنَةٍ على يوم، كفى يومك بما فيه، فإنْ تكنِ السنة مِن عمرك، يأتِكَ الله فيها برزقك، وإلا تكنْ مِن عمرك، فأراك تطلُبُ ما ليس لك!»[(٢)].

ويقول أبو الصهباء بن أَشْيَم: «طلَبْتُ الرزقَ بمَظَانِّه، فأعياني إلا رزق يوم بيوم، فعَلِمْتُ أنه خير لي، وإنَّ امرأً جُعِلَ رزقه يومًا بيوم، فلم يعلم أنه خيرٌ له، لعاجزُ الرأي»[(٣)].

فهذا الكلام يقال للذين يَتهافَتُونَ على الدنيا، وإلَّا فإن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كانت أموال بني النَّضِير مما أفاء الله على رسوله ﷺ مما لم يُوجِفْ عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي ﷺ خاصَّة، وكان يُنفِق على أهله نَفَقةَ سَنَة، وما بَقِيَ يُجعَلُ في الكُرَاع عُدَّةً في سبيل الله»[(٤)].

وقال أبو سليمان الداراني: «إذا بلغ العبدُ غايةً من الزهد، أخرَجَهُ ذلك إلى التوكُّل»[(٥)].

وقال شُمَيْط بن عَجْلان: «إن المؤمن يقول لنفسه: إنما هي ثلاثة أيام؛ فقد مضى أمس بما فيه، وغدًا أملٌ لعلَّك لا تُدْرِكه، إنك إنْ كنت من أهل غد، فإنَّ غدًا يجيء برزق غدٍ، ودون غد يوم وليلة، تُختَرَمُ فيها أنفس كثيرة، ولعلَّك المختَرَمُ فيها، كفى كلَّ يوم همُّه»[(٦)].

وحُكِيَ أن رجلًا أعوَرَ خرَجَ يبتغي من فضل الله تعالى، فصَحِبَ رجلًا في بعض الطريق، فسأله عن مَخْرَجِهِ، فأخبَرَهُ خبَرَهُ، فقال له الرجل: أنا واللهِ، أخرجني الذي أخرَجَك، فانطلِقْ بنا إلى الله تعالى نلتمِسْ من فضله، فخرَجَا في جبال لبنان، يَؤُمَّانِ

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٤٢).
(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٦٥، ٩٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤١)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٢٩)؛ واللفظ له.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤١٩)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٤١).

بيت المَقدِس، فأتَيَا على بعض المنازل، فنزلا في قَصْرٍ خَرِب، فانطلَقَ أحدُهما ليأتي بطعام، فقال المتخلِّف منهما في الرَّحِيل[(١)]: ألقيتُ نَفْسِي، وجعلتُ أنظُرُ بناء ذلك القَصْرِ وهيئته وخَرَابَهُ بعد العمارة، وجعَلْتُ واللهِ أذكُرُ سفري، وتركي عيالي، فإذا أنا بلَوْح من رُخَام تجاهي في قِبْلَةِ حائط القَصْر، فيه كتابة، فاستَوَيْتُ؛ فإذا فيه:

لـمَّـا رَأَيْـتُـكَ جَـالِـسًـا مُـسْـتَـقْـبِـلِـي ... أَيْـقَـنْـتُ أَنَّـكَ لِـلْـهُـمـومِ قَـرِيـنُ
فَـافْـطَـنْ لَـهَـا وَتَـعَـرَّ مِـنْ أَثْـوَابِـهَـا ... إِنْ كَـانَ عِـنْـدَكَ بِـالْـقَـضَـاءِ يَـقِـيـنُ
هَـوِّنْ عَـلَـيْـكَ وَكُـنْ بِـرَبِّـكَ وَاثِـقًـا ... فَـأَخُـو الـتَّـوَكُّـلِ شَـأْنُـهُ الـتَّـهْـوِيـنُ
طَـرَحَ الْأَذَى عَـنْ نَـفْـسِـهِ فِـي رِزْقِـهِ ... لَـمَّـا تَـيَـقَّـنَ أَنَّـهُ مَـضْـمُـونُ[(٢)]

سابعًا: الدعاء؛ فكل مطلوب يطلُبُه الإنسان من حاجاته الدنيويَّة والأخرويَّة، يجب عليه فيه أن يلجأ إلى الله ﷻ وَحْدَهُ.

ومِن ذلك: الاستخارة؛ فهي: «توكُّلٌ على الله، وتفويضٌ إليه، واستقسامٌ بقدرتِهِ وعلمِهِ وحُسْنِ اختيارِهِ لعبده، وهي من لوازم الرضا به ربًّا، الذي لا يذوق طعم الإيمان مَن لم يكن كذلك، وإنْ رَضِيَ بالمقدور بعدها، فذلك عَلَامة سعادته»[(٣)].

وإذا لحقته الطِّيَرة، فإنه يقول كما قال كعبٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اللَّهُمَّ، لا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ، ولا خَيْرَ إلَّا خَيْرُكَ، ولا رَبَّ غَيْرُكَ، ولا حَوْلَ ولا قوَّة إلا بِكَ»؛ يقول كعب: «والذي نفسي بيدِهِ، إنَّها لَرَأْسُ التوكُّل، وكنزُ العبدِ في الجنَّة، ولا يَقُولَنَّ عبدٌ عند ذلك ثم يمضي إلا لم يَضُرَّهُ شيءٌ»[(٤)].

وبذلك يكون محقِّقًا لليقين الذي يقودُهُ ويفضي به إلى حقيقة التوكُّل، ويُثمِر له الاعتماد على الله ﷻ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾ [النمل: ٧٩]؛ «فالحقُّ هو اليقين... ومتى وصل اليقين إلى القلب، امتلأ القلبُ نُورًا وإشراقًا»[(٥)].

وكان طَلْق بن حَبِيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول في دعائه**: «أسأُلكَ خوف العَالِمينَ بك، وعِلْمَ الخائفين لك، وتوكُّلَ المؤمنين بك، ويقينَ المتوكِّلين عليك، وإنابةَ المُخبِتين إليك، وإخباتَ المنيبين إليك، وصبرَ الشاكرين لك، وشكرَ الصابرين لك، وإلحاقًا بالأحياء

(١) هكذا في المطبوع، ولعلها الرَّحْل.
(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفُّف» (١٢٢).
(٣) «زاد المعاد» (٢/٤٠٦).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٢١)، والبيهقي في «الشعب» (١١٣٧)؛ واللفظ له.
(٥) «مدارج السالكين» (٢/٣٩٨).

المرزوقين عندك»[١].

وقال عَوْن بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «بينما رجلٌ في بُسْتانٍ بمصرَ في فِتْنةِ ابن الزبير، مهمومًا حزينًا، ينكُتُ بشيء معه في الأرض، إذا شيخ له صاحب مِسْحَاة (فلاح)، فقال له: ما لي أراك مهمومًا حزينًا؟ فرفَعَ رأسه، فلما رآه كأنه ازدراه، فقال: لا شيء، فقال صاحبُ المِسْحَاة: أبالدنيا؟ فإنَّ الدنيا عَرَضٌ حاضِر، يأكل منه البَرُّ والفاجِر، والآخرةُ أجلٌ صادق، يحكُمُ فيها مَلِك قادر، يَفصِلُ بين الحقِّ والباطل...

فلما سمع ذلك منه؛ كأنه أعجبه، قال: فقال: اهتمامي لما فيه المسلمون، قال: فإنَّ الله سيُنجِيكَ بشَفَقتك على المسلمين، وسَلْ؛ فمَن ذا الذي سأل فلم يُعْطِه، ودعاه فلم يُجِبْه، وتوكَّل عليه فلم يَكْفِه، أو وَثِقَ به فلم يُنْجِه؟!»[٢].



(١) «المستَطْرَف» (١/ ٧٩)؛ بتصرُّف، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٣ ـ ٦٤).

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٧٨٤)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٤٤)، وابن أبي الدنيا في «الهواتف» (١٢١)، و«التوكُّل» (١٦)؛ واللفظ له.

ثَمَرات التوكُّل

والحديثُ عن ثمرات التوكُّل يحرِّك النفوس، ويَدفَعُها إلى التمسُّك بهذا الخُلُقِ الإيماني العظيم؛ وذلك أن معرِفة ثمرةِ العمل حافزٌ على فعله، والتحقُّق به؛ **فمن ثمرات التوكُّل:**

أولًا: أنه يَبعَثُ العبدَ على التزام حدود الله تعالى، ومجانَبة الحرام:

وذلك أن الإنسان إذا علم أنَّ رِزْقَهُ مقسوم، وأن ما كتَبَ الله ﷻ له كائنٌ لا محالة، وأنه مهما بذَلَ، ومهما جَدَّ واجتهَدَ، ومهما احتال على طلب المال والرزق، وما تَطمَحُ إليه نفسه، فإنه لا يأتيه إلا ما قدَّر الله ﷻ له، فيكون مفوِّضًا إلى الله ﷻ أمرَهُ كلَّه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ؛ فَلَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، وَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»[(١)].

فقوله ﷺ: «**اتَّقُوا اللهَ**»؛ أي: اطلبوا الرِّزْقَ من حِلِّه، ودعوا الحَرَام، وأَجمِلُوا في الطلب، ولا تتهافَتُوا على الدنيا، ولا تتكالَبُوا عليها، ولا تَذهَبْ أنفسُكم عليها حَسَرات.

فكلُّ عبدٍ مرزوقٌ لا محالة، وكل مرزوق له رزقه، قد قدَّره الله له وكَتَبه؛ فعلى كل مسلم أن يَتَّقِيَ الله في سعيه وكسبه.

ثانيًا: طمأنينة النَّفْس، وارتياح القلب، وطرد الهَمّ:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «لا أشرَحَ للصَّدْر، ولا أوسَعَ له ـ بعد الإيمان ـ مِن ثقته بالله، ورجائه له، وحُسْنِ ظنِّه به»[(٢)].

فإذا توكَّل العبد على ربِّه حقَّ التوكُّل، كفاه همَّه، وأراحه مما أهمَّه، وأنزَلَ عليه سكينته؛ فاطمأنَّ إلى حُكْمِهِ الدينيِّ الشرعي، واطمأنَّ إلى حُكْمِهِ الكَوْنيِّ القَدَري.

وعن سعيد بن أبي الحَسَن؛ قال: كنتُ عند ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إذْ أتاه رجلٌ، فقال: يا أبا عباس، إني إنسان إنما معيشتي من صَنْعة يدي، وإني أصنَعُ هذه التصاوير، فقال ابن عباس: لا أحدِّثك إلا ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول؛ سمعتُهُ يقول: «**مَنْ صَوَّرَ**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٧١).

صُورَةً، **فَإِنَّ اللهَ مُعذِّبُهُ حَتَّى يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيهَا أَبَدًا**»، فرَبَا الرجلُ رَبْوةً شديدة، واصْفَرَّ وجهه، فقال: وَيْحَكَ، إنْ أبيتَ إلا أنْ تَصنَع، فعليك بهذا الشَّجَر؛ كلُّ شيءٍ ليس فيه رُوح[١].

فهذا الضِّيقُ بالحكم الشرعي إنما يحصُلُ للعبد من قلة توكُّله.

وكذلك أيضًا: مَن ضاق بحكم الله الكوني لبلاءٍ أصابه، أو مرض فاجأه، أو مقدور وقع لبعض ولده؛ فتراه ضَيِّقَ الصدر، مهمومًا، يلازمه الحزن، ويظهر على وجهه، وفي حَرَكاته وسَكَناته، فيبقى كئيبًا حسيرًا، مع أن ذلك لا يقدِّم عنه شيئًا ولا يؤخِّره.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنه إذا اطمَأَنَّ إلى حُكْمه الديني، علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم، وهو ناصره وناصر أهله، وكافيهم ووليُّهم، وإذا اطمَأَنَّ إلى حُكْمه الكوني، علم أنه لن يُصِيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما يشاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فلا وجه للجَزَعِ والقَلَقِ إلا ضعف اليقين والإيمان؛ فإن المحذور والمَخُوف إنْ لم يقدَّرْ، فلا سبيلَ إلى وقوعه، وإن قُدِّرَ، فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أُبرِمَ تقديره، فلا جزع حينئذٍ؛ لا مما قدَّر الله، ولا مما لم يقدِّر»[٢].

والعبدُ سَرْعان ما يسقُطُ، ويتهالك، وتضعُفُ قُوَى قلبه، بكثرة تتابُع الهموم والآلام عليه.

قال شَقِيق البَلْخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكل واحد مقام؛ فمتوكِّل على ماله، ومتوكِّل على نفسه، ومتوكِّل على لسانه، ومتوكِّل على سَيْفه، ومتوكِّل على سلطنته، ومتوكِّل على الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فأمَّا المتوكِّل على الله عَزَّ وَجَلَّ، فقد وجَدَ الاسترواح؛ نوَّه الله به، ورفَعَ قدره، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وأمَّا من كان مستروِحًا إلى غيره، يُوشِكُ أن يُنقَطَعَ به فيشقى»[٣]؛ يَعجِز لسانه، وتضعُفُ قواه، وتذهب حيلته، ويموت ناصِره من الناس، ويَذهَب سلطانه، ثم بعد ذلك يبقى أَسِيفًا كَسِيفًا لا يستطيع جَلْبَ نفعٍ لنفسه، ولا دفعَ ضرٍّ عنها.

ثالثًا: ما يحصُلُ من كفاية الله عَزَّ وَجَلَّ للمتوكِّل عليه في أموره كلِّها:

والله عَزَّ وَجَلَّ **يقول**: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: كافيه.

قال الربيع بن خُثَيْم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ٢]؛

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)؛ واللفظ له، ومسلم (٢١١٠).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٥١٦).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٣٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ١٤٠ ـ ١٤١).

قال: «مِنْ كُلِّ شيءٍ ضاق على الناس»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولأنه رتَّب الحكم على الوَصْف المناسب له؛ فعُلِمَ أن توكُّله هو سبب كونه حَسْبًا له»(٢).

فالله عَزَّ وَجَلَّ: «حَسْبُ مَن توكَّل عليه، وكافي مَن لجَأَ إليه، وهو الذي يؤمِّنُ خوف الخائف، ويُجِيرُ المستجير، وهو نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير؛ فمَن تولَّاه، واستنصَرَ به، وتوكَّل عليه، وانقطع بكُلِّيَّتِهِ إليه: تولَّاه، وحَفِظه، وحرَسَه، وصانه، ومَن خافه واتَّقاه، أمَّنه مما يخاف ويَحذَر، وجلَبَ إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع»(٣).

فتأمَّل هذه الآية، وقِفْ عندها: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، و«انظُر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكِّل، ولم يجعله لغيره؛ وهو يَدُلُّ على أن التوكُّل أقوى السُّبُل عند الله، وأحبُّها إليه»(٤).

وقد قال بعض السلف: «جعَلَ الله تعالى لكل عمل جزاءً من جنسِه، وجعَلَ جزاء التوكُّل عليه نَفْسَ كفايته لعبده؛ فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر؛ كما قال في الأعمال، بل جعَلَ نفسه سبحانه كافيَ عبده المتوكِّل عليه، وحَسْبَهُ وواقيه، فلو توكَّل العبد على الله تعالى حقَّ توكُّله، وكادته السمٰوات والأرض ومَن فيهنَّ، لجعَلَ له مخرجًا من ذلك، وكفاه ونصره»(٥).

وفي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، اسْتَمَعَ الْإِذْنَ: مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخ فَيَنْفُخُ**»؛ فكأنَّ ذلك ثَقُلَ على أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لهم: «**قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا**»(٦)؛ فلا ملجأ للعبدِ من مخاوفه، وما أهمَّه من أمر دنياه وآخرته إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو حَسْبُهُ ونعمَ الوكيل، وكافيه وناصره إنْ هو توكَّل عليه، وأحسَنَ الظن به.

رابعًا: «أن التوكُّل من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضارّ:

فالعبد يَدفَع به ما لا يطيق مِن أذى الخلق وظُلْمهم وعدوانهم؛ وهو مِن أقوى

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٧)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٣٤)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٣/ ٤٤).

(٢) «جامع الرسائل» (١/ ٨٨).

(٣) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٦٣).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٨).

(٥) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٦٧).

(٦) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣)، وابن ماجه (٤٢٧٣)، وصحَّحه ابن حبان (٨٢٣)، والحاكم (٤/ ٥٥٩)، والألباني في «الصحيحة» (١٠٧٩)، وحسَّنه الترمذي، وابن كثير في «التفسير» (٢/ ١٧١)، وفي الباب: عن ابن عبَّاس، وأبي هريرة، وزيد بن أرقَم، وأنس، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

الأسباب في ذلك؛ فإن الله هو حَسْبُه؛ أي: كافيه، ومَن كان الله كافيَهُ ووافيَهُ، فلا مَطْمَع فيه لعدوِّه، ولا يضرُّه إلا أذًى لا بدَّ منه؛ كالحَرِّ والبرد، والجوع والعطش؛ كما قال الله ﷻ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، وأمَّا أن يضرَّه بما يبلُغُ منه مراده، فلا يكون أبدًا»[(١)].

والواقع خير شاهد على ذلك؛ فقد جاء في «الصحيح»؛ من حديث ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ»[(٢)].

فماذا كانت النتيجة؟

أمَّا إبراهيم عليه السلام، فقال الله ﷻ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠].

وأمَّا محمَّدٌ ﷺ وأصحابه، فقال الله عنهم: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤].

قال الحافظ ابن كَثِير رحمه الله: «لمَّا توكَّلُوا على الله، كفاهم ما أهمَّهم، وردَّ عنهم بأسَ مَن أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ممَّا أضمرَ لهم عدوُّهم، ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٧٤]»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «فعقَّب هذا الجزاءَ والحُكْمَ لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء، وهي تفيد السبب؛ فدلَّ ذلك على أن ذلك التوكُّل هو سبب هذا الانقلاب بنِعْمةٍ مِن الله وفضل»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: ٤٩]؛ أي: عزيزٌ لا يَذِلُّ مَنِ استجار به، ولا يضيعُ مَن لاذ بجَنَابه.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله: أن التوكُّلَ مِن أعظم الأسباب الباطنة التي تقوم بالعبد، وبها يحصُلُ جلبُ المنافع ودفعُ المضارّ[(٥)]؛ «فإذا كان سبحانه وصَفَ نفسه بأنه كفى به وكيلًا، عُلِمَ أنه يَفعَل بالمتوكِّل عليه ما لا يحتاج معه إلى غيره في جلب المنافع، ودفع المضار»[(٦)].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٦٦ ـ ٧٦٧)؛ بتصرُّف.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٧١).
(٤) «جامع الرسائل» (١/ ٩٠).
(٥) انظر: «جامع الرسائل» (١/ ٩٧).
(٦) «رسالة في تحقيق التوكُّل» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (٩٢).

خامسًا: أنه يُورِثُ محبَّة الله ﷻ للعبد:

فالله تبارك وتعالى قد وعَدَ المتوكِّلين عليه بالمحبَّة، ووعدُهُ واقعٌ لا محالةَ؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والمحبةُ: «هي المنزِلةُ التي فيها تنافَسَ المتنافسون، وإليها شخَصَ العاملون، وإلى عَلَمِها شمَّر السابقون، وعليها تنافَسَ المحبُّون، وبرَوْحِ نسيمها تروَّح العابدون؛ فهي قُوتُ القلوب، وغذاء الأرواح، وقرَّة العيون، وهي الحياة التي مَن حُرِمَها، فهو من جملة الأموات، والنُّور الذي مَن فقَدَهُ فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي مَن عُدِمَهُ حلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذَّة التي مَن لم يَظفَرْ بها فعيشه كله هُمُومٌ وآلام»(١).

ولذلك قال بعض العُلماء الحُكماء: «ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**»(٣).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله «المراد بالقَبُولِ... قَبُولُ القلوب له بالمحبَّة، والمَيْلِ إليه، والرضا عنه؛ ويؤخذ منه: أن محبَّة قلوب الناس علامة محبَّة الله»(٤).

سادسًا: أنه يُورِث قوَّة القلب وشجاعته وثباته:

فيكون صاحبه رابط الجأش قويًّا، يقوم بأمر الله ﷻ، لا يخاف في ذلك لَوْمة لائم؛ فالتوكُّل على الله تبارك وتعالى مِن أقوى الأسباب التي يحصُلُ بها ثباتُ القلب.

ولذلك نجد أن الأمر بالتوكُّل جاء مقرونًا بالإعراض عن الأعداء في بعض الآيات، وعدم الاكتراثِ بهم أو الخوفِ منهم؛ فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١]؛ كما قرَنَهُ تبارك وتعالى بالبراءة منهم في قوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء: ٢١٦، ٢١٧].

ولذلك وقَفَ الأنبياءُ عليهم السلام مَوقِفَ القوَّة، وثبَتُوا ثبات الجبال الراسخات أمام

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٦)؛ بتصرُّف يسير. (٢) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٧).
(٤) «فتح الباري» (١٠/٤٧٧).

أعدائهم، مع قِلَّةِ الأتباع والأنصار؛ لأنهم اتَّكَلُوا على ركن شديد، لا يُخذَلُ مَن لاذ به، ولا يُهزَمُ مَن كان ناصِرَه:

فهذا نُوحٌ عليه السلام، قصَّ الله عز وجل علينا خَبَرَه، فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١]؛ فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «فلولا أن تحقيقَهُ هذه الكلمة ـ وهو توكُّله على الله ـ يدفع ما تحدَّاهم به، ودعاهم إليه تعجيزًا لهم من مناجَزَتِه، لكان قد طلَبَ منهم أن يُهلِكوه؛ وهذا لا يجوز، وهذا طلب تعجيز لهم؛ فدَلَّ على أنه بتوكُّله على الله يُعجِزهم عما تحدَّاهم به»(١).

وهذا هُودٌ عليه السلام؛ قال الله تعالى عنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

يقول القُرْطُبي رحمه الله: «وهذا القولُ ـ مع كثرة الأعداء ـ يَدُلُّ على كمال الثقة بنَصْرِ الله تعالى، وهو مِن أعلام النبوَّة: أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾»(٢).

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «فهذا من أعظم الآيات: أن رجلًا واحدًا يخاطِبُ أمةً عظيمةً بهذا الخطاب، غيرَ جَزِعٍ ولا فَزِعٍ ولا خَوَّارٍ، بل واثق بما قاله، جازم به، قد أَشهَدَ الله أولًا على براءته مِن دِينهم ومما هم عليه، إشهادَ واثقٍ به، معتمِدٍ عليه، مُعلِمٍ لقومه: أنه وليُّه وناصره، وأنه غير مسلِّطهم عليه.

ثم أشهدهم ـ إشهادَ مجاهِرٍ لهم بالمخالَفة ـ: أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يُوالُون عليها، ويُعادُون، ويَبذُلُون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكَّد عليهم ذلك: بالاستهانة بهم واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يَجتمِعُون كلهم على كيدِه، وشفاءِ غيظهم منه، ثم يُعاجلونه ولا يُمهِلُونه، وفي ضمن ذلك: أنهم أضعَفُ وأعجَزُ وأقلُّ مِن ذلك، وأنكم لو رُمْتُمُوهُ، لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٩٦).
(٢) «تفسير القرطبي» (١١/ ١٤٣).

ثم قرَّر دعوته أحسن تقرير، وبيَّن أن ربه تعالى وربَّهم، الذي نواصيهم بيده؛ هو وليُّه ووكيله، القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا يخذُلُ مَن توكَّل عليه، وآمن به، ولا يُشمِتُ به أعداءَه»[(١)]؛ فكان هذا من دلائل نبوَّته وأعلامها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهم كانوا أكثَرَ وأقوى منه؛ فكانوا يُهلِكُونه لولا قوَّته بتوكُّله عليه؛ فإنَّ التوكُّل إن لم يعطه قوَّة، فهم أقوى منه»[(٢)].

وهذا خطيبُ الأنبياء شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

وقد سمَّى الله عَزَّ وَجَلَّ نبيَّه ﷺ بالمتوكِّل؛ كما في حديث عَطاء بن يَسَار؛ قال: لَقِيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قلتُ: أَخبِرْني عن صفةِ رسولِ الله ﷺ في التَّوْراة، قال: أَجلْ، واللهِ، إنه لموصوفٌ في التوراةِ ببعضِ صفتِهِ في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥]... أنت عبدي ورسولي، سمَّيْتُكَ المتوكِّلَ»[(٣)].

«فالقوَّة ـ كلُّ القوَّة ـ في التوكُّل على الله؛ كما قال بعض السلف: مَن سَرَّهُ أن يكون أقوى الناس، فليتوكَّلْ على الله»[(٤)].

فالقوَّة مضمونة للمتوكِّل، والكفايةُ والحَسْبُ والدفعُ عنه، وإنما ينقُصُ عليه من ذلك بقدر ما ينقُصُ من التقوى والتوكُّل؛ وإلا فمع تحقُّقه بهما لا بد أن يَجعَلَ الله له مخرجًا مِن كل ما ضاق على الناس، ويكونَ الله حَسْبَهُ وكافِيَه»[(٥)].

سابعًا: أنه يُورِثُ الصَّبْرَ والتحمُّل:

والله تبارك وتعالى قد قرَنَ بين الصَّبْر والتوكُّل في غير ما آية، وما ذاك إلا لأن الصبر والتوكُّل مِلَاكُ الأمور كلها.

يقول الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فما فات أحدًا شيءٌ من الخير إلا لعَدَم صبره،

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٦٥).
(٢) «جامع الرسائل» (١/ ٩٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢١٢٥).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣)، و«زاد المعاد» (٢/ ٣٣١)، ورُوِيَ مرفوعًا؛ وقد تقدم تخريجه.
(٥) «زاد المعاد» (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢).

وبذلِ جهده فيما أُرِيدَ منه، أو لعَدَم توكُّله واعتماده على الله»[١].

والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «ونصَّ على التوكُّل، وإنْ كان داخلًا في الصبر؛ لأنه يُحتاجُ إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يَتِمُّ إلا به»[٢].

فالإنسان مُحتاج إلى شيءٍ من تعزيز النَّفْس وتثبيتها وتسليتها؛ كما يَحتاج إلى شيء من التحمُّل الذي يقوِّيه على الثبات، والصبرِ على مكابدة الأمراض، وعلى مكابدة الأعداء، وعلى مكابدة البلاء بجميع صنوفه وصُوَره؛ وإلا فإنَّ الإنسان سَرْعانَ ما يَنفرِط صبرُه، وتضيق به نَفْسُه.

قد يصبر قليلًا ويتجلَّد أمام الناس، وقد يَحفَظُ لسانه وجوارحه رياءً، أو يَفعَلُ ذلك لئلا يَشمَتَ به عدوُّه؛ فهذا إن كان قلبه خاليًا من التوكُّل على الله عَزَّ وَجَلَّ حقيقة، فإنه لا يُمكِن أن يستمرَّ تحمُّله وثباته وصبره، فسَرْعانَ ما ينهار؛ ولذلك ترى الكثيرين يُبتَلَوْنَ بأنواع الأمراض النَّفْسية، وأعراضها؛ مِن الحزن والاكتئاب، وغيرِ ذلك مِن الأمور التي استَشْرَتْ وعمَّ ضَرَرُها في هذا العصر، وما ذلك إلا لقلَّة توكُّلهم على الله عَزَّ وَجَلَّ.

والمعصومُ: مَن عصَمَهُ الله تبارك وتعالى، والمحفوظُ: مَن حَفِظَه؛ ولهذا تنتشِر الأمراض في بلاد الكفر مع ما هم فيه من التمكين، ووسائل الراحة، والأخذ بأسباب القوَّة، ومع ذلك نجد الأمراض والهموم تَعصِف بهم وتجتاحهم، وتكثُرُ فيهم نسبة الانتحار.

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الـمَوْتَ شَافِيَا ... وَحَسْبُ الـمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا[٣]

فيتمنَّى الإنسان الموت؛ كما قال الشاعر البائس[٤]:

أَلَا مَوْتٌ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ ... فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
أَلَا رَحِمَ الـمُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ ... تَصَدَّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ

فيرى الكئيبُ الحزينُ الموتَ بغيةً وغايةً يسعى لها سعيها؛ وما ذلك إلا لضعف إيمانه، وسوء ظنِّه بربه، وخُلُوِّ قلبِهِ من التوكُّل عليه.

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٨٨٣). (٢) المصدر السابق (٣/ ١٣٢٢).
(٣) «ديوان المتنبِّي» (ص٧٤١)، مع «العَرْف الطَّيِّب».
(٤) وهو: الوزير المهلَّبي. انظر: «وفيات الأعيان» (٢/ ١٢٤)، و«شذرات الذهب» (٤/ ٢٧٤).

ثامنًا: أنه يُورِث النَّصْر والتمكين:

ولهذا قرَنَ الله ﷻ بين النصر والتوكُّل؛ فقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

مَن أرادَ النصر، فليتوكَّلْ على الله ﷻ، وما الظنُّ بعبدٍ يتوكَّلُ على المخلوقين طالبًا منهم النصر؟! كيف ينصُرُهُ الله ﷻ؟! إنَّ الخِذْلان ـ ولا شك ـ حليفه في كل أحواله!

وقال الله تعالى عن المؤمِنَيْنِ من بني إسرائيل؛ أنهما قالا لقومهما في قتال الجبَّارين: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: متى توكَّلْتُم على الله، واتَّبَعْتُمْ أمره، ووافَقْتم رسوله، نصَرَكُمُ الله على أعدائكم، وأيَّدكم، وظفَّركم بهم، ودخَلْتم البلدة التي كتبها الله لكم»[(١)].

وقال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي: «فإنَّ في التوكُّل على الله ـ وخصوصًا في هذا الموطن ـ تيسيرًا للأمر ونَصْرًا على الأعداء»[(٢)].

تاسعًا: أن التوكُّل يقوِّي العزيمة والثبات على الأمر:

ولذلك أمر الله ﷻ نبيَّه ﷺ إذا عزَمَ أن يتوكَّل على الله؛ فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكمالُ العبد بالعزيمة والثبات.

قال الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمَن لم يكن له عزيمة، فهو ناقص، ومَن كانت له عزيمة، ولكنْ لا ثباتَ له عليها، فهو ناقص، فإذا انضَمَّ الثبات إلى العزيمة، أثمَرَ كلَّ مقام شريف، وحالٍ كامل؛ ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد وابن حِبَّانَ في «صحيحه»: «**اللَّهُمَّ، إنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**»[(٣)]»[(٤)].

وقد جاء عن مسلم بن يَسَار رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أنه قال: «اعمَلْ عَمَلَ رجلٍ يعلم أنه لن يُنجِيَهُ إلا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٧).
(٢) «تفسير السعدي» (ص٤١٢).
(٣) أخرجه أحمد (١٧١١٤)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (١٣٠٣)؛ واللفظ له؛ من حديث شدَّاد بن أوس. والحديث ضعَّفه الترمذي، والنووي في «الأذكار» (ص١٤١)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٣٢٢)، وصحَّحه ابن حبان (١٩٧٤)، والحاكم (١/ ٥٠٨)، والألباني في «الصحيحة» (٣٢٢٨)، وهو ما انتهى إليه، وحسَّنه الحافظ في «نتائج الأفكار» (٣/ ٧٤ ـ ٧٧).
(٤) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٨).

عمله، وتوكَّلْ توكُّلَ رجلٍ يَعلَمُ أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له»[(١)].

والله ﷻ يقول مخاطِبًا نبيَّه ﷺ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة: ٥١].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو توكَّل العبدُ على الله حقَّ توكُّله في إزالة جَبَلٍ مِن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لَأَزَالَهُ»[(٢)].

عاشرًا: أنه يَقِيكَ بإذن الله ﷻ تسَلُّطَ الشيطان:

قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠]، وفي المراد بالسلطان هنا قولان:

القول الأول: أنه التسلُّطُ؛ **وفيه ثلاثة أقوال**:

١ ـ ليس له عليهم سلطانٌ بحال؛ لأن الله صرَفَ سلطانه عنهم بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [الحجر: ٤٢].

٢ ـ ليس له عليهم سلطان؛ لاستعاذَتِهم منه.

٣ ـ ليس له قدرةٌ على أن يَحمِلَهم على ذنب لا يُغْفَر؛ رُوِيَ ذلك عن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)].

القول الثاني: أنه الحُجَّة؛ فالمعنى: لا حُجَّةَ له على ما يدعوهم إليه مِن المعاصي[(٤)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة: ١٠]؛ فتذييلُ الآيةِ بالتوكُّل مشعِرٌ بحماية الله لعبده المؤمِن من أكبر أعدائه؛ وهو الشيطان.

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِاسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ قال: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ، وَكُفِيَ، وَوُقِيَ**»[(٥)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٨١).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ٣٥٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ٣٥٧)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم؛ كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٦)، عن مجاهد.

(٥) تقدم تخريجه.

حاديَ عشَرَ: أن التوكُّلَ من أعظم أسباب دَفْع السِّحْر والحسَد والعَيْن:

فقد عدَّد ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ الأسباب التي يَندفِع بها شر الحاسد والعائن، والساحِر والباغي؛ فقال في جملة ذلك: «السبب الرابع: **التوكُّل على الله**: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

والتوكُّل مِن أقوى الأسباب التي يَدفَع بها العبد ما لا يُطِيقُ مِن أذى الخَلْقِ وظُلْمهم وعُدْوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك... ومَن كان الله كافيَهُ وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوِّه، ولا يضرُّهُ إلا أذًى لا بد منه؛ كالحَرِّ والبرد، والجوع والعطش، وأمَّا أن يضرَّه بما يبلُغُ منه مراده، فلا يكون أبدًا»[(١)].

وهذا يعقوبُ عليه الصلاة والسلام؛ قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقد ذكَرَ كثير من المفسِّرين: أن ذلك بسبب المَخافةِ عليهم من العَيْن[(٢)]، ثم ذيَّل ذلك بتوكُّله على الله تبارك وتعالى؛ لأنه الكافي من كُلِّ حاسدٍ وعائن؛ فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف: ٦٧].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة: أن كثيرًا من المرضى يُشْفَوْنَ بلا تَداوٍ، ولا سيما أهلُ الوَبَرِ والقُرَى، بدعوةٍ مستجابة، أو قوَّةٍ للقلب وحسن التوكُّل[(٣)].

والأطبَّاء اليوم يقرِّرون أن نَفْس المريض وقوَّة قلبه من أعظم الأسباب في دفع المرض عنه، فإذا كان العبد ملتجِئًا إلى الله، واثقًا به، فإنَّ ذلك يقاوِمُ المرَضَ أعظَمَ مقاوَمة.

ثانيَ عشَرَ: أن التوكُّلَ من أسباب تحصيل الرِّزْق:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٖ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فعقَّب هذا الجزاءَ والحُكْمَ لذلك الوصفِ والعملِ بحرفِ الفاء، وهي تفيد السبب؛ فدَلَّ ذلك على أن ذلك التوكُّل هو سبَبُ هذا

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٦٦ ـ ٧٦٧).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ١٦٥ ـ ١٦٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢١٦٨).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٥٦٣).

الانقلاب بنعمةٍ مِن الله وفضل، وأنَّ هذا الجزاءَ جزاءٌ على ذلك العمل»[(١)].

والمعنى ـ كما قال ابن كَثِير ـ: «لما توكَّلوا على الله، كفاهم ما أهمَّهم، وردَّ عنهم بأس مَن أراد كيدَهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾، مما أضمرَ لهم عدوُّهم، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾»[(٢)].

ومما يَدُلُّ على أن التوكُّل على الله ﷻ من أعظم أسباب الرزق: ما جاء في حديث عمر رضي الله عنه: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[(٣)]، وقد قال ابن رجب رحمه الله عن هذا الحديث: «هذا الحديثُ أصلٌ في التوكُّل، وإنَّه من أعظم الأسباب التي يُستجلَبُ بها الرزق»[(٤)].

ثالثَ عشَرَ: أن التوكُّلَ يطرُدُ عن قلب العبد داءَ الكِبْر والعُجْب:

فهذه أمراض وآفات تقع في قلب الإنسان، وإنما يُدفَعُ ذلك بالتوكُّل، وتحقيقِ العبودية لله تبارك وتعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «وكثيرًا ما يَقرِنُ الناسُ بين الرياءِ والعُجْب؛ فالرياءُ: من باب الإشراك بالخلق، والعُجْبُ: من باب الإشراك بالنَّفْس؛ وهذا حالُ المستكبِر؛ فالمُرائِي لا يحقِّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والمُعجَبُ لا يحقِّق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، فمَن حقَّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، خرَجَ عن الرياء، ومَن حقَّق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، خرَجَ عن الإعجاب»[(٥)].

ولهذا قال ابن القيِّم رحمه الله: «إنَّ القلبَ يَعرِضُ له مَرَضانِ عظيمان، إنْ لم يَتدارَكْهما العبد، تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما: الرِّيَاءُ والكِبْر؛ فدواء الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾»[(٦)].

رابعَ عشَرَ: أنَّ التوكُّل يطرُدُ عن قلب العبد التطيُّرَ والأمراض القلبيَّة:

وقد مرَّ بنا حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ ـ ثلاثًا ـ وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**»[(٧)].

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٩٠)؛ وقد تقدَّم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٧١)؛ وقد تقدَّم هذا النقل.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص٨١١ ـ ٨١٢).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٧).

(٦) «مدارج السالكين» (١/ ٥٤).

(٧) تقدم تخريجه.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ قال: «إنْ مَضَيْتَ فمتوكِّل، وإنْ نَكَصْتَ فمتطيِّر»[(١)].

خامسَ عشَرَ: أنه يُورِث الرضا بالقضاء؛ وهذا من أعظم ثَمَرات التوكُّل:

ومَن فسَّر التوكُّل به، فإنَّما فسَّره بأجلِّ ثمراته، وأعظم فوائده؛ فإنه إذا توكَّل حق التوكُّل، رَضِيَ بما يفعله وكيله.

قال ابن رجب رحمه الله: «اعلَمْ: أن ثمرة التوكُّل: الرضا بالقضاء؛ فمَن وكَلَ أمورَهُ إلى الله، ورَضِيَ بما يقضيه له ويختاره، فقد حقَّق التوكُّلَ عليه»[(٢)].

وقد تقدَّم: أن المقدور يَكتنِفه أمران: التوكُّل قبله، والرِّضَا بعده؛ فمَن توكَّل على الله قبل الفعل، ورَضِيَ بالمَقضِيِّ له بعد الفعل، فقد قام بالعبوديَّة؛ وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «**اللَّهُمَّ، إنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ**»[(٣)]؛ فهذا توكُّل وتفويض، ثم قال في آخره بعد الطلب والسؤال: «**وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ**».

يقول ابن حِبَّانَ رحمه الله: «الواجب على العبد: أن يَعلَمَ أن السبب الذي يُدرِكُ به العاجزُ حاجتَهُ هو الذي يَحُولُ بين الحازم وبين مصادَفَته؛ فلا يجبُ أن يَحزَنَ العاقل لِمَا يهوى وليس بكائن، ولا لِمَا لا يهوى وهو لا محالةَ كائنٌ، فما كان من هذه الدنيا، أتى المرءَ مِن غير تعب فيه، وما كان عليه، لم يَدفَعْهُ بقوَّته، ولا يُدرِكُ بالطلبِ المحرومُ، كما لا يُحرَمُ بالقعودِ المرزوقُ، ولقد أحسَنَ الذي يقول:

يَنَالُ الغِنَى مَنْ لَيسَ يَسْعَى إِلَى الغِنَى ... ويُحْرَمُ مَنْ يَسْعَى لَهُ وَيُدَاوِمُ
وَمَا الْعَجْزُ يَحْرِمُهُ وَلَا الحِرْصُ جَالِبٌ ... وَمَا هُوَ إِلَّا حَظْوَةٌ وَمَقَاسِمُ»[(٤)]

يعني: أن الله يَحْبُوهُ به، ويتفضَّل به عليه، لا أنه يصيبه بحِرْصِهِ وكَدِّه.

وقال آخر[(٥)]:

وَرِزْقُ الخَلْقِ مَقْسُومٌ عَلَيْهِمْ ... مَقَادِيرٌ يُقَدِّرُهَا الجَلِيلُ
فَلَا ذُو المَالِ يُرْزَقُهُ بِعَقْلٍ ... وَلَا بِالمَالِ تُقْتَسَمُ العُقُولُ

فالإنسان لا يحصِّل المال بعَقْله، وقد تجد من أصحاب الأموال مَن لا عقلَ له؛ كما لا يستطيعون تحصيل العقول بهذه الأموال.

وقال آخر[(٦)]:

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٨٢٢).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «روضة العقلاء» (ص١٥٥ ـ ١٥٦).
(٥) المصدر السابق (ص١٥٦).
(٦) المصدر السابق (ص١٥٧).

فَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُنَالُ بِفِطْنَةٍ   وَفَضْلِ عُقُولٍ نِلْتُ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ
وَلَكِنَّمَا الْأَرْزَاقُ حَظٌّ وَقِسْمَةٌ   بِمُلْكِ مَلِيكٍ لَا بِحِيلَةِ طَالِبِ

سادسَ عشَرَ: أن التوكُّل سببٌ لدخول الجنة مِن غير حساب ولا عذاب:

وقد تقدَّم في حديث السبعين ألفًا الذين يدخُلُون الجنة بغير حساب؛ فوصفهم النبيُّ ﷺ بأنهم لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يتطيَّرون، ولا يَكْتَوُونَ، وعلى ربِّهم يتوكَّلون[(١)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون**»، يَحتمِلُ أن تكون هذه الجملة مفسِّرةً لما تقدَّم مِن ترك الاسترقاء والاكتواء والطِّيَرة، ويَحتمِلُ أن تكون من العامِّ بعد الخاصِّ؛ لأن صفة كل واحدة منها صفةٌ خاصَّة من التوكُّل، وهو أعمُّ من ذلك»[(٢)].

والثاني أقرَبُ إلى الصواب، والله أعلم.

سابعَ عشَرَ: أنه يُورِثُ صاحبه الغِنَى عن الخلق:

وهذه خَلَّةٌ شريفة، ومنِ افتقر إلى الناس ذَلّ، وذهَبَ ماء وجهه، واستثقله الناس، ومَن استغنى عنهم، واكتفى بالله، عَزَّ.

قال سليمان الخَوَّاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الغنيُّ حقَّ الغنى: مَن أسكَنَ قَلْبَهُ إلى الله مِن غناه يقينًا، ومِن معرفتِهِ توكُّلًا، ومِن عطائِهِ وقسمتِهِ رِضًا، فكذلك الغنيُّ حق الغنى، وإن أمسى طاويًا، وأصبح مُعْوِزًا»[(٣)].

يَجُولُ الْغِنَى وَالْعِزُّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ   لِيَسْتَوْطِنَا قَلْبَ امْرِئٍ إِنْ تَوَكَّلَا
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ كَانَ مَوْلَاهُ حَسْبَهُ   وَكَانَ لَهُ فِيمَا يُحَاوِلُ مَعْقِلَا
إِذَا رَضِيَتْ نَفْسِي بِمَقْدُورِ حَظِّهَا   تَعَالَتْ وَكَانَتْ أَفْضَلَ النَّاسِ مَنْزِلَا[(٤)]

فإن استطعت ألَّا تحتاج إلى أحد من المخلوقين، فافعل، ولن تستطيع ذلك إلا بالتوكُّل على الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد بيَّن الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعيِّنُ عقلًا وشَرْعًا؛ **وذلك من وجوه متعدِّدة، منها:**

١ ـ أن السؤال فيه بذلُ ماء الوجه، وذِلَّةٌ للسائل؛ وذلك لا يصلُحُ إلا لله تبارك وتعالى.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «فتح الباري» (١١/ ٤١٧).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٨)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٣٧)؛ واللفظ له.
(٤) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦).

٢ ـ أنَّ في سؤال الله عبوديَّةً عظيمة؛ ففيه إظهار الافتقار إليه، واعترافٌ بقُدْرَته على قضاء الحوائج.

٣ ـ أن الله يحبُّ أن يُسأَلَ، ويغضَبُ على مَن لا يسأله.

٤ ـ أن الله تعالى يأمُرُ عباده أن يسألوه؛ كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقد جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «**مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَها بِالنَّاسِ، لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ، فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ**»(١).

وقال يحيى بن مُعَاذ: «مَن طلَبَ الفضلَ مِن غير ذي الفضلِ، عَدِمَ، وإنَّ ذا الفضل هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]»(٢).

وفي الجملة: فالتوكُّلُ سبيلٌ لنَيْلِ كلِّ خيرٍ في العاجِل والآجِل.

وقد قال أبو سُلَيْمان الدَّاراني: «مَن وَثِقَ بالله في رِزْقه، زاد في حُسْنِ خُلُقه، وأعقَبَهُ الحِلْم، وسَخَتْ نفسُهُ في نفقته، وقَلَّتْ وساوسُهُ في صلاته»(٣).

وإذا ضَعُفَ توكُّل العبد، قلَّ سخاؤُهُ وكَرَمُه، وضاقت نفسه بالتصدُّق على الفقير، وإكرام الضيف، والبِرِّ بالمسلمين بمقدار ضَعْفِ توكُّله.

وتراه يخشى الفَقْر، ويَحزَنُ لنقصان ماله، ويَفرَحُ بكثرته وازدياده؛ حتى يصير في غاية الشُّحِّ والهَلَع.

قال ابن حِبَّان رحمه الله: «الواجب على العاقل: لزوم التوكُّل على مَن تكفَّل بالأرزاق؛ إذ التوكُّل هو نظام الإيمان، وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدِّي إلى نَفْيِ الفقر، ووجود الراحة.

وما توكَّل أحد على الله جلَّ وعلا مِن صحَّة قلبه، حتى كان الله جلَّ وعلا بما تضمَّن من الكفالةِ أوثَقَ عنده بما حَوَتْهُ يده؛ إلا لم يَكِلْهُ الله إلى عباده، وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب...

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٣٢٦)؛ واللفظ له، وصحَّحه الترمذي، والحاكم (١/ ٤٠٨)، والذهبي، وأحمد شاكر في «التعليق على المسند» (٣٨٦٩)، والألباني في «الصحيحة» (٢٧٨٧)؛ حيث صحَّحه بلفظ: «**بموتٍ عاجِلٍ، أو غِنًى عاجِلٍ**»، وحكم على ما سواها بالشذوذ، وحسَّنه البغوي في «شرح السُّنَّة» (٤١٠٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٥٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٧).

تَوَكَّل عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ أَرَدتَّ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْضِي وَيَقْدِرُ
مَتَى مَا يُرِدْ ذُو الْعَرْشِ أَمْرًا بِعَبْدِهِ يُصِبْهُ وَمَا لِلْعَبْدِ مَا يَتَخَيَّرُ
وَقَدْ يَهْلِكُ الْإِنْسَانُ مِنْ وَجْهِ أَمْنِهِ وَيَنْجُو بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ يَحْذَرُ»[(١)]

وقال **أبو حامد الغزالي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوكُّلُ: مَنزِلٌ مِن منازل الدِّين، ومقامٌ من مقامات المُوقِنين، بل هو مِن معالي درجات المقرَّبين... وأَعظِمْ بمقامٍ موسومٍ بمحبَّةِ الله تعالى صاحبَه، ومضمونٍ كفايةُ الله تعالى مُلابِسَه؛ فمَنِ الله تعالى حَسْبُهُ وكافِيه، ومُحِبُّهُ ومُراعِيه، فقد فاز الفوزَ العظيم؛ فإنَّ المحبوب لا يُعذَّب، ولا يُبعَد، ولا يُحجَب»[(٢)].

«فالأصل الجامع الذي تتفرَّع عنه الأفعال والعبادات هو التوكُّل على الله، وصدقُ الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، وهو خلاصة التفريد، ونهاية تحقيق التوحيد، الذي يُثْمِرُ كل مَقَام شريف؛ مِن المحبَّة، والخوف، والرجاء، والرِّضا به ربًّا وإلٰهًا، والرِّضا بقضائه، بل ربما أوصَلَ التوكُّلُ بالعبد إلى التلذُّذ بالبلاء، وعدَّه من النعماء؛ كما في حديث السبعين ألفًا الذين يدخُلُونَ الجنَّة بغير حساب ولا عذاب[(٣)]؛ فسبحان مَن يتفضَّلُ على مَن يشاء بما شاء، والله ذو الفضل العظيم»[(٤)].



---

(١) «روضة العقلاء» (١٥٣ ـ ١٥٤).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٤٣).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) ما بين الأقواس من «تيسير العزيز الحميد» (٨٤).

مِن أخبار أهل التوكُّل

وأول المتوكِّلين، وأعظمهم قَدْرًا فيه وفي كل فضيلة، وخيرهم: أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقد مَرَّ ذِكْرُ شيء من ذلك.

وقد كان لأصحاب النبيِّ ﷺ الحَظُّ الأَوْفَر منه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهم أُولُو التوكُّل حقًّا، وأكمل المتوكِّلين بعدهم: هو من اشتَمَّ رائحة توكُّلهم من مسيرة بعيدة، أو لَحِقَ أثرًا من غُبَارهم؛ فحالُ النبيِّ ﷺ وحالُ أصحابه مَحَكُّ الأحوال ومِيزَانُها؛ بها يُعلَمُ صحيحها من سقيمها؛ فإن هِمَمَهم كانت في التوكُّل أعلى من هِمَم مَن بعدهم؛ فإن توكُّلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يُعبَد الله في جميع البلاد، وأن يوحِّدَهُ جميع العباد، وأن تُشرِقَ شموس الدِّين الحق على قلوب العباد؛ فملؤوا بذلك التوكُّلِ القلوبَ هدًى وإيمانًا، وفتَحُوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان وهبَّت رياحُ رَوْحِ نَسَمات التوكُّل على قلوب أتباعهم فملأَتْها يقينًا وإيمانًا»[(١)].

وجاء مِن بعدهم مَنِ اقتدى بهم، فسلَكُوا سبيلهم، وانتهجوا نهجهم.

يقول أبو وائل رَحِمَهُ اللَّهُ: «خرَجْنا في ليلةٍ مَخُوفَة، فمررنا بأَجَمةٍ فيها رجل نائم، وقيَّد فرسه، فهي ترعى عند رأسه، فأيقظناه، فقلنا له: تنام في هذا المكان؟ قال: فرفَعَ رأسه، فقال: إني أستحيي مِن ذي العرش أن يَعلَمَ أني أخاف شيئًا دونه»[(٢)].

وقال الحكم بن عمر: «شهدتُّ عمر ـ يعني: ابن عبد العزيز ـ يقول لِحَرَسه: إنَّ بي عنكم غِنًى، كفى بالقدَرِ حاجزًا، وبالأجَلِ حارسًا، ولا أطرَحُكم مِن مراتبكم، ليجري لكم سنةً بعدي، مَن أقام منكم، فله عَشَرة دنانير، ومَن شاء، فلْيَلْحَقْ بأهله»[(٣)].

وأصاب محمد بن كعب القُرَظي مالًا، فقيل له: ادَّخِرْ لولَدِك مِن بعدك، قال: «لا، ولكنْ أَدَّخِرُ لِنَفْسِي عند ربي، وأَدَّخِرُ رَبِّي لولدي»[(٤)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٥)؛ وقد تقدَّم هذا النقل.

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٥٣٩)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٠١)، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٤١).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢١٨ ـ ٢١٩).

(٤) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٤٣٦)، وقد سقط من ط. الندوي؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/ ١٤٥).

وقال رَجَاء بن أبي سَلَمة: «قلت لحسَّان بن أبي سنان: أَمَا تحدِّثُك نفسُك بالفاقة؟ قال: بلى، فأقول لها: يا نَفْس، إذا كان ذلك، أَخَذْتِ بالمِسْحاة، فجلَسْتِ مع الفَعَلَة، فأصبتِ دانِقًا أو دانِقَيْنِ، فتعيشين به، فتَسْكُن»[(١)].

وقال عبد الله بن إدريس: «عَجِبتُ ممَّن ينقطِعُ إلى رجل، ويَدَعُ أن ينقطِعَ إلى مَن له السمٰوات والأرض»[(٢)].

وقال زُهَيْر بن نُعَيْم البابي: «ما أَقدِرُ أن أقول: إنِّي توكَّلْتُ على الله»[(٣)].

وقال أيضًا: «لا أعلم أني توكَّلْتُ على الله ساعةً قطُّ»[(٤)].

وأخبارُهم في هذا الباب كثيرة موفورة، وهم أهل التوكُّل الحقِّ حقًّا، وعليهم التعويل فيه، وليس التعويل على مَن أعرَضَ عن الأسباب، ولا على مَن قصَرَ توكُّله عليها؛ حتى يَجمَع بين الأخذِ بالأسبابِ وركونِ القلبِ إلى ربِّه واعتمادِه عليه، وحُسْنِ ظنِّه به.

هذا آخِرُ ما أردنا إيرادَهُ في الكلام على هذا الباب الشريف، والله أسأل أن يجعلنا من المتوكِّلين عليه؛ إنه سميع مجيب.



---

(١) أخرجه الفَسَوي في «تاريخه» (٢/ ٦٨ ـ ٦٩)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٢٦).
(٢) أخرجه الدِّينَوَري في «المجالسة» (٢٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٥١).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٤٩).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٤٨).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
* مقدِّمة	٥
مقدِّمة في بيان منزِلة القَلْب، وأهميَّة الأعمال القلبيَّة	١٣
توطئة	١٤
معنى القَلْبِ وحقيقتُه	١٥
منزِلة القلب	٢٢
الموازنة بين القلب والسمع والبصر	٢٥
مُصلِحاتُ القلب	٢٨
مُفسِداتُ القلب	٣٦
كثرة مُفسِدات القَلْب	٣٩
نتائج فَسَادِ القلب	٤١
المراد بأعمال القلوب	٤٤
أحكام الأعمال القلبيَّة مِن حيثُ الثوابُ والعقاب	٤٥
أهميَّة أعمال القلوب، والمفاضَلة بينها وبين أعمال الجوارح، وذِكْرُ تبعيَّة أعمال الجوارح لها، وارتباطِها بها	٤٦
لزوم العناية بأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأحوالُ الناس في ذلك	٥٨
تفاوتُ الناس وتفاضُلُهم في أعمال القلوب أشدُّ مِن تفاوُتِهم وتفاضُلهم في أعمال الجوارح	٥٩
التلازُمُ بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح	٦٠
أولًا: الإخلاص	٦٣
توطئة	٦٤
معنى الإخلاص وحقيقته	٦٥
الفَرْق بين الإخلاص والصِّدْق وبين الإخلاص والنُّصْح	٦٧

الموضوع | الصفحة

أهمِّيَّة الإخلاص ومنزلتُه ٧٠
الإخلاصُ في الكتابِ والسُّنَّةِ ٧٥
مراتِبُ الإخلاص ٧٧
صعوبةُ الإخلاص ٧٨
ثمراتُ الإخلاص وآثارُهُ السلوكيَّة ٨٤
الآثارُ المعجَّلةُ للإخلاص ٨٥
الآثارُ الأُخْرَويَّةُ للإخلاص ١٠٢
عاقبةُ النيَّاتِ والمقاصِدِ السَّيِّئة ١٠٦
الطريقُ إلى تحقيقِ الإخلاصِ ودَفْعِ الرياءِ ١١٤
مسألة هل يكون إظهار العمل مُنافِيًا للإخلاص؟ ١٢٩
الأمور التي تنافي الإخلاص ١٣٢
أنواعُ العمل المقبول ١٣٣
أنواعُ العمل المردود ١٣٤
الرياء والسُّمْعة ١٣٦
أقسام التسميع ١٣٨
مِن أخبار المرائِين ١٤٢
العلامات التي تَدُلُّ على إخلاص العبد ١٤٤
مِن أخبار أهل الإخلاص ١٤٩

ثانيًا: اليقين ١٦٧

توطئة ١٦٨
معنى اليقينِ وحقيقتُه ١٦٩
الفرقُ بين اليقين، والعلم والتصديق والثقة ١٧٢
أهميَّةُ اليقين ومنزلتُهُ ١٧٥
اليقين في الكتاب والسُّنَّة ١٧٧
مراتب اليقين ١٧٩

الموضوع | الصفحة

مراتب الناس في اليقين ١٨١
اختبار اليقين ١٨٣
الطريق إلى تحقيق اليقين، وكيفيَّةُ تحصيلِ أسبابه ١٨٦
ثَمَرات اليقين ١٩١
الأمورُ التي تُنافِي اليقين ٢٠٨
مِن أخبارِ أهلِ اليقين ٢٠٩

ثالثًا: التفكُّر ٢١٥

توطئة ٢١٦
معنى التفكُّر وحقيقتُه ٢١٧
الفرق بين التفكُّر والتذكُّر ٢١٨
أهميَّة التَّفَكُّر وفضلُه ٢٢١
التفكُّر في الكتاب والسُّنَّة ٢٢٣
مجالات التفكُّر ٢٢٧
معوِّقات التفكُّر ٢٤١
الطريق إلى تحقيق التفكُّر ٢٤٤
ثَمَرات التفكُّر ٢٤٧
من أخبار أهل التفكُّر ٢٦٠

رابعًا: الخشوع ٢٦٥

توطئة ٢٦٦
معنى الخشوع وحقيقتُه ٢٦٧
الفرقُ بين الخشوعِ وبين الإخباتِ والخضوعِ والضَّرَاعة ٢٧٠
أهميَّة الخشوعِ ومنزلتُهُ ٢٧٢
الخشوع في الكتاب والسُّنَّة ٢٧٦
دَرَجاتُ الخشوع ٢٨١

الموضوع | الصفحة

مراتب الناس في الخشوع ٢٨٣
أنواع الخشوع ٢٨٦
الطريق إلى الخشوع ٢٨٨
ثَمرات الخشوع ٢٩٧
الأمور المنافية للخشوع ٣٠١
مِن أخبار أهل الخشوع ٣٠٣

خامسًا: المراقبة ٣١١

توطئة ٣١٢
معنى المراقبة وحقيقتها ٣١٣
منزلةُ المراقَبِة من أعمال القلوب ٣١٥
المراقَبَة في الكتاب والسُّنَّة ٣١٧
مَراتِبُ المراقَبة ٣٢٠
الطريق إلى تحقيق المراقبة ٣٢٥
ثَمَرات المراقبة ٣٣٩
مِن أخبار أهل المراقَبة ٣٤٧

سادسًا: الوَرَع ٣٤٩

توطئة ٣٥٠
معنى الوَرَع وحقيقته ٣٥١
الفرق بين الوَرَع والزُّهْد ٣٥٣
هل الورع أمر سلبي أو إيجابي؟ ٣٥٤
أهمِّيَّةُ الوَرَع ومنزلته ٣٥٥
الوَرَعُ في الكتابِ والسُّنَّة ٣٥٧
الأمور التي يدور عليها الوَرَع ٣٦١
ما لا مَدخَلَ للورَع فيه ٣٦٣

الموضوع | الصفحة

مراتب الوَرَع ٣٦٥
مراتب الناس في الورع ٣٦٨
فِقْهُ الوَرَع ٣٧٢
الوَرَعُ الفَاسِدُ ٣٧٦
الطريق إلى تحقيق الوَرَع ٣٨١
علامة أهل الوَرَع ٣٨٦
ثَمَرات الوَرَع، وآثارُهُ السلوكيَّة ٣٨٧
مُفسِداتُ الوَرَع، والأمورُ التي تضادُّه ٣٩٣
أبواب الوَرَع ٣٩٦
الأمور الدقيقة في الوَرَعِ في المكَاسِب ٤٠٩

سابعًا: التوكُّل ٤٣٩

توطئة ٤٤٠
معنى التوكُّل وحقيقته ٤٤١
الفروقات في باب التوكُّل ٤٤٩
منزلة التوكُّل ٤٥٢
التوكُّل في الكتاب والسُّنَّة ٤٦٩
التوكُّل إنما يكون على الله وَحْدَهُ، دون أحدٍ سواه ٤٧١
دَرَجات التوكُّل ٤٧٤
أنواع التوكُّل ٤٧٨
التوكُّلُ وفعلُ الأسباب ٤٨٥
المفاسِدُ المترتِّبة على تَرْك الكَسْب بدعوى التوكُّل ٤٩١
الأدلَّة على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكُّل ٤٩٣
هَدْيُ السلفِ الصالحِ في التوكُّلِ وفعلِ الأسباب ٤٩٦
أقسام التوكُّل بالنظر إلى تعلُّقه بالأسباب ٥٠٠
أقسامُ الأعمالِ الصادرةِ عن العبد ٥٠١

الموضوع	الصفحة
ما يُطْلَب معرفتُهُ في الأسباب	٥٠٤
ما يُطلَبُ توقِّيه في الأسباب	٥٠٦
بعضُ مَظَاهِر ضعفِ التوكُّل (قوادحُ التوكُّل)	٥٠٧
هل تنافي الرقيةُ التوكُّلَ، أو تَقدَحُ فيه؟	٥١٠
حكم التداوي، وهل ينافي التوكُّل؟	٥١٥
التَّداوي وموضعُهُ مِن الأحكام الخَمْسة	٥١٧
مَواطِن التوكُّل	٥٣٣
عِلَل التوكُّل	٥٣٥
أحوال الناس في التوكُّل	٥٣٦
الطريق إلى تحقيق التوكُّل	٥٣٨
ثَمَرات التوكُّل	٥٥٣
مِن أخبار أهل التوكُّل	٥٦٩
* **فهرس الموضوعات**	٥٧١



أَعْمَالُ القُلُوب
(٢)

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

أَعْمَالُ القُلُوب

خالد بن عثمان السبت

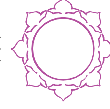
(٢)

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

ثامنًا

المحَبَّة



توطئة

إن الحديث عن محبة الله تعالى حديث ذو شجون؛ وذلك أن القلوب مجبولة على محبة مَن أحسن إليها، والله تبارك وتعالى هو المُنعِم المتفضل على عباده أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، في الدنيا والآخرة.

فربُّنا جلَّ وعلا هو الذي تفضل علينا بالعِلْم والهداية، ثم أعاننا على العمل، ثم فتح لنا باب الشّكر، ثم فتح لنا باب التوبة؛ لنستدرك التقصير، ونرجع عن الإساءة، ثم ساق إلينا ما يُمَحِّصنا به، ويُخَلِّص نفوسنا من الشوائب، وما يكون رِفْعة في الدرجات، وحطًّا للسيئات.

وأما الأمور الدنيوية: فإن كل ما بأيدينا من النعم؛ من المآكل، والمشارب، واللباس، والزينة، والمساكن، والمراكب، وغير ذلك؛ فهو من الله وحده: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النحل: ٥٣].

فنحن بحاجة إلى التَّفَقُّه في هذا الباب؛ لنتعرف الطريق إلى محبة الله ﷻ فنسلكها؛ لتحصل لنا السعادة في الدنيا والآخرة.



معنى المحبة وحقيقتها

المحبة في اللغة:

إن أصل مادة المحبة: (الحاء، والباء مكررة) تدور على ستة معانٍ، هي:

«**الأول: الصفاء والبياض**، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَب الأسنان.

الثاني: العلوّ والظهور، ومنه: حَبَب الماء وحَبَابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحَبَب الكأس منه.

وعليه، فهو غليان القلب عند الاهتياج للقاء المحبوب.

الثالث: اللزوم والثبات، ومنه: حَبّ البعير وأحَبَّ: إذا برَكَ ولم يقُمْ.

قال الشاعر[١]:

حُلْتُ عَلَيْهِ بِالْقَفِيلِ ضَرْبًا ضَرْبَ بَعِيرِ السُّوءِ إِذَا أَحَبَّا

الرابع: اللُّبّ، ومنه حَبّة القلب لِلُبِّه وداخله، ومنه الحبّة لواحدة الحبوب؛ إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك، ومنه حِبّ الماء، للوعاء الذي يُحفَظ فيه ويمسكه»[٢].

السادس: القَلَق والاضطراب، ومنه سُمِّي القُرْط حِبًّا، لقلقه في الأذن واضطرابه[٣].

ولا ريب أن هذه الستة تتضمن جملة من أوصاف المحبة ومقتضياتها؛ وذلك أن المحبة الحقيقية تعني: «صفاء المودَّة، وهَيَجان إرادات القلب للمحبوب وعلوّها وظهورها عليه، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزومًا لا تفارقه، ولإعطاء المحبوب محبوبه لبّه، وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه»[٤].

(١) وهو: أبو محمد الفقعَسِيُّ. انظر: «اللسان» (٣/ ٧).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٩ ـ ١٠) بتصرُّف.

(٣) انظر: «تهذيب اللغة»، مادة: (حب) (٤/ ٨)، و«الصحاح»، مادة: (حَبَبَ) (١/ ١٠٦)، و«مقاييس اللغة»، مادة: (حَبَّ) (٢/ ٢٦)، و«لسان العرب»، مادة: (حبب) (٣/ ٧)، و«القاموس»، مادة: (حَبَبَ) (١/ ٥٢)، و«تاج العروس»، مادة: (حَبَبَ) (٢/ ٢١٢ وما بعدها)، و«روضة المحبين» (ص٢٧ ـ ٣١).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ١٠) بتصرُّف.

المحبة في الاصطلاح:

وأما المحبة في المعنى العرفي؛ فهي من الألفاظ التي يصعب حدّها وتعريفها، فهي قضية يُدْرِكُها كل أحد، والتعريفات والتفسيرات قد لا تزيدها إلا صعوبة وغموضًا؛ ولهذا قال بعضهم: لا يُعَبَّر عن الشيء إلا بما هو أدقُّ منه، ولا شيء أدقّ من المحبة، فَبِمَ يُعَبّر عنها؟! وإنَّما يتكلم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها، فتنوّعت عباراتهم وكثرت، ودارت تعريفاتهم وحدودهم على هذا، فيُعَبِّر كل أحد بما يعرفه ويُدْرِكه من مظاهر هذه المحبَّة ومقتضياتها ولوازمها[(١)].

يقول الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: «المحبّة: إرادة ما تراه أو تظنّه خيرًا، وهي على **ثلاثة أوجه**:

- محبة للذة، كمحبة الرجل للمرأة...
- ومحبة للنفع، كمحبة شيء ينتفع به...
- ومحبة للفضل، كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض؛ لأجل العلم». اهـ[(٢)].

مع أن تعريف المحبة بالإرادة غير صحيح.

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل المحبة: الميل إلى ما يوافق المُحِبّ، ثم الميل قد يكون لما يستلذّه الإنسان ويستحسنه، كحُسْن الصورة والصوت والطعام ونحوها، وقد يستلذّه بعقله للمعاني الباطنة، كمحبة الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقًا، وقد يكون لإحسانه إليه، ودفع المضار والمكاره عنه». اهـ[(٣)].

والحاصل أن حقيقة المحبة: مَيْل القلب إلى المحبوب، وذلك يقتضى إيثاره، وتقديمه على كل شيء، وذلك يزيد وينقص، كما سيأتي.



(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٩ ـ ١٨)، ونقل لها ثلاثين تعريفًا.
(٢) «مفردات القرآن» (ص١٠٥).
(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ١٤).

محبة اللَّه

وأمَّا محبّة الله تبارك وتعالى فهي لا تخرج عن ذلك؛ فهي مَيْل القلب إليه، وذلك يقتضي إيثار محابّ الله تبارك وتعالى على محابِّ النَّفْس، وتقديم طاعة الله ﷻ على طاعة غيره؛ من النَّفْس والهوى والشيطان، وطاعةِ المخلوقين.



منزلة المحبَّة

محبة العبد لربه وخالقه ﷻ تمثّل أحد شِقَّي العبادة؛ لأن «اسم العبادة يتناول غاية الحب مع غاية الذُّل، وهذا هو حقيقة الدِّين الذي يدين الناس به لربِّ العالمين، فهذا الدين أو هذه العبادة لا بُدَّ فيها من حُبّ، ولا بد فيها من خضوع، بخلاف طاعتهم للملوك؛ فإنها قد تكون خضوعًا ظاهرًا فقط»(١).

وأما محبة الله ﷻ فيخضع لها الباطن والظاهر؛ لذلك كانت العبادة مبنيّة على المحبّة، بل يمكن أن يُقَال: إن المحبّة هي حقيقة العبادة؛ لأن العبادة إِنْ خَلَتْ من المحبة فهي عبادة بلا روح(٢).

قال ابن خَفِيف رَحِمَهُ اللَّهُ: «دخل البصري على أبي عباس بن سُرَيْج، فقال له ابن سريج: أين تعرف في نص الكتاب أن محبة الله فَرْض؟ فقال: لا أدري، ولكن يقول القاضي، فقال له: قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤]، والوعيد لا يكون إلا على ترك فرض»(٣).

وبهذا نعرف أن محبة الله ﷻ من أعظم الفروض، وليست من قبيل المستحبَّات التي يتزوّد بها العبد، ويتقرّب بها إلى رَبِّه ومولاه دون أن يُحَاسَب، أو يُؤَاخَذ على تقصيره وتفريطه فيها، بل إنها من أعظم الواجبات، ومن أجَلِّ قواعد الدِّين وأكبر أصوله، بل هي أصل لكل عمل مِنْ أعْمَال الدين والإيمان، فإنَّ كل حركة في الوجود إنما تَصْدر عن محبة محمودة أو مذمومة، «فجميع الأعمال الإيمانية الدِّينية لا تصدر إلّا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إذ العمل الصادر عن محبَّة مذمومة عند الله لا يكون عملًا صالحًا»(٤).

وأمَّا كون الأفعال الأُخرى أيضًا صادرة عن المحبَّة فهذا مشاهد؛ لأن الإنسان لا يزني إلا لأنه يحبّ ذلك، ولا يأكل المال الحرام إلا لأنَّه يحبّه، ويشتهيه، وتطلبه نفسه.

---

(١) «جامع المسائل» (المجموعة الرابعة، ص٤٠).

(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/ ٤٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٠٢).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٨ ـ ٤٩)، وراجع: «القول المفيد» (٢/ ٤٤).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومتى رأيت القلب قد تَرَحَّلَ عنه حبّ الله، والاستعداد للقائه، وحلّ فيه حبّ المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا، والطُّمأنينة بها، فاعلم أنه قد خُسِفَ به»[(١)]. اهـ.

«وحقيقة الإسلام: هي الاستسلام لله عَزَّ وَجَلَّ بالذُّلِّ والحُبّ والطاعة، فَمَنْ لَا محبَّةَ له لا إسلام له البَتَّة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يألهه العباد؛ حُبًّا، وذلًّا، وخوفًا، ورجاءً، وتعظيمًا، وطاعة له، فهو بمعنى مألوه، وهو الذي تألهه القلوب؛ أي: تحبُّه وتذل له.

وأصل التأله: التعبد، والتعبد آخِر مراتب الحُبّ، ويقال: عَبَّدَهُ الحُبّ وتيَّمَهُ: إذا مَلَكَه وذلَّله لمحبوبه، فالمحبة حقيقة العبودية، وهل تُمْكِن الإنابة بدون المحبة، والرضا، والحمد، والشكر، والخوف، والرجاء؟! وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المُحِبِّين؟! فإنه إنَّما يُتَوكَّل على المحبوب في حصول محابِّه ومراضيه.

وكذلك الزهد ـ في الحقيقة ـ هو زهد المُحبِّين؛ فإنهم يزهدون فيما سوى محبوبهم لمحبَّته.

وكذلك الحياء ـ في الحقيقة ـ إنما هو حياء المحبِّين؛ فإنه يتولَّدُ من بين الحُبّ والتَّعْظيم، وأمَّا ما لا يكون عن محبة فهو خوف مَحْض. . .

فَمَعْقِد نِسْبة العبودية هو المحبَّة، فالعبودية معقودة بها؛ بحيث متى انحلت المحبَّة انحلت العبودية»[(٢)]، «وهي روح الإيمان والمقامات والأحوال التي متى خَلَتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه»[(٣)].

فمحبَّة الله تبارك وتعالى هي أعظم محبة، وأجلّ محبة تقع في قلوب العباد، فلا أكمل من محبة الله عَزَّ وَجَلَّ، وليس في الوجود ما يستحقّ أن يُحَبّ لذاته من كل وجه إلا الله جَلَّ جَلَالُهُ، فإن المخلوقين إنما نحبهم من أجل ما يتحَلَّوْن به من الأوصاف؛ إما الأوصاف الظاهرة، وإما الأوصاف الباطنة من الكمالات القاصرة أو الكمالات المتعدّية، وكلّ ما يحبّه أهل الإيمان فإنَّ ذلك تابعٌ لمحبَّةِ الله عَزَّ وَجَلَّ، فهم يحبون النبي ﷺ تبعًا لمحبَّة الله، ويحبّون المؤمنين، ويحبون الطاعات، كلُّ ذلك تبعًا لهذه المحبَّة الجليلة العظيمة، والله يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢٠٠).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٢٦، ٣٦) بتصرُّف.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٧).

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ويقول النبي ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[(١)]، وقال: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»[(٢)].

وهذه المحبة إذا وُجِدَت فهي حقيقة «حياة القلوب، وغذاءُ الأرواح، بل ليس للقلب لذَّة، وَلَا نَعِيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها، فإذا فَقَدَهَا القلب كان ألمه أعظم من أَلَم العين إذ فَقَدَت نورها، والأذن إذا فقدت سَمْعَها، والأنف إذا فَقَدَ شَمَّه، واللسان إذا فَقَدَ نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبَّةِ فاطره وبارئه وإلٰهه الحق أعظم من فَسَاد البدن إذا خلا منه الروح. وهذا الأمر لا يُصَدِّق به إلَّا مَنْ فيه حياة»[(٣)].

فالمحبة «هي المنزلة التي فيها تَنَافَس المتنافسون، وإليها شَخَص العاملون، وإلى عِلْمِهَا شَمَّر السابقون، وعليها تفانَى المُحِبون، وبرَوْح نسيمها تروّح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرَّة العيون، وهي الحياة التي مَنْ حُرِمَهَا فهو من جملة الأموات، والنور الذي مَنْ فَقَدَهُ فهو في بِحَارِ الظلمات، والشِّفاء الذي مَنْ عَدِمَه حَلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللَّذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان، والأعمال، والمقامات، والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحْمِل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنْفس بالغيها، وتُوصِلُهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوِّئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأَقْوَم الذي يبلِّغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحِكْمته البالغة أن المرء مع من أحبّ، فيا لها من نعمة على المُحِبِّين سابغة!! تالله لقد سبق القوم السُّعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدَّموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) واللفظ له، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨٠) واللفظ له، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، والترمذي (٢٥٢١) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه، وقال: «حديث منكر»، والحديث سكت عنه أبو داود، وصحَّحه السيوطي في «الجامع الصغير» (١٠٩٠٩)، والألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٦٥)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق «سنن أبي داود» (٤٦٨١).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص٥٤٥ ـ ٥٤٦).

(٤) «مدارج السالكين» (٣/ ٦ ـ ٧).

المحبة في الكتاب والسُّنَّة

أولًا: المحبة في القرآن:

تكرر ذكر المحبة في كتاب الله، وجاء على صور متعددة، **فمن ذلك**:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

وإخباره عن محبة عباده المؤمنين له سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وغيرها من الآيات.

ثانيًا: المحبة في السُّنَّة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عز وجل، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**»[(١)].

وعنه أيضًا؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**»[(٢)].

وعنه أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ**»[(٣)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٩، ٦٠٤٠) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٧).

قال: «**مَا أَعْدَدْتَ لَهَا**»، قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»[1].

والأحاديث في ذلك كثيرة، وحصْرها يَطُول.



(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨، ٦١٦٧، ٦١٧١، ٧١٥٣) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٩).

المحبة وحدها لا تكفي

إن الذين يُدَنْدِنُونَ حول المحبَّةِ فحَسْب دون أن يكون لهم رصيد من العمل الصالح، وتقويم النفوس وتهذيبها على طاعة الله ﷻ؛ قوم قد ضلّوا الطريق.

يقول محمد بن المبارك الصوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ أُعْطِيَ من المحبَّةِ شَيْئًا فلم يُعْط من الخشية مِثْله فهو مخدوع»[(١)].

ولهذا قالوا: «مَنْ عَبَدَ اللهَ بالحب وَحْده فهو زنديق، ومَنْ عَبَدَ الله بالخَوْفِ وَحْده فهو حَرُورِيّ ـ أي: مِنَ الخَوَارِج ـ، ومَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وحْدَهُ فهو مرجئ، ومَنْ عَبَدَهُ بالحُبِّ والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد؛ وذلك لأن الحُبَّ المجرد تنبسط النفوس فيه، حتى تتوسَّعَ في أهوائها إذا لم يَزعها وازِعُ الخَشْيَةِ لله؛ ولذلك قالت اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ الآية [المائدة: ١٨]، ادَّعَوْا هذه المحبة، مع أنَّهم أسوأ ما يكونون في حال العمل والسلوك إلى الله تبارك وتعالى، وهكذا يُشَاهَد في أولئك المتصوّفة الذين يَدَّعُونَ المَحَبَّة دون تصحيح العمل من مخالفة أُمُورِ الشَّرِيعة ما لا يُوجَد في أهل الخوف والخشية؛ ولهذا قرَن الله بين الحبِّ وبَيْنَ الخوف في قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣٢ ـ ٣٤]، وكان المشايخ المصنِّفون في السُّنَّة يذكرون في عقائدهم مُجَانَبَة مَنْ يُكثر دعوى المحبَّة، والخوض فيها من غير خشية لِمَا في ذلك من الفساد»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخشية لِقَاح المحبة؛ فإذا اجتمعا أثْمَرَا امْتِثَالَ الأوَامِر واجتناب النواهي»[(٣)]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنَ المقامات ما يكون جامعًا لمقامين، ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من ذلك، ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات، فلا يَسْتَحِقّ صاحبه اسمه إلَّا عند استجماع جميع المقامات فيه»[(٤)]. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/ ٢٢٤).

(٢) ما بين الأقواس من كلام شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٨١ ـ ٨٢) بتصرُّف.

(٣) «الفوائد» (ص٢٨٩).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ١٣٦) بتصرُّف.

وذَكَر من ذلك الإخبات له تبارك وتعالى، وأنه جامع لمقام المحبَّة والذّل والخضوع، فلا يُكَمِّل أحد شيئًا من هذه الأمور بدون الآخر، فلا يكون بذلك العبد مُخْبِتًا إلّا إذا كان محبًّا مطيعًا خائفًا راجيًا، وغير ذلك مما يتطلّبه الإخبات، وكذا مقام المحبَّة فإنه جامعٌ لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة، فهي معنى يلتئم من هذه الأربعة(١).

وكمال المحبَّة أن تقترن بالتعظيم والهَيْبَة، فالمحَبَّة بلا هَيْبَة ولا تعظيم ناقصة، والكمال أن تجتمع المحبّة والودّ والتعظيم والإجلال(٢).

كما أن هذه المحبة الرفيعة «تقتضي تقديم المحبوب ﷻ على النَّفْس والمال والولد، وتقتضي كمال الذل، والخضوع، والتعظيم، والإجلال، والطاعة، والانقياد ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان»(٣).



(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٣٦).
(٢) انظر: «جلاء الأفهام» (ص٢٠٣)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٨٥٢ ـ ٨٥٣).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «روضة المحبين» (ص٢٩٥ ـ ٢٩٦) بتصرُّف.

المفاضلة بين الخوف والمحبة والرجاء

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «القلب في سيره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سَلِم الرأس والجناحان فالطائر جَيِّد الطيران، ومتى قُطِع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»[(١)]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: اعلم أن محرِّكات القلوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقْوَاهَا المحبة، وهي مقصودة تُرَاد لِذَاتِهَا؛ لأنها تُرَادُ في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف؛ فإنَّهُ يَزُول في الآخرة...

والخوف المقصود منه الزَّجْرُ والمَنْعُ من الخروج عن الطريق؛ فالمحبة تُلْقي العبد في السَّير إلى محبوبه، وعَلَى قَدْرِ ضَعْفِهَا وقُوَّتِهَا يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده»[(٢)]. اهـ.

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «الخوف يتعلَّق بالأفعال، والمَحَبَّةُ تتَعَلَّقُ بالذات والصفات؛ ولهذا تتَضَاعَف محبَّة المؤمنين لِرَبِّهِم إذا دخلوا دار النَّعِيم، ولا يلحقهم فيها خوف؛ ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه»[(٣)]. اهـ.



(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٧).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

درجات المحبَّة

إذا نظرنا إلى المحبة باعتبار منازل العابدين فإنه يمكن تقسيمها إلى درجتين: واجبة، ومستحبة؛ **فالواجبة** للمقتصدين، بمعنى: أن الإنسان إذا قصَّر فيها فهو ظالم لنفسه؛ لأنه لا بد أن يكون الله ورسوله أحَبَّ إِلَيْهِ مما سواهما؛ بحيث لا يُحِبّ شيئًا يبغضه الله ﷻ، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وذلك يقتضي محبَّة جَمِيع ما أوجبه الله تعالى، وبُغْض مَا حَرَّم الله تعالى، فإذا قصَّر الإنسان عن هذه المرتبة، فأحَبَّ أعداء الله ﷻ، وأحَبَّ المجرمين الظالمين، وأحبّ الظلم والعدوان وألوان الفجور والكفر والمعاصي؛ فإنَّه يصبح بذلك من جملة الظالمين لأنفسهم في هذا الباب.

وأمَّا الدَّرَجة الثانية: فهي محبَّة السابقين؛ وذلك بأن يُحِبّ ما أحَبَّ الله ﷻ من النوافل والفضائل محبَّة تامة، فالمقتصدون يحبّون جميع ما يحبّه الله سبحانه من الواجبات، ويُبْغِضون جميع ما يبغضه الله تعالى من المحرَّمات، وأما السابقون فيحبّون جميع الواجبات والمستحبات، ويبغضون جميع المحرَّمَات والمكروهات، ويتباعدون من ذلك.



مراتب المحبة

من المعلوم أن المحبة تقوى وتضعف في قَلْبِ الإنْسَانِ، كَمَا أن الناس يتفاوتون فيها غاية التفاوت، وتجد الإنسان يحبّ شيئًا واحدًا أحيانًا مَحَبَّةً كبيرة، ثم ما يَلْبَث أن تتضاءل هذه المحبة في قلبه في حين آخر؛ كما أن محبتنا للأشياء تتفاوت تفاوتًا بينًا، فقد يحب الإنسان والده أكثر من محبَّتِهِ لولده، وقد يكون العكس، وقد يحبّ اثنين محبَّةً متساوية، وهذه أمور لا تخفى، فهذه المحبة كلَّما قَوِيَتْ واشْتَدَّتْ صَارَ لها اسم يخصّها في كلام العرب ولغتهم.

ومن هنا كانت على مراتب:

الأولى: **العلاقة**، وهي: تعلُّق القلب بالمحبوب.

والثانية: **الإرادة**، وهي مَيْلُ القلب إليه.

والثالثة: **الصّبَابة**، وهي انصباب القلب إلى المَحْبُوبِ؛ بِحَيْثُ لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور.

والرابعة: **الغرام**، وهو الحُبُّ اللازم للقلب، ومنه الغريم؛ لملازمته، وقد ذكر الله عذاب جهنم، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: ٦٥]؛ أي: مُلَازِمًا لأهلها وأصحابها.

والخامسة: **المودَّة**، والودّ هو: صَفْوُ المَحَبَّةِ وخَالِصُهَا ولُبُّهَا، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦].

والسادسة: **الشّغف**، وهو: وصول المَحَبَّة إلى شغاف القلب.

والسابعة: **العشق**، وهو الحُبّ المُفْرط الذي يُخَاف على صاحبه منه، وهذا لا يصلح لله ﷻ.

والثامنة: **التتيُّم**، وهو بمعنى التعبُّد، تقول: قلبٌ مُتَيَّم؛ يعني: قلب مُعَبَّد للمحبوب.

والتاسعة: **التَّعبّد** صراحة، وتجد بعض المحبِّين يذكر هذا، ويصرّح أنه قد صار عبدًا لهذا المحبوب.

والعاشرة: **الخُلَّة**، وهي المحبَّة التي تخلَّلت رُوْح المُحب وقلبه، وقيل غير ذلك[١].

---

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص٢٥ ـ ٨٥)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٢٧ ـ ٣٠).

فالمَحَبَّةُ تَقْوَى وتضعف ويتفاوت الناس فيها تفاوتًا ظاهرًا بَيِّنًا، فيَقْوَى الحُبّ في حين، ويضعف في حين آخر، بَلْ قَدْ يتبدّل أقوى الحبّ بأقوى البغض والعكس.

وقد تقوى حتى تبلغ **أعلى مراتبها**؛ وهي **قرّة العين**.

«وقرَّة العَيْن فوق المحبة، فإنَّهُ لَيْسَ كل محبوب تقرّ به العين، وإنما تقَرّ العين بأعلى المحبوبات»[(١)].

«فغاية المحبة: اتحاد مُرَاد المُحبّ بمراد المحبوب، وفَنَاء إرادة المحبّ في مراد المحبوب»[(٢)].

وهكذا تتمّ إذا سَلِمت من المعارض، «فإنَّ المَحَبَّةَ تُوجِبُ الدُّنوّ من المحبوب، والبعد عن مكروهاته، ومتى كان مع المحبة نَبْذ ما يبغضه المحبوب، فإنها تكون تامة»[(٣)].

فإذا وُجِد معها الخضوع كانت عبادة، «فالعابد مُحِبّ خَاضِع، بخلاف مَنْ يُحِبّ مَنْ لَا يخْضَع له، بل يحبّه ليتوسّل به إلى محبوبٍ آخر، وبخلاف مَنْ يخضع لمن لا يحبّه»[(٤)].

أمَّا العبودية فهي مرتبة عظيمة من مراتب المحبة، وحقيقتها: أنها الحُبّ التام، مع ذلٍّ كَامِلٍ، وخضوع للمحبوب، تقول العرب: طريق مُعَبَّد؛ أي: طريق مُذَلَّل، و«العبد هو الذي مَلَك المحبوبُ رِقَّه، فلم يبق له شيء من نَفْسه البَتَّة، بل كلّه عبدٌ لمَحْبُوبِهِ ظاهرًا وباطنًا، هذه حقيقة العبودية التي مَنْ كَمَّلها فقد كمَّل مرتبتها»[(٥)].

وأصل العبادة: محبَّة الله ﷻ، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحبّ كله لله، فلا يُحَب معه سواه حُبًّا لا يصلح إلا لله، وإنما يُحَب لأجله وفيه، فالمُؤْمِن يُحِب أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، ويُحِبّ الملائكة، ويحبّ أوْلِيَاءه المتَّقِين، ومحبَّتنا هذه لهؤلاء من محبَّتِنَا لله ﷻ، فهي مِنْ مُكَمّلاتِهَا ومُتَمّمَاتِهَا، وليست مزاحمة لها بحال من الأحوال.

والعبودية لله تبارك وتعالى جامعة للتحقّق بما يحبّه الله ورسوله ﷺ ويرضاه من أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، وأعمال القلوب.

---

(١) ما بين الأقواس من «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص٣٦).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٦٧).
(٣) «جامع الرسائل» (٢/ ٢٧٥).
(٤) المصدر السابق (ص٢٨٤).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٢٩) بتصرُّف يسير.

فإذا أعملتَ ذهنك في أودية هذه الأعمال فإنك سترى جَمًّا غفيرًا من العمل الصالح الذي يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، وأعلى ذلك شهادة أن لا إلٰه إلا الله، والإيمان الصادق، والإقرار الانقيادي الذي يُوجَد في قلب العبد.

وأما ما يتعلق بالجوارح فأعمال لا تُحصَى؛ وهي مُتَفاضِلة بحسب الوقت والزمان والمكان والحاجة والحال، فإذا أذّن المؤذن فأحَبَّ العمل لله ﷻ إجابة المؤذن، وإذا دعا داعي الجهاد فأحبّ العمل إلى الله الجهاد، وإذا كان وقت الحجّ فأحبّ العمل إلى الله التلبية بالحج، وإذا جَاءَ رَمَضَان فأَفْضَلُ العمل هو الصيام، وهكذا...[١].

ويمكن أن تُقَسّم هذه المحبَّة إلى مراتب أُخْرَى باعتبار آثارها، **فمن ذلك**[٢]:

المرتبة الأولى: المحبة التي تقطع الوساوس، ويلتذّ بها العامل بالعمل، والخدمة، وتُسَلِّي عن المصائب، فلا يَبْقَى في القلب محل لغير محبَّةِ المحبوب والتعلق به، فلا يبقى هناك مجال للوساوس والخواطر السيئة، والأفكار الرديئة التي تُشَتِّتُ عليه شمله، وتفرّق عليه قلبه وفكره، فينشغل بها، وينصرف عن محبوبِهِ. ثم إن هذه المحبة تكون غالبة عليه، فتكون سُلُوَّه، فيَجِدُ في لَذَّتِهَا ما يُنْسِيهِ المصائب، ولا يجد من مَسِّها مَا يجد غيره، بخلاف أولئك الذين تَذْهب أنفسهم حسرات وراء آمالهم المتفرِّقة في شُعَب أهوائهم.

والمرتبة الثانية: «هي التي تبعث على إيثار الحقّ على غيره، وتُلْهِج اللسان بذكره، وهي محبة تظهر من مُطَالعة الصفات والنظر إلى الآيات، وهَذِهِ الدَّرَجة أعلى مما قبلها باعتبار سببها وغايتها؛ فإن سبب الأُولى مطالعة الإحسان والمِنَّة، وسبب هذه مطالعة الصفات، وشهود معاني آياته المسموعة، والنظر إلى آياته المشهودة»[٣].



(١) انظر: المصدر السابق (١/ ١٠٠ ـ ١٠١).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٦ ـ ٣٩).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٣٩) باختصار وتصرف.

أنواع المحبة

يمكن أن نقسم المحبَّة إجمالًا ـ من جهة تعلّق الحمد والذَّمّ بها ـ **إلى ثلاثة أقسام**:

١ ـ المحبة المحمودة.

٢ ـ المحبة المذمومة.

٣ ـ المحبة الطبيعية، التي لا يتعلق بها الحمد ولا الذمّ لِذاتِها، وإن كان قد يعرض لها بعض ما يلابسها، فتنتقل إلى المحمود أو إلى المذموم من قسمي المحَبَّةِ.

ويمكن أن نقسمها تفصيلًا إلى قسمين:

القسم الأول: المحبة الخاصة:

«وهي التي لا تصلح إلَّا لله تبارك وتعالى، ومَتَى أحَبَّ بها غيره كان مشركًا به شركًا لا يُغْفَر، وهذه المحبَّة الخاصة هي محبة العبودية التي تستلزم الذلّ للمحبوب، والخضوع له، والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، ولا يجوز تعلقها بغير الله أصلًا، وهي التي سوَّى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]»[(١)].

ويدخل تحت هذه المحبة الخاصَّة أربعة أنواع:

الأول: محبَّة الله ﷻ، وهي أصْلُ الإيمان والتَّوْحِيدِ.

والثاني: محبَّةُ مَا يُحِبُّهُ الله ﷻ من الأعمال، والأوقات، والأمكنة، والذوات، والأقوال، والنيات، فهي تابعة لمحبَّةِ الله ﷻ ومكمّلة لها.

والثالث: محَبَّة في الله، وهي مَحَبَّة الأنبياء والرسل وأتباعهم، وهي تابعة لِمَحَبَّةِ الله أيضًا ومكمِّلة لها.

والرابع: المحبة مع الله، وهي الشركية، كمَحَبَّةِ المشركين لأوثانهم، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٤٢) بتصرُّف.

قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَدَلَّتِ الآية على أن محبة هؤلاء، وإن كانت مِنْ غَيْرِ مَحَبَّةِ العبادة، إذَا فَضَلَتْ عَلَى محبَّةِ الله صارت سببًا للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يُهْمِل أوامر الله لأوامر والده؛ فهو يحب أباه أكثر من رَبِّه.

وما في القلوب، وإن كان لا يعلمه إلَّا الله، لكن له شاهد في الجوارح»[(١)] .اهـ.

فالمحبة الطبيعية ـ كما أشرت ـ قد يُلَابِسُها ما يحوّلها إلى المحبَّة المذمومة أو المحمودة، فالإنسان يُحِبُّ أَبَاهُ محبَّة طبيعية، وكذا ولده وزوجته، ولكنها إن تجاوزت الحَدَّ، وصار يطيع هؤلاء من دون الله ﷻ، ويترك أمر الله وراءه ظهريًّا، فإن هذه المحَبَّة زَاحَمَتْ مَحَبَّة الله ﷻ، فهي محبة شركِيَّة، لا يجوز للإنسان أن يقع فيها.

ومن يُحِبّ مُعَظّمًا من المعظَّمين؛ من الملوك، والرؤساء، والمتبوعين، ونحو هؤلاء، وكان يتقرَّب إليه بفعل ما يُحبّه ذلك المحبوب، ولو كان مما يُبْغِضه الله ﷻ؛ فإن هذا من المحبَّة المُحَرَّمَة، وبِهَذَا نَعْلَمُ أن توحيد المحبة ألَّا يتعدد محبوبك في المحبة الخاصة، بل ينبغي أن يكون المُحِبّ متوجِّهًا لله وحده، فلا يبقى في قلبه شيء يمكن أن يُصْرَف لغيره إلا أن يكون تابعًا ومُكَمّلًا لمحبّة الله ﷻ، فهذا الحُبّ إذا كان بهذه المثابة صار غاية صلاح العبد ونعيمه وقُرَّة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلَّا بِأَنْ يَكُونَ الله ورسوله أَحَبَّ إليه مما سواهما، وأن تكون محبَّتُه لغير الله تابعة لمحبته الله تعالى.

وهذه المحَبَّة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النَّفْس والمال والولد، وتقتضي ذلًّا ظاهرًا وباطنًا وإخباتًا، وهذا أمْرٌ لا يصلح إلَّا لله ﷻ، وإلا كان العبد مشركًا بربِّه؛ لأن أصل الإشراك العملي بالله هو الإشراك في المحَبَّة، والمحَبَّةُ مع الله تنافي محبَّةَ اللهِ قَطْعًا، وذلك بأن تكون منازعة لمحبَّة الله ﷻ ومضادّة لها، ولا تكون تابعة لها[(٢)] .

وقد يدخل في ذلك **محبة العشق** ـ عشق الصور ـ الذي تُبْتَلَى به القلوب الفارغة مِنْ مَحَبَّةِ الله ﷻ، المُعْرِضَة عنه، المُتعَوِّضة عنه بغيره؛ ولأن القلب إذا امتلأ من محبة الله تبارك وتعالى والشوق إلى لقائه دفع عنه ذلك محبَّة مرض العشق.

والمقصود: أن أصل التوحيد وروحه إخلاص المحَبَّة للمليك المعبود سبحانه، وذلك أصل التألّه والتَّعبّد له، بل هو حقيقة العبادة؛ فلا يَتِمّ التوحيد حتى تَكْتَمِلَ مَحَبَّتُنَا

(١) «القول المفيد» (٢/ ٤٨ ـ ٤٩).

(٢) انظر: «جامع الرسائل» (٢/ ٢٥٥)، و«روضة المحبين» (ص٢٩٥ ـ ٢٩٦).

لربنا جلَّ وعلا، وتكون هذه المحبة سابقة لجميع المَحَابّ وغالبة لها، ويكون الحُكْم لهذه المحبة على غيرها، وتكون مَحَابّنا الأخرى تابعة لمحبَّتِنَا لربنا ومعبودنا ﷻ، ومتفرِّعة عنها، وبهذا نكون قد أصلحنا القلوب، واستقامت على حالٍ مرضية لله ﷻ، فنُحِبّ ما يحب، ونبغض ما يبغض من الأشخاص والأعمال، ونوالي أولياءه، ونعادي أعداءه، وهذا هو كمال الإيمان، وبِهِ يَجِدُ الْعَبْدُ لَذَّةَ الإيمان، ويجد طعمه: «**أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ**»، فيكون أمره لله في كل أحواله(١).

«أمَّا اتّخاذ الأنداد مع الله تعالى من المخلوقين فيحبّهم كحبّ الله، ويُقَدِّمُ طَاعَتهم على طاعته، ويَلْهَج بذكرهم ودعائهم، فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﷻ، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلَّقَ بغيره ممَّن لا يملك له شيئًا، وهذا السبب الواهي الذي تعلَّقَ به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعَمَله، وستنقلب هذه المَوَدَّة والموالاة بغضًا وعداوة»(٢).

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧]، وهكذا تتبرأ المعبودات من عابديها، ويتنصَّلون من عباداتهم، ويكفرون بهم، وبما كانوا يتقرَّبون به إليهم. وإذا نظر العاقل، وفحص بعقله، وقلَّبَ نَظَره؛ فإنه يجد أن الإنسان يحوي قدْرًا كبيرًا من المشاعر وأُمورًا كامنة في نفسه لا بد من تصريفها، فالإنسان مثلًا في باب المحبة لا بُدَّ له من محبة وكراهية وبغض، «فإذا كان هذا المحبوب هو المحبوب الحَقّ الذي لا تنبغي المحبة إلا له، ولا يُحِبّ غيرَه إلا تبعًا لمحَبَّتِهِ لله؛ فهذا أَسْعَدُ المُحِبِّين، وقد وضع الحبّ مَوْضِعَهُ، وتهيَّأَتْ نَفْسُه لكمالها الذي خُلِقَتْ له، والذي لا كمال لها بدونه بوجه»(٣)؛ فإنَّ هذا القلب قد رُكِّبَ تَرْكِيبًا خاصًّا لأن يكون مُعَبَّدًا لله ﷻ، فإذا عَبَّدته ووَجَّهْتَهُ لِغَيْرِهِ شَقِي.

ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في القلب شَعَث لا يَلُمّه إلا الإقبال على الله، وفيه وَحْشة لا يزيلها إلا الأُنْس به في خَلْوته، وفيه حزن لا يذْهبه إلا السرور بمعرفته، وصِدْق معاملته، وفيه قلق لا يُسْكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد، لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدّها

---

(١) انظر: «القول السديد» (ص٢٠٣).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن سعدي في «القول السديد» (ص٢٠٣).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٤٨) بتصرُّف.

إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصِدْق الإخلاص له، ولو أُعْطِي الدنيا وما فيها لم تسدّ تلك الفاقة منه أبدًا»[(١)] .اهـ.

هكذا رُكِّبَت هذه القلوب، فعَلَى الفَطِن أن ينظر في قلبه وحاله، ونَفْسه وعمله، وأن يُوَجّه ذلك جميعًا إلى ما فيه شفاؤه، وخَلَاص رقبته، وفَكَاكه من النار، فإذا حصل له ذلك تلاشت عنه تلك الأوهام الباطلة من المحبوبات التي لا تستحق أن يُصْرَف الهمّ إليها، وإلَّا بقي في قلبه حَزَازات وظلمة، ويجد فيه تشتيتًا وقَسْوَة، قد لا يعرف بعض الغافلين سببها، ولا يدرون كيف الخروج منها؛ ولذلك تجد مَنْ يشكو مِنْ قَسْوَةٍ في قلبه، وظُلْمة في نَفْسه، وحسرة يجدها تملأ جوانحه، ولا يدري سبب ذلك! كل شيء مُوَفَّرٌ لديه؛ المال، وألوان النعيم، ومع ذلك يجد قلبه مكروبًا مُنْقَبضًا حيث تقلّب، يسافر ليدفع همه والهَمّ يطارده، وإنه ليجده حيث توجّه قُبالة وجهه، وهذا يشكو منه الكثيرون، وهم بين مُقِلٍّ ومُكثر، فعلى قدر ما يحصل في القلوب من معرفة الله ومحبَّتِه تَنْقَشع تلك الغشاوات والظلمات، وهكذا فبقدر ما يقع من نقص يحصل لهم من الكَرْب، والاكتئاب، والحسرات، والأحزان، والضِّيق.

القسم الثاني: المحبة المشتركة:

وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: «المحبة الطبيعية التي تكون تابعة لما يُلائِم العبد وما يوافقه من المطعومات، والمشروبات، والنكاح، واللباس، والمعاشرة، والمخالطة، وهذه إن أعانت على محبَّةِ الله وطاعته، وكانت مباحة دخلت في باب العبادات. وإن صدَّتْ عن ذلك، وتوسّل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيَّات، وإلا بقيت من أقسام المباحات»[(٢)] .

وقد كان ﷺ يحب الحلواء والعسل[(٣)] .

ولما سئل: مَنْ أحَبّ الناس إليك؟ قال: «**عائِشَة**»[(٤)] .

الثاني: محبة الرَّحْمَةِ والإشفاق؛ كمحبة الوالد لولده. وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثالث: محبة أُنْس، وأُلْفة، ومخالطة، ومشاكلة في الطبع؛ كمحبة المُشْتَرِكين في

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٦٤).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن سعدي في «القول السديد» (ص٢٠٤ ـ ٢٠٥) بتصرُّف.
(٣) أخرجه البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

صناعة، أو عِلْم، أو تجارة، أو سفر، أو مهنة، وهذه أيضًا لا تستلزم التعظيم، وقد يدخل تحت هذا النوع: محبة العِشْق؛ لأن سببه المُشَاكلة والمناسبة بين المُحِب والمحبُوب، وهي محبَّة مذمومة وضارة، وقد تدخل في النوع المختص بالله تعالى(١)، فتكون مزاحمة لها.

وقد سمعنا أشياء عجيبة عن بعض هؤلاء؛ حيث يقول بعضهم لصاحبته: ليتني أحبّ الله كمحبَّتِك، وآخر يقول: يا ليتني أحب النبي ﷺ كمحبتك، وآخر يقول: إن دخل الجنة فلن يَنْعَم بها إلا إذا كان هذا المحبوب معه.

الرابع: محبَّة إجلال وتعظيم لا عبادة؛ كمحبة الولد لوالده، ومحبة التلميذ لشيخه وأستاذه، ومحبة الإمام العادل، وذلك لا حَرَج فيه ما لم يُزاحِم محبّة الله ﷻ، قال الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، فلما غلوا في محبّة هؤلاء الأحبار والرهبان صار ذلك من قبيل الإشراك بالله جلَّ وعلا.

وأشرف هذه الأنواع التي ذكرناها هي المحبة الخاصة التي تكون لله وما يتبعها من محبَّة له ومحبة فيه.

وأسْوَأ هذه الأنواع هي المحبَّة المزاحمة؛ وهي التي تُصْرَف لغير الله، ولا تَصْلُح إلا لله ﷻ، وهي المحَبَّة الشركية، وتبقى المحبة الطبيعية في مرتبة بين هذا وهذا، لا تُحْمَد ولا تُذَمّ مِنْ حيْثُ هِيَ، وإنَّما يكون حُكْمها بحسب ما اتَّصلت به(٢)، والله أعلم.



(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٤١).

(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/ ٤٥).

أقسام الناس في المحبَّةِ والإرادة والقدرة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل كل فعل وحركة في العالم من الحبّ والإرادة، فهو أصلُ كل فعل ومبدؤه»[(١)] .اهـ.

وقال: «وهنا انقسم الناس **أربعة أقسام**:

١ ـ قوم لهم قدرة، ولهم إرادة، ومحبة غير مأمور بها، فهم يجاهدون، ويستعملون جهدهم وطاقتهم؛ لكن لا في سبيل الله، بل في سبيل آخر: إما محرَّمة كالفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإما في سبيل لا ينفع عند الله، مما جنسه مباح، لا ثواب فيه؛ لكن الغالب أن مثل هذا كثيرًا ما يقترن به من الشُّبَه ما يجعله في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان.

٢ ـ قوم لهم إرادة صالحة، ومحبة كاملة لله، ولهم قدرة كاملة، فهؤلاء هم سادة المحبّين المحبوبين المجاهدين في سبيل الله، لا يخافون لَومة لائم؛ كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة.

٣ ـ قوم فيهم إرادة صالحة، ومحبّة لله قوية، لكن قدرتهم ناقصة، فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم، لكن قدرتهم قاصرة، ومحبتهم كاملة، فهو مع القسم الذي قبله... وفي مثل هؤلاء قال النبي ﷺ: «**إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟! قال: «**وَهُمْ بِالمَدِينَةِ؛ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[(٢)] ...

٤ ـ مَنْ قدرته قاصرة، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم؛ فهؤلاء ضعفاء المجرمين، ولكن قد يكون لهم من التأثير بقلوبهم نصيب وحظّ مع أهل باطلهم، كما يُوجَد في العلماء، والعُبَّاد، والزَّاهِدِين من المشركين، وأهل الكتاب، ومنافقي هذه الأمّة ما فيه مُضاهاة لعلماء المؤمنين وعُبّادهم، وذلك أن الشيطان جعل لكل شيء من الخَلْق نظيرًا في الباطل، فإن أصل الشر هو الإشراك بالله، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله»[(٣)] .

---

(١) «جامع الرسائل» (٢/ ١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٣) ـ واللفظ له ـ من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (١٩١١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) «جامع الرسائل» (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٤) بتصرُّف.

علامات محبَّة الربّ للعبد

من الناس مَنْ يُولَع بمحبَّة المخْلُوقين له، ويعمل الأعمال الكثيرة لجلب تلك المحبَّة، ويتصنّع لهم، ويتزيّن، ويعدِّد إنجازاته وأعماله، ثم لا يكون له مِنْ وَرَاءِ ذلك إلا بغضهم ومقتهم.

ومنهم مَنْ يبادر الناس إلى محبته، مع أنهم لم يَرَوْه ولم يسمعوه.

والناس في ذلك أنواع متعددة، وأجناس مختلفة.

وإنما مرجع ذلك إلى أنَّ اللهَ تَعَالى إذا أَحَبَّ عَبْدًا أَحَبَّهُ أهل السماء، ووُضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبْدًا أبغضه أهل السماء، ووُضِعَتْ له البغضاء في الأرض.

والعبرة بحب الله لعبده، لا بحبّ الناس له.

فإذا أقبلت تلك القلوب على الله، وأنِسَتْ بِذِكْرِهِ، وَسَعَتْ في طاعته ومرضاته، واشتاقت إلى لقائه، فلا تَسَلْ عَنْ سَعْدِهَا وهنائها في الدنيا والآخرة.

هذا، وتُعْرَف محبَّة الرب لعبده بعلامات، **منها:**

١ ـ **حبّ العَبْد لطاعة ربه: قال ابن أبي الحواري** رَحِمَهُ اللهُ: «علامة حبّ الله حب طاعة الله ـ وقيل: حب ذكر الله ـ فإذا أَحَبَّ اللهُ العبدَ أحبَّه، ولا يستطيع العبد أن يُحِب الله حتى يكون الابتداء من الله بالحبِّ لَهُ، وذلك حين عَرَفَ منه الاجتهاد في مرضاته»[(١)].

٢ ـ **انزعاج القلب من التفريط**، فإذا فاته وِرْده من القرآن حَزِن، وإذا شَغَله مُهِم من أمر الدنيا تَحَسَّرَ على ما فاته من الذِّكر والعبادة، وإذا ذكر تقصيره في أمر الله ندم.

يقول حماد بن مسلم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا أكثر همَّه فيما فَرَّط، وإذا أبغض عبدًا أكثر همَّه فيما قسمه له»[(٢)].

٣ ـ **تحقيق الأوصاف التي ذكرها الله تعالى في قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٥)، واللفظ له.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٥٩٥)، و«تاريخ الإسلام» (٣٦/ ١٢٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فوَصَف المحبوبين المحبّين بأنَّهم أذلّة على المؤمنين، أعِزَّة على الكافرين، وأنهم يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم؛ فإنَّ المَحَبَّةَ مستلزمة للجهاد؛ لأن المُحِبّ يُحِبّ ما يُحِبّ محبوبُه، ويبغض ما يبغض محبوبُه، ويوالي مَنْ يُوَالِيهِ، ويُعَادِي مَنْ يُعَادِيه، ويرضَى لِرِضَاهُ، ويَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك، وهؤلاء هم الذين يَرْضَى الرب لرضاهم، ويغضب لغضبهم؛ إذ هم إنما يرضون لرضاه، ويغضبون لما يغضب له»[1]. اهـ.



(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٧ ـ ٥٨).

الطَّرِيقُ إلى تحقيق محبة الرَّب للعبد

إنَّ حُبّ الله لعبدٍ من عباده لا شك أنه أمر عظيم، وفضل غامر جزيل، لا يعرف قدره إلَّا مَنْ عَرَفَ الله مَعْرِفَة صحيحة بأسمائه وصفاته، ونحن إذا أردنا أن نصل إلى شيء من ذلك فيجب علينا أن نتقرَّبَ إلى الله أولًا: بالفرائض، وثانيًا: بالنوافل؛ لأن الله قد بَيَّنَ لنا الطريق كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[(١)].

ومن كان بهذه المثابة عند ربه فما أسعده! وما أطيب عيشه!

ومن الأمور النافعة في هذا المجال: أن نتأمل القرآن، وما جاء في السُّنَّة النبوية، فقد بَيَّنَ الله لنا الأعمال التي يحبها أو يحب أهلها، وتلك التي يُبْغِضها، أو يبغض أهلها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]، فَمِنَ المَعَانِي الَّتِي ذكرت في تفسير: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾؛ أي: أن الله يحبهم، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نادى جبريل: إني قد أحببت فلانًا فأحبَّه، قال: فيُنَادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]»[(٢)]،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٨٥)، وصحَّحه الترمذي، والألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٢٨)، وأصله في الصحيحين.

والمعنى الآخر: هو أنه سيجعل لهم القبول في الأرض، فتحبهم القلوب[(١)]؛ كما قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، فإنها تحتمل المعنيين: ألقى عليه محبة، بمعنى: أنه أَحَبَّهُ، وألقى عليه محبة؛ أي: ما رآه أحد إلَّا أحبه[(٢)].

والقرآن يعبّر به بالألفاظ القليلة الدَّالَّة على المعاني الكثيرة.

وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وَقَال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧٦﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: ٤٢].

وكذلك أضداد هذه الأمور، وهي التي ذكر الله أنه يبغضها، أو يبغض أهلها، فإنه ينبغي أن نُجَانبها؛ لئلَّا يبغضنا الله عز وجل، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص: ٧٧]، فالِاعْتِدَاء على الناس في أعراضهم وأموالهم ودمائهم، فكل ذلك مما يبغضه الله عز وجل.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وهذا يشمل الفساد بكل صُوَرِهِ وأشْكَالِهِ؛ فساد الأخلاق، وفساد العقائد، والفساد المالي، والفساد في البدع ومُحدثات الأمور، وما إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ [البقرة: ٢٧٦]؛ أي: كثير الكفران، كثير الآثام، مُقَارف لما يوجب الإثم، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ [آل عمران: ٥٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: ٣٦]، وهو الذي يَتَكَبَّر ويتَعَالى عَلَى الناس، ويَفْتَخِر بما عنده من عَرَض أو حَسَب أو نَسَب، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ٢٣﴾ [النحل: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: ٧٦]، وهو الفَرَح الذي يحمل على البَطر، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧﴾ [النساء: ١٠٧].



(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٦٤٠ ـ ٦٤٤)، و«زاد المسير» (٥/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٥٢٦ ـ ٥٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٦٩).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٨٤).

علامات محبة العبد لربه ﷻ

لما كانت محبة الله تعالى فرضًا إيمانيًّا، ومرتبة دينية شريفة؛ كان ذلك مدعاة لأن يدعيها كل أحد، ومن هنا لَزِم بيان العلامات الدالة على تحقيق هذه المحبة، **فمن ذلك:**

أولًا: أن هذا المُحب لا بدّ أن يكون مطيعًا لربه، ومتّبعًا لنبيّه ﷺ، وذلك برهان اشترطه الله ﷻ، وطالَبَ بِهِ أولَئِكَ الذين يَدَّعُونَ محبته، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فإذا كان العبد مُؤْثِرًا لمحابّ الله ﷻ، ومتَّبعًا للرسول ﷺ، وإن خالف ذلك هوَى نفسه، وشقّ عليها؛ كان ذلك من براهين صِدْق المحَبَّة، وقَدِ اقْتَضَتْ حكمة الربّ سبحانه إخراج العباد إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات، ومَحَاب النفوس، التي بإيثار الحق عليها، والإعراض عنها يتحقق حبهم له، وإيثارهم إيَّاهُ على غيره؛ ولذلك يتحَمَّل الواحد منهم المشاقّ الشديدة، وركوب الأخطار، واحتمال الملامة، والصبر على دواعي الغي والضلال، ويجاهدها، وبذلك يقوى سلطان المحبَّة، وتثبت شجرتها في القلب[(١)].

والطريق إلى الجَنَّة فيه ألوان المشقَّات والصعوبات، والشريعة قد رُكِّبت تركيبًا خاصًّا على خلاف وِزَان داعية الهَوَى في النفوس؛ ولذلك إِذَا الْتَبَس على الإنسان أمران، وشك في مراد الله ﷻ منهما، فإِنَّ مِنْ طُرُقِ التَّرْجِيح: مخالفة هوى النفس.

والمقصود: أنَّ العبد إذا آثَرَ مَا عند الله تبارك وتعالى، وقدَّم أمْره على محبوبات النفوس، وجاهد هذه النفس حتى قَوِيَ سلطان المحبَّة، فإنها بهذا تكون راسخة، مُخْرِجَة لألوان الثمرات الطيّبة، وبهذا يكون مُبَرهنًا على صدق محبته.

وعن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال:** «إن أقوامًا كانوا على عهد رسول الله ﷺ يزعمون أنهم يحبون الله، فأراد الله أن يجعل لقولهم تصديقًا من عمل، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الآية [آل عمران: ٣١]، كان اتِّبَاع محمد ﷺ تصديقًا لِقَوْلِهم»[(٢)].

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ١١٣ ـ ١١٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٣٢٣).

وعن ابن جريج بمعناه[١].

وقال ابن كثير ﵀: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل مَنِ ادَّعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمَّدِية، فإنه كاذبٌ في دعواه في نَفْس الأمر حتى يتبع الشَّرع المحمَّدِي، والدين النَّبَوي، في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»[٢]... ثم قال آمرًا لكل أحد من خاصّ وعامّ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: خالفوه عن أمره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢]، فَدَلَّ على أن مخالفته في الطريقة كُفْر، والله لا يُحِبُّ مَنِ اتَّصَف بذلك، وإن ادَّعَى وَزَعَم في نفسه أنه يحب الله»[٣].اهـ.

ولهذا، فإنَّ «المُحِبَّ الصادق إن نَطَق نَطَق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تَحَرَّكَ فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله»[٤].

وقد قال بعض المتقدِّمين: «قِوام المحبة مُوَافَقَة الحبيب في جميع الأحوال»[٥].

وسُئِلَ آخر عَنِ المَحَبَّةِ فقال: «هي ميلك إلى الشيء بكلِّيَّتِكَ مَحَبَّة له، ثم إيثارك له على نفسك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم عِلْمك بتقصيرك في حُبِّه»[٦].

ثانيًا: أن يُقبل على طاعة الله غير متثاقل، بل يُسَرّ عند أدائه لها، فهذه هي حال المحبّين الصادقين، فهم يقومون بخدمة المحبوب، ويكون ذلك من أَسَرّ الأشياء إلى نفوسهم، ومِنْ أَلَذّ الأمور إلى قلوبهم، ولا يرون ذلك مشَقَّة ولا تكليفًا[٧].

فالمحَبَّة هي «منتهى القُرْبة والاجتهاد، ولن يَسْأَمَ المُحِبّون من طول اجتهادهم لله ﷻ، يحبونه، ويحبّون ذكره، ويُحَبِّبُونه إلى خلقه، يمشون بين عباده بالنصائح، ويخافون عليهم من أعمالهم يوم تبدو الفضائح، أولئك أولياء الله وأحِبَّاؤه وأهل صفوته، أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه»[٨].

وقد قال بعضهم: «المُحِبّ لا يجد مع حُبِّ الله ﷻ للدُّنْيا لذَّة، وَلَا يغفل عن

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٣٢٣).
(٢) ذكره بهذا اللفظ البخاري (٤/ ٥٠٢) معلقًا، وأخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة، وأخرجه بلفظ مقارب البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٢).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٨٩).
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧٨).
(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧٧).
(٧) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ١٦٥).
(٨) ما بين الأقواس من كلام ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص١٥٦).

ذكر الله طَرْفَة عين»[١].

وقال آخر: «ما يكاد يمَلّ القربة إلى الله تعالى محِبٌّ لله ﷻ، وما يكاد يَسْأَم من ذلك»[٢].

وقال آخر: «المُحِبّ للهِ طائر القلب، كثير الذِّكْر، متسبِّب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنَّوَافِل دَوْبًا دَوْبًا، وشوقًا شوقًا»[٣].

ثالثًا: **أن يكون العَبْد حافظًا لحدود الله** ﷻ، فليس بصادق مَنِ ادَّعَى حُبَّه ولم يحفظ حَدَّهُ:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ شَنِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[٤]

كما قيل[٥]:

شُغِفُوا بِحُبِّ اللَّهِ طُولَ حَيَاتِهِمْ ... فَتَجَنَّبُوا لِوِدَادِهِ آثَامَا

وقال آخر[٦]:

وَحُبَّانِ فِي قَلْبِي مُحَالٌ كِلَاهُمَا ... مَحَبَّةُ فِرْدَوْسٍ وَدَارِ غُرُورِ
وَمَنْ يَرْجُ مَوْلَاهُ وَيَرْجُ جِوَارَهُ ... يُسَابِقْ فِي الْخَيْرَاتِ غَيْرَ فَتُورِ
وَمَا صَادِقٌ مَنْ يَدَّعِي حُبَّ رَبِّهِ ... وَأَمْسَى عَنِ اللَّذَّاتِ غَيْرَ صَبُورِ

وسُئِل بعضهم: ما عَلَامَة المَحَبَّة؟ فقال: «تَرْكُ مَا تُحِبّ لمَنْ تُحِبّ»[٧].

رابعًا: **أن تحبّ ما يُحِبّه الله، وتبغض ما يبغضه**؛ فإنَّ «مَنِ ادَّعَى مَحَبَّةَ محْبُوب، ثم سَخِط ما يحبه، وأحبَّ ما يُسْخِطه فقد شهد على نفسه بكذبه، وتمَقَّتَ إلى محبوبه»[٨].

وقال أبو حازم رَحِمَهُ اللهُ: «شيئان إذا عَمِلت بِهِما أَصَبْتَ بهما خير الدنيا والآخرة... تحمل ما تكره إذا أَحَبَّه الله، وتكره ما تحب إذا كَرِهَهُ الله ﷻ»[٩].

---

(١) المصدر السابق (ص٦٧٩ ـ ٦٨٠).
(٢) المصدر السابق (ص٦٨٠).
(٣) المصدر السابق (ص٧٣٥).
(٤) «شعب الإيمان» (٤٩٠ ـ ٤٩٢)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٣٧٩).
(٥) البيت ليحيى الرازي. «شعب الإيمان» (٤٨٦).
(٦) الأبيات لسعيد الجرجاني. المصدر السابق (٤٩٣).
(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٦٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٨).
(٨) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ١٧٨).
(٩) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤١).

وقال بعضهم: «ليس من أعلام الحُبّ أن تحب ما يبغض حبيبك»[(١)].

وقال آخر وقد سُئِلَ عن المحَبَّة: «أن تُحِبَّ مَا يحب الله في عباده، وتَكْرَهُ ما يكره الله في عباده»[(٢)].

خامسًا: الأُنْس بالله ﷻ: فهو من علامات المحَبَّةِ، وهُوَ أنْ يحصل له «كمال الأُنْسِ بِمُنَاجَاةِ المحبوب، وكمال التَّنَعّم بالخَلْوة، وكمال الاستيحاش من كل ما يُنَغِّص عليه الخَلْوة، ومتى غلب الحُبّ والأُنْس صارت الخَلْوة والمُناجاة قَرَّةَ عَيْن تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحُبّ والأُنْس قلبه»[(٣)].

وبهذا يَعْرِف العبد حاله، ويختبر إيمانه ومحبته لله تبارك وتعالى إذا كان يطلب الأُنْس بملاقاة الناس، وخُلْطَتهم، والجلوس معهم، ويَجِد ضِيقًا وحَرَجًا إذا قام لله ﷻ في صلاة، فمثل هذا لم يكن صادق المحبة، وكذلك الذي يَتَبَرَّم مِنْ طُولِ الصَّلَاةِ، وينتظر بشَوْق سَلَام الإمام فإنه لم يصدق مع الله ﷻ في هذه المحبة، ومثله أيضًا الذي إذا خلا بربه يناجيه كان الدعاء أثقل شيء على نفسه، فإنه لم يصدق مع الله في هذه المحبة، وهكذا الذي يتبَرَّم من مجالس الذكر، ويستثقلها، ولا يأنس بذكر المحبوب ﷻ؛ فإنه لا يكون بذلك صادقًا في هذه المحبة.

سادسًا: أن المحبة الصادقة تزيد بالعطاء، ولا تنقص بالمنع، وقد سُئِلَ الفضيل بن عياض، قيل له: يا أبا علي، مَتَى يبلغ الرجل غايته من حُبِّ اللهِ تَعَالَى؟ فقال له الفضيل: «إذا كان عطاؤه ومنعُهُ إِيَّاكَ عندك سواء فقد بَلَغْتَ الغاية مِنْ حُبِّهِ»[(٤)].

وقد أخبرنا الله عن أقوام يعبدون الله على حرف، فإن أصابوا خيرًا اطْمَأَنّوا بِهِ، وإِنْ أَصَابَهُم ما يكرهون انقلبوا على أعقابهم، فليست هذه حال المحبّين.

وقد قال بعضهم: «حقيقة المحبَّة التي لا تزيد بالبِّر، ولا تنقص بالجَفْوة»[(٥)].

سابعًا: أنه لا يُثْنِيه لَوْم ولا عَذل عن سلوك مرضاة محبوبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «والمحبّ التامّ لا يُؤَثِّر فيه لوم اللّائِم وعذل العاذل، بل ذلك يُغْرِيه بملازمة المحبة؛ كما قد قال أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤٧٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٦٨).

(٣) ما بين الأقواس من «مختصر منهاج القاصدين» (٤٤٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١١٣) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٤٧٢).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧٦).

هم أهل المَلام المحمود، وهم الذين لا يخافون مَنْ يلومهم على ما يحبّ الله ويرضاه من جهاد أعدائه؛ فإنَّ المَلام على ذلك كثير. وأما المَلام على فِعْل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبَّه فهو لوم بحق، وليس من المحمود الصبر على هذا المَلام، بل الرجوع إلى الحَقّ خَيْر من التمادي في الباطل»[١].اهـ.

ثامنًا: كثرة ذكره.

وقد قال بعضهم: «الحبّ: اللزوم؛ لأن من أحب شيئًا أَلْزَم ذكرَه قلبَه؛ فمحبة الله تعالى لزومٌ لذكره»[٢].

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «علامة حبّ الله دوام ذكره؛ لأنَّ مَنْ أحَبَّ شيئًا أكثر ذكره»[٣].

فهم «إن نطقوا فبذكره، وإن تَحَرَّكُوا فبأمره، وإن فرحوا فَلِقُرْبِهِ، وإن ترحوا فلعتبه؛ وقيل:

وَاللَّهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ ... إِلَّا وَحُبُّكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسِي
وَلَا جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أُحَدِّثُهُمْ ... إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَّاسِي»[٤]

وقد قال بعضهم: «المُحبّ لله تعالى طائر القلب، كثير الذكر، مُتَسبِّب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل»[٥].

وقد قيل: «إن المحبِّينَ للأحباب خدَّام»[٦]، فإذا سئِم البطَّالون من بطالتهم، فلا يسأم المحبّون من مناجاتهم وذكرهم.

وقال آخر: «مِنَ المُحَال أن تعرفه ثم لا تحبّه ـ أي: معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته ـ ومن المحال أن تُحِبَّه ثم لا تذكره، ومن المحال أن تذكره ثم لا يُوجِدُ لك طَعْم ذِكْرِه، ومن المحال أن يُوجِدُك طَعْم ذِكْرِه ثم لا يُشْغِلُك به عما سواه»[٧].

وهناك أمور أخرى تدل على صِدْق هذه المحبة؛ كمحبة لقاء الله تبارك وتعالى، وأن يغار لله فيغضب لمحارمه إذا انتهكها المنْتَهِكُون، ولحُقُوقِه إذا تَهاوَن بها المُتَهَاوِنون، وأن يُحِبّ كلامه، وأن يَتَأَسّف على ما فاته مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وذِكْره، وأن يتقالّ ما يبذله في سبيل الله وفي طلب مرضاته، فهو لا ينظر إلى عمله إلا بعين الازدراء.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦١).
(٢) «شعب الإيمان» (٢/ ٢٣٨).
(٣) المصدر السابق (٤٩٩).
(٤) ما بين الأقواس من كتاب «المدهش» لابن الجوزي (ص٢٢٣ ـ ٢٢٤)؛ بتصرف.
(٥) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ٣٢٧).
(٦) المصدر السابق (٣/ ٣٢٦).
(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٦٢).

الطريق إلى تحقيق المحبة للَّه ﷻ

أولًا: طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله الكريم ﷺ:

وقد عَرَفْنا أن المحبَّة هي حقيقة العبودية، وإنما يتحقق ذلك باتباع أمره، واجتناب نهيه؛ «ولهذا جعل الله تعالى اتباع رسوله ﷺ عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادَّعَاها، فجعل ذلك شرطًا لهذه المحَبَّة، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، فلا يتحقق إلَّا به»[(١)].

ومعلوم في اعتقاد أهل السُّنَّة أن الإيمان يزيد وينقص؛ «يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فكُلَّما فَعَل العبد الطاعة محبَّة لله وخوفًا منه، وترك المعصية حبًّا له وخوفًا منه؛ قوي حُبّه له، وخَوْفه منه، فيُزِيل ما في القلب مِنْ مَحَبَّة غيره، ومخافة غيره، وهكذا أمراض الأبدان؛ فَإِنَّ الصِّحَّة تحفظ بالمِثْل، والمرض يُدْفَعُ بالضِّدِّ، فصِحَّةُ القلب بالإيمان تُحْفَظ بالمِثْل، وهو ما يُورِث القلب إيمانًا من العلم النافع والعَمَل الصالح، فتلك أغذية له»[(٢)].

ثانيًا: تفريغ القلب من الاشتغال بغيره:

لأن هذا القلب وعاء، فإذا مُلِئَ بالِاشْتِغَالِ بغيره، وانصرف إليه لم يبق به محلّ للاشتغال بالله ﷻ، والإقبال عليه، ومحبَّته.

وقد قال بعضهم: «لا يُطمَع في لِين القلب مع فضول الكلام، ولا يُطمَع في حبّ الله مع حب المال والشَّرَف، ولا يُطمَع في الأُنْس بالله مع الأُنْس بالمخلوقين»[(٣)].

وقال آخر: «سرورك بالدنيا أذْهَب سرورك بالله عن قلبك»[(٤)].

وسُئِلَ بعضهم: «بِمَ نَالَ أهل المحبةِ المحبةَ من الله ﷻ؟ قال: بالعفاف، وأَخْذ الكَفَاف»[(٥)]؛ أي: أنهم لم يتهافتوا على الدنيا، وذلك بأخْذِ الكَفَاف منها، ولم تَتَوَجَّه قلوبهم إلى المخلوقين ليعطوهم ويمنحوهم، فكان ذلك هو العفاف.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٩٩) بتصرُّف.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٣٦).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٠).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٤٥).
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧١).

ثالثًا: مجاهدة النَّفْس؛ بإيثار محابِّه على محابِّك عند غلبة الهوى:

وعلامة هذا الإيثار شيئان:

الأول: فِعْل ما يُحِبّه الله، ولو كانت نَفْسك تكْرَهه.

والثاني: ترك ما يكرهه، ولو كانت نَفْسك تحبّه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ما ابْتَلَى الله سبحانه عَبْدَهُ المؤمن بِمَحَبَّةِ الشهوات والمعاصي، ومَيْلِ نفْسِه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبَّةِ ما هو أفضل منها، وخير له وأنفع وأدْوَم، وليجاهد نَفْسه على تَرْكِهَا له سبحانه، فتُورِثه تلك المجاهدة الوصولَ إلى المحبوب الأعلى، فكُلَّما نازعته نَفْسه إلى تلك الشهوات، واشتدَّتْ إرادته لها، وشوقه إليها؛ صَرَف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النَّوْع العالي الدائم، فكان طلبه له أشد، وحرصه عليه أتم»[(١)]. اهـ.

رابعًا: التذلّل له، وإظهار المَسْكَنة والانكسار بين يديه، وإظهار الافتقار له سبحانه:

وذلك «أنَّ المُحِبَّ ذَلِيل بالذَّاتِ، وعلى قَدْرِ محبَّتِهِ يَكُونُ ذُلّه؛ فَالمَحبة قد أُسِّست على الذِّلة للمحبوب»[(٢)]، فـ«لا ينال رضا المحبوب، وقُرْبه، والابتهاج والفرح بالدُّنُو منه، والزّلْفَى لديه؛ إلا على جِسْر مِن الذِّلّة والمَسْكَنة، وعلى هذا قام أمْرُ المَحَبَّةِ، فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلَّا بِذَلِكَ»[(٣)].

خامسًا: الحبّ في الله والبغض في الله:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: **«أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»**[(٤)].

وقد سُئِلَ بَعْضُهم: «بماذا ينال العبد المحَبَّةَ؟ قال: بموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه»[(٥)].

---

(١) «الفوائد» (ص١٦٠ ـ ١٦١).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٧) بتصرُّف يسير.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٧).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).
(٥) أخرجه السلمي في «طبقاته» (ص٣٥١).

والله يقول ـ كما في الحديث القدسي الصحيح ـ: «**حقَّت مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ**»(١).

سادسًا: دوام ذِكْرِهِ بالْقَلْبِ واللسان، والجَوَارِحِ والحال:

«فالمحَبَّة تتشعب شُعَبها من دوام ذِكْر إحسان الله ﷻ، فَمَنْ ذَكَرَ رَبَّهُ على الدوام، وتذكَّر إحسانه إليه تَنَسَّم ريح المحبة عن قربه»(٢)، وهكذا قراءة القرآن، والنظر في المصحف، والتدبر لمعاني كتاب الله، وقد رُوِي عن النبي ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلْيَقْرَأْ فِي الْمُصْحَفِ**»(٣)، «فالذِّكْر بجميع أنواعه هو باب المحَبَّةِ وشَارعها الأعظم، وصراطها الأقْوَم»(٤)، ونَصِيب العبد مِنَ المَحَبَّة على قدر نصيبه من الذِّكر.

وقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله سؤالًا: وهو أن العبد أحيانًا قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه، فأي شَيْء يُحَرِّك القُلُوبَ؟ فأجاب رحمه الله بقوله: «قلنا: **يحركها شيئان**:

أحدهما: **كَثْرة الذِّكْرِ لِلْمَحْبُوبِ**؛ لأَنَّ كثرة ذِكْره تُعَلِّق القلوب به...

والثاني: **مطالعة آلائه ونعمائه**... فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يُثِيرَ ذلك عنده باعثًا»(٥).اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٩) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وصحَّحه ابن حبان (٥٧٧)، والحاكم (٤/ ١٦٩ ـ ١٧٠)، وسكت عنه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٢١).

(٢) «شعب الإيمان» (٤٦٤) بتصرُّف.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٠٩) وقال: «غريب»، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٤٩٩) وقال: «منكر»، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٨٩٠) وقال: «منكر»، وقال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٢١٤): «باطل، وإنما اتخذت المصاحف بعد النبي ﷺ»، وأعله ابن حجر في «لسان الميزان» (٣/ ١١)، وضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» (١١٢٣٥)، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٢٣٤٢)، وقول المتقدمين أولى بالصواب، والله أعلم.

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الوابل الصيب» (٩٤ ـ ٩٥) بتصرُّف.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥ ـ ٩٦) بتصرُّف.

سابعًا: مطالعة آلائه، وبِرِّه، وإحسانه، ونعمه الظاهرة والباطنة:

فالعَبْد إذا تأمل أن المُنْعِم بالذات هو الله، وأنه لا مانح ولا مانع سواه، وأن ما عداه وسائط؛ اقتضى ذلك أن يتوجه بكُلِّيَّته نحوه، فلا يُحبّ أحدًا سوى الله تبارك وتعالى محبة تُزَاحِم محبَّته في قلبه، وإنما يُحب من أجله ويكره ما يبعده عنه؛ ولهذا كان حب النبي ﷺ مِنْ حُبِّ الله، ومِنْ هُنَا أيضًا كان حُبّ الأنصار آية على الإيمان، وكذا حُبّ الصالحين، فالحُبّ فِي اللهِ مِن ثمرات حب الله.

والعبد إذا تَأَمَّلَ القُلُوبَ وجدها مجبولة على محبّة مَنْ أَحْسَن إليها، وإذا تأَمَّل من حال نَفْسه وجد كل فضل ونعمة من إحسان الله إليه، فجِبلَّته وفِطْرَته تقتضى محبّة الله، وتقديمها على محبة كل مَنْ سواه.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيه؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ؟**»(٢).

وقال تعالى ـ كَمَا في الحديث القدسي ـ: «**يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا**

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وحسَّنه، وكذا حسَّنه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص١٠٤٠)، والألباني في «الصحيحة» (١٢٧)، وصحَّحه السيوطي في «الجامع الصغير» (٧٧٨٧).

وروي من حديث أبي ذر ﷺ، وأصْلُهُ في مسلم (٢٦٨٧)، وقد أخرجه أحمد (٥/١٠٨، ١٥٤)، وصحَّحه ابن حبان (٢٢٦)، والحاكم (٤/٢٤١)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (١٢٨، ١٢٩، ٨٥١).

وروي أيضًا من حديث ابن عباس ﷺ، رواه الطبراني (١٢/١٦/١١٣٤٦). راجع: «جامع العلوم والحكم» (ص١٠٤٠)، و«الصحيحة» (١٢٨، ١٢٩، ٨٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥) واللفظ له، ومسلم ٧٥٨).

ضرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي...» الحديث(١).

فإذا تأمَّل العَبْدُ في هذه المعاني انجذب قلبه لله ﷻ بكلِّيَّتِهِ، والله يقول للمسرفين المذنبين الذين اجترحوا السيئات: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

ويقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(٢).

ومِنْ رَحْمَتِهِ بعبده المؤمن حمايتُهُ له من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تحمونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ**»(٣).

وفي حديث آخر: «**إِنَّ اللهَ رَحِيمٌ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ ثُمَّ لَا يَضَعَ فِيهِمَا خَيْرًا**»(٤).

فتأمَّل كَثْرة إفضاله وإنعامه على عبده، وقد قصَّ الله علينا في القرآن شَيْئًا كَثِيرًا من ذلك، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٥ ـ ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٤

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، وضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» (٢٦٩٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨١٤)، وصحَّحه الحاكم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه (٤/ ٢٣١)، والذهبي.

(٤) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (١/ ٤٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: «صحيح الإسناد». قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٣١٦): «وفي ذلك نظر»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦٨)، وفي الباب عن سلمان وجابر رضي الله عنهما.

ـ ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ٦٦، ٦٧]، فالله ﷻ قد أَخْبَرَنَا عن نِعَم كَثِيرة ظاهرة وباطنة يفيضها علينا، فإِذَا تَأَمَّلها العبد كان ذلك من دواعي محبَّتِهِ لربه، وإِقْبَالِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ، فالله هو الذي ابتدأنا برحمته من قبل أن نكون شيئًا مذكورًا، وخَلَقَنَا من تراب، ثم أسكننا الأصلاب، ونقلنا إلى الأرحام، ثُمَّ أَخْرَجَنَا إِلَى هَذِهِ الدّنيا أسوياء، وحَفِظنا في المَهْد أطفالًا، ورزقنا من الغذاء لبنًا، وكَفَلَنا في حجور الأمهات، وأَوْدَع في قلوبهنَّ شفقة ورحمة، وربَّانَا بأحسن التَّدْبِيرِ، وصَانَنَا من كل ما يشِيُننا، ومن كل نقص يَعِيبنا؛ فتبارك وتعالى ما أرحمه، وما أَلْطَفَهُ، ومَا أَكْرَمَه!!

«يا مختار الكون وما يعرف قَدْر نَفْسه، أما أسجد الملائكة بالأمس لك، وجعلهم اليوم في خدمتك، لمَّا تكبَّر عليكم إبليس، وقد عَبَدَ ربه سنين؛ طَرَدَه، أفتُصَافِيه على خِلافه، وهو القائل قبل وجود أبيك للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]»(١).

يا أخي! اعرف قَدْر لُطْفِهِ بِكَ، وحفظهِ لَكَ، إنما نهاك عن المعاصي صيانة لك.

«اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عنه، وشُكْرك لمن تعنيك نِعَمُه، وطاعتك لمن لا ترجو خيرًا إلا منه... وارفع إليه يد الذُّل في طلب حوائج القلب تأتي وما تشعر»(٢).

عليك بحب «من إذا أطعته أفادك، وإن أتيته شاكرًا زادك، وإن عبدته أصْلَحَ قلبك وفؤادك»(٣).

والمقصود: أن الله ﷻ أهلٌ لأن يُحَبّ **لسببين**:

أولهما: نعماؤُهُ الباطنةُ والظاهرة التي لا تنقطع بمعاصي خلقه.

الثاني: أن له جَمالَ الذات، وجَمالَ الصفات، وجمال الأفعال.. له نعوتُ الجلال، وصفاتُ الكمال؛ أي: أنه أهلٌ لأنْ يُحَبّ بذاته.

ثامنًا: أن يعرفه، وأن يُطَالِعَ القَلْب أسماءَهُ وصِفَاته، ويَتَقَلَّب فِي رِيَاضِ هذه المعرفة؛ فـ«المعرفة تُثْمِرُ المَحَبَّة»(٤):

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن أرض القلب إذا بُذِرَ فِيها خواطر الإيمان، والخشية،

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن الجوزي في «المدهش» (ص٢١٠).
(٢) المصدر السابق (ص٤٩٤).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن الجوزي في «التبصرة» (ص٦٢).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/٢٨).

والمحبَّة، والإنابة، والتصديق بالوعد، ورجاء الثَّواب، وسُقيَت مرَّةً بعد مرَّة، وتعاهدها صاحبُها بحفظها، ومراعاتها، والقيام عَلَيْهَا أثمرت له كل فعل جميل، ومَلَأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات»[١] .اهـ.

وقد قال بعضهم: «مَنْ عَرَفَ اللهَ أَحَبَّهُ، ومَنْ أَحَبَّ اللهَ أطَاعَهُ»[٢].

فمعرفة الأسماء والصفات، ودوام مطالعتها، وتقلّب الفكر في معانيها وآثارها هي العِرْفَان والعِلْم الإيماني، كما أنها من السماع القرآني؛ إذ لا تكاد آية تخلو من ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله ﷻ، «وكُل اسم وصفة من صفاته تستدعي محَبَّة خاصة»[٣]، وكُلَّمَا زَادَت مَعْرِفَة العبد بالأسماء والصفات، و«أكثر قلبه من مطالعتها، ومعرفة معانيها؛ ازدادت محبَّتُهُ للموصوف بها»[٤].

فإذا تأمَّل العبد هذه الأسماء، وما تدلّ عليه من الصفات بالتطابق والتضمّن والالتزام؛ عَرَفَ رَبَّه حق المعرفة، فأحبَّه حبًّا لا يماثله حُبّ، وانْقَادَت جوارحه بالطاعة والتذلل، وبذلك يكون عبدًا لله حقًّا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «لا ريب أن كمال العبودية تابعٌ لِكَمَالِ المَحَبَّة، وكَمَال المحبة تابع لكمال المحْبُوب في نفسه، والله سبحانه له الكمال المطلق التَّامّ من كل وجه، الذي لا يعتريه تَوَهّم نَقْص أصلًا، ومَنْ هذا شَأْنُه، فإن القلوب لا يكون شيء أحب إليها منه»[٥] .اهـ.

ومعرفة أسمائه تبارك وتعالى وصفاته تتضمَّن جميع دواعي المحبَّة لَهُ سُبْحانه، **والتي يمكن أن نلخّص أسبابها في الأمور الآتية**:

١ ـ أنَّ داعي الكَمَالِ والجلال موجود ومتحقق بهذه الأسماء والصفات، فالرَّبُّ ﷻ له الكمال، بل كلّ ما فُطِرَت القلوب على محبَّتِه من نعوت الكمال فالله هو المُسْتَحقّ له على أكمل الوجوه وأتمها، وكل ما في غيره من محبوب فهو منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو المُسْتَحق لأن يُحَبّ على الحقيقة؛ لأن كماله ﷻ من لوازم ذاته[٦].

٢ ـ دواعي الإحسان والإنعام، فالقلوب جُبِلَتْ عَلى حُبِّ مَنْ أحْسَنَ إِلَيْهَا، وبُغْضِ

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٣٧٩).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٣٦).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٩١) بتصرُّف.
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٩٧).
(٥) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٠٦).
(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٧٤).

مَنْ أسَاء إليها، والله أعظم محسن، وقد سبق الكلام على هذا المعنى؛ فالله تبارك وتعالى بهذا الاعتبار مُسْتَحِقٌّ لِلْمَحَبَّةِ الكَامِلَة[(١)].

٣ ـ داعي الجمال: «والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمالُ كلهُ له، والجمال كله منه، فلا يَسْتَحِقّ أن يُحَبَّ لذاته من كل وجه سواه»[(٢)].

والعباد يتفاوتون في محبّتهم له ﷻ بحسب تفاوتهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم بالله أشدهم حبًّا له؛ ولهذا كانت رسله ﷺ أعظم الناس حبًّا له، وكان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام أعْظَم حُبًّا لله تبارك وتعالى؛ ولهذا كان المُنْكِرون لأسمائه وصفاته مِنْ أجهل الخلق به، وهم في الحقيقة مُنْكرون لمحبَّتِه[(٣)].

بل إنَّ «مَنْ صَحَّتْ له معرفة ربّه، والفقه في أسمائه وصفاته، عَلِم يقينًا أَنَّ المكروهات التي تُصِيبه، والمِحَن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها عِلْمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب»[(٤)]؛ ولهذا يكون دائمًا شاكرًا راضيًا مهما تقَلَّبَتْ بِهِ الأيام، ومهما اختلفت عليه الأحوال؛ إذ لا يأتي من الحبيب إلا الخير.

تاسعًا: مجالسة المحبين الصَّادِقِين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم والانتفاع بها:

عاشرًا: المباعدة عن كل سبب يَحُول بين القلب وبين الله ﷻ:

وقد قيل لذي النون: متى يأنس العبد بربِّه؟ قال: «إذا خافه أَنِسَ بِه، أما علمتم أنه مَنْ وَاصَلَ الذنوب نُحِّيَ عَنْ باب المحبوب؟!»[(٥)].

قد يُقَال: بأن المحبة لا يد للإنسان فيها؛ لأنه لا يملك قلبه، فكيف يُطَالَب بما لا يملك؟

والجواب: أن يُقَال بأن خطاب الشارع إذا تَوَجَّه إلى المُكَلَّف في أمر لا يدخل تحته قدرته؛ فإنه يتوجه إما إلى سببه، أو إلى أثره.

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٨٥).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص٥٣٣).
(٣) انظر: «الفتاوى» (١٠/ ٢٠٣ وما بعدها)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٦٩٢).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٣٣).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٨٣).

وفي هذا الموضع فإن الخطاب يَتوجَّه إلى السبب؛ فإذا نظر العبد في مُوجِبَات المحبة والأسباب الجالبة لها؛ امتلأ قلبه بمحبة الله ﷻ ولا بد.

وقد قال عمر ﷺ للنبي ﷺ: إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، قال النبي ﷺ: «**لَا والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**». قال: الآن، والله لأنت أحب إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**الآنَ يَا عُمَرُ**»[(١)]. فقد ازدادت محبة عمر للنبي ﷺ، وأقرَّه النبي ﷺ على أن الحب قد يَتَغَيَّر.

وربما تسمع عن شخص كلامًا وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب؛ فتعود محبتك إياه[(٢)].



(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) عن عبد الله بن هشام ﷺ.
(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١).

ثمرات المحبة وآثارها السلوكية

أوَّلًا: أنها تبلِّغنا الدرجات العلى عند الله تبارك وتعالى:

كما جاء في حديث أنس ﵁: أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: «**مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**» فقال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أُحِبّ الله ورسوله، قال: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»(١).

وقد عرفنا أنه لا بد من العمل والاتّباع مع ذلك، فلا تكفي دعوى المحبَّة.

ثانيًا: أنها تَقُودُ إِلَى طَاعَةِ اللهِ ﷻ:

وذلك أن القلب يكون مأسورًا لمن أحبّ، فلا يجد بُدًّا من طاعته والانقياد إليه؛ لأن «المحبة التامة هي مَيْلُ القلب بكلِّيَّتِهِ إلى المحبوب، فيكون ذلك حاملًا على الطاعة والتعظيم، وكلَّما كَان الميل أقْوَى كَانَتْ الطاعة أتمّ، والتعظيم أوْفَر»(٢).

فـ«الحبّ يُحَرِّك إرادة القلب، فكُلَّمَا قَوِيت المحَبَّة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبَّة تامَّة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات، فإذا كان العبد قادرًا عليها حصَّلَها، وإنْ كَان عاجزًا عنها، ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل»(٣).

وقد قال بعضهم: «لو لم يكن لله ثَوَابٌ يُرْجَى ولَا عِقَاب يُخْشَى؛ لكان أهلًا أن يُطَاعَ فلا يُعْصَى، ويُذْكَر فلا يُنْسَى، . . . أمَا تسمع موسى ﵇ يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه: ٨٤]»(٤).

وقد تقدَّمَ أنَّ المحَبَّةَ الصحيحة هي التي تكون مع الخوف والرجاء، وأن العبد ينبغي أن يكون جامعًا بين المحبَّة والخوف والتعظيم والرَّجاء مع العمل الصالح.

وقال العز ابن عبد السلام ﵀: «محبة الله وسيلة إلى أن يعامله العبد معاملة المُحِبّ لحبيبه في المبادرة لطاعته، والمسارعة إلى كل ما يُرْضِيه، واجتناب كل ما

(١) أخرجه البخاري (٦١٧١) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٩).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٦) بتصرُّف.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩٢).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣١٤).

يسخطه، والتَّحَرُّز من أسباب سخطه، والاحتياط لأسباب رضاه»[(١)]. اهـ.

وبهذا يكون العبد مُتَصَبِّرًا عن معصية الله ﷻ، ومخالفة أمره، ومقارفة حدوده وانتهاكها؛ وذلك لأن «المُحِبَّ لمن يحبُّ مُطِيع، وكُلَّما قَوِي سلطان المحبَّة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة، وترك المخالفة أقوى، وإنما تَصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها، وفَرْق بين مَنْ يحمله على ترك معصية سيِّدِه خوفُه مِنْ سَوْطِهِ وعقوبته، وبَيْنَ مَنْ يحمله على ذلك حبُّه لِسَيِّدِهِ... فالمحب الصَّادِق عليه رقيب من محبوبِهِ يَرْعَى قَلْبَه وجوارحه، وعلامةُ صِدْق المحبة شهودُ هذا الرقيب ودوامُه.

وها هنا لطيفة يجب التنَبّه لها؛ وهي أن المحبةَ المجرَّدَةَ لا تُوجِبُ هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها بالإجْلال والتعظيم أوجبت هذا الحياءَ والطاعةَ، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما تُوجِبُ نوعَ أُنْسٍ وانبساط وتَذَكُّرٍ واشْتِيَاق؛ ولهذا يتخلف عنها أثَرُهَا وموجَبُهَا، ويُفَتِّشُ العَبْدُ قلبَهُ فيَرَى فيه نوعَ محبَّة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه، وسبب ذلك تجرُّدها عن الإجلال والتعظيم، فما عَمَرَ القلبَ شيءٌ؛ كالمحبة المقترنة بإِجْلال الله وتعظيمِه، وتلك مِنْ أفْضَل مواهب الله لعبده أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[(٢)].

بل إنه يتلذذ بهذه الطاعة، والعمل بما يقرّبه إلى الله ﷻ، وهذه اللذة تزيد بحسب ما في القلب من المحبة، فلْيَزِن العبد إيمانه ومحبَّته لله بهذا الميزان، ولا شك أن العبادة التي يقوم بها العبد بدافع المحبَّة؛ فيها قوة، ونشاط، وهمّة، وإقبال نفس، وانشراح صدر، لا كحال المنافقين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يُرَاؤون الناس، فيكون العبد في حال لا يمكن أن يَمَلّ معها طاعة ربه[(٣)].

كما قال بعضهم: «ما كاد يَمَل القربة إلى الله تعالى مُحِبّ لله ﷻ، وما كاد يسأم من ذلك»[(٤)].

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «**قيل لعامر بن عبد قيس**: أمَا تَسْهو في صلاتك؟ قال: «أوَحَدِيث أحبّ إلي مِنَ القُرْآن حتى أشتغل به؟!».

وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته، ولقد انهدمت ناحية من المسجد، ففزع لها أهل السوق، فما التفت[(٥)]. وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته، فإذا قام يصلي

---

(١) «شجرة المعارف والأحوال» (ص٤٥ ـ ٤٦).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٩٠).
(٣) انظر: المصدر السابق (٢/ ٦٩٧).
(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص٧٣٥).
(٥) تقدم تخريجه.

تكلَّموا، وضحكوا؛ علمًا منهم أن قلبه مشغول[(١)]، وكان يقول في مناجاته: إلٰهي! متى ألقاك وأنت عني راضٍ؟[(٢)]»[(٣)]. اهـ.

وكان الفضيل يقول: «إذا رأيتُ اللَّيْلَ مُقْبِلًا فَرِحْتُ بِهِ، وقلتُ: أَخْلُو بِرَبِّي، وإذا رَأيت الصبح أدركني استرْجَعْتُ كراهية لقاء الناس، وأن يجيئني مَنْ يشغلني عن ربي»[(٤)].

وبهذا نعلم أن المحبة الصادقة ترفع العبد المُحِبّ الصادق ليكون موافقًا لربه في محابِّه، فيحب ما يحبّ الله ﷻ، ويبغض ما يبغضه الله تبارك وتَعَالَى، ولو كان ذلك يخالف ويتنافى مع ما طُبِعَ عَلَيْهِ العَبْد؛ فإن هذه الكراهة لا تنافي محبَّتَه لها، كما يكره طبعه الدواء الكريه، وهو يحبه مِنْ وَجْهٍ آخر[(٥)].

وأخيرًا: «يا هذا! عندك بضائع نَفِيْسة: دموع ودماء، أنفاس وحركات، وكلمات ونَظَرات، فلا تبذلها فيما لا قَدْرَ له.

أيصلح أن تَبْكِي لفَقْدِ ما لا يَبْقَى، أو تَتَنَفَّس أَسَفًا على ما يَفْنَى، أو تَبذل مهْجَةً لصورة عن قليل تُمْحَى؟!... ويْحَك! دمعةٌ فيك تُطْفِئُ غضب ربك، وقطرةٌ من دم في الشهادة تمحو زَلَلَكَ، ونَفَس أَسَفٍ يَنْسِفُ ما سَلَف، وخطواتٌ في مرضاته تغسل الخطيئات، وتسبيحةٌ تغرس لك أشجار الخُلْد، ونَظْرَة بِعَبْرَةٍ تُثْمِرُ الزُّهْدَ في الفاني»[(٦)].

والخلاصة: أنه «إذا غُرِسَتْ شَجَرَةُ المَحَبَّةِ في القَلْبِ، وسُقِيَتْ بِمَاء المَعْرِفَة والإخلاص، وصُدِّقَتْ بِمُتَابَعَةِ الحَبِيب؛ أثْمَرَتْ أنْوَاع العبادات، وآتَتْ أُكُلَهَا كل حين بإذن ربها»[(٧)].

ثالثًا: أنَّ ذَلِك يُسَهِّل عليه الأُمور الشاقَّة:

فـ«المحبة كلما تمكَّنَتْ في القلب، ورسخت فيه كان أذى المحبّ في رضا محبوبِه مستحلًى غير مسخوط، والمحبّون يفتخرون عند أحبابهم بذلك، حتى قال قائلهم[(٨)]:

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٩٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ١٣٧).
(٣) «المدهش» (ص٤٧٢).
(٤) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٢/ ٢٢٧)، وعزاه الزبيدي في «شرح الإحياء» (٦/ ٣٤٣) إلى «الحلية»، ولم أجِدْه.
(٥) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٨٣).
(٦) ما بين الأقواس من كلام ابن الجوزي في «المدهش» (ص٤٩٥) بتصرف يسير.
(٧) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٩) بتصرُّف.
(٨) وهو: ابن الدُّمَينة. «محاضرات الأدباء» (٢/ ١٣٤).

لَـئِـنْ سَـاءَنِـي أَنْ نِـلْـتِـنِـي بِـمَـسَـاءَةٍ   لَـقَـدْ سَـرَّنِـي أَنِّـي خَـطَـرْتُ بِـبَـالِـكَ

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه؟!»[(١)].

قال الحليمي رَحِمَهُ اللهُ: «فقد يُفْهَم من هذا أنَّ مَنْ أَحَبَّ اللهَ تَعَالَى لم يَعُدَّ المصائب التي يقضيها عليه إساءة منه إليه، ولم يستثقل وظائف عبادته، وتكاليفه المكتوبة عليه، كما أن من أَحبّ أحدًا مِنْ جِنْسِهِ لم يكد يُبْصِر منه إلا ما يستحسنه، ويزيده إعجابًا به، ولا يصدق من خبر المخبرين عنه إلا ما يتخذه سببًا للولوع والغلو في محبته»[(٢)].

وإذا حقَّقَ العبد ذلك، فإنه بهذا الاعتبار يرضى بأقدار الله عَزَّ وَجَلَّ؛ حُلْوها ومرّها، «فإن المحب يتسلَّى بمحبوبه عن كلّ مصيبة يُصَاب بها دونه؛ لأنه يرى محبوبه عِوَضًا عن كل شيء، ولا يرى في شيء غيره عِوَضًا منه، فكل مصيبة عنده هيِّنة إذا أبقَت عليه محبوبه»[(٣)].

لقد بلغت بالقوم المحبة إلى استحلاء البلاء، فوجدوا في التعذيب عُذُوبة؛ لعلمهم أنه مراد الحبيب. . .

فهذا سويد بن مَثْعَبَة، ضنى على فراشه فكان يقول: «والله، ما أحب أن الله نقصني منه قلامة ظُفْر»[(٤)].

تَـعَـجَّـبُـوا مِـنْ تَـمَـنِّـي الْـقَـلْـبِ مُـؤْلِـمَـهُ   وَمَـا دَرَوْا أَنَّـهُ خَـلْـقٌ مِـنَ الْأَلَـمِ[(٥)]

وأمر الحَجَّاج بِصَلْب أحد العُبَّاد وهو يُسَبِّح ويُهَلِّل، ويعقد بِيَدِهِ حَتَّى بلغ تسعًا وعشرين، فبقي شهرًا بعد موته ويده على ذلك العقد مَضْمُومة.

لَـتُـحْـشَـرَنَّ عِـظَـامِـي بَـعْـدَمَـا بَـلِـيـتُ   يَـوْمَ الحِسَـابِ وَفِـيهَـا حُـبُّـكُـمْ عَـلَقُ[(٦)(٧)]

وقد قال عامر بن عبد الله: «أحبَبْت الله عَزَّ وَجَلَّ حبًّا سهَّل عليَّ كل مصيبة، ورضَّاني في كل قضية، فما أبالي مع حبي إيَّاهُ ما أصبحتُ عليه وما أمسيتُ»[(٨)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٢١) بتصرُّف.
(٢) «شعب الإيمان» (٢/ ١٩٦).
(٣) «طريق الهجرتين» (ص٤٩٥) باختصار وتصرف يسير.
(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢٨٠)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٥٩)، وابن أبي الدنيا في «الرضا» (٧٨)، وفي «المرض والكفارات» (١٩٧).
(٥) البيت ضمن قصيدة للشريف الرضي. «نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار» (ص١٣٦).
(٦) «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٦٥).
(٧) ما بين الأقواس من كتاب «المدهش» (ص٢٨٣) بتصرُّف يسير.
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/ ٢٩)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٨٩) واللفظ له.

رابعًا: أنها تورث الشَّوْق إلى لِقَاءِ الله ﷻ:

والفَرَحُ بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوَّة المحبة وضعفها؛ كما ذكر ابن القيم في كتابه «الروح»[١].

وقد قال بعضهم: «الشوق هو المحَبَّة، مَنْ أَحَبَّ اللهَ اشتاق إلى لقائه»[٢].

وقال آخر: «بِقَدْرِ مَا يَصِل إلى قلب العبد من السرور بالله يشتاق إليه، وَعَلَى قدر شوقه يخاف من بُعْدِه وطَرْدِهِ»[٣].

خامسًا: أنها صلاح ما بينه وبين الخلق:

كما قال بعضهم: «ما أَقْبَلَ عَبْدٌ بقلبه إلى الله ﷻ إلا أَقْبَلَ اللهُ بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم»[٤].

وقال آخر: «لا يُحْسِن عبد فيما بينه وبين الله تعالى إلَّا أَحْسَنَ الله فيما بينه وبين العباد، ولا يُعوِّر فيما بينه وبين الله تعالى إلا عوَّر الله فيما بينه وبين العباد، ولمُصَانَعَة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلّها»[٥].

سادسًا: أنها تُورِث نعيم القلب وسرور النفس:

فـ«كلَّمَا كانت المَحَبَّة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى»[٦].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يُنَاسِب هذه المحبَّة؛ ولهذا عَلَّق النبي ﷺ ما يجدونه بالمحبَّةِ؛ فقال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[٧]»[٨]. اهـ.

واعلم أن «في القلب شَعَثًا لا يلُمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا

---

(١) «الروح» (٢/ ٧٣٢).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٨).
(٣) ذكره البيهقي في «الشعب» (٤٥٨).
(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٣٢) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٢٧).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٣١ ـ ٩٣٢).
(٧) أخرجه البخاري (١٦) واللفظ له، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٨) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٥٠).

الأُنْس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلَّا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يُسْكِنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حَسَرَات لا يُطْفِئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يُسَيِّرها إلا محبته، ودوام ذكره، والإخلاص له، ولو أعْطي الدنيا وما فيها لم تُسَدّ تلك الفاقة منه أبدًا»[(١)].

وكان يحيى بن معاذ يقول: «هذا سروري بك خائفًا، فكيف سروري بك آمنًا؟! هذا سروري بك في المجالس، فكيف سروري بك في تلك المجالس؟! هذا سروري بك في دار الفناء، فكيف يكون سروري بك في دار البقاء؟!»[(٢)].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول:** «أحلى العطايا في قلبي رَجَاؤُك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إليَّ ساعة يكون فيها لقاؤك»[(٣)].

قال إبراهيم بن أدهم: «لو علم الناس لذَّة حبِّ الله لقَلَّتْ مطاعمهم ومشاربهم وحرصهم»[(٤)].

سابعًا: تحقيق الحب في الله والبغض في الله:

فيوالي أولياء الله، ويعادي أعداءه، فإن أصل الموالاة المحبَّة، كما أن أصل المعاداة البُغْض، والمحب مِنْ حُبِّه لحبيبه يحب كلّ مَنْ يحبّه، ويواليهم، وينصرهم، كما يبغض أعداءه، ويتبرأ منهم[(٥)].

فلا يجتمع في قلب العبد محبَّة الله عَزَّ وَجَلَّ ومحبة أعدائه من الكفار.



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ١٦٤) بتصرُّف يسير.
(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ٩٧).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧).
(٤) ذكره أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٨١).
(٥) انظر: «جامع الرسائل» (٢/ ٣٨٤).

من أخبار أهل المحبة

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ **في مرضه الذي مات فيه**: «ارْحَمْنِي بحبي إياك، فليس شيء أحَبَّ إِلَيَّ منك»(١).

وكان يقول: «كفَى بالله مُحبًّا، وبالقرآن مُؤْنسًا، وبالموت واعظًا، وكفَى بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلًا»(٢).

ويقول آخر: «إنه ليمرّ بي أوقات أقول فيها: إِنْ كَان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيِّب»(٣).

وقد قَدَّمْنَا بعض عبارات السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم التي تدل على حالهم في هذه المرْتَبة.

وبالجملة؛ فلا بد من التربية الإيمانية للقلب، فهي التي تحمله على حُسْنِ التوجه لبارئه وخالقه سبحانه، وهي التي تصحّح له هذه المعاملة.

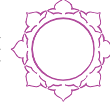
هذا آخر ما أردت ذكره في موضوع المحبة، والله أعلم



(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٩).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٤٩).
(٣) «الوابل الصيب» (ص١١١)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ١٤٧) و(٢/ ٩٣٢).

تاسعًا

الرجاء



توطئة

الرجاء: عبادة قلبية جليلة، تَبْعَث على العمل والجِدّ والبَذْل، مع حُسْن الظن بالرب تبارك وتعالى، إلا أنها لا تَتِمّ إلا مع ما يُقَابِلها من الخوف والخشية من الله ﷻ؛ ليكون العبد على حال من القَصْد والاعتدال في سَيْرِه إلى ربه ومولاه، دون أن يَغْلِب عليه الرجاء فيَطُول أَمَلُه، ويَسُوء عَمَلُه، أو يَطْغَى عليه الخوف فيَقْنَط وييأس من رَوْح الله.



معنى الرجاء وحقيقته

الرجاء في اللغة: مأخوذ من مادة (رَجَوَ) التي تدل على الأمَل، الذي هو نقيض اليأس، ويقال: رجوتُ فلانًا رجوًا ورجاء.

قال بِشْر[(١)] يخاطب بنته:

فَرَجِّي الخَيْرَ وَانْتَظري إِيَابي ... إِذَا مَا القَارِظُ العَنَزِي آبَا

وتقول: ما لي في فلان رَجِيَّة؛ أي: ما أرجو، ويقال: ما أتيتك إلا رَجَاوَة الخير[(٢)].

وقد جاء الرجاء بمعنى: الطَّمَع في كتاب الله تبارك وتعالى، كما في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨]؛ أي: يَطْمَعون فيها.

وذكر أهل الإيمان بما يميزهم عن عدوهم، حيث قوَّى عَزَائِمَهُم فقال: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النساء: ١٠٤]، ترجون من الله دار الكرامة والمغفرة والرحمة.

وقال عن خاصة أوليائه الذين يدعوهم هؤلاء الكفار، ويعبدونهم من دون الله ﷻ؛ كالملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ أي: أنهم يطمعون برحمة الله ﷻ، وهذا الطَّمع هو توقُّع الثواب، وليس ذلك من المعاني الزائدة على الطَّمَع، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: ٢٩]، والمعنى: يرجون ثواب الله ﷻ.

ويأتي الرَّجَاء بمعنى الخوف أحيانًا، كما فُسِّر به قوله تبارك وتعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: ١٣]؛ أي: لا تخافون الله ﷻ، وهذا بمعنى تَوَقُّع العذاب[(٣)].

---

(١) هو: بشر بن أبي خازم كما في «ديوانه» (ص٧٤).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١١/ ١٨١ ـ ١٨٢)، مادة: (رجا)، و«لسان العرب» (٢٠/ ٢٣)، مادة: (رجا)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٤٣٢).

(٣) انظر: «لسان العرب» (٢٠/ ٢٣).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا تخافون عظمة الله، قال أبو ذُؤَيْب[(١)]:

إذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نَوْبٍ عَوَاسِلِ

أي: لم يَخَفْ ولم يُبَال»[(٢)]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسير قوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية [يونس: ٧]، قال: «يرجون: يخافون... وقيل: يرجون: يطمعون... فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطَّمع؛ أي: لا يخافون عقابًا، ولا يرجون ثوابًا... وقال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجَحْدِ؛ كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣]، وقال بعضهم: بل يقع بمعناه في كل موضع دَلَّ عليه المعنى»[(٣)]. اهـ.

كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ۝٢٧﴾ [النبأ: ٢٧]؛ أي: لا يخافون حسابًا، أو لا يتوقَّعُون العذاب.

والمقصود: أنَّ الرَّجَاءَ في كلام العرب يأتي بمعنى الطَّمع، ويأتي بمعنى الخوف.

وأما ما يذكره كثير من أهل العلم من معان متفرِّقَة، فإنما ترجع إلى ما ذكرته، وتدور عليه، فليست بخارجة عنه، والله تعالى أعلم.

وسيأتي مزيد إيضاح لعلاقة الرجاء بالخوف عند الكلام على الرجاء الصحيح الذي يُطْلَب من العبد تحصيله.

وأما الرجاء في معناه الشرعي: فيمكن أن يقال: هو تَأَمُّل الخير وقُرْب وقوعه.

وقيل: «تعلُّق القلب بحصول محبوب في المستقبل»[(٤)].

وكلاهما بمعنى متقارب.

وقيل: «النظر إلى سعة رحمة الله»[(٥)].



(١) كما في «شرح أشعار الهذليين» (١/ ١٤٤).
(٢) «تفسير القرطبي» (٣/ ٤٣٢).
(٣) المصدر السابق (١٠/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧).
(٤) «التعريفات» للجرجاني (ص١١٤).
(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦).

الفرق بين الرجاء والتمني

قال الزركشي رَحِمَهُ اللهُ: «الفرق بينه ـ يعني: الترجي ـ وبين التمني: أن الترجي لا يكون إلا في المُمْكِنات، والتمني يدخل المستحيلات»[١]. اهـ.

وعرَّف الراغب التمني بأنه: «تقدير شيء في النَّفْس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تَخْمِينٍ وظَنّ، ويكون عن رَوِيَّة وبناء على أصل، لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أَمْلك، فأكثر التمنِّي تصوُّر ما لا حَقِيقَةَ لَهُ»[٢].

وعليه فالرجاء: «هو تَرَقُّب حصول ما تَقَدَّمَ لَهُ سبب»[٣].

وقيل: «هو الظن بوقوع الخير الذي يعتري صاحبه الشك فيه، إلا أن ظنه فيه أغلب، وليس هو من قبيل العلم، وهو الأمل في الخير»[٤]؛ لأنَّ ارْتِيَاحَ القَلْبِ لانتظار ما هو محبوب عنده لا بد أن يكون له سبب؛ لأن انتظاره مع تضييع أسبابه غرور.

وهذه التسمية أصدق عليه، وأولى به من إطلاق الرجاء عليه، فمن كان صاحب طلب، ويتطلع إلى حصوله، وقد ضيع أسبابه، وفَرَّطَ فيها، وجعلها وراء ظهره، فهو مغرور.

وكذلك أيضًا إن لم يكن له أسباب معْلُومة الوجود، ولا معلومة الانْتِفَاء، فإنَّهُ أقرب إلى التمنِّي منه إلى الرجاء؛ وذلك أن التمني قد يكون للأمر المحال، أو الذي يبعد وقوعه، بخلاف الرجاء. قال الشاعر[٥]:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا ... فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ

والشباب لا يمكن أن يرجع ثانية، فإذا تطلَّعَتِ النفس، ورَجَت حدوث ما هو بعيد المَنَال، فإن ذلك يكون من قبيل التمنِّي، وأما إذا تطلَّعَت النَّفْس إلى أمر يمكن حصوله مع بَذْلِ أسْبَابِهِ، فإن ذلك هو الرَّجَاء.

وبالجملة؛ فالرَّجَاء يكون مع بذل الأسباب، والسعي باستغراق الوسْع والطاقة

(١) «البرهان» (٢/ ٣٢٣).
(٢) «مفردات غريب القرآن» (ص١٩٠ ـ ١٩١).
(٣) انظر: «التوقيف على مهمات التعاريف» (١/ ٣٥٦).
(٤) «الفروق في اللغة» (ص٢٤٨) باختصار وتصرُّف يسير.
(٥) هو: أبو العتاهية. «محاضرات الأدباء» (٢/ ٣٥٧).

لتحصيل المراد؛ وذلك أن الأسباب إذا كانت على استقامة استقامت مُسَبَّبَاتها.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «عادة الله في المُسَبَّبات أن تكون على وِزَان الأسباب في الاستقامة، والاعوجاج، والاعتدال، والانحراف»[(١)]. اهـ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد، واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظَّفَر والفَوْزِ، والتمنّي حديث النَّفْس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب المُوصِلة إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فطوى سبحانه بِسَاط الرجاء إلا عن هؤلاء.

وقال المغترّون: إن الذين ضيَّعوا أوامره وارتكبوا نواهيه، واتَّبَعُوا ما أسْخَطَهُ، وتجنَّبُوا ما يُرْضِيهِ؛ أولئك يرجون رحمته»[(٢)]. اهـ.

وقال: «وأما الأماني فإنها رؤوس أموال المفاليس، أخرجوها في قالب الرجاء، وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قَلْب تَزَاحَمَت عليه وساوس النَّفْس فأظْلَم مِنْ دُخانِهَا، فهو يَسْتَعْمِل قلبه في شهواتها، وكلما فعل ذلك منَّتْهُ حُسْن العاقِبَةِ والنَّجَاةِ، وأحالَتْهُ على العفْوِ والمغفرة والفضل»[(٣)]. اهـ.

ومعلوم أن أداة التمني: (ليت)، وأن أداة الرجاء: (لعل)، فهي تدل على إِمْكَانِ الحصول، وأما (ليت) فإنَّها في الأمر الذي يكون بعيد المنال.



(١) «الموافقات» (٢/ ٤٨٠).
(٢) «الروح» (٢/ ٧٢٦).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٧٣٠).

بيان الرَّجَاء الصحيح الذي يُطْلَبُ من العبد تحصيله

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «المقصود من الرجاء: أنَّ مَنْ وقع منه تقصير فليُحْسِن ظنَّهُ بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا مَنْ وَقَع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انْهَمَكَ على المعصية راجيًا عدم المؤاخَذَةِ بِغَيْرِ ندم ولا إقلاع؛ فهذا في غرور»[(١)]. اهـ.

وقد قال بعض أهل العلم: «من علامة الصَّلَاح أن تطيع، وتخاف ألا تُقْبَل، ومن علامة الشقاء أن تَعصي، وترجو أن تنجو»[(٢)].

ومعلوم أن من رجا شيئًا فإن هذا الرجاء يستلزم **ثلاثة أمور**:

الأول: **محبة ما يَرْجُوه.**

والثاني: **الخوف مِنْ فَوَاتِهِ.**

والثالث: **السَّعْي في تحْصِيلِهِ بحسب الإمكان.**

أما الرجاء الذي لا يُقَارِنُهُ شيء من ذلك، فإن ذلك من الغرور، فهو من باب الأماني، والرجاء شيء، والأماني شيء آخر.

وبهذا نعلم أن كل راج خائف، ومن سار على الطريق إذا خَافَ أسْرَع السَّيْرَ مخَافَةَ الفَوَات، وقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ**»[(٣)]، وبهذا أقبلت القلوب على الله ﷻ بألوان العبوديات رجاء أن تُحَصِّلَ دَارَ كَرَامَتِهِ.

فلولا الرجاء لما صارت إليه، وما قصدته، وما عمل الناس بطاعته، وكما جعل الله تعالى لأهل طاعته الرجاء لِيُحْسِنُوا الظن به؛ جعل الخوف في قلوبهم منه ليحذروه.

وبهذا نعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العَمَلُ، كَمَا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ

---

(١) «الفتح» (١١/ ٣٠٧).

(٢) «الفتح» (١١/ ٣٠٧). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٤٦) بنحوه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه، وصحَّحه الحاكم (٧٩٦٢)، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٤، ٢٦٦٥)، وحسَّنه السيوطي في «الجامع الصغير» (١١١٦٧)، وحكم عليه الذهبي بالنكارة في «تاريخ الإسلام» (٩/ ٦٦٨).

لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

هؤلاء هم الذين يرضى ربنا ﷻ عن أعمالهم، ويتقَبَّل منهم، ويرفعهم في أعلى المنازل في دار كرامته.

وقد سألت عائشة رضي الله تعالى عنها رسول الله ﷺ عن هذه الآية، قالت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ، وَيُصَلُّونَ، ويَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ ألا تُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ**»[١].

فالله ﷻ وَصَف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووَصَف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومَنْ تَأَمَّلَ أحْوَالَ أصْحَابِ النبي ﷺ وجدهم في غاية الجد في العمل الصالح، والتشمير، والسعي في مرضاة الله ﷻ، ونحن قد جمعنا بين التفريط والأمن، وتَرَحَّل الخوف من قلوب كثير مِنَّا، مما أدى إلى تَهَافُت الكثيرين على فِعْل المعصية، حتى طغى ذلك على القلوب، وران عليها، فما عادت تنتفع بالمواعظ، وما يدخلها في كثير من الأحيان شيء من التذكير، إلا ما شاء الله، وقد قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقًا على قوله تبارك وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١]: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا»[٢].

يَا آمِنًا مِن قَبِيحِ الفِعْلِ مِنهُ أَهَلْ ... أَتَاكَ تَوْقِيعُ أَمْنٍ أَنْتَ تَمْلِكُهُ؟
جَمَعْتَ شَيْئَيْنِ أَمنًا وَاتِّبَاعَ هَوَى ... هَذَا وَإِحْدَاهُمَا فِي المَرْءِ تُهْلِكُه
وَالمُحْسِنُونَ عَلَى دربِ المَخَاوِفِ قَدْ ... سَارُوا وَذَلِكَ دَرْبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهُ
فَرَّطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ البَذْرِ مِنْ سَفَهٍ ... فَكَيْفَ عِندَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ؟
هَذَا وَأَعْجَبُ شَيْءٍ فِيكَ زُهْدُكَ فِي ... دَارِ الْبَقَاءِ بِعَيْشٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ
مَنِ السَّفِيهُ إِذًا بِاللَّهِ أَنْتَ أَمِ الْـ ... ـمَغْبُونُ فِي الْبَيْعِ غبْنًا سَوْفَ تُدْرِكُهُ[٣]

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد مضى بين يديكم أقوام، لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى لخشي ألَّا ينجو من عظم ذلك اليوم»[٤].

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/٦٨)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٠/٥٩٩).
(٣) انظر: «الجواب الكافي» (٢١٩ ـ ٢٢٠).
(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٠).

وكان رَحِمَهُ اللهُ **يقول في قوله تعالى:** ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، يقول: «هو الخوف الدائم في القلب»[(١)].

وكان يقول: «إن الرجل يذنب الذنب فما يَنْسَاهُ، وما يزال مُتَخَوِّفًا منه حتى يدخل الجنة»[(٢)].

يَا مُعْرِضًا عَمَّا يُرَادُ بِهِ وَقَدْ ... جَدَّ الْمَسِيرُ فَمُنْتَهَاهُ دَانِ
جَذْلَانَ يَضْحَكُ آمِنًا مُتَبَخْتِرًا ... وَكَأَنَّهُ قَدْ نَالَ عَقْدَ أَمَانِ
خَلَعَ السُّرُورُ عَلَيْهِ أَوْفَى حُلَّةٍ ... طَرَدَتْ جَمِيعَ الْهَمِّ وَالْأَحْزَانِ
يَخْتَالُ فِي حُلَلِ الْمَسَرَّةِ نَاسِيًا ... مَا بَعْدَهَا مِنْ حُلَّةِ الْأَكْفَانِ[(٣)]

فهو مع إساءته للعمل في غاية اللهو، والمَرَح، والفَرَح، والعَبَث، كأنه قد نال الأمان من الله عَزَّ وَجَلَّ.

ويقول الحسن رَحِمَهُ اللهُ **تعليقًا على قوله تبارك وتعالى في الآية السابقة:** ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠]، **يقول:** «يعملون ما عملوا من أعمال البِر، وهم يخافون ألّا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم»[(٤)].

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ: «من حَسُن ظنّه بالله عَزَّ وَجَلَّ، ثم لا يخاف الله فهو مخدوع»[(٥)].

وكان بعضهم يقول في بيان سِمة وعلامة الرجاء الصحيح: «علامة صحة الرجاء حُسْنُ الطاعة»[(٦)].

ولأبي العتاهية[(٧)]:

أَلَا رُبَّ ذِي أَجَلٍ قَدْ حَضَرْ ... كَثِيرِ التَّمَنِّي قَلِيلِ الْحَذَرْ
إِذَا هَزَّ فِي الْمَشْيِ أَعْطَافَهُ ... تَعَرَّفْتَ مِنْ مَنْكِبَيْهِ الْبَطَرْ
يُؤَمِّلُ أَكْثَرَ مِنْ عُمْرِهِ ... وَيَزْدَادُ يَوْمًا لِيَوْمٍ أَشَرْ

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٨) وإسناده ضعيف.
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٧٧) وإسناده صحيح.
(٣) «نونية ابن القيم» (٥٦٦٢).
(٤) أخرجه ابن المبارك (١٥)، ووكيع (١٥٣)، وأحمد (ص٢٨٤) كلهم في «الزهد»، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٧٤٨)، وابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٦٧) واللفظ له.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٧٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٤/ ١٣٢).
(٦) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦).
(٧) «ديوان أبي العتاهية» (ص١٠٢).

وقد سئل أحمد بن عاصم رَحِمَهُ اللَّهُ: ما علامة الرجاء في العبد؟ قال: «أن يكون إذا أحاط به الإحسان أُلْهِمَ الشكر، راجيًا لتمام النعمة مِن الله تعالى عليه في الدنيا، وتمام عفوه في الآخرة»[(١)]، كلما أعطاه الله ازداد شكرًا، فإذا وُفِّقَ لِلَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ العبودية ازداد شكرًا، فقام بعبودية جديدة، فهو في ازدياد دائمًا، بخلاف مَنْ يُؤَمل ما لا يعمل، ويرجو ما لم يُقَدِّم ويبذل.

والمقصود: معرفة أن الرجاء المطلوب هو أن يتحقق في قلوبنا نوع خوف من فوات الجنة وذهاب حظوظنا منها، بأن نترك ما يحول بيننا وبين دخولها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعلامة الرَّجاء الصحيح أن الرَّاجي يخاف فوت الجنّة، وذهاب حظِّه منها، بِتَرْكِ ما يخاف أن يَحُول بينه وبين دخولها، فمثله مَثَلُ رجل خطب امرأة كريمة في مَنْصب شَرَف إلى أهلها، فلما آن وقْت العقد، واجتماع الأشراف والأكابر، وإتيان الرجل إلى الحضور أُعْلِمَ عشيّة ذلك اليوم ليتأهب للحضور، فتراه المرأة وأكابر الناس، فأخذ في التأهب والتزيين والتجميل، فأخذ من فضول شعره، وتَنَظّف، وتطيّب، ولبس أجمل ثيابه، وأتى إلى تلك الدار مُتَّقيًا في طريقه كلَّ وَسَخ وَدَنَس وأثر يصيبه أشدّ تقوى، حتى الغبار والدخان وما هو دون ذلك، فلما وصل إلى الباب رحَّب به رَبُّها، ومكَّن له في صدر الدار على الفرش والوسائد، ورمَقَتْهُ العُيُون، وقُصِدَ بالكَرَامة مِنْ كُلِّ نَاحِيَة.

فلو أنه ذهب بعد أخذ هذه الزينة، فجلس في المزابل، وتمرَّغ عليها، وتمعَّك بها، وتلطَّخ في بدنه وثيابه بما عليها من عَذِرة وقَذَر، ودَخَل ذلك في شعره وبَشَره وثيابه، فجاء على ذلك الحال إلى تلك الدار، وقصد دخولها للوعد الذي سبق له؛ لقام إليه البواب بالضَّرْبِ، والطَّرْدِ، والصياح عليه، والإبعاد له من بابها وطريقها، فرجع مُتَحَيِّرًا خاسئًا!! فالأول حال الراجي، وهذا حال المتمني.

وإن شئت مثّلْت حال الرَّجُلَيْنِ بمَلِك هو من أغير الناس، وأعظمهم أمانة، وأحسنهم معاملة، لا يضيع لديه حق أحد، وهو يعامل الناس من وراء سِتْر، لا يراه أحد، وبضائعه وأمواله وتجارته وعبيده وإماؤه ظاهر بارز في داره للعاملين، فدخل عليه رجلان، فكان أحدهما يُعامِله بالصدق والأمانة والنصيحة، لم يُجَرِّب عليه غِشًّا ولا خيانة ولا مكرًا، فباعه بضائعه كلها، واعتمد مع مماليكه وجواريه ما يجب أن يعتمد معهم، فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخيَّر له أحسن البضائع وأحبّها إليه... وكان

(١) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٢٦٠).

الآخر إذا دَخَل دَخَل بأَبْخَس بضاعة يجدها، ولم يُخَلِّصها من الغش، ولا نَصَح فيها، ومع ذلك فكان يخون الملك في داره إذْ هو غائب عن عينه، فلا يلوح له طمع إلا خانه، فمَضَى على ذلك مدة، ثم قيل: إن المَلِك يبرز لِمُعَامِليه حتى يُحاسِبهم ويُعطيهم حقوقهم، فوقف الرجلان بين يديه، فعامَل كل واحد منهما بما يَسْتَحِقّه.

فَتَأمَّل هذَيْن المَثَلَين؛ فَإِن الْوَاقِع مُطَابق لَهما، فالراجي على الْحَقِيقَة لما صَارَت الْجنَّة نَصْب عينه ورجاءه وأَمَلَه امْتَدَّ إِلَيْهَا قلبه، وسعى لَهَا سَعْيَها؛ فَإِن الرَّجَاء هُوَ امْتِدَاد الْقلب ومَيْله، وحَقَّق رَجَاءَهُ كَمَالُ التَّأَهُّب، وَخَوفُ الْفَوْت، وَالْأَخْذ بالحَذَر...

وامتداد الْقلب إِلَى المحبوب مُنْقَطِعًا عَمَّا يَقْطعهُ عَنهُ: هُوَ تَنَح عَن النَّفس الأمارة وأسبابها وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَهَذَا الامتداد والميل وَالْخَوْف من شَأْن النَّفْس المُطْمَئِنّة؛ فَإِن الْقلب إِذا انْفَتَحَت بصيرته، فَرَأى الْآخِرَة وَمَا أَعَدّ الله فِيهَا لأهل طَاعَته وَأهل مَعْصِيَته؛ خَافَ، وخفَّ مُرْتَحِلًا إِلَى الله وَالدَّار الْآخِرَة...

وَمن ها هُنَا صَار كل خَائِف راجيًا، وكل راجٍ خَائفًا، فَأُطْلِق اسْم أَحدهمَا على الآخر؛ فَإِن الراجي قلبه قريبُ الصّفة من قلب الْخَائِف: هَذَا الراجي قد نَحَّى قلبَه عَن مُجَاوَرة النَّفس والشيطان مرتحلًا إِلَى الله، قد رُفِع لَهُ من الْجنَّة عَلَم فَشَمّر إِلَيْهِ، وأَمَّه مَادًّا إِلَيْهِ قلبه كُله. وَهَذَا الْخَائِف فارٌّ مِنْهُ جوارهما، مُلْتَجِئ إِلَى الله من حَبْسهما له فِي سجنهما فِي الدُّنْيَا، فَيُحْبس مَعهَما بعد الْمَوْت وَيَوْم الْقِيَامَة... فَلَمَّا سَمِع الْوَعِيد ارْتَحَل من مُجَاوَرَة السّوء فِي الدَّاريْن، فَأُعْطِى اسْم الْخَائِف، وَلمّا سَمِع الْوَعْد امْتَدَّ واستطار شوقًا وفَرَحًا بالظَّفَر بِهِ، فَأُعْطى اسْم الراجي. وحالاه متلازمان لَا يَنْفَكّ عَنْهُمَا، فَكل راجٍ خَائِف من فَوَات مَا يرجوه، كَمَا أَن كل خَائِف راجٍ أَمنه مِمَّا يخَاف، فَلذَلِك تَدَاوَل الاسمان عَلَيْهِ»[(١)]. اهـ.

وقال الغزالي: «إن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبَذْر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها، ومجرى حَفْر الأنهار وسيَاقة الماء إليها، والقلب المُسْتَهْتِر في الدنيا، المُسْتَغْرِق بها؛ كالأرض السَّبِخَة التي لا ينمو فيها البَذْر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زَرَع، ولا ينمو زَرْع إلا من بَذْر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خُبْث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سبَخِةَ، فينبغي أن يُقَاس رجاءُ العبدِ المغفرةَ برجاء صاحب الزرع.

فكل من طلب أرضًا طيبة، وألقى فيها بذرًا جيدًا غير عَفِن ولا مُسَوّس، ثم أَمَدّه بما

(١) «الروح» (٢/ ٧٢٦ ـ ٧٣٠) بتصرُّف يسير.

يحتاج إليه؛ وهو سَوْق الماء إليه في أوقاته، ثم نقَّى الشوك عن الأرض والحشيش، وكل ما يمنع نبات البَذْر أو يفسده، ثم جلس مُنْتَظِرًا من فضل الله تعالى دَفْع الصواعق والآفات المُفْسدة إلى أن يتمّ الزرع، ويبلغ غايته؛ سُمِّي انتظاره رجاء.

وإن بَثَّ البَذْر في أرض صلبة سَبِخة مرتفعة، لا يَنْصبّ إليها الماء، ولم يَشْتَغل بتعهد البَذْر أصلًا، ثم انتظر الحصاد منه؛ سُمِّي انتظاره حُمْقًا وغُرُورًا، لا رجاء.

وإن بَثَّ البَذْر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، حيث لا تَغْلب الأمطار، ولا تَمْتَنِع أيضًا؛ سُمِّي انتظاره تَمَنِّيًا لا رجاء.

فإذن: اسم الرجاء إنما يَصْدُق على انتظار محبوب تَمَهَّدَت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره؛ وهو فضل الله تعالى، بصرف القواطع والمفسدات»[(١)].

ثم صَوَّر الرجاء بأنه: «حالة أثْمَرَهَا العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجُهْد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن مَنْ حَسُنَ بَذْره، وطابت أرضه، وغَزُر ماؤُه؛ صَدَق رجاؤه، فلا يزال يحمله صِدْق الرجاء على تفقُّد الأرض وتَعَهُّدِها، وتَنْحِية كل حشيش ينبت فيها، فلا يَفْتُر عن تَعَهُّدِها أصلًا إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرجاء يُضَادُّه اليأس، واليأس يمنع من التَّعهُّد»[(٢)].اهـ. وهكذا فيلزم أن يداوم على رجاء الله وحُسْن الظن به.



(١) «الإحياء» (٤/ ١٤٣) بتصرُّف.

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٤٤).

بعض المفاهيم الخاطئة للرجاء

الرجاء: عبادة قلبية صحيحة مطلوبة، لا بد أن تتحقق في قلب العبد، وإلا كان قانطًا كما سيأتي. ولكن هذا الرجاء فَهِمَه أقوام على غير وجهه الصحيح، فضلوا، وتاهوا، وانحرفوا في أودية الهَلَكَة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَخْرَجَت الفَسَقَةُ والذين يتبعون الشهوات الفسوق والعصيان في قَالَب الرَّجَاء، وحُسْن الظن بالله تعالى، وعدم إساءة الظن بِعَفْوِهِ، وقالوا: تجنُّب المعاصي والشهوات إزراء بعفو الله تعالى، وإساءة للظن به، ونسبة له إلى خلاف الجود والكرم والعفو»[(١)]. اهـ.

فهؤلاء مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ مَنْ عَطَّلَ الطَّعَامَ والشراب، وتوكَّل في حصول الشِّبَع والرِّيّ. وهكذا الرجاء، فمَنْ تَرَكَ طاعة الله ﷻ، والعمل بما أُمِر به، واقترف ما يغضبه ويسخطه عليه، وقال: أتكل على الرجاء، وعلى رحمة الله ﷻ؛ فهذا مغبون مغرور، قد غَرَّتْهُ الأماني الفارغة؛ كمثل القاعد عن السعي والعمل؛ تَوَكّلًا على الله تبارك وتعالى بزعمه، وإنما الوَاجِبُ على العبد أن يحذر على نَفْسه من معصية ربه، فالمعاصي والذنوب من أعظم الأمور التي تضُرّ العبد ضررًا مُحَقَّقًا في عاجله وآجله، ولكن العبد إذا غَلَبَهُ هَوَاه فإنه يَتَّكِلُ على عفو الله ومغفرته تارة، وربما انشغل بالتسويف بالاستغفار والتوبة تارة أخرى، فيُرَدِّد ذلك في نَفْسه، أو على لسانه دون أن يكون لذلك رصيد من واقعه، وربما تعَلَّلَ بالعِلْم، أو احتج بالقدر، أو احتج بالأشباه والنُّظَرَاء من الناس الذين يَتَعَاطَون هذه الأمور، ويفعلون هذه القبائح، ويتركون أمر الله تبارك وتعالى، ولربما اقتدى أو زعم أنه يقتدي ببعض الأكابر، وكثير من الناس يظن أنه مهما فعل من الذنوب والمعاصي، ثم قال: أستغفر الله؛ زال الذنب، وراح هذا بهذا!![(٢)].

وقد ذكر الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حال رجل من المُنْتَسِبين إلى الفقه، جرت بينه وبينه مُحَاورة، فقال: «قال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل، ثم أقول:

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٧٦٧).

(٢) انظر: «الجواب الكافي» (ص٣٦).

سبحان الله وبحمده مائة مرة، وقد غُفِر ذلك أجمعه، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَالَ فِي يوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ حُطَّتْ خَطَايَاهُ ولو كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**»(١).

وقال لي آخر من أهل مكة مرة: نحن ـ يعني: أهل مكة ـ أحدنا إذا فَعَل ما فَعَل اغتسل، وطاف بالبيت أُسْبُوعًا ـ يعنى: سبعة أشواط ـ فإن ذلك يكفي في محو جنايته وذنبه.

وقال لي آخر: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فقَالَ: أَيْ: رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْه لِي، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقال: أَيْ: رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقال: أَيْ: رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فقال اللهُ ﷻ: عَلِمَ عَبْدِي أنَّ لَهُ ربًّا يغْفِرُ الذَّنْبَ ويأْخُذُ بِهِ، قد غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فليَصْنَعْ مَا شَاءَ**»(٢)، قال: أنا لا أشك أن لي ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به»(٣). اهـ.

فيرى أن ذلك مُسَوِّغٌ له في تَرْك التوبة والإنابة إلى الله ﷻ، والاستمرار مع داعية الهوى، وشهوات النفوس، وتزيين الشيطان، فيكون ذلك مغرورًا، قد تعلَّق بنصوص الرجاء، وترك نصوص الخوف التي تَرْدعه، وتَزُمّ نَفْسه، فيستقيم على طاعة ربه ومليكه.

فهذا «إذا عُوتِبَ على الخطايا والانهماك فيها سَرَدَ لك ما يحفظه من سَعَةِ رَحْمَةِ الله ومغفرته ونصوص الرجاء.

والجُهَّال وأهل الأهواء لهم في هذا الباب غَرَائِب وعجائب؛ كقول بعضهم:

وَكَثِّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الخَطَايَا ... إِذَا كَانَ الْقُدُومُ عَلَى كَرِيمِ

وكان بعضهم يقول: التَّنَزُّهُ من الذنوب جَهْل بسعة عفو الله ﷻ.

وقال آخر: تَرْك الذنوب جُرْأَة على مغفرة الله، واستصغار لها.

وقال الحافظ ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: رأيت بعض هؤلاء يقول في دعائه: اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من العِصْمَة.

ومن هؤلاء من يتعَلَّق بمسألة الجَبْر في باب القدر، وأن العبد لا فعل له ولا اختيار، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٣) «الجواب الكافي» (ص٣٧ ـ ٣٨) بتصرُّف يسير.

ومن هؤلاء مَنْ يَغْتَرّ بمسألة الإرجاء، وأن الإيمان هو مجرَّد التصديق»[(١)].

وهذا يقع فيه كثير من الناس، من العامة والخاصة، يُسْرفون على أنفسهم في الذنوب والمعاصي، فإذا عُوتِبَ أحدهم قال: إذا سَلِمَ القلب، وصلحت نِيَّةُ العبد فإنه لا يضر ما فعل بعد ذلك.

وربَّما اتَّكَل بعضهم على ما يزعمه من محبة رسول الله ﷺ، أو ما يزعمه من قرابته.

ومن هؤلاء: مَنْ يَتَّكِلُ على نَسَبِه أو قَرَابَتِهِ من الصالحين أو معارفه، وتجد في بعض بلاد المسلمين من يتردد على القبور، ويعتقد في الأحجار والأشجار، ويُقَدِّم لها النذور.

ومنهم: مَنْ يَتَعَلَّق بأحد أقطاب الضلالة من الأحياء، وهم يزعمون أنهم قد حَصَّلُوا بذلك فضْل الله، ونالوا مغفرته وعفوه ورضاه!

ومنهم: من يغتر بأسلافه، وأن لهم عند الله مكانة وصلاحًا، فلا يَدَعُونه حتى يُخَلِّصوه من عذاب الله ﷻ، كما يُرَى في حال الناس في هذه الحياة الدنيا بين يدي المَلِك، فإذا كان لأحد من جلساء الملك قريب قد أخطأ أو حتى جناية خلّصوه من العقوبة، فيقيسون ذلك المقام في الآخرة على هذا المقام في الدنيا.

ومن هؤلاء: من يَغْتَرّ بأن رحمة الله ﷻ واسعة، وأن الله تبارك وتعالى غَنِيٌّ عن الخلق جميعًا، وأنه لا حاجة له بِتَعْذِيب أحد؛ فإن عذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئًا، فيقول: أنا مضطر إلى رحمته، وهو أغنى الأغنياء. ولو أن فقيرًا أو مسكينًا مضطرًّا إلى شَرْبَة ماء عند مَنْ هو في داره لما منعه منها، فيقول: الله أكرم مسؤول، وهو أغنى الأغنياء، ومغفرته لعبده لا تُنْقِصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا، وما علموا أن الله ﷻ تتجلّى أسماؤه وصفاته حينما يأخذ هؤلاء بالعقوبة، ويرحم الصالحين من عِبَاده. وقد أعد الله ﷻ النار دارًا لكل مُتَمَرِّد على طاعته وشرعه، وأَمْرِه ونَهيه، ونَسُوا ما أوقعه الله ﷻ من ألوان النِّقَم في الأُمَم المكذِّبَة، قديمًا وحديثًا، فلا تمنع رحمته من هذه العقوبات التي لا زالت آثارها شاهدة على عِظَمِ جُرْمِهِمْ، وعلى عِظَم الأَخْذَة التي أُخِذُوا بها، وعلى عِظَمِ الرَّبِّ الذي انْتَقَم منهم.

ومن هؤلاء: من يفهم بعض نصوص القرآن على غير وجهها، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]، فيقول: النبي ﷺ لا يمكن أن يرضى

---

(١) ما بين الأقواس من «الجواب الكافي» (ص٣٨ ـ ٣٩) بتصرُّف.

بتعذيب أحد مِنْ أمَّتِهِ. وذلك من أقبح الجهل، وأبْيَنِ الكذب عليه؛ فإنه ﷺ يَرْضَى بما يرضَى بِهِ رَبّه ﷻ، وقد أخبرنا النبي ﷺ بما يُعَذَّب به عمه أبو طالب، مع أنه كان يَحُوطُه ويمنعه، فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيتَ عن عمك؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»(١).

ومن ذلك أيضًا: اتِّكال بعضهم على قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذا أيضًا من أقبح الجهل؛ فإن الشرك داخل في هذه الآية، ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين، ولو كانت في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها، ولكن ليعلم المذنبون أن الله واسع المغفرة، فلا يقنطوا من رحمة الله، والنبي ﷺ أخبرنا عن صُنُوفٍ من الناس يُعَذَّبون، وَمَرَّ بِقَبْرَيْنِ وهما يُعَذَّبَان، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»(٢).

والنصوص الدالة على هذا المعنى كثيرة جدًّا لا تخفى، فمِنَ الغَلَطِ الفاحش أن تُؤْخَذ نصوص الرجاء ويترك ما بإزائها من نصوص الوعيد، وما أخبر الله عنه من شدة عذابه العُصَاة الآثمين.

وهؤلاء الذين يخرجون من النار وقد تفَحَّمُوا، فيُلْقَون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحِبَّة في حَمِيل السيل ـ كما صح به الخبر(٣) ـ أليسوا من أهل التوحيد؟ وكذلك الذين يخرجون بشفاعة الشفعاء، وبرحمة أرحم الراحمين، أليسوا من عصاة الموحدين؟

وكاغترار بعضهم بقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: ٦]، فيقول: غَرَّهُ كَرَمُه، ويقول بعضهم: إنَّهُ لَقَّنَ المُغْتَرَّ حُجَّته. وهذا من أقبح الفهم وأسْمَجِهِ، وإنما الذي غَرَّهُ بذلك الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد: ١٤]، والغَرور الشيطان، وهو كثير التغرير بابن آدم؛ يُزَيِّنُ له المعاصي، ويُنَفِّرُه من الطاعات؛ حتى يرى القبيح حسنًا والحَسَن قَبيحًا.

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٠٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢١٦) واللفظ له، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن هؤلاء: مَنْ يَغْتَرّ بقول الله ﷻ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]، ويقول عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٤، آل عمران: ١٣١]، ولم يَدْرِ هَذَا المغتر أن هذه نار مخصوصة أُعِدَّتْ للكافرين.

وإذا كانت تلك النار للكافرين فهناك نار العُصَاة مِنَ المُوَحِّدِين، وهذا أمر معلوم الاضطرار مِنْ دِينِ الله، ولا يُنَافي إعداد النار للكافرين أن يَدْخُلَهَا الفُسَّاقُ والظَّلَمَةُ، كما لا يُنَافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدْنَى مثقال ذرة من إيمان.

وبعضهم يَغْتَرّ بصيام يوم عاشوراء؛ أنه يُكَفِّر ذنوب سَنَة ماضية، ويوم عرفة يُكَفِّر ذنوب سَنَة ماضية وسَنَة آتية، ولم يَدْرِ المُغْتَرّ أن صوم رمضان، والصَّلَوات الخمس أعْظَم وأجلّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تُكَفِّر ما بينها إذا اجتُنِبَتِ الكبائر، فرمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تَكْفِير الصغائر ـ كما قال بعض أهل العلم ـ إلا مع انضمام تَرْكِ الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تَكْفِير الصغائر، فكيف يُكَفِّر صوم يوم تطوع كبائرَ العَبْدِ وذنوبه العِظَام التي عَمِلَهَا وهو لا يزال مُصِرًّا عليها غير تائب منها؟! هذا مُحَال، على أنه لا يَمْتَنِع أن يكون صوم يوم عرفة وصوم عاشوراء مكفِّرًا لجميع ذنوب العام على عمومه، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع.

ثُمَّ مِنْ أيْنَ لك أن تعلم أن الله قَبِل ذلك منك، وأن الله ﷻ قد غفر لك؟ بل ما يُدريك أن حَجَّك الذي حَجَجْت ـ سواء كان ذلك فرضًا أم كان نفلًا ـ أنه من الحج المبرور الذي يرجع الإنسان منه كيوم ولدته أمه؟ وإنما يحصل هذا الوعد وهذا الجزاء على هذه الأعمال إذا تحقَّقَت الشروط، وانتفتِ المَوَانِعُ، ورُبَّما كانت سوء طويَّة العبد مانعة من حصول المأمول وتحْقِيق القبول.

ألم يقل الله ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]؟! فهذا سبب لتكفير الصغائر إذا ترك العبد الكبائر[(١)]؛ فهذه أمور ينبغي أنْ يَتَفَطَّنَ لها الإنسان.

وكذلك فقَدْ يَغْتَرّ بعضهم بقول الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[(٢)]، «يعني: ما كان في ظنه فأنا فاعله به، ولا ريب أن حُسْن

---

(١) وقد روى مسلم (٢٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن، ما لم تُغْشَ الكبائر**».

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١، ٤/ ١٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع، ورُوِي عن غيره، وقد صحَّحه =

الظن إنما يكون مِنْ حُسْنِ العَمَلِ، فالمُحْسن حَسَن الظَّنِّ بِرَبِّهِ أن يجازِيَهُ على إحسانه، وأن يقبل توبته، وأما المسيء المُصِرّ على الكبائر والظلم، فإن وَحْشَة المعاصي تمنعه من حُسْن الظنِّ بِرَبِّه، وهذا موجود في الشاهد؛ فإن العبد الآبق الخارج عن طاعة سَيِّدِهِ لا يُحْسِن الظن به، ولا يُجَامِع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا.

كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمن أحسن الظنَّ بِرَبِّهِ فأحسن العمل، وإن المنافق أسَاءَ الظن فأساء العمل»[(١)].

وأما من هو شاردٌ عن ربه تبارك وتعالى، حَالّ مُرْتَحِل في مساخطه وما يبغضه، متعرِّض للفتنة، قد هَانَ حَقّه وأمره عليه فأضَاعَهُ، وهان نَهْيه عليه فارْتَكَبَهُ وأصَرَّ عليه»[(٢)]، فمثل هذا ماذا يرجو؟! وأي إحسان للظن في قلبه؟!

فلا يمكن أن يجتمع هذا الرجاء وحُسْن الظن بِقَلْب مَنْ يفعل هذه الموبقات، مع عِلْمه أنه ملاقٍ رَبَّهُ، وأنه مُقْبل عليه، وأنه سَيُحَاسِبُه، وأن الله مُطَّلِع على سِرِّهِ وعلانيته، يسمع كلامه، ويرى أفعاله، لا يخفى عليه منه خافية، وأنه موقوف بين يديه، مسؤول عن كل ما عمل، ثم بعد ذلك يَدَّعِي أنه يحسن الظن بالله ﷻ!! أليس ذلك من خُدَع النفوس وغرور الأماني؟! فما ظن أصحاب الكبائر بأنفسهم؟! وما ظنهم بالله إذا لقوا الله ﷻ وهم مُصِرُّونَ عليها، قد أخذوا حقوق العباد، وأكلوا أموال اليتامى، وضَيَّعُوا أمر الله ﷻ، ولو جاز ما قال هؤلاء فللعبد أن يصنع ما يشاء، ويرتكب كل ما نهى الله عنه، ما دام أنه يُحْسن ظنه بالله ﷻ.

فكيف يجوز ذلك وقد قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومِهِ الذين كانوا يعبدون الأوثان: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [الصافات: ٨٧]؟! أي: ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

والخلاصة: أنَّ حُسْنَ الظن بالله ﷻ يَقْتَضِي أن يُحْسِنَ الْعَبْدُ عَمَلَهُ، وأن يُصَحِّح سلوكه، وأن يستقيم على أمر ربه جَلَّ جَلَالُهُ، فهذا هو الذي يُحسن الظن بالله تبارك وتعالى؛ وإلا كان مُتَّبِعًا لهواه، فحُسْنُ الظن يكون مع انْعِقَادِ أسْبَابِ النجاة، وأما إذا انْعَقَدَتْ

= ابن حبان (٦٣٣ ـ ٦٣٥، ٦٤١)، والحاكم (٤/ ٢٤٠)، والذهبي، والسيوطي والألباني في «صحيح الجامع» (٤٣١٦). والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، دون قوله: **«فليظن بي ما شاء»**.

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٤٤) واللفظ له، وإسناده صحيح.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الجواب الكافي» (٤٤ ـ ٤٥).

أسباب الهلاك فلا مَحلَّ لحسن الظَّنِّ، بل العبد بحاجة إلى مزيد من الخوف من أجل أن يرعوي.

يقول معروف الكَرْخي رَحِمَهُ اللهُ: «رَجَاؤُكَ لِرَحْمَةِ مَنْ لا تُطِيعُه مِنَ الخذلان والحُمْق»(١).

وكان بعض أهل العلم يقول: «من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تَأْمَن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا»(٢).

وقيل للحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: نراك طويل البكاء! فقال: «أخاف أن يطرحني في النار ولا يُبالى»(٣).

وسألَهُ رجل، فقال: يا أبا سعيد! كيف نصنع بِمُجَالسة أقوام يُخوِّفُونَنَا حتى تكاد قلوبنا تتقطَّع؟ فقال: «والله لأن تَصْحَبَ أقوامًا يخوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أمْنًا خير لك من أن تصحب أقْوَامًا يُؤَمِّنُونَك حتى تلحقك المَخَاوِف»(٤).

ويشهد لقول الحسن رَحِمَهُ اللهُ ما ثبت عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عَزَّ وَجَلَّ أنه قال: «**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلَا خَوْفَيْنِ؛ إِنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ فِيهِ عِبَادِي، وَإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ فِيهِ عِبَادِي**»(٥).

ولربما اغتر بعضهم بما يرى من إغداق الله عَزَّ وَجَلَّ عليه من نعمه في هذه الدنيا؛ كما حكى الله تعالى عن الذي قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وكذلك ما حكاه عن صاحب الجنة: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]، وكذلك ما جاء عن بعض المشركين في عهد النبي ﷺ من أهل مكة؛ حيث إنهم ادَّعَوْا بَعْضَ هذه الدعاوى الباطلة.

ومعلوم أن الدنيا لا تُقَاسُ بِالآخِرَة، ولو كانت الدنيا تُسَاوي عِنْدَ الله جناح بعوضة

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٥١)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٧٨).

(٢) «الجواب الكافي» (ص٥١).

(٣) المصدر السابق (ص٥١)، وانظر: «صفة الصفوة» (٣/ ٢٣٣).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠٣) واللفظ له، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في «الوجل» (٣).

(٥) أخرجه ابن حبان (٦٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٩٨) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحديث صحَّحه ابن حبان، والألباني في «الصحيحة» (٧٤٢)، وضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» (٧٧٨١). راجع: «إتحاف الخيرة» (٩/ ٦٣)، و«الضعيفة» (٢٩٨٦).

ما سَقَى منها الكافر شَرْبَة ماء، فالدنيا يعطيها الله ﷻ لمن يُحِب ومن لا يُحِب، وأما الآخرة فلا يُعْطِيها إلا لمن يُحِبّ.

وقد قال بعض السلف: «إذا كان الرجل على معصية الله، فأعطاه الله ما يحب على ذلك؛ فليعلم أنه في استدراج منه»(١). والله يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ يعني: على الكفر ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

وبالجملة؛ فلا يغتر بزخرف الحياة الدنيا إلا الغافلون، وأنت تَرَى أهل الكفر فيما هم فيه من رَغَد العيش والنِّعْمة السابغة، وما ذلك إلا لأن لهم الدنيا، وأن العاقبة للمتقين.

عن الحسن رحمه الله قال: «مُكِر بالقوم ورب الكعبة، أُعْطُوا حاجتهم ثم أُخِذُوا»(٢).

وعن قتادة رحمه الله في قوله: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]، **قال**: «بَغَتَ القومَ أَمْرُ الله، وما أَخَذَ الله قومًا قط إلا عند سَلْوتهم وعِزَّتِهِمْ ونعْمَتِهِمْ، فلا تغْتَرّوا بالله، إنه لا يَغْتَر بالله إلا القوم الفاسقون»(٣).

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال بعض السلف: «رُبَّ مُسْتَدْرَج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مَغْرُورٍ بِسَتْرِ الله عليه ولا يعلم، ورُبَّ مَفْتُونٍ بثناء الناس عليه وهو لا يعلم»(٤).

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أمورًا كثيرة تبعث على الحذر من مُقَارَفَة ما لا يليق، ومن الاتِّكَالِ على سَعَةِ رَحْمَةِ الله ﷻ، وترك العمل، «فالله تبارك وتعالى أخرج الوالدين من الجنة دار النعيم واللذة البهجة والسرور إلى دار الآلام والأكباد والأحزان والمصائب بسبب أَكْلة أكلاها، وأخرج إبليس من ملكوت السماء، وطَرَدَهُ، ولَعَنَهُ، ومَسَخَ ظاهره وباطنه، وبَدَّلَهُ بالقُرْبِ بُعْدًا، وبالرَّحْمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظَّى،

---

(١) أخرجه ابن المبارك (٣٢١) واللفظ له، من كلام عقبة بن مسلم، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٣٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٧٧) عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤٤) من كلام أبي حازم رحمه الله بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩١).

(٤) «الجواب الكافي» (ص٧٩).

وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحَمِيد أعْظَم عداوة ومُشَاقَّة، وبِزَجِل التسبيح والتقديس والتهليل زَجِل الكفر والشرك والكذب والزور والفُحْش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهَانَ عَلَى الله غاية الهوان، وسَقَطَ مِنْ عَيْنِه غاية السقوط، وحلَّ عليه غضَبُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وتعالى، فأهْوَاهُ ومَقَته أكْبَرَ المَقْتِ، فأرداه، فصار قَوَّادًا لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقِيَادة بعد تلك العبادة والسِّيَادة، فعياذًا بالله مِنْ حَاله وحال أتباعه»[١].



(١) المصدر السابق (٩٨ ـ ٩٩) بتصرُّف.

المُلَازَمة بين الخوف والرجاء

الخوف والرجاء أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فكل من يرفع يديه ويسأل ربه، فهو جامع بين الخوف والرجاء؛ يُؤَمِّلُ أن يحقِّقَ رَبّهُ مسألته، وأن يحصل على مطلوبه، وهو خائف في الوقت نَفْسه من فَوَات هذا المطلوب، وكما أن كل عابد فهو سائل ربه بفِعْله وعمله، وتَقَلُّبه في طاعة الله ﷻ.

فهذه العبادات والوظائف التي يتقرب بها المُتَقَرِّبون إلى ربهم ﷻ إنما هي نوع سؤال يسألونه بها الجنة، ويعوذون بها من النار، فكل داع بلسانه أو بحاله وفعله فهو جامع بين الخوف والرجاء، راغب راهب لله تبارك وتعالى.

يقول الله تعالى عن أهل النجاة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]، فلا يُتَصَوَّر أن تخلو حال العبد المُقْبِل على الله ﷻ بالدعاء والمسألة بالقول أو بالفعل، من رغبة ورهبة، ومِنْ رَجَاء وخوف، وبهذا نعلم أن كل راج فهو خائف، وبذلك يتبين وجه الارتباط بين الخوف والرجاء.

وقد قال جماعة من المفسرين في قول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣]؛ أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة؟! فكل راج خائف من فَوَات مَرْجوِّه[(١)]، وهذا يُفَسّر لنا وجه ارتباط الرجاء بالخَوْف، وأن الرَّاجِي خائف أن يفوت مطلوبه ورحمة الله وجنته.

فمن علامة صحة الرجاء في العبد كون الخوف باطنًا في رجائه؛ لأنه لما تحقق برجاء شيء خاف فَوْته لِعِظَم المرجوّ في قلبه، وشدة اغتباطه به، فهو لا ينفك في حال رجائه من خوف فَوْت المَرْجُو، والرجاء هو ترويحات الخائفين؛ ولذلك سَمّتِ العرب الرجاء خوفًا؛ لأنهما وصفان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، ومن مذهبهم أن الشيء إذا كان لازمًا لشيء أو وصفًا له أو سببًا له؛ أن يُعَبِّروا عنه به، فقالوا: مَا لَك لا ترجو

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٦/ ٧٨).

كذا؟ وهم يريدون: مَا لَك لا تخاف؟ وعلى هذه اللغة جاء قول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، والمعنى: ما لكم لا تخافون لله عَظَمَة؟! وهو أيضًا أحد وجهي تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ أي: يخاف من لقائه[١]. كما ذكرنا سابقًا.

أيا عَجَبًا للنَّاسِ في طُولِ مَا سَهَوْا ... وفِي طُولِ ما اغْتَرُّوا وفي طول مَا لَهَوْا
يَقُولُونَ نَرْجُو اللَّهَ ثُمَّ اغْتَرُّوا بِهِ ... ولَوْ أنَّهُمْ يَرْجُونَ خَافُوا كَمَا رَجَوْا[٢]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والخشْيَة أبدًا متضمِّنة للرَّجَاء، ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أن الرجاء يَسْتَلْزِمُ الخوف، ولولا ذلك لكان أمْنًا؛ فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مَدَحَهُم الله، وقد رُوِي عن أبي حيان التيمي أنه قال: «العلماء ثلاثة: عَالِمٌ بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله»[٣]. فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه»[٤]. اهـ.



(١) «قوت القلوب» (ص٣٣٢ ـ ٣٣٣).
(٢) «ديوان أبي العتاهية» (ص٢٥٧).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٧٩)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٧٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٤٣) واللفظ له.
(٤) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٠ ـ ٢١)، وراجع: (٣/ ٣٣٣) (٧/ ٥٣٩).

الرجاء دواء يضعه الحكيم في موضعه

حين نتكَلَّم عن الصبر أو الرضا أو التوكّل، أو حينما نتحدث عن محبَّةِ الله ﷻ، أو غير ذلك من الأعمال القلبية؛ فقد نُسْهب في هذا الحديث، ونذكر من الآيات، والأحَادِيث، وأقاويل الصحابة، وما جاء عن سلف هذه الأُمَّة ما يُرَغِّبُ في هذه الأعمال، ويُعَمِّقُها في النفوس حتى ترتاض عليها، ويتعاظم ذلك في قلب العبد، فيكون مُتَوكِّلًا على الله ﷻ حقّ التوكل، ويُقْبِل بكُلِّيَّته على ربه حتى يَمْتَلِئَ القلب بمحبة الله ﷻ، فلا يبقى فيه محل للتعلق بِأَحَدٍ مِنَ المخلوقين، لكن حينما نتحدَّث عن الرجاء؛ فهل نحن بحاجة إلى أن نتحدث بنَفْس هذه الطريقة؟

الجواب: لا؛ لأن هذا الرجاء إذا تعاظم في النفوس بَعَثَ على طول الأمل وسعته، لا سيما ونحن في زمان قد غلبَ على عامة الناس فيه الرجاء، وصار كثير منهم يَرْتع في أودية المعصية غير مُبَال، وإذا ذُكِّرَ بالله ﷻ نَفَر؛ فهؤلاء بحاجة إلى مزيد من التخويف، وإلى تربية المهابة في نفوسهم؛ ولذلك لا يحسن أن تُطْرح نصوص الرجاء على الناس بتوسع.

وفي باب الرجاء جملة صالحة من أحاديث الرجاء، أعرضتُ عن ذكرها؛ لئلّا يغترّ بِهَا مَنْ لا فِقْه لَدَيْهِ، ولا معرفة صحيحة بالنصوص؛ فإنَّ الرجاء وأحاديث الرجاء إنما يُحدَّثُ بها **أحَدُ رجلين**:

الأول: رجل أسرف على نَفْسه، حتى ظن أنه هالكٌ لا مَحَالَةَ، وأنه لا توبة له، فقنط من رحمة الله، وظنَّ أن الله لا يغفر له ذنبه، وأن ذنوبه أعظم من أن تُغْفَر، فهذا يحتاج إلى مَنْ يُحَدِّثُه عن سَعَةِ رحمة الله؛ حتى يبعث الأمل في قلبه، فيُقْبِل على رَبِّهِ.

والآخر: رجل نَظَر في نصوص الوعيد والخوف، فغلب ذلك على حاله، فَأَضَرَّ بنفسه، فبالغ في العمل حتى أضر بِمَنْ معه ممَّن يَعُولهم؛ من أهل وولد، وتجاوز الحد الشرعي، كما يفعله بعض من تَرَهَّبَ، فهؤلاء بحاجة إلى بيان سعة رحمة الله ﷻ وعفوه.

والمقصود: أن عرض هذا الموضوع يحتاج إلى لَوْنٍ من الفقه، كما قال بعض أهل العلم: «يجب أن يكون واعظ الناس مُتَلطّفًا، ناظرًا إلى مواضع العِلَل، معالجًا كل علّة بما يليق بها»(١).

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٠).

فهذا الزمان ينبغي أن تُسْتَعمل فيه نصوص الرجاء بقدر محدود، على قدر الحاجة، ولكل حالة ما يناسبها من الوعظ والتذكير؛ إذ أكثر الناس اليوم بحاجة إلى مزيدٍ من التخويف بالله ﷻ، ومِنْ عَذَابِهِ ونقمته.

يقول علي رضي الله تعالى عنه: «ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يُقَنِّط الناس من رحمة الله، ولا يُؤَمِّنهم من عذاب الله»(١).

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرَّحل قال: «**يا مُعَاذُ بن جَبَل!**» قال: لبَّيْكَ يا رسول الله وسعديك، قال: «**يا مُعَاذُ!**» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثلاثًا، قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**» قال: يا رسول الله! أَفَلا أُخْبِر به الناس فَيَسْتَبْشِرُوا، قال: «**إذًا يَتَّكِلوا**»(٢).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «قال العلماء: يُؤخَذ مِنْ مَنْع مُعَاذ من تبشير الناس لئلّا يَتَّكِلُوا: أن أحاديث الرُّخَص لا تُشَاع في عُمُوم الناس؛ لئلا يقْصُر فهمهم عن المراد بها، وقد سمعها معاذ فلم يَزْدَد إلا اجتهادًا في العمل وخشية لله ﷻ، فأمَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَنْزِلَتَهُ فلا يُؤْمَن أن يُقَصِّر اتِّكَالًا على ظاهر هذا الخبر»(٣).اهـ.

ولذلك؛ فإنَّ عمر رضي الله تعالى عنه ضرب أبا هريرة رضي الله عنه لما خرج بنعل رسول الله ﷺ يُبَشِّر مَنْ لَقِيَهُ مِنْ وَرَاءِ الحائط ممن يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بالجنَّة، فضربه عمر حتى سقط على قفاه، وعلَّل ذلك عمر للنبي ﷺ قائلًا: إني أخشى أن يتَّكِلَ الناس عليها، فخلِّهِمْ يعملون. قال رسول الله ﷺ: «**فَخَلِّهِمْ**»(٤).



(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٨) واللفظ له، ومسلم (٤٧).
(٣) «فتح الباري» لابن حجر (١١/٣٤٨).
(٤) أخرجه مسلم (٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المؤمن بين الخوف والرجاء

ما الأفضل والأكمل في حال المؤمن: أن يُغَلِّبَ الرجاء، أو الخوف، أو أن يستوي عنده الخوف والرجاء، أو أن ذلك يختلف من حالٍ إلى حال؟

وللعلماء في ذلك مذاهب متعددة:

١ ـ **فمن أهل العلم مَنْ يَقول**: ينبغي أن يُغَلِّب الخوف؛ ليحمله ذلك على الامتثال بفعل الطاعة، وترك المعصية.

٢ ـ **ومنهم من يقول**: ينبغي أن يُغَلِّب الرَّجَاء، ويَسْتَدِلّون على ذلك بقول النبي ﷺ في الحديث السابق فيما يرويه عن ربِّهِ تَبَارَكَ وتعالى: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[(١)].

٣ ـ **ومِنْهُمْ مَنْ فرَّق فقال**: إذا فعل الطاعة رَجَا القبول، وأحسن الظن بالله، وإذا تاب رَجَا قبول التوبة، كما قال بعض السلف: «إِنِّي لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا أُلهمت الدُّعاء فإن الإجابة معه»[(٢)].

وأما إذا هَمَّ بالمعصية أو قارفها، فإنه يُغَلِّبُ الخَوْفَ مِنْ أَجْلِ أن يتوب أو يَنْزَجِرَ عنها، إن كان ذلك قبل مُوَاقعتها، ولكن يشكل على ذلك قول الله ﷻ في صفة أهل الإيمان والنجاة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١]. وقد سألت عائشة رضي الله تعالى عنها ـ كما سبق ـ عن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ**»[(٣)].

قال الألباني رحمه الله تعالى: «والسِّر في خوف المؤمنين أَلَّا تُقْبَل منهم عبادتهم

(١) تقدم تخريجه.
(٢) نقله ابن القيم في «الفوائد» (ص١٤١)، و«الجواب الكافي» (ص٢٩) وغيرهما.
(٣) تقدم تخريجه.

ليس هو خشيتهم ألا يُوَفِّيَهم الله أجرهم؛ فإن هذا خلاف وعد الله إيَّاهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: ١٧٣]، بل إنه ليزيدهم عليها؛ كما قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]، والله تعالى لا يخلف وعده، كما قال في كتابه.

وإنما السِّر أن القبول مُتَعلِّق بالقيام بالعبادة كما أمر الله ﷻ، وهم لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله، بل يظنّون أنهم قصَّروا في ذلك؛ ولهذا فهم يخافون ألَّا تُقْبَل منهم.

فليتأمَّل المؤمن هذا عسى أن يزداد حِرْصًا على إحسان العبادة والإتيان بها كما أمر الله»(١). اهـ.

وهذا مما يؤيّد القول بأن كُلَّ رَاجٍ خائف ولا بُدَّ، وكل خائف راج ولا بُدَّ، فالمؤمن يعمل العمل الصالح يرجو به رحمة الله، وهو في ذات الأمر يخاف ألَّا يُقْبَل منه، وأن يُرَدّ عليه.

وهؤلاء إنما حملهم على هذا الخوف مع الطاعة عِلْمهم أن القبول والمغفرة مُرَتَّب على تحقيق الشروط وانتفاء الموانع، وهم لا يعلمون أَقُبِلَ ذَلِكَ منهم أم لم يُقْبَلْ؟ وهل حقَّقوا الشروط وانتفت الموانع في حقهم؟

ولذلك؛ كان بعض السلف يتمنى أنْ لو علم أن الله قد قبل منه سجدة واحدة؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: ٢٧].

فعن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال: «دخل سائل إلى ابن عمر رضي الله عنهما فقال لابنه: أعْطِهِ دِينارًا، فلمَّا انصرف قال له عقيل: تقبَّل الله منك يا أبتاه، فقال: لو علمتُ أنَّ اللهَ تَقبَّل مِنِّي سَجْدَة واحدةً، أو صَدَقَةً دِرْهَم لم يكن غَائِبٌ أحبَّ إليّ مِنَ المَوْت. تدري ممن يَتَقَبَّلُ؟ إنما يتقبَّلُ الله من المتقين»(٢).

وذُكِر عن عامر بن عبد الله العنبري أنه حين حضرته الوفاة بَكَى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقد كنتَ وكنتَ! فقال: «يبكيني أني أسمع الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: ٢٧]»(٣).

(١) «السلسلة الصحيحة» (١/ ٣٠٦).
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣١/ ١٤٦).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٧٩)، وذكره ابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ٢١٢) واللفظ له.

والمقصود: أن حديث عائشة ﵂ المتقدم يُشْكِلُ على قَوْل من قال بأن العبد في حال الطاعة عليه أن يُغَلِّب الرجاء، وفي حال المعصية يُغَلِّب الخوف.

الـنَّـاسِـكُـونَ يُـحَـاذِرُو ... نَ وَمَـا بِـسَـيِّـئَـةٍ أَلـمُّـوا
كـانُـوا إِذَا رَامُـوا كَـلَا ... مًـا مُـطْـلَـقًـا خَـطَـمُـوا وَزَمُّـوا
إِنْ قِـيـلَـتِ الْـفَـحْـشَـاءُ أَوْ ... ظَـهَـرَتْ عَـمُـوا عَـنْـهَـا وَصَـمُّـوا
فَـمَـضَـوْا وَجَـاءَ مَـعَـاشِـرٌ ... بِـالْـمُـنْـكَـرَاتِ طَـمُـوا وَطَـمُّـوا
فَـفَـمٌ لِـطُـعْـمٍ فَـاغِـرٌ ... وَيَـدٌ عَـلَـى مَـالٍ تَـضُـمُّ
عَـدَلُـوا عَـنِ الْـحَـسَـنِ الْـجَـمِـيـ ... ـلِ وَلِـلْـخَـنَـا عَـمَـدُوا وَأَمُّـوا
وَإِذَا هُـمُ أَعْـيَـتْـهُـمُ ... شُـفَـعَـاؤُهُـمْ كَـذَبُـوا وَأَمُّـوا
فَـالـصَّـدْرُ يَـغْـلِـي بِـالْـهَـوَا ... جِـسِ مِـثْـل مَـا يَـغْـلِـي الْـمُـحَـمُّ[(١)]

٤ ـ **وطائفة رابعة من أهل العلم قالوا:** يَتَعَيَّنُ على العبد أن يسوّيَ بَيْنَ الخوف والرجاء، كما قال الإمام أحمد ﵀: «ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحدًا»[(٢)]؛ ولهذا قال الله ﷿: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن جُزي ﵀: «جَمَعَ الله الخوف والطمع؛ ليكون العبد خائفًا راجيًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]»[(٣)]. اهـ.

يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «القلب في سَيْرِهِ إلى الله ﷿ بمنزلة الطائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سَلِمَ الرَّأْس والجناحان فالطائر جيّد الطَّيَرَانِ، ومتى قُطِعَ الرَّأْسُ مات الطائر، ومَتَى فُقِدَ الجَنَاحَان فهو عُرْضه لكل صائد وكاسِر، ولكن السَّلَفَ استحبّوا أن يقْوى في الصحة جَنَاح الخوف على جَنَاح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقْوى جَنَاح الرجاء على جَنَاح الخوف. هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: «ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فَسَدَ». وقال غيره: «أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب؛ فالمحبة هي المَرْكَب، والرَّجَاء حَادٍ، والخوف سَائِق، والله المُوَصِّل بمَنِّهِ وَكَرَمِهِ»[(٤)]. اهـ.

وقد قال سهل بن عبد الله ﵀: «الرجاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا اسْتَوَيَا

(١) «المدهش» (ص٤٧٩).
(٢) «مسائل الإمام أحمد» لابن هانئ (٢/ ١٧٨).
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢/ ٣٥).
(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٧).

اسْتَقَامَتْ أحْوَالُهُ، وإن رَجَحَ أحدهما بطل الآخر»[١]؛ **ولهذا قال بكر بن عبد الله المزني**: «ولو أن مناديًا ينادي من السماء: أنه لا يدخل الجنة منكم إلا رجل واحد لكان ينبغي لكل إنسان أن يَلْتَمِسَ أن يكون هو ذلك الواحد؛ ولو أن مناديًا ينادي من السماء: أنه لا يدخل النَّار منكم إلا رجلٌ واحد لكان ينبغي لكل إنسان أن يَفْرَق أن يكون هو ذلك الواحد»[٢].

فهذا جَمَع بين الخوف والرجاء على حد سواء.

وقد قيل لعمر رضي الله تعالى عنه حينما طُعِن: ألا تَسْتَخْلِف؟ قال: «إن أَسْتَخْلِف فقَدِ اسْتَخْلَف مَنْ هو خيرٌ مني: أبو بكر؛ وإن أَتْرُك فقد تَرَك من هو خير مني: رسول الله ﷺ»، فأثنوا عليه، فقال: «راغب وراهب، وددتُ أني نجَوْتُ منها كَفَافًا، لا لي ولا عليَّ. لا أتحملها حيًّا ولا ميتًا»[٣].

٥ ـ ومنهم: من فصَّل، فقال: يُغَلِّب الخوف في حال الصحة، ويُغَلِّب الرجاء عند اقتراب الموت، وفي حال الاحتضار. وهذا القول ذهب إليه جمعٌ كَثِيرٌ مِنْ أهل العلم[٤]، وهو من أحسن هذه الأقوال.

يقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحًا، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف»[٥]؛ وذلك أن الإنسان في حال القوة والعافية والصحة بحاجة إلى شيء من التخويف، من أجل أن يَسْتَحِثّه ذلك على المزيد من الأعمال الصالحة، ومن أجل أن يَنْكَفّ عن كل ما لا يليق.

وأمّا إذا كانت الدنيا وراء ظهره، وقد يَئِسَ منها، وصار في حال يُوشِك فيها أن يُوافي عمله، وأن يلقى ربَّه تبارك وتعالى، فإنه عندئذ لا تتحرّك نَفْسه للمعصية، فينبغي في هذه الحال أن يَقْدُم على الله ﷻ قُدُوم العبد الذي قد حَسُن ظنُّه بالله تبارك وتعالى؛ لما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال قبل موته بثلاثة أيَّام: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ** ﷻ»[٦].

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٠٧).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٢٤).
(٣) أخرجه البخاري (٧٢١٨) واللفظ له، ومسلم (١٨٢٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٤) وبه قال النووي في «رياض الصالحين» (ص٢١٧)، وابن جزي في «تفسيره» (٢/ ٣٥)، والألوسي في «تفسيره» (١٥/ ١٠٠).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٩).
(٦) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

ولكن قد يُشْكل على هذا القول حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ دَخَلَ على شاب وهو في الموت ـ يعنى: النَّزْع ـ فقال: «**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**» قال: والله يا رسول الله! إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»(١)، فهَذَا الرجل أخبر أنه قد جَمَع بين الخوف والرجاء وهو في حال النَّزْع، وقد أخبر النبيّ ﷺ عندئذ أنهما لا يجتمعان في قلب في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه، وأمَّنَه ممَّا يَخاف.

فهذا الحديث يدعو إلى مزيد من النَّظَر والتأمّل في هذا القول الذي عليه كثير من أهل العلم من المحققين من السَّلَف والخلف رضي الله تعالى عنهم.

وقد جاء عن إبراهيم النخعي رحمه الله **أنه قال**: «كانوا يَسْتَحِبُّون أن يُلَقِّنُوا العبد محاسن عمله عند موته، لكي يُحسن ظنه بربه»(٢).

وفي خَبَرِ وفَاةِ عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه، حينما بكى عند موته، واستقبل الجدار، وأدار ظهره لمن حَضَرَه، ومنهم ابنه عبد الله، فَجَعَل يُذَكِّرُه بأعماله الصالحة، وصُحْبته لرسول الله ﷺ، ونُصْرَته إيَّاه، وهِجْرَته إليه، وما إلى ذلك مما يقوّي الرجاء في نفسه(٣).

وقد قال المُعْتَمِر بن سليمان رحمه الله: قال لي أبي حين حَضَرَتْهُ الوفاة: «يَا مُعْتَمِر، حدثني بالرُّخَص، لعلي أَلْقَى الله وأنا حَسَن الظن به»(٤).

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله **يقول عند موته**: «لقد رجوتُ ممَّنْ ألبسني بين الأحياء ثوب عافيته ألَّا يُعَذِّبَنِي بعد الممات، وقد عرفتُ جود رأفته»(٥).

وقال: «إني لأرجو أن يكون توحيد لم يعجز عن هَدْم ما قَبْله مِنْ كُفْر، لا يعجز عن محْوِ ما بعده من ذنب»(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٦١)، وأعله البخاري بالإرسال كما في «العلل الكبير» (ص١٤٢)، وجود إسناده النووي في «خلاصة الأحكام» (٢/ ٩٠٢)، وابن الملقن في «تحفة المحتاج» (١/ ٥٨٣)، وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (٤/ ١٤١)، والهيتمي في «الزواجر» (١/ ١٤٩)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٠٥١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٢٩)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٢٨)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٧٧) واللفظ له، أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣١).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٣٨).

(٦) المصدر السابق (١٠٤٢).

فهذا يدلُّ على أنه قد غَلَّب حال الرجاء عند موته، وأخبارهم في ذلك كثيرة مستفيضة، ولعل من أحسن ما يُقَال في ذلك، ومن أوضحه ما عَبَّر عنه الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث قرَّرَ أنه «يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله، راجيًا له، راغبًا، راهبًا؛ إن نظر إلى ذنوبه، وعَدْل الله، وشدَّة عقابه خَشِيَ رَبَّهُ وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص، وعفوه الشامل رَجَا وطَمِع، وإن وُفِّق لطاعة رَجَا مِنْ رَبِّهِ تَمَامَ النِّعْمَةِ بقبولها، وخاف من ردِّها بتقصيره في حقها، وإن ابتُلِي بمعصية رَجَا من ربّه قبول توبته ومحوها، وخشي بسبب ضَعْف التوبة والالتفات للذنب أن يُعَاقَب عليها.

وعند النّعم والمَسَارّ يرجو الله دوامها، والزيادة منها، والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر مِنْ سَلْبِهَا.

وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها، وينتظر الفرج بحلّها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين: فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه، إذا لم يُوَفَّق للقيام بالصبر الواجب.

فالمؤمن الموحِّد في كل أحواله مُلازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب، وهو النافع، وبه تحصل السعادة»[(١)].

فالله تبارك وتعالى قد خَوَّفَ العاصين بِغَضَبِهِ وعقابه ليُخَوِّفوا أنفسهم بما خوَّفَهُم، فيتوبوا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ورجَّى التائبين من عباده على تَرْكِهِم الذنوب لئلَّا يقنطوا، فيقيموا على ذنوبهم، ورجَّى العاملين ليبعثهم الرجاء على الأعمال التي تُقَرِّبُ إليه.

فينبغي على العبد أن يضع الرجاء في موضعه الذي وضعه الله عَزَّ وَجَلَّ فيه، فإذا هَمَّ بالمعصية خَوَّفَ نَفْسه من عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ، فإِنْ غَلَبه هواه فواقَعَها خَوَّف نَفْسه بالله وبِعَذَابِهِ من أجل أن يتوب، فإذا تاب رَجَّى نَفْسه بقبول التوبة، ولا يَقْنَط ولا ييأس من رحمة الله تبارك وتعالى، وإذا نزعت نَفْسه إلى الإصرار على هذه المعصية عاتَبَ نَفْسه وذكَّرَهَا بأن الله عَزَّ وَجَلَّ شديد العقاب، وأَنَّ غَضَبه لا يُقَاوَمُ، وأن عذابه لا صبر لأحد عليه؛ لِيَرْعَوِي، ويترك هذا الذنب، ولا يُصِرّ عليه، فإذا حصل في قلبه شيء من تَكَاثُر الذنوب فَتَعَاظَمها، فإنه يحتاج إلى الرجاء ليمتدّ أَمَلُه، فيكون ذلك حاملًا له على حُسْن العمل، وعلى التوبة إلى الله تبارك وتعالى؛ فالله غفور لمن أناب إليه وتاب.

هكذا ينبغي أن يكون حال العبد؛ فلا يَصِل إلى حال القنوط، ولا يزداد عنده

---

(١) ما بين الأقواس من كلام السعدي في «القول السديد» (ص٢١٣).

الرجاء، فيكون قد أَمِن مَكْر الله ﷻ[١].

فهذا يكون على سِيرَة مَرْضِيَّة، وحالة مستقيمة، حتى يُوافِي رَبَّهُ تَبَارَكَ وتعالى بهذه الحال؛ وهذه هي طريقة القرآن؛ حيث يَقْرن بين أسماء المَخَافَة وبين أسماء الرجاء؛ قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

عَيْنٌ تُسَرُّ إِذَا رَأَتْكَ وَأُخْتُهَا ... تَبْكِي لِطُولِ تَبَاعُدٍ وَفِرَاقِ
فَاحْفَظْ لِوَاحِدَةٍ دَوَامَ سُرُورِهَا ... وَعِدِ الَّتِي أَبْكَيْتَهَا بِتَلَاقِي[٢]

فيجمع العبد في قلبه بين هذين الأمرين، كما صَوَّر الشاعر حال العينين، هذه تبكي، وهذه تُسَرّ وتفرح.

ولهذا قال بعض السلف: «مَنْ عَبَدَ الله تعالى بالحُب وحده فهو زِنْدِيق، ومن عَبَدَ الله بالخوف وحده فهو حَرُوري، ومَنْ عَبَدَهُ بالرجاء وحده فهو مُرْجِئ، ومَنْ عَبَدَهُ بالحُبِّ والخوف والرَّجَاءِ فهو مؤمن»[٣]، وقد جَمَع الله هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ فابتغاء الوسيلة الذي ذكره الله في هذه الآية هو محبته الداعية إلى التقرّب إليه. ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف؛ فهذه هي طريقة أولياء الله المتّقين»[٤].

وذَكَر الطَّمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الله ﷻ قال في الدعاء: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال في الذِّكر: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فذَكَر الخِيفة في حال الذِّكر، وذَكَر الطَّمع والخوف في حال الدعاء؛ وذلك لأن الدعاء مبنيٌّ على الطَّمع والخوف؛ لأن الداعي إن لم يُوجَد عنده الطَّمع في إجابة سؤاله لم يدع.

وذَكَر الله الخوف في آية الذِّكْر لشدة حاجة الخائف إليه[٥].

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في تغييب الله عن عباده خواتيمَ أعمالهم حكمة بالغة، وتدبير لطيف؛ وذلك أنه لو علم أحد خاتمة عمله لدخل الإعجابُ والكسلُ مَن عَلِم أنه يُخْتَم

---

(١) انظر: «الرعاية لحقوق الله» للحارث المحاسبي (ص٣٤٩ ـ ٣٥٥).
(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢١٩)، و«المدهش» (ص٤٥٤).
(٣) تقدم.
(٤) ما بين الأقواس من: «بدائع الفوائد» (٣/ ٨٥١) بتصرُّف يسير. وراجع: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٠٧).
(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٨٥٣).

له بالإيمان، ومَن عَلِم أنه يُخْتَم له بالكفر يزداد غيًّا وطغيانًا وكفرًا، فاستأثر الله تعالى بعلم ذلك ليكون العباد بين خوف ورجاء، فلا يُعْجَب المُطيع لله بعمله، ولا ييأس العاصي من رحمته»[١]. اهـ.

ولذلك؛ لمَّا عَرَف إبليس عاقبته ومآله جَدَّ وَاجْتَهَدَ فِي مزيد من محادّة الله ﷻ والغواية، وإضلال الناس عن سلوك الصّراط المستقيم.

وفي هذا المقام ـ أعني: كون العبد بين الخوف والرجاء، وأنه يُلَازِم كلّ واحد منهما ـ يُخْشَى عليه من **آفتين اثنتين**:

الأولى: استيلاء الخوف.

الثانية: استيلاء الرجاء.

والقنوط من رحمة الله تبارك وتعالى، واليأس من رَوْحِهِ له **سببان**:

الأول: أن يُسْرِفَ العبد على نَفْسه، ويُكْثِر من الذنوب والمعاصي، ويُصِر عليها، وعندئذ ينقطع طمعه من رحمة الله ﷻ لإقامته على أسباب الهَلَكَةِ، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخُلُقًا مُلَازِمًا، وهذا غاية ما يريده منه الشيطان.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بسبب ما جَنَتْ يداه من الجرائم، ويضعف عِلْمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، فيظنّ بجهله أن الله ﷻ لا يغفر له ولا يرحمه، ولو تاب وأناب، فتضعف إرادته عند ذلك، وييأس ويقنط من رحمة الله ﷻ، ويَدَع الإنابة والتوبة.

وأمّا الأمن من مكر الله تبارك وتعالى فله **سببان أيضًا**:

الأول: أن يكون العبد مُعْرِضًا عن دين الله تبارك وتعالى، غافلًا عن معرفة ربِّه ومليكه ﷻ، وما له من الحقوق، متهاونًا بذلك؛ فلا يزال مُعْرِضًا غافلًا عن الواجبات، مُنْهَمِكًا في المحرَّمات، حتى يَضْمَحِل خوف الله من قلبه، ويتلاشى، ويموت هذا القلب، ولا يُوجَد فيه من الإيمان شيءٌ مؤثِّر ومحرّك إلى التوبة أو الأعمال الصالحة.

والثاني: أن يكون العبد من العُبّاد الجُهّال، فَيُعْجَب بشيء من أعماله الصالحة، فلا يزال به جهله حتى يغْتَرّ بعمله، فيترحَّل الخوف من قلبه، ويرى أن له عند الله منزلةً ومقامًا عظيمًا؛ فعند ذلك يَتَّكِل على هذه الأعمال القليلة، ويُخْذَل في الحال التي يكون أحوج ما يكون فيها إلى ألطاف الله ﷻ ورحمته[٢].

---

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ٢٠٣).

(٢) انظر: «القول السديد» (ص٢١٤).

منزلة الرجاء

عرفنا أن الرجاء حَادٍ يحدو بالعبد إلى رَبِّهِ تبارك وتعالى، فـ«لولا رَوْح الرجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح، وهُدِمَتْ صَوَامِع وبِيَع وصلوات ومساجد يُذْكَر فيها اسم الله كثيرًا؛ بل لولا رَوح الرجاء لما تحرَّكَتِ الجوارح بالطاعة، ولولا رِيحُه الطيبة لما جَرَت سُفُن الأعمال في بحر الإرادات»(١).

وإذا كان العبد لا يرجو ثوابًا عند الله ﷻ، وحظًّا في الدار الآخرة؛ فلماذا يعمل؟ ولماذا يجتهد؟ ولماذا يقوم بوظائف العبودية؟ كما قال الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

لَوْلَا التَّعَلُّقُ بِالرَّجَاءِ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسُ المُحِبِّ تَحَسُّرًا وَتَمَزُّقَا
لَوْلَا الرَّجَا يَحْدُو المَطِيَّ لمَا سَرَتْ ... بِحُمُولِهَا لِدِيَارِهِمْ تَرْجُو اللِّقَا(٢)

وقد قال بعض أهل العلم واصفًا الرجاء والخوف: «الرجاء والخوف جَنَاحان، بهما يطير المُقَرَّبون إلى كل مقام محمود، ومطيَّتَان بهما يُقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود؛ فلا يقود إلى قُرْب الرحمٰن، ورَوْح الجِنان، مع كونه بعيد الأرجاء، ثقيل الأعباء، محفوفًا بمكاره القلوب، ومَشَاقّ الجوارح والأعضاء؛ إلا أَزِمَّة الرجاء، ولا يصدّ عن نار الجحيم، والعذاب الأليم، مع كونه محفوفًا بلطائف الشهوات وعجائب اللذّات؛ إلا سِيَاط التَّخويف، وسَطَوَات التَّعنيف»(٣).

وقد قال الله ﷻ عن أهل الإيمان: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فلا تتمّ للعبد العبودية إلا بالخوف والرجاء.

وكما يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «فبالخوف يَنْكَفّ عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات»(٤). اهـ.



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٢) مع حذف ثلاث أبيات بين البيتين.
(٣) «الإحياء» (٤/ ١٤٢).
(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٨٩).

الرجاء في الكتاب والسُّنَّة

تَقَدَّمَت الإشارةُ إلى أن نصوص الرجاء كثيرة جدًّا، ولسنا بصدد عرضها وتتبعها؛ لئلا يغْتَرَّ بها مُغْتَرّ فيَهْلِك، **ولكن لا بأس بذكر طرف منها.**

قال الله ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٦].

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال في هذه الآية: قال الله ﷻ: **«أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَمَنْ اتَّقَانِي فَلَمْ يَجْعَلْ مَعِي إِلَهًا، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ»**(١).

وقد تكلم العلماء رحمهم الله على أرْجَى آية في كتاب الله ﷻ(٢)، **فمنهم من قال** ـ وهو المشهور ـ: إن أرجى آية في القرآن هي ما رجَّى الله ﷻ به الفاسقين العاصين الظالمين بقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وقد اختار ذلك جمع من الصحابة فمن بعدهم؛ كابن مسعود(٣)، وابن عمر(٤)، وعبد الله بن عمرو بن العاص(٥)، وغيرهم رضي الله عنهم جميعًا.

فهذه الآية أضاف الله ﷻ فيها العباد إلى نَفْسه فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾، وهم أهل الظلم والمعاصي والإسراف، وفي هذا بشارة لهم.

ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب فقال: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط فقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، فغير

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٢٨)، وابن ماجه (٤٢٩٩)، قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٢٣): «حسن غريب»، وصحَّحه السيوطي في «الجامع الصغير» (٨٤٩٢)، وحسَّنه الألباني في تخريج كتاب «السُّنَّة» (٩٦٩)، وحكم عليه العراقي في «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٥٦) بالبطلان، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٠٦١).

(٢) راجع: «تفسير البغوي» (٢/ ٢٣٣، ٨/ ٤٥٥)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ٤٤٦ ـ ٤٤٨)، و«حلية الأولياء» (٣/ ١٧٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٥٨، ٨٦٦١).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٩٦).

(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٠٩)، والحاكم (٧٦٧٠).

المسرفين على أنفسهم بالذنوب والمعاصي أن يَشْمَلَهم هذا التَّلَطُّف في الخطاب من باب أولى.

وقال بعض أهل العلم: إن أرجى آية في كتاب الله ﷻ هي آية الدَّين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢][(١)]؛ وذلك أن الله ﷻ قد احتاط لمال المؤمن هذه الاحتياطات الكثيرة، فأمر بكتابة الدَّيْن، وأمر بالإشهاد عليه، وأن يكون الكاتب كاتبًا بالعدل، وألَّا يأبى الكاتب أن يكتب كما علَّمه الله ﷻ، وعلَّمه كيف يُمْلِي إن كان لا يستطيع الكتابة، إلى غير ذلك من الاحترازات الكثيرة التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآية، والتي هي أطول آية في كتاب الله تبارك وتعالى، فقالوا: إن الذي احتاط لمال المؤمن هذا الاحتياط حري بألَّا يطرحه في النار إذا تاب إليه، وأقبل وأناب.

وقال بعض أهل العلم: هي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النور: ٢٢][(٢)].

وسبب نزولها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حَلَف ألَّا يَصِل مسطحًا رضي الله عنه، وكان قريبًا لأبي بكر، وكان يصله لفقره وقرابته، فلما خاض فيما خاض فيه أهل الإفك؛ حَلَف أبو بكر ألَّا يَصِلَه بعد ذلك؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢][(٣)].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن أرجى آية هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨][(٤)].

وقال بعضهم: هي قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١١٠﴾ [النساء: ١١٠][(٥)].

وقال آخرون: هي قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]، وهذا مروي عن علي رضي الله عنه[(٦)].

---

(١) انظر: «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٤٤٦)، والإتقان (٤/ ١٢٩ ـ ١٣٦)، و«أضواء البيان» (٦/ ١٨٣).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١٠/ ٤٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ١٨١)، و«التسهيل» (٣/ ٦٣)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ٤٤٦)، و«الإتقان» (٤/ ١٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) حُكِي عن علي رضي الله عنه. انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ٢٣٢).

(٥) حُكِي عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «البحر المحيط في التفسير» (٤/ ٥٩).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٧٩).

وقال بعضهم: هي قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢](١).

ولكن لا بد من ملاحظة أن ذلك مَقْرُونٌ بالتوبة، بل هو دعاء إلى التوبة بأَلْطف عبارة؛ بأسلوب العرض الرَّقيق: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ﴾ [المائدة: ٧٤].

ونحن نستفيد من هذا أمرًا آخر: وهو ما نقع فيه أحيانًا، حينما نشتط في النظر إلى إساءة المسيئين، فندعو الله ألَّا يتجاوز عنهم، وألَّا يغفر لهم، وأَلَّا يوفقهم إلى التوبة إذا كانوا من المسلمين، وإن كانوا من غير المسلمين ألَّا يوفقهم إلى الإسلام، فلماذا؟ وهذه سعة رحمة الله ﷻ ومغفرته.

وأما ما جاء في السُّنَّة من أحاديث الرجاء فكثير؛ كقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(٢).

وكقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»(٣).

وفي الحديث الآخر: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فقال تَبَارَكَ وتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عادَ فأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فقَالَ تبَارَكَ وتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثمَّ عادَ فأَذْنَبَ، فقال: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذنْبِي، فقالَ تَبارَكَ وتعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فعَلِمَ أن لَهُ رَبًّا يغْفِرُ الذَّنْبَ، ويَأْخُذُ بالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**»(٤).

وكقوله ﷺ: «**لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**»(٥).

وفي حديث آخر: «**إِنَّ للهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ**

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٦٣)، عن أبي عثمان النهدي.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أخرجه البخاري (٣١٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)]، وفي رواية: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً؛ فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ**»[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثمَّ خرَجَ يَسْأَلُ، فأَتَى رَاهِبًا فسَأَلَهُ، فقال لَهُ: هل مِنْ تَوْبَةٍ؟ قال: لَا، فقتَلَهُ. فجعَلَ يَسْأَلُ، فقَالَ لهُ رجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذا وكَذا، فأدْرَكَهُ الموْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فاخْتَصَمَتْ فِيه مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلَائِكَةُ العَذَابِ، فأوْحَى اللهُ إِلى هَذهِ أنْ تقرّبي، وأوْحَى الله إلى هذه أن تباعَدي، وقال: قِيسُوا ما بَيْنَهُما، فوُجِدَ إلى هذه أقْرَب بِشِبْرٍ، فغُفِرَ لَهُ**»[(٣)].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قدم علَى النبي صلى الله عليه وسلم سَبْي، فإذا امرأة من السَّبْي قد تَحْلُب ثَدْيَهَا تسْقِي، إذا وجدَت صَبِيًّا في السَّبْي أخذَتْهُ فألْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وأرْضَعَتْه، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قلنا: لا، وهِيَ تقْدِر على ألَّا تطْرَحَهُ، فقال: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»[(٤)]. إلى غير ذلك من الأحاديث.

وهذا القدر القليل الذي ذكرناه يبعث على الإقبال على الله عز وجل، فينْفَرِج الأمل أمام العبد بسَعَة رحمة الله تبارك وتعالى، فيتوب ويُحْسِن العمل مهما كانت ذنوبه السابقة، وكثير من الناس يسأل، أو يتساءل في نَفْسه: هل له من توبة؟ وربما اتَّهم بعضهم نَفْسه بالنِّفَاق؛ لأنه يتوب، ثم يعصي الله عز وجل، ثم يتوب، ثم يعصي الله عز وجل، ثم يتوب، فيُوسوس له الشيطان: بأنك منافق، فأنت تتوب ثم تنقُض هذه التوبة، وتخفي من أعمالك السيئة ما الله مُطَّلع عليه، ثم تبدو أمام الناس في ثوب الإحسان والعمل الصالح، فأنت منافق!!

فينبغي على العبد ألَّا يحمله الذنب ـ وإن تكرَّر ـ على اليأس والقُنوط؛ بل عليه أن يتوب، وهو بندمه وتوبته وإقباله على الله عز وجل ليس بمنافق؛ فالمؤمن هو مَنْ سَرَّتْه حَسَنَتُهُ وساءَتْهُ معْصِيَتُهُ. وكم غر الشيطان بهذه الخُدعة من أقوام، فتركوا صراط الله المستقيم، نعوذ بالله مِنَ الخذلان.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢)، واللفظ له، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠٠).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٧٠) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٦).
(٤) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٤).

عَلِّقْ رَجَاءَكَ باللَّه وحدَه لا شريك له

سبق معنا أن الرجاء يتعلَّق بالخير، فالإنسان يرجو الأمور المحبوبة. وأمّا الخوف فإنه يكون من الشرور، فيخاف الإنسان ما يضره ويؤذيه؛ فالراجي يطلب حصول المنافع والأمور الخيِّرَة المحبوبة، وهو أيضًا في نَفْس الوقت يخاف من الشر.

ومعلوم أن الذي يأتي بالحسنات والسيئات إنما هو الله وحده لا شريك له، فهو يقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، ويقول: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٢]، فكل خير ونعمة تنال العبد، فإنما هي مِنَ الله ﷻ، وكل شَرٍّ ومصيبة تندفع أو تنْكَشِفُ عنه، فإن الذي يمنعها هو الله، فهو وَحْدَهُ القادر على كَشْفِ الضُرِّ والبؤس، فهي وإن جَرَتْ بعض أسباب كشفها على يَدِ بعض المخلوقين، أو جَرَتْ بعض أسباب تحصيل المنافع على يد بعض المخلوقين، فإن الله ﷻ خالِقُ الأسباب كلها، ولا حول ولا قوة إلا به، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وإذا كان الأمر بهذه المثابة؛ فينبغي للإنسان أن يطلب ذلك من الله وحْدَهُ، فيكون رجاؤه مُعَلَّقًا بالله، وخوفه من الله دون ما سواه؛ لأن المخلوق لا حول له ولا طَوْلَ ولا قُوّةَ، فالله هو مُسَبِّب الأسباب، وهو خالق كل شيء، ونواصي العِبَادِ تحت قَبْضَته وتَصَرّفه، وأزِمَّة الأمور إليه؛ فينبغي أن نُقْبِل عليه خوفًا ورجاءً.

ثم إن هذه الأسباب التي تحصل بها المنافع، وتَنْدَفع بها الشرور والمخاوف لا تستقل بنفسها، بل لا بد لها من مُعَاون، ولا بد أن يُمنع المُعارِض المُعوِّق؛ فهذا المطر سبب للنبات، ولكنه يحتاج إلى وَضْع البذور، وحَرْثِ الأرض وتنقيتها من الشوائب، كما أنه بحاجة إلى تسميدها، كما أن هذا النبات بحاجة إلى دفع الآفات التي تُفسده وتقضي عليه؛ فلا بد من تحقُّق الشروط وانتفاء الموانع، فهذه الأسباب لا تقوم بمُجَرَّدها في تحصيل المطلوبات.

ثم لا يكون بعد ذلك إلا ما شاء الله أن يكون، فما شاء الله كان، ولو لم يشأه الناس، وما لم يشأ الله ﷻ لا يمكن أن يكون، ولو اجتمع مَنْ بِأَرْجَائِهَا من الأوَّلِينَ والآخرين على تكوينه وإحداثه، وقد قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أن ينفعوك بشيء لم يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيء قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، ولَوِ اجْتَمَعُوا**

عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»(١).

فلا حاجة لأن يُذِل العبد نَفْسه للخَلْق؛ لما لهم من رئاسة أو مُلْك، أو لما لهم مِنْ مَال وثَرْوة وتجَارة، فهم عبيد ضعفاء، ولا يملكون لأنفسهم حولًا ولا طَوْلًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

أرأيتم الطبيب الذي تتعلَّق به نَفْس المريض، أليس يمرض ثم يموت؟! أين الأطباء عَبْر القرون الذين عالجوا كثيرًا من المرضى وداووهم؟ إنهم يمرضون كما يمرض غيرهم. وهؤلاء الملوك، وأهل الثروة والقوة والمَنَعة، تنزل بهم الآفات والمُنَغِّصات والأكدار، فيحصل لهم ما يحصل لغيرهم، ويموتون، وتفنى عنهم أجنادهم وثرواتهم، ولا يبقى إلا الواحد الذي لا نِدَّ لَهُ ولا شريك؛ فينبغي أن نتقرَّب إليه بأنواع القُرُبات، وأن نُعَلِّقَ قلوبنا به؛ فليس يملك النَّفْع والضر أحد سواه، فهذه هي حقيقة التوحيد الذي ينبغي أن يستقر في نفوس العابدين، ومِنْ ثَمَّ فلا يكون هناك محل في قلب المؤمن للتوكُّل على أحد سوى الله ﷻ، أو الخوف من غير الله؛ فالذي يحْمِلُ على تَرْكِ أمر الله والتعَلّق بالمخلوقين بالمُدَاهنة وارْتِكَاب ما لا يليق قِلَّة العلم بالله، وقد تكلّم على هذا المعنى كثير من أهل العلم؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه(٢)، وكذلك الحافظ ابن القيم(٣)، وهذا مفاد ما ذكروه وخلاصته.

ولهذا قال من قال من أهل العلم: «إنَّ الالتفات إلى الأسباب والتعلّق بها شِرْكٌ في التوحيد، ومحْوُ الأسباب أن تكون أسبابًا نقصٌ في العقل، كما أن الإعراض عن الأسباب بالكُلِّية قَدْحٌ في الشَّرْع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧، ٨] أمره ببذل السبب مع تعلق الرغبة بالله ﷻ، وقدَّم المعمول ـ الجار والمجرور ـ مما يدلُّ على أن الرغبة إنما تُوَجَّه إلى الله وحْدَه؛ كما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، كما قال أيضًا في التوكل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رَجَا قوة أحد، أو عمله، أو علمه، أو حاله، أو غير ذلك، غير ناظر إلى الله؛ كان فيه نوع توكل على ذلك السَّبب، وما رجا أحد مخلوقًا أو توكَّل عليه إلا خاب ظنه، وقد يصل به ذلك إلى الشرك بالله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ۝٣١﴾ [الحج: ٣١].

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦٦).
(٣) انظر: «الفوائد» (ص١٢٤ ـ ١٢٦).

والمشرك ـ كما هو معلوم ـ يخاف المخلوقين ويرجوهم، فيحصل له بسبب شركه رُعْب؛ كما قال الله ﷻ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٥١]»[(١)]، فالباء هنا تدل على السببية؛ ولذلك فمن تَرَحَّلَ التوحيد من قلبه، وصار اعتماده على المخلوقين سَاوَر القلقُ قلبَه، وخالطه مخالطة عظيمة، تمنعه من اللذَّات، بل وتمنعه من النوم، فهو في حال لا يعلمها إلا الله ﷻ، بخلاف مَنْ أخْلَصَ لله ﷻ، فإن له الأمن التام في الدنيا والآخرة، وهو في غاية الطمأنينة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، (**لَهُمُ**) الأمن الكامل التام، ولهم الاهتداء الكامل، والعلماء رحمهم الله يقولون: إن الحكم المُعلَّق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فالحكم هنا: الأمن والاهتداء، عُلِّقَ على وصف، وهو الإيمان الذي لم يُخالِطه الشرك، فيزيد بزيادته، وينقص بنقصانه.

فعلى قدر توحيد العبد، ويقينه، وإقباله على الله ﷻ يكون له من الطمأنينة والسكينة وراحة القلب والاهتداء؛ ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ واصفًا شيخ الإسلام ابن تيمية: «وعَلِمَ الله ما رأيتُ أحدًا أطيب عيشًا منه قطّ، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها... وكُنَّا إذا اشْتَدَّ بِنَا الخوف، وساءت منَّا الظّنُون، وضاقَتْ بِنَا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نَرَاه، ونسمع كلامه فيذهب ذلك كُلّه، وينقلب انشِرَاحًا، وقوَّة، ويقينًا، وطُمَأْنِينة»[(٢)].اهـ. وهذا شيء مُشَاهد؛ فإن مِن الناس مَن يجد في قلبه وحشة، ويجد مَخَاوِف لا يدري ما سببها، فإذا نَظَر إلى بعض الوجوه التي قد امتلأت قلوب أصحابها من محبة الله ومعرفته والتوكل عليه؛ ذهب ذلك الذي يجده في قلبه.

وكان بعضهم يقول: «كنتُ إذا رأيتُ من قلبي قسوة نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع، وكان وجهه كأنه وجه ثَكْلى»[(٣)]؛ لما يبدو عليه من أمارات الخوف من الله ﷻ، والإشفاق منه.

فالمقصود: أن الاعتماد على المخلوقين، وتعليق القلب بهم نوع من الإشراك بالله ﷻ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٧) بتصرُّف.
(٢) «الوابل الصيب» (١٠٩ ـ ١١٠).
(٣) تقدم تخريجه.

فهذا أحد أسباب الحرمان، بل هو أحد أسباب نزول المكْرُوه بهذا الخَائِفِ، «فإنه على قَدْرِ خَوْفِكَ من غير الله يُسَلَّطُ عليك، وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان»[(١)]. ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]؟! أي: زادوهم خوفًا.

ثم يُقَال أيضًا: إن هذا الرجاء الواقع من العبد من جهة تعلُّقه بالقلب والعمل، تارة يكون العبد راجيًا بعمل يعمله لمن يرجوه؛ كأن يتقرَّب إلى هذا الإنسان بقَرَابين وأعمال، وربما فَعَل ذلك وذاك المرجو لا يشعر؛ فهذا نوع من العبادة، ويكثر عند أولئك الذين ترَحَّلَ الخوف والرجاء من الله ﷻ عن قلوبهم، فامتلأت قلوبهم تطلُّعًا إلى المخلوقين، وإقبالًا عليهم، فصار ذلك المخلوق ربًّا ومعبودًا لهم، يتقرَّبُون إليه بألوان القربات، ويخافونه ولو لم يكن بحضرتهم.

وتارة يعتمد قلب العبد على هذا الإنسان اعتمادًا مباشرًا باللّجوء إليه، وسؤاله، والتضرّع إليه، وهذا نوع من الاستعانة بغير الله فيما لا يجوز إلا لله، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فلا يُسْتَعَان بغير الله، كما أنه لا يُعْبَد غير الله.

ومن هنا نعلم أن كل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول ولا بد، وكل عابد له فهو راغب وراهب، يرجو رحمته، ويخاف عذابه، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، فعلى قدر نَقْص الرجاء من الله يكون رجاء المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف من الله يكون الخوف من المخلوق، ومَنْ عَمِلَ لِغَيْرِ الله رجاء أن ينتفع بما عمل له كانت صفقته خاسرة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور: ٣٩]، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وكما قيل: «اسْتَغْنِ عَمَّن شِئْت تَكُن نَظِيرَه، وَأَحْسِن إلى مَن شِئْت تَكُن أَميره، واحْتَج إلى مَن شِئْت تَكُن أَسيره»[(٢)].

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص٧٢).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٤٣)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٣٩).

ذكر بعض المُفَاضَلات في باب الرجاء

أولًا: المفاضة بين رجاء الثواب ورجاء المغفرة:

يمكن أن يُقال: إن هذه المفاضلة لا وجه لها؛ لأن الرجاءين متلازمان؛ وذلك أنه لا بد من تلازم الخوف والرجاء، فالمؤمن حين يعمل الحسنة يرجو ثواب ربه، وحين يقع في السيئة يرجو مغفرة ربه، وقد وَصَف الله عباده الصالحين فقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومن أهل العلم مَنْ رَجَّحَ رَجَاءَ المُحسن؛ لأنه محسن، فأَسْبَاب الرجاء قوية معه، ومنهم من رجح رجاء المُذْنِب؛ لأن رجاءه مَشُوب بالانكسار والذّل إلى الله ﷻ، بخلاف المُحسن؛ فإن رجاءه مُنْبعث من الإحسان، ولرُبَّمَا يحصل له شيء من الركون إلى عمله، أو يحصل له العُجْب والغُرور. أما المُذْنِب فإنه إذا تاب فهو مُنْكَسِر القلب، مُنْطَرِح بين يدي الله ﷻ، مُشْفِق، خائف منه، تغمره المَسْكَنة، فهو مُسْتحضر للذنب كأنه جبل يوشك أن يقع عليه، فهو أبعد ما يكون عن الغرور والعُجْب، ولكل من القولين وِجْهة كما لا يخْفَى.

ثانيًا: المفاضلة بين الخوف والرجاء؟

وقد اختلف الناس في ذلك على **ثلاثة أقوال**:

القول الأول: تفضيل الرجاء:

وذلك لأنه مُتَعلِّق بالرَّبِّ؛ لأن الإنسان إنما يرجو ربه؛ وذلك أن رحمة الله ﷻ من لوازم ذاتِهِ، وقد سبقت غضبه.

أما الخوف: فمتعلّق بالذنب؛ لأنه الباعث إليه، فالإنسان يخاف بسبب ذنوبه، وقد جاء عن علي رضي الله عنه: «لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه»[(١)].

وقالوا: إن الذي يتعلق بالربِّ أفضل مما يتعلّق بالذنب، والرجاء أعلق بالمحبَّة، والمحبة خير من الخوف، وأقرب العباد إلى الله ﷻ أحبهم إليه، والمحبة في جانب الرجاء أعظم.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٦) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٢/ ٥١٠).

وقالوا: لو أن اثنين من الملوك، أحدهما يُخْدَم خوفًا من العقاب، والآخر يُخْدَم محبة ورجاء في الثواب، فإن الذي يُخْدَم رجاء الثواب، ومن أجل محبته أكمل، وهذا القول ظاهر اختيار ابن القيم رحمه الله تعالى[١].

القول الثاني: تفضيل الخوف:

وذلك لأن فضيلة كل شيء هي بحسب ما يكون له من الثمرة، والخوف يجلب الطاعات، ويورث المراقبة في الأحوال والحركات والسكنات.

وأما الرجاء، فهو فضيلة مُكَمِّلة له، فعندئذ يرجو العبد الثواب والجزاء على هذه الأعمال الصالحة[٢]. وهذا فيه نظر من وجوه متعددة، لا تخفى على المُتَأَمِّل.

القول الثالث: التفصيل:

وهو الذي اختاره جَمْع من المحققين؛ فلا يقال: إن الرجاء أفضل بإطلاق، ولا الخوف أفضل بإطلاق.

قال ابن قدامه رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن قول القائل: أيما أفضل: الخوف أو الرجاء؟ كقوله: أيّما أفضل الخبز أو الماء؟ وجوابه أن يُقَال: الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا نُظِر إلى الأغلب، فإن استويا فهما متساويان. والخوف والرجاء دواء يُدَاوَى بِهِمَا القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن مِنْ مَكْرِ الله فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط فالرجاء أفضل»[٣].اهـ.

وإذا نظرنا في حال عموم الناس فقد نقول: إن الأفضل في حقهم هو الخوف؛ لأن الإسراف فيهم أكثر، والتفريط أَعَمّ وأشْمَل؛ ولذلك يمكن أن يُقَال: الخبز أفضل من البِنْسَلِين مثلًا، لأن الخبز يُدَاوَى به الجوع، والجوع لا يَنفَكّ عنه أحد، بل يُصِيبُ الجَمِيع. وأما البِنْسَلِين، فإنه يُدَاوَى به بعض المرْضَى.

وهذا على سبيل العموم والإجمال، فيما لو أراد أحد أن يفاضل بين الأمرين، والله تعالى أعلم.



(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٢٠)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ١٤٤).
(٢) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٨).
(٣) المصدر السابق (ص٣٨٧).

أنواع الرجاء

ينقسم الشيء باعتبارات عدة؛ فالإنسان مثلًا ينقسم باعتبار الجنس إلى ذكر وأنثى، وباعتبار الصحة والاعتدال إلى صحيح ومريض، وباعتبار الدِّين إلى مسلم وكافر، وباعتبار العقل إلى عاقل وغير عاقل. وهكذا الرجاء ينقسم باعتبارات عدة.

أولًا: أقسام الرجاء باعتبار من صدر عنه:

إذا نظرنا إلى الرجاء بهذا الاعتبار، فيمكن أن نجعله على **ثلاثة أقسام**:

الأول: الذي اتقى الله تعالى بفعل مَحَابِّه وتَرْك مَسَاخِطه، فهو يرجو الجنة، وهذا لون من ألوان الرجاء، وهو بالدرجة العالية من درجات أهل الإيمان.

الثاني: هو ذلك الرجل الذي أذنب ذنبًا أو ذنوبًا، ثم تاب منها، فهو يرجو أن يَقْبَل الله توبته، وأن يغسل حوبتَهُ. وهذا رجاء صحيح، يُؤْجَرُ العبد عليه، وقد جاء في الحديث الذي سبق ذكره: «**يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّك مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غفرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فيك وَلَا أُبَالِي**»[(١)].

الثالث: هو ذلك الرجل الذي أسرف على نَفْسه، وتَمَادَى في معصية الله تبارك وتعالى، وتَرَكَ أمْرَهُ، وجعله وراء ظَهْرِهِ، فهو يرجو مع ذلك الحَظْوَة عند الله، ويرجو النعيم المقيم على قِلَّة عَمَلٍ، مع تفريط وتسويف وإساءة، فهذا هو المغرور.

ثانيًا: أقسام الرجاء باعتبار مُتَعَلَّقه، وهو المَرْجُو:

يمكن أن نقسمه بهذا الاعتبار إلى **أربعة أقسام**:

الأول: رجاء الظَّفَر بالمطلوب، والوصول إلى المحبوب، سواء كان ذلك مُعَجَّلًا في الدنيا، أم كان ذلك في الآخرة؛ كرجاء دخول الجنة، ونيل الدرجات العالية فيها، وكرجاء الشرب من حوض النبي ﷺ، والنصر على الأعداء في الدنيا، أو رجوع الغائب.. إلى غير ذلك، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقال في الرزق: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: ٢٨]؛ أي: تُؤَمِّلها، بأن يُوَسَّعَ عليك في الرزق،

(١) تقدم تخريجه.

فتعطي لهؤلاء من القرابات وغيرهم ما يُوَاسِيهم، فهذا رجاء لأمر يكون في الدنيا.

الثاني: رجاء دوام النعمة، وبقائها، واستمرارها، وحفظها، فإذا كان مستقيمًا، فهو يرجو التثبيت على هذه الاستقامة، وإذا كان الله ﷻ قد أعطاه، وأَوْلَاه، ووسَّعَ عليه، فهو يرجو أن يبقى ذلك الإِفْضَال مُسْتَمِرًّا، فلا يُسْلَب هذه النِّعْمَة.

الثالث: رجاء دفع المكروه قبل أن يقع؛ كالذي يرجو أن يُنَجِّيه الله ﷻ من النار، وأن يُثَبِّته بالقول الثابت عند الاحتضار، ويرجو أن يُنَجِّيه من عذاب القبر، وأن يُؤَمِّنَه يوم الفزع الأكبر، فهذه أمور يخافها الإنسان ويحذرها، فيتعلَّق رجاؤه بدفع المكروه قبل وقوعه، كما أنه يرجو في الدنيا العافية والسلامة من الفتن والمصائب والآلام التي تُقْلِقُه، وتُزْعِجه.

الرابع: رجاء يتعلّق برفع ما وقع من المكاره، فإذا وقع به مكروه، أو نزلت به مصيبة، أو حصل له مرض، فإنه يتعلق أمله بالله ﷻ، ورجاؤه يبقى ثابتًا راسخًا، فيُحْسِن الظن بالله ﷻ أن يرفع ما نزل به من هذا البلاء، فمن الناس من إذا نزل به المرض أصابه من الهمّ والغمّ والهَلَع ما يصير معه بحالة لا يُنْتَفَع به معها، وهذا شيء مشاهد[١].

ثالثًا: أقسام الرجاء باعتبار مُتَعَلَّقه الزماني:

نستطيع أن نُقَسِّمه بهذا الاعتبار إلى **ثلاثة أقسام**:

فالرجاء تارة يكون مُتَعَلِّقًا بالزمن الحاضر، فالنبي ﷺ حينما قال لأصحابه: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ**»[٢]. فهو لا يتحدث عن المستقبل، وإنما يتحدث عن الأمر الحاضر الواقع.

وحينما يعمل الإنسان الأعمال الصالحة، ويقول: أرجو أن يتقبل الله ذلك، فهذا يتعلَّق بالزمن الماضي، ومثله لو سافر له ابن أو صاحب، فلما جاء وقت دخول البلد التي يمكن أن يكون هذا الإنسان قد بلغها في مجاري العادات، قال: أرجو أن يكون فلان قد دخل البلد، أو أرجو أن يكون الحاج قد وصل مكة، فهذا يتعلق بالأمر الماضي.

وأما ما يتعلق بالأمر المستقبل، فهذا ظاهر لا يخفى، فالإنسان يقول: أرجو أن يتغمدني الله برحمته.. أرجو أن أموت على مِلّة الإسلام.. أرجو أن أدخل الجنة، وما شابه ذلك[٣].

---

(١) انظر: «شعب الإيمان» (٣/ ٧).
(٢) أخرجه مسلم (١١١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).

درجات الرجاء

لعلّ ما ذُكِر عند الكلام على أنواع الرجاء يتبين منه أيضًا درجات الرجاء، ولكن لمزيد الإيضاح نقول:

إن الرجاء ليس على مرتبة ودرجة واحدة، بل هو على درجات، يزيد وينقص كغيره من الأعمال القلبية.

فالإيمان بضع وستون، أو بضع وسبعون شعبة، يزيد وينقص، وهكذا الخوف والتوكّل والمحبَّة والشكر والحَمْدُ إلى غير ذلك، وكذلك الرجاء، وعليه فيمكن أن نجعله **ثلاث درجات**:

الأولى: أن يعظُم في ظاهره حتى يصيرَ من قبيل الأمن مِنْ مَكْرِ الله ﷻ، فهذا أمرٌ مُحَرَّم، وهو أحطّ هذه الدَّرَجات.

الثانية: رجاء من فَرَّطَ، ويرجو أن يغفر الله له، لكن من غير توبة، مع خَوْفٍ من الله ﷻ، فلم يصل إلى حَدِّ الأمن من مكر الله.

الثالثة: هي الدرجة العليا، وهي أن يرجو رحمة الله ومغفرته، مع التسبب، والعمل الصالح، والإقبال على الله ﷻ بِكُلّيته، فإن صدر منه تقصير استغفر، وتاب، وسارَعَ بالإنابة إلى ربه ومليكه[١].



(١) انظر: «التسهيل» (٢/ ٣٥).

الطريق إلى تحقيق الرَّجَاء

الحديث عن تنمية الرجاء في النفوس مُرْتَبط بأمر قد سَبَقَ التَّنْبِيه عليه، وهو أن الرجاء إنما يُخَاطَب به مَنْ كَانَ الخوف غالبًا عليه حتى أضَرَّ به، أو بمن معه من أهل وولد، أو أن يكون قد قارف ما قارف من الرَّزايا والبلايا والذنوب حتى بلغ به الأمر إلى حد اليأس من رحمة الله ﷻ، فمثل هذا يُخَاطَب بهذه النصوص.

ومن جهة أخرى، فإن بعض فروعه ربما يحتاجه الواحد منَّا لنفسه أو لغيره في مواطن ليست بالقليلة، فالمريض، أو مَنْ خَسِرَ في تجارته، أو من أصيب بمصيبة، أحيانًا قد يحصل له من اليأس ما يَتَمَنَّى معه الموت، كما يقول أحدهم[1]:

أَلَا مَــوْتٌ يُـبَـاعُ فَـأَشْـتَـرِيـهِ ... فَـهَـذَا الْـعَـيْـشُ مَـا لَا خَـيْـرَ فِـيـهِ
أَلَا رَحِـمَ الْـمُـهَـيْـمِـنُ رَأْسَ حُـرٍّ ... تَـصَـدَّقَ بِـالْـوَفَـاةِ عَـلَـى أَخِـيـهِ

وقال آخر[2]:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا ... وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

فالإنسان قد يبلغ أحيانًا إلى حد اليأس والقنوط، فتُظْلِم الدنيا في عينيه؛ نظرًا لفشل في دراسته، أو في وظيفته، أو لمرض نزل به، أو لغير ذلك من الإيلام الذي لا ينفك عنه أحد، فتنغلق الأبواب في وجهه، فيحتاج إلى فتح باب الأمل والترجية، وأن هذا التقصير الذي وقع وما نتج عنه من وقوع الإنسان في عاقبة تفريطه ليس هو نهاية المطاف، بل يمكن أن يُسْتَدْرَك، وأن يُحَصِّل بتوفيق الله من فضل ربه أضعاف أضعَاف ما فاته.

ونحن حينما نَهْدِف إلى تنمية الرجاء في الأحوال التي نحتاج فيها إلى ذلك، فإننا نعمد إلى جملة أمور لا بد من ملاحظتها، **وهي**:

أولًا: ملاحظة إفضال الله على عباده، وذلك من جهات عدة، منها:

ذكر سوابق فضل الله على عباده، وأن الله ﷻ قد تَكَرَّمَ وتَفَضَّلَ عليهم بأمور كثيرة؛ من عافية، وهِدَايَة، وصلاح حال، وأرْزَاق من الأموال، وإنجازات كثيرة، ولكن أيام

---

(١) «التبيان» للوزير المهبلي، وقد تقدم.

(٢) «ديوان المتنبي» (ص٤٨٦) مع «العرف الطيب»، وقد تقدم.

العافية تُنْسَى سريعًا، وإنما يتذكر الإنسان أيام البلاء والمصائب: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

كما يجب النَّظَر في تفضُّل الله بمنّته وكرمه على عبده بدون سؤال منه أو استحقاق؛ فإن الله تبارك وتعالى يعطينا، ويغدق علينا من فُيُوض النِّعم الظاهرة والباطنة، دون أن نكون مستحقين لذلك. فإذا كان الإنسان مستقيمًا على طاعته، زاد في إكرامه والإنعام عليه، فجعل دنياه جنة ولو كانت أبعاضه تُقْرَض بالمقاريض؛ «فإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»[(١)].

كما ينبغي ملاحظة حال أهل الرجاء، وما تمَّ لهم من فضل، بحسن ظنهم بربهم وحسن أعمالهم.

ثانيًا: تذكر سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه، وأنه الرحمٰن الرحيم، الغني الرؤوف الكريم بعباده: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ [الحجر: ٤٩]:

فتحقيق الرجاء يحتاج معه العبد إلى تذكر هذا المعنى، ولا يتأتى له ذلك إلا بمعرفة الله ﷻ معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته؛ لأن هذا الرجاء مُتعلِّق باسم الله البَرّ الرحيم المحسن، فالرجاء كما قال ابن القيم رحمه الله: «عبودية وتَعلُّق بالله من حيث اسمه: المحسن البَرّ، فذلك التعلُّق والتعبّد بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أَوْجَبَ لِلْعَبْدِ الرَّجَاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري؛ فقوَّة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه»[(٢)].

وهذا إذا اسْتَحْضَرَهُ العَبْد انبعث الرجاء في قلبه، فقُوَّة الرجاء على حسب قوة معرفة العبد بربه، وبأسمائه وصفاته، وأنَّ رَحْمَتَهُ غلبت غضبه؛ ولذلك، فإن الذين ينفون الأسماء الحسنى، وأوصاف الله الكاملة، أو ينفون بعضها ويحرفونها، هؤلاء ينقص من رجائهم بِقَدْرِ ما نَفَوْا وحَرَّفُوا مِنْ أَسْمَائِهِ وصفاته ﷻ؛ إذ كيف تَحْسُنُ ظنونُهم بالله ﷻ وهم لا يؤمنون بِرَحْمَتِهِ، ولا برأْفَتِهِ، ولا بإحسانه، ولا بجوده، ولا بإفضاله على عباده؟! فَمِثْل هؤلاء الذين سَاءَتْ ظنونهم بربهم يَصْدُقُ عليهم قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [فصلت: ٢٣]، فأولئك لم يعلموا أن الله ﷻ يعلم كثيرًا مما يعملون، فظنّ الواحد منهم أنه يمكن أن يَخْفَى على ربه ﷻ أفعاله السيئة، فصار يَتَقَحَّم في أودية الهلاك من غير أن يرْعَوِي.

(١) ما بين الأقواس من «الوابل الصيب» (٢/ ٤٢).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢).

ثالثًا: أن نُنَمِّي محبَّةَ الله ﷻ في القلوب:

وتلك المحبة ـ كما عرفنا في الكلام على الملازمة بين الأعمال القلبية ـ لا شك أنها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالخوْفِ والرَّجَاء؛ «فعلى قَدْرِ تمَكّنِ محبَّةِ الله ﷻ من القلب يتنامَى خوفه من الله وتعظيمه ورجاؤه؛ وذلك الخوف والتعظيم لا يصحبه وحشة، بخلاف خوف المُسِيء، ورجاء المُحِب؛ لا يصحبه عِلة، بخلاف رجاء الأجير، وأين رجاء المُحِب من رجاء الأجير؟! وكم بين حال هذا وهذا؟!»[(١)].

رابعًا: تدَبُّر آيات القرآن:

وهذه حال الأبرار المقتصدين، فتجد الواحد منهم يناجي ربه بكلامه، «مُعْطيًا لكل آية حظّها من العبودية، فَتَجْذِب قلبه وروحه إليه آيات المحبّة والوداد، والآيات التي فيها الأسماء والصفات، والآيات التي تَعَرَّف بها إلى عباده بآلَائه، وإنْعَامِهِ عليهم، وإحسانه إليهم، وتُطَيِّب له السير آيات الرجاء والرحمة، وسعة البر والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يُطَيِّب له السير ويُهوّنه.

وتُقْلِقُه آيات الخوف والعَدْل والانتقام، وإحلال غضبه بالمعرضين عنه، العادلين به غيره، المائلين إلى سواه، فيجمعه عليه، ويمنعه أن يَشْرُد قلبه عنه؛ فتأمَّل هذه الثلاثة، وتفَقَّه فيها»[(٢)].

فكلما قوي الرَّجَاء في قلب العبد جَدَّ في العمل، وكلما ضَعُفَ هذا الرجاء تكَاسَلَ، وقَعد، وتراجع عن الطاعة، وأقْدَمَ على المعصية.

وليس شيء أنفع للقلوب من تدبر آي القُرْآن؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

خامسًا: استغلال العبد الأوقات والأحوال الشريفة:

«فكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته، كذلك يقوى الرجاء لإصابة نَفَحَات الرحمٰن ﷻ في الأوقات الفاضلة، والأحوال الشريفة، ولا سيما إذا اجتمعت الدواعي والهِمَم، وتساعدت القلوب، وعظُمَ الجَمْع، كجمع عرفة والجمعة، فإن اجتماع الهِمَم والأنفاس أسباب، نَصَبَها الله مُقْتَضِيَة لحصول الخير، ونزول الرَّحْمَة. وهذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مُسَبَّباتها،

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٤٣).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (١/ ٤٥٩) وما بعدها.

ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحَسَن، وبظلمه يُؤْثر ما يحكم به هذا المحسوس العاجل ويقْتَضِيه على ما يحكم به الآخر ويقْتَضِيهِ. ولو فَرَّغَ العبد المحلّ، وهيَّأه، وأصلحه لرأى العجائب؛ فإن فضل الله لا يردّه إلا المانع الذي في العبد»(١).

وكان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ الله يدعو بعد دروسه التي كانت تُعْقَد في المسجد النبوي في رمضان، ويؤمِّن الحاضرون على دعائه، وربما نبَّه على سبب ذلك؛ وهو أن ذلك الجَمْع يُرْجَى عنده أن تتنزّل رحمة الله تبارك وتعالى، لا سيما مع الصيام، أو لعله يُوجَد في هؤلاء مَنْ تُجَاب دعوته؛ فإن المُؤَمِّن داع كما هو معلوم(٢).

سادسًا: تحقيق التوحيد بأنواعه الثلاثة:

توحيد الإلٰهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذا هو السبب الذي مِنْ أجْلِهِ ينزل الفَرَج على أهل الكروب، فإن المكروب يجيب اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دعوتَه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]؛ وذلك أن أمَلَهُ ورجاءه ينقطع من المخلوقين بالكلية، فلا يبقى له رجاء ولا تعلّق إلا بالله الواحد الأحد.

وفي قصة إسلام عكرمة رضي الله تعالى عنه؛ حيث فَرَّ من النبي ﷺ لما فتح مَكَّة، وذهب حتى ركب البحر إلى الحبشة، «فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أَخْلِصُوا؛ فإنَّ آلهتكم لا تُغني عنكم شيئًا ها هنا، فقال عكرمة: والله لئن لم يُنَجِّني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البَرِّ غيره، اللَّهُمَّ إن لك علي عهدًا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا ﷺ حتى أضع يدي في يده، فلأجدنَّه عفوًا كريمًا، فجاء فأسلم»(٣).

وقد سُئِلَ شيخ الإسلام عن سبب مجيء الفَرَج عند انقطاع الرَّجَاءِ، فأجاب بما مُلَخَّصه: أن «سبب هذا تحقيق التوحيد: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية... فمشيئة الله وحده مُسْتَلْزِمة لكل ما يريده، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»(٤).

فالتوحيد ليس مجرد مسائل يَدْرُسها الناس في المعاهد والمدَارِس والجامعات، أو قضايا يُرَدُّ فيها على هؤلاء أو أولئك؛ إنما التوحيد قضايا تستقر في القلب، فتعمره، فيمتلئ بمحبة الله، فلا يُقَدّم على محبته محبة ما سواه؛ كما يُعمَّر هذا القلب بالخوف

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١١٠ ـ ١١١) بتصرُّف.
(٢) انظر: «العذب النمير» (١/ ٣٠) (٣/ ٤٣٠).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣١).

منه، فلا يخاف من المخلوقين، ويُعَمَّر بالتَّوَكّل على الله، فلا يظن أن المخلوقين يقطعون رِزْقَهُ، أو يُنْقِصُونَ مِنْ عُمره؛ فالعبد يعلم ويَسْتَيْقِن أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهكذا في سائر الأعمال القلبية.

ومِنْ ثَمَّ فَإِنَّهُ لا يكون لرجاء المخلوقين مَحلّ في قلبه، فيتعلَّق رجاؤه بالله ﷻ.

سابعًا: مدافعة العَبْدِ اليأس والقنوط من قلبه:

فالمؤمن لا مَحلّ للقنوط واليأس في قلبه بِحَالٍ مِنَ الأحوال، فهو يجتهد في مدافعة هذا الداء؛ لأن حصول اليأس في قلب الإنسان أمرٌ قد يغلبه. والقاعدة أن الشارع إذا أمر بِأَمْر، ولم يكن مقدورًا للمكلّف، فإن ذلك يتوجه إلى سببه، أو إلى أثره، فينبغي للإنسان أن يُفَتِّشَ في الأمور التي تبعث الأمل في قلبه، فينَمِّيهَا، كما يُفَتِّش في الأمور التي تسْتَوجب اليأس فيدفعها عن قلبه، فإذا مَرَّنَ الإنسان نَفْسه على هذا نفعه في إزالة هذا اليأس بإذن الله، ولو فَرَّطَ فرُبَّمَا أدى به تفريطه إلى الهلاك في دنياه وآخرته.

فإذا علم العبد أن اللهَ غفورٌ رَحِيم، وأن الله يقبل توبة التائبين، وأنه لا يتعاظمُه ذنب، وتأمَّلَ المعاني الدالَّة على لطفه بعبده ورحمته به؛ انفرج قلبه، واتَّسَع الأمل فيه، وعَظُمَ فِيهِ الرَّجَاء، فيحصل له الطَّمَع بمغفرة الله ﷻ، وقبول توبته، فيُقْلِع عن الذنوب والمعاصي، ويترك حاله السابقة، ويُنِيب إلى ربه ﷻ.

وقد تكلَّم على هذا المعنى الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أواخر كتابه «الفتاوى»[١] بكلام حسن، وذكر جملة من الأعمال التي ينبغي أن نتفطَّن لأهمّية الرجاء فيها، **فمن ذلك**: أن طالب العلم إذا اشتغل بِفَنّ مِنْ فُنُونه، فبعد اشتغاله به فربما يرى من صعوبته، وبطء فهْمِه لمسائله ما يوجب له اليأس من تحصيله، فيدعوه اليأس إلى تركه، فإن استرسل مع هذا قتله اليأس، وإن كان مُوَفَّقًا، ولم يملكه الخيال الضار، علم أن الآدمي قَابِل لتَعَلُّم كل علم، مُهَيّأ لذلك، وأن مجرَّد اشتغاله بالعلوم النافعة ـ ولو لم يحصّل منها مصلحة ـ عبادةٌ؛ لأنه تصحبه النية الصالحة، فلا يزال ساعيًا في هذا الأمر حتى يقوى رجاؤه، وينْشَط للمسير في طلبه، وينْفض عنه غبار اليأس، حتى يرتقي إلى درجته اللائقة به.

أما أن يُعْرِض الإنسان وييأس لأول وهلة، فإنَّ هَذَا أمْر لا يحصل بِهِ المَقْصُود، ولذلك قالوا: بأن السُّؤْدَد والرئاسة والسيادة لا تحصل لأهل الضجر والمَلَل، فأولئك الذين يطلبون هذه المطالب الدنيوية إذا كان الواحد منهم يضجر ويَمَل وينكسر لأول

(١) «الفتاوى السعدية» (ص٦٤١ ـ ٦٤٦).

إخفاق؛ فإن ذلك يعني: أن يترك ما بيده، وأن يُدِيرَ له ظهره، وينشغل بغيره، وربما ترك الانشغال بالأمور النافعة الكلية؛ لأنه قد شَعَرَ أنه لا يصلح لشيء، مع أنه يمكن أن يُفْتَح عليه من الفهوم والعلوم ما لا يُقَادَر قَدْره.

وقد كان سيبويه يختلف إلى حماد بن سلمة يقرأ عليه الحديث، فكان يلحن في قراءته فيرد عليه حماد، فأبْرَمَه يومًا لحنه، فقال: كم تلحن؟! أما لك مروءة؟! فخجل وَوَجم، فلما قام من مجلسه انقطع إلى الخليل بن أحمد، فقرأ عليه النحو، فمهر فيه وفاق، وسار ذِكْرُه في الآفاق(١).

وهكذا في كل الأمور يحتاج الإنسان إلى مدافعة اليأس، فإن أَخْفَقْتَ في دراسة كَرِّرِ المحاولة، ولو طَرَقْتَ بابًا آخر وجامعة أُخرى، فقد تنجح وتتفوق على كثير من هؤلاء الذين أفلحوا في ذلك المجال، وهكذا.

وكما أن الإنسان يُطَبِّق هذا المعنى على نَفْسه، فليستعمله مع غيره، إذا أراد هداية أحد، أو دعوته إلى الإسلام، أو تعليمه علمًا نافعًا، ثم رأى من المدعو نفورًا وإعراضًا، أو بَلَادة وقلة فِطْنة، فإن أَخَذَه الملل واليأس من إدراك المقصود منه، وعدم رجاء انتفاعه لم يلبث إلا قليلًا حتى يدع دعوته وتعليمه، وإن هو سلك مسلك نبيه ﷺ في دعوته وهداية الخلق، وعلم أنه مَكَث مدة طويلة يدعو الناس إلى الإسلام والتوحيد، فلا يلقى أذنًا سامعة، ولا قلبًا مجيبًا؛ فلم يضعف، بل لم يزل قَوِيّ الرجاء، ماضيًا في دعوته حتى بلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جعل هذا بين عينيه لم يَشْتَد عليه أمر من الأمور.

وهكذا بالنسبة لحال هذه الأمة، مع مشاعر اليأس والإحباط التي تعيشها في هذه الأوقات، لا سيما إذا نظرنا إلى حال عَدُوِّهم من التمَكّن والأخذ بأسباب القوة؛ حيث سبقوا المسلمين إلى ذلك سبقًا بعيدًا.

ولا بد أن يُعلَم أن الرجاء ممدوح نقلًا وعقلًا، كما أن اليأس مذموم نقلًا وعقلًا، ولا ريب أن الشارع مَدَح الرجاء، وأمر به بكل وسيلة توصل إليه، وذمَّ اليأس، ونهى عنه، وأخبر أنه من موبقات الذنوب؛ وذلك لما يترتب على الرجاء من المصالح والثمرات النافعة، وما ينشأ عنه من الأسباب الموصلة للمقاصد الجليلة، وما يترتب على اليأس من أضداد ذلك.

(١) انظر: «إنباه الرواة» للقفطي (٢/ ٣٥٠)، و«معجم الأدباء» (٣/ ١١٩٨)، و«البلغة» للفيروزآبادي (ص٢٢٢).

ثمرات الرجاء وآثاره السلوكية

من ثمرات الرجاء:

أولًا: إظهار العبودية والفاقة لله ﷻ:

فهو مُسْتشرِف إلى إحسان الله، غير مستغن عن إفْضَالِهِ وإنعامه وإحسانه طَرْفَةَ عين.

ثانيًا: أن الرجاء محبوب لله:

فالله ﷻ يُحِبّ مِنْ عِبَادِهِ أن يرجوه، ويُؤَمِّلوه، ويسألوه من فضله؛ لأنه المَلِك الحق الجواد، فهو أجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وأوْسَع من أعْطَى، وأحب ما إلى الجواد أن يُرْجَى ويُسْأَل.

قال الحليمي رَحِمَهُ اللهُ: «إذا عَلَّق رجاءه بالله جلَّ ثناؤه، فينبغي له أن يسأله ما يحتاج إليه صغيرًا أو كبيرًا؛ لأنَّ الكلَّ بيده، لا قاضي للحاجات غيره، قال الله ﷻ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]»[١].

ثالثًا: أن الراجي يَتَخَلَّصُ مِنْ غَضَبِ الله ﷻ:

فَمَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله يغضب عليه، والسائل راجٍ وطالب.

رابعًا: «أن الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سَيْرِهِ إلى الله ﷻ:

فيطيبُ له المسير، ويحثّه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد؛ فإن الخوف وحْدَهُ لا يُحَرِّكُ العبد، إنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء»[٢]. والسَّيْر إلى الله ـ كما عرفنا ـ دائر بين الرَّجَاءِ والمحبَّة والخوف، فهو يدفعنا إلى العبادة: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: ٢٩].

وبهذا نعلم أن قوة الرجاء تبعث على قوة العمل، فإذا كان الرجاء صحيحًا مع خوف ومحبة جَدَّ العَبْد، واجتهد؛ ليحْصل على رحمة الله ﷻ بكل مُسْتَطاع من

---

(١) «شعب الإيمان» (٣/ ٦٨).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٥٠) بتصرُّف.

الأعمال الصالحة، سواء كان ذلك من الأعمال البَدَنِيَّة، أم المالية، أم كان من أعمال القلوب، أم كان من قبيل التّروك، أم أقوال اللسان.

وبهذا نعرف أثر قوة الرجاء في ازدياد الأعمال الصالحة؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فما حُفِظَتْ حُدودُ الله ومحارمه، ووَصَلَ الواصلون إليه بمثل خَوْفِهِ ورَجَائِهِ ومحبَّتِهِ، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يُرْجَى صَلَاحُهُ أَبَدًا، ومتى ضعُف فيه شيء من هذه ضعُف إيمانه بحسبه»[١]. اهـ.

خامسًا: «أن الرجاء يَطْرَحُنَا على عتبة المحبَّةِ:

فإنه كلما اشتد الرجاء وحصل المرجو ازداد العبد حبًّا لربه تعالى، وشكرًا له، ورضًا به وعنه»[٢].

سادسًا: أنه يُوصِّل العبد إلى أعلى المقامات:

وهو مقام الشكر؛ لأن الإنسان إذا حَصَّل مرجوَّهُ، فإن ذلك مُؤْذِن بزيادة شكره، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

سابعًا: أنه يُوجِب للعبد المزيد مِنْ معرفة ربِّه تبارك وتعالى، وأسمائه ومعانيها والتعلُّق بها:

فإن الراجي ـ كما سبق ـ مُتَعَلِّق بأسماء الله الحسنى، ومتعبِّدٌ ودَاعٍ بها.

ثامنًا: أن المحبة لا تَنْفَكّ عن الرجاء بحال مِنَ الأحوال:

ومِنْ ثَمَّ فَإِنَّ كل واحد منهما يمدّ الآخر ويقوّيه.

تاسعًا: أن الخوف مُسْتَلْزِم للرجاء:

وبناء عليه؛ فإن الرجاء يُنَمِّي الخوف في قلوبنا، وإذا اسْتَحْكَمَ حصل للقلب من التخشّع والتذلّل نحو ما يحصل له إذا استحكم الخوف فيه، فالخوف والرجاء متلازمان؛ وذلك أن الخائف في حال خوفه يرجو خلاف ما يخافه، كما أن الراجي في حال رجائه يخاف خلاف ما يرجو، ويستعيذ بالله مما يخاف، ويسأله صَرْفه، فلا خائف إلا وهو راج، ولا راج إلا وهو خائف، ولأجل تَنَاسُب الأمرين قَرَنَ الله تعالى بينهما في غير آية من كتابه، فقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٥٠) بتصرُّف.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال في قوم مَدَحهم وأثنى عليهم: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠][(١)].

عاشرًا: أن العبد إذا تَعَلَّقَ قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رَجاه، كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يَرْجُه:

حادي عشر: «أن في الرجاء من الانتظار والتَّرَقُّب والتوقع لفضل الله:

ما يُوجِب تَعَلُّق العبد بذكره، ودوام الالتفات إليه؛ بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقّل القلب في رياضها الأنيقة»[(٢)]، فيلتذّ العبد بدوام الإقبال على الله ﷻ، ويتنعّم بمناجاته. وهذه تظهر على من رجا أحدًا من البشر، فكيف بمن رجا الله ﷻ؟!

ثاني عشر: أن الله تبارك وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب العبودية:

من الذّلّ، والانكسار، والتَّوَكّل، والاستعانة، والخوف، والرجاء، والصبر، والشكر، والإنابة، إلى غير ذلك؛ ولذلك قَدَّرَ عليه الذنب؛ وابْتَلاه به؛ لتَكْمُلَ مَرَاتِبَ عبوديته بالتوبة.

كما أن العبد إذا أُصِيب في بدنه وماله، فإن ذلك يسوقه إلى التَّذَلّل لله ﷻ ودعائه والتخشّع له، فالله لا يبتلي العبد من أجْلِ أن يكسره، وإنما مِنْ أَجْلِ أن يرفعه، كما قال النبي ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[(٣)].

ولذلك، فلو كان العبد في كل أحواله على الطاعة من غير تقصير ولا ذنب، فإن ذلك قد يورثه نوعًا من الغرور والعُجْب؛ وليس معنى ذلك أن يُذْنِبَ ويتعمَّد المعصية من أجل أن يحصل له هذا الانكسار وتكميل العبودية، وإنما المقصود: أنه لا بد من وقوع الخطأ والتقصير، فإذا وقع منه ذلك بادر إلى التوبة والاستغفار، وانْطَرَح العبد بين يدي الله ﷻ، وتَذَلَّلَ له، فيكون حاله بعد الذنب أفْضَل مِنْ حَالِهِ قبله، فيكون الله ﷻ بهذا الاعتبار «أَحَبَّ إليه، وأخْوَف عنده، وأرْجَى لَهُ مِنْ كُلِّ مَا سواه؛ فتتقدم محبته في قلب العبد على جميع المَحَابّ، فَتَنْسَاق تلك المَحَاب تبعًا لها، كما ينساق الجيش خلف قائِدِهِ، ويتقدم خوفه في قلبِهِ جميع المخلوقات، فتَنْسَاق المَخَاوف

---

(١) انظر: «شعب الإيمان» (٣/ ٧).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٥١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

كلها تبعًا لخوفه، ويتقدّم رجاؤه في قلبه جميعَ الرَّجَاءِ، فينساق كل رجاء تبعًا لِرَجَائِهِ، فهذه علامة توحيد الإلٰهية في هذا القلب»(١).

ثالث عشر: أَنَّ فَقْدَ هَذِهِ الخَلّة يُورِث الإنسان كُلَّ قبيح، ويحمله على أمور سيئة:

كالطغيان مثلًا؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١١].

ومما يحصل لفاقد الرجاء من الآفات والمفاسد: أنه يكون في حال من الإعراض عن وحي الله ﷻ الذي يَتَضَمَّنُ الشفاء الكامل، والهدى التام، كما قال الله تبارك وتعالى عن أولئك الكافرين: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾ [يونس: ١٥]؛ فالذين قالوا هذه المقالة على سبيل الرد والمكابرة لِمَا جاء به الرسول ﷺ من هذا الوحي المنزَّل صارت حالهم إلى إعراض عما هم بِصَدَدِهِ من اتباع الحق والهدى وسبيل الرشاد إلى اتباع الأهواء. وهكذا يُعَاقَب كُلّ مَنْ أعْرَضَ عَمَّا هو بصدده مما خُوطِب أو طُولِب به، فيكون شُغْله بغيره مما يعود عليه بالضرر والضلال جزاء وفاقًا.

وكذلك الذين لا يرجون لقاء الله، رُبَّما تعدى أحدهم طَوره، وطلب أمورًا لا يَحِقّ له أن يطلبها؛ فالعبد مُطَالَب بالإيمان، واتباع الرسول ﷺ، والتسليم لأمر الله وشَرْعِهِ وحُكْمِهِ، وأما هؤلاء الذين لا يرجون الله، ولا الدار الآخرة، فإن اشتغالهم يكون باقْتِرَاح الآيات على الأنبياء عليهم السلام على سبيل التعجيز والتَّعنُّت، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ﴾ [الفرقان: ٢١]، فالذين يخافون الله تبارك وتعالى ويرجون لقاءه لا يصدر منهم هذا القول المَشِين، وإنما تكون حالهم الاتباع والتسليم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ﴾ [النور: ٥١]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣]، هذه حالهم، وتلك سجيتهم.

والمقصود: أن الله ﷻ كثيرًا ما يُعَلّل كفر الكافرين، وضلال الضالين بأنهم كانوا لا يرجون حسابًا.

ثم إن الإنسان إذا ضعُف رجاؤه زاد كسله وفتورُهُ، وأقعده ذلك عن تحصيل

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٤١١) بتصرُّف.

المطالب العالية، والمراتب الرفيعة في سُلَّم الكمال والعبودية، فَتَنْحَطّ مَرْتَبَتُهُ، ويجترِئُ على السيئات، وتدعوه نفسه الأمَّارة بالسوء إلى فعل كل قبيح، فيكون مُنقَادًا لها؛ لأنه ليس عنده من رجاء الله ﷻ ومن خَوْفِهِ ما يكسر سَوْرَة النَّفْس، ويدفع شرها، وإذا حصل له انمحاء الرجاء حتى بلغ الأمر به حَدَّ اليأس من رَوْح الله تعالى ومغفرته ورحمته، انْعَدَمَتْ عنده دواعي الخير جميعًا، وتحَرَّكَتْ دواعي الشر في كل جزء من أجزائه؛ في قلبه، وعينه، وسمعه، ويده، ورجله، وغير ذلك؛ لأنه قد يئس من رَوْح الله ورحمته، فلا يزال من كان كذلك مُكِبًّا على الذنوب والجَرَائم، حتى يكون هالكًا في نَفْسه، مُهْلِكًا لغيره؛ لأن مَنْ ظَنَّ أنَّ مَصِيرَهُ الهَلاك المُحَقَّق، فإنه يَودّ عادَةً أن يجرّ الآخرين جميعًا إلى نَفْس المصير(١). كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن عثمان رضي الله عنه، قال: «وَدَّتِ الزانية لو زنى النساء كلهن»(٢)؛ لأن العفاف يُكَدِّر عليها صفْو عيشها، وينغِّص عليها لذَّتَها وراحتها.

فمثل هذا لا يُحَدِّث نَفْسه بتوبة، ولا يرجع عن هذا الحال والأعمال القبيحة، بل ربما تحول صاحب هذه النَّفْس اليائسة إلى حال من الخطورة على المجتمع، بحيث إنه لا يرده عن نزواته شيء، فيكون القتل فما دونه مِنْ أَيْسَرِ الأمور عليه؛ فالمذنب الذي لا يرجو ربه في قَبول توبته ينقلب إلى قُوَّةٍ يَائِسة خَطِرَة، لا يرجى لها صلاح، ولا يُنتَظر منها نَفْع، وانقطاع الصِّلَة بين المَرْءِ وربِّه هو أقصى غايات الفساد.

رابع عشر: حُسْن الظن بالله يُبَلِّغُ العبد آماله بإذن الله ﷻ:

فيحصل له مرجوّه في عاجل أمره وآجلِهِ، وذلك مصداقًا لِقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالى، كما في الحديث القدسي: **«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»**(٣).

وتأمل في أحوال مَنْ أحْسَنُوا الظَّنَّ بِرَبِّهِمْ، وما أحْرَزُوه في دنياهم قبل آخرتهم.

ولما أوصى الزبير بن العوام ابنه عبد الله رضي الله عنهما بِدَيْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ، قال له: «يا بني! إن عجزت عنه في شيء فاستعن عليه مولاي»، قال ـ عبد الله ـ: فوالله ما دريتُ ما أراد حتى قلتُ: يا أبت! من مولاك؟ قال: «الله».

(١) راجع: «الفتاوى السعدية» (ص٦٤١ ـ ٦٤٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٥١).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه ابن حبان (٦٣٩)، والسيوطي في «الجامع الصغير» (٧٧٦٤)، والألباني في «الصحيحة» (١٦٦٣). وقد تقدم بلفظ آخر من حديث واثلة رضي الله عنه.

قال: فوالله، ما وقعتُ في كربة من دَينه إلا قلتُ: يا مولى الزبير، اقْضِ عَنْهُ دَينه، فيقضِيه[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، **قال:** أصاب رجلًا حاجة، فخرج إلى البرّيَّة، فقالت امرأته: اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا ما نعْتَجِنُ وما نخْتَبِزُ، فجاء الرجل والجفْنَة مَلْأى عجينًا، وفي التنور جنوب الشواء والرّحى تطْحَن، فقال: من أين هذا؟ قالت: من رزق الله، فَكَنس ما حول الرَّحى، فقال رسول الله ﷺ: «**لَوْ تَرَكْتَهَا لَدَارَتْ ـ أَوْ: طَحَنَتْ ـ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ. فَقَالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا. قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا، يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَإِنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا، أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا. فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهْوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا، يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا المَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٩) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥١٣)، والطبراني في «الأوسط» (٥٨٨) واللفظ له، من طريق ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأورده الذهبي ضِمْنَ منكرات أبي بكر بن عياش في «الميزان» (٤/ ٥٠٠)، وله طريق أخرى عند أحمد (٢/ ٤٢١) عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الألباني في «الصحيحة»: «فيه كلام يسير ـ يعني: أبا بكر بن عياش ـ لا يسقط حديثه عن مرتبة الحسن، ولا سيما وله طريق أخرى». وراجع: «تاريخ ابن كثير» (٨/ ٦٦٥ ـ ٦٦٦).

(٣) ذكره البخاري (٢٢٩١) معلقًا.

فهذا يحصل لهؤلاء الذين عظُم الرجاء في قلوبهم.

وهذه امرأة فرعون، أوْتَدَ فرعونُ لها أربَعَةَ أوْتَاد في يَدَيْهَا ورِجْلَيْهَا، فكان إذا تفَرَّقوا عنها ظَلَّلَتْها الملائكة، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾ [التحريم: ١١]، فَكُشِفَ لها عن بيتها في الجنّة[١].



(١) صح موقوفًا على أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٦٤٣١)، وصحَّحه الحافظ في «المطالب العالية» (٣٧٦٢)، والألباني في «الصحيحة» (٢٥٠٨)، وصح نحوه عن سلمان رضي الله عنه موقوفًا، أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١١٥)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٣١)، والحاكم (٢/ ٤٩٦)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

من أخبار أهل الرجاء

عن حيان أبي النضر قال: دخلتُ مع واثلة بن الأسقع على أبي الأسود الجُرَشي في مرضه الذي مات فيه، فسَلَّمَ عليه وجلس، فقال له واثلة: واحدة أسألك عنها، قال: وما هي؟ قال: كيف ظنك بربك؟ قال: فقال أبو الأسود، وأشار برأسه؛ أي: حَسَن. قال واثلة: أَبْشِرْ، إني سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «**قال اللهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[١]. وفي رواية: كيف ظنك بالله؟ قال: اعترضتني ذنوب لي أُشْفِيتُ منها على هَلَكة، ولكن أرجو رحمة الله، فكبر واثلة، وكبَّر أهل البيت بتكبيره، وقال: الله أكبر، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: . . . وذكر الحديث[٢].

ولما احتضر ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ فتح عينه فَضَحِك، وقال: «لمثل هذا فليعمل العاملون»[٣].

وعن عبد الله بن محمد المقريّ، قال: لما احتُضِر بِشْر بن منصور السلمي ضحك، وقال: «أخرج مِنْ بَيْن ظَهْرَاني مَنْ أخَافُ فِتْنَتَهُ، وأَقْدِم على مَنْ لا أشك في رحمته»[٤].

وقيل له: أَوْصِ بِدَيْنِكَ، قال: «أنا أرجو ربي لذنبي، أفلا أرجوه لِدَيْنِي؟! فلما مات قضى عَنْه دَيْنَهُ بعض إِخْوانه»[٥].

وهذا أبو شيبة الزبيدي، يقول: «خِفْتُ نفسي، ورجوت ربي، فأنا أُحِب أن أُفَارِق من أخاف إلى من أرجوه»[٦].

ولما احتُضِر النضر بن عبد الله بن حازم قيل له: أبشر، فقال: والله ما أُبَالي أَمِتّ أم ذُهِب بي إلى الأُبُلّة[٧]، والله ما أَخْرُج من سلطان ربي إلى غيره، ولا نَقَلَنِي من حال

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٧٥) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٢/ ٤٧٦).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٩٨).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» (١٢٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٤٢) واللفظ له.
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٩٥)، وفي «محاسبة النَّفْس» (١١٥).
(٧) **الأُبُلّة**: ناحية قريبة من البصرة، بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة.

قط إلى حال إلا كان ما نَقَلَنِي إليه خيرًا مما نَقَلَنِي عنه[(١)].

وهذا سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول:** «ما أُحِب أن حسابي جُعِل إلى والديَّ، ربي خير لي من والدي»[(٢)].

قيل للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ **وهو في مرض الموت:** كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟! قال: «أصبحتُ من الدنيا راحلًا، وللإخوان مُفَارقًا، ولسوء أفعالي مُلاقيًا، وعلى الله وَارِدًا، وبكأس المنية شاربًا، ولا والله ما أدري أروحي تصير إلى الجنة فأُهنِّيها، أو إلى النار فأُعزِّيها، ثم أنشأ يقول:

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا»[(٣)]

وكانوا رضي الله تعالى عنهم يَرْجون رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ للناس، ويخافون على أنفسهم، خلافًا لحال كثير من أهل الإدلال على الله عَزَّ وَجَلَّ مع قليل مِن العمل، وكثير من الاسْتِطَالة.

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: جئت إلى سفيان ـ الثوري ـ عَشِيَّةَ عَرَفَة، وهو جَاثٍ على رُكْبَتَيْهِ وعَيْنَاه تهملان. . . فقلت له: من أسوأ هذا الجَمْع حالًا؟ قال: «الذي يظن أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يغفر له»[(٤)].

وَإِنِّي لَأَدْعُو اللَّهَ أَطْلُبُ عَفْوَهُ ... وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْفُو وَيَغْفِرُ
لَئِنْ أَعْظَمَ النَّاسُ الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا ... وَإِنْ عَظُمَتْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ تَصْغُرُ[(٥)]

وصلَّى محمد بن المنْكَدِر رَحِمَهُ اللَّهُ على رجل من أهل المدينة كان يتَّهم بِشَرّ، وقال: «إني لأستحي من الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعلم من قلبي أني ظننتُ أن رحمته عجزَت عنه»[(٦)].

وسيأتي في الكلام عن الخوف عند ذكر أحوال السلف أن بعضهم كان يبكي عند الاحتضار، وكان يُبْدِي خوفًا من العاقبة.

والمقصود: أن هذا وأمثاله لا يتعارض، وذلك أنَّ أحوال الناس تَتَفَاوت، فقد

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٤١).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٣٧)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٢٥٨).
(٣) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ١١١) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٠/ ٣٣١).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٧٧).
(٥) «لطائف المعارف» (ص٤٩٨).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٩٩) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٤٨، ٧/ ٢٩٧).

يلتفت بعضهم إلى ناحية فيغلبه الرجاء والاستبشار، فيتمَنَّى أن يُعَجِّلَ بروحه، ويَقْدِم على الله ﷻ. ومنهم مَنْ قَدْ يَرَى منازله عند الاحتضار، فيستبشر، ويفرح، ويصْدُر عنه بعض ما يدل على خاتمتِهِ. ومنهم مَنْ يلتفت إلى معنى آخر، كالذي يَلْتَفِت إلى ما فاته مما ارْتَاضَتْ عليه نَفْسه من العبودية من الصيام والقيام، كما ورد عن معاذ رضي الله عنه أنه قال عند الاحتضار: «اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لم أكن أُحِب البقاء في الدنيا لجري الأنهار، ولا لِغَرْس الأشجار، ولكن لمُكَابدة الساعات، وظَمَأِ الهَوَاجِرِ، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذِّكْر»[(١)].

وربما بكى بعضهم لأنه لَحَظ معنًى في كتاب الله ﷻ؛ كما جاء عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لما ودَّعه أصحابه وهو خارجٌ إلى مؤتة، وقد ذكر قول الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ [مريم: ٧١][(٢)].

وعن داود بن أبي هند قال: تَمَثَّل معاوية عند الموت:

هُوَ المَوْتُ لَا مَنْجَا مِنَ المَوْتِ وَالَّذِي ... نُحَاذِرُ بَعْدَ المَوْتِ أَدْهَى وَأَفْظَعُ

ثم قال: «اللَّهُمَّ فَأَقِل العَثْرَةَ، وعَافِ من الزَّلَّةِ، وجُدْ بِحِلْمِكَ عَلَى جَهْلِ مَنْ لم يَرْجُ غيرك، ولَمْ يَثِقْ إلَّا بِكَ، فإنك واسع المغْفِرَة، ليس لذي خطيئة مهربٌ إلا أنت».

قال: فَبَلَغَنِي أَنَّ هذا القول بلغ سعيد بن المسيّب فقال: «لقد رغب إلى مَن لا مرغوب إليه مثله، وإني لأرجو ألا يعذبه الله ﷻ»[(٣)].

وعن أبي المنذر الكوفي، أن معاوية جعل يقول وهو في الموت:

إن تُنَاقِشْ يَكُنْ نِقَاشُكَ يَا رَبْ ... بِ عَذَابًا، لَا طَوْقَ لِيْ بِالْعَذَابِ
أَوْ تُجَاوِزْ فَأَنْتَ رَبٌّ رَحِيمٌ ... عَنْ مُسِيءٍ ذُنُوبُه كَالتُّرَابِ[(٤)]

وعن عطاء بن السَّائِب، قال: دخلنا على أبي عبد الرحمٰن السُّلَمي نعوده، فذهب بعض القوم يُرَجِّيه، فقال: «إني لأرجو ربي وقد صُمْت له ثمانين رمضان»[(٥)].

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٨٠ ـ ١٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٣)، واللفظ له.
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٠)، وابن هشام في «السيرة» (٢/ ٣٧٣).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (١١٠).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا «حسن الظن بالله» (١١١)، و«المحتضرين» (٧٠) عن معاوية رضي الله عنه، وأخرجه ابن زبر الربعي في «وصايا العلماء عند الموت» (ص٨٣)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ١٥٩) من كلام عبد الملك بن مروان.
(٥) أخرجه أبو نعيم في «حسن الظن بالله» (١/ ١١٣)، وفي «المحتضرين» (٢٩٠) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٢).

وكان عُمَر بن ذَرٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول**: «اللَّهُمَّ ارحم قومًا أطاعوك في أحب طاعتك إليك: الإيمان بك، والتوكل عليك، وارحم قومًا أطاعوك في ترك أبغض المعاصي إليك: الشرك بك، والافتراء عليك. قال: فكان بعضهم يقول: إن كان كل ما عصي الله به عظيمًا؛ فإنه في سعة رحمته صغير»[١].

قال بعض العُبَّاد: «لما علمتُ أن ربي عَزَّ وَجَلَّ يلي محاسبتي زال عني حزني؛ لأن الكريم إذا حاسب عبده تفضَّل»[٢].

عن إدريس بن عبد الله المروزيِّ قال: «مرض أعرابي، فقيل له: إنك تموت، قال: وأين أذهب؟ قالوا: إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه»[٣].

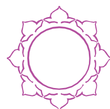
هذا آخر الكلام على الرجاء، والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٩٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٢٦).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٤٠).

عاشرًا

الخَوْف



توطئة

إن من أعظم دعائم التقوى: الخوف من الله ﷻ؛ وذلك أن العبد إذا خاف الله اتقاه بفِعْل ما أمره ربه، وتَرْك ما نهاه عنه، بل إن ذلك الخوف يسوقه إلى المبادرة والمسارعة في فعل الخيرات. وأما إذا قلَّ خوف العبد من ربه وخالقه، فإنه يكون أكثر جُرْأة على حدود الله، وانتهاكًا لمحارمه.

ومن هنا كان هذا الحديث عن الخوف من الله ﷻ من أَجْل إحيائه في النفوس، وتحقيقه في القلوب من ناحية؛ وليكون ذلك في مقابل ما تقدم من الحديث عن الرجاء؛ فيحصل الاعتدال في تحصيل هذه الأعمال الجليلة، والتَّحَلِّي بها من ناحية أخرى.

وقد جعلتُ الحديث عن الخوف بعد الحديث عن الرجاء؛ وذلك أن الله تبارك وتعالى لما وَصَفَ أهل العبودية الخاصة قال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ فَقَدَّمَ الرَّجَاءَ على الخَوْفِ.

وفي الحديث القُدسي: «**إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(١)، فكان ذلك مما يدعو إلى تقديم الرَّجَاء على الخوف.



(١) تقدم تخريجه بلفظ: «**إن رحمتي غلبت غضبي**»، وأخرجه بهذا اللفظ البخاري (٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٤)، ومسلم بنحوه (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

معنى الخوف وحقيقته

الخوف في اللغة:

مادة: (خوف) تدل على الذُّعر والفَزَع، كما قال الصاغاني[١]، وابن فارس[٢].

الخوف في معناه الشرعي:

قال الراغب: «الخَوْف: توقّع مَكْروه عن أمارة مظنونة أو معلومة»[٣].اهـ.

وقال الجرجاني: «الخوف: توقّع حلول مكروه، أو فوات محبوب»[٤].اهـ.

وقال ابن قدامة: «هو تألّم القلب واحتراقه بسبب توقّع مكْرُوه في المستقبل»[٥].اهـ.

وقيل: «هَرَب القلب من حلول المكروه عند استشعاره»[٦].

وقيل: «هو اضطراب القلب وحركته من تذكُّرِ المَخُوف»[٧].

وهذه المعاني متقاربة.



(١) انظر: «العباب الزاخر» (١/ ٤٠٩)، مادة: (خَوَفَ).
(٢) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ٢٣٠)، مادة: (خَوَفَ).
(٣) «مفردات القرآن» (ص١٦١).
(٤) «التعريفات» (ص١٠٧).
(٥) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٣).
(٦) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢).
(٧) المصدر السابق (١/ ٥١٢).

الفروقات في باب الخوف

أولًا: الفرق بين الخَوْف والحزن:

الخوف يكون لشيء مستقبل. أما الحزن، فيتعلق بأمر فائت.

ورُبَّما استُعمِل أحدهما في موضع الآخر.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفرق بين بكاء الحزن وبكاء الخوف: أن بكاء الحزن على ما مَضَى من حصول مكروه أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يُتَوَقع في المستقبل»[١]. اهـ.

ثانيًا: الفرق بين الخوف والخشية:

«قيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره، والخشية أخصّ من الخوف؛ فإنَّ الخَشْيَةَ للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فهي خوف مقرون بمعرفة، فالخوف: حركة، والخشية: انْجِمَاع وانقباض وسكون.

فالخوف لِعَامَّةِ المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين»[٢].

وقيل: الخوف: تألّم النَّفس من العقاب المتوقّع بسبب ارتكاب المنهيات، والتقصير في الطاعات.

والخشية: حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته، وخوف الحَجْب عنه[٣].

وقيل: الخشية: خوف مع تعظيم؛ ولذلك خُصَّ بها العلماء[٤].

وبعضهم يفسّرها بالخوف، ويقتصر على ذلك[٥]؛ ولهذا قال مَنْ قَالَ من السلف؛ كسعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ: بأن «الخشية: أن تخشى الله حتى تحُول خشيته بينك وبين معصيته»[٦].

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ١٧٧) بتصرُّف.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٥١٣) باختصار.

(٣) انظر: «الفروق اللغوية» (ص٢٤٠).

(٤) انظر: «مفردات القرآن» (ص١٤٩)، و«الكليات» للكفوي (ص٤٢٨).

(٥) انظر: «لسان العرب» (١٨/ ٢٥٠)، مادة: (خَشِيَ).

(٦) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (١٣٨).

وذلك أن السلف ﷺ كانوا يُقَرّبون المعنى بأقرب عبارة تبيّن المراد دون التدقيق، لا سيما عند مَنْ يقُول بأن اللغة يُوجَد فيها الترادف، بحيث إن اللفظة تنوب عن اللفظة، وتدل على معناها تمامًا. وأما من يمنع ذلك فيقول: لا بُدَّ من فَرْق، وهذا هو الأعمّ الأغلب في الألفاظ المُتشابهة؛ أن ثمة فروقات من جهة المعنى في المعاني التكميلية الزائدة التي تحتفّ باللفظة، وتختصّ بها، فتؤدي معنى لا تُؤَدِّيهِ اللفظة الأولى، وإن كانت تشترك معها في أصل المعنى.

والله ﷻ قد فَرَّقَ بينهما، كما قال: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾ [طه: ٧٧]، فذكر الخوف مع الخشية، وكذلك قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: ٢١]، فدلّ ذلك على أن بَيْنَ الخشية والخوف فَرْقًا لا يُنْكَر؛ ولهذا يمكن أن نقول بأن الخشية أخصّ من الخوف، فهي خوف خاص، خوف يصاحبه علم، ينبئ عن إجلال وتعظيم؛ لأن مَنْ عَرَف المعبود ﷻ معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته عَظَّمَه؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

فهي خوف مقرون بالمعرفة؛ لهذا قال النبي ﷺ: «**إنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»[(١)].

ومِنْ ثَمَّ، فإنه على قَدْرِ العلم النافع تكون الخشية، أمَّا العلم الضارّ فإنه لا يزيد الإنسان إلا بُعْدًا عن الله ﷻ؛ ولهذا فمرتبة الخشية أعلى من مرتبة الخوف.

قال أبو البقاء الكَفَوِي: «الخشية أشد من الخوف؛ لأنها مأخوذة من قولهم: شجرة خاشية؛ أي: يابسة، وهو فَوَات بالكُلِّيَّة. والخوف النقص، من ناقة خوفاء؛ أي: بها داء، وليس بِفَوَات؛ ولذلك خُصَّت الخشية بالله في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الرعد: ٢١].

والخشية تكون مِنْ عِظَم المَخْشِي، وإن كان الخاشي قويًا. والخوف يكون من ضَعْف الخائف، وإن كان المَخُوف أمرًا يسيرًا»[(٢)]. اهـ.

ولهذا؛ فإن «الخائف يلتجئ إلى الهَرَب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم؛ فَمَثَلُهُما مَثَلُ من لا علم له بالطب، ومَثَلُ الطبيب الحاذق، فالأول يلجأ إلى الحمية والهرب؛ لقلة معرفته، والآخر يلجأ إلى الأدوية»[(٣)]؛ فالخشية خوف مَبْنِي على علم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة ﵂.
(٢) «الكليات» (ص٤٢٨).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٥١٣) بتصرُّف.

ثالثًا: الفرق بين الإشفاق والخوف:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإشفاق: رِقَّة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنِسْبته إلى الخوف نِسْبة الرأْفة إلى الرحمة؛ فإنها ألطف الرحمة وأرقها»(١). اهـ.

وعرَّفَ الرَّاغِب الإشفاق بأنه: عناية مخْتَلِطَة بخوف؛ لأن المشفِق يُحِب المشْفَق عليه، ويخاف ما يلحقه... فإذا عُدِّي بـ «من» فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عُدِّي بـ(في) فمعنى العناية فيه أظهر»(٢). اهـ. وهكذا إذا عُدِّي (بعلى).

وقال الزبيدي: «الشَّفَق: الخوف مِنْ شِدَّةِ النّصْح، وقد شَفِقَ شَفَقًا: خَافَ، قاله ابن دُرَيْد»(٣). اهـ.

والخلاصة: أن الإشفاق إذا عَدَّيْتَهُ بـ(في)، أو (على) دَلّ على العناية بهذا المُشْفَق، والرَّحْمَة به، والحرص عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾ [الطور: ٢٦]، وكقولك: فُلان يُشفق على ولده.

أما إذا عديته بـ«من»؛ كقولك: فلان يُشفق من كذا، دلَّ على معنى الخوف وزيادة.

قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فَلَوْ كَانَتِ الخشية بمعنى الإشفاق لما ذكر هذا وهذا.

فدلَّ على أن الإشفاق أخصّ من الخشية، وأخصّ من الخوف، فهو خشية مقرونة بضعف ورِقَّة وتضَرّع إلى المخشيّ منه، فليس كل خائف مُشْفِقًا.

ومما تقدم يتبين أن هناك فَرْقًا دلاليًّا بين الإشفاق والخشية، ويؤكد هذا الفرق ورودهما في سياق واحد في ثلاث آيات من مجموع عشر من آيات القرآن الكريم:

قال تعالى في المؤمنين: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال جلَّ في علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧﴾ [المؤمنون: ٥٧].

رابعًا: الفرق بين الرَّهْبَةِ والخوف:

الرهبة: مصدر قولهم: رَهِبَ يَرْهَب رَهْبَةً ورُهْبًا وَرَهَبًا.

ومادة (رهب) تدل على معنين: **أحدهما:** الخوف، **والآخر:** الدِّقَّة والخِفَّة(٤).

والمقصود هنا المعنى الأوّل: يُقَال: رَهِبَه: إذا خافه.

---

(١) «المدارج» (١/٥١٨).
(٢) «مفردات القرآن» (٢٦٣ ـ ٢٦٤).
(٣) «تاج العروس» (٢٥/٥٠٨)، مادة: (شفق).
(٤) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/٤٤٧)، مادة: (رَهَبَ).

وقيل: «الرَّهْبَة: طول الخوف واستمراره، ومِنْ ثَمَّ قِيلَ للرَّاهِبِ: رَاهِبًا؛ لأنه يُدِيمُ الخوف. وأصله من قولهم: جمل رهب: إذا كان طويل العظام، مَشْبوح الخلق»[(١)].

وقيل: «الرهبة: خوف معه تحيّر»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّهْبَة: هي الإمعان في الهَرب من المكروه، وهي ضِدّ الرَّغْبَة؛ التي هي سَفَر القلب في طلب المرغوب فيه»[(٣)].اهـ.

ولذلك؛ فالرهبة أخصّ من مُطلق الخوف، فهي خوف مع تحرّز واضطراب الخائف وارتعاده، فيحصل له بسبب ذلك رَهْبة تُخالِج شعورَه، فتَدْفَعه إلى مُجَانَبة مَوَاطِن الهَلَكة؛ فيحصل له الهرب من المَخَاوف.

وبهذه الطريقة تستطيع أن تجمع أقوال العلماء، وتنظمها في سلكٍ واحِد، دون أن تُوجَد مُنَافرة بينها.

خامسًا: الفرق بين الخوف والوَجَل:

وأما الفرق بين الخوف والوَجَل فيمكن أن يُقَال بأن الوَجَلَ هو القَلَق وعدم الطمأنينة.

وبعضهم يقول: «الوَجَل: استشعار الخَوْف»[(٤)].

وبعضهم يقول: الخائف إن لم يكن مطمئنًّا فهو وَجِل[(٥)].

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **يُفَسِّرُ الوَجَلَ بأنَّهُ**: «رَجَفان القلب وانصداعه لذكر من يُخَاف سلطانه وعقوبته»[(٦)].

وبعضهم يقول: الوَجَل خَوْف مع فَزَع[(٧)]، والفَزَع يحصل معه ولا بد اضطراب الخائف، ويحصل معه رَجَفان القلب؛ لأن الفَزَع ـ كما سيأتي ـ خوفٌ شديد يَبْهته ويَفْجؤه؛ فيحصل له بسبب ذلك انزعاج وقَلَق.

وبهذا كلّه نعرف أن الوَجَلَ أخص من الخوف، وأعلى مرتبة منه.

سادسًا: الفرق بين الخوف والهيبة:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الهَيْبَة: خوف مُقَارِن للتَّعْظِيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحَبَّة والمعرفة»[(٨)].اهـ.

---

(١) «الفروق اللغوية» (ص٢٤١).
(٢) «الكليات» للكفوي (ص٤٢٩).
(٣) «المدارج» (١/ ٥١٢) بتصرُّف يسير.
(٤) «مفردات القرآن» (ص٥١٣).
(٥) انظر: «الفروق اللغوية» (ص٢٤٣).
(٦) «المدارج» (١/ ٥١٣).
(٧) انظر: «لسان العرب» (١٤/ ٢٤٨)، مادة: (وجل).
(٨) «المدارج» (١/ ٥١٣).

وهناك من الألفاظ ما يُقَارِب معنى الخوف، ولكنه لم يَرِد مُسْتَعْمَلًا مُعَبَّرًا به عن الخوف من الله ﷿، فمن ذلك:

١ ـ الرَّوْعُ:

الروع: الفزع، يقال: رُعْتُ فلانًا ورَوَّعْتُه فارْتَاع؛ أي: أفْزَعْتُه ففَزِعَ.

ويقال: لا تُرَع؛ أي: لا تخف، ولا يلحقك خوف(١).

وذُكِرَ الرَّوْع في القرآن في آية واحدة، منسوبًا إلى إبراهيم ﵇، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: ٧٤]، وفي حديث نزول الوحي: فَقَالَ: «**زَمِّلونِي زَمِّلونِي**»، فزمَّلُوه حتى ذهب عنه الرَّوْع(٢).

وفي حديث رؤيا ابن عمر ﵄ لما رأى النار، فجعل يقول: «**أعُوذُ بالله مِنَ النَّارِ**»، فقال له المَلَك: «لم تُرَعْ»(٣).

٢ ـ الإيجاس:

الوَجْس: أن ينتاب قلب الإنسان خوف لِصَوْتٍ أو حَرَكَةٍ يحسّ بها، فيظهر منه ذلك الخوف(٤).

قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات: ٢٨]، ولكن هذا اللفظ لم يرد مُسْتَعْمَلًا في الخوف من الله ﷿.

٣ ـ الرُّعْب:

وهو من ألفاظ الخوف أيضًا، وتدل مادَّة (رَعَبَ) على القطع، ومنه قولهم للشيء المُقَطّع: مُرعّب. كما تدل على الامتلاء، ومنه قولهم: سَيْل راعب، إذا ملأ الوادي، فهذه ثلاثة معانٍ، ومن راعاها عرَّف الرعب بأنه الانقطاع من امتلاء الخوف، وقيل: هو أشَدّ الخوف(٥).

وقال صاحب الكشاف: «هو الخوف الذي يَرْعَب الصدر؛ أي: يملؤه»(٦).اهـ.

---

(١) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٢٢٣)، مادة: (روع)، و«تاج العروس» (٢١/ ١٢٩)، مادة: (روع).
(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة ﵂.
(٣) أخرجه البخاري (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٩) من حديث ابن عمر ﵄.
(٤) انظر: «القاموس المحيط» (٢/ ٢٦٦)، و«تاج العروس» (١٧/ ٥)، مادة: (وجس).
(٥) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ٤٠٩ ـ ٤١٠)، مادة: (رعب)، و«مفردات القرآن» (ص٣٩٧)، مادة: (رعب).
(٦) «الكشاف» (٦/ ٣٠٧).

قال تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، وهو الخوف الذي يملأ قلوبهم.

وقال النبي ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**»[١].

وبذلك تكون دلالة الرُّعْب أشدّ مِنْ دلالة الخوف، إلا أنه لم يَرِد في الخوف من الله تبارك وتعالى.

٤ ـ الفزع:

وهو انقباض مفاجئ يصيب القَلْبَ، مقرونًا بتوقُّع مكروه عاجل[٢].

وقال الراغب: «الفَزَعُ: انْقِبَاض ونِفَار يَعْتَرِي الإنسان من الشيء المُخِيْف، وهو من جِنْسِ الجَزَع، ولا يُقَال: فَزِعْت من الله، كما يُقَال: خِفْتُ منه»[٣]. اهـ.

٥ ـ الفَرَقُ:

وهو الخوف الشديد، وأصله: انزعاج النفس بتوقّع الضَّرَر.

قيل: «وهو من مفارَقَة الأمْنِ إلى حال الخوف»[٤].

قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التوبة: ٥٦].

قال الراغب: «تفرّق القلب من الخوف»[٥]. اهـ.



---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٢) انظر: «الفروق اللغوية» (ص٢٤٢).
(٣) «مفردات القرآن» (ص٣٧٩)، مادة: (فزع).
(٤) «روح المعاني» (١٠/١١٨).
(٥) «مفردات القرآن» (ص٣٧٨)، مادة: (فرق).

الملازمة بين الخوف وغيره من أعمال القلوب(١)

تبيَّن مما سبق ـ من الكلام على الرجاء ـ أن الخوف مُلَازِم للرجاء، وأن الخوف الصحيح لا بُدَّ معه من الرجاء، وأنه إذا انعدم الرجاء أصبح الخوف قنوطًا ويأسًا من رحمة الله.

وعرفنا فيما سبق أن من المقامات والأعمال القلبية ما يكون جامعًا بين مقامين، ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من ذلك، ومنها ما يندرج تحته عامة المقامات، فلا يستحقّ صاحبه ذلك المقام وتلك المنزلة إلا باستجماع ما تحته من الأنواع.

فالخوف مثلًا يجمع مقام الرجاء والإرادة، والخشية تجمع مقام المعرفة بالله والمعرفة بحقّ عبوديته، فمتى عَرَف الله وعَرَف حقّه اشْتَدَّت خشيته لله؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وهكذا مقام الهيبة؛ فإنه يجمع المحَبَّة والإجلال والتعظيم، فالخَوْفُ بِمُجَرَّدِهِ لا يكون هيبة، والمحَبَّةُ بمجرَّدِهَا لا تكون هيبة.



(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٥٦).

منزلة الخوف

الخوف: «من المقامات العَلِيَّة، وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكلَّما كَانَ العبد أقرب إلى ربه، كان أشد له خشية ممن دونه.

وقد وصَفَ الله تعالى الملائكة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، والأنبياء بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وإنما كان خوف المقرَّبين أشَدّ لأَنَّهُمْ يُطالبون بما لا يُطالَب به غيرهم، فيُراعُون تلك المنزلة؛ ولأن الواجب لله منه الشكر على المنزلة، فيضاعَف بالنسبة لعلوِّ تِلْكَ المنزلة»[١].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «الإيمان: مَنْ خَشِيَ اللهَ بِالْغَيْبِ، ورَغِب فيما رغَّب الله فيه، وزهد فيما أسخط الله»[٢].

فهذا هو الخائف حقًّا، وهو المؤمن حقًّا؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذه الآية: وجوب الخوف من الله وحْدَه، وأَنَّهُ مِنْ لَوَازِمِ الإيمان، فعَلَى قَدْرِ إِيمَانِ الْعَبْدِ يَكُون خَوْفُهُ مِنَ الله»[٣]. اهـ.

ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢]، فـ«الخوف هو عَلَامَةُ صِحَّةِ الإيمان، وتَرَحُّله من القلب علامة ترحّل الإيمان منه»[٤].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام الحافظ في «فتح الباري» (١١/ ٣١٩).
(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٧٩).
(٣) «تفسير السعدي» (ص٢٦٢).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٥١٥).

ولهذا قيل: «القلب إذا عُرِّي من الهَيْبَة عُرِّي من الإيمان»[(١)].

وقال وَهْب بن مُنَبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عُبِدَ الله بمثل الخوف»[(٢)].

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى»[(٣)].

وقال وُهَيْب بن الورد: «بلَغَنَا أنه ضُرِبَ لخوف الله مَثَلٌ فِي الجَسَدِ، قيل: إنما مثل خوف الله كمثل الرجل يكون في منزله، فلا يزال عامرًا ما دام فيه ربُّه، فإذا فارق المنزل ربه وسكنه غيرُهُ خَرِبَ المنزل، وكذلك خوف الله تعالى؛ إذا كان في الجسد لم يزل عامرًا ما دام فيه خوفُ الله، فإذا فارق خوف الله الجسد خرب، حتى إن المار يمر في المجلس من الناس فيقولون: بئس العبدُ فلان، فيقول بعضهم لبعض: ما رأيتم منه؟ فيقولون: ما رأينا منه شيئًا إلا أنا نبغضه؛ وذلك أن خوف الله فارق جسده، وإذا مَرَّ بهم الرجل فيه خوف الله، قالوا: نِعْمَ والله الرجل، فيقولون: أي شيء رأيتم منه؟ فيقولون: ما رأينا منه شيئًا غير أنا نُحِبُّهُ»[(٤)].

وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]: «هذا مثل الإيمان، فالإيمَان: الشجرة الطيِّبَة، وأصله الثابت الذي لا يزول: الإخلاص لله، وفرعه في السماء: فرعه خشية الله»[(٥)].

وقال ابن قدامة رحمه الله تعالى: «فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه؛ فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة، قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٨]»[(٦)].اهـ.

وقد أطال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «إعلام الموقعين»[(٧)] في تقرير هذا المعنى، واستحسنه غاية الاستحسان.

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٢٢/ ١٢١)، ونسبه للجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) «مجموع رسائل ابن رجب» (٤/ ٩٤).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٩) والبيهقي في «الشعب» (٨٤٩) واللفظ له.
(٤) «التخويف من النار» ضمن «مجموع رسائل ابن رجب» (٤/ ٩١).
(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٥٦٨).
(٦) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٦).
(٧) انظر: (٢/ ٢٩٨ ـ ٣٠٤).

ثم إن الله ﷻ إنما خَلَقَ الخَلْقَ ليعرفوه، ويعبدوه، ويخشوه، وقد نَصَب الأدلة على عظَمَتِهِ وكِبْرِيَائِهِ لِيَهَابه هؤلاء الخلق، ويخافوه خوف الإِجْلَالِ والتَّعْظِيم.

ووصف لهم شِدَّة عذابه، ودَارَ عقابه التي أعدَّها لمن عَصَاه؛ ليتّقوه بصالح الأعمال، ولهذا كرّر الله ﷻ في كتابه ذِكْر النَّار، وما فيها من الأغلال وألوان العذاب والنكال، وما احتوت عليه مِنَ الزقوم والضّريع والحميم والسلاسل، إلى غير ذلك مما وصفه الله ﷻ من الأحوال والأهوال، ودعا بذلك عِبَادَهُ إلى خَشْيته وتَقْوَاه، والمسارعة إلى امْتِثال ما يأمر به ويحبّه ويَرْضَاهُ، واجتناب ما نهاهم عنه.

فمَن تَأَمَّل كتاب الله ﷻ، وأدارَ فيه فِكْرَه؛ وَجَد مِن ذلك العَجَب العُجاب، وهكذا مَنْ نَظَرَ في سُنَّة رسول الله ﷺ، وحَالِ السَّلَفِ الصالح رضي الله تعالى عنهم؛ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا بَلَغُوا أعلى المقامات بسبب ما وَقَعَ فِي قلوبهم من إجلال الله، وخَوْفِه، وخشيته، وتعظيمه، وتقواه. فهذا هو الذي حملهم على الجِدِّ والاجْتِهَادِ في الطاعة، ونشر دين الله ﷻ في الآفاق، وكفّ النفوس وفَطْمها عن شهواتها وأهوائها[١]؛ فكان لهم تلك المنزلة التي لا يُدَانِيهَا أحد ممَّن جَاء بعدهم، وأَنَّى لهم بذلك؟ فقد كان السلف الصالح أعظم الأمّة خَوْفًا مِنَ الله ﷻ وخشية له.. كيف لا وقد قال قائلهم ـ وهو عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ـ: «لأن أدمع دمعة من خشية الله ﷻ أحبّ إلي مِنْ أَنْ أتَصَدَّق بألف دينار»[٢].

وقال كعب الأحبار: «لأن أبكي مِنْ خَشْيَةِ الله، فتسيل دموعي على وَجْنتي أحبّ إليَّ من أن أتصدَّق بوزني ذهبًا»[٣].

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وأَثَرَيْنِ: قَطْرَةِ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ**...» إلى آخر الحديث[٤].

وقال حاتم الأصم رحمه الله: «لكل شيء زِينة، وزِينة العبادة الخوف»[٥].

كما أن أصحابه هم الأُمناء، كما جاء في وصية عمر رضي الله تعالى عنه: «لا

---

(١) راجع: «التخويف من النار» (ص٢١ ـ ٢٢).

(٢) «صفة الصفوة» (١/ ٦٥٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٦٦).

(٤) أخرجه الترمذي (١٦٦٩) وحسَّنه، ووافقه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٨٦). راجع: «السبيل الهاد» (١٠٨).

(٥) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٥٤).

تصحبنَّ الفاجر فتَعَلَّم فجوره، واعتزل عدوَّك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا مَن خشي الله، وتخشَّع عند القول، وذَلَّ عند الطاعة، واعتصم عند المعصية، واسْتَشِر في أمرك الذين يخشون الله»[(١)].

وجاء عنه: «آخِ الإِخْوَانَ على قَدْر التقوى، ولا تجعل حديثك بِذْلَة ـ أي: مُبْتَذِلًا ـ إلا عند من يشتهيه، ولا تَضَع حاجتك إلَّا عند مَن يُحِبّ قضاءها، ولا تَغْبِطِ الأحياء إلا بما تَغْبِط الأموات، وشَاوِر فِي أمرك الذين يخشون الله ﷻ»[(٢)].

وذلك أن خَشْيَتَهُمْ لله ﷻ تحملهم على النَّصِيحَةِ، فَلَا يَدَّخِرُونَ شَيْئًا فيه نُصْح لك إلا بذلوه، فتَأْمَن بذلك الغَدْر والخيانة والغِشّ. وقد قيل: «ما لِلْعَبْد صاحب خير من الخَوْف والهمّ، فيما مضى من ذنوبه، وما ينزل به»[(٣)].



---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٩٩)، وأبو يوسف في «الخراج» (ص٢٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ٣٨٤) (١٣/ ٢٦٥، ٢٧٥)، ومن طريقه أبو داود في «الزهد» (٩٧)، وأخرجه البرجلاني في «الكرم والجود» (٣٨)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٩١)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٩٠) واللفظ له، والخطابي في «العزلة» (ص٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٤/ ٣٦٠).

(٢) أخرجه البلاذري في «أنساب الأشراف» (١٠/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٤٧) واللفظ له.

(٣) «تاريخ الإسلام» (١٣/ ٢٣١) ونسبه لشقيق البلخي.

الخوف في الكتاب والسُّنَّة

النصوص الواردة في الخوف كثيرة جدًّا، نكتفي بذكر بعضها.

أولًا: الخوف في القرآن الكريم:

لقد تنوعت النصوص الواردة في الخوف في كتاب الله تعالى:

فتارة: يأمر الله ﷻ به، كما في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ٤٠﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣].

وتارة: يجعل أهل الخوف هم أهل الاعتبار والانتفاع بالمواعظ والقرآن والذكر؛ كما قال الله ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: ٤٥]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ٥١﴾ [الأنعام: ٥١]؛ فالذين يخافون أن يُحْشَرُوا إلى ربهم هم الذين ينتفعون بمواعظه، وكذلك قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٣٧﴾ [الذاريات: ٣٧]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١]، ﴿طه ١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ٣﴾ [طه: ١ ـ ٣]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ٢٦﴾ [النازعات: ٢٦]، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ١٠﴾ [الأعلى: ١٠]، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ٤٥﴾ [النازعات: ٤٥]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨].

وتارة: يجعل الخوف من صفات خاصة أوليائه وعباده المتَّقِينَ؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: ٢١]، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ

رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧]، ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المعارج: ٢٧]، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وتارة: يذكر أن العاقبة في الدنيا لهم: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤].

وتارة: يذكر غفران ذنوبهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

ثم بيَّن أنه أدخلهم الجنة بسبب خوفهم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

وقال أهل الجنة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧].

ولهذا قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي لمن لم يُشفق أن يخاف ألَّا يكون من أهل الجنَّةِ؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور: ٢٦]»[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٠ ـ ١٤]. وكما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٤].

ويقول في هذا المعنى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧، ٨].

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢].

ثانيًا: الخوف في السُّنَّة:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كَيْفَ**

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٥)، والبيهقي في «الشعب» (٨٧٣).

تَـجِـدُكَ؟»، قـال: والله يـا رسـول الله! إنـي أرجـو الله، وإنـي أخـاف ذنـوبـي، فـقـال رسول الله ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا، عن النبي ﷺ أنه قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**»، وذكر منهم: «**وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]... أهم الذين يَشْرَبُون الخمر وَيَسْرِقُون؟ قال: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ**»(٤).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ سَلَفَ... أَعْطَاهُ اللهُ مَالًا وَوَلَدًا، فَلَمَّا حَضَرَتِ الوَفَاةُ، قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ(٥)... عِنْدَ اللهِ خَيْرًا، وَإِنْ يَقْدِرِ اللهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ، فَانْظُرُوا إِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي... فَإِذَا كَانَ يَوْمُ رِيحٍ عَاصِفٍ فَأَذْرُونِي فِيهَا**»، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «**فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي، فَفَعَلُوا، ثُمَّ أَذْرَوْهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَقَالَ اللهُ** عز وجل: كُنْ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ، قَالَ اللهُ: أَيْ: عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ ـ أَوْ: فَرَقٌ مِنْكَ ـ قَالَ: فَمَا تَلَافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ عِنْدَهَا»(٦).



(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٦١)، وحسَّنه والألباني في «أحكام الجنائز» (ص٣).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أي: لم يُقَدِّم لنفسه خَبيئة خير ولم يَدَّخر. «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢١٥)، مادة: (بأر).
(٦) أخرجه البخاري (٦٤٨١، ٧٥٠٨).

الخوف إنما يكون من اللَّه وحده

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠]، فتقديم المعمول ـ وإياي ـ يدل على الحصر؛ أي: لا ترهبوا أحدًا غيري.

وكذلك في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ «أي: لا تخافوا المشركين، ولا يَعْظُمَنَّ عليكم أمرهم، ولا ترهبوا جمْعَهُم مع طاعتكم إياي، ما أطعتموني، واتبعتم أمري، وإني مُتَكَفِّلٌ لَكُمْ بالنَّصْرِ والظَّفَر، ولكن خافوني، واتَّقُوا أن تعصوني، وتخالفوا أمري، فتهلكوا إن كنتم مؤمنين»[1].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

فينبغي على العبد ألَّا يتقي سوى رَبِّهِ، وَأَلَّا يَخَاف إِلَّا منه سبحانه.

وأما الطاعة فتكون لله ﷻ، وللرسول ﷺ، «كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله وللرسول ﷺ، وجعل الخَشْيَةَ والتَّقْوَى لله وحْدَهُ»[2].

وقال قتادة رحمه الله **في قوله تعالى:** ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر: ٥٦]: «هو أهل أن يُخَافَ مِنْهُ، وهو أهل أن يغفر ذنب مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وأناب»[3].

فالحاصل: أن الله يأمر بالخَوْفِ مِنْهُ، وجاء ذلك بطرق مُتَعَدِّدَة في إفادة الحصر، وينهى عن الخوف من غيره، ويمدح الخائفين منه وحده. وهذا كله يدل على أن الخوف يجب أن يكون من الله دونما سواه. والمقصود بذلك: خوف العبادة، الذي لا يجوز أن يُصْرَفَ لأحد من المخلوقين، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: **«هَلْ تَدْرِي مَا حَقّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«حَقّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»**[4].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٤١٨) بتصرُّف يسير.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٦٥).

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤)، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٦٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٣٣٢) كلاهما بنحوه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٦٧) واللفظ له، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ رضي الله عنه.

ويدخل في العبادة: الخشية، والإنابة، والإسلام، والتوبة، والخوف من الله ﷻ؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ﴾ [الأنعام: ٨٠][١].

وقال أبو عمرو الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ: «حقيقة الخوف: ألا تخاف مع الله أحدًا»[٢].



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٧١).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٤٧).

المفاضلة بين الخوف والمحبة

تحدّثنا عن المفاضلة بين الخوف والرجاء، وكذا عن المفاضلة بين رجاء الثواب ورجاء المغفرة. وحديثنا هنا عن المفاضلة بين المحبة الخوف.

فقد رَجَّحَ بعض أهل العلم المحبَّة على الخوف.

يقول يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ: «حَسْبُكَ من الخوف ما يمنع من الذنوب، ولا حَسْب من الحبّ أبدًا»[١]؛ يعني: أن المحبَّة لا يقال: إنَّ لها حدًّا، والخوف إنما يكون بالقدر الذي يحجز العَبْدَ عن فعل الذّنوب، ويحثه على القيام بوظائف العبودية، فإذا زاد أورث القنوط. وأما المحبة: فإنه لا حَدَّ لَها.

وقال الفضيل بن عياض: «المحَبَّةُ أفْضَل من الخوف»[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الخوف يَتَعَلَّق بالأفعال، والمحبة تَتَعَلَّق بالذات والصفات؛ ولهذا تَتَضَاعَف مَحَبَّة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النَّعِيم، ولا يَلْحَقهم فيها خوف؛ ولهذا كانت مَنْزِلة المحبة ومَقَامُها أعلى وأرفع من مَنْزِلة الخوف ومَقَامه»[٣].اهـ.



(١) «التخويف من النار» (ص٣٦).
(٢) المصدر السابق (ص٣٦).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

أنواع الخوف

قد تَقَدَّمَ أن الشيء قد يُنْظَر إليه من نواحٍ متعددة، فيتنوّع باعتبارات مختلفة.

فإذا نظرنا إلى الخَوْف مِن جِهَة الحكم التكليفي؛ فإننا نجد أنه ينقسم إلى: مشروع، وممنوع، ومباح.

أولًا: الخوف المشروع:

وهو خوف العبادة؛ وهو الخوف من الله وعذابه، ما لم يُوقِع صاحبه في القنوط واليأس من رحمة الله ﷻ، وإلا كان مُحرَّمًا، وهو بهذا الاعتبار مِنْ أَفْضَلِ المقامات وأجلّها ـ كما سبق ـ كما قال الله ﷻ يَمْدَحُ خَاصَّة أوْلِيَائه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٥٠]، وإنما القَدْر الواجب منه ما حمل على تَرْك المحرَّمَات وفِعْل الواجبات، والقَدْر المستحَبّ منه: ما حثَّ صَاحِبَه على فِعْل المُستحبَّات، وتَرْك المكروهات والاسترسال مع المباحات، فإذا تزايد فإنه يُورِث القنوط، وبهذا يكون محرَّمًا[١].

ثانيًا: الخوف المحرم:

وهو ثلاثة أنواع:

الأول: ما زاد حتى أورث صَاحِبَهُ القنُوط، وهذا لا يجوز.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بوظائف العبودية خوفًا من الناس، وهذا أمر محرَّم، وهو نقص في كمال التوحيد؛ ولهذا جاء في الحديث: «**لَا يحقرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ**»، قالوا: يا رسول الله! كيف يحقر أحدُنَا نفْسَهُ؟ قال: «**يَرَى أَمْرًا للهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةَ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقّ أَنْ تَخْشَى**»[٢].

ولذلك؛ وصف الله ﷻ خاصة أوليائه بأنهم لا يخافون في الله لومة لائم، فهم

(١) انظر: «التخويف من النار» (ص٣٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٨)، وفي إسناده اختلاف، فقد ضَعَّفَهُ الدَّارَقُطْنِي في «العلل» (١١/ ٣٥٣)، والألباني في «الضعيفة» (٦٨٧٢)، وحسَّنه ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (ص١٦٢)، ووثَّق رجالَه الشوكاني في «الفتح الرباني» (١١/ ٥٤٤٨).

يُقَدِّمُونَ رضا الله ﷻ والخوف منه على لَوْم المخلوقين وخَوْفِهِمْ، وهذا يدل على قوّة هِمَمِهِمْ وعزائمهم في عبوديَّتِهِمْ لله تبارك وتعالى. بخلاف صاحب القلب والعَزْم الضعيف، الذي يَنْثَني عند لوم اللائمين، فيترك ما هو بِصَدَدِهِ من العمل الصالح؛ لئلَّا يلومه الناس. ولا يسلم القلب من التعبد لغير الله حتى لا يخاف في الله لومة لائم[(١)].

ومن توَجَّهَ قلبه للمخلوقين، فإنه متى وجد الحثّ منهم والثناء نَشَط إلى القيام بالأعمال الصالحة، وإذا وجد اللَّوْم والتَّبْكِيتَ قَعَد عن ذلك، وتخلَّى عن عمله الذي يقرِّبُه إلى الله ﷻ.

وأما أهل العبودية الحقة؛ فإنهم لا يخافون في الله لومة لائم، وهذا هو الذي بايع النبي ﷺ أصحابَهُ عليه؛ كما في حديث عبادة ؓ: «بَايَعْنَا رسُول الله ﷺ على السَّمْع والطاعَة في المنْشَطِ والمَكْرَهِ، وألا نُنَازِعَ الأمْر أهْلَهُ، وأن نقولَ بالحَقِّ حيثُمَا كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»[(٢)].

وبهذا وَصَّى النبي ﷺ أبا ذرّ، كما قال ؓ: «أَمَرَنِي خَلِيلي ﷺ بِسَبْعٍ»، وذكر منها: «وَأَمَرَنِي ألَّا أخَافَ في الله لوْمَةَ لائم»[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري ؓ، أن النبي ﷺ قام خطيبًا، فكان فيما قال: «**أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ**»، قال: فبكى أبو سعيد ؓ، وقال: «واللهِ رَأَيْنَا أشياء فَهِبْنَا»[(٤)].

وعن عبد الله العُمَري الزاهد، قال: «إن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله؛ بأن ترى ما يُسْخِطه فتجاوزه، ولا تأمر بالمعروف، ولا تَنْهَى عن المنكر؛ خوفًا ممَّن لا يملك لك ضرًّا ولا نفعًا»[(٥)].

وقال: «مَنْ تَرَكَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مخافة المخلوقين نُزِعَتْ مِنْهُ هَيْبَة الطاعة، فلو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخَفَّ به»[(٦)].

---

(١) انظر: «تفسير السعدي» (ص٤٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٧١٩٩، ٧٢٠٠) واللفظ له، ومسلم (١٧٠٩).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٩)، وصحَّحه ابن حبان (٤٤٩)، والألباني في «الصحيحة» (٢١٦٦).
(٤) أخرجه الترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٧)، من طرق عن أبي سعيد ؓ، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٢٧٥، ٢٧٨)، والألباني في «الصحيحة» (١٦٨)، والله أعلم.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٣٨)، وفي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (١٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٤) واللفظ له.
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٣٨) واللفظ له، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٤).

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. فإذا نقص خوف العبد من الله ﷻ خاف من المخلوقين، وعلى قَدْر نقص الخوف من الله تعالى يكون الخوف من المخلوقين مُتَعَاظِمًا في قلب العبد، كما في الرجاء والمحبة والتوكّل وما إلى ذلك. فإذا عُبِّئ القلب، ومُلِئَ بالإِقْبَالِ على الله ﷻ، وعُمِّرَ بِهَذِهِ المقامات والأعمال القلبية الفاضلة؛ فإنه لا يبقى فيه محلّ للمخلوق. وإذا كان الخوف مِنْ غَيْرِ الله يُزَاحِم الخوف من الله ﷻ، فيترك أمر الله، أو يرتكب معصيته خوفًا من المخلوقين؛ فهذا من الشِّرْك الخَفِيّ، ولا يكاد يسلم منه أحد إلا مَنْ رَحِمَ الله ﷻ وعُصِم.

وقد جاء في الحديث بأن الشرك في هذه الأمَّةِ أخْفَى من دبيب النمل[(١)]. وطريق التخلص من ذلك كله الإخلاص لله ﷻ، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠][(٢)].

وقد رأى ابن مُحَيْرِيز ﵀ على خالد بن يزيد بن معاوية جُبَّةً مِنْ خَزٍّ[(٣)]، فقال: أتلبس الخزّ؟ فقال: إنما ألبس لهؤلاء ـ وأشار إلى عبد الملك ـ فغضب ابن مُحَيْرِيز، وقال: ما ينبغي أن يَعْدِلَ خوفك من الله بأحد من خلقه[(٤)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «وبعض الناس يقول: يا رَبّ! إني أخافك، وأخاف مَنْ لَا يخافُكَ. وهذا كلام ساقِط لا يجوز، بل على العبد أن يخاف الله وحده، ولا يخاف أحدًا؛ لا مَن يخاف الله، ولا مَن لا يخاف الله، فإنَّ مَنْ لا يخاف الله أَخَسّ وأذَلّ أن يُخَاف، فإنه ظالم، وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نَهَى اللهُ عَنْهُ»[(٥)]. اهـ.

الثالث ـ من أنواع الخوف المحرم، وهو أعظمها وأشدها ـ: ما يسمى بخوف السرّ؛ وذلك أن يعتقد في ميِّت مقبور، أو صنم، أو أحد من الأحياء أنه يَمْلِكُ مِنَ القُوَى الخارقة ما يطّلع فيه على بواطِنِهِ، أو أنه يستطيع أن يُوصِل إليه أنواع الأضرار والمخاوف والمكَارِه، فتجده وهو بعيد عنه يخافه ويتّقيه، ولا يُحَدِّث نَفْسه بأمرٍ

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٤).
(٣) يعني: من الحرير، أو من الإبريسم المخلوط بالصوف.
(٤) أخرجه يعقوب بن سفيان في «تاريخه» (٢/ ٣٦٤)، ومن طريقه ابن عساكر (١٦/٣٣ ـ ١٧) واللفظ له.
(٥) «مجموع الفتاوى» (١/ ٥٧ ـ ٥٨).

يكرهه؛ فهذا من أعظم الشِّرْك، وهو الذي كان عليه أهل الإشراك؛ حيث كانوا يخافون أصنامهم وأوثانهم، ويعتقدون فيها أنها تُوَصّل النفع والضر، وقد خَوَّفوا منها إبراهيم ﷺ، فردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١]. وخوَّف قوم هود هودًا ﷺ من أصنامهم، فقالوا كما حكى الله عنهم ذلك: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]، وقد قال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٣٦].

فهذا النوع من أعظم الإشراك بالله تعالى. وتجد في بعض البلاد إذا اسْتُحْلِف الرجل بالله ﷻ حلف وهو كاذب، وإذا استُحْلِف بأحد هؤلاء فإنه لا يحلف. وما ذاك إلا لأن المقبور أخوف عنده من الله.

فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﷻ، ويحتاج إلى تصحيح الإيمان وتجديده، وإلى توبة عظيمة.

ثالثًا: الخوف الجائز:

وهو الخوف الجِبِلِّي؛ كما وصف الله ﷻ به موسى عليه الصلاة والسلام حينما قَتَل القِبْطِي، قال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: ٢١].

وكمَنْ يَخَافُ مِنَ السُّرَّاق، والسِّبَاع، والحيَّات، والهَوَام، ونحو ذلك، فهذا أمر يقع في جِبِلَّةِ الإنسان وطبيعته، وهذا ليس بمذموم، لكنه قد يكون وَهْنًا، فيخاف الإنسان أمورًا ليست مَخُوْفَة، ولا يحصل منها أذى ولا ضرر، فيكون ذلك لونًا من الجُبْن والضعف والهَلَع الذي لا محل له، فيكون نقصًا في كمال الإنسان ومروءته، لكنه لا يتعلق به الحكم الشَّرْعي.

والخوف من الظالمين والمعْتَدِين أن يظلموه خوفٌ طبيعي أيضًا، فإذا زاد فترك أمر الله ﷻ، وارْتَكَبَ نهيه من أجل ذلك كان نقصًا في كمال التوحيد.

والخلاصة: أن الخوف؛ منه ما يكون خوف عِبَادة، وذلك خوف التذلّل والتعظيم والخضوع، وهكذا خوف السِّر إذا صَرَفَهُ لِغَيْرِ الله ﷻ، فإنه يكون من قبيل الإشراك.

وأما الخوف الطبيعي الجِبِلِّي فهو في الأصل مباح، فإن استلزم محرَّمًا صَار محرَّمًا.

أما الخوف المحمُود: فهو الخوف من الله ﷻ، ومن عقابه، ومِنْ وَعِيدِهِ.

مراتب الخوف

تقدم أن الخوف يتفاوت، وأن الناس ليسوا فيه على مرتبةٍ وَاحِدَة؛ فتارة يكون خوفًا شديدًا مبالغًا فيه، فيزيد عن حَدِّ الاعْتِدَال، فيورِث الإنسانَ يَأْسًا وقنوطًا من رحمة الله تبارك وتعالى، وهذا مِنَ الخوف المذموم.

وقد يكون خوفًا عظيمًا، لا يبلغ بصاحبه هذه المرتبة، ولا يورثه اليأس والقنوط من رَوح الله ورحمته، بل يكون حاجزًا له عن فِعْل المعاصي، حاملًا له على فِعْل الطاعات، وهذا هو خوف المقتصدين، وربما ارتقى بصاحبه، فيترك المكروهات، أو التوسّع في المباحات، مع فِعْل المندوبات؛ وهذا هو خوف السابقين بالخيرات، أصْحَاب العبودية الخالصة لله ﷻ، الذين عرفوا الله معرفة صحيحة بأسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ، فهم أهل الخشية؛ الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فلمَّا كَمُلَتْ مَعْرِفتهم بالمعبود ﷻ عَظُمَ خَوْفُهُمْ وخَشْيَتُهُمْ منه، فظهر ذلك على جوارحهم وأحوالهم وأعمالهم كلها؛ ولذلك لما كان النبي ﷺ أعْلَمُ الناس بِاللهِ كان أَشَدّهم له خشية، كما ورد في الحديث(١).

ونجد في عبارات بعض المتقدِّمِينَ مَنْ يخص هؤلاء بوصف مِن أوْصَافِ الخوف؛ كما قال سَهْل بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «خوف الصِّدِّيقِينَ مِنْ سوء الخاتمة عند كل خَطْرة، وعند كل حَرَكَةٍ، وهم الذين وَصَفَهُمُ الله تعالى؛ إذ قال: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]»(٢). فهو لا يفارقهم أبدًا. وهؤلاء أبْعَدُ مَا يكونون عن العُجْب، والأمراض القلبية، والأعمال السيئة التي تُورِث صاحبها أَلَمًا وحسرة في الدنيا وعذابًا في الآخرة.

ودون هؤلاء مَنْ قَلَّ خَوْفُهُ من الله ﷻ، فلم يَعُد عنده من الخوف ما يحجزه عن مُقَارَفَةِ الآثَام، وترك الواجبات، والإخلال بوظائف العبودية الواجبة؛ وهذا هو خوف المُفَرِّطين، وهم مَنْ ضَعُفَ إيمانهم، وقَلَّ وَرَعُهُمْ وتَقْوَاهُم وخشيتهم من الله ﷻ، فصار ذلك نقصًا في إيمانهم الواجب.

فتجد أحدهم غير مُكْتَرِث بالمطالب العالية التي تَرْفَعُه في سُلَّم العبودية، فلا تتحرَّك نَفْسه حينما يذكر الله ﷻ، أو يُخَوَّف من عذابه ونقمته؛ ولذلك تجد الآية أو الموعظة

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٧٢).

يسمعها اثنان، أحدهما تُؤَثِّر فيه أبلغ التأثير، والآخر كأنه لم يسمعها، ولرُبَّما تذَمَّر من ذلك الواعظ أو المُذَكّر.

وغالب الناس في زماننا هذا بحاجة إلى إعادة نَظَر في موضوع الخوف من الله ﷻ؛ لضعف الخوف في قلوبهم، ومِنْ ثَمَّ وقع التفريط كثيرًا في حياتنا وأعمالنا، وما نُقْدم عليه من معاملات مالية، أو علاقات نُسيء بها إلى الآخرين؛ من مظالم يتحمّلها العبد، كلُّ ذلك بسبب نقص خوفنا الواجب من الله تبارك وتعالى، ولو كنا على مرتبة الاقتصاد في الخوف، أو على مرتبة الكمال المستحبّ، لكنَّا في حال أخرى تمامًا، تُغَايِرُ هذه الحال التي نحن فيها.

فصاحب هذا الخوف يحتاج إلى مُرَاجَعة وتصحيح، وأن يَسْتَزِيدَ من تعاطي أسباب الخوف من الله تعالى؛ حتى يصل إلى الخوف المطلوب.

ويكفي العبد أنْ يتذكّر قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فيرعوي ويَرْتَدِع.

فهذا خلاصة ما ذكره أهل العلم في أنواع الخوف، وقد تَكَلَّمَ على هذه القضية جماعة؛ كالحافظ ابن رجب، وابن قدامة، وطَائِفَة(١).

وقال ابن جُزي: «اعلم أن الخوف **ثلاث درجات**:

الأُولَى: أن يكون ضعيفًا؛ يخطر على القلب، ولا يؤثّر في الباطن ولا في الظاهر، فوجود هذا كالعدم.

والثانية: أن يكون قويًّا، فيوقظ العبد من الغفلة، ويحْمِلُهُ عَلَى الاستقامة.

والثالثة: أن يَشْتَدَّ حَتَّى يبلغ إلى القنوط واليَأْسِ، وهذا لا يجوز، وخير الأمور أوسطها.

والناس في الخوف على **ثلاثة مقامات**: فخوف العامَّة من الذنوب، وخوف خاصة الخاصَّة من الخاتمة، ومن السابقة، فإنَّ الخاتمة مبنيَّة عليها»(٢). اهـ.

وقد أخبر النبي ﷺ أن الإيمان بِضْع وسبعون ـ أو بِضْع وستون ـ شُعْبَة(٣)، فيتفاضل الناس فيه تفاضُلًا عَظِيمًا، حتى في مراتب الْكَمَالِ.

وكذلك الخوف، فإنه يَتَفاوت في قلوب الناس ما بين الخوف الضعيف، وخوف المقتصدين، وخوف السابق بالخيرات بإذن الله.

---

(١) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٥ ـ ٣٨٦)، و«التخويف من النار» (ص٣٢، وما بعدها).

(٢) «التسهيل» (٢/ ٣٥)

(٣) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بواعث الخوف

الناس ينطلقون في الخوف من منطلقات شتى، فإذا تأمَّلْنَا تلك البواعث في نفوسهم وجدناها:

تارة: تكون ناتجة عن معرفة الله ﷻ وأسمائه وصفاته، ومعرفة شدّة عِقَابه.

وتارة: تكون بالنظر إلى جناية العبد ومعاصيه.

وتارة: تكون بهما جميعًا.

يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «لله ﷻ على القلوب أنواع من العبودية؛ من الخشية، والخوف، والإشفاق، وتوابعها من المحبة والإنابة، وابتغاء الوسيلة إليه وتوابعها، وهذه العبوديات لها أسباب تُهيّجها، وتَبْعَث عليها؛ فكل ما قيَّضَهُ الرب تعالى لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك المهيّجة له؛ فهو من أسباب رحمته له، ورُبَّ ذَنْبٍ قد هاج لصاحبه من الخوف، والإشفاق، والوَجَل، والإنابة، والمحبَّة، والإيثار، والفرار إلى الله، ما لا يهيجه له كثيرٌ مِنَ الطَّاعَاتِ. وكم مِنْ ذَنْبٍ كان سببًا لاستقامة العبد، وفراره إلى الله، وبُعْدِه عن طُرُق الغَيّ»[1].اهـ.

وقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما كان العبد أعلم بالله كان له أشد خوفًا، والخائفون على طبقات: خائف من الإجرام، وخائف من الحسنات ألَّا تُقْبَل، وخائف من العَوَاقِب. قال تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٥]»[2].

وقال بعضهم: «العاقل لا يخرج من هذه **الأحرف الثلاثة**:

الأول: أن يكون خائفًا لما سلف منه من الذنوب.

الثاني: لا يدري ما ينزل به ساعة بعد ساعة.

الثالث: يخاف من إبهام العاقبة؛ لا يدري ما يُخْتَم له»[3].

ولكنْ قَلَّ من يكون كذلك، بل إن الشيطان ربما يأتي الإنسان فيزيّن له المعصية، وأن الذنب ينقله إلى حال أفضل، وهذا من مَكْرِهِ به؛ لأن الأصل أن الذنب يُضْعفه،

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٨٠).

(٢) «شعب الإيمان» (٨٢٥).

(٣) «طبقات الصوفية» (ص٦٣).

ويَخْذله، ويُسْقطه، ويُضْعِف خوف الله في قلبه، وإنما يَرْفعه العمل الصالح؛ ولذلك فإن كل عمل صالح يعمله يزيد به إيمانه، والأعمال السيئة التي يعملها تُنْقِصُه. فإيَّاك أَنْ يُزَيِّن لك الشيطان المعْصِيَة، فليس ذلك هو طريق الرقيّ بالنَّفْس وتَكْمِيلِهَا.

ومن الناس من يكون مُنْطَلَقه مُلَاحَظة الأمرين: الخوف مِنَ الله ﷻ، لما يجد في قلبه من معرفة أسمائه وصفاته وعظمته، مع ملاحظة تقصيره وتفريطه؛ فكل واحد من الأمرين يسوقه إلى مزيد من الخوف من الله ﷻ، وفِعْل مُقْتضى هذا الخوف من العمل الصالح، والانكفاف عن الأعمال السيئة.

فالمقصود: أن أصحاب هذه المرتبة أكمل من الذين قبلهم، ممَّن يكون سائقه ودافعه إلى الخوف إنما هو الذنب فقط.

وأمثل من هؤلاء جميعًا مَنْ لا يعصون الله ما أَمَرَهُمْ، ويفعلون ما يُؤْمَرُون، وهم أنبياء الله وملائكته ﷷ؛ ذلك لأنهم عرفوا المعبود معرفة صحيحة، فامتلأت قلوبهم خشية وإخباتًا وخوفًا من الله تبارك وتعالى، وبهذا تعلم أنك كلما ازددت معرفة بالله ﷻ ازددت خوفًا منه.

وبهذا تعلم أيضًا أثر العقائد الصحيحة؛ حَيْثُ إنَّها تُورِثُ الأعمال الصالحة، فالَّذِي لا يؤمن بأن الله ﷻ قَدِ اتَّصَفَ بالسمع، والبصر، والعِزَّةِ والقُوَّةِ، وأنه يغضب غضبًا يليق بجلاله وعظمته، إلى غير ذلك من صفات كماله؛ كيف يُرَاقِبُ رَبَّهُ؟! وكيف يخافه؟! وكيف يهاب غضبه، ويُشفق منه؟!

فإذا اكتملت معرفة العبد بربِّه ازْدَادَ خوفه من الله؛ ولذلك نحن بحاجة إلى التعرف على أسماء الله، وفَهْم معانيها؛ لأن ذلك سَيُثْمِر هذه الأعمال القلبية، ويمتلئ القلب محَبَّةً، ورجَاءً، وخوفًا، وتوكّلًا، وتعظيمًا، إلى غير ذلك من المعاني. وهذا لا يحصل في قلب إنسان لا يعرف ربّه، وما يتصف به من صفات الكمال.

ولذلك؛ فالعاقل ـ كما تقدم ـ يحاذر؛ لأنه لا يدري ما يَنْزِل به ساعة بعد ساعة؛ أيُعَاقَب على ذنبه أم يعفو عنه ربّه؟ أيُقْبَل عمله الصالح أم يُرَدّ؟ فهو دائم الترقّب، وَجِل، خَائِف، ليس غافلًا عَمَّا يَنْتَظِرُه.

وكذا الخوف مِنْ إِبْهَام العَاقِبَة؛ فإن الإنسان لا يدري بماذا يُخْتَم له؟ ولا يدري في أيِّ المحلَّيْنِ يَنْزِل؛ أَفِي الجنَّة أم النار؟ فحُقَّ لمن لا يدري ذلك أن يخاف.

يقول الحافظ ابن حجر ؒ: «فالعبد إن كان مستقيمًا فخَوْفُهُ من سوء العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، أو نقصان الدَّرَجَةِ بالنسبة، وإن كان مائلًا فخَوْفُهُ مِنْ سوء فِعْلِهِ، وينفعه ذلك مع الندم والإقلاع؛ فإن الخوف يَنْشَأ من مَعرفة

قُبْح الجِناية، والتصديق بالوعيد عليها، وأن يُحْرَم التوبة، أو لا يكون ممن شاء الله أن يغفر له، فهو مُشْفِق من ذنبه، طالب من ربه أن يُدْخِله فيمَن يغفر له»[(١)]. اهـ.

وقيل: «الخوف خَوْفان: خوف العقاب، وهو نصيب أهل الظاهر، ويزول، وخوف جلال، وهو نصيب أهل القلب، ولا يزول»[(٢)].

وبالجملة: فمن كان دَافِعه في الخوف ملاحظة السَّوط، كان دون مَنْ كان حامله على الخوف معرفة المعبود ﷻ بأسْمَائه وصفاته، لكن كل واحد من هذين الخَوْفَيْن يَنْفَع صاحبه، ويحصل به الانْزِجار، والانكفاف مع الامتثال بفعل المأمورات.



(١) «الفتح» (١١/ ٣١٩).
(٢) «البحر المحيط في التفسير» (١/ ٣٣١).

الطريق إلى تحقيق الخوف من اللَّه

عامَّة الناس بحاجة إلى معالجة الخوف وتنميته في قلوبهم، وذلك للتقصير الظاهر في هذا الجانب، ويمكن ذلك بأمور، **منها**:

أولًا: تفريغ القلب من الخوف من غير الله، ومَلْؤُه بالخوف من الله:

وهذه قضية جليَّة من الشاهد، فإن الإِنَاءَ مثلًا إذا كان مُمْتَلئًا بالخَلّ؛ فإنه لا يمكن أن يُوضَع عليه اللبن، بل لا بد من تَفْرِيغه أولًا من الخَلّ، ثم بعد ذلك يُمكِن مَلْؤُه باللبن؛ لأن التَّخْلِيَة قَبْلَ التحلية.

وهذا يُلاحَظ في جميع الأعمال القلبية، «وهذا هو الإسلام المتضمّن للإيمان، الذي يَمُدّه القُرْآن ويقوّيه، لا يناقضه ولا ينافيه؛ كما قال جندب رضي الله عنه: «تعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تَعَلَّمْنَا القرآن، فازْدَدْنَا به إيمانًا»[(١)]»[(٢)].

فصادف هذا الإيمان محلًّا فارغًا، فتمَكَّنَ فيه، فلمَّا حَصَلَ معه تعلُّم القرآن، والتفقُّه كان ذلك بمنزلة ضوء الشمس مع نور العين، فصار الإيمان صحيحًا، كاملًا، حيًّا، نَابِضًا في نفوس هؤلاء الصَّحَابة رضي الله عنهم، فأثمر ما ننعم به إلى يومنا هذا من الخير العميم الذي نشروه في أرجاء الأرض، بعد أن ضَحّوا بكل شيء من أجل دينهم، فكانوا كما قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى عن المهاجر إلى رَبِّهِ: «فيهاجر بقلبه من محبَّةِ غير الله إلى محبَّتِه، ومن عبودية غيره إلى عبوديَّتِه، ومن خوف غيره ورجائه والتوكّل عليه، إلى خوف الله ورجائه والتوكّل عليه، ومِنْ دُعَاءِ غَيْرِه، وسؤاله، والخضوع له، والذل والاستكانة له، إلى دعائه وسؤاله والخضوع له، والذل له، والاستكانة له، وهذا بعينه معنى الفرار إليه، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، والتوحيد المطلوب من العبد: هو الفرار من الله إليه»[(٣)]. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٦١)، ورُوِي نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما. أخرجه الحاكم (١/ ٣٥).
(٢) ما بين الأقواس من «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠١) بتصرُّف.
(٣) «الرسالة التبوكية» (ص١٦).

ولهذا قال بعض المتقدِّمين: «قِلَّةُ الخَوْفِ من قِلَّة الحُزن في القلب»[(١)].

كما أن البيت إذا لم يُسْكَن خَرب، فهكذا القلب إذا لم يُعَمّر بالخوف من الله ﷻ.

ثانيًا: تدبّر القرآن:

فالمتَدَبِّر لآيات الله سبحانه يجد فيها من الوعيد لمن عصى الله ما يدعوه إلى الخوف منه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

والحصر بـ«إنما» هنا يدلّ على أن ذلك من الإيمان الواجِب. ومَنْ لم يَحْصل له هذا الْوَجَل لا يلزم أن يكون كافرًا، ولَكِنَّه يكون قد نقص من إيمانه الواجب.

وقد وصف الله تعالى أهل العبودية الخاصة بقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثَّرت في قلوبهم من الإيمان والرَّغْبَة والرَّهْبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لِرَبِّهِمْ»[(٢)]. اهـ. «ولهذا كان بكاء النبي ﷺ **تارة**: يكون رحمةً للميت، **وتارة**: خوفًا على أمَّتِهِ، وشَفَقَة عليها، **وتارة**: من خشية الله، **وتارة**: عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبَّةٍ وإِجْلَال، مصحوب بالخَوْفِ والخشية»[(٣)].

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! قد شِبْت، فقال: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**»[(٤)].

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء: لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفَظِيع، والوعيد الشديد؛ لاشتمالهنّ ـ مع قِصَرِهِنّ ـ على حكاية أهْوَال الآخرة، وعجائبها وفظائعها، وأحوال الهالكين والمعذَّبين»[(٥)]. اهـ.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٣).

(٢) «تفسير السعدي» (ص١٠٠٥).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ١٧٦ ـ ١٧٧) بتصرُّف يسير.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، وحسَّنه، وصحَّحه الحاكم (٢/ ٣٤٣، ٤٧٦)، والألباني في «الصحيحة» (٩٥٥)، إلا أن الحديث معلول؛ أعَلَّهُ أبو حاتم في «العلل» (٥/ ١٧١)، والدارقطني (١/ ١٩٣ ـ ٢١١)، وجعله الحافظ من أمثلة المضطرب في «النكت على ابن الصلاح» (٢/ ١١٨)، وللحديث طرق إلا أنها لا تثبت، راجع: «الميزان» للذهبي (٣/ ٦٨١) و«الضعيفة» (١٩٣٠، ١٩٣١)، و«الإرشادات» لطارق عوض الله (ص٣٥١ ـ ٣٥٣).

(٥) «فيض القدير» (٤/ ١٦٩).

فإذا تدبَّرْتَ كلام الله ﷻ حق التَّدَبر أورثك ذلك النظر فيما ذكره الله في هذا القرآن من أنواع المَخَاوف، الَّتِي منها حلول نقمته وعذابه بأقوام كذّبوا رسله، وحاربوا أوْلِيَاءَه، وما أعد لهم في الآخرة من الجحيم والعذاب والسلاسل والأغلال، وما فيه من أوصاف الكمال لله تعالى؛ فإن ذلك يُحَرِّكُ الخَوْفَ في قلب الإنسان ويزيده؛ ولهذا نجد أن الذين يفهمون معاني القرآن، ويتدَبَّرونه هم أعظم الناس خوفًا.

ولهذا قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني أعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يَلْتَذّ بقراءته؟!»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته؛ من تدبّر القرآن، وإطالة التأمّل فيه، وجَمْع الفِكْر على معاني آياته... فلا تزال معانيه تُنْهِض العبد إلى رَبِّهِ بالوعد الجميل، وتُحَذّره وتُخَوّفه بوعيده من العذاب الوَبِيل، وتحثّه على التَّضَمُّر والتَّخَفّف للقاء اليوم الثقيل»[(٢)]. اهـ.

لكن الغفلة والجهل بمعاني القرآن، وغَلَبَة الفضول على أحوالنا صَرَفَنا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، لا سيما مع ما يُزَاحم ذلك من اشتغال أقوام بسماع البَاطِل، من اللهو المحرَّم وغير ذلك.

ولذلك؛ قال النبي ﷺ: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قِيحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**»[(٣)].

فهذا الإنسان الذي يقوم، ويَسْتَيْقظ، وينام، ويمشي، ويَتَحَرَّك على سماع الأناشيد، والقصائد، بصورة دائمة، كيف له أن يتأثَّر بالقرآن؟! وكيف له أن يخشع عند سماعه؟!

بخلاف مَنْ كَانَ شغلُه القرآن والذِّكْر؛ فإنه لا تطيب له أيامه، ولا يَهْنَأ له عيش إلا بذلك.

ثم إنه لا يمكن أن يَحْصل التدبّر لمن لا يعرف معاني القُرْآن.

ولذلك؛ فإن أعداء الله ﷻ يبذلون جهودًا مُضْنِية في سبيل الحيلولة بين المسلمين وكتاب ربِّهِمْ تبارك وتعالى.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله لو أن مؤمنًا عاقلًا قَرَأَ سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص بتفكُّر وتَدَبُّرٍ؛ لَتَصَدَّع من خَشْية الله قَلْبُه، وتَحَيَّر في عظمة الله لبّه»[(٤)]. اهـ.

---

(١) «معجم الأدباء» (٦/ ٢٤٥٣).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «التذكرة في الوعظ» (ص٧٣ ـ ٧٤).

وهذا أمر لا يُسْتَغْرب؛ وذلك أن الله ﷻ «إذا تَجلَّى بصفات العَدْل والانتقام، والغضب، والسّخط، والعقوبة؛ انقَمَعَت النَّفْس الأمَّارَة، وبطلت أو ضَعُفَتْ قُوَاها من الشهوة، والغضب، واللَّهْو، واللعب، والحرص على المحرَّمات، وانقبضت أعِنَّة رُعُوناتها، فأحضرت المطيَّة حظّها من الخوف والخشية والحَذَر»[(١)].

ثالثًا: معرفة الله ﷻ معرفة صحيحة بأسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ:

فَبِالْعِلْم بها يَزْدَاد المسلم معرفة بربِّهِ سبحانه، فيزداد خوفًا منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والعلم الذي يُورِث الخشية هو العلم بالمعبود ﷻ؛ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، والعلم بالطريق الموصِّلِ إليه، والعلم بحدوده ومعالم الطريق التي وصفها للسالكين مِنْ أجل أن يسلكوها. فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة للعبد، مع معرفة بالنَّفْس، بحيث لا يتعدَّى طَوره، فيعرف أنه ضعيف عاجز مسكين؛ فإن ذلك يُثْمِر الثمار اليانعة في نفْسه، فلا يتطاول، ولا يتكبَّر، ولا يشمَخ بأنفه، وإنما يكون حاله الإشفاق، والإخبات، والتواضع، والوَجَل، والخوف من الله ﷻ؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كفى بخشية الله علمًا»[(٢)].

قال السعد رحمه الله بعد تفسير الآيات التي تصف أهوال القيامة من سورة التكوير: «وهذه الأوصاف التي وَصَفَ الله بها يوم القيامة من الأوْصَافِ التي تَنْزَعِجُ لها القلوب، وتَشْتَدّ من أجلها الكروب، وتَرْتَعِد الفرائص، وتعُمّ المَخَاوف، وتحثّ أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجُرهم عن كل ما يُوجِبُ اللَّوْم»[(٣)]. اهـ.

وإنما يكون نقصان الخوف غالبًا بسبب نقصان العلم؛ فأعرفُ الناس بالله أخشاهم له. وكذلك كلّما كان العبد جاهلًا بأمر ربه كان أكثر تفريطًا في حق ربه، وحق عباده، وحقِّ نَفْسه. فمن عرف الله اشْتَدَّ حياؤُهُ مِنْهُ، وخوفه له، وحبه له. وكُلَّما ازْدَادَ مَعْرِفَة ازداد حياء وخوفًا وحُبًّا؛ وهذا خوف الصدِّيقِينَ، وخوف الموحِّدِين، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى.

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله عن هذه المعاني، وشرحها شرحًا مُطَوَّلًا ومختصرًا، ونوَّعَ

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص٩٨ ـ ٩٩).
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٦)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩١)، وأحمد (ص١٥٨) في «الزهد»، والطبراني في «الكبير» (٨٩٢٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٢).
(٣) «تفسير السعدي» (ص١٩٤١).

بسْطَهَا وبيَانَهَا، وذلك أن العبد إذا لاحظ أن هذا المُلْك كله لله ﷻ، وأن نواصي الخَلْق بيده، وأنه يدبّر أَمْر الممالك، يأمر وينهى، ويخلق ويرزق، ويُحْيِي ويميتُ، ويُعِزّ ويُذِلّ، ويُقَلِّب اللَّيْلَ والنهار، ويُدَاوِلُ الأيام بين الناس، ويَقْلِب الدّول، فيذهب بِدَوْلَةٍ ويأتي بأخرى، وأمره وسلطانه نافذ في السمٰوات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها، قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ووَسِع سَمْعه الأصوات، فلا تختلف عليه، ولا تَشْتَبه عليه، بل يسْمَع ضجيجها، باختلاف لغاتها، على تَفَنّن حاجاتها، فلا يَشْغله سَمْع عن سَمْع، ولا تُغَلِّطه كثرة المسائل، ولا يتبرّم بإلحاح المُلِحِّين ذوي الحاجات، قد أحاط بصره بجميع المرئيّات، فيَرَى دَبِيبَ النملة السوداء، على الصخرة الصَّمَّاء، في الليلة الظلماء، والغيب عنده شهادة، والسِّر عنده علانية: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٩]، يغفر ذنبًا، ويُفَرِّج هَمًّا، ويَكْشف كَرْبًا، ويَجْبر كَسْرًا، ويُغْنِي فَقِيرًا، ويَهْدِي ضَالًّا، ويُرْشِد حَيران، ويغيث لهْفَان، ويُشْبِع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويُعَافِي مُبتلى، ويَقْبل تَائِبًا، ويَجْزِي مُحْسِنًا، وينصر مظلومًا، ويَقْصم جبارًا، ويَفك عانيًا، ويُقيل عَثْرة، ويَسْتر عورة، ويُؤَمِّن رَوْعَة، ويَرْفَعُ أقْوَامًا، ويَضَعُ آخرين. لَوْ أنَّ أهل السمٰوات، وأهل الأرض، وأوّل الخَلْق وآخرهم، وإنْسهم وجِنّهم؛ كانوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، ولو أن أول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئًا.

فإذا نَظَر العبد إلى هذه الأمور، وتأمَّلَهَا صار سِرُّه كعلانيته، ولم يقدِّم على رَبِّه أحدًا، فيخافه فوق خوفه. ولم يُفَرِّط في شيء من حدوده، فيتَنَامَى هذَا الخوف في قلبه، ويزداد، ويزدان[١].

وهذا يقتضي العناية بطلب العلم الشرعي؛ لأنه الطريق إلى معرفة الله بأسمائه وصفاته؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال ﷻ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨].

فلو لاحَظْتَ هذه الآيات، وتمَعَّنْتَهَا لوجَدْتَ أن كل ما دَلَّ على فضيلة العلم دَلّ على فضيلة الخوف؛ وذلك لأن الخوف ثمرة من ثِمَار شجرة العلم. وتأمَّل قول حبيبنا المصطفى ﷺ حيث قال: «**فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»[٢].

---

(١) انظر: «الوابل الصيب» (ص١٥١ ـ ١٥٣)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٦١٥).

(٢) تقدم تخريجه.

فمَنْ عَلِمَ أنه حقير، وأن الله هو العظيم خاف منه، وأكثر خوف الملائكة والنبيين من الله من هذا الباب، ألا وهو خوف التعظيم.

رابعًا: اليقين الراسخ بوَعْد الله ووعيده، وتصديق كتابه ورسوله ﷺ:

وقد قيل: «إذا صح اليقين في القلب صحّ الخوف فيه»[(١)]. ولكل شيء صِدْق، وصِدْق اليقين الخوف من الله تعالى.

وقد وصف الله ﷻ أهل الإيمان بأنهم يُؤمنون بالغيب، ويخشون ربهم بالغيب، وذلك يتضمن الإقرار بوجوده، وربوبيته، وقُدْرته، واطّلاعه على تفاصيل أحوال العبد، ويتضمّن الإقرار بكتبه ورسله، وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تَصِحّ خشية الرحمٰن بالغيب إلا بعد هذا كله.

«ولو آمن الإنسان بالله وحده، وجزم يقينًا بما بعد الحياة من الجنة والنار، وما أعدّ الله لأهل هذه وهذه إجمالًا وتفصيلًا؛ لما اجترأ يومًا أن يتخطّى شريعة الله، أو ينتهك محارم الله التي حذَّره من تخطيها بقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩]»[(٢)].

وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: **«لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّوم قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟!»**[(٣)].

فلو تأمَّلَ الإنسان مثل هذا المعنى لانكفّ عن شهوة عارضة، في لحظة يلتذّ بها فيها، فيعقبها أَلَم يُنَغِّص عليه عيشَه، ويكدّر عليه صَفْوه، مع ما ينتظره في الدار الآخرة من العقاب إن لم يغفر الله ﷻ له.

فالخوف من الله يَرْسخ رسوخًا ثابتًا إذا وُجِدَ اليقين الكامل في نَفْس العبد؛ بحيث يكون العبد مُصَدّقًا مُستيقنًا بما أخبر الله ﷻ به، مما أعدَّهُ لأوليائه من النعيم، وما أعده لأهل الشقاء من العذاب والنّكال؛ سواء كان ذلك في الحياة

---

(١) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٩٧٩) من كلام ذي النون.
(٢) ما بين الأقواس من كتاب «الخوف من الله تعالى»، لمحمد شومان (ص٥٩) بتصرُّف واختصار.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٨٥)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٧٤٧٠)، والحاكم (٢/ ٢٩٤، ٤٥١)، والذهبي، وأحمد شاكر في التعليق على «المسند» (٢٧٣٥، ٣١٣٨)، والألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٥٠) وغيره. ثم تراجع فأعله بالوقف والتدليس وذلك في «الضعيفة» (٦٧٨٢).

الدنيا من العقوبات التي يُنْزِلها بهم، أم كان ذلك مما يدّخِره لهم في الآخرة. فهذا الأمر إذا قوي في النَّفْس قوي الخوف وازْدَادَ، وإذا ضَعُفَ ضَعُف الخَوْف حتى يتلاشى مِنَ القَلب.

ولذلك؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية»[(١)].

ويقول قتادة رحمه الله: «كان يُقال: كفى بالرَّهْبَةِ عِلْمًا»[(٢)].

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: «الخشية أن تخشى الله حتى تَحُول خشيته بينك وبين معصيته»[(٣)].

وقال الحسن رحمه الله: «العالِم: من خشي الرحمٰن بالغيب، ورغِبَ فِيمَا رَغَّبَ الله فيه، وزَهِدَ فيما سَخَطُ الله فيه»[(٤)].

وقال مسروق رحمه الله: «كفى بالمَرْءِ عِلْمًا أن يخشى الله، وكَفَى بالمَرْءِ جَهْلًا أن يَعْجَبَ بنفسه»[(٥)].

لأنه إذا أُعْجِب بعمله التَفَتَ إِلَى نَفْسه، فإذا الْتَفَتَ إلى نَفْسه لم يحترز، وإنما تكون ثقته بنَفْسه عظيمة، فيُجرِّئه ذلك على ما لا يَلِيقُ من الأقوال والأفْعَالِ، ويكون في حال غير مَرْضية.

وقال ابن عَبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما: «العلماء بالله الذين يخافونه»[(٦)].

وقال صالح أبو الخليل رحمه الله: «أعلمهم بالله أشدّهم له خشية»[(٧)].

وقال رجل مرَّة للشَّعْبِي رحمه الله: أيها العالم! فقال: «العالِم من يخاف الله»[(٨)].

وعن عبد الأعلى التيمي رحمه الله، **قال:** «من أُوتِيَ من العلم ما لا يُبْكِيهِ، لخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ أُوتِي عِلْمًا ينفعه؛ لأن الله تبارك وتعالى نَعَتَ العلماء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٤)، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٨٠)، والطبراني في «الكبير» (٨٥٣٤).
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٩/ ٣٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٣٥).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥).
(٥) أخرجه الدارمي في مقدمة «مسنده» (٣٢٢، ٣٩٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٣، ٧٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٩٥).
(٦) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٧٨).
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٤٩١)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٨٠)، واللفظ له.
(٨) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣١١).

مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧]»[(١)].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، فهذا هو العالِم الذي حمله العلم على خشية الله ﷻ، فخَافَهُ، فاتّبع أمره، وتَرك نهيه، وسَارَعَ في الامتثال لِفِعْلِ الخَيْرَاتِ، وتَرك المنكرات، وهو معنى تَتَابَعَ على إيراده وتقريره أهل العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله **في قوله تعالى**: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]: «والمعنى: أنه لا يخشاه إلا عالِم، فقد أَخْبَرَ الله أن كُلَّ مَنْ خَشِيَ الله، فهو عالِم»[(٢)]. اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله: «لأَنَّ مَنْ عَرَفَ الله خافه، ومَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ لَمْ يَخَفْهُ، فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته، وعلى قَدْر المعرفة تكون الخشية»[(٣)]. اهـ.

وقال ابن قدامة رحمه الله: «ليس الخوف بكثرة الذنوب، ولكن بصَفَاءِ القُلُوبِ، وكمال المعرفة، وإنما أَمِنّا لغلبة الجهل»[(٤)]. اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «كل عاصٍ لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالِم مُطِيع لله، وإنما يكون جاهلًا لِنَقْصِ خَوْفِهِ من الله؛ إذ لو تمَّ خَوْفُهُ من الله لم يَعْصِ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كفَى بِخَشْيَةِ الله عِلْمًا، وكفَى بالاغْتِرَارِ بالله جهلًا»[(٥)]؛ وذلك لأن تَصَوُّر المَخُوف يُوجِب الهَرب منه، وتَصَوُّر المحبوب يُوجِبُ طَلَبَه، فإذا لم يَهْرُب من هذا، ولم يطلب هذا؛ دلّ على أنه لم يتصوّرْه تصوُّرًا تامًّا»[(٦)]. اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨] يقتضي الحَصْرَ من الطَّرَفَيْنِ: أَلَّا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالِمًا إلا مَنْ يَخْشَاهُ، فلا يخشاه إلا عالِم، وما من عالِم إلا وهو يخشاه، فإذا انْتَفَى العِلْم انْتَفَت الخَشْيَةُ، وإذا انْتَفَتِ الخَشْيَةُ دَلَّت على انتفاء العِلْم»[(٧)]. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٥)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٨٨)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٤٢).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢١).
(٣) «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢٢٠).
(٤) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٩٩).
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٣٢).
(٦) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٢ ـ ٢٣).
(٧) «شفاء العليل» (٢/ ٤٩٢).

وقد يتساءل بعضنا، فيقول: ألم يَقُلِ الله ﷻ عن أولئك الظالمين: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ أي: آية مبصرة واضحة لا إشكال فيها، ولا خفاء فيها. وقال عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فحصَل لهم اليقين، وقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله ﷻ عن أهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ فهذه الآيات أخْبَرَت أنهم عرفوا الحق وعلموه، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

فنقول: ليس هناك تعارض بين نصوص القرآن، فالقرآن يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، ولكن تَخَلُّف الخشية:

تَارَةً: يكون بانعدام العلم أصلًا؛ كأن لَا يَعلم أن هذا الأمر مطلوب لله ﷻ، أو أنه منهيٌّ عَنْه مُحَرَّم.

وتارةً: يكون لِعَدم اليَقِين التام بالمعلوم، فلا يخشى الله ﷻ الخشية المطلوبة، كما أخبر الله ﷻ عن الناكفين عن الإيمان به أنهم يقولون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢﴾ [الجاثية: ٣٢].

فضَعْف اليقين بما وعد الله ﷻ به، وبما قصَّهُ وأخْبَرَ به يُضْعِف الخوف في نَفْس العبد. وهذا حال كثير مِنَ الخلق، إنما نَقَص خوفهم لنقص يَقِينِهِمْ.

وتارة: تَنْقُص الخشية لنقص عِلْمه بالمعبود ﷻ؛ فلو أنه عَرَفَه مَعْرِفَة حقَّة لخَافَهُ حَقًّا.

ولهذا قال مَنْ قَالَ من السلف رضي الله تعالى عنهم: «من عَصَى الله ﷻ فهو جاهل»[(١)]؛ وذلك أنه لو عَرَفَ رَبَّهُ حق المعرفة لما اجْتَرَأَ عَلَى معصيته.

وتارة: يحصل العِلْمُ لِلْإِنْسَانِ، ولكنه يُنَازَع بأُمُورٍ أخْرَى قد شُغِل بها قلبه؛ من اتّباع

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٨٩ ـ ٩٠) عن عطاء ومجاهد، وثبت عن قتادة، والسدي، وعبد الرحمٰن بن زيد، والحسن. راجع: «تفسير ابن جرير» (٨/ ٨٩ ـ ٩٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٣٠١)، و«شعب الإيمان» (٦٦٧١)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٣٥).

الهوى، وما يزيّن له الشيطان من الفتنة والشهوات، وما يَنْشَغِلُ به من زُخْرف الحياة الدنيا، والقلب ضعيف لا يَتَمَالك، إذا انصرفَت هِمَّته إلى شيء لم يلتفت لغيره.

ولهذا نهى الله ﷻ نبيَّه ﷺ أن يَلْتَفِتَ إلى شيء مما مَتَّعَ الله ﷻ به الكافرين؛ من مَبَاهِجِ الحَيَاة الدنيا، ونهاه عن أن يُعْجبه شيء من أموالهم وأولادهم، وما أعطاهم الله ﷻ من ألوان التَّرَفِ والأزواج، وما إلى ذلك، مما يَسْتَدعي نَظَر الناظرين.

فهذه أمور مُتَنَوِّعَة، إذَا حَصَل واحد منها أضعف الخَوْف والخشية في قلب الإنسان[1].

فالمقصود: أن هذا الإنسان الذي اجْتَرَأَ على الله ﷻ بِمَعْصِيَته يَسْتَحِقّ أن يُوصَف بالجهل، وأن يُسلَب عنه وَصْفُ العِلْم.

وقد تقدَّمَ أن العلماء ثلاثة: **عالمٌ بِأَمْرِ الله**، فهذا هو الفقيه بالأحكام وشرائع الإسلام، ولكنه قد لا يكون عالمًا بالله.

والثاني: عَالِمٌ بِاللهِ وأسمائه وصِفَاتِه، ولكنه ليس بعالِم بأمر الله، ولا بَصَر له بالأحكام.

والثالث: عالمٌ بالله، عالم بأمر الله ﷻ؛ فهذا هو المُهَيّأ لخشيته، وامتثال أمره، والقيام بحقوقه.

وهذا هو السبب في أن كثيرًا من المُشْتَغِلين بالعلُوم الشرعية من الفقه، والتفسير، والحديث وغير ذلك قد يكون عندهم نوع جَفَاف فِيمَا يَتَعَلَّق بالإقبال على الله ﷻ، وخشيته، ومراقبته، ومحبّته.

ولذلك؛ فالعلم لا بُدَّ معه من تربية تُرَوِّض النَّفْس، وتُهذِّب الأخلاق، وتُخَوِّف العبْدَ مِن الله تبارك وتعالى، فلا يجترئ عليه.

ومن هنا قال ابن قدامة رحمه الله **ـ كما تقدم ـ**: «ليس الخوف بكثرة الذنوب، ولكن بصفاء القلوب، وكمال المعرفة، وإنما أَمِنَّا لغلبة الجهل»[2]. اهـ.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

وعن أبي العالية رحمه الله أنه كان يُحَدِّثُ أَنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: «كل

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٩٠ ـ ٢٩٥)، و«شفاء العليل» (٢/ ٤٩٢).
(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٩٩).

ذَنْب أصابه عبدٌ، فهو بجهالة»(١).

وهذا أيضًا جاء عن جماعة مِنَ السَّلَف رضي الله تعالى عنهم بعد أصحاب النَّبيّ ﷺ، كما تقدَّمَ.

وقد جعل الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ أهل العلم على **مراتب**(٢):

فمِنْهُمْ: مَنْ يَكُونُ في بداياته، فهذا يحتاج إلى وعْظٍ وَزَجْرٍ، ويحتاج إلى الحدود، وإلى التعزيرات، وما جرى هذا المجْرَى.

ومنهم: من توسط فيه، فهو يحتاج إلى ألوان من المُجَاهَدَات، وأن يحمل نَفْسه على فِعْل التكاليف تكلّفًا.

ومنهم: من رَسَخ فيه؛ فصار العلم لهم سَجِيَّة وسِمَة، فخضعت نفوسهم، وارْتَاضَتْ على مقتضى العلم، من فِعْل المأمور، وتَرْك المحْظور، وهؤلاء هم العلماء حقًّا. وهذا لا يحْصل للإنسان إلا بعد مُجَاهَدات وطُول طَلَبٍ.

«فإن قيل: مجرَّد ظن المَخُوف قد يُوجِب الخوف، فكيف قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]؟ قيل: النَّفْس لها هوى غالب، قاهر، لا يصرفه مجرَّد الظن، وإنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة، وأما من كان يظن أن العذاب يقع، ولا يُوقِن بذلك فلا يترك هواه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠]، وقال تعالى في الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢﴾ [الجاثية: ٣٢]، ووصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون، وأقسم الرب على وقوع العذاب والساعة»(٣).

«ويدلُّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال أبو العالية: سألتُ أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي: «كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب»(٤)، وكذلك قال سائر المفسرين.

قال مجاهد: «كل عاص فهو جاهل حين معصيته»(٥).

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٨٩).
(٢) انظر: «الموافقات» (١/ ٨٩ ـ ٩١).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٨٢ ـ ١٨٣) بتصرُّف يسير.
(٤) أخرجه ابن جرير (٨/ ٨٩) مختصرًا.
(٥) تقدم تخريجه.

وقال الحسن وقتادة وعطاء والسّدي وغيرهم: «إنما سُمُّوا جُهَّالًا لمعاصيهم، لا أنهم غير مُمَيِّزين»[١].

وقال الزجاج: «ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء؛ لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يُواقِع سوءًا؛ وإنما **يحتمل أمرين**:

أحدهما: أنهم عملوه، وهم يجهلون المكروه فيه.

والثاني: أنهم أقدموا على بصيرة وعِلْم بأن عاقبته مكروهة، وآثروا العاجل على الآجل؛ فَسُمُّوا جهالًا لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة، والعافية الدائمة»[٢].

فقد جعل الزجاج (الجهل) إما عدم العلم بعاقبة الفِعْل، وإما فساد الإرادة؛ وقد يقال: هما مُتلازمان...

والمقصود هنا: أن كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم»[٣].

خامسًا: ذِكْرُ المَوْتِ وما بعده؛ فكَفَى بِهِ واعظًا:

وقد أحسن من قال[٤]:

أَمَا وَاللَّهِ لَوْ عَرَفَ الْأَنَامُ ... لِمَا خُلِقُوا لَمَا غَفَلُوا وَنَامُوا
لَقَدْ خُلِقُوا لِمَا لَوْ أَبْصَرَتْهُ ... عُيُونُ قُلُوبِهِمْ سَاحُوا وَهَامُوا
مَمَاتٌ ثُمَّ قَبْرٌ ثُمَّ حَشْرٌ ... وَتَوْبِيخٌ وَأَهْوَالٌ عِظَامُ
لِيَوْمِ الحَشْرِ قَدْ خُلِقَتْ رِجَالٌ ... فَصَلَّوا مِنْ مَخَافَتِهِ وَصَامُوا
وَنَحْنُ إِذَا أُمِرْنَا أَوْ نُهِينَا ... كَأَهْلِ الْكَهْفِ أَيْقَاظٌ نِيَامُ

فهي ساعة يَعْرَق لها الجبين مِنْ هَوْلها، وتَخْرس من فَجْأَتها الأَلْسُن، وتَقْطُر دموع الأسى والأَسَف من الأعْيُن على ما مضى من التَّفْريط، فهو أمر جدير بأن يُتَذَكّر ويُتَأَمَّل، والله يقول: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ١٩].

وَكَيْفَ قَرَّتْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْيُنُهُمْ ... أَوِ اسْتَلَذُّوا لَذِيذَ النَّوْمِ أَوْ هَجَعُوا
وَالمَوْتُ يُنْذِرُهُمْ جَهْرًا عَلَانِيَةً ... لَوْ كَانَ لِلْقَوْمِ أَسْمَاعٌ لَقَدْ سَمِعُوا
وَالنَّارُ ضَاحِيَةٌ لَا بُدَّ مَوْرِدُهُمْ ... وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَنْ يَنْجُو وَمَنْ يَقَعُ
أَفِي الجِنَانِ وَفَوْزٍ لَا انْقِطَاعَ لَهُ ... أَمِ الجَحِيمِ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَدَعُ

---

(١) تقدم تخريجها.
(٢) انظر: «معاني القرآن» (٢/ ٢٩).
(٣) ما بين الأقواس من «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٢).
(٤) «المدهش» (ص١١٥).

لِيَنْفَعِ الْعِلْمُ قَبْلَ الْمَوْتِ عَالِمَهُ ... قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا[١]

وقال أبو العتاهية[٢]:

أَلَا رُبَّ ذِي أَجَلٍ قَدْ حَضَرْ ... كَثِيرِ التَّمَنِّي قَلِيلِ الحَذَرْ
إِذَا هَزَّ فِي الْمَشْيِ أَعْطَافَهُ ... تَعَرَّفْتَ مِنْ مَنْكِبَيْهِ الْبَطَرْ
يُؤَمِّلُ أَكْثَرَ مِنْ عُمْرِهِ ... وَيَزْدَادُ يَوْمًا بِيَوْمٍ أَشَرْ

وله أيضًا[٣]:

لِأَمْرٍ مَا بَنِي حَوَّا ... ءَ قَدْ نُصِبَتْ لَكُمْ سَقَرُ
أَلَيْسَ الْمَوْتُ غَايَتَهَا ... فَأَيْنَ الخَوْفُ وَالحَذَرُ
رَأَيْنَا الْمَوْتَ لَا يُبْقِي ... عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَذَرُ

وله أيضًا[٤]:

لِحَثِّ تَقَارُبِ الآجَا ... لِ تَجْرِي الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
تَفَكَّرْ أَيُّهَا المَغْرُو ... رُ قَبْلَ تَفُوتُكَ الْفِكَرُ
فَإِنَّ جَمِيعَ مَا عَظَّمْـ ... ـتَ عِنْدَ المَوْتِ مُحْتَقَرُ

فـ«ابكِ على نفسك قبل أن يُبْكَى عليك، وتفَكَّرْ فِي سَهْم قد صُوِّب إِلَيْكَ، وإذا رأيت جنازة فاحسبها أنت، وإذا عاينتَ قبرًا فتوهَّمْه قبرك، وعُدَّ بَاقِي الحَيَاة رِبحًا»[٥].

يَا غَافِلَ الْقَلْبِ عَنْ ذِكْرِ المَنِيَّاتِ ... عَمَّا قَلِيلٍ سَتُلْقَى بَيْنَ أَمْوَاتِ
فَاذْكُرْ مَحلَّكَ مِنْ قَبْلِ الحُلُولِ بِهِ ... وَتُبْ إِلَى اللَّهِ مِنْ لَهْوٍ وَلَذَّاتِ
لَا تَطْمَئِنَّ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ... قَدْ آنَ لِلْمَوْتِ يَا ذَا اللُّبِّ أَنْ يَاتِي[٦]

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كَرْب ولا هَوْل ولا عَذَاب سوى سكرات الموت بمُجَرَّدِها؛ لكان جديرًا بأن يَتَنَغَّصَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ، ويَتَكَدَّر عليه سروره، ويفارقه سَهْوه وغفلته، وحقيقًا بأن يُطَوِّل فيه فِكْرُهُ، ويُعَظِّم له استعداده، لا سيما وهو في كل نَفَس بصدده»[٧]. اهـ.

فَاذْكُرِ المَوْتَ وَدَاوِمْ ذِكْرَهُ ... إِنَّ فِي المَوْتِ لِذِي اللُّبِّ عِبَرْ
وَكَفَى بِالمَوْتِ فَاعْلَمْ وَاعِظًا ... لِمَنِ المَوْتُ عَلَيْهِ قَدْ قُدِرْ[٨]

---

(١) المصدر السابق (ص٢٧١).
(٢) «ديوان أبي العتاهية» (ص١٠٢).
(٣) المصدر السابق (ص١٠٤).
(٤) المصدر السابق (ص١٠٤).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن الجوزي في «المدهش» (ص٣٦٧).
(٦) «لطائف المعارف» (ص٥٨٧) باختصار.
(٧) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٦١).
(٨) «لطائف المعارف» (ص١٩٦)، وأوردها القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٥٩)، ونسبها لطَرَفة.

يقول أبو عبد الله الراعي[(١)]:

أُفَكِّرُ فِي مَوْتِي وَبَعْدُ فَضِيحَتِي ... فَيَحْزَنُ قَلْبِي مِنْ عَظِيمِ خَطِيئَتِي
وَتَبْكِي دَمًا عَيْنِي وَحُقَّ لهَا الْبُكَا ... عَلَى سُوءِ أَفْعَالِي وَقِلَّةِ حِيلَتِي
وَقَدْ ذَابَت اكْبَادِي عَنَاءً وَحَسْرَةً ... عَلَى بُعْدِ أَوْطَانِي وَفَقْدِ أَحِبَّتِي
فَمَا لِيَ إِلَّا اللَّهُ أَرْجُوهُ دَائِمًا ... وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ اقْتِرَابِ مَنِيَّتِي

سادسًا: الوقوف عند الآيات الكونية التي يخوّف الله ﷻ بها عباده:

كالخسوف والكسوف، وتغيّر الأحوال الأرْضِيَّة والسماوية، ومما يقع من البلايا والأهوال العِظَام، من الزلازل والبراكين؛ فلو أن الناس تَفَكَّرُوا في هذه الآيات العِظَام، وما أجراه الله تعالى على المكذِّبين من العذاب والنِّقَم، فبَقِيَتْ بَعْض آثارهم، وما يجريه الله سبحانه في هذه العصور مِنْ أَلْوَان العقوبات والمَثُلَات، وتَسْلِيط الأعداء، وما يجريه الله ﷻ من بعض الجوائح التي تُصيب الناس،؛ لرَأوا في ذلك أعْظَم العِبَر، ولكن العِبْرة: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

أمَّا مَنْ كَانَ غافلًا سادرًا في غَفْلَتِهِ، فإنه لا يرْعوي وإن جاءته الآيات كلّها. وقد رأى قوم الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام، ورأوا ما أظهر الله على أيديهم مِنَ المعجزات والآيات البيِّنَات، ومع ذلك أعرضوا، فكُبُّوا على وجوههم في النار؛ فالآيات لا تَنْفَع من خَتَم الله ﷻ على قلبه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]. ولا يزال هؤلاء فيما هم فيه من الغَيّ والضَّلَال والإِسْرَاف على أنفسهم، وإذا رأوا الآيات الكونية فسَّرُوهَا تَفْسِيرات مادِّيَّة، لا يُعَوِّلون فيها على التفكّر والاتّعاظ.

سابعًا: الدعاء:

فالعَبْدُ فَقِير إلى رَبِّهِ كل الافتقار، فهو بحاجة شديدة إلى عَوْنه وتسديده وتَأْيِيدِهِ، وأن يُفْتَح على قلبه، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرَّحْمَن، يقلبها كيف يشاء.

فينبغي لِلْعَبْدِ أن يُلِحَّ في الطَّلَب والسؤال، وأن يسأل ربه قائمًا وقاعدًا، وأن يذكره بقلب خائف يخشاه، ويَهَابه، ويَتَّقِيهِ، والنبي ﷺ وهو أعْظَمُ الأمَّةِ خَشْيَة لله ﷻ، ومع ذلك كان يقول: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي. اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ**

(١) «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (٢/ ٦٩٥ ـ ٦٩٦).

وَالشَّهَادَةِ...» الحديث[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كانت خشية الله عَزَّ وَجَلَّ رأس كل خير في المَشْهد والمغيب سأله خشيته في الغيب والشهادة»[(٢)]. اهـ.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم مِنْ مجْلِس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ**» الحديث[(٣)].

وكان من دعائه ﷺ: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ...**»، إلى أن قال: «**رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا...**» الحديث[(٤)].

ثامنًا: أن يُجيل الإنسان فِكْرَهُ وعقله، وينظر ويفكّر في قُبْح الجناية التي يُريد أن يُقْدِم عليها، أو التي أقدم عليها، واجترأ على فِعْلها:

وينظر فيما قد يقع به من العقوبة بسبب ذلك في الدنيا والآخرة، وأنه قد يُحْرَم من التوبة، فلا يُوَفَّق إليها، فيموت مُصِرًّا على هذا الذنب، فيَخْسر كثيرًا إذا لَقِيَ رَبَّهُ؛ فهو مُشْفِقٌ من ذنبه، طالِبٌ مِنْ رَبِّه أن يدخله فيمن غفر الله لهم.

فهذه الأمور وغيرها إذا أجال الإنسان نَظَرَه فيها كانت رادعًا له عن اقتراف الآثام، وعن التَّقْصِير في حقوق الله عَزَّ وَجَلَّ، فينهض مُسْتعينًا بالله عَزَّ وَجَلَّ على تحقيق الامتثال.

يقول الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة، وما هو مخُوفٌ فيها؛ فاشْتَغِلْ بالاستعداد لها، فوَاظِبْ عَلَى ذكر الله تعالى، وأخْرِج مِنْ قَلْبِكَ حُبَّ الدنيا، واحرُسْ عَنْ فِعْلِ المَعَاصِي جوارحك، وعن الفكر فيها قَلْبَك، واحْتَرِزْ عن مُشَاهَدة المعاصي، ومُشاهدة أهلها جهدك؛ فإن ذلك أيضًا يُؤَثِّر في قلبك، ويَصْرِف إليه فكرَك وخواطِرَكَ، وإياك أن تُسَوِّف، وتقول: سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كُلَّ نَفَس من أنفاسك خاتمتك؛ إذ يمكن أن تُخْتَطَف فيه روحك، فَرَاقِبْ قلبك في كل تَطْرِيفَة، وإيَّاكَ أن تُهْمِلَهُ لحظة، فلَعَلَّ تلك اللحظة خاتمتك؛ إذ يمكن أن تُخْتَطَفَ فيها روحك، هذا ما دُمْتَ في يقظتك.

---

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥، ١٣٠٦) عن عمارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه ابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١/ ٥٢٤)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٧٩)، والألباني في «ظلال الجنة» (١٢٩).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٧٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أبو داود (١٥١١)، والترمذي (٣٥٥١) واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٣٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٩٤٧، ٩٤٨)، والحاكم (١/ ٥١٩)، والذهبي، والألباني في «ظلال الجنة» (٣٨٤).

وأما إذا نِمْت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن، وأن يغلبك النوم إلا بعد غَلَبَةِ ذِكْرِ الله على قلبك، لست أقول: على لسانك؛ فإن حركة اللسان بمُجَرّدها ضعيفة الأثر.

واعْلَمْ قَطْعًا أنه لا يَغْلِبُ عِندَ النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبًا عليه، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالبًا قبل النوم، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك، والموتُ والبَعْثُ شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلا على ما غَلَبَ عليه في يقظته، ولا يَسْتَيْقِظ إلا على ما كان عليه في نومه، فكذلك لا يموتُ المرءُ إلا على ما عاش عليه، ولا يُحْشَر إلا على ما مات عليه»[١]. اهـ.

والعُلَمَاء رحمهم الله كثيرًا ما كانوا يُوصُون بهذا النوع من المُعَاهَدة؛ تَعَاهُد النَّفْس، وتعاهد القلب، وأن يتفكَّر الإنسان في هَوْلِ المَطْلَع عند مفارقة الدنيا، ويتَفَكَّر فيما يبذل أهل الدنيا من أجْلِهِ الأوْقَات والأنفاس والمُهَج، ويُدَنِّسُونَ بِسَبَبِه أعراضهم وأخلاقهم ومروءاتهم، ثم يفارقون ذلك جميعًا، ويُقْدِمون على الله ﷻ فُرَادى، يَرِدُونَ على وَحْشَة القُبُور، وسؤال الملكين، وأهوال القيامة، والوقوف بين يدي الله ﷻ، والمُساءلة عن جميع ما كان منهم من قليل أو كثير، حتى إنَّهم لَيُسْأَلُونَ عَنْ مَثَاقِيل الذَّرِّ، ومَوَازِين الخَرْدَل. ويُسْأَل الإنسان عن شبابه فيما أبْلَاهُ، وعن عُمْرِهِ فيما أفْنَاه، وعن مَالِهِ من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه، وعن العلم ماذا عَمِلَ فِيهِ، وعن جميع الأعمال التي صَدَقوا فيها والتي كَذَبوا فيها.

فإذا شَغَلَ الإنْسَانُ قَلْبَه بهذه الأمور، وتفكَّر فيها؛ أُعِينَ على تحْقِيق هذه الخلَّة؛ فهو بحاجة إلى أن يتذكَّر هُجُومَ المَوْتِ، وعظيم حق الله عليه، وما يجب عليه مِنْ طَاعَتِهِ، مَعَ شِدَّةِ تَقْصِيرِهِ في حَقِّهِ:

طُوبَى لِمَنْ هَمُّهُ المَعَادُ وَمَا ... أَخْبَرَهُ اللَّهُ يَوْمًا مِنْ خَبَرِهْ
طُوبَى لِمَنْ لَا يَزِيدُ إِلَّا تُقَى ... لِلَّهِ فِيمَا يَزِيدُ مِنْ كِبَرِهْ
قَدْ يَنْبَغِي لِامْرِئٍ رَأَى نَكَبَا ... تِ الدَّهْرِ أَلَّا يَنَامَ مِنْ حَذَرِهْ
الْوَقْتُ آتٍ لَا شَكَّ فِيهِ فَلَا ... تَنْظُرْ إِلَى طُولِهِ وَلَا قِصَرِهْ[٢]

فإذا دَامَتْ مِنَ العبد الفِكْرة في ذنوبه، مع العلم بِعَظَمَةِ مَنْ عَصَى وجَلَالِهِ، وشِدَّةِ بَطْشِهِ، واستيلاء قَهْرِه؛ أثمر له ذلك شِدّة الخوف، فينْكَفّ عن المعصية، وتَضْعف

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٧٩).
(٢) «ديوان أبي العتاهية» (ص١١٠ ـ ١١١).

خَوَاطر النَّفْس السَّيِّئَة، فيسلم العبد من هلاك الأبد، ويَفُوز بالنعيم المقيم.

وهذا لا يكون أبدًا إلا مع الخوف العظيم؛ وكما قيل: لا يمحو الشَّهَوات إلا خوف مُزعِج، أو شَوْق مُقْلِق.

يقول ابن الوزير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فافزع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، والتضرّع والتذلّل، وطَلَب أسباب الرِّقَّةِ والتَّخْوِيفِ العَظِيم لنفسك من الوقوع في الشّقوة الكبرى بعذاب الآخرة، فإنَّ مِنْ طَبَائِعِ النفوس الإيمانَ عند شِدَّةِ الخوف، ولذلك آمن قوم يونس لما رأوا العذاب، وآمن فرعون حين شاهد الغَرَق»[(١)]. اهـ.

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا كان العبد في حال حضور ذِهْنه وقوّته، وكمال إدراكه قد تمكَّن مِنْه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطَّلَ لسانه عن ذِكْره، وجوارِحَه عن طاعته، فكيف الظنّ به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونَفْسه بما هو فيه من أَلَم النَّزْع، وجَمَع الشيطان له كل قوَّتِهِ وهِمَّتِهِ، وحَشَد عليه بجميع ما يَقْدر عليه لينال منه فُرْصَته؟! فإنَّ ذَلِكَ آخر العمل؛ فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضْعَف ما يكون هو في تلك الحال»[(٢)]. اهـ.

وقال ابن شُبْرُمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَجِبْتُ لمن تَحَمَّى من الطعام والشراب مخافة الداء كيف لا يَحْتَمِي من الذنوب مخافة النار!!»[(٣)].

يَا عَجَبًا مِنْ مُوقِنٍ بِالجَزَا ... وَهْوَ قَلِيلُ الخَوْفِ لِلَّهِ
كَأَنَّهُ قَدْ جَاءَهُ مُخْبِرٌ ... بِأَمْنِهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ[(٤)]

وقد رُوِي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا**»[(٥)].

أَرَاكَ لَسْتَ بِوَقَّافٍ وَلَا حَذِرٍ ... كَالحَاطِبِ الخَابِطِ الْأَعْوَاد فِي الْغَلَسِ
تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ[(٦)]

فالنار وسط الكَفّ، قريبة لمن أرادها، وشهوات الدنيا مَصَائِد تقطع عن الوصول.

---

(١) «إيثار الحق على الخلق» (ص٥٨).
(٢) «الجواب الكافي» (ص٢١٨).
(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٧٥).
(٤) «ديوان الإلبيري» (٦٣).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة وضعفه، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٣٣٦)، والمنذري في «الترغيب» (٣/ ٤٥٣)، والذهبي في «الميزان» (٤/ ٣٩٥)، وابن رجب في «التخويف من النار» (ص١٦)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٤٥٣)، وحسن إسناده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٣٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٦) «ديوان أبي العتاهية» (ص١٢٤).

فإذا بَطلَت الشهوات بحلول الموت أحسَّ الهَالِك بِمَا لم يكن يدري، كما أن خوف المُبَارِز يَشْغله عن أَلَم الجِرَاح، فإذا عاد إلى المأمن زَادَ الْأَلَم، فإذا مَاتُوا انْتَبَهُوا، وإذا شَيَّعَ الناس الجنائز فقد سَمِعُوا نَذِيرًا بلا صوت. كم شَيَّعْنَا مِن الجنائز! وكم تركنا في تلك المقابر! ثم قَسَتْ قلوبنا من بعد ذلك. والحَازِم لا يترك الحذر حتى يصل المأمن(١).

قال أبو إسحاق الإلبيري(٢):

تَفُتُّ فُؤَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًّا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا
وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ ... أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا
أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ خِدْرٍ ... أَبَتَّ طَلاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا
تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ ... بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا

فـ«العبد إذا عَلِم أنَّ اللهَ ﷻ هو مُقَلِّبُ القلوب، وأنه يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقلبه، وأنه تَعَالى كل يوم هو في شأن، يفعل ما يشاء، ويحْكُم ما يريد، وأنه يهدي مَنْ يَشَاء، ويضلّ مَنْ يَشَاء، ويرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، فما يُؤَمِّنه أن يقلب الله قلبه، ويَحُولُ بينه وبينه، ويُزيغه بعد إقامته، وقد أثْنَى الله على عِبَادِهِ المؤمنين بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]؛ فلولا خوف الإزاغة لما سألوه ألَّا يزيغ قلوبهم»(٣).

تاسعًا: مُجَالَسة مَنْ يُخَوِّفنا من الله ﷻ بالتذكير:

لأن الله يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق: ٤٥]، وقد كان أسلافنا «يتراسلون بالمواعظ، لتقع المساعدة على اليقظة؛ كصياح الحارس بالحارس»(٤).

قال رجل للحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: يا أبا سعيد! كيف نصنع بمُجَالَسة أقوام يُخوّفوننا حتى تكاد قلوبنا تتقطّع؟ فقال: «والله لأن تَصْحب أقْوامًا يُخوّفونك حتى تُدْرك أَمْنًا، خير لك من أن تَصْحَب أقْوامًا يُؤَمِّنُونَك حتى تلحقك المَخَاوف»(٥).

---

(١) انظر: «اللطف في الوعظ» (ص٧٨).
(٢) «ديوان الإلبيري» (ص٢٤).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٢٥ ـ ٦٢٦).
(٤) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص٣٤٢).
(٥) تقدم تخريجه.

ولما جاء الواعظ شيبان إلى هارون الرشيد، قال له هارون الرشيد: عِظْنِي. فقال له: «يا أمير المؤمنين! لأن تصحب من يخوفك حتى يُدْرِكك الأمن خيْر لك من أن تصحب مَنْ يُؤَمِّنكَ حتى يدركك الخوف»[١].

فينبغي على الإنسان أن يَتَحَرَّى في صحبته، فيصحب من يُذَكِّرُهُ بالله بقوله، وإذا رَآه تَذَكَّرَ اللهَ ﷻ؛ لأن الطبع سَرَّاق، والصُّحْبة قد تجعل الشرّير خَيِّرًا، والخَيِّر شرّيرًا. أما رأيتم الهواء كيف يَفْسد بمجاوَرَةِ الجِيَف؟ فكيف بالنَّفْسِ التي هي في غاية الحساسية، يَنْطَبع فيها ما يشاهده الإنسان، وما يراه، وما يحصل له مِنْ ألوان التأثرات التي يلقاها في ذهابه ومجيئه، فتبقى مُنْطَبِعَة في نَفْسه، فإذا حاول أن يُزِيلَهَا ويَرْفعها لم يتمَكَّنْ من ذلك.

وقال جعفر بن سليمان ﵀: «كنتُ إذا وجدتُ من قلبي قسوة نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع نظرة، وكنتُ إذا رأيتُ وجه محمد بن واسع حسبتُ أن وجْهَهُ وجه ثَكْلى»[٢]، وقد روى ابن عباس ﵄، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَوْلِيَاءُ اللهِ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ**»[٣].

إِنَّ الْـقَـرِيـرَةَ عَـيْـنُـهُ عَـبْـدٌ ... خَـشِـيَ الْإِلَـهَ وَعَـيْـشُـهُ قَـصْـدُ
عَـبْـدٌ قَـلِـيـلُ الـنَّـوْمِ مُـجْـتَـهِـدٌ ... لِـلَّـهِ كُـلِّ فِـعَـالِـهِ رُشْـدُ
نَـزِهٌ عَـنِ الـدُّنْـيَـا وَبَـاطِـلِـهَـا ... لَا عَـرضَ يَـشْـغَـلُـهُ وَلَا نَـقْـدُ
مُـتَـذَلِّـلٌ لِـلَّـهِ مُـرْتَـقِـبٌ ... مَـا لَـيْـسَ مِـنْ إِتْـيَـانِـهِ بُـدُّ
رَفَـضَ الـحَـيَـاةَ عَـلَـى حَـلَاوَتِـهَـا ... وَاخْـتَـارَ مَـا فِـيـهِ لَـهُ الـخُـلْـدُ
فَـاشْـدُدْ يَـدَيْـكَ إِذا ظَـفِـرْتَ بِـهِ ... مَـا الْـعَـيْـشُ إِلَّا الْـقَـصْـدُ وَالـزُّهْـدُ[٤]

هذا ما يتعلّق بالأسباب التي يُسْتَجْلَب بها الخوف.



(١) «المنتظم» (١٨/ ٢٥٠).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٢١٧)، والبزار (٣٦٢٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣٢٥)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٥٧)، وصحَّحه في موضع آخر من «صحيح الجامع» (٢٥٨٧)، إلا أنه مُعَلّ بالإرسال، كما في «كشف الأستار»، راجع: «تخريج الكشاف» للزيلعي (٥٩٨)، و«الصحيحة» للألباني (١٦٤٦، ١٧٣٣).
(٤) «ديوان أبي العتاهية» (ص١٣٧).

ثمرات الخوف

ثمرات الخوف والخشية من الله سبحانه كثيرة جدًّا؛ **فمن ذلك:**

أولًا: أنه سببٌ مُوَصِّل لِجَنَّةِ الله ﷻ، كما أَنَّهُ سَبَب للخلاص مِنْ عَذَاب الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة:

وقد ضمن الله ﷻ الجنَّة لمنْ خَافَه من أهل الإيمان، فقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

قال مجاهد رحمه الله: «هو الرَّجُل يريد أن يُذْنِبَ، فيَذْكر مقام ربِّه، فيَدَع الذنب»[(١)].

وعنه قال: «مَنْ خَافَ الله عند مقامِهِ على المعصية في الدنيا»[(٢)].

وقال أيضًا: «هو الرجل الذي يذكر الله عند المعاصي، فَيُحْجَز عنها»[(٣)].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما **قال:** «وعَدَ الله جلَّ ثناؤه المُؤْمِنِينَ الذين خافوا مقامَه فأدَّوا فَرَائِضَه الجنة»[(٤)].

وقال الله ﷻ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٤].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ**...» الحديث، وذكر منها: «**خَشْيَةُ اللهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ**»[(٥)].

قال المناوي رحمه الله: «قَدَّم السِّرَّ؛ لأن تقوى الله فيه أعلى درجة من العَلَنِ؛ لما يخاف

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٢٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٥٦٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٧٠)، وهناد في «الزهد» (٨٩٩) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨١).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٢٣٥).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه، واستنكره العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ١١٣٦)، والذهبي في «الميزان» (١/ ٦١١) و(٣/ ٣٤٩)، إلا أن له شواهد عن أبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم رضي الله عنهم، بها حسَّنه المنذري في «الترغيب» (١/ ٢٨٦)، والألباني في «الضعيفة» (١٨٠٢)، وراجع: التعليق على «المجالسة» للدينوري (٨٩٩).

من شَوْب رؤية الناس، وهَذِهِ درجة المُرَاقبة، وخشيته فيهما تمْنَع من ارتكاب كل مَنْهِيّ، وتحثّه على فِعْل كل مأمور، فإن حَصَل للعبد غفلة عن مُلاحظة خوفه وتقواه، فارْتَكب مُخَالفة مولاه لجأ إلى التوبة، ثم دَاوَم الخشية»[١]. اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ**»[٢]، واللبن لا يعود في الضَّرْعِ أبدًا.

ثانيًا: أنه أمان للخائفين:

أمانٌ لهم يوْمَ الفَزَعِ الأكبر؛ كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلَا خَوْفَيْنِ، إِنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي، وَإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ فِيْهِ عِبَادِي...**»[٣].

وقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: «إنَّ الرَّجُلَ ليعمل المُحَقّرات حتى يأتي الله وقد أَحَطْنَ بِهِ، وإن الرجل ليَعْمَلُ السيئة فيَفْرَق منها حتى يأتي الله آمنًا»[٤].

وفي حديث السَّبْعة الذين يُظِلّهم الله في ظِلِّه يَوْمَ لا ظل إلا ظله: «**وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ... وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»[٥].

والشاهد من هذا: أن هؤلاء الذين صاروا في ظلِّ الرَّحْمَنِ تبارك وتعالى لا تَطُوْلُهم المخاوف، فهم في غاية الأمن؛ كما قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، فحكم لهم بالأمن المُطلق، وقد علّقَه الله سبحانه على وَصْفٍ، وهو الإيمان الذي لم يُلَابِسُه ظلم؛ فعَلَى قَدْرِ ما عندهم من الإيمان الذي منه الخوف من الله يكون أمْنُهم وطُمَأْنِينتُهم، وكذلك يكون اهتداؤهم؛ ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: «**من خاف الله تعالى لم يضرّه شيء، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد**»[٦].

---

(١) «فيض القدير» (٣/ ٣٠٧).

(٢) هذا الحديث روي مرفوعًا وموقوفًا؛ أخرجه الترمذي (١٦٣٣، ٢٣١١) واللفظ له، والنسائي (٣١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وصحّحه الترمذي، والحاكم (٤/ ٢٦٠)، والذهبي، والألباني في «صحيح الترغيب» (١٢٦٩، ٣٣٢٤). وأخرجه النسائي (٣١٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفًا عليه. راجع: «العلل» للدارقطني (٨/ ٣٣٦).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره البغوي في «شرح السُّنَّة» (٤/ ٣٧٤).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٨) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٤٤).

وقال الربيع المرادي[(١)]:

مَــنْ خَــشِــيَ الــلَّــهَ لَــمْ يَــنَــلْــهُ أَذًى وَمَــنْ رَجَــا الــلَّــهَ كَــانَ حَــيْــثُ رَجَــا

ثالثًا: أنه سبب لِنَيْلِ مَغْفِرَة الله تبارك وتعالى:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«يَقُولُ اللهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً»**[(٢)].

وفي لفظ لمسلم[(٣)]: **«وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»**؛ أي: مِنْ أجلي، خوفًا مني.

وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قال: **«قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لِأَهْلِهِ: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ، وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعالَمِينَ. فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَرَّ، فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ، فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِك يَا رَبِّ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ؛ فَغَفَرَ اللهُ لَهُ»**[(٤)]. فكانت هذه الخشية العظيمة التي وقعت له سببًا لمغفرة الله عز وجل.

رابعًا: أنه يورث المَهَابة:

فيكون للخَائِفِ مِنَ الله عز وجل مِنَ الهَيْبَةِ في قلوب الخَلْق ما لا يكون للمُسْتَرسِلين في معْصِيَة الله تعالى، الذين لا يرفعون لخشيته رأسًا.

وقد قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «عَلَى قَدْر حبك لله يُحبّك الخَلْقُ، وعلى قَدْرِ خَوْفِكَ مِنَ الله يَهابُكَ الخَلْق»[(٥)].

وقال عُمَرُ بن عبد العزيز رحمه الله: «مَن خاف الله أخاف منه كُلَّ شيء، ومَن لَمْ يَخَفِ الله أخَافه مِن كلِّ شيء»[(٦)].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥٨٩)، و«طبقات الشافعية» (٢/ ١٣٤).

(٢) تقدم تخريجه، وهذا لفظ البخاري.

(٣) برقم: (١٢٩).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦) واللفظ له.

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٤٨).

(٦) المصدر السابق (٩٤٣).

وقال يوسف بن أسْبَاط رَحِمَهُ اللهُ: **قلتُ لأبي وكيع**: رُبَّمَا عَرَض لي في البيت شيء يُدَاخِلُني الرّعب، فقال لي: «يا يوسف! مَنْ خَافَ اللهَ خَافَ مِنْهُ كلّ شيء». قال يوسف: فما خفتُ شيئًا بعد قوله[١].

فهذا علاج لأولئك الذين يعانون من خوف لا يدرون ما سببه، فإنه إذا خاف الله تبارك وتعالى تَلَاشت عنه تلك المخاوف.

وكذلك مَن كَان يَسْتَوْحِش لوجوده منفردًا في بيته أو نحو ذلك، فإنه يتذَكَّر هذا المعنى، فإذا مُلِئَ قلبُهُ بالخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه لا يلتفت بعد ذلك إلى شيء.

وذلك أن هذا القلب وعاء، فهو بحسب ما مُلِئَ به؛ فإن مُلِئَ بِالخوف من المخلوقين لم يَعُد فيه موضع للخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا مُلِئَ بالخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يَعُد فيه موضع للخوف من المخلوقين.

ومن عجيب ما يُذْكَر في ذلك خبر بنان الزَّاهِد حين أَمَر ابنَ طولون بالمعروف، فأمر أن يُلقَى بين يدي السَّبُع، فجعل السَّبُع يَشُمّه ولا يضره، فلما أُخْرِج من بين يدي السَّبُع قيل له: «ما الذي كان في قلبك حين شمك السَّبُع؟ قال: كنت أتفكر في اختلاف الناس في سؤر السَّبُع ولعابها»[٢].

خامسًا: أنه يحمل صاحِبَهُ على الإحسان إلى الخَلْق وتَرْك ظلمهم:

فهو يعاملهم بالمعروف، ويَتَّقِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ؛ لأنه يعلم يقينًا أنه كما يدين يُدان، فليس في قلبه رجاء لهؤلاء المخلوقين، وليس في قلبه خوف من أحد منهم، فهو يحسن إليهم، وينتظر الجزاء مِن الله سبحانه، لا ينتظر العطِيَّة منهم. وهو أيضًا يقوم بأمْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم، فلا يترك أمر الله تبارك وتعالى تمَلُّقًا لهم، ومُداهنةً ورياء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ومن طلب من العباد العِوَض ـ ثناء أو دعاء أو غير ذلك ـ لم يكن مُحسنًا إليهم لله. ومن خاف الله فيهم، ولم يخفهم في الله كان محسنًا إلى الخلق وإلى نفسه؛ فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم، ويَكُفّ عن ظلمهم، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم؛ حيث خاف غير الله وَرَجَاه؛ لأنه إذا خافهم دون الله احتاج أن يدفع شرَّهم عنه بكل وجه؛ إما بمُدَاهنتهم ومُرَاءَاتِهم، وإما بمُقَابلتهم بشيء أعظم من شرِّهم أو مثله، وإذا رجاهم لم يقم فيهم بحق الله، وهو إذا لم يخف الله فهو مختار للعدوان عليهم؛ فإن طَبْع النَّفْس الظلم لمن

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٠).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٢٤).

لا يظلمها، فكيف بمن يظلمها؟ فتجد هذا الضَّرْب كثير الخوف من الخلق، كثير الظلم إذا قَدِر، مَهْينًا ذليلًا إذا قُهِر، فهو يخاف الناس بحسب ما عنده من ذلك، وهذا مما يُوقِع الفتن بين الناس.

وكذلك إذا رجاهم فهم لا يعطونه ما يرجوه منهم، فلا بد أن يبغضهم، فيظلمهم إذا لم يكن خائفًا من الله ﷻ، وهذا موجود كثير في الناس، تجدهم يخاف بعضُهم بعضًا، ويرجو بعضهم بعضًا، وكلٌّ من هؤلاء يتظلم من الآخر، ويطلب ظلمه، فهم ظالمون بعضهم لبعض، ظالمون في حق الله؛ حيث خافوا غيره، ورجوا غيره، ظالمون لأنفسهم؛ فإن هذا من الذنوب التي تُعَذَّب النَّفْس بها وعليها»[(١)]. اهـ.

فهذه حال كثيرين. والمؤمن الذي قد كَمُل إيمانه بتحقيق هذه المعاني القَلْبِيَّة لا يكون بهذه المثابة، وهو يعلم أن الله يُرَاقِبُهُ ويَرَاه ويطَّلِع عليه، وأن الدَّهْرَ دُوَل، يوم لك ويومٌ عَلَيْكَ. والْعَاقِل إذا تمكَّنَ، فإنه يتذكر أنَّ ذَلِكَ لا يَدُوم، ولا يبقى إلا العمل الصالح، ودعاء أهل الإيمان له. وأمَّا إِذَا أسَاء إليهم، وتسلط عليهم بغير حق؛ فإنه يبقى له منهم الدعاء عليه، والبُغْض في قلوب أهل الإيمان. وقد يُسَلِّط الله ﷻ عليه مَنْ يَظْلِمه، وهذا أمْرٌ مُشَاهَد.

ولذلك؛ تجد مَن يخافُ من الله تبارك وتعالى يَتَّقِي الله ﷻ في الخَلْق، فلا يظلم خادمًا، ولا زَوْجَة، ولا غلامًا، ولا طالبًا، ولا يظلم أحدًا من الناس؛ لأنه يخاف من الله سبحانه.

سادسًا: أنه سائق يَسُوق العبد إلى امتثال المأمور واجتناب المحظور:

فيعمل بطاعة الله ﷻ، ويُشَمِّر في ذلك، ويَقْمع هذه النَّفْس التي تريد أن تستولي عليه بالشهوات، فيكون من أهل الورَع الكامل الذي يُجْتَنَب فيه الحرام، ويُتَّقَى فيه المكروه وفضول المباح.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف سَوْط الله تعالى يَسُوق به عباده إلى المُوَاظَبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رُتْبة القُرْب من الله تعالى»[(٢)]. اهـ.

وقيل: «الخوف سَوْط الله، يُقَوِّم به الشاردين عن بابه»[(٣)].

وقال عمرو بن عثمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العِلْم قائد، والخوف سائق، والنفس حَرُون[(٤)] بين

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٥٤).
(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٤).
(٣) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٢٥٢).
(٤) حَرُون؛ أي: واقفة غير منقادة.

ذلك، جَمُوح، خدَّاعة، روَّاغَة فاحْذَرْهَا، ورَاعها بِسِيَاسَة العلم، وسُقْهَا بتهديد الخوف، يَتِمّ لك ما تُرِيد»(١).

وعن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال: «كان يُقَال: ما استعان عبْدٌ على دِينِهِ بمثل الخشية من الله»(٢).

وذلك أن هذه الخشية هي التي تَحْمله على صيام النهار، وقيام الليل، وفعل الفَرَائِض، وتَرْك المحرَّمَات؛ ولولا الخَشْيَةُ لأخلد الناس إلى المعاصي والشَّهَوات والذنوب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الخائف مِنْ رَكِب طاعة الله، وتَرَكَ مَعْصِيته»(٣).

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رحمه الله: «علامة الخوف أن يسعى، ويَجْتَهِدَ في تكميل العمل، وإصلاحه، والنُّصْح به»(٤). اهـ.

وقال عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]: «أمر تعالى بخشيته التي هي رأس كل خير، فمَنْ لَمْ يَخْشَ الله لم ينكفّ عن معصيته، ولم يمتثل أَمْره»(٥). اهـ.

والمقصود: أن الخوف هو الذي يضبط النفس، ويَكْبح جِمَاحَها، فلا تنطلق في أودية المعصية والهَلَكة، ثم بعد ذلك يكون أمره فُرُطًا.

ولهذا قال إبراهيم بن شيبان رحمه الله: «إذا سَكَن الخوف القلبَ أحْرَقَ مَوَاضع الشهوات منه، وطَرَدَ رغبة الدنيا عنه»(٦).

قال ابن قدامه رحمه الله تعالى: «من ثمرات الخوف أنه يَقْمع الشهوات، ويُكَدِّرُ اللَّذَّات، فتَصِير المَعَاصِي المحْبُوبَة عنده مكروهة... فتَحْتَرق الشَّهَوات بالخوف، وتتأدَّب الجوارح، ويذلّ القَلْب ويَسْتَكِين، ويُفَارِقُهُ الكِبْر والحقد والحسد، ويصير

(١) أخرجه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص٢٠٣) عن عمرو بن عثمان المكي، والقشيري في «رسالته» (١/ ٩٠)، وورد أيضًا عن عبد الله بن عبيد بن عمير بنحوه. أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٥٤)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٨٦).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩).
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٢٣٥)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢٨٠).
(٤) «تفسير السعدي» (ص٦٠٤).
(٥) المصدر السابق (١/ ١٠٩).
(٦) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٢٥٥)، وأخرجه السلمي بنحوه في «طبقات الصوفية» (ص٨١) عن أبي سليمان الداراني.

مُسْتَوعب الهَمّ لخوفه، والنَّظَر في خَطَر عاقبته، فلا يتفرّغ لغيره، ولا يكون له شغل إلَّا المُرَاقبة والمُحَاسبة والمُجَاهدة. . .

فقوة المُراقبة والمُحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوّة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى وصِفَاتِهِ، وبعيوب النَّفْس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال»[(١)]. اهـ.

ولذلك؛ نشاهد أن الذين يقلّ خَوْفهم تَمْتَلِئ قلوبهم بأنواع الشهوات: شهوة الرِّئَاسَة، وشهوة الفواحش، وشهوة المال، وشهوة السّكر، إلى غير ذلك؛ ليس لأحدهم في ليله ونهاره، وقيامه وقعوده، إلا هذه الشهوات. فهي التي تسيّره؛ فبِهَا يسمع، وبها يبصر، وبها يقوم ويقعد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ**»[(٢)].

وذلك يعني: أنَّ من خاف أسْرَع وشَمَّر وبَادَر، حتى لا يُدْركه عدوه فَيَبْغَته.

وسُئِلَ ابن المبارك عن صفة الخائفين، فقال[(٣)]:

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ
أَطَارَ الخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا وَأَهْلُ الْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ
لَهُمْ تَحْتَ الظَّلَامِ وَهُمْ سُجُودٌ أَنِينٌ مِنْهُ تَنْفَرِجُ الضُّلُوعُ
وَخُرْسٌ بِالنَّهَارِ لِطُولِ صَمْتٍ عَلَيْهِمْ مِنْ سَكِينَتِهِمْ خُشُوعُ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله **عن نبي الله يوسف** عليه السلام: «فدَلَّ عَلَى أنه كان معه من خوف الله ما يَزَعُه عن الفاحشة، ولو رَضِي بها الناس، وقد دعا رَبّه عز وجل أن يصرف عنه كيدهن»[(٤)]. اهـ.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فأخبر أن الهدى والرَّحْمَة للذين يَرْهَبُون الله.

وهكذا الذين انْشَغَلَتْ قُلُوبهم بالغِشّ والهوى، إنما انشغلت بذلك لخلوِّهَا من خشية الله عز وجل، ومحبَّتِهِ، والإقبال عليه.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٤).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «ديوان ابن المبارك» (ص٩٠ ـ ٩١).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١١٩).

وفي الحديث ـ كما تقدَّمتِ الإشارة إليه ـ: «**ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ. وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ...**» الحديث(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فخشية الله بإزاء اتّباع الهوى؛ فإن الخشية تمنع ذلك؛ كما قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠]»(٢). اهـ.

فالذي يخاف مقام رَبِّهِ لَا يُقْدِم على معصية، فإذا أقدم عليها بِحُكْم ضَعْفِهِ البشريّ؛ قاده خوف هذا المقام الجليل إلى النَّدَم والاستغفار والتوبة، فظلّ فِي دَائِرَة الطاعة.

«والخَوْف مِن الله هو الحَاجِز الصَّلْب، أمام دفعات الهوى العنيفة، وقَلَّ أَنْ يَثْبُتَ غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى، ومِنْ ثَمَّ يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة...

ولم يُكَلّف الله الإنسان ألا يشتجر في نَفْسه الهوى، فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته، ولكنه كلَّفَه أن ينهاها، ويَكْبَحَهَا، ويمسك بزمامها، وأن يستعين في هذا بالخوف؛ الخوف مِنْ مَقَام رَبِّهِ الجليل العظيم»(٣).

فبِالخَوْف مِن الله وحْدَهُ تَنْكَفّ النَّفْس عن أهوائها، وتنصرف عن غَيِّهَا إلى رشدها.

وتأمَّل قول الله ﷻ في صِفَةِ أهْلِ الإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: ٢١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ثم وصَفَهم بالحَامِل لهُمْ على هذه الصِّلَة، وهو خشيته، وخوف سوء الحساب يوم المَآب. ولا يمكن لأحد قَطّ أن يصل ما أمر الله بِوَصْلِه إلا بخشيته، ومتى تَرَحّلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوُصَل»(٤). اهـ.

والخلاصة: أنه لا يمكن للإنسان أن يَمْتَثِلَ أمر الله إلا إذا كان مُحقّقًا لهذا المقام.

سابعًا: أنه سبب للتَّوْفِيقِ والرحمة:

كما قال الله تعالى في شأن التوراة: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وهذه الآية تدلّ على أن أصْلَ كل خير في الدنيا والآخرة الخَوْف من الله تعالى، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ(٥).

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٨٠).
(٣) ما بين الأقواس من كلام سيد قطب في «الظلال» (٦/ ٣٨١٩).
(٤) «عدة الصابرين» (ص٥٢).
(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٠).

ثامنًا: الخوف يدل على كل خير:

ولو أردنا أن نَتَتَبَّع هذا لطال بنا المَقَام.

قال في الكشاف: «مَنْ خَشِي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجْتَرَأ على كل شَرّ»(١). اهـ.

وقال الفضيل رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ خَافَ الله دَلَّه الخوف على كل خير»(٢).

وقال أبو سليمان رَحِمَهُ اللهُ: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى»(٣).

وقال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «الرجاء والخوف مَطِيَّتَا المؤمن»(٤).

وقيل: «الخَوْفُ سِرَاج القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر»(٥).

فـ«رَهْبَة الله وخشيته هي التي تَفْتَحُ القلوب للهدى، وتُوقِظُهَا مِن الْغَفْلَة، وتُهَيِّئها للاستِجَابَة والاستقامة»(٦).

ومِن هذا الخير الذي يحصل للإنسان بالخوف: الإنابة والتذكرة، وهذه أمورٌ مُتلازمة، فإذا تذكَّر الإنسان أنَابَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وخَشِيَه، وإذا كان ممَّن يخشى؛ فإن ذلك يحمله على التذكرة والإنابة.

«فالخشية مُسْتَلْزِمة للتذكّر، فكُلّ خَاشٍ مُتَذَكِّر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، فلا يخشاه إلا عَالِم، فكل خَاشٍ لله فهو عالم...

وقال السلف وأكثر العلماء: «إنها تدل على أن كل عالم فإنه يخشى الله، كما دلّ غيرها على أن كل مَنْ عَصَى الله فهو جاهل. فمن لم يَخْشَ الله فليس من العلماء، بل مِنَ الجُهَّال»(٧).

وصحّ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى: ٩، ١٠]، قال: «فاتقوا الله، ما خشيَ اللهَ عَبْدٌ قَطّ إلا ذَكَّره ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ [الأعلى: ١١]، قال: فلا والله، لا يَتَنَكَّب عبد هذا الذِّكْر زُهْدًا فيه، وبُغْضًا

---

(١) «الكشاف» (٣/ ٥٧١).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٦١).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٢٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٦).
(٥) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٢٥٢)، ونقله ابن القيم في «المدارج» (١/ ٥١٣).
(٦) ما بين الأقواس من كلام سيد قطب في «الظلال» (٣/ ١٣٧٦).
(٧) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

لأهله، إلا شَقِيّ بَيِّن الشقاء»[(١)].

قال الله ﷻ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝﴾ [الأعلى: ١٠]، فجعل التَّذَكُّر لأهل الخشية؛ فَدَلَّتْ هذه الآية على أن كل من يخشى فلا بُدَّ أن يتذكر.

كما قال الله تبارك وتعالى في الآية الأخرى، حينما أمر موسى وهارون أن يأتيا فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝﴾ [طه: ٤٤]، والله يقول: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۝ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ۝﴾ [ق: ٣٢، ٣٣]، فكلّ مَنْ خَشِي الله ﷻ فلا بُدَّ أن يرجوه، وأن يطمع في رحمته، فيُنِيب إليه تبارك وتعالى؛ ليُحَصِّل الرحمة، وينجو من العقوبة، وهذا هو حامل العبد على الإنابة.

«فمن ثمرات الخوف: الورع، والاستعانة، وقِصَر الأمل»[(٢)].

فالخوف من الله سبب لاجتناب المحارم والمعاصي والشهوات، وباعث على العمل بالفرائض، والمُداومة على السُنَن والمستحبَّات، ولا يَخْفَى مَا في هذه الآثار مِنْ فَضْلٍ وأجْرٍ، فهي المُوصِلة إلى إرْضاء الله ﷻ.

وكما قلنا أنه يُورِث الورع والتقوى اللَّذَيْنِ هما أفضل الأعمال في العبادة، «حتى إن العاقبة صارت مَوْسُومَة بالتقوى، مخْصُوصة بها، كَمَا صَارَ الحمد بالله تعالى، والصلاة مخصوصة بالرسول ﷺ، حتى يقال: الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمُتَّقِين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين»[(٣)].



(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ٣١٧ ـ ٣١٨).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٢٨) بتصرُّف.
(٣) «إتحاف السادة المتقين» (٩/ ٢١٠).

من أخبار أهل الخوف

أولًا: خوف الجمادات:

قــال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحشر: ٢١].

قال مجاهد رحمه الله: «كل حجر يتَفَجَّر منه الماء، أو يتشقّق عن ماء، أو يتردَّى مِنْ رَأْسِ جبل، فهو من خشية الله ﷻ، نزل بذلك القرآن»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما **قال**: «إن الحجر ليقع إلى الأرض، فلو اجتمع عليه قوم من الناس ما استطاعوا القيام به، وإنه ليهبط من خشية الله»[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله **في قوله تعالى**: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾: «وَهَذا يدل على أنها تَعْرِفُ رَبَّهَا معرفة تليق بها، وإلا لما هبطت من خشيته؛ فإن الخشية تَسْتَلزم العلم بالمخشيّ»[٣] . اهـ.

وقـال الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «فهذا حال الجبال، وهي الحجارة الصّلبة، وهذه رقّتها وخَشْيَتها وتَدَكْدُكُهَا من جَلَال رَبِّهَا وعظمته، وقد أخبر عنها فاطِرُهَا وباريها أنه لو أنزل عليها كلامَه لخشَعَت، ولتصدَّعَت من خشية الله.

فيا عَجَبًا مِنْ مُضْغَةِ لحْم أقسى من هذه الجبال! تَسْمَع آيات الله تتلى عليها، ويُذْكَر الرب تبارك وتعالى فلا تَلِين، ولا تخْشَع، ولا تُنيب. فليس بمُسْتَنْكَر على الله ﷻ، ولا يُخالِف حكمتَه أن يَخْلق لها نارًا تُذِيبها ـ يعني: القلوب ـ؛ إذ لم تَلِن بكلامه وذِكْره وزواجره ومَوَاعِظِهِ، فمَنْ لم يَلِنْ للهِ في هذه الدار قَلْبُه، ولم يُنِبْ إليه، ولم يُذِبْه بحبّه والبُكاء من خشيته، فليتمَتَّع قليلًا؛ فإن أمامه المُلين الأعظم، وسَيَرِد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم»[٤] . اهـ.

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ٢٤٠).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ١٤٧).
(٣) «مجموعة الرسائل الكبرى» (٢/ ٣٤٢).
(٤) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٨٩).

ثانيًا: خوف البهائم:

فالبهائم تَفْرَقُ مِنْ خشية الله، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ تُصْبِحُ يَوْمَ الجُمُعَةِ مُصِيخَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا ابْنَ آدَمَ**»(١).

ثالثًا: خوف الملائكة:

وقد وصَفَهُمْ الله ﷻ بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠]، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «والمعنى: أن الذين تدعونهم مِنْ دون الله، من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقرَّبون إلى رَبِّهِمْ، ويخافونه، ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم مِنْ دُونِهِ وأنتم وهم عبيد له؟!»(٢). اهـ.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالمَلَأِ الْأَعْلَى وَجِبْرِيلُ كَالحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ**»(٣).

رابعًا: خوف الأنبياء والمرسلين:

فقد وَصَفَهُم الله ﷻ، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ووصف إبراهيم ﷺ فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: ٧٥].

فقيل: «الأوّاه: هو الذي إذا ذَكَر خطاياه استغْفَر منها»(٤).

---

(١) أخرجه النسائي (١٤٣٠) ضمن حديث طويل، وصحَّحه ابن حبان (٢٧٧٢)، والحاكم (١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩)، والذهبي، والألباني في «الإرواء» (٣/ ٢٢٨).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢/ ٦١٣ ـ ٦١٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩) واللفظ له، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٦٢١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٧٨): «رجاله رجال الصحيح»، وصحَّحه السيوطي في «الدر المنثور» (١٠/ ٢٨٤)، و«الجامع الصغير» (١٠٨٠٣)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٨٩).

(٤) ذكره الشوكاني في «فتح القدير» (٢/ ٥٨١).

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمُطابق لمعْنَى الأوَّاه لغة أن يقال: إنه الذي يُكْثِرُ التأوّه مِنْ ذُنُوبِهِ»[(١)]. اهـ.

وقال عطاء: «هو الخائف من النار»[(٢)].

وقال أبو عبيدة: «هو المُتَأَوّه شَفَقًا وفرَقًا، المُتَضَرِّع يقينًا»[(٣)].

وأما النبي ﷺ فشأنه معْرُوف، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول: «**فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»[(٤)].

وكان ﷺ - وقد غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر - يقول: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، اسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرَ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخَ؟!**»، فكأنّ ذلك ثَقُل على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: «**قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا**»[(٥)].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! قد شِبْتَ! فقال: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**»[(٦)].

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «أتيتُ النبي ﷺ وهو يُصَلِّي، ولجوْفِهِ أزِيز كَأَزِيز المِرْجَل»؛ يعني: يَبْكِي[(٧)].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ رَسُول الله ﷺ كان إذا رأى غيمًا أو رِيحًا عُرِفَ في وجهه، فقالت: يا رسول الله! أرى الناس إذا رَأَوا الغَيم فرحوا؛ رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِفت في وجهك الكراهية؟ قالت: فقال: «**يَا عَائِشَةُ، ما يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قوم بالرِّيح، وقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا:** ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[(٨)].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما مَرَّ النبي ﷺ بالحِجْرِ قال: «**لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ**»، ثم قَنَّع رأسه، وأسرع السَّير حتى أجاز الوادي[(٩)].

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٥٨١).
(٢) «تفسير البغوي» (٤/ ١٠٣).
(٣) المصدر السابق.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤) واللفظ له، وصحَّحه ابن خزيمة (٩٠٠)، وابن حبان (٦٦٥، ٧٥٣)، والحاكم (١/ ٢٦٤)، والذهبي، وابن رجب في «فتح الباري» (٦/ ٢٦٢)، والألباني في «صحيح الموارد» (٤٣١).
(٨) أخرجه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩/ ١٦).
(٩) أخرجه البخاري (٤٤١٩) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٠).

خامسًا: خوف الصحابة رضي الله عنهم:

فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعَظَنا رسول الله ﷺ مَوْعِظَة بليغة، ذَرِفَتْ مِنْهَا العيون، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القلوب(١).

فهذا وصف أصحاب النبي ﷺ، وهو الوَصْف الذي مَدَح الله عز وجل أهله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ويقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وعن عبيد الله بن النَّضْرِ عَنْ أبيه، قال: كانت ظلمة على عهد أنس بن مالك، قال: فأتيتُ أنسًا، فقلت: يا أبا حمزة! هَلْ كان يصيبكم مثل هذا على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: «معاذ الله! إن كانت الريح لتَشْتَدّ، فنبادر المسجد؛ مخافة القيامة»(٢).

قال ابن أبي مُلَيْكَة: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النِّفَاق على نَفْسه»(٣).

وكان الحسن البصري رحمه الله **يُعَاتِب أهل زمانه، فيقول:** «لقد مضى بين يديكم أقوام، لو أن أحدهم أنْفقَ عَدَد هذا الحصى لخشي ألَّا ينجو من عِظَم ذلك اليوم»(٤).

وقال ابن القيِّم رَحِمه الله: «ومَنْ تَأَمَّل أَحْوَال الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣) واللفظ له، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٥)، والحاكم (١/ ٩٥ ـ ٩٧)، والبَزَّار ـ كما في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٢٤) ـ، وأبو نعيم ـ كما في «جامع العلوم والحكم» (ص٤٨٦) ـ، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٢٤)، والذهبي في «السير» (١٧/ ٤٨٣)، وابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٧٨)، والألباني في «الصحيحة» (٩٣٧)، وفي كتابه «النصيحة» (ص٣١) نَقَل الإجماع على تصحيحه.

(٢) أخرجه أبو داود (١١٩٦)، وصحَّحه الحاكم (١/ ٣٣٤)، وابن حجر في «إتحاف المهرة» (٢/ ٣٥٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٢/ ٢٩). وراجع: «التاريخ الكبير» للبخاري (٥/ ٤٠١).

(٣) ذكره البخاري مُعلقًا (١/ ٣٠) في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. ووَصَله غَيْر وَاحِد؛ منهُم محمد بن نَصْر في كتابه «تعظيم قدر الصلاة» (٦٨٨).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٠).

مع غاية الخوف. ونحن جَمَعْنَا بين التقصير ـ بل التفريط ـ والأمن»[(١)]. اهـ.

(فصل) في بيان جملة مِنْ أحْوَالِهِمْ فِي باب الخوف على التفصيل:

فهذا أبو بكر رضي الله عنه، كان يمسك بلسانه رضي الله عنه، ويقول: «إنَّ هذا أوردني الموارد»[(٢)].

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل[(٣)].

ولما احْتُضِر قال لعائشة رضي الله عنها: «يا بُنَيَّة! إني أصبْتُ من مال المسلمين هذه العباءة، وهذه الحِلَاب، وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب. ثم قال: والله لوددتُ أني كنتُ هذه الشجرة، تُؤْكَل وتُعْضَد»[(٤)].

وقال قتادة رحمه الله: بلغنا أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «ليتني كنت خَضِرَة تَأْكُلني الدوَابّ»[(٥)].

ولما قال صلى الله عليه وسلم في مرض موته: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، قالت عائشة: إن أبا بكر رجل أَسِيف، إن يقم مكانَك يَبْكي فلا يقدر على القراءة[(٦)].

وهذا خليفته عمر رضي الله تعالى عنه، قال يومًا لكعب رحمه الله: يا كعب! خَوِّفْنَا. فقال كعب: «يا أمير المؤمنين! اعمل عمل رجل لو وافَيْتَ يوْم القيامة بعمل سبعين نبيًّا لازدريتَ عملك مما ترى»[(٧)].

ورأى رضي الله عنه في يد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما لحمًا معلّقًا، فقال: «ما هذا يا جابر؟!» فقال جابر رضي الله عنه: هذا لحم اشتريته، اشتهيته. فقال عمر: «أوكلما اشتهيت شيئًا اشتريته؟! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]؟!»[(٨)].

وسُمِعَ نَشِيجُه رضي الله عنه من آخر الصفوف لما قرأ في صلاة الفجر من سورة يوسف:

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٩١).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢٨٢٥). وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٦٤)، وابن أبي شيبة (٧٢٤٥)، وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤٤).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١١٠)، راجع: التعليق على «المجالسة» للدينوري (٢٣٩٣).

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١١٢)، وابن أبي الدنيا في «المتمنين» (١١) واللفظ له.

(٦) أخرجه البخاري (٧١٢)، ومسلم (٦٣٤)، **وأسيف**: فعيل بمعنى فاعل من الأسف، وهو شدة الحزن، والمراد: أنه رقيق القلب، إذا قَرَأَ القرآن غلبه البكاء من خشية الله.

(٧) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٢٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩) واللفظ له.

(٨) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢٧٠٣)، وأحمد في «الزهد» (ص١٢٤) واللفظ له.

﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦][(١)]؛ وذلك من خشية الله والتضرّع والشكاية إلى الله ﷻ.

وقرأ سورة الطور، إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾ [الطور: ٧]، فبَكَى، وَاشْتَدَّ بُكاؤُه حَتَّى مَرِض وعادُوه[(٢)].

يقول أبان بن عثمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دخلتُ على عمر بن الخطاب حين طُعِن، ورأسه في التراب، فذهبتُ أرفعه، فقال: «دعني، ويلي، وويل أمي إن لم يغفر لي. ويلي، وويل أمي إن لم يغفر لي»[(٣)].

وكان يمرّ رَضِيَ الله تعالى عنه بالآية في وِرْدِهِ من الليل فتخنقه، فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يُعَاد، يحسبونه مريضًا[(٤)].

وكان في وجهه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ البُكَاءِ.

وقال له ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يُهَوّن عليه: مَصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعَلَ بك وفعَلَ. قال: «وَدِدْتُ أنِّي أنجو لا أَجْر ولا وِزْر»[(٥)].

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أخذ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تبنة، فقال: «يا ليتني مثل هذه التبنة، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أك شيئًا، ليتني كنت نَسْيًّا منسيًّا»[(٦)].

ولما طُعِن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «والله لو أنَّ لي طِلَاع الأرض ذهبًا لافتديتُ به من عَذَابِ الله ﷻ قبل أن أراه»[(٧)].

وربما تُوقَد له النار، ثم يُدْنِي يديه منها، ثم يقول: «يا ابن الخطاب! هل لك على هذا صبر؟!»[(٨)].

وهذا كان يفعله جماعة؛ كالأحنف بن قيس، فقد كان يجيء المصباح، فيضع إصبعه فيه، ثم يقول: «حِس» ثم يقول: «يا حُنَيف! ما حملك على ما صنعتَ يوم

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٤١٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٨٩٥).
(٢) «الجواب الكافي» (ص٩٢)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٠٠) بنحوه.
(٣) أخرجه أحمد (ص١١٨)، وأبو داود (٤٦) كلاهما في «الزهد»، وابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٤٥) واللفظ له.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٦٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥١).
(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٢٤) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٢).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المتمنين» (١٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٦٩).
(٧) أخرجه البخاري (٣٦٩٢).
(٨) «التخويف من النار» (ص٤٨).

كذا؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟!»[(١)].

وهذا الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، **يقول**: «وَدِدْتُ لَوْ أني إذا مِتُّ لَمْ أُبْعَثْ». وكان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته[(٢)]. وقال: «لو أنني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيهما يؤمر بي لاخترتُ أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيهما أصِير»[(٣)].

وهذا أمين هذه الأمة، وقائد الجيوش في الشام أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، **كان يقول**: «لوددتُ أني كنتُ كَبْشًا، فيذبحني أهلي، فيأكلون لحمي، ويشربون مرقي»[(٤)].

وهذا صاحب رسول الله ﷺ **عمران بن حصين** رضي الله عنه، **يقول**: «وددتُ أني رماد على أَكَمَة، تَنْسِفُنِي الرياح في يوم عاصف»[(٥)].

وكانت عائشة رضي الله عنها **زوج النبي** ﷺ **تقول**: «وددتُ أني كنتُ نسيًا منسيًّا»[(٦)]. وكانت إذا قرأت: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور: ٢٧]، قالت: «اللَّهُمَّ مُنَّ عَليَّ، وَقِنِي عَذاب السَّموم»[(٧)].

وكان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه **يقول**: «والله لوددتُ أني كنتُ شجرة تُعْضد»[(٨)].

وعُرِضَتْ عَلَيْهِ النفقة فقال: «عندنا أَعْنُز نَحْتَلِبها، وأَحْمر ننقل عليها، ومُحَرَّر - يعني: رقيق - يخدمنا، وفضل عباءة، إني أخاف الحساب فيها»[(٩)].

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٣٥)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ٣٢٤)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وحسَّنه الترمذي، والألباني في «المشكاة» (١٣٢)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٣٣٠)، راجع: التعليق على «المجالسة» (١٣٠٣).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٢٩) واللفظ له، ومن طريقة أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٠).

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٧٠).

(٥) المصدر السابق (٧٧٠).

(٦) أخرجه وكيع في «الزهد» (١٦٠)، ومن طريقه أحمد في «الزهد» (ص١٦٤) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٠).

(٧) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٩٢٤) واللفظ له.

(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣٦) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٦٦/ ٢١٥)، وأخرجه البيهقي عن أبي الدرداء في «الشعب» (٧٦٨).

(٩) أخرجه وكيع (١٣٧)، ومن طريقه أحمد (١٤٦) كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٣).

وصح عن زرارة بن أوفى رَحِمَهُ اللهُ أنه قرأ في صلاة الفجر: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدثر: ٨]، فخرَّ مَيِّتًا[١].

وقال عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام: سمعتُ عبد الله بن حنظلة يومًا، وهو على فراشه، وَعُدْتُه من عِلَّة، فَتَلا رَجُلٌ هذه الآية: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، فبكى حتى ظننتُ أن نَفْسه ستخرج، ثم قال: «صاروا بين أطباق النار». ثم قام على رجليه، فقال قائل: يا أبا عبد الرحمٰن! اقعد. فقال: «مَنع مني ذِكْرُ جَهَنَّمَ القعودَ، ولا أدري لعلي أحدهم»[٢].

وقال سليمان بن سُحَيم: «أخبرني مَنْ رَأَى ابن عمر يصلي، وهو يَتَرَجَّح، ويتمايل، ويتأوَّه، حتى لو رآه غيرنا ممن يجهله لقال: لقد أُصيب الرَّجُل. وذلك لذِكْر النار إذا مَرَّ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: ١٣]»[٣].

وهذا ابن عباس رضي الله تعالى عنه، كان في أسفل من عينيه مثل الشِّرَاك البالي من الدموع[٤].

وقرأ تميم الداري رضي الله تعالى عنه ليلة سورة الجاثية، فلَمَّا أتى على قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، جعل يُرَدِّدُهَا، ويَبْكِي حتى أصبح[٥].

ومَرَّ رَجُل على عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وهو سَاجِد في الحِجْر ـ حِجْر الكعبة ـ وهو يبكي، فقال: «أتعجب أن أبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وهذا القمر يبكي من خشية الله؟!»[٦].

وبكى أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في مَرَضِهِ، فقيل: ما يُبْكِيكَ؟ قال: «أَمَا إني لا أبْكِي على دنياكم هذه، ولكنني أبكي على بُعْد سَفَرِي، وقِلَّة زادي، وأني أمْسَيْتُ فِي صُعُود ومَهْبَطة على جَنَّة ونار، ولا أدري إلى أيِّهِمَا يُؤْخَذ بي»[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٤٥)، وسكت عنه الذهبي في «التلخيص» (٣٨٧١).
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٧/ ٤٢٦).
(٣) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (ص١٣٨).
(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٤٥)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٠٧).
(٥) أخرجه ابن المبارك (٩٤)، وأحمد (ص١٨٢) كلاهما في «الزهد».
(٦) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢٥)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣١/ ١٢٧).
(٧) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٥٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٨٣).

وغُشِيَ عَلَيْهِ ثلاث مَرَّات وهو يُحَدِّث بحديث الثلاثة الذين هم أوّل مَنْ تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة[(١)].

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه**، صاحب نعلَيْ رسول الله** ﷺ **يقول:** «لو تَعْلمون ذنوبي ما تَبِعَنِي منكم رجلان، ولَوَدِدْتُ أني دُعِيتُ عبد الله بن روثة، وأن الله غفر لي ذنبًا من ذنوبي»[(٢)].

وكان يقول: «وددتُ أني نُسِبْتُ إلى روثة، وأن الله تقبَّل مني حَسَنَةً واحدة من عملي»[(٣)].

وكان يقول: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ عَلَى أنفِهِ، فقال به هكذا»[(٤)].

وهذا أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه، كان يقول: «إن أخوف ما أخاف إذا وقفتُ على الحساب أن يُقال لي: قد عَلِمْت، فما عَمِلْتَ فيما عَلِمْت؟»[(٥)].

وكان يقول: «لو تعلمون ما أنتم راؤون بعد الموت، لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شَرِبْتُمْ شَرَابًا على شَهْوَة، ولا دخلتم بيتًا تستظلّون فيه، ولخرجتم إلى الصُّعدات ـ يعني: الطرقات ـ تضربون صدوركم، وتَبْكُون على أنفسكم، ولوَدِدْتُم أنكم شجرة تُعْضَد ثم تُؤْكَل»[(٦)].

وعن جُبَير بن نُفَير قال: دخلتُ على أبي الدرداء منزله بحمص، فإذا هو قائم يصلي في مسْجِدِه، فلمَّا جَلَس يتشهد جعل يتعَوَّذ بالله من النفاق، فلمَّا انصرف قلتُ: غفر الله لك يا أبا الدرداء! ما أنت والنفاق؟ قال: «اللَّهُمَّ اغفر ـ ثلاثًا ـ من يأْمَنُ البَلاء؟ مَنْ يَأْمَنُ البلاء؟ واللهِ إن الرجل ليُفْتَتن في ساعة، فينقلب عن دينه»[(٧)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣١٦)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٨٢١، ٨٢٢) واللفظ له، ومن طريقهما ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ١٦٨).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٥٧)، ويعقوب بن سفيان (٢/ ٥٤٩)، والبيهقي في «الشعب» (٨٢٠)، ومن طريقهما ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ١٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

(٥) أخرجه ابن المبارك (٣٩)، وأحمد (١٣٦) كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٣) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (١٥/ ٣٤٨).

(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٦) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ٢٦٨).

(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٣١) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ١٨١ ـ ١٨٢).

وقد قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ **في صحيحه**: «باب خوف المؤمن من أن يُحْبَطَ عَمَلُهُ وَهو لا يشعر»[(١)].

وقال إبراهيم التيمي: «ما عرضتُ قَوْلِي على عملي إلا خَشِيتُ أنْ أكُون مكذِّبًا»[(٢)].

وقال ابن أبي مُلَيْكة: «أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخافُ النِّفَاقَ على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل»[(٣)].

ويُذْكَر عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «ما خافه إلا مؤمن، وما أمِنَهُ إلا منافق»[(٤)]؛ يعني: النفاق.

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «مر بي عمر بن الخطاب وأنا جالس في المسجد، فقال لي: يا حذيفة! إن فلانًا قد مات، فاشهد. قال: ثم مضى، حتى إذا كاد أن يخرج من المسجد التفت إليَّ، فرآني، وأنا جالس، فَعَرف، فرجع إليَّ، فقال: يا حذيفة! أَنْشُدُك بالله أَمِنَ القوم أنا؟ ـ يعني: المنافقين ـ قال: قلت: «اللَّهُمَّ لا، ولن أُبَرِّي أحدًا بعدك»[(٥)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال رجل: يا رسول الله! أنا أعلم لك عِلْمه، فأتاه، فوجده جالسًا في بيته، مُنَكِّسًا رَأْسَه، فقال: ما شأنك؟ فقال: شر. كان يرفع صوته فوق صوت النبيِّ ﷺ، فقد حَبِط عمله، وهو مِنْ أهْلِ النَّارِ. فأتى الرجل النبيَّ ﷺ، فأخبره أنه قال كذا وكذا... فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة؛ فقال: اذهب إليه فقُل له: «**إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[(٦)].

ويقول معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن المؤمن لا يسكن رَوْعه حَتَّى يترك جسر جهنَّم وراءه»[(٧)].

وهذا أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خطب الناس بالبصرة، فذكر في خطبته النار،

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٣٠).

(٢) أورده البخاري معلقًا بصيغة الجزم (١/ ٣٠)، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، وجاء موصولًا في «الزهد» لأحمد (ص٣٥٧، ٣٥٨)، وفي «الصمت» لابن أبي الدنيا (١٠٤)، وصحَّحه ابن رجب في «الفتح» (١/ ١٨١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) علقه البخاري بصيغة التَّمريض (١/ ٣٠)، ووصله الفريابي في «صفة المنافق» (٨٦)، وصحَّحه ابن رجب في «الفتح» (١/ ١٣٦)، وابن حجر في «الفتح» (١/ ١٣٦)، والألباني في «مخْتَصر البخاري» (١/ ٣٥).

(٥) أخرجه وكيع في «الزهد» (٤٧٧).

(٦) أخرجه البخاري (٤٨٤٦) واللفظ له، ومسلم (١١٩).

(٧) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٥٣)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٨).

فبَكَى حَتَّى سَقَطت دموعه على المنبر، وبكى الناس يومئذ بكاء شديدًا[(١)].

وهذا شدَّاد بن أوس رضي الله عنه كان إذا دخل الفِرَاش يتقلَّب على فِرَاشه؛ لا يأتيه النوم، فيقول: «اللَّهُمَّ إن النار أذهبت مني النوم»، فيقوم، فيصلي حتى يصبح[(٢)].

وكان أنس بن مالك رضي الله عنه **يقول لبنيه**: «يا بَنِي! إيَّاكم والسَّفِلَة». قالوا: وما السَّفِلَة؟ قال: «الذي لا يخاف الله عز وجل»[(٣)].

وبعد؛ فهذا طَرَف من أخبار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يبيّن بعض ما كانوا عليه من خوف الله عز وجل وإجلاله، ليقتدي بهم المُشَمِّر والمُقصِّر، فيزيد الله المُشَمِّر من فضله، وينظر المُقَصّر فيما كان من عمله.

سادسًا: خوف التابعين رحمهم الله:

فعن الوليد بن السائب[(٤)] رحمه الله **قال**: «ما رأيتُ أحدًا قط الخوف أبْيَن على وجهه من عمر بن عبد العزيز»[(٥)].

وقال مرة لزوجته: «إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم»، بصوت حزين. فبكَت، وقالت: «اللَّهُمَّ أعِذْه من النار»[(٦)].

وكانت تقول في صِفَته: «ما رأيتُ أحدًا قط أَشَدَّ فَرَقًا من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في المسجد، ثم يرفع يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه، فلم يزل رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عينه»[(٧)].

وقالت: «قد يكون من الرجال مَنْ هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر، ولكني لم أرَ من الناس أحدًا قط كان أشد خوفًا من ربِّه من عمر؛ كان إذا دخل البيت ألقى نَفْسه في مسجده، فلا يزال يبكي، ويدعو حتى تغلبه عيناه، ثم يستيقظ، فيفعل مثل ذلك ليلته أجمع»[(٨)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٥٧).
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٤).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٥٤).
(٤) في الحلية: الوليد بن أبي السائب.
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٦٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٣٦).
(٦) أخرجه يعقوب بن سفيان في «تاريخه» (١/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٧٠/ ٣٢).
(٧) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٩٨ ـ ٢٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٩٤٩) واللفظ له، وغيرهم.
(٨) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٨٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٦٠).

وعن عبد السلام مولى مَسْلَمَة بن عبد الملك قال: بكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة ـ زوجته ـ فبَكَى أهل الدار، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم العَبْر قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين! مِمَّ بكيت؟ قال: «ذكرت يا فاطمة مُنْصَرَف القوم من بين يدي الله، فريق في الجنة وفريق في السعير»(١).

وقرأ عنده رجل: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣]، فبكى حتى غلبه البكاء، وعلا نشيجه، فقام من مجلسه، فدخل بيته، وتفرَّقَ الناس(٢).

وعن النضر بن عربي قال: «دخلتُ على عمر بن عبد العزيز، فكان لا يكاد يبكي، إنما هو ينتفض أبدًا، كأن عليه حزن الخَلْق»(٣).

وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة وذِكْر الآخرة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة(٤).

وقال يزيد بن حَوشَب: «ما رأيتُ أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأنَّ النَّارَ لم تُخْلَق إلا لهما»(٥).

وقال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز لما رأى الناس في الموسم ـ يعني: موسم الحج ـ: «أما ترى هذا الخَلْقَ الذي لا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إلَّا الله تعالى، ولا يَسَعُ رزقَهُم غيرُهُ؟ فقال: يا أمير المؤمنين! هؤلاء اليوم رَعِيَّتُكَ، وغدًا خصماؤك». فبكى بكاء شديدًا، ثم قال: «بالله أستعين»(٦).

وعن إبراهيم بن عبيد بن رِفَاعة قال: «شهدتُ عمرَ بن عبد العزيز ومحمدُ بن قيس يحدثه، فرأيتُ عمر يبكي حتى اختلفت أضلاعه»(٧).

وأُتِيَ يومًا بِسَلْق وأقراص، فأكل، ثم اضطجع على فراشه، وغطى وجهه بطَرَف ردائه، وجعل يبكي، ويقول: عَبْدٌ بَطِيءٌ بَطِيْنٌ يَتَبَاطَأ، ويتمنى على الله منازل الصالحين(٨).

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «الرقة والبكاء» (٨٣).
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٣٩).
(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٣٦).
(٦) «فوات الوفيات» (٢/ ٦٩)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١١٢).
(٧) أخرجه يعقوب بن سفيان في «تاريخه» (١/ ٥٨٤)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٢٥).
(٨) أخرجه يعقوب بن سفيان في «تاريخه» (١/ ٥٨٥)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥١).

وكان لا يجفّ دمعه من هذا البيت:

وَلَا خَيْرَ فِي عَيْشِ امْرِئٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ اللَّهِ فِي دَارِ الْقَرَارِ نَصِيبُ(١)

وقيل له: لو جعلتَ على طعامك أمينًا لا تُغْتَال، وحرسًا إذا صليتَ لا تُغْتَال، وتنَحَّ عن الطاعون، قال: «اللَّهُمَّ إن كنت تعلم أني أخاف يومًا دون يوم القيامة فلا تُؤَمِّن خوفي»(٢).

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما خافه ـ أي: النفاق ـ إلا مؤمن، وما أَمِنه إلا منافق»(٣).

وقال أيضًا: «إن الرجل لَيَتَعَلَّقُ بالرَّجُلِ يَوْمَ القيامة، فيقول: بيني وبينك الله، فيقول: والله ما أعرفك. فيقول: بلى، أنت أخذت لَبِنَة من حائطي، وأخذت خيطًا من ثوبي»(٤).

وقيل له: نراك طويل البكاء؟ فقال: «أخاف أن يطرحني في النار، ولا يبالي»(٥).

وأُتِيَ بكوز من ماء لِيُفْطِر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى، وقال: «ذكرتُ أمنية أهل النار؛ قولهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾، وذكرتُ ما أُجِيبوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠]»(٦).

وكان يقول: «المؤمنون قوم ذُلُل، ذلّت والله الأسماع والأبصار والجوارح، حتى يحْسَبُهم الجاهل مَرْضَى، والله ما بالقوم من مرض، وإنهم لأصحَّاء القلوب. ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا عِلْمهم بالآخرة، وقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة؛ أبكاهم الخوف من النار»(٧).

وكان يقول: «المؤمن مَنْ يعْلَمُ أن ما قال الله عَزَّوَجَلَّ كما قال. والمؤمن أحسن الناس عملًا، وأشد الناس خوفًا، لو أنفق جَبَلًا من مال ما أَمِنَ دون أن يُعَاين، ولا يزداد صلاحًا وبرًّا وعبادة إلا ازداد فَرَقًا؛ يقول: لا أنجو، لا أنجو. والمنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيُغْفَر لي، ولا بأس عليَّ، يسيء العمل، ويتمنَّى على الله تعالى»(٨).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه يعقوب بن سفيان في «تاريخه» (١/ ٦١١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٤٩)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٩٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٧٣).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٨٩).

(٧) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٩٧).

(٨) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٣٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٣).

وقد عُوتِبَ رَحِمَهُ اللَّهُ في شدة حُزْنِه وخوفه، فقال: «ما يُؤَمِّنني أن يكون الله تعالى قد اطلع فيّ على بعض ما يكره، فمَقَتَنِي، فقال: اذهب فلا غفرتُ لك، فأنا أعمل في غير مُعْتَمل»[(١)].

وقال يونس بن عبيد: «ما رأيتُ أحدًا أطول حزنًا من الحسن، وكان يقول: نضحك، ولعلَّ الله قد اطلع على أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا»[(٢)].

فالمؤمن لا تراه إذا أصبح وإذا أمسى إلا خائفًا وَجِلًا، ولا يَسَعه غير ذلك؛ لأنه بين مخافتين: بين ذنبٍ قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أَجَلٍ بَقِي لا يدري ما يصيب فيه.

يقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المؤمن يصبح حزينًا، ويُمْسي حزينًا، ويَنْقَلِب باليقين في الحزن. يكفيه ما يكفي العُنَيْزَة: الكفّ من التمر، والشَّرْبة من الماء»[(٣)].

وكان يقول: «يَحِق لمن يعلم أن الموت مَوْرِدُه، وأن الساعة مَوْعِدُه، وأن القيام بين يدي الله تعالى مَشْهده؛ أن يطول حُزْنه»[(٤)].

وقال له رجل: «يا أبا سعيد، كيف أصبحت؟ قال: بخير. قال: كيف حالك؟ فتبسَّم الحسن، وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة، حتى توسَّطوا البحر، فانكسرت سفينتهم، فتعلّق كل إنسان منهم بخشبة، على أيِّ حال يكون؟ قال الرجل: على حال شديدة. قال الحسن: حالي أشد من حالهم»[(٥)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حَزِن وذَبُل، وإلَّا نَصِب، وإلا ذاب، وإلا تَعِب»[(٦)].

وأما ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ **فكان ـ كما قال نعيم بن حماد ـ:** إذا قرأ كتاب الرِّقاق يصير كأنه ثور منحور، أو بقرة منحورة من البكاء. لا يجترئ أحد منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيء إلا دفعه[(٧)].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٨).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٦٦)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٩) واللفظ لهما، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (٣٦).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٥٨) واللفظ له، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٣) واللفظ له، والبيهقي في «الزهد» (٥٤٣).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٧).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٣).

(٧) تقدم تخريجه.

وكان الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول:** «إني أحبه ـ يعني: ابن المبارك ـ؛ لأنه يخشى الله عَزَّ وَجَلَّ»[(١)].

وخرج ـ أي: ابن المبارك ـ **على أصحابه يومًا، فقال:** «إني اجترأت البارحة على الله عَزَّ وَجَلَّ، سألته الجنَّة»[(٢)].

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ **يتقلّب على فراشه من الغَمّ، ويقول:** «مَنْ يَصْبِرِ على أَخْذ الله، إنَّ أَخْذَهُ أليم شديد»[(٣)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أعظم المصائب للرجل أن يعلم من نَفْسه تقصيرًا، ثم لا يبالي ولا يحزن عليه»[(٤)].

وقال أيضًا: «إن البُصَرَاء لا يأمنون من أربع خصال: ذنب قد مضى لا يُدْرَى ما يصنع الرب فيه، وعمر قد بقي، لا يُدْرى ماذا فيه من الهَلكات، وفضل قد أُعْطِيَ، لعله مَكْر واستدراج، وضَلَالة قد زيّنت له فَيَرَاهَا هدًى. ومن زَيْغ القلب ساعةً أسرع من طَرْفة عين، قد يُسْلَب دينه وهو لا يَشْعر»[(٥)].

وعن القاسم بن محمد قال: «كنا نسافر مع ابن المبارك، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي، فأقول في نفسي: بأي شيء فُضِّلَ هذا الرجل علينا، حتى اشْتُهِر في الناس هذه الشهرة؟! قال: فكنا في بعض مسيرتنا في طريق الشام ليلة نتعشَّى في بيت، إذ طفئ السراج، فقام بعضنا، فأخذ السراج، وخرج يَسْتَصبح، فمكث هُنَيْهَة، ثم جاء بالسراج، فنظَرْتُ إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتَلَّتْ مِنَ الدموع، فقلتُ في نفسي: بهذه الخشية فُضِّلَ هَذَا الرجل علينا، ولعَلَّه حين فُقِد السراج، فصار إلى الظلمة ذَكَرَ القيامة»[(٦)].

وهذا طاوس بن كيسان رَحِمَهُ اللَّهُ، كان يُفْرَش فراشه، ثم يضطجع، فيتقَلَّى كما تتقَلَّى الحَبَّة على المِقْلَى، ثم يَثِب فَيُدْرِجه، ويستقبل القبلة حتى الصباح، ويقول: «طَيَّرَ ذِكْرُ جَهَنَّم نَوْمَ العابدين»[(٧)].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٤١٦).
(٢) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٥٧)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٥).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٤٣٧).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٧).
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٣٥) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٤٣٧).
(٦) «صفة الصفوة» (٤/ ١٤٥) باختصار.
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٩٠).

ومَرَّ بِرَوَّاس ـ أي: برجل يطبخ الرؤوس ـ قد أخرج رأسًا، فَغُشِي عليه[(١)].

وكان إذا رأى تلك الرؤوس المشوية لم يتعش تلك الليلة[(٢)].

وعن حفص بن عبد الرحمٰن قال: «أتيت مِسْعَر بن كِدَام ليحدّثني، فكأنه رَجُل أُقيم على شفير قَبْرٍ لِيُدْفَع فيه. ـ وقال مرة أخرى ـ: على شفير جهنم لِيُلْقَى فيها»[(٣)].

ولما حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ سفيان الثوري، فوجده جَزِعًا، فقال له: لِمَ تَجْزَع؟ فوالله لوددتُ أنّي مِتّ الساعة. فقال مِسْعَر: أقعدوني، فأعاد عليه سفيان الكلام. فقال: إنك إذًا لواثق بعملك يا سفيان! لكني والله لكأني على شاهق جبل لا أدري أين أَهْبِط؛ فبكى سفيان، فقال: أنت أخوف لله ﷻ منّي[(٤)].

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: «أدْرَكْتُ من لم يكن يملأ عينيه من السماء خوفًا مِنْ رَبِّهِ ﷻ»[(٥)].

وقال هَرِم بن حيان رحمه الله: «والله لوددتُ أني شجرة من هذه الشجر، أكلتني هذه الناقة، فقذفتني بَعْرًا، فاتُّخِذْت جِلَّة، ولم أكابد الحساب يوم القيامة... إني أخاف الداهية الكبرى»[(٦)].

وقال مكحول رحمه الله: «بأي وجه تلقون رَبَّكُمْ، وقد زَهَّدَكم في أمْر فرَغِبْتُم فيه، ورَغَّبَكُمْ في أَمْر فزهدتم فيه»[(٧)].

وعن عمارة بن زاذان أن مالك بن دينار رحمه الله **لما حَضَرَهُ الموت قال:** «لولا أني أكْرَهُ أن أصنع شيئًا لم يصنعه أحد كان قبلي لأوصيتُ أهلي إذا أنا مِتّ أن تُقيّدوني، وأن تجمعوا يدي إلى عنقي، فيُنْطَلَق بي على تلك الحال حتى أُدْفَن، كما يُصْنَع بِالعَبْدِ الآبق»[(٨)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٤).
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧٥)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٤).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٢٠).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢١٢).
(٥) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٠٣٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٣٤٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٨٨) واللفظ له.
(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٣٣) واللفظ له، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٩ ـ ١٢٠)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «المتمنين» (٣٧).
(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٠/ ٢٢٣).
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١١٢) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ٤٣٧)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٦١).

وقال سُوَيد بن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنا عند سفيان بن عُيَيْنة، فجاء محمد بن إدريس، فجلس، فروى ابن عُيَيْنة حديثًا رقيقًا، فغُشِيَ على الشافعي، فقيل: يا أبا محمّد! مات محمد بن إدريس. فقال ابن عُيَيْنة: إنْ كان قد مات محمد بن إدريس فقد مات أفضل أهل زمانه»(١).

وهذا الإمام الكبير أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا ذُكِرَ المَوْتُ خنَقَتْهُ العَبْرَة، وكان يقول: «الخوف يمنعني أَكْل الطعام والشراب، وإذا ذكرتُ الموت هان عليَّ كل أَمْر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيَّام قَلَائل، ما أَعْدِل بالفقر شيئًا، ولو وجدتُ السبيل لخرجتُ حتى لا يكون لي ذِكْر»(٢).

وقال له المَرُّوْذِي مرة: ما أكثر الداعي لك! قال: «أخاف أن يكون هذا استدراجًا، بأيِّ شيء هذا؟!»(٣).

وهذا يحيى بن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «والله ما ضَرَّ رجلًا اتقى الله على ما أصبح وأمسى من أَمْر الدنيا، وما الدنيا إلا كحِلْم، لقد حججتُ وأنا ابن أربع وعشرين سنة، خرجتُ راجلًا من بغداد إلى مَكَّة، هذا منذ خمسين سنة، كأنما كان أمس»(٤).

وقال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان يحيى بن أبي كثير من العُبَّاد، إذا رأى جنَازة لم يَتَعَشَّ تِلْكَ الليلة، ولا قَدِر أحد من أهله أن يكلّمه»(٥). اهـ.

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جلستُ مع سفيان الثوري في مسجد صالح المُرِّي، فتكَلَّمَ صَالِح، فرأيتُ سفيان الثوري يبكي، وقال: ليس هذا بقاص، هذا نذير قوم»(٦).

وقُرِئ عند يحيى البكَّاء: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، فصَاح صيحة، فعادوه منها أربعة أشهر(٧).

وقال يحيى بن أبي بكير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلنا للحسن بن صالح: صِفْ لَنَا غسل الميت، فما قَدِر عليه من البكاء»(٨).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٩٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥١/ ٣٠٦).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، و«تاريخ الإسلام» (١٨/ ٨١)، وانظر: «الورع» لأحمد (٢٤٥) ـ رواية المَرُّوذِي ـ.
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢١٠)، و«تاريخ الإسلام» (١٨/ ٧٦).
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٧/ ٢٤٣).
(٥) «الثقات» لابن حبان (٧/ ٥٩٢)، و«تهذيب الكمال» (٣١/ ٥٠٩).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٦٧) واللفظ له، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٣٠٨).
(٧) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٢٦٨).
(٨) أخرجه ابن عدي «في الكامل» (٢/ ٣١١).

وخرج مرَّة، فنظر إلى جَراد يطير، فقال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: ٧]، ثم خَرَّ مَغْشِيًّا عليه(١).

وقال بعضهم: «كنتُ أقرأ على علي بن صالح، فلما بلغتُ إلى قوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ [مريم: ٨٤]، سقط الحسن بن صالح يخور كما يخور الثور، فقام إليه علي، فرَفَعَه، ومسح على وجهه، ورَشّ عليه الماء، وأسنده إليه»(٢).

وقال حماد بن زيد: «كنتُ إذا رأيتُ حسان بن أبي سنان كأنه أبدًا مريض». وذُكِر ذلك لمخلد بن حسين، فقال: «هكذا كان إذا رأيته كأنه أبدًا ناقة»(٣).

وقال محمد بن سُوْقَة: «إن المؤمن الذي يخاف الله لا يسمَن، ولا يزداد لونه إلا تغيُّرًا»(٤).

وكان عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ يُحَدِّثُ أصحابه ولحيته ترتشّ بالدموع(٥).

وهذا إبراهيم بن أدهم يقول: «الهوى يُرْدِي، وخوف الله يشفي. واعلم أنما يزيل عن قلبك هواك إذا خفت مَن تعلم أنه يراك»(٦).

وكان عباد بن زياد التيمي رَحِمَهُ اللهُ له إخوة مُتَعَبِّدون، فجاء الطاعون، فماتوا جميعًا فرثاهم بقوله:

فِتْيَةٌ يُعْرَفُ التَّخَشُّعُ فِيهِمْ ... كُلُّهُمْ أَحْكَمَ الْقُرَانَ غُلَامَا
قَدْ بَرَى جِلْدَهُ التَّهَجُّدُ حَتَّى ... عَادَ جِلْدًا مُصَفَّرًا وَعِظَامَا
تَتَجَافَى عَنِ الْفِرَاشِ مِنَ الخَوْ ... فِ إِذَا الجَاهِلُونَ بَاتُوا نِيَامَا
بِأَنِينٍ وَعَبْرَةٍ وَنَحِيبٍ ... وَيَظَلُّونَ بِالنَّهَارِ صِيَامَا
يَقْرَؤُونَ الْقُرَانَ لَا رَيْبَ فِيهِ ... وَيَبِيتُونَ سُجَّدًا وَقِيَامَا(٧)

وقال السَّري السَّقَطي رَحِمَهُ اللهُ: «إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرارًا مخافة أن يكون وجهي قد اسودَّ»(٨).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٩٨)، و«الزهد» (٥٣٠).
(٢) أخرجه ابن عدي «في الكامل» (٢/ ٣١١)، والبيهقي في «الشعب» (٩١٥).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١١٥). (٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٤٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ٦٩).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٨)، والبيهقي في «الشعب» (٨٥٠)، و«الزهد» (٣٢٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٣٤٤).
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٢٨٢).
(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٠/ ١٨٢).

وسمعه الجُنَيد رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «ما أُحِبّ أَنْ أموتَ حيث أُعْرَف، فقيل له: ولِمَ ذلك يا أبا الحسن؟ قال: أخاف ألَّا يقبلني قبري، فأفتضح»(١).

وكان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «للخائف عشرة مقامات ـ فذكر منها ـ: الحُزْن اللّازِم، والهمّ الغالب، والخشية المُقْلِقَة، وكثرة البكاء، والتضرّع في الليل والنهار، والهَرَب من مواطن الرَّاحَة... ووَجَل القلب»(٢).

وقال أبو إسحاق السَّبِيْعِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَوَى أبو مَيْسرة عمرو بن شرحبيل إلى فراشه، فقال: يا ليت أمي لم تلدني، فقالت له امرأته: أبا ميسرة! أليس قد أحسن الله إليك، وهداك إلى الإسلام، وفعَل بك كذا؟ قال: بلى؛ ولكِنَّ اللهَ أَخْبَرَنَا أَنَّا وَارِدُون على النار، ولم يبيِّن لنا أَنَّا صَادِرُونَ عنها»(٣).

ولما أُهْدِيَت مُعَاذة العَدَوِيَّة إلى زَوْجِهَا صِلَة بن أَشْيَم أدخله ابن أخيه الحَمَّام، ثُمَّ أدخله بيتًا مُطَيّبًا، فقام يصلي، فقامت فصلّت، فلم يزالا يُصَلّيان حتى برق الفجر، فلما عاتبه ابن أخيه على فِعْله، قال له: «إنك أدخلتني بالأمس بيتًا أذكرتني به النار، ثم أدخلتني بيتًا أذكرتني به الجنة؛ فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحتُ»(٤).

وعُوتِب يزيد الرقاشي من ابنه على كثرة بكائه، وقال له: لو كانت النار خُلِقَتْ لك ما زدتَ على هذا البكاء!! فقال: ثكلتك أمك يا بني! وهل خُلِقَت النار إلا لي، ولأصحابي، ولإخواننا من الجن والإنس؟ أما تقرأ يا بني: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝﴾ [الرحمٰن: ٣١]؟! أما تقرأ يا بني: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝﴾ [الرحمٰن: ٣٥]؟! فجعل يقرأ عليه حتى انتهى إلى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝﴾ [الرحمٰن: ٤٤]، فجعل يجول في الدار، ويبكي حتى غُشِي عليه(٥).

وقال ابن السَّمَّاك رَحِمَهُ اللَّهُ: «قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة وإما في النار»(٦).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٠/ ١٨٣).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١١٧ ـ ١١٨).
(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٢)، ومن طريقه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٣٦٣)، وابن أبي الدنيا في «المتمنين» (٥٢، ٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٤١ ـ ١٤٢) واللفظ له.
(٤) «صفة الصفوة» (٣/ ٢١٩)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ٢٦٧).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٢٤٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٥/ ٨٦).
(٦) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٨).

ونظر عمر بن عبد العزيز إلى رجل عنده متغير اللون، فقال له: «ما الذي بلغ بك ما أرى؟» فقال: «يا أمير المؤمنين! أمراض وأسقام!» فأعاد عليه عمر، قال: سألتك بالله إلا صَدَقتني. فقال: «يا أمير المؤمنين! ذُقْتُ حلاوة الدنيا فوجدتها مُرَّة، فصَغُر في عيني زهرتها وحلاوتها، واسْتَوَى عندي حجارتها وذهبها، وكأني أنظر إلى عَرْش ربي والناس يُسَاقُونَ إلى الجنة والنار؛ فأظْمَأتُ لذلك نهاري، وأسهرتُ له ليلي، وقليل حقير كلُّ ما أنا فيه في جنب ثواب الله ﷻ وعقابه»[١].

وهذا سفيان الثَّوْرِي الإمام الكبير رَحِمَهُ اللهُ، حُمِلَ ماؤه إلى الطبيب في مرضه، فلما نظر إليه قال: «هذا ماء رجل قد أحرق الخوف جوفه»[٢].

وكان يقول رَحِمَهُ اللهُ: «لقد خفت الله خوفًا وددتُ أنه خُفِّف عني»[٣].

وكان يقول: «خفتُ الله خوفًا عجبتُ لي كيف ما متّ، إلا أنَّ لي أجلًا أنا بالغه»[٤].

وكان إذا ذَكَر الموت لا يُنْتَفَعُ به أيَّامًا، فإذا سُئِلَ عن الشيء قال: «لا أدري، لا أدري»[٥].

وكان لا ينام إلا أول الليل، ثم ينتفض فَزِعًا مرعوبًا، ينادي: «النَّار، شغلني ذِكْر النار عن النوم والشهوات»[٦].

وكان إذا أخذ في ذِكْر الآخرة يبول الدم[٧].

وكان مَنْ يَرَاه يراه كأنه في سفينة يخاف الغَرَق، أكثر ما تسمعه يقول: «يَا رب سلِّم سَلِّم»[٨].

وقال عطاء الخفَّاف رَحِمَهُ اللهُ: ما لقيتُ سفيان الثوري إلا باكيًا، فقلتُ: ما شأنك؟ قال: «أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيًّا»[٩].

وجلس مرة مع مالك بن مِغْوَل، فتذاكرا حتى رَقَّا، فقال سفيان: «وددتُ أني لا أقوم من مجلسي حتى أموت». فقال مالك: «لكني لا أُحِب ذلك، مُعَايَنَة الرُّسُل! معاينة الرسل!» ثم قام يبكي يخط الأرض برجليه[١٠].

---

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٣٨٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٨/ ١٩١).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٤). (٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٢٣).
(٤) المصدر السابق.
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٨٧، ٧/ ٥٨).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٦٠)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٥٩).
(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٢٢)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٣) بنحوه.
(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥١). (٩) المصدر السابق (٧/ ٢١).
(١٠) المصدر السابق (٧/ ١٨).

ولما احتضر جعل يبكي، ويجزع. فقيل له: يا أبا عبد الله! عليك بالرجاء، فإن عفو الله أعْظَم مِنْ ذُنُوبِكَ. فقال: «أوَعلى ذنوبي أبكي؟! لو علمتُ أني أموت على التوحيد لم أُبَال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا»[١].

وعن عبد الرحمٰن بن مهدي، قال: «مات سفيان الثوري عندي، فلما اشتد به جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله! أراك كثير الذنوب، فرفع شيئًا من الأرض فقال: والله لذنوبي أهون عندي من ذا. إني أخاف أن أُسْلَب الإيمان قبل أن أموت»[٢].

وقال بشر بن منصور رَحِمَهُ اللهُ: «إني لأذكر الشيء من أمر الدنيا أُلَهِّي بِهِ نفْسِي عن ذِكْر الآخرة، أخاف على عقلي»[٣].

وكان منصور بن المُعْتَمِر رَحِمَهُ اللهُ إذا رأيتَه قلتَ: قد أُصِيب بمصيبة، ولقد قالت له أمّه: ما هذا الذي تصنع بنفسك؟! تبكي اللَّيْل عامَّته... لا تكاد أن تسكت؟! لعلك يا بني أصبتَ نَفْسًا؟ أقتلت قتيلًا؟ فقال: «يا أمه! أنا أعلم بما صنعَت نَفْسي»[٤].

وكان الضحاك بن مُزَاحِم رَحِمَهُ اللهُ إذا أمسى بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «لا أدري ما صعد اليوم من عملي»[٥].

وهذا الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ، الإمام الزاهد العابد المعروف كان قد أَلِفَ البكاء، حتى ربما بكى في نومه حتى يسمعه أهل الدار[٦].

ووقف مرة بعرفة، فوضع يده على خده، وبَكَى، ثُمَّ رَفع رأسه إلى السماء، وقال: «وا سوأتاه والله منك، وإن عفوت» ثلاث مرات[٧].

وقال هارون الرشيد رَحِمَهُ اللهُ: ما رأت عيناي مثل الفضيل، قال لي وقد دخلت عليه: «يا أمير المؤمنين! فَرِّغْ قَلْبَكَ لِلْحُزْنِ والخوف حتى يسكناه، فيقطعاك عن معاصي الله تعالى، ويباعداك من عذاب الله»[٨].

ودخل عليه زافر بن سليمان، فجَعَلَ الْفُضَيْل ينظر إليه، ثم قال: «يا أبا سليمان!

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٧٢).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٢).
(٣) المصدر السابق (٦/ ٢٤١).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (١٢٧)، و«محاسبة النفس» (٩٠)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٨١٣).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٧٦).
(٦) المصدر السابق (٢٣٠).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٣٨٩٧)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).
(٨) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٣٨٨).

هؤلاء أصحاب الحديث، ليس شيء أحب إليهم من قُرْبِ الإسناد. ألا أُخْبِرُك بإسنادٍ لا شَكَّ فيه؟! رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]، قرأ الآية. فأنا وأنت يا أبا سليمان من الناس، ثم غُشِي عليه»[(١)].

وكان أصحابه إذا خرجوا معه في جنازة لا يزال يَعِظ، ويُذَكِّر، ويبكي حتى لكأنَّهُ يودِّع أصحابه ذاهبًا إلى الآخرة حتى يبلغ المقابر، فيجلس، فكأنه بين الموتى جلس من الحزن والبكاء، حتى يقوم ولكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها[(٢)].

وقال إسحاق بن إبراهيم رحمه الله: «ما رأيتُ أحدًا أخْوَف على نَفْسه، ولا أرجى للناس من الفضيل»[(٣)].

وكان يقول: «ما أغبط مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مُرْسَلًا يُعايِن القيامة وأهوالها، وما أغبط إلَّا من لم يكن شيئًا»[(٤)].

وكان يقول: «طوبى لمن اسْتَوْحَشَ مِنَ الناس، وكان الله أنيسه، وبَكَى على خطيئته»[(٥)].

وكان يقول: «إذا قيل لك: أتخاف الله؟ فاسكت؛ فإنك إن قلت: لا، فقد جِئْت بأمر عظيم. وإن قلتَ: نعم، فالخائف لا يكون على ما أنت عليه»[(٦)].

وعن منصور بن عمار، قال: «تكلَّمْتُ يومًا في المسجد الحرام، فذكرتُ شيئًا من صفة النار، فرأيتُ الفضيل بن عياض صاح حتى غُشِي عليه»[(٧)].

وعلى طريقته من الخوف سار ابنه عليّ؛ يقول أبوه الفضيل: «أشرفتُ ليلة على عليّ وهو في صحن الدار، وهو يقول: النار، ومتى الخلاص من النار؟»[(٨)].

وقال: «يا أبت! سَلِ الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة»[(٩)].

وقال الفضيل رحمه الله: «قال لي عليٌّ: سل الذي جمعنا في الدنيا أن يجمعنا في الآخرة. فلم يزل مُنْكسر القلب حزينًا»، ثم بَكَى، ثم قال: «حبيبي من كان يُساعدني على الحزن والبكاء»[(١٠)].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٣٦)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٣٩٠).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٣٩١).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٦)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٣٩٦).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٠)، وذكره ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤١٩).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٨).
(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٢٣). (٧) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٣٨).
(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٧).
(٩) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٩). (١٠) المصدر السابق.

وقال أيضًا: «قال لي ابن المبارك: يا أبا علي! ما أحسن حال مَنِ انْقَطَعَ إِلَى الله! فسمع ذلك عليّ ابني، فسقط مغشيًّا عليه»(١).

وقال أيضًا: «بكى عليّ ابني يَوْمًا، فقلتُ: يا بني ما لك؟! فقال: أخاف ألَّا تجمعنا القيامة»(٢).

وكان لا يستطيع أن يقرأ القارعة، ولا تُقْرَأ عليه(٣).

ويقول أبو بكر بن عياش: «صَلَّيْتُ خَلْف فضيل بن عياض صلاة المغرب، وعليٌّ ابنه إلى جانبي، فقرأ ـ أي: الفضيل ـ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: ١]، فلما قال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: ٦] سقط عليُّ بن فضيل على وجهه مَغْشِيًّا عليه، وبقي فُضَيْل عند الآية، فقلتُ في نفسي: ويحك، ما عندك ما عند فضيل وعلي! فلم أزل أنتظر عليًّا، فَمَا أفاق إلى ثلث من الليل بقي»(٤).

وكان يومًا عند سفيان بن عُيَيْنة، فحدَّث سفيان بحديث فيه ذِكْرُ النَّارِ، وفي يد علي قِرْطَاس فيه شيء مَرْبوط، فشَهِقَ شهقة، ووقع، ورمى بالقرطاس، أو وقع مِنْ يَدِهِ، فالتفت إليه سفيان فقال: «لو عَلِمْت أنك هاهنا ما حدَّثْت به»(٥).

وصلى خلف إمام قرأ في صلاته سورة الرَّحْمَن، فلما سلم قيل لعليٍّ: أما سمعت ما قرأ الإمام: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾ [الرحمٰن: ٧٢]؟! فقال: «شغلني ما كان قبلها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ [الرحمٰن: ٣٥]»(٦).

وقرأ الفضيل الحاقة في صلاة الصبح يومًا، فلما بلغ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ [الحاقة: ٣٠] غلبه البكاء، فسقط ابنه علي مغشيًّا عليه(٧).

وقال الخطيب البغدادي في ترجمته: «كان مِنَ الوَرَعِ بمحلٍّ عظيم، ومات قبل أبيه بمُدَّة، وكان سبب موته أنه سمع آية تُقْرأ، فغشي عليه، وتوفي في الحال»(٨).

وقال ابن حبان في ترجمته من كتاب «الثقات»: «كان من الخائفين، كان يُقَدَّم على أبيه في الخَوْف والعبادة، مات قبل أبيه، وكان سبب موته أنه بات يتلو القرآن في مِحْرَابِهِ، فأصبح ميتًا في محرابه»(٩).اهـ.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٤٤).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٧).
(٣) المصدر السابق (٨/ ٢٩٩).
(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٥٣).
(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١٧٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٨).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).
(٧) أخرجه المزي في «تهذيب الكمال» (٢١/ ٩٩).
(٨) «تهذيب الكمال» (٢١/ ٩٧).
(٩) «الثقات» لابن حبان (٨/ ٤٦٤).

قال إبراهيم بن بشار: «الآية التي مات فيها علي بن الفضيل في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧]، مع هذا الموضع مات، وكنتُ فيمن صلى عليه»[(١)].

وهذا محمد بن المنكدر، من أئِمَّةِ التابعين وعُبَّادِهِم، بينما هو ذات ليلة قائم يُصَلي إذ استبكى، وكثُر بكاؤه، حتى فَزِعَ أهله، وسألوه ما الذي أبكاه؟ فاسْتَعْجَمَ عليهم، وتمادَى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم، فأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه، فإذا هو يبكي. قال: يا ابن أخي ما الذي أبكاك؟! قد رُعْت أهلك، أفمن عِلَّة، أم ما بك؟ فقال: إنه مرَّتْ بِهِ آية في كتاب الله ﷻ. قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧]، فبَكَى أبو حازم أيضًا معه، واشْتَدَّ بكاؤهما[(٢)].

وبكى ثابت البُنَاني رَحِمَهُ اللَّهُ حتى كادت عينه تذهب، فجاؤوا برجل يعالجها، فقال: «أعالجها على أن تطيعني»، فقال: «وأي شيء؟» قال: «على ألَّا تبكي»، قال: «فما خيرهما إن لم تبكيا؟!» وأبى أن يتعالج[(٣)].

وكان عطاء السَّلِيْمي رَحِمَهُ اللَّهُ يبكي حتى خَشِيَ على عينه، فأُتِي بطبيب يداوي عينه، قال: «أداوي بِشَرْط ألَّا تبكي ثلاثة أيَّام»، فاستَكْرَه ذلك، وقال: «لا حاجة لنا فيك»[(٤)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَكَيْتُ عَلَى ذَنْبٍ أرْبَعِين سنة»[(٥)]. وكان إذا انتبه في جوف الليل يضرب بيده فزعًا إلى أعْضَائِهِ يحسُّها مخافة أن تكون قد غيّر خِلْقَتُه[(٦)]. وكان قد نسي القرآن مِنْ الخوف[(٧)].

وكان يقول: «الْتَمِسُوا لي هذه أحاديث الرُّخَص، عسى الله أن يُرَوِّحَ عَنِّي ما أنَا فِيهِ»[(٨)].

وقيل له في مرضه: ألا تشتهي شيئًا؟ قال: «إنَّ خَوْفَ جهنم لم يَدَع في قلبي موضعًا للشهوة»[(٩)].

وكان يقول: «ليت عطاء لم تلده أمّه»[(١٠)]. **وقال له صالح المُرِّي**: «قلتُ لعطاء السَّلِيْمِي: إنك قد ضعفت، فلو صنعنا لك سَوِيقًا وتكلَّفناه. قال فصنعتُ له سويقًا، فشرب منه شيئًا، ثم مكث أيامًا. فقلتُ: صنعنا لك سويقًا وتكلفناه. فقال: يا أبا

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٣١).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٤٦)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ٦٧).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٢٣).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٩٦).
(٥) المصدر السابق (٧٩٩).
(٦) المصدر السابق (٨٩٣).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٧).
(٨) المصدر السابق.
(٩) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٥).
(١٠) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٧).

بشر! إني إذا ذكرتُ النار لم أسِغْه»[(١)].

وقيل: «إنه بَكَى رَحِمَهُ اللَّهُ حَتَّى عَمِش، وربما غُشِي عليه عند الموعظة»[(٢)].

وقال بشر بن منصور: قلتُ لعطاء السَّلِيْمِي: يا عطاء، ما هذا الحزن؟ قال: «ويحك! الموت في عنقي، والقبر بيتي، وفي القيامة موقفي، وعلى جسر جهنم طريقي، وربي لا أدري ماذا يصنع بي»[(٣)].

وقال العلاء بن محمد: «دخلتُ على عطاء السَّلِيْمِي، وقد غُشِي عليه، فقلتُ لامرأته أم جعفر: ما شَأْنُ عطاء؟ فقالت: سَجَّرَتْ جارتنا التّنّورَ، فنظر إليها، فخَرَّ مَغْشِيًّا عليه»[(٤)].

ومرَّ على صبيّ بيده مِشْعَلة نار، فأصابت النارَ الرِّيحُ، فسمع ذلك منها ـ سمع صوت النار ـ فخر مغْشِيًّا عليه، فحُمِلَ إلى منزله لا يعقل[(٥)].

وكان بعض السلف إذا رأى النار اضطرب، وتغيَّرَت حاله، والله يقول: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة: ٧٣].

قال مجاهد في قوله: (تذكرة)، قال: «تذكرة النار الكبرى»[(٦)]؛ يعني: أنَّ نَارَ الدنيا تُذَكِّرُ بِنَارِ الآخرة.

وَمَرَّ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالحدَّادِين، وقد أخرجوا حديدةً من النار، فقام ينظر إليه، ويبكي[(٧)].

وقال سَرَّار أبو عبيدة: عاتبتُ عطاء السَّلِيْمِي في كثرة بكائه، فقال: «يا سَرَّار! كيف تُعاتبني في شيء ليس هو إليّ؟ إني إذا ذكرتُ أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله وعِقَابِهِ تمَثَّلَتْ لي نَفْسي بهم. فكيف لنَفْس تُغَلّ يدُها إلى عُنُقِهَا، وتُسْحَب إلى النار ألّا تصيح وتبكي؟! وكيف لنفسٍ تُعَذّب ألّا تبكي؟!»[(٨)]. فهو يضع نَفْسه في مكانهم وقت إمكان الفرصة قبل فوات الأوان؛ فإنَّ الأنفَاسَ إذا تَقَضَّت، والعمر إذا انقضى فلا مَجَال للاستعتاب، أو الرجوع، أو التوبة والإنابة؛ فهذا مما يَسْتَجْلِب به الإنسان الخوف لنَفْسه من الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (٢٤٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٩).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٨٧)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) بنحوه.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١٧٨).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٨). (٥) المصدر السابق (٦/ ٢٢٢).
(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦) واللفظ له، وهناد في «الزهد» (٢٣٧).
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٥٨) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٠) مطولًا.
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٣٦)، و«الرقة والبكاء» (٢٥٦).

وهذا الإمام الكبير عبد الله بن وهب المصريّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو مِنْ أئمة السُّنَّة وحُفَّاظها، قُرِئ عليه كتاب أهوال القيامة، فخَرَّ مغشيًّا عليه، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد ثلاثة أيام(١).

وهذا هشام الدستوائي رَحِمَهُ اللَّهُ كان إذا فقد السِّراج من بيته تَمَلْمَل على فراشه، وكانت امرأته تأتيه بالسِّراج، ثم كلمته في ذلك، فقال: «إذا فقدت السِّراج ذكرت ظُلْمَة القبر»(٢).

وقد بكى رَحِمَهُ اللَّهُ حتى فسدت عينه، فكانت مفتوحة وهو لا يكاد يبصر بها شيئًا(٣).

وهذا الإمام الفَقِيه أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالى قام ليلةً بهذه الآية: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر: ٤٦]، يُرَدّدها، ويَبْكي، ويَتَضَرَّع(٤).

وقيل ليزيد بن مَرْثَد: ما لي أرى عينيك لا تجفّ؟ قال: «وما مسألتك؟» فقال له السائل: لعل الله أن ينفع به، فقال: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ تَوَعّدني إن أنا عصيته أن يَسْجنَنِي في النار. والله لو توعَّدني أن يَسْجنِنِي في الحمام كنت حَرِيًّا ألَّا يَجِفَّ لي دمع». فقال: هكذا في خَلْوتك؟ قال: «والله إنه لتوضع القصعة بين أيدينا، فيَعْرِض لي، فأبكي، ويبكي أهلي، ويبكي صبياننا، لا يدرون ما أبكانا. والله إني لأسكن إلى أهلي، فيَعْرِض لي، فيحول بيني وبين ما أُرِيد»(٥).

وعن حفص بن حميد قال: «قال لي زياد بن حدير: اقرأ عليَّ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: ١ - ٣]، فقال: أنقض ظَهْرَ رسول الله ﷺ، فجعل يبكي كما يبكي الصبي»(٦).

وكان يُسْمَع وَقْع دموع سعيد بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ على الحصير في الصلاة(٧).

وقيل له مرة: ما هذا البكاء الذي يَعْرِض لك في الصلاة؟ فقال: «ما قُمْتُ في صلاتي إلا مُثِّلَت لي جَهَنَّم»(٨).

وكان العلاء بن زياد رَحِمَهُ اللَّهُ ربَّانِيًّا، تقيًّا، قانتًا لله عَزَّ وَجَلَّ، بَكَّاءً مِنْ خَشْيَةِ الله، بكى حتى عَشِي بصرُهُ، وكان إذا أراد أن يَتَكَلَّمَ أو يقرأ جَهَشَه البكاء، وكان أبوه

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٤).
(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٤٩)، وأخرجه الدوري في «تاريخ ابن معين» (٢/ ٦١٧) بنحوه.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٩٥).
(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٣٥٦).
(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٨٢) ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٦٤)، والبيهقي في «الشعب» (٨٧٨) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٥/ ٣٧٧).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٧).
(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١/ ٢٠٢).
(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٧٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١/ ٢٠٣).

قد بكى حتى عَمِي[(١)].

وهذا شيخ الإمام أحمد، شيخ السُّنَّة يزيد بن هارون رَحِمَهُ اللهُ، قال الحسن بن عرفة: «رأيتُ يزيد بن هارون بواسط وهو مِنْ أَحْسَنِ الناس عَيْنَيْن، ثم رأيته بعين واحدة، ثم رأيته وقد ذهبت عَيْنَاه، فقلتُ له: يا أبا خالد! ما فعلت العَيْنَان الجميلَتَان؟ فقال: ذهب بهما بكاء الأسحار»[(٢)].

وقال العباس بن الوليد عن الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «كان إذا أخذ في ذِكْر المعَاد أقول في نفسي: أتُرى في المجلس قَلْب لم يَبْك»[(٣)].

وكان يُحْيي اللَّيْلَ صلاة وقرآنًا وبكاء[(٤)]. وكانت أمه تَدْخُل منزله، وتتَفَقَّد موضع مُصَلَّاه، فتجده رطْبًا من دموعه في اللَّيْلِ[(٥)].

ولما احْتُضِر عمرو بن قيس الملائي رَحِمَهُ اللهُ **بكى، فقال له أصحابه**: علام تبكي من الدنيا؟ فوالله لقد كنت غضيض العيش أيَّام حياتك؟ فقال: «والله ما أبكي على الدنيا، وإنما أبكي خوفًا من أن أُحْرَم خير الآخرة»[(٦)].

وهذا الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللهُ صاحب السنن، بكى حتى عَمِي وبقي ضريرًا سنين[(٧)].

وبكى علي بن بَكّار حتى عمي، وكانت الدموع قد أثَّرت في خَدَّيْهِ[(٨)].

وجلس عنده بعض أصحابه، فمَرَّت سحابة، فسأله عن شيء، فقال له: «اسكت حتى تجوز هذه السحابة، أما تخْشَى أن يكون فيها حجارة نُرْمَى بها؟!»[(٩)].

وقال عَنْبَسَة الخَوَّاص: كان عُتْبَة الغُلام يزورني، فربما بات عندي، فبات عندي ذات ليلة، فبكى في السَّحَر بكاء شديدًا، فلمَّا أصْبَحَ قلتُ: فزَّعْت قلبي منذ الليلة ببكائك، فبِمَ ذَاكَ يا أخي؟! فقال: «يا عَنْبَسَة! والله إني تذكرتُ يوم العَرْض على الله»[(١٠)].

ونظر يونس بن عُبَيْد إلى قَدَمَيْهِ عند موته فبكى، فقيل له: ما يُبْكِيكَ أبَا عبد الله؟! قال: «قدماي لم تَغْبَرَّا في سبيل الله»[(١١)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٨٧).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨١٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٤٣).
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٥/ ١٥٨ ـ ١٥٩).
(٤) المصدر السابق (٣٥/ ١٩٧). (٥) المصدر السابق.
(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٤٢).
(٧) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٧٣)، و«تاريخ الإسلام» (٢٠/ ٤٦١).
(٨) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٥٨٥)، و«تاريخ الإسلام» (١٤/ ٢٦٢).
(٩) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٧)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٦) واللفظ له.
(١٠) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٣٥)، والبيهقي في «الشعب» (٩٠١).
(١١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٢٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٩) واللفظ له.

وكان أبو وائل شَقِيق بن سلمة إذا صلَّى في بيته ينشج نشيجًا، لو جُعِلَت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه ما فَعَله[(١)].

ويقول الأعمش رَحِمَهُ اللَّهُ واصفًا مَنْ عَاصَرَهم مِنْ سَلَفِ هذه الأمة مِنْ صَالحيها: «إن كنّا لنشهد الجنازة، فلا ندري مَنْ نُعَزِّي مِنْ حُزْنِ القَوْم»[(٢)].

وقال ثابت البُنَاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنا نتبع الجنازة، فما نرى إلّا مُتقَنِّعًا باكيًا، أو متقنّعًا مُتفَكِّرًا»[(٣)].

وحكى القاضي حسين عن أستاذه القَفَّال: أنه كان في كثير من الأوقات في الدَّرس يقع عليه البكاء، ثم يرفع رأسه ويقول: «ما أغْفَلَنَا عمَّا يُرَاد بنا!»[(٤)].

امْنَعْ جُفُونَكَ أَنْ تَذُوقَ مَنَامَا ... وَذَرِ الدُّمُوعَ عَلَى الخُدُودِ سِجَامَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَيِّتٌ وَمُحَاسَبٌ ... يَا مَنْ عَلَى سَخَطِ الجَلِيلِ أَقَامَا
لِلَّهِ قَوْمٌ أَخْلَصُوا فِي حُبِّهِ ... فَرَضِي بِهِمْ وَاخْتَصَّهُمْ خُدَّامَا
قَوْمٌ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ عَلَيْهِمُ ... بَاتُوا هُنَالِكَ سُجَّدًا وَقِيَامَا

فالأمر كما قال الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَتَى أقْحطت العَيْن مِنَ البكاء من خشية الله تعالى؛ فاعْلَم أن قَحْطَها مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي»[(٥)]. اهـ.

عن عمرو بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ **قال**: «سمعتُ رجلًا يطوف بالبيت ويبكي، فإذا هو طاوس! فقال: «عجبتَ من بكائي؟ قلت: نعم، قال: ورب هذه البَنِيَّة[(٦)]، إن هذا القمر ليبكي من خشية الله، ولا ذنب له»[(٧)].

وهذا سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ بات يُرَدِّدُ آية في الصلاة بضعًا وعشرين مرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١][(٨)]. وشرب مرَّة شَرْبَة من عسل في قَدَح، ثم قال:

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢٠٨)، ومن طريقه أحمد في «الزهد» (ص٣٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٥٠).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٢٢).
(٤) «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/ ٥٠٠)، وطبقات الشافعية لابن السبكي (٥/ ٥٥)، و«سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤٠٧).
(٥) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢٠٠).
(٦) أي: الكعبة.
(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٧٩)، وقد تقدم نحوه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٨) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧٠) ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧٢).

«والله لأُسْأَلنّ عن هذا»، فقيل له: لماذا؟ قال: «شربته وأنا أستلذّه»[(١)].

وقال جعفر بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عُدْت هارون بن رِئَاب فإذا هو يَجُود بنفسه، فما فقدت وجه رجل فاضل إلا وقد رأيته عنده. فجاء محمد بن واسع، فقال: يا أخي! كيف تَجِدك؟ قال: «هو ذا أخوكم يُذْهب به إلى النار، أو يعفو الله عنه»[(٢)]، يقول ذلك مع عظيم العبادة وكَثْرة الاجتهاد.

وهذا محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **يقول**: «يا إخوتاه! تدرون أين يُذْهَب بي؟ يُذْهَب بي والله الذي لا إلٰه إلا هو إلى النار أو يعفو الله عنِّي»[(٣)].

وكان علي بن الحسين زين العابدين إذا قام إلى الصلاة أخذته رِعْدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: «ما تدرون بين يدي مَنْ أقوم ومَنْ أناجي؟!»[(٤)].

ووقع حريقٌ في بيته مرَّة وهو ساجد، فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول الله! النار، يا ابن رسول الله! النار، فما رفع رأسه حتى أُطْفِئَت، فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟ فقال: «ألهتني عنها النار الأخرى»[(٥)].

وعن أُوَيْس القرني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال**: «لا تنال هذا الأمر حتى تكون كأنَّكَ قتلت الناس أجمعين»[(٦)].

وعن ابنة الربيع بن خُثَيم قالت: «كنتُ أقول لأبي: يا أبتاه! ألا تنام؟ فيقول: يا بنيَّة! كيف يَنَام مَنْ يَخَافُ البَيَاتَ؟»[(٧)].

ولما رأت أمّهُ ما يلقاه من البكاء والسهر نادته، فقالت: «يا بني! لَعَلَّكَ قتلت قتيلًا؟ فقال: نعم يا والدة! قد قتلت قتيلًا. قالت: ومَنْ هَذَا القتيل يا بني؟! يُتحمَّل على أهله، فيعفون. والله لو يَعْلَمُون ما تَلْقَى مِنَ البكاء والسَّهر بعد لقد رحموك، فيقول: يا والدة! هي نفسي»[(٨)].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٨١).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٢٤١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ١٧٢).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٣٦)، و«المحتضرين» (١٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٨) واللفظ له.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٩٤) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢/ ٢٨٢).
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٤ ـ ١١٥)، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٤، ٩٥٥) واللفظ له.
(٨) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٤٠)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٤).

أَدِمِ الصِّيَامَ مَعَ الْقِيَامِ تَعَبُّدًا ... فَكِلَاهُمَا عَمَلَانِ مَقْبُولَانِ
قُمْ فِي الدُّجَى وَاتْلُ الْكِتَابَ وَلَا تَنَمْ ... إِلَّا كَنَوْمَةِ حَائِرٍ وَلْهَانِ
فَلَرُبَّمَا تَأْتِي الْمَنِيَّةُ بَغْتَةً ... فَتُسَاقُ مِنْ فُرُشٍ إِلَى الْأَكْفَانِ
يَا حَبَّذَا عَيْنَانِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِيَتَانِ

وعن أبي كبير البصري رَحِمَهُ اللَّهُ **قال:** «قالت أم محمد بن كعب القُرَظي لابنها: يَا بني! لولا أني أعرفك صغيرًا طيِّبًا وكبيرًا طيبًا لظننتُ أنك أحدثتَ ذنبًا مُوبقًا؛ لما أراك تصنع بنفسك في الليل والنهار. قال: يا أماه! وما يُؤَمِّنني أن يكون الله قد اطَّلَعَ عليَّ وَأَنَا في بعض ذنوبي فمَقَتَنِي، وقال: اذهب لا أغفر لك»(١).

وقيل لعبد العزيز بن أبي رواد رَحِمَهُ اللَّهُ: ما أفضل العبادة؟ قال: «طول الحُزْن في الليل والنهار»(٢).

وفي هذا يقول شَقِيق البَلْخي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس للعبد صاحب خير مِنْ الهَمّ والخَوْفِ؛ همٌّ فيما مضى من ذنوبه، وخوف فيما لا يدري ما ينزل به»(٣).

ولإبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ **كلمة مشهورة في هذا، حيث يقول:** «ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون مِنْ أهل النار؛ لأن أهل الجنة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وينبغي لمن لم يُشْفِق أن يخاف ألَّا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور: ٢٦]»(٤).

وعن مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ **قال:** «الحزن تَلقِيح العمل الصالح»(٥)، **وقال:** «لولا أن يقول الناس: جُنَّ مالك للَبِسْت المُسُوح ـ يعني: الصوف ـ ووضعتُ الرماد على رأسي، أنادي في الناس: من رآني فلا يعصِ ربّه»(٦). **ويقول:** «لو استطعت ألَّا أنام لم أنَمْ، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نَائِم. ولو وجدتُ أعوانًا لفرَّقْتُهم ينادون في سائر

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٢٣)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٤) واللفظ له.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١٣٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٩٤).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٦٨).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٥) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٨٧٣).
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٤).
(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ٤٢١)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩٧).

الدنيا كلها: يا أيها الناس! النارَ النارَ»[١].

وقال له رجل: «رأيتُ البارحة كأن مناديًا ينادي فيقول: يا أيها الناس! الرحيلَ الرحيلَ، فما رأيتُ أحدًا يَرْتَحِل إلا محمد بن واسع»؛ فصاح مالك صيحة، وخَرَّ مغشيًّا عليه[٢].

وكان يصلي من الليل، ويأخذ بلحيته، ويقول: «يا رب! إذا جمعتَ الأوَّلِين والآخرين فَحَرِّمْ شَيْبَة مالك على النار»[٣].

وقال جعفر بن سليمان: «كنتُ إذا وجدت مِنْ قَلْبِي قَسْوَةً نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع نَظْرة، وكنت إذا رأيتُ وجْهَ محمَّدَ بن واسع حسبتُ أن وجْهَهُ وَجْه ثكلى»[٤].

ويقول مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رَحِمَهُ اللهُ: «لو أتاني آتٍ من ربي فخيرني بين أن يُخبرني أفي الجنة أنا أم في النار، وبَيْنَ أن أصِيرَ تُرَابًا لاخْتَرْتُ أن أصير ترابًا»[٥].

وهو الذي يقول: «لقد كاد خوف النار أن يحول بيني وبين أن أسأل ربي الجنة»[٦].

قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ[٧]:

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ
أَطَارَ الخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ

وقد وَصَفَهم رَحِمَهُ اللهُ **بقوله**[٨]:

وَمَا فُرْشُهُمْ إِلَّا أَيَامِنُ أُزْرِهِمْ ... وَمَا وُسْدُهُمْ إِلَّا مُلَاءٌ وَأَذْرُعُ
وَمَا لَيْلُهُمْ فِيهِنَّ إِلَّا تَخَوُّفٌ ... وَمَا نَوْمُهُمْ إِلَّا عِشَاشٌ مُرَوَّعُ

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣١٩ ـ ٣٢٠)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٦٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/٤١٣).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٤٦) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/١٥٣).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٢٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٦١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/٤١٣).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «المتمنين» (٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/١٩٩)، والبيهقي في «الشعب» (٨٨٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/٣٠١) واللفظ لهما.

(٦) أخرجه يعقوب بن سفيان (٢/٨١)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٣٣) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/٣٠٢).

(٧) تقدم تخريجه.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٢٨٣).

وَأَلْوَانُهُمْ صُفْرٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ عَلَيْهَا جِسَادٌ هِيَ بِالْوَرْسِ مُشْبَعُ
نَوَاحِلُ قَدْ أَزْرَى بِهَا الجَهْدُ والسُّرَى إِلَى اللَّهِ فِي الظَّلْمَاءِ وَالنَّاسُ هُجَّعُ
وَيَبْكُونَ أَحْيَانًا كَأَنَّ عَجِيجَهُمْ إِذَا نَوَّمَ النَّاسَ الحَنِينُ المُرَجَّعُ
وَمَجْلِسُ ذِكْرٍ فِيهِمُ قَدْ شَهِدْتُهُ وَأَعْيُنُهُمْ مِنْ رَهْبَةِ اللَّهِ تَدْمَعُ

وبعدُ، فَهَذِهِ بعض أخبار سلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم في خَوْفِهِمْ مِن الله ﷻ، مع شِدَّةِ اجتهادهم في العمل. فأيْنَ نحن من هؤلاء؟! فينبغي أن يَعْرِض العاقل نَفْسه على حالهم، وأن ينظر في تقصيره، ولعله أن يَسْتَدْرِك بعض ذلك، وأن يَصِل إلى شيء من حالهم.

أما القَسْوة المُسْتَدِيمة، والغفْلَة التَّامَّة التي نَعِيشها، ونزعم أننا على الصراط المستقيم، وأننا على الجادَّة، فإن هذا أمر يحتاج إلى إعادة نظر ومُراجعة، فإن اتباعهم ليس بمجرَّد الدعوى، إنما هو بالاقتداء بهم حقيقه، في القول، والاعتقاد، والعمل، والأخلاق، والسلوك.

فهكذا ينبغي أن نكون، أما أنْ تَمُرَّ على الواحد منا السَّنَة والسّنَتَان وهو لم تَدْمَع له عين، ولم يَرِق له قلب، وإن بكى فإنما يبكي على سبيل الموافَقَة، فهذا أمرٌ لا شَكَّ أنه يَسْتَدْعِي النَّظَر، ويَسْتَدْعي من العبد توبة نصوحًا.

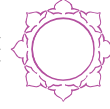
لقد أشغلنا فضول الكلام، والقيل والقال، والوَقِيعَة في أعراض الناس عن النَّظَرِ في أحوالنا، وما عليه قلوبنا من الشدة والقساوة. فمِنْ أَيْنَ لَنَا بالخشوع؟! ومن أيْنَ لنا برقة القلب ونحن سادرون في غفلة كبيرة؟! قد شغلتنا الحياة الدنيا وزينتها عن التبصُّر في أمر الآخرة، والله ﷻ يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

هذا ما أردت ذِكْره في موضوع الخوف، والله أعلم



الحادي عشر

الصَّبْر



توطئة

يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤]، فالإنسان يخرج من بطن أمّه باكيًا، يُعَانِي آلَام الولادة، ثم بعد ذلك يخرج إلى هذه الدار؛ بِحَرِّها وبَرْدِهَا، وما يصيبه فيها من آلام وأمراض، وأوجاع وأسقام، وما يلمّ به من جوع، وفقر، وحاجات، ومصائب يتقلَّب فِيهَا صباحَ مساءَ، يُكابِدُ في كل شيء، كما يكابد لإقامة طاعة الله ﷻ، فذلك يتطلب مجاهدة كبيرة.

كما يجاهد الإنسان داعي النَّفْس إلى الإخلاد والكَسَل، ويجاهد أيضًا في التخلُّص من شهواته وأهوائه.

والإنسان أيضًا بحاجة إلى مكابَدَةٍ وصَبْرٍ عظيم لمواجهة ما يقع عليه من المصائب والآلام التي تنزل بعَامَّةِ الناس، أو تنزل به على وجه الخصوص؛ فقَدْ يخْسَرُ ماله كله أو بعضه، وقد يُصاب هو، أو يُصَاب عزيزٌ له بمرض يَعْجز الأطباء عن عِلَاجِهِ، وقد يكون سماع اسم المرض وحْدَه كافيًا في بيان حَجْم المصيبة التي تنزل بأهل هذا المريض، وقد يخرج سليمًا معافًى من بيته، وفي لحظة يُصيبُه قدَرُهُ المحْتُوم، فإذا به مُتَشَحِّط في دَمِهِ وسط الطريق، هالك في الهالكين.

وقد تخرج الأسرة بكاملها وهي في غَمْرَة الفَرَحِ والسرور والبهجة للتنزّه والترفّه أو لغير ذلك، ثم يَفْجَؤُهم ما يَفْجَؤُهم من البلاء، فإذا هم من بعد الفَرَح والسرور قد صاروا على الضد من ذلك.

فكل هذا يحتاج إلى صبر ورَبَاطَة جَأْش، ويحتاج إلى شيء مِنَ المُكَابَدَةِ من أجل حَمْل النَّفْس على لَوْن من الثبات، حتى لا تجزع.

وربما أسَاءَ إليه أقرب قريب، وربما سمع كلامًا يؤذيه، وربما رُمِيَت المرأة في عِرْضها جَوْرًا وظلمًا، وقد يسمع الرجل من امرأته كلامًا يجرحه أو العكس، وقد يواجه الإنسان عقوقًا من ولده، أو ظلمًا من والِدِهِ ويتَأَلّم لذلك غاية الألم، إلى غير ذلك مِنَ البَلَاءِ الذي يحتاج إلى صبر.

فالمصائب والآلام محيطة بالإنسان من كل جانب، وهذه طبيعة هذه الحياة، ومَنْ

ظَنَّ أن هذه الحياة دار يَسْتَرْوِح الإنسان فيها، ويَجِد بغيته من السعادة والهناءة فهو واهم لا محالة.

ثم إن جميع المطالب العالية، والمقاصد السامية؛ من تحقيق إنجازات علميّة، أو تحصيل ربح، أو نجاح في عمل، أو تربية ولد، ونحو ذلك؛ لا تُنَال إلا بالصبر.

فنحن بحاجة إلى طَرْحِ مِثْل هذا الموضوع، وتذكير النفوس بهذه القضايا التي يُحتاج إليها؛ حينما ينزل المكروه، أو حينما تتطلع النَّفْس إلى معالي الأمور.

فالصبر «خُلُق فاضل من أخلاق النَّفْسِ يمنع صاحبه مِنْ فِعْلِ مَا لا يَحْسُن، ولا يَجْمُل، وهو نوع مِنْ قُوَى النَّفْسِ الَّتِي بها صلاح شأنها، وقِوام أمْرِهَا»[١]، وهذه القوة تمكِّن الإنسان من تحمُّل المَشَاق والمَتَاعب والآلام، وهذه الخاصية هي خاصية الإنسان، ولا تُتَصوّر من البهائم؛ لنقصها، وتَغَلُّب الشهوات عليها، كما أنه لا يُوصف بها الملائكة الكرام؛ لما جَبَلَهم وفطَرَهُم الله ﷻ عليه من الكمالات: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

أما الإنسان فيخرج من بطن أمه في أول أمره كالبهِيمَةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، لا رغبة له إلا في الاغتذاء والنوم، ثم مَا يَلْبَثُ أن تظهر فيه شهوة أخرى؛ وهي شهوة اللَّعِب والزينة، ثم بعد ذلك شهوة النكاح، فإذا تحرَّك العقل، وقَوِي ظهرت عليه إشراقات أنوار الهداية عند سن التمييز، وينمو على التَّدَرّج إلى سن البلوغ، إلا أن طَبْعه يحمله على ما يُحِب ويهْوَى، وباعث الشرع والعقل يمنعه من كثير من ذلك، والحرب بينهما قائمة، وهو بِحَسَب ما غلب عليه، فهو في معركة وصِراع مرير؛ تارة يغلب عليه هذا، وتارة يغلب عليه هذا، والميدان هو أشْرَف عضو فيه؛ وهو القلب، والصبر عِبَارَة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات. فهذه الخاصية وهذا الصّراع لا يُوجَد إلا عند الإنسان.

وقد قيل: «الصَّبْر شجاعة النَّفْس، ومن ها هنا أخذ القائل قوله: الشَّجَاعَةُ صَبْر ساعة»[٢].



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٩) بتصرُّف يسير.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٨).

معنى الصبر وحقيقته

الصبر في اللغة[(١)]:

«مأخوذ من الحَبْسِ والمَنْع، فهو حبس النَّفْس عن الجَزَع، واللّسان عن التشَكِّي، والجوارح عن لَطْم الخدود، وشقِّ الثياب، ونحو ذلك»[(٢)]، بل هو حَبْس النَّفْس عن الخروج عن مُرَاد الإنسان إلى ما تَهْوَاه نَفْسه من الدَّعَة والرَّاحة.

وقيل: «أصْلُ الكلمة من الشِّدَّةِ والقُوَّةِ، ومنه: الصَّبِر، للدواء المعروف؛ لشدة مَرَارته وكراهته»[(٣)].

قال الأصمعي: «إذا لَقِيَ الرَّجُل الشِّدَّةَ بِكَمَالِهَا قيل: لقيها بأصبارها»[(٤)].

وقيل: «مأْخُوذ مِنَ الجَمْع وَالضَّمِّ، فالصَّابِر يجْمَع نَفْسه، ويضمّها عن الهَلَع والجَزَع، ومنه صُبْرة الطعام»[(٥)].

وأما الصبر في معناه الشرعي:

فيمكن أن يُقال: إن هذه المعاني السابقة جميعًا متحقِّقة في الصبر، فهو حبسٌ للنفس وفِطَام لها عن مشتهياتها، ودواعيها التي تدعوها إلى المَيْل مع الشهوات، والملذّات، والرَّاحَة، والكسل، والإخلاد إلى الأرض، وهو أيضًا مُرّ المذاق، قال الله ﷻ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢]، فإن الصبر لما كان فيه من الخشونة والضِّيق على نَفْس الصابر عَوَّضَهم الله ﷻ بالجَنَّةِ التي فيها البرودة والسَّعَة بَدَلًا من الصبر وضيقه، وعَوَّضهم بالحرير لما فيه من النعومة في مقابل خشونة الصبر؛ والقول باجتماع تلك المعاني فيه هو اختيار الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى[(٦)].

والله ﷻ يقول لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٣/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠)، مادة: (صبر)، و«تاج العروس» (١٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٣)، مادة: (صبر).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٥).

(٣) المصدر السابق (ص١٦). (٤) المصدر السابق (ص١٦).

(٥) المصدر السابق (ص١٦).

(٦) انظر: «حادي الأرواح» (١/ ٣٩٣)، و«روضة المحبين» (ص٦٤١). وراجع: «جامع الرسائل» (١/ ٧٣).

[الكهف: ٢٨]، وذلك بحَمْلِها على الجلوس معهم، وإنْ كانت تُنازع أحيانًا إلى أمور أخرى. وهذا وإن كان مُوَجّهًا إلى النبي ﷺ، إلا أن الأمَّة تُخَاطَب في شَخْص قائدها، وقُدْوَتِها، ومُقَدَّمها، وكبيرِهَا عليه الصلاة والسلام.

ويُقَابِل الصَّبْر: الجَزع، وقد جمع الله ﷻ بينهما، فقال عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ [إبراهيم: ٢١]، فهو حبس للنَّفْس عن الجَزَع إن كان ذلك في الأمور المُؤْلِمة والمصائب، وهو معنى قول مَنْ قال: «هو الإمساك في ضيق»(١)، بمعنى: أنَّ الإنْسَان إذا كان مُقِيمًا على أمر يَسْتَرْوِحُ فِيهِ، ويَجِد فيه لَذَّتَه لا يُقَال: هو صابر عليه، وإنما يُقال ذلك إذا كان يُكَابِد عَناءً في الإقامة على هذا العمل كما هو معلوم.

وقال الطبري رحمه الله: «الصبر: مَنْع النَّفْس مَحَابَّها وكفُّها عن هواها»(٢).

وقيل: «الصبر: حَبْس النَّفْس عن الجَزَع، وحَبْس اللسان عن الشَّكْوَى، وحَبْس الجوارح عن كل فِعْلٍ مُحَرَّم؛ كلطْم الخُدود، وشَقِّ الجيوب، والدّعَاء بالويل والثبور»(٣)، وهذا إنما يصلح في نوع من الصبر، وهو الصبر على المصائب.

ومن قائل بأنه: «حَبْس النَّفْس على مكروه، وعَقْل اللسان عن الشكوى، ومكابدة الغُصَص في تَحَمُّله، وانتظار الفَرَج عند عاقبته»(٤)، وهذا فيه تفصيل؛ فإن الشكوى لله ﷻ لا تنافي الصبر كما سيأتي، وإنما الذي قد ينافيه الشكوى إلى المخلوقين، وهذا يختص أيضًا بالصبر على البلاء؛ كما قال الحافظ ابن القيم(٥)، ولكن أوّله قد لا يختصّ بذلك؛ حيث إن حَبْسَ النَّفْس على المكروه قد يدخل فيه حبسها على الطاعة، وحبسها عن المعصية.

وقيل: «تجرُّع المَرَارَةِ مِنْ غَيْرِ تَعَبُّس»(٦).

وقيل: «الوقوف مع البلاء بحُسْن الأَدَب»(٧).

وقيل: «المقام مع البلاء بحُسْنِ الصُّحْبَة كالمقام مَعَ الْعَافِيَةِ»(٨)، وهذا كله في الصبر على البلاء.

---

(١) قاله الراغب في «مفردات القرآن» (ص٢٧٣).
(٢) كما في «جامع البيان» (٢/ ١١).
(٣) «عدة الصابرين» (ص١٥) بتصرُّف. وراجع: «الوابل الصيب» (ص٦)، «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦).
(٤) «طريق الهجرتين» (ص٢٦٤).
(٥) انظر: «عدة الصابرين» (ص٦٣).
(٦) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧ ـ ١٥٨).
(٧) المصدر السابق
(٨) المصدر السابق

وقيل: «هو حَبْس النَّفْس على ما أُمِرَتْ بِهِ مِنْ مكابدة الطاعات، والصبر على البلاء وأنواع الضرر في غير معصية»[(١)].

ومِنْ أوْسَعِ مَا قِيلَ في معناه ومِنْ أحْسَنِهِ أنه: «حَبْس النَّفْس على ما يقتضيه العقل والشرع»[(٢)].

وعرَّفَهُ بعضهم بأنه: «التباعد من المخلفات، والسّكون عن تَجَرُّع غُصَصِ البَلِيَّةِ، وإظهار الغِنَى عند حلول الفقر بساحات المعيشة»[(٣)].

وقال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «الصبر: القُوَّة على مقاومة الآلام والأهوال»[(٤)].اهـ.

وقال غيره: «حَبْس النَّفْس على طاعة الله؛ بالمحافظة عليها دومًا، ورعايتها إخلاصًا، وتحسينها عِلْمًا»[(٥)].

وقيل: «هو كفّ النَّفْس عن المعاصي، وثباتها في مقابلة الشهوات ومقاومة الهوى، مع الرضا بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقَدَرِهِ».

وكان سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ **يقول**: «ثلاث من الصبر: لا تُحَدِّث بمصيبَتِكَ، ولا بوجعك، ولا تُزَكِّ نفسك»[(٦)].

وقال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مِنْ إجْلَالِ الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعَكَ، ولا تذكر مصيبتك»[(٧)]؛ ولهذا فسَّرَه بعضهم بترك الشكوى[(٨)]. وهذا إنما يكون في المصائب فحسب.

والصبر نوعان: صبر محمود، وصبر مذموم، ويجمع هذين النوعين أنه حَبْسُ النَّفْس على مُرَاد صاحبها ومُبْتَغَاهُ، وإن خالف ما تطمح إليه نَفْسه، وتميل إليه من الهوى والدَّعَة والسكون إلى الراحة، فيدخل في هذا الصبر المحمود والصبر المذموم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «مفردات القرآن» للراغب (ص٢٧٣).

(٣) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٢٣).

(٤) «فيض القدير» (٦/ ٢٨٨).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٦) بتصرُّف.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٩)، ومن طريقه ابن جرير في «تفسيره» (١٥/ ٥٨٥ ـ ٥٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٨٩) عن سفيان الثوري، وأخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٤٣)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥٦٩) من كلام أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بنحوه.

(٧) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٧٣)، وقد روي مرفوعًا، ذكره السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٦/ ٣٥٩)، قال العراقي في «تخريج الإحياء» (ص١٠١٧): «لم أجده مرفوعًا».

(٨) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠٧) وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٠١).

وحقيقة الصبر: أنه خُلُقٌ فاضل، يحمل صاحبه على ما يحسن ويجمل، وهو قوَّة من قُوَى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها[١].

وهذه القُوَّة تُمَكّن الإنسان من ضبط نَفْسه لتحمُّلِ المَتَاعب والمَشَاق والآلام، فيفعل المأمور، ويجتنب المحظور، ويصبر على المقدور.



(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٩).

أسماء الصبر[(١)]

تتنوع أسماء الصبر بَحَسَب مُتَعَلَّقِهِ، فإذا ارتبط بجانب من الجوانب كان له اسم يخصه، **فمِنْ ذَلِك مَثلًا**:

إذا كان الصبر بحبس النَّفْس عن شهوة الفَرْج المحرَّمة؛ فإنَّه يُقال له: العِفَّة، وضدّها الزِّنَا والفُجُور والعُهْر.

وإن كان حَبْسُهَا عن شهوة البطن، وعدم التسرّع إلى الطعام، أو عن تناول ما لا يجمل منه؛ قيل له: شِبَع النَّفس، وشَرَف النَّفْس، وضده الشَّرَه، والدَّنَاءة، ووضَاعَة النَّفْس.

وإن كان حَبْس النَّفْس عن الثَّرْثَرَة، والكلام الكثير، الذي لا يَجْمُل، ولا يَحْسُن أن يتكلَّم بِهِ الإنسان؛ سُمِّيَ: كِتْمَان السِّر، وضدّه إذاعةً، وإفشاء، أو تهمة، أو فُحْشًا إن كان سبًّا أو كذبًا أو قذفًا.

وإن كان عن فضول العيش والتَّوسُّع سُمِّيَ: زُهْدًا، وضده حِرْصًا.

وإن كان على قَدْر يكفِي من الدنيا سُمِّيَ: قناعة، وضدّها الحِرْص.

وإن كان عن إجابة داعي الغضب سُمِّي: حِلْمًا، وضده تَسَرّعًا.

وإن كان عن إجابة داعي العجلة سُمِّيَ: وقارًا وثباتًا، وضده طَيْشًا وخِفَّة.

وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهَرَب سُمِّيَ: شجَاعَة، وضده جُبْنًا وخَوَرًا.

وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سُمِّيَ: عفوًا وصَفْحًا، وضده انتقامًا وعقوبة.

وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سمي: جودًا، وضده بُخْلًا.

وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سُمِّيَ: صومًا.

وإن كان عن إجابة داعي العَجْز والكسل سُمِّيَ: كَيْسًا.

وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكَلّ[(٢)] على الناس، وعدم حَمْل كَلّهم[(٣)]؛ سُمِّيَ: مروءة.

فله عند كل فعل وترك اسم يخصّه بحسب مُتَعَلّقه، والاسم الجامع لذلك كله: الصبر، وهذا يدل على ارتباط مقامات الدِّين كلها بالصبر؛ مِنْ أَوَّلِهَا إلى آخِرِهَا.

---

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص٢٨ ـ ٣٠).

(٢) هكذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: الكُلَف.

(٣) هكذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: كُلَفِهم.

الفروقات في باب الصبر

أولًا: الفرق بين الصبر، والتَّصبر، والاصطبار، والمصابرة، والمرابطة:

أمرنا الله ﷻ بالصبر، والمصابرة، والمرابطة، والاصطبار، والتصبر، وبين هذه الألفاظ فروق دقيقة، وهي تتفاوت «بحَسَب حال العبد في نَفْسه، وبحَسَب حاله مع غيره؛ فإن حَبس نَفْسَه، ومنعها عن إجابة داعي ما لا يَحْسُن؛ إنْ كان ذلك خُلُقًا، وسَجِيَّة، ومَلَكَة؛ سُمِّيَ: **صَبْرًا**، وإن كان بتكلّف، وتَمَرُّن، وتَجَرُّع لمرارته؛ سُمِّيَ: **تَصَبّرًا**. وهذا كالتَّحَلّم، والتَّشجّع، والتَّكَرُّم، والتَّحمُّل إذا تُكُلّف ذلك»[(١)].

وقيل: الصَّبْر: «ألا يُفَرِّق بين حال النعمة وحال المِحْنة، مع سكون الخاطر فيهما، والتصبّر: هو السكون مع البلاء، مع وِجْدان أثقال المحنة»[(٢)].

وعلى ذلك فالصبر أرْفَع مِنَ التَّصَبّر.

«**وأما الاصطبار**: فهو أبلغ من التَّصَبُّر، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتَّصَبُّر مَبْدَأ الاصطبار، كما أن التَّكَسُّب مُقدِّمَة الاكتساب، فلا يزال التَّصبر يتكرَّر حتى يصير اصطبارًا.

وأمَّا المصابرة: فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مُفاعلة، تستدعي وقوعها بين اثنين؛ كالمشاتمة والمضاربة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فأمرهم بهذه الأحوال كلها، فقد يصبر العبد ولا يُصابِر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر، ويصابر، ويرابط من غير تعبّد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن مِلَاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها...

والمرابطة كما أنها لزوم الثَّغْر الذي يُخاف هجوم العدوّ منه في الظاهر، فهي لزوم ثَغْر القلب؛ لئلا يدخل منه الهوى والشيطان، فيُزِيلُه عن مَمْلَكته»[(٣)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٣١ ـ ٣٤) بتصرُّف واختصار.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٩).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٣٣ ـ ٣٤) بتصرُّف يسير.

ثانيًا: الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام:

«كل إنسان لا بد له أن يصبر إمَّا اختيارًا وإما اضطرارًا، فالكريم يصبر اختيارًا؛ وذلك لعلمه بِحُسْن عاقبة الصبر. وأما اللئيم فيصبر اضطرارًا، واللئام أَصْبَر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم، وأَقَل الناس صبرًا في طاعة ربهم؛ يصبر اللئيم على تحمّل المشاق لهوى نَفْسه، وفي مرضاة عدوه، ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة رَبِّهِ، فالكريم يصبر في طاعة الرحمٰن، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان»[(١)].

وقد قال بعض العقلاء: «من لم يصبر صبر الكرام سلا سُلُوّ البهائم»[(٢)].

فالمصيبة واقعة لا محالة، وعادة الله في خلقه قاضية في آخر الأمر بالسُّلُوّ والنسيان، ولولا ذلك لما استمرت الحياة، ولما هَنَأَ أحد بعيشه، فالعاقل يصيب بقوة إيمانه وكرم سَجَيَّته مَحاسِنَ لطائف الله في خَلْقه عند وقوع المصائب، باستثمار بوادر الصبر والرضا، حتى يقع قضاء الله في خلقه في تلك المصيبة موقع الرضا والصبر الجميل، وهذا المقام وتلك المنزلة لا تُكْتَسَب بالقول والتعريف، وإنما تكتسب بقلب مؤمن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ثالثًا: الفرق بين الصبر، والصبر الجميل:

قالوا: الصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه لأحدٍ من المخْلُوقِينَ، ولا تُنَافِيه الشكوى إلى الله ﷻ.

أما الصَّبْرُ بمُجرَّدِهِ، فقد يكون معه شَكْوَى للمَخْلُوقِ، كأن يُصَاب أحدهم بمصيبة، فإذا جاءه أحد جعل يقول: أصابني كذا، وحصل لي كذا.

وهذا نوعان:

الأول: ما يُقْصَد به الشكاية، **وهي نوعان أيضًا**:

١ ـ نوعٌ تكون فيه الشِّكَاية إلى مَنْ يَرْجُو عنده علاجًا؛ كالمريض يُخْبِر الطبيب بشكاياته وآلامه.

٢ ـ ونوع تكون فيه الشّكاية إلى مَنْ لَا حِيلَةَ عنده، ولا رجاء في الشكوى إليه.

والثاني: ما يُقْصَد به مُجَرَّد الإخْبَار، أصابني كذا، فذَهَبْتُ إلى المستشفى، فعملوا لي تحاليل كذا كذا، وفعلوا كذا وكذا. فهذا ليس من الشَّكْوَى، ولا يكون نقصًا في مرتبة العبد إن تَعَلَّق به مصلحة.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٩٤) بتصرُّف واختصار.

(٢) «تسلية أهل المصائب» (٢٩).

والصبر الجميل ألا يتكلَّم بعِلَّتِهِ، وإذا سُئِلَ عن حاله قال: أنا بخير، والحمد لله، ونحو ذلك.

أمَّا ما يقع فيه كثير من الناس؛ كلما زاره زَائِر جعل يقصّ عليه أمره مُفَصَّلًا من أوَّلِهِ إلى آخره، فهو وإن كان في غالب أحواله ليس من الشكوى، لكنه قد يُنْقِصُ الأجر، فعلى الإنسان أن يجتنب ذلك، وليَتَحَلّ بالصبر، والله قد وعد الصابرين وعدًا حسنًا فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

وقد قال نبي الله يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، ورسول الله إذا وعد وفَّى، ثم حمله الوَجْد على يوسف والشوق إليه أنْ قَال: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، فلم يكن عدم صبره عنه مُنافيًا لقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

فإنه لما جاء يشكو إنما شكا إلى الله وحده فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

«**وأما قول بعضهم**: «إن الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدْرَى مَن هو» فهذا من الصبر الجميل، لا أنَّ مَنْ فقده فقَدَ الصبر الجميل، فإن ظهور أثر المصيبة على العبد مما لا يمكن دفعه»[(١)].

إنما الشأن فيمَنْ يتَكَلَّم ويشكو، ويتغير حاله بالمصيبة للأسوأ، ويبكي بكاءً شديدًا يُخْرِجُه عن حَدّ الصبر في مثل ذلك، ونحو هذه الأمور.

وأما أصحاب المنازل العالية، فإنهم يتركون حتى الأنين في شدة المرض، إلا أن يغلبهم فلا يستطيعون دفْعَه.

«فقد ذُكِرَ عند الإمام أحمد رحمه الله ـ لما كان في مرض الموت ـ عن طاوس أنَّه كان يكره الأنين، فلم يَئِنّ حَتّى مَاتَ[(٢)].

وذلك أن المشتكي طالِب بلسان الحال: إما إزالة ما يضره، أو حصول ما ينفعه، والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خَلْقه»[(٣)].

«ولا بد للإنسان من شيئين: طاعة الله بفعل المأمور وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور. **فالأول** هو التقوى، **والثاني** هو الصبر.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٩٢ ـ ٩٣).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦٧) بتصرُّف.

وقال سبحانه: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وقال جلَّ في علاه: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦]»[١].

رابعًا: الفرق بين الصبر، والعزم على الصبر:

كثير من الناس مَنْ يَعْزِم على أنواع من الطاعات متى آن أوانها قبل أوانها، ومنهم من يوطِّنُ نَفْسَهُ عَلَى الرِّضَا قَبْل وقوع البلاء، فإذا آن أَوَانُ الطَّاعَاتِ، أو حَلَّ وقوع البلاء انْفَسَخت عزائمهم.

وتجد من يقول: لو أنَّ لِي من المال كذا وكذا لأنفقتُ في سبيل الله، ولفعلتُ كذا وكذا. وآخر يقول: لو قامت الحرب ليرينَّ الله مني ما يحب. وهَذَا عزم على الصبر، فإذا جاء أمر الله تبيّن من يصبر ومن لا يصبر.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝١٤٣﴾ [آل عمران: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصف: ٢ ـ ٤].

وهذه الآية نزلت لما قالوا: «لو نعلم أيّ الأعمال أحب إلى الله لَعَمِلْنَا»[٢]. فأنزل الله آية الجهاد فكَرِهَهُ مَنْ كَرِهَهُ.

ولهذا كُرِه للمَرْء أن يتعرَّض للبلاء، بأن يطلب ولاية، أو يَقْدُم على بلد فيه طاعون، وأمثال ذلك.

والواجب على الإنسان إذا ابْتُلِيَ أنْ يَصْبر، وَيَثْبت، وإذا كان في عافية فَلْيسأل الله تمامها عليه.

وقد قال النبي ﷺ: «**لا تتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُو**»[٣].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) وغيرها، باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٠٩)، وصحَّحه ابن حبان (٤٥٩٤)، والحاكم(٢/ ٦٩)، وابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٢٠)؛ إذ قال: «إسناده صحيح، قَلَّ أن وقع في المسلسلات مثله»، والألباني في «صحيح الموارد» (١٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ**»(١).

ولهذا كره النبي ﷺ النذر، ونهى عنه(٢).

خامسًا: الفرق بين الصبر والقسوة:

الصبر: خُلُق كسْبِي يتخلَّق به العبد، وهو حَبْس النَّفْس عن الجَزَع والهَلَع والتَّشَكِّي، وهو ثبات القلب على الأحكام القَدَرِيَّة والشرعية. وقد تقَدَّمَ بيان ذلك.

وأما القَسْوة: فيُبْسٌ في القلب يمنعه من الانفِعَال، وغِلْظَةٌ تمنعه من التأثر بالنَّوَازِل، فلا يتأثر لغِلْظته وقَسْوَتِهِ، لا لصبره واحتماله»(٣).



(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وحكم أبو حاتم بنكارته كما في «العلل» (١٣٨)، وصحَّحه الترمذي كما في «تخريج الإحياء» (١/ ٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٤)، وفي المطبوع: «حسن غريب»، وصحَّحه الهَيْثَمِيّ في «المجمع» (٧/ ٢٧٤)، والعراقي في «تخريج الإحياء»، كما نقله الزّبيدي في «الإتْحَاف» (١/ ٣٣)، والألباني في «الصحيحة» (٦١٣)، وحسَّنه ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (ص١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الروح» (٢/ ٧١٦) بتصرُّف يسير.

منزلة الصبر

قال ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر جِمَاع الأمر، ونظام الحَزْم، ودعامة العقل، وبَذْر الخير، وحِيلَة مَنْ لَا حِيلَةَ لَهُ»(١). اهـ. وقد ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن عشرات المرَّات كما سيأتي، وذلك يدلُّ على شدة طَلَب الشرع له، وقيمته، وقدره، وأنه لا غنى للعبد عنه بحال. وقد قرنه الله عَزَّ وَجَلَّ بالصلاة، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله في هود: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٤، ١١٥]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الآية [غافر: ٥٥]؛ وذلك أن الاستعانة بهذين الأمرين يُسَهّل على الإنسان القيام بسائر الطاعات، وكفّ النَّفْس عن سائر المعاصي؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن أَوْجَبِ الصبر فَطْم النَّفْس عن أهوائها.

والعبد في الطاعات محتاجٌ إلى الصبر ليأتي بما أمر الله به، ويَثْبُت عليه، وإنك لتجد الرجل في بادئ أمره يُسَارِع في الخيرات، فإذا طال به العهد، ونازَعَتْه نَفْسه إلى شهواتها ومألوفاتها؛ ترك ما هنالك ممَّا كان سارع إليه.

والعبد في باب المعصية مُحتاج إلى الصبر ابتداءً لا يفارقها، فإذا واقعها، ثم تاب احتاج إلى الصبر حتى تصحّ توبته، ولا ينتقض عَزْمه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته؛ فهو ظاهر لكلِّ أحَدٍ أنَّهُمَا من الإيمان، بل هما أساسه وفرعه؛ فإنَّ الإيمان كله صبر على ما يحبه ويرضاه، ويقرّب إليه، وصبر عن محارم الله؛ فإن الدِّين يدور على ثلاثة أصول: تصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نَهْيِهما.

فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم، ولكن خُصَّ بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به؛ فإنَّ العَبْدَ متى عَلِمَ أن المصيبة بإذن الله، وأن لله أتم

(١) «روضة العقلاء» (ص١٦١).

الحكمة في تقديرها، وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد، رَضِي بقضاء الله، وَسَلَّمَ لأمره، وصَبَر على المكاره تقرّبًا إلى الله، ورجاءً لثوابه، وخوْفًا مِنْ عقابه، واغتنامًا لأفضل الأخلاق؛ فاطمأن قلبه، وقَوِيَ إيمانه وتوحيده»[١]. اهـ. وقد قال النبي ﷺ: «**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، ومَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[٢].

وقال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»[٣].

وقال: «إن أفضل عيش أدْرَكْنَاهُ بالصَّبْرِ، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريمًا»[٤].

وقال عليّ رضي الله عنه: «الصَّبْر مطيَّة لا تكبو»[٥].

وقال الحسن رحمه الله: «الصبر كَنزٌ من كنوز الخَيْرِ، لا يُعْطِيهِ الله إلا لعبد كريم عليه»[٦].

والعبد في كافة أنواع البر محتاجٌ إلى الصبر، وخاصة في أوَّل أمره؛ لأنه يحتاج إلى مجاهدة النَفْس حينما يريدها أن تخرج عن مألوفاتها، أو تترك بعض شهواتها، فلا يزال يُرَوِّضها بالصبر، ويُرَغِّبها في موعود الله حتى تلين.

ومن الناس من لا يزال على حاله من الترويض، ومعالجة النَّفْس حتى يصير ما كان شاقًّا عليها أحب شيء إليها، بحيث لا تستطيع مفارقته، ولا تحتمل البعد عنه.

وإنما أَوَّلُ المسَاعِي في ذلك وغيره بالصبر.

وقد قال ثابت البُنَاني رحمه الله: «كابَدْتُ الصَّلَاةَ عِشْرين سنة، وتنعَّمْتُ بها عشرين سنة»[٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «والنَّفْس مطيَّة العبد التي يسير عليها إلى الجنَّة أو النار،

---

(١) «القول السديد» (ص٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) ذكره البخاري في «صحيحه» معلقًا (٤/ ٢٣٩)، ووصله ابن المبارك في «الزهد» (٢٢٢)، ووكيع في «الزهد» (١٩٨)، وأحمد في «الزهد» (ص١١٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٠)، وابن أبي الدنيا في «الصبر» (٤٧)، وصحح ابن حجر إسناده في «الفتح» (١١/ ٣٠٩).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (٦)، وقد روي مرفوعًا، ولا يثبت. أخرجه أبو نعيم (٨/ ٢٩٠) وضعفه، وأعله ابن الجوزي في «العلل» (١٤٥٤)، وضعفه العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠١٣). راجع: «الضعيفة» (٣٨٨٩).

(٥) عزاه القشيري إليه في «رسالته» (١/ ٣٢٤).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٦).

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٢١).

والصبر لها بمنزلة الخِطَام والزِّمَام للمطيَّة، فإن لم يكن للمطية خِطَام ولا زمام شردت في كل مذهب.

وحُفِظ مِن خُطَب الحَجَّاج: «اقْدَعُوا هذه النفوس؛ فإنها طُلْعَة إلى كل سوء، فرَحِم الله امرءًا جعل لنَفْسه خِطامًا وزمامًا، فقادها بخِطَامِها إلى طاعة الله، وصرفها بزِمامِها عن معاصي الله؛ فإن الصبر عن محَارِمِ الله أيْسَرُ من الصبر على عذابه»[(١)]»[(٢)]. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا**: «فمتى فقَدْتَ الصبر واليقين كنت كمَنْ أرَادَ السَّفَرَ في البحر في غير مَرْكب»[(٣)]. اهـ.

وقد قيل[(٤)]:

فَالصَّبْرُ طِلَّسْمٌ عَلَى كَنْزِ الْعُلَا ... مَنْ حَلَّ ذَا الطِّلَّسْمَ فَازَ بِكَنْزِهِ

ولهذا جاء عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وإذَا ذَهَبَ الرأس ذهب الإيمان»[(٥)].

ويقول إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما مِنْ عَبْدٍ وهَبَهُ الله صبرًا على الأذى، وصبرًا على البلاء، وصبرًا على المصائب إلا وقد أوتي فضلًا ما أُوتِيه أحد بعد الإيمان بالله»[(٦)].

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما أنْعَمَ الله على عبد نِعْمَةً فانْتَزَعَهَا منه، فعَاضَهُ مكان ما انْتَزَع منه الصَّبْر، إلا كان ما عَوَّضَه خيرًا مما انْتُزِع منه»[(٧)].

وقال سليمان بن القاسم: «كل عمل يُعْرَفُ ثوابه إلا الصبر، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]، قال: كالماء المنهمر»[(٨)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر أوَّلُ منازل الإيمان ودرجاته، وأوسطها، وآخرها،

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٢/ ١٤٣) مختصرًا.
(٢) «عدة الصابرين» (ص٢٥ ـ ٢٦).
(٣) «الفوائد» (ص٢٢٠).
(٤) «زاد المعاد» (٤/ ٣٠٥)، و«الفوائد» (ص٤٢، ١١٢).
(٥) أخرجه وكيع في «الزهد» (١٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٥ ـ ٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠) واللفظ له، موقوفًا على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد روي مرفوعًا، ولكن لا يثبت، كما قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠١٢)، والألباني في «الضعيفة» (٣٩٣).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٧).
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (٢٢) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٩٨)، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٦٥).
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (٢٠).

فإن صاحب الرضا والشكر لا يُعدَم الصَّبْر في مرتبته، بل الصبر معه، وبه يَتَحقَّقُ الرِّضَا والشكر، لا تَصَوُّر ولا تَحَقُّق لهما بدونه»[(١)]. اهـ.

ولا يزال العبد يصبر، ويَتَّقِي، ويَرْتَقِي حَتَّى يَصِلَ إِلَى المَنَازِلِ العاليات، وأعالي الدرجات، وهو في ذلك كله يُلَازِمهُ الصَّبْر، باعتباره منزلة ومَرْحَلَة كمراحل السفر بالأبدان، والتي كُلَّمَا انْقَطَعَتْ مَرْحَلة خلَّفَها وراء ظهره، واستقبل الأخرى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «بل هذا كمنزلة التاجر الذي كُلَّمَا بَاعَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ، وربح فيه، ثم باع الثاني وربح، فقد ربح بهما معًا، وهكذا أبدًا يكون ربحه في كل صفقة مُتضاعِفًا بانضمامه إلى ما قبله، فالرِّبْحُ الأول انْدَرَجَ في الثاني ولم يُعْدَمْ»[(٢)]. اهـ.

وهكذا الأعمال القلبية، فحينما يصل العبد إلى حالة مُرْضِيَة إنما يكون ذلك بِتَرَقّي المجموع، لا باعتبار الوحدة، ومثل ذلك العِلْم، فالعالِمُ عالِمٌ باعتبار مجموع علومه.

وهكذا مستوى الإنسان التربوي، فإنه يُحَصِّله بمجموع أمور ينتج عنها ما ينطوي في نَفْسه مِنْ أخْلَاقٍ، ومُثُل، وأعمال، وهِمَّة عالِيَة، وإرادةٍ للخير، ومجافاةٍ ومباعدَةٍ عن الشر والباطل والمنكر، إضَافَةً إلى ما يحْصُل من جَرَّاء ذلك من العمل في الخارج بطاعة الله وترك معاصيه، وبِهَذا يَتَفَاضَل الناس، فتجد هذا إذا رأيته ذكرت الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا رأيت الآخر استعذْتَ بالله مِنْ شَرِّهِ، فالصَّبْر بجميع أقسامه أصلُ مَقَامَات الإيمان وأجلّها، وهو أصل لكمال العبد الذي لا كمال له بدونه.

و«الخاصَّة أحوج إليه من العامَّة»[(٣)].

وقد قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر نِصْف الإيمان»[(٤)].

وإذا اعتبر العبد الدِّين كله رآه يرجع بجُمْلَتِه إلى الصبر والشكر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣﴾ [إبراهيم: ٥].

«**وقد ذُكِر لهذا التصنيف اعتبارات:**

الأول: أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلى شطرين: فِعْل وتَرْك، فالفِعْلُ هو العمل بطاعة الله، وهو حقيقة الشكر، والتَّرْكُ هُوَ الصَّبْرُ عن المعصية، والدِّينُ كلّه في هذين الشيئين: فِعْل المأمور، وتَرْك المحظور.

الثاني: أن النَّفْس لها قُوَّتَانِ: قوة الإقدام، وقوة الإحْجَام، وهي دائمًا تترَدَّدُ بين

(١) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٧).
(٢) المصدر السابق (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨).
(٣) من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٨).
(٤) تقدم تخريجه.

أحكام هاتين القوَّتين، فتُقْدِم على ما تحبه، وتُحْجِم عمَّا تكْرَهه، والدِّين كله إقدام وإحجام؛ إقدام على طاعة، وإحْجَامٌ عن معاصي الله، وكلٌّ منهما لا يمكن حصوله إلا بالصَّبْرِ.

الثالث: أن الدِّين كله رغبة ورهبة، فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا وراهبًا، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرَهْبَتُهُ تحْمِله على الصَّبْرِ، ورَغْبَتُهُ تقوده إلى الشكر.

الرابع: أن جميع ما يُبَاشِرُه العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في أحد الدَّارَيْن، ويضرّه في الأخرى، وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة، ويترك ما يضرّه فيها، وهو حقيقة الإيمان. ففعل ما ينفعه هو الشُّكْر، وتَرْك ما يضره هو الصبر.

الخامس: أن العبد لا ينفَكّ عن أمْرٍ يفْعَله، ونهي يتركه، وقَدَر يجري عليه، وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر؛ ففِعْل المأمور هو الشكر، وتَرْك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر.

السادس: أن العبد فيه داعيان: داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداع يدعوه إلى الله والدار الآخرة، وما أُعِدَّ فيها لأوليائه من النعيم المقيم. فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر.

السابع: أن الدِّينَ مَدَارُهُ على أصلين: العَزْم والثبات، وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قُوَّةُ الثبات.

الثامن: أن الدين مبنيٌّ علَى أصْلَيْنِ: الحق والصبر، وهما المذْكُورَان في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣]، ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نَفْسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر، لم يمكنه ذلك إلَّا بالصَّبْرِ عليه، فكان الصبر نِصْف الإيمان. والله سبحانه وتعالى أعلم»[(١)].

وهذه الأوجه ترجع إلى ما ذَكَره في الوجه الأول، كما لا يخفى على من تَدَبَّرَها.

وحاصل ذلك كله يدل على أهمية الصبر وعِظَم مرتبته.

قال ابن القيم رحمه الله: «الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين. وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة. وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها. وحاجة المُحِب إليه ضرورية»[(٢)]. اهـ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٢٠٥ ـ ٢٠٩). باختصار وتصرف.
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٢).

وبالصبر يُعْلَم صحيح المحبَّة من معلولها، وصادقها من كاذبها، وبه يُعْرَفُ المُحِبّ الصَّادق من المُحِب الكاذب، فالمُحِب الصادق يصبر على التقرّب إلى الله بأنواع الطاعات والبَذْل، ولا يصدّه عن ذلك ما قد يتَعَرَّض له من أذى الناس وظلمهم؛ ولهذا «كانت محَبَّة أكثر الناس كاذبة؛ لأنَّهُم ادَّعَوْا محبَّة الله، فحين امْتَحَنَهُمْ بالمكاره انْخَلَعُوا عن حقيقتها، ولم يثبت معه إلا الصابرون، فلولا تحمّل المشاق، وتَجَشّم المكاره بالصبر لمَا ثَبَتَتْ صِحَّة محبتهم، وبهذا تعْرِف أن أشد الناس محبة هم أشد الناس صبرًا؛ ولهذا وَصَفَ اللهُ تَعَالى بالصبر خاصَّةَ أوْلِيَائِه، فقال عن أيوب ﷺ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ [ص: ٤٤]، وقد أثنى عليه بقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، وأمر أحب الخَلْق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧]، وأثنى على الصابرين أحْسَنَ الثَّنَاء كما سيأتي، وضَمِن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوبًا، وأجرهم بغير حساب، وقَرَنَ الصَّبْرَ بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، فجعله قرين اليقين، والتوكّل، والإيمان، والأعمال، والتقوى، وأخْبَرَ أنَّ آيَاتِهِ إنما ينتفع بها أهل الصبر، وأن الصَّبْرَ خَيْر لأهله، وأنَّ الملائكة تُسَلِّم عليهم بصبرهم»[1]: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وحينما ذكر الله ﷻ جزاء المطيعين في الجنة ذَكَرَ صَبْرَهُمْ في الدنيا: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢]، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]، وهذا الذي أسلفوه في الأيام الخالية مبناه على الصبر.

والعبد في هذه الدنيا لا يخْرُج عن أربعة أحوال: أمرٌ يجِبُ أن يَمْتَثِلَهُ، ونَهْيٌ يجب أن يكُفّ عنه، وقَدَرٌ يَجِبُ التسليم له، ونِعَمٌ يَجِبُ علَيْهِ الشكر فيها، وهذه الأحوال جميعًا تحتاج إلى الصبر.

فهو فيما يجب عليه يحتاج إلى الصبر، وفيما نُهِيَ عنه يحتاج إلى الصبر عنه، وفيما ابْتُلِيَ به يحتاج إلى الصبر فيه، وفيما أصَابَهُ من نِعْمَة الله يحتاج إلى الصبر أيضًا؛ لئلا يغْتَرَّ بها، فيحمله غروره على البَطَر والأَشَر، ولئَلَّا يَنْهَمِك في تحصيلها، وطلب المزيد منها، ويبالغ في استقصائها، فتنقلب إلى أضدادها، إلى غير ذلك.

«**والعبد فيما أُمِر به يحتاج إلى الصبر في ثلاثة أحوال:**

أولًا: قبل الشروع في العمل؛ بتصحيح النية والإخلاص.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣) بتصرُّف.

ثانيًا: الصبر حال العمل، فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط.

ثالثًا: الصبر بعد الفراغ من العمل، **وذلك من وجوه:**

الأول: أن يُصَبِّر نفْسَهُ عن الإتيان بما يُبْطِلُ عمَلَهُ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

الثاني: أن يَصْبر عن رؤية العمل والعُجْب به.

الثالث: أن يصبر عن نقله من ديوان السرّ إلى ديوان العلانية.

فلا يظنّ أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يُعين عليه قَطْع المألوفات، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة، وقَطْع العوائد.

وأمَّا الصَّبْر على المصائب، فالمصائب نوعان:

الأول: ما لا صُنْع للعبد الآدميّ فيه.

والثاني: ما أصابه من جهة الآدمي، كالسبِّ، والضَّرْبِ، والظلم.

فالنوع الأول **للعبد فيه أربعة مقامات:**

المقام الأول: **مقام العَجْز**، وهو مقام الجَزَع والشَّكوى والسَّخط، وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: **مقام الصبر**.

المقام الثالث: **مقام الرضا**، وهو أعلى من مقام الصبر.

المقام الرابع: **مقام الشكر**، وهو أعلى من مقام الرّضا.

وأما النوع الثاني: وهو ما أصابه من قِبَل الناس، فلَهُ فيه هذه المقامات، **ويضاف إليها أربعة أُخر.**

الأول: مقام العفو والصَّفح.

والثاني: مقام سلامة القلب من إرادة التشفّي والانتقام.

الثالث: مقام شهود القَدَر، بأن ذلك بتقدير الله العزيز الحكيم.

الرابع: مقام الإحسان إلى المسيء، ومقابلة إساءته بإحسانك»[١].



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (١١٤ ـ ١٢١) باختصار وتصرف.

فضل الصبر[(١)]

ذكر الله الصبر في القرآن في أكثر من سبعين موضعًا، ومن أهْل العِلم مَنْ أوْصَلَه إلَى تِسْعِين موضعًا، وكثْرَة ذِكْره وتكراره يدل على منزلته وفضله ومكانته عند الله تبارك وتعالى، كما أضاف الله إليه أكثر الخيرات والدَّرجات، وجَعَلَها ثمرة له، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، والقُرُبَات - كما هو معلوم - قدَّرَ الله ﷻ أُجُورها وثوابها إلا الصبر؛ ولهذا لما كان الصَّوْم من الصبر قال: «**الصَّوْمُ لِي وأنَا أجْزِي بِهِ**»[(٢)]، فأضَافَهُ إلى نَفْسه مِنْ بين سائر العبادات، وممَّا يَدُلّ على فضله أيضًا أن الله ﷻ وَعَد الصابرين بمعيَّتِهِ فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، وجَمَع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٧][(٣)]، فذكر ثلاثة أشياء: الصلاة عليهم، والرَّحْمَة، والاهتداء، وصلاته تبارك وتعالى على الصابر هي ذِكْره في الملأ الأعلى، كما أن صلاته على العبد تدلّ على هدايته وعنايته به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقد بشَّر الله تبارك وتعالى أهل الصبر، وأعطاهم زيادة فوق البشارة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٧]، فجعل الاهتداء فوق الصلوات والرحمة، وقد قال عمر رضي الله عنه: «نِعْم العَدلان، ونِعْم العلاوة»[(٤)]؛ يعني بالعدْلَيْن: الصلوات والرحمة، والعلاوة: الاهتداء.

ومما يدلُّ على فضله أيضًا: أن الله أثنى على الصبر فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]، «أي: من الأمور التي يُعْزَم عليها، ويُنَافَس فيها، ولا يُوَفَّق لها إلا أهل العزائم والهِمَم العالية»[(٥)].

وأثْنَى على أيوب عليه السلام لعِظَم صبره فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٢٩) وما بعدها.
(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١/ ١٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (٣٤٢).
(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٧٠)، وعنه البيهقي في «الكبرى» (٤/ ٦٥).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن سعدي في «تفسيره» (ص١٦٠).

[ص: ٤٤]؛ ولهذا قال الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «عدة الصابرين»: «فأطلق عليه نِعْمَ العبد؛ بكونه وجده صابرًا، وهذا يدل على أن مَنْ لَمْ يَصْبر إذا ابْتُلِي فإنَّه بِئْس العبد»(١) .اهـ.

ومَّما يَدُلُّ على فضله أيضًا: أن الله أمر به نبيِّه الكريم ﷺ كما أمر به إخوانه من النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠]، وحَثَّ نبيِّه ﷺ على التصَبُّر على ما يناله من أذى قومه، وذَكَّرَهُ بأنه لا يستطيع الصَّبْرَ إلا بإعانة من الله ﷻ وتوفيقه، فقَالَ تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧]، فإنه لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يَحْصُل لِعَبْدٍ شَيء من الأمور التي يطلبها أو ينتفع بها إلا بتوفيق الله، وتيسيره، وهدايته.

ومما يَدُلّ على فضله أيضًا: أن التواصي بالصبر قرينُ الإيمان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾ [البلد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر: ٣]؛ لأنه لا يمكن أن يحقق العبد الإيمان، وأن يَسْلُك الصراط المستقيم الذي أَمَرَهُ الله ﷻ بسلوكه إلا بالصبر، وقد لا يتمكّن من الصبر إلا بالتَّوَاصِي عليه؛ لأَنَّ النَّفْس قد تشغلها المصائب والهموم، وقد تُرْهقها الأعمال والتكاليف التي أُنِيطت بها، فيَحْتَاجُ إلى التذكير بين الحين والآخر حتى يبلغ العبد رحمة الله ﷻ، ويصل إلى مطلوبه.

وأيضًا: فالصبر خَصْلَة من خِصَالِ البرِّ، وشُعْبَة مِنْ شُعَبِ الإِيمَانِ بالله ﷻ، والله يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، إلى أن قال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومَّما يَدُلُّ أيضًا على فضله: ما جاء في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خيرًا وأوْسَعَ مِنَ الصَّبْر**»(٢)، فإذا أعْطِيَ العبد الصبر أعطي ما يدفعه، ويرفعه، ويثبته على الطريق حتى يبلغ بإذن الله.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّبْرُ كَنْز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لِعَبْدٍ كَرِيمٍ عنده»(٣)؛ ولذلك فالذي يُقارِف ما يَخْطُر على ذِهْنِهِ من معصية الله ﷻ، ومما لا يليق،

(١) «عدة الصابرين» (ص١٣٤).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٦).

إنما يفعل ذلك من قلَّةِ صَبْرِهِ، والذي يجزع إذا نزل به مكروه، ويفقد صوابه، إنَّمَا يقع منه ذلك لِقِلَّة صَبْرِهِ؛ ولذلك كان لبعض المتقدِّمِينَ رُقْعَة في جَيْبِهِ ينظر فيها بين الحين والآخر، فيها قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨](١)، فكان يُذَكِّرُ نفْسَه بما أمر الله بها نبِيَّه مِن الصَّبر؛ ليُثَبِّت نَفْسه على الحق، ويقَوِّي عزْمَهُ على العمل.

وقد وَصَفَ النبي ﷺ الصلاة بأنها نور، ووَصَفَ الصَّبْرَ بأنه ضياء(٢)، فالصلاة نور في قلبه، ووجْهِهِ، وقَبْرِهِ، وحشْرِهِ؛ ولذلك فكلَّما كان العبد أكثر صلاة كان وجهه أكثر إشراقًا؛ ولهذا قال بعض السلف: «من طال قيامه بالليل حَسُن وجهه بالنهار»(٣).

والصبر ضياء؛ أي: فيه نور، لكنه نور مع حرارة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، فالضوء لا بد فيه من حرارة، وهكذا الصبر لا بد فيه من حرارة وتَعَب؛ لأنَّ فيه مشقَّة كبيرة؛ ولهذا كان أجره بغير حساب.

واعلم أن الصبر يشتمل على أكثر مكارم الأخلاق، فيدخل فيه الحلم؛ فإنه صبر على دواعي الانتقام عند الغضب، والأناة صبر على إجابة دواعي العَجَلة، والعفو والصَّفْح صبر عن إجابة دواعي الانتقام، والجود والكرم صبر عن إجابة دواعي الإمساك، والكسب صبْر عن إجابة دواعي الكسل والخمول، والعدل صبر إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين، وسِعَة الصَّدْر صبر عن الضَّجَر، والكتمان وحفظ السر صبر عن إظهار ما لا يحسن إظهاره، والشجاعة صبْر عن إجابة دواعي الفرار.

وهذه هي التربية الحقيقية التي تسمو بالإنسان وتمنحه من التَّهْذِيب والرِّفْعَةِ وسُمُوّ النَّفْس على قدر ما يتحقَّق فيه من هذه المعاني، فيَكْمُل في شؤونه كلها، ويؤدّي الحقوق إلى أصحابها، ولا يصل أذَاهُ إلى الناس، وما وصَل إليه من أذى الناس وظلمهم عفا عنه وصفح.

وهذا هو جهاد النَّفْس وترويضها على مكارم الأخلاق، وإلا فالإنسان من حيث هو ظلوم جهول كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وجماع الشر الجهل والظلم.

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) روي مرفوعًا ولا يثبت؛ إذ أطبق أهل العلم على القول بوضعه، راجع: «العلل» لابن أبي حاتم (١٩٦)، و«الضعفاء» للعقيلي (١/ ١٩٣)، و«الكامل» لابن عدي (٢/ ٣٤١)، و«الموضوعات» للصغاني (٨٩)، و«الحاوي» (٢/ ١٤٦)، و«اللآلئ المصنوعة» (٢/ ٣٣ ـ ٣٥)، و«المقاصد الحسنة» (١١٦٩)، و«الضعيفة» (٤٦٤٤)، وقد توارد العلماء على التمثيل بهذا الحديث فيمن وضع الحديث على سبيل الغلط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والإنسان خُلِق ظلومًا جهولًا، فالأصل فيه عدم العِلْم، وميْله إلى ما يَهْوَاه مِن الشَّرِّ»(١). اهـ.

فلولا صَبْرُهُ على ترك ما يهواه، وغض الطَّرْف عمَّا يتَمَنَّاه؛ لنازعَتْهُ نفْسُهُ إلى فِعْل كُلِّ شَرٍّ، وتَرْك كل خير. فالمعْصُومُ مَنْ عَصَمَه الله عَزَّ وَجَلَّ.

يقول الشاعر(٢):

وَالصَّبْرُ فَاعْلَمْ مِنْ أَعَدِّ الْعُدَدِ ... عَلَى صُرُوْفِ النَّائِبَاتِ الْعُوَّدِ
فَاجْعَلْهُ إِنْ هَمٌّ أَلَمَّ مَعْقِلَا ... وَاجْعَلْهُ عِنْدَ النَّائِبَاتِ مَوْئِلَا
فَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى مِضْمَارِ ... مُخْتَلِفُ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ البَلَايَا صَابِرَا ... سَلَا كَمَا يَسْلُو الْبَهِيمُ صَاغِرَا
فَاصْبِرْ إِذَا مَا عَضَّكَ الزَّمَانُ ... فَكُلَّ يَوم لِلْمَلِيك شَانُ
مَنْ يَعْتَصِمْ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْحَادِثِ ... فَالْحَبْلُ فِي يَدَيهِ غَيرُ نَاكِثِ
إِذَا أَتَى مَا لَا تُطِيقُ دَفْعَهُ ... فَالصَّبْرُ أَوْلَى مَا اقْتَنَيْتَ نَفْعَهُ
حُلُول مَا حَلَّ مِنَ الْبَلَاءِ ... كَالضَّيْفِ يَوْمًا حَلَّ فِي الْفِنَاءِ
فَاصْبِرْ لِضَيْفٍ بِكَ يَوْمًا نَزَلَا ... لَا يَلْبَثُ النَّازِلُ أَنْ يَرْتَحِلَا

يقول عبد الله بن أحمد: «حَدَّثَنِي ثابت بن أحمد بن شَبُّوَيه، قال: كان يُخيَّلُ إليَّ أن لأبي فضيلة على أحمد بن حنبل؛ للجهاد، وفكاك الأسارى، ولزوم الثغور، فسألت أخي عبد الله بن أحمد: أيهما كان أرجح في نفْسك؟ فقال: أبو عبد الله أحمد بن حنبل، فلم أَقْنَع بقوله، وأَبَيْتُ إلا العُجْب بأبي أحمد بن شَبُّويَه، فأُرِيتُ بعد سنة في منامي كأن شَيْخًا حوْلَهُ الناس، يسمعون منه، يسألون، فقعدت إليه، فلما قام تبعته، فقلتُ: أبا عبد الله! أَخْبِرني: أحمد بن حنبل، وأحمد بن شَبُّويَه، أيهما عندك أفضل وأعلى؟ فقال: سبحان الله! إن أحمد بن حنبل ابتُلِي فصبر، وإن أحمد بن شَبُّويَه عوفي، المبتلى الصابر كالمعافى؟! هيهات، ما أبعد ما بينهما!»(٣).



(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠١).
(٢) القائل: عبد الله السَّابوري. «مجاني الأدب في حدائق العرب» (٤/ ٨٨).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٨٦) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (١٧/ ١٧٠).

المفاضلات في باب الصبر

أولًا: المفاضلة بين الصبر والشكر:

اختلف الناس في المفاضلة بين الصبر والشكر:

فذهبت طَائِفَة إلى أن الصبر أفضل؛ «لأن الله سبحانه أثْنَى عليه، وعلى أهله، ومدَحَه، وأمَرَ به، وعلَّق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد تقَدَّمَتِ النّصوص في بيان فضله.

قالوا: ويدلُّ عليه:

١ ـ قوله ﷺ: «**الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ**»[(١)]، فذكر ذلك في مَعْرَض تفضيل الصبر، ورَفْع درجته على الشكر، فإنه ألحق الشاكر بالصابر، وشَبَّهَه به، ورتبةُ المشبّه به أعلى من رُتْبَة المُشَبَّه. وهذا كقوله ﷺ: «**مُدْمِنُ الخَمْرِ كعَابِدِ وَثَنٍ**»[(٢)].

٢ ـ أنَّنا إذا وازَنَّا بين النصوص الواردة في الصبر والواردة في الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها.

٣ ـ أن الصبر يدخل في كل مسألة من مسائل الدين.

٤ ـ أن الله ﷻ علَّق على الشكر الزيادة، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وعلَّق على الصبر الجزاء بغير حساب.

٥ ـ أنه قد صحَّ عن النبي ﷺ، كما في الحديث القدسي: «**كُلّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»[(٣)]، وما ذاك إلا لأنه صبَّر النَّفْس، ومنعها من شهواتها، كما في الحديث: «**يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي**»؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمن سأله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٦)، وابن ماجه (١٧٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث صحَّحه ابن خزيمة (١٩٩٨، ١٩٩٩)، وابن حبان (٣١٥)، والحاكم (١/ ٤٣٦)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٦٥٥). وراجع: «الفتح» (٩/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٢٩)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١١٧)، وصحَّحه ابن حجر في «تخريج الكشاف» (١/ ٤٢٠) بهامش تخريج الزيلعي. وفي الباب عن ابن عباس، وابن عمرو، وأنس، وجابر، وغيرهم رضي الله عنهم. وبها صحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٦٧٧).

(٣) تقدم تخريجه.

عن أفضل الأعمال: «**عَلَيْكَ بالصَّوْمِ؛ فإنَّهُ لَا عِدْلَ لَهُ**»(١).

ولما كان الصبر حَبْس النَّفْس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم؛ فإنه حَبْسُ النَّفْس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجِمَاع؛ فُسِّرَ الصَّبْر في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أنه الصوم، وسُمِّيَ رمضان شهر الصبر. والصبر في الجملة أوْسَع من الصوم.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١١١]، فجعل فوْزَهم جزاء صبرهم. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولا شيء يعْدِلُ مَعِيَّته لعبده سبحانه.

٧ ـ أن الله قد وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد منها خيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما عليها، وهي: صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٧].

٨ ـ أنه قد دَلَّ الدليل على أنَّ الزّهْد في الدنيا، والتقلّل منها ـ مهما أمكن ـ خير من الاستكثار منها، والزّهْد فيها حال الصابر، والاستكثار منها حال الشاكر.

٩ ـ أن أفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته، والعمل بمرضاته، وانجذاب القلب إليه بالحُبّ والخوف والرجاء، فهذا أشرف ما في الدنيا، وجزاؤه أشرف ما في الآخرة.

فكل عِلْم كان أقرب إفضاءً إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته؛ فهو أعلى مما دونه، وكذلك حال القلب، فكلّ حال كان أقرب إلى المقصود الذي خُلِقَ له؛ فهو أشرف مما دونه.

وكذلك الأعمال، فكل عملٍ كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره.

وإذا كان ذلك كذلك فالشكر ببذل المال عمل صالح، يحصل به للقلب حال؛ وهو زوال البخل والشُّح، فهو دواء للدَّاءِ الذي في القلب يمنعه من المقصود.

وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء، وتوفَّرَتْ قوته على استفراغ الوسع في حصول المقصود.

---

(١) أخرجه النسائي (٢٢٢٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وفي سنده اختلاف، ومع ذلك صحّحه ابن خزيمة (١٨٩٣)، وابن حبان (٣٤٢٦)، والحاكم (١/ ٤٢١)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٤/ ٥٧٤)، وأجاب عن الاختلاف الواقع في سنده في «تعليقه على ابن خزيمة» (٢/ ٩١٣).

وذهبت طائفة أخرى إلى أن الشكر أَفْضَلُ مِنَ الصَّبْرِ؛ وذلك من عدة أَوْجُهٍ:

١ ـ أن القول بتفضيل الصبر تقديم للوسيلة على الغاية، والمطلوب لغيره على المطلوب لنَفْسه، والعمل الكامل على الأكمل، والفاضل على الأفضل، وقد قَرَنَ الله تعالى ذِكْرَه الذي هو المراد من الخلق بذِكْرِه، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر وسيلة إليهما، وعون عليهما، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

٢ ـ أن الله تعالى قرن الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خَلْقه إن شكروا، وآمنوا به، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

٣ ـ أنه سبحانه أخبر أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنّته عليهم من بين عباده، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

٤ ـ أن الله قسَّم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧].

٥ ـ أنه سبحانه علَّق المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره.

٦ ـ أن الله تعالى وَصَف الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

٧ ـ أنه سبحانه قد أخبر أنما يعبده مَنْ شَكَره، فمَنْ لَمْ يشْكُرْهُ لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢]، وأخبر أن رضاه في شُكْرِه، فقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧].

٨ ـ أنه سبحانه أخبر أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١]، إلى قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣].

٩ ـ أن الله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نِعْمته، كما جاء عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ في ثوبٍ دُون، فقال: «**أَلَكَ مَالٌ؟**» قال: نعم.

قال: «**مِنْ أَيِّ المال؟**» قال: قد أتاني الله من الإبل، والغنم، والخيل، والرَّقِيق. قال: «**فإذا أتاكَ اللهُ مالًا فَلْيُرَ أثرُ نِعْمَةِ الله عليك وكَرَامَته**»[(١)].

١٠ ـ أن الله سبحانه يحِبّ أن يُسْأَل العافية، وما يُسْأل شيئًا أحَبّ إليه مِنَ الْعَافِيَة، فعن رِفَاعَة بن رافع رضي الله عنه قال: قام أبو بكر الصِّدِّيق على المنبر، ثم بكى، فقال: قام رسول الله ﷺ عام الأول على المنبر، ثم بكى، فقال: «**اسْأَلُوا اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ؛ فإنَّ أحَدًا لم يُعْطَ بَعْد الْيَقِين خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ**»[(٢)].

وكان عبد الأعلى التيمي يقول: «أكثروا سؤال العافية، فإن المُبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المُعافى الذي لا يَأْمَن البلاء، وما المُبْتَلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم»[(٣)]»[(٤)].

وتوسطت طائفة ثالثة، فقالت: ليس لأحدهما فضيلة إلا بالتقوى:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قد تنازع كثير من متأخّري المسلمين في الغَنِيِّ الشاكر والفقير الصَّابِر، أيهما أفضل؟ فرجَّح هذا طائفة من العلماء والعُبَّاد، ورجح هذا طائفة من العلماء والعُبَّاد... وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر.

وقالت طائفة ثالثة: ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى، فأيهما كان أعظم إيمانًا وتقوى كان أفضل، وإن اسْتَوَيَا في ذلك اسْتَوَيَا في الفضيلة، وهذا أصح الأقوال»[(٥)]. اهـ.

وقد ذُكِر عن عمر رضي الله عنه **أنه قال:** «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليتُ أيّهما رَكِبتُ»[(٦)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٦٣) واللفظ له، والترمذي (٢٠٠٦)، والنسائي (٥٢٢٣، ٥٢٢٤)، والحديث صحَّحه الترمذي، وابن حبان (٥٤١٦)، والحاكم (٤/ ١٨١)، والذهبي، والألباني في «غاية المرام» (٧٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٥٧).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (١١١ ـ ١٤٠) باختصار وتصرف.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١١٩ ـ ١٢٠).

(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٢٥)، وابن أبي الدنيا في «الصبر» (٧)، والدينوري في «المجالسة» (١٥٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٧١). وجاء نحوه أيضًا عن عمر بن عبد العزيز، أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٥٤٤).

ثانيًا: المفاضلة بين الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية:

من أهل العلم من قال: إن «الصبر عن المعصية أفضل من الصبر على الطاعة، وذكروا وجوهًا لهَذَا التَّفْضِيل، **فَمِنْ ذَلِك**:

١ ـ أن الصبر عن المعصية أشقّ وأصعب؛ لأن أعمال البِّر يعملها البَرُّ والفَاجِر، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصدِّيقون.

٢ ـ أن الصبر عن المُحَرَّمَات صبر عن المخالفة وأهواء النَّفْس، وهو أشَقّ شيء عليها، ومن أفضل الأشياء أن تُحْبَس النَّفْس عن داعية الهوى، وعن المَيْلِ مَعه.

٣ ـ أن تَرْك المحبوب الذي تحبّه النفوس دليل على أنَّ مَنْ تُرِك ذلك لأجله أحب إليه من نَفْسه وهواه، بخلاف فِعْل ما يحبّه المحبوب؛ فإنَّ ذلك لا يستلزم أنه أحبّ إليه مِنْ نَفْسِهِ وهَوَاهُ.

٤ ـ أنه ليس العَجَبُ ممَّن يَصْبِرُ على الأوَامِرِ؛ فإنَّ أكْثَرَها محبوبات للنَّفْس السَّلِيمَة؛ لأنَّها توافق الفطرة، وفيها من العَدْلِ، والإحسان، والإخلاص، والبِّر ما هو مُحَبَّبٌ إلى النفوس الفاضلة الزَّكِيَّة، بل العَجَب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها مَحَابّ للنفوس، فيترك المحْبوب العاجل للمحبوب الآجل. والنَّفْس مُوكلة بِحُبِّ العاجل، فصبرها عنه مُخَالِف لطَبْعها.

٥ ـ أن المناهي لها أربعة دواعٍ تدعو إليها: نَفْس الإنسان، والشيطان، والهوى، والدنيا، فلا يَتْرك المنهيات حتى يُجَاهِدَ هَذِهِ الأربعة، وذلك أشق شيءٍ على النفوس.

٦ ـ قالوا: ولذلك كان باب النهي مسدودًا كلّه، وباب الأمر إنما يُفْعَل منه المستطاع، كما قال النبي ﷺ: «**إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فائْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[(١)]. قالوا: وهذا يدل على أنَّ باب المنهيَّات أضيق من باب المأمورات، وأنه لم يُرَخّص في ارْتِكَاب شيء منها إلا للضَّرُورَات، بينما رُخِّص للإنسان في تَرْك بعض المأمورات لعوارض، مثل مَنْ عَجزَ عن القيام قَعَد في الصلاة، ومَنْ سَافَرَ وهو قادِرٌ على الصوم، فإنه يفطر ويقضي.

٧ ـ أن عامة العقوبات من الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيَّات، بخلاف تَرْك المأمور؛ فإنَّ اللهَ لَمْ يُرَتِّبْ عليه حَدًّا مُعَيَّنًا، فأعظم المأمورات الصلاة، وقد اخْتَلَف العلماء أَعَلى تاركها حَدّ أم لا؟

وذهب آخرون إلى إن الصبر على فِعْل المأمور أفْضَل، وأعظم، وأجَلّ من الصبر على

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تَرْك المحظور، وقالوا: إن فِعْلَ المأمور أحَبّ إلى الله مِنْ تَرْكِ المحظور، والصَّبْر على أحَبِّ الأمْرَيْن إلى الله ﷻ أفضل، **وبَيَانُ ذَلك مِنْ وجُوه**:

١ ـ أن فِعْل المأمور مقصود لذاته، فهو مشروع شرع المقاصد؛ فَإِنَّ مَعْرِفَة الله وتوحيده وعبودِيَّته وحده، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وإخلاص العمل له، ومحبَّته، والرضا به؛ هو الغاية التي خُلِقَ الإنسان من أجْلِهَا، وبها ثَبَتَ الأمر، وذلك أمر مقصود لنَفْسه. والمَنْهِيَّات إنما نُهِيَ عنها؛ لأنَّها صَادِرة عن ذلك، أو شاغلة عنه، أو مُفَوِّتة لكماله؛ ولذلك كانت درجاتها في النهي بحسب صَدِّها عن المأمور، وتعويقها عنه، وتفويتها لكماله، فهي مقصودة لغيرها، والمأمور مقصود لِنَفْسِهِ، فلو لم يَصُدّ الخمر والمَيْسر عن ذكر الله وعن الصلاة، وعن التَّوادّ والتَّحَابّ الذي وضعه الله بين عباده؛ لما حرمه، وكذلك لو لم يحُل بين العبد وبين عَقْلِهِ الذي به يعرف الله، ويعبده، ويحمده، ويُمَجّده، ويُصَلّي له ويسجد؛ لما حرمه، وكذلك سائر ما حرمه، إنَّما حَرَّمَه لأنه يصُدّ عمَّا يحبّه ويَرْضَاه، ويحول بين العبد وبين إِكْمَالِهِ.

٢ ـ أن المأمورات مُتَعَلِّقة بمعرفة الله ﷻ، وذِكْرِه، وشُكْرِه، ومحَبَّته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، فمُتَعَلَّقها ذات الرب تعالى وأسماؤه وصفاته، وأما مُتَعَلَّق المنهيات فذَوَات الأشياء المنهيّ عنها، والفرق من أعظم ما يكون.

٣ ـ أن ضرورة العبد وحاجته إلى فِعْل المأمور أعظم من ضرورته إلى تَرْك المحظور؛ فإن الإنسان بحاجة شديدة إلى معرفة الله، وتوحيده، والإخلاص له، والعمل في طاعته، وضرورته إلى هذه الأشياء أعظم من ضرورته إلى نَفْسه، ونَفْسه وحياته أعظم من ضرورته إلى غذائه الذي به قَوَام بَدَنِه، بل هذا لقلبه وروحه كالحياة والغذاء لبدنه، وهو إنما هو إنسان بروحه وقلبه، لا ببدنه وقَالبه، كما قيل[1]:

يَا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ ... فَأَنْتَ بِالْقَلْبِ لَا بِالجِسْمِ إِنْسَانُ

فتَرْك المنهِيَّات إنما شُرِع له تحصيلًا لهذا الأمر؛ لأنها تُؤَثّر على المطالب، وتضعفها، وتَعُوقه عن تحصيلها، والقيام بها.

٤ ـ أن تَرْك المنهِيّ من باب الحِمْية، وفِعْل المأمور من باب حِفْظ القُوَّة، والغذاء الذي لا تقوم البُنْيَة بدونه، ولا تحصل الحياة إلا به، فقد يعيش الإنسان مع تَرْك الحِمْية، وإن كان بدنه عَلِيلًا، لكنه لا يعيش بدون القوة والغذاء الذي به قوامه، فهذا مثل المأمورات والمنهيَّات.

(١) القائل: أبو الفتح البستي، كما في «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٥٥١).

٥ ـ أن جميع الذنوب ترجع إلى هذين الأصلين؛ إما تَرْك المأمور أو فِعْل المحظور، ولو أن العبد فَعَل جميع المحظورات، وجاء من المأمورات بشيء واحد؛ وهو مثقال ذرة من الإيمان ـ يعني: الإيمان المُنْجي ـ فإنه ينجو، لكن لو أنه تَرَك جميع المحظورات، ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مُخَلّدًا في النار، قالوا: فأي شيء مَثاقِيل الذر منه تُخْرِج من النار إلى شيء وزْن الجبال منه أضعاف مضاعفة لا تقتضي الخلود في النار؟!

٦ ـ أن جميع المنهيات تسقطها التوبة، لكن المأمورات لا يسقطها من معصية الله ﷻ إلا الشرك.

٧ ـ أن ذنْب آدم ﵇ كان بفعل المحظور، وذنْب إبليس كان بتَرْك المأمور، أما إبليس فطُرِدَ ولُعِنَ، وأما آدم فاجتباه ربّه، وهداه، وتاب عليه.

٨ ـ أن المأمور محبوب إلى الربِّ، والمنْهِيّ عنه مكْروهٌ له، والله ﷻ حينما يُقَدّر عليه فِعْل المكروه، فإن ذلك قد يقتضي محبوب الله ﷻ؛ كالتوبة، والندم، والاستغفار، والخضوع، والذلّ، والانكسار، وذهاب العُجْب والغرور والزُّهُوّ وما أشبه ذلك، وكذا محبوبه من نفْسه؛ كالمغفرة، والتوبة، والعفو، والحِلْم، وغير ذلك.

٩ ـ أن تَرْك المحظور لا يكون قُرْبة ما لم يُقَارنه فِعْل المأمور، فلو تَرَك العبد كل محظور لم يُثِبْه الله عليه حتى يُقَارنه مأمور الإيمان، وكذلك المؤمن لا يكون تَرْكه المحظور قُرْبَة حتى يقارنه مأمور النِيَّة، بحيث يكون تَرْكه لله ﷻ، فيفتقر تَرْك المنهيات بكونه قُرْبة يُثَابُ عليها إلى فِعْل المأمور، ولا يفتقر فِعْل المأمور من كونه قُرْبَة وطاعة إلى تَرْك المحظور.

١٠ ـ أن المنهيّ عنه مطلوب إعدامه وإزالته، وأمَّا المأمور فإنه مطلوب إيجاده، فإذا قُدِّرَ عدم الأمرين، أو وجودهما؛ كان وجودهما خيرًا من عدمهما؛ فإنه إذا عُدِم المأمور لم ينفع عَدَم المحظور، وإذا وُجِد المأمور فقد يُسْتَعان به على دَفْع المحظور، أو دَفْع أَثَره، فوجود القوّة والمرَض خير من عدم الحياة.

١١ ـ أن باب المأمور الحسنةُ فيه بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضِعْف، إلى أضعاف كثيرة، وأما السيئات فإن السيئة بمثلها، وهي بِصَدَدِ الزوال بالتوبة، والاستغفار، والحَسَنَة الماحية، والمصيبة المُكَفِّرة، واستغفار الملائكة للمؤمنين، واستغفار بعضهم لبعض، وغير ذلك.

فهذا يدلُّ على أن الصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية؛ لأن مُتَعَلَّقه أفضل؛ وهو الطاعات.

١٢ ـ أنَّ بَابَ المنْهِيَّات يمحوه الله سبحانه، ويُبْطِل أَثَرَه بأمور عديدة كما تقدَّم، مما يُبين أن المقصود إقامة الأمر على وجهه، وأما تَرْك المنهيّ عنه فإنه يستلزم إقامة الأمر.

١٣ ـ أن فاعل محبوب الربّ يستحيل أن يفعل جميع مَكْروهه، بل يترك من مكروهه بقدر ما أتى به من محبوبه، فغَايَتُهُ أنه اجتمع الأمران، فيحبه من وجه، ويبغضه من وجه.

أمَّا إذا تَرَك المأمور به جملة، فإنه لم يقم به ما يحبّه الرَّبّ عليه؛ فإن مجرد تَرْك المنهي لا يكون طاعة إلا باقترانه بالمأمور كما تقَدَّم، فصار مبغوضًا للربِّ تعالى من كل وجه.

١٤ ـ أن الله سبحانه لم يعلِّق محبّته إلا بأمر وجودِيّ، أمَرَ بِهِ إيجابًا أَوِ اسْتِحْبَابًا، ولم يُعَلِّقها بالتَّرْك من حيث هو تَرْك، فإنه يحبّ التوابين، ويحب المحسنين، ويحب الشاكرين، ويحب الصابرين، ويحب الذاكرين، ويحب المتصدّقين.

١٥ ـ أن المنهِيَّات لو لم تصدّ عن المأمورات، وتمنع وقوعها على الوجه الذي أُمِر به لم يكن للنهي عنها معنى، فالنَّهْيُ عنْهَا من باب التَّكْمِيل والتتمَّة للمأمور. وإذا تبين أن فِعْل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر، وبه يسهل عليه الصبر عن المحظور، والصبر على المقدور؛ فإن الصبر الأعلى يتضمّن الصبر الأدنى دون العكس»[(١)].

«إذًا: الصبر ثلاثة أنواع: أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلَّق به، وإلا فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة، إذا فُتِن الإنسان ـ مثلًا ـ بامرأة جميلة تدعوه إلى نَفْسها، في مكان خال، لا يَطَّلِعُ عليه إلا الله، وهو رَجُلٌ شَابّ ذو شهوة؛ فالصبر عن هذه المعصية أشَقّ ما يكون على النفوس، قدْ يُصَلِّي الإنسان مائة ركعة، وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يُصَاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة؛ فقد يموت له مثلًا قريب، أو صديق، أو عزيز عليه جدًّا، فتَجِده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٧٥ ـ ٧٦) بتصرُّف.

وبهذا يندفع الإيراد الذي يُورِدُهُ بعض الناس، ويقول: إن هذا الترتيب فيه نَظَر؛ إذ بعض المعاصي يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق، فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هي بقَطْع النَّظَر عن الصابر.

وكان الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزامًا وفِعْلًا، فتُلزم نفْسك الصلاة فتصلي، والصوم فتصوم، والحجّ فتحجّ... ففيه إلزام، وفعل، وحركة فيها نوع من المشقَّةِ، والتَّعَب، ثم الصبر عن المعصية؛ لأنَّ فيه كفًّا فقط؛ أي: إلزامًا للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فِعْلًا، ولا تركًا، وإنما هو مِنْ قَدَرِ الله المحْضِ»[(١)].

وهذه «الأنواع الثلاثة متلازمة، وكل نوع منها يُعِينُ على النوعين الآخرين. وإن كان مِنَ الناس مَنْ قُوَّة صَبْره على المقدور، فإذا جاء الأمر والنهي فقوّة صبره هناك ضعيفة، ومنهم مَنْ هُوَ بالعكس مِنْ ذَلِكَ، ومنهم مَن قُوَّة صَبْره في جانب الأمْر أقوى، ومنهم مَنْ هو بالعكس»[(٢)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وفَصْل النزاع في ذلك: أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية، فالصبر على الطاعة العظيمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدَّنِيَّة، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلًا أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضحى وصوم يوم تطوّعًا ونحوه. فهذا فَصْل النِّزاع في المسألة، والله أعلم»[(٣)]. اهـ.

وقال أيضًا: «كل صبرٍ في مَحَلِّه وموضعه أفضل؛ فالصبر عن الحرام في مَحَلِّه أفضل، وعلى الطاعة في مَحَلِّها أفضل»[(٤)]. اهـ.

وذكر في «المدارج» أن الصبر على الطاعة أفضل، وعلّل ذلك بـ«أن ترك المعصية إنَّما كان لتكميل الطاعة، والنهي مقصود للأمر، فالمنهي عنه لما كان يُضْعِف المأمور به ويُنقصه: نُهِي عنه حمايةً وصيانةً لجانب الأمر، فجانب الأمر أقوى وآكَد، وهو بمنزلة الصِّحة والحَيَاة، والنهي بمنزلة الحِمْية التي تُرَاد لحفظ الصِّحة وأسباب الحياة»[(٥)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن عثيمين في «القول المفيد على كتاب التوحيد» (٢/ ١١٠ ـ ١١١).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٦٤ ـ ٧٦).
(٣) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٥٧).
(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرَّمات وأفضل؛ فإن مصلحة فِعْل الطاعة أحبّ إلى الشارع من مصلحة تَرْك المعصية، ومَفْسدة عَدَم الطاعة أبغض إليه وأكره من مَفْسدة وجود المعصية»(١).

والراجح ـ والعلم عند الله عَزَّ وَجَلَّ ـ: أنَّ الصَّبْرَ على جنس الطاعة أفضل من الصبر عن جنس المعصية ـ من حيث الجنس ـ؛ للأمور التي ذكرناها، وأما فيما يتعلق بآحاد الطاعات وآحاد المعاصي ـ يعني: الجزئيات والمفردات ـ فإن ذلك لا شك أنه يختلف، كما يُقَال مثلًا في أيهما أعظم: جنس المأمورات أم جنس المنهيَّات؟ فإذا قيل بأن جنس المأمورات أعظم من جنس المنهيات؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ قد أمر إبليس أن يسجد فأبى، فطَرَدَهُ من رحمته، ونهى آدم أن يأكل من الشجرة فأكل منها، فتاب عليه ربه، واجتباه، فجنس فِعْل الطاعة أفضل.

يقال: هذا من حيث الجنس، أما من حيث المفردات والجزئيات فإن ذلك يختلف، فليس مَنْ أفطر يومًا في رمضان متعمِّدًا كَمَنْ أشرك بالله مثلًا، وليس مَنْ وقَعَ في يسير الرياء كمَنْ سَفَكَ الدم الحرام بغير الحق، وسعى في الأرض بالفساد.

وصَبَر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن المعصية لما دعَتْه امرأة العزيز، وحصل له هذا البلاء العظيم، فهل هذا مثل من صَبَر على صلاة الضحى مثلًا، أو على صيام الاثنين والخميس؟! فإن هذا الصبر عن المنهي أعظم من الصبر على الطاعة.

ثالثًا: المفاضلة بين الصبر على الطاعة وعن المعصية والصبر على المقدور:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قيل: أيّ أنواع الصبر الثلاثة أكمل: الصبر على المأمور، أم الصبر عن المحظور، أم الصبر على المقدور؟

قيل: الصبر المُتَعَلّق بالتكليف، وهو الأمر والنهي أفضل من الصبر على مُجَرَّد القدر؛ فإن هذا الصبر يأتي به البَرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا بُدَّ لكل أحد من الصبر على القَدَر، اختيارًا أو اضطرارًا.

وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل، وأعظمهم اتّبَاعًا أصْبَرهم في ذلك»(٢). اهـ.

وقال أيضًا: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قَدَّسَ الله روحه يقول:

كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل مِنْ صَبْرِهِ على إلقاء

(١) نقله عنه ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧).
(٢) «عدة الصابرين» (ص٦٣ ـ ٦٤).

إخوته له في الجبّ، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمور جرَتْ عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صَبْره عن المعصية، فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقْوَى معها دواعي الموافقة»[(١)]. اهـ.

«**وقال ميمون بن مهران**: «الصبر صبران: الصبر على المصيبة حَسَن، وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصي»[(٢)].

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد: ٢٤]، قال: «صبَّروا أنفسهم على ما أُمِروا به من طاعته، وصبَّروا أنفسهم عن ما نهاهم عنه من معصيته»[(٣)]. فكأنَّهُ جعل الصبر على المصيبة من قسم المأمور به»[(٤)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وإنَّما كان الصبر على السرّاء شديدًا؛ لأنه مقرون بالقدرة. والجائع عند غَيْبة الطعام أقْدَر منه على الصبر عند حضوره. وكذلك الشَّبِق عند غَيْبة المرأة أصبر منه عند حضورها»[(٥)]. اهـ.

رابعًا: المفاضلة بين العافية والبلاء مع الصبر:

هل الأفضل في حَقِّ العَبْدِ أن يكون في عافية الله عَزَّ وَجَلَّ، أو أن يُبْتَلَى فيصبر؟

والحق أن السلامة لا يعْدِلها شيء، وساحة العافية أوْسَعُ للعبد مِن ساحة الصَّبْر، وقد قال النبي ﷺ: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**»[(٦)].

فإن البلاء إذا وقع بالعبد لا يدري؛ أيصبر أم يجزع؟ فالعافية في الجملة خير له؛ لأنها أوسع له.

«ولا يناقض هذا قوله ﷺ: «**وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[(٧)]؛ فإن هذا بعد نزول البلاء، ليس للعبد أوسع من الصبر. وأما قبله فالعافية أوسع له»[(٨)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٨).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (٢٩) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٦٦).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٢٨) بتصرُّف.
(٥) المصدر السابق (ص١١٧).
(٦) أخرجه البخاري (٢٩٦٦، ٧٢٣٧)، ومسلم (١٧٤٢) واللفظ له، من حديث ابن أبي أوفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٧) تقدّم تخريجه.
(٨) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (٢٢ ـ ٢٣).

وقد قال مُطَرِّف بن عبد الله: «لأن أُعَافَى فأشكر أحبّ إليَّ مِنْ أنْ أُبْتَلَى فأصْبِر، نظرتُ في العافية فوجدتُ فيها خير الدنيا والآخرة»(١).

خامسًا: المفاضلة بين الصبر بالله والصبر لله:

قالت طائفة: الصبر لله أكمل؛ فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان له فهو غاية، وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل.

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، فـ«العبد بِحَسَب نصيبه من معيَّة الله يكون صبره، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره؛ ولذلك قيل: فاز الصابرون بعزّ الدَّارَيْنِ؛ لأنهم نالوا من الله معيّته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣].

ومَنْ تَعَلَّق بصفة من صفات الربّ تعالى أوصَلَتْهُ تلك الصفة إليه، والرَّبّ تعالى هو الصبور، بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه سبحانه»(٢).



(١) أخرجه أحمد (٢٤٢)، وهناد (٤٤٢) كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٢١) واللفظ له، وجاء ذلك عن أبي الدرداء رضي الله عنه فيما أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣١٠٢)، و«الصغير» (٣٠٤)، و«الكبير» ـ كما في «المجمع» (٢/ ٢٩٠) ـ إلا أنه لا يثبت، كما في «الضعفاء» للعقيلي (١/ ٥٦ ـ ٥٧)، و«الميزان» (١/ ٢١)، وراجع: «الموضح» للبغدادي (١/ ٣٩٩ ـ ٤٠١)، ترجمة إبراهيم بن النضر.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٨٠ ـ ٨٥) بتصرُّف.

الصبر في الكتاب والسُّنَّة

أولًا: الصبر في القرآن:

«**قال الإمام أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا»[١]. وذلك على وجوه متنوعة متعددة، **فَمِنْ ذَلِكَ**:

١ ـ أنَّ الله تبارك وتعالى أمَرَ به أمرًا صريحًا في مواضع كثيرة جدًّا من القرآن: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ [يونس: ١٠٩]، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]، ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٥]، ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل ١٢٧]، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الكهف: ٢٨]، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠]، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٤٨].

٢ ـ النهي عن ضدِّه: قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، والوَهَن من عدم الصبر. وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥]، فإن تَوْلِيَةَ الأدبار تَرْك للصبر والمصابرة، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣]؛ فإنَّ إِبْطَالها تَرْك الصبر على إِتْمَامِها»[٢].

وبالجملة، فكُلّ مَا نهى الله عنه فإنه يضادّ الصَّبْر المأمور به.

٣ ـ تعليق الفلاح به: قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٤ ـ الإخبار عن مضاعفة أجْرِ الصَّابِرِين على غيرهم: كقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) نقله ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٢)، و«عدة الصابرين» (ص١٢٩).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٢) باختصار وتصرف.

وقال سليمان بن القاسم: «كُلّ عَمَل يُعْرَف ثوابه إلا الصبر، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ قال: كالماء المنهمر»[١].

٥ ـ **تعليق الإمامة بالدين به وباليقين:** قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تُنَال الإمامة في الدين.

٦ ـ **الظفر بمَعِيَّة الله:** قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

٧ ـ **جعل الله للصابرين من الفضل ما لم يجعله لغيرهم:** فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فجمع لهم بين الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم.

وقال بعض السلف وقد عُوتِب على ادّهانه ولبسه للثياب الحسنة عند موت ابنه، فقال: «قد وَعَدَنِي ربي تبارك وتعالى عليها ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إليّ من الدنيا كلها»[٢].

٨ ـ **جعل الله الصبر عَوْنًا وعُدَّة، وأمر بالاستعانة به:** قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، فمَنْ لَا صبر له لا عون له.

٩ ـ **تعليق النصر بالصبر والتّقوى:** فقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥]؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ**»[٣].

١٠ ـ **وجعل سبحانه الصبر مع التقوى جُنَّة عظيمة من كيد العدو:** فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

١١ ـ **وأخبر سبحانه أن ملائكته تسلم على الصابرين في الجنة بصبرهم:** فقال

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٤٥) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٩١) من كلام مُطَرِّف بن الشِّخِّير رحمه الله.

(٣) هذا الحديث جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك**»، وقد تقدم تخريجه، وموضع الشاهد أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، وصحّحه الإشبيلي في «الأحكام الكبرى» (٣/ ٣٣٤)، وحسَّنه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٣٤٣) وما بعدها، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٣٣٦) وغيرهم.

تعالى: ﴿...وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

١٢ ـ أنه ﷻ أباح لهم أن يُعَاقِبُوا على ما عُوقِبُوا به، ثم أقْسَمَ قَسَمًا مُؤَكَّدًا أن صبرهم خيرٌ لهم، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

١٣ ـ أنه سبحانه رتّب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح: فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ١١].

١٤ ـ أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور: فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

١٥ ـ أنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظّفر، وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر، فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

١٦ ـ أنه سبحانه عَلَّق محبَّتَه بالصبر، وجعلها لأهله: فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

١٧ ـ أنه سبحانه أخبر عن خصال الخير أنه لا يُلَقَّاهَا إلا الصابرون: فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥].

١٨ ـ أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته وَيَتَّعِظُ بها الصبَّار الشكور: فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥].

١٩ ـ أنه أثنى على عَبْدِهِ أيّوب بِأَحْسَن الثناء على صَبْرِهِ: فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

٢٠ ـ أنه سُبْحَانَهُ حَكَم بالخسران على كل مَنْ لَمْ يُؤْمِن، ولم يكن من أهل الحق والصبر، فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر].

٢١ ـ أنه سبحانه خَصَّ أهل المَيْمَنة بأَنَّهُمْ أهل الصبر والمَرْحَمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بها غيرهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد: ١٧، ١٨].

٢٢ ـ أنه سبحانه قَرَنَ الصَّبْرَ بِأَرْكَان الإسلام ومقامات الإيمان كلها؛ كالصلاة، والرَّحْمَة، والتَّقْوَى، والصِّدق، والاتِّباع، وغير ذلك، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]، وقال ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩]، إلى غير ذلك من الآيات»[(١)].

ثانيًا: الصَّبْر في السُّنَّة:

وَرَدَ ذِكْر الصَّبْرِ في السُّنَّة في غَيْرِ ما حديث صحيح، فمن ذلك قوله ﷺ: «**الصَّلَاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**...»[(٢)] الحديث.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[(٣)].

والأحاديث في ذلك كثيرة، وقد مضى جملة منها في أثناء الحديث عن الصبر[(٤)].



---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (١٢٩ ـ ١٣٦) باختصار وتصرف.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٣٧) وما بعدها.

حكم الصبر

سبق أن ذكرنا أن الصبر ذكر في القرآن في بِضْعَة وتسعين موضعًا بتصاريف من الخطاب عديدة، تدل بمجموعها على وجوبه، **منها**:

١ ـ **الأمر به**؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٢ ـ **النهي عن ضِدِّه**، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

٣ ـ **الأمر بالاستعانة به**، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

٤ ـ **الثناء على أهله**، كقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

٥ ـ **إيجابه محبته لهم**؛ كقوله جلَّ ثَنَاؤه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٦ ـ **إيجابه معِيّته لهم**؛ كقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

٧ ـ **إخباره بأن الصبر خَيْرٌ لأصحابه**؛ كقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: ٢٥][1].

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصَّبْر واجب على المؤمن حَتْم، وفي الصبر خير كثير، فإن الله أمر به، ووعد عليه جزيل الأجر»[2]. اهـ.

وقد ذكر طائفة من أهل العلم أن الصبر مستحبّ أو أنه مسْنون، وهم يقصدون بذلك أنه مشروع، أو أن بعض أنواعه مُسْتَحَبّ.

والتَّحْقِيق أن الصبر تجري عليه أحكام **التَّكْلِيف الخمسة**:

فتَارَة: **يكون الصبر واجبًا**؛ كالصبر على الواجبات، والصبر عن المحرَّمات، والصبر على المصائب التي لا صُنْع للعبد فيها؛ كالأمراض، والفقر، وفَقْد الأنفُس والأموال، وغير ذلك.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٣).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٣٦٧ ـ ٣٦٨).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر واجب ـ باتّفاق المسلمين ـ على أداء الواجبات، وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب»[١] .اهـ.

وتارة: **يكون مندوبًا**؛ كالصَّبْرِ عن المكروهات، والصَّبْر على المستحبات، فهذا صبر مندوب مستحبٌّ.

وتارة: **يكون محرمًا**؛ كالصبر على المحرَّمَات، وذلك كمَنْ يَصْبِر عن الطعام والشراب حتى يموت، أو يصبر على ما يهلكه؛ من سَبُع، أو حية، أو حريق، أو ماء وهو يستطيع دفع ذلك عنه ولا يفعل. وكذلك مَنْ جُرِحَ جراحة شديدة، فيمتنع عن التداوي بحجة الصبر، فهذا إن مات فهو قاتل لنفسه. وهكذا صَبْر أهل الفجور والمعاصي على ما يلقون في سبيل ذلك من الأذى والمشقَّات، ويدخل في ذلك: صبر الكافرين على كفرهم.

وتارة: **يكون مكروهًا**، كَمَنْ يَصْبِر عن الطعام والشراب حتى يتأذَّى بذلك، ويتَضَرَّر منه، وكمن يصبر على فعل المكروهات أو على تَرْكِ المستحبَّات.

وتارة: **يكون مباحًا**، وهو كل صبر على الأفعال المستوية الطرفين، التي خُيِّر فيها بين فِعْلها، وتَرْكها، والصبر عليها؛ كالذي يصبر على تجارته، وبيعه، وشرائه، وعمله، واكتسابه، وما أشبه ذلك.

وبالجملة، فالصبر على الواجب واجب، والصبر عن المُحَرَّم واجب، والصبر على المحرَّم حَرَام، والصبر على تَرْك الواجب محرَّم، والصبر عن المكروه مستحب، والصبر على فعل المكروه مكروه، والصبر على ترك المستحب مكروه، والصبر على المباح مباح[٢] .



(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩) (١١/ ٢٦٠).

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٦٩)، و«عدة الصابرين» (٥٤ ـ ٥٨).

شروط الصبر

لا بد من توافر شروط في الصبر حتى يُؤْجَر عليه العبد، والمشروط بشرط موقوف عليه، ويتأكَّد ذلك في تلك الأعمال الجليلة التي يصل بها أصحابها إلى المنازل السامية، وإلا فكيف يقال في حق عبدٍ يصبر لعِلَّة: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]؟!

الشرط الأول: الإخلاص:

فالصبر يشترك فيه الناس جميعًا، ولكن الذي يميز الصبر الشرعي عن غيره هو الدافع عليه، فالصبر المحمود في القرآن والسُّنَّة هو ما كان لله تعالى؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ٧]، وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد: ٢٢]، وهذا هو مقام الإخلاص الذي تنتفي عنده حظوظ النَّفْس، وتزول به شوائب الرياء.

الشرط الثاني: عدم شكوى الله إلى عباده:

فإنها تُنَافِي الصبر، وتُخْرِج العبد إلى السَّخَط والجَزَع.

وقد قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أَسَارِي، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لحمًا خَيْرًا مِنْ لحمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْعَمَلَ**»[1].

وقد قيلَ[2]:

وَإِذَا بُلِيتَ بِعُسْرَةٍ فَاصْبِرْ لَهَا ... صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْزَمُ

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩) واللفظ له، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٣٧٥)، وفي «الشعب» (٩٢٣٩، ٩٩٤٣)، وصحَّحه الحاكم، والبيهقي، والذهبي، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠١٦)، والسيوطي في «اللآلئ» (٢/ ٣٩٧)، والألباني في «الصحيحة» (٢٧٢).

* **تنبيه**: هذا الحديث عزاه ابن عمار الشهيد في «علل صحيح مسلم» (ص١١٧) إلى مسلم في «صحيحه»، وحكم بنكارته، وكذا ابن رجب في «شرح العلل» (٢/ ٧٦٨)، ولكن قال البيهقي: «قد نظرت في صحيح مسلم فلم أجده فيه، ولا ذَكَره أبو مسعود في تعليقه»، وأجاب السيوطي في «اللآلئ»، فقال: «فكان في صحيح مسلم في غير الرواية المشهورة؛ فإنه روايات متعددة»، راجع: «النكت الظراف» (١٠/ ٣٠١)، و«إتحاف المهرة» (١٥/ ٤٦٨).

(٢) «الكشكول» (١/ ٥٧).

لَا تَشْكُوَنَّ إِلَى الخَلَائِقِ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

الشرط الثالث: أن يكون في أَوَانِهِ:

فالصبر المحمود المأجور عليه صاحبه هو ما كان في أوانه، أمَّا إذا فات الأوان فلا جدوى منه.

وهذا ما حكاه الله ﷻ عن صَبْرِ أهْلِ النار: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقال ﷻ: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٦].

وعن أنس رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ بامرأة تَبْكِي عند قبر، فقال: «**اتَّقِي اللهَ واصْبِرِي**»، قالت: إِلَيْكَ عَنِّي! فإنك لم تُصَب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «**إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولَى**»[(١)].



(١) أخرجه البخاري (١٢٨٣) واللفظ له، ومسلم (٩٢٦).

مجالات الصبر

للصبر مجالات كثيرة في حياتنا، **فَمِنْ ذَلِكَ**:

١ ـ ضبط النَّفْس عن السَّأم والمَلَل عند القيام بالأعمال التي تتطلَّب الصبر والمثابرة خلال مدة مناسبة، قد يراها المُسْتعجل مدة طويلة، وهذا للأسف يفقده الكثيرون، ولا سيما في الأعمال التطوّعية، حيث يبدأ الإنسان مُنْدَفِعًا مُتَحَمِّسًا، يريد أن يُقَدِّم، ويبذل، ثم ما يلبث أن يَضِيق صدره، وتركبه المَلَالَة، حتى يُعْرِض عن أداء العمل المطلوب.

ولذلك؛ فينبغي للإنسان ألا يدخل في أمرٍ حتى يعرف من نَفْسه أن له فيه نية، وأنه قادر على القيام به على الوجه المطلوب، وأنه يستطيع الاستمرار فيه حتى تمامه، فإن كان هذا العمل يحتاج إلى أعوانٍ؛ فليبحث عمَّن يُعِينه على القيام به على الوجه اللائق.

٢ ـ ضبط النَّفْس عن الضَّجَر، والجَزَع عند حلول المصائب والمكاره.

٣ ـ ضبط النَّفْس عن العَجَلة والرُّعونة عند العمل على تحقيق مطلب من المطالب المادية أو المعنوية.

٤ ـ ضبط النَّفْس عن الغضب والطَّيْش حينما تنبعث عوامل الغضب في النَّفَس، ومُحَرِّضات الإرادة للاندفاع بطَيْش لا حكمة فيه، ولا اتّزان في القول أو في العمل.

٥ ـ ضبط النَّفْس عن الخوف عند توفر مُثِيرات الخوف في ا لنَّفْس، حتى لا يَجْبُن الإنسان في المواضع التي تَحْسُن فيها الشجاعة، وتكون خيرًا، ويَقْبُح فيها الجُبْن، ويكون شرًّا.

٦ ـ ضبط النَّفْس عن الطَّمَع عند حصول مثيرات الطَّمَع، حتى لا يندفع الإنسان وراءه، فيقع في أمور يقْبُح فيها.

٧ ـ ضبط النَّفْس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها.

٨ ـ ضبط النَّفْس لتتحمّل المتاعب والمشاقّ، والآلام الجسديَّة والنَّفْسِيَّة، كلَّما كان في هذا التحمّل خير عاجل أو آجل(١).

والمقصود: أن «الصَّبْر ـ كما قيل ـ هو زاد الطريق في هذه الدعوة، إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء.

(١) انظر: «نضرة النعيم» (٦/ ٢٤٧١ ـ ٢٤٧٢).

الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النَّفْس ورغائبها وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعَجَلَتِها وملالها من قريب.

والصبر على شهوات الناس، ونقصهم وضعفهم، وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم وغرورهم والتوائهم، واستعجالهم للثمار.

والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة وتصعير الغرور والخيلاء.

والصبر على قلة الناصر، وضَعْف المُعين، وطول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكَرْب والضِّيق.

والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النَّفْس من انفعالات متنوعة؛ من الأَلَم، والغَيظ، والحَنَق، والضِّيق، وضَعْف الثِّقة أحيانًا في الخير، وقِلَّة الرجاء أحيانًا في الفطرة البشرية، والمَلَل، والسَّأم، واليأس أحيانًا، والقنوط.

والصبر بعد ذلك كله على ضبط النَّفْس، في ساعة القدرة، والانتصار، والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خُيَلاء، وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القِصَاص الحق إلى الاعتداء، والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، وردّ الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع.

والصبر على هذا كله وعلى مثله مما يُصَادِفُ السالك في هذا الطريق الطويل لا تصوّره حقيقة الكلمات، فالكلمات لا تنقل المَدْلول الحقيقي لهذه المعاناة، إنما يُدرك هذا المدلول مَن عانى مَشَقَّات الطريق، وتذوقها انفعالات وتجارِب ومرارات»[(١)].

«ومن الصبر المحمود: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوّة، وأعوز نيْله من مسرة مأمولة؛ فإن الصبر عنها يُعْقب السُّلُوّ منها، والأَسَف بعد اليأس خَرَق...

ومن جميل الصبر: الصبر فيما يُخْشَى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها، فلا يتعجَّل همّ ما لم يأت؛ فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من الخوف مدفوع...

ومن جميل الصبر: الصبر على ما نزل من مكروه، أو حلَّ من أمر مخُوف، فبالصبر في هذا تنْفَتِح وجوه الآراء، وتُسْتَدفع مكائد الأعداء، فإنَّ مَنْ قَلَّ صبْرُهُ عزب رأيه، واشتد جَزَعه، فصار صريع همومه، وفريسة غمومه»[(٢)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام سيد قطب في «الظلال» (١/ ٥٥١ ـ ٥٥٢).

(٢) ما بين الأقواس من كلام الماوردي في «أدب الدنيا والدين» (ص٤٥٤ ـ ٤٥٦) مع زيادة يسيرة.

إنما الصبر عند الصدمة الأولى

تقدم قريبًا حديث أنس رضي الله عنه في قوله ﷺ للمرأة: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «والمعنى: إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مُقْتضيات الجَزَع؛ فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتَّب عليه الأجر.

وأصل الصَّدْم: ضرب الشيء الصَّلْب بمثله، فاسْتُعِير للمصيبة الواردة على القلب.
قال الخطابي: «المعنى: أنَّ الصَّبْرَ الذي يُحْمَدُ عليه صاحبه ما كان عن مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك، فإنه على الأيام يَسْلو».

وحكى الخطابي عن غَيْرِهِ أنَّ المرء لا يؤجر على المصيبة؛ لأنها ليست من صنعه، وإنما يؤجر على حُسْنِ تثبّته، وجميل صبره»[(٢)]. اهـ.

وقال ابن القَيِّم رحمه الله: «إن مفاجآت المصيبة بغتة لها رَوعة تُزَعزع القلب، وتُزْعِجُه بصدمها، فإنْ صَبَر عند الصدمة الأولى انكسر حَدّها، وضعُفَت قوَّتُها، فهان عليه استدامة الصبر، وأيضًا فإن المصيبة تَرِدُ عَلَى القَلْبِ وهو غير مُوَطّن لها، فتزْعِجُه، وهي الصدمة الأولى، وأمَّا إذا وردت عليه بعد ذلك تَوَطَّن لها، وعَلِم أنه لا بد له منها، فيصير صبره شبيهَ الاضطرار.

قال أبو عبيد ـ القاسم بن سلام[(٣)] ـ: «معناه أن كل ذي رَزِيَّة فإنَّ قصاراه الصبر، ولكنه إنما يُحْمَد على صبره عند حِدَّة المصيبة وحرارتها»[(٤)]. اهـ.



(١) تقدم تخريجه.
(٢) «فتح الباري» (٣/ ١٧٩).
(٣) وهو في «الأمثال» لأبي عبيد (ص١٦٢).
(٤) «عدة الصابرين» (ص١٣٧ ـ ١٣٨).

الصبر لا يكفي وحده

لا بُدَّ مع الصبر من اليقين؛ فإن الصبر من غير يقين لا يكتمل، ولا يصل به العبد إلى المطلوب، قال زُهير بن نُعَيم: «إن هذا الأمر لا يتم إلا بشيئين: الصبر واليقين؛ فإن كان يقين ولم يكن معه صبر لم يتم، وإن كان صبر ولم يكن معه يقين لم يتم»[(١)].

والله ﷻ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].



(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٤٧).

مراتب الصبر

إن مما يُعْلَم بالضرورة أن الناس ليسوا في الصبر على درجة واحدة، ولكنهم يتفاوتون فيه باعتبارات متعدَّدة، **ومن تلك الاعتبارات**:

أولًا: حال الإنسان:

فيختلف حال الإنسان في صبره باعتبار مقدار تماسُكِهِ أو جزعه، وأحسن الناس حالًا من رَضِيَ بِمَقْدُورِ الله، فلم يغيّر ما أصابه من حالِهِ.

وعن يونس بن يزيد قال: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن: ما منتهى الصبر؟ قال: «أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه»[١].

وعن قيس بن الحجاج في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: ٥] قال: «يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدْرَى مَنْ هُوَ»[٢].

مَلَكْتُ دُمُوعَ الْعَيْنِ ثُمَّ رَدَدْتُهَا ... إِلَى نَاظِرِي فَالْعَيْنُ فِي الْقَلْبِ تَدْمَعُ[٣]

ثانيًا: قوة الدَّاعِي:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مشقة الصبر بِحَسَب قوة الداعي إلى الفِعْل وسهولته على العبد، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشقّ شيء على الصابر... ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم، وصبر الشاب عن الفاحشة، وصبر الغنيّ عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان...

ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني، والمَلِك الكذاب، والفقير المختال أشَدّ العقوبة، لسهولة الصَّبْر عن هذه الأشياء المحرَّمَات عليهم؛ لضعف دواعيها في حَقِّهِمْ، فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلًا على تَمَرُّدِهِمْ على الله، وعتوِّهم عليه؛ ولهذا كان الصبر عن معاصي اللِّسان والفرْج من أصعب أنواع الصبر»[٤].اهـ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) واللفظ له.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١١٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٩/ ٣٧٦).
(٣) «شعب الإيمان» (٩٧٢٣).
(٤) «عدة الصابرين» (ص١٢٥ ـ ١٢٦).

ثالثًا: الصبر الاختياري:

جعل صاحب المنازل الصبر على البلاء أفضل من الصبر على الطاعة وعن المعصية[(١)].

وخالفه غيره؛ **يقول ميمون بن مهران**: «الصبر صبران: الصبر على المصيبة حَسَن، وأفضل من ذلك الصبر عن المعصية»[(٢)].

وقد تقدم معنا قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل مِنْ صَبْرِهِ على إلقاء إخوته له في الجبّ، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمور جرَتْ عليه بغير اختياره، لا كَسْب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صَبْره عن المعصية، فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنَّفْس»[(٣)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد عرفت بما تقدَّم أَنَّ الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره، كما ذكرنا في صبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن الصبر فيها صبر اختيار وإيثار ومحبة، والصبر على أحكامه الكونية صبر ضرورة، وبينهما من البَون ما قد عرفت، وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على ما نالهم في الله باختيارهم وفِعْلهم ومقاومتهم قومهم أكمل منَّا صبرًا.

وبالجملة؛ فالصبر لله أكمل من الصبر بالله، والصبر على طاعته، والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره»[(٤)]. اهـ.

وقال أيضًا: «والمقصود أنه سبحانه أَمَرَ رَسُولَهُ أن يصبر صبر أُولِي العَزْمِ، الذين صبروا لحُكْمه اختيارًا، وهذا أكمل الصبر؛ ولهذا دَارَتْ قِصَّة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء، حتى رَدوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحُكْمِ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلَامُه عليهم أجمعين»[(٥)]. اهـ.

رابعًا: داعي الصبر وباعثه:

فمِنْ دَوَاعِي الصبر عن المعصية مُطَالَعَةُ الوَعِيد، إبقاءً على الإيمان، وحَذَرًا من الحرام، وأحْسَن من ذلك: الصبر عن المعصية حياءً من الله تعالى[(٦)].

---

(١) انظر: «المدارج» (٢/ ١٦٦).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٦٩) بتصرُّف، وقد مضى الكلام على ذلك بشيء من التفصيل.
(٥) «عدة الصابرين» (ص٦٣).
(٦) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كان الحَيَاءُ مِنْ شِيَم الأَشْرَاف وأهل الكرم والنفوس الزَّكِيَّة؛ كان صاحبه أحسن حالًا من أهل الخوف؛ ولأن في الحياء من الله ما يَدُلُّ على مراقبته، وحضور القلب معه؛ ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخَوْفِ، فمَنْ وَازِعُهُ الخوف قلبه حاضر مع العقوبة، ومَنْ وَازِعُهُ الحياء قلبه حاضر مع الله. والخائف مُرَاعٍ جانب نَفْسه وحمايتها، والمستحي مُرَاعٍ جانب رَبِّهِ، وملاحظٌ عَظَمَته. وكِلَا المقَامَيْنِ من مقامات أهل الإيمان، غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان وألْصَق به؛ إذ أنزل نَفْسه منزلة من كأنَّه يرى الله، فنَبَعَتْ يَنَابِيع الحياء مِنْ عين قلبه، وتَفَجَّرَتْ عيونها»(١). اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأحسن من ذلك: أن يكون الباعث عليه وازع الحب، فيترك معصيته محبَّة له»(٢). اهـ.

خامسًا: بالنظر إلى الفعل ومصلحته:

اعتبر صاحب «المنازل» أن الصبر على فِعْل الطاعة أكمل من الصبر عن المعصية، وأقرّه ابن القيم على ذلك، وعلَّلَهُ: بـ«أنَّ تَرْكَ المعصية إنَّمَا كان لتكميل الطاعة، والنهي مقصودٌ للأمر»(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر على أداء الطاعات أكْمَل من الصبر على اجتناب المحرَّمات وأفضل؛ فإنَّ مَصْلَحَةَ فِعْل الطاعة أحبّ إلى الشارع مِنْ مَصْلَحَةِ تَرْك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية»(٤).

سادسًا: باعتبار ارتباطه بالله تعالى:

ذكر صاحب «المنازل» أن أضعف منازل الصبر: الصبر لله؛ أي: رجاء ثوابه وخوف عقابه. وفوقه: الصبر بالله؛ أي: بقوته ومعُونَتِهِ. وفوقهما: الصبر على أحكام الله الجارية على العبد، الجالِبَة عليه ما جَلَبَت من محبوب ومكروه(٥).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصواب أن الصَّبْرَ لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجة منه وأجل؛ فإن الصَّبْرَ لله مُتَعَلِّق بإلٰهيَّتِهِ، والصبر به مُتَعَلِّق بربوبيته، وما تعلّق بإلٰهيَّتِهِ أكمل وأعلى مما تعلَّق بربوبيته.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٦٥).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٦٤).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦).
(٤) نقله ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧).
(٥) انظر: «منازل السائرين» (ص٥٠ ـ ٥١).

ولأن الصبر له عبادة، والصبر به استعانة، والعبادة غاية، والاستعانة وسيلة، والغاية مُرادة لنفسها، والوسيلة مُرادة لغيرها.

ولأن الصبر به مُشْتَرك بين المؤمن والكافر، والبَرّ والفاجر، فكل من شَهِد الحقِيقَةَ الكونية صبر بها، وأمَّا الصبر له فمنزلة الرُّسُل والأنبياء والصدِّيقين...

ولأن الصبر له صبر فيما هو حق له، محبوب له، مرضيّ له، والصبر به قد يكون في ذلك، وقد يكون فيما هو مسخوط له، وقد يكون في مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟!»[1]. اهـ.

وأما الصبر على أحكام الله ـ وهو الذي يسمّونه بالصبر على الله ـ فهو الصبر على أحكامه الدِّينيَّة والكونية، فهو يرجع إلى الصبر على أوامره[2]، والصبر على ابتلائه، فليس في الحقيقة قِسْمًا ثالثًا[3].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا عن مراتب الصبر: «المراتب أربعة:**

إحداها: مرتبة الكمال، وهي مرتبة أُولِي العَزْم، وهي الصبر لله وبالله، فيكون في صبره مُبتغيًا وجه الله، صابرًا به، مُتَبَرِّئًا من حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ، فهذا أقْوَى المراتب، وأرفعها، وأفْضَلها.

الثانية: ألا يكون فيه لا هذا ولا هذا، فهو أخَسّ المَرَاتِب وأَرْدَأ الخَلْق...

الثالثة: مرتبة مَنْ فيه صَبْرٌ بالله، وهو مُستعينٌ مُتوكِّل على حَول الله وقوَّتِهِ، مُتبَرِّئ من حَول نَفْسه هو وقوته، ولكن صبره ليس لله؛ إذ ليس صبره فيما هو مُراد الله الديني منه، فهذا ينال مطلوبه، ويظفر به، ولكن لا عاقبة له، ورُبَّما كانت عاقبته شر العواقب...

الرابعة: من فيه صبر لله، لكنه ضعيف النَّصيب من الصبر به، والتوكّل عليه، والثقة به، والاعتماد عليه، فهذا له عاقبة حميدة، ولكنه ضعيف، عاجز، مخذول في كثير من مطالبه؛ لضعف نصيبه من إياك نعبد وإياك نستعين، فنصيبه من الله أقوى من نصيبه

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ حيث ذكَّر سبحانه نبيَّه ﷺ لما أنعم عليه من تنزيل القرآن عليه بأن يصبر لحكمه، وهو يَعُم الحكم الديني الذي أمره به في نَفْسه، وأمره بتبليغه، والحكم الكوني الذي يجري عليه مِنْ رَبِّهِ؛ فإنه سبحانه امتحن عباده وابتلاهم بأمْرِهِ ونَهْيِهِ، وهو حكمه الديني، وابتلاهم بِقَضَائِهِ وقَدَرِهِ، وهو حُكْمُه الكوني، وفَرَضَ عليهم الصبر على كل واحد من الحكمين.

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٨٦).

بالله، فهذا حال المؤمن الضعيف، وصابر بالله لا لله حال الفاجر القوي، وصابر لله وبالله حال المؤمن القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، فصابر لله وبالله عزيز حميد، ومن ليس لله ولا بالله مذموم مخذول، ومن هو بالله لا لله قادر مذموم، ومن هو لله لا بالله عاجز محمود»[١]. اهـ.

سابعًا: من حيث قوته وضعفه:

وله في ذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون القَهْر والغَلَبة لداعي الدِّين، فيردّ جيش الهوى مغلوبًا، وهذا إِنَّمَا يَصِلُ إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه المرتبة هم الذين قالوا: ربنا الله، ثم استقاموا.

الثانية: أن تكون القُوَّة والغَلَبَةُ لِدَاعِي الهَوَى، فيُسْقِط مُنَازِعُه باعثَ الدين بالكلّية، فيستَسْلِم البَائِسُ للشَّيْطَان وجنده، فيقودونه حيث شاؤوا.

وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شِقْوَتُهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

الثالثة: أن تتنازعه القوّتان: قوة الدِّين وقوة الهوى، **فتارة:** يكون صاحب ديانة وصيانة، **وتارة:** يكون صاحب هوى. ثم هو مِنْ بعد لمن غلب عليه منهما[٢].



---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠) بتصرُّف يسير.
(٢) انظر: «عدة الصابرين» (ص٣٩ ـ ٤٢).

أنواع الصبر

أولًا: أقسام الصبر باعتبار مُتَعَلَّقه:

إذا نظرنا إلى الصبر باعتبار مُتَعَلَّقه فإن عامّة أهل العلم يجعلونه **ثلاثة أنواع**، مَنِ اسْتَكْمَلَها فقد استكمل الصبر.

الأول: الصبر على الطاعات:

وما أمر الله به من العبادات، وما يلحق النَّفْس في إقامتها من المشَقَّة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ العَبْدَ لا يكاد يفعل المأمور به إلا بعد صبر ومُصَابرة ومُجاهدة لعدوِّه الظاهر والباطن، فبِحَسَب هذا الصبر يكون أداؤه للمأمورات، وفِعْله للمستحبات»[١]. اهـ.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه: ١٣٢].

قال صاحب «المنازل»: «الصَّبْرُ عَلَى الطاعة بالمُحَافَظَةِ عليها دوامًا، وبرعايتها إخلاصًا، وبتحسينها عِلْمًا»[٢]. اهـ.

والصبر على الطاعة هو الثبات على أحكام الكتاب والسُّنَّة، وينقسم إلى «ثلاثة أحوال:

١ ـ حال قبل العبادة: وهو الإخلاص، وتصحيح النية، والصبر عن شوائب الرياء.

٢ ـ حال في نَفْس العبادة: وهو ألَّا يغفل عن الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن.

٣ ـ حال العبد بعد الفراغ من العبادة: وهو الصبر عن إفشاء العمل، والتظاهر به؛ لأجل الرياء والسُّمْعة، وعن كل ما يُبْطِل عمله، فمَنْ لَمْ يَصْبِرْ بعد الصَّدَقَةِ عَنِ المَنِّ وَالأَذَى أَبْطَلَها»[٣].

---

(١) «جامع المسائل» (١/ ١٦٦).

(٢) «منازل السائرين» (ص٥٠).

(٣) ما بين الأقواس من «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٤٥) باختصار وتصرف، وانظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٧٠).

ومن الصور الداخلة تحت الصبر على الطاعة[1]:

أ ـ الصبر على مشاق الدعوة إلى الله:

قال تعالى عن عَبْدِهِ لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر].

«**ويحتاج الداعي إلى الله الصبر في ثلاثة أحوال:**

١ ـ قبل الدعوة بتصحيح النيَّة والإخلاص، وتجنّب دَوَاعِي الرِّيَاء والسمعة، وعقد العزم على الوفاء بالواجب.

٢ ـ أثناء الدَّعْوَة، فيُلَازِمُ الصَّبر عن دواعي التقصير والتفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذِكْر النية، وعلى حضور القلب بين يدي الله تعالى، ولا ينساه في أمره.

٣ ـ بعد الدعوة، **وذلك من وجوه:**

ـ أن يُصَبِّر نَفْسه عن الإتيان بما يُبطل عمله، فليس الشأْن في الإتيان بالطاعة، وإنما الشأْن في حِفْظها مما يُبْطِلها.

ـ أن يصبر عن رؤيتها، والعُجْب بها، والتَّكبّر والتَّعظّم بها.

ـ أن يصبر على نقلها من ديوان السرّ إلى ديوان العلانية؛ فإنَّ العَبْدَ يَعْمَلُ العمل سِرًّا بينه وبين الله سبحانه، فيُكْتَب في ديوانه السِّر، فإن تحدث به نُقِلَ إلى ديوان العلانية»[2].

ب ـ الصبر حين البأس:

قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ج ـ الصبر في مجال العلاقات الإنسانية:

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

---

(١) انظر: «رفقاً بالقوارير» (٤٨٧ ـ ٤٨٨).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١١٨ ـ ١١٩) باختصار وتصرف.

وقـــال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

الثاني: الصبر عما نهى الله عنه من المحرمات والمعاصي، وقَمْع الشهوات ومجاهدة النَّفْس:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فإن النَّفْس ودواعيها، وتزيين الشيطان، وقرناء السوء تأمره بالمعصية، وتُجرِّئه عليها، فبِحَسَب قوّة الصبر يكون تَرْكه لها. قال بعض السلف: «أعمال البِرّ يفعلها البَرّ والفاجر، ولا يقدر على ترك المعاصي إلَّا صِدِّيق»[(١)]»[(٢)]. اهـ.

وهكذا الصبر عن مُشْتَهَيات النَّفْس:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٥﴾ [النساء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

الثالث: الصبر على المصائب المُؤْلمة، والكوارث المُفْجِعة، والابتلاء والامتحان:

وهي ـ كما يقول شيخ الإسلام ـ «**نوعان**:

نوع: لا اختيار للخَلْقِ فيه كالأمراض وغيرها من المصائب السماوية، فهذه يسْهل الصبر فيها؛ لأن العبد يشهد فيها قضاء الله وقَدَره، وأنه لا مَدْخل للناس فيها، فيصبر إما اضطرارًا وإما اختيارًا.

فإن فَتَح الله على قلبه باب الفِكْرة في فوائدها، وما في حَشْوها من النِّعم والألْطاف، انتقل من الصبر عليها إلى الشكر لها، والرِّضَا بها...

النوع الثاني: أن يحصل له بفعل الناس في ماله أو عِرْضه أو نَفْسه، فهذا النوع يصعب الصبر عليه جدًّا؛ لأن النَّفْس تسْتَشْعر المُؤْذي لها، وهي تكره الغَلَبَة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصدِّيقون.

وكان نبيِّنا ﷺ إذا أُوذِيَ يقول: «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى؛ لَقَدْ أوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٩٧، ٢١١) عن سهل التستري رَحِمَهُ اللهُ.
(٢) «جامع المسائل» (١/١٦٦).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأخبر عن نبيٍّ من الأنبياء أنه ضَرَبَهُ قومُهُ، فأَدْمَوْهُ، وهو يمْسَحُ الدَّمَ عن وجهه، ويقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»(١). وقد روي عنه ﷺ أنه جرى له هذا مع قومه، فجعل يقول مثل ذلك(٢). فجمع في هذا ثلاثة أمور: العفو عنهم، والاستغفار لهم، والاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون»(٣).اهـ.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإن كان العبد لا بد له من واحد من هذه الثلاثة؛ فالصبر لازم له أبدًا، لا خروج له عنه البتة»(٤).اهـ.

«فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث: فِعْل المأمور، وتَرْك المحظور، والصبر على المقدور، وقد ذكر سبحانه هذه الأُصول الثلاثة في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٢]، فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف»(٥).

وزاد بعضهم نوعًا رابعًا، وهو «الصبر على النِّعَم، وهو تقييدها بالشكر، وعدم الطغيان، وعدم التكبّر بها»(٦).

وقال بعضهم: «الصبر صبران: صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ، وصبر عما تحب»(٧).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر صَبْرَان: صبر عند الغضب، وصبر عند المصيبة، كما قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما تجرَّع عبْدٌ جُرْعة أعظم من جُرْعة حِلم عند الغضب، وجُرْعة صبر عند المصيبة»(٨).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٢٠/ ٥٦٩٤)، وصحَّحه ابن حبان (٩٧٣)، والألباني في «الصحيحة» (٧/ ٣١)، و«الضعيفة» (١٤/ ١١٩٢)، وراجع: كلام ابن حبان على هذا الحديث.
(٣) «جامع المسائل» (١/ ١٦٦ ـ ١٦٧). (٤) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٧).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٥٠) باختصار وتصرف.
(٦) ذكره ابن جزي في «التسهيل» (١/ ٦٥)، وانظر: «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٦١).
(٧) «شرح نهج البلاغة» (١٨/ ١٨٩).
(٨) هذا الأثر لم أجده من قول الحسن، وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٨٩) ومن طريقه البيهقي في =

وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم، وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المُؤْلم... ولهذا جمع النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ؟**» قالوا: الرَّقُوب الذي لا يُولَدُ لَهُ. قال: «**لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ، وَلَكِن الرَّقُوب الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا**». ثم قال: «**مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟**» قلنا: الذي لا يَصْرَعُهُ الرِّجَال. فقال: «**لَيْسَ بِذَاك، وَلَكِنَّ الصُّرَعَة الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»[(١)].

فذكر ما يتضَمَّنُ الصَّبْرَ عند المصيبة، والصبر عند الغضب.

قال الله تعالى في المصيبة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]، وقال تعالى في الغضب: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥]. وهذا الجمع بين صبر المصيبة وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر المصيبة وصبر النِّعْمَة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩ ـ ١١]، وقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٣].

وكلتا النِّعْمَتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر، أما نعمة الضراء فاحتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السَّرَّاءِ فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، فإن فتنة السَّرَّاءِ أعْظَم من فتنة الضراء، كما قال بعض السلف: «ابْتُلِينَا بالضَّرَّاء فصبرنا، وابْتُلِينَا بالسَّرَّاء فلم نَصْبِر»[(٢)]...

والفقر يصلح عليه خلقٌ كثير، والغنى لا يصْلُحُ عليه إلّا أقلّ منهم؛ ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين؛ لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة، وفي الضراء الألم اشتهر ذِكْر الشكر في السراء، والصبر في الضراء، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ

= الآداب (١٦٧)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٧٢)، كلهم عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٦٤) من كلام عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه، وحسَّنه الترمذي، والألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٥٩٣).

لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩ ـ ١١]، ولأن صاحب السراء أَحْوَج إلى الشكر، وصاحب الضراء أَحْوَج إلى الصبر؛ فإن صبر هذا وشكر هذا واجب، إذا تَرَكه استحق العقاب.

وأما صبر صاحب السراء، فقد يكون مُسْتحبًّا إذا كان عن فضول الشهوات، وقد يكون واجبًا، ولكن لإتيانه بالشكر الذي هو حسنات يَغْفِر له ما يَغْفِر من سيئاته.

وكذلك صاحب الضراء، لا يكون الشُّكر في حقِّه مستحبًّا إذا كان شكرًا يصير به من السابقين المقرَّبين. وقد يكون تقصيره في الشكر مما يُغْفَر له، لما يأتي به من الصبر؛ فإن اجتماع الشكر والصبر جميعًا يكون مع تألم النَّفْس وتَلَذُّذِها، يصبر على الألم، ويشكر على النِّعم»[(١)]. اهـ.

ثانيًا: أقسام الصبر باعتبار ما يُوصَف به من الحَمْد والذَّم:

«ينقسم الصبر بالنظر إلى ما يوصف به من الحَمْد أو الذَّم إلى قسمين: **قِسْم مذموم، وقِسْم ممدوح؛ فالمذموم: الصبر عن الله، وإرادته، ومحبته، وسَيْر القلب إليه؛ فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية، وتفويت ما خُلق له، وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظَمُه وأبلغه؛ فإنَّهُ لا صبر أبْلَغ مِن صَبْر مَن يَصْبر عن مَحْبوبه الذي لا حياة له بدونه البتة، كما أنه لا زُهْدَ أبْلَغ مِن زُهْد الزَّاهِد فيما أعد الله لأوليائه من كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر، فالزهد في هذا أعظم أنواع الزهد، كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعَجَّب لزهده: «ما رأيت أزهد منك! فقال: أنت أزهد مني؛ أنا زَهِدت في الدنيا، وهي لا بقاء لها ولا وفاء، وأنت زهدت في الآخرة؛ فمَن أزهد منا؟!»**[(٢)].

قال يحيى بن معاذ الرازي: «صبر المحبين أعجب من صبر الزاهدين، واعجبًا كيف يصبرون؟!».

وفي هذا قيل:

الصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا   إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يُحْمَدُ

وقيل: «الصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء»[(٣)].

وقد أجمع الناس على أن الصبر عن المحبوب غير محمود، فكيف إذا كان كمال

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ١٧١ ـ ٢٧٤)، مع «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٠٣ ـ ٣٠٦).

(٢) ذكره الصفدي في «الوافي بالوفيات» (٢٤/ ٦٠)، عن الفضيل رحمه الله.

(٣) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٨٠).

العبد وفلاحه في محبته؟!»[1].

«**الثاني**: الصبر المحمود الممدوح، وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالصبر بالله هو الاستعانة به، والصبر لله هو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرّب إليه.

والصبر مع الله هو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابرًا نَفْسه معها، سائرًا بسيرها، مقيمًا بإقامتها... وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين.

قال الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: «المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هَيِّن على المؤمن، وهُجْران الخَلْق في جنب الله شديد. والمسير من النَّفْس إلى الله صَعْب شديد، والصبر مع الله أشدّ»[2]»[3].

«وزاد بعضهم قِسْمًا آخر من أقسام الصبر وسَمَّاه: الصبر فيه، وهو غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة»[4].

وقال ابن عُيَيْنة رَحِمَهُ اللهُ: «في القرآن اثنان وثمانون موضعًا: الصبر محمود، وموضعان مذموم. قال: المذموم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]، ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ [ص: ٦]، أو قال: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥﴾ [البقرة: ١٧٥]»[5].

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «**الصبر ضَرْبان**: **أحدهما**: ضَرْب بدني، وهو إمَّا بالفِعْل، وإمَّا بالاحْتِمَال. **والضَّرْب الآخر**: الصَّبْر بالنَّفْس عن مُشْتَهيات الطَّبْع، ومقتضيات الهوى»[6]. اهـ.

وقد ذكر الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أن له **ثلاثة أحوال**[7]:

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٧٨) باختصار وتصرف يسير.
(٢) أخرجه القشيري في «رسالته» (٣٢٢) عن أبي عبد الرحمٰن بإسناده إلى الجنيد.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧) بتصرُّف واختصار، وانظر: «عدة الصابرين» (ص٨٧)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٥٨٥).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٨٧) بتصرُّف يسير.
(٥) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٠٣٣).
(٦) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٦٦ ـ ٦٧) باختصار وتصرف.
(٧) انظر: «عدة الصابرين» (ص٢٤ ـ ٢٧).

أحدها: أن يكون القهر والغَلَبة لداعي الدِّين.

الثاني: أن تكون القوة والغَلَبة لداعي الهوى.

الثالث: أن تتجاذبه القوَّتان، فهو للأغلب منهما.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا عرفت هذه الأقسام فَهِيَ مُخْتَصَّة بِنَوْعِ الإنْسَانِ دون البهائم، ومشاركة للبهائم في نوعين منها، وهما صبر البدن والنَّفْس الاضطراريين، وقد يكون بعضها أقوى صبرًا من الإنسان، وإنَّمَا يَتَمَيَّز الإنسان عنها بالنوعين الاختياريين، وكثير من الناس تكون قوة صبره في النوع الذي يشارك فيه البهائم، لا في النَّوْع الذي يخص الإنسان، فيُعَدّ صابرًا، وليس من الصابرين»[1]. اهـ.



(١) «عدة الصابرين» (ص٣٥).

مراتب الصبر

قال الفيروزآبادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مراتب الصبر خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبَّار»[(١)]. اهـ.

«**فالصابر**: أعمها، **والمصطبر**: المُكتسب الصبر المليء به، **والمُتصبّر**: المُتكلّف، حامل نَفْسه عليه، **والصبور**: العظيم الصبر، الذي صَبْره أشدّ مِنْ صَبْرِ غيره، **والصبَّار**: الكثير الصبر»[(٢)].

«وقيل: الصبر على ثلاثة مقامات مُرَتَّبَة بعضها فوق بعض، **فالأول**: هو **التَّصَبُّر**؛ وهو تحمّل مشقة، وتَجَرُّع غصّة، والثبات على ما يجري من الحكم، وهذا هو التصبّر لله.

والثاني: **الصبر**، وهو نوع سهولة، تخفّف عن المُبْتَلى بعض الثِّقل، وتُسَهِّل عليه صعوبة المُراد، وهو الصبر لله.

والثالث: **الاصطبار**، وهو التلذّذ بالبلوى، والاستبشار باختيار المولى، وهذا هو الصبر على الله، وهو صبر العارفين... والاصطبار افْتِعَالٌ مِنَ الصبر، وهو مُشْعِر بزيادة المعنى على الصبر؛ كأنه صار سجيَّة وملَكَة... وإذا عُلِمَ هَذَا فالتَّلَذّذ بِالْبَلْوَى، والاستبشار باختيار الله سبحانه لا يخصّ الاصطبار، بل يكون مع الصبر، ومع التصبّر، ولكنه لما كان الاصطبار أبلغ من الصبر وأقوى؛ كان بهذا التلَذّذ والاستبشار أَوْلَى، والله أعلم»[(٣)].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]:

قال بعضهم: «معنى ذلك: اصبروا على دينكم، وصابروا الكفار»[(٤)].

وهذا يُرْوَى عن الحسن[(٥)] ونحوه عن قتادة؛ حيث عبَّر عن ذلك بقوله: «اصبروا على طاعة الله، وصابروا أهل الضلالة»[(٦)].

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٧٨).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٨).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٨٧) باختصار وتصرف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٥٠١).

(٥) المصدر السابق (٧/ ٥٠١ ـ ٥٠٢).

(٦) المصدر السابق (٧/ ٥٠٢).

وقيل: «اصبروا على الجهاد، وصابروا عدوّكم»، وهذا مرْوِيٌّ عن زيد بن أسلم[١].

وقيل: «اصبروا على دينكم، وصابروا لوعدي الذي وعدتكم»، وهذا مروِيٌّ عن محمَّدِ بن كَعْب[٢].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قيل في قوله تعالى**: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾: إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فالصبر دون المُصابرة، والمُصابرة دون المُرابطة...

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله...

وقيل: اصبروا في الله، وصابروا بالله...

وقيل: اصبروا على النّعماء، وصابروا على البأساء والضَّرَّاء...

فالصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوِّك»[٣]. اهـ.

«وقد يَصْبر، ويُصَابِر، ويرابط من غير تعبُّد بالتَّقْوَى، فأَخْبَرَ سُبْحَانَه أن مِلَاك ذلك كله: التَّقْوَى، وأن الفلاح موقوف عليها، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٨٩﴾ [البقرة: ١٨٩]»[٤].



(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٥٠٣) واللفظ له، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٤٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٥٠٣)، وابن المنذر في «تفسيره» (١٢٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٤٧).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٩).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٣٤).

أقسام الناس في الصبر

يمكن أن نُجْمِل ذلك في أربعة أقسام[(١)]:

الأول: من يشهد الأمر الكوني؛ يعني: القضاء، والقدر، والحقيقة الكونية، دون أن يشهد الأمر الشرعي؛ أي: الحقيقة الشرعية، وهذا حال كثير ممَّنْ قَدْ يَصْبِرُون على ألوان البلايا والآلام والمصائب، إلَّا أنَّهُم لا يقفون عند أمر الله الشرعي، فلا يقفون عند حدود الحلال والحرام، ولا يفعلون ما أمرهم الله تبارك وتعالى به، لكنهم قد يتجلّدون، ويصبرون، ويتحمَّلُون كثيرًا، ولكنّ تحمّلهم هذا إنما هو في الأمور التي لا اختيار لهم فيها، فهؤلاء لا يُفَرِّقُون في حقيقة الأمر بين ما يُحِبّه الله ﷻ وبين ما يسخطه.

الثاني: مَنْ يَشْهَدُونَ الأمر الشرعي دون الأمر الكوني عكس أولئك... وهؤلاء هم ضعفاء أهل الإيمان، قد تجد الرجل مُصَلّيًا، صائمًا، ذاكرًا، عابدًا، ولكنه إذا وقع في مَكْرُوه، أو أصابته مصيبة، فهو في غاية الجَزَع، لا يتحمَّل، ولا يصبر، وسَرْعان ما ينكسر، ويَتَضَعْضَع، وربما انقلب على وجهه كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١]، وهذا حال كثير من الناس، يكون الرجل صاحب عبادة، ولكن لا صبر له على المصائب، والآلام، والأمور المكروهة، فهؤلاء ليسوا من أهل الاستطاعة، ولا من أهل الثبات والصبر، وإنْ كانت لهم طاعة.

الثالث: مَنْ لا صَبْرَ له على القضاء، وليس له صبر أيضًا على الطاعة، وهو أسوأ الأقسام ـ نسأل الله العافية ـ، لا يعبد الله ﷻ، ولا يتقَرَّب إليه، ولَا يصبر على إقامة عبوديته، ولا يصبر عن شهوات النَّفْس ومحبوباتها، ومع ذلك هو جَزِعٌ، هَلِعٌ، بعيد عن الصبر غاية البُعْدِ.

الرابع: وهو أعلى هذه الأقسام، وهم مَنْ جَمَعُوا بين الصبر على مُرِّ القضاء وبين الصبر على الطاعة وعن المعصية، فهؤلاء هم المؤمنون حقًّا، شهدوا أمر الله الشَّرْعِيّ، والحقيقة الشرعية، وشَهِدُوا أيضًا الأمر الكوني، فجمعوا بين الصبرَيْنِ؛ فهؤلاء هم

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦٨ ـ ٦٧٣).

عباد الله المتّقون، وهذا يُعلم بالاستقراء والتَّتبّع لأصناف الناس، فإنهم لا يخرجون عن هذه الأقسام الأربعة. وقد قسَّمَهُمْ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ باعتبار التقوى والصبر إلى أربعة أقسام، وهي في الواقع تعود إلى ما ذُكِر(١).

وهؤلاء الذين لا صبر لهم ولا تَقْوى هم الذين ذكرهم الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

فقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: لا يصبر على المصائب، وهذا هو الأمر الكوني.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾؛ أي: لا يفعل ما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ من إخراج زكاة المال والصدقات، وهذا هو الأمر الديني، وهؤلاء في حال التمكّن من أشد الناس عُتُوًّا وجبروتًا وظلمًا للعباد، وفي حال الانكسار تجدهم أذَلَّ الناس، وأكثر الناس جَزَعًا وهَلَعًا وضعفًا، وهذه شَرّ أوصاف العبد.

والكامل مَنْ كَانَ لله أطْوَع، وعلى ما يُصِيبُهُ أصْبَر، فكُلَّمَا كان العبد أكثر اتِّبَاعًا لما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ به، وأعظم اجتنابًا لما نهاهُ الله عَزَّ وَجَلَّ عنه، وأعظم صبرًا على الأقدار؛ كان أعظم تحقيقًا للإيمان، وتكميلًا للنَّفْس، ورِفْعة في الدرجات؛ فإن نَقَص منه شيء مِنْ هَذِه الأوصاف نقصت مرتبته. والناس في هذا يتفاوتون؛ فمنهم من تكون قُوَّةُ صَبْرِهِ على فِعْل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى مِنْ صَبْرِهِ عما يضرّه، فيصبر على مشقَّة الطَّاعَةِ، ولا صبر له على داعي هواه إلى ارتكاب ما نُهِيَ عنه؛ ومنهم مَنْ لَا صبر له على هذا ولا ذاك. وأفضل الناس أصبرهم على النَّوْعَيْنِ.

وهذه قضايا للتربية فيها مدخل كبير، وتأثير عظيم بليغ، وعلى العاقل أن يُعَوِّل على الصبر في أمره كلّه، فلا سبيل له إلى جَلْب ما ينفعه، أو دَفْع ما يضرّه إلا بالصبر.



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٧٣ ـ ٦٧٤)، و«دقائق التفسير» (٢/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).

مراتب الناس حال المصيبة

الناس حال المصيبة على مراتب أربع[(١)]:

الأولى: التَّسَخُّط، وذلك قد يكون بالقلب، كأن يسخط على ربه، ويغْضَب على قَدَرِهِ، وقد يُؤَدِّي به إلى الكفر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

وقد يكون باللّسان؛ كالدعاء بالوَيْلِ والثّبور، وما أشبه ذلك.

وقد يكون بالجوارح؛ كَلَطْمِ الخُدُودِ، وشَقِّ الجُيُوبِ، ونَتْفِ الشعور، وما أشبه ذلك.

الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر[(٢)]:

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه، ويكرهه، لكنه يتحمله، ويصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا، ولكن إيمانه يحميه من السَّخَط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره، وإنْ كان قد يحزن من المصيبة، فهو إن أُصيب بنعمة أو أصيب بضدِّها فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميّت، بل لتمام رضاه بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة، فيكون في عباد الله الشاكرين، فيرى الواحد منهم أن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته، وقد قال النبي ﷺ: «**مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»[(٣)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما طُعِنَ حَرَام بن مِلْحان ـ وكان خاله ـ يوم بئر

---

(١) انظر: «مغني المريد» (٢٢٨٠ ـ ٢٢٨١).

(٢) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤١) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومن حديث عائشة رضي الله عنها (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

معونة، قال بالدم هكذا، فنَضَحَه على وجهه ورأسه، ثم قال: «فزْتُ وَرَبِّ الكعبة»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فوضعت يدي عليه، فوجدتُ حَرَّه بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله! ما أشدها عليك؟ قال: «**إِنَّا كَذَلِكَ، يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ**»، قلتُ: يَا رسول الله! أَيُّ النَّاس أَشَدُّ بلاءً؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ**»، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: «**ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ**»[(٢)].

وخطب معاذ بن جبل رضي الله عنه، فذكر الطاعون، فقال: «إنها رحمة الله ربكم، ودعوة نبيكم ﷺ، وقَبْض الصالحين قبلكم، اللَّهُمَّ أدخل على آل معاذ نصيبهم من هذه الرَّحمة»[(٣)].



(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٣٠٧)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (١٤٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٩٦) و(٥/ ٢٤٠، ٢٤١) من طرق عن معاذ رضي الله عنه، وقد جوَّد إسناده المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢٢١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤٠٢)، وراجع: «بذل الماعون» للحافظ ابن حجر (ص٢٥٩ ـ ٢٦٢).

ما ينافي الصبر وما لا ينافيه

أولًا: الشكوى:

«الشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الصَّبر؛ فإن نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وعد بالصبر الجميل، والنبي إذا وَعَد لا يُخلِف، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وكذلك أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر الله عنه أنه وجده صابرًا مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: ٨٣]»[1]، فعُلِم أن العبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر عنه فإن ذلك لا يقدح في صبره، وقد عُرِّفَ الصَّبْرُ بأنه ترك الشكوى من ألَمِ البَلْوَى لِغَيْر الله.

«فإعراض العبد عن الشكوى إلى غير الله جملة، وجَعْل الشكوى إليه وحده سبحانه هو الصبر، والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه، وتضرّعه، ودعاءه. وقد ذم سبحانه من لم يتضرَّع إليه، ولم يستكن له وقت البلاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾ [المؤمنون: ٧٦]، والعبد أضعف من أن يتجلَّد على رَبِّه، والرب تعالى لم يُرِدْ مِنْ عَبْدِهِ أن يتجلَّدَ علَيْه، بل أراد منه أن يستكين له، ويتضرَّعَ إِلَيْهِ، وهو تعالى يمقت مَنْ يَشْكُوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه»[2]. وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إليه.

وقد قيل[3]:

وإذَا عَرَتْكَ بَلِيَّةٌ فَاصْبِرْ لهَا ... صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ
وَإِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا ... تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

وقد قال شقيق البلخي: «مَنْ شكا مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا»[4].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٦١) بتصرُّف.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٦٣) بتصرُّف.
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦١).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ١٤٤).

وقال أبو علي الدقّاق: «الصبر حَدّه ألَّا تعترض على التقدير»[(١)].

فأما إظهار البلاء على غير وَجْهِ الشَّكْوَى، فإنه لا ينافي الصبر؛ «فالشَّكْوَى نوعان: الشكوى إلى الله، فهذا لا ينافي الصبر، والثاني: شكوى المبْتلى بِلِسَان الحال أو المقال»[(٢)]، فهذه فيها تفصيل، وقد تقدَّم الكلام على ذلك، **وخلاصة القول في ذلك أن المراتب أربع**:

الأولى: ألَّا يشكو إلَّا إِلَى الله، وهذه أعلى المَرَاتِب.

الثانية: أن يذكر عِلَّته، ويصفها عند مَنْ يَرْجُو عنده الدواء؛ كشَكْوَى المريض إلى الطبيب، فمثل هذا جائز.

الثالثة: ما يُذْكَر من ذلك على سبيل الإخبار لا الشكاية. وهذا جائز أيضًا، وقد يكون تَرْكه أوْلَى إلا لمصلحة أو حاجة.

الرابعة: ما يُذكَر منه على سبيل التشكِّي، وعدَم الصبر على أقدار الله. وقد يكون ذلك بلسان الحال لا المقال، وكل ذلك من قِلَّة العقل، وضَعْف الإرادة.

وأما ما ورد في الباب مما يُوهِم خلاف ما ذكرنا، فليس على ما يتوهّمه المُتَوَهِّم، فمِنْ ذلك أن النبي ﷺ لما سمع عائشة رضي الله عنها تقول: وا رأساه، قال: «**بَلْ أَنَا وا رَأْسَاهُ**»[(٣)]. ومن اعتبر هذه الجملة في سياقها من الحديث أدرك ما يتعلق بذلك من المصلحة.

وهكذا قوله ﷺ: «**أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»[(٤)].

وقوله عليه الصلاة والسلام في مرض موته: «**إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**»[(٥)].

وقوله: «**يَا عَائِشَةُ! مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**»[(٦)].

ومنه قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه للنبي ﷺ: إني قد بلغ بي الوَجَع، وأنا ذو مال، ولا يَرِثُنِي إلا ابنة... الحديث[(٧)].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٢٧).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٢٤ ـ ٢٥) باختصار وتصرف.
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٦٦).
(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).
(٥) أخرجه البخاري (٤٤٤٩).
(٦) أخرجه البخاري (٤٤٢٨).
(٧) أخرجه البخاري (١٢٩٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

فهذا ونحوه إنما هو على سبيل الإخبار، لا على سبيل الشكاية والتسخُّط، وهذا مما يُعْلَم، ولا يخفى.

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ **في «صحيحه»**: «باب قول المريض: إني وَجِع، أو وا رأساه، أو اشتد بي الوجع. وقول أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]».

ثم أورد تحته الحديثين السابقين، وحديث كعب بن عُجْرَة لما قال له النبي ﷺ: «**أَيُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟**». قال: نعم. وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال للنبي ﷺ: إنك لتوعك وعكًا شديدًا! قال: «**أَجَلْ، كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قلتُ: لعلّ البخاري أشار إلى أن مُطْلَق الشكوى لا يُمنَع، ردًّا على من زعم من الصوفية أن الدعاء بكشْف البلاء يَقْدَح في الرضا والتسليم! فنبَّه على أن الطلب من الله ليس ممنوعًا، بل فيه زيادة عبادة لما ثبت مثل ذلك عن المعصوم، وأثنى الله عليه بذلك، وأثبت له اسم الصبر مع ذلك...

فكأن مُراد البخاري أن الذي يجوز من شَكْوى المريض ما كان على طريق الطَّلَب من الله، أو على غير طريق التَّسَخُّط للقَدَر والتَّضَجُّر، والله أعلم.

قال القرطبي: «اختلف الناس في هذا الباب، والتحقيق أن الأَلَم لا يقدر أحد على رفعه، والنفوس مَجْبُولة على وِجْدَان ذلك، فلا يُسْتَطاع تغييرها عما جُبِلَت عليه، وإنما كُلِّف العبد ألَّا يقع منه في حال المصيبة ما له سبيل إلى تَرْكه؛ كالمبالغة في التَّأَوُّه والجَزَع الزائد، كأنّ مَن فَعَل ذلك خَرَج عن معاني أهل الصبر، وأما مُجَرّد التَّشَكِّي فليس مذمومًا، حتى يحصل التَّسَخُّط للمقدور، وقد اتفقوا على كراهة شكوى العبد ربه، وشكواه إنما هو ذِكْره للناس على سبيل التَّضَجُّر، والله أعلم». اهـ.

وروى أحمد في «الزهد» عن طاوس أنه قال: «أنين المريض شكوى»(١). وجزم أبو الطيب، وابن الصَّبَّاغ، وجماعة من الشافعية أن أنين المريض، وتَأَوُّهَه مكروه، وتَعَقَّبَه النووي فقال: «هذا ضعيف، أو باطل؛ فإن المكروه ما ثبت فيه نهي مقصود، وهذا لم يثبت فيه ذلك»، ثم احتج بحديث عائشة في الباب، ثم قال: «فلعلهم أرادوا بالكراهة خلاف الأولى؛ فإنه لا شك أن اشتغاله بالذكر أولى»(٢). اهـ.

---

(١) لم أقف عليه في كتاب «الزهد»، ولكن قد أخرجه أبو نعيم وغيره، وهو في «سيرة الإمام أحمد» لابنه صالح، وقد تقدم تخريجه: «أنه ذُكِرَ عند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لمَّا كان في مرض الموت ـ عن طاوس أنَّه كان يكره الأنين، فلم يَئِنّ حَتّى مَاتَ».

(٢) انظر: «المجموع» (٥/ ١١٢).

ولعلهم أخذوه بالمعنى؛ من كون كَثْرة الشكوى تدل على ضَعْف اليقين، وتُشْعِر بالتَّسخط للقضاء، وتُورِث شماتة الأعداء.

وأما إخبار المريض صديقه أو طبيبه عن حاله فلا بأس به اتفاقًا...

وفيه ـ أي: حديث عائشة ﵂ ـ أن ذِكْر الوَجَع ليس بشكاية، فكم من ساكت وهو ساخط؟! وكم من شاك وهو راض؟! فالمُعَوَّل في ذلك على عمل القلب، لا على نُطْق اللسان»[(١)]. اهـ.

ثانيًا: الجَزَع:

«والصبر والجَزَع ضِدَّان؛ ولهذا يُقَابَل أحدهما بالآخر، قال تعالى عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

والجَزَع قرين العَجْز وشقيقه، والصبر قرين الكَيْس ومادته»[(٢)].

وقال أحمد بن حمدون عن أبيه: «لا يجزع من المصيبة إلا مَن اتَّهَمَ رَبَّه»[(٣)].

وقال عمر بن عبد العزيز ﵀: «ليس الجَزَع بمُحْيي مَنْ مَاتَ، ولا برادٍّ مَا فات»[(٤)].

وقال عبيد بن عُمَيْر ﵀: «ليس الجَزَع أن تدْمَعَ العَيْن ويحْزَنَ القلب، ولكن الجزَع القول السيِّئ، والظن السيِّئ»[(٥)].

ولما مات أبو الحسين بن عبد العزيز الجروي قيل لأمه: تَعَزّي، فقالت: «مصيبتي أعْظَم مِنْ أَنْ أُفْسِدها بجَزَع»[(٦)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١]، فالجزع عند ورود المصيبة يضادّ الصبر، والمَنْع عند ورود النعمة يضادّ الشكر.

ثالثًا: البكاء والحزن[(٧)]:

مذهب أحمد وأبي حنيفة[(٨)] جواز البكاء على الميت، قبل الموت وبعده، وكرهه

(١) «فتح الباري» (١٠/ ١٣١).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٢٥).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣١).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الاعتبار» (١٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ١٠٨).
(٥) «عدة الصابرين» (١٨٦ ـ ١٨٧).
(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٧٢٠).
(٧) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٨٩ ـ ١٩٤).
(٨) انظر: «بدائع الصنائع» (١/ ٣١٠)، و«الإنصاف» (٦/ ٢٧٩).

الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت، ورخّصوا فيه قبل خروج الروح[(١)]، **واحتجوا بما يلي:**

١ ـ عن جابر بن عَتِيك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت، فوجده قد غُلِبَ، فصاح به رسول الله ﷺ، فلم يُجِبْهُ، فاسْتَرْجَع رسول الله ﷺ، وقال: «**غُلِبْنَا عليك يا أبا الرَّبيع!**»، فصاح النسوة، وبكَيْن، فجعل ابن عَتِيك يسكّتهن، فقال رسول الله ﷺ: «**دَعْهُنَّ، فَإِذَا وَجَبَ فَلَا تَبْكِيَنَّ بَاكِيَةٌ**»، قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟! قال: «**الْمَوْت**»[(٢)].

٢ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**»[(٣)].

٣ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مَرَّ بِنِسَاءِ عبد الأَشْهل يبكين هَلْكَاهُنَّ يوم أُحُد، فقال رسول الله ﷺ: «**لَكِنَّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ**»، فجاء نساء الأنصار يبكين حمزة، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فقال: «**وَيْحَهُنَّ، مَا انْقَلَبْنَ بَعْدُ، مُرُوهُنَّ فَلْيَنْقَلِبْنَ، وَلَا يَبْكِينَ عَلَى هَالِكٍ بَعْدَ الْيَوْمِ**»[(٤)].

قالوا: وهذا صريح في نَسْخ الإباحة المتقدِّمة، والفرق بين ما قبل الموت وبعده: أنه قبل الموت يُرْجَى، فيكون البكاء عليه حَذرًا، فإذا مات انقَطَع الرجاء، وأُبْرِمَ القَضَاء، فلا ينفع البكاء.

واحتجَّ المُجَوِّزون بما يلي:

١ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما قُتِل أبي جعلتُ أكْشف الثوب عن وجهه أبكي، وينهوني عنه، والنبي ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «**تَبْكِينَ أَوْ لَا تَبْكِينَ، مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ**»[(٥)].

٢ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا بِحُزْنِ**

---

(١) انظر: «الأم» للشافعي (١/ ٣١٨ ـ ٣١٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣١١١) واللفظ له، والنسائي (١٨٤٦)، وفي سنده اختلاف يسير لا يضر، كما في «الإصابة» (١/ ٢١٥)، ولذا صحَّحه ابن حبان (٣١٨٩، ٣٩٠)، والحاكم (١/ ٣٥٢)، والذهبي، والألباني في «صحيح الموارد» (١٣٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٥٩١)، وصحَّحه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٥/ ٤٥٢)، وأحمد شاكر في التعليق على «المسند» (٥٥٦٣، ٥٦٦٦)، والألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٣٠٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٢٠): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) أخرجه البخاري (١٢٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٤٧١).

الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا ـ وأشار إلى لسانه ـ **أَوْ يَرْحَمُ**»[(١)].

٣ ـ عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ إذ جاءه رسول إحدى بناته، يدعوه إلى ابنها في الموت، فقال النبي ﷺ: «**ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»، فأعادت الرسول أنها قد أقسَمَت لتأتينّها، فقام النبي ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، فدفع الصبي إليه ونَفْسه تَقَعْقَع كأنها في شَنّ، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله! ما هذا؟ قال: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[(٢)].

٤ ـ عن عائشة رضي الله عنها، أن سعد بن معاذ لما مات رضي الله عنه حَضَرَهُ رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، قالت: «فوالذي نَفْس محمَّد بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَعْرِفُ بُكَاءَ عُمَرَ من بكاء أبي بكر، وأنا في حجرتي»[(٣)].

٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «زار النبي ﷺ قَبْرَ أمِّه، فبَكى، وأبْكى مَنْ حَوْلَه»[(٤)].

٦ ـ وعن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيّ ﷺ قبَّل عُثْمَان بن مظعون وهو ميت، وهو يبكي[(٥)].

فهذه الأدلة وغيرها تدل على عدم كراهة البكاء، فتعيَّن حَمْل أحاديث النهي على البكاء الذي معه نَدْب ونياحة؛ ولهذا جاء في بعض ألفاظ حديث عمر رضي الله عنه: «**الميّت يُعَذَّب فِيْ قبره بما نِيحَ عليه**»[(٦)]، وفي بعضها: «**إن الميت يُعَذَّب ببعض بكاء أهله عليه**»[(٧)].

وأمَّا دَعْوَى النسخ في حديث حمزة رضي الله عنه فلا يصحّ؛ إذ معناه: لا يبكينّ على هالك

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٤) واللفظ له، ومسلم (٩٢٣).
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٤١ ـ ١٤٢)، وصحَّحه ابن حبان (٧٠٢٨)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ١٩١)، وحسَّنه ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٥١)، والألباني في «الصحيحة» (٦٧).
(٤) أخرجه مسلم (٩٧٦).
(٥) أخرجه أبو داود (٣١٦٣)، والترمذي (٩٨٩)، وابن ماجه (١٤٥٦)، وصحَّحه الترمذي، والحاكم(١/ ٣٦١) (٣/ ١٩٠)، والذهبي، وابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٩٣)، وأما الشيخ الألباني رحمه الله فقد ضَعَّفَهُ في «الإرواء» (٦٩٣)، ثم عاد وحسَّنه في «صحيح ابن ماجه» (١٢٠٠)، ثم انتهى أمره إلى تضعيفه في «الضعيفة» (١٣/ ٢٨)، والله أعلم.
(٦) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧).
(٧) أخرجه البخاري (١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٨).

بعد اليوم مِنْ قَتْلَى أُحُد، ويدل على ذلك أن نصوص الإباحة أكثرها متأخِّرة عن غزوة أُحد، وقولهم: إنما جاز قبل الموت حَذرًا، بخلاف ما بعد الموت، فجَوَابُهُ: أن البَاكِي قبل الموت يبكي حُزْنًا، وحزنه بعد الموت أشد، فهو أوْلَى بِرُخْصَة البكاء من الحالة التي يُرْجَى فيها، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، والْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[(١)].

رابعًا: الندب والنياحة:

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع العلماء على أنَّ النّياحة لا تجوز للرِّجَال، وَلَا للنساء»[(٢)]. اهـ.

«**وقال بعض المتأخّرين من أصحاب أحمد**: يُكرَه تنزيهًا[(٣)]، والصواب القول بالتحريم»[(٤)]، وعلى ذلك أدلة كثيرة، **مِنْهَا**:

١ ـ عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**»[(٥)].

٢ ـ عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أنا بريء مما بَرِئَ مِنْهُ رسول الله ﷺ؛ فإن رسول الله ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَة، والحَالِقَة، والشَّاقّة»[(٦)].

٣ ـ عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَنْ نِيحَ عَلَيْهِ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ**»[(٧)].

٤ ـ وعن أُمِّ عطيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أخَذَ عَلَيْنَا النبي ﷺ عند البيعة ألَّا نَنُوح»[(٨)].

٥ ـ وعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**».

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) «الاستذكار» (٨/ ٣١٤).
(٣) «الهداية» للكلوذاني (ص١٢٤).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٩٥) باختصار وتصرف، وانظر: «الإنصاف» (٦/ ٢٨٠)، و«الفروع» (٣/ ٤٠٢).
(٥) أخرجه البخاري (١٢٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٠٣).
(٦) ذكره البخاري تعليقًا (١٢٩٦)، وأخرجه مسلم (١٠٤).
(٧) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣).
(٨) أخرجه البخاري (١٣٠٦) واللفظ له، ومسلم (٩٣٦).

وقال: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**»[(١)].

وكيف لا تكون هذه الخصال مُحَرَّمة وهي مُشْتملة على التَّسَخّط على الرَّبِّ، وفِعْل ما يُنَاقِض الصبر، والإضرار بالنَّفْس مِنْ لَطْمِ الوَجه، وحلْق الشعر، ونَتْفه، والدعاء عليها بالويل والثبور، والتظلّم من الله سبحانه، وإتلاف المال بشقِّ الثياب وتمزيقها، وذكر الميت بما ليس فيه؟! ولا رَيْبَ أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا.

وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صِدْقًا، لا على وجه النَّوح والتَّسَخط فلا تُحَرّم، ولا تنافي الصبر الواجب.

فعن أنس ﵁ قال: لمَّا ثَقُلَ النبي ﷺ جعل يتغشَّاه، فقالت فاطمة ﵆: وا كَرْبَ أَبَاهُ! فقال لها: «**لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ**»، فلما مات قالت: يا أبتاه! أجاب رَبًّا دعاه، يا أبتاه! مَنْ جَنَّة الفردوس مأواه، يا أبتاه! إلى جبريل نَنْعَاهُ[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «يُسْتَفَادُ من الحديث جواز التوجُّع للميت عند احتضاره بمثل قَوْلِ فاطِمَةَ ﵂: «وا كَرْبَ أباه»، وأنه ليس من النياحة؛ لأنه ﷺ أقَرَّهَا على ذلك. وأما قولها بعد أن قُبِضَ: «وا أبتاه»... إلخ فيؤخذ منه أن تلك الألفاظ إذا كان الميت متَّصِفًا بها لا يُمْنع ذِكْره لها بعد موته، بخلاف ما إذا كانت فيه ظاهرًا، وهو في الباطن بخلافه، أو لا يتحقَّق اتصافه بها، فيدخل في المنع»[(٣)]. اهـ.

وقد قال النبي ﷺ: «**وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[(٤)].

فهذا ونحوه من القول الذي ليس فيه تظلّم للمقدور، ولا تسخّط على الرَّبِّ، ولا إسخاط له، فهو كمجرّد البكاء[(٥)].



(١) أخرجه مسلم (٩٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٢).
(٣) «فتح الباري» (٧/ ٧٥٦ ـ ٧٥٨).
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) انظر: «عدة الصابرين» (٢٠٠ ـ ٢٠١).

الطريق إلى تحقيق الصبر

والطريق إلى تحقيق الصبر والتحلي به يتأتى بأمور، منها[(١)]:

الأول: **أن يتذكَّر الإنسان أن الله قد ارتضى له هذا الأمر، واختارَهُ له**، وأَنَّ العبودية الحقَّة تقتضي أن يرضى بما رَضِيَ الله ﷻ له، فلا يَتَبَرَّم، ولا يتسخَّط، ولا يَنْدب حظّه، ولا يشكو ربَّه، ولا يجزع مما قَدَّرَه الله عليه.

الثاني: **أن يتذكَّر العبد أن الذي ابتلاه بهذا هو أرحم الراحمين، وهو أحكم الحاكمين**، فهو أرحم به من نَفْسه، وإن كان نقص، وإن كان فَقْد، وإن كان عيب: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

الثالث: «**أن يعلم أنَّ هَذِه المصيبة هي دواءٌ نافع، ساقَهُ إليه الطبيب العليم بمصلحته**، الرحيم به، فلْيَصْبِرْ على تجرُّعِهِ، ولا يتقيّأه بتَسَخّطه وشكواه، فيَذْهَب نفعه باطلًا»[(٢)].

الرابع: **التذكر جيّدًا، بأن هذه الأمور المكروهات التي تقع إِنَّمَا هي بسبب الذنوب والتقصير**، والله يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، فيكون شُغْل العبد ـ بدلًا من الجَزَع والتفكير في المصيبة ـ التفكير في أسباب المصيبة، وهي التي جَرَّهَا العبد على نَفْسه؛ فإِنَّ مِنْ حُسْنِ العقل في ذلك أن يكون التفكير بالتقصير، ومعرفة الذنوب التي أوْجَبَت له مثل هذه المصيبة، فيتدارك ذلك، ويرجع إلى الله ﷻ، وتكون هذه المصيبة سببًا لتصحيح مساره، وتقويم سلوكه، وتهذيب نَفْسه، وإصلاح قلبه، بدلًا من أن يَرْجِع على نَفْسه باللَّوْمِ على أُمور قَدْ فاتت، لا يُجْدِي التلوّم عليها، وكما قيل: «لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب، ولا يُكْشَف إلا بتوبة»[(٣)].

الخامس: **أن يشهد حَقَّ الله عليه في هذه المصيبة**، وهو الصبر، فحقّ الله علينا في البلية والمصيبة هو الصبر، فنَحْنُ مأمورون بأداء هذا الحق لله ﷻ، وإذا كان الله تعالى قد قَدَّرَ المصيبة وأمر بالصَّبْرِ، فقد وعد على الصبر بحُسْن الجزاء وأحسن العطاء،

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (١/ ٦٠٠ ـ ٦٠١).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٠١).

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٧٢٧) عن العباس رضي الله عنه.

فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، وعلى المؤمن إذا وقع به ما يكره أن يتذكر قولَ المؤمنين لما رأوا الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وأجود ما قيل في تفسير الآية والله تعالى أعلم: «أن المؤمنين لما رأوا الأحزاب يُطَوّقون المدينة تذكَّروا ما وعد الله به من الابتلاء والاختبار والامتحان، الذي يعقبه النصر القريب.

قال ابن عباس وقتادة رضي الله عنهم: «يعنون قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟...﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]؛ ولذلك قال: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾؛ أي: ذلك الحال والضِّيق والشدة ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾»[1].

السادس: **أن يعلم الإنسان أن هذه قضية مقدَّرة ثابتة لا بُدَّ من وقوعها**، وأن الله عز وجل قد كَتَبَ مَا للإِنْسَانِ وهو في بطن أمه أيضًا، حينما بعَث إليه المَلَك، فأمَرَهُ بأرْبَع كلمات: بكتب أجله، ورزقه، وعمله، وشقيٌّ أم سعيدٌ، فهذه الأشياء التي تقع للإنسان لا بد من حصولها، فلا يُقَال: لو أنه لم يسافر هذه الساعة لما حصل كذا، ولو أنه ما فعل كذا لما كان كذا.. فذلك لا يجدي؛ فإن هذا أمر لا بُدَّ أن يقع، ولكن لو أَنَّهُ قال ذلك يستدرك على نَفْسه ويراجعها، لا على سبيل التحسّر والتسخّط لم يضرّه، فلا بأس أن يستفيد الإنسان من أخطائه، وأن يراجع عمله، هذَا لا إشكال فيه. لكن إن كان على سبيل التحسّر فلا؛ لأنَّ هَذَا قَدَر لا بد من وقوعه، فالجَزَعُ لَا يزيد المُتَسَخِّط إلا بَلاءً، نسأل الله العافية، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْقَلَمُ، فَأَمَرَهُ فَكَتَبَ كُلَّ شَيْءٍ يَكُونُ**»[2].

فالعاقل لا يجزع من أمرٍ قد فُرِغ منه، فمَا قدَّرَهُ الله عز وجل فلا بد من وقوعه وتحقّقِهِ، ولو اجتمع الخلق جميعًا على دفْعِهِ لا يمكن أن يدفعوه.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٠)، و«تفسير البغوي» (٦/ ٣٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٥٧، ١٧/ ١٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه الدَّارِمِي في «الرد على الجهمية» (٢٥٣)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١٠٨) واللفظ له، وعبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» (٨٥٤)، والبَيْهَقِيّ في «الكبرى» (٩/ ٣)، وغيرهم، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٣٣). وفي الباب عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩)، والحديث حسَّنه ابن المديني ـ فيما نقله ابن حجر في «النكت الظراف» (٤/ ٢٦١) ـ والألباني في «ظلال الجنة» (١٠٢) وما بعدها، والله أعلم. وفي الباب عن أبي هريرة، وابن عمر رضي الله عنهم.

كما ثبت من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»[١].

وقال أبو حاتم ابن حبان رحمه الله: «الواجب على العاقل أن يُوقِن أن الأشياء كلها قد فُرِغ منها، فمنها ما هو كائن لا محالة، وما لا يكون فلا حِيلة للخلق في تكوينه، فإن دَفَعَه الوقت إلى حال شِدَّة فيجب أن يتَّزِر بإزار له طرفان؛ أحدهما: الصبر، والآخر: الرضا؛ ليستوفي كمال الأجر بفِعْله ذلك، فكم مِنْ شِدَّةٍ قد صعبت، وتعذَّرَ زَوَالهَا على العالَم بأَسْرِه، ثم فَرَّج عنها المُسَهِّل في أقل من لحظة...

وعن أبي الحجاج الأزدي، قال: «سألنا سلمان: ما الإيمان بالقدر؟ قال: إذا علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»...

هَوِّن عَلَى نَفْسِكَ مِنْ سَعْيِهَا ... فَلَيْسَ مَا قُدِّرَ مَرْدُودُ
وَارْضَ بِحُكْمِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ... كُلُّ قَضَاءِ اللَّهِ مَحْمُودُ

... ولمَّا حاصر الحجَّاجُ ابنَ الزبير في مكة، وكان الحجَّاج يَضْرِبُ بالمَنْجَنِيق الحائط، فقيل للزبير: لا نأْمَنُ عليك أن يصيبك منها حجر، فقال:

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الأُمُورَ ... بِكَفِّ الإِلَهِ مَقَادِيرُهَا
فَلَيْسَ بِآتِيكَ مَنْهِيُّهَا ... وَلَا قَاصِرٌ عَنْكَ مَأْمُورُهَا»[٢]

وقال شُرَيح القاضي رحمه الله: «ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم ممَّا كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت»[٣].

السابع: **أن يتذكر أن الجَزَعَ كما أنه لا يرد الفائت فإنه يُسرّ الشَّامِت**. وقد قال بعض العقلاء لبنيه ينصحهم: «إياكم والجَزَع عند المصائب؛ فإنه مجْلَبَة للهَمِّ، وسوء ظَنٍّ بِالرَّبِّ، وشَمَاتة للعدوّ»[٤].

فإذا علم العاقل ذلك دعاه ذلك إلى الصبر، والرضا بالمقدور.

«ثامنًا: **أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصِّحَّة وزوال الألم ما**

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «روضة العقلاء» (ص١٥٧ ـ ١٥٨) بتصرُّف.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٤١ ـ ٤٢).
(٤) «العقد الفريد» (٣/ ٩٧).

لا يحصل بدونه، فإذا طالعت نَفْسُه كراهة هذا الداء ومرارته فلينظُرْ إلى عاقبته وحُسْن تأثيره.

قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء: ١٩].

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ[١]

فقد يكون هذا الأمر المكْرُوه كلَسْعَةِ الكَيِّ التي يكون بعدها الشِّفَاء بإذن الله ﷻ، والعِبْرَةُ بِالنِّهَايَاتِ.

التاسع: أن يعلم الإنسان أن المصيبة ما جاءت لتُهْلِكَهُ وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبيّن عند ذلك مَنْ يصلح للعبودية ومَنْ لا يصلح لها، ويتبيّن مَنْ هُمْ أولياء الله ﷻ ومَنْ هم الذين لا يصلحون لولايته، فالله يجتبي أهل الولاية والصبر والرّضا والشكر، ويَخْلع عليهم خِلَعَ الإكرام، ويُدْنِيهم، ويُلْبسهم ملابس الفضل، ويكونون من أهل قربه، وأما الذي يجْزَع، ويَنْقَلِبُ على وجْهِهِ، ويَنْكُص على عَقِبَيْه؛ فإنه يُطْرد، ويُصْفَع قَفاه، ويُقْصَى، وتَتَضَاعَف عليه المصيبة وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بِأَنَّ المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أنَّ المصيبة في حَقِّهِ صَارَت نِعَمًا عديدة، وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، فيَحْتَاجُ إلى تشجيع القَلْبِ تلك الساعة؛ ليتجاوز هذا الضيق، ثم بعد ذلك يصيرُ إلى سعَة وعافية، والله المستعان.

العاشر: أنْ يعلم أنَّ الله ﷻ يُرَبِّي عِبَادَهُ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والنِّعْمَة والبَلَاءِ، فيستخرج منهم عبوديَّته في جميع الأحوال؛ عبودية في حال السَّرَّاءِ، وعبوديَّة في حال الضرَّاء. والعَبْدُ على الحقيقة هو مَنْ قَام بعبودية الله ﷻ في الأحوال كلها، وأمَّا عَبْد السراء والعافية؛ الذي يعبد الله على حَرْف، فإنْ أَصَابَهُ خير اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجْهِهِ؛ فليس من عباد الله الذين اختارهم لعبوديَّتِهِ.

فلا رَيْبَ أنَّ الإيمان الذي يثبت على محلّ الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، فالابتلاء كِيْر العبد، ومحكُّ إيمانه، فإمَّا أن يخْرِج بعد الابتلاء تِبْرًا أحمر، وإمَّا أن يخرج زَغَلًا مَحْضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان: ذَهَبِيَّة ونُحَاسِيَّة»[٢]؛ فلا يَزَالُ

---

(١) «ديوان المتنبي» (ص٣٧٤) مع «العرف الطيب».

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (ص٦٠١ ـ ٦٠٣) بتصرُّف.

البلاء به شيئًا فَشَيْئًا، مرّةً بعد مَرّةً، حتى يخرج ما به من دَخَل، ويَبْقَى ذهبًا خالصًا، يُنقيه الله ﷻ، فيردّ إلى الآخرة وليس عليه ذنب، قد صحّ إيمانه، وصَلحَ عمله، وهُذِّبَ ونُقِّيَ[(١)].

الحادي عشر: أن يعلم العبد حقيقة الدنيا، وأنها ظلٌّ زَائِل، ومتاعٌ قليل، وأنها سجنُ المؤمن، وجنَّة الكافر. إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سَرَّتْ يَوْمًا أساءَتْ دَهْرًا، وإن متَّعَت قَلِيلًا مَنَعَت طَويلًا.

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الْأَقْذَارِ وَالْأَكْدَارِ[(٢)]

ولو فتَّشْتَ العالَم لم تر فيهم إلا مبتلى: إما بفوات محبوبٍ، أو حصول مكروه، فسرور هذه الدنيا أحلامُ نائمٍ، وظِلٌّ زَائِل، وسَحَابُ صَيْفٍ. وَرَحِمَ الله الشافعي إذ يقول[(٣)]:

مِحَنُ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لَا تَنْقَضِي ... وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كَالْأَعْيَادِ

مَلَكَ الْأَكَابِرَ فَاسْتَرَقَّ رِقَابَهُمْ ... وَتَرَاهُ رِقًّا فِي يَدِ الْأَوْغَادِ

وقال الآخر[(٤)]:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا مَطِيَّةُ بُلْغَةٍ ... عَلَا رَاكِبُوهَا فَوْقَ أَعْوَجَ أَحْدَبَا

شَمُوسٌ مَتَى أَعْطَتْكَ طَوْعَ زِمَامِهَا ... فَكُنْ لِلْأَذَى مِنْ عَسْفِهَا مُتَرَقِّبَا

وقال أبو نواس[(٥)]:

الْمَرْءُ نَصْبُ مَصَائِبٍ لَا تَنْقَضِي ... حَتَّى يُوَارَى جِسْمُهُ فِي رَمْسِهِ

فَمُؤَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي أَهْلِهِ ... وَمُعَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي نَفْسِهِ

وقال أبو الطيب[(٦)]:

عَلَى ذَا مَضَى النَّاسُ اجْتِمَاعًا وَفُرْقَةً ... وَمَيْتٍ وَمَوْلُودٍ وَقَالٍ وَوَامِقِ

وقال لبيد بن أبي ربيعة[(٧)]:

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعٌ ... وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٨٨ ـ ٦٠٠) (٢/ ٦٠٠ ـ ٦٠٤).
(٢) هذا البيت لأبي الحسن التهامي، انظر: «الثبات عند الممات» (ص٢٦).
(٣) «ديوان الشافعي» (ص٤٧)، و«مناقب الإمام الشافعي» للبيهقي (٢/ ٩١).
(٤) «ديوان أبي نواس» (ص٥٩).
(٥) «الثبات عند الممات» (ص٢٩)، ونسبها ابن كثير لسيف الدولة في «تاريخه» (١٥/ ٣٥٣)، ولَعَلَّه قصد أنه قالها مُتَمَثِّلًا، وهي في «ديوان أبي فراس» (ص٧٥).
(٦) «ديوان المتنبي» (ص٩٣) مع «العرف الطيب».
(٧) «ديوان لبيد» (ص٨٩).

وقال أبو البقاء الرَّنْدِي[(١)]:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ ... فَلَا يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

فهذا أمر لا بد منه، فإذا أدرك العاقل ذلك هَانَ عليه ما يَلْقَى من المصائب؛ لأنه قَدْ رَوَّضَ نَفْسَهُ على لُقْيَاها، والمشكلة في كثير من الأحيان أن الإنسان ينسى، ويظن أنه يمكن أن يصفو له العيش وتندفع عنه المُكَدِّرات والمُنَغِّصات، وهذا أمر لا يتأتَّى إطلاقًا، ولكنَّ الإنسان لأنه لا يعرف إلا حال نَفْسه غالبًا، ويجهل ما يعانيه ويُكَابِدُه أكثر الناس؛ فإنه يتألّم كثيرًا ممَّا يصيبه، ولَوْ تَأَمَّل حال الناس لوَجَد البلاء لم يغادر أحدًا إلا بِحَظٍّ مِنْه.

الثاني عشر: تحقيق اليقين؛ فإن اليقين إذا كان ثابتًا راسخًا في قلب العبد، فإِنَّهُ يثبت في الشدائد، «ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئنّ به، ويتنعَّم به، ويغتذي به؛ وهو اليقين»[(٢)].

الثالث عشر: توجيه قوى النفس: «فالنفس فيها قوَّتَان: قوّة إِقْدَام، وقوة إحجام، وحَقِيقَةُ الصَّبْرِ: أن يجعل قوة الإقدام مَصْرُوفة إلى ما ينفعه، وأن يجعل قوَّة الإحجام إمساكًا عَمَّا يضرّه»[(٣)]، فهو لا يُقْدِمُ على فِعْل من الأفعال إلَّا إذا كان نافعًا، فلا يُقْدِم على الضَّجَر ولَطْم الخَدّ وشَقّ الجَيْبِ، وما إلى ذلك، وهو أمر لا يمكن أن ينفعه، لَكِنْ يجعل قوة الإقدام في الاسْتِرْجَاع وهو قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦]، وما أشبه ذلك من الأُمُورِ الَّتِي تزيده ثباتًا، ويجعل فِكْرَهُ مُتَوَجِّهًا إلى الأمور النافعة التي يَحْصُلُ بها طمأنينة القلب، لا أن يُفَكِّرُ في المصيبة مَرَّةً بعد مرة، وفي أمثال بعض الأمم كالصينيين يقول: «إِنَّكَ لَا تستطيع أن تمنع طيور الهَمِّ من أن تُحَلِّق فوْقَ رَأْسِكَ، لَكِنَّكَ تستطيع أن تمنعها مِنْ أَنْ تُعَشِّشَ فيه»، وهذا صحيح؛ فالأحزان لا بد أنْ تَرِدَ، لكن مِنَ الناس مَنْ يَدْفَعُ ذلك، ومنهم مَنْ يَجْعَل قَلْبَه مَحَلًّا لهذه الأحزان والآلام، وربما تتبَّعَ ذَلِكَ تتبُّعًا، وذلك إذا كان ليس له شُغْل إلا سماع الأخبار المُحْزِنَة، والحوادث المؤلمة، فمِثْل هذا متى يثبت قلبه؟!

الرابع عشر: تكلّف الصَّبْر، «فَإِذَا تَكَلَّفَه الإنسان واستدعاه صار سجيَّة له، كَمَا في

(١) «نفح الطيب» (٤/ ٤٨٧).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٥٣).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٢٦) بتصرُّف.

الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ»[(١)]، وهَكَذَا إذا تكَلَّفَ التَّعَفُّف صار عفيفًا، فالمُزَاوَلَات ـ كما قيل ـ تُعطِي المَلَكَات، فمَنْ زَاوَلَ شَيْئًا، واعْتَادَهُ، وتَمَرَّنَ عليه صار مَلَكَة له، وسجيَّة وطبيعة؛ ولهذا قيل: «العوائد تنقل الطبائع»، فَلَا يزال العبد يتكلَّف الصبر حتى يصير الصبر له سجيَّة، ولكن هذا النَّقْل قد يكون نَقْلًا ضعيفًا، فما يلبث أن يَزُولَ إِذَا وَاجَهَ أضداده، وقَدْ يَكُونُ النَّقْل متوسِّطًا في قُوَّتِهِ وثباته، وقَدْ يكون قويًّا ثابتًا فلا يَنْدَفِع، وإن وُجِدَت أضداد على أيِّ صورة كانت[(٢)]، فقد يكون الإنسان من طبعه قِلَّةُ الصَّبْرِ، ولكنه بالترويض والتصبّر وتكلّف تحمّل المشاق يوفّقه الله إلى الصبر والاحتمال، وبِتَعَوّد ذلك وممارسته يصل إلى الرضا بالمقدور، وهو فوق مجرّد الصَّبْر.

وقال لقيط بن زُرَارَةَ التَّمِيمِي[(٣)]:

لَا يَمْلأُ الهول صَدْرِي قَبْلَ وَقْعَتِهِ ... وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا
مَا سُدّ لِي مَطْلَعٌ ضَاقَتْ ثَنِيَّتُهُ ... إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَ الضِّيقِ مُتَّسَعَا

الخامس عشر: اللّجوء إلى الصَّلَاةِ والذِّكْرِ وقِيَام الليل: قال الله ﷻ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، قال ابن جريج: «إنهما معونتان على رحمة الله»[(٤)]. ولما بلغ ابن عباس نَبأ وفاة أخيه قُثَم وهو في سفر نزل، واسْتَرْجَع، وصلَّى، وَقَرأَ هذه الآية[(٥)].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٣ ـ ٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لمَّا كانَ لَا سبيل إلى الصبر إلَّا بِتَعْوِيضِ القلب بشيء هو أحبّ إليه مِنْ فَوَاتِ ما يصبر على فَوْته أمره بأن يذكر ربّه سبحانه بكرة وأصيلًا؛ فإنَّ ذِكْره أعظم العَوْن على تحمُّل مَشَاق الصَّبْر، وأن يصبر لرَبِّهِ بالليل، فيكون قيامه بالليل عَوْنًا على ما هو بِصَدَدِهِ بالنهار، ومادَّة لقوَّتِهِ ظاهرًا وباطنًا، ولنعيمه عاجلًا وآجلًا»[(٦)]. اهـ.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) انظر: «عدة الصابرين» (ص٣٢ ـ ٣٣).
(٣) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٥).
(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ١٥).
(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٩٨)، وابن جرير في «تفسيره» (١/ ٢٩٨) بسندٍ صحيح. كما قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على «تفسير الطبري» (٢/ ١٤).
(٦) «جامع الرسائل» (١/ ٧٥).

السادس عشر: **أن يستحضر أن هذه الشدَّة قد تكون سببًا لدفع ما هو أعظم.**

وهذا مما يتسَلَّى به كثير من العُقَلَاء إذا أصابتهم مصيبة، أو نزلت بهم معضلة.

فعن عثمان بن الهيثم قال: «كان رجل بالبصرة من بني سعد، وكان قائدًا من قوّاد عبيد الله بن زياد، فَسَقَط من السطح، فانكسرت رجلاه، فدخل عليه أبو قِلَابة يعوده، فقال له: أرجو أن يكون ذلك خيْرَةً!! فقال له: يا أبا قِلَابة! وأيّ خيْرَة في كسر رِجْلَيّ جميعًا؟ فقال: ما ستر الله عليك أكثر. فلمَّا كانَ بعد ثلاث وَرَد عليه كتاب ابن زياد يسأله أن يخرج، فيُقَاتِل الحسين بن علي ﵄، قال: فقال له: قد أصابني ما أصابني ـ قال ذلك للرسول ـ فمَا كان إلَّا سبعًا حتى وافى الخبرُ بقَتْل الحُسَيْن ﵄. فقال الرجل: رحم الله أبا قلابة، لقد صدق، إنه كان خيرةً لي»[(١)].

ويُذكَر أن مَلِكًا كان له وزير يذكر ربّه دائمًا، وكلما حصل شيء من الأمور السارَّة أو الأمور المكروهة بادر الوزير قائلًا: الخير فيما اختاره الله، فكان هذا دَأْبه دائمًا، فبينما هو على مائدة المَلِك إذ جُرِحَت إِصْبَع المَلِك، فقال: قد جُرِحْتُ، فقال ذلك على السَّجيَّة: الخير فيما اختاره الله، فغضب عليه الملك، وقال له: تَشْمتُ بي، وتفرح لمصابي؟! أوْدِعوه السجن، فقال: الخير فيما اختاره الله!! فازداد ذلك المَلِك غَيْظًا عليه، وكان من عادة هذا الملك أن يخرج للصيد، وكان الذي يخرج معه هو هذا الوزير، فلما كان هذا الوزير في السجن خرج الملك للصيد وحده، وبينما هو يَتْبع الصيد إذ خرج من حدود مملكته إلى أرض قوم يعبدون الأوثان، ويقرّبون لها القرابين، فأدركه بعضهم وهم لا يعرفونه، فأخذوه، ووضعوه عند صنمهم الكبير، ولما وضعوا السكّين على رقبته ليُقَدَّم قُرْبانًا لهذا الصنم صاح أحدهم، وأشار إليهم لا يذبحوه، وأشار إلى إِصْبَعه ـ يعني: أن هذا لا يصلح للقُرْبان؛ لأن به عيبًا ـ فأطلقوه، فقال: عرفتُ أن هذا الجُرْح كان سببًا لعتْق رقبتي من القتل، فرجع وهو مسرور، وقال: أخرجوا الوزير، فجاؤوا بالوزير، وقال: قد عرفتُ أن هذا الجرح في الإِصْبَع كان سببًا لعتق رقبتي، لكن أخبرني حينما قلتُ: أدخلوه السجن، قلتَ: الخير فيما اختاره الله، قال: من الذي يخرج معك عادة إلى الصَّيْد؟ قال: أنت أيها الوزير، قال: إذًا سأكون أنا القُربان لو كنت معك. فانظر كيف كان السجن سببًا لخلاصه، وحفظًا له من تقديمه قربانًا لصنم يُعْبَد من دون الله.

---

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٥١٨) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٢/ ٣٠٧).

وقد يطلب العبد أمرًا، ويُعِدّ له عُدّته، ويسعى له سَعْيه، حتى إذا كاد أن يُدْركه فاته، فيحزن، ثم يتبيّن له بعد حين أن الخير في فواته.

وقد يَخْطُب رجل امرأة، ثم يَصْرِف نظره عن ذلك، فتَحْزَن المرأة لذلك، وتَغْتَمّ، ثم تدرك بعد ذلك أنه لم يكن قط أهلًا لها.

وقد يهمّ أحدهم بالأمر مما يطلب تحصيله، ويصلي له الاستخارة، ثم يفوته، فيصيبه ما يصيبه من فواته. ولو أمْعَنَ النظر، وأحْسَنَ الظَّنَّ بالله لعلم أن فواته ربما كان خيرًا له من تحصيلِهِ. أليس يقول في استخارته ودعائه: «**وإنْ كُنتَ تعْلَمُ أنَّ هذا الأمْرَ شَرٌّ لي في دِيني ومَعَاشِي وعَاقِبَةِ أمْرِي؛ فاصْرِفْهُ عَنِّي، واصْرِفْنِي عَنْهُ، واقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثم رَضِّنِي بِهِ**»[(١)]؟

السابع عشر: **تهوين المصيبة**، ويكون ذلك بعدَّة أمور، منها:

١ ـ بذكر ما هو أعظم وأشد وأخْطر؛ فهذه امرأة من العابدات، كانت بالبصرة، كانت تُصَاب بالمصيبة العظيمة فلا تَجْزَع، فقيل لها ذلك، فقالت: «مَا أُصَابُ بمصيبة فأذْكُر معها النار إلا صَارَتْ في عيني أصغر من التراب»[(٢)].

٢ ـ أن نذكر مُصَابنا برسول الله ﷺ، وقد جاء في الحديث: «**إِذَا أُصِيبَ أَحَدُكُمْ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ المَصَائِبِ عِنْدَهُ**»[(٣)]، وقد كتب بعض العقلاء إلى أخ له يُعَزِّيه في ابن له يقال له: (محمد)، كتب إليه يقول[(٤)]:

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

وَإِذَا ذَكَرْتَ مُصِيبَةً تَشْجُو بِهَا ... فَاذْكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

٣ ـ أنها حيث وقعت لم تكن أعظم من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٦٩٥)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٢١٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٧١٨) من حديث سابط الجُمَحِي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢): «فيه أبو بردة عمرو بن يزيد، وثَّقَهُ ابن حبان، وضَعَّفَهُ غَيْره»، وحسَّنَ الحَافِظ إسناده في «الإصابة» (٢/ ٢)، لكنه قال: «اختلف فيه على علقمة». وفي الباب عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم موصولًا، وعن عطاء والقاسم ومكحول مرسلًا، ساقها الألباني في «الصحيحة» (١١٠٦)، وصحَّحه بمجموعها. راجع: «التمهيد» (١٩/ ٣٢٢)، و«الشعب» للبيهقي (٩٦٧٦ ـ ٩٦٧٨).

(٤) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٧٧١)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٧٩)، وانظر: «عيون الأخبار» (٣/ ٥٨ ـ ٥٩)، و«روضة العقلاء» (ص١٦٣).

قال شُرَيْح القاضي: «إنّي لأصاب بالمصيبة فأحْمَد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفَّقَنِي للاسترجاع لِمَا أرْجُو فيه من الثواب، وأحْمَدُه إذ لم يجعلها في ديني»[١].

ولذلك؛ كان رَحِمَهُ اللَّهُ في المصيبة هو الرجل؛ فعَنْ مُحَمَّدِ بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «مات ابن لِشُرَيْح، قال: فغَدَوْنَا ـ يعني: لنعزّيه ـ فإذا هو قاعِدٌ للقضاء»[٢].

وقد جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان من دعاء النبي ﷺ: «**وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا**»[٣].

وقال عبد العزيز بن أبي روَّاد: «رأيت في يد محمد بن واسع قُرْحَة، فكأنه رأى ما قد شق عليَّ منها. فقال لي: تدري ما عليّ في هذه القُرْحَة مِنْ نِعْمَة؟ قال: فسكَتُّ، قال: حيث لم يجعلها على حَدَقَتِي، ولا على طرف لساني، ولا على طرف ذَكَري، قال: فهانت عليّ قرحته»[٤].

٤ ـ النَّظَر في حال المُبْتَلِين بالمصائب من أمثاله.

تقول الخنساء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[٥]:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

فلما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تَسْلِية لمن شاركه في مصيبته؛ كان النَّظَر في أحوال المُبْتَلَين مما يُهَوِّن المصيبة على صاحبها؛ وَلِذَلِكَ فإن الموت والقتل في الحروب يكون أخفّ وَقْعًا مِنْ قَتْلِ وَاحدٍ في المدينة، يتسامع به الناس في أطرافها، وإذا كَثُرَ الموتى والقَتْلَى فإنَّ ذلك يُهَوِّن وقْعَ المصائب، وهذا شيء معروف؛ ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن أهل النار: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾ [الزخرف: ٣٩]، فالاشتراك في العذاب لا يخفف عنهم، كما هو الحاصل لأهل الدنيا، حينما يشتركون في البلاء.

قال لبيد بن ربيعة[٦]:

أَتَجْزَعُ مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى ... وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْهُ الْقَوَارِعُ[٧]

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٠٧) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ١٤١ ـ ١٤٢).
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ٤٢). (٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٥٢) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ١٦٤).
(٥) «محاضرات الأدباء» (٢/ ٥٣٢). (٦) «ديوان لبيد» (ص٩٠).
(٧) لا يُنسَب هذا للدهر، لكنهم يتجوَّزُون بذلك، ويتوسَّعون في التعبير.

٥ ـ النظر في حال المصابين ممَنْ هُوَ أشدّ مِنْهُ:

فعن سلام بن أبي مطيع قال: «دخلتُ على مَرِيض، فإذا هو يَئِنُّ، فقلتُ له: اذكر المطروحين في الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم، ولا مَنْ يخدمهم. قال: ثم دَخلتُ عليه بعد ذلك، فلم أسمعه يَئِنّ، قال: وجعل يقول: اذْكُر المطْرُوحين في الطَّرِيق، اذْكر مَنْ لا مأوى له، ولا مَنْ يَخْدمه»[١].

«أن يعدّ العبد نِعَم الله ﷻ وأياديه عنده، فإذا عجز عن عَدِّهَا، وأَيِسَ مِنْ حَصْرِهَا هانَ عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونِعَمِهِ كقَطْرة بَحْر»[٢].

وقد قال بعض السلف: «ذِكْرُ النِّعمة يُوَرِّث الحبّ لله»[٣].

ورأى رَجُلٌ فقيرًا مريضًا كَفِيفًا مُقْعَدًا، وهو يردد: «الحمد لله الذي فَضَّلَنِي على كثير من عباده». فقال: يرحمك الله، وبماذا فضَّلك؟ قال: «رزقني لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وجسدًا على البلاء صابرًا»[٤].

وهذا عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللهُ لمَّا قُطِعَت رِجْله بالمنشار أخذها، وقال: «أمَا والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بها إلى حَرَام»... ثُمَّ أمر بها فغُسِّلَتْ، وطُيِّبَت ولُفَّت في قُبْطِيَّة، ثم بعثَ بِهَا إلى مقابر المسلمين[٥]، فقال له عيسى بن طلحة: «إنا والله ما كنا نَعدُّك للصِّرَاع، قد أبقى الله أكبر عقلك، ولسانك، وسمعك، وبصرك، ويديك، وإحدى رجليك، فقال له: يا عيسى! ما عَزَّانِي أَحَدٌ بمِثْل ما عزَّيْتَنِي»[٦]. يقول له: نحن لا نحتاج رِجْلَكَ لأننا لم نَعُدّك يومًا للصِّراع والعِرَاك، وإِنَّما الذي نُؤَمّله بَقِيَ عندنا؛ وهو فِقْهك، وعِلْمك، وقَلْبك، وبَصَرُك في الأمور.

وقال جعفر بن ورقاء: «اجتزت بابن الجصاص (وكان من كبار التجّار ببغداد) وكان مُصَاهِري، فرأيته على رَوشَن داره حافيًا حاسرًا، يعدو كالمجنون، فلما رآني استحيا، فقلت: ما لك؟ قال: يحقّ لي، أخذوا مني أمرًا عظيمًا (وكانوا قد أخذوا منه مالًا

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٤٠) واللفظ له، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٨٩).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٧).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢١).
(٤) انظر: «الثقات» لابن حبان (٥/ ٣ ـ ٥).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٣٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ٢٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٠٦).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٦٦)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ٣١٩).

جزيلًا مُصَادَرة) فسَلَّمْتُه، وقلتُ: ما بَقِيَ يَكْفِي، وإنما يَقْلَق هذا القَلَق مَنْ يخاف الحاجة، فاصبر حتى أُبيّن لك غِناك. قال: هات، قلت: أليس دارك هذه بآلتها وفرشها لك؟ وعقارك بالكَرْخ وضِياعك؟ قال: بلى، فمَا زِلْت أُحَاسِبُه حَتَّى بلغ قيمة سَبْعمائة ألف دينار، ثم قلت: واصْدُقْني عما سَلِم لك. فحسبناه؛ فإذا هو بثلاثمائة ألف دينار، قلت: فَمَنْ له ألف ألف دينار ببغداد؟ هذا وجاهك قائم، فَلِمَ تَغْتَمّ؟! فسجد لله، وحَمِدَه، وبكى، وقال: أنقَذَنِي الله بك، ما عَزَّانِي أحد بأنفع من تَعْزِيَتِكَ، ما أكلتُ شيئًا منذ ثلاث، فأقِمْ عِنْدِي لنأكل، ونتحدث، فأقمت عنده يومين»[(١)].

«وجاء رَجُلٌ إلى يونس بن عبيد، فشكا إليه ضِيقًا من حاله ومعاشه، واغتمامًا منه بذلك، فقال له يونس: «أيسرّك بِبَصرك هذا الذي تبصر به مائة ألف؟ قال: لا. قال: فَسَمْعِكَ الذي تسمع به مائة ألف؟ قال: لا. قال: فلسانك الذي تنطق به مائة ألف؟ قال: لا. قال: ففؤادك الذي تعقل به مائة ألف؟ قال: لا. قال: فيداك يسرك بهما مائة ألف؟ قال: لا، قال: فرجلاك؟... فذكَّره نِعَم الله عليه. فأقبل عليه يونس قال: أرى لك مئين ألوفًا وأنت تشكو الحاجة»[(٢)].

فبهذا يمكن أن يرتفع الغَمّ عن الإنسان ويصبر.

٦ ـ أن يتذكر سَوَالِف النِّعَم التي أَنْعَم الله بها عليه في الماضي.

يقول إبراهيم بن مسعود: «كان رجل من تجّار المدينة يَخْتَلِف إلى جعفر بن محمّد، فيخالطه، ويعرفه بحُسْنِ الحال، فتَغَيَّرَتْ حَاله، فجعل يشكو حاله إلى جعفر، فقال جعفر:

فَـلَا تَـجْـزَعْ وَإِنْ أَعْـسَـرْتَ يَـوْمًـا   فَـقَـدْ أَيْـسَـرْتَ فِـي الـزَّمَـنِ الـطَّـوِيـلِ

... قال: فخرجت من عنده وأنا أغنى الناس»[(٣)].

٧ ـ تَذَكُّر أن وقت الشدة وقت محدود محصور، وسيذهب لا محالة، فإنما هي ساعة فكأنها لم تكن.

وقد كان محمد بن شُبْرُمة إذا نزل به بلاء قال: «سحابة، ثم تَنْقَشِع»[(٤)].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٧١ ـ ٤٧٢)، و«تاريخ الإسلام» (٢٣/ ٣٦٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٠٠)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (١١٥)، ومن طريق البيهقي في «الشعب» (٩٥٤٥).

(٤) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٢٧).

أَيُّــهَــا الــحَــامِــلُ هَــمًّــا إِنَّ هَــــذَا لَا يَــــدُومُ
مِــثْــلَــمَــا تَــفْــنَــى الــمَــسَــرَّا تُ كَــذَا تَــفْــنَــى الــهُــمُــومُ[(١)]

ويقول الأديب الشيخ علي الطنطاوي: «سيأتي على هؤلاء المُتَأَلِّمِينَ المعذبين بمرض يُنَغِّصُ عليهم عِيْشتهم، أو فَقْرٍ يُنكِّد عليهم أيَّامَهُمْ، أوْ سِجْن ظالم يُقَيِّد أيديهم، ويحرمهم أهلهم وأولادهم، أو عذاب مُسْتمرّ من جبار آثم يغاديهم به ويماسيهم، سيأتي عليهم يوم يكون فيه هذا كله ذكرى في النَّفْس، وحديثًا في المجالس، ومهما اشتَدَّ الضِّيق فالفَرَجُ موْجُود... وإنْ لم يَرَ البائس الفرج في الدنيا، فما الدنيا؟ أيَّام معدودة، وإن الحياة الباقِيَة لهي الحياة الآخرة، وهنالك يُعَوّض المظلوم تعويضًا يُرْضِيه، ويرى الظالم ما قدَّم لنفسه...» إلى آخر ما ذكر[(٢)].

نعم، تبقى هذه الأشياء ذكريات، لكن يبقى عمله؛ ماذا عمل في تلك الساعة؟ كيف كان تصرّفُه وضبطه لنفسه؟ هل جَزع؟ هل صبر؟

تَــسَــلَّ عَــنِ الــهُــمــوم فَــلَــيْــسَ شَــيْءٌ يُــقِــيــمُ وَمَــا هُــمُــومــك بــالــمُــقِــيــمَــهْ
لَــعَــلَّ الــلَّــهَ يَــنْــظُــرُ بَــعْــدَ هَــذَا إِلَــيْــكَ بِــنَــظْــرَةٍ مِــنْــهُ رَحِــيــمَــهْ[(٣)]

ومن الأمور المُعِينَة على الصبر أيضًا:

الثامن عشر: أن يتذكَّر أن أشدَّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، كما في حديث سعد رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»[(٤)].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعَك، فمسسته بيدي، وقلت: يا رسول الله! إنَّكَ لتُوعَكُ وعكًا شديدًا، فقال: «**أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»، قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: «**أَجَلْ**»، ثم قال رسول الله ﷺ:

---

(١) «ديوان بهاء الدين زهير» (ص٢٣٠).
(٢) «ذكريات علي الطنطاوي» (٢/ ٣٧٥).
(٣) «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٩٩)، و«شعب الإيمان» (٩٥٤٩).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) واللفظ له، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٢٩٠٠، ٢٩٠١وغيرها)، والحاكم (١/ ٤٠، ٤١)، والضياء، والذهبي، وابن كثير في «التفسير» (٦/ ٢٦٣)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٣). راجع: «العلل» للدارقطني (٤/ ٣١٦).

«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»(١).

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فوضعت يدي عليه، فوجدتُ حَرَّه بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله! ما أشدها عليك! قال: «**إِنَّا كَذَلِكَ، يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ**»، قلتُ: يَا رسول الله! أَيُّ النَّاس أَشَدُّ بلاءً؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ**»، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: «**ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ**»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت أحدًا أشدّ عليه الوَجَع من رسول الله ﷺ»(٣).

عَلَى قَدْرِ فَضْلِ المَرْءِ تَأْتِي خُطُوبُهُ ... وَيُعْرَفُ عِنْدَ الصَّبْرِ فِيمَا يُصِيبُهُ
وَمَنْ قَلَّ فِيمَا يَتَّقِيهِ اصْطِبَارُهُ ... فَقَدْ قَلَّ فِيمَا يَرْتَجِيهِ نَصِيبُهُ(٤)

ويقول وهب بن منبه: «مَنْ أصيب بشيء من البلاء فقد سلك به طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»(٥).

التاسع عشر: أن يعلم أنه على خير ما دام أنه صابر شاكر. فعن صُهَيْب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٦).

«فعِبَاد الله المؤمنون دائمًا في نِعْمَة مِنْ رَبِّهِم، أصابهم ما يحبّون أو ما يكرهون، وقد جعل الله تعالى أَقْضِيَته وأقداره التي يقضيها لهم ويقدّرها عليهم مَتَاجِر، يربحون بها عليه، وطُرُقًا يَصِلُون منها إليه»(٧).

«وما يصيب الإنسان إن كان يَسُرُّه فهو نعمة بيِّنة، وإن كان يسوءُه فهو نِعْمَة مِنْ جهة أنه يُكَفِّر خطاياه، ويُثَاب بالصبر عليه، ومن جهة أن فيه حكمةً ورحمةً لا يعلمها العبد: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٧)، ومسلم (٢٥٧١) واللفظ له.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠).
(٤) «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٩٧).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٥٦). (٦) تقدم تخريجه.
(٧) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «قاعدة في الصبر» (١/ ١٦٥) بتصرُّف.

وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]»[(١)].

العشرون: **أن يعلم أنه إذا مَرِضَ أو ابْتُلِيَ فإنه يجري عليه عملُهُ الَّذِي كان يعمله حينما كان صحيحًا معافًى**؛ فعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**مَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ يُصَابُ بِبَلَاءٍ فِي جَسَدِهِ إِلَّا أَمَرَ اللهُ عز وجل المَلَائِكَةَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ، فقَالَ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَا كَانَ يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ مَا كَانَ فِي وِثَاقِي**»[(٣)].

الواحد والعشرون: **أن يتذكر أنَّ الله أراد به خَيْرًا**؛ كما في حديث أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ**»[(٤)].

وفي حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الجَزَعُ**»[(٥)].

وفي حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السّخْطُ**»[(٦)]، نسأل الله العافية.

يقول الفضيل بن عياض رحمه الله: «إنَّ الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء، كما يتعَاهَد الرَّجلُ أهلَه بالخير»[(٧)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٠٩) بتصرُّف يسير.
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٥٨، ١٩٤، ١٩٨، ٢٠١)، وصحَّحه الحاكم (١/ ٣٤٨)، والضياء في «كتاب الأمراض» (٢٦)، وقال: «رجاله على شرط الشيخين»، والذهبي، والمناوي في «تخريج المصابيح» (١١٢٩)، والألباني في «الصحيحة» (١٢٣٢)، و«الإرواء» (٢/ ٣٤٦).
(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٥).
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩)، قال المنذري في «الترغيب» (٤/ ٢٨٣): «رُوَاتُه ثِقَات»، وقوَّاه الحافظ في «الفتح» (١٠/ ١١٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٤٠٦).
(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) واللفظ له، وابن ماجه (٤٠٣١)، وقال الترمذي: «حسن غريب»، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٤٦).
(٧) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٣٣)، وقد رُوِيَ مَرْفوعًا بنحوه من حديث حذيفة رضي الله عنه. أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٤٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٢/ ٢٨٨)، وضَعَّفَهُ الألباني في «الضعيفة» (٣١٠٢).

فالإنسان يتعاهد أهله بالنفقة، وما يُروّح به عنهم، والله يتعاهد عبده الذي يُحبّه بالبلاء.

وكان يقول: «لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يَعُدّ البلاء نِعْمة، والرَّخاء مصيبة»[(١)].

أي: من جهة الاستدراج، وأن الذنوب تجتمع عليه حتى يوافي بها يوم القيامة.

وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ **أنه قال:** «ليْسَ بفقيهٍ مَنْ لم يَعُدّ البَلَاءَ نعمة والرخاء مصيبة»[(٢)].

وقد قال النبي ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ في الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[(٣)].

قال الشيخ ابن عُثَيْمِين رَحِمَهُ اللهُ: «الإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده الخير عَجَّل له العقوبة في الدنيا، إما بماله، أو بأهله، أو بنَفْسه، أو بأحد ممَّن يَتَّصِلُ بِهِ؛ لأن العُقُوبَة تُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ، فإذا تعجَّلت العقوبة، وكفَّر الله بها عن العبد، فإنَّهُ يُوَافِي الله وليس عليه ذَنْب، قد طهّرته المصائب والبلايا؛ حتَّى إنه لَيُشَدَّد على الإنسان موته لبقاء سيّئة أو سيئتين عليه، حتى يخرج من الدنيا نَقِيًّا من الذّنوب...

لكن إذا أراد الله بعبده الشَّرّ أمْهَل له، واستدرجه، وأدَرَّ عَلَيْهِ النِّعَمَ، ودَفَعَ عنه النِّقَم، حتى يبطر ـ والعياذ بالله ـ، ويفرح فَرَحًا مذمومًا بما أنعم الله به عليه. وحينئذ يُلَاقِي رَبّه وهو مغمور بسيئاته، فيُعَاقَب بها في الآخرة»[(٤)].اهـ.

الثاني والعشرون: أن العبد قد تكون له منزلة في الآخرة في الجنة لا يبلغها بالعمل، فيصيبه ما يُصِيبُهُ مِنَ بَلَاءِ الدنيا، فيَصْبِر ويَحْتَسِب حتى يبلغها، كما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الرَّجُل لَتَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ المَنْزِلَةَ، فَمَا يَبْلُغُهَا**

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٩٤)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٥) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٠٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: «حسن غريب»، وصحَّحه ابن حبان (٢٩١١) من حديث عبد الله بن المغفل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وسكت عنه الذهبي في «التلخيص» (٨٧٩٩)، وصحَّحه السيوطي في «الجامع الصغير» (٣٠٨)، والألباني في «الصحيحة» (١٢٢٠). وفي الباب عن ابن عباس، وعمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

(٤) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ اللهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»(١).

السادس والعشرون: أن يتذَكَّرَ أن البلاء كَفَّارَة، وقَدْ جَاءَ في هذا كثير من الأحاديث الصحيحة، منها: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**وَصَبُ الْمُؤْمِنِ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَاهُ**»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا اشْتَكَى الْمُؤْمِنُ أَخْلَصَهُ ذَلِكَ كَمَا يُخْلِصُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أَسَارِي، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لحمًا خَيْرًا مِنْ لحمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْعَمَلَ**»(٥).

وعادَ شداد بن أوس رضي الله عنه رجلًا مريضًا، فقال له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بنعمة، فقال شداد: أَبْشِرْ بِكَفَّارات السَّيِّئات، وحَطّ الخطايا؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل يقُول: إني إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الخَطَايَا، ويَقُولُ الرَّبُّ عز وجل: أنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي وابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ**»(٦).

وعن مسلم بن يسار قال: «كان أحدهم إذا برئ قيل: لِيَهْنِكَ الطُّهْر»؛ يعني: الخَلَاص من الذنوب(٧).

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٩٠٨) واللفظ له، والحاكم (١/ ٣٤٤)، وصحَّحه ابن حبان، والحاكم، والألباني في «الصحيحة» (١٥٩٩، ٢٥٩٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الكفارات» (٥٨، ١٣١)، والبزار (٩٩٨٩)، والحاكم (١/ ٣٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٧٥)، وأعله أبو حاتم في «العلل» (٢/ ١٦٧) بالوقف، وصحَّحه الحاكم، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٢٤١٠).

(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٧)، وابن حبان (٢٩٣٦) واللفظ له، وفي سنده اختلاف، وصحَّحه ابن حبان، والألباني في «الصحيحة» (١٢٥٧).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٣)، وصحَّحه ابن كثير في «جامع المسانيد» (٤/ ٢٠٥)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٠٩).

(٧) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٩٤).

فهذه الأخبار وغيرها تدُلّ على أن المرض والمصائب تُكفِّر الخطايا، وتغسل الذنوب غَسلًا، لكن هل يُؤْجَر على هذا؟

جاء عن أبي مَعْمر الأزدي، قال: كنا إذا سَمِعْنَا من ابن مسعود شيئًا نكرهه سكتنا حتى يُفَسِّرَه لنا، فقال لنا ذات يوم: «إلا أنَّ السّقم لا يُكْتَب له أجر»، فساءنا ذلك، وكبُرَ علينا، قال: «ولكن يكفّر بِهِ الخطَايَا»، قال: فَسَرَّنَا ذَلِكَ، وأعْجَبَنَا[1].

وهذا صريح في أَنَّ الإنسان لا يُؤْجَرُ على المصائب، بل تُكَفّر ذُنُوبُه، وقَدْ أَكَّدَ هذا المعنى الحافظ ابن القَيِّم رَحمه الله، وقرَّرَه، فقال: «إن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية، وما تولَّد منها، كَمَا ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة التَّوْبَة في قوله في المباشر من الإنفاق وقطع الوادي: ﴿**إِلَّا كُتِبَ لَهُم**﴾، وفي المتولّد من إصابة الظمأ والنَّصَب والمخْمَصَةِ في سبيله وغَيْظ الكفار: ﴿**إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ**﴾ [التوبة: ١٢٠].

فالثواب مرْتَبِط بهذين النوعين، وأمَّا الأسْقَام والمصائب، فَإِنَّ ثوابها تكفير الخطايا»[2]. اهـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى: «المصائب تكون على وجهين: تارة إذا أُصِيبَ الإنسان تذكّر الأجر، واحتسب هذه المصيبة على الله، فيكون فيها فائدتان: تكفير الذنوب، وزيادة الحسنات. وتارة يغفل عن هذا، فيضيق صدره... ويغفل عن نية احتساب الأجر والثواب على الله، فيكون في ذلك تكفير لسيئاته»[3]. اهـ.

لكن يُشكِل على هذا القول بعض الأحاديث الصحيحة، فمن ذلك:

ما جاء عن أبي سعيد الخدْري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**صُدَاعُ المُؤْمِنِ، أَوْ شَوْكَةٌ يُشَاكُهَا، أَوْ شَيْءٌ يُؤْذِيهِ يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَرَجَةً، وَيُكَفِّرُ بِهَا عَنْهُ ذُنُوبَهُ**»[4].

وما جاء عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهِ دَرَجَةٌ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ**»[5].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٦) واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٩٣/ ٨٥٠٦)، وحسَّنه الهَيْثَمِي في «المجمع» (٢/ ٣٠١).

(٢) «عدة الصابرين» (ص١٥٥). (٣) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٢٤٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٨٠)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٧/ ١٦٥٨)، وقال المنذري في «الترغيب» (٤/ ٢٩٧): «رجاله ثقات»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٤٣٤).

(٥) تقدم تخريجه.

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه»: «باب الصبر على الأذى، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]»[(١)]. اهـ. وهذا مُشْعِر أن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يَرَى أنَّ الإنسان يؤجر على المصيبة تُصِيبُهُ فيصبر لها، وهو الأقرب، والله أعلم.

الرابع والعشرون: **ملاحظة الثواب**، فإذا لاحظ الثواب والأجر وحُسْنَ الجَزاء فإنه يطمئن قلبه إلى ذلك، وتَرْتَاض النَّفْس، «ويَخِفُّ عليه حمْل البلاء؛ لشهود العِوَض، وهذا كما يَخِفّ على كل مُتَحَمِّل لمشقَّةٍ عظيمة حَمَلَها؛ إذ لاحظ حُسْن العاقبة والظَّفَر الذي يكون بعدها، ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة، وما أقدم أحدٌ على تَحَمُّل مشقَّة عاجلة إلا لثمرة مُؤَجَّلة؛ إمّا في الدنيا وإما في الآخرة، والنفوس مُولَعَة بحب العاجل، وإنما خاصة العقل هو تلميح العَواقِب، ومطالعة الغايات، وقد أجمع عُقلاء كل أمة على أن النَّعيم لا يُدْرَكُ بالنَّعيم، وأن مَنْ رَافَقَ الرَّاحَةَ فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، وعلى قدر التَّعَبِ تكون الراحة.

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ... وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَيَكْبُرُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا ... وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ[(٢)]»[(٣)]

فينبغي أن يتذَكَّر الإنسان دائمًا ما أعدَّهُ الله عَزَّوَجَلَّ لأهل البلاء في الآخرة، ولذلك جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ**»[(٤)].

فهؤلاء الذين يَلْحظون هذا المعنى جيّدًا إذا وقع بهم البلاء فَهُمْ فِي غَايَةِ الصَّبْرِ والرِّضا وتمام الشكر.

فعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابْنُ عَبَّاس رضي الله تعالى عنهما: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قلت: بَلَى. قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ التي أتت النبي ﷺ، فقالت: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أتكشَّف فادْعُ اللهَ لِي. قال: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**»، فقالت: أصبر، فقالت: إنّي أتكشّف، فادْعُ الله لي ألَّا

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب الأدب (٤/ ١٦٢).
(٢) البيتان للمتنبي كما في «ديوانه» (ص٤٠١).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧) بتصرُّف.
(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢) وضعَّفَهُ، وحسَّنه الصدر المناوي (١١٤٠)، والألباني في «الصحيحة» (٢٢٠٦).

أتكشف، فدَعَا لها[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاءت امرأة إِلَى النبي ﷺ بها لَمَمٌ فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يَشْفِيَنِي، فقال: «**إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَشْفِيَكِ، وَإِنْ شِئْتِ فَاصْبِرِي وَلَا حِسَابَ عَلَيْكِ**»، قالت: بل أصبر، ولا حِسَاب عليّ[٢].

فالعاقل لا يَتَمَنَّى البلاء، ولا يدعو به، ولكن إذا طرقه أمرٌ من أمر الله، فإنَّهُ يصبر ويحتسب. والعَافِيَة خيرٌ للمؤمن من البلاء في أيام سلامته، والبلاء مع الصبر والاحتساب خيرٌ للمؤمن من العافية في أيام شِدَّتِه؛ حيث قدَّره الله عليه، وتقدير الله للمؤمن كلّه خَيْر.

قال إبراهيم بن الوليد: دخلت على إبراهيم المغربي وقد رَفَسَتْه بَغْلَةٌ، فَكَسَرَتْ رِجْلَهُ، فقال: «لولا مَصَائِب الدنيا لقَدِمنا على الله مفاليس»[٣].

ومثل هذا لا يقوله إلا رجل رشيد؛ فإنه أساء الظنّ بنَفْسه، وأحسن الظنّ بربِّه.

وعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قال:** «إِنَّ المُسْلِمَ لَيُؤْجَر في كل شيء، حتى في النَّكْبَة وانقطاع شِسْعه ـ يعني: شِسْع النَّعْل ـ والبضاعة تكون في كمّه... فيفْزع لها، فيجدها في ضَبَّته»[٤].

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «لو أن ملكًا قال لرجلٍ فَقِيرٍ: كُلَّما ضَربتك بهذا العود اللطيف ضربةً أعطيتك ألف دينار لأَحَب كثرة الضرب، لا لأنه لا يُؤْلم، ولكن لِما يرجو من عاقبة، وإن أنكاه الضرب، فكَذَلِكَ السَّلَف تلمَّحُوا الثَّوَاب، فهان عليهم البلاء»[٥]. اهـ.

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ**»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤١)، وصحَّحه ابن حبان (٢٩٠٢)، وحسَّنه الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٠٧)، والألباني في «الصحيحة» (٢٥٠٢).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٦٤) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٢١).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (ص١٠٩)، ورجاله ثقات، لكنه منقطع، وقد روي مرفوعًا من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أخرجه أحمد (٢٥٨٣٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (٢٠٠٠)، و«الضعيفة» (٢٩٢٤).
(٥) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٥٠).
(٦) أخرجه البخاري (٥٦٥٣).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**إذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فيَقُولُون: نَعَمْ. فيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُون: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ**»(١).

الخامس والعشرون: **أن يَتَلَمَّحَ المصاب، ويتأمَّل ما في هذه المصيبة من الفوائد والمنافع**، فإنَّ الإنسانَ إذا لاحظ ما في مضامين المصيبة هانت عليه، والكلام في هذا يطول، وقد كَثُرَتْ أمْثَال العَرَب والعَجَم في التعبير عن هذه الحقيقة، فهي قضيَّة مؤكّدة مقرّرة عند العالمين؛ ففي بعض الأمثال عند الرّوس يقولون: «لو لم تكن المصيبة لما كانت هناك سعادة»؛ يعني: لا تعْرِف طَعْم اللَّذّة إلا إذا ذُقْتَ طعْمَ المرارة في أيام النَّكَد والأَلَم والبُؤْس.

ومن أمثال بعض الأُمَم: «المصيبة: هي القَابِلَة القانونية التي تُوَلِّد العبقرية» القَابِلَة؛ يعني: التي تقوم بالتوليد.

ويقول آخر: «الريح التي تهبّ في الوجه تجعل المرء حكيمًا، يَعْرِف كيف يَتَصَرَّف، تكون قد عَرَكَته التجارِب».

والعرب يقولون: «المصائب مَحَكّ الرجال»(٢).

ومن حِكَمِهم: «المصيبة مِهْمَاز الشجاعة»(٣).

ومن أَمْثالهم: «عند الشدائد يُعْرَف الإخوان»(٤).

السادس والعشرون: **اللجوء إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء**، قال الله تعالى عن عباده المؤمنين المجاهدين في سبيله: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فالإنسان يسأل ربه أن يرزقه الصَّبْر، ويعينه على بَلِيَّتِهِ، فإذا أعان الرب عبده هان عليه كل بلاء.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وصحَّحه ابن حبان (٢٩٨٤)، وحسَّنه الترمذي، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (١٥/ ٤٩)، وابن حجر كما في «الفتوحات الربانية» (٣/ ٢٩٦)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٠٨).

(٢) «معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ٥٣٧).

(٣) موقع اقتباسات: http: //araquotes.com

(٤) «مجاني الأدب في حدائق العرب» (١/ ٢٧).

إِلَيْكَ وَقَدْ سُدَّتْ بِوَجْهِي الشَّرَائِعُ تَوَجَّهْتُ يَا مَوْلَايَ وَالطَّرْفُ دَامِعُ
يَرُومُونَ إِذْلَالِي فَجِئْتُكَ أَحْتَمِي وَمَا ذُلَّ عَبْدٌ أَنْتَ عَنْهُ تُدَافِعُ
فَأَنْتَ الَّذِي يَدْرِي خَفِيَّ خَوَاطِرِي وَهَاجِسَ فِكْرِي إِنْ جَفَتْنِي المَضَاجِعُ
فَإِنْ رَابَنِي أَمْرٌ قَصَدْتُكَ عَائِذًا وَكُلُّ الَّذِي قَدَّرْتَ لَا بُدَّ وَاقِعُ

وقال آخر يستسقي ربه:

يَا مَنْ أَجَبْتَ دُعَاءَ نُوحٍ فَانْتَصَرْ وَحَمَلْتَهُ فِي فُلْكِكَ المَشْحُونِ
يَا مَنْ أَحَالَ النَّارَ حَوْلَ خَلِيلِهِ رَوْحًا وَرَيْحَانًا بِقَوْلِكَ كُونِي
يَا مَنْ أَمَرْتَ الحُوتَ يَلْفِظُ يُونُسَا وَسَتَرْتَهُ بِشُجَيْرَةِ الْيَقْطِينِ
يَا رَبِّ إِنَّا مِثْلُهُ فِي كَرْبِهِ فَارْحَمْ عِبَادًا كُلُّهُمْ ذُو النُّونِ[(١)]

ويقول الألوسي رَحِمَهُ اللهُ[(٢)]:

إِلَيْكَ وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرَّكَائِبُ وَمِنْكَ وَإِلَّا فَالمُؤَمِّلُ خَائِبُ
وَعَنْكَ وَإِلَّا فَالْغَرَامُ مُضَيَّعٌ وَفِيكَ وَإِلَّا فَالمُحَدِّثُ كَاذِبُ

ويقول الآخر[(٣)]:

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ أَنْتَ المُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا يَا مَنْ إِلَيْهِ المُشْتَكَى وَالمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزَائِنُ مُلْكِهِ فِي قَوْلِ كُنْ امْنُنْ فَإِنَّ الخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
مَا لِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ فَبِالِافْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِي أَدْفَعُ
مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ فَلَئِنْ رَدَدتَّ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ
وَمَنِ الَّذِي أَدْعُو وَأَهْتِفُ بِاسْمِهِ إِنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنْ فَقِيرِكَ يُمْنَعُ
حَاشَا لِجُودِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِيًا الْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالمَوَاهِبُ أَوْسَعُ

السابع والعشرون: **أن نتذكَّر جيِّدًا أن الجزَع لا يُجْدِي شيئًا، وأن القلق والهمَّ والحَزَن لا يردّ قَدَرًا**، وقد صح عن النبي ﷺ أنه كان إذا حَزَبَهُ أمر صلى[(٤)]. وقال

---

(١) «ديوان نفحات ولفحات» (ص٦٦).
(٢) «روح المعاني» (١/ ٩١).
(٣) وهو: السهيلي كما في ترجمته في «وفيات الأعيان» (٣/ ١٤٣).
(٤) أخرجه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وسكت عنه، وحسَّنه ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ١٧٢)، والألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٠٣).

تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]. وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال للأشعث بن قيس في مصيبة حلَّتْ به: «إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ القدر وأنت مأجور، وإن جَزعْت جَرى عليك وأنت مأثوم»[(١)].

لَا تَجْزَعَنَّ إِذَا مَا الْأَمْرُ ضِقْتَ بِهِ ... ذَرْعًا وَنَمْ وَتَوَسَّدْ فَارِغَ الْبَالِ
فَبَيْنَ غَفْوَةِ عَيْنٍ وانْتِبَاهَتِهَا ... تَبَدَّلَ الدَّهْرُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ
وَمَا اهْتِمَامُكَ بالمُجْدِي عَلَيْكَ وَقَدْ ... جَرَى الْقَضَاءُ بِأَرْزَاقٍ وَآجَالِ[(٢)]

وفي ديوان الشافعي[(٣)]:

سَهِرَتْ أَعْيُنٌ وَنَامَتْ عُيُونُ ... لِأُمُورٍ تَكُونُ أَوْ لَا تَكُونُ
فادرأ الهَمَّ مَا اسْتَطَعْتَ عَنِ النَّفْـ ... ـسِ فَحِمْلَانُكَ الهُمُومَ جُنُونُ
إِنَّ رَبًّا كَفَاكَ بِالْأَمْسِ مَا كَا ... نَ سَيَكْفِيكَ فِي غَدٍ مَا يَكُونُ

وفي بعض الحكم: «لماذا نُلْقِي أنفسنا في الماء قبل أن تغرق السفينة». وكثيرًا ما يجلب الوَهْمُ والاحتمالاتُ السّيئة على العبد الكَمَدَ والألَمَ والحسرةَ، ثم بعد ذلك تَخُور قواه، ويَنْكَسِرُ، ويضعف، ولم يحصل شيء مما توهّمه بعد. وقد تكون المصيبة صغيرة فيراها كبيرة، ويتوهّمها مَاحِقَة، فلا يزال به ذلك حتى يُطْبِق عليه الوَهْم، ويعظم الخَطْب، فلا يكاد يهنأ بعيش.

وقد قيل[(٤)]:

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا نَابَتْهُ نَائِبَةٌ ... لَمْ يَبْدُ مِنْهُ عَلَى عِلَّاتِهِ الهَلَعُ

وقال آخر[(٥)]:

صَبَرْتُ فَكَانَ الصَّبْرُ خَيْرَ مَغَبَّةٍ ... وَهَل جَزَعٌ يُجْدِي عَلَيَّ فَأَجْزَعُ
مَلَكْتُ دُمُوعَ الْعَيْنِ حَتَّى رَدَدْتُهَا ... إِلَى نَاظِرِي فَالْعَيْنُ فِي الْقَلْبِ تَدْمَعُ

وأنشد أحمد بن موسى الثقفي[(٦)]:

نُبِّئْتُ خَوْلَةَ أَمْسِ قَدْ جَزِعَتْ ... مِنْ أَنْ تَنُوبَ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٩/ ١٣٩).
(٢) «طبقات الفقهاء الشافعية» (١/ ٢٤٣)، ونسبها لأبي إسماعيل المنشئ.
(٣) «ديوان الشافعي» (ص١٤٧)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٦٧)، وقد نسبها لغيره لسان الدين ابن الخطيب في «الإحاطة في أخبار غرناطة» (٣/ ٤٠٨)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٣٦٩).
(٤) «ديوان علي بن أبي طالب» (ص٦٤).
(٥) انظر: «شعب الإيمان» (٩٧٢٣).
(٦) «عدة الصابرين» (ص١٨٥).

لَا تَجْزَعِي يَا خَوْلُ وَاصْطَبِرِي ... إِنَّ الْكِرَامَ بُنُوا عَلَى الصَّبْرِ

الثامن والعشرون: «**انتظار الفَرَج**؛ فَإِنَّ انتظاره ومطالعته وترقّبه يُخَفِّف حمْل المشقّة، ولا سيما عند قوَّة الرَّجَاء، أو القَطْع بالفَرَج، فإنه يَجِد في حَشْو البلاء من رَوْح الفَرَج ونسيمه وراحته ما هو من خَفِيّ الأَلْطَاف، وما هو فَرَجٌ مُعَجَّل، وبه - وبغيره - يُفْهم معنى اسمه (اللطيف)»[1].

و«مَنْ تلَمَّح حَلَاوَةَ العافية هان عليه مرارة الصبر»[2].

وقال الشاعر[3]:

إِذَا تَضَايَقَ أَمْرٌ فَانْتَظِرْ فَرَجًا ... فَأَضْيَقُ الْأَمْرِ أَدْنَاهُ إِلَى الْفَرَجِ

وقال آخر[4]:

إِذَا دَجَا لَيْلُ الخُطُوبِ وَأَظْلَمَتْ ... سُبُلُ الخَلَاصِ وَخَابَ فِيهَا الْآمِلُ
وَأَيِسْتَ مِنْ وَجْهِ النَّجَاةِ فَمَا لَهَا ... سَبَبٌ وَلَا يَدْنُو لَهَا مُتَنَاوِلُ
يَأْتِيكَ مِنْ أَلْطَافِهِ الْفَرَجُ الَّذِي ... لَمْ تَحْتَسِبْهُ وَأَنْتَ عَنْهُ غَافِلُ

وقد وَعَد الله عباده الصابرين بقُرْبِ الفرج في صوَرٍ شَتَّى، منها:

١ - الوَعْدُ بالسّعة بعد الضيق، والرَّخَاءِ بعد الشِّدّة، واليُسْرِ بعد العُسْر، وفي هذا يقول الله جلَّ وعلا: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق: ٧].

لَا تَيْأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ ... إِذَا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجَا
أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنِ الْقَرْعِ بِالْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا[5]

٢ - الوَعْدُ بحُسْنِ العَاقبة، والعِبْرَة بالعَوَاقب، والمدار على الخواتيم، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾ [هود: ٤٩].

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَسْرَعَ الْفَرَجَا ... مَنْ صَدَقَ اللَّهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا
مَنْ خَشِيَ اللَّهَ لَمْ يَنَلْهُ أَذًى ... وَمَنْ رَجَا اللَّهَ كَانَ حَيْثُ رَجَا[6]

٣ - الوعد بحُسْن العِوَض عَمَّا فات؛ فإن الله لا يضيع أجر مَنْ أَحْسَنَ عَملًا، قال

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٧) بتصرُّف يسير.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص٦٧).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٩٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥٤٧).
(٤) «حياة الحيوان» للدّميري (٢/ ٢١١).
(٥) «البيان والتبيين» (٢/ ٣٦٠).
(٦) «البداية والنهاية» (١٣/ ٥٦٣)، و«السير» (١٢/ ٥٨٩)، و«طبقات السبكي» (٢/ ١٣٤).

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

فوائد تأخير الفرج:

وليعلم المسلم المتعلّق بحبال الفرج أن في التأخير لطائف وأسرارًا، **منها**:

١ ـ أنَّ الكَرْبَ كلّما اشْتَدَّ كَانَ الْفَرَج قريبًا، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠].

ولقد أحسن القائل:

اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي ... قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ[(١)]

وقال ابن المعتز[(٢)]:

وَلَا هَمَّ إِلَّا سَوْفَ يُفْتَحُ قُفْلُهُ ... وَلَا حَالَ إِلَّا بَعْدَهَا لِلْفَتَى حَالُ

ويقول آخر[(٣)]:

تَصَبَّرْ إِنَّ عُقْبَى الصَّبْرِ خَيْرٌ ... وَلَا تَجْزَعْ لِنَائِبَةٍ تَنُوبُ

فَإِنَّ الْيُسْرَ بَعْدَ الْعُسْرِ يَأْتِي ... وَعِنْدَ الضِّيقِ تَنْكَشِفُ الْكُرُوبُ

وَكَمْ جَزِعَتْ نُفُوسٌ مِنْ أُمُورٍ ... أَتَى مِنْ دُونِهَا فَرَجٌ قَرِيبُ

وقال هُدْبة بن خَشْرَم[(٤)]:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

فَيَأْمَنُ خَائِفٌ وَيُفَكُّ عَانٍ ... وَيَأْتِي أَهْلَهُ النَّائِي الْغَرِيبُ

ولله در القائل[(٥)]:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ... ذَرْعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ

ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا ... فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

---

(١) اختُلف في قائل هذا البيت، ورُويَ شطره الأوَّل مرفوعًا، ولا يصحُّ. ينظر: «التذكرة» للزَّرْكَشِي مع «حَاشِيَةِ الصبَّاغ» (١١٦)، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٥٣٩)، و«المقاصد الحسنة» (١١٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٣٩١).

(٢) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٢٦).

(٣) «رسائل ابن رجب» (٣/ ١٦٩).

(٤) «تاريخ دمشق» (٧٣/ ٣٧١).

(٥) «وفيات الأعيان» (١/ ٤٦)، ونسبه لأبي بكر الصولي.

وقال محمد بن حازم الباهلي(١):

وَمَا مِنْ شِدَّةٍ إِلَّا سَيَأْتِي ... لَهَا مِنْ بَعْدِ شِدَّتِهَا رَخَاءُ

٢ ـ أَنَّ الكَرْب كُلَّمَا اشْتَدَّ وُجِد اليأس مِن كَشْفه من جهة المخلوق، وازداد التعلُّق بالخالق، حتى يَصِلَ العَبْدُ إلى مَحْضِ التَّوكّل، الذي هو مِنْ أَعْظَم الأسباب التي تُطْلَب بها الحوائج، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

٣ ـ أن الكَرْب كُلَّمَا اشْتَدَّ فَإِنَّ العَبْدَ حينئذ يحتاج إلى زيادة مجاهدة الشيطان؛ لأنه يأتيه فيقنّطه، ويسخطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته، ودفعه، فيحوز ثواب مجاهدة عدوّه ودَفْعه؛ ولِهَذا قَال النبي ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»(٢).

٤ ـ أن المؤمن كُلَّما اسْتَبْطَأ الْفَرَجَ واسْتَيأَس منه، ولا سِيَّما بعد كثرة الدعاء وإلحاح التضرّع، ولم يظهر له أثر الإجابة؛ رجع إلى نَفْسه يلومها قائلًا: إنما أُتِيتُ مِنْ قِبَلِك.

وهذا اللَّوْم أحبّ إلى الله من كثير من الطاعات؛ لأَنَّهُ يورث العَبْد انْكِسَارًا لِرَبِّه، فَذَلِكَ يُسْرِع إليه الفَرَج؛ لأن اللهَ عِنْدَ المنكسرة قلوبهم لِأَجْلِهِ، وعَلَى قَدْرِ الكسر يكون الجَبْر.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

لَا تَيْأَسَنَّ مِنِ انْفِرَاجِ شَدِيدَةٍ ... قَدْ تَنْجَلِي الْغَمَرَاتُ وَهِيَ شَدَائِدُ
كَمْ كُرْبَةٍ أَقْسَمْتُ أَلَّا تَنْقَضِي ... زَالَتْ وَفَرَّجَهَا الجَلِيلُ الْوَاحِدُ(٣)

ويقول آخر(٤):

يَا صَاحِبَ الهَمِّ إِنَّ الهَمَّ مُنْفَرِجٌ ... أَبْشِرْ بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْفَارِجَ اللَّهُ
الْيَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ ... لَا تَيْأَسَنَّ فَإِنَّ الْكَافِيَ اللَّهُ
اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ الْعُسْرِ مَيْسَرَةً ... لَا تَجْزَعَنَّ فَإِنَّ الصَّانِعَ اللَّهُ
إِذَا بُلِيتَ فَثِقْ بِاللَّهِ وَارْضَ بِهِ ... فَحَسْبُكَ اللَّهُ فِي كُلٍّ لَكَ اللَّهُ

---

(١) كما في «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٢٤). ونسبها الهاشمي في «جواهر الأدب» (٢/ ٧٠٣) لأبي تمام.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «جمهرة الأمثال» (٢/ ٨١)، و«مجمع الحكم والأمثال» (١١/ ٤١).

(٤) انظر: «المحاسن والأضداد» (ص١٥٧)، و«الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٢٠).

ويقول آخر[١]:

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ لِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنَتِ الْمَكَارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لِانْكِشَافِ الضّرِّ وَجْهًا وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الأَرِيبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيْفُ المُسْتَجِيبُ
وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ فَمَقْرُوْنٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ



(١) «أمالي القالي» (٢/ ٣٠٣).

وقائع من الفرج

فهذه بعض الوقائع التي حصل فيها فَرَجٌ لِبَعْضِ المَكْرُوبِينَ، نَسُوقُها لتسلية المُصَابِ، ولتَعْظُم في نَفْسِهِ الرَّغْبَة في الصبر رجاء الفرج؛ لِيُحسِنَ الظَّنّ بالله تعالى؛ فإن بيديه أمر الكروب تقديرًا ورفعًا.

عن محمد بن عثمان العجلي قال: «لما حَدَّثَ شريك (بن عبد الله) بحديث الأعمش عن سلمان عن ثوبان أن النبي ﷺ قال: «**اسْتَقِيمُوا لِقُرَيْشٍ مَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ، فَإِذَا خَالَفُوكُمْ فَضَعُوا سيُوفَكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ، فَأَبِيدُوا خَضْرَاءَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَكُونُوا زَرَّاعِينَ أَشْقِيَاءَ**»[1]، فسُعِيَ بِهِ إلى المهدي، فبَعَثَ إلى شريك، فأتاه، فَقَالَ: حدَّثْتَ بها؟ قال: قلت: نعم، قال: عَمَّنْ رَوَيْتَها؟ قلت: عن الأعمش، قال: وَيْلِي عليه! لو عَرَفْتُ مَكَانَ قبْرِهِ لأخرجته فأحرقته بالنار. فقلت: إن كان لمأمونًا على ما رَوَى، قال: يا زنديق لأقتلنَّك. قلت: الزنديق مَنْ يَشْرَب الخمر، ويسفك الدم. قال: والله لأقتلنَّك. قلت: أوْ يكفي الله؟ قال: فخرجنا من عنده، فاستقبلني الفضل بن الربيع، فقال: ليس لك موضع تهرب إليه، قلت: بلى، قال: فإنَّهُ قَدْ أمَرَ بِقَتْلِكَ، قال: فخرجت إلى جبل، فخرجت يومًا أتجسس الخَبَرَ، فأقبل ملَّاح من بغداد، فاستقبله مَلَّاح آخر مِنَ البصرة، فسأله: ما الخبر؟ قال: مات أمير المؤمنين، قلت: يا مَلَّاح قَرِّب، فَقَرَّب»[2].

تَجْرِي المَقَادِيرُ مِنْ عُسْرٍ وَمِنْ يُسْرٍ ... وَلِلْمَقَادِيرِ أَسْبَابٌ وَأَبْوَابُ
مَا اشْتَدَّ عُسْرٌ وَلَا انْسَدَّتْ مَذَاهِبُهُ ... إِلَّا تَفَتَّحَ مِنْ مَيْسورِهِ بَابُ[3]

وعن عبد الرزاق بن همام قال: «بعث أبو جعفر (المنصور) الخشَّابين حين خرج إلى مَكَّةَ، فَقَال: إن رأيتم سفيان الثَّوْرِي فاصْلُبُوه. قال: فجاء النَّجَّارُونَ، فنصبوا الخشَبَ، ونودِيَ سُفْيَان، وإذا رأسه في حِجْر فُضَيْل بن عياض، ورجلاه في حِجْرِ ابْنِ عُيَيْنَةَ.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧)، وضَعَّفَهُ الإمام أحمد كما في «السُّنَّة» للخلَّال (٨٢)، والحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ١٢٥)، والألباني في «الضعيفة» (١٦٤٣).
(٢) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٥٩ ـ ١٦٠).
(٣) «روضة العقلاء» (ص١٥٩ ـ ١٦٠).

فقالوا له: يا أَبَا عَبْدِ اللهِ! اتَّقِ اللهَ، ولا تُشمِت بنا الأعداء، قال: فتقَدَّم إلى الأستار ـ أي: أستار الكعبة ـ ثم دخله، ثم أخذه وقال: بَرِئْتُ مِنْهُ إن دخلها أبو جعفر، قال: فمات قبل أن يدخل مَكَّة، فأُخبر بذلك سفيان، فلم يقل شيئًا»[(١)].

وعن أبي عمرو بن العلاء قال: «خرجتُ هاربًا من الحَجَّاج إلى مكة، فبينا أنا أطوف بالبيت إذ أعرابي يُنْشِد:

يَا قَلِيلَ العَزَاءِ فِي الْأَحْوَال ... وَكَثِيرَ الهُمُومِ والأوْجَال
لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأُمُورِ فَقَدْ يُكْـ ... شَفُ غمَاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالِ
صَبِّرِ النَّفس عِنْد كُلِّ مُلمّ ... إنّ فِي الصَّبْر رَاحَة المُحْتَال
ربّما تَجْزَع النُّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ ... لَهُ فَرْجَةٌ كحلّ العِقَالِ

فقلت: مه؟ فقال: مات الحجاج.

قَالَ: فَلَا أَدْرِي بِأَيّ الْقَوْلَيْنِ كنت أَسَرّ، بقوله: فَرْجَة بِفَتْح الْفَاء، أَو بِمَوْت الْحجَّاج»[(٢)].

وقال أبو الحسن التّنوخي: «كان في باب الشام رجل يُقَال له: لبيب العابد، زاهدٌ ناسك صالح فأَخْبَرَنِي، قال: كنت مملوكًا روميًّا، فمات مولاي، فعتَقَنِي، فَحَصَّلْت لنفسي رزقًا... وتزوجت زوجة مولاي، وقد علم الله أني لم أتزوجها إلا لصيانتها، لا لغير ذلك، فأقمت معها مدة. ثم إني رأيت يومًا حيَّة وهي داخلة إلى جُحْرِهَا، فأخذتها، فمسكتها بيدي، فانْثَنَتْ عَلَيَّ، فَنَهَشَت يَدِي، فشُلَّتْ، ثُمَّ شُلَّتِ الأخرى بعد مُدّة، ثم زَمِنَتْ رِجْلَايَ، واحدة بعد أخرى، ثم عَمِيتُ، ثم خَرِستُ؛ فمكثت على هذه الحال سنة، لم تَبْقَ فيَّ جَارحة صحيحة، إلا سمعي، أسمع به ما أكره، وكنتُ طَرِيحًا على ظهري، لا أقدر على إشارة، ولا إيمَاء، فأُسْقَى وأنا رَيَّان، وأُترك وأنا عطشان، وأُطْعَم وأنا مُمْتلئ، وأَفْقِد الطعام وأنا جائع، لا أدفع عن نفسي، ولا أَقْدر على إيماء بما يُفْهِمُ مُرادي منه.

فدخلَت امرأة بعد سنة إلى زوجتي، فسألتها عني، فقالت: كيف لبيب؟ فقالت لها وأنا أسمع: لا حيّ فيُرْجَى، ولا مَيِّت فيُنْسَى.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٠١) واللفظ له، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٨٣)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥٤٦)، والتنوخي في «الفرج بعد الشدة» (٤/ ٦٩ ـ ٧٠) واللفظ له.

فغمَّني ذلك، وبكَيت، وضَجَجْتُ إلى الله تعالى في سِرِّي.

وكنت في جميع ذلك الحال لا أَجِد أَلمًا في شيءٍ من جِسْمِي، فلما كان في ذلك اليوم؛ ضُرِب بدني كله ضربًا شديدًا، لا أُحْسِن أن أصِفَهُ، وألِمْتُ ألمًا مُفْرِطًا، فلَمَّا كان في اللَّيْلِ، سَكَن الأَلَم، فَنِمْت، وانْتَبَهْتُ ويدي على صدري، فَعَجِبْت من ذلك، وكيف صارت يدي على صدري! ولم أزل مُفَكِّرًا في ذلك، ثم قلتُ: لعل الله قد وَهَب عافيتي، فحرَّكْتُهَا، فإذا هي قد تحَرَّكَتْ، ففرحت، وطَمِعْت في العافية، وقلت: لعل الله أذِنَ بخلاصي، فقبضتُ إحدى رجليّ إليَّ فانْقَبَضَتْ، وبسطتها فانْبَسَطَتْ، وفعلتُ بالأُخْرَى كذلك فتحَرَّكَتْ، فقمت قائمًا، لا قَلَبَة بي[1]، ونزلت عن السرير الذي كنتُ مطروحًا عليه، فخرجتُ إلى الدار، ورفعْتُ طرفي، فرأيتُ الكواكب وإذا أنا قد أبصرتُ، ثم انطلق لساني، فقلت: يا قديم الإحسان بإحسانك القديم.

ثم صِحْتُ بزوجتي، فقالت: أبو علي؟ فقلتُ: الساعة صِرْتُ أبَا عَلي؟

فأسرَجتُ، وطلَبْتُ مِقراضًا، وكان لي سِبَال كما يكون للجند، فقصصته، فضجَّت من ذلك، وقالت: ما هذا؟ فقلت: بعد هذا لا أخدم غير ربّي، فصار هذا سبب عبادتي.

قال: وخبره مستفيض، ومنزلته في العبادة مشهورة، وصارت هذه الكلمة عادته، لا يقول في حشو كَلَامِهِ وأكثر أوقاته غيرها: يا قديم الإحسان»[2]. اهـ.

وكان بعض الصَّالِحين قد أَلَحّ عَلَيْهِ الْغَمّ، وضِيْق الصَّدْر، وَتَعَذُّر الْأُمُور، حَتَّى كَاد يَقْنَط، فَكَانَ يَوْمًا يمشي، وهو يَقول:

أَرَى الْمَوْتَ لِمَنْ أَمْسَى ... عَلَى الذُّلِّ لَهُ أَصْلَحْ

فَهَتَفَ بِهِ هَاتِف، يَسْمَع صوته، وَلَا يرى شَخْصه ـ أَو أُرِي فِي النّوم ـ كَأَن قَائِلًا يَقُول:

أَلَا يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ الْـ ... لَذِي الْهَمُّ بِهِ بَرَّحْ
إِذَا ضَاقَ بِكَ الْأَمْرُ ... فَفَكِّرْ فِي أَلَمْ نَشْرَحْ
فَإِنَّ الْعُسْرَ مَقْرُونٌ ... بِيُسْرَيْنِ فَلَا تَبْرَحْ

قَالَ: فواصلتُ قرَاءَتهَا فِي صَلَاتي، فشرح الله صَدْرِي، وأزال همي وكربي، وَسَهّل أَمْرِي[3].

(١) أي: لا وجع ولا داء بي. انظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٢٣٢).
(٢) «نشوار المحاضرة» (٢/ ٢٨٧).
(٣) «الفرج بعد الشدة» (١/ ١٠٧ ـ ١٠٨).

روى أبو مُظَفر السَّمْعَاني عن والده، قال: سمعت سعد بن نصر الواعظ الحيوان يقول: «كنتُ خائفًا من الخليفة؛ لحادِث نَزَل، واشتد الطَّلَب لي، فاخْتَفَيْتُ، فرأيت في النوم ليلة من الليالي كأني في غرفة جالس على كُرْسِيّ وأنا أكتب شيئًا، فجاء رجل فوقف بإزائي، وقال: اكتب ما أُمْلي عليك، وأنشدني:

ادْفَعْ بِصَبْرِكَ حَادِثَ الأَيَّامِ ... وَتَرَجَّ لُطْفَ الْوَاحِدِ الْعَلّامِ
لَا تَيْأَسَنَّ وَإِنْ تَضَايَقَ كَرْبُهَا ... وَرَمَاكَ رَيْبُ صُرُوفِهَا بِسِهَامِ
فَلَهُ تَعَالَى بَيْنَ ذَلِكَ فُرْجَةٌ ... تَخْفَى عَلَى الْأَبْصَارِ وَالْأَوْهَامِ
كَمْ مِنْ نَجِيٍّ بَيْنَ أَطْرَافِ القَنَا ... وَفَرِيسَةٍ سَلِمَتْ مِنَ الضِّرْغَامِ

قال: فلما أصبحت أتى الفرج، وزال الخوف والحَرَج»[(١)].

وبعد بيان هذه الأمور التي تُعين على الصبر بوجه عام يَحْسُن بنا أن نتحدَّث عن ثلاثة أمور مما تكثر حاجة الناس إلى بيانها في مسألة الصبر:

الأمر الأوَّل: في الأمور التي تُعِينُ على الصبر عن الشهوة.

والأمر الثاني: في الأمور التي تُعِين على الصبر عن معصية الله ﷻ.

والأمر الثالث: في الأمور التي تعين على الصبر على أذى الناس.

أولًا: الأمور التي تعين على الصبر عن الشهوة:

«لما كان الصبر مأمورًا به جعل الله سبحانه له أسبابًا تُعين عليه، وتوصِّلُ إليه. والصبر وإن كان شاقًّا كريهًا على النفوس لكن تحصيله مُمْكِنٌ، وهُوَ يَتَرَكَّبُ من مُفْرَدَيْن: العِلْمُ والعَمَلُ؛ فَأَمَّا الجُزْء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنَّفْع واللَّذَّة، وإدْرَاك ما في المحظور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العِلْمين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية، فمَتَى فعل ذلك حصل له الصبر، وهانت عليه مشاقُّهُ.

وقد عُلِمَ أَنَّ فِي الصبر عن الشهوات المُحَرَّمَة مصارعة باعث العقل والدِّينِ لباعث الهوى والنَّفْس، وكلّ مُتَصَارِعَيْنِ يُرَاد أن يَتَغَلَّبَ أحدُهُمَا على الآخر، فالطريق فيه تقوية مَنْ يُرَاد أن تكون الغَلَبَة له، وإضعاف الآخر. فإذا عزم على التَّدَاوِي، ومقاومة هذا الدَّاء، **فليضْعِفْهُ أولًا بأُمور:**

١ ـ أن ينظر إلى مادة قوّة الشهوة فيحدّها، فإن لم تَنْحسم فليُبَادِرْ إلى الصوم؛ فإنه يُضْعِف مجَارِي الشَّهْوَة، ويكسر حِدَّتها.

(١) «حياة الحيوان» للدميري (٢/ ١٠١).

٢ ـ أن يَقْصُر لِجَام طَرْفه ما أمكنه، فإن داعي الإرادة والشهوة إنما يُهَيَّج بالنظر.

٣ ـ تسلية النَّفْس بالمباح المُعَوِّض عن الحرام.

٤ ـ التَّفَكُّر في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوَطَر.

٥ ـ التفكُّر فِي مَقَابِح الصّورة التي تدعوه نَفْسه إليها.

وأمَّا تَقْوِيَةُ باعث الدِّينِ، **فإنه يكون بأمور**:

١ ـ إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعْصَى وهو يرى ويسمع.

٢ ـ تحقيق محبَّتِهِ سبحانه، فيترك معصيته محبَّةً لَهُ؛ فإن المُحِب لمن يُحِبّ مُطِيع.

٣ ـ استحضار النِّعْمَةِ والإِحْسَانِ؛ فإن الكريم لا يُقَابِل بالإساءة مَنْ أَحْسَن إليه، وإنما يفعل هذا لئام الناس.

٤ ـ استحضار الغضب والانتقام؛ فإنَّ الرَّبَّ تَعَالى إذا تمَادَى العَبْدُ في مَعْصِيَتِهِ غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شَيْءٌ.

٥ ـ ملاحظة الفَوَات، وَهُوَ مَا يفوته بالمعصية مِنْ خَيْرَي الدّنْيَا والآخرة.

٦ ـ استحضار لذة القَهْر والظَّفَر؛ فإنَّ قَهْرَ الشَّهْوَةِ والظَّفَر بالشيطان له حلاوة ومسَرَّة وفَرْحَة عند مَنْ ذَاقَ ذلك أعظم من الظَّفَر بعدوِّهِ من الآدميِّينَ.

٧ ـ انتظار العِوَض، وهو ما وَعَدَ الله سبحانه من تعويض مَنْ تَرك المحارم لأجله، ونهى نَفْسه عن هواها.

٨ ـ استحضار المعية، وهي نَوْعَانِ: معية عامَّة، ومعِيَّة خاصَّةٌ.

فالعامة: اطِّلَاعُ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وكونه بعينه، لا تَخْفَى عليه حاله.

والمقصود هنا: المعية الخاصة، وهي التي تقتضي النَّصْر والتَّأْييد لمن أُضِيْفَت له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨][1].

٩ ـ الخوف من المُعاجلة والمُبَاغَتة، وهو أن يخاف أن يُعَاجِلَهُ الأَجَل، فيأخذه الله على غِرَّة، فيُحَالُ بَيْنَهُ وبين ما يشتهي مِنْ لَذَّاتِ الآخِرَةِ.

١٠ ـ التفكر في البلاء والعافية؛ فإن البلاء في الحقيقة ليس إلَّا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها؛ فأهل البلاء هم أهل المعصية، وإن عُوفِيَتْ أَبْدَانُهُمْ، وأهل العافية هم أهل الطاعة، وإن مَرِضَتْ أَبْدَانهم.

---

(١) انظر: «فتح البرية بتلخيص الحموية» (٥٧ ـ ٥٨).

١١ ـ أن يُعَوِّد باعث الدِّين ودَوَاعِيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلًا قليلًا، حتى يُدْرِكَ لَذَّةَ الظَّفَرِ، فتقوى حينئذ هِمَّتُهُ.

١٢ ـ كف الباطل عن حديث النَّفْس، وإذا مَرَّتْ بِهِ الخواطر نفاها، ولا يُؤْويها ويساكنها؛ فإنَّها تصير أماني، وهي رؤوس أموال المفاليس.

١٣ ـ قَطْعُ العَلَائِقِ والأسباب التي تدعوه إلى موافقة الهَوَى، فيصرف هَوَاهُ إلى ما ينفعه، ويَسْتَعْمِلُه في تنفيذ مراد الرَّبّ تعالى؛ فإن ذلك يدفع عنه شَرّ استعماله في معاصيه.

١٤ ـ صَرْف الفِكْر إلى عجائب آيات الله التي نَدَب عباده إلى التفكّر فيها، وهي آياته المَتْلُوّة، وآياته المَجْلوّة، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه وساوس الشيطان.

١٥ ـ التفكر في الدنيا، وسرعة زَوَالِهَا، وقُرْب انقضائها، فلا يَرْضى لنفسه أن يتزوَّد منها إلى دار بقائه، وخلوده بأخسّ ما فيها وأقلّه نفعًا إلا ساقط الهِمَّة، دَنِيء المروءة، ميّت القَلْبِ.

١٦ ـ تعرّضه إلى مَنِ القلوب بين إصبعيه، وأَزِمَّةُ الأمور بيديه، وانتهاء كل شيء إليه، فَلَعَلَّهُ أن يُصَادف ساعة من الساعات التي لا يُسْأَل الله فيها شيئًا إلا أعطاه.

١٧ ـ أن يعلم العبد أنَّ تَفْرِيغَ المَحل شرطٌ لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدَّغَل شرط لكمال الزَّرْعِ، فإذَا طَهَّرَ العبد قلبه، وفَرَّغَهُ مِنْ إرَادَة السّوء وخواطره، وبذَرَ فيه بَذْر الذِّكْر والفِكْر والمحبة والإخلاص، وعرَّضَهُ لمهابِّ رياح الرحمة، وانتظر نزول الغيث في أوانه كان جديرًا بحصول المُغَلّ.

١٨ ـ أن يعلم العبد بأن فيه جاذِبَيْن متضادَّيْنِ، ومِحْنَته بين الجاذِبَيْن: جاذب يجذبه إلى الرّفيق الأعلى من أهل عِلِّيّين، وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين.

١٩ ـ أن يعلم العبد أن الله سبحانه خَلَقه لبقاء لا فناء له، ولِعِز لا ذُلَّ معه، وأَمْن لا خوف فيه، وغِنَاء لا فَقْرَ معه، ولَذَّة لا أَلَم معها، وكمال لا نَقْصَ فيه.

٢٠ ـ ألَّا يغترّ العبد باعتقاده أن مجرَّدَ العِلْمِ بِمَا ذَكَرْنا كافٍ في حصول المقصود، بل لا بد أن يُضِيف إليه بذل الجهد في استعماله، واستفراغ الوسع والطاقة فيه»[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر عن الشهوة أسْهَل من الصبر على ما تُوجِبهُ الشهوة، فإنها إما أن توجب أَلَمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذَّة أكمل منها، وإما أن تُضَيِّع وقتًا إضاعتُه حسرةٌ وندامةٌ، وإما أن تَثْلُم عِرْضًا توفيرُه أنفع للعبد من ثَلْمه، وإما أن تُذهب

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (١٠٢ ـ ١١٣) باختصار وتصرف.

مالًا بقاؤه خيرٌ له من ذهابه، وإما أن تَضَع قَدرًا وجاهًا قيامُه خير من وَضْعِهِ، وإما أن تَسْلُب نعمة بقاؤها ألَذّ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تَطْرُق لِوَضِيْع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تَجْلِب همًّا وغمًّا وحُزْنًا وخوفًا لا يقارب لذَّةَ الشهوة، وإما أن تُنْسِي عِلْمًا ذِكْرُه أَلَذّ من نَيْلِ الشهوة، وإمَّا أن تُشْمِت عدوًّا، وتُحْزِنَ وليًّا، وإما أن تَقْطَع الطريق على نِعْمَة مقبلة، وإمَّا أَنْ تُحْدِث عَيْبًا يبقى صفة لا تزول؛ فإنَّ الأعمال تُورِثُ الصفات والأخلاق»[1]. اهـ.

ثانيًا: الأُمور المُعِينَة على الصبر عن المعصية:

«اعلم أن الصبر عن المعصية ينشأ من عدة أسباب، **منها**:

١ ـ علم العبد بِقُبْحِهَا ورذَالتها ودناءتها، وأن الله إنما حَرَّمَهَا، ونَهَى عنها صيانة وحمايةً من الدَّنَايَا وَالرَّذائل.

٢ ـ الحياء من الله ﷻ؛ فإن العبْدَ مَتَى عَلِمَ بِنَظَره إليه، وأنه بمرأى منه ومسْمَع، وكان حييًّا استحيا مِنْ رَبِّه أن يتعرَّضَ لمساخطه.

٣ ـ مراعاة نِعَمِهِ عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تُزِيلُ النِّعم.

٤ ـ خَوْف الله وخشية عِقَابِهِ، وهذا السبب يَقْوَى بِالْعِلْم.

٥ ـ مَحَبَّةُ اللهِ، وَهِيَ أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه؛ فإن المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبّ مطيعٌ، وكُلَّمَا قَوِيَ سُلْطَان المحَبَّة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقْوَى.

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ المحبة المُجَرَّدة لا تُوجِب هذا الأثر ما لم تَقْتَرِنْ بِإِجْلَالِ المحبوب وتعظيمه، فإذا قارَنَهَا الإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة.

٦ ـ شَرَف النَّفْس، وزكاؤها، وفضلها، وأَنَفَتُها، وحَمِيَّتُها أن تْخَتَار الأسباب التي تَحُطّها، وتضع من قَدْرها، وتخفض منزلتها.

٧ ـ قوة العِلْم بسوء عاقبة المعصية، وقُبْح أثرها، والضرر الناشئ منها؛ من سواد الوجه، وظلمة القلب وضِيقِهِ وغَمِّهِ وحُزْنِهِ وألمِهِ.

ومنها: فَقْره بعد غِنَاهُ، ونقصان رزقه.

ومنها: زوال المهابة والحلاوة التي لَبِسَها بالطاعة.

ومنها: حصول البِغْضة والنُّفْرة منه في قلوب الناس.

(١) «الفوائد» (ص٢٠٢ ـ ٢٠٣).

ومنها: ضياع أعز الأشياء عليه، وأَنْفَسها، وأغلاها؛ وهو الوقت الذي لا عِوَضَ منه، ولا يعود إليه أبدًا.

ومنها: طَمَع عدوِّه فيه، وظَفَره به.

ومنها: الطَّبْع والرَّين على قَلْبِهِ.

ومنها: أن يُحْرَمَ حَلَاوة الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومَزِيدِ الإيمان.

ومنها: أن تمنع قلبه من تَرَحّله من الدنيا، ونزوله بساحة القيامة.

ومنها: إعراض الله وملائكته وعباده عنه.

ومنها: أن الذَّنْب يستدعي ذنبًا آخر، ثُمَّ يقوى أحدهما بالآخر، فيستدعيان ثالثًا، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعي رابعًا، وهلُمَّ جَرًّا، حتى تَغْمُرَهُ ذنوبه، وتُحِيط به خطيئته.

ومنها: عِلْمه بفوات ما هو أحب إليه وخيرٌ له منها، فإنَّهُ لا يجمع الله لعبده بين لذَّة المحرَّمات في الدنيا ولذَّة ما في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

ومنها: عِلْمه بأنَّ عَمَلَهُ هو وليّه في قَبْرِهِ، وأنيسه فيه، وشفيعه عند رَبِّه، والمُخَاصِمُ والمُحَاجّ عنه.

ومنها: عِلْمه بأن أعْمَال البرّ تنهض بالعبد، وتقوم به، وتصْعَد إلى الله به. وأعمال الفجور تهوي به، وتجذبه إلى الهاوية.

ومنها: خروجه من حصْن الله الذي لا ضَيْعَة على مَنْ دَخَله، فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهبًا للصوص وقُطَّاع الطريق.

ومنها: أنه بالمعصية قد تعرَّض لمحْقِ بَرَكَتِهِ.

وبالجملة: فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يُحِيط بها العبد عِلْمًا، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها عِلْمًا.

٨ ـ قِصَر الأمل، وعِلْمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية، وهو مُزْمِع على الخروج منها، أو كراكب قَالَ في ظِلِّ شَجَرَة، ثم سار وتركها، فَهُوَ ـ لعِلْمه بقِلَّة مُقَامِهِ، وسرعة انتقاله ـ حريص على تركِ مَا يُثْقله حمْله، ويضرّه، ولا ينفعه، حريص على الانتقال بخير ما بِحَضْرَتِهِ.

٩ ـ مجانبة الفضول في مَطْعَمِهِ، ومشربه، وملبسه، ومنامه، واجتماعه بالناس؛ فإنَّ قوة الدَّاعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات.

١٠ ـ وهو الجامع لهذه الأسباب كلها: ثبات شجرة الإيمان في القلب، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بِحَسَب قوَّة إيمَانِهِ، فكُلَّما كان إيمانه أقوى كان صبره أَتَمّ، وإذا ضَعُفَ الإيمان ضَعُفَ الصبر.

والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة، والآثار الجميلة»[(١)].

ثالثًا: الأمور المعينة على الصبر على الأذى الواصل إليه من الخلق:

فهناك أمورٌ تُعِين على هذا النوع من الصبر، وقد ذكر جملة منها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في رسالة لطيفة عنوانها: «قاعدة في الصبر»[(٢)]:

«**أحدها**: أن يشهد أنَّ اللهَ تعالى خالقُ أفْعَالِ العباد، فلا يتحرَّك شَيْء إلا بمشيئته، فانظر إلى الَّذِي سَلَّطَهُمْ عَلَيْكَ، ولا تنظر إلى فِعْلهم بك تَسْتَرِحْ مِنَ الهَمِّ والغَمِّ.

الثاني: أن يشهد العبد ذُنُوبَهُ، وأن الله سَلَّطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

الثالث: أن يشهد العبد حُسْن الثواب الذي وَعَدَه الله لمن عفا وصَبَر، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

الرابع: أن يشهد أنه إذا عفا وأحسن أوْرَثَهُ ذلك مِنْ سَلَامَةِ القلب لإخوانه، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذَّته ومَنْفَعَته عاجلًا وآجلًا، على المَنْفَعة الحاصلة له بالانتقام أضعافًا مضاعفة، كما يدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الخامس: أن يعلم أنَّه ما انتقم أحد لنفسه قط إلَّا أوْرَثَهُ اللهُ ذَلِكَ ذُلًّا يجده في نَفْسه، فإذا عفا أعَزَّهُ الله، وقد قال النبي ﷺ: «**وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلَّا عِزًّا**»[(٣)].

السادس: أن يشهد أن الجزاء مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وأنه نَفْسه ظالم مذنب، وأن مَنْ عَفَا عن الناس عفا الله عنه، ومَنْ غَفَرَ غَفَرَ اللهُ لَهُ.

السابع: أن يعلم أنه إذا اشتغلت نَفْسه بالانتقام ضاع عليه زمانه، وتَفَرَّقَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٨٨ ـ ٥٩٨) باختصار وتصرف.
(٢) «جامع المسائل» (١/ ١٦٨ ـ ١٧٤) بتصرُّف واختصار.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الثامن: أن يستحضر أن رسول الله ﷺ لم ينتصر لنفسه قط[١]، مع أن أذاه أذًى لله، ويتعلَّق به حقوق الدِّين، وأن نَفْسه أشرف الأنفس وأزْكَاهَا وأبرّها.

التاسع: أن يَشْهَدَ معيَّة الله ومحبَّته له إذا صَبر، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

العاشر: أن يشهد أن الصبر نِصْف الإيمان، فإذا صبر أحرز نِصْف إيمانه من النَّقْص.

الحادي عشر: أن يشهد أن صَبْرَه حُكْم منه على نَفْسه، وقهرٌ وغلَبَة لها، فمتى كانت النَّفْس مقهورة معه مغلوبة، لم تطمع في استرقاقه وأسره وإلقائه في المهالك.

الثاني عشر: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولا بد، فالله وكيل مَنْ صَبَرَ، ومَنِ انْتَصَرَ لنَفْسه وَكَله الله إلى نَفْسه، فكان هو الناصر لها، فأين من نَاصِره الله خير الناصرين إلى مَنْ نَاصِره نَفْسه أعجز الناصرين وأضعفهم؟!

الثالث عشر: أن صبره على مَنْ آذاه واحتماله له يُوجِب رجوع الخَصْم عن ظلمه، ويوجب ندامته واعتذاره، ولوم الناس له، فيعود بعد إيذائه له مُسْتحيًا منه، نادمًا على ما فعله، بل يصير مُواليًا له، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

وشَتَم رجل ابن عباس رضي الله عنهما، فلما قضى مقالته قال: «يا عكرمة! انظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنَكس الرجل رأسه، واستحيا»[٢].

الرابع عشر: أنه ربما كان انتقامه ومقابلته سببًا لزيادة شَرّ خَصْمه، وقوة نَفْسه، فإذا صبر وعفا أَمِنَ مِنْ هَذَا الضَّرَر.

الخامس عشر: أنَّ مَنِ اعْتَادَ الانْتِقَامَ وَلَمْ يَصْبِر لا بد أن يقع في الظلم؛ فإن الغضب يَخْرُج بصاحبه إلى حَدٍّ لَا يَعْقِل معه ما يقول ولا ما يفعل.

السادس عشر: أن هذه المظلمة التي ظلمها هي سبب إما لتكفير سيئة، أو رفع درجة؛ فإذا انْتَقَمَ ولم يصبر لم تكن مُكَفّرة لسيّئته، ولا رافعة لِدَرَجَتِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الغضب» كما عزاه إليه الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (٨/ ٣٣)، وحسّنه المحب الطبري في «ذخائر العقبى» (ص٣٨٨).

السابع عشر: أنَّ صَبْرَهُ وعفوه من أكبر الجند له على خصمه، فإن مَنْ صَبر وعفا كان ذلك مُوجِبًا لذُلّ خصمه وخوفه وخشيته منه ومن الناس.

الثامن عشر: أنه إذا عفا عن خصمه استشعرت نَفْس الخصم أنه فوقه، وأنه قد رَبِحَ عليه، فلا يزال يرى نَفْسه دونه، وكفى بهذا فضلًا وشَرَفًا للعفو».

والنفوس الشريفة التي شرُفت بما تحمله من المعاني الطيّبة، والعقائد الصحيحة، والأعمال القويمة تنجذب إلى الأعلى، وترتفع هِمَم أصحابها، ويكون اشتغالها بمعالي الأُمور.

وأما النفوس الوضيعة فتسعى لسفاسف الأمور وسافلها، وتتطلَّع إليها.

التاسع عشر: أن نعرف طبيعة كل أحد ممَّن نَتَعَامَل معه من الناس، فنُعَامِلُهُ بمقتضى ما نَعْرِفُه من حاله.

فلعلَّك تجد الرجل من عادته ألا يضبط لسانه، فتنفلت منه الكلمة الساقطة المؤذية وهو لا يشعر بها، ولا يقصد بها أذى أحد من الناس، ولكنها عند التحقيق والتأمل تكون مما ألقاه الشيطان على لسانه.

فعِلْمنا بأنه سليم الناحية، خالي الصدر من إضمار السوء، مع عِلْمِنَا بهذا الداء فيه مما يُعِين على الصبر على أذاه واحتماله، ولعله إذا ذُكِّرَ نَدِم وتأسَّف لما بَدَرَ منه.

العشرون: أن يجعل العَبْد حظّ نَفْسه خَلْف ظهره، ولا يَكْتَرِث بما يسمعه من الناس، وما يَصِله من أذاهم، بل ويُحْسِن الظنّ بمَنْ أسَاءَ إليه، ويحمل كلامه على خير محامله.

وأمَّا مَنْ تَتَبَّعَ الناس في زلَّاتِهِمْ، وسَقَطَات ألسنتهم، وأسَاءَ الظَّنَّ بِهِمْ، وحاسَبَهُمْ على كل حركاتهم وسكناتهم؛ فإنه حرِيٌّ أن يُنَغِّص عليه عيشه، وتتتابع الأحزان على قلبه، ولا يكاد يصفو له خليل أو صاحب.



عقبات في طريق الصبر

وقد نَصَب الشيطان في طريق الخير كل عَقَبَة يستطيع وضْعَها؛ ليصدّ عن سبيل الله، وجعل على طريق الصبر عَقَبَة كؤودًا، وهي ضَعْف العزيمة، وقلَّة الاحتمال، وجعل مِنْ دُونِهَا عَقَبَات وعَقَبَات. **فمِنْ ذَلِك**:

١ ـ **العَجَلَة**: قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وفي الحديث: «**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»[١].

وقد قال مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز حين وَلَّاهُ مِصْرَ: «لا تَعْجَلْ بالعُقُوبَةِ إذا أشكل عليك الأمر؛ فإنك على العقوبة أقدر منك على ارتجاعها»[٢].

وقد قيل[٣]:

تَـأَنَّ وَلَا تَـعْـجَـلْ وَكُـنْ مُـتَـرَفِّـقًـا ... وَكُـنْ رَاحِـمًـا بِـالـنَّـاسِ تُـبْـلَ بِـرَاحِـمِ

٢ ـ **اليأس**: واليأس والصبر لا يجتمعان أبدًا؛ ولذلك فالمؤمن لا يَيْأَس.

٣ ـ **الضيق**: وهو ضيق الصَّدْر عن الاحتمال، مما يؤدِّي في الغالب إلى سوء التصرّف.

٤ ـ **الغضب**: وهو عدوّ الصبر، وأكبر مُعِين للشيطان على ابن آدم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»، فردَّدَ مِرارًا، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»[٤].

ولذلك؛ كان الذي يملك نَفْسه عند الغضب أعْظَم الناس قُوَّةً، وأشدّهم صبرًا واحتمالًا لأذى الخلق.

والغضب يؤول إلى التَّقَاطُع ومنع الرفق، ورُبَّما آل إلى أن يؤذي المغضوب عليه، ويُفْرط في أذاهُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٢) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وضعفه الترمذي، والألباني في «الجامع» (٢٣٠٠). ورُوِيَ أيضًا من حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البيهقي (١٠/ ١٠٤) وغيره، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٧٩٥)، وفي الباب عن ابن عباس، وعقبة بن عامر رضي الله عنهم وعن الحسن مرسلًا، راجع: «اللآلئ المنثورة» للزَّرْكَشِي (٣٤)، و«المقاصد» (٣١٢)، و«كشف الخفاء» (٢/ ٦٥).

(٢) «بهجة المجالس» (١/ ٢٦٧).

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٦٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦١١٦).

ثمرات الصبر[(١)]

١ ـ الصبر يُنِير الطَّرِيقَ، وذلك أنه يهدي العبد للخير، ويدلّه عليه، ويأخذ بيده؛ فَلَا يَزَالُ العبد مُسْتضيئًا بالصَّبْر، ومُسْتمرًّا على الصَّوَاب.

فعن أبي مالك الأشعريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... **والصَّلَاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»[(٢)].

٢ ـ **الصبر يُعِينُ عَلَى تحمُّلِ المشاقّ**: فالصَّبْرُ عَوْنٌ على تحمّل ما يشقّ من تكاليف شرعيَّة، والقيام بها طاعة لله بنَفْسٍ مطمَئِنَّة رضيَّة إن كانت أوامر، وحَجْز النَّفْس وقهرها عن ارتكابها إن كانت نواهي، والصبر عليها، واحتسابها عند الله إن كانت أقدارًا مؤلمة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣]، ومَنْ كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإِنْ كَانَتْ أعظم من الجبال.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ**»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك! فقال: «**كَيْفَ أَنْتَ إِذَا أَصَابَ النَّاسَ مَوْتٌ يَكُونُ البَيْتُ فِيهِ بِالْوَصِيفِ؟**» ـ يعني: القبر ـ قلت: الله ورسوله أعلم ـ أو: ما خَارَ الله لي ورسوله ـ، قال: «**عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ**» أو قال: «**تَصَبَّرْ**»[(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قَبْرٍ، فقال: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**» الحديث[(٤)].

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «الرِّضَا قليل، والصبر مُعَوَّل المؤمن»[(٥)].

---

(١) انظر: «نضرة النعيم» (٦/ ٢٤٧١ ـ ٢٤٧٢). (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٦١، ٤٤٠٩) واللفظ له، وابن ماجه (٣٩٥٨)، وصحَّحه ابن حبان (٥٩٦٠، ٦٦٨٥)، والحاكم (٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧) و(٤/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤)، والذَّهبي، والألباني في «الإرواء» (٨/ ١٠١).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٩٣). وهناد في «الزهد» (٣٩٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٤٢).

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شَكَوْنَا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدَة له في ظِلّ الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالمنشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِك عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِك عَنْ دِينِهِ**»(١).

٣ ـ **الثبات على الحق، قال شيخ الإسلام** رحمه الله: «وليصبر على ما يَعْرِض له من الموانع والصّوارف؛ فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه»(٢). اهـ.

وفي حديث أصحاب الأُخْدُود، لمَّا أمر المَلِك بالأخاديد، فخُدَّتْ في أفواه السِّكَك، وأَضْرَم النيران، وقال: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عن دينه فأحْمُوه(٣) فيها ـ أو قيل له: اقتحم ـ؛ ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لهَا، فتقاعست أنْ تَقَعَ فِيهَا، فقال لها الغلام: يا أُمَّهْ، اصْبِرِي؛ فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ(٤).

ولما خرج قارون على قومه في كامل زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا في حَسْرة وتلهُّف: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

٤ ـ **النَّجاح في الابتلاء**: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**»(٥).

٥ ـ **الأجر والثَّواب ودخول الجنَّة**: فالصَّبْر من صفات عباد الرحمٰن التي استحقّوا بِهَا الجَنَّة العَالِيَة بفضل الله، ولُقُّوا فيها التَّحِيَّة وَالسَّلَامَ، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان: ٧٥](٦).

وقال تعالى: ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٣٧).
(٣) هكذا هو في عامة النُّسَخ من «صحيح مسلم»، ونقل القاضي عياض في «إكمال المعلم» (٨/ ٥٥٧) اتفاق النسخ على هذا، ووقع في بعض النسخ عند النووي: (فأقحموه).
(٤) أخرجه مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب رضي الله عنه.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) راجع: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٣٣).

وقال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولـمَّا كان في الصبر من حَبْس النَّفْسِ، والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن؛ من التَّعَب والنَّصَبِ والحرارة ما فيه، كان الجزاء عليه بالجنَّةِ الَّتِي فيها السَّعة، والحرير الذي فيه اللِّين والنّعومة، والاتِّكَاء الذي يَتَضَمَّن الرَّاحة، والظِلال المنافية للحرّ»[(١)]. اهـ.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا عظمت المِحْنَة كان ذلك للمؤمن الصالح سَببًا لِعلُو الدرجة وعظيم الأجر»[(٢)]. اهـ.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ قال: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيْ بِحَبِيْبَتَيْهِ فَصَبَر عَوَّضْتُه مِنْهُمَا الجَنَّةَ**»[(٣)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال لِنِسْوَة من الأنصار: «**لَا يَمُوتُ لِإحْدَاكُنَّ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَحْتَسِبُهُ إلا دَخَلَتِ الجَنَّةَ**». فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله؟! قال: «**أَوِ اثْنَيْنِ؟**»[(٤)].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ضَرَّهُمْ مَا أَصَابَهُمْ في الدنيا، جَبَرَ الله لهم كل مصيبة بالجنة»[(٥)].

وكما قيل:

اصْبِـرْ فَـصَـبْـرُ الـمَـرْءِ بِـالـرَّحْـمَـنِ ... وَالـصَّـبْـرُ شَـطْـرُ الـدِّيـنِ وَالإيـمَـانِ
وَالـلَّـهُ يُـعْـطِـي الـصَّـابِـريـنَ أُجُـورَهُـمْ ... مِـنْ غَـيْـرِ عَـدٍّ مِـنَّـةُ الـرَّحْـمَـنِ
الـصَّـابِـرُونَ هُـمُ الـضِّـيَـاءُ بِـأَرْضِـنَـا ... وَمَـكَـانُـهُـمْ فِـي جَـنَّـةِ الـرِّضْـوَانِ

٦ - الفلاح في الآخرة: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لا سَبِيلَ إلى الفلاح بدون

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٨٤).
(٢) «الاستقامة» (٢/ ٢٦٠).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٣٢/ ١٥١).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٧٩).

الصبر والمُصَابَرة والمُرَابَطَة المذكورات، فلم يفلح مَنْ أفلح إلَّا بِهَا، ولم يَفُتْ أحدًا الفَلَاحُ إلا بالإخْلَال بها أو ببعضها»[١] .اهـ.

٧ ـ **مجازاتهم بأحسن الأعمال**: قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «قَسَمٌ مِنَ الرَّبِّ ﷻ مُتَلَقًّى باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم؛ أي: ويَتَجَاوَز عن سيِّئها»[٢] .اهـ.

٨ ـ **توفيتهم أجورهم بغير حساب**: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

قال ابن جُزَي رحمه الله تعالى: «قال بعض العلماء: كل الحسنات لها أجر محصور، من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلَّا الصبر؛ فإنه لا يُحْصَر أجره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾»[٣] .اهـ.

٩ ـ **محبة الله للصابرين**: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وهذا أعظم شرف لهم، وأكرم عطاء، وأجلّ كَرَامَة.

١٠ ـ **معيَّة الله**: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وفي هذا دليل على أنه مُعَان من قِبَلِ الله، وأن الله يُعِين الصابر، ويُؤَيِّده، ويكْلَؤُه، حتى يتم له الصبر على ما يحبّه الله.

١١ ـ **لهم البشرى من الله والصلاة والرحمة والهداية**: قال الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فـ«نِعْمَ العِدْلان، ونعمت العِلَاوة، فبِالهُدَى خلصوا من الضلال، وبالرَّحْمَةِ نجوا من الشقاء والعَذَابِ، وبِالصَّلَاةِ عَلَيْهِم نالوا مَنْزِلَةَ القُرْبِ والْكَرَامة.

والضالون حصل لهم ضِدّ هذه الثلاثة: الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضِدِّ الرَّحْمَة؛ من الأَلَم والعذاب والذَّمّ، واللَّعن الذي هو ضِدُّ الصَّلَاة»[٤].

١٢ ـ **السلامة من الشرور**: ففي الصبر السلامة من شَرّ الأشرار، ووقاية مِنْ كَيْدِ الفُجَّار، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٧٣).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٠١).
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» (١/ ٦٥).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٨٩٩).

١٣ ـ **النصر**: «وقد ذكر الله الصبر والتقوى جميعًا في غير موضع من كتابه، وبيَّن أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين، وعلى مَنْ ظَلَمَه من المسلمين، ولِصَاحِبِه تكون العاقبة، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٥]... وقال الله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال إخوة يوسف له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٩٠]»[١].

وقد قال النبي ﷺ: «**النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ، وَالْفَرَجُ مَعَ الْكَرْبِ**»[٢].

١٤ ـ **التمكين**: **قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى**: «سُئِلَ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أيما أفضل للرجل: أن يُمَكَّن ـ يعني: فيَشْكُر الله عَزَّ وَجَلَّ ـ أو يُبْتَلَى؟ ـ يعني: فيصبر ـ، قال: لا يُمَكَّن حتَّى يُبْتَلَى، والله تعالى ابْتَلَى أولي العَزْمِ من الرسل، فَلَمَّا صَبَرُوا مَكَّنَهُمْ»[٣]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «جَعَلَ الله الإمامة في الدِّين موروثة عن الصبر واليقين: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فإن الدِّينَ كله عِلْم بالحق وعمل به، فالعمل به لا بُدَّ فِيهِ من الصبر، بل وطلب عِلْمه يحتاج إلى الصَّبْرِ، كَمَا قَالَ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّ طَلَبَهُ للهِ عِبَادَة، ومعرفته خَشْيَة، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح، به يُعْرَف الله ويُعْبَد، وبه يُمَجَّد الله ويوحَّد. يرفع الله بالعلم أقوامًا، يجعلهم للناس قادة وأئمّة يهتدون بهم، وينتهون إلى رأيهم»[٤].

فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بد في الجهاد من الصبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ [العصر: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ [ص: ٤٥]، فالعِلْم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد، وضد الأول الضلال، وضد الثاني الغَيّ، فالضلال العمل بغير عِلْم، والغَيّ اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٧٥ ـ ٦٧٦).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «زاد المعاد» (٣/ ١٣).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٨) بنحوه.

وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ [النجم: ١، ٢]، فلا يُنال الهدى إلا بالعلم، ولا يُنال الرَّشَادُ إِلَّا بِالصَّبْرِ؛ ولهذا قال عليٌّ رضي الله عنه: «أَلَا إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإيمان بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ». ثم رفع صوته فقال: «ألا لَا إيمانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ له»»[1]. اهـ.

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «الصبر لِقاح اليقين، فإذا اجْتَمَعَا أَوْرَثَا الإمامة في الدِّين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]»[2]. اهـ.

قال ابن عُيَيْنة: «أخذوا برأس الأمر فجعَلَهم رؤساء»[3].

وقال ابن القيم رحمه الله: «جَمَع سبحانه بين الصَّبْرِ واليَقِينِ؛ إِذْ هُمَا سعادة العبد، وفَقْدَهُما يُفْقِده سعادته؛ فإن القلب تَطْرُقُه طوارق الشهوات المُخَالِفة لأمْرِ اللهِ، وطوارق الشبهات المخالِفَة لخَبَرِه، فبِالصَّبْرِ يَدْفع الشَّهَوات، وباليقين يَدْفع الشبهات؛ فإن الشَّهْوَةَ والشُّبْهَةَ مضادَّتَان للدِّينِ من كُلِّ وَجْهٍ، فلا يَنْجُو من عذاب الله إِلَّا من دفع شهواته بالصَّبْرِ، وشبهاته بالْيَقِينِ»[4]. اهـ.

١٥ ـ **بالصبر يرتفع العبد: قال ابن رجب** رحمه الله: «فمَنْ صَبَرَ على مجاهدة نَفْسه وهواه وشيطانه غَلَبَهُ، وحصل له النَّصْر والظَفَر، ومَلَك نَفْسه، فصار عزيزًا مَلِكًا، ومَنْ جَزِع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غُلِبَ، وقُهِرَ، وأُسِرَ، وصَارَ عبدًا ذليلًا أسيرًا في يدي شيطانه وهواه.

كما قيل:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْلِبْ هَوَاهُ أَقَامَهُ ... بِمَنْزِلَةٍ فِيهَا الْعَزِيزُ ذَلِيلُ»[5]. اهـ

وقال ابن القيم رحمه الله: «الإنسان منَّا إذا غَلَبَ صَبْرُه بَاعِثَ الهَوَى والشهوة الْتَحَقَ بالملائكة، وإن غَلَبَ بَاعِثُ الهوى والشهوة صَبْرَه الْتَحَقَ بِالشَّيَاطِين. وإِنْ غَلَب باعث طَبْعِهِ مِنَ الأَكْلِ والشرب والجِماع صَبْرَه الْتَحَقَ بالبَهَائِم.

قال قتادة: «خلق الله سبحانه الملائكة عقولًا بلا شهوات، وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان، وجعل له عقلًا وشهوة، فَمَنْ غَلَب عقْلُهُ شَهْوَتَهُ فهو مع الملائكة، ومَنْ غَلَبَتْ شهوتُه عقلَه فهو كالبهائم»»[6]. اهـ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩ ـ ٤٠).
(٢) «الفوائد» (ص٢٨٩).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٠).
(٤) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص١٨)، وانظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٨٩٠).
(٥) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٧٠).
(٦) «عدة الصابرين» (ص٣٧).

١٦ ـ **ضبط النفس**: وذلك من وجوه عدة، قد مضى الكلام على جملة منها عند بيان مجالات الصبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «في الصبر احتمال الأذى، وكَظْم الغيظ، والعفو عن الناس، ومخالفة الهوى، وتَرْك الأَشر والبَطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩ ـ ١١]»[(١)]. اهـ.

١٧ ـ **الانتفاع والاتعاظ بِعِبَر التاريخ، وآيات الله في الأنفس والآفاق:**

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١].

١٨ ـ **نيل المطالب:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ما أُتِيَ مَنْ أُتِيَ إلا مِن قِبَل إضاعة الشكر، وإهمال الافْتِقَار والدعاء، ولا ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ بمشيئة الله وعونه إلَّا بقيامه بالشكر وصِدْق الافتقار والدعاء، ومِلَاك ذلك الصبر»[(٢)]. اهـ.

وقال وَهْب بن مُنَبِّه: «مكتوب في الحكمة: قُصَر الغايات ثلاث: قُصَر[(٣)] السَّفَه الْغَضَبُ، وقُصَر الحِلْم الراحة، وقُصَر الصبر الظَّفَر»[(٤)].

وقد قيل[(٥)]:

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ ... لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُودَةَ الْأَثَرِ
فَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُطَالِبُهُ ... فَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٦٣).
(٢) «الفوائد» (ص١٤٢).
(٣) قُصَر الشيء وقصاراه: غايته وثمرته. ينظر: مادة: (قصر) من «الصحاح» (٢/ ٧٩٣)، «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٦٩).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (٧١).
(٥) أخرجها البيهقي في «الشعب» (٩٦٢٠)، ومن طريقه ابن عساكر في (٤٢/ ٥٣٠) عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقال أسامة بن منقذ[١]:

اصْبِرْ عَلَى مَا كَرِهْتَ تَحْظَ بِمَا ... تَهْوَى فَمَا جَازِعٌ بِمَعْذُورِ
إِنَّ اصْطِبَارَ الجَنِينِ فِي ظُلَمِ الْ ... أَحْشَاءِ أَفْضَى بِهِ إِلَى النُّورِ

وعن ميمون بن مهران قال: «ما نال رجل من جسيمِ الخَيْرِ، نبيٌّ ولا غيره، إلا بالصَّبْرِ»[٢].

وقال مالك بن دينار: «ما من أعمال البِرِّ شَيْء إلا ودونه عَقَبَة، فَإِنْ صَبر صاحبها أفْضَتْ بِهِ إلى رَوْح، وإن جَزِع رَجَع»[٣].

وقد قيل: «الصَّبْرُ عَلَى الشَّدَائِدِ ينتج الفوائد»[٤].

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا[٥]

١٩ ـ الصبر سبب لتحصيل كل كمال:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الصبر سَبَبٌ في حصول كل كمال، فأكْمَل الخَلْقِ أصْبَرُهم، ولم يتخَلَّفْ عن أحد كماله المُمْكِن إلا من ضَعْف صَبْره؛ فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمَنْ لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص، فإذا انْضَمَّ الثَّبَات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل؛ ولهذا في دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**»[٦].

ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر»[٧]. اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا انْضَافَ إلى الصبر قوّة اليقين والإيمان ترقَّى العَبْد في درجات السعادة بفضل الله تعالى»[٨]. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشجاعة من القلب، وهي ثباته واستقراره عند المخاوف، وهو خُلُقٌ يَتَوَلَّدُ مِنَ الصَّبْرِ وحسْنِ الظن، فإنه متى ظنّ الظَفَر، وساعده الصبر ثبت،

---

(١) «وفيات الأعيان» (١/ ٤٦١).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب» (١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٠) واللفظ له.
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧١).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٣٩٨).
(٥) تقدم.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩).
(٨) قاعدة في «الصبر» (ص١٦٨) بتصرُّف يسير.

كما أن الجُبْن يتولَّدُ مِنْ سوء الظن وعَدَمِ الصبر، فلا يظن الظَّفَر، ولا يساعده الصبر»[(١)] .اهـ.

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر لِقَاحُ البَصِيرَةِ، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما. قال الحسن: «إذا شئت أن ترى بصيرًا لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابرًا لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت صابرًا بصيرًا فذاك»»[(٢)] .اهـ.



(١) «الروح» (٢/ ٧٠٥).
(٢) «الفوائد» (ص٢٩٠).

من أخبار أهل الصبر

١ ـ **عن الحارث بن عُمَيْرَة، قال**: إني لجالسٌ عند معاذ بن جبل وهو يموت، وهو يُغْمَى عليه مرّة ويفيق مرّة، فسَمِعْتُه يقول عند إفاقته: «اخْنُق خَنْقَك، فوَعِزَّتِكَ إنّي لأُحِبّك»[١].

٢ ـ **وعن أنس بن مالك** رضي الله عنه، **قال**: «اشتكى ابنٌ لِأَبِي طَلْحَةَ، قال: فمات، وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هَيَّأَتْ شَيْئًا، ونَحَّتْه في جانب البيت، فلمَّا جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هَدَأَت نَفْسه، وأرجو أن يكون قد اسْتَرَاحَ، وظَنَّ أبو طلحة أنها صادقة، قال: فَبَات، فلَمَّا أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعْلَمَتْهُ أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ، ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: «**لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُبارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا**...» قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد، كلهم قد قرأ القرآن»[٢].

والمراد بقوله: (فرأيت لهما)؛ أي: لولدهما المدعو له بالبركة.

٣ ـ وعن منصور بن عبد الرحمٰن عن أُمِّه قالت: «لما صُلِبَ ابْنُ الزّبَيْرِ دخل ابن عمر المسجد، وذلك حين قُتِلَ ابن الزبير وهو مصلوب مطروح، فقيل له: إن أسماء في ناحية المسجد، فمال إليها، فقال: إن هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فاتَّقِي اللهَ، وعَلَيْكِ بالصَّبْرِ، فقالت: وما يَمْنَعُنِي وقد أُهْدِيَ رأس يحيى بن زكريا إلى بَغِيٍّ مِنْ بَغَايا بني إسرائيل»[٣].

٤ ـ **وقيل لسعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه ـ وهو المعروف بإجابة الدعوة ـ: لو دعوتَ الله لبَصَرِك ـ وكان قد أُضِرَّ ـ فقال: «قضاء الله أحبّ إليَّ مِنْ بَصَرِي»[٤].

٥ ـ **وعن محمد بن يزيد قال**: قيل للحسن بن علي: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليَّ مِنَ الغِنَى، والسّقم أحبّ إليَّ مِنَ الصِّحَّة، فقال: رحم الله أبَا ذَرّ، أمَّا أنا أقول:

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٥٤٤) ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١١/ ٤٦٢)، وابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠١).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٩/ ٢٦).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص٩٨٩).

«فمَنِ اتَّكَلَ على حُسْن اختيار الله له لم يتَمَنَّ أنه في غير الحالة التي اختار الله تعالى له، وهذا حَدّ الوقوف على الرضا بما يصرف به القضاء»[(١)].

٦ ـ **وقال المغيرة:** شكى ابن أخي الأحنف بن قيس وجعًا بضرسه، فقال الأحنف: «لقد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة، فما ذكرتها لأحد»[(٢)].

٧ ـ **ولما أرادوا قَطْع رجل عروة قيل له:** لو سقيناك شيئًا حتى لا تشعر بالوَجَع؟ قال: «إنما ابتلاني ليرى صبري، أَفَأُعَارِض أمره بِدَفْع؟!»[(٣)].

٨ ـ وكان له ابن يقال له: محمَّد، وكانَ مِنْ أَحَبِّ وَلَدِهِ، رَكَضَته بغلة فقتلته، فقال عروة: «اللَّهُمَّ كان لي بنون سبعة، فأخذتَ منهم واحدًا، وأبقيت سِتَّة، وكانت لي أطراف أربعة، فأخذت مني طَرَفًا وأبقيت لي ثلاثة، وايمك لئن ابتليتَ لقد عافيتَ، ولئن أخذتَ لقد أبقيتَ»[(٤)].

٩ ـ **وعن الربيع بن أبي مسلم، قال:** «دخلت على سعيد بن جبير حين جِيءَ به إلى الحجاج وهو مُوْثَق، فَبَكَيْت، فقال لي: ما يُبْكِيكَ؟ قُلْت: الذي أرَى بك، قال: فلا تَبْكِ، إن هذا كان في علم الله ﷻ أن يكون، ثم قرأ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]»[(٥)].

١٠ ـ **وعن الشَّعْبِي أن شُرَيْحًا القاضي قال:** «إنّي لأصاب بالمصيبة فأحْمَد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفَّقَنِي للاسترجاع لِمَا أرْجُو فيه من الثواب، وأحْمَدُه إذ لم يجعلها في ديني»[(٦)].

١١ ـ **وعن عمران القصير قال:** «أُصِيبَ مُطَرِّف بن عبد الله بابن له، فأتاه قوم يعزّونه، فخرج إليهم أحسن ما كان بِشْرًا، ثم قال: إني لأستحيي من الله أن أَتَضَعْضَع لمصيبة»[(٧)].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٣/ ٢٥٣).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٨٣).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٧٢).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٤١) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥٠٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٠/ ٢٦١).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٨٩).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ٣١٨).

١٢ ـ **وعن ثابت البُنَاني** عن صِلَة بن أَشْيَم أنه كان يأكل يومًا، فجَاءَهُ رجل، فقال له: مات أخوك، فقال: هيهات!! نُعِيَ إليَّ، اجْلِسْ فَكُلْ، قال: ما سَبَقَنِي إليك أحد!! قال: قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠][(١)].

١٣ ـ **وعن ثابت أيضًا** أن صِلَةَ بن أَشْيَم كان في مَغْزًى لَهُ، ومعه ابن له فقال: أي: بُنَيّ تَقَدَّم فقَاتِلْ حتى أحتسبك، فَحَمل، فقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فاجتمَعَت النساء عند امرأته مُعَاذَة العدوِيَّة، فقالت: مرحبًا، إن كنتنَّ جِئْتنَّ لِتَهْنِئَتِي فمَرْحَبًا بِكُنَّ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن»[(٢)].

١٤ ـ **وكان أبو قلابة عبد الله بن زيد** ممَّن ابْتُلِيَ في بدنه ودينه، أُرِيدَ على القضاء، فهَرَبَ إلى الشام، فمَات بِعَرِيشِ مِصْرَ، وقد ذهبت يداه ورجلاه وبَصَرُهُ، وهو مع ذلك حامد شاكر[(٣)].

١٥ ـ **وقال إبراهيم بن عبد الله**: «صُدِعَ فَتْحُ الموصلي، فقال: يا رَبّ ابْتَلَيتَنِي ببلاء الأنبياء، فشُكْر هذا أن أصلّي الليلة أربعمائة ركعة»[(٤)].

١٦ ـ **وعن إبراهيم بن الوليد قال**: دخلت على إبراهيم المغربي وقد رفَسَتْهُ بغلة، فكسرت رجله، فقال: «لولا مصائب الدنيا لَقَدِمْنا على الله مَفَالِيس»[(٥)].

١٧ ـ **وقال إبراهيم الحربي** ؒ: «قميصي أنظف قميص، وإزاري أوسخ إزار، ما حدَّثت نفسي أنهما يستويان قط. وفرد عقبي مقطوع، وفرد عقبي الآخر صحيح... لا أُحَدِّثُ نفسي أني أصلحها، وما شكوتُ إِلَى أمي، ولا إِلَى أختي، ولا إلى امرأتي، ولا إلى بناتي قط حمى وجدتها، الرجل هو الَّذِي يُدْخِل غَمَّه عَلَى نَفْسه، ولا يُغِمّ عياله، كَانَ بي شقيقة خمسًا وأربعين سنة، ما أخبرت بِهَا أحدًا قط، ولي عشر سنين أُبصر بفرد عين ما أخبرت بِهِ أحدًا، وأفنيتُ من عمري ثلاثين سنة برغيفَين، إن جاءتني بهما أمي أو أختي أكلتُ، وإلا بقيتُ جائعًا عطشان إِلَى الليلة الثانية»[(٦)].

١٨ ـ وذُكِرَ عند الإمام أحمد ؒ ـ لمَّا كان في مرض الموت ـ عن طاوس أنَّه كان يكره الأنين، فلم يَئِنّ حَتّى مَاتَ[(٧)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٩٥) واللفظ له.
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٠٨)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣٩) واللفظ له.
(٣) انظر: «الثقات» لابن حبان (٥/ ٣ ـ ٥).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٢).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٠).
(٧) تقدم تخريجه.

١٩ ـ **وقال محمد بن الحسين**: «كتب رجل إلى بعض إخوانه يعزّيه: مَنْ أَيْقَنَ بالثواب عدَّ المصيبة نعمة، ومصيبة وجَبَ أَجْرُهَا خَيْر مِنْ نِعْمَة لا يُؤَدَّى شكرها»[(١)].

٢٠ ـ **وكان ثابت بن أحمد بن شَبُّويَه يقول**: «كان يُخيَّلُ إليَّ أن لأبي فضيلة على أحمد بن حنبل؛ للجهاد، وفكاك الأسارى، ولزوم الثغور، فسألت أخي عبد الله بن أحمد: أيهما كان أرجح في نفْسك؟ فقال: أبو عبد الله أحمد بن حنبل، فلم أقنع بقوله، وأَبَيْتُ إلا العُجْب بأبي أحمد بن شَبُّويَه، فأُرِيتُ بعد سنة في منامي كأن شَيْخًا حوْلَهُ الناس، يسمعون منه، يسألون، فقعدت إليه، فلما قام تبعته، فقلتُ: أبا عبد الله! أَخْبِرني: أحمد بن حنبل، وأحمد بن شَبُّويَه، أيهما عندك أفضل وأعلى؟ فقال: سبحان الله! إن أحمد بن حنبل ابتُلِي فصبر، وإن أحمد بن شَبُّويَه عوفي، المبتلى الصابر كالمعافى؟! هيهات، ما أبعد ما بينهما!»[(٢)].

٢١ ـ **وقال يونس بن عبد الأعلى**: «ما رأيت أحدًا لَقِيَ مِنَ السّقم ما لقي الشافعي، فدخلت عليه يومًا فقال لي: يا أبا موسى! اقرأ عليّ ما بعد العشرين والمائة من آل عمران، وأَخِفَّ عليَّ ولا تُثْقِل، فقَرَأْتُ عليه، فلما أردت القيام قال: لا تَغْفَلْ عَنِّي فَإِنِّي مَكْرُوبٌ. قال يونس: عَنَى الشافعي رضي الله عنه بِقَرَاءَتِي ما لقَى النَّبيّ ﷺ وأصحابه أو نحوه»[(٣)].

٢٢ ـ ولما انهزم هولاكو بِعَيْنِ جَالُوت وحمص أحضر الناصر وأخاه ـ وكان قد أَسَرَهُما ـ وقال للترجمان: قل: أنت زعمت البلاد ما فيها أحد وهم في طاعتك حتى غررتَ بي، فقال الناصر: هم في طاعتي لو كنتُ هناك ـ وما كان يُشْهِر أحد سيفًا ـ أمَّا مَنْ هو بتوريز كيف يحكم على الشام؟! فرماه هولاكو بِسَهْم أصابه، فاستغاث، فقال أخوه: اسْكُتْ، ولا تطلب مِنْ هَذَا الكلب عفوًا، فقد حضرت، ثم رماه بسهْمٍ آخر أتلفه[(٤)].

٢٣ ـ ودخل أبو حفص النيسابوري على مريض، فقال المريض: آه، فقال: ممَّنْ؟ فسكت، فقال أبو حفص: مَعَ مَنْ؟ قال: فكيف أقول؟ قال: «لا يكن أنينك شكوى، ولا سكوتك تَجَلُّدًا، ولكن بين ذلك»[(٥)].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٧١٩). (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥١/ ٤٢٩).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٢٠٦).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥١١)، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٨٦) بنحوه مختصرًا.

٢٤ ـ **وقال عبد المجيد بن إبراهيم للإمام البخاري رحمهم الله**: «كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك، ويتناولونك، ويَبْهَتُونَكَ؟ فقال: قال النبي ﷺ: «**اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ**»[(١)]»[(٢)].

٢٥ ـ **وعن محمد بن كناسة قال**: «لمَّا مات ذرّ بن عُمَر بن ذَر الهمداني، وكان موته فجأة، جاء أباه أهلُ بيته يبكون، فقال: ما لكم؟! إنا والله ما ظُلِمْنَا، ولا قُهِرْنَا، ولا ذُهِبَ لَنَا بِحَقٍّ، ولا أُخْطِئَ بِنَا، ولا أُرِيدَ غَيْرنا، وما لنا على الله مُعْتب»[(٣)].

٢٦ ـ **وعن عطية بن قيس قال**: مرض كعب، فعادَهُ رَهْط من أهل دمشق، فقالوا: كيف تجدك يا أبا إسحاق؟! قال: «بخير، جسد أُخِذَ بذنبه، إن شاء ربُّه عَذَّبَه، وإن شاء رَحِمَهُ، وإن بَعَثَهُ بَعَثَه خَلْقًا جديدًا لا ذنب له»[(٤)].

٢٧ ـ **وقال وَهْب بن منبّه**: «لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه حتى يَعُدّ البلاء نعمة، ويَعُدّ الرَّخَاءَ مُصِيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرَّخَاءَ، وصاحب الرخاء ينتظر البلاء»[(٥)].

٢٨ ـ **وقال يحيى بن يمان**: سمعت سفيان يقول: «ما في الأرض أحب إليَّ مِن سعيد ـ يعني: ابنه ـ وما في الأرض أحد يموت أحب إليَّ منه»[(٦)]؛ يعني: فيصبر، ويحتسب.

٢٩ ـ **وقال بشر الحافي**: «كان المُعَافَى في الفَرَحِ والحُزْنِ وَاحِدًا، قَتَلَت الخوارج له ولَدَيْنِ، فما تبيَّن عليه شيء، وجَمَع أصحابه وأطعمهم، ثُمَّ قال لهم: آجَرَكُم الله في فلان وفلان»[(٧)].

٣٠ ـ **وعن أبي السفر قال**: مَرِضَ أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فعادوه، فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: «قد رآني»، قالوا: فأيّ شيءٍ قال لك؟ قال: قال: «إني فعَّالٌ لما أريد»[(٨)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه، وفي الباب عن أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما.
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٦١).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٨).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٤٤)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٣٦٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥/ ١٧٣).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «النفقة على العيال» (١٦٣).
(٧) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٨٣).
(٨) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١١٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٤) واللفظ له، وابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٣٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٠/ ٤١٠).

٣١ ـ **وقال أبو حيان التيمي**: دخلوا على سويد بن مَثْعَبة، وكان من أفاضل أصحاب عبد الله ـ أي: ابن مسعود ـ وأهله تقول له: نفسي فداؤك، ما نطعمك، وما نسقيك؟ قال: فأجابها بصوت ضعيف: «دَبِرَت الحَرَاقِف(١)، وطالت الضِّجْعة، والله ما يسرني أَنَّ الله نقصني منه قُلَامَة ظُفْر»(٢).

٣٢ ـ **وعن القاسم بن محمد قال**: «هلكت امرأتي، فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزّيني بها، فقال: إنه كان في بني إسرائيل رَجُل فقيه، عالِم، عابد، مجتهد، وكانت له امرأة، وكان بها مُعْجبًا، ولها مُحِبًّا، فماتت، فَوَجَد عليها وَجْدًا شديدًا، ولقِيَ عليها أَسَفًا، واحْتَجَب من الناس، فلم يكن يدخل عليه أحد، وإن امرأة سمعتْ به، فجاءته، فقالت: إن لي إليه حاجة أريد أن أستفتيه فيها، ليس يجزئني إلا مُشَافَهَتُه، فذهب الناس، ولزِمَتْ بابه، وقالت: ما لي منه بُدّ، فقال له قائل: إن هاهنا امرأة أرادت أن تستفتيك، وقالت: إنْ أَرَدتُ مُشَافَهَتُه، وقد ذهب الناس، وهي لا تفارق الباب، فقال: ائذنوا لها، قال: فَدَخَلَت عليه، فقالت: إني جئتك أستفتيك في أمر، قال: وما هو؟ قالت: إني اسْتَعَرْتُ من جارة لي حُلِيًّا، فكنتُ أَلْبَسُه، وأُعِيُره، فلَبِث عندي زمانًا، ثم إنهم أرسلوا إليَّ فيه، أَفَأَرُدَّه إليهم؟ فقال: نعم، والإله. فقالت: إنه قد مكث عندي زمانًا، فقال: ذلك أحقّ لردِّك إياه إليهم، حين أَعَارُوْكِيْهِ زمانًا. فقالت: أي: رحمك الله، أَفَتَأَسَّف على ما أَعَارَك الله، ثمّ أَخَذَه منك وهو أحقُّ به منك؟ فَأَبْصَر ما هو فيه، ونَفَعَه الله بقولها»(٣).

٣٣ ـ **وعن علي بن عثمان قال**: «رُئِيَ إبراهيم بن أدهم مُتَنَفِّط الرِّجْلَيْن، رَافِعُهُما على ميل، وهو يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]»(٤).

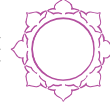
هذا آخر ما أردت ذكره في باب الصبر، والله أعلم.



(١) **الحَرْقَفَة**: عَظْم رأس الوَرِك. يُقال للمريض إذا طالت ضَجْعَتُه: دَبِرَت حَرَاقِفُه؛ أي: تَقَرَّحَت، أو كان بها جروح؛ وذلك لطول الضَّجْعَة. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٣٧٢)، م: (حرقف).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (٦٣٦).
(٤) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٦٠).

الثاني عشر

الرِّضَا



توطئة

إن مقام الرضا من أشرف مقامات السالكين، وأجلّ منازل العابدين، المُبْتَغِين رضا الله رب العالمين.

ولا يزال العبد يرضى عن الله تعالى في كل مقدور حتى يرضى الله تعالى عنه.

والله تعالى أكْرَم من عبده، وأوْلَى بِكل خَيْر؛ ولذلك فإنه لا يَصِلُ إلى هذا المقام إلا خاصة عباد الله الصالحين؛ وذلك أنه لا يمكن الوصول إلى منزلة الرضا حتى يتم تحصيل منزلة الصبر، وإذا كان الصابرون يوفّيهم الله أجُورهم يوم القيامة بغير حساب، فكيف بالرَّاضِين الذين رَضِيَ الله عنهم ورَضُوا عنه؟!

إنه مقام صحابة رسول الله ﷺ، ونحن إذ نتكلَّم عنهم وعن مقامهم نستبشر بقول رسول الله ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[(١)].

وقد قال أنس رضي الله عنه: «فما رأيتُ أصحاب رسول الله ﷺ فرحوا بشيء قط، إلا أن يكون الإسلام ما فرحوا بهذا، من قول رسول الله ﷺ»، وقال: «فنحن نحب رسول الله ﷺ، ولا نستطيع أن نعمل كَعَمَلِه، فإذا كنا معه فحسبنا»[(٢)].

ونحن نأمل أن يكتبنا الله تعالى من مُحِبِّيهِم، وأن يجمع المحبِّين مَع مَنْ أَحَبّوا، إنه سميع قريب.

هذا وينبغي أن يُعْلَم أن الرضا مُتَوَقِّف على الصبر، ولا يحصل بدونه، فيحتاج العبد إلى أن يُحَقِّق الصبر، ثم يُعالِج نَفْسه، ويُرَوّضها حتى ترضى، فيحصل له من الطمأنينة والسرور والانشراح ما يجعله يَفْرَح بالبلاء كما يفرح الناس بالرخاء.



(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٣١٧) واللفظ له، والبخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

معنى الرِّضا وحقيقته

الرِّضَا في اللغة[(١)]:

الرضا: مصدر ضدُّ السُّخْط، والسُّخْط: الكراهية للشيء، وعدم الرِّضَا به. وفي الحديث: «**أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْد القَضَاءِ**»[(٢)].

ومن الألفاظ التي لها تَعَلُّق بالرضا:

١ ـ القناعة؛ وهي الرِّضا باليسير، قال تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وهو من القُنُوع، وهو الرِّضَا باليسير من العطاء[(٣)].

٢ ـ القَنَى: بمعنى الرِّضا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم: ٤٨] على قول ابن عباس رضي الله عنهما في الآية[(٤)]، وقَنِيَ الرجل ـ بالكسر ـ قِنًى؛ أي: صار غنيًّا راضيًا[(٥)].

والرضا نقيض الغضب، والرّضا والغِبْطَة ضد الندامة والحسرة. والتسليم: بذل الرضا بالحكم.

معنى الرضا بالقضاء والقدر في الاصطلاح[(٦)]:

وقد جاء في تعريف الرضا بالقضاء أقوال كثيرة، **منها**:

ـ أنه ارتفاع الجزع في أيِّ حُكْم كان.

ـ أنه سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

ـ أنه سرور القلب بمُرِّ القضاء.

---

(١) راجع: «تهذيب اللغة»، (١٢/ ٦٤)، مادة: (رضي)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٣٥)، مادة: (رضي).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٢٢٠)، والقاموس (٣/ ٧٨)، مادة: (قنع).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٨٣).

(٥) راجع: «تهذيب اللغة» (٩/ ٣١٣)، مادة: (قنا)، و«الصحاح» (٦/ ٢٤٦٨)، و«لسان العرب» (٢/ ٦٥)، مادة: (قنا).

(٦) انظر: «الرضا عن الله» لابن أبي الدنيا (٢٢)، و«الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٤٤)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٧٧)، و«التوقيف على مهمات التعاريف» (ص١٧٨).

ـ ألا يتمنَّى خلاف حاله.
ـ أنه استقبال الأحكام بالفرح.

وقال بعضهم: «الرِّضَا: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد»[(١)].

وقال آخر: «معنى الرِّضَا فيه ثلاثة أقوال: تَرْك الاختيار، وسرور القلب بِمُرّ القضاء، وإسقاط التدبير من النَّفْس حتى يُحْكَم لها أو عليها»[(٢)].

وسُئِلَ ابن شمعون عن الرّضا، فقال: «الرضا بالحق، والرضا عنه، والرضا له... الرضا به مُدَبِّرًا، والرضا عنه قاسِمًا، والرضا له إلٰهًا وربًّا»[(٣)].

وقيل للفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنِ الراضي عن الله؟ قال: «الذي لا يحبّ أن يكون على غير منزلته التي جُعِلَ فيها»[(٤)].

وقال ابن عون رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرّضا حتى يكون رِضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والبَلَاء، كيف تسْتَقْضِي الله في أمْرِك، ثم تَسْخط إن رأيت قضاءه مُخَالفًا لهواك، ولعل ما هَوَيت من ذلك لو وُفِّقَ لك لكان فيه هَلَكَتك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك، وذلك لقلَّةِ عِلْمِكَ بالغيب، وكيف تَسْتقضيه إن كنت كذلك؟ ما أنصفتَ من نَفْسك، ولا أصبت باب الرضا»[(٥)].

وقال رُوَيْم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر تَرْك الشكوى، والرِّضَا اسْتِلْذَاذ البَلْوى»[(٦)].

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: «رضا العبد عن الله: ألَّا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مُؤْتمِرًا لأمره، ومُنْتَهِيًا عن نَهْيه»[(٧)]. اهـ.

والخلاصة: أنه يمكن تعريف الرِّضَا بالقضاء والقدر تبعًا لما تَقَدَّم، بأنه: التسليم بالقضاء، والقناعة بما قُسِمَ، قَلَّ أوْ كَثُر، والسكون إلى الله، وتَرْكُ الحسرة على ما فات، وعَدَم التَّسَخّط أو الاعتراض على ما وقَع من قضاء الله الكوني.

وحقيقة الرِّضَا: أن يرضى العبد بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا؛ فإذا تَمَّ له ذلك حصل له سكون وطمأنينة بتدبير الله ﷻ له، وحُكْمه عليه.

---

(١) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٤٤)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٧٧).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٣١).
(٣) المصدر السابق (٢٣٠).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٢٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٣١).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٦٩).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٠١) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٠٧).
(٧) «مفردات القرآن في غريب القرآن» (ص١٩٧).

الفروقات في باب الرضا

أولًا: الفرق بين الرِّضا والصبر:

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرضا عزيز، ولكنَّ الصبر مُعَوَّل المؤمن»[(١)].

وقال سليمان الخَوَّاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر دون الرضا؛ الرضا أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضيًا بأي ذلك كان، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر»[(٢)].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والفرق بين الرِّضا والصبر: أن الصبر كَفّ النَّفْس وحَبْسها عن التَّسخّط، مع وجود الأَلَم... والرضا يُوجِب انشراح الصدر وسَعَته بالقضاء... وإن وُجِد الإحساس بالأَلَم، لكن الرضا يُخَفِّفه؛ لما يباشر القلب من رَوْح اليقين والمعرفة، وإذا قوي الرضا فقد يُزِيل الإحساس بالألم بالكُلِّيَّة»[(٣)]. اهـ.

وقالت طائفة من السلف؛ كعمر بن عبد العزيز[(٤)]، والفضيل[(٥)]، وابن المبارك[(٦)]: إن الراضي لا يتمنَّى غير حاله التي هو عليها، بخلاف الصابر.

ثانيًا: الفرق بين الرضا بالله، والرضا عن الله:

الرضا بالله: أن ترضى به ربًّا، وأنه المعبود لا غيره، وأن الحكم له لا لغيره، وأن ترضى بما شرع، وتُسَلِّم. وهذا لا يكون إلا للمؤمن.

أمَّا الرِّضَا عن الله: فهو أن ترضى بما قضى وقَدَّرَ، ويدخل فيه المؤمن والكافر.

ولا بد من اجتماع الأمرين معًا: الرضا بالله، والرِّضَا عن الله.

والرضا بالله أعلى شأْنًا، وأرفع قَدْرًا؛ لأنها مرتبة مختصّة بالمؤمنين.

والرضا عن الله مُشْتَرَك بين المؤمن والكافر؛ لأن الرضا بالقضاء قد يصح من المؤمن والكافر؛ فقد تجد تَصَرُّف كافر، فتقول: هذا راض بالقضاء ومُسَلِّم به، ولا اعْتِرَاضَ عِنْدَه، لكنه لم يَرْضَ بالله رَبًّا.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٩٣)، وأبو نعيم (٥/ ٣٤٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٤٨)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٧٧).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٦٨).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١٠٠).
(٥) المصدر السابق (١٦، ٢٣).
(٦) المصدر السابق (٢٢).

فالرِّضَا بالله رَبًّا آكَدُ الفروض باتفاق الأمة، فمن لا يرضى بالله ربًّا فلا يَصِحّ له إسلام ولا عمل.

والرضا بالله فرض، والرضا عنه ـ وإن كان من أَجَلّ الأمور، وأشرف أنواع العبودية ـ لم يُطالَب به العموم؛ لعجزهم عنه، ومشقته عليهم. وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضا به(١).

ثالثًا: الفرق بين الرضا والعزم على الرّضا:

الرضا قبل القضاء عزمٌ على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرّضا حقيقة.

يقول أبو سليمان الداراني: «لو أدخلني النار لكنت بذلك راضيًا»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ما قاله أبو سليمان ليس هو رضًا، وإنما هو عَزْم على الرضا، وإنما الرّضا ما يكون بعد القضاء، وإن كان هذا عَزْمًا؛ فالعزم قد يدوم وقد ينفسخ، وما أكثر انفساخ العزائم! خصوصًا عزائم الصوفية»(٣).اهـ.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن أبي أوفى مرفوعًا: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، واسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**»(٤).

فهذا وأمثاله «مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يُوجِب عليه أشياء، فيبخل بالوفاء»(٥).

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه، لَمَّا ابْتُلُوا به كرهوه، وفرّوا منه، وأين أَلَم الجهاد من أَلَم النار وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به؟!

مثل هذا ما يُذْكَر عن سَمْنُون المُحِبّ؛ أنه كان يقول:

وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ ... فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَاخْتَبِرْنِي

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا» (١٤).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٨٩).
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٨).

فأخذه عُسْر البول من ساعته، فكان يدور على المَكَاتِب، ويُفَرّق الجَوْز على الصبيان، ويقول: ادعوا لعمِّكم الكذّاب. . .

قال أبو نعيم: «فهذا الرّضا الذي ادّعى سَمْنُون ظَهَر غَلَطُه فيه بأدنى بلوى، هذا مع أن سَمْنُون كان يُضرب به المثل في المحبة، وله مقام مشهور»»[1]. اهـ.



(١) «الاستقامة» (٢/ ٨٨) بتصرُّف يسير، وقصة سَمْنُون في «الحلية» (١٠/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

المفاضلة بين الرضا والصبر والشكر والزهد

أولًا: المفاضلة بين الرضا والصبر:

الرّضا أفضل من الصبر. «**قال الحسن** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرّضا عزيز، ولكن الصبر مُعَوَّل المؤمن»[١].

والرّضا مستحبّ في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر»[٢].

وقال ابن جُزَيّ: «وفوق الصبر التسليم، وهو تَرْك الاعتراض والتسخّط ظاهرًا، وتَرْك الكراهة باطنًا، وفوق التسليم الرّضا بالقضاء، وهو سرور النَّفْس بفِعْل الله، وهو صادر عَنِ المحبَّة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب»[٣]. اهـ.

ثانيًا: المفاضلة بين الرّضا والشكر:

إذا كان الرضا أعلى منزلة من الصبر، فإن الشكر أعلى منزلة من الرضا[٤].

ثالثًا: المفاضلة بين الرّضا والزهد:

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل الزهد: الرضا عن الله عَزَّ وَجَلَّ»[٥].

وقال أيضًا: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأن الراضي لا يتمنّى فوق منزلته»[٦].



---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «الاستقامة» (٢/ ٧٤)، و«الفتاوى» (١٠/ ٤٠) بتصرُّف.
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» (١/ ٦٥).
(٤) انظر: «الفوائد» (ص١٦٣).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٤٤).

حكم الرضا

«لفظ الرضا بالقضاء لفظٌ محمود، مأمور به، وهو من مقامات الصدِّيقِين، فصارت له حُرْمَة أوجبت لطائفة قبوله من غير تفصيل»(١).

«تنازع العلماء من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في حكم الرضا بالقضاء في المصائب، أهو واجب أم مستحبّ؟ **على قولين**:

الأول: أنه واجب، وعلى هذا فهو من أعمال المُقتَصِدِين، ومعنى ذلك: أنه فرض وعبادة كالصبر.

الثاني: أنه مُسْتحَبّ، وعلى هذا فهو من أعْمَالِ المُقَرَّبين»(٢).

والقول بأنه واجب هو قول في مذهب الإمام أحمد، وممَّن ذهب إلى ذلك الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث قال: «فالواجب على كل امرئ الرِّضَا بقضاء الله تعالى؛ فإن قضاء الله للمؤمن فيما يَكْرَه خَيْر له من قضائه له فيما يحبّ»(٣).اهـ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذا الحديث ـ حديث قصة موسى والخضر ـ تنبيه على أصول عظيمة منها: أن الله يفعل في مُلْكِهِ ما يريد، ويحكُم في خَلْقِه بما يشاء، مما ينفع أو يضُرّ؛ فلا مَدْخَل للعقل في أفعاله، ولا معارضة لأحكامه؛ بل يجب على الخَلْق الرِّضَا والتسليم؛ فإِنَّ إِدْرَاكَ العقول لأسرار الربوبية قاصر»(٤).اهـ.

أدِلَّة القائلين بالوجوب:

١ ـ **قال ابن القيِّم**: «فمَنْ أوْجَبه قال: السّخط حرام، ولا خلاص عنه إلا بالرضا؛ وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب»(٥).اهـ.

فجعلوه من باب ما لا يتم الواجب إلا به؛ فهو واجب.

٢ ـ أنه من تمام الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٩).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠ ـ ٤١) بتصرُّف.
(٣) «تفسير القرطبي» (٣/ ٣٥٤).
(٤) «المفهم» (٦/ ٢١٦) بتصرُّف يسير، و«فتح الباري» (١/ ٢٦٦).
(٥) «مدارج السالكين» (١/ ١١١).

٣ ـ أنه إذا لم يكن راضيًا بقضاء الله وقدره فهو ساخط؛ إذ لا واسطة بين الرضا والسخط، وسَخَط العبد على قضاء الله تعالى منافٍ لِرِضَاه به.

٤ ـ أن عدم الرّضا بالقضاء والقدر يستلزم سوء الظنِّ بالله.

٥ ـ ما رُوِي في «الأثر»: «من لم يَرْضَ بقضائي، ولم يصبر على بلواي، فليَتَّخِذْ رَبًّا سِوَاي»[(١)].

ويجاب عن هذه الأدلة بما يلي:

١ ـ «أن الرضا بكلّ ما يخلقه الله ويقضيه ليس عليه دليل من كتاب الله، ولا من سُنَّة رسوله ﷺ، ولا قال به أحد من السَّلَف.

٢ ـ أن الرضا يُشْرَع بما يرضى الله به، والله قد أخبر أنه: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، فإذا لم يرضه، كيف يأمر العبد بأن يرضاه؟!

بل الواجب على العبد أن يسخط ما يسخطه الله، ويُبْغِض ما يبغضه، ويرضى بما يرضاه الله»[(٢)].

٣ ـ «وأما قولهم: (إنه لا يتخلص من السخط على ربه إلا بالرّضا عنه؛ إذ لا واسطة بين الرضا والسَّخط)؛ فكلام مدخول؛ لأن السّخط بالمَقْضِيّ لا يسْتَلْزِم السّخط على مَنْ قَضَاه.

٤ ـ قولهم: (إنه يستلزم سوء ظَنِّ العَبْدِ بربه، ومنازعته له في اختياره)، فليس كذلك، بل هو حُسْن الظن بربه في الحالتين؛ فإنه إنما يسخط المقدور، وينازعه بمقدور آخر، كما ينازع القَدَر الذي يكرهه ربه بالقدر الذي يحبه ويرضاه.

٥ ـ قولهم: (إنه يختار لنَفْسه خِلَاف ما يختار الرَبّ)، فهذا مَوضِع تفصيل؛ فاختيار الربِّ تَعَالى لعبده **نوعان**:

أحدهما: اختيارٌ دِينيّ شرعي، فالواجب على العبد ألَّا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له ربّه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

---

(١) رُوِي مرفوعًا: أخرجه الطبراني (٢٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٢٧)، وعَدَّه الذهبي في منكرات سعيد بن زياد في «الميزان» (٢/ ١٣٨)، وضَعَّفَهُ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠٥٨)، والهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٠٧)، والحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٨٢)، و«اللسان» (٣/ ٣٠)، وحكم الألباني بشدة ضعفه في «الضعيفة» (٥٠٥)، راجع: «جهود شيخ الإسلام» للفريوائي (٢/ ٢١٧)، و«الضعيفة» (٥٠٦).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «منهاج السُّنَّة» (٣/ ٢٠٦) باختصار وتصرف.

النوع الثاني: اختيار كونيّ قدريّ، لا يسخطه الرَّبّ؛ كالمصائب التي يَبْتَلِي بها اللهُ عبدَه، فهذه لا يضرّه فراره منها إلى القدر الذي يرفَعُها عنه.

وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ـ مثل قَدَر المعايب والذنوب ـ فالعبد مأمور بِسُخْطها، ومنهيٌّ عن الرِّضَا بها، وهذا هو التفصيل الواجب في الرِّضَا بالقَضَاءِ»[(١)].

والقضاء الكَوْنِيّ القَدَرِي فهو على **ثلاثة أقسام**[(٢)]:

الأول: قِسْم مُوَافق لمحبّة العبد وإرادته ورضاه؛ من صحة وغِنًى وعافية ولَذَّة، فهذا أمر لازمٌ بمقتضى الطبيعة؛ وليس في الرِّضَا به عبودية، لكن العبودية فيه مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمِنَّةِ، ووَضْع النِّعْمة في المواضع التي يحبّ الله تعالى أن تُوضَع فيها، وألَّا يعصي العبد بها المُنْعِم ﷻ.

الثاني: ما جاء على خلاف مُرَاد العبد ومحبَّتِه، وذلك مثل المرض، والفقر، وأذى الخَلْق، والحَرّ والبرد، والآلام، ونحو ذلك من المصائب التي تصيب العبد المؤمن، فالمؤمن من أكثر الناس بلاء، ولكنه أعظمهم قَدْرًا، والمصائب ابتلاء، واختبار للعبد، أيرضى أم يسخط، ويُبْتَلَى المؤمن على قدر إيمانه.

وهذا النوع منه ما يمكن مُدافعته، وذلك لا ينافي الرضا. ومنه ما لا يمكن مُدافعته، فالواجب فيه التسليم والصبر.

القسم الثالث: وهو الجاري باختيار العبد وقضاء الرَّبّ، مما يكره الله، ويسخطه، وينهى عنه، وهو الرّضا بالمعصية، وهو مذمومٌ، منهيٌّ عنه[(٣)].

٦ ـ أن الأثر المُسْتَدَل به من الآثار الإسرائيلية، فلا تقوم الحجة به، ولا تصحّ نسبته إلى النبيّ ﷺ.

القول بالاستحباب:

ذهب جمهور العلماء إلى أن الرضا بالمصائب مُسْتحبٌّ، وليس بواجب، وبه قال شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى[(٤)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠٦) باختصار وتصرف.

(٢) وأما ما يصيب الإنسان فَقِسْمان أيضًا: ما كان من صحة وغِنى لذَّة وغيرها من النِّعَم، وهذا القِسْم يجب الرضا به، وأنه فَضْل وإحسان من الله، يُحْمَد عليه، ويُشْكَر.
وأما ما يصيب العبد المؤمن من فَقْر، ومَرَض، وجوع، وأذى، وحَرّ، وبَرْد وغير ذلك مما يكرهه، ويبغضه العبد؛ فيُسْتَحب الرضا به، ولو عمل الأسباب لتغييره إلى ما هو أحسن.
«مجلة جامعة أم القرى» العدد (٢١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٩).

(٤) انظر: «منهاج السُّنَّة» (٣/ ٢٠٤)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٧٢).

قال ابن تيمية: «وأكثر العلماء على أن الرضا بذلك مُسْتَحَبٌّ، ولَيْسَ بِوَاجِب». اهـ.

أدلة القائلين بالاستحباب:

١ ـ أن الإيجاب يتطلّب دليلًا شرعيًّا على الوجوب، ولا دليل عليه.

٢ ـ أنَّ الرضا من القُرَب التي يُتَقَرَّب بها، وليس من الفرائض؛ كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرِّضَا عزيز، ولكن الصبر مُعَوَّل المؤمن»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِعِزَّتِه، وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خَلْقه، رحمةً بهم، وتخفيفًا عنهم، ولكن نَدَبهم إليه»(٢). اهـ.

٣ ـ أنه لم يَرِد الأمر بالرِّضَا في الكتاب ولا في السُّنَّة، مثل الصبر؛ فالصبر أَمَر الله به في مواضع كثيرة من كتابه. وأما الرِّضَا، فلم يأمر به في آيةٍ واحدة.

٤ ـ أن القول بوجوبه يلزم منه الرِّضَا بما حَرَّم الله، مثل الرضا بالكفر والفسوق وغيرهما من القضاء الكوني القَدَري.

والصحيح أن المصَائِبَ هي قضاء الله، ومنسوبة إليه على **وجهين**:

الأول: كَوْنُهَا فِعْلُ الله القائم بذاته تعالى، فهذا يجب الرِّضَا به، والتصديق والتسليم له، ومن ذلك عَدْل الله، وحِكْمَتُهُ، وقُدْرَتُهُ، وعِلْمُه سبحانه، وخَلْقه، فالرضا بالمصائب من هذا الوجه واجب لا شك في ذلك.

الثاني: المَقْضِي المُنْفَصِل عن الله، المفعول له، فهذا قسمان: مصائب ومعايب، فالمعايب لا شك أنه يحرم الرضا بها.

٥ ـ أن المأمور به هو الرضا المشروع الديني، ولم يأمرنا بالرِّضَا بالمَقْدُورِ الكوني(٣).

والأدلة على استحباب ذلك كثيرة هي ما ذكره أصحاب القول الثاني، **وغيرها كثير**:

منها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أثنى على أهل الرضا بقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة: ٨] فأثنى عليهم، ولم يوجب ذلك عليهم.

ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم مِنْ مَدْح الرَّاضِين بما يفعله الله بعبده من المصائب؛ كقوله تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٤).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠ ـ ٤١، ١١/ ٢٦٠)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٨٧ ـ ١٩٦).

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، والبأساء: الفَقْر، والضراء: المَرَض، وحين البأس: حين القتال.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «البأساء في الأموال، والضراء في الأبدان، والزلزال في القلوب»[١]. اهـ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الرضا فإنما جاء في القرآن مَدْحُ أهله، والثناء عليهم، لا الأمر به»[٢]. اهـ.



(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤١).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٣١).

الفرق بين أفعال الربِّ سُبْحَانَه ومفعولاته

ومما يلزمنا عند الكلام على الرِّضَا التفريق بين أفعال الربِّ ومفعولاته سبحانه، فليُعْلَم «أنَّ ما يحبه الله من المأمورات فهو مُتَعَلِّق بصفاته سبحانه، وما يكرهه من المنهيّات، فمُتَعَلِّق بمفعولاته.

فالمنهيات شرور، وتفضي إلى شرور؛ والمأمورات خير، وتفضي إلى الخيرات، والخير بيديه سبحانه، والشرّ ليس إليه؛ فإن الشر لا يدخل في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإنما هو من المفعولات، مع أنه شرٌّ بالإضافة والنِّسْبة إلى العبد؛ وإلا من حيث إضافته ونسبته إلى الخالق سبحانه، فليس بِشَرّ مِنْ هَذِهِ الجِهَة»[١].

والله ﷻ حيث قَدَّرَ المَقَادِير، وقضى بوجود الكائنات، فإنه سبحانه له الحَمْد، وله النِّعْمَة، وله الثناء الحَسَن على ذلك، وهو سبحانه لا يفعل شيئًا إلا لحِكْمة بالغة، وأفعاله صادرة عن عِلْم تامّ.

فإنه سبحانه لما قضى بِخَلْق إبليس مثلًا، فإن هذا الفِعْل ـ الذي هو قضاء الرَّبِّ ـ ناتج عن عِلْم وحِكْمة؛ فعلينا أن نرضى عن فِعْله وتقديره؛ فهو العزيز الحكيم، له التدبير الكامل المُطْلَق في مخلوقاته كلّها.

وفي خَلْقِ إبليس من الحِكَم الجليلة، والآثار العظيمة ما لا يُحصَى، فنحن نرضى بخَلْقه، وهو فِعْل الرَّبِّ تَعَالى.

ولكنا لا نرضى بفِعْل هذا المخلوق، وهو ما نسمِّيه مفعول الربّ، فهذا المفعول الناتج عن قضاء الرب تبارك وتعالى لا نرضى به، ولا نحبّه.

والإنسان قد يكره المرض، ويكره المصيبة؛ ولكنه إذا الْتَفَتَ إلى فِعْل الرب؛ الذي هو خير، وإحسان، وحكمة كله، فإنه يجب عليه أن يرضى ويُسَلِّم، ففرق بين هذا وهذا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «ومفعولاته آثار أفعاله، وأفعاله من صفاته القائمة بذاته؛ فذاته سبحانه مُسْتَلْزمة لصفاته وأفعاله، ومفعولاته منفصلة عنه، تلك مخلوقة مُحْدَثة، والرب تعالى هو الخالق بذاته وصفاته وأفعاله»[٢]. اهـ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٨٥) بتصرُّف يسير.
(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٥١).

الرِّضَا بالمعاصي

وهو القِسْم الثالث من القضاء الكوني القدري كما تَقَدَّمَ، وهو جارٍ بِاخْتِيَارِ العبد وقضاء الرَّبِّ، مما يبغضه ولا يرضاه.

ولقد فَتَح إبليس لكثير من الناس باب الأهواء، فلا يتوبون ولا يستغفرون، ولا يَرَون إلا أنهم على الحقّ، قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٢٥]؛ أي: هَيَّأْنَا لهُم من شياطين الإنس والجِنّ مَنْ زَيَّنَ لهم المعاصي، فآثروا العصيان على أمر الله، ورَضُوا بسَخَطه، وسَخِطُوا على رضاه، ورَكَنُوا إلى أعمالهم في الدنيا، ونسوا الآخرة، فحَقّ عليهم العذاب، وكانوا من الخاسرين.

ومن الناس من انتكست قلوبهم، حتى رأوا المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

ومنهم مَنْ يُبَرّر ما هو عليه مِنْ مَعَاصٍ بادعاء أن الإيمان في القلب، ويَسْتَدِلّ بما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(١).

وما أكثر مَنْ يتعبَّد الله بما حَرَّمه الله عليه، ويعتقد أنه طاعة وقُرْبَة، وحاله في ذلك شَرّ من حال مَنْ يَعْتَقد ذلك معصية وإثْمًا، وهذا هو حال أهل البدع.

يقول سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «البدعة أحَبّ إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يُتَابُ مِنْهَا، والبدعة لا يُتَابُ منها»(٢).

وقد تتمكَّن المعصية من القلب، فيرضى بها صاحبها، بل ويغلو في ذلك؛ وذلك على حساب دينه وعقله.

ومعاشرة أهل البدع، وأهل الفسوق والعصيان من جملة هذا الرّضا المحرم المذموم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٦) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٠٠٩) مختصرًا.

فتجد مِنَ الناس مَنْ يُعَاشِرُ هؤلاء المذمومين، وينادمهم، ويقرّبهم، ويُقْصِي أهل الإيمان، وأهل الطاعة، ويذمّهم، ويُبغضهم. ومَنْ يَفْعَل ذلك فهو من أولئك المَقْبُوحين، ولو لم يَتَلَبَّس بفِعْلِهِم.

وقد روى أبو داود عن العُرْسِ بن عَمِيرة الكِنْدي، عن النَّبي ﷺ قال: «**إِذَا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا**»[١].

فالرِّضَا بالمعصية معصية، فعن عبد الله بن أبي مُلَيْكَةَ أَنَّ عبد الله بن عمرو قال يومًا: «ما أَفْرَق على نفسي إلا من ثلاث مواطن: في دم عثمان». فقال له عبد الله بن صفوان: «إن كنت رَضِيتَ قتله، فقد شركت في دمه»[٢].

فجعل الرِّضَا بالقَتْل قَتْلًا.

وقال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

فهذا دليل على وجوب اجتناب أهل المعاصي إذا ظهر منهم مُنْكر، وهذا مُقْتَضَى عدم الرضا بالمعصية؛ لأن مَنْ لم يجتنبهم فقد رضِيَ فِعْلهم، والرضا بالكفر كفر؛ كما دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ﴾.

وعن إبراهيم التيمي عن أبي وائل، قال: «إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة في المجلس من الكذب ليُضْحِكَ بها جلساءه فيسخط الله عليهم». قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النَّخعِي، فقال: «صدق أبو وائل، أوَلَيْسَ ذلك في كتاب الله: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ﴾؟!»[٣].

وعن هشام بن عروة قال: «أخذ عمر بن عبد العزيز قومًا على شراب، فضربهم وفيهم صائم، فقالوا: إنّ هذا صائم! فتَلا: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ﴾»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤٥، ٤٣٤٦) موصولًا ومرسلًا، وفيه اضطراب، وصحَّحه السيوطي في «الجامع الصغير» (٦٩١)، وصحح إسناده أحمد شاكر في «عمدة التفسير» (١/ ٧١٦)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٩)، وقارن بـ«الضعيفة» (٣١١٠).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ٨٧)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٣٢١).

(٤) المصدر السابق (٩/ ٣٢١).

الرضا بالقضاء الديني الشرعي

إن من لوازم الإسلام وقواعد الإيمان الرضا بالقضاء الديني الشرعي؛ فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حَرَج، ولا مُنَازَعة، ولا مُعَارَضة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكِّموا رسوله ﷺ، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم مِنْ حُكْمه، وحتى يسلِّموا لحُكْمه تسليمًا.

وهذه حقيقة الرضا بحكمه، فالتَّحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحَرَج في مقام الإيمان، والتَّسْلِيم في مقام الإحسان»(١). اهـ.

«فحُكْمُ الله تعالى الشَّرْعي الديني حقّه أن يُتَلَقَّى بالمسالمة والتَّسْلِيم، وتَرْك المُنازَعة؛ بل بالانقياد المَحْضِ، وهذا تَسْليم العبودية المَحْضَة، فلا يُعَارَض بذَوق، ولا وَجْد، ولا سياسة، ولا قياس، ولا تقْلِيد، ولا يرى إلى خلافه سبيلًا البتّة.

فإذا تلقى بهذا التسليم إقرارًا وتصديقًا، بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له، إرادة وتنفيذًا وعملًا.

فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه، كما لم تكن له شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذه حقيقة القلب السليم الذي سَلِم من شُبْهة تُعَارِض الحَقَّ، وشهوة تُعَارِض الأمر»(٢).

ولم يتنازع العلماء في أن الرِّضَا بما أمر الله به ورسوله واجب مُحَبَّب، لا يجوز كراهة ذلك وسُخْطِه، وأنَّ مَحَبَّه ذلك واجبة، بحيث يبغض ما أبغضه الله، ويُسْخِط ما سَخِطه الله من المحظور، ويُحِبّ ما أحَبَّه، ويرضى ما رَضِيَهُ الله من المأمور.

والخلاصة:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «الرِّضَا بالقضاء **ثلاثة أنواع:**

أحدها: الرِّضَا بالطاعات، فهذا طاعة مأمور بها.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٩٢).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (١/ ٧٤ ـ ٧٥).

والثاني: الرضا بالمصائب، فهذا مأمور به؛ إما مستحب، وإما واجب.

والثالث: الكفر والفسوق والعصيان، فهذا لا يُؤْمَر بالرِّضَا به، بل يُؤْمَر بِبُغْضه وسخطه؛ فإن الله لا يحبه، ولا يرضاه»[1] .اهـ.



(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣).

منزلة الرِّضَا

الرِّضَا بَاب اليقين الأكبر، وبستان العبودية. . . وهو مُسْتَنْزَل الرحمة، ومُسْتَدَرّ الزيادة، ومُسْتَوجَب الرِّضَا منه: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩].

والرضا مطْرَدة للهموم والغموم، مَذْهَبة للأحزان، وهو علاج التَّرَدّد والحَيْرَة والاضطراب؛ لأنه التسليم بالحِكْمَة والتصديق بالشرع، والاطمئنان إلى حُسْن الاختيار.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع سبعون رجلًا من التابعين، وأئمَّةِ المسلمين، وفقهاء الأمصار على أن السنة التي تُوُفِّيَ عليها رسول الله ﷺ أولها: الرِّضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، والصبر تحت حُكْمِه، والأَخْذ بما أمر الله به، والنهي عمَّا نهى عنه، وإخلاص العمل لله، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه»[(١)].

وعن غيلان بن جرير قال: «مَنْ أُعْطِي الرِّضَا والتوكّل والتفويض فقَدْ كُفِيَ»[(٢)].

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أما بَعْدُ؛ فَإِنَّ الخَيْرَ كلّه في الرِّضَا؛ فإن استطعت أن ترضى، وإلا فَاصْبِر»[(٣)].

وقال عبد الواحد بن زيد: «ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقَدَّم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أشْرَف ولا أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة»[(٤)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإن ارتقى إلى الرضا ـ يعني: الصابر ـ رأى أن الرضا جنة الدنيا، ومُسْتَرَاح العابِدِين، وباب الله الأعظم»[(٥)]. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرِّضَا آخِذٌ بِزِمَام مقامات الدِّين كلها، وهو رُوحها وَحَيَاتُهَا، فإنَّهُ رُوح التوكُّل وحقِيقَتُهُ، ورُوح اليقين، ورُوح المحَبَّةِ وصحة المُحِبّ، ودليل صِدْق المحبة، ورُوح الشكر ودليله»[(٦)]. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٤٩ ـ ٣٥٠)، وابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٢٤٠) واللفظ له، والألوسي في «جِلَاء العينين» (١/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (ص١٠١).

(٣) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٤٥)، وقال شيخ الإسلام في «الاستقامة» (٢/ ٨٤): «هذا الكلام كلام حسن وإن لم يعلم إسناده».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٦٣).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٧).

(٦) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٧ ـ ١١٨).

قال الربيع بن أنس: «علامة الشكر الرضا بقضاء الله، والتسليم لقدره»[(١)]. فـ«الرِّضا كالرُّوح لهذه المقامات، والأساس الذي تنبني عليه، ولا يصح شيء منها بدونه البتة»[(٢)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الرضا من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح، فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان.

قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ذروة سنام الإيمان الصبر للحكم، والرّضا بالقدر»[(٣)]»[(٤)].اهـ.

وقال أبو عبد الله البراثي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لن يرد يوم القيامة أرفع درجات من الراضين عن الله على كلِّ حال... ومن وُهِبَ له الرضا فقد بَلَغ أفضل الدرجات، ومَنْ لم يَعْرِف ثواب الأعمال ثقلت عليه جميع الأحوال»[(٥)].

وقال ميمون بن مهران: «مَنْ لم يرضَ بالقضاء فليس لحُمْقِه دواء»[(٦)].

وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: «ليس الشأن في أَكْل خبز الشعير والخَلّ، ولا في لبْس الصُّوف والشَّعْر؛ ولكن الشَّأْن في الرِّضَا عن الله عَزَّ وَجَلَّ»[(٧)].

وقال بعض العارفين: «مَنْ يتوكّل على الله، ويَرْضَى بِقَدَرِ الله؛ فقد أقام الإيمان، وفَرَّغ يديه ورجليه لكَسْب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التي تُصلح للعبد أمره»[(٨)].

وسُئِلَ أبو عبد الله الصَّبِيْحي عن أُصول الدِّين، فقال: «اثنان: صِدْق الافتقار عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وحُسْن الاقتداء برسول الله ﷺ. وفروعه أربعة: الوفاء بالعهود، وحِفْظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود»[(٩)].

فمنزلة الرضا هي التي تُثْمِر محبَّة الله، والنجاة من النار، والفوز بالجنَّة، ورضوان الله، وحُسْن ظنّ العبد بِرَبِّهِ، والنفس المطمئنة، والحياة الطيِّبة.

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال داود لابنه سليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: يا بني! إنَّما يُسْتَدَل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: بحُسْن توكّله على الله فيما نابه، وبحُسْن رضاه فيما آتاه، وبحُسْن صبره فيما ينتظره»[(١٠)].

---

(١) أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٤٤).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٨).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٩٨).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٢٤، ٣١)، وبعضه في «الزهد» (١٣٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٣٨) واللفظ له.
(٦) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٤٦).
(٧) السابق.
(٨) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٠).
(٩) «شعب الإيمان» (٩٦٤٠).
(١٠) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٩٦٤).

الرِّضا في الكتاب والسُّنَّة

النصوص الواردة في الرِّضا كثيرة جدًّا، وحسْبُنا أن نشير إلى بعضها:

١ ـ قال الله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، فهذه الآية تضمَّنَت الحَضّ على التزام أمر الله ﷻ، وإن شقّ على النفوس، وعلى الرِّضا بقضائه، وإن كرهته النفوس؛ فالله هو العليم والخبير والحكيم في اختياره، لا يعلم العواقب في الأمور كلها إلا الله ﷻ، فقد يكره العبد شيئًا وهو عين الخير له، وقد يفرح بشيء ويحبه وهو عَيْنُ الشَّرِّ لَهُ؛ فما على العبد إلا أن يَرْضَى إذا وقعت به مصيبة، أو أصابه ما يكره؛ فإن الله هو العليم بمصالح العباد وما ينفعهم.

وقد اقتضت حكمته ومشيئته أن يُقَدِّر هذا المكروه، فمن رَضِيَ فله الرِّضَا، ومن سَخِط فله السَّخَط.

٢ ـ قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، فما أصاب العباد من المصائب؛ مِنْ قَحْطٍ وجَدْب وذَهَاب زَرْع وغير ذلك، أو في الأنفس؛ من الأمراض والأوجاع والأسقام، قَلَّ ذلك أو كثر، عَظُم ذلك أو صَغُر؛ فكله مكتوب في اللَّوْحِ المحفوظ من قبل أن يُوْجِدَه الله ﷻ، فلا يحزن العبد على ما فاته، ولا يَفْرَح فَرَح مخْتَال فخور، ولكن يَرْضَى بِقَضَاءِ اللهِ ﷻ.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١]، فكل ما يصيبنا من الآفات والآلام والمكاره؛ فبقدر الله ﷻ. فإذا تيقَّنَ العبد هذه الحقيقة، فإنه يحتسب، ويُسَلِّم، ويرضى بقضاء ربه، فيُعَوّضه الله ﷻ عَمَّا فاته، ويهدي قلبه، ويحصل له اليقين.

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم: ٤٨].

قال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت المفسّرين من كل جانب يقولون في قوله: ﴿أَغْنَىٰ﴾، قال:

أرضى». قال سفيان: «لا يكون غنيًّا أبدًا حتى يرضى بما قَسَم الله له، فذلك الغنى»[(١)].

والمعنى: أنَّ الله ﷻ أعطى عباده ما أعطاهم من الأموال، وما مَلَّكهم وخوَّلهم من الأملاك، وأرضى كلّ واحد بما أعطاه.

ويقول سفيان بن عيينة رحمه الله في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٣٤﴾ [الحج: ٣٤] قال: «المُطْمَئِنّين، الرَّاضِين بقضائه، المُسْتَسْلِمين له»[(٢)].

٥ ـ وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩]، فهذا متضمّنٌ الأمر بالرضا والتوكل، وهما يكْتَنِفَان المقدور؛ فالتوكّل يكون قبل وقوعه، والرّضا بعده؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي ما عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي. اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا والْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ...**» الحديث[(٣)].

وعن أبي معاوية الأسود رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، قال: «الرِّضَا والقناعة»[(٤)].

وهذا شيء مُشَاهَد؛ فإن الإنسان إذا كان راضيًا بما قَسَم الله ﷻ له؛ فإنه يحصل له من السكون والطّمَأنينة والحياة الطيبة النَّصيب الأوفى، بخلاف الساخط المُتَذَمِّر الذي لا يهنأ بعيش، ولا يرضى بحال.

ومن السُّنَّة:

١ ـ عن العباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»[(٥)].

٢ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ**

---

(١) علقه البخاري في «صحيحه»: كتاب التفسير، باب سورة الحج (٣/ ٢٧٦)، ووصله ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (ص٩٦).

(٢) المصدر السابق (٧٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٤٢، ٧١).

(٥) أخرجه مسلم (٣٤).

بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»[(١)].

٣ ـ وفي حديث الاستخارة: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ**» الحديث، وفي آخره: «**وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ**»[(٢)]؛ فالعبد محتاج إلى أن يُرْضِيَه الله ﷻ بما قُسِمَ لَهُ، وقُدِّرَ عَلَيْهِ؛ وإلا فإنه قد يقع له الأمر يكرهه، فيسخط، ويتبرَّم؛ ولذلك فإن الكثيرين يستخيرون، فإذا وقع بهم ما لا يحبونه، أو فاتهم محبوبهم حصل منهم من التَّسَخّط، والتذمّر، والانزعاج ما هو خلاف الصبر على المقدور والرِّضَا به، والمستخير ربّه مُفَوِّض أمره إليه، راكنٌ إلى حُسْن اختيار الرب له، مُقِرٌّ بالعَجْز والتقصير والجهل على نَفْسه، وهذا مقام الرِّضا.

٤ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كنتُ خلْف النبي ﷺ يومًا، فقال: «**يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ؛ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تِجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيء لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[(٣)].

فإذا عرف الإنسان هذه الحقيقة، وأن التسخّط أو التحسّر لن يكشف الضر أو يجلب النفع اطمأنت نَفْسه بالرّضا بما قسم الله تعالى، فصبر على ما أصابه، وقنع بما آتاه الله.

فالعاقل الرشيد يجري مع المقادير على قَدَمِ الرِّضَا، فيَقْنَع، ويَرْضَى، وتسلو نَفْسه عن الرّكون إلى تلك الأوهام التي تجلب له المواجع، وتزيده حسرة وألمًا.

وإذا احتَوَشَت العبد المخاوف، وتتابعت عليه الهموم؛ ولم يكن له ما يركن إليه ويُعَوِّل عليه من اليقين والرضا؛ فإن الخوف والتوجس والحزن سِمَة مُلَازِمة له، وإن لم يوجد سبب ظاهر لهذا الخوف أو القلق أو الحزن أحيانًا؛ فيبقى الإنسان في هم لا ينقضي، وخوف متجدّد، وحزن مُسْتَبِدّ، فلا يجد لعيشه لذة، ولا في حياته راحة، تُسَاوِرُه الشكوك، وتنغّص عليه الأوهام، ويحمله الوَهْم إلى كل بغيض من سوء الظن والخوف من المستقبل.

وما يضرّ العبد إذا ما عاش يومه على ما قَدَّره الله له راضيًا قانعًا مقبلًا على ربّه بقلبٍ مُنْفَتحٍ، ونَفْس مُنْشَرحة، حسن الظن، طيّب الحال، إذا أصابه الضرّ صبر

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

وتجلَّد، وقال: عسى أن يكشفه الله كاشف الضر، فهو وإن قدَّره عليَّ بحكمته وعلمه، قادر على أن يكشفه عنّي برحمته وفضله.

وإذا أصابته نعمة حَمِد وشكر، وسأل الله المزيد من فضله، وعمل على استخدامها في طاعة ربِّه.

ولا يزال هذا حاله، وذلك دَأبه حتى يلقى الله على الرّضا؛ فعسى لهذا وأمثاله أن يكونوا مع الذين رَضِيَ الله عنهم ورَضُوا عنه.

ولو تأمل العاقل قوله ﷺ في الحديث السابق: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيء لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»؛ لاستراح مِنْ عَنَتٍ كثير، وأوجاع وأوهام تَسْلُب الراحات، وتقضّ المضاجع.



أنواع الرضا

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في قوله ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»(١)، وقوله: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ... رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ**»(٢)، قال:

«وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيَّتِه سبحانه وألوهيته، والرّضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له.

ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصدِّيق حقًّا. وهي سهلة بالدَّعْوَى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يُخَالِفُ هَوَى النَّفْس ومُرَادها من ذلك تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقًا، فهو على لسانه لا على حاله.

فالرّضا بإلٰهيته: يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتّل إليه، وانجذاب قُوَى الإرادة والحُبِّ كلها إليه، فِعْلَ الراضي بمحبوبه كل الرضا. وذلك يتضمَّن عبادته والإخلاص له.

والرِّضا بربوبيته: يتضمَّن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكّل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به»(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الرضا بالله ربًّا: ألا يَتَّخِذ ربًّا غير الله تعالى يَسْكن إلى تدبيره، ويُنْزِل به حوائجه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «سيِّدًا وإلٰهًا»؛ يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو ربّ كل شيء؟! وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]؛ يعني: معبودًا وناصرًا، ومُعِينًا ومَلْجأً. وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٢).

إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلًا، مُبَيَّنًا كافيًا شافيًا.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حقَّ التَّأَمُّل رأيتها هي نَفْس الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، ورأيت الحديث يُتَرْجِم عنها، ومُشْتَقًّا منها. فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصرًا. بل يوالي من دونه أولياء. ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله»[1]. اهـ.

وقال: «وأما الرضا بنبيِّه رسولًا: فيتضمَّن كمال الانقياد له، والتسليم المُطلق إليه، بحيث يكون أوْلى به من نَفْسه... ولا يرضى بحُكْم غيره البتَّة...

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حَكَم أو أمَرَ أو نَهَى رَضِيَ كلّ الرضا، ولم يبقَ في قلبه حرج من حُكْمه وسَلَّم لَهُ تسليمًا؛ ولو كان مخالفًا لمراد نَفْسه أو هواها، أو قول مُقَلِّده وشيخه وطائفته»[2]. اهـ.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]. فمَا رَضِيَهُ لنا سبحانه، وهو الغني الحميد، فنحن أوْلَى أن نرضى به وأحَق؛ فالرِّضَا بالدِّينِ هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضيًا بلا حَرَج ولا مُنَازعة ولا مُعَارضة.

وقد سُئِلَ ابن شمعون عن الرِّضَا فقال: «أن ترضى به مُدبّرًا ومُخْتَارًا، وترضى عنه قَاسِمًا ومُعْطِيًا ومانعًا، وترضاه إلهًا ومعبودًا وربًّا»[3].



(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٨١).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، وانظر: (ص١٩٢).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٢٥).

علامات الرضا

الرضا عن الله يتحقق بثلاثة أمور:

١ ـ استواء النعمة والبليّة عند العبد؛ لأنه يشاهد حُسْنَ اختيار الله له.

٢ ـ سقوط الخصومة عن الخلق، إلا فيما كان حقًّا لله ورسوله؛ فالراضي لا يُخَاصِم ولا يُعاتب إلا فيما يتعلق بحقّ الله، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها: «والله ما انتقم لنَفْسه في شيء يُؤتَى إليه قطّ، حتى تُنْتَهك حرمات الله فينتقم لله»[(١)].

«فالمخاصمة لحظّ النَّفْس تُطْفِئ نور الرِّضَا، وتُذْهِب بهجته، وتُبَدِّل بالمرارة حلاوته، وتُكَدِّر صَفْوَه.

فإذا اجتمعت بصيرة العبد على مَشَاهِد القدر والتَّوْحِيدِ والحكمة والعَدْل انْسَدَّ عنه باب خصومة الخَلْق، إلَّا فيما كان حقًّا لله ورسوله ﷺ.

٣ ـ الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]. **قال ابن عباس**: «إذا كان عنده غداء لم يسأل عشاء، وإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداء»، فالإلحاح ينافي حال الرضا ووصفه»[(٢)].

ينضاف إلى ما تقدَّم: ترك التذمّرِ والشكوى؛ لأن ذلك قَدْح في مقام الصبر الذي هو دون مقام الرّضا.

وقال ابن عون رحمه الله: «ارْضَ بِقَضَاء الله على ما كان من عُسْرٍ ويُسْر؛ فإن ذلك أقلّ لهمِّك، وأبلغ فيما تطلب من آخرتك. واعلم أنَّ العَبْدَ لن يُصِيب حقيقة الرّضا حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك، ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفًا لهواك؟! ولعلَّ مَا هويت من ذلك لو وُفِّقَ لَكَ لكان فيه هلكتك. وترضى قضاءه إذا وافق هواك؛ وذلك لقلّة علمك بالغيب، وكيف تستقضيه إن كنت كذلك؟! ما أنصفت من نَفْسك، ولا أصبت باب الرضا»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٣١) باختصار وتصرف.
(٣) تقدم تخريجه.

مقتضيات الرضا ولوازمه

وهذا أَمْر ينبغي التَّفَطُن له ـ خاصة في الأعمال القلبية ـ فكما أن للرضا أَمَارَات تدل على تَحَقُّقِه فكذلك تلزم عند تحقُّقِهِ لوازم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا بالله يستلزم الرضا بصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وأحكامه، ولا يستلزم الرضا بمفعولاته كلها؛ بل حقيقة العبودية أن يوافقه عبده في رضاه وسخطه، فيرضى منها بما يرضى به، ويسخط منها ما سَخِطه...

فإن قيل: لازم الرّضا عَدَم الكُرْه، فكيف يجتمع الرّضا بالقضاء الذي يكرهه العبد من المرض والأَلَم مع كراهته؟

قيل: لا تنافي في ذلك؛ فإنه يرضى به من جهة إفضائه إلى ما يحبّ، ويكرهه من جهة تَأَلُّمه به؛ كالدواء الكريه الذي يعلم أن فيه شفاءه، فإنه يجتمع فيه رضاه به، وكراهته له.

فإن قيل: كيف يرضى الله لعبده شيئًا، ولا يُعِينُهُ عليه؟

قيل: لأن إعانته عليه قد تَسْتَلْزِمُ فَوَاتَ محْبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رَضِيَهَا له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، بحيث يكون وقوعها منه مُسْتَلْزِمة لمفسدة راجحة، ومُفَوِّتًا لمصلحة راجحة»[(١)]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرّضا مُتَرَتِّب على الصبر لتوقّف الرّضا عليه، واستحالة ثبوته بدونه... لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدَّم له قبله مقام الصبر»[(٢)]. اهـ.

وقال أيضًا: «مقامات الإيمان لا تُعْدَم بالتنقّل فيها، بل تندرج وينطوي الأدنى في الأعلى؛ كما يندرج الإيمان في الإحسان، وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا، لا أن الصبر يزول. ويندرج الرضا في التفويض، ويندرج الخوف والرَّجَاء في الحب، لا أنهما يزولان»[(٣)]. اهـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠١) بتصرُّف.
(٢) المصدر السابق (١/ ١٣٤).
(٣) «عدة الصابرين» (ص٢٩٥).

فتأمل أهمية التلازم حتى يتم الرضا بشرطه، ومقتضياته، ولوازمه، وتكامل مراتبه في نَفْسه، وأيضًا بتلازمه وغيره من أعمال القلوب.

الصلة بين الرضا والتوكل:

«التوكل من مقامات المؤمنين، لا انفكاك للمؤمن منه، والرِّضا أعلى درجات التوكّل، فهو ثمرته. وقد قيل: «إن حقيقة التوكّل الرضا؛ لأنه لما كان ثمرته ومُوجبه اسْتدلّ له عليه استدلالًا بالأثر على المُؤَثِّر، وبالمعلول على العِلَّة»[(١)]، لا أن التوكل هو الرِّضَا، أو الرضا هو التوكّل.

وقد سُئِلَ أبو بكر الواسطي عن ماهية التوكّل، فقال: «الصبر على طوارق المِحَن، ثم التفويض، ثم التسليم، ثم الرّضا، ثم الثقة.

وأما صِدْق التوكل، فهو صدق الفاقة والافتقار ـ يعني: إلى الله ﷻ ـ»[(٢)].

هذا ولا بدّ من فِعْل ما أمر الله به، وتَرْك ما نَهَى الله عنه، في التوكّل والرّضا، ومَنْ قال فيهما بتَرْك الأسباب، والركون إلى مُسَبِّب الأسباب فقد طعن في سُنَّة رسول الله ﷺ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرّضا والتوكّل يكتنفان المقدور؛ فالتوكّل قبل وقوعه، والرّضا بعد وقوعه»[(٣)]. اهـ.



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٧٤١) باختصار وتصرف.
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٥٨).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٧).

الطريق إلى تحقيق الرِّضا

إن «طريق الرضا طريق مختصرة قريبة جدًّا، مُوصِلة إلى أَجَلّ غاية؛ ولكن فيها مشقة ـ كما تقدم ـ ومع هذا فليست مشقتها أصعب من مشقَّة طريق المُجَاهَدة، ولا فيها من العقبات والمَفَاوِز ما فيها، وإنما عقبتها هِمَّة عالية، ونَفْس زكيَّة، وتوطين النَّفْس على كل ما يَرِدُ عليها من الله.

ويُسَهِّل ذلك على العبد: عِلْمه بضعفه وعجزه، ورحمة ربّه به، وشفقته عليه وبرّه به. فإذا شَهِد هذا وهذا، ولم يَطْرح نَفْسه بين يديه، ويرضى به وعنه، وتنجذب دواعي حبّه ورضاه كلها إليه؛ فنَفْسه نَفْس مطرودة عن الله، بعيدة عنه، ليست مُؤَهَّلة لقربه وموالاته. أو نَفْس مُمْتَحَنَة مُبتلاة بأصناف البلايا والمِحَن»[(١)].

وقد ذَكَر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أن الرضا يُوجِبه **شاهدان**:

«**الأول:** عِلْم العبد بأن الله سبحانه مُسْتوجِب لذلك، مُسْتحِق له لنَفْسه؛ فإنه أحْسَنَ كلَّ شيء خَلَقَهُ، وأتْقَنَ كُلَّ شَيْء، وهو العليم الحكيم، الخَبِيرُ الرحيم.

والثاني: عِلْمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن خيرٌ من اختياره لنَفْسه، وقد قال النبي ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ؛ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[(٢)].

فأخبر النبي ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء، ويشكر على السراء فهو خير له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥].

فأمَّا من لا يصبر على البلاء، ولا يشكر على الرخاء؛ فلا يلزم أن يكون القضاء خيرًا له»[(٣)].

وهناك أمور أخرى يُتَوَصّل بها إلى الرضا ـ إضافة إلى ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ـ **فمن ذلك:**

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦) بتصرُّف يسير.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٣ ـ ٤٤) بتصرُّف.

الثالث: الثقة بالله تعالى وحُسْن تَدْبِيره؛ «لأن العبد لا يريد مصلحة نفْسه مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، ولو عَرَف أسبابها فهو جاهل ظَالِم، وربه تعالى يريد مصلحته، ويسوق إليه أسبابها، ومن أعظم أسبابها ما يكرهه العبد؛ فإنَّ مصلحته فيما يكره أضعاف مصلحته فيما يحبّ.

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]»[(١)].

و«العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن أن توافيه المضرَّة من جانب المسرَّة، ولم ييأس أن تأتيه المَسَرَّة من جانب المَضَرَّة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد...

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى مَنْ يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له؛ لما يرجو فيه من حُسْنِ العَاقِبَة.

ومنها: أنه لا يقترح على رَبِّه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به عِلْم؛ فَلَعَلَّ مضرَّته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على رَبِّهِ شيئًا؛ بل يسأله حُسْنَ الاختيار له، وأن يُرْضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك»[(٢)].

قال أبو العباس بن عطاء: «الفرح في تدبير الله تعالى لنا، والشقاء في تدبيرنا»[(٣)].

وقال سفيان بن عُيَيْنَة: «مَنْ لم يَصلح على تقدير الله لم يصلح على تدبير نَفْسه»[(٤)].

وسُئِل بعضهم عن الرضا فقال: «من لم يندم على ما فات من الدنيا، ولم يتَأَسَّف عليها».

ولله در القائل[(٥)]:

الْعَبْدُ ذُو ضَجَرٍ وَالرَّبُّ ذُو قَدَرٍ ... وَالدَّهْرُ ذُو دُوَلٍ وَالرِّزْقُ مَقْسُومُ
وَالخَيْرُ أَجْمَعُ فِيمَا اخْتَارَ خَالِقُنَا ... وَفِي اخْتِيَارِ سِوَاهُ اللَّوْمُ وَالشُّومُ

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْعُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعبده المؤمن المُحِبّ عطاءٌ، وابتلاؤه إياه

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٥) بتصرُّف يسير.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٩٩ ـ ٢٠٠).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢١٦).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢١٧).
(٥) وهو: الجنيد الطبري، كما في «شعب الإيمان» (٢٥٠).

عافية. . . وذلك أنه لم يمنع عن بُخْل ولا عَدَمٍ، وإنما نَظَر في خير عبده المؤمن، فَمَنَعَه اختيارًا، وحُسْن نظر. . .

فالعاقل الراضي من يَعُدّ البلاء عافية، والمَنْع نعمة، والفقر غِنًى. . .

فالراضي هو الذي يَعُدّ نِعَم الله عليه فيما يكرهه أكثر وأعظم من نِعَمِهِ عليه فيما يحبه. . . وقد قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال بعض العارفين: «ارْضَ عَنِ الله في جميع ما يفعله بك، فإِنَّه مَا منعك إلا لِيُعْطِيكَ، ولا ابتلاك إلا لِيُعَافِيكَ، ولا أمرضك إلا لِيَشْفيك، ولا أماتك إلا لِيُحْيِيكَ؛ فإياك أن تفارق الرضا عنه طَرْفَةَ عين»[١]. اهـ.

الرابع: العلم بالله تعالى ومعرفته معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته؛ «فإن جميع ما في الكون أوجبه سبحانه بمشيئته وحكمته، فهو مُوجَب أسمائه وصفاته؛ فَمَنْ لَمْ يَرْضَ بما رضي به ربّه لم يرض بأسمائه وصفاته»[٢].

فـ«الراضي عارفٌ بربه، حَسَن الظن به، لا يتَّهِمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره»[٣].

وقيل للحسن رَحِمَهُ اللهُ: «يا أبا سعيد! مِنْ أَيْنَ أتى هذا الخُلُق؟ قال: من قلّة الرِّضَا عن الله، فقيل له: وَمِنْ أَيْن أَتى قلة الرضا عن الله؟ قال: مِنْ قلة المعرفة بالله»[٤].

وقال أحمد بن عمارة: «لا يجزَع من المصيبة إلا من اتَّهم رَبَّه»[٥].

وقال الأصمعي رَحِمَهُ اللهُ: «نَظَر الفضيل بن عياض إلى رجل يشكو، فقال: يا هذا! تشكو مَنْ يَرْحَمُكَ إلى منْ لَا يَرْحَمك؟»[٦].

فالرّضا إنما هو بحسب معرفة العبد بعدل الله وحكمته ورحمته، وحُسن اختياره، فكلما كان بذلك أعْرَف كان به أرْضَى.

فقضاء الله سبحانه في عبده دَائِر بين العَدْلِ والمصلحة، والحكمة والرحمة، لا يخرج عن ذلك البتّة؛ كما قال النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ**

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٥ ـ ٢١٦).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦) بتصرُّف.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦) بتصرُّف.
(٤) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٦٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٦/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣١).
(٦) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٦٠٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٠١).

عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ»[(١)].

فقوله ﷺ: «**عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ**» يتناول كل قضاء يَقْضِيهِ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ، والله سبحانه لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له[(٢)].

وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «إن الرضا من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفتَه رضيتَ بقضائه، وقد يجري في ضمن القضاء مَرَارَات يجد بعض طَعْمِها الراضي»[(٣)]. اهـ.

الخامس: «أن يعلم أنه سبحانه هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والمُظْهِر لكل شيء، والمالك لِكُلّ شيء، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار، وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه اختيار، ولا يُشْرِك في حكمه أحدًا... فإن الأمر كله لله، وقد قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فإذا تَيَقَّنَ العبد أن الأمر كله لله، وليس له من الأمر قليل ولا كثير؛ لم يكن له مُعَوّل بعد ذلك غير الرضا بمواقع الأقدار، وما يجري به من ربّه الاختيار»[(٤)].

السادس: اليقين الراسخ «بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا رادّ لحكمه، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فهو يعلم أن كلًّا من البلية والنعمة بقضاء سابق، وقدرٍ حتم»[(٥)].

و«عدم الرّضا إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبّه ويريده، وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه، فإذا تيقّن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليُخطئه؛ فلا فائدة في سَخَطِه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه، وحصول ما يضرّه»[(٦)].

السابع: أن يعلم «أن حكم الرب تعالى ماض في عبده، وقضاءه عدلٌ فيه، كما تقدم، وَمَنْ لَمْ يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجَور.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وصحَّحه ابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩) ـ وتعقبه الذهبي ـ وابن القيم في «الصواعق المرسلة» (٣/ ٩١٣) وغيره، وحسَّنه ابن حجر في «اللسان» (٩/ ٨٣)، و«تخريج الأذكار» ـ كما في «الفتوحات» (٤/ ١٣) ـ، وصحَّحه أحمد شاكر في التعليق على «المسند» (٤٣١٨)، والألباني في «الصحيحة» (١٩٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٤)، و«الفوائد» (ص٣٤).

(٣) «صيد الخاطر» (ص١٠٩).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٥) بتصرُّف يسير.

(٦) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٤).

وقوله في الحديث المتقدم: «**عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ**»، يَعُمّ قضاء الذنب وقضاء أَثَرِه وعقوبته، فإن الأمرين من قضائه ﷻ، وهو أحكم الحاكمين في قضائه بالذنب، وفي قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة فظاهر. وأما عدله في قضائه بالذنب؛ فلأنّ الذنب عقوبة على غفلته عن رَبِّهِ، وإعراض قلبه عنه؛ فإنه إذا غَفَل قلبه عن ربه ووليه، ونقص إخلاصه استحق أن يُضْرَب بهذه العقوبة؛ لأن قلوب الغافلين معْدن الذنوب، والعقوبات واردة عليها من كل جهة، وإلا فَمَعَ كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله ﷻ وذكره يستحيل صدور الذنب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]»[(١)].

الثامن: «أن يعلم أن حظَّه من المقدور إنما هو ما يتلقَّاهُ بِهِ من الرِّضَا والسّخْط حقيقة، فالمقدور لا بد منه؛ فمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السخط»[(٢)].

التاسع: أن يعلم العبد بأنه إذا رَضِيَ عن أقضية الله ﷻ وأقداره المؤلمة؛ فإنها تنقلب في حقه نعمة ومِنْحة، وهذا الفهم والتصوّر يخفّف عليه حِمْل المصائب والآلام. أما إذا سخطها وتَبَرَّمَ بِهَا زادته ثقْلًا وأَلَمًا، وازداد شدة وحَسْرة، ولو كان السُّخْط يُجْدي عليه شيئًا لكان له فيه راحة، لكنه لا ينفعه؛ إنما الذي ينفعه ويرفعه هو الرّضا.

العاشر: أن يعلم أن تمام العبودية الحَقَّة في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه، ولو أن الإنسان لم يحصل له إلا ما يحبّ، لكان أبعد الناس عن حقيقة العبودية؛ فعبودية الصبر، وعبودية التوكّل، وعبودية الرضا، والتضرّع والافتقار، والذل، والخضوع، والمسكنة، وغير ذلك لها تَعَلُّق كبير بالأمور التي يكرهها الإنسان. وليس الشأن في الرضا بالقضاء المُلَائِم للطبيعة، إنما الشأن في القضاء المُؤلِم المُنَافِر للطَّبْع[(٣)].

الحادي عشر: أن يعلم أنَّ كل قَدَر لا يُلَائِم العبد مما تنفر منه نَفْسه لا يخلو إمَّا أن يكون عقوبة على الذنب، فهو دواء للعلّة والمرض تَدَارَكَه به رَبّه تبارك وتعالى؛ لئلا يسترسل به هذا المرض، فيَعْطَب، ويهلك، وقد يكون ذلك سببًا لنعمة لا تُنَال إلا بذلك المكروه؛ فالمكروه ينقطع، ويتلاشى، ويذهب، وما يترتّب عليه من النعمة

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣) بتصرُّف.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦) بتصرُّف يسير.
(٣) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

يبقى، ويدوم، ولا ينقطع، فإذا تذكّر العبد هذه المعاني انفتح له باب الرّضا[١].

الثاني عشر: أن يتذكر «أنه مسلم، والمسلم مَنْ قَدْ سَلَّمَ نَفْسَهُ لله، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه، ولم يسخط ذلك»[٢].

الثالث عشر: أن يستشعر أنه «مُفَوِّض، والمُفَوِّض راض بكل ما اختاره الله له، ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولُطْفه وحُسْن اختياره له.

الرابع عشر: أن يتذكر أنه عبدٌ مَحْض، والعَبْدُ المَحْض لا يسخط جريان أحكام السيد المُحْسن، بل يتلقاها بالرضا به وعنه.

الخامس عشر: أن يستشعر أنه مُحِب، والمُحِب الصادق مَنْ رَضِيَ بما يعامله به محبوبه»[٣].

السادس عشر: أن ينظر الإنسان في النصوص الواردة في الثناء على أهل الرِّضَا؛ فإن ذلك ينشط النَّفْس، ويحفّزها، ويُحَرِّكها لتصل وترتقي، ويُهَوِّن عليها الشدّة التي يلقاها بسبب المجاهدات في سَيْرِهِ إلى هذا المطلوب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة: ٧]، إلى أن قال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، والنبي ﷺ يقول: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السّخْطُ**»[٤].

السابع عشر: استحضار الثواب والجزاء، كما قال شقيق البلخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ يَرَى ثواب الشِّدَّةِ لا يَشْتَهِي المخْرَج منها»[٥].

الثامن عشر: تحقيق بعض الأعمال التي يتوقف عليها الرِّضَا؛ فالرضا يتوقف على جملة من الأمور: من أعمال البدن، ومن أعمال القلب، ومن أعمال اللسان؛ فنلزم ما

---

(١) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢١٢).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٥) بتصرُّف.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٤٨).

جعل الله ﷻ رضاه فيه، فإنه يُوَصّلنا إلى مقام الرّضا[١].

ولو تأمّل الإنسان نصوص الكتاب والسُّنَّة، ونَظَر في الأمور التي أخبر الله ﷻ أنها تُوَصِّل العبد إلى حال الرِّضَا؛ فإنه بذلك يعرف الطريق فيسلكه، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾؛ فهذه الآيات ذكر الله ﷻ فيها الصدق، والإيمان، والأعمال الصالحة، والمجاهدة لأعدائه، وترك مُوالاتهم، فرضي الله ﷻ عن هؤلاء وأرضاهم[٢].

قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال: «إذا أقام نَفْسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قَبِلْت، وإن منعتني رضيتُ، وإن تركتني عبدتُ، وإن دَعَوْتَنِي أجبتُ»[٣].

وهكذا الأعمال القلبية: الخوف والرجاء والقناعة، وغير ذلك كلّه يُثْمِر الرضا، والرضا من توابع المحبة لله ﷻ؛ فمَنْ أَحَبَّ الله محبَّة حقيقية رضي به، ورَضِيَ عنه.

و«الرضا آخر التوكل، فمَنْ رَسَخَ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض حصل له الرضا ولا بد»[٤].

والرّضا بالله ﷻ هو أصل الرضا عنه؛ لأنك إذا رضيت به ربًّا فإنك ترضى به مُدَبِّرًا؛ لأن ذلك من معاني ربوبيته، فـ«الرضا به مُتَعَلِّق بأسمائه وصفاته ـ كما تَقَدَّمَ ـ والرضا عنه مُتَعَلِّق بثوابه وجَزَائِهِ»[٥].

التاسع عشر: أن ينظر عند وقوع المكروه أو المصيبة إلى من هو دونه، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**انظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَل مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»[٦]، هذا في المصائب، وفي الأمور الدنيوية.

وأمَّا في الطاعات، فإن الإنسان ينظر إلى مَنْ هو فَوْقَه، لِيُحَرِّضَه النظر على مزيد من العَزْمِ والتَّشْمِيرِ فِي طَاعَةِ الله تعالى.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٤). (٢) انظر: «المدارج» (٢/ ١٨٧).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٧٤)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٦٦) بنحوه.
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٣ ـ ١٧٤).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٥).
(٦) تقدم تخريجه.

ثمرات الرِّضَا

وثمرات الرضا كثيرة ومتنوّعة ومتجدِّدة، يصعب حصرها، ويكفينا أن نذكر منها على سبيل الاختصار أبرزها وأهمّهَا، **فمن ذلك:**

الأول: رضا الله تعالى عن العبد:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «رضا الله عن العبد أكبر من الجَنَّة وما فيها؛ لأن الرِّضَا صفة الله، والجنة خَلْقه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بعد قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وهذا الرّضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال»[(١)] . اهـ.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْك، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْك، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ! وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ خَلْقِك! فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِك؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِك؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُم بَعْدَهُ أَبَدًا**»[(٢)] .

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السّخْطُ**»[(٣)] .

«أي: مَنْ رَضِيَ بما قضاه الله وقَدَّره عليه من الابتلاء؛ فله الرّضا من الله، جزاءً وفاقًا؛ كما قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وهذا دليلٌ على فضيلة الرِّضَا، وهو ألا يعترض على الحُكْم، ولا يتسخّطه، ولا يكرهه»[(٤)] .

«فَرِضَا العبد عن رَبِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في جميع الحالات يُثْمِر رِضَا رَبِّهِ عنه، فإذا رَضِيَ عنه

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٧).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) ما بين الأقواس من «تيسير العزيز الحميد» (ص٥٢٢).

بالقليل من الرزق رَضِيَ ربُّه عنه بالقليل من العَمَل»[(١)].

الثاني: كفاية الله للعبد:

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ**»[(٢)].

فمن «عَرَض له أمْرٌ في فِعْله رضا الله وغضب الناس، أو عكسه؛ فإن فَعَل الأول رضي الله عنه، ودفع عنه شر الناس؛ وإن فَعَل الثاني وَكَلَه إلى الناس؛ يعني: سلَّط الناس عليه حتى يؤذوه ويظلموه، ولم يدفع عنه شرهم في النهاية»[(٣)].

ولذلك؛ قال الله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

«فمن لُطْف الله بعباده المؤمنين أنَّهُ رَدَّ كَيْدَ الكافرين في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أدْيَانِهِمْ ولا أبدانهم، وإنما غاية ما يَصِلُونَ إليه من الأذى أذيَّة الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل مُعَادٍ»[(٤)].

الثالث: لُطْف الله بالعبد:

قال ابن القيم رحمه الله: «يريح الله عبده المؤمن من الأفكار المُتْعِبة في أنواع الاختيارات، فلو رَضِيَ باختيار الله أصابه القَدَر وهو محمود، مشكور، ملطوفٌ به فيه؛ وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوفٍ به فيه؛ لأنه مع اختياره لنَفْسه.

ومَتَى صَحَّ تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور العَطْف عليه، واللُّطْف به، فيصير بين عَطْفه ولُطْفه؛ فعَطْفه يَقِيه ما يحذره، ولُطْفه يُهَوِّن عليه ما قَدَّره»[(٥)]. اهـ.

وكان من لُطْف الله ﷻ وكفايته لابن تيمية رحمه الله أنْ جعل له من قلبه بما استقرَّ بِهِ من الرِّضَا بمقدور الله ﷻ أعظم المواساة لما كان يجده ويلقاه من أذى الناس.

وكان رحمه الله يقول: «ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، أَنَّى رُحْتُ فهي معي لا تفارقني، إنَّ حَبْسِي خُلْوَة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[(٦)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وصحَّحه ابن حبان (٢٧٦، ٢٧٧)، والألباني في «الصحيحة» (٢٣١١).
(٣) ما بين الأقواس من «مرقاة المفاتيح» (٩/ ٣١٨) بتصرُّف.
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن سعدي في «تفسيره» (١/ ٢٣٣) بتصرُّف.
(٥) «الفوائد» (ص٢٠٠) بتصرُّف.
(٦) «الوابل الصيب» (ص١٠٩)، وقد تقدم.

وكان يقول في محْبَسِه في القَلْعة: «لو بذلت مِلْء هذه القلعة ذهبًا ما عَدَل عندي شكر هذه النِّعْمَة»[(١)].

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣][(٢)].

يقول ابن القيِّم : «وعَلِم الله، ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قطّ، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم؛ بل ضدّها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم لُبًّا وأَسَرّهم نَفْسًا، تلُوح نَضْرة النعيم على وجهه»[(٣)]. اهـ.

فهذا وأمثاله إنما يحصل لمن حَقَّق رضا الله تبارك وتعالى، فيلْطُف الله به، ويُقَدِّرُ له ما فيه الخير، ويُدَبّر له أمره أحسن التدبير.

الرابع: أنه يُبَارَك له بالرضا فيما أعطاه الله:

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من رضي بما قَسَم الله له وَسِعَهُ، وبارك الله له فيه، ومَنْ لم يَرْضَ لم يسعه ولم يُبَارك له فيه»[(٤)].

الخامس: «ومنها:

أنه إذا فَوَّضَ إلى ربه، ورَضِيَ بما يختاره له؛ أَمَدَّهُ فيما يختارُهُ له بالقوة عليه والعزيمةِ والصبر، وصَرَفَ عنه الآفات التي هي عُرْضَة اختيار العبد لنَفْسه، وأراه من حُسْن عواقب اختيارِهِ له ما لم يكن ليصِلَ إلى بعضه بما يختارُهُ هو لنَفْسه»[(٥)].

السادس: حصول العِوَض مما فاته:

فعن أم سلمه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِم تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»[(٦)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «لَمَّا حضرت أبا سلمة الوفاة، قالت أم سلمة: إلى

---

(١) المصدر السابق، وقد تقدم.
(٢) المصدر السابق، وقد تقدم.
(٣) المصدر السابق، وقد تقدم.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا» (٩٥).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص٢٠٠).
(٦) أخرجه مسلم (٩١٨).

مَنْ تَكِلُنِي؟ فقال: اللَّهُمَّ إنك لأم سلمة خير من أبي سلمة، فلما تُوُفِّي خطبها رسول الله ﷺ»[(١)].

السابع: أنه يُورِث اليقين:

«فالسّخط يَفْتَحُ عليه باب الشك في الله، وقضائه، وقَدَره، وحِكْمته، وعِلْمِه، ولو فتَّش الساخط نَفْسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولًا مدخولًا؛ فإن الرضا واليقين إخوان مصطحبان، والشكّ والسخط قرينان»[(٢)].

الثامن: تحقيق الثبات:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «السخط يُوجِب تَلَوّن العبد وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طَبْعه ونَفْسه، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلما جرى عليه منها ما لا يُلَائِمه أسخطه، فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رَضِيَ عن ربِّه في جميع الحالات استقرَّت قدمه في مقام العبودية، فلا يزيل التَّلَوّن عن العبد شيءٌ مثل الرضا»[(٣)]. اهـ.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١].

وهؤلاء هم عبيد العافية، الذين يعبدون الله عَزَّ وَجَلَّ إذا وَسَّع عليهم وعافاهم، فإذا حصل لهم المكروه انقلبوا.

التاسع: يُوَرِّث الطمأنينة والراحة:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعظم راحة العبد وسروره ونعيمه في الرضا عن ربه تعالى وتقدّس في جميع الحالات؛ فإن الرضا باب الله الأعظم، ومُسْتَراح العارفين، وجنَّة الدنيا؛ فجدير بمن نَصَحَ نَفْسه أن تشْتَدَّ رغبته فيه، وألَّا يَسْتَبدل بغيره منه.

كما أن السُّخط باب الهَمِّ، والغَمِّ، والحَزَن، وشتات القلب، وكَسْف البَالِ، وسُوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله. والرضا يُوجِب له الطمأنينة، وبَرْد القلب، وسكونه وقراره. والسُّخط يُوجِب اضْطِراب قلبه، ورِيبَته، وانْزِعَاجه، وعدم قراره.

والرضا يُنْزِل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة استقام،

---

(١) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٧/ ٦٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤١٦١) واللفظ له، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٣).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٨) بتصرُّف يسير.

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

وصلحت أحواله، وصَلح باله؛ وإذا تَرَحَّلَتْ عنه السكينة تَرَحَّلَ عَنْه السرور، والأمن، والدّعة، والراحة، وطيب العيش.

فمن أعظم نِعَم الله على عبده تَنَزُّل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها الرضا عنه في جميع الحالات»(١) .اهـ.

وقد قيل: «الرّضا ألَّا تُرْضِي الناس بسَخَط الله، ولا تَحْمَد أحدًا على رِزْق الله، ولا تَلُم أحدًا على ما لم يُؤْتِك الله؛ فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يردّه كَرَاهِية كاره، والله بقِسْطه وعِلْمه جعل الرَّوْحَ والفَرَحَ في اليقين والرِّضَا، وجعل الهَمَّ والحَزَن في الشَّكّ والسَّخَط»(٢).

قال عبد الله بن عون رَحِمَهُ اللَّهُ: «ارض بقضاء الله على ما كان من عُسْرٍ ويُسْرٍ؛ فإن ذلك أقلّ لهمّك، وأبلغ فيما تطلب من آخرتك»(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا يُثْمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النَّفْس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مُفْزِع مُهْلِع من أُمور الدنيا، وبَرْد القناعة، واغتباط العبد بِقِسْمه من رَبِّه، وفَرَحِه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يُجْرِيه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حُسْن تدبيره، وكمال حكمته»(٤) .اهـ.

العاشر: القناعة:

يقول عليّ بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ قَنِع بما قَسَم الله له فهو من أغنى الناس»(٥).

وقال أكثم بن صَيْفِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ رَضِيَ بالقَسْم طابت معيشته، ومَنْ قَنِع بما هو فيه قرَّت عينه»(٦).

«فمن ملأ قلبه من الرّضا بالقَدَر مَلَأ الله صدره غِنًى وأَمْنًا وقناعة، وفَرَّغ قلبه لمحبَّتِهِ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٧) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب اليقين» (٢٣)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٢٠٥) واللفظ له، من كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد رُوِي مرفوعًا من حديث ابن مسعود وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. كما في «الشعب» (٢٠٣، ٢٠٤)، ولا يثبت، كما قال البيهقي، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٤١)، وحكم الألباني بوضعه في «الضعيفة» (١٤٨٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٦٩).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٠).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٥).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة والتَّعَفُّف» (١٣١).

والإنابة إليه والتوكّل عليه. ومَنْ فَاتَه حَظّه من الرضا امتلأ قلبه بضدِّ ذلك، فالرِّضَا يُفَرِّغ القلب لله، والسُّخْط يُفَرِّغ القلب من الله...

والرّضا ينفي عن العبد آفات الِحْرص، والكَلَب على الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة، وأصل كل بَلِيَّة، وأساس كل رَزِيَّةٍ.

فَرِضَاهُ عن ربِّه في جميع الحالات يَنْفِي عنه مادة هذه الآفات»[(١)].

الحادي عشر: السعادة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرّضا بالقضاء من أسباب السعادة، والتسخّط على القضاء من أسباب الشقاوة»[(٢)]. اهـ.

وقال إبراهيم الحَرْبِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجْمَعَ عُقَلاء كل أمّة أنّه من لم يجرِ مع القَدَرِ لم يتهنّأ بعيشه»[(٣)].

وسرّ سعادة العبد في الرضا أنه لا يتسخّط على المقدور، ولا يتبرّم من البلاء، فإذا لم يَشْقَ بالعَسِيرِ هَنِئَ بكل سرور؛ لأنه لا يُنَغِّص عليه شيء، فيَخْلُص سروره من كل تنغيص.

الثاني عشر: «صاحب الرضا لا يأسى على فائت، ولا يَفْرَح بما أُوتي:

أما عدم أساهُ على فائِتٍ؛ فظاهر. وأما عَدَمُ فَرَحِهِ بما آتاه؛ فلأنه يعلم أن المُصِيبَةَ فيه مكتوبة من قَبْل حُصُولِهِ، فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة مُنْتَظَرَة، ولا بد»[(٤)].

وهذا على أحد التفسيرين لقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٣]، والثاني: أنه فَرَح البَطَر.

الثالث عشر: حلاوة الطاعة:

قال شقيق البَلْخي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ شَكَا مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا»[(٥)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩) بتصرُّف.
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٠٨).
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٦/ ٣٠).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٨) بتصرُّف.
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠١).

الرابع عشر: الثواب والأجر:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ**»(١).

فـ«الراضي مُتَلَقٍّ أوامر ربِّه الدينية والقدرية بالانشراح، والتسليم، وطيب النَّفْس، والاستسلام، والساخط يتلقَّاها بضدِّ ذلك، إلا ما وافق طَبْعه وإرادته منها، والرضا بذلك لا ينفعه، ولا يُثَاب عليه، فإنه لم يَرْضَ به لكون الله قدَّره، وقضاه، وأمر به، وإنما رَضِيَ به لموافقته هواه وطَبْعه»(٢).

الخامس عشر: «الرضا يُخَلِّص العبد من عَيْب ما لم يَعِبْه الله، ومن ذم ما لم يذمّه الله:

فإن العبد إذا لم يَرْضَ بالشيء عَابَه بأنواع المَعَايِب، وذمَّه بأنواع المَذَام؛ وذلك منه قِلَّة حياء من الله، وذَمّ لما ليس له ذنب، وعيب لَخَلْقه، وذلك يُسْقِط العبد من عين ربِّه.

ولو أنَّ رَجُلًا صنع لك طعامًا وقدَّمه إليك، فعِبْتَه وذممته؛ كنتَ مُتَعَرِّضًا لمَقْتِه وإهانته، ومُسْتدعِيًا منه أن يقطع ذلك عنك...

السادس عشر: يُذْهِب عن العبد شكوى ربّه إلى غيره، وتَبَرُّمه بأقضيته:

ولهذا سَمَّى بعضهم الرضا: حُسْن الخُلُق مع الله؛ فإنه يوجب تَرْك الاعتراض عليه في مُلْكِه، وحذف فضول الكلام التي تَقْدَح في حُسْن خُلُقه؛ فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر! ولا يقول: هذا يوم شديد الحر، أو شديد البرد. ولا يقول: الفقر بلاء، والعيال همّ وغمّ. ولا يسمي شيئًا قضاه الله وقدَّرَه باسم مذموم إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى، فإن هذا كله ينافي رضاه»(٣).

والشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبًا عند السَّخَط والشهوة، فهناك يصطاده؛ ولا سيما إذا استحكم سَخَطُه، فإنه يقول ما لا يُرْضي الرب، ويفعل ما لا يرضيه، وينوي ما لا

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١١) بتصرُّف يسير.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) بتصرُّف.

يرضيه؛ ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: «**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضى رَبُّنا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[(١)].

فأخبر النبي ﷺ أنه لا يقول في مثل هذا المقام الذي يسخطه أكثر الناس، فيتكلّمون بما لا يُرْضي الله، ويفعلون ما لا يُرْضِيه، إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى.

ولهذا لما مات ابن الفضيل بن عياض رُئي في الجنازة ضاحكًا، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟! فقال: «إن الله ﷻ أحب أمرًا، فأحببت ما أحب الله»[(٢)].

وقد «أنكرت طائفة هذه المقالة على الفضيل، وقالوا: رسول الله ﷺ بكى يوم مات ابنه، وأخبر أن القلب يحزن، والعين تدمع، وهو في أعلى مقامات الرضا، فكيف يُعَدّ هذا من مناقب الفضيل؟!

والتحقيق أن قلب رسول الله ﷺ اتَّسع لتكميل جميع المراتب، من الرضا عن الله، والبكاء رحمة للصبي؛ فكان له مقام الرضا، ومقام الرحمة، ورقة القلب.

والفضيل لم يتسع قلبه لمقام الرضا، ومقام الرحمة، فلم يجتمع له الأمران»[(٣)].

السابع عشر: «يُخَلِّص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته:

فإن السَّخَط عليه مخاصمة له فيما لم يَرْضَ به العبد. وأَصْل مخاصمة إبليس لِرَبِّهِ من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية»[(٤)].

الثامن عشر: أنه «يُخَلِّص العبد من أن يُرْضِي الناس بِسَخَط الله، وأن يذمهم على ما لم يُؤْتِهِ الله، وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله:

فيكون ظالمًا لهم في الأوّل ـ وهو رضاهم وذمهم ـ مُشْرِكًا بهم في الثاني ـ وهو حَمْدهم ـ فإذا رَضِيَ بالقضاء تَخَلَّص من ذمهم وحمدهم، فخَلَّصه الرضا من ذلك كله»[(٥)].

التاسع عشر: الرّضا مفتاح باب حُسْن الخلق:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرِّضا يفتح باب حُسْن الخُلُق مع الله تعالى ومع الناس، فَإِنَّ حُسْن الخُلُق من الرضا، وسوء الخُلُق من السَّخَط، وحُسْن الخُلُق يَبْلُغ بصاحبه درجة

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا» (٩٠)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٠).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٠).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٢).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٣).

الصائم القائم، وسوء الخُلُق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحَطَب»[(١)] .اهـ.

العشرون: الرضا يُوَرِّث سلامة القلب:

فـ«الرضا يفتح للعبد باب السلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغِشّ والدَّغَل والغِل، ولا ينجو من عذاب الله إلا مَنْ أتَى الله بقلب سليم، وتستحيل سلامة القلب مع السَّخَط، وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم؛ فالخبث والدَّغَل والغشّ قرين السَّخَط، وسلامة القلب وبِرِّه ونُصْحه قرين الرضا. وكذا الحسد، هو من ثمرات السَّخَط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا»[(٢)] .

الحادي والعشرون: الشكر:

«والشكر من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يُثْمر ضدّه؛ وهو كُفْر النِّعَم، وربما أثمر له كُفْر المُنْعِم.

فإذا رَضِيَ العبد عن رَبِّهِ في جميع الحالات أوجب له ذلك شُكْره؛ فيكون من الراضين الشاكرين، وإذا فاته الرضا كان من الساخطين، وسَلَك سبيل الكافرين»[(٣)] .

الثاني والعشرون: أنه يخرج الهوى من القلب:

فالراضي هواه تَبَع لمراد رَبِّه منه؛ فلا يجتمع الرّضا واتّباع الهوى في القلب أبدًا، وإن كان معه شُعْبة من هذا، وشعبة من هذا؛ فهو للغالب عليه منهما.

والرضا بالقضاء أشق على النَّفْس؛ فإنه مخالفة هواها وطَبْعها وإرادتها، ولا تصير مطمئنّة قط حتى ترضى بالقضاء؛ فحينئذ تستحقّ أن يُقَال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

الثالث والعشرون: الرضا أصل الطاعات:

فـ«المخالفات كلها أصلها من عدم الرضا، والطاعات كلّها أصلها من الرضا؛ وهذا إنما يعرفه حق المعرفة مَنْ عَرَفَ صفات نَفْسه، وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي؛ فعدم الرِّضَا يفتح باب البدعة، والرضا يُغْلِق عنه ذلك الباب، ولو تأمّلتَ بِدَع النواصب والخوارج والروافض لرأيتها ناشئة من عدم الرضا بالحكم الكوني، أو الديني، أو كليهما...

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٢٠).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٧) بتصرُّف يسير.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٩) بتصرُّف يسير.

وإن أوَّل معصية عُصِيَ الله بها في هذا العالم إنما نشأت من عدم الرِّضا، فإبليس لم يَرْضَ بحكم الله الذي حكم به كونًا؛ من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الديني؛ من أمره بالسجود لآدم.

وآدم لم يَرْضَ بما أبيح له من الجنَّة، حتى ضم إليه الأكل من الشجرة التي نُهِيَ عنها، ثم ترتَّبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضا»[(١)].

الرابع والعشرون: أن مَنْ أخذ به فقد أخذ بِحَظّ وَافِر من الدِّين:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الرِّضَا مَعْقد نظام الدِّين ظاهره وباطنه، فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع؛ فتنقسم قسمين: دينية، وكونية، وهي: مأمورات، ومنهيَّات، ومباحات، ونِعَم مُلَذَّة، وبلايا مؤلمة، فإذا استعمل العبد الرضا في ذلك كله فقد أخذ بالحَظِّ الوافر من الإسلام، وفاز بالقِدْح المُعَلَّى»[(٢)]. اهـ.

وذلك أنَّ الراضي في الأمر الكوني صابِرٌ على البلاء، شاكرٌ على الرَّخَاءِ، وفي الأمر الشرعي مستقيم على الصراط؛ فله بذلك أوفى حَظٍّ في أمر دينه وأمر دنياه.

الخامس والعشرون: الرضا والمحبة يسيران بالعبد وهو مُسْتلْقٍ عَلَى فِرَاشِهِ، فيصبح أمام الرَّكْب بمراحل[(٣)]:

فهما أصل كل خُلُقٍ كريم وعمل صالح، فالمُحِبّ مُتَلَهِّف على طاعة المحبوب، والراضي قانع مُكْتَفٍ، غير ساخط ولا مُتَضَجّر؛ فالعمل صالح، والقلب سليم، والنَّفْس مطمئنة، والسعي مشكور.

السادس والعشرون: الرضا يُثْمِر الفرح والسرور:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «ثمرة الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى، ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه في المنام، وكأني ذكرتُ له شيئًا من أعمال القلب، وأخذت في تعظيمه ومنفعته ـ لا أذكره الآن ـ فقال: أمّا أنا فطريقتي الفرح بالله، والسرور به، أو نحو هذا من العبارة. وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حاله»[(٤)]. اهـ.

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن تبارك وتعالى بقسطه وحِلْمه جعل الرَّوْحَ والفَرَح في اليقين والرِّضا، وجعل الغَمَّ والحَزَن في الشك والسّخط»[(٥)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١١، ٢١٤) بتصرُّف يسير.
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢١١ ـ ٢١٢).
(٣) انظر: المصدر السابق (٢/ ١٧٦).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٧٦).
(٥) تقدم تخريجه.

ما لا ينافي الرّضا وما ينافيه

أولًا: الأمور التي لا تتنافى مع الرضا:

١ ـ **الإحساس بالألم**، فإن هذا بمجرّده لا ينافي الرّضا، ولا يضر العبد أن يجتمع في قَلْبِه الرضا وحرارة المصيبة؛ وذلك كالإنسان الذي يكابد الجوع والعطش في الصيام، وهو في غاية الرِّضَا، فهذا الشعور بالجوع لا يُخْرِجه عن حال الرِّضا؛ لأنه إنما صام طلبًا لمرضاة الله ﷻ، فيهون عنده ذلك في سبيل تحقيق مرضاة الرب. وهكذا حينما يشعر الإنسان بالألم أو يجد حرارة المصيبة أو نحو ذلك، وهو في غاية الرضا، وهكذا المجاهد يستقبل الطعن والضرب بالسيوف وهو يجد ألم ذلك، ولكنه يُقْبِل بنَفْس رَضِيَّة لما يرجو عند الله ﷻ من الأجر والثواب.

وكذا ما يجده من إرهاق؛ من سهر اللّيل للقيام، وما يجده من مشقّة في المناسك عند التنقُّل بين المناسك وفي الزحام وما إلى ذلك؛ فمثل هذا لا ينافي الرّضا ولا يضاده بحال.

فمهما أصيب الإنسان بمصيبة، فأَحَسّ بألمها، وأنَّ لوجعها؛ فإنه لا يضرّه ذلك ما لم يكن على سبيل الشكايَة والتَّسخُّط.

وقد يتناول المريض الدواء المرّ الكريه، وهو راضٍ تمام الرّضا؛ لِمَا يرجوه من الشفاء والعافية بإذن الله، فلا يُخْرِجه كرهه له، وما يجده من مرارته وغصّته عن حَدّ الرّضا[(١)].

٢ ـ **الإخبار بما يجده من الجوع والفقر، من غير شكاية ولا ضجر ولا جزع**، فإن كان يخبر على سبيل الشكاية؛ فإنّ هذا يخرجه عن حال الرّضا؛ بل يُخْرِجه عن حال الصبر. وهكذا الذي يجزع أو يتسخَّط ونحو ذلك.

وقد قال موسى ﷺ في رحلته التي قَصَّها الله ﷻ علينا في القرآن: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢﴾ [الكهف: ٦٢]، فهذا مجرّد إخبار، وكذلك النبي ﷺ حينما خرج ذات ليلة، فلقي أبا بكر وعمر فسألهما: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**» قالا:

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١١٢).

الجوع يا رسول الله! قال: «**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا**»[(١)].

وفي «صحيح البخاري» أن عائشة رضي الله عنها قالت: وا رأساه! فقال النبي ﷺ: «**بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاهُ!**»[(٢)].

وقال عروة بن الزبير رحمه الله: «دخلت أنا وعبد الله بن الزبير على أسماء ـ يعني: بنت أبي بكر، وهي أمّهما ـ قبل قتل عبد الله بعشر ليال، وأسماء وَجِعَة، فقال لها عبد الله: كيف تجِدينك؟ قالت: وَجِعَة»[(٣)].

فمجرّد الإخبار لا إشكال فيه.

٣ ـ **الحزن والبكاء**؛ فإنَّ هذا لا يخرجه عن حال الرضا، كما حصل للنبي ﷺ عند وَفَاةِ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، وحصل للأنبياء قبله، كما حصل لنبيّ الله يعقوب عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: ٨٤]، لكنه كان يشكو بثّه وحزنه إلى الله تبارك وتعالى، ولم يكن يشكو إلى المخلوق؛ فالحزن الذي لا يُخْرِج الإنسان عن كونه صابرًا راضيًا لا يُؤَاخَذ به.

٤ ـ **الدعاء**، فالدعاء عبادة، والله عز وجل قد يسوق للإنسان البليَّة والمرض والمصيبة حتى ينكسر، ويتصدَّع، وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فالله يحبّ ضَرَاعَةَ العبد وانكساره بين يديه، فهذا من المطالب الشرعية، فلا ينافي الرِّضَا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الرضا لا يتضمن تَرْك واجب، ولا تَرْك مستحب، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تَرْكه من الرّضا، كما أن تَرْك سائر الواجبات لا يكون من الرِّضَا المشروع، ولا فِعْل المحرَّمَات من الرِّضَا المشروع»[(٤)].اهـ.

٥ ـ **فِعْل الأسباب**: فلا يكون فِعْل الأسباب مانعًا من الرِّضَا، بل هي من الرضا بقضاء الله وقَدَرِه، ولا يتحقق الرضا بالقضاء إلا بفِعْل الأسباب المأمور بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة: ٧، ٨][(٥)]،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٠٩)، وصحح الألباني «إسناده في صحيح الأدب» (٣٩٤).
(٤) «الاستقامة» (٢/ ١٣٢) بتصرُّف يسير.
(٥) انظر: المصدر السابق (٢/ ١٣٣).

فالأعمال الصالحة محبوبة لله ﷻ، وهي سببٌ لتحصيل مرضاته، وسبب لرضا العبد عن ربّه؛ لِمَا يلقاه من الجزاء الحَسَن؛ فالعبد يُوقِن أن ما قَدَّره الله ﷻ وقضاه لا بُدَّ أن يَقَعَ، ولكنه يرفع يديه؛ لأن الله تعبَّده بذلك. والنبي ﷺ أخبر أنه: «**لَا يَرُدّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ**»[(١)]، فيكون الله ﷻ قد قدّر لهذا العبد أن يلتجئ إليه، وأن يكون ذلك سببًا لدفع المصيبة.

فالعبد إذا تَرَكَ الانقياد للجوع والعطش والبرد ونحو ذلك من أقدار الله، ودَفَعَه بقَدَر آخر من الأكل والشرب واللباس ونحوه لم يكن فِعْله ذلك منافيًا للرضا بحال.

وإذا وقع حريق ـ مثلًا ـ في دار أو مَتْجر أو مَرْكب، فهذا بقدر الله تعالى. وعلى العبد ألَّا يستسلم له، ويتلقَّاه بالإذعان، بل عليه أن ينازعه ويدافعه بالماء والتراب، وغير ذلك مما يُطْفِئُ الحريق، وهو بذلك لم يخرج عن قدر الله.

بل يجب أن يفعل الأسباب في عدم حصول ذلك أصلًا، كما في الحديث: «**إِنَّ هَذِهِ النَّارَ إِنَّمَا هِيَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ**»[(٢)].

ومن ذلك: تغطية الإناء، وإيكاء السقاء، وإغلاق الأبواب، وذكر اسم الله عليها، وإطفاء السُّرج عند النَّوْم.

وهكذا؛ إذا أصاب المؤمن مرض، فهو بقدر الله تعالى وقضائه الكوني، فله أن يدافعه، وينازعه بقدر الله؛ فيستعمل الأدوية الدافعة للمرض، فإن غَلَبَه وقَهَرَه حرص على دفع آثاره، ومُوجِباته بالأسباب التي نَصَبَها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، كما في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما عُوتِبَ على فراره من الطاعون، وعدم دخوله أرض الشام بمَنْ معه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، فقال له أبو عبيدة: أَفِرَارًا من قدر الله؟ فقال: «نعم، نفرّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عُدْوَتان: إحداهما خَصْبة، والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيت الخَصْبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجَدْبة رعيتها بقدر الله؟»[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله: «ومَنْ لَمْ يستبصر في هذه المسألة ويعطها حقها لزمه التعطيل

(١) أخرجه الترمذي (٢١٣٩) من حديث سلمان رضي الله عنه وقال: «حسن غريب»، وله شاهد من حديث ثوبان رضي الله عنه: أخرجه ابن ماجه (٩٠، ٢٢، ٤٠)، وصحَّحه ابن حبان (٨٧٢)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، والمنذري ـ كما نقل المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٣٣٣) ـ وحسَّنه العِراقي ـ كما نقل البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ١٥) ـ، والألباني في «الصحيحة» (١٥٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٢٩٤)، ومسلم (٢٠١٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

للقدر أو الشرع، شاء أو أبى، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه، وأسباب معاشه، ومصالحه الدنيوية، ولا يُنَازِعُ أَقْدَارَهُ في حَقِّ مَوْلَاه، وأوامره ودينه؟ وهل هذا إلا خروج عن العبودية؟ ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه؟»[(١)] .اهـ.

وأما ما ليس للعبد فيه اختيار، ولا طاقة، ولا حيله في منازعته ومدافعته ـ وهذا ما أشار إليه الحديث: «**وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**»[(٢)] ـ فهذا لا تنفع فيه المنازعة ولا المدافعة، فهذا يُقَابَل بالرّضا والاستسلام، وتَرْك المخاصمة والسَّخَط، والعلم والإيمان بأنَّ الأمر والحكم والقضاء لله مِنْ قَبْل ومِنْ بعد، وأنه سبحانه له حِكْمة في ذلك هو يعلمها سبحانه، وهو عدلٌ في قضائه، ولا يظلم أحدًا شيئًا.

ثانيًا: الأمور التي تنافي الرضا:

وهي التي تُخْرج الإنسان عن حَدِّ الرِّضَا، بل تُخْرِجُه عن الصبر، **فَمِنْ هَذِهِ الأمور**:

١ ـ الاعتراض على الله ﷻ، ومضادته في إلٰهيّته وربوبيّته، وأسمائه وصفاته، فلا يرضى به ربًّا، ويجعل له شركاء من دونه؛ كما قال هؤلاء المشركون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ [ص: ٥].

وهكذا أولئك الذين يُنازِعون في ربوبية الله ﷻ؛ كالذين يقولون: إن العبد هو الذي يخلق فِعْله.

وكذلك الذين يعترضون على أسماء الله ﷻ وصفاته، وينفون عن الله ﷻ السمع والبصر، والرحمة والغضب، وما أشبه ذلك من صفات الكمال.

وكذلك أيضًا أولئك الذين يعترضون على أخبار الله ﷻ، ويكذّبونها، وهذا يقع لكثير من أصحاب النظريات التي استمدّوها من الكفار؛ كالتي تنافي وتناقض ما أخبر الله عنه من الحقائق إخبارًا صريحًا في القرآن؛ كالذي يقول: إن الشمس لا تجري!! والله يقول: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨]، فيقول: إن الشمس ثابتة لا تتحرّك؛ فهذا مُكَذِّبٌ لِخَبَرِ اللهِ ﷻ.

وكذلك الذين يعترضون على الله في أحْكَامِه الشرعية، فيقولون مثلًا: لماذا حَرَّمَ اللهُ الرِّبَا وعليه عَصَب الاقتصاد اليوم؟! ولماذا لا تَرِثُ المَرْأَة مِثْلَ مَا يَرِث الرجل، سواء بسواء؟! وما الداعي لحَجْب المرأة ومَنْعها من الاختلاط؟! ولماذا تُحَرِّمُون عليها

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٧٧).

(٢) هذا الحديث جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الطويل، وقد تقدم تخريجه.

السفر إلا بِمَحْرَم؟! فهذا وأمثاله من الاعتراض على شرع الله، وهو راجع إلى عدم الرّضا بالله ربًّا، وإلهًا، ومعبودًا، وحَكَمًا.

وهؤلاء وأمثالهم غوايتهم من نوع غواية إبليس الذي اعترض على حُكْم ربه، قائلًا: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١]، ومن غواية أتباعه من الكفرة الآثمين، المعترضين، القائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١]، والقائلين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، والقائلين: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨]، والقائلين: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

٢ ـ الاعتراض على أفعال الرب وقضائه وقَدَرِه:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا اعتراض الجُهَّال... وهو أنواع لا تُحْصَى، وهو سارٍ في النُّفُوس سَرَيَان الحُمَّى في بَدَنِ المحْمُومِ، ولو تأمَّل العبد كلامه، وأمنيته، وإرادته، وأحواله لرأى ذلك في قلبه عِيَانًا.

فكل نَفْس مُعْترضة على قَدَرِ الله وقَسْمِهِ وأفعاله، إلا نَفْسًا قد اطمأنت إليه، وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها، فتلك حَظّها التسليم، والانقياد، والرضا كل الرضا»[(١)]. اهـ.

ومن صور هذا الاعتراض:

أ ـ التَّسَخُّط:

فالسَّخَط ضد الرضا، وفيه شقاوة الساخط، وقد جَعَل الله فيه الهمّ، والغَمّ، والحَزَن، وشتات القلب، وهو من سوء الخُلُق مع الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن السَّاخِط مُخَاصِم لله تعالى فيما لم يَرْضَ بِهِ، مِنْ أمْرِهِ ونَهْيِهِ، أو قضائه ورزقه، وما يُصِيبه من نوائب ومصائب. وهذه المخاصمة هي أَصْل مَنْهَج إبليس مع رَبِّهِ، فقد كان مَنْهجه عَدَم الرِّضَا بأقضيته، وأحكامه الدينية، والكونية القدرية.

و«السَّخَط يفتح باب الشَّك في الله، وقضائه وقَدَره، وحكمته وعِلْمه؛ فَقَلّ أن يَسْلَم السَّاخِط مِنْ شَكٍّ يُداخِلُ قلبه، ويتَغَلْغل فيه، وإن كان قد لا يَشْعُر به، لكنه لو فَتَّش نَفْسه غاية التَّفْتيش، واختبرها لوجد إيمانه معلولًا، وتصديقه مَدْخُولًا، ورضاه مَنْقُوصًا؛ فإن الرضا واليقين متلازمان، كما أن السَّخَط والشك قرينان»[(٢)].

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أكثر الناس يظنّون بالله غير الحق ظنّ السوء فيما يختصّ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٧١).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠١) بتصرُّف يسير.

بهم، وفيما يفعله بغيرهم. ولا يَسْلم عن ذلك إلّا مَنْ عَرف الله، وعرف أسماءه وصفاته، وعرف مُوجَب حِكمته وحَمْده... ولو فَتَّشت مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عنده تعنُّتًا على القدر، ومَلامَة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلّ ومُسْتَكْثِر. وفتّش نَفْسك هل أنت سالم من ذلك؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيَا»[(١)] اهـ.

والتَّسخّط تارة يكون بالقلب، وقد يؤدّي بصاحبه إلى الكفر. وتارة يكون باللسان؛ كالدعاء بالويل والثبور، وما أشبه ذلك.

ويكون التسخّط أيضًا بالجوارح؛ كلطم الخدود، وشَقّ الجيوب، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك. وقد قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**»[(٢)].

ب ـ عدم الرِّضَا بالمَقْسُومِ مِنَ الرِّزْق:

وهو من الاعتراض على أفعال الرَّبِّ وقضائه، ولو عَلِمَ العبد عِلْمَ اليقين أن ما قدَّرَهُ الله له مِنْ رزقه سيصله لا محالة، وما لم يكن مقسومًا له فلا حيلة في تحصيله لاستراح، وسكنَت نَفْسُه.

ج ـ الجَزَع والهَلَع:

والمصيبة قد تُوَرِّث نوعًا من الجَزَع، يقتضي لَوْمَ مَنْ كَان سببًا في وقوعها، فإذا تبين للعبد أن هذه المصيبة وسببها مقدور مكتوبٌ صَبَر وسَلَّم لأمر الله، فإن لم يصبر ويُسَلِّم فقد ضَادَّ الله في حُكْمه. والجَزَع ضَعْف النَّفْس، وخوف القلب، يمدّه شدَّة الطَّمَع والحِرْص، ويتولَّد من ضَعْف الإيمان بالقدر، والهَلَع أفحش الجَزَع، فمَنْ أرَاد بلوغ مقام الرضا فليحبس نَفْسه عن الجَزَع، والهَلَع، والتشكّي، والتسخّط باللّسان والجوارح عما لا ينبغي فِعْله، وهذا هو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعيّة.

والنياحة من الجَزَع والاعتراض على القضاء، وكذا ما يصحبه من صكّ الوَجْهِ، أو لَطْم الخَدّ، أو سبّ الدَّهْرِ ونحو ذلك.

وعن أبي مالك الأشعري؛ أن النبي ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**».

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢١١) بتصرُّف.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٠٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٍ مِنْ جَرَبٍ**»(١).

د ـ تمنّي الموت لِضُرٍّ نَزَلَ به أو مصيبة:

ففي الحديث: «**لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**»(٢).

ففي هذا الحديث دليل على النهي عن تمنِّي الموت، بسبب بلاء أو مِحْنة، أو مَرض، أو فاقة، أو نحوها من المصائب التي تُصِيبُ الإنسان في حياته؛ لِمَا في ذلك من الجَزَع، وعدم الصبر على المقدور، وعدم الرِّضا بالقضاء.

وقد قال النبي ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»(٣).

هـ ـ ومِن أعظم ما ينافي الرّضا: الحسد:

فالحاسد مُعْترض على الله ﷻ، وعلى تقديره وتفضّله.

ولو علم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب، ويصيب برحمته مَنْ يشاء من عباده، ويمتنّ بفضله على مَنْ يَشَاء، لمَا أصابه هذا الداء.

قال محمود الورّاق(٤):

أَعْطَيتُ كل النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرِّضا ... إلا الحسودَ فإنه أعْيَانِي
ما إِنَّ لي ذَنبًا إليه عَملتُهُ ... إلا تَظَاهُر نِعْمة الرَّحْمَنِ
ما إنْ أَرَى يُرْضِيهِ إلا ذِلَّتِي ... وَذهابُ أمْوَالي وقطعُ لِسَاني



(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠) واللفظ له من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٣٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وصحَّحه التِّرمِذِي، والحاكم (١/ ٣٣٩)، والذَّهَبِي، وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة، وعبد الله بن بُسْر، وجابر رضي الله عنهم، انظر: «الصحيحة» (١٢٩٨، ١٨٣٦).
(٤) «ديوان محمود الوراق» (ص١٥٦)، و«بهجة المجالس» (١/ ٤١٥)، و«غرر الخصائص» (ص٦٠١ ـ ٦٠٢).

من أخبار أهل السخط

يقول ابن عقيل الحنبلي في كتاب «الفنون»: «الواحد من العوام إذا رأى مراكب مُقَلَّدة بالذهب والفضة، ودورًا مشيّدة مَمْلُوءة بالخَدَم والزينة، قال: انظر إلى ما أعطاهم مع سوء أفعالهم. ولا يزال يلعنهم، ويذمّ مُعْطِيهم... حتى يقول: فلان يصلّي الجماعات والجُمَع ولا يذوق قَطْرة خَمْر، ولا يؤذي الذَّر، ولا يأخذ ما ليس له، ويؤدي الزكاة إذا كان له مال، ويحجّ، ويجاهد، ولا ينال خُلَّة بِقُلَّة، ويُظْهِر الإعجاب كأنه ينطق عن تخايله أنه لو كانت الشرائع حقًّا لكان الأمر بخلاف ما نرى، وكان الصالح غنيًّا والفاسق فقيرًا»[١].

والنبي ﷺ لما رآه عمر رضي الله عنه على حصير قد أثَّر في جنبه، بكى عمر، فسأله النبي ﷺ عن هذا، فقال: كِسْرَى وقَيْصَر فيما هما فيه ـ يعني: من النعيم ـ وأنت يا رسول الله؟! فقال: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟**»[٢].

وهذا فهم فاسد، فالله يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، وهذا من لُطف الله عز وجل.

وهذه حالة قد شَمَلت خلقًا كثيرًا، أولهم «إبليس؛ فإنه رأى بعقله أن جوهر النار أشرف من جوهر الطين، فَرَدَّ حِكْمَة الخالق، ومَرَّ على هذا خَلْقٌ كثيرٌ من المُعْترضين، مثل ابن الرَّاوَنْدي»[٣]، والمَعَرِّي، ومن قوله[٤]:

إِذَا كَانَ لَا يَحْظَى بِرِزْقِكَ عَاقِلٌ ... وَتَرْزُقُ مَجْنُونًا وَتَرْزُقُ أَحْمَقَا
فَلَا ذَنْبَ يَا رَبَّ السَّمَاءِ عَلَى امْرِئٍ ... رَأَى مِنْكَ مَا لَا يَشْتَهِي فَتَزَنْدَقَا

وأمثال ذلك كثير في أولئك الذين ابتعدوا عن كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وانطلقوا

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٩١٣) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن الجوزي في «صيد الخاطر» (ص٤١٣).
(٤) «المنتظم» (١٦/ ٢٤ ط. دار الكتب العلمية)، و«الآداب الشرعية» (٢/ ١٨٤).

مع أهوائهم، واعتمدوا على عقولهم القاصرة التي جعلتهم يعترضون على الله جلَّ وعلا.

وكان أبو طالب المكي يقول: «ليس على المخلوقين أضَرّ من الخالق»[(١)]!! عياذًا بالله.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «دخلتُ على صَدَقَة بن الحسين الحَدَّاد، وكان فقيهًا، غير أنه كان كثير الاعتراض ـ يعني: على القدر ـ وكان عليه جَرَب، فقال: هذا ينبغي أن يكون على جَمَل لا عليَّ. وكان يتفقّده بعض الأكابر بمأكول، فيقول: بعث ـ يعني: ربه ـ لي هذا على الكِبَر وقت لا أقدر آكله!

وكان رجل يصحبني، قد قارب ثمانين سنة، كثير الصلاة والصوم، فمرض، واشتدّ به المرض، فقال لي: إن كان يريد أن أموت فيُمِتني، فأما هذا التعذيب فما له معنى!! والله لو أعطاني الفردوس كان مَكْفُورًا!! ـ نسأل الله العافية! ـ.

ورأيت آخر يتزيّا بالعلم إذا ضاق عليه رزقه، يقول: إيش هذا التدبير؟ وعلى هذا كثير من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا، وربما قالوا: ما نريد نصلي. وإذا رأوا رجلًا صالحًا يُؤْذَى، قالوا: ما يستحق، قد حاف القَدَر!

وكان قد جرى في زماننا تَسَلُّط من الظلمة، فقال بعض مَنْ يتَزَيَّا بالدين: هذا حُكْم بارد، وما فهم ذلك الأحمق أن الله يملي للظالم.

وفي الحمقى مَنْ يقول: أيُّ فائدة في خَلْق الحيات والعقارب؟! وما علم أن ذلك أُنموذج لعقوبة المخالف، وهذا أمرٌ قد شاع»[(٢)].

«وكان في زمن ابن عقيل رجل رأى بهيمة على غاية من السَّقَم، فقال: وا رَحْمَتِي لكِ! وا قلة حيلتي في إقامة التأويل لمُعَذِّبك! فقال له ابن عقيل: إن لم تقدر على حَمْل هذا الأمر لأجل رِقَّتِك الحيوانية، ومناسبتك الجنسية، فعندك عَقْل تعرف به تحكّم الصانع وحكمته تُوجِب عليك التأويل، فإن لم تجد اسْتَطْرَحْتَ لفاطر العقل حيث خانك العقل عن معرفة الحكمة في ذلك»[(٣)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «رأيتُ رجلًا كبيرًا قد قارب الثمانين، وكان يحافظ على الجماعة، فمات ولد لابنته، فجزع، وتلفَّظ بكلام فيه تسَخّط؛ فعلمتُ أن صلاته وفِعْله

(١) «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٠٣).
(٢) نقله ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ٣).

للخير عادة؛ لأنه لا ينشأ عن معرفة وإيمان، وهؤلاء الذين يعبدون الله على حَرْف»[(١)] .اهـ.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أكثر الخَلْق بل كلهم إلا مَنْ شَاءَ الله يظنّون بالله غير الحق وظنّ السوء؛ فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مَبْخوس الحقّ، ناقص الحظّ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونَفْسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه يُنْكِره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومَنْ فَتَّش نَفْسه وتَغَلْغَل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها كامنًا، كُمون النار في الزِّناد»[(٢)] .اهـ.



(١) «الثبات عند الممات» (ص٤١) بتصرُّف.
(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٢١١).

من أخبار أهل الرضا

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة[(١)]، فوق زَمْزَم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِرَابا فيه تمر، وسِقاء فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيم مُنْطَلقًا، وذَهَب، فتَبِعَته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيّعنا[(٢)]، وفي رواية قالت: رضيت بالله[(٣)].

ولما كَبر إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: ١٠٢].

فكانوا جميعًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على غاية الرضا والتسليم لأمر الله.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنَفْسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، وقال: «**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[(٤)].

عن الحارث بن عميرة، قال: «إني لجالس عند معاذ بن جبل وهو يموت، وهو يُغْمَى عليه مرة ويُفيق مَرَّة، فسمعته يقول عند إفاقته: اخنق خَنْقك، فوعزّتِك إني لأحبّك»[(٥)].

عن مُطَرِّف بن عبد الله قال: قلت لعمران بن حصين: ما يمنعني من عيادتك إلا ما أرى مِنْ حَالك، قال: «فلا تفعل، فإنَّ أحبَّهُ إليَّ أحبّه إلى الله»[(٦)].

---

(١) **الدَّوحة**: الشجرة الكبيرة.
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).
(٣) أخرجها البخاري (٣٣٦٥).
(٤) تقدّم تخريجه.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٢٨) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦١٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (١١/ ٤٦٢) (٥٨/ ٤٥٢).
(٦) أخرجه ابن المبارك (٤٦١) في «الزهد»، وابن سعد في «الطبقات» (٥/ ١٩٥) واللفظ له، وأحمد في «الزهد» (ص١٤٨). ورُوِي نحوه عن أبي العالية. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الكفارات» (٢٠٦)، و«الرضا عن الله» (٣٩).

ولمَّا قدم سَعْد بن أبي وقَّاصٍ إلى مكَّة، وقد كان كُفَّ بَصَرُهُ، جاءه الناس يُهْرَعُون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيَدْعُو لهذا ولهذا، وكان مُجَابَ الدَّعْوَةِ. قال عبد الله بن السائب: فأَتَيْتُهُ وأنَا غُلَام، فتعرَّفْتُ إليه فعَرَفَنِي، وقال: «أنت قارئ أهل مكة؟» قلت: نعم ـ فذكر قصة، قال في آخرها ـ: فقلتُ له: يا عم! أنت تدعو للناس فلو دعوتَ لنَفْسك، فردَّ الله عليك بصَرَك! فتبسم، وقال: «يا بُنَي! قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري»[١].

قال الحسن بن علي البصري: «أصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثير، فقال:

لَا وَالَّـذِي أَنَـا عَـبْـدٌ فِـي عِـبَـادَتِـهِ لَـوْلَا شَـمَـاتَـةُ (أَعْـدَاء ذَوِي إِحَـنِ)[٢]
مَـا سَـرَّنِـي أَنَّ إِبْـلِـي فِـي مَـبَـارِكِـهَـا وَأَنَّ شَـيْـئًـا قَـضَـاهُ اللهُ لَـمْ يَـكُـنِ»[٣]

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الفقر والغنى مطيَّتان، ما أُبالي أيّهما ركبتُ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل»[٤].

وقال: «ما أبالي إذا رجعتُ إلى أهلي على أي حال أراهم؛ أبسراء أم بضراء، وما أصبحتُ على حال، فتمنيتُ أني على سواها»[٥].

وقال عمر رضي الله عنه: «ما أُبالي على أيِّ حال أصبحتُ على ما أحب أو على ما أكره؛ لأني لا أدري الخير فيما أُحِب أو فيما أكره»[٦].

وقال رضي الله عنه **يومًا لامرأته عاتكة بنت زيد وقد غضب عليها:** «والله لأَسُوْأنَّكِ، فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد إذ هداني الله؟ قال: لا، فقالت: فأي شيء تَسُوْءني به إذًا؟!»[٧].

وعن أبي عمرو الكندي قال: «أغارت الروم على جواميس لبشير الطبري، نحوًا من أربعمائة جاموس، فركبت معه أنا وابن له، فلقينا عَبِيده الذين كانت معهم الجواميس معهم عصيّهم، فقالوا: يا مولانا ذهبَت الجواميس، فقال: وأنتم أيضًا، فاذهبوا معهم فأنتم أحرار لوجه الله. فقال له ابنه: يا أبت، أفْقَرْتَنَا؟ قال: اسكت يا بُنَيّ، إن ربي

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٥٠).
(٢) هكذا في «عيون الأخبار» (٣/ ١١٤)، و«العقد الفريد» (٤/ ١٥)، وفي «الرضا عن الله» لابن أبي الدنيا (١١) (أَعَادِيهِ أَظنِ) ولا يستقيم الوزن بذلك.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١١).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٠).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٨٥).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٣٠)، راجع: التعليق على «المجالسة» للدينوري (١٥٥٨).
(٧) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢١).

اختبرني فأحببتُ أن أزيده»[١].

وقال علي بن بَكَّار: «شكا رجل إلى إبراهيم بن أدْهَم كثرة عياله، فقال له إبراهيم: يا أخي، انظر كُلَّ مَنْ في منزلك ليس رزقه على الله، فحوِّله إلى منزلي»[٢].

وعن أبي حيان التيمي، قال: «دخلوا على سويد بن مَثْعبة، وكان من أفضل أصحاب عبد الله، وأهله يقولون له: نفسي فداؤك، مَا نُطْعِمُكَ؟ وما نسقيك؟ قال: فأجابها بصوت ضعيف: دَبِرَت الحَرَاقِف[٣]، وطالت الضِّجْعة، واللهِ ما يَسُرُّنِي أنَّ اللهَ نقصني منه قلامة ظُفر»[٤].

وعن داود القطان، قال: «أصاب الربيع بن خُثَيْم الفالج، فكان بكر بن ماعز يقوم عليه ويَدْهنه، ويَفْلي رأسه ويغسله، قال: فبينا هو ذات يَوْم يَغْسِلُ رَأْسَ الربيع إذ سال لُعَاب الربيع، فبكى بكر، فرفع الربيع رأسه إليه فقال له: ما يُبْكِيك؟ فوالله ما أحب أنه بأعتى أهل الدّيلم على الله»[٥].

وعن محمد بن علي أن بعض أهله اشتكى، فوَجَد عليه، ثم أُخبِر بموته، فسُرِّي عنه، فقيل له، فقال: «ندعو الله فيما نحبّ، فإذا وَقَع ما نَكْرَه لم نُخَالِف الله فيما أحب»[٦].

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد تَرَكَتْنِي هؤلاء الدعوات، وما لي في شيء من الأمور كلِّها أَرَب إلا في مواقع قدر الله»[٧].

وكان كثيرًا ما يدعو: «اللَّهُمَّ رَضِّنِي بقضائك، وبارك لي في قَدَرك، حتى لا أُحِب تعجيل شيء أخَّرْتَه، ولا تأخير شيء عجَّلته»[٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٣٠) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٤٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٧٢).

(٣) **الحَرْقَفَة**: عَظْم رأس الوَرِك. يُقال للمريض إذا طالت ضَجْعَتُه: دَبِرَت حَرَاقِفُه؛ أي: تَقَرَّحت، أو كان بها جروح؛ وذلك لطول الضَّجْعَة. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٣٧٢)، م: (حرقف).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٦/ ١٩٠)، وهناد في «الزهد» (٣٨٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٥)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢١٤).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٨٧) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٤/ ٢٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٨٧).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٤٦) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٢٢٤).

(٨) المصدر السابق.

وعن رجاء بن أبي سلمة قال: «لمّا مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار ينهى أن يُنَاح عليه، وكتب: «إنَّ الله ﷻ أُحِبّ قبضه، وأعوذ بالله أن أُخَالِف محبَّته»[(١)].

وعن الربيع بن سَبْرة قال: «لما هَلَك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وسهل بن عبد العزيز، ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة، دخل عليه الربيع بن سَبْرة، وقال: أعظَم الله أجْرَكَ يا أمير المؤمنين! فما رأيتُ أحدًا أُصِيب بأعظم من مصيبتك في أيّام متتابعة، والله ما رأيت مثل ابنك ابنًا، ولا مثل أخيك أخًا، ولا مثل مولاك مولى قطّ!! فطَأْطَأ عمر رأسه، فقال لي رجل معه على الوسادة: لقد هيَّجْتَ عليه!! قال: ثم رفع رأسه، فقال: كيف قلت الآن يا ربيع؟ فأعدتُ عليه ما قلتُ أولًا. قال: لا والذي قضى عليه ـ أو قال: عليهم ـ بالموت، ما أُحِبّ أن شيئًا من ذلك كان لم يكن»[(٢)].

وقال أحمد بن أبي الحواري: «قلتُ لسليمان: إن ابن داود قال: ليت الليل أطول مما هو، قال: قد أحسن وقد أساء؛ قد أحسن حين تمنَّى طول الليل للطاعة، وأساء حين تمنَّى طول ما قصره الله»[(٣)].

وقال ابن شَوْذَب: «اجتمع مالك بن دينار ومحمد بن واسع فتذاكرا العيش، فقال مالك: ما شيء أفضل من أن يكون للرجل غَلَّة يعيش فيها. وقال محمد: طوبى لمن وجد غداء ولم يجد عشاء، ووجد عشاء ولم يجد غداء، وهو عن الله ﷻ راض»[(٤)].

وقال عبد العزيز بن أبي روَّاد: «رأيت في يد محمد بن واسع قُرْحَة، فكأنه رأى ما قد شق عليَّ منها. فقال لي: تدري ما عليّ في هذه القُرْحَة مِنْ نِعْمَة؟ قال: فسكَتُّ، قال: حيث لم يجعلها على حَدَقَتِي، ولا على طَرَف لساني، ولا على طَرَف ذَكَري، قال: فهانت عليّ قُرْحته»[(٥)].

وعن إبراهيم النخعي أنَّ أمّ الأسود قَعَدَت من رجليها، فجزعت ابنة لها، فقالت: «لا تجزعي، اللَّهُمَّ إن كان خيرًا فزد»[(٦)].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٩٧) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٠٦).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٨٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٣٠) واللفظ له.
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٨).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١٧)، وهو عند أبي نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٩) بنحوه، وزاد: «فانصرف القوم وهم يرون أن محمدًا أقوى الرجلين».
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٦٣)، و«الصبر» (١٨٣).

وعن أبي عبد الرحمٰن الجرجاني، قال: «ذهبتُ أُعَزِّي رجلًا، وقد قَتَلَت التُرْك ابنه، فبكى حيث رآني، فقلتُ: ما يُبكيك وقد قُتِل ابنك في سبيل الله؟ قال: يا أبا عبد الرحمٰن أنت تظنّ أني أبكي لقتله؟! إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله حيث أخذته السيوف»(١).

وعن عليّ بن الحسن قال: «كان رجل بالمصِّيصَة، ذاهب النصف الأسفل، لم يبقَ منه إلا روحه في بعض جَسَده، ضريرٌ على سرير مثقوب، فدخل عليه داخل فقال له: كيف أصبحتَ يا أبا محمد؟ قال: مُلْك الدنيا مُنْقَطِع إلى الله، ما لي إليه من حاجة إلا أن يتوفاني على الإسلام»(٢).

وقال بعض الصالحين: «ذنبٌ أذنبته، أنا أبكي عليه ثلاثين سنة. قيل: وما هو؟ قال: قلتُ لشيء قضاه الله: ليته لم يقضه، أو ليته لم يكن»(٣).

وقال بعض السلف: «لو قُرِضَ جسمي بالمقاريض، لكان أحبّ إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه: ليته لم يقضه»(٤).

وقال عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ، **لمّا مات ابنه وقُطِعَت رِجله:** «اللَّهُمَّ كان لي بنون سبعة فأخذتَ منهم واحدًا وأبقيتَ ستة، وكانت لي أطراف أربعة فأخذتَ مني طرفًا وأبقيتَ لي ثلاثة، وايْمُك لئن ابتليتَ لقد عافيتَ، ولئن أخذتَ لقد أبقيتَ»(٥).

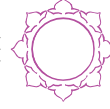
هذا آخر ما أردنا إيراده في الكلام عن الرضا، والله أعلم، وصلَّى الله وسلَّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا» (٧٣) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٤٥).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٦٥) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٨٢).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٧).
(٤) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٥٠).
(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧١)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (ص١٣٩) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٠/ ٢٦١).

الثالث عشر

الشكر



توطئة

الشكر عبادة قلبية، عظيمة القَدْر، تفيض آثارها الجميلة على اللسان، فَيَلْهَج بالحمد والثناء والاعتراف بالإحسان والإفضال، كما يظهر أثرها على الجوارح، فتزداد عملًا بطاعة الله تعالى، واجتهادًا في طلب مرضاته، مع تسخير النِّعَم فيما يكون مَرْضيًّا لله ﷻ؛ وذلك مُؤْذِن بثبات الحاصل من الإنعام مع الزيادة عليها، كما وَعَد الله عباده بقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

أما إذا كان الشكر صادرًا من العبد في مُقابل ما يقع له من المصائب؛ فإن ذلك يُعَدّ من أعلى درجات العبودية، ولا يَصِل إليه إلا خواصّ المؤمنين، وعباد الله المتقين.

فنسأل الله أن يُبَلِّغَنَا هذه المنازل، إنه سميع مجيب.



معنى الشكر وحقيقته

أولًا: الشكر في اللغة:

«أصل الشكر في كلام العرب: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بَيِّنًا، تقول: شكرَتِ الدَّابَّة: إذا ظَهَر عليها أثَرُ العَلَفِ.

ودابَّة شكور: إذا ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تأكل وتُعْطَى من العَلَف»[(١)].

وفي حديث يأجوج ومأجوج: «**فَيَخْرُجُ الناسُ، ويُخْلون سَبِيلَ مَوَاشِيْهِمْ، فَمَا يكونُ لهُمْ رَعْيٌ إلّا لحُومُهُمْ، فَتَشْكَرُ عَلَيْهَا كَأَحْسَنِ مَا شَكِرَتْ مِنْ نَبَاتٍ أَصَابَتْهُ قَطّ**»[(٢)].

«وكذلك حقيقته في الشرع، وهو ظهور أثر نِعْمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبَّة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»[(٣)].

ثانيًا: الشكر في الاصطلاح:

اعلم أن الشكر يكون من العبد لربِّه، ويكون من الربِّ لعبده.

فأما شكر الرب لعبده: فيقول الزَّبِيدي رَحِمَهُ اللهُ: «الشَّكُور في صفات الله عَزَّ وَجَلَّ فمعناه: أنه يزكو عنده القليل من أعمال العباد، فيُضَاعِف لهم الجزاء...

وقال شيخُنا[(٤)]: الشكور في أسمائه: هو مُعْطي الثواب الجزيل بالعمل القليل»[(٥)].اهـ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٤) باختصار وتصرف، وانظر: «لسان العرب» (٦/ ٩٣)، مادة: (شكر)، و«القاموس المحيط» (٢/ ٦٢)، مادة: (شكر)، و«تاج العروس» (١٢/ ٢٢٤ ـ ٤٣٤)، مادة: (شكر).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٧٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٣١٦)، والذهبي، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٠٠ ط. دار العربية): «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٧٣)، والأرنؤوط في تحقيق «سنن ابن ماجه» (٥/ ٢٠٦).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٤) بتصرُّف.

(٤) يقصد: شيخه محمد بن الطَّيِّب الفَاسِي (ت سنة ١١٧٠هـ)، وله شرح على «القاموس» في مجلدين ضخمين، انظر: مقدمة «تاج العروس» (١/ ٢).

(٥) «تاج العروس» (١٢/ ٢٢٧)، مادة: (شكر).

قال الله ﷻ عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤].

قال ابن عباس ﭬ وغيره: «غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات»[(١)].

وقال شِمْر بن عَطِيَّة: «غفر لهم الذنوب التي عملوها، وشكر لهم الخير الذي دَلَّهم عليه، فعملوا به، فأثابهم عملهم»[(٢)].

وفي القرآن أيضًا تسميته سبحانه **(شاكرًا)**، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧].

وتسميته أيضًا **(شكورًا)**، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢]، فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أنْ شَكَرَ سَعْيَهُمْ وأثابَهُم عليه.

والله تعالى يشكر عبده إذا أحْسَن طاعته، ويغْفِر له إذا تَابَ إليه، فيجمع للعَبْدِ بين شُكْرِه لإحسانه، ومغفرته لإساءته.

وهو سبحانه يُعْطِي العبد ويوفّقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء، فلا يستَقِلّه أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله؛ بأن يُثْني عليه في المَلَأ الأعلى، ويلقي له الشكر بين عباده، ويشكره بِفِعْله، فإذا تَرَك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بَذَلَ له شيئًا رَدَّه عليه أضعافًا مُضَاعفة، وهو الذي وفَّقَه للتَّرْك والبَذْل، وشَكَره على هذا وذاك.

ولما عَقَر نبيُّه سليمانُ الخيلَ غَضَبًا له؛ إذ شغلته عن ذِكْره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى؛ أعاضه عنها مَتن الرِّيحِ.

ولما تَرَك الصحابة ديارهم، وخرجوا منها في مرضاته؛ أعاضهم عنها أن مَلَّكَهُم الدنيا، وفَتَحَها عليهم.

ولمّا احتمل يوسف الصدّيق ﷺ ضِيْق السجن شَكَر الله له ذلك، فمكَّنَ له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

ولمَّا بذل الشهداء أبدانهم له في سبيل الله ﷻ، حتى مَزَّقَها أعداؤه؛ شكر لهم ذلك

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٥٢).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٧٨٥)، وابن المبارك في «الزهد» (١٥٧٠)، والبيهقي في «الشعب» (٢٦٨، ٦٧٤٠، ٦٧٤٧) واللفظ له، وأخرجه الخرائطي في «الشكر» (٤) من قول قتادة.

بأن عوَّضهم عنها، فجعل أرواحهم في جَوْف طير خضْر، تسْرَح في الجَنَّةِ حيث شاءت، حتى تُرَدَّ عليهم تلك الأبدان أحسن ما تكون في يوم البعث والنشور.

ولما بذل رسله عليهم الصلاة والسلام أعراضهم في سبيل الله ﷻ لأعدائهم، فنالوا منهم وسَبُّوهم؛ أعاضهم الله ﷻ بأن صَلَّى الله عليهم وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في السمٰوات والأرض وبين خَلْقِهِ، فأَخْلَصَهم بخَالِصَة ذكرى الدار.

ومِن شُكْرِه تبارك وتعالى أنه يجازي عدوَّه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، فيعطيهم في الدنيا ما يُعْطِيهِم من السَّعَة في الأرزاق والعافية في الأبدان وغير ذلك، ويُخَفِّف به عنهم يوم القيامة، فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان، ومع أن هؤلاء الكفار مِنْ أبْغَضِ خَلْقِهِ إليه.

ومِنْ شُكْرِه تبارك وتعالى أن غَفَرَ لتلك المرأة البغيِّ التي سَقَتْ كَلْبًا يلعق الثرى من شدة العَطَش(١)، وغَفَر لآخر بتَنْحِيَته غُصْن شَوْك عن طريق المسلمين(٢)، فالله ﷻ يَشْكر العبد على إحسانه لنَفْسه. والمخلوق إنما يشكر مَنْ أحسن إليه. وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يُحْسِن به إلى نَفْسه، وشَكَرَهُ على قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نِسْبة لإحسان العبد إليها، فهو المُحْسِن بإعطاء الإحسان، وإعطاء الشكر.

ومِنْ شُكْرِهِ تبارك وتعالى للعباد أنه يُخْرِج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من الإيمان(٣)، فلا يَضِيع عنده هذا القَدْر، وكذلك أيضًا إذا قام العبد لربِّه مقامًا يرْضيه عنه؛ فإِنَّ اللهَ يُنَوِّه بِذِكْره بين عباده وملائكته، كما شَكَرَ لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأَثْنَى به عليه، فذكره الله ﷻ في أشرف كتاب، وقَصَّ خبره على أشرف نبي وأشرف أمَّة، وكذلك شَكَر لصاحب يس مقامه ودعوته إليه. فلا يهلك على الله بين شُكْره ومغفرته إلا هالك.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحبّ الخلق إليه مَنِ اتَّصَف بهذه الصفة، وأبْغَضهم إليه مَنْ عَطَّلَها، واتَّصَفَ بضِدِّهَا(٤).

وأمَّا شُكْر العبد لربِّه:

فمن العلماء مَنْ فَسَّرَهُ بجزء معناه.

---

(١) وذلك فيما رواه البخاري (٣٣٢)، ومسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) كما روى ذلك البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٤) انظر: «عدة الصابرين» (ص٥٤٠ ـ ٥٤٤).

قال أبو بكر الوَرَّاق: «شُكْر النعمة مُشاهدة المِنَّة»[(١)].

وقيل: «رَأْس الشكر: الاعتراف بالنعمة، وأنها من المُنْعِم وحده. فإذا أُضِيفَت إلى غيره كان جَحْدًا لها»[(٢)].

وقيل: «الاعتراف بنعمة المُنْعِم على وجْه الخضوع»[(٣)].

وقيل: «حقيقة الشكر: إظهار النعمة، كما أن كفرانها: إخفاؤها»[(٤)].

وقال الراغب: «الشكر: تصوّر النعمة وإظهارها... ويضادّه الكفر، وهو نسيان النعمة»[(٥)]. اهـ.

ومنهم مَنْ فَسَّرَه بملاحظة لازمه ومقتضاه.

يقول مَخْلَد بن الحسين: «كان يُقَال: الشكر تَرْك المعاصي»[(٦)].

وسُئِل الجُنيد بن محمّد عن حقيقة الشكر فقال: «ألا يُسْتَعَان بشيء من نِعَمِه على معاصيه»[(٧)].

وقال محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ اللهُ: «الشكر تقوى الله، والعمل بطاعته»[(٨)].

وقال أبو بكر الشِّمْشَاطي: «أصل الشكر: رؤية المِنّة بالقلب، والمعرفة بأنه من الله عَزَّ وَجَلَّ، وحقيقة الشكر في الأصل والفرع أن تتقي الله عَزَّ وَجَلَّ»[(٩)].

وذُكِرَ عن بعض السلف أنه قال: «الشكر تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، ألَا ترى أنه يقول: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣]»[(١٠)].

قال الإمام البيهقي رَحِمَهُ اللهُ: «فالمتَّقي في هذه الآية: هو الشاكر لنعمة الله، فهذه الآية تدل على أن المتَّقي هو الشاكر، ومَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّقِيًا لم يكن شاكرًا»[(١١)]. اهـ.

وقد قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

وقد كان النبي ﷺ يصلي حتى تَرِم قدماه، فيُقَال له، فيقول: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!**»[(١٢)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣٥).
(٢) «شفاء العليل» (١/ ١٥٦).
(٣) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٣٨).
(٤) «فيض القدير» (٣/ ٤١٨).
(٥) «مفردات القرآن» (ص٢٦٥).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٩).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٦٨)، وللشكر عدة تعريفات أخرى تجدها في «الرسالة» للقشيري (١/ ٣١٢).
(٨) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٩/ ٢٣٥).
(٩) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٢٤١).
(١٠) «شعب الإيمان» (٤٢٤١).
(١١) المصدر السابق (٧/ ٣١٦).
(١٢) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شُعْبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وفي الباب عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، رواه البخاري (٤٨٣٧).

قال أبو عبد الرحمٰن الحُبُلي: «الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تفعله لله شكر، وأفضل الشكر الحَمْد»[١].

فلا يَصْدُق على العبد أنه شاكر لله بمُجَرّد حُسْنِ الثَّنَاءِ حتى يُصَدِّق ذلك منه قلبُه وعملُه.

وقال رجل لأبي حازم رَحِمَهُ اللهُ: «ما شكر العينين يا أبا حازم؟! قال: إن رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإن رأيتَ بهما شرًّا سَتَرْتَهُ؛ قال: فما شُكْرُ الأذنين؟ قال: إن سمعتَ بهما خيرًا وعَيْته، وإن سمعتَ بهما شرًّا دفعته. قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقًّا لله عَزَّ وَجَلَّ هو فيهما. قال: فما شُكْر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامًا، وأعلاه عِلْمًا. قال: ما شكر الفَرْج؟ قال: كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٦، ٧]. قال: فما شكر الرِّجْلَيْن؟ قال: إن رأيت حيًّا غَبَطْته استعملت بهما عَمَلَه، وإن رأيت مَيْتًا مقتَّه كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله عَزَّ وَجَلَّ. فأمّا مَنْ شَكَر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمَثَلُهُ كَمَثَل رجل له كِسَاء، فأَخَذ بطَرَفه ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحرّ والبَرْد والثلج والمطر»[٢]. و«أن الذِّكْر رأس الشكر، فما شَكَر الله تعالى من لم يذْكُره»[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الشكر مبنيٌّ على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بِنِعْمته، وثناؤه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عُدِم منها واحدة اختَلَّ من قواعد الشكر قاعدة، وكل مَنْ تكَلّم في الشكر وحَدَّه فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور»[٤]. اهـ.

قال ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «الشُّكْر: ظهور أَثَر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»[٥]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «أصل الشكر: هو الاعتراف بإنعام المُنعم على وجْهِ الخضوع له والذلّ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٩/ ٢٣٦) مختصرًا، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٠٤) واللفظ له.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٢٩)، ومن طريقه: أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٢٤٤) واللفظ له.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص١٦١).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٤).
(٥) المصدر السابق (٢/ ٢٤٤) بتصرُّف يسير. وقد تقدم.

والمحبة، فمن لم يعرف النِّعْمة، بل كان جاهلًا بها لم يشكرها، ومَنْ عَرَفَها ولم يعرف المُنْعم بها لم يشكرها أيضًا.

ومَنْ عَرَف النِّعْمة والمُنْعِم لكن جحدها... فقد كَفَرَها.

ومَنْ عَرَفَ النِّعْمة والمُنْعِم، وأقرّ بها، ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له، ويحبّه، ويرض به وعنه؛ لم يشكرها أيضًا.

ومن عَرفها، وعرف المُنْعِم بها، وأقَرَّ بها، وخَضَع للمُنْعِم بها، وأحبَّه، ورَضِيَ به وعنه، واستعملها في مَحَابّه وطاعته؛ فهذا هو الشاكر لها.

فلا بد في الشكر من عِلْم القلب، وعمل يَتْبع العِلْم، وهو المَيْل إلى المُنْعِم ومحبته والخضوع له»[(١)] .اهـ.

فأصل الشكر ذكر المُنْعِم والعمل بطاعته.

ومن أهل العلم مَنْ قَسَّمَ الشكر إلى **قسمين**:

«**الشكر اللغوي**: وهو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل، على النعمة من اللسان والجَنَان والأركان.

والشكر العُرْفي: هو صَرْف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع والبصر وغيرهما إلى ما خُلِقَ لأجله»[(٢)].



(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٢٠٣).

(٢) ما بين الأقواس من «التعريفات» للجرجاني (ص١٣٣ ـ ١٣٤) بتصرُّف يسير.

الفرق بين الشكر والحمد

سُئِلَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عن الحمد والشكر: ما حقيقتهما؟ هل هما بمعنى واحد أو معنيان؟

فأجاب: «الحمد يتضمّن المدح والثناء على المحمود بِذِكْر محاسنه، سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلّا على إحسان المشكور إلى الشاكر.

فمن هذا الوجه الحمد أعمّ من الشكر؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان...

وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخَصّ مِن الحَمْد مِنْ هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان، كما قيل:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً   يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ [سبأ: ١٣].

والحمد إنَّمَا يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشّكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعمّ من جهة أسبابه»[(١)]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا**: «إذا كان الحمد لا يقع إلّا على نعمة، فقد ثبت أنه رأس الشكر[(٢)]، فهو أوَّلُ الشكر، والحمد وإن كان على نعمته، وعلى حِكْمته، فالشكر بالأعمال هو على نعمته، وهو عبادة له لإلٰهيته التي تتضمن حكمته، فقد صار مجموع الأمور داخلًا في الشكر. ولهذا عَظَّم القرآن أمر الشكر، ولم يعظّم أمر الحمد مجرّدًا؛ إذ كان نوعًا من الشكر، وشَرَع الحمد ـ الذي هو الشكر المَقُول ـ أمام كل خطاب مع التوحيد»[(٣)]. اهـ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذهب أبو جعفر الطبري[(٤)] وأبو العباس المُبَرِّد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بِمَرْضِي...

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٢) جاء ذلك في حديث عبد الله بن عمرو، أخرجه معمر بن راشد في «جامعه» (١٩٥٧٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٨٥)، وحسَّنه السيوطي في «الجامع» (٦٥٣٦)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٣٧٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣١٠ ـ ٣١١).

(٤) وذلك في «تفسيره» (١/ ١٣٨).

واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك: الحمد لله شكرًا.

قال ابن عطيّة[١]: وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك: شكرًا إنما خصَّصت به الحمد؛ لأنه على نعمة مِنَ النِّعَم.

وقال بعض العلماء: إن الشّكر أعمّ من الحمد؛ لأنه باللّسان، وبالجوارح، والقلب، والحمد إنَّما يكون باللّسان خاصّة.

وقيل: الحمد أعمّ؛ لأن فيه معنى الشكر، ومعنى الحمد، وهو أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يُوضَع مَوْضِعَ الشكر، ولا يُوضَع الشكر مَوضِع الحمد...

قلت: الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سَبْق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أوْلى من الإحسان، وعلى هذا الحَدّ قال علماؤنا: الحمد أعمّ من الشكر»[٢]. اهـ.

فحقيقة الحمد ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ «الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبَّةِ له»[٣]، فلو أخبر مُخْبِر بمَحَاسن غيره من غير محبَّة له لم يكن حامدًا؛ فالحمد لا بد فيه من ذِكْرٍ باللسان، ومن محبَّةٍ وتعظيم بالجَنَان.

وبعض أهل العلم يُفَسِّرون الحمد بالثناء، وهذا غير دقيق، فالحمد إضافة المحامد وأوصاف الكمالات للمحمود، فإن أعاد ثانية فهو الثناء، فإن أعاد ثالثة فهو التَّمْجِيد، ويدلّ على هذا حديث أبي هريرة المشهور: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْن، ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإذا قَالَ الْعَبْدُ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قال: الرَّحْمَن الرَّحِيم، قال اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، قال الله: مَجَّدَنِي عَبْدِي...**» الحديث[٤].

وحَمْده تبارك وتعالى على نوعين: حَمْده على إحسانه إلينا، فهذا من الشكر، وحَمْده لما يستحقّه بنفسه من صفات الجلال، ونعوت الكمال.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «اختلفوا ـ أي: العلماء ـ أيهما أعمّ: الحمد أو الشكر؟ على قولين.

والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعمّ من الشكر من حيث ما يقعان

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٣٧ ـ ١٣٨).
(٢) «تفسير القرطبي» (١/ ٢٠٧).
(٣) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٥٩).
(٤) رواه مسلم (٣٩٥).

عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمُتَعَدِّية، تقول: حَمِدْتُه لفروسيته، وحَمِدتُه لكرمه، وهو أخَصّ؛ لأنه لا يكون إلَّا بالقَوْلِ.

والشكر أعَمّ من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والفِعْل والنية، وهو أخصّ؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المُتَعَدِّية، لا يُقَال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه...

وقال أبو نَصْر إسماعيل بن حماد الجَوْهري[١]: الحمد نقيض الذمّ... والتَّحْمِيد أبلغ من الحَمْد، والحمْد أعَمّ من الشكر.

وقال في الشكر: والشكر هو الثناء على المُحْسِن بما أوْلَاكهُ من المعروف...

وأما المدح فهو أعَمّ من الحمد؛ لأنه يكون للحيّ وللميت وللجماد أيضًا، كما يُمْدَح الطعام والمال ونحو ذلك»[٢]. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الشكر أعَمّ من جهة أنواعه وأسبابه، وأخصّ من جهة مُتَعَلَّقاته، والحمد أعمّ من جهة المُتَعَلَّقات، وأخصّ من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافًا، وبالجوارح طاعة وانقيادًا. ومُتَعَلَّقه النِّعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يُقَال: شكرنا الله على حياته وسَمْعِه وبَصَرِه وعِلْمِه، وهو المحمود عليها، كما هو محمود على إحسانه وعَدْلِه. والشكر يكون على الإحسان والنِّعَم، فكل ما يتعلَّق به الشكر يتعلَّق به الحمد من غير عَكْس. وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عَكْس؛ فإنّ الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللّسان»[٣]. اهـ.



(١) انظر: «الصحاح» (١/١٢٨) (٢/٤٤٦).
(٢) «تفسير ابن كثير» (١/١٢٨).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٦).

المُلَازمة بين الشكر والصبر

لا بدّ أن نستحضر دائمًا القول بضرورة التلازم بين الأعمال القلبية؛ لأنها التي تمدّ القلب بمواد الإيمان فيحيا، ولولا أنَّ اللهَ يَمُنّ على قلوب عباده المؤمنين بتلك الفضائل لمرضت تلك القلوب ولَمَاتَت.

يقول ابن حجر رحمه الله تعالى: «الشكر يتضمَّن الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية.

قال بعض الأئمة[١]: الصبر يَسْتلزم الشكر، لا يتمّ إلا به، وبالعكس، فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فَمَنْ كان في نعمة ففرضه الشكر والصبر، أمَّا الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية.

ومَنْ كان في بَلِيَّة ففرضه الصبر والشكر. أما الصبر فواضح، وأما الشكر فالقيام بحقّ الله عليه في تلك البَلِيَّةِ؛ فإنَّ لله على العبد عبودية في البلاء، كما له عليه عبودية في النعماء»[٢]. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يخلو العبد قطّ من أن يكون في نِعْمة أو بَلِيّة، فإن كان في نعْمَة ففرضها الشكر والصبر. أما الشّكر فهو قَيْدها وثباتها، والكفيل بمزيدها. وأمَّا الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تَسْلِبها، وعلى القيام بالأسباب التي تَحْفَظها، فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المُبْتَلى. وإن كان في بَلِيَّة ففَرْضُها الصبر والشكر أيضًا. أمَّا الصَّبْر فظاهر، وأما الشكر فللقيام بحقِّ الله عليه في تلك البليَّة؛ فإن لله على العبد عبودية في البلاء، كما له عليه عبودية في النعماء، وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا»[٣]. اهـ.



(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٦).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ٣١١).
(٣) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧).

المُفَاضَلَة بين الشكر والصبر والرضا

أولًا: المُفَاضَلَة بين الشكر والصبر[١]:

ذهب بعض أهل العلم إلى أن الصبر أفضل من الشكر، واحتجّوا لهذا بأن النصوص الواردة في الصبر، والحثّ عليه، والأمر به، والثناء على أهله؛ أكثر من النصوص الواردة في الشكر، وكثرة الأدلة على الشيء تدل على أهميته وشَرَفه، مثل: الصلاة والزكاة من بين سائر العبادات؛ كذلك في مقام الثناء على أهل هذه الأعمال.

قالوا: والصبر يدخل في جميع الأبواب، وله تَعلُّق بكل مسائل الشريعة؛ ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

قالوا: والله ﷻ علَّق على الشكر الزيادة فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وَعَلَّق على الصبر الجزاء بغير حساب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

وذهب فريق آخر إلى أن الشكر أفضل من الصبر.

يقول مُطَرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنْ أُعَافَى فأَشْكُر أحبّ إليّ من أن أُبْتَلى فأصْبِر. نظرتُ في العافية فوجدتُّ فيها خير الدنيا والآخرة»[٢].

واستدلوا على ذلك: بأن الصبر وسيلة، والشكر غاية، والغاية أشرف من الوسيلة، وقد قَرَن الله تعالى ذِكْره ـ الذي هو المراد من الخَلْق ـ بذكره، وكلاهما هو المراد بالخَلْق والأمْر، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، كما قَرَن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أن أهل الشكر هم المخصوصون بمِنّته عليهم من بين عباده، وقَسَّم الناس إلى شكور وكَفُور، فأبْغَضُ الأشياء إليه الكُفْر وأهله، وأحَبّ الأشياء إليه الشكر وأهله، وعَلَّق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٧)، و«عدة الصابرين» (ص٢٩٧) وما بعدها.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٤٢)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٢١).

وتوسطت طائفة ثالثة، فقالت: ليس لأحدهما فضيلة إلا بالتقوى، وقد يكون صبر الغني أكمل من صبر الفقير، كما قد يكون شكر الفقير أكمل، فأفضلهما أتقاهما وأعظمهما شكرًا وصبرًا.

وقد تقدم هذا المبحث بشيء من الاستفاضة في الكلام على الصبر.

ثانيًا: المُفَاضَلَة بين الشكر والرضا:

قال الفيروزآبادي رحمه الله تعالى: «الشكر أعلى منازل السالكين، وفوق منزلة الرضا؛ فإنه يتضمَّن الرضا وزيادة، والرضا مندرج في الشكر؛ إذ يستحيل وجود الشكر بدونه، وهو نصف الإيمان»(١). اهـ.

وقال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «مَقَام الشكر أعلى من مَقَام الرضا؛ فإن الشاكر يَشْهَد البليَّة نعمة، فيشكر المُبْتلي عليها»(٢). اهـ.

وبيان ذلك: أن لله عبودية في قضاء المصائب؛ وهي الصبر عليها، وأعلى من الصبر: الرضا بها، فتراه راضيًا بقضاء الله، لا يجزع، ولا يتبَرَّم. فإذا شاهد مِن البَلِيّة آثار النعمة، وأنها مُكَفِّرة للسيئات، ورِفْعَة في الدَّرَجات، وأَحْسَن الظنّ بربِّه، وعَلِم أن البلاء لا يَزَال بالعبد حتى يَمْشِيَ على الأرض وليست عليه خطيئة، وأن الأوَّلِينَ من الصالحين كانوا أشَدّ فَرَحًا بالبلاء مِنْ أحَدِنَا بالرَّخَاءِ؛ انتقلت المصيبة إلى ديوان النِّعْمة المُسْتَلْزِمة للشكر، فصار الشُّكْر بهذا الاعتبار أرْفَع من الرِّضَا.



(١) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٣٥).

(٢) «عدة الصابرين» (ص١٢٠) بتصرُّف.

حكم الشكر

يجب على العباد تجاه الله تعالى أن يشكروه، و«وجوب شكره أظهر من وجوب كل واجب، وكيف لا يجب على العباد حَمْده، وتوحيده، ومحبته، وذِكْر آلائه، وإحسانه، وتعظيمه، وتكبيره، والخضوع له، والتَّحَدّث بنعمته، والإقرار بها بجميع طُرُق الوجوب.

فالشكر أحب شيء إليه، وأعظم ثوابًا، وأَنَّهُ خلَقَ الخَلْقَ، وأنزل الكُتُبَ، وشَرَّعَ الشرائع، وذلك يَسْتَلْزم خَلْق الأسباب التي يكون الشكر بها أكمل، ومِنْ جُمْلَتِهَا أن فاوَتَ بَيْنَ عِبَاده في صفاتهم الظاهرة والباطنة؛ في خَلْقهم، وأخلاقهم، وأديانهم، وأرزاقهم، ومعايشهم، وآجالهم، فإذا رأى المُعَافى المُبْتلى، والغنيُّ الفقيرَ، والمؤمنُ الكافر، عَظُم شكرُه لله، وعَرَف قَدْرَ نِعْمَتِهِ عليه، وما خَصَّه به، وفضَّله به على غيره، فازْدَاد شكرًا وخضوعًا واعترافًا بالنِّعْمة»[(١)].

ويتبيّن وجوبه من وجه آخر، وهو أن العبد إمّا شاكر لنِعَمِه سبحانه، وإما كافر بها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال عن نبيِّه سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢].

فَمَنْ لَمْ يشكر وقَعَ في الكفر؛ إما في الكفر الأكبر، وإما في كفران النِّعْمة، فلا يُنَجّي من الوقوع في هذا الضلال إلا الشكر، فتَعَيَّن القول بفرضِيَّته، ووجوبه على الناس.

هذا حكم الشكر من حيث الجملة، وأما على سبيل التفصيل؛ فإن منه ما هو واجب، ومنه ما هو مُستحب، وذلك أن المصائب ـ كما سبق ـ يجب فيها الصبر، وأما الشكر عليها فمُستحب كما لا يخفى. والله تعالى أعلم.

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «شفاء العليل» (٢/ ٦١٣).

منزلة الشكر

الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أخصّ خلقه وأقربهم إليه، وأيّ مقام أَرْفَع من الشكر، الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان؟! حتى المحبة والرّضا والتوكل وغيرها؛ فإن الشكر لا يَصِحّ إلا بعد حصولها، فهو «جامعٌ لجميع مقامات الإيمان؛ ولذلك كان أرفعها وأعلاها... فجميع المقامات مُنْدَرِجة فيه، لا يستحقّ صاحبه اسمه على الإطلاق إلّا باستجماع المقامات له؛ ولهذا كان الإيمان نصفين: نِصْف صبر، ونِصْف شُكْر، والصبر داخلٌ في الشكر، فرجع الإيمان كله شكرًا، والشاكرون هم أقَلّ العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]»[١].

«وقد أمر الله به، وأثنى على أهله، ووَصَف به خَوَاصَّ خَلْقه، وجعله غاية خَلْقه وأَمْره، ووَعَد أهله بأحسن جزائه، وجَعَله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنِعْمَته، وأخبر أن أهله هم المُنْتَفِعون بآياته، واشتق لهم اسمًا من أسمائه؛ فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يُوصِل الشاكرَ إلى مَشْكُوره، بل يُعِيد الشاكرَ مشكورًا، وهو غاية الربّ ـ تبارك وتعالى ـ من عبده»[٢]، «وقد أثنى الله ﷻ على خليله إبراهيم ﷺ بشُكر نِعَمِه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]؛ فأخبر عنه سبحانه بأنه كان: ﴿أُمَّةً﴾؛ أي: قُدْوة يُؤْتَمّ به في الخير، وأنه كان: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، وهو المطيعُ المُقِيم على طاعته، ثم خَتَم له بهذه الصفات؛ بأنه شاكر لأَنْعُمِه؛ فجَعَل الشكر غاية خَلِيلِه»[٣].

ثم إن مبنى الدِّين على قاعدتين: الذِّكْرِ والشّكر، وقد جمَعَهُما الله بقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، «وقال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: **«أُوصِيك يا مُعَاذُ! لا تَدَعَنَّ فِي دُبُر كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعَنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك**

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٣٧، ٢/ ٢٤٩).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٢).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٢٢٢ ـ ٢٢٣).

وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[١].

والذِّكر رأس الشكر، والذِّكر والشكر جِمَاع السعادة والفلاح»[٢].

«وليس المراد بالذِّكْر مجرّد ذِكْر اللسان، بل الذِّكْر القلبي واللساني، وذلك يتضمن ذِكْر أسمائه وصفاته، وذِكْر أَمْره ونهيه، وذِكْره بكلامه.

وذلك يَسْتَلْزِم معرفته، والإيمان به، وبصفات كماله، ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده؛ فذِكْره الحقيقي يَسْتَلْزم ذلك كله، ويَسْتَلْزم ذِكْر نِعَمِه، وآلائه، وإحسانه إلى خَلْقه.

وأمّا الشكر فهو القيام بطاعته، والتقرّب إليه بأنواع مَحَابِّه ظاهرًا وباطنًا، وهذان الأمران هما جِمَاع الدِّين؛ فذِكْره مُسْتلزم لمعرفته، وشكره مُتَضَمِّن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خُلِق لأجلها الجنّ والإنس، والسمٰوات والأرض، ووُضِع لأجلها الثواب والعقاب، وأُنزِل الكتب، وأُرسِل الرسل، وهي الحق الذي به خُلِقت السمٰوات والأرض وما بينهما، وضِدّها هو الباطل والعبث الذي يَتَعَالَى ويتقَدَّس عنه سبحانه»[٣].

والعبد لا يخلو قَطّ مِنْ أن يكون في نِعْمة أو بَلِيَّة، فإنْ كَانَ في نِعْمة ففرضها الشكر والصبر؛ فالشكر قَيْدها، والصبر لئلا يقع فيما يتسبَّب في سَلْبِهَا.

عن عون بن عبد الله قال: قال بعض الفقهاء: «إني رَوَّأْت في أمري، فلَمْ أَرَ خَيْرًا لا شَرَّ مَعه إلا المعافاة والشكر؛ فرُبَّ شاكر في بلاء، ورُبَّ معافى غير شاكر، فإذا سألتم الله ﷻ، فسلوهما جميعًا»[٤].

ويكفي في بيان مَنْزِلَته ومعرفة فضله أن الله تبارك وتعالى سَمَّى نَفْسه (**شاكرًا**)، و(**شكورًا**)، وسمَّى الشاكرين بهذين الاسمين، وهذا تشريف وتكريم لهم، وحَسْبك بهذا محبّة للشاكرين وفضلًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ [الإنسان: ٢٢]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۝١٤٧﴾ [النساء: ١٤٧]، ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقِلَّة أهله في العالَمين تدلّ على أنهم هم خواصّه، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣].

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص١٦١) باختصار وتصرف.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٨٦) بتصرُّف يسير.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٧٧)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٧٥) واللفظ له.

الشكر في الكتاب والسُّنَّة

والنصوص الواردة في الشكر كثيرة جدًّا، **وحسبنا أن نشير إلى بعضها**:

أما القرآن: فقد أمر الله بالشكر، فقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وأخبر عن الشاكرين بأنهم القليل من عباده، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وأخبر عن إبليس أنه قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧]، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: ٢٠]، فتحقق ما ظنه إبليس بذرية آدم عليه الصلاة والسلام.

ووعد الله بالمزيد على الشكر، فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وأخبر أن هذا الشكر إنما يعود نَوَاله وأجره على صاحبه، فقال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢]، وقال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وأمَّا في السُّنَّة:

١ ـ فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ القَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ**»[(١)].

قال المناوي في «فيض القدير»: «(التحدث بنعمة الله شكر)؛ أي: إشاعتها من الشكر، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، والشكر ثلاثة أقسام: شكر اللّسان؛ بالتَّحَدُّث بالنعمة، وشكر الأركان؛ بالقيام بالخدمة، وشكر الجَنَان؛ بالاعتراف بأنَّ كل نِعْمَة منه تعالى.

(وتَرْكها كفر)؛ أي: سَتْر وتغطية لما حَقّه الإظهار والإذاعة. قال بعض العارفين: «ذِكْر النعم يُورِث الحُبّ في الله»[(٢)].

ثم هذا الخبر مَوْضِعه ما لم يترتّب على التَّحَدُّث بها ضرر كحسد، وإلا فالكِتْمان أوْلى... وإنما يجوز مثل هذا إذا قَصَد أن يُقْتَدى به، وأمِنَ على نَفْسه الفتنة،

(١) رواه أحمد وابنه عبد الله (٤/ ٢٧٨، ٣٧٥)، وضَعَّفَه ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٤٢٧)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٦٦٧) وقارن بـ«الضعيفة» (١٠/ ٤٣٤).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢١) من كلام أبي سليمان الدَّارَانِي.

وإلا فالستر أفضل، ولو لم يكن فيه إلّا التشبّه بأهل السُّمْعَة والرِّيَاء لكفى. . .

(ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله)؛ أي: مَنْ كَانَ طَبْعُهُ وعادته كفران نِعْمة الناس، وتَرْك الشكر لمعروفهم؛ كان عادته كفران نِعَم الله، وتَرْك الشكر له.

أو المراد أن الله لا يقبل شُكْر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويُنْكر معروفهم لاتِّصَال أحد الأمرين بالآخر»(١). اهـ.

وكان التحدّث بنعمة الله شكرًا؛ لأنه مِنْ حُسْنِ الثَّنَاء على الله تعالى، والاعتراف له بالجميل، وأنه المُنْعِم على الحقيقة، بخلاف مَنْ يتحدّث بها تَكَبُّرًا وترفّعًا على الناس، وينسبها إلى نفسه، وأنها من عمله وكَدِّهِ؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، فإن هذا من أعظم الكفر بها.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ **في قوله تعالى:** ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: ١١]؛ أي: انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتَّحدّثُ بِنِعَم الله والاعترافُ بها شُكْر»(٢). اهـ.

وعن الحسن بن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** «إذا أصبت خيرًا، أو عملت خيرًا فحدِّث به الثقة من إخوانك»(٣).

وعن أبي نضرة، قال: «كان المسلمون يرَوْن أنّ مِنْ شكر النِّعم أن يُحَدّثَ بها»(٤).

٢ ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ**»(٥).

٣ ـ عن صُهَيْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٦).

«فالعبد ما دام قلمُ التَّكْلِيفِ جَارِيًا عليه فمناهج الخير مفتوحة بين يديه، فإنَّهُ بين نِعْمَة يجب عليه شُكْر المُنْعِم بها، ومصيبة يجب عليه الصبر عليها، وأَمْر يُنَفِّذه، ونهْي يجتنبه؛ وذلك لازم له إلى الممات»(٧).

٤ ـ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ**

---

(١) «فيض القدير» (٣/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).
(٢) «تفسير القرطبي» (٢٢/ ٣٥١).
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٤٤٤).
(٤) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩١).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) ما بين الأقواس من كلام المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٣٠٢).

أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»(١).

٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»**(٢).



(١) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٢) تقدم تخريجه.

درجات الشكر

١ ـ **الشكر على المَحَابِّ**: وهو الاعتراف بِنِعَمِه سبحانه، والثناء عليه بها، والإحسان إلى خَلْقه منها، وهذا بلا شك يُوجِب حِفْظها على الشاكر، والمزيد منها. وحقيقة الشكر الاستعانة بها على مرضاته، وقد كَتَبَت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية رضي الله عنه: «إن أقلّ ما يجب للمُنْعِم على مَنْ أنْعَم عليه ألا يجعل ما أنعم عليه سبيلًا إلى معصيته»[١].

٢ ـ **الشكر في المَكَاره**: وهو أشَدّ وأصعب من الشكر على المَحَابّ؛ ولهذا كان فوقه في الدرجة.

٣ ـ أن يَتَعَرّف على المُنْعِم بأسمائه وصفاته من وَرَاء النِّعمة، ويعلم أنه المُنْعِم حقيقة، وأنه المُسْتَحقّ للحمد على كلِّ حال.

وهذا المقام هو تمام المقامَيْنِ السابقين، وحقيقة بلوغهما[٢].

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «الشكر الواقع على التفضيل والتخصيص أعلى وأفضل من غيره؛ ولهذا كان شكر الملائكة وخضوعهم وذُلُّهم لعظمته وجلاله بعد أن شاهدوا من إبليس ما جرى له... أعلى وأكمل مما كان قبله...

ولهذا كان شُكْر الأنبياء وأتباعهم بعد أن عاينوا هلاك أعدائهم، وانتقام الربّ منهم، وما أنزل بهم من بأسه أعلى وأكمل...

.... **فـالـضّـدُّ يُـظْـهِـر حُـسْـنَـه الـضِّـدُّ**
.... **وَبِـضِـدِّهَـا تُـتَـبَـيَّـنُ الأَشْـيَـاءُ**[٣]

ولولا خَلْق القبيح لما عُرِفَت فضيلة الجمال والحُسْن، ولولا خَلْق الظلم لما عُرِفت فضيلة النور، ولولا خَلْق أنواع البلاء لما عُرِفَ قَدْر العافية...

وَلَا رَيْبَ أنَّ أولياء الله تعالى نالوا بوجود عدوّ الله إبليس وجنوده، وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن ليحصل لهم بدونه، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها، وبين شكره بعد أن ابْتُلِي بِعَدُوِّه، ثم اجتباه ربه وتاب عليه، وقَبِلَهُ»[٤].اهـ.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥٣).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٥).
(٣) «ديوان المتنبي» مع «العرف الطيب» (ص١٤٦).
(٤) «شفاء العليل» (٢/ ٦١٤ ـ ٦٥١). بتصرُّف يسير.

وبالجملة، فإنَّ النِّعَم التي يختصّنا الله ﷻ بها من بين عموم الخَلْق تتطلب شكرًا خاصًّا، وعبودية خاصة، وقيامًا بحقّ الله ﷻ أعظم من قيام العبد إزاء النِّعَم العامة التي تحصل لجميع الناس، ونخُصّ بالذِّكْرِ تلك النِّعَم التي يخص بها الله عباده المؤمنين، والتي تتمثل في إنجائهم من كيد أعدائهم، ونَصْرهم عليهم، ورد كيدهم في نحورهم، فتَتَعَدَّد النِّعَم، وتَتَوالى على عباد الله المؤمنين، فيزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وشكرًا إلى شكرهم، لهم في كل مَوْقف شكر، إذا تذكّروا في حال قوَّتهم حالَ ضَعْفهم من قَبْل شكروا ربّهم، وإذا شاهدوا نَصْر الله الذي نَصَرَهم به على عدوِّهم شكروا ربهم، وإذا رأوا مَصَارِع القوم شكروا الله أنْ لَمْ تكن تلك مَصَارعهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥]؛ أي: ذكّرهم بِنِعَمِه عليهم في إخراجه إيَّاهم «من أسْرِ فِرْعَون وقَهْره، وظُلْمه وغَشْمه، وإنجَائِهِ إيَّاهم من عدوهم، وفَلْقه لهم البحر، وتظليله إيَّاهم بالغمام، وإنزاله عليهم المنّ والسلوى، إلى غير ذلك من النِّعَم؛ قال ذلك مجاهد[(١)] وقتادة[(٢)] وغير واحد»[(٣)].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾؛ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا من بني إسرائيل، حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المُهِين؛ لعبرة لكل صبّار ـ أي: في الضراء ـ شكور ـ أي: في السراء ـ كما قال قتادة: «نِعْمَ العبد عبدٌ؛ إذا ابْتُلِيَ صبر، وإذا أُعْطِيَ شكر»[(٤)].

وعن محمد بن سُوقَة، قال: «مررت مع عَوْن بن عبد الله بالكوفة على قصر الحَجَّاج، فقلتُ: لو رأيتَ ما نزل بنا هاهنا زمن الحَجَّاج؟ فقال: مَرَرت كأنك لم تَدْعُ إلى ضُرٍّ مَسَّك، ارجع فاحمد الله واشكره»[(٥)].

ويقول الله ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والمعنى: وإن تعدّوا ـ أيها الناس ـ نعمة الله التي أنعمها عليكم لا تطيقوا إحصاء عَدَدِها، والقيام بشكرها.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٥٢١). (٢) المصدر السابق.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤٧٨).
(٤) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٥٢٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٥).
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٥) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٧٧)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٧).

كما قال طَلْق بن حَبِيب: «إنّ حَقّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإنّ نِعَمَ الله أكثر من أن يُحْصِيها العباد، ولكن أصبحوا توَّابين، وأمسوا توَّابين»(١).

فالذي بَدَّلَ نعمة الله كفرًا ظلوم؛ لأنه يشكر غير مَنْ أنْعَمَ عليه، فهو بذلك مِنْ فعله واضع الشكر في غير مَوْضعه، وذلك أنَّ الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم، واسْتَحَقَّ عليه إخلاص العبادة له، فعَبَد غيره وجَعَل له أندادًا ليضل عن سبيله، وذلك هو ظُلْمه.

والذي بَدَّل نعمة الله كفرًا كَفَّار، جاحد نعمة الله التي أنعم بها عليه؛ لِصَرْفِهِ العِبَادَةَ إلى غَيْرِ مَنْ أنْعَم عليه، وتَرْكه طاعة وشُكْر مَنْ أنعم عليه(٢).

وقد كان من دعائه ﷺ: «**اللَّهُمَّ أعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِك، وبِمُعَافَاتِك مِنْ عُقُوبَتِك، وأعُوذُ بِك مِنْك، لَا أحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك، أنْتَ كَمَا أثْنَيْتَ علَى نَفْسِك**»(٣).

فقوله: **(لا أُحْصِي ثَنَاءً علَيْكَ)**؛ أي: لا أُطيقه، ولا آتي عليه، ولا أُحِيط به.

يقول مالك رحمه الله تعالى في معناها: «لا أُحصي نعمتك، وإحسانك، والثناء بها عليك؛ وإن اجتهدتُ في الثناء عليك»(٤).

«وقوله: **(أنتَ كَما أثْنَيْتَ على نَفْسِكَ)** اعترافٌ بالعجز عن تفصيل الثناء، وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته، وردٌّ للثناء إلى الجملة دون التفصيل والإحصار والتعيين، فَوَكَل ذلك إلى الله ﷻ، المحيط بكل شيء جملةً وتفصيلًا، وكما أنه لا نهاية لصفاته، لا نهاية للثناء عليه؛ لأن الثناء تابعٌ للمُثْنَى عليه، وكل ثناء أثنى به عليه، وإنْ كَثُر وطال وبُولِغَ فيه، فقَدْر الله أعظم، وسلطانه أعزّ، وصفاته أكبر وأكثر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ»(٥).



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٦٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٠٤).
(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٦٦٨ ـ ٦٦٩).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) نقله ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٣٥٠).
(٥) ما بين الأقواس من كلام النووي في «شرحه على مسلم» (٤/ ٢٠٤).

الطريق إلى تحقيق الشكر

ويكون ذلك بأمُور متعددة:

أولًا: تنمية المحبة الصادقة لله تبارك وتعالى:

فإنّ العبد إذا كان مُحبًّا لله، فإنه يستعظم ما يصل إليه من الله من النِّعَم، ويَعْتَرِفُ بها، فهو مسرور بذلك؛ لأن الله ﷻ قد اختاره، وأَوْلاه، وحَرَمَ آخرين، وقد يكون ذلك أعظم في نَظَره من النّعمة نَفْسها، وقد قال الشاعر[(١)]:

لَـئِـنْ سَـاءَنـي أنْ نِـلْـتَـنِـي بِـمَـسَـاءَةٍ ... لـقَـدْ سَـرَّنِـي أنِّـي خَـطَـرْتُ بِـبَـالِـكَـا

يقول ذلك لمحبوبه الذي وَصلت إليه منه الإساءة، فإذا وصلت المَسَرَّات إلى العبد من ربه تبارك وتعالى؛ فهي ـ وإن دَقَّت ـ لا يراها إلا جليلة عظيمة؛ كما أنه لا يرى الذنب منه ـ وإنْ دَقَّ ـ إلا عظيمًا، ولا يأتي من الربّ تعالى إلّا الخير؛ كما قال النبي ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[(٢)]، فالشرّ لا يُضَاف إلى الله ﷻ، ولا يُنْسَب إليه، ولا يَصْدر منه، فإنَّ أسماءَه كلها حسنى، وصفاته كلّها كمال، وأفعاله كلّها فضل، وعدل، وحكمة، ورحمة، ومصلحة؛ فالشرّ لا يُنْسَب إليه بوجه من الوجوه، وإنما يقع الشر في مفعولاته؛ فالكل خَلْقه، ولكنَّ الشرَّ وإن كان من مخلوقات الله ﷻ إلّا أنَّه لا يُضَاف إلى الله تبارك وتعالى، على أنه من أفعاله؛ فكلّ ما يأتي منه فله عليه الحمد والشكر، وله فيه النّعمة والفضل[(٣)].

و«إنما يتأتّى الشكر لله من العبد إذا تمكّن حب الله من قلبه، وعَلِم حُسْن اختياره له، وبرّه به، ولُطْفه به، وإحسانه إليه بالمصيبة، وإنْ كَرِه المصيبة، وعبوديّته في قضاء المَعَائِب المُبَادرة إلى التوبة منها، والتَّنَصُّل والوقوف في مقام الاعتذار والانكسار»[(٤)].

ثانيًا: النَّظَر في عظمة الله تعالى وصفات كماله:

فالله ﷻ هو المُسْتَحق بذاته للعبادة والتعظيم والإجلال؛ وكما قيل[(٥)]:

(١) وهو: ابن الدمينة الخثعمي، كما في «ديوانه» (ص١٧).
(٢) رواه مسلم (٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه. (٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٢٥).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٦٣ ـ ١٦٤).
(٥) نسبه شيخ الإسلام لابن الجوزي في «الفتاوى» (١٦/ ٢٥٣). وهو في «المدهش» (ص٥١٥).

هَبِ الْبَعْثَ لَمْ تَأْتِنَا رُسْلُهُ وَجَاحِمَةَ النَّارِ لَمْ تُضْرَمِ
أَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحَقِّ عَلَى ذِي الْوَرَى الشُّكْرُ لِلْمُنْعِمِ

فالنفوس العَلِيَّة الزَّكِيَّة تَعْبُده؛ لأنه أهلٌ لأنْ يُعْبد، ويُجَلّ، ويُحَبّ، ويُعَظَّم، فهو لذاته مُسْتَحقٌّ للعبادة.

ولا ينبغي للعبد أن يكون كأجير السوء، إن أُعْطِي أجره عمل، وإن لم يُعْطَ لم يعمل.

فكيف وهو يَمْتَنّ عليه بوافر النِّعَم التي لا تحصى؟! ويتفَضَّل عليه بأنواع الفضائل التي لا تُسْتَقْصَى؟![١].

وقد قيل: «لو لم يُعَذِّبِ الله ﷻ على معصيته؛ لكان ينبغي أَلَّا يُعْصَى؛ لشكر نعمته»[٢].

ثالثًا: حسْن النظر في نِعْمة الله الحاضرة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**انظرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ**»[٣].

قال ابن بطال رحمه الله: «قال الطبري: وهذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المَرْءَ لا يكون بحال تتعلق بالدّين؛ من عبادة ربِّه مُجْتهدًا فيها إلّا وَجَد مَنْ هو فوقه، فمتى طلبت نَفْسه اللّحاق به اسْتَقْصر حاله، فيكون أبدًا في زيادة تَقَرُّب من ربِّه. ولا يكون على حالٍ خَسِيْسَة من الدنيا إلّا وَجَد من أهلها مَنْ هُوَ أخسّ حالًا منه، فإذا تفكَّر في ذلك عَلِمَ أنَّ نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممّن فُضِّل عليه بذلك، من غير أمْر أوْجَبه؛ فيُلْزِم نَفْسه الشكر، فيَعْظم اغتباطه بذلك في مَعَاده»[٤]. اهـ.

وقال غيره: «في هذا الحديث دواء الداء؛ لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يُؤَثّر ذلك فيه حسدًا، ودواؤه أن ينظر إلى مَنْ هُوَ أسفل منه؛ ليكون ذلك داعيًا إلى الشكر»[٥].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٧٥ ـ ٧٦).
(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٠٨)، وعنه البيهقي في «الشعب» (٤٢٢٧) عن بعض الحكماء.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ١٩٩) بتصرُّف.
(٥) نقله ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٣٠).

ولذلك؛ فالعاقل إنما ينظر إلى مَنْ هُوَ دُونَه، أو ينظر إلى مَنْ يُشَاكِلُهُ؛ في أمر الصحبة، والزواج، والإنفاق، والمسكن، واللباس، ونحو ذلك، حتى يتعرّف بحقّ على نعمة الله ﷻ عليه، فلا يَزْدَرِيها، فيؤدّي به ازدراؤها إلى الكفر بها، ونسيان شكر المُتَفَضِّل عليه سبحانه، وإلّا فإنه إذا تطلعت عيناه إلى مَنْ هو أعلى منه نعمة تَطَلَّع قلبه، وإذا تطلع قلبه إلى نِعْمَةٍ من نِعَم الدنيا، فلم يَطَلْها سَخِط وتَبَرَّم. والشاكر راضٍ بالقليل، مُقِرٌّ بالفَضْل للمُتَفَضِّل الجواد الكريم، رابضٌ، لا يترمرم.

وما أكثر تلك المشكلات الاجتماعية، والمساوئ الأخلاقية التي تنتج عن قلة المعرفة بنعمة الله.

وكم من امرأة سَخِطَتْ معيشة زوجها، وكرهت معاشرته، وهو حَسَنُ التَّبَعّل، نبيل الأخلاق، كريم الأصل؛ للعلَّة ذاتها.

والمرء بطَبْعِه حريصٌ شَحِيح، جَمُوع مَنُوع جَزُوع، ظَلُومٌ جهول، لا يملأ جوفه إلا التراب، ولا ينقضي طَمَعُه حتى يموت.

ومَنْ تَنَزَّهَ في أعماله عن تلك النسبة، وأحسن التعرُّف على نعمة الله عليه عاش شاكرًا، ومات حميدًا.

وإنما تكون غاية الوصول بحسن الترقِّي في منازل العبودية بهذه العلوم الشرعية، وتلك المعارف القلبية، ولا يجتبيها إلَّا قلبٌ سليم.

وعلى الضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ ينبغي أن ينظر المرء إلى من هو فوقه إذا تعلق الأمر بدينه، فليس من العزم وعلو الهمة أن ينظر ـ مثلًا ـ إلى مَنْ لا يصلّي، ويقول: أنا أحسن حالًا منه؛ فيستكين، ويطمئنّ، ثم لا تدعوه نَفْسه إلى هِمّة هي أعلى من ذلك، وكلما جَالَ بخاطره شيءٌ منه سَكَن إلى ما كان إليه من قبل، فهذا ضعيف الهمّة، ناقص العزيمة، ذو خَوَر، عمّا قريب ينحدر.

ولكن الواجب أن ينظر إلى مَنْ هو فوقه؛ لتَسْمُو نَفْسه، وتعلو هِمّته، ويزداد طَمَعه في فضل الله، حتى يصير من أهل العَزْم والتَّشْمِيرِ، ويمْتَثِل قول الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾ [المطففين: ٢٦]، فإنْ هو فعل ذلك ازداد نعمة، فازداد شكرًا.

قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢٠].

فَمَنْ حرص على الدنيا لم يأْته منها إلّا ما قَدَّره الله له.

ومَنْ حَرَص على الآخرة، وسعى لها سعيها، وهو مؤمن شكر الله له.

رابعًا الدعاء:

فإذا علم العبد أن النِّعَم كلها من الله وحده، نِعَم الطاعات، ونِعم اللّذات، رغب إليه لِيُلْهِمَهُ، ويُوزِعَهُ شكرها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٤].

وكما أنَّ تلك النِّعَم منه وحده سبحانه، فذِكْرها وشكرها لا يُنَال إلَّا بتوفيقه.

والعبد مفْتَقِر مضطر إلى الضراعة إلى الله ﷻ والابتهال إليه أن يدفع عنه العوارض، والأمور التي تصرفه عن القيام بحقّ الله في الشكر.

وإن الذنوب لَمِنْ خِذْلَانه، وتخلِّيه عن عبده، وتخليته بينه وبين نفسه؛ فإذا بالعبد يَسْعَى بنعمة الله التي أنعم بها عليه سعيًا في مَسَاخِطه، وما يجلب عليه غضبه وعذابه، وإعراضًا منه، فلا يفلح بعده أبدًا.

قال الله ﷻ عن نَبيِّه سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: «**يَا مُعَاذُ! واللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ**»، فقال: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ! لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِك**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**أَتُحِبُّونَ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ، وَذِكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٢).

«فجمع ﷺ بين الذِّكر والشّكر، كما جَمَع الله سبحانه وتعالى بينهما في قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، فالذِّكر والشكر جِماع السعادة والفلاح»(٣).

يقول ابن القيم رحمه الله: «فأنفع الدعاء: طلب العَون على مرضاته سبحانه، وأفضل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٩٩)، وصحَّحه الحاكم (٢/ ٢٩٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٧٢): «رجاله رجال الصحيح غير موسى بن طارق، وهو ثقة»، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٧٩٦٩)، والألباني في «الصحيحة» (٨٤٤).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص١٦٥) بتصرُّف.

المواهب: إِسْعاف العبد بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مَدَارها على هذا، وعلى دَفْع ما يُضَادّه، وعلى تكميله، وتيسير أسبابه.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: تأمّلت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العَون على مرضاته»[(١)]. اهـ.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان النبيّ ﷺ يدعو: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي ولَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ هُدَايَ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْواعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا. رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي**»[(٢)].

وقال بكر بن عبد الله المزني ـ وكان رَحِمَهُ اللَّهُ **مجاب الدَّعْوة ـ**: «اللَّهُمَّ ارزقنا من فضلك رزقًا تَزِيدنا به لك شكرًا، وإليك فاقة وفَقْرًا، وبك عَمَّنْ سِوَاك غَنَاء وتَعَفُّفًا»[(٣)].

خامسًا: التفكّر في نِعَم الله:

وهو أمْرٌ جدير بالعناية، ومِنْ أعْظَم ما يُتَوَصَّل به إلى معرفة النِّعم.

فعن عبد الله بن أبي نوح، قال: «قال لي رجل على بعض السواحل: كم عامَلْته تعالى اسمه بما يكره، فعامَلَك بما تحب؟ قلت: ما لا أحصي ذلك كثْرَةً. قال: فهل قصدت إليه في أَمْرٍ كَرَبَك فخذلك؟ قلتُ: لا والله، ولكنه أحسن إليَّ، فأعانني. قال: فهل سألته شيئًا قط فأعطاك؟ قلت: وهل منعني شيئًا سألته؟! ما سألته شيئًا قط إلا أعطاني، ولا استعنتُ به إلا أعانني. قال: أرأيتَ لو أنَّ ابن آدم فَعَل بك بعض هذه الخِلال، ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنتُ أقدر له على مكافأة ولا جزاء. قال: فربّك أحقّ وأحرى أن بذلت نفسك له في أداء شكر نِعَمِهِ عليك، وهو المُحْسِن قديمًا وحديثًا إليك، والله لَشكره أَيْسَر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رَضِي بالحَمْد من عباده شكرًا»[(٤)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٧٨) بتصرُّف.

(٢) رواه أبو داود (١٥١١) واللفظ له، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٩٤٧، ٩٤٨)، والحاكم (١/ ٥١٩ ـ ٥٢٠)، والذهبي، والألباني في «ظلال الجنة» (٣٨٤).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٩/ ٢١٠) واللفظ له، وأحمد في «الزهد» (ص٣١٥)، ومن طريق أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٢٥)، والدينوري في «المجالسة» (١٦٨٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٤١)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٩٨).

فإذا لاحظ العبد ما هو فيه من نِعْمة الله، ومحْضِ جُوْده، شَهِد مع ذلك فَقْره إليه في كل لَحْظَة، وعدم استغنائه عنه طَرْفَة عين؛ فَكَانَ ذلك من أعظم أبواب الشكر، وأسباب المزيد، وتوالي النِّعَم عليه.

«وكلَّما توالت عليه النِّعم أنشأت في قلبه سحائب السرور، وإذا انْبَسَطَتْ هذه السحائب في سماء قلبه، وامتلأ بها أُفُقه؛ أمطرت عليه وَابِل الطَرَب بما هو فيه من لذيذ السرور، فإنْ لم يُصِبْه وابل فطَلّ، وحينئذ يجري على لسانه وظاهره نَهْر الافتخار من غير عُجْب، ولا فخر؛ بل فَرَحًا بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]»[١].

«فإذا تَدَبَّر العبد عَلِمَ أنَّ ما هو فيه من الحسنات من فضل الله، فَشَكر الله، فزاده الله من فضله عملًا صالحًا، ونِعَمًا يفِيضها عليه.

وإذا عَلِمَ أنَّ الشَّر لا يحصل له إلا من نَفْسه بذنوبه استغفر وتاب؛ فزال عنه سبب الشر، فيكون العبد دائمًا شاكرًا مُسْتغفرًا، فلا يزال الخير يتضاعف له، والشرّ يَنْدَفِعُ عنه؛ كما كان النبي ﷺ يقول في خطبته: «**الحمْدُ لله**»، فيشكر الله، ثم يقول: «**نسْتَعِينُه ونسْتَغْفِرُهُ**»، نستعينه على الطاعة، ونستغفره من المعصية، ثم يقول: «**ونَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»[٢]، فيستعيذ به من الشر الذي في النَّفْس، ومن عقوبة عمله؛ فليس الشر إلا من نَفْسه، ومن عَمَل نَفْسه، فيستعيذ الله من شر النَّفْس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا، ثم إذا عَمِل استعاذ بالله من سيئات عَمَلِه، ومن عقوبات عَمَله.

فاسْتَعَانَهُ على الطاعة وأسبابها، واسْتَعَاذَ به من المعصية وعِقَابِهَا؛ فَعَلِم العبد بأنّ ما أصابه من حسنة فَمِنَ الله، وما أصابه من سيّئة فَمِنْ نَفْسِه»[٣].

فالحاصل أن العبد بين أمرين:

- نعمة من الله سابغة يجب عليه شكرها، ولا يتمّ له ذلك إلا بالاستعانة بربه.
- وذنبٌ فَعَله، يجب عليه لله الاستغفار منه، ومَنْ يغفر الذنوب إلا الله؟! فما أفْقر

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٨٦).

(٢) رواه أبو داود (١٠٩٧، ٢١١٩)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (٣٢٧٧)، وابن ماجه (١٨٩٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن الجارود في المنتقى (٦٧٩)، وسكت عنه الذهبي في «التلخيص» (٢٧٤٤)، وصحَّحه ابن حبان ـ كما في «الفتح» (٩/ ١٠٩)، ولم أجده في «صحيح ابن حبان» إلا عن ابن عباس ـ وابن القيم في «زاد المعاد» (٢/ ٤١٥)، والألباني في تحقيق «المشكاة» (٣١٤٩) وغيرها.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

العبد في سَرَّائه وضرَّائه، وحسنته وسيئته إلى رَبِّهِ الغفور الرحيم، الجَوَاد الكريم!

ولا يلاحظ العبد في ذلك إلا تمام فَقْره إليه، وتمام غِنَى رَبِّهِ عنه؛ فحاله حال مضطر ليس له إلّا الله.

والأصل فيما يضطرّ العبد إليه من حاجته أن يُخْلِص فيه ويُعَوِّل على المُضْطَر إليه، فإذا علم أنَّ المُضْطَر إليه هو الله رَبّ العالمين رَبّه، فما أسعد مُضْطَر إلى خَيْرِ مُضطرٍّ إليه.

عَطِيَّتُهُ إِذَا أَعْطَى سُرُورُ ... وَإِنْ أَخَذَ الَّذِي أَعْطَى أَثَابَا
فَأَيُّ النِّعْمَتَيْنِ أَعَمُّ نَفْعًا ... وَأَحْسَنُ فِي عَوَاقِبِهَا إِيَابَا
أَنِعْمَتُهُ الَّتِي أَهْدَت سُرُورًا ... أَم الْأُخْرَى الَّتِي أَهْدَتْ ثَوَابَا؟
بَلِ الْأُخْرَى وَإِنْ نَزَلَتْ بِحُزْنٍ ... أَحَقُّ بِشُكْرِ مَنْ صَبَرَ احْتِسَابَا[(١)]

يقول: ليست نعمة حلّت فَأَهَدَت سرورًا بأوْلَى بالشكر من نعمة نزلت فَأَهَدَت ثوابًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَه الله تعالى: «لو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية، لَشَغَلَ قَلْبَهُ بشكره ولسانه بقوله: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي علَى ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[(٢)]، وكيف لا يشكر مَنْ قَيَّضَ له ما يستخرج خُبْثه، ونجاسته، وصَيَّرَهُ تِبْرًا خالصًا، يصلح لمُجَاوَرَته، والنظر إليه في داره؟!»[(٣)]. اهـ.

وقال أبو حازم رَحِمَهُ اللهُ: «نعمة الله فيما زَوَى عني من الدنيا أعظم من نعمته عليَّ فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها قومًا فهلكوا»[(٤)].

وَكَمْ حَاوَلْتَ مِنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ ... مُنِعْتَ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَخِيرَهْ
وَكَمْ مِنْ مَدْخَلٍ لَوْ مِتَّ فِيهِ ... لَكُنْتَ بِهِ نَكَالًا فِي الْعَشِيرَهْ
وُقِيتَ السُّوءَ وَالْمَكْرُوهَ فِيهِ ... وَرُحْتَ بِنِعْمَةٍ فِيهِ ستيرَهْ
وَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ لِلَّهِ تُمْسِي ... وَتُصْبِحُ لَيْسَ تَعْرِفُهَا كَبِيرَهْ[(٥)]

فلو عرف العبد حقّ المعرفة نعمة الله عليه في السرَّاء والضرَّاء، والعافية والبلاء، والعناء والرخاء؛ لمَا كان له شغلٌ غير الحَمْد والشكر.

ولعلَّك تجد في عموم المسلمين وأغمارهم مَنْ له دراية بحق هذا المقام الشريف مِنْ

(١) رواه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٣٤)، وانظر: «العقد الفريد» (٣/ ٢٨٢).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «طريق الهجرتين» (١/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٣).
(٥) «كتاب التوبة» لابن أبي الدنيا (١٢٤).

مقامات العبودية هي أصدق دلالةً وأسمى مقامًا من كثير ممَّن يُنْسب إلى العلم والمعرفة.

قال الله تعالى مُعَدِّدًا نِعَمه على عباده: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤].

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: أعطاكم من كلّ ما تعلقت به أمانيكم وحاجاتكم، مما تسألونه إيَّاه بلسان الحال أو بلسان المقال، من أنعام وآلات وصناعات وغير ذلك.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾، فضلًا عن قيامهم بشكرها.

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إنه ظلوم كفَّار؛ فهو ظالمٌ مُتَجَرِّئ على المعاصي، مُقَصِّر في حقوق ربِّهِ، كفَّار لنِعَم الله، لا يشكرها، ولا يعترف بها إلّا مَنْ هَدَاه الله فشَكر نِعَمَه، وعَرَف حَقَّ ربّه»[١]. اهـ.

وقال طَلْق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ حَقَّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نِعَمَ الله أكثر من أن يُحْصِيها العباد، ولكن أَصْبِحُوا تَوَّابين وأَمْسُوا تَوَّابين»[٢].

لَوْ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنِّي لَها لُغَةٌ ... تُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَا زَانَ شُكْرِي إِذْ أَشَرْتُ بِهِ ... إِلَيْكَ أَجْمَل فِي الْإِحْسَانِ وَالمِنَنِ[٣]

و«مَنْ لَمْ يرَ نعمة الله عليه إلَّا في مَأْكله، ومَلْبَسه، وعافية بدنه، وقيام وجهه بين الناس؛ فليس له نصيبٌ من هذا النور الذي يُوجِب اليقظة، فَيَسْتَنِير القلب به.

فنِعْمة الله بالإسلام والإيمان، وجَذْب عبده إلى الإقبال عليه، والتنعّم بذكره، والتلذّذ بطاعته؛ هو أعظم النِّعَم»[٤].

وإذا تَأَمَّل المرء نَفَسَه الذي يُلْهَمه في كل لحظة، وعَلِم أنه يتنفّس في اليوم ما يقرب من ثلاثٍ وعشرين ألف مرة، وأيقن أنَّ ذلك بقُدْرَة الله ونعمته السابغة على عبده؛ عَلِمَ أن نعمة الله لا تُحْصَى.

يقول أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَمْ يعرف نِعْمَة الله عليه إلَّا في مَطْعَمه ومَشْرَبه؛ فقَدْ قَلَّ عِلْمه، وحضر عذابه»[٥].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٨٥١) بتصرُّف. (٢) تقدم تخريجه.
(٣) «تاريخ بغداد» (١/ ٣٥٠).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٤٤) بتصرُّف.
(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٥١)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٩٢) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٠) (٥/ ١٧٣).

وقال وَهْب بن مُنَبِّه: «رؤوس النِّعَم ثَلَاث: **فأوَّلها**: نعمة الإسلام التي لا تتمّ نِعْمة إلا بها، **والثانية**: نِعْمة العافِيَة التي لا تطيب الحياة إلَّا بها، **والثالثة**: نِعْمة الغِنَى التي لا يتم العيش إلا بها»[١].

وقال بكر بن عبد الله المُزَني رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا ابن آدم! إذا أردت أن تعلم قَدْرَ ما أنعم الله عليك؛ فغمِّضْ عينيك»[٢].

فإنَّ مَنْ سُلِبَ النِّعْمَة يعرفها حقَّ المعرفة، ويقدِّرها حق قَدْرها. أمَّا الإنسان من حيث هو فظلوم كفَّار، لا يعرف النعمة إلا مِنْ جِهَةِ تحصيل اللذة؛ ولذلك فإنه إذا حُرِمَ اللَّذَّةَ بفقدان النِّعْمَة عرف قَدْر النعمة.

ومن فَتَح الله بصيرته، وأدرك قدر مَوْفُور النِّعَم؛ عَلِمَ أنَّ نِعَم الله سابغة لا تُنْسَى، ومِنَنه متكاثرة لا تُحْصَى، وأيقن أن تمام النِّعْمَة عند قول أهل الجنَّة، كما أخبر الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤].

قال الحسن بن عليّ البزار: «سمعت أبا بكر بن عبد الله بن أبي مريم، وسأله رجل فقال: ما تمام النِّعْمة؟ قال: أن تضع رِجْلًا على الصِّرَاط ورِجْلًا في الجنَّة»[٣].

وصَعَد عبد الله بن محمد الشَّرْعبي على المِنْبَر، ونظر إلى الناس، وقد تجَمَّلوا، ولبسوا الثياب الحسنة، فقال: «يا حُسْنَاه! ويا جمالاه بعد العَدَم... أصبحتم زُهْرًا، وأصبح الناس غُبْرًا، وأصبح الناس يَنْسِجُون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يُعْطُون وأنتم تأخذون، وأصبح الناس يَنْتِجُون[٤] وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون»؛ فبكى، وأبكاهم[٥].

ولما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨]، قال الزبير:

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٧٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٦٨).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٥١).
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨١).
(٤) يُقَال: نَتَج الناقة، يَنْتِجُهَا نَتْجًا، إذا وَلِيَ نَتَاجَهَا، فهو نَاتِج. وهو للبهائم كالقَابِلَة للنساء. انظر: «تاج العروس» (٦/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، مادة: (نتج).
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٩٧).

يا رسول الله! فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «**أَمَا إنَّه سَيَكُون**»(١).

وقال مجاهد في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨]، قال: «عن كل شيء مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا»(٢).

وكتب بعض الحُكَمَاء إلى أخ له يقول: «أمَّا بَعْد، يا أخي! فقد أصبح بنا مِنْ نِعَم الله ما لا نُحْصِيه، مع كثرة ما نَعْصيه، فما ندري أيهما نشكر؟ أَجَميلُ ما ظَهَر، أم قبيح ما سَتَر؟»(٣).

وقال بكر بن عبد الله المزني: «كان أبو تميمة إذا قالوا: كيف أنتم؟ قال: بين نعمتين: بين ذَنْب مَسْتُور، ولا يعلم به أحد، وثناء مِنْ هَؤلاء الناس، لا والله ما بلغته، ولا أنا كذلك»(٤).

وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، قال: «أما الظاهرة فالإسلام. وأما الباطنة فَسَتْره عليكم المعاصي»(٥).

والمعنى أوسع من هذا وأعمّ، وهذا الذي ذَكَره مما يدخل فيه، فالنِّعَم الظاهرة: هي تلك النِّعَم المُشَاهَدة المُتَكَاثِرة؛ من المراكب، والملابس، والمساكن، وما أشبه ذلك. والنِّعَم الباطنة؛ وهي تلك التي لا يَتَفَطَّنُ إليها كثير من الناس، من ألوان فُيُوْض الله ﷻ عليهم.

ولو تأَمَّلَ العبد ظاهر النِّعَم التي تتوالى عليه كُلَّ حِين، وتفطَّن إلى بعض خفيِّهَا مما لا يُحْصَى؛ لَعَلِمَ أنه لا يمكن أن يُؤَدَّى شُكْر ذلك كلّه، بل لا يمكن أن يُؤَدَّى شكر بعضه.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٣].

وعن رَوْح بن القاسم «أن رجلًا مِنْ أَهْلِهِ تَنَسَّكَ، فقال: لا آكل الخَبِيص ولا

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٥٧)، وحسَّنه الترمذي، والألباني في «الصحيحة» (١/ ٦٦٥)، وفي الباب عن أبي هريرة ومحمود بن الربيع رضي الله عنهما.
(٢) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٦١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨١).
(٣) ذكره ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٩٤).
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٩٧) واللفظ له.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨٣)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٨٤).

الفَالُوذَج[١]، لا أقوم بشكره.

قال: فلقيتُ الحسن، فقلتُ له في ذلك، فقال الحسن: هذا إنسان أحمق، هل يقوم بشكر الماء البارد؟!»[٢].

ويدل لقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ـ يعني: العبد ـ **من النَّعِيمِ، أن يُقَالَ له: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيَكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ؟!**»[٣].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبي ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»[٤].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**» كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية»[٥]. اهـ.

ففي هذا الحديث «تنبيهٌ للأُمَّة على عظيم نعمة الله على عِبَادِه في الصحة والكفاية؛ لأن المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مَكْفِيًّا مؤُنة العيش في الدنيا، فَمَنْ أَنْعَم الله عليه بهما فليحذر أن يُغْبَنهما.

وممَّا يُسْتَعَانُ به على دَفْع الغَبْن: أَنْ يَعْلَمَ العبد أن الله تعالى خَلَق الخَلْق من غير ضرورة إليهم، وبَدَأهم بالنِّعَم الجليلة من غير اسْتِحْقاق منهم لها؛ فَمَنَّ عليهم بصحّة الأجسام، وسلامة العقول، وتضمَّن أرزاقهم، وضاعف لهم الحسنات، ولم يُضَاعِفْ عليهم السيئات، وأَمَرَهُم أن يعبدوه، ويعتبروا بما ابتدأهم به مِنَ النِّعَم الظاهرة والباطنة، ويشكروه عليها بأَحْرفٍ يسيرة»[٦].

وكيف يبلغ العبد شكر نعمة رَبِّهِ، وتوفيقه إلى الحَمْد والشكر نِعْمَةٌ؟! إنه لا يزال في نِعْمَة لا يبلغ شُكْرها أبدًا؛ ولذلك قال النبي ﷺ في ثنائه على ربه عَزَّ وَجَلَّ: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً**

---

(١) **الخبيص والفالُوذَج**: نوعان من الحلواء. انظر: «مختار الصحاح» (ص٨٧)، مادة: (خبص)، و«تاج العروس» (٩/ ٤٥٤)، مادة: (فلذ).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٦٤)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٧٢) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٦٣).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٥٨) وضعفه، وصحَّحه ابن حبان (٧٣٦٤)، والحاكم (٤/ ١٣٨)، والذهبي، والصدر المناوي في «تخريج المصابيح» (٤١٧٥)، والألباني في «الصحيحة» (٥٣٩).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) «فتح الباري» (١١/ ٢٣٤).

(٦) ما بين الأقواس من «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[(١)].

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناه: لا أُحْصِي نِعْمَتَكَ وإحسانك، والثناء بها عليك، وإن اجتهدتُ في الثناء عليك»[(٢)].

قال محمود الوَرَّاق[(٣)]:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيَّ وَفِي أَمْثَالِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وُقُوعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإِن مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ليس للعبد من نَفْسه مثقال ذرَّة من الخير... وهو سبحانه وحده هو المُنْعِم من جميع الوجوه على الحقيقة، بالنِّعَم وأسبابها، فأسبابها من نِعَمِه على العبد، وإنْ حَصَلَتْ بِكَسْبه فَكَسْبه مِنْ نِعَمِهِ؛ فكلّ نِعْمَة فمن الله وحده، حتى الشكر فإنه نِعْمَة، وهي منه سبحانه؛ فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته، وشكره نعمة منه عليه؛ كما قال داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا رب كيف أشكرك، وشكري لك نعمة من نِعَمِك عليَّ تَسْتَوجِب شكرًا آخر؟! فقال: الآن شكرتني يا داود». ذكره الإمام أحمد[(٤)]»[(٥)]. اهـ.

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْدَدْ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ لِمُولِيكَهَا شُكْرًا فَلَسْتَ بِشَاكِرِ[(٦)]

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «على كل نعمة على العبد من الله في دين أو دنيا يحتاج إلى شكر عليها، ثم للتوفيق للشكر عليها نِعْمة أخرى تحتاج إلى شكرٍ ثَانٍ، ثم التوفيق للشكر الثاني نعمة أخرى يحتاج إلى شكر آخر، وهكذا أبدًا؛ فلا يَقْدر العبد على القيام بشكر النِّعَم. وحقيقة الشكر الاعتراف بالعَجْز عن الشكر»[(٧)]. اهـ.



(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨٣)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٠٩٩).
(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٦٩ ـ ٧٠)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٠٠).
(٥) «شفاء العليل» (١/ ١٥٧).
(٦) نسبه ابن عبد البر في «بهجة المجالس» (١/ ٣١٧) لأبي العتاهية.
(٧) المصدر السابق.

ثمرات الشكر

إن «إنعام الربّ تعالى على عَبْده إحسان إليه، وتَفَضُّلٌ عليه، ومجرَّد امتنان؛ لا لحاجة منه إليه، ولا لِمُعَاوَضَة، ولا لاستعانة به، ولا ليتكثَّر به مِنْ قِلَّة، ولا ليتعزّز بِهِ مِنْ ذِلّة، ولا ليقوى به من ضَعْف سبحانه وبحَمْده.

وأَمْره له بالشكر أيضًا إنعام آخَر عليه، وإحسانٌ منه إليه؛ إذ منفَعَة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة، لا إلى الله، والعبد هو الذي ينتفع بشكره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠]...

ومن تمام نِعْمَته سبحانه، وعظيم برِّهِ وكرَمِهِ وجودِهِ محبَّته له على هذا الشكر، ورضاه منه به، وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصَّة بالعبد، لا تعود منفعته على الله، وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه؛ يُنْعِم عليك، ثم يُوزِعُك شُكْر النِّعْمة، ويَرْضَى عنك، ثم يُعِيدُ إليك مَنْفَعة شُكْرك، ويجعله سببًا لتوالِي نِعَمِه، واتِّصَالِها إليك، والزيادة على ذلك منها»[١].

قال الأبرش[٢]:

الشُّكْرُ يَفْتَحُ أَبْوَابًا مُغَلَّقَةً ... لِلَّهِ فِيهَا عَلَى مَنْ رَامَهُ نِعَمُ
فَبَادِرِ الشُّكْرَ وَاسْتَغْلِقْ وَثَائِقَهُ ... وَاسْتَدْفِعِ اللَّهَ مَا تَجْرِي بِهِ النِّقَمُ

والله ﷻ غنيٌّ حميد، والعباد فقراء إليه؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]؛ فخير النِّعْمة عائد إليه، وإن شَكَر عاد خير شكرها عليه، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فالنفع راجعٌ إليكم في الدنيا والآخرة، ولا يزال العبد يزداد بالإنفاق في سبيل الله غِنًى وبركة، ولا يزال يزداد بالشكر نعمةً وفضلًا، حتى يلقى الله وهو راضٍ عنه، فيجازيه الجزاء الأَوْفَى.

وبعد هذا الإجمال نذكر جملة من ثمرات الشكر، **فمن ذلك:**

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

(٢) المصدر السابق (ص٢٦٥).

أولًا: المحبة لله تعالى:

قال أبو سليمان الواسطي: «ذِكْر النعمة يُورِث الحُبّ لله»[(١)]؛ وذلك أنَّ القلوب مجبولة على حُبِّ مَنْ أحسن إليها، وبُغْضِ من أساء إليها.

وكيف لا يحب المؤمن ربه وخالقه ورازقه وهاديه، وما انفكّ مِنْ تَوَاتُرِ نعمته قط، ولا ينفكّ أبدًا؟!

ثانيًا: القرب من الله تعالى:

قال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلّ نعمة لا تُقَرّب من الله فهي بَلِيَّة»[(٢)].

ولا يمكن أن تُقَرِّب النعمة من الله إلَّا بالشكر عليها.

ثالثًا: تحقيق النجاة:

قال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأرجو ألَّا يَهْلَكَ عَبْد بين نعمة يَحْمَد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه»[(٣)].

وقال أبو قلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تضُرّكم دنيا إذا شكرتموها»[(٤)].

رابعًا: قوة الإيمان والانتفاع بآيات الله:

فـ«الصبر والشكر سببان لانتفاع صاحبهما بالآيات... فعلى حَسَب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما يَنْتَفِعُ بها مَنْ آمَن بالله، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر»[(٥)].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥].

فالصابر الشاكر هو المنتفع بآيات الله.

خامسًا: دوام النِّعْمَة:

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَيِّدوا النعم بالشكر»[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٠)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣٠)، وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (١١٦٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢١٩) واللفظ له.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٩) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٨٦).

(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٩١).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٧)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٤٠).

وقال الفضيل بن عياض: «عليكم بمُلَازَمة الشكر على النِّعم، فقَلَّ نعمة زالت عن القوم، فعادت إليهم»[(١)].

وقال بعض السلف: «النعم وحْشِيَّة، فقيِّدوها بالشكر»[(٢)].

وقال سليم بن عامر: سمعت عبد الله بن قُرْط الأَزْدِي ـ وكان من أصحاب رسول ﷺ ـ على المِنْبَر يقول، في يوم أضحى، ورأى على الناس أنواع الثياب: «يا لها من نعمة ما أَسْبَغها! ويا لها من كرامة ما أظهرها! إنه ما زال عن جادَّة قوم شيء أشد عليهم من نعمة لا يستطيعون رَدَّها، وإنما تثبت النعم بشكر المُنْعَم عليه للمُنْعِم»[(٣)].

وقالت هند بنت المُهَلّب: «إذا رأيتم النِّعَم مُسْتَدِرَّة، فبادروها بتعجيل الشكر قبل حُلُول الزوال»[(٤)].

وقال جعفر بن محمد لجليس له يومًا: «اشكر المُنْعِم عليك، وأَنْعِم على الشاكر لك، فإنه لا نفاد للنِّعَم إذا شُكِرَتْ، ولا بقاء لها إذا كُفِرَتْ. والشكر زيادة في النعم، وأمان من الغِيَر»[(٥)].

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ الله لَيُمَتِّع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يُشْكر قَلَبَهَا عليهم عذابًا»[(٦)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الرزق إنما يَتِمّ ويَكْمُل بالشكر، والشكر مادة زيادته، وسبب حفظه وبقائه، وتَرْك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد؛ فإن الله تعالى تَأَذَّن أنه لا بدَّ أن يزيد الشكور من نِعَمِهِ، ولا بد أن يَسْلُبها مَنْ لَمْ يَشْكُرها»[(٧)].اهـ.

سادسًا: مع الشكر المزيد:

«وقد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مِفْتاحًا يُفْتَح به؛ فجعل مِفْتاح الصلاة الطهور... ومِفْتاح الحجّ الإحرام، ومِفْتاح البرّ الصِّدْق، ومِفْتاح الجنّة التوحيد، ومِفْتاح العِلْم حُسْن السؤال، وحُسْن الإصغاء، ومِفْتاح النصر والظَّفَر الصبر، ومِفْتاح المزيد الشكر»[(٨)].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٢٧). (٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٩٨)، والخرائطي في «فضيلة الشكر» (٩٣) واللفظ له.
(٤) أخرجه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٧٠/ ١٩٢).
(٥) أخرجه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٩٤).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٧). (٧) «التبيان في أقسام القرآن» (ص٣٤٧).
(٨) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «حادي الأرواح» (١/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

«**وقد قيل**: «مَنْ قَصُرت يداه عن المكافآت، فلْيُطِل لسانه بالشكر». والشكر معه المزيد أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فمتى لم تَرَ حالك في مزيد فاستقبل الشكر»[١].

وقال علي رضي الله عنه **لرجل من همدان**: «إن النعمة مُوَصَّلَة بالشكر، والشكر مُعَلَّق بالمزيد، وهما مقرونان في قَرْن، فلن ينقطع المَزِيْد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد»[٢].

وبالجملة، فلا بدَّ في النِّعْمة مِنْ شكرها؛ لحِفْظِها ودوامها، ولا بُدَّ مِنْ شُكْرِها لطلب المزيد.

والمُتَأَمِّل في أحداث التاريخ يستطيع أن يعرف كيف تزول النِّعم بكفرانها، وكيف تتحوّل عن أهلها، ويُبَدِّل الله القوم من بعد رَغَدِهم ضَنكًا، ومِنْ بعد أَمْنهم خوفًا.

وهَذِه سُنَّة كونية شرعية، لا تتبدل، ولا تتغيّر، إلا ما شاء الله؛ مما يُحْدِثه في خَلْقه بحِكْمته وعِلْمه.

قــــال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٧].

وهذه «اعتماد الرُّمَيْكِيَّة، شاعرة أندلسية، كانت جارية لِرُمَيْك بن حَجاج، فنُسِبَت إليه، وآلت إلى المُعْتَمِد بن عبَّاد، فتزوَّجها، وكانت معه في أَرْغَد عَيْش وأحسن حال.

اطَّلعت يومًا، فرأت بعض نساء البادية بإِشْبِيلِيَة يَبِعْنَ اللَّبَنَ في القِرَب، وهنّ ماشيات في الطين، فاشتهت أن تفعل فِعْلَهنّ، فأمر المُعْتَمِد بالعَنْبَر والمِسْك والكافور وماء الورد، وصَيَّرها جميعًا طِيْنًا في قَصْره، وجَعَل لها قِرَبًا وحبالًا من إبْرِيْسَم[٣]، فخاضت هي وبناتها وجواريها في ذلك الطين.

وأغار يوسف بن تَاشِفِيْن على إِشْبِيْلِية، فأسر المُعْتَمِد والرُّمَيْكِيَّة، وأرسلهما إلى أَغْمَات من مَرَاكِش مُعْتَقَلَين، بعد أن قتل ولديهما، ثم ما لبث الرُّمَيْكِيَّة أن ماتت في أَغْمَات، ثم بعدها بأيام مات المُعْتَمِد»[٤].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢١٤).
(٣) **الأبريسم**: الحرير الخام. «تاج العروس» (٣١/ ١٨١)، مادة: (أَبْرِيسَم).
(٤) «الأعلام» للزركلي(١/ ٣٣٤) بتصرُّف.

وهكذا فإنه لا يَجِد مَنْ كَفَر بنعمة رَبِّه إلا الوَهَن في العبادة، والضِّيْق في المَعِيشة، والتَّنْغِيص في اللَّذَّة؛ فلا يكاد يُصَادِف لذَّة حلال إلّا جاءه مَنْ يُنَغِّصها عليه؛ وقد جعل الله لنا في أخبار الماضين عِبرة لمُعْتَبِر.

ثم إن الشكر من كَمَال الإيمان، وحُسْنِ الإسلام، وهو نِصْف الإيمان، ونِصْفه الآخر الصبر.

وفيه دليل على سُمُوِّ النَّفْس، ووفُور العقل.

والشَّكُور قرير العين بحبِّ الخير للآخرين، لا يحسد الناس، ولا يحمل في قلبه تجاه أحد غِلًّا ولا حِقدًا.

وهو لِمَا يرى من فضيلة الشكر، ولما في قلبه من السَّلامة وحبّ الخير للآخرين يتمنّى أن لو كان الناس كلّهم شاكرين.

والشكور مُغْتَبط بِمُلَاحظة أَثَر النعمة، وحُسْن الظنّ بربِّه؛ يرجو أن يكون من أولئك الأقَلِّين الشاكرين.

وهو يعلم أن نِعَم المُنْعِم مُتَكاثِرة مُتَوافِدة تَتْرى، لا يمكن عَدّها وإحصاؤها، ولا سبيل إلى القيام بحقِّهَا إلا بالشكر عليها، واستعمالها في طاعة الله، وصَوْنها وإكرامها عن الوُلُوج بها في معصية المُمْتَنّ الجواد الكريم.



أسباب الغفلة عن النِّعَم

قال في الإحياء: «اعلم أنه لم يَقْصُر بالخَلْق عن شُكْر النِّعْمة إلا الجهل والغفلة؛ فإنهم مُنِعُوا بالجهل والغفلة عن معرفة النِّعَم، ولا يُتَصَوَّر شُكْر النِّعْمَة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نِعْمَة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر: أن يَسْتَعْمِل النِّعْمة في إتمام الحكمة التي أُرِيدَت بها؛ وهي طاعة الله ﷻ...

أما الغفلة عن النِّعَم فلها أسباب، وأحد أسبابها: أن الناس بِجَهْلِهم لا يَعُدُّون ما يَعُمّ الخَلْق ويَسْلَم لهم في جميع أحوالهم نِعْمَة، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النِّعَم؛ لأنها عامة للخَلْق، مَبْذُولَة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنَفْسه منهم اختصاصًا به، فلا يَعُدّه نِعْمَة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أُخِذ بمُخْتَنَقِهم لَحْظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حُبِسُوا في بيتِ حَمَّام فيه هواء حار، أو في بئر فيه هواء ثَقُل برطوبة الماء؛ ماتوا غَمًّا.

فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قَدَّر ذلك نِعْمة، وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل؛ إذ صار شكرهم موقوفًا على أن تُسْلَب عنهم النِّعْمَة، ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنِّعْمة في جميع الأحوال أولى بأن تُشْكَر في بعضها، فلا ترى البصير يَشْكر صِحَّة بَصَرِه إلا أن تعمى عيناه، فعند ذلك لو أُعِيد عليه بصره أَحَسّ به، وشَكَره، وَعَدَّه نِعْمَة...

إذًا؛ كل من اعتبر حال نَفْسه، وفَتَّش عما خُصَّ به؛ وَجَد لله تعالى نِعَمًا كثيرة، لا سيما من خُصَّ بالسنة والإيمان والعلم والقرآن، ثم الفراغ والصحة والأمن، وغير ذلك»[(١)]. اهـ.

ودخل ابن السَّمَّاك يومًا على الرشيد، فاستسقى الرشيد، فأُتي بقُلَّة فيها ماء مُبَرَّد، فقال لابن السَّمَّاك: عِظْنِي. فقال: يا أمير المؤمنين! بِكَم كنت مُشْتَرِيًا هذه الشَّرْبَة لو مُنِعتها؟ فقال: بِنِصْف مُلْكي. فقال: اشرب هنيئًا. فلما شرب قال: أرأيت لو مُنِعت خروجها من بدنك، بكم كنت تشتري ذلك؟ قال: بنِصْف مُلْكي الآخر. فقال: إن

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٢٣ ـ ١٢٥) بتصرُّف يسير.

مُلكًا قيمة نِصْفه شربة ماء، وقيمة نِصْفه الآخر بولة لخَلِيق ألا يُتَنَافس فيه. فبكى هارون(١).

وُولِدَ لِبَعْضِ أمراء الكوفة بنت، فساءه ذلك، وامتنع عن الطعام، فدخل عليه بهلول، فقال: ما هذا الحزن؟ أجزعت بخَلْق سَوِي وَهَبه ربّ العالمين؟! أيسرّك أن مكانها أبناء مثلي؟ فُسُرِّي عنه(٢).

والعاقل يُدْرِك حقيقة النعمة في العطيَّة والبَلِيَّة والوقاية، ومَنِ الْتَمَسَها في العطيَّة فَحَسْب فاته تَعْدادٌ كَثِير.

وعزَّى موسى المهديُّ إبراهيمَ بن سَلْم على ابنٍ له مات، فجزع عليه جَزَعًا شديدًا، فقال له: «أَيَسُرُّك وهو بَلِيَّة وفتنة، ويُحْزِنك وهو صلوات ورحمة؟!»(٣).

وقال عليُّ بن الحسين رَحِمَهُ اللهُ: «إنا أهل بيت نُطِيع الله فيما نُحِبّ، ونحمده على ما نَكْرَه»(٤).

وقال سعيد بن جبير: «ما أُعْطِيَ أحد ما أعْطِيَت هذه الأمة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]»(٥).

وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿...وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦]، فجعلها بشارة لهم، وهذا مما يَفْتَح أبواب الشكر.

يَا أَيُّهَا الظَّالِمُ فِي فِعْلِهِ ... وَالظُّلْمُ مَرْدُودٌ عَلَى مَنْ ظَلَمْ
إِلَى مَتَى أَنْتَ وَحَتَّى مَتَى ... تَشْكُو الْمُصِيبَاتِ وَتَنْسَى النِّعَمْ(٦)

وقال في الإحياء: «ما من عبد إلا ولو أَمْعَن النَّظَر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعمًا كثيرة تَخُصّه، لا يشاركه فيها الناس كافة، بل يشاركه عدد يسير من الناس، وربما لا يشاركه فيها أحد، وذلك يَعْتَرِف به كل عبد في **ثلاثة أمور**: في العقل، والخلق، والعلم.

أما العقل: فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عَقْلِه، يعتقد أنه أَعْقَل الناس، وقلَّ مَن يسأل الله العقل... فواجب عليه أن يشكره الله.

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ذكره ابن الجوزي في «الأذكياء» (ص٢٦٣).
(٣) «العقد الفريد» (٣/ ٣٠٧)، ونحوه في «عيون الأخبار» (٣/ ٥٤).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٢٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٦٥).
(٦) «كتاب الشكر» (٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣١٠).

وأما الخلق: فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبًا يكرهها، وأخلاقًا يَذُمّها، وإنما يَذُمّها من حيث يرى نَفْسه بريئًا عنها، فإذا لم يشتغل بِذَمّ الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى؛ إذ حَسَّن خُلُقه، وابتلى غيره بالخُلُق السَّيِّئ.

وأما العلم: فما من أحد إلا ويعرف بَوَاطِن أمور نَفْسه، وخفايا أفكاره، وما هو مُنْفَرِد به، ولو كُشِف الغطاء حتى اطَّلَع عليه أحد من الخَلْق لافْتَضَح، فكيف لو اطَّلَع الناس كافة. فَلِمَ لا يشكر سَتْر الله الجميل الذي أرسله على وَجْه مَسَاوِيه؟! فأَظْهَر الجميل، وسَتَر القبيح، وأخفى ذلك عن أعين الناس، وخَصَّص عِلْمه به حتى لا يطَّلِع عليه أحد»[(١)]. اهـ.

ولو تأمل الغَنِيّ حال الفقير، والمُعَافَى حال المُبْتَلَى، والقويّ حال الضعيف، والسليم حال السَّقِيم، والآمن حال الخائف، وتأمّل المنقُوص حال مَنْ هو أنقص منه؛ لأدرك كلّ مُتَأَمِّل حقيقة نعمة الله، ومَوْفُور فضله عليه.

وإلى هذا المعنى يشير قوله ﷺ: «**إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَل مِنْهُ**»[(٢)].

ولو مَرَّ الواحد مِنَّا بأهل القبور، وتأمَّل حالهم، وما هم فيه، وكيف أنَّهم بين مُعَذَّب ومرحوم، وكيف أن الواحد منهم يَوَدّ أن لو شُقَّ عنه قبره ليرجع إلى الدنيا، فيسجد لله سجدة، أو يسبِّح تسبيحة، تُزَاد له في عمله.

ثم تأمّل حاله وهو مفسوحٌ له، مُوَسّعٌ عليه، له بقيَّة من عمره يمكن أن يغتنمها؛ لَعَلِمَ عظيم فضل الله عليه، وجليل نِعَمه الوافدة إليه.

قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَثَّلْتُ نفسي في النار، أعالج أغلالها وسعيرها، وآكُل من زقّومِهَا، وأشْرَبُ من زمهريرها؛ فقلت: يا نَفْس! أيّ شيءٍ تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا أعمل عملًا أنجُو به من هذا العذاب.

ومثَّلت نفسي في الجنة مع حُورها، وألْبَس من سُنْدسها وإِسْتَبْرقها وحريرها، فقلتُ: يا نفس! أيّ شيء تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا فأعمل عَمَلًا ازداد من هذا الثواب.

فقلت: أنت في الدنيا وفي الأُمْنِية»[(٣)].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٢٤).

(٢) تقدم تخريجه، والتعليق عليه.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١١).

ومَنْ تَرَبَّى في العافية لا يعلم ما يُقَاسِيه المبْتَلَى، ولا يعرف مقدار النعمة إلّا أن يتَّعِظَ به.

وقال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «لو عَرَفَ أهل طاعة الله أنهم هم المُنْعَم عليهم في الحقيقة، وأن لله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم، وإن توسَّدُوا التراب، ومضَغُوا الحصى؛ فهم أهل النعمة المطلقة. وأن من خلَّى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه، وهان عليه، وأنَّ ذلك ليس من كرامته على رَبِّه، وإن وَسَّعَ الله عليه في الدنيا، ومدّ له من أسبابها؛ فإنَّهُم أهل الابتلاء على الحقيقة.

فإذا طالبَت العبد نَفْسُه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام، وأرَتْهُ أنه في بلية وضائقة، تداركه الله برحمته، وابتلاه ببعض الذنوب، فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة، وأنه لا نسبة لِمَا كان فيه من النِّعَم إلى ما طلبته نَفْسه من الحظوظ، فحينئذٍ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلى حاله، وأن يُمَتِّعه الله بعافيته»[1]. اهـ.



(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٨١).

من مظاهر الشكر وصوره

أولًا: الحمد:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الشُّكْرِ: الحَمْدُ للهِ**»[(١)].

وعَنْ أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ سُئِلَ: أيّ الكلام أفضل؟ قال: «**مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهَ وَبِحَمْدِهِ**»[(٢)].

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «**أَحَبّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ لَا يَضُرّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**»[(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في مَسِير له، فنَزَل، ونَزَل رجل إلى جانبه، فالتفت النبيّ ﷺ فقال: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ الْقُرْآنِ؟**»، قال: فتَلَا عَلَيْهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[(٤)].

وعن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ، فَإِنَّ مَنْ أَثْنَى فَقَدْ شَكَرَ، وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَهُ كَانَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[(٥)].

وعن بكر بن عبد الله المزني قال: لقيت أخًا لي من إخواني الضعفاء، فقلت: يا أخي! أوْصني، فقال: ما أدري ما أقول، غير أنه ينبغي لهذا العبد ألَّا يفتر عن الحَمْد والاستغفار، وابن آدم بين نعمةٍ وذنب، ولا تصلح النعمة إلّا بالحَمْد والشكر، ولا

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وصحَّحه ابن حبان (٨٤٦)، والحاكم (١/ ٤٩٨، ٥٠٣)، وحسَّنه الترمذي، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (٥/ ٤٩)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/ ٥٨ ـ ٥٩)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٣١).

(٣) رواه مسلم (٢١٣٧).

(٤) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٢٣)، وابن حبان (٧٧٤)، والحاكم (١/ ٥٦٠)، وصحَّحه ابن حبان، والحاكم، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (١٤٩٩)، واحتج به شيخ الإسلام في رسالة: «جواب أهل العلم والإيمان» (ص٦٤).

(٥) رواه أبو داود (٤٨١٣)، والترمذي (٢٠٣٤)، عن جابر رضي الله عنه، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبان (٣٤١٥)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٦١٧).

الذنب إلا بالتوبة والاستغفار، قال: فأوْسِعْنِي عِلْمًا ما شئت»[(١)].

ثانيًا: سجود الشكر:

وهو سجود مخصوص لحصول نعمة.

ففي حديث كعب بن مالك ﷺ المشهور في توبته حين تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة العُسْرة، قال: «فبينا أنا جَالِس على الحال التي ذَكَر الله، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رَحُبَت؛ سمعتُ صوت صارخ أَوْفى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فَخَرَرْتُ ساجدًا، وعرفت أنْ قَدْ جاء فَرَج»[(٢)].

ولما بُشِّرَ عليّ ﷺ بوجود المُخدَّج ذي الثُّدَيَّة بين قتلى النهروان، خَرَّ ساجدًا[(٣)].

وعن عليّ بن زيد بن جُدْعان قال: «كنَّا عند الحسن البصري وهو متوارٍ في منزل أبي خَلِيفة العبدي، فجاء رجل فقال: يا أبا سعيد! توفي الحَجَّاج؛ فَخَرَّ ساجِدًا»[(٤)].

ثالثًا: التحدث بها:

عن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ. التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»[(٥)].

وأنشد مُحْرِز بن الفضل[(٦)]:

عَلَامَةُ شُكْرِ المَرْءِ إِعْلَانُ شُكْرِهِ ... وَمَنْ شُكِرَ المَعْرُوفُ مِنْهُ فَمَا كَفَرْ

رابعًا: إعْمَال الجوارح بطاعة الله:

قال رجل لأبي حازم ﷺ: «ما شكر العينين يا أبا حازم؟! قال: إن رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإن رأيتَ بهما شرًّا سَتَرْتَهُ؛ قال: فما شُكْرُ الأذنين؟ قال: إن سمعتَ بهما خيرًا وعَيْته، وإن سمعتَ بهما شرًّا دفعته. قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقًّا لله ﷻ هو فيهما. قال: فما شُكْر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامًا، وأعلاه عِلْمًا. قال: ما شكر الفَرْج؟ قال: كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٦) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٤١٩٦).
(٢) رواه البخاري (٤٤١٨) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٩).
(٣) رواه أحمد (١/ ١٠٧ ـ ١٠٨، ١٤٧)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٨٤٨)، وحسَّنه الألباني في «إرواء الغليل» (٤٧٦).
(٤) رواه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٦٦) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجها الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٨٤).

عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٦، ٧]. قال: فما شكر الرِّجْلَيْن؟ قال: إن رأيت حيًّا غَبطْته استعملت بهما عَمَلَه، وإن رأيت ميتًا مقتَّه كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله ﷻ. فأمّا مَنْ شَكَر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه؛ فمَثَلُهُ كَمَثَل رجل له كساء، فأَخَذ بطَرَفه ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحرّ، والبَرْد، والثلج، والمطر»(١).

وعن عبد الرزاق بن هَمَّام قال: «قدم علينا الثوري صنعاء، فطبخت له قِدْر سِكْبَاج(٢)؛ فأكل، ثم أتيته بزبيب الطائف فأكل، ثم قال: يا عبد الرزاق! اعْلِف الحمار وَكُدّه، ثم قام يصلي حتى الصباح»(٣).

وعن محمد بن منصور الطوسيّ أنه سُئِلَ: «إذا أكلتَ وشبعتَ فما شُكْر تلك النعمة؟ قال: أن تصلّي، حتى لا يبقى في جَوْفِك منه شيء»(٤).

خامسًا: ظهور أَثَر النعمة على العبد:

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدِّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**»(٥).

سادسًا: الرضا والتسليم بقضاء الله:

فعن الرَّبِيع بن أنس عن بعض أصحابه قال: «علامة حبّ الله: كثرة ذِكْره، وعلامة الدّين: الإخلاص لله. وعلامة العِلْم: الخشية لله، وعلامة الشكر: الرِّضَا بقضاء الله، والتسليم لقَدَرِه»(٦).

سابعًا: شكر الناس:

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ**»(٧).

قال الخطابي ﷀ: «هذا الكلام يُتَأَوَّل على **وجهين**:

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) وهو لحم يُطْبَخ بِخَل، وهو مُعَرَّب من سركه باجه. ينظر: «تاج العروس» (٦/ ٤١)، مادة: (سكرج).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٢١٣).
(٥) رواه الترمذي (٢٨١٩)، وحسَّنه، وصحَّحه الحاكم (٤/ ١٣٥)، والذهبي، والألباني في «غاية المرام» (٧٥)، وفي الباب عن أبي الأحوص.
(٦) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٤٤).
(٧) رواه الترمذي (١٩٥٤) واللفظ له، وأبو داود (٤٨١١)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٣٤٠٧)، والألباني في «الصحيحة» (٤١٦)، وقال العقيلي (٣/ ٨١٦): «إسناده صالح».

أحدهما: أنَّ مَنْ كَانَ طَبْعه وعادته كفران نعمة الناس، وتَرْك الشكر لمعروفهم، كان من عادته كفران نعمة الله تعالى، وتَرْك الشكر له سبحانه.

والوجه الآخر: أنَّ الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم؛ لاتّصال أحد الأمرين بالآخر»[(١)]. اهـ.

وعن الأشعث بن قيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ أَشْكَرَ النَّاسِ للهِ عز وجل أَشْكَرُهُمْ لِلنَّاسِ**»[(٢)].

وبالجملة: فالشكر كما قيل[(٣)]:

لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ فَوْقَ الشُّكْرِ مَنْزِلَةً ... أَعْلَى مِنَ الشُّكْرِ عِنْدَ اللَّهِ فِي الثَّمَنِ
إِذًا مَنَحْتُكَهَا مِنِّي مُهَذَّبَةً ... حَذْوًا عَلَى حَذْوِ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ

وقال الآخر[(٤)]:

فَلَوْ كَانَ يَسْتَغْنِي عَنْ الشُّكْرِ مَاجِدٌ ... لِعِزَّةِ مُلْكٍ أَوْ عُلُوِّ مَكَانِ
لَمَا أَمَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِشُكْرِهِ ... فَقَالَ اشْكُرُونِي أَيُّهَا الثَّقَلَانِ

ولعِمْرَان بن مُوسَى الْمُؤَدِّب[(٥)]:

فَإِنَّكَ إِنْ ذَوَّقْتَنِي ثَمَرَ الْغِنَى ... حَمِدْتَ الَّذِي أُجْنِيكَ مِنْ ثَمَرِ الشُّكْرِ
وَإِنْ يَفْنَ مَا أَعْطَيْتَ فِي الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ ... فَإِنَّ الَّذِي أُعْطِيكَ يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ

وأَنْشَدَ مُحْرِزُ بن الْفَضْلِ الرَّازِيُّ[(٦)]:

لَأَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ ... إِنَّ اهْتِمَامَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ
وَلَا أَلُومُكَ إِذْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ ... فَالشَّيْءُ بِالْقَدَرِ الْمَحْتُومِ مَصْرُوفُ



(١) «معالم السنن» (٤/ ١١٣).
(٢) رواه أحمد (٥/ ٢١٢)، قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٨٠): «رجاله ثقات»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٠٨).
(٣) أخرجها ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٩٢) عن الحسين بن عبد الرحمٰن، ومن طريقه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٨٦).
(٤) «فضيلة الشكر» (٩١)، و«بهجة المجالس» (١/ ٣١٤)، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٣٤٤).
(٥) رواها عنه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٩٥).
(٦) المصدر السابق (٩٦).

من أخبار أهل الشكر

عن المغيرة بن شعبة ﵁ قال: إن كان النبي ﷺ ليقوم ليصلّي حتى تَرِمَ قدمَاه أو ساقاه، فيُقَال له، فيقول: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!**»(١).

عن أبي بَكْرَة، عن النبي ﷺ أنه كان إذا جاءه أمر سرور أو بُشِّر به خرّ ساجدًا شاكرًا للهِ(٢).

وذكر الذهبي في تاريخه في ترجمة عبد الله بن عامر أنه افْتَتَح خُرَاسان، وأَحْرَم من نِيْسَابُور شكرًا، وكان سَخِيًّا كريمًا(٣).

وعن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، قال: ما قَلَّب عمر بن عبد العزيز بصره على نعمة أنعم الله بها عليه إلّا قال: «اللَّهُمَّ إني أعوذ بك أن أُبَدِّلَ نِعَمَك كُفْرًا، أو أَكْفُرها بعْدَ مَعْرِفَتِهَا، أو أنْسَاهَا فلا أُثْنِي بها»(٤).

ومرض الصاحب بن عَبَّاد بالإسْهَال، فكان إذا قام عن الطَّسْت تَرَك إلى جنبه عشرة دنانير للغلام، ولما عوفي تصدق بخمسين ألف دينار(٥).

وكان أبو حمزة السُّكَّري إذا مرض الرجل من جيرانه تصدّق بمثل نَفَقَة المريض، لِمَا صُرِفَ عنه من العِلَّة(٦).

وأُمطِر أهل الكوفة مَطَرًا، فَهُدِمَت منه البيوت، فأعتق ابن أبي داود جارية له شكرًا لله ﷻ إذ عافاه من ذلك(٧).

وقال الذهبي ﵀: «قلت: بلغنا أن المُزَني كان إذا فَرَغ من تبييض مسألة، وأودعها

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه أبو داود (٢٧٧٤) واللفظ له، وابن ماجه (١٣٩٤)، وصحَّحه الألباني (٢/ ٥٣٤).
(٣) «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣٣١).
* **تنبيه**: لا يُشْرَع الإحرام قبل المواقيت التي حَدَّدَها الشارع.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٧) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٢٥).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٥١٣).
(٦) «تاريخ ابن معين» (٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) برواية الدوري.
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨٠).

مُخْتَصَره صلى لله ركعتين»[١] .اهـ.

وقال أبو بكر الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت السَّريّ يقول: «حمدت الله مرة فأنا أَسْتَغْفِرُ الله من ذلك الحَمْد منذ ثلاثين سنة. قيل: وكيف ذاك؟ قال: كان لي دُكَّان، وكان فيه مَتاع، فوقع الحريق في سوقنا، فقيل لي، فخرجت أَتَعَرَّف خبر دُكَّاني، فلقيت رجلًا فقال: أبشر؛ فإن دُكَانك قد سَلِم. فقلت: الحمد لله، ثم إني فكَّرْت فرأيتها خطيئةً»[٢].

وإنما رآها خطيئة؛ لأنه لم يشاهد مَوْقف البلاء الذي أصاب إخوانه من أهل السوق، كما شاهد مَوْقف العافية من نَفْسه الذي اسْتَوْجَب عنده الشكر لأول وهلة.

وعن مُضَارِب بن حَزْن قال: «بينا أنا أسير من الليل إذا رجل يُكَبِّر، فألحقته بعيري، قلتُ: من هذا المُكَبِّر؟ قال: أبو هريرة. قلتُ: ما هذا التكبير؟ قال: شكرًا. قلت: علامَه؟ فقال: على أني كنتُ أجيرًا لبُسْرَة بنت غَزْوَان بِعُقْبَة رِجْلي، وطعام بَطْني، فكان القوم إذا ركبوا سُقْتُ لهم، وإذا نزلوا خَدَمْتُهم، فَزَوَّجَنِيْها الله، فهي امرأتي اليوم، فأنا إذا رَكِب القوم ركبتُ، وإذا نزلوا خدمتُ»[٣].

وقال شريح القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأُصَاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات، أَحْمَد إذ لم يكن أعظم منها، وأَحْمَد إذ رزقني الصبر عليها، وأَحْمَد إذ وفَّقَنِي للاسْتِرْجَاع لِمَا أرجو من الثواب، وأَحْمَد إذْ لم يجعلها في ديني»[٤].

وقال جعفر بن محمد بن علي: «فَقَد أبي بَغْلَتَهُ، فقال: إنْ رَدَّهَا الله عليَّ لأَحْمدنَّه بمَحَامِد يرضاها، فما لبث أن أُتِيَ بها؛ بِسَرْجِها ولِجَامِها فركبها، فلمَّا استوى عليها، وضمَّ إليه ثيابه؛ رفع رأسه إلى السماء، فقال: الحمد لله، لم يَزِدْ عليها، فقيل له في ذلك، فقال: وهل تركتُ شيئًا، أو أبقيت شيئًا؟ جعلتُ الحمد كله لله عَزَّ وَجَلَّ»[٥].

وقال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأرجو ألَّا يَهْلِك عبدٌ بين نِعْمَتَين: نعمة يَحْمَد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه»[٦].

هذا آخر ما أردت إيراده في باب الشكر، والله أعلم

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤). (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٥)، وابن حبان (٧١٥٠) واللفظ له، وغيرهما، وصحَّحه ابن حبان، وابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٢٥٢)، والبوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٢٦١).

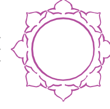
(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٠٦)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٨٢) واللفظ له.

(٦) تقدم تخريجه.

الرابع عشر

الغَيْرة



توطئة

إن الغَيْرة غريزة وخَصْلَة فَريدة، أودعها الله تعالى في الإنسان من أَجْل صِيَانة ضرورات كبرى تقوم عليها حياة الناس؛ فإنه إذا اختلَّت هذه الغريزة حصل من الفساد ما لا يُقادَر قَدْره.

فليس حديثنا عن قَضِيَّة تَكْمِيلِيّة ثانوية، أو قَضِيّة تَحْسِيْنِيَّة، إنما هو عن أصل كبير لا بد من وجوده، وإلا تَحَطَّمت الأخلاق والقِيَم، وذهبت الأعراض، واخْتَلَط الحَابِل بالنَّابِل، وعمَّ الفساد.

ونحن بحاجة مُلِحَّة للحديث عن هذه الغَرِيزة في مثل هذه الأيام؛ حيث إن العَوَادي قد عَدَت على هذه الخَصْلَة الفاضلة، فَتَحَطَّمَت واخْتَلَّت في كثير من النفوس، ووقع لها من الضَّعْف والخَلَل ما لا يُقَادَر قَدْرُه، فَتَرَتَّب على ذلك آثار فاسدة لا تخفى على كل متأمِّل.

ومن هنا جاء الحديث عن هذا الموضوع، فأسأل الله أن يكون ذلك باعثًا للغَيْرة في نفوسنا جميعًا، إنه سميع مجيب.



معنى الغَيْرة وحقيقتها

الغَيْرة لغة: «مُشْتَقَّة من تَغَيُّر القلب، وهَيَجَان الغَضَب بسبب المُشَارِكة فيما به الاختصاص»(١). يُقَالُ: رجل غَيُور، وغَيْرَان، ومِغْيَار، وامرأة غَيْراء، وغَيُور.

والعرب تُطْلِق على الرجل الغَيُور: المُشَفْشِف والمُشَفْشَف، وهو الذي شَفَّت الغَيْرة فؤادَه، فأضمَرَتْه وهَزلَتْه، والشَّفْشَف: هو الذي كأن به رِعْدةً واختلاطًا من شدة الغَيْرة.

ويُقَابِل الرجل الغَيُور: الدَّيُوث، ويقال له: المُمَاذِل، والمُمَاني، والمُمَاذي، والخُنْذُع والقُنْذُع(٢).

الغَيْرة في الاصطلاح:

الغَيْرة اصطلاحًا: كراهة الرجل اشْتِراك غَيْره في حقِّه الذي يختص به(٣).

فهي حَمِيّة وأَنَفَة جعلها الله تعالى في النفوس الأبيَّة، تَغَار على ما يَجِب أن يُغَار منه، وهي فَوَرَان الغضب حمايةً على إكرام الحُرَم.

والغَيْرة: لا تختص بالرجال، بل تكون للكرام من الرجال والنساء، الصغار والكبار.



(١) ما بين الأقواس من كلام الحافظ في «الفتح» (٨/ ٢٣١).

(٢) «الصحاح» (٢/ ٧٧٦)، مادة: (غير)، و«تاج العروس» (٢٠/ ٥٣١)، مادة: (خنذع) (٢٣/ ٥٢٣)، مادة: (شفف) (٣٩/ ٥٧٤)، مادة: (منو).

(٣) انظر: «التعريفات» للجرجاني (ص١٧٦)، و«الكليات» للكفوي (ص٦٧١).

الفرق بين الغَيْرة من الشيء والغَيْرة عليه وله

«الغَيْرة من الشيء: هي أن تَكْره مُزَاحَمَته ومُشَارَكته لك في محبوبك؛ كالمرأة حينما تَغَار من ضرائرها، وكالأَقْران يَغَار أحدُهم من الآخر.

وأما الغَيْرة على الشيء: فهي شِدّة حِرْصك على المحبوب أن يَفُوز به غيرك»(١).

و«أما الغَيْرة للشيء: فهي الحَمِيَّة والغضب له إذا اسْتُهِين بحقِّه، وانْتُقِصَت حُرمتُه، فيغضب له، وتأخذُه الغَيْرة له بالمبادرة إلى التَّغْيير، وهذه هي غَيْرة المُحِبِّين حقًّا، وهي من غَيْرة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم لله تعالى، ممن أَشْرك بالله، واسْتَحَلَّ مَحَارِمَه؛ فالمؤمن يَغَار على حدود الله وحرماته إذا انتُهِكت، والدين كلُّه من هذه الغَيْرة، بل الغَيْرة هي الدين، وما جاهد مؤمنٌ نفسَه وعدوَّه، ولا أَمَرَ أحدٌ بمعروف ولا نهى عن مُنكر إلا بهذه الغَيْرة، ومتى خَلَت من القلب خلا من الدين»(٢)، واضمحلَّ ذلك فيه.



---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٤٣) بتصرُّف.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «روضة المحبين» (ص٤١١) باختصار وتصرف، وانظر: «الفوائد» (ص٤٨ ـ ٤٩)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٣).

منزلة الغَيْرة

الغَيْرة منزلة عظيمة، جَلِيلَة القَدْر، يَعْرِف منزلتها وفضلها ومكانتها كلُّ العقلاء، ويَكْفيها شَرَفًا وفَضْلًا أنها صفة من صفات الله تعالى، يقول ﷺ: «**إِنَّ الله يَغَارُ، وَغَيْرَةُ الله أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللهُ**»[1]. فهذا أصلٌ في باب الغَيْرة.

«ومن غيرتِه تبارك وتعالى لعبده وعليه أن يحْمِيَه مما يَضرُّه في آخرته؛ فقد جاء من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ؛ تَخَافُونَ عَلَيْهِ**»[2]»[3].

وبهذا نعلم أن الغَيْرة صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وأن الله تعالى يُحِبُّها، ويُدْني صاحبها.



(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٧)، وصحَّحه الحاكم (٤/٢٠٨)، والذهبي، والألباني في «صحيح الجامع» (١٨١٤).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «روضة المحبين» (ص٢٩٥) بتصرُّف واختصار.

الغَيْرة المذمومة والممدوحة

يقول النبي ﷺ: «مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللهُ، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللهُ، فَأَمَّا الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ»(١).

فالغَيْرة إذا تَجاوَزت حدَّها، وتَعَدَّت قَدْرها؛ فإنها تتحول إلى صفة ذم، كما لو صار ذلك مُلَازِمًا للإنسان، وتَرَتَّب عليه شيء من سُوء الظن بأهل العَفَاف والطُّهْر والنَّزَاهة؛ كمن يغار ويَظُنُّ بأهله وقراباته الظنون الفاسدة من غير مُوجِب.

بخلاف الغَيْرة المَمْدُوحة فإنها تكون في مَحَلِّها، مُقْتَرِنة بالعُذْر؛ إذا وَجَد عذرًا لمَن يَغَار عليه عَذَرَه من غير تَفْرِيط، ولا تَمْييع، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللهِ فَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ»(٢).

وفي رواية: «وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ»(٣).

«فَجَمَع النبي ﷺ في هذا الحديث بين الغَيْرة التي أصلها كراهة القَبَائِح وبُغْضُها، وبين مَحَبَّة العُذْر الذي يُوجِب كَمَال العَدْل والرحمة والإحسان من غير ظلمٍ لأحدٍ، ولا تَحْمِيل للأمور ما لا تَحْتَمِل، وهذا غاية المَجْد والإحسان، ونِهَايَة الكمال؛ وذلك أن بعض الناس تَحْمِلهم شِدّة الغَيْرة على سُرْعة الإِيْقَاع والعقوبة، والأَخْذ من غير إِعْذار»(٤).

وبالمقابل نجد آخرين يبحثون عن المَعَاذِير المُسْتَكْرهة والمُسْتَبْعدة التي لا تخطر

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٢٥٥٨) من حديث جابر بن عَتِيك الأنصاري رضي الله عنه، وأخرجه ابن ماجه (١٩٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه ابن حبان (٢٩٥)، وَجَوَّد إسناده ابن الملقن في «التوضيح» (٢٥/١٠٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٢١) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤١٦) واللفظ له، من حديث المغيرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص١٦٤ ـ ١٦٥) بتصرُّف.

على بَال؛ وما ذلك إلا لأجل تَمْرير المنكر، وتَقْرِير الخَبَث في أهلهم؛ فيكون بذلك دَيُّوثًا[(١)].

والاعتدال في ذلك هو المطلوب، وقد جاء عن سليمان بن داود المنْقَري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال لابنه: «لا تُكثر الغَيْرة على أهلك ولم ترَ منها سُوءًا، فتُرْمَى بالشَّر من أَجْلِك وإن كانت منه بريئةً»[(٢)].

وقد أحسن من قال[(٣)]:

مَا أَحْسَنَ الغَيْرةَ فِيْ حِيْنِهَا ... وَأَقْبَحَ الغَيْرَةَ فِيْ غَيْرِ حِيْن
مَنْ لَمْ يَزلْ مُتَّهِمًا عِرْسه ... مُتَّبِعًا فِيْهَا لِقَول الظُّنُون
يُوْشِك أَنْ يُغْرِيَها بِالَّذِي ... يَخَاف أَنْ يُبْرِزَها لِلْعُيُوْن
حسْبُك مِنْ تَحْصِيْنِهَا وَضْعُها ... مِنْك إِلَى عِرْضٍ صَحِيْح وَدِيْن
لا يطلعن مِنْك عَلَى رِيْبَةٍ ... فَيَتْبَع المَقْرُوْنُ حَبْلَ القَرِيْن



(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٧١) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٥).
(٣) وهو: أبو يعقوب الخزيمي. انظر: «عيون الأخبار» (٤/ ٧٩).

أنواع الغَيْرة[١]

النوع الأول: **غَيْرة الله تعالى، وهي أنواع، ومنها:**

١ ـ **غَيْرة الله ﷻ على عبده**: وذلك بألَّا يَجْعله للخَلْق عبدًا، بل يتَّخِذه لنَفْسه عبْدًا، فالله تعالى يَغَار من عبده أن يَتَوَجَّه بقلبه أو بعمله إلى ربٍّ ومعبودٍ سواه، كما أنه «يَغَار على قلب العبد أن يكون مُعَطَّلًا من حبِّه، وخوفه ورجائه، أو أن يكون فيه غَيْره. . .

كما أنه سبحانه يَغَار على لسان عبده أن يَتَعَطَّل من ذِكْره، ويَشْتَغِل بِذِكْر غَيْرِه.

ويَغَار على جوارحه أن تتعطَّل من طاعته، وتَشْتَغِل بمعصيته»[٢].

ومن سُنَّته تعالى مع أوليائه إذا ساكنت قلوبُهم أحدًا غيره، أو رَكَنُوا إلى شيء سواه، أو صالحوا بقلوبهم شيئًا، فشوَّش عليها صفوَ العبودية؛ فمن سُنَّته أنه يَغار على هذه القلوب؛ فيُسَلِّط عليها أنواع الآلام والمَكَارِه والمصائب حتى يُعيدها خالصة لنَفْسه جلّ في علاه[٣].

فَلِـوَاحِـدٍ كُـنْ وَاحِـدًا فِـيْ وَاحِـدِ ... أَعْـنِـيْ سَـبِـيْـلَ الـحَـقِّ والإِيْـمَـانِ[٤]

ومن غَيْرته ـ تبارك وتعالى ـ على عبده: أن العبْد لربَّما حَصَّل مراتب عاليةً من مَرَاتب العبودية، فَيَرْكُن إلى ذلك، ويَأْنَس ويُسَرّ به، ولَرُبَّما حَصَل له نوع ارتفاعٍ بذلك، فيُلْجِئه الله تعالى بألوان الآلام والمصائب، مما يضطرُّه إلى الافتقار إليه.

كما أنه تبارك وتعالى يَغَار على عبده أن يُضيِّع الأنفاس والأوقات فيما سوى الله تبارك وتعالى، مما لا طائل تحته؛ من القيل والقال، واللهو والعَبَث.

٢ ـ **غَيْرة الله تعالى على توحيده وكلامه**، فمن ذلك أنه جعل على قلوب الذين أعرضوا عنه وكذَّبوا رسله أكِنَّةً أن يفقهوا كلامه، وفي آذانهم وقرًا.

ومنه أيضًا: تَثْبِيْطُه للمَخْذُوْلين من المنافقين، وأعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤ ـ ٤٥)، و«روضة المحبين» (ص٤٢٣ ـ ٤٢٤).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «روضة المحبين» (ص٣٢٤) بتصرُّف.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) «نونية ابن القيم» (ص٢١٩ ط. مكتبة ابن تيمية، وقد سقطت من ط. عالم الفوائد).

عن شَرَف اللحاق برسول الله ﷺ في مَغَازِيه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦].

ومنه أيضًا: أنه لم يجعل للخَلْق طريقًا يُوصِلُهم إلى الله تبارك وتعالى سوى توحيده، فليس ثَمَّةَ واسطة ووسيلة يَتَعلَّق بها العباد سوى التَّوَجّه إلى الله وحده لا شريك له بالعمل الصالح(١).

٣ ـ غَيْرَة الله تعالى على حدوده: فالله يَغار إذا انتُهِكت حُرُماتُه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ الله، فَلِذَلِك حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله يَغَارُ، وَغَيْرَةُ الله أَنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ الله**»(٣).

وفي رواية: «**الْمُؤْمِنُ يَغَارُ، وَاللهُ أَشَدُّ غَيْرًا**»(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال في خُطبته في الكسوف: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ الله أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»(٥)، فليخش العبدُ ربَّه، وليُراقِب حدوده؛ فإن الله تعالى يَغَار من عبده إذا رآه يَقْتَرف مَحَارمه، ويُوَاقِع معاصيه.

ووجه ذلك: أن المسلم عند وقوعه في المعصية يكون قد أطاع هواه، وانقاد للشيطان، والطاعةُ خاصة بالله تعالى، ويأبى أن يشاركه فيها غيره، فكأنه بمعصيته جَعَل لغير الله نصيبًا في طاعته وتَوَجُّهه وعمله وإرادته.

النوع الثاني: الغَيْرة من العبد، وهي أنواع، ومنها:

١ ـ غَيْرتُه من نَفْسه على نَفْسه: وذلك بـ«ألَّا يَجْعل شيئًا من أعماله وأقواله، وأحواله وأوقاته، وأنفاسه لغير ربِّه»(٦) تبارك وتعالى، فَيَغَار إذا رأى أعماله وأقواله تَنْفَرِط وتضمحل بين يديه، وتُصرف في غير مَرْضاة الله تعالى، وفيما لا يُقرِّبُه إليه.

وغَيْرةُ العبد من نَفْسه أَهَمُّ من غَيْرتِه من غَيْره؛ لأن العبد إذا غار من نَفْسه صحَّت له غَيْرتُه لله تعالى من غَيْره، والذي لا يَغَار من نَفْسه لا يغار من غَيْره من باب أولى؛ لأن أَهَمَّ مطلوب هو نجاة العبد عند الله عز وجل، وأن تَنْفَكَّ رَقَبَته وتُعْتَق من عذاب الله جل جلاله(٧).

---

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص٤٢٥).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٧٦١).
(٥) أخرجه البخاري (١٠٤٤) واللفظ له، ومسلم (٩٠١).
(٦) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٤٥).
(٧) انظر: المصدر السابق (٣/ ٤٦).

ومن ذلك أيضًا: «غَيْرته من نَفْسه على قلبه، ومن تَفْرِقَته على جمعِيَّته، ومن إعراضه على إقباله، ومن صِفَاته المَذْمُومة على صفاته الممدوحة، وهذه الغَيْرة خاصيّة النفس الشريفة الزكية العُلوية، وما للنفس الدَّنِيَّة المَهِينة فيها نَصِيْب، وعلى قَدْر شَرَف النَّفْس وعُلُو هِمَّتها تكون هذه الغَيْرة»[١].

ومن ذلك أيضًا: غَيْرته على أوقاته المُتَصَرِّمة، فالوقت أَعَزّ شيء على العابد، ويَغَار عليه من أن ينقضي في غير طائل؛ فإنه إذا فات وانْصَرَم لا يمكن اسْتِدراكه، وهذه الأنفاس تخرج ولا تَعُود، ومن كانت أنفاسه في غير طاعة فهو في غَبْن وخسارة، ومن استوى يوماه فهو مَغْبُون، ومن لم يكن إلى زيادة فهو حَتْمًا إلى نقصان[٢].

٢ ـ **غَيْرَة العبد من غيره**: وذلك بأن يَغَار على حدود الله تعالى، ودينه وشرعه، فيَغَار إذا رأى حُرُمات الله تُنْتَهك، أو يُتَطَاوَل عليها، أو يُشَكَّك في مَعَالم الدِّين.

وكلما كان دِين العبد أعظم وأَمْتَن كانت غَيْرتُه أكبر؛ ولذلك كان النبي ﷺ أعظم غَيْرةً من غيره، كما قال ﷺ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ فَوَاللهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»[٣]، وعلى قدر إيمان العبد ومحبته لربه تكون غَيْرته على دِين الله، فإذا خلا قلبُه من الإيمان والمحبة تَأَثَّرت تلك الغَيْرة واضْمَحَلَّت، ولربّما انعدمت بالكلية.

وكان أبو الفضل محمد بن عبد الكريم الرافعي القزويني (ت٥٨٠هـ) شديد الإنكار على منكرات الشرع، يدفعها بيده ولسانه بحسب وسْعِه وإمكانه، وإذا لم يستطع الدفع تأثَّر به اغتياظًا، وربما ارتعد وأخذَتْه الحُمَّى[٤].

ومن أعجب ما اطَّلَعْتُ عليه من غَيْرة بعض الكفار على دينهم: أن أعلى مَحْكَمَة في إيطاليا ـ وهم نصارى، يعبدون المسيح، ويُشركون بالله تعالى ـ أصدرت قرارًا: ألَّا يُدَرِّس مادة الدين أحدٌ من النساء اللاتي قد وَلَدْنَ ولم يَتَزَوَّجن؛ غَيرة على دينهم!! وأهل الإيمان أحق وأولى أن يغاروا على دينهم الحق.

ومن غَيْرة العبد على غيره: غَيْرته على العلم أن يُبْذَل لغير أهله.

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «من الغَيْرة غَيْرة العلماء لمَقَام الورَاثَة، وهو مَقَام العِلْم»[٥]. اهـ.

فالعِلْم دُرَّة شريفة لا تُبذَل للبطَّالين، والمَسْألة الدَّقِيْقَة اللَّطِيفَة حينما تُبذَل لغير أهلها كالمرأة الحسناء تُهدَى إلى ضَرِير مُقْعَد.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٤٣ ـ ٤٤).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩ ـ ٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩) واللفظ له، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) «التدوين في أخبار قزوين» (١/ ٣٨٢).

(٥) «فيض القدير» (٦/ ٢٥٣).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[١]:

شَمْسٌ تُزَفّ إلى ضَرِيْرٍ مُقْعَدِ يَا مِحْنَةَ الحَسْنَاءِ بِالعُمْيَانِ

ويَرْحَم الله الإمام الشافعي حينما قال[٢]:

أَأَنْثُر دُرًّا بَيْنَ سَارِحَةِ البَهْمِ وَأَنْظُمُ مَنْثُوْرًا لِرَاعِيَةِ الْغَنَمْ

وقد أَحْسَن مَن قال[٣]:

عَلَيَّ نَحْتُ المَعَانِيْ مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ البَقَرُ

٣ ـ غَيْرَة العبد على عِرْضه، وأعراض المسلمين: وأعظم الناس غَيْرة على الأعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم الأمثل فالأمثل، فكلما كان العبد مُتَشَبِّهًا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مُكَمِّلًا للإيمان، مُسْتَوفِيًا للرّجُولَة؛ كانت غَيْرتُه أتم. وذلك لا يختص بالرجال، بل إن المرأة المؤمنة تَغَار على عِرْضها، وعِرْض المؤمنات.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وملاك الغَيرة وأعلاها ثلاثة أنواع: غَيْرة العبد لربه أن تُنْتَهَك مَحَارِمه وتَضِيْع حدوده، وغَيْرته على قلبه أن يَسْكُن إلى غيره، وأن يَأْنَس بسواه، وغَيْرته على حُرْمته أن يتطلع إليها غيره، فالغَيْرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة»[٤]. اهـ.

وسنذكر نماذج لغَيرة العبد عند الكلام على أخبار أهل الغيرة إن شاء الله.



(١) «نونية ابن القيم» (ص٣٥٤).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص١٢٨).

(٣) وهو: أفضل الدين الخونجي. انظر: «نفح الطيب» (٥/ ٢٤٧)، و«زهر الأكم في الأمثال والحكم» (٣/ ٩٣).

(٤) «روضة المحبين» (ص٤٣٧ ـ ٤٣٨).

أسباب ضَعْف الغَيْرَة وزوالها

أولًا: كثرة الذنوب والمعاصي:

يقول **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «من عقوبات المعاصي أنها تُطفئ من القلب نار الغَيْرة التي هي لحياته وصَلَاحه كالحرارة الغَرِيْزِيَّة لحياة جميع البَدَن، فالغَيْرة حرارته وناره التي تُخْرِج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يُخْرِج الكيرُ خبثَ الذهب والفضة والحديد. وأَشْرفُ الناس وأعلاهم هِمّةً أشدُّهم غَيْرةً على نَفْسه وخاصَّتِه وعموم الناس...

فَكُلَّما اشْتَدَّت مُلابَسَةُ العبد للذنوب والمعاصي أَخْرَجَت من قَلْبِه الغَيْرة على نَفْسه وأهله وعموم الناس، وقد تَضْعُف في القلب جِدًّا حتى لا يَسْتَقْبِح القَبِيح لا من نَفْسه ولا مِن غيره، وإذا وصل إلى هذا الحَدّ فقد دخل في باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يَقِفُ بهم الأمر عند هذا الحَدّ، بل يَصِير الواحد منهم يُحسِّن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويَحُثه عليه، ويسعى له في تَحْصِيله؛ ولهذا كان الدَّيُّوث أَخْبث خَلْق الله، والجنة حرام عليه... وهذا يدلُّ على أن أصل الدين الغَيْرة، ومن لا غَيْرة له لا دين له»[(١)]. اهـ. فالدين يحمي القلب، ويؤثّر الغَيْرة فيه ويُقوِّيها ويُنمِّيها كما لا يخفى.

«وبين الذنوب وقِلّة الحياء وعدم الغَيْرة مُلَازَمة أكيدة من الطرفين، وكلٌّ منهما يَسْتَدْعِي الآخر ويَطْلُبه طَلَبًا حَثِيْثًا»[(٢)]، لا سيما الفواحش من الذنوب؛ كالزنا وما في معناه، فهو «يجمع خِلَال الشرّ كلها، من قِلّة الدين، وذهاب الوَرَع، وفساد المُرُوءَة، وقِلّة الغَيْرة، فلا تَجِد زانيًا معه وَرَع، ولا وفاء بعَهْد، ولا صِدْق في حديث، ولا مُحَافَظة على صَدِيق، ولا غَيْرة تامّة على أهله، فالغَدْر، والكذب، والخِيَانة، وقِلّة الحياء، وعدم المراقبة، وعدم الأنَفَة للحُرَم، وذهاب الغَيْرة من القلب من شُعَبه ومُوجَبَاته»[(٣)].

ومن الذنوب التي تُذْهِب الغَيْرة وتُضْعِفُها: تعاطي المُسْكرات؛ من الخمور

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٦٦) بتصرُّف. (٢) المصدر السابق (ص٦٩) بتصرُّف.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «روضة المحبين» (ص٣٦٠).

والمخدرات والحشيش، فإنها تَغْتَال العقول، والشِيَم والغَيْرة والمروءة، وتدعو إلى الزنا، ولَرُبَّمَا دَعَت إلى الوقوع على البنت والأخت وذَوَات المَحَارِم(١).

ثانيًا: الانْسِيَاق وراء العَوَاطف:

فمن الخطأ أن يُعَالِج الإنسان مُشْكِلات وسُلُوكِيَّات زَوْجِه وقريباته بالعاطفة؛ ولهذا يقول الله تعالى في حدِّ الزُّنَاة: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

فبعض الناس تَحْمِلهم المحبة والشَّفَقة على تَرْك الغَيْرة، فإذا رأى من مَحَارِمه مُنْكرًا؛ من علاقة غير شرعية ونحو ذلك؛ حَمَلَته تلك المحبة والشَّفَقة على غَضّ الطَّرْف، وعدم الإنكار، وهذا من المَهَانَة والدّيَاثة وقِلَّة الدِّين، وضَعْف الإيمان، والإعانة على الإثم والعُدْوَان، وترْك التناهي عن الفحشاء والمُنْكَر، فَيَحْصل له بذلك القَوَادَة بعد الدّيَاثة، فيكون قوَّادًا على أهله؛ حيث إنه رأى فيهم الخُبْث فلم ينكره، ولم يسعَ في إزالته.

ثالثًا: سوء التربية:

فكم من رجل ضَيَّع القَوَامَة، فصار تبَعًا لامرأته، فاغْتِيلَت غَيْرته ورُجُولته! تراه يُسمِّر عَيْنَيْه إلى الشَّاشَات، ويُقلِّب بصرَه في المناظر المُؤْذِية في المحطَّات؛ ليُطْفِئ بالإثم غَلِيل الشيطان، ويُغْوِيَ بالمعصية ظَمَأ نَفْسه من التُّقَى والإيمان، ثم بعد ذلك يُضيِّع ما أَمَره الله تعالى به من الرِّعاية، يَتْرك امرأته ومن وَلَّاه الله عليهن يَفْعلْن ما شِئْنَ، فيتربَّى على ذلك الصغير، ويَنْشَأ عليه، ومن أين له أن ينشأ على الأخلاق الحميدة والغَيْرة، وهو يرى أمَّه تَخْرج حيثُ شاءت، وأخته تَفْعل ما شاءت دون نَكِيرٍ ولا مُحَاسَبَة من أبيه؟!(٢).

هِيَ الْأَخْلَاقُ تَنْبُتُ كَالنَّبَاتِ ... إِذَا سُقِيَتْ بِمَاءِ المَكْرُمَاتِ
تَقُوْمُ إِذَا تَعَهَّدَهَا المُرَبِّي ... عَلَى سَاقِ الفَضِيْلَةِ مُثْمِرَاتِ
وَلَيْسَ النَّبْتُ يَنْبُتُ فِيْ جِنَانٍ ... كَمِثْلِ النَّبْتِ يَنبتُ فِيْ الفَلَاةِ
فَكَيْفَ نَظُنّ بِالْأَبْنَاءِ خَيْرًا ... إِذَا نَشَؤُوا بِحِضْنِ الجَاهِلَاتِ
وَهَلْ يُرْجَى لِأَطْفَالٍ كَمَالٌ ... إِذَا ارْتَضَعُوْا ثُدِيَّ النَّاقِصَاتِ(٣)

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤)، و«حادي الأرواح» (ص٣٧٧).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).
(٣) «ديوان معروف الرصافي» (٧١)، مع حذف بعض الأبيات قبل وبعد البيت الثالث.

رابعًا: التَّأَثُّر بِحَيَاة الغَرْب:

وَلَرُبّما رَبَط بعض هؤلاء التَّقَدُّم وَالتَّحَضّر بأن تُتْرَك المرأة تَفْعل ما يحلو لها من غير رَقِيْب ولا حسيب، تذهب حيث شاءت، وتُخَالِل من شاءت، وتَفْعَل ما تشاء!

خامسًا: دُخُول مَفَاهِيم وَعَادَات غَرِيبة على مُجْتَمَعِنا:

لقد أدَّت تلك المفاهيم والعادات إلى تَغَيُّر كَثِير من المَعَايِير لدى بعض الناس، فَتَغَيَّرَت تَصَوُّراتهم. فهذه بِنْتٌ في الثانوية تقول: الأحداث المُؤْلِمة جَعَلَتنا لا نُفكِّر بِشَكْل مُسْتَقِرّ في رَسْم مُسْتَقْبَلنا، ومن هذه الأحداث: تَدَخُّل الأهل في اخْتِيَار مَجَال التَّخَصّص الدراسي، وإصرارهم على تَوَجّه بِعَيْنه يَجْعَلُني لا أستطيع تَحْدِيد طُمُوحِي المُسْتَقْبَلِي، فكل يوم أجد نفسي أتوجَّه لشيء مُعَيَّن، فمثلًا: أنا أهوى الخَطّ، وأَحْرِص على الكتابة بِخَطٍّ جَمِيل... وأحيانًا أُفكِّر بأن أُصْبِح فيزيائية، وأَنْ أُشَارِك في البُحُوث العِلْمِيّة، ولكن أُسْرَتِي تريد أن أكون طَبِيبَة... ثم تقول: أنا لا أريد أن أتزوج ليكون لي أطفال كثيرون، يكفيني طفلٌ واحد أو طفلان لتحقيق طُمُوحِي العِلْمي والدرجات العِلْمِيّة، ولأُمَارِس هِوَايَاتي بكل حُرِّية.

وهذه أخرى تدرس في مَعْهَد للحاسب الآلي، تقول: اهتمامات فَتَيَات اليوم لم تَعُد في كُتُب التَّثْقِيف، بل انْصَرَفَت إلى القنوات الفضائية، وتَقْلِيد المُذِيْعَات والفنَّانات في الموْضَة، أما بالنسبة لي شخصيًا فأنا أَقْضِي وَقْت فراغي في قِرَاءَة القَصَص والروايات والشعر، وأَتَطَلَّع للحصول على شهادة الدّبْلُوم، وأن أجد وظيفة مرموقة... إلخ.

وهذه فتاة جامعية تقول: أُفضِّل المَشَاهِد النَّادِرَة التي تَعْلَق في الذاكرة، تَشُدّني الرَّحَلات إلى الدِّيَار الغَرِيْبَة، والطَّبَائع النادرة غير المَأْلُوفَة، لا أحبُّ الرُّوْتِين.

وأخرى تَدْرس في كلية الاقتصاد المنزلي، تقول: أنا من المُهْتمَّات بالسّفر والتَّنَقّل من بَلَدٍ لآخر، وهذا نَابعٌ من شَغَفِي بالتَّعَرّف على الشُّعُوب وعاداتهم وتقاليدهم، وهذا بلا شك سَيُسَاعِدُني على التَّعَرّف على أساليب التَّعَامُل مع الشُّعُوب المُخْتَلِفة وتَوَجُّهاتِهم، وهو باعتقادي مُهِمّ بالنِّسْبة لكل إنسان.

فانظر إلى التَّحَوّل في مَفَاهِيم بعض فتياتنا؛ فالمرأة إنما خُلِقت لتَعْبُد ربَّها ﷻ، ولتُكوِّن جيلًا يَتَرَبَّى على الدين والجهاد وحماية الدِّين، وتُرَبِّيهم على الفضيلة والأخلاق الحميدة.

سادسًا: السفر إلى بلاد تكثر فيها المنكرات وتظهر:

ولا يخفى ما يَتَرَتَّب على ذلك من المفاسد؛ فإن تلك المجتمعات قد ذَهَبَت الغَيْرة عن كثير منهم، وانتشرت الأخلاق الدَّنِيئة فيهم، فكيف يَسْلَم من ذلك من عَايَشَهم وسَاكَنَهم؟!

سابعًا: البرامج والمَشَاهِد الهابطة:

حيث يَأْلَف المُشاهِد مُخَالطة الرجال للنساء، وما يقع مع ذلك من أمور لا تخفى، إضافة إلى ما يُعْرَض في بعضها من إظهار الرجل الغَيُور على أنه محل للتندُّر والضحك والاشمئزاز.

ثامنًا: ما أَلِفَه بعض الناس مِن مَظَاهِر العُرِي والتَّكَشّف والانحلال:

وذلك عبر ما يشاهدونه في المجلات، والقنوات، والإنترنت، والأسواق، في حلِّهم وتَرْحَالِهم.

وهذا يَاقُوت الحَمَوَي، زار بلدة في اليمن يُقَال لها: مِرْبَاط، يقول في وَصْفِها: «أَهْلها عَرَب، وَزَيّهم زَيّ العَرَب القديم، وفيهم صَلَاح مع شَرَاسَة في خَلْقهم... وَتَعَصّب، وفيهم قِلَّة غَيْرة؛ كأنهم اكْتَسَبُوها بالعادة، وذلك أنه في كل ليلة تَخْرج نساؤهم إلى ظاهر مَدِينَتهم، ويُسَامِرْنَ الرجال الذين لا حُرْمة بينهم، ويُلاعِبْنهم ويجالسْنهم إلى أن يَذْهب أكثر الليل، فَيَجُوز الرجل على زوجته وأخته وأمه وعمته وإذا هي تُلَاعِب آخر وتُحَادِثه، فيُعْرِض عنها ويَمْضي إلى امرأة غيره، فيُجَالِسها كما فُعِل بزوجته.

وقد اجتمعتُ بجماعة كثيرة، منهم: رَجُل عاقل أَدِيب، يَحْفَظ شيئًا كثيرًا، وأنشدني أشعارًا، وَكَتَبْتُها عنه، فلما طَال الحديث بيني وبينه قلتُ له: بَلَغَنِي عنكم شيء أَنْكَرْته، ولا أعرف صِحَّته، فَبَدَرَني وقال: لَعَلَّك تَعْنِي السَّمَر؟ قلت: ما أردتُّ غيره، فقال: الذي بَلَغَك من ذلك صحيح، وبالله أقسم إنه لَقَبِيح، ولكن عليه نَشَأْنا، وله مذ خُلِقْنَا أَلِفْنا، ولو اسْتَطَعْنا أن نُزِيله لأزلناه، ولو قَدِرْنا لغَيَّرْناه، ولكن لا سبيل إلى ذلك مع مَمَرّ السنين عليه، واستمرار العادة به»[(١)].

تاسعًا: دعاة الفِتنة وأعداء الفضيلة:

من أصحاب الجهود الشيطانية الذين اسْتَمَاتُوا في إفساد الضرورات الخمس: الدِّين، والنَّفْس، والعقل، والعِرْض، والمال.

لقد تفنَّنَت أساليبهم، وتعدَّدت طَرَائقهم، يَدْعُون نساءنا لنَزْع الحِجَاب، ويَصِفُون المرأة المُحَجَّبة بأَبْشَع الأوصاف.

فتَارةً يصفونها بالخَيْمة، وتارةً بأنها غراب على ضِلْع أَسْود، وتارةً يُشَبِّهُونها بكِيْس الفَحْم.

---

(١) «معجم البلدان» (٥/ ٩٧).

يقول أحدهم: هذه بَقِيّةٌ من مَوْرُوثات سلْجُوقِيَّة وعثمانية.

وتارةً يَدْعُون المرأة إلى مُخَالَطة الرجال، والمُشَارَكة في الألعاب الرياضية، والمَهْرَجَانَات الشَّبَابِيّة، وسِبَاق الفُرُوسِيّة.

عاشرًا: ضَعْف الإيمان، واتِّباع الهَوَى:

حادي عشر: الجَهْل بعِظَم الإثم لهذا الجُرْم، وخُطُورة الدّيَاثة، وتَضْيِيع المَسْؤوليّة:

ثاني عشر: السُّكوت عن المنكر:

ثالث عشر: التَّرَف الزائد:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن عزيز مصر: «كان قليل الغَيْرة أو عَدِيمها، وكان يُحِب امرأته ويُطِيعها؛ ولهذا لما اطَّلع على مُرَاوَدَتها قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ٢٩]، فلم يُعَاقِبها، ولم يُفَرِّق بينها وبين يوسف حتى لا تَتَمَكَّن من مُرَاوَدَته، وأَمَر يوسف ألَّا يَذْكر ما جَرَى لأَحدٍ مَحَبَّةً منه لامرأته، ولو كان فيه غَيْرَة لعَاقَب المرأة. ومع هذا فَشَاعَت القِصَّة، واطلع عليها الناس من غير جِهَة يوسف، حتى تَحَدَّثَت بها النّسْوة في المدينة، وذكروا أنها تُرَاوِد فتاها عن نَفْسه، ومع هذا: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: ٣١]، وأمرت يوسف أن يَخْرُج عليهن؛ لِيُقِمْن عُذْرها على مُرَاوَدَته، وهي تقول لَهُنَّ: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٣٢]، وهذا يَدُلّ على أنها لم تَزَل مُتَمَكِّنة من مُرَاوَدَته، والخَلْوَة به، مع عِلْم الزوج بما جَرَى، وهذا من أَعْظَم الدِّيَاثة، ثُمّ إنه لما حُبِس فإنما حُبِس بِأَمْرها، والمرأة لا تَتَمَكّن من حَبْسه إلا بأمر الزوج... وَحَبَسه لأجل المرأة مُعَاوَنة لها على مَطْلَبها لدِيَاثته، وقِلّة غَيْرته»[١]. اهـ.

الرابع عشر: الثِّقة الزائدة في غير محلِّها:

فتُتْرَك المرأة تَذْهَب وتَجِيء وتتصرف كما تشاء.



(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١١٩ ـ ١٢٠).

الطريق إلى تحقيق الغيرة

لِتَنْمِيَة الغَيْرة في النفوس طُرُق كثيرة، **ومن ذلك**:

١ ـ تَرْبية الصَّغِيرات على الحِشْمة والحياء في اللباس وغيره.

٢ ـ تَرْبِية الأولاد على الغَيْرة؛ وذلك بأن يُوكَل البيع والشراء، ومخاطبة الرجال ونحو ذلك للبنين.

٣ ـ مُحَارَبة وسائل إضعاف الغَيْرة، وإخراجها من البيوت.

٤ ـ الرجوع إلى الدين، وغَرْس تَعَالِيمه في نُفُوس الناس.

٥ ـ التَّأْكِيد على دور الرجل في القَوَامة، وحِفْظ ما استرعاه الله تعالى.

٦ ـ تَوْعِية المُجْتَمع بمثل هذه الأمور.

٧ ـ مَعْرفة قَدْر الأَعْراض؛ فإن مَعْرِفة قَدْر الشيء تدعو إلى المحافظة عليه، والاسْتِمَاتة في سبيله.



آثار الغَيْرة(١)

للغَيْرة آثار وفوائد كثيرة، **ومن ذلك**:

١ ـ أنها قوة لمُقَاوَمَة أدواء القلب المُتَنَوِّعة.

٢ ـ أن ذهاب الغَيْرة ذهاب للدين.

٣ ـ أنها تُحرِّز صاحبها من الفواحش.

٤ ـ أن الله يحبُّ أهلها، فهي صفة من صفات الله تعالى، و«المؤمن الذي يغار في مَحَلِّ الغَيْرة قد وَافَق ربه في صفة من صفاته، ومن وافقه في صفة منها قادته تلك الصِّفَة بزِمَامه، وأَدْخَلَته عليه، وأَدْنَتْه منه، وقَرَّبَتْه من رحمته»(٢).

٥ ـ أنه بوُجُودِها تُصَان الأعْرَاض.

وغير ذلك من الآثار الطيِّبة.



(١) انظر: «نضرة النعيم» (٧/ ٣٠٨٥).

(٢) ما بين الأقواس من كلام المناوي في «فيض القدير» (٦/ ٢٥٣).

من أخبار أهل الغيرة

أولًا: غيرة الله جَلَّ جَلَالُهُ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله يَغَارُ، وَغَيْرَةُ الله أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ الله**»(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ أنه قال في خُطبته في الكسوف: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! وَالله مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ الله أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»(٢).

ثانيًا: غَيرة النبي ﷺ:

عن المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «**إِنَّ بَنِي هِشَام بْنِ المُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُوا فِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَلَا آذَنُ، ثُمَّ لَا آذَنُ، ثُمَّ لَا آذَنُ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ، فَإِنَّمَا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا**»(٣).

وعن المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفَح، فقال النبي ﷺ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَالله أَغْيَرُ مِنِّي**»(٤).

ثالثًا: الغَيرة عند الصحابة والمسلمين:

فهذا سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَيِّد الخَزْرَج، كان من أكثر الناس غَيْرةً، حتى إنه ما طلَّق امرأةً فَتَجَرَّأ أحدٌ على أن يَتَزَوَّجها بعده؛ لِشِدَّة غَيْرتِه(٥).

وهو الذي قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله! لو وَجدتّ مع أهلي رجلًا لم أَمَسّه حتى آتي بأربعة شهداء؟! قال رسول الله ﷺ: «**نَعَم**»، قال: كلا والذي بَعَثَك بالحق، إنْ كنت لَأُعَاجِلُه بالسيف قبل ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ، إِنَّهُ لَغَيُورٌ، وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»(٦).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٣٠) واللفظ له، ومسلم (٢٤٤٩).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) انظر: «البداية والنهاية» (٩/٦٠٨).

(٦) تقدم تخريجه.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشد الناس غَيْرةً، وأخباره في ذلك كثيرة، ومما يُذْكَر عنه أن امرأته عَاتِكَة بنت زيد كانت تَشْهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد، فقيل لها: لم تَخْرُجِين وقد تَعْلَمِين أن عمر يَكْرَه ذلك ويَغَار؟ قالت: وما يَمْنَعُه أن يَنْهَاني؟ قال: يَمْنَعه قَوْل رسول الله ﷺ: «**لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ**»(١).

وهو الذي أشار على النبي ﷺ أن يُحَجِّب نساءه قبل أن تَنْزِل آية الحجاب، وكانت من عادة العَرَب أن المرأة لا تَحْتَجِب لنَزَاهَتِهم، وَنَزَاهَة نسائهم، وكان الأمر في أول الإسلام على ذلك، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: «يا رسول الله! لو أمرت نساءك أن يَحْتَجِبْن؛ فإنه يُكَلِّمهن البَرّ والفاجر»، فنزلت آية الحجاب(٢).

وهو الذي يقول فيه النبي ﷺ: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ، فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا**»(٣).

وعن الشَّعْبِي رحمه الله قال: «غزا رجل من المسلمين من الأنصار، وأوصى جارًا له بأهله، قال: فكان يهوديّ يأتي أهله، فَذَكَر ذلك للرجل، فَرَصَده ليلة فإذا هو مُسْتَلْق على فراش الرجل، واضعًا إحدى رجليه على الأخرى وهو يقول:

وَأَشْعَثَ غَرَّهُ الْإِسْلَامُ مِنِّي ... خَلَوْتُ بِعِرْسِهِ لَيْلَ التَّمَامِ
أَبِيتُ عَلَى تَرَائِبِهَا وَيَضْحَى ... عَلَى قُبَّاءَ لَاحِقَةِ الْحِزَامِ
كَأَنَّ مَجَامِعَ الرَّبَلَاتِ مِنْهَا ... ثُمَامٌ قَدْ جُمِعْنَ إِلَى ثُمَامِ

قال: فَنَزَل الرجل، فَقَمَصَه بِسَيْفه حتى قتله، فلما أصبح ذُكِر ذلك لعمر رضي الله تعالى عنه، فقال: أعزم على من كان يَعْلم من هذا شيئًا إلا قام. فقام الرجل وقال: كان من أَمْره كَيْت وكَيْت، فَخَبَّره بالقصة. فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إن عادوا فَعُد»(٤).

وجاء عن عُبَيْد بن عُمَيْر: «أن رجلًا أضاف إنسانًا من هُذيْل، فَذَهَبَت جاريةٌ لهم تَحْتَطِب، فأرادها على نفسها، فرمَتْهُ بِفهرٍ ـ أي: بحجر ـ فَقَتَلَتْه، فرُفِع إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: ذاك قتيل الله، لا يُودَى أبدًا»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢) مختصرًا، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٢) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٢، ٣٦٨٠، ٧٠٢٣، ٧٠٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٩/ ٤٠٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٤٤٩) واللفظ له.
(٥) أخرجه عبد الرزاق (١٧٩١٩)، وابن أبي شيبة (٩/ ٣٧٢) واللفظ له، والخلال في «السُّنَّة» =

وجاء أيضًا: أن أبا السَّيارَة أُولع بامرأة أبي جُنْدُب، فَرَاوَدَها عن نفسها، فقالت: لا تفعل، فإن أبا جُنْدُب إنْ يَعْلَم بهذا يَقْتُلْك، فأبى أن يَنْزِع، فَكَلَّمَت أخا أبي جُنْدُب، فَكَلَّمَه، فأبى أن يَنْزِع، فَأَخبَرَت بذلك أبا جُنْدُب، فقال: إني مُخْبِر القوم أني ذاهب إلى الإبل، فإذا أظْلَمَت جِئْتُ فدَخَلْتُ البيت، فإن جاءك فأَدْخِلِيه عليَّ، فَوَدَّع أبو جُنْدُب القوم، وأخبرهم أنه ذاهب إلى الإبل، فلما أظلم الليل جاء، فَأَكْمَنَ في البيت، وجاء أبو السَّيَّارَة وهي تَطْحَن في ظِلِّها، فَرَاوَدَها عن نفسها، فقالت: وَيْحك، أرأيتَ هذا الأمر الذي تدعوني إليه، هل دعوتك إلى شيء منه قط؟ قال: لا، ولكن لا أصبر عنك، فقالت: ادخل البيت حتى أَتَهَيَّأ لك، فلما دخل البيت أَغْلَق أبو جُنْدُب الباب، وأَخَذَه فَدَقَّ من عُنُقِه إلى عَجْب ذَنَبِه، فَذَهَبَت المرأة إلى أخي أبي جُنْدُب فقالت: أَدْرِك الرجل، فإن أبا جُنْدُب قاتله. فجعل أخوه يناشده الله فَتَرَكه، وحَمَله أبو جندب إلى مَدْرَجَة الإبل فألقاه، فكان كلما مَرّ به إنسان قال له: ما شَأْنُك؟ فيقول: وَقَعْتُ عن بكْر فَحَطَّمَنِي، فَأَنْشَأ مَحْدُوبًا، ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخبره، فَبَعَث عمر إلى أبي جُنْدُب فأخبره بالأمر على وجهه، فأرسل إلى أهل الماء فَصَدَّقُوه، فجلد عمر أبا السيارة مائة جلدة، وأبطل دِيَتَه[١].

ولما دخل على عثمانَ خُصُومُه وأعداؤه ليَقْتُلُوه جاءت امرأته نائلة، ونَشَرَت شَعْرَها، وأرادت أن تَسْتُرَه بِشَعْرِها وتَحْمِيه، فقال لها: «خُذي خمَارَكِ، فَلَعَمْري لدخولهم عليَّ ـ أي: لقتلي ـ أهون من حُرْمة شَعْرِك»[٢].

ونُقِل عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: «أما تَسْتَحُون؟ أَلَا تَغَارُون أن تَخْرُج نساؤكم؟ فإنه بلغني أن نساءكم يخرُجْن في الأسواق يُزَاحِمْن العُلُوج[٣]»[٤].

وهذا معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، كان يأكل تُفَّاحًا ومعه امرأته، فدخل عليه غلام له، فَنَاوَلَتْه تُفَّاحَة قد أَكَلَت منها، فَأَوْجَعَهَا مُعَاذ ضَرْبًا[٥].

= (١/ ١٦٦)، والبيهقي (١٨١٠٤). وقال ابن الملقن في «البدر المنير» (٩/ ١٧): «أثر جيد، رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ بِإِسْنَاد حَسَن».

(١) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (١/ ٩٩).

(٢) أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٤/ ١٣٠٠).

(٣) **العُلُوج**: جمعُ عِلْج، وهو الرجل القوي الضَّخْم من كفار العجم. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٢٨٦)، مادة: (علج).

(٤) أخرجه أحمد (١١١٨)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (١١١٨).

(٥) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٢/ ٣٥٩).

وسَمِع عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا امرأته تُكَلِّم رجلًا من وراء جدار بينها وبينه قَرَابة لا يعلمها. . . فَجَمَع لها جرائد، ثم أتاها فضربها حتى آضَتْ[١] حَشِيْشًا[٢].

وعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قالت: تَزَوَّجَنِي الزبير، وما له في الأرض من مال ولا مَمْلُوك، ولا شيء غير نَاضِح، وغير فَرَسه، فكنت أَعْلِف فَرَسَه، وأستقي الماء، وأَخْرِز[٣] غَرْبَه[٤] وأعْجِن، ولم أكن أُحْسِن أَخْبز، وكان يَخْبز جارات لي من الأنصار، وَكُنَّ نِسْوَة صِدْق، وكُنْت أَنْقُل النَّوَى من أرض الزبير التي أَقْطَعَه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فَرْسَخ، فجئت يومًا والنَّوَى على رأسي، فلقِيْتُ رسول الله ﷺ ومعه نَفَر من الأنصار، فدعاني، ثم قال: «**إِخْ إِخْ**» لِيَحْمِلَني خَلْفَه، فاسْتَحْيَيْت أن أسير مع الرجال، وذكرتُ الزبير وغَيْرَته، وكان أَغْيَر الناس، فَعَرَف رسول الله ﷺ أني قد اسْتَحْيَيْت، فمضى، فَجِئْتُ الزُّبَيْر، فَقُلْتُ: لَقِيني رسول الله ﷺ وعلى رَأْسِي النَّوَى، ومعه نَفَر من أصحابه، فَأَنَاخَ لأَرْكَب، فاسْتَحْيَيْتُ منه، وعَرَفْت غُيْرتك، فقال: والله لَحَمْلك النَّوَى كان أشدَّ عليَّ من ركوبك معه[٥].

أغارُ عليكِ من نفسي ومنِّي ومنكِ ومن مكانِك والزمانِ
ولو أني خبأتُك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني[٦]

ودخل أبو السائب على أبي سعيد الخدري في بيته، يقول: فوجدتّه يصلي، فَجَلَسْتُ أَنْتَظِره حتى يَقْضِي صلاته، فَسَمِعتُ تَحْرِيكًا في عَرَاجِيْن في ناحية البيت، فَالتَفَتّ فإذا حية، فَوَثَبتُ لأقتلها، فأشار إلي أن اجلس فجلست، فلما انْصَرَف أشار إلى بيت في الدار، فقال: أترى هذا البيت؟ فَقُلتُ: نعم، قال: كان فيه فتى مِنَّا حديث عَهْد بِعُرْس، قال: فَخَرَجْنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يَسْتَأْذِن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فَيَرْجِع إلى أهله، فاسْتَأْذَنه يومًا، فقال له رسول الله ﷺ «**خُذْ عَلَيْك سِلَاحَك، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْك قُرَيْظَةَ**»، فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع فإذا امرأته بين البَابَيْن قائمة، فأهوى إليها الرمح لِيَطْعَنها به وأصابته غَيْرة، فقالت له: اكْفُف عليك رُمْحَك، وادخل البيت حتى تَنْظُر ما الذي أَخْرَجَني، فدخل فإذا بحية عظيمة مُنْطَوِيَة على الفراش، فأهوى إليها بالرُّمْح فَانْتَظَمَها به، ثم خرج فَرَكَزَه في الدار، فاضطربت عليه، فَمَا يُدرَى أيهما كان أَسْرع مَوتًا الحية أم الفتى. . .»[٧].

---

(١) أي: صارت. (٢) المصدر السابق.
(٣) من الخَرْز، وهو خياطة الجلود ونحوها. (٤) **الغرب**: الدلو الكبير.
(٥) أخرجه البخاري (٥٢٢٤) واللفظ له، ومسلم (٢١٨٢).
(٦) انظر: «نفح الطيب» (٤/ ١٧٦). (٧) أخرجه مسلم (٢٢٣٦).

فانظر إلى هذا الرجل، مع محبته لامرأته وتعلُّقِه بها فإنه كان يستأذن النبي ﷺ للذهاب إليها في وَسَط النهار، ومع ذلك بِمُجَرَّد أن رآها واقفة بين البابين أهوى إليها بالرمح ليقتلها به، غيرة عليها.

وعن أبي عون قال: «كَانَ مِنْ أَمْر بني قَيْنُقَاع أنَّ امرأة من العَرَب قَدِمَت بِجَلَب[١] لها، فباعته بسوق بني قَيْنُقَاع، وجَلَسَتْ إلى صَائِغ بها، فجعلوا يريدونها على كَشْفِ وجهها، فَأَبَت، فَعَمِدَ الصَّائغ إلى طَرَف ثَوبها فَعَقَدَه إلى ظَهْرِها، فلمَّا قَامَت انْكَشَفَت سَوْأَتُها، فضحكوا بها، فَصَاحَت. فَوَثَب رجل من المسلمين على الصَّائِغ فَقَتَله، وكان يَهُودِيًّا، وشَدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فَاسْتَصْرَخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشَّرّ بينهم وبين بني قَيْنُقاع»[٢].

فأين المسلمون اليوم من الغيرة لأعراض المسلمات؟! فكم من مسلمة انتُهِك عِرْضها وانْتُزِع حجابها! وللأسف أكثر من مليار مسلم لم يحركوا لذلك ساكنًا.

ولم تكن الغَيْرة مَقْصُورَة على أصحاب رسول الله ﷺ، بل هي عند كلِّ فَحْلٍ حُرٍّ أَبِيٍّ.

فهذا الخليفة الأموي سُلَيمان بن عبد الملك، كان شديد الغَيْرة، وقد زعم بعضهم أنه جاءت إليه أَمَةٌ من إمائه في ليلة قَمْرَاء، وعليها حُليٌّ مُعصْفر، فَسَمِع في الليل سَميرًا الأُبَليَّ يغني هذه الأبيات:

وَغَـادَةٍ سَـمِـعَـتْ صَـوْتِـيْ فَـأَرَّقَـهَـا ... مِـنْ آخِـر الـلَّـيْـلِ لَـمَّـا مَـلَّـهَـا الـسَّـهَـرُ
تُـدْنِيْ عَـلَى فَخِـذَيْهـا مِـنْ مُـعَـصْـفَـرَةٍ ... والـحُـلْـيُ دَانٍ عَـلَـى لـبَّـاتِـهـا خُـضُـرُ
لَـمْ يَـحْـجِـب الصَّـوْتَ أَحْـرَاسٌ وَلَا غُـلُـقٌ ... فَـدَمْـعُـهـا بِـأَعَـالِـيْ الـخَـدِّ يَـنْـحَـدِرُ
فِـيْ لَـيْـلَـةِ الْـبَـدْرِ مَـا يَـدْرِي مُـعَـايِـنُـهـا ... أَوَجْـهُـهَـا عِـنْـدَه أَبْـهَـى أَمِ الْـقَـمَـرُ
لـو خُـلِّـيَـتْ لَـمَـشَـتْ نَـحْـوِي عَـلَى قَـدَمٍ ... تـكـادُ مِـنْ رقـةٍ لـلـمَـشْـيِ تَـنْـفَـطِـرُ

فَاسْتَوعَب سليمان الشِّعْر، وظن أنه في جاريته، فَبَعَث إلى سمير فَأَحْضَرَه، ودَعَا بِحَجَّام لِيَخْصِيَه، فَدَخَل إليه عمر بن عبد العزيز، وكلَّمه في أمْره، فقال له: «اسكت، إن الفَرَس يَصْهَل فَتَسْتَودِق[٣] الحِجْرُ[٤] له، وإن الفَحْل يخطِر[٥] فَتَضْبَع[٦] له الناقة،

(١) **الجَلَب**: كل ما يُجْلَب للأسواق لِيُبَاع فيها. (٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٨).
(٣) يقال: استودقت الناقة إذا اشتهت الفحل. انظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ٢٥٢)، مادة: (ودق).
(٤) **الحِجْر**: أُنثى الخيل. انظر: «تاج العروس» (١٠/ ٥٣٦)، مادة: (حجر).
(٥) أي: يحرك ذَنَبَه يَمْنَة ويَسْرة. انظر: «تاج العروس» (١١/ ١٩٥)، مادة: (خطر).
(٦) أي: تَمُدّ أضباعها، وهي أعضادها. انظر: «المصباح المنير (٢/ ٣٥٧)، مادة: (ضبع).

وإن التَّيْس يَنِبُّ[١] فَتَسْتَحْرِم[٢] له العَنْز، وإن الرجل يُغَنِّي فَتَشْبَق[٣] له المرأة». ثم خصاه، ودعا بكاتبه فأمره أن يكتب من ساعته إلى عامله ابنِ حَزْم بالمدينة: (أن أَحْصِ المُخَنَّثِيْن المُغَنِّيْن)، فتشظَّى قلمُ الكاتب، فَوَقَعَت نقطةٌ على ذِرْوَة الحاء، فأصبحت الحاء خاءً، ففُهِم الخطاب على غير وجهه[٤]...

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «سمعت أبا عَبْد اللهِ مُحَمَّد بن أَحْمَد بن موسى القاضي، يقول: حضرتُ مَجْلِس موسى بن إسحاق القاضي بالرَّي سنة ست وثمانين ومائتين، فَتَقَدَمَت امرأة، فَادَّعى وَلِيُّهَا عَلَى زَوْجِهَا خَمْسمائة دينار مَهْرًا، فَأَنكر، فَقَالَ القَاضِي: شُهُودك، قَالَ: قد أحضرتهم، فاسْتَدْعَى بعض الشُّهُود أن يَنْظُر إلى المرأة؛ ليُشِير إليها في شَهَادَته، فقام الشَّاهِد وَقَالَ للمرأة: قومي! فقال الزوج: تفعلون ماذا؟ قَالَ الوكيل: يَنْظُرون إلى امرأتك، وَهِي مُسْفِرة؛ لتَصِحَّ عندهم مَعْرِفَتها، فقال الزوج: فإني أُشْهِد القاضي أن لها عليَّ هذا المَهْر الّذي تَدَّعِيه، ولا يُسْفر عن وجهها، فأُخْبِرَت المرأة بما كان من زوجها، فقالت: فاني أُشْهِد القاضي أَنِّي قد وَهَبْت له هذا المَهْر، وأَبْرَأته منه في الدنيا والآخرة! فقال القاضي: يُكْتَب هذا في مكارم الأخلاق»[٥].

وهذا أمير من أمراء المسلمين يُقال له: سيف الدين، كان غيورًا شديد الغَيْرة، يمنع الخُدَّام الكبار من دخول دور نسائه[٦].

وكان عماد الدين زنكي رَحِمَهُ اللهُ من أَشَدِّ الناس غَيْرة على نساء رَعِيَّته[٧].

رابعًا: الغَيْرة عند العرب وغير المسلمين:

الغَيْرة لا تختص بالمسلمين، بل هي غريزة من الغرائز تُوجَد عند الكافر الذي لم تَتَدَنَّس فِطْرته، فالعرب في الجاهلية «تجاوزوا في الغَيرة حدودها، إلى كراهة أن يلدوا البنات، حتى دَفَنُوهنّ أحياء، وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

---

(١) نَبَّ التَّيس يَنِبّ نَبِيباً: إذا صاح وهاج. «الصحاح» (١/ ٢٢٢)، مادة: (نبب).
(٢) يقال: اسْتَحْرَمَت الشاة إذا طلبت الفَحْل. «النهاية» لابن الأثير (١/ ٩٤١)، مادة: (حرم).
(٣) **الشَّبَق**: شدة الغُلْمة وطلب النكاح. «النهاية» لابن الأثير (٢/ ١٠٨٢)، مادة: (شبق).
(٤) «جمهرة الأمثال» (١/ ٢٥٨).
(٥) «المنتظم» (١٢/ ٤٠٢. ط. دار الكتب العلمية).
(٦) «الكامل في التاريخ» (٩/ ٤٤٧)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٤٠/ ٢٢٢).
(٧) انظر: «البداية والنهاية» (١٦/ ٣٤١).

وأما بَذْلهم للأموال لِصَون أعراضهم فَأَسْهَل ما تَجُود به نفوسهم، حتى قال قائلهم[(١)]:

أَصُونُ عِرْضِيْ بِمَالِيْ لَا أُبَدِّدُهُ لَا بَارَكَ اللَّهُ بَعْدَ الْعِرْضِ فِيْ المَالِ
أَحْتَالُ لِلْمَالِ إِنْ أُوْدَى فَأَكْسبُه وَلَسْتُ لِلْعِرْضِ إِنْ أَوْدَى بِمُحْتَالِ

وهذا أعرابي رأى رجلًا ينظر إلى زوجته، ويُقلِّب نَظَره فيها، فطلَّقَها، ثم عُوتِب على ذلك، فقال:

وأترك حُبَّها من غير بُغْضٍ وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذبابُ على طعامٍ رفعْتُ يدِي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسودُ وُرُودَ ماءٍ إذا رأت الكلابَ وَلَغْن فيه

ولم تكن غَيْرة أحدهم قَاصِرة على عِرْضِه فَحَسْب، بل إنه يَغَار على عِرْض جِيْرَانه وقَرَابَتِه وقبيلته، وفي ذلك يقول عَنْتَرة[(٢)]:

وَأَغُضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِيْ جَارَتِيْ حَتَّى يُوَارِيْ جَارَتِيْ مَثْوَاهَا

وكم من حَرْب نَشَبَت بينهم، كان شَرَارَتها تَعَدٍّ على عِرْض أو إهانة لكرامة!!»[(٣)].

ومن عَجِيب ما يُذْكَر في العصر الحاضر ما نُشِر في بعض الصُحُف، وهو أنه في كُوبَا تمَّ الإبلاغ عن اثنَيْ عَشَر هُجُومًا على وجوه النساء بحامض الكِبْريتيك في مدينة واحدة خلال شهرين فقط، قام به أقربائهن غَيْرةً عليهن حينما أبْدَين الزِّيْنة، وأظْهرْن السُّفُور.

وفي عام (١٤٢٣هـ) تمَّ تسجيل ثلاثة وثلاثين هجومًا من هذا النوع، وهو عمل لا يُقِرُّه الشَّرْع، وإنما أوردناه لإثبات أن الغَيْرة قد تُوجَد عن غير المسلمين.

*** الغَيْرة عند الحيوان:**

عن عمرو بن مَيْمُون رَحِمَهُ اللهُ قال: «رأيتُ في الجاهلية قِرْدَة اجتمع عليها قِرَدَة، قد زَنَت، فَرَجَمُوها، فَرَجَمْتُها معهم»[(٤)].

وقال الداودي رَحِمَهُ اللهُ: «يُتَعَلَّم من الديك خَمس خِصَال: حُسْن الصوت، والقيام في السَّحَر، والغَيْرَة، والسَّخَاء، وكَثْرة الجِمَاع»[(٥)].

---

(١) وهو: حسان بن ثابت. ينظر: «التذكرة الحمدونية» (٢/ ٩٨)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٦٢).
(٢) «ديوان عنترة» (ص٣٠٨).
(٣) ما بين الأقواس من مقال في موقع «طريق الإسلام» بعنوان: (الغيرة على الأعراض) بتصرُّف واختصار.
(٤) أخرجه البخاري (٣٨٤٩).
(٥) «فتح الباري» (٦/ ٤٠٦).

فأين ذهبت الغَيْرة عند كثير من المسلمين اليوم؟! أين هي ممن يَأْمُر امرأته، أو أخته، أو إحدى قريباته أن تضع حجابها أمام الأجانب، أو تُصَافِح من لا يحل لها مُصَافَحَته، من قَرَاباته وأصدقائه، أو يرضَى لها أن تَخْرج بِعَبَاءة في غاية الزِّيْنة؟!.

أين ذهبت الغَيْرة عند مَن يذهب بنسائه إلى أماكن يكثُر فيها السُّفُور والعُرِي والتَّبَرّج، لترى ما لا يحلّ لها أن تراه، في أماكن لا تَعْرِف دينًا، ولا حِشْمَة، ولا حياءً، تُزاحم الرجال في المُنْتَزَهَات، والشواطئ، وأماكن لا يليق بامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَدْخلها؟!

بل ولربما سَمَح لها بالسفر إلى بلاد بعيدة؛ من أجل الدراسة والتعليم، وليس معها مَحْرَم يَحُوطُها ويرعاها، فتكون آفة وعُرْضة لكل آسِرٍ وكَاسِرٍ؟!

أين الغَيْرة عند من يرضى لقريبته أن تتواصل مع اللاعبين، والمُطْربين، والفنَّانين، ومع مَنْ يُبْدين إِعْجَابهن بهم من غير حياءٍ، ولا احْتِرَاز، ولا حِشْمَة؟!

فهذه امرأة من أَشْراف العرب، زَنَت بعبدها، فَسُئِلت عن سَبَب ذلك، فقال: «طُول السُّهاد، وقُرْب الوِسَاد»[1]؛ أي: كثرة المحادثة مع كثرة المخالطة.

وقد أحسن من قال وهو يصف المرأة الأبية الحرة:

يَعزُّ عَلَى مَنْ يَطْرُقُ البَابَ لَفْظُهَا ... جَوَابًا فَلَا عَقْدًا تَرَاه وَلا حلَّا
يُطِيل وُقُوفًا لَا يُجَاب مُحَرَّمٌ ... عَلَيْهَا كَلَامُ الْأَجْنَبِيِّ وَإِنْ قَلَّا[2]

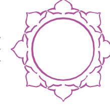
نسأل الله تعالى أن يُلهِمَنا رُشْدنا، ويحفظ أعراضنا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.



(١) «المحاسن والأضداد» (ص٢٥٠).
(٢) البيتان ضمن قصيدة طويلة لأبي شامة المقدسي، نظمها في أمِّ ولده. ينظر «تراجم رجال القرنين» (ص١٩٦).

الخامس عشر

الحَيَاء



توطئة

ما أحوجنا للحديث عن الحياء، ذلك الخُلُق الكريم الذي يدعو النَّفْس إلى الفضائل، ويُجَنِّبُها الرَّذَائل، في وَقْت تُنْحَر فيه الفضيلة، وَتُذْبَح فيه الأخلاق من الوَرِيد إلى الوَرِيد، عَبْر قَنَوَات فضائية، حَمَلَت على عَاتِقها تَدْمِير الأخلاق والفضيلة، ومَحَاسِن العادات ومَكَارِمها، ما أحوجنا أن نتحدث عن الحياء في وقت تَرَى فيه مَظَاهِر عَجِيبة تَدُلّ على تَصَحُّر الحياء في نفوس كثير من المُنْتَسِبين إلى الإسلام.

ومن هنا جاء الحديث عن هذا الموضوع، فأسأل الله أن يكون ذلك باعثًا للحياء في نفوسنا جميعًا، إنه سميع مجيب.



معنى الحياء وحقيقته

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«**الحياء في اللغة: تَغَيُّر وانْكِسَار يَعْتَري الإنسان من خَوْف ما يُعَاب به**»[(١)] .اهـ.

وقال الواحدي: «قال أهل اللغة: أصل الاستحياء من الحياة، واستحيا الرجل لقوة الحياة فيه؛ لشدة علمه بمواقع العيب، فالحياء من قوة الحِسّ ولُطْفه وقوة الحياة»[(٢)].

فهو كاسمه، مشتق من الحياة، ولا يُقَابِل الحياة سوى الموت، ومنه الحياة للمطر؛ لأنه يُحْيي الأرض بعد موتها بإرادة الله تعالى، وبه تحيا الدواب[(٣)].

الحياء في الاصطلاح: انقباض النَّفْس من شيء وتَرْكه حَذَرًا عن اللوم فيه[(٤)].

فهو خُلُق كريم فاضل، من الأخلاق الشريفة التي تَحْمِل صاحبها على تَرْك كل قبيح، وتمْنَعه من التَّقْصير في حق ذي الحق[(٥)].

إنه خلق يبعث على فِعْل المَحَاسِن، وَتَرْك القبائح، ويُقَابِله البَذَاء والجَفَاء، كما في الحديث: «**الحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ**»[(٦)]، فمَنْزُوع الحياء لا تراه إلا على القُبْح، ولا تَسْمع منه إلا اللغو والتَّأْثيم، يَتْرُكه الناس اتقاء فُحْشه، مُجَالَسَته شَرّ، وَصُحْبَتُه ضُرْ، وَفِعْله عُدوان، وحديثه بَذَاء.



(١) «فتح الباري» (١/ ٦٧) بتصرُّف يسير.
(٢) «التفسير البسيط» (٢/ ٢٧١).
(٣) «مختار الصحاح» (ص٨٦)، مادة: (حيا).
(٤) «التعريفات» للجرجاني (ص٩٤).
(٥) انظر: «فتح الباري» (١/ ٦٨).
(٦) أخرجه الترمذي (٤١٨٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وابن ماجه (٤١٨٤) من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٦٠٨)، والحاكم (١/ ١١٨) ـ وسكت عنه الذهبي ـ، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩١)، والألباني في «صحيح الجامع» (٣١٩٩)، وغيره.

الفرق بين الحياء والخَجَل

الحياء وسط بين طَرَفين مَذْمُومَين؛ بين الخَجَل والبَذَاء.

فالخَجَل خُلُق يَدُلّ على ضَعَة صاحبه ومَهَانَتِه وقُصُوره؛ فهو لا يَسْتَطِيع أن يَرْفَع رأسه لِيُنْكِر مُنْكَرًا ولا أن يقول كلمة الحق؛ لأنه يَخْجَل.

ويُقَابِل ذلك البَذَاء والوَقَاحَة والجُرْأَة، وهي تُعَدّ من سَافِل الأخلاق؛ حيث تَحْمِل صاحبها على فِعْل ما لا يليق أمام جُمُوع الناس بكل صَفَاقَة ووَقَاحَة.

والحياء وَسَط بينهما، فهو خُلُق يَكْتَنِفه وَصْفَان ذَمِيْمان، مِثْله مِثْل الكَرَم؛ الذي هو وَسَطٌ بين الشُّح والإسراف والتَّبْذِير، ومِثْل التَّوَاضع؛ الذي هو وَسَط بين الذُّل والكِبْر، فإذا انْحَرَفت النَّفْس عن فِطْرتها، وعمَّا رَسَم الله تعالى لها من الأخلاق الفاضلة، فإنها تَمِيل إلى أحد الطرفين، وقليل من الناس من يُوَفَّق إلى لزوم الفِطْرة والمُحَافَظَة عليها.

وبهذا يرتفع الإشكال الذي يُورِده كثيرون، **وهو قولهم**: كيف كان الحياء من الإيمان، وهو خير كله، ولا يأتي إلا بخير، مع أنه لربما جعل صاحبه يَجْبُن في بعض المقامات التي كان يجب عليه أن ينطلق فيها آمرًا بالمعروف، وناهيًا عن المنكر، وقائلًا بالحق؟! كما قد يثنيه عن النهوض ببعض المكرمات، أو يحمله على مُوَافقة غيره فيما لا يَجْمل على سبيل المُدَاهَنة تَحَرُّجًا من المُخالَفة، فكيف يكون ذلك من الإيمان؟!

والجواب: أن هذا الذي سماه الناس في عُرْف استعمالهم بالحياء في الحقيقة أنه ليس من الحياء في شيء، بل هو من المَهَانة والخُنُوع والضَّعْف؛ إذ إن الحياء الشرعي هو الذي يَحْمِلك دائمًا على فِعْل ما يليق، فالنبي ﷺ كان أشد حياء من العذراء في خِدْرها، ومع ذلك كان يقول كلمة الحق، ويُبَلِّغ دين الله ﷻ، ويغضب لله تعالى إذا انْتُهِكَت حرماته، ويغار لله غَيْرة لا يَغَارُها أحد من الناس. فلم يكن الحياء مانعًا له من القيام بما يجب لله تعالى، أو يَحْسن من الفضائل.

إذن: هذا المانع الذي يمنع الإنسان عن فِعْل ما يَلِيق ليس من الحياء، إنما هو خَوَر وضَعْف ومَذَلّة ومَهانَة تَعْتَور هذا الإنسان، فَيَجْبن في بعض المَقَامَات التي كان يجب عليه أن يَنْطِق بالحق فيها، ويَفْعَل ما يَنْبَغِي.

ومعلوم أن الأخلاق فيها ما يُحْمَد وما يُذَم، فالافتقار إلى المخلوقين، والتَّذَلُّل

والتَّمَلُّق لهم أَمْر مَذْمُوم؛ ولكنه يُحْمَد في مقام واحد؛ وهو إذا كان ذلك من أجل تحصيل العلم النافع، وعلى سبيل التَّلَطُّف بالعلماء، والتواضع لهم، فإن التواضع لهم أمر يحبه الله تعالى، ولا يَحْصل العلم إلا به. بينما التَّرَدُّد على أبواب الناس من أجل الافتقار والحاجة إلى ما في أيديهم مذموم.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ذَلَلْتُ طالبًا لطلب العلم فَعَزَزْتُ مَطْلُوبًا»(١).

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا يستحي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحي من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم»(٢).

وقد قال بعض السلف: «إن هذا العلم لا يتعلمه مُسْتَحٍ ولا مُتَكَبِّر»(٣).

وإنما حُمِدَت هذه الأخلاق من التذلل والتواضع والتَّمَلُّق للعلماء؛ من أجل تحصيل العلوم؛ ولأنها طريق إلى تحصيل المعالي والمكارم والفضائل الحقيقية، فهي مُفْضِية إلى الكمال؛ ولهذا قال الحسن رحمه الله: «من اسْتَتَر عن طَلَب العلم بالحياء لَبِس للجهل سِرْبَاله، فاقطعوا سَرَابِيل الجهل عنكم بِدَفْع الحياء في العلم؛ فإن من رَقَّ وجهه رَقَّ عِلْمه»(٤).

ويقول الخليل بن أحمد رحمه الله: «الجهل مَنْزِلة بين الحياء والأَنَفَة»(٥)؛ إما أن يَسْتَحي فتفوته الفائدة، وإما أن يتعالى ويأنف؛ لئلا يُظَنّ به الجهل والحاجة فتفوته كذلك، وهكذا في سائر الخِصَال والأخلاق.



---

(١) ذكره الدينوري في «المجالسة» (١٦٣٥) واللفظ له، وابن عبد البر في «الجامع» (٧٥٦، ٨٠٩).
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٢/ ٥١٠، ٥١١).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٢٠) عن أبي العالية، وأخرجه في موضع آخر (٣/ ٢٨٧) عن مجاهد.
(٤) ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (٥٥٠).
(٥) ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (٥٥٠).

مَنْزِلة الحياء

«الحياء إِحْسَاس رقِيْق، وشُعُور دَقِيق، يَبْدُو في العين مَظْهَره، وعلى الوجه أَثَرُه، ومَنْ حُرِمه حُرِم الخير كله، ومن تَحَلَّى به ظَفِر بالعِزَّة والكَرَامة، ونَال الخَيْر أَجْمَع»[١].

فالحياء أَصْل لكل خير، وهو «أفضل وأجلُّ الأخلاق، وأعظمها قَدْرًا، وأَكْثَرُها نَفْعًا، بل هو خاصة الإنسانية؛ لأن الحيوان لا حياء له، فمن لا حياء له ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدَّم. وصورتها الظاهرة، صُورَتُه صُورَة إنسان، ودَاخِلَتُه دَاخِلَة حَيَوَان، كما أنه ليس معه من الخير شيء إذا تَخَلَّى من الحياء، ولولا هذا الخُلُق لم يُقرَ الضَّيف، ولم يُوفَ بالوعد، ولم تُؤَدَّ الأمانة، ولم تُقْضَ لأحد حاجة، ولا تَحَرَّى الرجلُ الجميلَ فَآثَرَه، والقبيحَ فَتَجَنَّبَه، ولا سَتَر له عورة، ولا امْتَنَع عن فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يُؤَدّ شيئًا من الأمور المُفْتَرَضة عليه، ولم يَرْع لمخلوق حَقًّا، ولم يَصِل له رَحِمًا، ولا بَرَّ له والدًا؛ فإن الباعث على هذه الأفعال: إما ديني؛ وهو رجاء عاقبتها الحَمِيدَة، وإما دُنْيوِيّ عُلْوِي؛ وهو حياء فَاعِلها من المَخْلُوقِين.

ويَتَبَيَّن بهذا: أنه لولا الحياء ـ مِن الخالق أو من المَخْلُوق ـ لم يَفْعَل الإنسان شيئًا من هذه المَكَارِم»[٢].

فكل إنسان له آمران وزاجران:

آمر وزاجر من جهة الحياء، يأمره بالفضائل، ويزجره عن الرذائل، فإذا أطاعه امتنع من فِعْل كل ما يَشْتَهِي مما لا يليق.

وله آمر وزاجر من جِهَة الهوى والطبيعة، فالنَّفْس تَأْمُرُه بالأشياء، وتَهْوَى أشياء، وتنهاه عن أشياء، فمن لم يُطِع آمِر الحياء وزَاجِره فإنه يُطِيع آمر الهوى والشُّهْرة، فَيَتَمَرَّغ في أَوْدِية الهَلَكَة[٣].

ثم إن هذا الحياء يقوم مَقَام الذِّكْر في بعض المقامات التي لا يُذْكَر الله ﷻ فيها؛

(١) ما بين الأقواس من «موارد الظمآن لدروس الزمان» (٣/ ٣٦٥) بتصرُّف.
(٢) ما بين الأقواس من «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٧) بتصرُّف.
(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٨).

كحال الإنسان عند الخلاء؛ فإنه لا يَذْكُر ربَّه، ولا يَلِيق به أن يَذْكُره وهو على حاجته؛ ولكن مَقَام الحياء من الله تعالى وهو في هذه الحال، ومَقَام المُرَاقبة لله تعالى، واستحضار هذه النعمة من الله سبحانه عليه بالتَّخَلُّص من هذه المُؤْذِيَات التي تَخْرج من جَسَده، لا شك أنه مِن أجلِّ الذِّكْر كما صَرَّح بذلك جَمْع من العلماء، فَذِكْر كل حالَة بِحَسَب ما يَلِيق بها، واللائق بالإنسان في حال الخَلَاء أن يَتَقَنَّع بِثَوب الحياء من الله تعالى مُجِلًّا له، ذاكرًا نِعْمَته عليه، وإحسانه إليه في مثل هذا المَقَام، وهذه الحال.

إنَّ فَقْد الحياء عَلَامَة من عَلَامَات شَقَاء العبد، فإذا كان الزوج عَدِيم الحياء، أو كانت الزوجة عَدِيمة الحياء؛ فلا تَسْأل عن شِقْوَة أحد الزوجين بالآخر.

وإذا كان أحد الأبناء صَفِيق الوجه، لا يَسْتَحي، ولا يَرْعَوِي، ولا ينتهي عما لا يَلِيق؛ فلا تَسْأَل عن شِقْوَة مُخَالِطيه؛ ممن يُجَالِسُونه ويُآكِلونه ويُشَارِبُونه.

يقول الفضيل بن عِيَاض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خمس من علامات الشَّقَاء: القَسْوَة في القلب، وجُمُود العَين، وقِلَّة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطُول الأمل»[(١)].

فالحياء سبيل لحِفْظ ماء الوجوه، الذي به يَبْقَى رَوْنَقها وبَهَاؤها، كما قيل[(٢)]:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ ... وَلَا خَيْرَ فِيْ وَجْهٍ إِذَا قَلَّ مَاؤُهُ
حَيَاؤُكَ فَاحْفَظْهُ عَلَيْكَ وَإِنَّمَا ... يَدُلُّ عَلَى وَجْهِ الْكَرِيْمِ حَيَاؤُهُ

كما أنه أَصْلُ العَقْل وخَاصَّته، وبَذْر الخير، كما قال ابن حبان البُسْتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)].

وهو لِبَاس التَّقْوى، كما جاء ذلك عن مَعْبَد الجُهَنِي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، قال: «لِبَاس التَّقْوى: الحياء»[(٤)].

وقال وَهْب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان عُرْيَان ولِبَاسه التقوى، وزِينته الحياء، وماله العِفَّة»[(٥)].

والحياء من الإيمان، كما قال النبي ﷺ لرجل من الأنصار حينما مَرَّ به وهو يَعِظ أخاه في الحياء، فقال له النبي ﷺ: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ**»[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٢٠٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٥٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤١٦).
(٢) أخرجها ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٥٦) عن محمد بن عبد الله البغدادي.
(٣) انظر: «روضة العقلاء» (ص٥٥).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١١٤) واللفظ له، وابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣٦٦).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٩٧) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٦٣/ ٣٨٨).
(٦) أخرجه البخاري (٢٤، ٦١١٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وفي الحديث الآخر: «**الحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ**»(١)، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**الحَيَاءُ وَالعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ، وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ**»(٢)، وفي حديث أبي هريرة: «**الحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ**»(٣). وعنه أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(٤).

وهنا سؤال: كيف كان الحياء شُعْبَة من الإيمان وهو غَرِيزَة من الغَرَائِز؟!

والجواب: لما كان هذا الحياء يُحَرِّكه، فَيَأْمره بالخير، ويَزْجُره وَيَكُفّه عن فِعْل ما لا يَلِيق؛ كان من الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعمل؛ قول في القلب واللسان، وعمل في القلب واللسان والجوارح، ومن ثم فإن الحياء مِن أَجَلِّ الأعمال القلبية التي تَدْفع الإنسان على فِعْل ما يَلِيق، وتَكُفّه عما لا يَلِيق.

كما أن الحياء خُلُق إسلامي رَفِيع، كما في حديث أنس رضي الله عنه: «**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الحَيَاءُ**»(٥)، وأخلاق الإسلام كثيرة وإنما جعله النبي ﷺ خُلُق الإسلام؛ لأن به جِمَاع الخُلُق؛ فإن الإنسان إذا كان من أهل الحياء وُجِد فيه الكَرَم، والنَّخْوة، والحَمِيّة، والغَيْرة، وسائر الأخلاق الفاضلة، وإذا لم يكن كذلك فإنه لا يُكْرِم ضَيْفًا، ولا يُوَقِّر كبيرًا، ولا يَرْحَم صغيرًا، ولا يُحْسِن إلى أحد أيًا كان.

والحياء صفة يُحِبّها الله تعالى، كما قال النبي ﷺ لأَشَجِّ عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمَ، وَالحَيَاءَ**»(٦).

وهو من الدِّيْن، وقد ذُكِر عند عمر بن عبد العزيز رحمه الله الحياء، وأنه من الدِّين،

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٩٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصحَّحه الحاكم، والذهبي، والألباني في «صحيح الجامع» (١٦٠٣)، والحديث روي موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما. أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٣٣٧) (١١/ ٢٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٢٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصحَّحه الحاكم (١/ ٥١)، والذهبي، والألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٠١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٩) واللفظ له، ومسلم (٣٥).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١، ٤١٨٢) من حديث ابن عباس وأنس رضي الله عنهم، وصحَّحه الألباني بمجموع طرقه في «الصحيحة» (٩٤٠).

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤١٨٨) وغيره. وأصل الحديث في الصحيحين.

فقال عمر: «بل هو الدِّين كله»(١).

كما أنه صفة من صفات الله تعالى، ففي الحديث: «**إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**»(٢)، فهذا حياء كَرَم وبِرٍّ وجُودٍ وجَلَال وإفضال من الله تعالى.

كما أن صفة الحياء من أوصاف الملائكة عليهم صلاة الله وسلامه، ويدل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ مُضْطَجِعًا في بيتي، كاشفًا عن فَخِذَيه أو ساقيه، فَاسْتَأْذَن أبو بكر فأَذِن له، وهو على تلك الحال، فَتَحَدَّث، ثم اسْتَأْذَن عمر، فَأَذِن له، وهو كذلك، فَتَحَدَّث، ثم اسْتَأْذَن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ، وسَوَّى ثيابه... فدخل فَتَحَدَّث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تَهْتَشَّ له ولم تُبَالِه، ثم دخل عمر فلم تَهْتَشَّ له ولم تُبَالِه، ثم دخل عثمان فجَلَسْت وسَوَّيت ثيابك، فقال: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟!**»(٣).

كما أن الحياء من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد كان النبي ﷺ أشد حَيَاءً من العَذْرَاء في خِدْرِها(٤)، وقال ﷺ في موسى عليه السلام: «**إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ**»(٥).

وهو أيضًا من صفات المؤمنين الأبرار، والمؤمنات التَّقِيّات، الحافظات لحدود الله تعالى.

فهذا شمس الدين المقدسي، عالم من علماء المسلمين يقول: «كنت إذا انْكَشَفَ ساقي وأنا في خلوتي أبادر إلى سَتْره مع الاستغفار»(٦).

وقال الله تعالى عن ابنة صاحِب مَدْيَن: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

لم تأت تمشي مِشْيَةً تَتَبَخْتَر فيها، ولم تَنْزِع عنها جِلْبَاب الحياء، بل جاءت مُحْتَشِمة.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٨٧)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٧٣١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٢٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٨) واللفظ له، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبان (٨٧٦)، والألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٦٢، ٦١٠٢، ٦١١٩)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه السخاوي في «الضوء اللامع» (٩/ ١٥٤).

وهذه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، لما دعاها النبي ﷺ لتَرْكب خَلْفه؛ اسْتَحْيَت وامْتَنَعَت رضي الله عنها[١].

ولما سألت أمّ سُلَيم رضي الله عنها النبي ﷺ عن احْتِلَام المرأة؛ غَطَّت أمّ سلمة رضي الله عنها وجهها من الحياء[٢]، لقد غَلَبَها الحياء رضي الله عنها وهي عند رسول الله ﷺ زوجها.

فهذا هو حياء المرأة المسلمة المرأة الشَّرِيفَة العَفِيفَة التي لم تُمَزِّق حياءها القنوات الفضائية، والمَجَلَّات الهَابِطة، وعارضات الأزياء، ودُور الرَّذِيلة في مَشَارِق الأرض ومَغَارِبها.



(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري (١٣٠).

الحياء في الكتاب والسُّنَّة

أولًا: في القرآن:

قال الله تعالى عن ابنة صاحب مدين: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ [القصص: ٢٥].

وقال عن نبيِّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ثانيًا: الحياء في السُّنَّة:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»، قال: قلنا: يا رسول الله! إنا نستحيي والحمد لله، قال: «**لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِك فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال للأَشَجِّ العَصَرِي: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمَ، وَالحَيَاءَ**»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الحَيَاءُ**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٣٥٩)، والذهبي، وحسَّنه النووي في «خلاصة الأحكام» (٢/ ٨٩٤)، والألباني في «المشكاة» (١٦٠٨ ـ التحقيق الثاني).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أَشَدَّ حَيَاءً من العَذْرَاء في خِدْرِها»[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ، وَلَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ**»[(٣)].



(١) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٧٤)، وابن ماجه (٤١٨٥) واللفظ له، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٥٥).

هل الحياء غَرِيزَة أو شيء مكتسب؟

لا شكَّ أن الحياء غَرِيزة فُطِر عليها جميع الناس ـ المؤمن والكافر ـ على تفاوت بينهم في ذلك، فمِنهم من فُطِر على قَدْر كبير منه، كما قال النبي ﷺ لأَشَجّ عبد القيس ـ كما في بعض الروايات: ـ «**بل الله جبلَك عليهما**»[(١)]. وإذا أردت أن تَعْرِف حقيقة ذلك الحياء الفطري فانظر إلى الصغير ممن له سنة أو سنتان أو نحو ذلك، حينما تُحَدِّق النَّظَر إليه فإنه لربما ظهر عليه من أمارات الحياء ما لا يخفى.

إلا أن فِطْرة الحياء كغيرها من الفِطَر التي يُمْكِن أن تَتَدَنَّس وتَتَغَيّر، وأن يَعْتَورها ما يَعْتَور الفِطَر الأخرى، كما قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[(٢)].

وإذا كان هذا الخُلُق في أصله غَرِيزة فُطِر الناس عليها إلا أنه يمكن أن يُكتَسَب، ويُنَمَّى، فالصغير حينما يُرَبَّى ويُنَشَّأ على الحياء؛ فإن ذلك ينمو ويَتَجَذَّر في نَفْسه، حتى يصير الحياء سِمَة بارزة له، وأما إذا نُشِّئ على خِلَاف الحياء، كما لو تَرَبَّى في بيئة لا مَجَال للحشمة فيها، فتَقَع عينه على أمٍّ قد تَعَرَّت من السَّتْر، وأبٍ يَتَلَفَّظ بأبشع الألفاظ، فَأَنَّى لهذه الفِطْرة أن تنمو؟! وكيف لهذا الصغير أن يَتَحَاشَى تلك الأمور بعد ذلك؟!

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ[(٣)]

مع أن هذه الخَصْلَة مَغْرُوزَة فيه حينما وُلِد؛ فهي خَاصِيّة بَشَرِيَة؛ حباها الله ﷻ هذا الإنسان، وَمَيَّزَه بها عن الحيوانات؛ فإن الحيوان لا يَعْرِف الحياء، وَكُلَّمَا انْحَطَّ الإنسان وتَدَنَّى في أخلاقه شَابَه العَجْمَاوَات والحيوانات في نَزْع الحياء، ووقُوعها على ذَمِيم الأخلاق ومَسَاوِئها.

وانظر إلى آدم وحواء عليهما السلام حينما أكلا من الشجرة بَدَت لهما سوآتهما، لكنهما

---

(١) تقدم تخريجه، وهذا لفظ أبي داود (٥٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «ديوان أبي العلاء المعري» (ص١٤٥٨).

بِفِطْرتهما طَفِقَا يَخْصِفَان عليهما من ورق الجنة، وهذا يَدُلّ على أن الحياء فِطْرَة فيهما، وأن التَّعَرِّي والتَّكَشُّف والتَّهَتُّك خِلَاف الفِطْرة، إنما الفِطْرة في السَّتْر والحِشْمة والحياء، والشيطان حَرِيص على نَزْع ذلك بدَعْوته إلى كَشْف العَوْرات، والتَّعَرِي، وإظهار المَفَاتِن والمَحَاسِن؛ من أجل إغراق الناس في الرَّذِيلة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وهذا الذي تدعو إليه الجاهلية الغَرْبِيّة المُعَاصِرة، بكل ما أُوتِيَت من قُوَّة وآلة تُدَمِّر فيها ما تَبَقَّى عند الناس من مَكَارِم الأخلاق التي بُعِثَ النبي ﷺ لتَتْمِيمِها وتَكْمِيلِها.



المُفَاضَلة بين الحياء والخَوف

الحياء من شِيَم الأشراف، وهو من صفات النُّفُوس الأَبِيَّة الكريمة الزَّكِية، وصاحبه أَحْسَن حالًا ممَن كان حَامِله عن فِعْل ما لا يليق الخوف المُجَرَّد؛ فإن الدَّافِع للإنسان عن فِعْل القبيح قد يكون الخوف من الله أو من الناس، وقد يكون الحياء من الله أو من الناس.

ثم إن الحياء من الله سبحانه يَدُل على مُرَاقبته، وحُضُور القَلْب معه، وتَعْظِيمه جَلَّ جَلَالُه، وليس ذلك بمُتَحَقّق في الخَوف بِقَدْر تَحَقّقه في الحياء.

فالذي وَازِعُه الخوف من الله تعالى قَلْبه مُلَاحِظ للعقوبة، حَاضِر معها، وهو مُلَاحِظ لنفسه ولمَصْلَحَتها فَحَسْب، بِخِلاف من كان وَازِعُه الحياء من الله تعالى؛ فإن قلبه حاضر مع الله في حال الإحسان والإساءة، وجميع أحواله؛ حتى في صَدَقَته يُرَاقِب الله فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فهو يَعْلم أن هذا الإِنْعَام والإفضال من الله تبارك وتعالى، ولكنه يَسْتَحِي منه؛ لأنه يعلم أن هذا العطاء لا يُكَافِئ نِعَم الله تعالى.

والمُسْتَحيي مُرَاعٍ لجَانِب الرَّبّ، والخائف مُرَاعٍ لجَانِب النَّفْس.

فمَن كان وَازِعه الحياء نَبَعَت يَنَابِيع الحكمة من قَلْبِه، وتَفَجَّرَت عُيُونها، وارْتَسَمَت عليه مَكارِم الأخلاق في كل أحواله ومَقَامَاته[1].



(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

أنواع الحياء[١]

الحياء ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الحياء من الله تعالى، ويكون بامتثال أوامره، واجتناب زواجره، فَعَن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه أنه قال: قلتُ: يا رسول الله! عَوْرَاتُنا ما نأتي منها وما نَذَر؟ قال: «**احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**»، قال: قلت: يا رسول الله! إذا كان القوم بعضهم في بعض، قال: «**إِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَرَيَنَّهَا أَحَدٌ فَلَا يَرَيَنَّهَا**»، قال: قلت: يا رسول الله! إذا كان أحدنا خاليًا، قال: «**الله أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ**»[٢].

وعن سعيد بن يَزِيد الأَزْدي، أنه قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «**أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ عز وجل، كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ**»[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ**»، قال: قلنا: يا رسول الله! إنا نستحيي والحمد لله، قال: «**لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الاِسْتِحْيَاءَ مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»[٤].

وخَطَب أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فقال: «يا مَعْشَر المسلمين اسْتَحْيُوا

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص٣٩٢ ـ ٣٩٦).

(٢) ذكره البخاري معلقًا مختصرًا (١/ ٦٤) (كتاب الغُسْل، باب من اغْتَسَل عُرْيَانًا وحده في الخَلْوة، ومن تَسَتَّر فالتَّسَتّر أفضل). ووصله أبو داود (٤٠١٧) واللفظ له، والترمذي (٢٧٦٩)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وحسَّنه الترمذي، وابن حجر في «مقدمة فتح الباري» (١/ ١٠٣)، والألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٣)، وصحَّحه الشوكاني في «السيل الجرار» (ص٤٥)، وابن باز في «فتاواه» (٢١/ ١٨٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٩١)، والطبراني في الكبير» (٥٥٣٩) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٤٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤١).

(٤) تقدم تخريجه.

من الله، فوالذي نفسي بيده إني لأَظَلّ حين أذهب الغائط في الفضاء مُتَقَنِّعًا بثوبي استحياءً من ربي ﷻ»[(١)].

وقد سُئِل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود: ٥]: فقال: «أُنَاس كانوا يَسْتَحْيُون أن يَتَخلَّوا فَيُفْضُوا إلى السماء، وأن يُجَامِعُوا نِسَاءهم فَيُفْضُوا إلى السماء»[(٢)].

النوع الثاني: الحياء من الخَلْق، ويكون بِكَفِّ الأذى عنهم بجميع أنواعه، سواء كان بالقول أو الفِعْل، وتَرْك سوء الظَنِّ بهم، وتَرْك المُجَاهَرَة بِكُلِّ قَبِيْح.

وبين الحياء من الله تعالى والحياء من المخلوقين مُلَازَمَة أكيدة، يقول زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه: «مَن لم يَسْتَحِ مَن الناس لم يَسْتَحِ من الله»[(٣)].

النوع الثالث: الحياء من النَّفْس، ويكون بالعفاف، وصِيَانة الخَلَوات. وهو نَوع لَطِيف من الحياء، يَعْرِفه أصحاب النُّفُوس الكريمة، الشَّرِيفة، العزيزة، الرفيعة، الأبية، فتلك النُّفُوس تستحي من رضاها لِنَفْسها بالنَّقْص، ومن قناعتها بالدون، حتى كأنما صاحبها له نفسان، يَسْتَحي بإحداهما من الأخرى.

وهذا النوع أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحى من نَفْسه كان أولى وأجدر بأن يستحي من غيره كما لا يخفى.

*** أقسامه بالنظر إلى دواعيه وبواعثه[(٤)]:**

الأول: الحياء بسبب الجناية، ويدل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسو الله ﷺ: **«يَجْتَمِعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي، ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحِي، فَيَقُولُ: ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ،**

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٦)، ومن طريقه ابن أبي الدنيا (٩٢) واللفظ له، والخرائطي (٣٢١) كلاهما في «مكارم الأخلاق»، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٣٧)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨١).
(٣) أخرجه هناد (٢/ ٦٢٩)، وأبو داود (٣٥٩) واللفظ له، كلاهما في «الزهد».
(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢).

فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُوسَى، عَبْدًا كَلَّمَهُ الله وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَيَسْتَحِي مِنْ رَبِّهِ...»[(١)].

الثاني: **الحياء بسبب التقصير**، وبيان ذلك: أن الحياء خُلُق يَتَوَلَّد من أمرين: من مُلَاحَظَة النِّعْمة والإِفْضَال، ومن مُلَاحَظَة التَّقْصِير في جَانِب النِّعْمة، فالله يُنْعِم على العبد ويَتَفَضَّل، فَيَتَوَلَّد من تقصير العبد في شكر هذه النِّعَم حالة يُقَال لها: الحياء، فَيَسْتَحي المُنْعِم عليه سبحانه؛ لتقصيره في القيام بحقُوقه؛ من تَحْقِيق أَلْوَان العبودية له جلّ جَلَاله.

الثالث: **حياء الإِجْلَال**، ويكون ذلك لمن عَرَفَ الله ﷻ مَعْرِفة صحيحة بأسمائه وصفاته، وعلى قَدْر مَعْرِفَة العبد بِرَبِّه يكون حياؤه منه.

الرابع: **حياء الكَرَم**، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فقد جاء عن أنس رضي الله عنه في سبب نزولها أنه قال: «لما تَزَوَّج رسول الله ﷺ زينب بنت جَحْش، دعا القوم فَطَعِمُوا، ثم جَلَسُوا يَتَحَدَّثُون، وإذا هو كأنه يَتَهَيَّأ للقيام فلم يقوموا، فلمَّا رأى ذلك قام، فلمَّا قام من قام، وقَعَد ثلاثة نَفَر، فجاء النبي ﷺ لِيَدْخُل فإذا القوم جلوس...»[(٢)]، فلم يأمرهم النبي ﷺ بالانصراف حياء وكَرَمًا منه ﷺ.

الخامس: **حياء الحِشْمَة**، ومن ذلك ما جاء عن علي رضي الله عنه أنه قال: «كنتُ رَجُلًا مَذَّاءً، وكُنتُ أَسْتَحِيي أَنْ أَسْأَل النبي ﷺ لمكان ابْنَتِه، فَأَمَرْتُ المِقْداد بن الأسود فَسَأَلَه...»[(٣)].

وقد كان العرب في جاهليتهم يَأْنَفُون ويَسْتَحْيُون وَيَكْرَهُون أن يَتَحَدَّث أحدهم بشيء مما يَتَعَلَّق بالنساء بحضرة أحد من أقارب زوجه.

السادس: **حياء التَّوَاضُع واسْتِصْغَار النفس**؛ كحياء العبد من ربه حينما يَسْأَله حوائجه اسْتِصْغَارًا لنَفْسه.

السابع: **حياء المَحَبَّة**، وهو حياء المُحِبّ من محبوبه إذا خطر على قلبه أو لاقاه؛ ولكنَّ هذه المحبة إذا كانت مُتَجَرِّدة عن الإجلال والتعظيم لم تُورِث الحياء الشرعي المَطْلُوب الذي يَحْمِل صاحبه على الامتثال والانزجار عما لا يليق، وإنما تُورِث لَوْنًا

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٩١) واللفظ له، ومسلم (١٤٢٨).
(٣) أخرجه البخاري (١٣٢، ١٧٨، ٢٦٩)، ومسلم (٣٠٣) واللفظ له.

من المُؤَانَسَة فحَسْب، وإنما تُعْمَر القلوب بالمحبة المُقْتَرِنة بالإجلال والتَّعْظِيم والتَقْديس لله جلَّ جلاله.

الثامن: حياء العبودية، وهو حياء مُمْتَزِج بمحبة وخوف.

التاسع: حياء الشَّرَف والعِّزة، وذلك حياء النَّفْس الكبيرة والعظيمة إذا صدر منها ما هو دون قَدْرها من بَذْل أو عطاء أو إحسان، كما أن صاحب هذه النَّفْس يَسْتَحي من الآخذ المُعْطَى حتى كأنه هو السائل؛ وذلك أنه حينما يُقَدِّم لغيره شيئًا يرى أنه دون مَقَامه فإنه يَعْرَق جَبِينُه ويَسْتَحِي.

كما أن بعضهم لربما اسْتَحْيَا من حيوان بَهِيم، ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن جعفر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه خرج إلى حِيْطَان المَدِينة، فبينا هو كذلك؛ إذ نَظَر إلى أَسْوَد على بعض الحِيْطَان وهو يأكل، وبين يديه كَلْب رَابِض؛ فكلما أَخَذ لُقْمَة رَمَى للكلب مثلها، فلم يزل كذلك حتى فَرَغ مِن أكله، وعبد الله بن جعفر واقف على دابته يَنْظُر إليه، فلما فَرَغ؛ دَنَا منه، فقال له: «يا غلام! لمن أنت؟ فقال: لورثة عثمان بن عفان. فقال: لقد رأيت منك عَجَبًا. فقال له: وما الذي رأيت من العَجَب يا مولاي؟! قال: رأيتك تأكل، فكلما أكلتَ لُقْمَة رميت للكلب مثلها. فقال له: يا مولاي! هو رفيقي منذ سنين، ولا بد أن أجعله كأسوتي في الطعام. فقال له: فدون هذا يُجْزِئك. فقال له: يا مولاي! والله إني لأستحيي من الله عَجَّلَ أن آكل وعين تَنْظُر إليَّ لا تأكل»[(١)].

فأين من هذا الذين يَشْبَعُون ويُصَابُون بِالتُّخَمة والملايين من البشر يموتون جوعًا؟!



(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٣٢٢٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٧/ ٢٧٧).

الطريق إلى تَحْقِيق الحياء

إن الطريق إلى تَنْمِيَة الحياء وغرْسه في النفوس يَتَحَقَّق بأمور، **منها**:

أولًا: اسْتِحْضار مُرَاقبة الله تعالى ونَظَرِه إلى العبد، وهذا المَشْهَد أَصْل لجميع الأعمال القلبية.

وتحقيق هذا المقام يكون باستحضار معية الله تعالى، فنتذكر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ [المجادلة: ٧]، وكلما اشتدت هذه المُرَاقبة أوجبت للعبد من الحياء ما لا يَحْصل بدونها، والحياء يجمع بين مَقَام المعرفة ومَقَام المُراقبة.

ثانيًا: تَقْوِية المَعْرِفة بالله ﷻ، وذلك من خلال التَّعَرُّف على صفات الكمال التي وصف الله تعالى بها نَفْسه؛ فإن العبد إذا عرف ربه بصفاته الكاملة مَعْرِفة صحيحة عَظُم في قلبه؛ فَهَابه، وخَافَه، واسْتَحيَا منه، وعَظَّمَه. وهذه معرفة خاصة لأهل الإيمان والتُّقَى، بخلاف المَعْرِفة العامة؛ فالخَلْق جميعًا يَعْرِفون أن الله هو خالقهم ومُوجِدُهم ورازقهم؛ ولكن أهل الإيمان الخاص هم الذين يَعْرِفُونه بصفات الكمال على وَجْه التَّفْصِيل.

وطَرِيق ذلك: هو أن نَعْرِف مَعَانِي هذه الأسماء، و«أن نَتَفَكَّر ونَتَأَمّل في آيات القرآن العظيم، والآيات الكونية، وأن نَتَأَمّل في حِكْمة الله تعالى وقُدْرته، ولُطْفه وإحسانه، وعَدْله في قضائه وقَدَره وخَلْقه.

وجِمَاع ذلك: الفِقْه في مَعَاني الأسماء الحسنى وجَلَالها وكَمَالها، وتَفَرّده بذلك، وتَعلّقها بالخَلْق والأَمْر، فيكون العبد فَقِيهًا في أوامر الله ونَوَاهيه، وفَقِيهًا في قضائه وقَدَره، وفَقِيهًا في أسمائه وصفاته، وفَقِيهًا في الحُكم الدِّيني الشَّرعِي، والحُكم الكوني القَدَرِي»[(١)]، وكلما ازدادت هذه المَعْرِفة وهذا الفقه ازداد الحياء في قلب العبد، فإذا عرف الإنسان رَبَّه مَعْرِفة حقيقية ازداد الحياء ونَمَا وتَرَعْرَع في قلبه.

وذلك أن الأسماء والصفات مُقْتَضِية لآثارها من العبودية، «فَلِكُل صِفَة عبودية خاصة، هي من مُوجَبَاتها ومُقْتَضَيَاتها»[(٢)]، فَعِلم العبد بِسَمْع الله وبَصَرِه، وأنه لا يخفى

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص٢٤٩) باختصار وتصرف.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ١٠١) بتصرُّف.

عليه مِثْقَال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يَعْلم السِّرّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تُخْفِي الصدور؛ كل ذلك يُورِثه الحياء؛ فَيَحْفَظ لسانه وجوارحه، وخَطَرات قلبه عن كل ما لا يُرْضِي الله تبارك وتعالى.

ثالثًا: **تَنْمِيَة العِفَّة في النُّفوس، وإِشَاعة العَفَاف**؛ فالعِفَّة هي أحد أركان حُسْن الخُلُق الأربعة.

إنها خَصْلة شَرِيفة تَحْمِل صاحبها على «اجتناب الرذائل والقبائح القولية والفعلية، وتَحْمِله على الحياء الذي هو رَأْس كل خير»[(١)].

رابعًا: **مَعْرِفة النَّفْس وضَبْطها**، فلا تَتَعَالى وتَتَكَبّر؛ فإن الإنسان إذا ضبط نَفْسه وعَرَفها، وكان فَقِيهًا بها؛ فإنه يستطيع بعد ذلك بِعَوْن الله تعالى أن يُسَيطِر عليها؛ فَيَضْبِط سُلُوكه، فَيُوجِب له ذلك: الحياء من الله، واسْتِكْثار نِعَمِه، واسْتِقْلال ما يُقَدِّمه في مُقَابِل هذه النِّعم من أَلْوَان العبوديات، فلا يكون مُدِلًّا على ربه جلّ شأنه بعمله الصالح.

خامسًا: **مُجَالَسة من يُسْتَحيا منه**؛ لأن الطَّبْع سَرَّاق، والناس كأَسْرَاب القَطَا جُبِلُوا على تَشَبّه بعضهم ببعض، فمن جَالَس أهل الحياء تَخَلَّق بأخلاقهم، ومن جالس أهل الجفاء والبَذَاء والرّعُونَة فإنه كذلك يَتَخَلَّق بأخلاقهم ولا بد.

فإذا جالس الإنسان من يَسْتَحيي بمُجَالَسَتِهم كان ذلك سَبَبًا لنَمَاء الحياء في نَفْسه.

ولهذا قال بعض السلف: «أَحْيُوا الحياء بِمُجَالَسَة من يُسْتَحْيَا منه»[(٢)].

ويقول الإمام مُجَاهِد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المُسْلِم لو لم يُصِب من أخيه إلا أنّ حياءه منه يَمْنَعه من المعاصي لكفاه»[(٣)].

سادسًا: **تَدَبُّر كلام الله تعالى**، الذي تَجَلَّى فيه لعباده بصفاته؛ تارةً بأوصاف الهَيْبَة والعَظَمَة والجَلال، وتارةً بصفة السَّمْع والبَصَر والعِلْم؛ فَتَنْبَعث في العبد قوة الحياء، فَيَسْتِحي من ربه أن يَسْمَعه أو يراه على ما يَكْره، أو يُخْفِي في سريرته ما يَمْقته عليه، فتبقى حَرَكَاته وأقواله ونَظَراته وخَوَاطِره مَوْزُونة بميزان الشّرع، غير مُرْسَلة تحت حُكْم الهوى.

سابعًا: **التربية على الحياء**: فَيُنَشَّأ الصغير على الحياء، ويُنَمَّى ذلك فيه؛ ويُعَوَّد على

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٩٠) باختصار وتصرف.
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٦٢)، والقشيري في «رسالته» (٢/ ٣٦٧).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٦٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٠) واللفظ له، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٩٦).

الحِشْمَة والسَّتْر، وتَرْك ما لا يَلِيق، فمن نَشَأ على ذلك في صِغَره لازمه في كبره، ومن شَبَّ على شيء شاب عليه:

مَا سُمِّي الـقَـلْـبُ إِلَّا مِـنْ تَـقَـلُّـبِـهِ وَلَا تَلِـيْـنُ إِذَا كَـانَـتْ مِـنَ الْـخشـبِ(١)

ثامنًا: **إزالة ما يُنَافِي الحياء**، من قنوات ومَجَلَّات وبرامج هابطة، ونحو ذلك، فكم دَمَّرت من أخلاق، وحَطَّمَت من قِيَم وفضيلة!

إنهم يُصَوِّرون الفَضِيْلة من خلال ذلك على أنها تَخَلُّف، ويَصِفُون المرأة المُحَافِظة على طُهْرها وحيائها وحِشْمَتها وعفافها بالمُتَخَلِّفة والرجعية، والانطوائية والمعقدة، وتُبْرَز المرأة العَصْرِية على أنها المُتَهَتِّكة المُتَبَرِّجة، التي باعت حياءها وحِشْمَتها، وتَرَجَّلت وظَهَرت أمام الشاشات تَعْرِض فِتْنَتها سِلْعَة رَخِيْصة.

وهكذا ما استجد للناس اليوم من وسائل التواصل الذي صارت معها المرأة تُتابع الرجل، والرجل يُتَابع المرأة، فيعرف كل واحد عن الآخر كثيرًا من تفصيلات حياته، ثم ما قد يقع مع ذلك من التَّرَاسُل والتَّوَاصُل وإبداء المَشَاعِر، مما يُجَرِّئ كل طَرَف على الآخر، حتى يكون بينهما من المُقَارَبة ما لا يُوجَد بين الأخ وأخيه، بل لا يُوجَد بين بعض الأزواج.

تاسعًا: **أن يَسْتَحْضِر العبد رؤية الملائكة له، وأنه**: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: ١٨]، وفي الحديث «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ: مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ**»(٢)، فإذا استحضر العبد ذلك اسْتَحْيَا أن يفعل ما لا يليق.

عاشرًا: **الإمْساك عن الأقوال والأفعال المُنَافِية للحياء**: وفي الحديث: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّم، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّم**»(٣)، فالحياء إنما يكون بِتَكَسُّبه وتَطَلُّبه، فإذا فَعَل الإنسان الأفعالَ اللائقة بأهل الحياء صار ذلك خُلُقًا راسخًا له، وإذا فَعَل ما يُضَادّ ذلك انْخَلَع من رِبْقَة الحياء.

حادي عشر: **تَذَكّر الآثار الطيبة للحياء، والآثار القبيحة المُتَرَتِّبة على تَرْكه.**

ثاني عشر: **مُجَاهَدة النَّفْس، وتَرْوِيضها على الأخلاق الفاضلة**؛ وذلك أن كل شَرَف

---

(١) «الأمثال» (ص١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥، ٧٤٢٩، ٧٤٨٦)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٦٣)، وابن شاهين في «الترغيب» (٢٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٧٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٣٤٢)، و«صحيح الجامع» (٢٣٢٨)، وروي موقوفًا على أبي الدرداء رضي الله عنه.

وعُلُو ورِفْعَة يحتاج إلى مُجَاهَدة ومُكَابَدة وأَلْوَانٍ من الصبر؛ لأن أضداد ذلك تُزَيِّن خِلَافَه، والنَّفْس فيها نَوَازِع، فكما أن الحياء غَرِيْزَة وفِطْرة فكذلك في النَّفْس الأمارة بالسوء داعي الهوى، وهو يُحَرِّك الإنسان ويدعوه إلى فِعْل ما لا يليق، فيبقى الصِّرَاع مُحْتَدِمًا بين الفَضِيْلة والرَّذِيلة، بين داعٍ يدعوه إلى الخير ومُلَازَمة الأخلاق الفاضلة، وداع يدعوه إلى ضدِّ ذلك.

ثالث عشر: **النَّظَر في سِيرَة أهل الفَضْل والشَّرَف**، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، فيُنْظَر في أخلاقه وصفاته وشمائله، وفي سِيَر الصحابة ﷺ، ومُطَالَعة أخلاقهم.

رابع عشر: **حياة القلب**، فإذا كان القلب حيًّا كان الحياء حاضرًا، فالحياء من الحَيَاة، ومن لا حَيَاة في قلبه لا حياء له، فَعَلى حَسَب حَيَاة القلب يكون الحياء، فكلما كانت الحَيَاة في القلوب أكبر وأكمل كان الحياء فيها أتم، وكما أن قِلّة الحياء من مَوْت القلب والرُّوح؛ ولهذا قال عمر ﷺ: «من قَلَّ حياؤه قَلَّ ورَعه، ومن قَلّ ورَعه مات قلبه»[(١)].

ولهذا فَضَّل العلماء رحمهم الله ذِكْر القلب على ذِكْر اللسان؛ «لأن ذِكْر القلب يَدُلّ على حياة القلب، ويكون مُحَرِّكًا له، ويُثْمِر فيه المَعْرِفة، ويُهَيِّج المَحَبَّة، ويُثِير الحياء، ويَبْعَث على المَخَافة، ويدعو إلى المُرَاقبة، ويَزَع عن التقصير في الطاعات والتَّهَاون في المعاصي والسيئات، أما ذِكْر اللسان المُجَرَّد فإنه قد لا يُوجِب شيئًا من ذلك»[(٢)]؛ لأن الإنسان قد يَذْكر ربه مع غَفْلَته، فلا بد من حضور القلب.



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٢٦)، و«مكارم الأخلاق» (٩٣)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٤٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٤/ ٣١٥) (٤٣/ ١٧٥).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص٢٢١) بتصرُّف.

الأمور التي تنافي الحياء

للحياء أضداد، وموانع تُضْعِفه وتُحَطِّمه، فينبغي الحذر على هذه الخصلة الفَذَّة الشَّرِيفة من كل آسر وكاسر، ومن الخطأ أن تُجْعَل عُرْضَة للصوص الأخلاق، ودعاة الرذيلة، يَنْتَشِلُونها ويَقْتَلِعُونها من النُّفُوس. **ومن الأمور التي تُذْهب الحياء وتُضْعِفه:**

أولًا: **المعاصي بجميع أنواعها**، فالذّنوب تُضْعِف الحياء في القلب، حتى إن القلب لَيَمُوت بسبب هذه الذنوب، وينْسَلِخ من الحياء بالكُلِّيَّة، فلا يَتَأَثَّر الإنسان بعد ذلك بفِعْل القَبِيْح، بل لربما تبجَّحَ به، وأخبر الناس عنه، وافْتَخَر بما لا يَلِيْق.

فإذا كان الإنسان مُدْمِنًا على المعاصي، مُعْتَادًا لها؛ فإنه لا يَرْعَوِي، بل يَفْعَل ذلك أمام الناس دون حياء، انظر مثلًا إلى حال المُدَخِّن، يَفْعَل ذلك أمام الآخرين بلا حياء، ولا يرى في ذلك غَضَاضَة، بينما من لم يَعْتَد على هذه الخَصْلَة السيئة لو أراد أن يفعلها تَخَفَّى.

فبين الذنوب وقِلّة الحياء مُلَازَمة أكيدة.

ومن تلك الذنوب التي تُضْعِف الحياء سَمَاع الأغاني.

يقول يزيد بن الوليد ـ وهو من خلفاء بني أمية ـ: «يا بني أمية، إياكم والغناء؛ فإنه يُنْقِص الحياء، ويَزِيد في الشَّهْوة، ويَهْدِم المُروءة، فإنه لَيَنُوب عن الخمر، يَفْعَل ما يَفْعَل السُّكْر، فإن كنتم لا بد فاعلين فَجَنِّبُوه النساء؛ فإن الغناء داعية الزنا»(١).

ثانيًا: **التربية السيئة**؛ فإن أثر التربية لا يُنْكَر، وقد مضى فيما سَبَق ما يكفي في هذا الجانب.

ثالثًا: **مُخَالَطة النساء للرجال الأجانب**، فعمل المرأة مع الرجال الذي يَسْتَلْزِم مُخَالَطتهم، وحضور اجتماعاتهم، ولربما تَطْبِيبهم؛ يُذْهِب حياءها، فتُصْبِح مُتَرَجِّلة، بل لربما أَبْدَت لغيرها أنها امرأة لديها قُدْرة على الاندماج، ومُدَاخَلة الآخرين، وكَسْر التقاليد ـ كما يُقَال ـ وما عَلِمَت أنها بذلك تَكْسِر شَرَفها وخُلُقها ودينها.

فهذه امرأة من أشراف العرب، زَنَت بعبدها، فَسُئِلَت عن سَبَب ذلك، فقالت: «طُول السُّهَاد، وقُرْب الوِسَاد»(٢)؛ أي: كثرة المُخَالطة مع طُول المُحَادَثة.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٥٠). (٢) تقدم ذكرها.

رابعًا: **مُخَالَطة من قَلَّ حياؤهم**، أو إدْمَان النَّظَر إليهم عبر المسلسلات وما إلى ذلك.

خامسًا: **كثرة خروج المرأة من بيتها**، فإن ذلك لَوْن من أَلْوَان التَّبَرُّج، قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، والتَّبَرُّج من البُرُوج، وهو الظُّهُور والانْكِشَاف، ومنه قيل للبُرْج ذلك؛ لأنه مُنْكَشِف ظاهر(١).

وفي القراءة الأخرى المتواترة: ﴿وَقِرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾(٢)، فأمرها بالقَرَار وبالوَقَار، وهما مُتَلَازِمان، فَوَقَار المرأة في قَرَارِها، وذَهَاب ماء الوجه إنما يكون بِكَثْرة خُرُوجِها.

وقال ﷺ: «**المَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ**»(٣)؛ أي: هَمَّ بها. فما أحوجنا إلى التنبه لهذا المعنى في وقت قد أَجْلَب الشياطين بخيلهم ورَجلهم؛ من دُعَاة خروج المرأة، بالقول والكتابة، في القنوات والإذاعات والإنترنت والصحف والمجلات.

فالمرأة مُهِمَّتُها القيام بِدَورها الريَادِي في تربية الجيل، وحِفْظ كَيَان الأسرة بالقرار في البيت، فيأتي الرجل، فيَجِد بيته مُهَيّأً على أحسن حال، بخلاف ما إذا خرجت، فإنه يُحْتَاج إلى مُرَبِية وخادمة، ولا يخفى ما في ذلك من المفاسد.



(١) انظر: «مقاييس اللغة» (١/ ٢٣٨)، مادة: (برج).
(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص٥٢١ ـ ٥٢٢).
(٣) أخرجه الترمذي (١١٧٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الترمذي، وابن خزيمة (١٦٨٥)، وابن حبان (٥٥٩٩)، والألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٥٠) وغيره.

من مظاهر الحياء

١ ـ أن يُطَهِّر المسلم لسانه من الفحش ومَعِيب الألفاظ، والألفاظ النابية البذيئة.

٢ ـ أن يَقتَصِد الإنسان في الحديث في المَجَالس؛ لأن الإكثار في ذلك مَظَنَّة للزلل.

٣ ـ أن يَتَوَقَّى الإنسان ويتحاشى أن يَصْدُر عنه سوء في قول أو فِعْل أو حال، فيتلطخ عرضه.

٤ ـ أن تُحَافِظ المرأة المسلمة على كرامتها وحِشْمَتِها، وأن تُرَاقِب ربها، وتَحْفَظ حق زوجها، وأن تَبْتَعِد عن مَسَالِك الرِّيبة والشُّبْهة.

٥ ـ أن نَعْرِف لأصحاب الحقوق حقوقهم.



مَظَاهِر لقلة الحياء[(١)]

من المظاهر المشينة التي تدل على قلة حياء أصحابها:

١ ـ المجاهرة بالمعاصي عُمُومًا.

٢ ـ كَثْرَة اللِّجَاج والخُصُومة، وعقوق الوالدين، وقِلَّة الأدب مع المُرَبِّين والمصلحين، وأذية النَّاس بأي لَون كان.

٣ ـ المزاح المُسِفّ، والتَّهَتّك والتَّعَرّي، والمُعَاكَسات، وتَقْلِيد الكفار في مُسْتَهْجن عاداتهم، والكتابات البذيئة على الجدران والأماكن العامة، ورسائل الجوال المُخِلَّة بالأدب، ونَغَمَات الجوال الموسيقية، وكذلك ما تقوم به بعض النساء من التَّبَرُّج، ومُزَاحمة الرجال في الأسواق والأماكن العامة.

٤ ـ ما يجري في المَشَاغِل النِّسَائية من أمور يَنْدَى لها الجَبِين؛ من كَشْف السوءات، وهَتْك العورات، والتَّخَلّي عن الحياء والفضيلة، مع أن النبي ﷺ يقول: «**مَا مِنْ امْرَأَةٍ تَضَعُ ثِيَابَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلَّا هَتَكَتِ السِّتْرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا**»[(٢)].

٥ ـ ما تفعله بعض النِّساء في الأعراس وغيرها؛ من لِبْس للملابس الضيقة، والعباءات الفاتنة، والنِّقَاب المُخِل بالحِشْمة، ومُضَاحَكة الرجال الأجانب، والخُضُوع بالقول معهم، وكذلك طَرْح الأسئلة الجريئة على البرامج المُبَاشرة، وكذلك الخروج للمطاعم ومقاهي الإنترنت، ونحوها، وكذلك ما تفعله بعض النساء عند البيع والشراء؛ من تمكين البائع أن يَقِيس عليها الحُلِي، أو الثوب ونحوه، وكذلك إخراج يدها له ليعطرها، وكذلك الخَلْوة مع الطبيب، والتكشف له من غير ضرورة.



(١) انظر: «موسوعة الأخلاق الإسلامية» (١/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠١٠)، والترمذي (٢٨٠٣) واللفظ له، وابن ماجه (٣٧٥٠) (٢/ ١٢٣٤)، وحسَّنه الترمذي، وجود إسناده ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٣٢٧)، وصحَّحه ابن حجر الهيتمي في «الزواجر» (١/ ٢١٣)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٠).

ثمرات الحياء[١]

أولًا: أنه يَزْجر صاحبه عن المعصية، ومُقَارَفة ما لا يَلِيق، وبِغِيَاب الحياء تُدَمّر الأخلاق، وتُرْتَكَب الفواحش والمُوبِقَات، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ**»[٢].

فَـلَا وَالـلَّـه مَـا فِـيْ الْـعَـيْـشِ خَـيْـرٌ   وَلَا الـدُّنْـيَـا إِذَا ذَهَـبَ الـحَـيَـاءُ
يَـعِـيْـشُ الـمَرْءُ مَـا اسْـتَـحْـيَـا بِـخَـيْـرٍ   وَيَـبْـقَـى الـعُـوْدُ مَـا بَـقِـيَ الـلـحَـاءُ
إِذَا لَـمْ تَـخْـشَ عَـاقِـبَـةَ الـلَّـيَـالِـي   وَلَـمْ تَـسْـتَـحْـي[٣] فَـاصْـنَـعْ مَـا تَـشَـاءُ[٤]

ثانيًا: ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْر»[٥]، وقوله ﷺ: «**مَا كَانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ، وَمَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ**»[٦].

ثالثًا: أنه يُورِث دوام المراقبة لله تعالى، ويُورِث العبد رِفْعَة، كما قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحياء والتَّكَرُّم خَصْلَتان من خِصَال الخير، لم يكونا في عبد إلا رَفَعَه الله عَزَّ وَجَلَّ بهما»[٧].

رابعًا: تَحْصِيل محبة الله تعالى، فالله حَيِي سِتِّير، يُحِبّ أهل الحياء، كما أن الحياء يُورِث حياة القلب، ويُؤَثِّر في حَجْم المُخَالَفَة والمعصية، فَشَتَّان بين من يَفْعَل المعصية وهو مُتَبَجِّح من غير حياء ومن يَفْعَلها وهو مُسْتَحٍ من الله تعالى.



---

(١) انظر: «موسوعة الأخلاق الإسلامية» (١/ ٢١٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨٣، ٦١٢٠) من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أُثبِتَت الياء لأجل الوزن.
(٤) «شرح ديوان أبي تمام» للخطيب التبريزي (٢/ ٣١١)، البيت الأخير ليس موجود في شرح الخطيب التبريزي، وهو موجود في ديوانه بشرح محيي الدين الخياط (ص٤٨٥).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٠٩).

من أخبار أهل الحياء

أكثر الناس حياء، وأعظمهم قَدْرًا فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد جاء في وصف النبي ﷺ أنه كان أشد حَيَاءً من العَذْرَاء في خِدْرِها[١].

وعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ: كيف أغتسل من المَحِيض؟ قال: «**خُذِي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً، فَتَوَضَّئِي ثَلَاثًا**»، ثم إن النبي ﷺ اسْتَحْيَا، فأعرض بوجهه... فأَخَذتُها فَجَذَبْتُها، فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ[٢].

وقال ﷺ في وَصْف موسى عليه السلام: «**إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ**»[٣].

وهكذا كان من بعدهم، فإنهم سَلَكُوا سبيلهم، وانْتَهَجُوا نَهْجَهم:

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول: «يا معشر المسلمين استحيوا من الله، فوالذي نفسي بيده إني لأَظَلّ حين أذهب الغائط في الفضاء مُتَقَنِّعًا بثوبي استحياءً من ربي عز وجل»[٤].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «إني لأَغْتَسِل في البيت المُظْلِم، فَأَحْنِي ظهري إذا أخذتُّ ثوبي؛ حياء من ربي»[٥].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان أبو موسى إذا نام لبس تُبَّانًا[٦] **مخافة أن تبدو عورته»**[٧].

وهذا ابن عباس رضي الله عنهما، لم يكن يدخل الحمام إلا وحده، وعليه ثوب صَفِيق[٨]، **ويقول**: «إني أستحي من الله أن يراني في الحمام مُتَجَرِّدًا»[٩].

وخرج زيد بن ثابت رضي الله عنه يريد الجمعة، فاستقبله الناس راجعين، فَدَخَل دارًا، فقيل

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري (٣١٤، ٣١٥) واللفظ له، ومسلم (٣٣٢).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ١٠٦).
(٦) **التُّبَّان**: سراويل صغير، يَسْتر العَورة المُغلَّظة فقط. «النهاية» لابن الأثير (١/ ١٨١)، مادة: (تبن).
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٢١٤).
(٨) أي: غليظ.
(٩) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٥٥).

له، فقال: «إنه من لا يَسْتَحي من الناس لا يَسْتَحِي من الله»[(١)].

وهذا الأسود بن يزيد كان مُجْتَهِدًا في العبادة، يصوم حتى يَخْضَرّ جَسَدُه ويَصْفَرّ... فلما احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجَزَع؟ قال: «ما لي لا أَجْزَع؟! ومن أحق بذلك مني؟! والله لو أُتِيتُ بالمغفرة من الله ﷻ لهَمَّنِي الحياء منه، مما قد صَنَعْتُه، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يَزَال مُسْتَحِيًا منه»[(٢)].

وهذا محمد بن يحيى لما وضعوه على السرير يغسلونه بعد موته قالت جارية مَمْلوكة له: «خدمت أبا عبد الله ثلاثين سنة، وكنتُ أَضَع له الماء، فما رأيتُ ساقه قط، وأنا مِلْك له»[(٣)].

وعن أبي الهذيل رَحِمَهُ اللهُ يقول: «أَدْرَكْنا أقوامًا وإن أحدهم يَسْتَحي من الله تعالى في سواد الليل»[(٤)]؛ يعني: من التَّكَشُّف.

وهذا الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللهُ، كان شديد الحياء، يقول عنه شيخه محمد بن سلام بعد أن خرج من عنده مرة: «أترون البِكْر أَشَدّ حياء من هذا؟!»[(٥)].

ودخل رجل على الإمام الحُمَيدي رَحِمَهُ اللهُ، فَدَقَّ عليه بابه، فَسَمِعه يُهَمْهِم، فَظَنّه قد أَذِن له، فدخل عليه، فجاءه، فَوَجَدَه مَكْشُوف الفَخِذ، فبكى الحُمَيدي بكاء شديدًا، وقال: «والله لقد نَظَرْتَ إلى مَوضِع لم يَنْظُره أحد منذ عَقَلْت»[(٦)].

وهذه امرأة مُعَاصِرة، كَتَب عنها أحد الدعاة، يقول: «كنتُ في رِحْلة دَعَوِيّة إلى بَنْجَلاديش مع فريق طبيٍّ، أقام مُخَيَّمًا لعلاج أمراض العيون، فتقدّم إلى الطبيب شيخٌ وَقُور ومعه زوجته بِتَرَدُّد وارتباك، ولمّا أراد الطبيب المُعَالِج أن يَقْتَرِب منها فإذا بها تبكي وتَرْتَجِف من الخوف، فظنّ الطبيب أنها تَتَأَلَّم من المرض، فسأل زوجها عن ذلك، فقال وهو يُغَالِب دموعه: إنها لا تبكي من الألم، بل تَبْكِي لأنها ستَضْطَرّ أن تَكْشِف وجهها لرجل أجنبي! لم تَنَم ليلة البارحة من القَلَق والارْتِبَاك، وكانت تُعَاتِبُني

(١) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٦١) مختصرًا، وابن عساكر في «تاريخه» (١٩/ ٣٣٢) واللفظ له.
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٠٣).
(٣) «تاريخ بغداد» (٤/ ١٩٠)، و«تاريخ دمشق» (٧٣/ ٢٧٢)، و«تهذيب الكمال» (٢٦/ ٦٣٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٢٧٩).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٥٩).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤١٨).
(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/ ٧٩).

كثيرًا: أوَترضى لي أن أكشف وجهي..؟! وما قَبِلَتْ أن تأتي للعلاج إلا بعد أن أقسمتُ لها أيمانًا مُغَلَّظَة بأنّ الله تعالى أباح لها ذلك للاضطرار، والله تعالى يقول: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣]. فلمّا اقترب منها الطبيب نَفَرت منه، ثم قالت: هل أنت مسلم؟ قال: نعم، والحمد لله!! قالت: إن كنتَ مُسْلمًا.. إن كنت مُسلمًا.. فأسألك بالله ألّا تهتك سَتْري، إلا إذا كُنتَ تَعْلَم يَقِينًا أن الله أباح لك ذلك. أُجْرِيَت لها العملية بنجاح، وأزيل الماء الأبيض، وعاد إليها بَصَرها بفضل الله تعالى. حدّث عنها زوجها أنها قالت: لولا اثنتان لأَحْبَبْتُ أن أصبر على حالي ولا يَمَسُّني رجل أجنبي: قراءة القرآن، وخدمتي لك ولأولادك»(١).

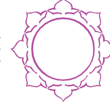
هذا آخر ما أردت ذكره في موضوع الحياء، والله أعلم.



(١) «مجلة البيان» [عدد: ١٣٨/ صفر/ ١٤٢٠هـ].

السادس عشر

التَّوبَة



توطئة

«إن مَنْزل التوبة أوّل المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السَّالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واسْتَصْحَبه معه. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النُّور: ٣١]، وهذه الآية خاطب اللهُ بها أهلَ الإيمان وخيارَ خَلْقِهِ؛ أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم علَّق الفَلَاحَ بالتوبة تعليقَ المُسَبَّب بسببه، وأتى بأداة (لعل) المُشْعِرة بالترجّي، إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاحَ إلا التائبون.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾ [الحُجُرَات: ١١]، فقَسَّمَ العبادَ إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قسمٌ ثالثٌ البتةَ. وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقِّه، وبعيب نَفْسه، وآفات عمله»[(١)].

وحقيقة التوبة: الرجوع إلى الله، ولا يصحُّ الرجوع، ولا يَتِمّ إلا بمعرفة الربِّ بأسمائه وصفاته، وآثارها في نَفْسه، وفي الآفاق. ومعرفة أنه كان فارًّا من ربه، أسيرًا في قبضة عدوه، وأنه ما وقع في مَخَالِب عدوِّه إلا بسبب جهله بربه، وجُرْأته عليه.



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٩٩) باختصار وتصرف يسير.

معنى التوبة وحقيقتها

أولًا: التوبة في اللغة:

التوبة في اللغة تدور على معنى الرجوع والعودة، والإنابة والنَّدَم.

قال ابن فارس: «التاء والواو والباء كلمة واحدة، تدل على الرجوع... والتَّوْب: التوبة، قال الله تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]»(١). اهـ.

التوبة في الشرع:

وأما معنى التوبة في الشرع: فقد كثرت عبارات العلماء في بيان حقيقتها، وقد عرَّفها جماعة من أهل العلم؛ كالأخفش، والغزالي، والقرطبي، والقشيري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، والألوسي، وابن عاشور(٢).

ويجمع تلك التعاريف القولُ بأنها: تَرْك الذنب عِلْمًا بقُبْحه، وندمًا على فِعْله، وعَزْمًا على ألَّا يعود إليه إذا قَدِر، وتَدَارُكًا لما يمكن تَدَارُكه من الأعمال، وأداءً لما ضيِّع من الفرائض؛ إخلاصًا لله، ورجاء لثوابه، وخوفًا من عقابه، وأن يكون ذلك قبل الغَرْغَرَة، وقبل طلوع الشمس من مَغْربها.

وذكر الغزالي أنها تنتظم وتلتئم من ثلاثة أمور: «**عِلْم، وحال، وفِعْل**.

فالعلم: هو معرفة عِظَم ضَرَر الذنب، وأنه حجابٌ عن الله ﷻ، والنعيم في الآخرة، وأن الذنوب تُورِث الخسرانَ والهلاكَ.

وأمَّا الحال: فهو ما يقوم في نَفْس الإنسان من الندم والتَّأَلم، والغَمّ بسبب ارتكابه للذنب أو التقصير.

وأما الفِعْل: فهو انبعاث القلب لإرادة الإقلاع عن الذنب في الحال إذا كان لا يزال مُتَلَبِّسًا به، والعَزْم على تَرْكه، وعدم العودة إليه، وهذا مُتَعَلِّق بالمستقبل، وبتدارك ما

---

(١) «مقاييس اللغة» (١/ ٣٥٧)، مادة: (توب)، وانظر: «تهذيب اللغة» (٤/ ٣ ـ ٤)، مادة: (توب).

(٢) انظر: «الصحاح» (١/ ٩١)، مادة: (توب)، و«إحياء علوم الدين» (٨/ ٥٠٠ ـ ٥٠١ بشرح الزبيدي)، و«الرسالة القشيرية» (١/ ٢٠٧)، و«مدارج السالكين» (١/ ٣٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٤٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٩)، و«روح المعاني» (١/ ٢٣٧)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٤٣٨).

يمكن تداركه، وتلافي ما فات»[(١)].

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن التوبة في كلام الله وكلام رسوله ﷺ، كما تتضمَّن الإقلاع عن الذنب في الحال، والنَّدَم عليه في الماضي، والعَزْم على عدم العَوْد في المستقبل؛ وتتضمن أيضًا العزمَ على فِعْل المأمور والتزامه، فحقيقةُ التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فِعْلِ ما يُحِبّ، وتَرْك ما يكره[(٢)].

فهو يرى أن التوبة لا يَكفي فيها الندم، والعزم على عدم العودة إلى الذنب، والإقلاع عنه، ورد المظالم إلى أصحابها، كما هي الشروطُ الأربعةُ المعروفةُ؛ بل لا بد معها من صلاح الحال؛ بالتزام أمر الله عَزَّوَجَلَّ، واجتناب نهيه. وما ذكروه من هذه الأربع إنما هو بعض مُسَمَّاها، بل شروطها[(٣)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالرجوع إلى المحبوب جُزْء مُسَمَّاها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر؛ ولهذا علَّق سبحانه الفلاحَ المطلقَ على فِعْل المَأْمور وتَرْك المحظور بها، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النُّور: ٣١]، فكل تائب مُفْلح، ولا يكون مُفْلحًا إلا مَنْ فَعَل ما أُمِر به، وتَرَك ما نُهِيَ عنه. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾ [الحُجُرَات: ١١]، وتاركُ المأمورِ ظالمٌ، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناسُ قسمان: تائب وظالم، ليس إلا[(٤)]، فالتوبةُ هي حقيقةُ دينِ الإسلامِ، والدينُ كلُّه في مسمّى التوبة...

فالتوبة هي الرجوع عما يكرهه اللهُ ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل في مسماها الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ، وتتناول جميع المقامات؛ ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وُجد لأجلها الخلقُ والأمرُ... ولولا أن التوبةَ اسمٌ جامعٌ لشرائعِ الإسلامِ وحقائقِ الإيمان لم يكن الربُّ تبارك وتعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرحَ العظيمَ، فجميعُ ما يتكلم فيه الناسُ من المقامات والأحوال هو تفصيل التوبة وآثارها»[(٥)]. اهـ.



(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣)، و«الموسوعة الفقهية» (١٤/ ١١٩).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٥).
(٣) انظر: المصدر السابق (١/ ٣٠٥).
(٤) أي: ليس هنالك قسم ثالث.
(٥) المصدر السابق (١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧) بتصرُّف.

إطلاقاتٌ أخرى للتوبة فِي الكتاب والسُّنَّة

أولًا: الإنابة:

الإنابة في اللغة:

الإنابة: الرجوع إلى الله بالتوبة، وكثيرًا ما يَتَكَرَّر في القرآن ذِكْرُ الإنابة والأمر بها[١].

قال ابن القيم: «قال صاحب المنازل[٢]: الإنابة في اللغة: الرجوع، وهي هاهنا الرجوع إلى الحق»[٣]. اهـ.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٥٤]، وقال شعيب ﷺ لقومه: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هُود: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾ [ق: ٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ۝٢٧﴾ [الرَّعْد: ٢٧]، وقال عن داود ﷺ: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۝٢٤﴾ [ص: ٢٤].

والإنابة لها معنيان ـ وتحديد أحدهما يرجع إلى السياق ـ:

الأول: التوبة.

والثاني: ما بعد التوبة؛ مِنَ الصِّلة الدائمة بالله تعالى، ولجوء التائب إلى رَبِّهِ تعالى في كل شؤون حياته، واعتصامه به.

الإنابة في الاصطلاح:

ذكر الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أن «الإنابة هي الرجوع إلى الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وأنها تتضمّن المحبّةَ والخشيةَ، وذلك أن المنيب محبٌّ لمن أناب إليه، خاضعٌ له، خاشعٌ ذليلٌ. وذكر أن الناس في إنابتهم على درجات متفاوتة:

فمنهم: المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، وهذه الإنابة مَصْدرُها: مطالعةُ الوعيدِ، والحاملُ عليها: العلمُ والخشية والحذر.

ومنهم: المنيب إلى الله بالدخول في أنواع العبادات والقُرُبات، فهو ساعٍ فيها

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١/٢٢٦)، مادة: (نوب).
(٢) «منازل السائرين» (ص١٧).
(٣) «مدارج السالكين» (١/٤٣٤ ـ ٤٣٥)، وانظر: «الصحاح» (١/٢٢٨ ـ ٢٢٩).

بجُهْده، فهذه الإنابةُ مصدرُها: الرجاءُ، ومطالعةُ الوعدِ والثوابِ...

ومنهم: المنيب إلى الله بالتضرع، والدعاء، والافتقار، والرغبة، وسؤال الحاجات كلها منه، ومصدر هذه الإنابة: شهود الفضل، والمِنَّة، والغنى، والكرم، والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم، وعلَّقُوا به آمالهم»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عام في حق كل داع أصَابَهُ ضُرّ، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تَسْتَلزِم الإسلام، بل تُجَامِع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلٰهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عَمَّا سِوَاهُ»[2]. اهـ.

ثانيًا: الأَوْبَة:

فالأَوْب هو الرجوع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الْغَاشِيَة: ٢٥]؛ أي: رجوعهم. والمآبُ هو المَرْجِعُ، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٥]؛ أي: حُسْن المَرْجِع الذي يصير إليه في الآخرة، والأَوَّاب هو كثير الرجوع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من ذنبه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإِسْرَاء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، فـ«الأوبةُ هي الرجوعُ كالتوبة، والأوابُ: التائب»[3].

ثالثًا: ثاب:

تقول: ثاب الرجل: إذا رجع بعد ذهابه، وثاب فلانٌ إلى الله؛ أي: عاد، ورجع إلى طاعته.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تاب، وثاب، وآب، وأناب: رجع»[4]. اهـ.

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤) بتصرُّف يسير.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن منظور في «لسان العرب» (١/ ١١٦)، مادة: (أوب).

(٤) «تفسير القرطبي» (١/ ٤٨٢). وانظر أيضًا: «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٣)، مادة: (ثوب)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٤٣٨).

رابعًا: التوبة النصوح:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التَّحْرِيم: ٨]، فأصلُ هذه المادة (نصح) لخَلَاص الشيء من الغشّ والشَّوائب الغريبة، فالنُّصْح في التوبة هو تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وعبارات السلف رضي الله تعالى عنهم تفاوتت وتَنَوَّعَتْ في تفسيرها، لكنها ترجع إلى شيء واحد.

قال عمر بن الخطاب، وابن عباس رضي الله عنهم: «التوبةُ النصوحُ: أن يَتُوبَ لا يعود»[(١)]، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع.

وقال الحسن البصري رحمه الله: «هي أن يكون العبد نادمًا على ما مَضَى، مُجمِعًا على ألَّا يعود فيه»[(٢)].

وفسَّرها الكَلْبي بأن يستغفر باللّسان، ويندم القلب، ويُمْسِك بالبَدَن[(٣)].

وقال سعيد بن المسيب: «توبة تنصحون بها أنفسكم»[(٤)]، فجعلها بمعنى ناصحة للتائب.

فكلام عمر وغيره يرجع إلى أن التوبة النصوح، هي التي نَصَح فيها التائب، ولم يَشُبْهَا بِغِشّ، فيجعلونها بمعنى المفعول. وعلى قول سعيد بن المُسَيِّب: فهي التوبة الناصحة للتائب، فهي بمعنى اسم الفاعل؛ كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كَعْب القُرَظي: «يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار تَرْك العَودِ بالجِنان، ومُهَاجرة سَيِّئ الإخوان»[(٥)].

قال ابن القيم رحمه الله: «النصح في التوبة **يتضمن ثلاثة أشياء**:

الأول: تعميم جميع الذنوب، واستغراقها بها، بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العَزْم، والصِّدق بكُلِّيَّته عليها، بحيث لا يبقى عنده تَرَدُّدٌ، ولا تلوّم، ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادتِه وعزيمته، مُبَادِرًا بها.

الثالث: تَخْلِيصها من الشوائب والعِلَل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمَحْض

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، وقد رُوِيَ مرفوعًا من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه أحمد (١/ ٤٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٣٧)، وغيرُهما، ولكن الصواب وقفه، كما قال البيهقي، وابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١٦٩)، والألباني في «الضعيفة» (٢٢٣٢).

(٢) «تفسير البغوي» (٨/ ١٦٩).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرَّهْبة مما عنده، لا كَمَنْ يتوب لحفظ جاهِه وحرمتِه ومنصبِه ورئاسته، ولِحفْظ حاله، أو لحِفْظ قُوتِهِ وماله، أو استدعاء حَمْد الناس، أو الهَرَب من ذَمِّهِمْ... أو لإفلاسه وعَجْزِه، ونحو ذلك من العِلَل التي تقدح في صِحّتها، وخلوصها لله ﷻ.

فَنُصْحُ التوبةِ: الصدقُ فيها، والإخلاصُ، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أنَّ هذه التوبة تَسْتَلْزم الاستغفار، وتتضمّنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة»[1]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالتوبة النَّصُوح هي الخالصة من كل غِش، وإذا كانت كذلك كائنة؛ فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نَفْسه، فَمَنْ خرج من قلبه الشبهةُ والشهوةُ لم يَعُدْ إلى الذنب»[2]. اهـ.

فالذين يتوبون، ويرجعون، سبب رجوعهم: هو أنه لا زالت علائقُ الشهوةِ باقيةً في نفوسهم، وأما التوبة النصوح؛ فهي التي تأتي على الذنب كله، فلا يبقى في القلب شيء من تلك العلائق.



(١) المصدر السابق (١/ ٣١٠).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٨).

الفروقات في باب التوبة

أولًا: الفرق بين التوبة والإنابة والأَوْبَة:

قد تقدَّم في كلام ابن القيم أن الإنابةَ أوسعُ من التوبة، فالإنابة تكون بالرجوع عن الذنب، وبالإقبال على الله ﷻ بفِعْل الطاعات بالقلب، واللسان، والجوارح، وبالإقبال عليه ﷻ بإنزال الحاجات، والضراعة إليه، والدعاء...

وقال بعض أهل العلم: مَنْ خاف العِقَاب فهو صاحب توبة، ومن تاب طَمَعًا في الثواب فهو منيبٌ، ومَنْ تاب لمُرَاعَاة أمر الله فهو صاحبُ أوبة.

وقال بعضهم: التوبة صفة عامة المؤمنين، كما قال الله ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النُّور: ٣١]، على اختلاف درجاتهم في الإيمان، وأما الإنابة فهي صفةٌ للأولياء والمقرَّبين، كما قال ﷻ: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣٣]. والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص: ٣٠][١].

والأقرب ما ذهب إليه الحافظ ابن القيم، مع ملاحظة أن معاني ذلك جميعًا ترجع إلى أصل واحد، وهو: الرجوع، إلا أن الرجوع في الإنابة أوسع؛ ذلك أنه يكون من التقصير والإساءة، كما يكون بالطاعة. والله أعلم.

ثانيًا: الفرق بين التوبة العامة والتوبة المُطْلَقَةِ:

التوبة العامة: هي المُقْتَضِية لغفرانِ الذنوبِ، وإن لم يستحضر صاحبها أعيانَ الذنوب، فهو يتوب إلى الله ﷻ من كل ذنب، وإن لم يتذكر عند توبتِه كلَّ ذنبٍ بعينِه، لكن بشرط أنه لو استحضر شيئًا منها، فإنه لا يَسْتَثْنِيه.

وأما **التوبة المُطْلَقَة**: فهي أن يتوبَ توبةً مجملةً، لكنها لا تستلزمُ التوبة من كل ذنب؛ فهذه لا تُوجِب دخولَ كلِّ فردٍ من أفراد الذنوب فيها، ولا تمنع دخولَه كاللفظ المُطْلَق، لكن هذه تَصلح أن تكون سببًا لغفران الذنب المُعَيَّن، كما تصلح سببًا لغفران الجميع، بخلاف التوبة العامة، فإنها مقتضيةٌ للغفران العامِّ[٢].

---

(١) انظر: «الرسالة القشيرية» (١/ ٢١١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

ثالثًا: الفرقُ بينَ تكفيرِ السيئاتِ ومغفرةِ الذنوبِ:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد جاء في كتاب الله تعالى ذكرُهما مُقْتَرِنينِ، وذِكْر كلٍّ منهما مُنْفَرِدًا عن الآخر. فالمُقْتَرِنان كقوله حاكيًا عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٣]، والمنفرد كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [مُحَمَّد: ٢]، وقوله في المغفرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [مُحَمَّد: ١٥]...

فها هنا أربعة أمور: ذنوب وسيئات، ومغفرة وتكفير، فالذنوب المراد بها الكبائر، والمراد بالسيئات الصغائر...

والدليل على أن السيئات هي الصغائر، والتكفير لها؛ قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [النِّسَاء: ٣١].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ كان يقول: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**»(١)، ولفظ المغفرة أكمل من لفظ التكفير؛ ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر؛ فإن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ التكفير يتضمن السَّتْر والإزالة. وعند الإفراد يدخل كل منهما في الآخر...

فقوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [مُحَمَّدٍ: ٢] يتناول صغارها وكبارها، ومَحْوها، ووقاية شرها، بل التكفير المُفرَد يتناول أَسْوَأَ الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الزُّمَر: ٣٥]، وإذا فُهِمَ هذا فُهِمَ السرُّ في الوعد على المصائب، والهموم والغموم، والنَّصْب والوَصَب بالتكفير دون المغْفِرَة؛ كقوله في الحديث الصحيح: «**مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ، وَلَا غَمٍّ، وَلَا أَذًى - حَتَّى الشَّوْكَةُ يَشَاكُهَا - إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(٢)، فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب، ولا تُغْفَر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب، فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عِظَام يتطهّرون بها في الدنيا، فإن لم تَفِ بِطُهْرهم طُهِّروا في نَهْر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المُسْتَغْرِقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفِّرة. فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثلاثة، فَوَرَد القيامة طَيِّبًا طاهرًا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع»[(١)] .اهـ.

رابعًا: الفرق بين الصغائر والكبائر:

الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر بنصِّ القرآن والسُّنَّة والإجماع، وهذا ثابت أيضًا من جهة النَّظَر والاعتبار:

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النِّساء: ٣١]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النَّجم: ٣٢].

وعن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ؛ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**»[(٢)].

وقد جاء عن جماعة من السلف في تفسير اللَّمم أنه الإلمام بالذنب مرة، ثم لا يعود إليه وإن كان كبيرًا.

قال البغوي ﵀: «هذا قول أبي هريرة[(٣)]، ومجاهد[(٤)]، والحسن[(٥)]، ورواية عطاء عن ابن عباس[(٦)].

قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄: اللَّمَمُ: ما دُونَ الشِّركِ[(٧)]»[(٨)] .اهـ. فيدخل فيه على هذا الاعتبارِ الكبائرُ.

ويقول أبو صالح ﵀: «سُئِلْت عن قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النَّجم: ٣٢]، فقلتُ: هو الرجل يُلِم بالذنب ثم لا يُعَاوِده، فذكرتُ ذلك لابن عباس، فقال: لقد أعانك عليها مَلَكٌ كريمٌ»[(٩)].

والجمهور على أن اللمم ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس ﵄، وقد جاء ذلك في «الصحيحين»؛ فعند البخاري عن ابن عباس ﵄، أنه قال: ما رأيتُ شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى**

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٠ ـ ٣١٢).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٤).
(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٤).
(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٤).
(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٥ ـ ٦٦)، والحاكم (١/ ٥٤)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٨٥)، وفي «الشعب» (٦٦٥٤).
(٧) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٦).
(٨) «معالم التنزيل» (٤/ ٢٦٠).
(٩) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٤/ ٤٠٣٩)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٢٦٠).

وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ»[١].

وعند مسلم أيضًا: «**فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَا**»[٢].

وذهبت طائفة ثالثة من أهل العلم إلى أن اللَّمَم ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم، فالله لا يُؤَاخِذهم به، وهذا قول زيد بن ثابت[٣]، وزيد بن أسلم[٤].

والصحيح قول الجمهور؛ أن اللمم صغار الذنوب، وهو قول أبي هريرة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، ومسروق، والشعبي[٥]، وما نُقِل عن أبي هريرة من أنه ما وقع من الإنسان من الكبائر مرة واحدة لا ينافي هذا. وهكذا ما جاء عن ابن عباس في الرواية الأخرى أنه يلمّ بالكبيرة مرة، ثم لا يعود إليها؛ وذلك أنه يحتمل أنهما قَصَدَا به هذا وهذا ـ يعني: صغائر الذنوب ـ أو ما وقع فَلْتَةً من غير أن يُصِرّ عليه[٦].

واعلم أن «هذه اللفظة تدل على معنى المقاربة... حينًا بعد حين، فإنه يُقَال: (ألمّ بكذا): إذا قاربه ولم يَغْشَه...

وقريب من هذا لفظة (أو) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٧]، هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة؛ فإنها إن لم تَزِد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها، وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها، فذِكْرُ (أو) ها هنا كالتنصيص على حفظ المائة الألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة، والله أعلم»[٧].

وأما الكبائر فقد اختلف السلف رضي الله عنهم في معناها، وعباراتهم فيها مُتَقارِبة، وذَكَر بعض أهل العلم أكثرَ من عشرة معانٍ للسَّلَف رضي الله تعالى عنهم في حَدِّ الكبيرة.
وقد سأل رجلٌ ابنَ عباس رضي الله عنهما عن الكبائر: أسبع هي؟ قال: إلى سبعمائةِ أقربُ منها إلى سبع، إلا أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار[٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٧/ ٢١).
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦١). (٤) «معالم التنزيل» (٧/ ٤١٢).
(٥) انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٢ ـ ٦٣).
(٦) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣١٦ ـ ٣١٨).
(٧) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣١٨) بتصرُّف يسير.
(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٣٤).

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ**»(١). وحديث عبد الرحمٰن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» ثلاثًا. قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»، وجلس وكان متكئًا، فقال: «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت(٢).

وفي حديث عبد الله بن مسعود، قال: قال رجل: يا رسول الله! أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أَنْ تَدْعُوَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**». قال: ثم أيُّ؟ قال: «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**». قال: ثم أيّ؟ قال: «**أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**». فأنزل الله تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨](٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما **قال**: «الكبائر: كل ذنب خَتَمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب»(٤)، وهذا هو المشهور.

وقال الضحاك: «هي ما أوعد الله عليه حدًّا في الدنيا، أو عذابًا في الآخرة»(٥).

وقال الحسين بن الفضل: «ما سماه الله في القرآن كبيرًا، أو عظيمًا، نحو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢]، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]»(٦).

«وقالت فرقة: الصغائر ما دون الحَدَّيْنِ، والكبائر: ما تعَلَّقَ به أحدُ الحَدَّيْنِ، ومُرَادُهُمْ بالحَدَّيْنِ: عُقُوبة الدنيا والآخرة؛ فكُلّ ذَنْبٍ عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا؛ كالزنا، وشُرْبِ الخَمْرِ، والسَّرِقَة، والقَذْف، أو عليه وَعِيد في الآخرة؛ كأكل مال اليتيم، والشّرْب في آنية الفضة والذهب، وقَتْل الإنسان نَفْسه، وخيانته أَمَانَته، ونحو ذلك؛ فهو مِن الْكَبَائِر، وصدق ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «إِلَى السَّبْعِمِائَة أقرب منها إلى السبع...».

(١) أخرجه البخاري (٦٦٧٥).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤) واللفظ له، ومسلم (٨٧).
(٣) أخرجه البخاري (٧٥٣٢) واللفظ له، ومسلم (٨٦).
(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٢٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٦).
(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٣٢١).
(٦) المصدر السابق.

وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الكبيرة قد يَقترن بها ـ من الحياء، والخوف، والاستِعْظَام لها ـ ما يُلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة ـ من قلة الحياء، وعدم المُبَالَاة، وتَرْك الخوف، والاستهانة بها ـ ما يُلْحِقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رُتَبِها. وهذا أمر مَرْجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قَدْرٌ زائدٌ على مُجَرَّد الفِعْل»[١].



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٨).

التوبة لا تكون إلا للَّه وحده

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من خصائص الإلٰهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شَبَّه المخلوقَ به، ومنها: التوكل، فمن توكَّل على غيره فقد شَبَّهه به، ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبَّهَهُ به. ومنها: الحَلِف باسْمِهِ تعظيمًا وإجلالًا له، فمن حَلَف بغيره فقد شَبَّهَهُ به»[1]. اهـ. فالتوبة لا ينبغي أن تكون لأحد إلا لله وحده.

وحينما نُورِد هذه القضية نُورِدها من أجل أن يتبيَّن **أمران**:

الأمر الأول: وهو ما يقع من بعض الصوفية، حيث يتوبون إلى شيوخهم التوبةَ التي يتعبدون بها، فمنهم مَنْ يَحْلق رأسه للشيخ تقربًا وتعبدًا، ومنهم مَن يتوب إلى شيخه كما يتوب إلى الله، فهذا وأمثاله من العظائم والجرائم الكبار، وهو نوعُ إشراكٍ بالله تبارك وتعالى.

والأمر الثاني: أن من الناس مَنْ قد يتوبُ إلى إنسانٍ مثله، أو كالولد يتوب إلى أبيه حينما يَطَّلِع على بعض تقصيرِه في دراسته أو غير ذلك، فيقول: أنا أتوبُ من هذا ونحو ذلك، فهذه ليست التوبةَ التي يُقصد بها التقربُ، والتعبدُ، وتكفيرُ الذنوبِ والسيئاتِ، وليست محلَّ حديثِنا، وإنما حديثُنا عن التوبة التي يُتَعَبَّد لله تبارك وتعالى بها، فهذه لا يجوز أن تُصرف لغير الله؛ ولذلك تجد النصارى يذهبون إلى القسيس مثلًا، ويعترفون بجميع الذنوب، ويرون أن ذلك من لوازم التوبة، بل هو شرطٌ لها، فلا تصح توبةُ أحدهم حتى يذهبَ إلى القسيسِ، فيتوب إليه، فهذا لا يجوز، والله عَزَّ وَجَلَّ لم يجعل بينَه وبينَ خلقِه في ذلك واسطةً، فعلى العبد أن يتوب إلى ربه مباشرة.



(١) «الداء والدواء» (٣١٥ ـ ٣١٦).

حكم التوبة

التوبة تارة تكون واجبة، وتارة تكون مُستحبة؛ فالواجبة هي التوبة مِنْ تَرْك الواجب، أو فِعْل المُحَرَّم، فهذه واجبة على جميع المكلفين، كما أمر الله ﷻ بذلك، وأما المُسْتَحَبَّة فهي التوبة مِنْ تَرْكِ المُسْتَحباتِ أو فِعْل المكروهات، «فمن اقتصر على التوبة الأولى ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كان من الأبرار المُقْتَصِدِين ـ يعني: الذين يأتون بالواجبات، ويتركون المحرَّمات ـ، ومَنْ تَابَ التَّوْبَتَيْنِ كان من السابقين المُقَرَّبِينَ، ومَنْ لَمْ يَأْتِ بالأُولَى ـ وهي: التوبة مِنْ تركِ الواجبِ أو فِعْل المحرم ـ كان من الظالمينَ؛ إما الكافرينَ، وإما الفاسقينَ»[(١)].

وعلى ذلك نقول: إن التوبة من المعاصي، أو من تَرْك الواجبات فرضٌ واجبٌ لازمٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التَّحْرِيم: ٨].

فالإصرار على الذنب حرامٌ بالإجماع، والتوبة منه فرضٌ بالإجماع، وقد نَقَلَ هذا الإجماعَ جماعةٌ من أهل العلم؛ كابن حزم[(٢)]، والغزالي[(٣)]، والقرطبي[(٤)]، والشوكاني[(٥)]، وهو أمر ظاهر لا يخفى.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن «الناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبةً عامةً مع حاجتهم إلى ذلك؛ فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال؛ لأنه دائمًا يظهر له ما فَرَّطَ فيه من تَرْك مأمور، أو ما اعتدى فيه من فِعْل محظور، فعليه أن يتوب دائمًا»[(٦)].

«والتوبة واجبة على الفور، فَمَنْ أَخَّرَهَا زمانًا صار عاصيًا بتأخيرها، وكذلك يتكرّر عصيانُه بتكرر الأزمنة المُتَّسِعة لها، فيحتاج إلى توبةٍ من تأخيرها، وهذا جارٍ في تأخير

---

(١) «رسالة في التوبة» [المطبوعة ضمن «جامع الرسائل» (١/ ٢٢٧)].
(٢) انظر: «المحلى» (١/ ٤٨).
(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٥).
(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٤٩، ١٥/ ٢٢٧).
(٥) انظر: «فتح القدير» (١/ ٧٠٤).
(٦) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣٠).

كلِّ ما يجب تَقْدِيمه من الطاعات»[١].

*** حكم الاستغفار:**

«الأصل في الاستغفار أنه مندوب إليه؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠]، فالأمر في الآية يُحْمَلُ على الندب؛ لأنه قد يكون من غير معصية، لكنه قد يُحْمَل على الوجوب؛ كالاستغفار من المعصية، وقد يخرج إلى الكراهية ـ عند البعض ـ كالاستغفار للميت خَلْف الجنازة، صرَّح بذلك المالكية، وقد يخرج إلى الحُرمة؛ كالاستغفار للكفار»[٢].



(١) ما بين الأقواس من كلام العز بن عبد السلام في «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/ ٣٢٨).

(٢) «الموسوعة الفقهية» (٤/ ٣٥) بتصرُّف.

منزلة التوبة(١)

التوبة كما أنها من أوّل المقامات، فهي آخرها أيضًا، بل هي في كل مقام مُسْتَصْحَبَة؛ ولهذا جعلها الله تعالى آخرَ مقامات خاصّته، فقال في غزوة تبوك، وهي آخر الغزوات: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التَّوْبَة: ١١٧]، فجعل التوبةَ أولَ أمرهم وآخره.

وقال في سورة النصر التي يذكر فيها أَجَل رسول الله ﷺ، وهي آخر سورة كاملة نزلت على الأرجح: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر].

«فالتوبة هي نهاية كل سالك، وكل ولي لله، وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله، وعبوديته، وما ينبغي له. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾ [الأَحْزَاب: ٧٢، ٧٣]، فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة، وكذلك الصبر؛ فإنه لا ينفك عنه في مقام من المقامات، وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المُتَوَقِّف على شَرْطه المصاحب له، ومثال ذلك: أن الرضا مُتَرَتِّب على الصبر؛ لتَوَقُّف الرضا عليه، واستحالة ثبوته بدونه، فإذا قيل: إن مقام الرضا، أو حاله ـ على الخلاف بينهم: هل هو مقام أو حال؟ ـ بعد مقام الصبر؛ لا يعني به أنه يفارق الصبر، وينتقل إلى الرضا، وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر، فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية، وإذا كان كذلك علمت أن القصد والعزم مُتَقَدِّم على سائر المنازل، فلا وجه لتأخيره، وعلمت بذلك أن المحاسبة مُتَقَدِّمة على التوبة بالرُّتْبة أيضًا، فإنه إذا حاسب العبد نَفْسه خرج مما عليه؛ وهي حقيقة التوبة...

وفي الآية الأخرى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤)، و«شفاء العليل» (١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٨)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٣٤ ـ ٤٤١).

[النُّور: ٣١]، فهذه آية مدنية، خاطب اللهُ بها أهلَ الإيمانِ، وخيارَ خَلْقِه، وَأَمَرَهُمْ أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم، وصبرهم، وهجرتهم، وجهادهم، ثم عَلَّقَ الفلاحَ بالتوبة تعليقَ المُسَبَّبِ بسببِه، وأتى بأداة (لعل) المُشْعِرة بالترجِّي، إيذانًا بأنكم إذا تُبْتم كنتُم على رجاءِ الفلاحِ، فلا يرجو الفلاحَ إلا التائبونَ.

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحُجُرَات: ١١]، فقسَّم العبادَ إلى تائبٍ وظالمٍ، وما ثَمَّ قِسْمٌ ثالثٌ، وأوقع اسمَ الظالمِ على مَنْ لم يتب لجهله بربه وبحقِّه وبعيبِ نفسِه وآفاتِ أعمالِه»[١].

«ولم يجعل الله ﷻ محبته للتائبين إلا وَهُمْ خواصُّ الخَلْقِ لديه»[٢]، وهي من أفضلِ الكمالاتِ، واللهُ ﷻ قد أَخْبَرَ عن عامةِ الأنبياءِ بالتوبة والاستغفار، وهم أكملُ الخلقِ، فقال تعالى حكاية عن آدم ﷺ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأَعْرَاف: ٢٣]، وقال حكاية عن نوح ﵇: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هُود: ٤٧]، وقال حكاية عن الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاةُ والسلامُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البَقَرَة: ١٢٨]، وقال حكاية عن موسى ﵇: ﴿...أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٥، ١٥٦]؛ أيْ: رَجَعْنا إليكَ، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأَعْرَاف: ١٤٣]، وذكر اللهُ توبةَ داودَ وسليمانَ وغيرِهما من الأنبياء، والله تعالى: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢].

وفي الصحيح، أن النبي ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِيَ كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ**»[٣]، وهو أكملُ الخلقِ عليه الصلاة والسلام.

وعن أبي موسى، أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَدِّي وَهَزْلِي وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِك عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[٤].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤، ١٧٨) بتصرُّف يسير.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٦).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٣) عن أبي هريرة ﵁.
(٤) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) واللفظ له.

فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو مِنْ أعْظَم حَسَنَاتِهِمْ وأكبر طاعاتهم وَأَجَلِّ عباداتهم التي ينالون بها أَجَلَّ الثوابِ، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب[١]، كما قال النبي ﷺ للغامدية التي أَقَرَّتْ بالزنا حتى رجمها: «**لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ**»[٢].

وهو ﷺ نبي التوبة، وقد «فَتَح الله به باب التوبة على أهل الأرض، فتاب الله عليهم توبةً لم يحصل مثلُها لأهل الأرض قَبْلَهُ، وكان ﷺ أكثرَ الناسِ استغفارًا وتوبةً...

وكان يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[٣].

وكذلك توبةُ أُمَّتِهِ أكملُ مِنْ توبةِ سائرِ الأمم، وأسرع قَبُولًا، وأسهل تناولًا، وكانت توبةُ من قبلهم من أصعبِ الأشياءِ، حتى كان من توبة بني إسرائيل من عبادة العِجْل قتلُ أنفسهم: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ٥٤].

وأما هذه الأمة، فلكرامتها على الله تعالى جعل توبتها النَّدَم والإقلاع»[٤].

ومما يدل على فضل التوبة أيضًا: قوله ﷺ لكعب بن مالك: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**»[٥].

«فهذا دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يومُ توبتِه إلى الله وقبولِ اللهِ توبتَه.

فإن قيل: كيف يكون هذا اليومُ خيرًا من يوم إسلامه؟ قيل: هو مُكَمِّلٌ ليومِ إسلامِه، ومن تمامه، فيومُ إسلامِه بدايةُ سعادتِه، ويومُ توبتِه كمالُها وتمامها»[٦].

وهكذا الفَرَح من الله بتوبة عبده ـ مع أنه لم يأتِ نَظِيره في غيرها من الطاعات ـ دليلٌ على عِظَم التوبة وفضلها ومنزلتها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ**»[٧].

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: «للتائب فخرٌ لا يعادله فخرٌ في جميع أفخاره: فَرَح الله بتوبته»[٨].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٥١ ـ ٥٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٩٥/ ٢٣) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المزني رضي الله عنه.
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٩٢ ـ ٩٣).
(٥) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.
(٦) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «زاد المعاد» (٣/ ٥١٢) بتصرُّف.
(٧) أخرجه البخاري (٦٣٠٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٤٧).
(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٥٩).

ذِكْرُ بعض المُفَاضَلات في باب التوبة

أولًا: المفاضلة بين التوبة مِنْ تَرْكِ المأمورِ والتوبةِ من فِعْلِ المحظورِ:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «كثيرٌ من الناس لا يستحضرُ عندَ التوبةِ إلا بعضَ المُتَّصِفات بالْفَاحِشَة أو مُقَدّمَاتها، أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تَركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شُعَبِ الإيمانِ وحقائقِه أعظمَ ضررًا عليه مما فَعَلَه من بعض الفواحش؛ فإنَّ مَا أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حَقًّا أعظم نَفْعًا من نَفْع تَرْك بعض الذنوب الظاهرة؛ كحب الله ورسوله؛ فإن هذا أعظم الحسنات الفِعْلِيَّةِ»[(١)] .اهـ.

ثانيًا: المُفَاضَلَة بين من قارف ذنبًا، ثم تاب توبة نصوحًا، ومن لم يُقَارِف ذنبًا:

قد اختلف العلماء في ذلك، **فطائفة رَجَّحَتْ مَنْ لم يعصِ على من عصى، وتاب توبةً نصوحًا، واحتجوا بوجوه:**

الأول: أن أكمل الخلق وأفضلهم هو أطوعُهم لله، فالذي لم يَعْصِ أطوع، فهو أفضل.

الثاني: أن العاصي التائب أثناء انشغاله بالمعاصي كان المطيع مُنْشَغِلًا بالطاعات، فيكون بذلك سابقًا له بمراحل.

الثالث: أن غاية التوبة أن تمحو عنه سيِّئاتِه، ويصير بمنزلة مَنْ لم يعملها، فيكون سعيُه في مدة المعصية لا له ولا عليه، فأين هذا السعيُ مِنْ سَعْي مَنْ هو كاسبٌ رابحٌ؟!

الرابع: أن الله يمقتُ على معاصيه، ومخالفة أوامره، ففي مُدَّةِ اشتغال العاصي بالذنوب كان حظُّه المَقْتَ، وحظُّ المطيع الرضا، ولا ريبَ أن من كان الله راضيًا عنه دائمًا خيرٌ ممّن كان راضيًا عنه، ثم مَقَتَهُ، ثم رَضِيَ عنه.

الخامس: أن الذنب بمنزلة شُرْب السُّم، والتوبةُ هي التّرْيَاقُ والدواءُ، والطاعةُ هي الصحةُ والعافيةُ، فصحةٌ وعافيةٌ مُسْتَمِرَّةٌ خيرٌ من صِحْةٍ تَخَلَّلَها مَرَضٌ وشُرْب سمٍّ أفاق منه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢٩).

السادس: أن العاصي على خَطَرٍ عظيم، فهو دائرٌ بينَ ثلاثةِ أشياءٍ؛ إما العَطَب والهلاك بشرب السُّم، وإما النُّقْصان من القوة وضَعْفها إن سَلِمَ من الهلاك، وإما أن تعود إليه قوتُه كما كانت أو خيرًا منها، وهذا بعيدٌ، والأكثرُ في أحوال الناس هو القسمانِ الأولانِ، والثالثُ نادرٌ. بخلاف مَنْ لم يتناول ذلك، فهو مُعَافًى.

السابع: أن المُطِيعَ قد أحاط بستانَ طاعتِه بسُور مَنِيع حصين، لا يجد الأعداءُ إليه سبيلًا، فثمرتُه، وزهرتُه، وخُضْرَتُه، وبهجتُه في زيادةٍ ونموٍّ أبدًا، والعاصي قد فَتَح فيه ثغرةً، وثَلَم فيه ثُلْمَةً، ومَكَّن منه السُّرَّاقَ والأعداءَ، فدخلوا، وعاثوا فيه فسادًا، فإذا تداركه قَيِّمه، ولَمَّ شَعَثَهُ، وأصلح ما فَسَد منه؛ فإنه إما أن يعودَ كما كان، أو أنْقَصَ، أو خيرًا منه، ولكن لا يلحق بستان صاحبه، الذي لم يزل على نضارته وحُسْنه، بل في زيادة، ونمُوّ، وتَضَاعُفِ ثمرةٍ، وكَثْرَةِ غَرْسٍ.

الثامن: أنَّ طمعَ العدوِّ في هذا العاصي إنما كان لِضَعْف عِلْمِه، وضَعْفِ عزيمته؛ ولذلك يُسَمَّى جاهلًا، فَمَنْ عصى اللهَ فهو جاهلٌ. وأما من قَوِيَتْ عزيمتُه، وكَمُل عِلْمُه، وَقَوِيَ إيمانُه لم يطمع فيه عدوُّه، وكان أفضلَ.

التاسع: أن المعصيةَ لا بد أن تُؤَثِّر أثرًا سيئًا، وعَمَل التائبِ إنما هو في رَفْع هذه الآثار والتكفير عنها، وعملُ المطيع هو في الزيادة ورفع الدرجات؛ فهو أفضل.

العاشر: أن المقبل على الله، المطيع له يسير بجُمْلَةِ أعمالِه، وكلما زادت طاعاتُه وأعمالُه ازداد كسبُه بها، وَعَظُمَ، وإذا حَصَل له فتورٌ عن السَّفَر في آخرِ أمرِه مرةً واحدةً فاته من الرِّبح بقَدْرِ جميعِ ما رَبِحَ أو أكثر منه، فإذا كان هذا حالُ مَنْ أَعْرَضَ، فكيف بمن عصى وأَذنب؟!

وفضَّلَت طائفة أخرى التائبَ، ولم ينكروا أن الأول أكثرُ حسناتٍ منه، واحتجُّوا لذلك بوجوه:

الأول: أن عبودية التوبة مِنْ أَحَبّ العبوديات إلى الله؛ فهو يُحِب التوابين، ولو لم تكن التوبة أحبَّ الأشياء إليه؛ لما ابْتَلَى بالذنب أكرمَ الخلق عليه.

الثاني: أن للتوبة عندَه سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات؛ ولهذا فرح بها ذلك الفَرحَ العظيمَ، قالوا: وهذا لم يجئ في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلومٌ أن لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التائب وَقَلْبِهِ.

الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل، والانكسار، والخضوع، والتَّمَلُّق لله، والتذلل له ما هو أحبُّ إليه من كثيرٍ من الأعمالِ والطاعاتِ، وإن زادت في القَدْرِ والكميةِ على عبودية التوبة؛ فإن الذل والانكسار روحُ العبوديةِ ومخُّها وَلُبُّهَا.

الرابع: أن حصولَ مراتبِ الذلِّ والانكسار للتائب أكملُ منها لغيره، والله سبحانه أقربُ ما يكون إلى عبدِه عندَ ذُلِّهِ وانكسارِ قلبِه، ولذلك كان أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجدٌ؛ لأنه مَقَامُ ذُلٍّ وانكسارٍ بينَ يَدَيْ ربه.

وَتَأَمَّلْ قولَ النبيِّ ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ أنه يقول يوم القيامة: «**يَا ابْنَ آدَمَ! مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي**»[(١)].

فقال في عيادة المريض: «**لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**»، وقال في الإطعام والإسقاء: «**لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي!!**» ففرَّق بينهما؛ فإن المريض مكسور القلب، فإذا كان مؤمنًا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده، وهذا ـ والله أعلم ـ السر في استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم؛ لِلْكَسْرة التي تكون في قلب كل واحد منهم.

الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة من كثير من الطاعات، وهذا معنى قول بعض السلف: وقد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة!! ويعمل الطاعة فيدخل بها النار!! قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نَصْبَ عينيه إن قام، وإن قَعَد، وإن مشى ذَكَر ذَنْبه، فَيُحْدِثُ له انكسارًا، وتوبةً، واستغفارًا، ونَدَمًا؛ فيكون ذلك سببَ نجاتِه، ويعمل الحسنة، فلا تزال نَصْب عينيه إن قام، وإن قعد، وإن مشى، كلما ذكرها أَوْرَثَتْه عُجْبًا، وكِبْرًا، ومِنَّة، فتكون سببًا لهلاكه[(٢)].

ولعل الأقرب ـ والله تعالى أعلم ـ أن الأول أرجح، لكن قد يَعْرِض لأحدهما ما يتغير معه هذا الحكم الُمجَمل؛ وذلك أن الناس يختلفون ويتفاوتون في ذلك؛ فقد تجد الرجل مُجِدًّا في الطاعة، ولكنه في حال من العُجْب، والغرور، ورؤية النَّفْس، وينظر إلى الناس على أنهم أصحاب ذنوب وخطايا، وتجد الآخَرَ أذنب ثم تاب، فَصَحَّتْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٩).

تَوْبَتُه، وانكسر قلبُه، فهو يُزْرِي على نَفْسه، ويرى أنه مُقَصِّر، ويُبَادِر بالأعمال الصالحة، ويجتهد، ويخشى ألا يَقْبَلَ اللهُ ﷻ منه؛ فهذا في هذه الحال أفضلُ من الأول، وقد يكون الإنسان دؤوبًا في عمل الطاعات، مُسَارِعًا في الخيرات، وآخر يعمل ذنوبًا ثم يتوب منها، فيكون المجدُّ في الطاعات أفضلَ من هذا بلا شك، فلا يُحْكَم بحكم واحد في جميع الحالات.

وهذه المسألةُ قد تكون مسألةً افتراضيةً أصلًا، فمن ذا الذي لا يذنب؟! ومن ذا الذي لا يُقَصِّرُ في حقِّ الله تبارك وتعالى؟! خاصةً إذا عرفنا أن التوبة تكون مِنْ تَرْكِ المُسْتَحَبّ، ومِنْ فِعْلِ المكْرُوهِ، فالعبد بحاجة إلى توبة دائمًا، كما تقدَّم، وسيأتي تفصيلُ هذه القضية بإذن الله تبارك وتعالى.



حاجتنا إلى التوبة

كثيرٌ من الناس يحصل لهم ما يحصل من الغفلة واللهو والانشغال بأمور كثيرة مما يسبب غفلةً عن هذا الأمر الجليل؛ ولذلك أقول تحريكًا للهِمَمِ وَحَفْزًا للنفوس:

مقام التوبة من أَجَلِّ المقاماتِ، يحتاج إليه العبد في كل أحواله، يحتاجه الأتقياءُ والمقصرونَ؛ فالحديثُ عن التوبة مُوَجَّهٌ إلى كل مؤمن، بل إلى الناس جميعًا؛ فالكفار يحتاجون إلى توبة من الشرك بالله ﷻ، ومن جميع الذنوب والمعاصي التي يفعلونها، كما أن المؤمنَ أيضًا بحاجةٍ إلى توبة يداوم عليها، وأن يجددها حينًا بعد حين؛ فإن العبد إذا تَدَبَّرَ ونَظَر في حاله، وما يعتريه من تقصير وَجَد أنه بحاجة إلى توبة تُجَدِّد إيمانه، وتُقَرِّبه من ربه ﷻ، وذلك يحتاجه كل عبد؛ ولهذا جاء التعميم بالخطاب: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ [النُّور: ٣١]، فهو أَمْر لجميع المؤمنين بالتوبة، بما في ذلك العشرة المبشرون بالجنة؛ فإنه لا يخلو أحد من ذنب. وفي هذه السورة ـ أي: سورة النور ـ ذَكَر الله ﷻ فيها هذا الأمرَ العامَّ بالتوبة بعد أن ذَكَرَ حِفْظَ الفروجِ، وغضّ البصر، وما شابَه ذلك، فهو مُشْعِر بأن العبد لا يخلو من شيء مما يُوجِب عليه المُؤَاخَذَة والمَلَامَة من هذه الحَيْثِيَّة، وإن كان الناس في ذلك بين مُسْتَقِلّ ومُسْتَكْثِر.

وقد جاء من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[(١)].

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «**يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٥١)، وضعفه الترمذي، وحكى الخلال عن الإمام أحمد القول بنكارته كما «في الكامل» لابن عدي (٥/ ١٨٥٠)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٢٤٤)، وتعقبه الذهبي بقوله: «علي فيه لين»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٣٩) وغيره.

(٢) تقدم تخريجه.

أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ أَوْ يُكَذِّبُهُ»(١).

فالعبد بحاجةٍ إلى تطهيرٍ؛ حيث لا بد أن يقعَ منه تقصيرٌ، أو غفلةٌ، أو تفريطٌ، مهما اجتهد، ومهما بذل وسْعَه في طاعة الله ﷻ؛ فإنه لا يستطيع أن يقوم بالحقِّ الذي أوجبَه الله عليه، فما يَسَعُه إلا الاستغفارُ والتوبةُ(٢).

والإنسانُ من حيث هو: ظلومٌ جهولٌ؛ أي: أنه كثيرُ الظلم، وكثيرُ الجهلِ والعُدْوَانِ، وتخطِّي حدود الله ﷻ التي أمره أن يقف عندَها، قالَ الله ﷻ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: الأمانة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ثم قال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٣]، فـ «ذَكَر التوبة هنا لِعِلْمِهِ ﷻ أنه لا بد لكل إنسان من أن يكون فيه جهلٌ وظلمٌ، ثم يتوب الله على من يشاء، فلا يزال العبدُ المؤمنُ دائمًا يتبين له من الحق ما كان جاهلًا به، ويرجع عن عمل كان ظالمًا فيه وأدناه ظُلْمه لنفسه»(٣).

وقد جاء من حديث شداد بن أوس ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»(٤)، هذا سيد الاستغفار، فالعبدُ دائمًا بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى استغفار.

وهذا مُلَازم له في كل أحواله وأَطْواره؛ فإنه يتقلَّب دائمًا في نِعَم اللهِ وآلائِه، ولا يزال مُحْتاجًا إلى توبةٍ واستغفارٍ؛ ولهذا كان سيد ولدِ آدمَ ﷺ وإمام المتقين يستغفر في جميع أحواله، وهو القائل: «**أَيُّهَا النَّاسُ! تُوبُوا إِلَى اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(٥).

وقال ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(٦)...

(١) تقدم تخريجه.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٨٠، ١٥/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٨).
(٤) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغرّ المُزَني.

وقد شَرَع الله ﷻ الاستغفار في خواتيم الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٧]، فهؤلاء أحيوا الليل قيامًا وعبادة وقراءة، ثم ختموا ذلك في وقت السَّحَر بالاستغفار، فماذا يقول المُذْنب؟! ماذا يقول من قضى ليلَه في عَزْفٍ، وطَرَبٍ، وَلَهْوٍ، ومعصيةِ الله ﷻ؟!

وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا[١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾، إلى أن قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٨، ١٩٩]، وقد أَمَرَ اللهُ نبيَّه بعدَ أن بلَّغ الرسالةَ، وَجَاهَدَ في الله حقَّ جهادِه فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝﴾ [سورة النصر]، فكان ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ القرآنَ[٢]؛ أي: يفعل ما أُمِر به فيه، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [مُحَمَّد: ١٩][٣].

والمقصود أن العبدَ بحاجةٍ مَاسَّةٍ إلى التوبة والاستغفار، والعبد كلما كثرت طاعاتُه كثُرت توبتُه واستغفارُه، وهذا هو شأن أصحاب القلوب الحية، وقد تقدم في كلام شيخ الإسلام أن أغلبَ الناسِ لا يتوبونَ إلى اللهِ توبةً عامةً مع حاجتهم إلى ذلك، ومع وجوبها عليهم، وإنما يتوبون من بعض الذنوب. والعبدُ اليَقِظُ يظهر له دائمًا ما يقع فيه من التفريط والتقصير[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتوبةُ هي جِمَاعُ الرجوعِ من السيئات إلى الحسنات؛ ولهذا لا يُحبِط جميعَ السيئاتِ إلا التوبةُ، والردةُ هي جِماعُ الرجوعِ من الحسنات إلى السيئات؛ ولهذا لا يُحْبِط جميعَ الحسناتِ إلا الرِّدَّةُ عن الإيمان»[٥].اهـ.



(١) أخرجه مسلم (٥٩١) عن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٨٨ ـ ٨٩).
(٤) انظر: «طريق الهجرتين» (١/ ٤٦٨).
(٥) «الاستقامة» (١/ ٤٦٣).

الحكمةُ من تقديرِ الذنوبِ[1]

قد يتساءل الإنسانُ: إذا كان اللهُ قد قَدَّرَ على عبادِه ما يكتسبونَ من السيئاتِ، وما يقترفونَه من الآثام، ثم أَمَرَهُمْ بالتوبةِ والرجوعِ إليه، فما الحكمةُ من تقديرِ هذه الذنوبِ؟

والجواب: هو أن الله ﷻ يُقَدِّرُ لعبادِه ما شاء أن يُقَدِّرَه، ويختار لهم بعد خَلْقِه إيَّاهُمْ، وليس لأحد أن يعترضَ على حكمِ الله وتقديره وقضائه، يقول سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ﴾ [الْقَصَص: ٦٨]، فالعبيدُ كلُّهم خلقُه، يتصرف فيهم كما يشاء، ويحكم فيهم بما شاء، لا مُعَقِّبَ لحكمِه، ولا رادَّ لقضائِه؛ فعلى العبد أن يُسَلِّمَ لأمر الله وحُكْمه؛ سواء أدرك الحكمةَ في قضيةٍ من القضايا أو لم يدركها.

وقد تكلم الحافظُ ابنُ القيم رحمه الله في هذه المسألةِ، فأفاض بما لا مزيدَ عليه، فذكر أربعينَ حِكْمةً لله تبارك وتعالى في تقدير الذنوب، وحَسْبنا أن نذكر جملةً منها؛ فإنَّ كثيرًا مما ذَكَره رحمه الله يدخل بعضُه في بعض.

فأول ذلك: «أن الله تبارك وتعالى يحبُّ التوابينَ ويفرح بتوبتِهم، فلمحبَّتِه للتوبة وفَرَحِه بها قضى على عبدِه بالذنب، ثم إذا كان هذا العبدُ ممن سَبَقَتْ لَهُ مِنَ الله ﷻ العنايةُ والرحمةُ قضى له بالتوبة.

الثاني: أن الله تبارك وتعالى يُعَرِّفُنَا حينما يقع منا الذنبُ بقوتِه، وعِزَّتِه، واقتدارِه، ونفوذِ إرادتِه، وجريانِ حُكْمِهِ، فالعبدُ قد يَعْزِم ألا يذنبَ، ويصممُ ألا يعودَ، ثم يعودُ فيُذنب، فهذا يدل على أن إرادةَ اللهِ ﷻ نافذةٌ، وأن حُكْمَهُ جَارٍ في عبادِه بمقتضى مشيئته.

الثالث: تعريف العبد حاجتَه إلى حفظِ الله له وصيانتِه، وأنه إن لم يحفظه وَيَصُنْهُ فهو هالكٌ ولا بد.

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٤٩ وما بعدها)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٢٢)، و«شفاء العليل» (٢/ ٥٠٩ وما بعدها)، و«الفوائد» (ص٣٤ وما بعدها، وص٩٤، ١٧٣، ١٨٢).

الرابع: استجلابُ الربِّ من العبدِ استعانتَه به، واستعاذتَه به من عدوِّه، وشرِّ نَفْسِه، ودعاءَه، والتضرع إليه.

الخامس: أن الله تبارك وتعالى يحبُّ مِنْ عبدِه أن يُكَمِّلَ مقام الذل والانكسار، فإن العبد متى شَهِد صلاحَه واستقامتَه شَمَخ بأَنْفِه، وأُعْجِب بعمله، فإذا ابتلاه بالذنب تَصَاغَرَتْ عندَه نفسُه وَذَلَّ.

السادس: تعريفُه بحقيقةِ نَفْسِه، وأنها الخطَّاءةُ الجاهلةُ، وأن كل ما فيها من عِلْمٍ أو عملٍ أو خيرٍ فَمِنَ اللهِ، مَنَّ به عليه.

السابع: تعريف العبد بِسَعَةِ حِلْم الله وكرمِه في سَتْره عليه؛ فإنَّ الله تبارك وتعالى لو شاء لَفَضَحَهُ، ولعَاجَلَه بالذنبِ بمُجَرَّدِ ما يَهِم به. ولكن الله يُمْهِل؛ لعل العبدَ أن يتوبَ ويرجعَ.

الثامن: تعريفُه أنه لا طريقَ إلى النجاةِ، ولا يمكنُ أن تُسْتَحصَل السعادةُ والفوزُ والفلاحُ إلا بعفوِ اللهِ ﷻ ومغفرتِه، وإلا فإن الذنوبَ تحيطُ به من كل جانب.

التاسع: تعريفُه كرمَه في قبولِ توبتِه ومغفرتِه له.

العاشر: أن الله يُقيم الحجةَ على العباد؛ فإن الله ﷻ لا يحاسبُهم بما سبق من عِلمِه بأحوالهم قبل أن يخلقَهم، ولكنه أرسل إليهم الرّسلَ، وأنزل عليهم الكتبَ، وَبَيَّنَ لهم كلَّ ما يحتاجون إليه، وَوَعَظَهُمْ، وذكَّرهم، وأَمَرَهم، ونهاهم، ثم بعد ذلك لا يؤاخذهم حتى تقع منهم المخالفة.

الحادي عشر: أن يعامل العبدُ عبادَ الله في إساءتهم إليه وزلَّاتهم معه بما يحبُّ أن يعاملَه اللهُ به؛ فإن الجزاءَ من جنسِ العملِ.

الثاني عشر: أن يقيمَ معاذيرَ الخلائقِ، وتتسعَ رحمتُه لهم، مع إقامةِ أمرِ الله فيهم؛ فإنه إذا نظر إليهم بعينِ القَدَر رحمهم لما تَلَبَّسُوا به، وإذا نظر إليهم بعين الشرعِ عَامَلَهُمْ بمقتضاه؛ من أمرٍ بمعروفٍ، ونهيٍ عن منكرٍ، وإقامةِ حدٍّ، ونحو ذلك. وعلى ذلك فلا يدعو على المذنبين، ولا ينشر مساوئهم بين الناس، ولا يفضحهم، ولا يكون عونًا للشيطان عليهم، فيزيدهم نفورًا وإعراضًا، وإنما يدعو لهم بالصلاح، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

الثالث عشر: أن يستخرج اللهُ من قلوبِ العبادِ عبوديةَ الخوفِ والخشيةِ وتوابع ذلك؛ من البكاءِ والإشفاقِ والندمِ.

الرابع عشر: أن يستخرجَ من قلوبِ العبادِ محبتَه وشكرَه إذا تابوا إليه، ورجعوا.

الخامس عشر: أن العبدَ إذا شهد إساءتَه وظُلْمَه، واستكثرَ القليلَ من نِعْمةِ اللهِ عليه

ـ لأنه يعلم أن الواصلَ إليه منها كثير على مسيء مثله ـ استقل الكثير من عمله.

السادس عشر: أن ذلك يُوجِب للعبد التيقظَ والحذرَ من مَصَائد الشيطان.

السابع عشر: امتحان العبد، واختباره: أيصلح لعبوديته وولايته أم لا؟ لأنه إذا وقَعَ الذنب سُلِب حلاوة الطاعةِ والقُرْبِ، ووقع في الوَحْشة؛ فإن كان ممنْ يصلح اشتاقت نفسُه إلى لذةِ تلك المعاملةِ، فَحَنَّتْ، وتضرعت، واستعانت بربها؛ ليردها إلى ما عَوَّدَهَا من بِرِّه ولُطْفه، وإن رَكَنَتْ إلى هواها علم أنها لا تصلح لله.

الثامن عشر: أن العبد إذا شهد ذنبَه وتقصيرَه وخطأَه، فإنه لا يرى لنَفْسه على أحد فضلًا، ولا يرى لنَفْسه على أحد حقًّا؛ فهو مشغول بنَفْسه وعيوبه وذنوبه، مجتهدٌ في تصحيحِ نيتِه وإصلاحِ عملِه، لا يظنُّ أنه أفضلُ من أحدٍ من المسلمينَ؛ وبهذا يسْتَريح، ويستريح الناسُ منه؛ لأن العبدَ إذا ارتفعَ، ورأى لنَفْسِه حقوقًا على الناس طَالَبَهُمْ بها، وإذا كَسَرَهُ الذنبُ أَخْبَتَ وَتَوَاضَعَ ورأى أن هؤلاء أفضلُ منه، وأن لهم حقوقًا عليه، وأنه ليس له حقٌّ على أحد، فيستريح في نَفْسه، ويستريح الناس من عَتَبه وشكايته، فما أطيب عيشَه! وما أنعم بالَه! وما أقر عينَه! وأين هذا ممن لا يزال عاتبًا على الخلق شاكيًا تَرْكَ قيامِهم بحقوقِه، ساخطًا عليهم، وهم عليه أسخطُ»[1].

التاسع عشر: أنه يُوجِب له الإمساك عن عيوب الناس، وعن التفكير فيها، والبحث عنها، والاشتغال بذمهم وعيبهم؛ لأنه شُغِل بعيبِه ونَفْسِه، وطوبى لمن شَغَلَهُ عيبُه عن عيوب الناس، وويلٌ لمن نسي عيبَه، وتَفرَّغ لعيوبِ الناسِ، فالأولُ علامةُ السعادةِ، والثاني علامةُ الشقاوةِ.

العشرون: أن تقديرَ الله ﷻ على عبدِه من أعظم أسبابِ تجلِّي معاني أسماء الله الحسنى وصفاته، «فمن أسمائه سبحانه (**الغفار، التواب، العَفُوُّ**)، فلا بد لهذه الأسماء من مُتَعَلّقات، ولا بد من جِنَايةٍ تُغفَر، وتوبةٍ تُقبَل، وجرائمَ يُعفى عنها. ولا بد لاسمِه (**الحكيم**) من مُتَعَلَّقٍ، يظهر فيه حُكْمُه؛ إذ اقتضاءُ هذه الأسماءِ لآثارِها كاقتضاءِ اسمِ الخالقِ الرازقِ للمخلوقِ والمرزوقِ.

وهذه الأسماء كلها حسنى، والربُّ تعالى يحبُّ ذاتَه وأوصافَه وأسماءَه؛ فهو عَفُوٌّ، يُحِبُّ العفوَ والمغفرةَ، ويحبُّ التوابينَ، ويفرح بتوبة عبده، فَعَفْوه سبحانه، وتوبته للتائبين، وحِلْمه عنهم، ومسامحته إياهم من مُوجَبِ أسمائِه وصفاتِه.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (١/ ١٩٩ وما بعدها) باختصار وتصرف.

وهو سبحانَه الحميدُ المجيدُ، وحَمْدُه ومجدُه يقتضيانِ آثارَهما، ومن آثارِهما مغفرةُ الزَّلاتِ، وإقالةُ العثراتِ، والعفوُ عن السيئاتِ، والمسامحةُ عن الجِناياتِ، مع كمالِ القدرةِ على استيفاءِ الحقِّ، والعلم منه سبحانه بالجنايةِ ومقدار عقوبتها»[١].

فحِلْمُه بعد عِلْمِه، وعفوُه بعدَ قدرتِه، ومغفرتُه عن كمالِ عِزَّتِه وحكمته.

ولا بدَّ أن يُعلَم أن هذه الأمورَ المتقدمةَ إنما يُنظَر إليها باعتبارِ حُسْنِ تقديرِ الله تبارك وتعالى في خَلْقه، وباعتبارِ حِكْمتِه وَعِلْمِهِ، فلا يَدْعُوَنَّ ذلك أحدًا من الناس إلى تسويفِ التوبةِ وتأخيرِها، بزعم أن الذنب يُوجِب كسرةَ النَّفْسِ وذلَّها، ويسْتَلْزِم إخباتَ العبدِ، وتواضعَه، وخضوعَه لربه، وإنما الواجبُ أن نستقيمَ على الصراطِ كما أَمَرَنا الله ﷻ؛ فإن وقع ذنب أو تقصير بادرنا إلى الرجوع، وَسَارَعْنَا إلى الاستغفارِ، وعرفنا بما تقدم كيف يكونُ الأدبُ بين يَدَيِ الله ﷻ الذي يقبل التوبةَ عن عبادِه، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون.



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٤١٩) باختصار وتصرف.

مَبدأ التوبة ومُنْتَهَاها

مبدأ التوبة: الرجوع إلى الله بسلوك صراطِه المستقيم، الذي نَصَبَه لعباده مُوْصِلًا إلى رضوانه، وأمرهم بسُلُوكه بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الْأَنْعَام: ١٥٣]. . .

ونهايتُها: الرجوعُ إلى الله ﷻ في الآخرة، وسلوكُ صراطِه الذي نَصَبَه مُوْصِلًا إلى جنتِه، فَمَنْ رَجَعَ إلى الله ﷻ في هذه الدارِ بالتوبةِ رَجَعَ إليه في المعادِ بالثوابِ، وهذا **أحدُ المعانِي** في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ [الْفُرْقَان: ٧١].

والمعنى الثاني: أن الجزاء مُتَضَمِّنٌ معنى الأمرِ، والمعنى: ومن عَزَم على التوبة، وأرادها فليجعل توبتَه إلى الله وحدَه، ولوجهه خالصًا، لا لغيره.

والمعنى الثالث: أن المرادَ لازمُ هذا المعنى، وهو إشعارُ التائبِ وإعلامُه بمن تَابَ إليه. والمعنى: فليعلم توبتَه إلى مَنْ؟ ورجوعه إلى مَنْ؟ فإنها إلى الله، لا إلى غيره. . .

والمعنى الرابع: أن التوبةَ تكونُ أولًا بالقصدِ والعَزْمِ على فِعْلِها، ثم إذا قوي العزمُ، وصار جازمًا وَجَد به فِعْل التوبة. والمعنى: فَمَنْ تاب إلى الله قصدًا ونيّةً وعَزْمًا؛ فتوبتُه إلى الله عَمَلًا وفِعْلًا»[١].



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥) باختصار وتصرف.

توبةُ العبدِ واقعةٌ بينَ توبتينِ

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ توبةٍ تقعُ من العبد فإنها محفوفةٌ بتوبة من الله عليه قبلَها، وتوبة منه بعدَها، فتوبته بين توبتين من ربه: سابقة ولاحقة؛ فإنه تاب عليه **أولًا**: إذْنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه **ثانيًا**: قبولًا وإثابة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التَّوْبَة: ١١٧، ١١٨]؛ فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سَبَقَت توبتَهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مُقتضيًا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم... ونظير هذا هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته، فتُوجِب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته؛ فإن من ثواب الهدى الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [مُحَمَّد: ١٧]، فهداهم أولًا فاهتدوا، فزادهم هدًى ثانيًا، وعكسُه في أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصَّفّ: ٥]، فهذه الإزاغة الثانية عقوبةٌ لهم على زيغِهم.

وهذا القَدْر من سرِّ اسْمَيْهِ: **(الأولِ والآخِرِ)**، فهو المُعِدُّ، وهو المُمِدّ، ومنه السبب والمُسَبَّب، وهو الذي يعيذُ من نفْسه بنفْسه... والعبدُ توابٌ، واللهُ توابٌ، فتوبةُ العبدِ رجوعُه إلى سيدِه بعد الإِبَاق، وتوبةُ اللهِ نوعانِ: إذْنٌ وتوفيقٌ، وقبولٌ وإمدادٌ»[١].اهـ.



(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٣) بتصرُّف، وراجع أيضًا: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٧٣).

وقت التوبة

لقد فتح الله باب التوبة بجوده وكرمه، وقد تواردت دلائل الكتاب والسُّنَّة على تقرير هذا المعنى، **فمن ذلك**:

١ ـ أنه سبحانه أمرنا بها، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٤]؛ أي: بَادِرُوا بالتوبة والعمل الصالح قبلَ حلولِ النِّقْمةِ.

٢ ـ أنه وَعَدَ بقبولِها مهما عَظُمَتْ الذنوبُ، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشُّورى: ٢٥]، وقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾﴾ [النِّسَاء: ١١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ الله عَلَيْكُمْ**»(١).

٣ ـ أن الله حَذَّر من القنوط من رحمته، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

٤ ـ «**أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**» كما أخبر النبيُّ ﷺ(٢).

٥ ـ وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»(٣).

٦ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٨)، وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (٤/٧٣)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٤/١٣)، والبوصيري في «زوائد ابن ماجه» (٤/٢٤٦ ط. دار العربية)، والألباني في «الصحيحة» (٩٠٣، ١٩٥١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وصحَّحه ابن حبان (٦٢٨)، والحاكم (٤/٢٥٧)، والذهبي، وحسَّنه الترمذي، والألباني في «صحيح الجامع» (١٩٠٣).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبةُ لا تمنعُ إلا إذا عايَنَ أمرَ الآخرةِ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ [النِّسَاء: ١٧، ١٨].

قال أبو العالية: «سألتُ أصحابَ محمدٍ ﷺ عن ذلك فقالوا لي: كلُّ مَنْ عصى الله فهو جاهلٌ، وكلُّ مَنْ تَابَ قبلَ الموتِ فقد تاب من قريب»[(١)].

وأما من تاب عندَ معاينةِ الموتِ فهذا كفرعونَ الذي قال: أنا اللهُ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾، قال الله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ [يُونُس: ٩٠، ٩١]، وهذا استفهامُ إنكارٍ، بَيَّنَ به أن هذه التوبةَ ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها...

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ الآية [غَافِر: ٨٣ ـ ٨٥]؛ بَيَّنَ أن التوبة بعدَ رؤيةِ البأسِ لا تنفعُ، وأن هذه سُنَّةُ اللهِ التي قد خَلَتْ في عبادِه كفرعونَ وغيرِه...

وقد ثبت في «الصحيحين» أنه ﷺ عَرَضَ على عمِّه التوحيدَ في مرضه الذي مات فيه[(٢)].

وقد عاد يهوديًّا كان يخدمُه، فعرض عليه الإسلامَ فَأَسْلَمَ، فقال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِيْ مِنَ النَّارِ**»[(٣)]»[(٤)]. اهـ.



(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤)، عن المُسَيِّب بن حَزْن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٦) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٩٠ ـ ١٩١).

التوبة في الكتاب والسُّنَّة

أولًا: التوبة في القرآن:

وردت كلمة التوبة في القرآن على **وجهين**:

الأول: **بمعنى التجاوز والعفو**؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ٥٤]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التَّوْبَة: ١١٨].

الثاني: **بمعنى الرجوع والإنابة**؛ كقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النُّور: ٣١].

فيُلَاحَظ أنها إذا عُدِّيَتْ بحرفِ الجرِّ (على) كانت من توبةِ اللهِ على عبده؛ إما بتوفيقه إليها، أو بقبولها منه. وإذا عُديت بحرف الجر (إلى) فهي توبةُ العبد إلى ربه، وهي الرجوع إليه من التقصير والإساءة.

وزاد بعضهم معنى ثالثًا، وهو الندامة؛ كقوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٣]، والأقربُ أنها بمعنى الرجوعِ أيضًا، والرجوعُ يستلزمُ الندمَ كما لا يخفى.

وقد جاء ذِكْرُ التوبةِ في القرآنِ كثيرًا:

فتارةً: يأمر الله بها عباده؛ كقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ٣﴾ [هُود: ٣]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾ [الزُّمَر: ٥٣، ٥٤]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التَّحْرِيم: ٨]، وقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ [النُّور: ٣١].

وتارةً: يُخبر عن توبته على بعض عباده؛ كقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ

تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التَّوْبَة: ١١٧، ١١٨]، وقوله سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الْبَقَرَة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

وتارةً: يذكر دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قومَهم إلى التوبة؛ كما في قول هود ﷺ: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هُود: ٥٢]، وقول صالح ﷺ: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هُود: ٦١]، وقول شعيب ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هُود: ٩٠].

وتارة: يذكر تَوبَتَهم أو سؤالَهم التوبةَ عليهم؛ كقول إبراهيم ﷺ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٨]، وقول موسى ﷺ: ﴿سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأَعْرَاف: ١٤٣].

وتارةً: يُخبر عن قبوله لتوبة عباده؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٢]، فهو يُحِبُّها ويَقْبَلها، وقال سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافِر: ٣]، وقال جَلّ في عُلاه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشُّورَى: ٢٥]، وقال ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ١٠٢]، وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [التَّوْبَة: ١٠٦] إلى غير ذلك من الآيات.

ثانيًا: التوبة في السُّنَّة:

١ ـ حديث الأغرِّ المزني رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١).

٢ ـ حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(٢).

٣ ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه المشهور، عن النبي ﷺ أنه قال: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا**

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.

طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَة عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(١).

٤ ـ وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(٢).

٥ ـ وعن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٤﴾ [المُطَفِّفِين: ١٤]»(٣).

٦ ـ وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٣٥](٤).



(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «رسالة في التوبة» (٢٢٥. المطبوعة ضمن «جامع الرسائل»): «هذا الحديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم».
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤) واللفظ له، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٩٣٠)، والحاكم (٢/ ٥١٧)، والذهبي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٠) وغيره.
(٤) أخرجه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦) واللفظ له، وابن ماجه (١٣٩٥)، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٣٨) وغيره.

علامات صِدْق التوبة

التوبة الصادقة الصحيحة لا بدَّ لها من علامات يَعرف صاحبُها أنَّ تَوْبَتَه صحيحةٌ صادقةٌ، **فمن ذلك:**

١ ـ محبةُ اللهِ ورسولِه ﷺ، ومحبةُ أهلِ الإيمانِ، فيقوى ذلك في قلب التائب، وتنبعث فيه دواعي هذه المحبة، حتى يصيرَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه من نَفْسِه وأهلِه ومالِه، ثم بعدَ ذلك يكون مُريدًا لما تقتضيه هذه المحبةُ، فيكون مُحِبًّا لانتصارِ الإسلام وأهلِه، وظهورِه بينَ الأنام، وَمُحِبًّا لأهلِ الطاعة، كما أنه يُبغِضُ الكفرَ ومن يعادي اللهَ ورسولَه وعبادَه المؤمنين(١).

٣ ـ أن يكون حال التائبِ بعدَ التوبةِ خيرًا مما كان قبلها.

٣ ـ ألَّا يزال الخوف مُصَاحِبًا له؛ لأنه لا يَأْمَنُ مكرَ اللهِ طرفةَ عَيْنٍ.

٤ ـ انخلاعُ قلبِه وتَقَطُّعُه نَدَمًا وخوفًا، وهذا على قَدْرِ عِظَمِ الجنايةِ وَصِغَرِهَا.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا تأويلُ ابنِ عُيَيْنَةَ لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التَّوْبَة: ١١٠]، قال: تَقَطُّعُها بالتوبة»(٢). اهـ.

فالخوفُ الشديدُ من الله عَزَّ وَجَلَّ، والندم العظيم يحصل معه انخلاعُ القلبِ، وهذه هي حقيقةُ التوبةِ، فهو يتحسَّرُ على ذنبِه، وكلما ذَكَرَه انعصر قلبُه، وَحَزِنَ على ما قَارَفَهُ من معصيةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٥ ـ «ومن مُوجَبَات التوبة الصحيحة أيضًا: كَسْرَةٌ خاصةٌ تحصلُ للقلبِ، لا يُشبهها شيء، ولا تكونُ لغيرِ المُذْنِبِ... تَكْسِر القلب بين يدي الرب كَسْرَةً تامةً، قد أحاطت به من جميع جهاته، وأَلْقَتْه بين يدي رَبِّهِ طريحًا ذليلًا خاشعًا؛ كحال عَبْدٍ جانٍ آبِقٍ من سيدِّه، فَأُخِذَ، فَأُحْضِرَ بينَ يَدَيْهِ، ولم يجد مَنْ يُنْجِيهِ من سطوته، ولم يجد منه بدًّا، ولا عنه غَنَاءً، ولا منه مَهْرَبًا. فمن لم يجد ذلك في قلبِه فليتَّهِم توبتَه، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعبَ التوبةَ الصحيحةَ بالحقيقةِ! وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادقُ بشيء أشدَّ عليه من التوبة الخالصة الصادقة»(٣).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٥١ ـ ٧٥٢). (٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٦).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٨٥ ـ ١٨٧).

شروط التوبة

أولًا: الندم:

وهو انفعالُ القلبِ بالأَسَى والحسرةِ والحزنِ بسبب ما وقع من الذنب، خوفًا من سوءِ عاقبتِه عندَ اللهِ، وحياءً منه.

وعلامتُه: طولُ الحسرةِ، وخَنْقُ العَبْرةِ، والتفكر بحزنٍ فيما وقع من الذنبِ، وفيما ذَهَبَ من العُمُرِ في معصيةِ اللهِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والندمُ يتضمنُ ثلاثةَ أشياءٍ: اعتقادُ قُبْحِ ما نَدِمَ عليه، وبغضه وكراهته، وألَم يَلْحَقه عليه»[(١)] .اهـ.

وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**»[(٢)].

فإن قيل: كيف جعلتُم الندمَ ـ وهو أمرٌ قلبيٌّ، قد لا يملك المرءُ أن يطلبَه فَيُحَصِّله من نَفْسه ـ كيف جعلتموه ـ والحالة هذه ـ من شروطِ التوبةِ؟

فالجواب: أن القاعدة في هذا الباب: أن خطابَ الشارعِ إذا تَوَجَّهَ إلى المُكَلَّفِ في أمرٍ يخرجُ عن طَوْقه واستطاعتِه؛ فإنَّهُ يتوجّه إلى سَبَبه، أو إلى أَثَره[(٣)].

فالندمُ يأتي من خمسةِ أمورٍ:

الأول: تعظيم الأمر والنهي.

الثاني: تعظيم الآمِر وهو الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثالث: تعظيم الجناية.

الرابع: معرفة العَدُوِّ، وهو الشيطان الرجيم.

الخامس: التصديق بالجزاء مع حضوره في القلب.

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٢٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٤٧١)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٢٤٣)، والألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٢)، إلا أن في هذا الحديث اختلافًا على بعض رواته، كما في «العِلَل» ابن أبي حاتم (٢/ ١٠١)، والدارقطني (٥/ ١٩٣) وغيرهما.

(٣) في هذه القاعدة، والجواب عن هذا السؤال ينظر: «أضواء البيان» (٥/ ٥٢٢ ـ ٥٢٦)، و«العذب النمير» (١/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩، ٤/ ١٨٦ ـ ١٨٨، ٥/ ٣٩٨ ـ ٤٠٠)، و«قواعد التفسير» (٢/ ٧٨٤).

فهذه الأمور الخمسة يحصل بها الندمُ، فلو تَفَكَّرَ المذنبُ مثلًا في عَظَمةِ الخالقِ، وكيف اجْتَرَأَ عليه هذه الجُرْأَةَ حصل له الندمُ على ما فرَّط في جَنْب الله. وكذا لو تفكر فيما صَدَرَ منه من المعصيةِ، وما قد تَجُرُّهُ عليه من النقمةِ والعذابِ.

وكما قيل[(١)]:

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا ... مِنَ الحَرَامِ وَيَبْقَى الإِثْمُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ مِنْ مَغَبَّتِهَا ... لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

فإذا تَفَكَّرَ الإنسانُ في مثلِ هذه الأمورِ، وأن اللهَ يراه حينَما يعمَل المعصيةَ، وأنه مكتوبٌ عليه؛ وقع في قلبِه من النَّدَم الشيء الكثير!

والصادق في توبته لا يمكن أن يُعَالِج هذا الأمر، بل لا بد أن يجد الندم مُسْتَقِرًّا بقلبه، قد أذهب أَمْنَهُ، ونَغَّص عليه عيشَه.

أما «الفرحُ بالمعصية؛ فهو دليلٌ على شدة الرغبة فيها، والجهلِ بقَدْرِ مَنْ عصاه، والجهلِ بسوء عاقبتها، وَعِظَم خَطَرها...

وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مُوَاقَعَتها، والمؤمن لا تتمّ له لذة بمعصية أبدًا، ولا يكمل بها فَرَحه، بل لا يباشرها إلا والحُزْن مُخَالِط لقلبه... ومتى خلا قلبه من هذا الحزن، واشتدت غِبْطَتُه وسروره فَلْيَتَّهِمْ إيمانَه، وَلْيَبْكِ على موتِ قلبِه، فإنه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابُه للذنبِ، وغاظَه وصَعُب عليه»[(٢)].

ثانيًا: الإقلاع عن الذنب:

«والإقلاع عن الأمر: الكفُّ عنه، يقال: أقلع فلان عما كان عليه؛ أي: كف عنه»[(٣)]. وقال الله ﷻ: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ [هُود: ٤٤]؛ أي: أمسكي عن المطر.

* حكم من لا يتمكّن من الإقلاع عن الذنب إلا بنوع مُلَابسة للمحظور:

وذلك «كمن أَوْلَجَ في فَرْجٍ حرامٍ، ثم عزم على التوبة قبل النزع الذي هو جزء من الوطء، وكمن توسط أرضًا مغصوبة، ثم عزم على التوبة، ولا يمكنه إلا بالخروج، الذي هو مَشْي فيها وتصرّف...

فهذا مما أشكل على بعض الناس، حتى دعاه ذلك إلى أن قال بسقوط التكليف عنه في هذا الفِعْل الذي يتخلَّص به من الحرام.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٢١) عن مِسْعَر بن كِدَام.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٨٠) بتصرُّف يسير.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن منظور في «لسان العرب» (١٠/ ١٦٦)، مادة: (قلع).

وقالت طائفة: بل هو حرامٌ واجبٌ؛ فهو ذو وجهين: مأمور به من أحدهما، منهيٌّ عنه من الآخَرِ . . .

والصواب: أن هذا النزع، وهذا الخروج من الأرض توبة، ليس بحرام؛ إذ هو مأمور به، ومُحَال أن يُؤْمَر بالحرام، وإنما كان النزع ـ الذي هو جزء من الوطء ـ حرامًا؛ بقصد التلذّذ به، وتكميل الوطء.

وأما النزع الذي يُقصد به مفارقة الحرام، وقطع لذة المعصية؛ فلا دليلَ على تحريمه، لا من نصٍّ، ولا إجماعٍ، ولا قياسٍ صحيحٍ يستوي فيه الأصلُ والفرعُ في علة الحكم»[(١)].

فإن كان لا يمكن أن يتخلّص من الذنب إلا بمفسدةٍ مماثلةٍ أو زائدةٍ؛ تَعَيَّنَ عليه التزامُ أخفِّ المفسدتينِ؛ فإن الشريعةَ قد جاءت بِتَحْصِيلِ المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتَقْلِيلها، واللهُ لا يُكَلِّف نفسًا إلا وسعَها، وقد أَمَر بالتوبة من الذنب، والإقلاع عنه[(٢)].

ثالثًا: العَزْم على ألَّا يعود للذنب مرة أخرى:

والعزمُ لغةً: الجدُّ. واعتزم عليه: أراد فعلَه. وقال الليث: «العزمُ: ما عُقِدَ عليه قلبُك من أمر أنك فاعله»[(٣)]. فإذا استحكم قصدُه صار عزمًا جازمًا.

فـ«العزمُ هو القصد الجَازِم المُتَّصل بالفِعْل. وحقيقتُه: استجماعُ قُوَى الإرادة على الفعل»[(٤)].

وهذا هو الذي يسمونه بالعزم المُصَمِّم، وهو الذي يُؤاخَذ عليه الإنسانُ في المعصية، ويُؤْجَر عليه في الطاعة، وهو أحدُ أقسامِ الفعلِ الأربعةِ؛ لأن الفعل يكون باللسان، وبالقلب ـ ويدخل فيه العزم المُصَمِّم ـ وبالجوارح، وبالتّركَ.

ويُقابِل العَزْم على التَرْكِ: التسويفُ في التوبة، وهو تأجيلها، وعدمُ المبادرةِ إليها فَوْرًا، وذلك بأن يُحَدِّثَ نفسَه بأن يتوبَ في المستقبل؛ أي: أنه لا ينكر ضرورةَ التوبة، ولكنه يؤجلها حينًا بعد حين، قائلًا في نَفْسه: سوف أتوب؛ فيبقى من المُخَلِّطين، آملًا أن يتوب في المستقبل، ومعنى ذلك: أنه مقيمٌ على الذنوب في الوقت الحاضر، مُصِرٌّ عليها.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٨).

(٣) «تهذيب اللغة» (٢/ ١٥٢)، مادة: (عزم).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٣٣) باختصار.

فهذا الإصرار، وهو العَزْم على العَوْد، وعَقْد القلب على ارتكاب الذنب متى ظَفِر به هو استقرار في الواقع على المخالفة، وعَزْم على المُعَاوَدة، وهذا ذنب آخر؛ لعله أعظم من الذنب الأول بكثير(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُ مَنْ قال من العلماء: الاستغفارُ مع الإصرارِ توبةُ الكذابينَ، فهذا إذا كان المستغفرُ يقوله على وجهِ التوبةِ، أو يَدَّعِي أن استغفارَه توبةٌ، وأنه تائبٌ بهذا الاستغفارِ، فلا ريبَ أنه مع الإصرارِ لا يكون تائبًا؛ فإن التوبة والإصرارَ ضِدَّانِ»(٢) .اهـ.

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإصرارُ على المعصية معصيةٌ أخرى، والقعودُ عن تَدَارُكِ الفارطِ من المعصيةِ إصرارٌ ورضًا بها، وطمأنينةٌ إليها، وذلك علامةُ الهَلَاكِ»(٣) .اهـ.

*** ومن الأسبابِ الداعيةِ إلى الإصرارِ على الذنبِ:**

١ ـ حبُّ الدنيا وشهواتِها وزينتِها.

٢ ـ طولُ الأملِ.

٣ ـ التَّعَلُّقُ بالرجاءِ من غيرِ عَمَلٍ.

٤ ـ القنوطُ من رحمة الله، فيظنُّ أن الله لن يغفر له، فلا يصرفه صارفُ الرجاء عن المعصية.

٥ ـ الشكّ في وعدِ القرآنِ وما جاء به الرسولُ ﷺ.

٦ ـ الاحتجاجُ بالقَدَرِ.

٧ ـ تزيينُ الشيطانِ والنَّفْسِ الأمارةِ بالسوء.

* هل يُشترط في صحة التوبة ألَّا يعودَ إلى الذنب أبدًا؟

اشْتَرَطَ بعضُ الناسِ لصحة التوبة عدمَ معاودةِ الذنبِ، وقال: متى عاد إليه تَبَيَّنَّا أن التوبةَ كانت باطلةً غيرَ صحيحةٍ.

والأكثرونَ على أن ذلك ليس بشرط. فإذا عاوده مع عَزْمه حال التوبة على ألَّا يعاوده صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل توبتُه المُتَقَدِّمةُ.

والمسألة مبنيةٌ على أصلٍ: وهو أن العبدَ إذا تاب من الذنب، ثم عَاوَدَه هل يعود إليه إثمُ الذنبِ الذي تاب منه ثم عاودَه، أو أن ذلك قد بَطَلَ بالكليةِ؛ فلا يعودُ إليه إثمُه وإنما يُعاقَب على الأخير؟

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٦٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٨١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٩).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ١٨١).

وفي هذا الأصل قولان: فقالت طائفةٌ: يعود إليه إثمُ الذنبِ الأولِ لفساد التوبة وبطلانِها بالمعاودة؛ لأن التوبةَ من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكافر إذا أسلم هَدَم إسلامُه ما قبله من إثمِ الكفرِ وتوابعِه، فإن ارْتَدَّ عاد إليه الإثمُ الأولُ مع إثْم الردة.

كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلَامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ**»[1].

ولأن صحةَ التوبةِ مشروطةٌ باستمرارها، والموافاة عليها، والمُعَلَّقُ على الشرط يُعْدَم عند عدم الشرط، كما أن صحة الإسلام مَشْرُوطَةٌ باستمراره، والموافاة عليه.

قالوا: والتوبةُ واجبةٌ مدى العمر، فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم، فإذا أمسك مُعْظَمَ النهارِ، ثم نقض إمْسَاكه بالمفطرات بَطَلَ ما تقدم من صيامه، ولم يُعتَدَّ به، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه.

ومما يدل على هذا قوله ﷺ: «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؛ فَيَدْخُلُ النَّارَ**»[2].

واحتج الفريق الآخر ـ وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثمُ الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة ـ بأنه لا يُشترط في صحة التوبة العِصْمةُ إلى الممات، بل إذا ندم، وأقلع، وعَزَم على التَّرْك مُحِيَ عنه إثمُ الذنب بمجرَّد ذلك، فإذا استأنفه استأنف إثمَه، فليس هذا كالكُفر الذي يُحبِط الأعمالَ؛ فإن الكفرَ له شأنٌ آخَرُ.

قالوا: وقد علَّق الله سبحانه قبولَ التوبةِ بالاستغفار وعدم الإصرار دونَ المُعَاوَدَة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٣٥].

قالوا: وأما استمرارُ التوبة فشرطٌ في صحةِ كمالِها ونَفْعِها، لا شرط في صحة ما مضى منها، وليس كذلك العبادات؛ كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة؛ فإن تلك عبادة واحدة لا تكون مقبولةً إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها. وأما التوبة فهي عبادات متعددة بتعدّد الذنوب، فكل ذنب له توبةٌ تخصه، فإذا أتى بعبادة، وتَرَك أخرى لم يكن ما تَرَك مُوجِبًا لبطلان ما فَعَل.

ونُكْتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة، فلا تبطل معاودته

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٤٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات»[١].

وهذا القول الثاني هو الصواب، والعِلْم عند الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إذا تاب توبة صحيحة غُفرت ذنوبه، فإن عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب أيضًا، وإذا تاب قَبِلَ اللهُ توبتَه أيضًا»[٢].اهـ.

* إذا تاب من الردة: هل ترجع له حسناتُه؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «قد تنازع العلماءُ في التائب من الكفر إذا ارتد بعدَ إسلامِه، ثم تاب بعد الردةِ وَأَسْلَمَ، هل يعود عملُه الأولُ؟ على قولين، مبناهما أن الردةَ هل تُحبط العملَ مطلقًا أو تُحبطه بشرط الموت عليها؟ فمذهب أبي حنيفة ومالك أنها تُحبطه مطلقًا، ومذهب الشافعي أنها تحبطه بشرط الموت عليها. والردة ضد التوبة، وليس من السيئات ما يمحو جميعَ الحسناتِ إلا الردةُ»[٣].اهـ.

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ **في قوله تعالى**: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١٧]: «دلت الآية بمفهومها أنَّ مَنِ ارْتَدَّ ثم عاد إلى الإسلام أنه يرجع إليه عمله الذي قَبْلَ رِدَّتِهِ، وكذلك مَنْ تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعمالُه المتقدمةُ»[٤].اهـ.

* تفصيل القول فيما لو تاب من المعاصي، هل يعود إليه ثوابُ العملِ؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قيل: إن كان قد عمله لغير الله تعالى وأوقعه بهذه النية؛ فإنَّه لا ينقلب صالحًا بالتوبة، بل حَسْب التوبة أن تمحوَ عنه عقابَه، فيصير لا له ولا عليه. وأما إن عمله لله تعالى خالصًا، ثم عرض له عُجْب ورياء، أو تحدَّث به، ثم تاب من ذلك وندم؛ فهذا قد يعود له ثوابُ عملِه ولا يُحبَط.

وقد يقال: إنه لا يعود إليه، بل يستأنف العمل.

وإذا فَعَل العبدُ حسنةً، ثم فَعَل سيئة تُحبطها، ثم تاب من تلك السيئة، هل يعود إليه ثوابُ تلك الحسنةِ المتقدمةِ؟...

والذي يَظهر... أن الحسناتِ والسيئاتِ تتدافع وتتقابل، ويكون الحكمُ فيها

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧) باختصار وتصرف.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٧٠٠).

(٣) المصدر السابق (١١/ ٧٠٠)، وراجع أيضًا: «الوابل الصيب» (ص٢٣).

(٤) «تفسير السعدي» (١/ ١٦١).

للغالبِ، وهو يقهر المغلوب، ويكون الحكم له، حتى كأن المغلوبَ لم يكن، فإذا غَلَبَتْ على العبدِ الحسناتُ رَفَعَت حسناتُه الكثيرةُ سيئاتِه، ومتى تاب من السيئة تَرَتَّبَت على توبتِه منها حسناتٌ كثيرةٌ، قد تَرْبى وتزيد على الحسنةِ التي حَبِطَت بالسيئة، فإذا عَزَمَت التوبة، وصَحَّت، ونشأت من صَمِيْم القلب أحرقت ما مرَّت عليه من السيئات. . .

يوضح هذا: أن السيئات هي أمراض قلبية، كما أن الحُمَّى والأوجاع أمراضٌ بدنيةٌ، والمريض إذا عُوفِي من مرضه عافيةً تامةً عادت إليه قوتُه وأفضلُ منها، حتى كأنه لم يضعف قط.

فالقوةُ المُتَقَدِّمةُ بمنزلة الحسناتِ، والمرضُ بمنزلةِ الذنوبِ، والصحةُ والعافيةُ بمنزلةِ التوبةِ، كما أن من المرضى من لا تعود إليه صحتُه أبدًا لضعف عافيته، ومنهم مَنْ تَعود صحته كما كانت لتقاوم الأسباب وتدافعها، ويعود البدن إلى كماله الأول، ومنهم من يعود أصحَّ مما كان وأقوى وأنشطَ؛ لقوةِ أسبابِ العافيةِ وقهرها وغلبتها لأسباب الضَعْف والمرض، حتى ربما كان مرض هذا سببًا لعافيته، كما قال الشاعر[1]:

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ... وَرُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

فهكذا العبد بعد التوبة على هذه المنازل الثلاث»[2]. اهـ.

* حكم توبة العاجز:

«إذا حِيلَ بينَ العاصي وبين أسباب المعصية، وعجز عنها، بحيث يتعَذَّر وقوعُها منه، هل تصحُّ توبتُه؟

وهذا كالكاذب، والقاذف، وشاهد الزور، إذا قُطع لسانه، والزاني إذا جُبَّ، والسارق إذا أُتِيَ على أطرافه الأربعة، والمزوّر إذا قُطِعَتْ يَدُهُ، ومَنْ وَصَل إلى حدٍّ بطلت معه دواعيه إلى معصيةٍ كان يرتكبُها، **ففي هذا قولان**:

فقالت طائفةٌ: لا تصحُّ توبتُه؛ لأن التوبةَ إنما تكون ممن يمكنه الفِعْلُ والتَرْكُ، فالتوبةُ من الممكنِ، لا من المستحيل. . .

ولأن التوبةَ مخالفةُ داعِي النَّفْسِ، وإجابةُ داعِي الحقِّ، ولا داعيَ للنَّفْس هنا؛ إذ يُعلم استحالةُ الفِعْلِ منها.

ولأن هذا كالمُكْرَه على التَرْكِ، المحمول عليه قهرًا، ومثل هذا لا تصح توبتُه.

---

(١) «ديوان المتنبي» (ص٣٧٤) مع «العرف الطيب».

(٢) «الوابل الصيب» (ص٢٤ ـ ٢٥) بتصرُّف.

قالوا: ويدل على هذا أيضًا: أن النصوصَ المُتَضَافِرَةَ المتظاهرةَ قد دلَّتْ على أن التوبةَ عندَ المُعَايَنَة لا تنفع؛ لأنها توبة ضرورة لا اختيار، فهكذا هاهنا.

ولأن حقيقة التوبة هي كفُّ النَّفْس عن الفِعْل الذي هو مُتَعَلَّقُ النهي، والكف إنما يكون عن أمرٍ مقدورٍ، وأما المحال فلا يُعْقَل كفُّ النَّفْس عنه.

ولأن التوبة هي الإقلاع عن الذنب، وهذا لا يُتَصَوَّر منه الإيقاعُ حتى يتأتى منه الإقلاعُ.

والقول الثاني ـ وهو الصوابُ ـ: أن توبتَه صحيحةٌ ممكنةٌ، بل واقعةٌ؛ فإن أركانَ التوبةِ مجتمعةٌ فيه، والمقدورُ له منها الندمُ... فإذا تحقّق ندمُه على الذَّنْب، ولومُه نفْسَه عليه فهذه توبةٌ، وكيف يصحُّ أن تُسْلَب التوبةُ عنه مع شِدَّة ندمِه على الذنب، ولَوْمه نَفْسه عليه، ولا سيما ما يَتْبَع ذلك من بكائِه وحُزْنه، وخوفه وعَزْمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحًا والِفْعل مقدورًا له لما فعله. وإذا كان الشارع قد نَزَّل العاجزَ عن الطاعةِ مَنْزِلةَ الفاعلِ لها إذا صَحَّتْ نيتُه؛ كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[(١)]... فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهرًا مع نيته تَرْكها اختيارًا لو أمكنه منزلةَ التاركِ المختارِ أَوْلَى.

وأيضًا: فإن هذا إنما تَعَذَّرَ منه الفعلُ وما تعذر منه التمنّي والوداد، فإذا كان يتمنى ويَوَدّ لو وَاقَعَ الذنبَ، ومن نيته أنه لو كان سليمًا لباشره، فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمني والحزن على فوته؛ فإن الإصرارَ مُتَصَوَّرٌ في حَقِّهِ قَطْعًا، فيُتَصَوَّر في حقِّه ضده؛ وهو التوبة.

والفرق بين هذا وبين المُعَاين وَمَنْ وَرَدَ القيامة: أن التكليفَ قد انقطع بالمُعَاينةِ وورود القيامة، والتوبةُ إنما تكون في زَمَن التكليف، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف؛ فالأوامر والنواهي لازمةٌ له، والكفُّ مُتَصَوَّرٌ منه عن التمني والوداد والأسف على فَوْتِهِ، وتبديل ذلك بالندم والحَزَن على فِعْله»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «توبةُ العاجزِ عن الفِعْلِ كتوبةِ المجبوبِ عن الزنا، وتوبة الأقطع العاجزِ عن السَّرِقة، ونحوه من العَجْز، فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السُّنَّة وغيرهم، وخالف في ذلك بعض القدرية»[(٣)].اهـ.

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٦) بتصرُّف يسير.
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٤٦).

وعلى ذلك فشروط التوبة ثلاثة:

١ ـ «الندم على ما سَلَفَ منه في الماضي.

٢ ـ الإقلاع عنه في الحال.

٣ ـ العَزْم على ألَّا يعاوده في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبةُ؛ فإنه في ذلك الوقت يندم، ويُقْلِع، ويَعْزم، وحينئذ يرجع إلى العبودية التي خُلِق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة»[(١)].

وقال ابن جُزَي رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبةُ واجبةٌ على كل مؤمنٍ مُكَلَّفٍ، بدليل الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة، وفرائضها ثلاثة: النَّدَم على الذنب من حيث عُصِيَ به ذو الجلال، لا من حيث أَضَرَّ ببدنٍ أو مالٍ، والإقلاعُ عن الذنب في أول أوقات الإمكان، من غير تأخير ولا تَوَانٍ، والعَزْم ألا يعود إليها أبدًا، ومهما قضى عليه بالعَوْد أحدث عَزْمًا مُجَدَّدًا»[(٢)]. اهـ.

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي فلها **ثلاثة شروط**:

أحدها: أن يُقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فِعْلها.

والثالث: أن يعزم ألَّا يعود إليها أبدًا.

فإن فُقِدَ أحد الثلاثة لم تصحّ توبته»[(٣)]. اهـ.

رابعًا: التحلل من حقوق الناس:

وهذا الشرط خاص بما إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي، «فإن كانت مالًا أو نحوه رَدَّهُ إليه، وإن كانت حَدّ قذفٍ ونحوه مَكَّنَهُ منه، أو طَلَب عَفْوَه، وإن كانت غيبةً اسْتَحَلَّه منها[(٤)]. ويجبُ أن يتوبَ من جميعِ الذنوبِ، فإن تاب من بعضِها صَحَّتْ توبتُه عندَ أهلِ الحقِّ من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي»[(٥)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٨٢) بتصرُّف.

(٢) «التسهيل» (٣/ ٦٥).

(٣) «رياض الصالحين» (ص٤٦ ـ ٤٧)، وانظر أيضًا: «مكفرات الذنوب وموجبات الجنة» لابن الديبع الشيباني (ص٣ ـ ٤).

(٤) هذا إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم.

(٥) ما بين الأقواس من كلام النووي في «رياض الصالحين» (ص٤٦ ـ ٤٧)، وانظر أيضًا: «مكفرات الذنوب وموجبات الجنة» لابن الديبع الشيباني (ص٣ ـ ٤).

فحقوق العباد الأصلُ فيها المُشَاحَّة، كما أن حقوقَ الله تعالى الأصل فيها المسامحةُ، فلا بد من إعادة حقوق الناس إليهم، وقد قال النبي ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ**(١) **مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»(٢).

وقال ﷺ: «**يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنُ**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»(٤).

وحقوق العباد أنواع:

١ ـ **حقوق مالية**: وهذه يجب رَدُّهَا ما أمكن، وإلا تحلَّلَه، فإن عجز عن تَحَلُّله أو إرجاعه؛ تصدق عنه به.

وهل تبرأ ذمته إذا أَدَّاهُ لوارثه؟

قيل: تبرأ ذمَّته. وقيل: لا تبرأ؛ لكون صاحب الحق لم يَسْتَوْفِ حقَّه، ولم ينتفع بماله في حياته، ومع ذلك يجب دفعُه إلى الورثة، وبه قال طائفةٌ من أصحاب مالك وأحمد.

قال ابن القيم رحمه الله: «وفصَلَ شيخنا رحمه الله بين الطائفتين، فقال: إن تَمَكَّنَ الموروثُ من أخذِ مالِه والمطالبةِ به، فلم يأخذه حتى مات صارت المطالبةُ به للوارث في الآخرة كما هي كذلك في الدنيا، وإن لم يتمَكَّن من طَلَبه وأَخْذه، بل حَالَ بَيْنَهُ وبينَه ظلمًا وعدوانًا، فالطلبُ له في الآخرة. وهذا التفصيل من أحسن ما يقال»(٥). اهـ.

وقد يحتاج الأمرُ في مثل هذه المسائل إلى مزيدِ بحثٍ وإيضاحٍ، ويمكن أن يُقَال: إنه متى عجز عن رَدّ الحقوق أو بعضها إلى أهلها، أو وَرَثَتِهم تصدّق بها عنهم، فإن عجز عن ذلك أَكْثَرَ من الحسنات والدعاء أن يقبل الله منه توبتَه، ويسامحَه على عَجْزِه، ويدعو الله أن يُرْضِيَ صاحبَ الحقِّ من فضله، مع الإكثار من الدعاء له والاستغفار وحسن الثناء عليه ونحو ذلك.

---

(١) **الشاة الجلحاء**: هي الجمّاء التي لا قَرْن لها. ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٧٩)، «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٨٤)، مادة: (جلح).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٩).

(٥) «الجواب الكافي» (ص٣٣٥).

٢ ـ **حقوق في النَّفْس**: فإن قَتَل نفسًا بغير حق؛ قيل: وَجَبَ أن يُمَكِّن أولياء المقتول من القصاص، فإنْ فَعَل ذلك تائبًا مُنيبًا إلى الله بَرِئَتْ ذمتُه؛ لأن الحدودَ كفَّارَاتٌ لأهلها.

وقيل: بل لا تبرأ؛ لأن حقَّ المقتول لا زال قائمًا، وإنما أدرك وليُّه الثأرَ، ولم ينتفع المقتولُ.

والحقوق ثلاثة: حَقّ لله، وحقٌّ للمقتول، وحقٌّ للوارث.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالصواب ـ والله أعلم ـ أن يقال: إذا تاب القاتلُ من حق الله، وسلَّم نَفْسه طَوْعًا إلى الوارث؛ ليستوفي منه حقّ مَوْرُوثه سقط عنه الحقّان، وبقي حق المَوْرُوث، لا يضيّعه الله، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل تعويضَ المقتول؛ لأن مصيبتَه لم تنجبر بقتل قاتلِه، والتوبةُ النصوحُ تهدم ما قبلها، فَيُعَوِّض هذا عن مَظْلَمَتِه، ولا يُعَاقِب هذا لكمال توبته، وصار هذا كالكافر المُحارِب لله ولرسوله، إذا قَتَل مسلمًا في الصَّفّ، ثم أسلم، وَحَسُنَ إسلامُه؛ فإن الله سبحانه يُعَوِّض هذا الشهيد المقتول، ويغفر للكافر بإسلامه، ولا يُؤَاخِذُهُ بقتلِ المسلمِ ظُلْمًا؛ فإن هَدْمَ التوبةِ لما قبلها كهَدْمِ الإسلام لما قَبْلَهُ»[(١)]. اهـ.

٣ ـ **العِرْض**: فإن قَذَفَه، أو رَمَاهُ بِسُوءٍ، أو اغتابه، أو بَهَتَه، فهل يكفي في التوبة من ذلك الاستغفار للمُغْتاب، أم لا بد من إعلامه وتَحَلُّله؟

في المسألة قولان للعلماء؛ وهما روايتان عن الإمام أحمد[(٢)].

القول الأول: اشتراط الإعلام والتحلل، واحتجوا بأن الذنب حق الآدمي، فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه، وهو مذهب الشافعي[(٣)]، وأبي حنيفة ومالك[(٤)].

القول الثاني: أنه لا يجب، بل يذكره بخير في مَوَاضع غَيْبته وقَذْفه، ويستغفر له، وبه قال شيخ الإسلام وابن القيم وأكثر العلماء؛ لأن إعلامه مَفْسَدة مَحْضة لا مصلحة فيها، وإنما تُؤْذيه وتُسَبِّب العداوة، ورُبَّما وقع ما هو أعظم من مَفْسدة غَيْبته، فلا يقاس ذلك على الحقوق المالية.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامِه، بل يكفيه الاستغفارُ، وذِكْره بمَحَاسِن ما فيه في المواطن التي اغتابه فيها، وهذا اختيارُ شيخِ الإسلامِ ابن

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٩).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٩٠).

(٣) انظر: «مغني المحتاج» (٦/ ٣٦٥)، و«نهاية المحتاج» (٨/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨). وهو مقيد عندهم بما إذا بلغه ذلك.

(٤) انظر: «الفواكه الدواني» (٢/ ٤٩٠)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٩٠).

تيمية وغيرِه، والذين قالوا: لا بد من إعلامِه جعلوا الغيبةَ كالحقوقِ الماليةِ، والفرقُ بينَهما ظاهرٌ، فإن الحقوقَ المالية يَنْتَفِعُ المظلومُ بِعَوْدِ نظيرِ مَظْلَمتِه إليه، فإن شاء أَخَذَهَا، وإن شاء تصدَّق بها. وأما في الغيبةِ فلا يمكن ذلك، ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع ﷺ؛ فإنه يُوغِر صدرَه، ويؤذيه إذا سمع ما رُمِيَ به، ولعله يُهَيِّج عداوتَه، ولا يصفو له أبدًا، وما كان هذا سبيله فإن الشارعَ الحكيمَ ﷺ لا يبيحه، ولا يُجَوِّزه، فضلًا عن أن يُوجِبَه ويأمرَ به، ومدارُ الشريعةِ على تعطيلِ المفاسدِ وتقليلِها، لا على تحصيلها وتكميلها»[(١)]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من ظلم إنسانًا فقَذَفَهُ، أو اغتابه، أو شتمه، ثم تاب قَبِلَ اللهُ توبتَه، لكن إن عَرَف المظلوم مَكَّنَهُ من أخذِ حقِّه، وإن قذفه أو اغتابه ولم يَبْلغه ففيه قولانِ للعلماء، هما روايتانِ عن أحمد، أصحهما: أنه لا يُعْلمه أني اغتبتك، وقد قيل: بل يُحْسِن إليه في غَيبتِه كما أساء إليه في غيبتِه، كما قال الحسن البصري: «كفارةُ الغِيبةِ أن تستغفرَ لمن اغتبته»[(٢)]»[(٣)]. اهـ.

فإن أعلمه لِيَتَحَلَّلَه، فما الواجب عليه: أيُعلمه بما قال فيه، أم يكفي الإجمالُ؟

قيل: يجب أن يعلمه بما قال فيه؛ لأن البراءةَ لا تحصل من الحقِّ المجهولِ، فقد لا تسمح نَفْسُه بالإبراء إذا عرف ذلك.

وقيل: يكفي الإجمال، وهو الأقرب.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبةُ مِنْ ظُلْمِ الناسِ في أعراضِهم وأبْشَارِهم وأموالهم لا تكون إلا بِرَدِّ أموالهم إليهم، وردِّ كل ما تَوَلَّدَ منها معها، أو مثل ذلك إن فات، فإن جُهِلُوا ففي المساكينِ، ووجوهِ البرِّ، مع الندم، والإقلاعِ، والاستغفارِ، وتَحَلُّلهم من أعراضهم وأبشارهم، فإن لم يمكن ذلك فالأَمرُ إلى الله تعالى، ولا بد للمظلومِ من الانتصافِ يومَ القيامةِ، يومَ يُقْتَصُّ للشاةِ الجماءِ من القرناءِ.

---

(١) «الوابل الصيب» (ص٣٨٩ ـ ٣٩٠).

(٢) لم أقف عليه من قول الحسن، وروي مرفوعًا من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٩١)، و«الغيبة» (١٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٣٦٨) وغيرهما، ولا يثبت، بل حكم عليه بعضُهم بالوضع، انظر: «الموضوعات» (١٥٨٣)، و«تلخيصها» للذهبي (١٠١٧)، و«تذكرة الحفاظ» له (٣/ ٩٦٧)، و«الضعيفة» للألباني (١٥١٩)، وانظر في هذا الباب: «الفتاوى الحديثية» للسخاوي (١/ ١٦٢)، و«المقاصد» (ص٣١٧) و«اللآلئ المصنوعة» (٢/ ٣٠٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٩١).

والتوبةُ من القتلِ أعظمُ من هذا كلِّه، ولا تكون إلا بالقصاصِ، فإن لم يمكن فَلْيُكْثِرْ من فِعْلِ الخير؛ لِيُرَجِّحَ ميزان الحسنات»[١].اهـ.

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قالوا: المُفْلِس فينا من لا درهم له ولا مَتَاع، فقال: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[٢].

قال النووي رحمه الله: «حقيقة المُفْلِس: هذا المذكور في الحديث، فهو الهالك الهلاكَ التامَّ، والمعدوم الإعدام المُقَطَّع؛ فتُؤْخَذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أُخِذ من سيئاتهم، فَوُضِع عليه، ثم أُلْقِيَ في النار، فتمَّت خسارته وهلاكه وإفلاسه»[٣].اهـ.

فعلى العاقل أن يتَحَلَّلَ من مظالم الناس اليوم، ويتَّقِي الله فيهم فيما يستقبل من أيَّامه، وحَرِيٌّ بالمؤمن أن يتخذ من أخيه المؤمن صاحبًا ونصيرًا، فينْشُر خيره، ويَسْتر عيبه، بدلًا من ظُلْمه وغيبته والوقيعة في عِرْضه.

❊ حكم توبة مَنْ ضَيَّعَ حقوقًا يتعذّر استدراكها:

أولًا: حقوق الله، وهي أنواع:

الأول: ما ترَكَهُ الكَافِرُ الأصلي من الواجبات؛ كالصَّلَاةِ، والصيام وغير ذلك، فهذه لا يجب عليه قضاؤها بعد الإسلام إجماعًا، سواء بَلَغَه الإسلام أم لم يَبْلُغه، وسواء كان كفره من قبيل الجحود، أم الإعراض، أم غير ذلك؛ لعموم قوله ﷺ: «**الإِسْلَامُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ**»[٤].

الثاني: ما تَرَكه المسلم من صلاة وصيام ونحو ذلك مُتَعَمِّدًا بغير عذر، والذي عليه الجمهور أن عليه القضاء، وَعَزَاهُ ابنُ القيم إلى الأئمة الأربعة[٥]، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «**مَنْ نَسِيَ صَلَاةً أَوْ نَامَ عَنْهَا، فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا**»[٦].

---

(١) «المحلى» (١/ ٤٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١).
(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٦/ ١٣٦).
(٤) أخرجه مسلم (١٢١) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.
(٥) انظر: «كتاب الصلاة» لابن القيم (ص١٢٣ ـ ١٢٤).
(٦) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) واللفظ له، من حديث أنس رضي الله عنه.

قالوا: فهذا معذور، وقد أُمِرَ بالقضاء، فغير المعذور أَوْلَى، ولا نَجْمَعُ له بين التَّرْك وعدم المطالبة بالقَضَاء، بل هي باقية في ذمته حتى يقضيها.

واحتجّوا أيضًا بقوله ﷺ: «**إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»(١). وها هنا قَدْر مُسْتَطَاع؛ وهو أن يصليها، وإن فات الوقت فهو بكل حال خيرٌ ممن يَلْقَى الله ولم يصلِّهَا.

والقول الثاني: أنه لا يقضي، ولا يصح فِعْل الواجب بعد وقته؛ لأن كل عبادة مؤقتة بوقت، إذا زال وقتها بلا عذر لا تصح ولا تُقبَل.

ولأنه لم يُوقِعْها على الوجه المأمور به، فهو كمَنْ صَلَّى قبل الوقت.

ولأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ العَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**»(٢).

وقال: «**مَنْ فَاتَتْهُ العَصْرُ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ**»(٣).

وبه قال أهل الظاهر، وجماعة من السلف، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٤).

قالوا: ولكن عليه أن يُكثر من التطوع؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ. قَالَ: يَقُولُ رَبُّنَا** عز وجل **لِمَلَائِكَتِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ: انْظُرُوا فِي صَلَاةِ عَبْدِي: أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْئًا قَالَ: انْظُرُوا؛ هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ: أَتِمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَاكُمْ**»(٥).

قالوا: وعَدم إلزامه بالقضاء مُرَغِّبٌ له في التوبة، ومُحَبِّبٌ له إليها، بخلاف ما لو

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦) واللفظ له، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) انظر: «المحلى» (٢/ ٢٣٥)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠)، وقد ذكر ابن حزم من ذهب إلى هذا القول في «المحلى» (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، وانظر: «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ١٠٠٠)، و«كتاب الصلاة» لابن القيم (ص٧٣ ـ ٨٢).

(٥) أخرجه أبو داود (٨٦٤) واللفظ له، والترمذي (٤١٣)، والنسائي (٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧)، وابن ماجه (٤٢٥)، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الحاكم (١/ ٢٦٢)، والألباني في «الصحيحة» (٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٦)، إلا أن بعض أهل العلم ذهبوا إلى تضعيفه؛ وذلك لاضطرابه، انظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٤٢٦)، وللدارقطني (٨/ ٢٤٤ ـ ٢٤٨)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٣/ ٣٤٦)، والله أعلم.

ألزمناه بالقضاء، وخاصة إذا كان قد تَرَك الصلاة والصيام سنين، فماذا يُقَال لمثل هذا؟ وماذا عساه أن يفعل؟!

والأحوط في هذا أن يُقَال: إذا كان ما تَرَكَهُ يمكنه قضاؤه بغير مشقة تَلْحَقه بالقضاء؛ فإنه يقضي؛ كمن تَرَك صلوات بتفريط، أو أفطر بغير عذر، فهذا يُؤْمَر بالقضاء احتياطًا لدينه، من غير أن يُعْزَم عليه فيه، مع التوبة النصوح، وكثرة الاستغفار.

وإذا كان ما تَرَكه لا يمكنه قضاؤه في العادة إلا بمشقة كبيرة؛ كمن تَرَك الصلاة والصيام سنين عديدة، فإننا لا نُنَفِّرُهُ من التوبة بمطالبته بالقضاء، وإلزامه بذلك، بل قد يعجز عنه. ولكننا نُرَغِّبُهُ في التوبة، ونُبَيِّن له أنها تَجُبُّ ما قَبْلَهَا، وأن الله يقبل التوبة من عباده، وأنه سبحانه يغفرُ الذنوبَ جميعًا. ونأمره بالإكثار من النوافل؛ لتعويض الناقص من فرائضه، كما دَلَّ عليه حديثُ أبي هريرةَ المُتَقَدِّم.

الثالث: ما تَرَكه المسلم من الواجبات، أو فَعَلَهُ من المُحَرَّمَات مُتَأَوِّلًا، والفرقُ بينَ هذا والذي قبله: أن ذاك فَعَله متعمِّدًا من غير عذر، وهذا فَعَلَه بشبهة.

وفيه مسائل:

١ ـ ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: أن التأويل لا يمنع من إقامة الحدِّ أو قتال البغاة؛ لأن التأويل لا يرفع عقوبةَ الدنيا؛ إذ الغرضُ بالعقوبة دفعُ فسادِ الاعتداءِ في المستقبل، فيُشْرَع في مثل هذا عقوبة المُتَأَوِّل في بعض المواضع[(١)].

٢ ـ ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: أن ما تَرَكه من واجب، أو أوقعه من العقود والقبوض غير الصحيحة مُتَأَوِّلًا، وهكذا ما اسْتَحَلَّه من النفوس والأموال؛ فإنه لا يُعاقَب على ما مضى إذا لم يكن فيه زَجْرٌ في المستقبل، وأن التوبة تَجُبُّ ما قَبْلَهَا، وهذا أدعى إلى ترغيب الناس في التوبة[(٢)].

وقد كان قُدَامَة بن مَظْعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المهاجرين، ومن أهل بدر، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد اسْتَعْمَلَه على البحرين، وشهدوا عليه عند عمر أنه كان يشرب الخمر، فقال قدامة: «لو شربتُ كما يقولون ما كان لكم أن تجلدوني. فقال عمر: لِمَ؟ قال قدامة: قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ الآية [المَائِدَة: ٩٣]... فقال عمر: إنك أخطأتَ التأويلَ، إن اتقيتَ اللهَ اجتنبتَ ما حرَّم اللهُ عليكَ»[(٣)].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١٤ ـ ١٥).
(٢) انظر: المصدر السابق (٢٢/ ١٥).
(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٧٠٧٦)، ومن طريقه البيهقي (٨/ ٣١٥ ـ ٣١٦)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١٢٧٧ ـ ١٢٧٩).

فهذا رجل من الصالحين من أهل بدر، تَأَوَّلَ تأوّلًا أخطأ فيه، فلا يُقَال في مثله: إنه اسْتَحل ما حرَّم الله، وأجمع المسلمون على تحريمه.

ومثل هذا فيما لو كان للتأويل وجه، أما إذا كان تأويلًا ساقطًا، ظاهرَ الفسادِ فلا يُعتبر.

فالتأويل عند الأصوليين على ثلاثة أنواع: تأويل صحيح، وتأويل فاسد لا وجه له، وتأويل بعيد(١).

ومثال التأويل الذي لا وجهَ له: قولُ بعضِ أهلِ الزيغِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البَقَرَة: ٦٧]؛ قال: يعني: عائشةَ! فهذا قولٌ لا وجهَ له في المعقول ولا المنقول، فلا اعتبارَ له، ولا يُعذر صاحبُه.

وأما التأويل الذي احْتَمَل الناسُ حكايتَه، مع كونه مَرْدُودًا، دون أن يُطعن به في عدالة صاحبه، فهو مَحَلّ الكلام هاهنا.

٣ ـ ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنه إذا كان تَرْكُهُ للواجب أو فِعْلُهُ للمحرم بسبب تفريطِه في تَعَلُّم ما يجب عليه فيه، أو تفريطه في التزامه بالواجب عليه؛ فإنه لا يلزمُه قضاءُ ما فَرَّطَ فيه من الواجب، ولا التَّخَلُّصُ من المكاسب المحرمة، ترغيبًا له في التوبة.

ويؤيده ـ فيما كان لِحَقِّ الله ـ ما جاء من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل المسجد، فدخل رجلٌ، فصلى، فَسَلَّمَ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَدَّ وقال: «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**...» الحديثَ(٢)، وفيه قولُ الرجلِ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَه فَعَلِّمْنِي» فَعَلَّمَهُ.

والشاهد منه: أنه لم يأمره بإعادة الصلوات التي صلاها من قبلُ، وقد تبين له أنها لا تجزئه.

وعن معاوية بن الحَكَم السلمي، قال: بَيْنَا أنا أصلِّي مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ عَطَسَ رجلٌ من القوم، فقلتُ: يرحمك اللهُ، فَرَمَانِي القومُ بأبصارِهم، فقلتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاه! ما شأنُكم تنظرونَ إِليَّ... الحديثَ، وفيه قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ**

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٤٤٣)، و«شرح الكوكب المنير» (٣/ ٤٦٢)، و«الصواعق المرسلة» (١/ ١٨١ ـ ٢٠١)، و«أصول الفقه» لابن مفلح (٣/ ١٠٤٤)، و«العذب النمير» (٣/ ٣٣٨)، و«مذكرة في أصو ل الفقه» للشنقيطي (ص٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٧) واللفظ له، ومسلم (٣٩٧).

فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[(١)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يأمره النبيُّ ﷺ بإعادة الصلاة، لكن عَلَّمَهُ تحريمَ الكلام فيما يُسْتَقبل»[(٢)]. اهـ.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن أُمَّ حبيبةَ بنتَ جحشٍ اسْتُحِيضَت سبع سنين، فاسْتَفْتَت رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ بِالحَيْضَةِ، وَلَكِنَّ هَذَا عِرْقٌ**»، فأمرها أن تترك الصلاة قَدْرَ أقرائها وحيضتها، وتغتسل، وتصلّي[(٣)].

فلم يأمرها النبي ﷺ بالإعادة أو القضاء مع طول المدَّة.

وأما بالنسبة للمكاسب المحرَّمَة التي اكتسبها قبلَ توبتِه بسبب تفريطِه في التَّعَلُّم والسؤال؛ كمن كان يساهم في بعض الشركات الربويَّة ظَنًّا منه أنها لا تتعامل بالربا، فلما تاب وسأل علم أن الأمر بخلاف ما كان يظنّ، فالأقرب في هذا وأمثاله أنه يجب عليه التَّخَلُّصُ من تلك المكاسب المحرَّمَة، وأن ذلك من تمام توبته، بخلاف مَنْ لم يَبْلُغْه الحكم أصلًا؛ كحديثِ عهدٍ بإسلام.

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [البَقَرَة: ٢٧٨]، إلى قوله: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٧٩].

وقد ذكر زيد بن أسلم[(٤)]، وابن جريج[(٥)]، ومقاتل بن حيان[(٦)]، والسدّي[(٧)]: أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم؛ كان بينهم رِبًا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طَلَبَتْ ثَقِيف أن تأخذه منهم، فتشاوروا، وقالت بنو المغيرة: لا نُؤَدِّي الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عَتَّاب بن أَسِيْد إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيةُ، فَكَتَب بها رسول الله ﷺ إليه، فقالوا: نتوبُ إلى الله، وَنَذَرُ ما بَقِيَ من الربا، فتركوه كلهم.

فمَنْ لم تَبْلُغه الآية، وكان يُعْذَر مثلُه؛ فهو في حكمهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).
(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٥/ ٢١) بتصرُّف يسير.
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٧)، ومسلم (٣٣٤) واللفظ له.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٧٢٠).
(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٢٣).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩).
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٧٢٠)، وانظر: «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٦٣٨ ـ ٦٤٠).

وأما مَنْ يتعاطى الربا، ممَّن يعيش بين المسلمين؛ فإنه يجب عليه أن يتخَلَّصَ من هذا المالِ الحرامِ.

ثانيًا: حقوق العباد: ولها صور[(١)]:

١ ـ مَنْ غَصَبَ أموالًا، ثم تاب، ولم يعرف أصحابَها ولا ورثتَهم؛ فمن أهل العلم من يقول: لا توبةَ له؛ لأنه لا بد أن يُرجِعِ الحقوقَ لأهلها، وإذ لم يتمكن من ذلك في الدنيا فسَيأخذ خصومُه حقوقَهم منه في الآخرة، وقد ضَيَّعَهَا عليهم في الدنيا، وَحَرَمَهُمْ من الانتفاع بها، وربما أصابهم بذلك الضررُ البليغُ، فلا توبةَ لمثله. ولكن عليه أن يُكثر من الحسنات، ويصبر على أذى الناس، ولا يقتص منهم في الدنيا؛ فإنهم إذا آذوه فصبر أخذ من حسناتهم، فَيُعَوَّضُ ما يُؤْخَذ من حسناته لمن ظَلَمَهم.

وأمَّا ما بيده من الأموال، فذهب طائفةٌ من أصحابِ هذا القول إلى أنه يجب عليه أن يُبْقِيَهَا عندَه، ويُوقِف أمرَها، ولا يتصرف فيها بالتَّصَدُّقِ ولا غيرِه؛ لأنه لا يحل له أن يتصدقَ من مال غيره إلا بإذنه، والأصلُ في هذه الأموال وجوبُ رَدِّهَا إلى أصحابها، وهذا القول نسبه بعضهم للشافعية[(٢)].

وقال بعضهم: يدفعها إلى الإمام؛ لأنه وكيلُ أربابها في مثل هذه الحالة، فيقوم مقامَه، ويتصرف فيها عنهم، وهو قول لبعض الشافعية[(٣)].

والقول الثاني في المسألة: أن له توبة، وعليه أن يتصدق بهذه الأموال عن أصحابها، فإذا كان يوم القيامة فهم مُخَيَّرُونَ بين ثوابها، وبين الأخذِ من حسناته، ويكون ثوابُ الصدقةِ له.

وهذا أرجحُ القولين، وبه قال ابن مسعود، ومعاويةُ بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وجماعةٌ من أهل العلم.

فعن أبي وائل، أن عبد الله بن مسعود اشترى جاريةً، فذهب صاحبُها، فتصدق بِثَمَنِها، وقال: «اللَّهُمَّ عن صاحبها، فإن كَرِهَ فَلِي، وعليَّ الغُرْمُ»[(٤)].

---

(١) لمزيد من التفصيل في هذه المسألة ينظر:
https://docs.google.com/viewerng/viewer?url=http: //d1.islamhouse.com/data/ar/ih_books/single7/ar_Attawbåmkasib_muharrama.pdf

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٩٢).

(٣) «تحفة المحتاج» (٣/ ٩٠).

(٤) ذكره البيهقي في «السنن» (٦/ ١٨٧ ـ ١٨٨)، وأخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٣٩) بنحوه، وقال ابن حجر في «الفتح» (٩/ ٣٤٠): «إسناده جيد».

وعن حَوْشَب بن سيف قال: «غزا الناس الروم، وعليهم عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، فَغَلَّ رجلٌ مائةَ دينار، فلما قُسِمَتِ الغنيمةُ، وتَفَرَّق الناسُ نَدِم، فأتى عبدَ الرحمٰنِ بن خالدٍ فقال: قد غَلَلتُ مائةَ دينارٍ فاقبضها. قال: قد تَفَرَّقَ الناسُ، فلن أقبضها منك حتى توافي اللهَ بها يوم القيامة، فأتى معاويةَ، فذكر ذلك له، فقال له مثلَ ذلك، فخرج وهو يبكي، فَمَرَّ بعبد الله بن الشاعر السَكْسَكي، فقال: ما يُبْكِيكَ؟ فقال: غَلَلْت مائة دينار، فأخبره، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أَمُطِيعِي أنتَ يا عبدَ اللهِ؟! قال: نعم، قال: فَانْطَلِقْ إلى معاويةَ فقل له: خذ مني خُمُسَك، فَأَعْطِهِ عشرينَ دينارًا، وانظر إلى الثمانين الباقيةِ فَتَصَدَّقْ بها عن ذلك الجيشِ؛ فإن الله ﷻ يعلم أسماءَهم ومكانَهم؛ فإن اللهَ يقبلُ التوبةَ من عباده.

فقال معاوية: أَحْسَنَ واللهِ؛ لأَنْ أكونَ كنتُ أفْتَيتُه بها كان أحبَّ إليَّ مِنْ أن يكون لي مثلُ كل شيء امتلكتُ»[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولقد سُئِلَ شيخُنا أبو العباس ابنُ تيميةَ قَدَّسَ اللهُ روحَه، سأله شيخٌ فقال: هَرَبْتُ من أستاذي وأنا صغيرٌ، إلى الآن لم أَطَّلِعْ له على خَبَرٍ، وأنا مملوك، وقد خِفْتُ من الله ﷻ، وأريد براءةَ ذِمَّتِي من حقِّ أستاذي من رَقَبَتِي، وقد سألتُ جماعة من المُفْتِين، فقالوا لي: اذهب فاقعد في المُسْتَوْدَع، فضحك شيخنا، وقال: تَصَدَّقْ بقيمتك أعلى ما كانت عن سيدك»[٢]. اهـ.

٢ ـ لو عاوَضَ غيره معاوَضَةً محرَّمَة، وأخذ العِوَض؛ كالمُغَنِّي، وبائعِ الخمرِ، وشاهدِ الزورِ، ثم تاب.

فقيل: يَرُدُّ ما أَخَذَه إلى مالكه؛ لأنه لم يقبضه بطريق شرعي، وهو قول الحنابلة[٣]، وقول لشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقيل: يتملكه؛ لقوله تعالى في الربا: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وهو أحد أقوال شيخ الإسلام في المسألة.

وقيل: يتصدق به ولا يَرُدّه إليه؛ لأنه قَبَضَهُ ببذلِ مالكِه له، وقد استوفى العِوَضَ المحرَّمَ، وفي رَدِّه إعانةٌ له على المنكر، وهذا قول لشيخِ الإسلامِ ابن تيمية[٤]، ومال

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٧٣٢).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٠).
(٣) «الإنصاف» (٤/ ٣٦٢).
(٤) للوقوف على أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية ينظر:
http: //www.islamtoday.net/bohooth/services/printart-86-9960.htm

إليه ابنِ القيم رحمهما الله[١].

وحين نقول: لا يردُّه إليه، وإنما يتصدقُ به، فهو إنما يفعل ذلك على سبيل التَّخَلُّصِ منه، لا بسبيل القربى؛ فإن الله طيبٌ لا يقبل إلا طَيِّبًا.

وهذا المالُ ليس حَقًّا للأول حتى نقولَ: يتصدق به عنه، كما أنه ليس حَقًّا له حتى نقول: يتصدقُ به عن نَفْسه.

وهكذا من اختلط مالُه الحرامُ بالحلالِ، ولم يتميّز حَلَالُه عن حرامه؛ فإنه يتصدق بِقَدْرِ الحرامِ، فإن لم يعرف قدْرَ الحرام تصدّقَ حتى يَغْلِبَ على ظنه أنه تَخَلَّصَ منه، فهذا أبرأُ لذمته، وأدلُّ على صِدْقِ تَوْبتِه.

فلو تَطَاوَلَ على المالِ المغصوبِ سنواتٍ، وكان بإمكان صاحبِه أن يُنَمّيه بالرِّبْح؛ فتوبتُه أن يُخْرِجَ المالَ ومِقْدارَ ما فَوَّتَهُ من رِبْحِهِ.

فإن عَمِلَ فيه فربح:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما المالُ المغصوبُ إذا عمل فيه الغاصبُ حتى حصل منه نماء، ففيه أقوالٌ للعلماء: هل النماءُ للمالك وحدَه؟ أو يتَصَدَّقَانِ به؟ أو يكون بينهما؟ أو يكون للعاملِ أجرةُ مثلِه إن كانت عادتُهم جاريةً بمثل ذلك؟»[٢]. اهـ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن كان قد رَبِح فيه بِنَفْسه، فقيل: الربحُ كُلُّهُ للمالك، وهو قولُ الشافعي، وظاهرُ مذهبِ أحمدَ رحمهما الله.

وقيل: كلُّه للغاصب، وهو مذهبُ أبي حنيفةَ ومالكٍ رحمهما الله.

وكذلك لو أَوْدَعَهُ مالًا فَاتَّجَرَ به وربح، فَرِبْحُه له دونَ مالكه عندَهما، وضمانُه عليه.

وفيها قولٌ ثالثٌ: أنهما شريكانِ في الربح، وهو رواية عن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واختيارُ شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أصحُّ الأقوالِ، فتُضَمّ حصةُ المالكِ من الرِّبْحِ إلى أصلِ المالِ، ويتصدقُ بذلك»[٣]. اهـ.

خامسًا: الإخلاص لله ﷻ فيها، واعتقاد أن فِعْلَهُ كان سيئة، فيكرهه لنهي الله عنه:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد يظن الظانُّ أنه تائب، ولا يكون تائبًا، بل يكون تاركًا، والتاركُ غيرُ التائبِ، فإنه قد يُعْرِضُ عن الذنب لعدم خُطُوره بباله، أو المُقْتَضِي لعَجْزه عنه، أو تنتفي إرادتُه له بسببٍ غيرِ دينيٍّ. وهذا ليس بتوبة، بل لا بد

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٠).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٠/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٢). وراجع: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٧، ١٥ ـ ٢٢).

أن يعتقد أنه سيئة، ويكره فِعْلَه؛ لنهي الله عنه، ويدعه لله تعالى، لا لرغبةِ مخلوقٍ، ولا لرهبة مخلوق؛ فإن التوبةَ من أعظمِ الحسناتِ، والحسناتُ كلُّها يُشترط فيها الإخلاصُ»[(١)]. اهـ.

خلاصة شروط التوبة:

ومن خلال ما سبق يتبين أن التوبة لا بد أن يجتمع فيها **الأمورُ التاليةُ**:

١ ـ الإقلاع عن الذنب.

٢ ـ النَّدَم على ما فات، والحدُّ الأدنى من ذلك: وجودُ أصلِ الندمِ، وأما قوةُ الندمِ وضعفُه، فَبِحَسَب قوةِ التوبةِ وَضَعْفِهَا.

٣ ـ العِلْم بقبح الذنب.

٤ ـ العَزْم على ألَّا يعود.

٥ ـ تَدَارُكُ ما يمكن تداركه من رَدِّ المظالم ونحو ذلك.

٦ ـ أن تكون خالصةً لله ﷻ.

٧ ـ أن تكون قبل الغرغرةِ؛ لحديثِ ابنِ عمرَ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[(٢)].

٨ ـ أن تكون قبلَ طلوعِ الشمسِ من مغربها؛ لحديث أبي هريرة: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»[(٣)].

* التَّوْبَة مما يتولَّد مِنْ الذَّنب[(٤)]:

لا شكَّ أن العبدَ يلحقه ذنبُه وما تَوَلَّدَ منه، والله تعالى يعاقب على الأسباب المحرّمة وما تَوَلَّدَ منها، كما يُثيب على الأسبابِ المأمورِ بها وما تَوَلَّدَ عنها؛ ولذا كان مَنْ دَعَا إلى بدعةٍ وضلالةٍ فعليه من الوزرِ مثلُ أوزارِ مَنِ اتَّبَعَهُ؛ لأن اتِّبَاعَهم له تَوَلَّدَ عن فِعْلِهِ. وقد قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النَّحْل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ١٣].

فكيف يتوب العبدُ من مثلِ ذلك، وقد عُلِمَ بالاضطرارِ أن نَدَمَ العبدِ واستغفاره،

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣١٨).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: «أضواء البيان» (٥/٢٣٦ ـ ٢٣٧)، و«العذب النمير» (١/٣٤٩ ـ ٣٥١، ٤/١٨٨ ـ ١٨٩، ٥/٤٠٠ ـ ٤٠١).

وعدمَ إجابة دواعي الذنب وموجباتِه، وَحَبْسَ النفسِ عن ذلك؛ لا يفي برفع تلك الأثقال؟

والجواب أن يُقَال: توبتُه من ذلك برفعِه عن الآخرين بحسب الإمكان؛ فَمَنْ كانت له أفكارٌ مُنْحرفةٌ، وكان يسعى في نَشْرها وبثِّها في الناس فعليه أن يُعْلِن توبتَه ورجوعَه عما كان اعتقده، وسعى له، فإن كان صَنَّفَ كتابًا، أو نَشَر مقالًا؛ فعليه أن يكتب، ويَنْشر ما ينْقُضُه، ويُعْلِنَ توبتَه بكل مقدورٍ له، فيسعى حقُّه خَلْفَ باطلِه فيمحقه.

وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٩، ١٦٠]؛ «أي: رجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا أعمالَهم وأحوالهم، وبيَّنُوا للناس ما كانوا كتموه فأولئك يتوب الله عليهم...

وفي ذلك دلالةٌ على أن الداعيةَ إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه»[(١)].

وقال الله تعالى عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النِّسَاء: ١٤٥، ١٤٦]، «فَشَرَطَ في توبتِهم ـ وقد كان ذنبُهم إفسادَ قلوبِ ضعفاءِ المؤمنين، وتَحَيّزهم واعتصامهم باليهود والمشركين، وإظهارهم الإسلام رياءً وسمعةً ـ أن يصلحوا بدلَ إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدلَ اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يُخلصوا دينَهم لله بدلَ إظهارهم إياه رياءً وسمعةً، فهكذا تُفهم شرائطُ التوبةِ وحقيقتُها»[(٢)].

وكذلك حال المُغَنِّي والمُمَثِّل وأشباههما إذا رَغِبَ أحدهم في التوبة، وطاب قلبه بالرجوع إلى الله، فعليه أن يتخلَّص مما كان قد جناه على نَفْسه وعلى الآخرين بِحَسَب استطاعته، ويُعْلِن توبتَه على الناس ورجوعَه وإقلاعَه عما كان عليه، ويسعى في تَخْرِيب محصول الفساد من أشرطةِ الغناءِ والفيديو والأفلام ونحو ذلك، وتوقيفِ تنميتِه، وإزالةِ آثارِه بكلِّ طريقٍ.

* هل يُشترط أن تكون التوبةُ علانيةً؟

عن ميمون بن مهران قال: «مَنْ أساء سِرًّا فَلْيَتُبْ سِرًّا، ومن أساء علانيةً فَلْيَتُبْ

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٧٧) بتصرُّف.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٢٣ ـ ١٢٤) بتصرُّف.

علانيةً؛ فإن الله يغفر ولا يُعَيِّر، والناس يُعَيِّرون ولا يغفرون»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أذنب سرًّا فَلْيَتُبْ سِرًّا، وليس عليه أن يُظهر ذنبه، كما في الحديث: «**مَنِ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ**»[٢]... فإذا ظهر من العبد الذنبُ، فلا بد من ظهور التوبة»[٣]. اهـ.

ولو قيل في المسألة بالتفصيل لكان له وَجْهٌ؛ وهو أن الذنوب التي يفعلُها علانيةً **نوعانِ**:

الأول: ذنبٌ قاصرٌ، لا يكاد يتعدى صاحبَه؛ كالرجل يتعاطى الدخانَ في المجالس العامة، فهذا ونحوه لا يُشترط لصحة توبته أن يُعْلِنَهَا.

الثاني: ذنبٌ مُتَعَدٍّ؛ كمن يعتقد عقيدةً فاسدةً ويدعو إليها، فهذا يلزمُه الإعلانُ، وإخبار الناس بأنه قد تاب مما كان عليه من الاعتقادِ الفاسدِ، وكذلك كان السلفُ ينهونَ عن مجالسةِ أهلِ الأهواءِ وَالبِدَعِ؛ لأنهم يتكلمون ببدعتهم، وينقلها الناسُ عنهم؛ فهذا شرٌّ يَفْشُو بينَ الناسِ يلزمُ صاحبَه إذا تاب منه أن يُتْبِع الحسنةَ السيئةَ، فيُذِيع الرجوعَ عن الفساد كما أذاعه مِنْ قَبْلُ.

* هل يلزمه الإقرارُ بالذنبِ والاعترافُ به؟

قال شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ثبت الذنبُ بإقرارِه، فجحد إقرارَه، وكذَّب الشهودَ على إقراره، أو ثبت بشهادةِ شهودٍ، هل يُعَدُّ بذلك تائبًا؟ فيه نزاعٌ:

فذكر الإمامُ أحمدُ أنه لا توبة لمن جَحَدَ، وإنما التوبةُ لمن أقرَّ وَتَابَ، واستدلَّ بقصةِ عليِّ بن أبي طالبٍ؛ أنه أُتِيَ بجماعةٍ ممن شُهِدَ عليهم بالزَّنْدَقة، فاعترف منهم ناسٌ فتابوا، فَقَبِلَ توبتَهم، وَجَحَدَ منهم جماعةٌ فقَتَلَهُمْ. وقد قال النبي ﷺ لعائشة: «**إِنْ كُنْتِ أَلَمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»[٤]... فإذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة، ومع الجحودِ لا تظهر التوبة»[٥]. اهـ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٤٤، ٣٨٣)، والبيهقي (٨/ ٣٣٠)، وصحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٦٦٣)، وأخرجه مالك (٢٣٨٦) مُرْسَلًا.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

* هل من شَرْط توبته أن يُكَذِّب نَفْسه؟[(١)]

قولان لأهل العلم:

الأول: يلزمُه ذلك، وبه قال عمر[(٢)]، وطاوس، والشعبي[(٣)]، والشافعي[(٤)]، وأحمد[(٥)]، واستدلوا بما رواه سعيد بن المُسَيِّب، قال: «شهد على المغيرة أربعةٌ بالزنا، فَنَكَل زياد، فحدَّ عمرُ الثلاثةَ، ثم سألهم أن يتوبوا فتاب اثنان، فَقُبِلَتْ شهادتُهما، وأبى أبو بكرةَ أن يتوب، فكانت لا تجوزُ شهادتُه»[(٦)].

الثاني: لا يلزمه، بل يكفي الاستغفار والندم وصلاح الحال، وبه قال بعض التابعين ومالك، وهو اختيار ابن جرير الطبري[(٧)].

* هل الاعترافُ وحدَه يكفي؟

سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «هل الاعترافُ بالخطيئةِ بمُجَرَّدِه مع التوحيد مُوجِبٌ لغفرانها، وكَشْف الكُرْبة الصادرة عنها؟ أم يحتاج إلى شيء آخر؟

ـ فأجاب: ـ إن المُوجِب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها؛ فإن الشرك لا يغفره اللهُ إلا بتوبة... وأما ما دونه فيغفره اللهُ للتائب، وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء، فالاعترافُ بالخطيئة مع التوحيد إن كان مُتَضَمِّنًا للتوبة أَوْجَبَ المغفرةَ»[(٨)].اهـ.

فلا بدَّ في الاعتراف أن يتضمن الرجوع عن الذنب حتى تصح التوبة. وأما إذا اعترف بالذنب، وأقرَّ بالخطيئة إلا أنه يُضمر العودَ، أو لا يستطيع القَطْعَ على نَفْسه بالانكفافِ، أو يُمَنِّي نفسَه بالإقلاع والتَرْكِ، وهو مع ذلك مُقِرٌّ بالذنب، نادمٌ على الفِعْل؛ فهذه ليست بالتوبة التي تُوجِب المغفرةَ بفضل الله.

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٧/ ١٧٢)، و«تفسير السعدي» (ص٥٦١)، و«صحيح البخاري» (٣/ ١٧٠)، و«الاستذكار» (٢٢/ ٣٨ ـ ٤١)، و«فتح الباري» (٥/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥)، و«قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (٢/ ٧٤ ـ ٧٥)، و«المغني» (١٤/ ١٩١)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٣٨/ ١٤٤)، و«مجلة البحوث الإسلامية» (٦٦/ ٣٢٣).

(٢) كما سيأتي في حكمه على من قذف المغيرة بن شعبة.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ١٦٣ ـ ١٧٤).

(٤) انظر: «الأم» (٦/ ٢٢٥).

(٥) انظر: «المبدع» (٨/ ٣١٧).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (١٣٥٦٤).

(٧) انظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ١٧٥)، و«الكافي في فقه أهل المدينة» (٣/ ٢٧١)، والمقدمات الممهدات (٣/ ٢٧٢).

(٨) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

وقال رحمه الله: «وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا في نَفْس الاستغفار المُجَرَّد الذي لا توبةَ معه، وهو كالذي يسأل اللهَ تعالى أن يغفر له الذنب، مع كونه لم يتب منه، وهذا يأس من رحمة الله، ولا يُقْطَع بالمغفرة له، فإنه داعٍ دعوةً مُجَرَّدَةً»[١]. اهـ.

* هل الاستغفار توبة؟

«**الاستغفارُ في اللغة**: طلبُ المغفرةِ بالمقال والفِعَال، وعند الفقهاء: سؤال المَغفِرة كذلك. والمغفرة في الأصل: السَّتْر، ويُرَاد بها التجاوز عن الذنب وعدم المُؤَاخَذَة به، وأضاف بعضهم: إما بِتَرْكِ التوبيخ والعقاب رأسًا، أو بعد التقرير به فيما بين العبد ورَبِّه.

ويأتي الاستغفار بمعنى الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ أي: يُسْلِمون، قاله مجَاهِد[٢] وعكرمة[٣].

كذلك يأتي الاستغفار بمعنى الدعاء والتوبة»[٤].

والاستغفار يتضمن أمرين:

الأول: السَّتْر، فيستر اللهُ عيبَه ولا يفضحُه.

الثاني: «الوقايةُ، ومنه المِغْفَر، لما يقي الرأسَ من الأذى، والسَّتْرُ لازمٌ لهذا المعنى؛ وإلا فالعمامةُ لا تُسمَّى مِغْفَرًا، فلا بد في لفظ المِغْفَر من الوقاية»[٥].

فمعنى قول العبد: (أستغفر الله): (اللَّهُمَّ اغفر لي)، ونحو ذلك: سؤال الله تعالى أن يستره، ولا يفضحه في الدنيا ولا في الآخرة؛ إذ عصاه، وأن يعفو عنه، ولا يُؤَاخِذه بذنبه فيُعَذِّبه.

قال ابن القيم رحمه الله: «السين والتاء دالةٌ على الطلب، فقوله: أستعيذ بالله؛ أي: أطلب العياذَ به، كما إذا قلتَ: أستخير اللهَ؛ أي: أطلب خيرتَه، وأستغفره؛ أي: أطلب مغفرتَه، وأستقيله؛ أي: أطلب إقالته»[٦]. اهـ.

---

(١) المصدر السابق (١٠/٣١٨ ـ ٣١٩).
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/٥١٥). (٣) المصدر السابق.
(٤) ما بين الأقواس من «الموسوعة الفقهية» (٣٤ ـ ٣٥).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/٣٠٨)، وانظر: «لسان العرب» (٦/٣٢٩)، مادة: (غفر).
(٦) «بدائع الفوائد» (٢/٧٠٥).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا**: «وأما الاستغفار فهو نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة.

فالمفرد كقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نُوح: ١٠]... وكقول صالح لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النَّمل: ٤٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٩]...

والمقرون كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هُود: ٣]، وقول هود لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هُودٍ: ٥٢]، وقول صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هُود: ٦١]، وقول شعيب: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هُود: ٩٠].

فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بِعَيْنِها، مع تَضَمُّنِه طلبَ المغفرة من الله، وهو محوُ الذنبِ، وإزالةُ أثرِه، ووقايةُ شرِّه»(١). اهـ.

فهذا الاستغفار الذي ينفع صاحبَه، ويمنع العذابَ بإذن الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]، فليس المراد مُجرَّد الاستغفار باللسان، وإنما الاستغفار المقرون بالتوبةِ، فمَنْ كان استغفارُه لا يتجاوز لسانَه، بحيث أنه باقٍ على معصيته، مُصِرٌّ عليها؛ فإن استغفاره لا يمنع العقاب؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما مَنْ أَصَرَّ على الذنب، وطَلَب من الله مغفرته؛ فهذا ليس باستغفار مُطْلَق؛ ولهذا لا يمنع العذابَ؛ فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخَر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى؛ فالاستغفار: طلب وقاية شَرّ ما مضى، والتوبةُ: الرجوعُ وطَلَبُ وقايةِ شرّ ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله. فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه طَلَب وقاية شره، وذنبٌ يخافُ وقوعَه، فالتوبةُ: العزمُ على ألَّا يفعلَه، والرجوعُ إلى الله يتناول النوعين...

فَخُصَّتِ التوبةُ بالرجوع، والاستغفارُ بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين؛ ولهذا جاء ـ والله أعلم ـ الأمر بهما مُرَتَّبًا بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هُود: ٣]، فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضًا؛ فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة: طَلَبُ جَلْبِ المنفعةِ، فالمغفرة

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٧).

أن يقيَه شرَّ الذنب، والتوبةُ أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكلٌّ منهما يَسْتَلْزِمُ الآخَرَ عند إفراده»[١]. اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «قولُ مَنْ قال مِن العلماء: الاستغفارُ مع الإصرارِ توبةُ الكذابينَ، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة، أو يدَّعِي أن استغفاره توبة، وأنه تائب بهذا الاستغفار، فلا ريْب أنه مع الإصرار لا يكون تائبًا؛ فإن التوبة والإصرار ضدانِ، الإصرار يضادُّ التوبةَ، لكن لا يضادُّ الاستغفار بدون التوبة»[٢]. اهـ.

ولم يأتِ ما يحض على الاستغفار بدون توبةٍ، إلا ما جاء عامًّا في باب الرجاء وعدم اليأس، وليس هو من مقامات السالكينَ؛ فإنه ليس فيهم مُصِرٌّ على معصية الله ومعصية الرسول.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قال: **«أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْه لِي، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقال: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقال: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فقال اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ ربًّا يغْفِرُ الذَّنْبَ ويأْخُذُ بِهِ، قد غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فليَصْنَعْ مَا شَاءَ»**[٣].

قال المنذري رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» معناه والله أعلم: أنه ما دام كلما أذنب ذنبًا استغفر، وتاب منه، ولم يَعُدْ إليه، بدليلِ قوله: «ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ»، فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء؛ لأنه كلما أذنبَ كانت توبتُه واستغفارُه كفارةً لذنبِه، فلا يضرُّه. لا أنه يُذنبُ الذنبَ، فيستغفرُ منه بلسانِه من غيرِ إقلاعٍ، ثم يعاودُه؛ فإن هذه توبةُ الكذابينَ»[٤]. اهـ.

* هل التوبةُ تُقبل من كلِّ ذنبٍ بلا استثناءٍ؟

الذي عليه جمهورُ أهلِ العلمِ: أن التوبةَ تصحُّ من جميع الذنوبِ، بما في ذلك الشركُ، فمن تَابَ تَابَ اللهُ عليه، وهو القائلُ سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

(١) المصدر السابق (١/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٩).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «الترغيب والترهيب» (٤/ ٩١).

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ نصٌّ في العموم، ولفظ (جميع) و(كل) من أقوى صيغ العموم.
وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[١]، فلم يستثن ذنبًا، ولا مُسيئًا.

وقال الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨٦ ـ ٨٩].
ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عِمْرَانَ: ٩٠].
وقد قيل في قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا، واستمروا عليه إلى الممات، فهؤلاء لا يقبل الله لهم توبةً عند مماتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النِّسَاء: ١٨]، وقد روي ذلك عن الحسن[٢] وقتادة[٣] وعطاء[٤].
وقيل: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾؛ أي: التي كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر قد أحبطها.
وقيل: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا تابوا مِنْ كفرهم إلى كفرٍ آخرَ، وإنما تُقبل توبتُهم إذا تابوا إلى الإسلام[٥].
وقيل: هم قومٌ تابوا من الذنوب، ولم يتوبوا من الشرك[٦].
وقيل: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لأنهم إنما يُظهرونها نفاقًا[٧].
قال ابن جرير ﵀: «وإنما قلنا: معنى ازديادهم الكفر: ما أصابوا في كفرهم من

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٥٧٨).
(٣) المصدر السابق (٦/ ٥٧٩).
(٤) المصدر السابق، وانظر: «تفسير القرطبي» (٥/ ١٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٧١، ٧٣).
(٥) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٣٠ ـ ١٣١).
(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٥٨٠) عن أبي العالية.
(٧) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٣٠).

المعاصي؛ لأنه جَلَّ ثناؤه قال: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾، فكان معلومًا أن معنى قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إنما هو مَعْنِيٌّ به: لن تُقبل توبتُهم مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعدَ إيمانهم، لا مِنْ كُفْرِهِمْ؛ لأن اللهَ تعالى ذِكْرُهُ وَعَدَ أن يقبل التوبة من عباده فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشُّورَى: ٢٥]، فمحالٌ أن يقول ﷻ: (أقبل) و(لا أقبل) في شيء واحد.

وإذا ذلك كان كذلك، وكان من حُكْم الله في عباده أنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب، وكان الكفر بعد الإيمان أحدَ تلك الذنوب التي وَعَدَ قبولَ التوبةِ منها بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٨٩]؛ عُلم أن المعنى الذي لا يُقبل التوبةُ منه غيرُ المعنى الذي يُقبل التوبةُ منه.

وإذا كان ذلك كذلك، فالذي لا يُقبَل منه التوبةُ هو الازديادُ على الكفرِ بعدَ الكفرِ، لا يَقبل اللهُ توبةَ صاحبِه ما أقام على كفره؛ لأن الله لا يَقبل من مُشْرك عملًا ما أقام على شِرْكِهِ وضلالِه، فأما إن تاب مِنْ شِرْكِهِ وَكُفْرِهِ وَأَصْلَحَ؛ فإن الله ـ كما وَصَفَ به نفسَه ـ غفورٌ رحيمٌ»[1]. اهـ.

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبر تعالى أن مَنْ كَفَرَ بعدَ إيمانِه، ثم ازداد كفرًا إلى كُفْرِه بتماديه في الغيّ والضلال، واستمراره على تَرْك الرُّشْد والهدى، أنه لا تُقبل توبتُهم؛ أي: لا يُوَفَّقُونَ لتوبةٍ تُقبَل، بل يَمُدُّهم اللهُ في طغيانِهم يعمهون»[2]. اهـ.

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: «والأَوْلَى أن يُحْمَل عدمُ قبول توبتهم في هذه الآية على مَنْ مات كافرًا غيرَ تائبٍ، فكأنه عَبَّرَ عن الموتِ على الكفرِ بعدم قبولِ التوبةِ، وتكون الآية المذكورة بعد هذه الآية، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [الْبَقَرَة: ١٦١] في حكم البيانِ لها»[3]. اهـ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ [آل عِمْرَانَ: ٩٠] بمنزلةِ قولِ القائلِ: ثم أصرُّوا على الكفرِ، واستمروا على الكفر، وداموا على الكفر، فَهُمْ كفروا بعدَ إسلامِهم، ثم زاد كفرُهم، ما نقص، فهؤلاء لا تُقبل توبتُهم؛ وهي التوبةُ عندَ حضورِ الموتِ؛ لأن مَنْ تاب قبلَ حضورِ الموتِ فقد تاب من قريبٍ، ورجع عن كُفْرِه، فلم يَزْدَدْ، بل نقص، بخلاف المُصِرِّ إلى حين المعاينة»[4]. اهـ.

---

(١) «تفسير الطبري» (٦/ ٥٨٢).

(٢) «تفسير السعدي» (ص١٣٧ ط. الرسالة)، وقد سقط من ط. ابن الجوزي.

(٣) «فتح القدير» (١/ ٥٩٠).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٩).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] فيه نهيٌ عن القنوط من رحمة الله تعالى، وإن عَظُمَتِ الذنوبُ وكثرت، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يَقْنط من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبُه، ولا أن يُقَنِّطَ الناسَ من رحمةِ اللهِ... ولا يُجَرِّئهم على معاصي الله»[(١)]. اهـ.

* **حكم توبة الزنديق؛** وهو المنافقُ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: والفقهاءُ مُتَنَازِعُونَ في قبول توبة الزنديق، فأكثرُهم لا يقبلُها، وهو مذهبُ مالكٍ وأهلِ المدينةِ، ومذهبُ أحمدَ في أشهرِ الروايتينِ عنه، وهو أحدُ القولينِ في مذهبِ أبي حنيفةَ، ووجهٌ في مذهبِ الشافعيِّ. والقولُ الآخَرُ: تُقبل توبتُه.

وقد اتفقوا على أنه إذا قُتل مثلُ هذا لا يُقال: قُتِلَ ظُلْمًا»[(٢)]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا**: «والفقهاءُ إذا تَنَازَعُوا في قبولِ توبةِ مَنْ تَكَرَّرَتْ رِدَّتُهُ، أو قبولِ توبةِ الزنديقِ، فذاك إنما هو في الحكم الظاهر؛ لأنه لا يُوثَق بتوبتِه، أما إذا قُدِّرَ أنه أخلصَ التوبةَ للهِ في الباطنِ فإنه يدخلُ في قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزُّمَر: ٥٣]»[(٣)]. اهـ.

* حكم توبة القاتل:

«الجمهور على قبول توبته، وقالت طائفة: لا توبةَ للقاتل، وهو مذهبُ ابنِ عباسٍ المعروفُ عنه، وإحدى الروايتين عن أحمد.

فعن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: سألت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن قوله تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النِّسَاء: ٩٣]، قال: لا توبة له، وعن قوله جَلَّ ذِكْره: ﴿لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الْفُرْقَان: ٦٨]، قال: «كانت هذه في الجاهلية»[(٤)].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **في آية النساء**: «نزلت في آخر ما نزل، ولم يَنْسَخْهَا شيء»[(٥)].

واستدل القائلون بأنه لا توبة للقاتل: بأن التوبةَ مِنْ قَتْلِ المؤمنِ مُتَعَمِّدًا مُتَعَذِّرةٌ؛ إذْ لا سبيلَ إليها إلا باسْتِحْلالِه، أو إعادةِ نَفْسِه التي فَوَّتَهَا عليه إلى جَسَدِه، وكلاهما مُتَعَذِّرٌ على القاتل.

(١) المصدر السابق (١٦/ ١٩ ـ ٢٠).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤).
(٣) المصدر السابق (١٦/ ٣٠).
(٤) أخرجه البخاري (٤٧٦٤).
(٥) أخرجه البخاري (٤٧٦٣).

ولا يَرِدُ عليهم هذا في المال إذا مات رَبُّهُ ولم يُوَفِّهِ إياه؛ لأنه يتمكن من إيصال نَظِيرِه إليه بالصدقة.

ولا يَرِد عليه أيضًا: أن الشركَ أعظمُ من القَتْلِ، وتصحُّ التوبةُ منه؛ فإن ذلك محضُ حقِّ الله، فالتوبةُ منه مُمْكِنةٌ، وأما حقُّ الآدميِّ فالتوبةُ موقوفةٌ على أدائِه إليه أو اسْتِحْلالِه، وقد تَعَذَّرَ.

واحتج الجمهورُ بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

وبقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، فعلَّق المغفرةَ بالمشيئة.

وبقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

وقد صَحَّ عن النبيِّ ﷺ حديثُ الذي قتل المائةَ، ثم تاب، فنفعته توبتُه، وَلَحِقَ بالقرية الصالحة التي خرج إليها[(١)].

وصحَّ من حديث عبادةَ بن الصامتِ رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ: «**تَعَالوا بَايِعُونِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ؛ إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**» قال: فبايعتُه على ذلك[(٢)].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»[(٣)].

وقال ﷺ: «**مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[(٤)].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٨) واللفظ له، ومسلم (١٧٠٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (١٢٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أيضًا (١٢٣٧)، وأخرجه مسلم (٩٣) واللفظ له، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، وصحَّحه الحاكم (١/ ٦٥١)، والذهبي، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (٦٨٧).

وعن عِتْبَان بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**»(٢).

قالوا: وأما ما ورد في بعض نصوص الوعيد؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤]، وقوله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**»(٣)، ونظائر ذلك؛ **فقد اختلف الناس في هذه النصوص على طُرُق:**

أحدها: القول بظاهرها، والحُكْم بخلود أرباب هذه الجرائم في النار، وهو قول الخوارج والمعتزلة.

الثانية: أن هذا الوعيد في حقِّ المُسْتَحِل لها.

الثالثة: أن الاستدلال بهذه النصوص مبني على ثبوت العموم، وليس في اللغة ألفاظٌ عامةٌ، ومن ها هنا أنكر العمومَ مَنْ أَنْكَرَهُ، وذلك يَسْتَلْزِمُ تعطيلَ عامةِ الأخبارِ.

الرابعة: أن في الكلام إضمارًا، ثم اختلفوا في هذا المُضْمَر، فقالت طائفة بإضمار الشَّرْط، والتقدير: فجزاؤه كذا، إن جازاه، أو إن شاء.

وقالت طائفة أخرى بإضمار الاستثناء، والتقديرُ: فجزاؤه كذا إلا أن يعفوَ، وهذه دعوى لا دليلَ في الكلام عليها.

الخامسة: أن هذا وعيدٌ، وإخلافُ الوعيد لا يُذَمُّ، بل يُمْدَحُ، والله تعالى يجوز عليه إخلافُ الوعيدِ، ولا يجوز عليه خُلْف الوَعْد.

السادسة: أن هذه النصوص وأمثالها مما ذُكِر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضي الحُكْم وجوده؛ فإن الحكمَ إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاءِ مانعِه، وغايةُ هذه النصوصِ: الإعلامُ بأن هذا سببٌ للعقوبة، ومقتضٍ لها، وقد قام الدليل على ذِكْر الموانع؛ فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص، فالتوبةُ مانعٌ بالإجماعِ، والتوحيدُ مانعٌ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٧٨) واللفظ له، ومسلم (١٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالنصوصِ المتواترةِ التي لا مَدْفعَ لها، والحسناتُ العظيمةُ الماحيةُ مانعةٌ، والمصائبُ الكِبارُ المُكَفِّرةُ مانعةٌ، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «توبةُ قاتلِ النَّفْس الجمهورُ على أنها مقبولةٌ، وقال ابن عباس: لا تُقبل، وعن أحمدَ روايتانِ، وحديثُ قاتلِ التسعةِ والتسعينَ في «الصحيحين» دليلٌ على قَبُولِ توبتِه[(٢)]، وآيةُ النساءِ إنما فيها وعيدٌ في القرآنِ كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النِّسَاء: ١٠].

ومع هذا، فهذا إذا لم يتب، وكلُّ وعيدٍ في القرآن فهو مشروطٌ بعدمِ التوبةِ باتفاق الناسِ، فبأي وجه يكون وعيد القاتل لاحقًا به وإن تاب؟! هذا في غايةِ الضعفِ، ولكن قد يُقال: لا تُقبل توبتُه بمعنى: أنه لا يَسْقط حقُّ المظلومِ بالقَتْل، بل التوبة تُسْقط حقَّ اللهِ، والمقتول مُطَالِبُه بحَقِّه، وهذا صحيح في جميع حقوق الآدميين حتى الدَّيْن؛ فإن في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**الشَّهِيدُ يُغْفَرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الدَّيْن**»[(٣)].

لكن حق الآدمي يُعطاه من حسنات القاتل، فَمِن تمامِ التوبةِ أن يَسْتكثر من الحسنات، حتى يكون له ما يُقابِل حقَّ المقتول.

ولعل ابن عباس رأى أن القتلَ أعظمُ الذنوبِ بعدَ الكفرِ، فلا يكون لصاحبِه حسناتٌ تُقابِل حقَّ المقتولِ... فيبقى الكلامُ فيمن تابَ وأخلصَ وعجزَ عن حسناتٍ تُعادِل حقَّ المظلوم، هل يُجْعَل عليه من سيئاتِ المقتولِ ما يُعذَّب به؟

وهذا مَوْضِع دقيق، على مثله يُحمَل حديثُ ابنِ عباسٍ، لكن هذا كلَّه لا يُنافي مُوجَبَ الآية، وهو أن الله تعالى يغفر كلَّ ذنبٍ؛ الشركَ والقتلَ والزنا وغيرَ ذلك من حيث الجملة، فهي عامةٌ في الأفعال، مُطْلَقَةٌ في الأشخاص»[(٤)].اهـ.

* توبةُ صاحبِ البدعةِ:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَجَزَ التَّوْبَةَ عَنْ**

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٧) باختصار وتصرف.
(٢) تقدم تخريجه قريبًا.
(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بلفظ مقارب.
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٥ ـ ٢٦) بتصرُّف يسير، وانظر أيضًا: (١٥/ ٤٠٨).

كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ»[(١)].

وقال عطاء الخراساني: «أَبَى اللهُ أن يأذنَ لصاحبِ بدعةٍ بتوبةٍ»[(٢)].

والمعنى في ذلك ـ والعلم عند الله تعالى ـ: أن صاحب البدعة يرى أنه على حَقٍّ وَهُدًى، فمثل هذا متى يتوب؟!

وهذا هو الفَرْق بين الشبهات والشهوات؛ فصاحب الشبهة والبدعة يظن أنه صاحبُ دِينٍ، ويسأل اللهَ الثباتَ عليه. أما صاحبُ الشهوةِ فهو يعلم أنه عاصٍ آثِمٌ، فهو يَسْتقبل التوبةَ، ويتمنى أن لو تاب اللهُ عليه، ويرى المُسْتَقِيمينَ فيَغْبطهم، ولعله يجعل للصُّلْح مَوْضِعًا بِحُسْنِ الظنِّ بالله.

وقد ذكر شيخُ الإسلامِ أن في توبةِ الداعِي إلى البدع نزاعًا في مذهب مالكٍ وأحمدَ، وذكر أن ظاهرَ مذهبِ أحمدَ مع مذاهبِ سائرِ أئمةِ المسلمينَ أنها تُقبل، واحتج شيخُ الإسلامِ على قَبولها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣][(٣)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره: «إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يُتاب منها، والمعصية يُتاب منها»[(٤)].

ومعنى قولهم: «**إن البدعة لا يتاب منها**»: أن المبتدعَ الذي يتخذ دينًا لم يُشَرِّعه اللهُ ولا رسولُه قد زُيِّنَ له سوءُ عملِه فرآه حَسَنًا، فهو لا يتوبُ ما دام يراه حسنًا؛ لأن أولَ التوبةِ العلمُ بأن فِعْلَه سيئٌ ليتوب منه، أو بأنه تَرَك حَسَنًا مأمورًا به أمرَ إيجابٍ أو استحبابٍ ليتوبَ ويفعلَه، فما دام يرى فِعْلَه حَسَنًا وهو سيئ في نَفْس الأمر فإنه لا يتوب، ولكن التوبةَ منه مُمْكنةٌ وواقعةٌ بأن يهديَه اللهُ ويرشدَه حتى يتبينَ له الحقُّ، كما هدى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ هَدَى من الكفارِ والمنافقينَ وطوائفَ من أهلِ البدعِ والضلالِ، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما عَلِمَهُ، فمَنْ عمل بما عَلِم أورثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يعلم»[(٥)]. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السُّنَّة (٣٧)، وابن عدي «في الكامل» (٦/ ٢٢٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٤٢٠٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٤٦)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٨٩): «رجاله رجال الصحيح، غير هارون بن موسى الفَرْوي، وهو ثقة»، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٧)، و«الصحيحة» (١٦٢٠)، وانظر: التعليق على «المجالسة» للدينوري (٢٨١٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٩٨).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٤٠٨) (١٦/ ١٩، ٢٤).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٦) مختصرًا.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا**: «الداعِي إلى الكفرِ والبدعةِ وإن كان أضلَّ غيرَه فذلك الغيرُ يُعاقب على ذنبه؛ لكونه قَبِلَ مِنْ هذا وَاتَّبَعَهُ. وهذا عليه وزرُه وَوِزْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ إلى يوم القيامة، مع بقاءِ أوزارِ أولئك عليهم، فإذا تاب مِنْ ذَنْبِهِ لم يبقَ عليه وِزْرُه، ولا ما حَمَلَه هو لأجل إضلالهم.

وأما هم، فسواء تاب أو لم يتب، حالهم واحد. ولكن توبتَه قبلَ هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى، كما تَابَ كثيرٌ من الكفارِ وأهلِ البدعِ، وصاروا دعاةً إلى الإسلام والسُّنَّةِ. وَسَحَرَةُ فرعونَ كانوا أئمةً في الكفرِ، ثم أسلموا، وختم اللهُ لهم بخير»[(١)]. اهـ.

* حكم توبة المُحَارِبِ:

الصحيح: أنها تُقبل؛ لما تَقَدَّمَ، ولقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المَائِدَة: ٣٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الذنوب التي يُطْلِق الفقهاءُ فيها نفيَ قبول التوبة؛ مثل قول أكثرهم: لا تُقبل توبةُ الزنديقِ، وهو المنافق، وقولهم: إذا تاب المُحارِب قَبْل القدرةِ عليه تسقط عنه حدودُ اللهِ، وكذلك قولُ كثير منهم أو أكثرِهم في سائرِ الجرائم، كما هو أحدُ قَوْلَي الشافعيِّ، وأصحُّ الروايتينِ عن أحمدَ.

وقولهم في هؤلاء: إذا تابوا بعدَ الرَّفْعِ إلى الإمامِ لم تُقبل توبتُهم؛ فهذا إنما يريدونَ به رَفْعَ العقوبةِ المشروعةِ عنهم؛ أي: لا تُقبل توبتُهم؛ بحيث يُخَلَّى بلا عقوبة، بل يُعاقَب؛ إما لأن توبتَه غيرُ معلومةِ الصحةِ، بل يُظَن به الكذِبُ فيها، وإما لأن رفعَ العقوبة بذلك يُفضي إلى انتهاكِ المحارمِ، وسَدّ باب العقوبة على الجرائم. ولا يريدونَ بذلك أنَّ مَنْ تاب مِنْ هؤلاء توبةً صحيحةً؛ فإن اللهَ لا يقبل توبتَه في الباطن؛ إذ ليس هذا قولَ أحدٍ من أئمةِ الفقهاءِ»[(٢)]. اهـ.

* حكم التوبة من بعضِ الذنوبِ دونَ بعضٍ:

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن التوبة من ذنبٍ مع الإصرارِ على غيره صحيحة، فالتوبةُ تَتَبَعَّضُ كالمعصيةِ، وتتفاضلُ في كَمِّيّتِها كما تتفاضلُ في كيْفيّتِها، فكلُّ ذنبٍ له توبةٌ تخصه، ولا تتوقف التوبةُ من ذنبٍ على التوبة من بقيةِ الذنوبِ، كما لا يتعلقُ أحدُ الذَّنْبَيْنِ بالآخَرِ، فكما أنه يصحُّ إيمانُ الكافرِ مع إدامتِه شُرْبَ الخمرِ والزنا، فكذلك تصحُّ التوبةُ عن ذنبٍ مع الإصرارِ على ذنب آخَرَ.

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٥).

(٢) المصدر السابق (١٨/ ١٨٩ ـ ١٩٠).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذي عندي في هذه المسألة أن التوبةَ لا تصحُّ من ذنبٍ مع الإصرارِ على آخر من نوعه، وأما التوبةُ من ذنبٍ مع مباشرةِ آخَرَ لا تَعَلّقَ له به، ولا هو مِنْ نوعه؛ فَتَصِحُّ؛ كما إذا تاب من الربا، ولم يَتُبْ من شربِ الخمرِ مثلًا، فإن توبتَه من الربا صحيحةٌ، وأما إذا تاب من ربا الفضلِ ولم يَتُبْ من ربا النسيئةِ، وأصَرّ عليه، أو بالعكس، أو تاب من تناولِ الحشيشةِ وَأَصَرَّ على شُرْبِ الخمرِ أو بالعكسِ؛ فهذا لا تصحُّ توبتُه»[(١)]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقولُ القائلِ: هل الاعترافُ بالذنبِ المُعَيّنِ يُوجِب دَفْع ما حصل بذنوب مُتَعَدِّدة، أم لا بد من استحضار جميع الذنوب؟

فجواب هذا مبنيٌّ على أصول:

أحدها: أن التوبةَ تصحُّ مِنْ ذنبٍ مع الإصرار على ذنبٍ آخرَ، إذا كان المُقْتَضي للتوبة من أحدهما أقوى من المُقْتَضي للتوبةِ من الآخَرِ، أو كان المانعُ من أحدهما أشدَّ، وهذا هو القولُ المعروفُ عندَ السلفِ والخَلَفِ. . .

الأصل الثاني: أنَّ مَنْ له ذنوبٌ فتاب من بعضها دونَ بعضٍ؛ فإن التوبةَ إنما تقتضي مَغْفرةَ ما تاب منه، أما ما لم يتب منه فهو باقٍ فيه على حُكْمِ مَنْ لم يَتُبْ، لا على حُكْم من تَاب، وما عَلِمْتُ في هذا نزاعًا إلا في الكافرِ إذا أَسْلَمَ؛ فإن إسلامَه يتضمن التوبةَ من الكفرِ، فيُغفر له بالإسلام الكفرُ الذي تاب منه، وهل تُغفَر له الذنوبُ التي فَعَلَهَا في حالِ الكفرِ ولم يَتُبْ منها في الإسلام؟ هذا فيه قولان معروفان:

أحدهما: يُغفر له الجميعُ؛ لإطلاقِ قولِه ﷺ: «**الإسْلَامُ يَهْدِمُ مَا كان قَبْلَهُ**» رواه مسلم[(٢)]، مع قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ [الأَنْفَال: ٣٨].

والقول الثاني: أنه لا يستحق أن يُغفر له بالإسلام إلَّا مَا تاب منه، فإذا أسلم وهو مُصِرٌّ على كبائرَ دونَ الكفرِ فحكمُه في ذلك حكمُ أمثالِه من أهلِ الكبائرِ.

وهذا القولُ هو الذي تَدُلُّ عليه الأصولُ والنصوصُ؛ فإن في **الصحيحين** أن النبيَّ ﷺ قال له حكيمُ بن حزام: يا رسولَ الله! أَنُؤَاخَذُ بما عَمِلْنَا في الجاهليةِ؟ فقال: «**مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الإسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإسْلَامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ**»[(٣)] . . .

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٥).

(٢) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، برقم: (١٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] يدل على أن المُنْتَهِيَ عن شيء يُغفر له ما قد سلف منه، لا يدل على أن المنتهي عن شيءٍ يُغفر له ما سَلَفَ من غيره.

الأصل الثالث: أن الإنسانَ قد يَسْتحضرُ ذنوبًا فيتوب منها، وقد يتوب توبةً مُطْلَقَةً لا يَسْتَحضر معها ذنوبَه، لكن إذا كانت نيتُه التوبةَ العامةَ فهي تتناول كلَّ ما يراه ذنبًا؛ لأن التوبةَ العامةَ تتضمنُ عَزْمًا عامًّا بِفِعْلِ المأمورِ وتَرْكِ المحظورِ، وكذلك تتضمَّن نَدَمًا عامًّا على كل محظور...

إذا تَبَيَّنَ هذا، فَمَنْ تاب توبةً عامةً كانت هذه التوبةُ مُقْتَضِيةً لغفرانِ الذنوبِ كلِّها، وإن لم يسْتحضر أعيانَ الذنوبِ، إلا أن يُعارِض هذا العامَّ مُعَارِضٌ يُوجِب التخصيصَ، مثل أن يكون بعضُ الذنوبِ لو اسْتَحْضَره لم يَتُبْ منه لقوةِ إرادتِه إياه، أو لاعتقادِه أنه حَسَنٌ ليس بقبيح، فما كان لو اسْتَحْضَره لم يَتُبْ منه لم يدخل في التوبة»[(١)]. اهـ.

واحْتَج القائلون بعدم صحَّة تَجَزُّؤ التوبة: بأن التوبةَ هي الرجوعُ إلى الله من مخالفتِه إلى طاعتِه، وأيُّ رجوعٍ لمن تاب من ذنبٍ واحدٍ وَأَصَرَّ على أَلْفِ ذنبٍ؟!

واحتجوا أيضًا: بأن الله سبحانَه إنما لم يُؤَاخِذ التائبَ؛ لأنه قد رجع إلى طاعته وعبوديته، وتاب توبةً نصوحًا، والمُصِرُّ على مثل ما تاب منه أو أعظم لم يراجع الطاعةَ، ولم يَتُبْ توبةً نصوحًا.

ولأن التائب إذا تاب إلى الله فقد زال عنه اسمُ العاصي؛ فالكافرُ إذا أَسْلَمَ زال عنه اسمُ الكافرِ، فأما إذا أَصَرَّ على غيرِ الذنبِ الذي تاب منه فَاسْمُ المعصيةِ لا يفارقه، فلا تصحّ توبتُه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَسِرُّ المسألة: أن التوبةَ هل تَتَبَعَّضُ كالمعصيةِ، فيكون تائبًا من وَجْهٍ دونَ وجهٍ؛ كالإيمان والإسلام؟ والراجحُ تَبَعُّضُهَا، فإنها كما تتفاضلُ في كيفيتِها كذلك تفاضل في كَمِّيَّتِها.

ولو أتى العبدُ بفرضٍ وَتَرَكَ فرضًا آخَرَ لاسْتَحقَّ العقوبةَ على ما تَرَكَهُ دونَ ما فَعَلَهُ، فهكذا إذا تاب من ذنبٍ وَأَصَرَّ على آخَر؛ لأن التوبةَ فَرْضٌ من الذَّنْبَيْن، فقد أَدَّى أحدَ الفرضينِ وَتَرَكَ الآخَر، فلا يكون ما تَرَك مُوجِبًا لبُطْلَان ما فَعَل»[(٢)]. اهـ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٩ ـ ٣٢٨).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

مِنْ آدابِ التوبةِ ومكمّلاتِها

يحتاج التائبُ إلى تكميلِ التوبةِ ببعضِ آدابِها وأخلاقِها التي تُعِينُهُ على الثباتِ، وتكون من براهين الصِّدْق في التوبة؛ **فَمِن ذلك**:

١ ـ الإكثارُ من الحسناتِ:

فإن الحسناتِ يُذهبن السيئاتِ، ومن ذهابِ السيئاتِ ذهاب آثارها ودواعيها ومُقْتضياتها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْ تمامِ التوبةِ أن يأتيَ بحسناتٍ يفعلُها»[(١)]. اهـ.

٢ ـ الصدقة:

وهذا مُنْدَرِجٌ تحتَ الذي قَبْلَهُ، إلا أنه أُفْرِد لأهميتِه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقال كعبُ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! إنَّ مِنْ تَوْبَتِي أن أنخلعَ من مَالِي صدقةً إلى اللهِ وإلى رسولِه ﷺ، قال: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه دليلٌ على استحبابِ الصدقةِ عندَ التوبةِ بما قَدِر عليه من المال»[(٣)]. اهـ.

وعن حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ، وَمَالِهِ، وَوَلَدِهِ، وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ، وَالصَّوْمُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ، وَالنَّهْيُ**»[(٤)].

وعن معاذِ بن جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ**»[(٥)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٨). (٢) تقدم تخريجه.
(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٥١٢) بتصرُّف يسير.
(٤) أخرجه البخاري (٥٢٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٤).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصحَّحه ابن حبان (٢١٤)، والحاكم (٤/ ٤٢٢)، والذهبي، والألباني في «صحيح الترغيب» (٨٦٦)، وأعَلَّه الدارقطني في =

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا تاب العبدُ، وأخرجَ من مالِه صدقةً للتَّطَهّرِ من ذنبِه كان ذلك حَسَنًا مشروعًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٤]»[(١)] .اهـ.

٣ ـ مفارقةُ الحالِ والمكانِ الذي عَصَى اللهَ فيه:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «مفارقةُ الحالِ والمكانِ الذي عَصَى اللهَ فيه من تمامِ التوبةِ، وأيضًا فإنهما لمَّا اجْتَمَعَا على معصية الله كان من توبتِهما أن يتفرقَا في طاعةِ اللهِ؛ لقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزُّخْرُف: ٦٧].

وقد قال طاوس: «ما اجتمع رجلانِ على غيرِ طاعةِ الله إلا تَفَرَّقَا عن ثِقَالٍ، فإن تَعَجَّلَا ذلك الثِّقالَ في الدنيا كان خيرًا لهما من تأخيرِه إلى الآخرة»»[(٢)] .اهـ.

٤ ـ الاعتراف بالذنب مقرونًا بالانكسار.

٥ ـ الإكثار من التضرّع والاستغفار.

قال ابن جُزَي رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبةُ واجبةٌ على كل مؤمنٍ مُكَلَّفٍ بدليلِ الكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأمةِ. وفرائضُها ثلاثةٌ: الندمُ على الذنبِ من حيث عُصِيَ به ذو الجلال... والإقلاعُ عن الذنب في أوَّلِ أوْقَاتِ الإمكان من غير تأخير ولا توان، والعَزْمُ ألَّا يعود إليه أبدًا...

وآدابها ثلاثة: الاعترافُ بالذنب مقرونًا بالانكسار، والإكثارُ من التضرُّعِ والاستغفارِ، والإكثارُ من الحسناتِ لِمحْوِ ما تقدَّم من السيئات»[(٣)] .اهـ.



= «العلل» (٦/ ٧٣)، والمنذري في «الترغيب» (٣/ ٥٢٩)، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٥٠٦ ـ ٥٠٧).

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣).

(٢) «شرح العمدة في الفقه» (٣/ ٢٦٥).

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٣/ ٦٥).

مراتب المُنِيْبِيْن

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «الناسُ في إنابتِهم على درجاتٍ متفاوتةٍ، **فمنهم**: المنيبُ إلى الله بالرجوعِ إليه من المخالفاتِ والمعاصِي، وهذه الإنابةُ مصدرُها مُطَالَعة الوعيد، والحامل عليها العِلْم والخشية والحَذَر.

ومنهم: المنيبُ إلى الله بالدخولِ في أنواع العبادات والقُربات، فهو سَاعٍ فيها بِجُهْدِه، وقد حُبِّبَ إليه فِعْلُ الطاعاتِ وأنواعِ القُرُبَاتِ.

وهذه الإنابةُ مَصْدرُها الرجاءُ، ومطالعةُ الوعدِ والثوابِ.

ومنهم: المنيبُ إلى اللهِ بالتضرّع والدعاء، والافتقار إليه والرغبة، وسؤالِ الحاجاتِ كلِّها منه. ومصدرُ هذه الإنابة شُهُود الفضل والمِنَّة، والغِنَى والكَرَم، والقدرةِ، فأنزلوا به حوائجَهم وعَلَّقوا به آمالَهم.

ومنهم: المنيبُ عند الشدائد والضراء فقط إنابةَ اضطرارٍ لا إنابةَ اختيارٍ؛ كحال الذين قال الله في حقّهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإِسْرَاء: ٦٧].

وهؤلاء كلُّهم قد تكون نَفْس أرواحِهم مُلْتَفِتَةً عن الله سبحانه، مُعْرِضَةً عنه إلى مَأْلوفٍ طبيعيٍّ نفسانيٍّ، قد حَالَ بينَها وبينَ إنابتِها بذاتها إلى مَعْبُودها وإلٰهها الحَقِّ، فهي مُلْتَفِتَة إلى غيره، ولها إليه إنابة ما بِحَسَب إيمانِها به، ومعرفتِها له، فَأَعْلَى أنواعِ الإنابةِ: إنابةُ الروح بِجُمْلَتِهَا إليه لشدةِ المحبةِ الخالصةِ المُغْنِيَة لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم، وحين أَنَابَتْ إليه أرواحُهم لم يتخَلَّفْ منهم شيء عن الإنابة، فإن الأعضاءَ كلَّها رَعِيَّتُهَا ومَلِكُها تَبَعٌ للروح، فلما أنابت الروحُ بذاتِها إليه أَنَابَتْ جميعُ القُوَى والجوارحُ.

فإنابة العبدِ ولو ساعةً من عُمُرِه هذه الإنابةَ الخالصةَ أنفعُ له وأعظمُ ثمرةً من إنابة سنينَ كثيرةٍ من غيره، فأين إنابةُ هذا من إنابةِ مَنْ قَبْلَهُ؟!»[(١)] اهـ.

والمقصودُ التعريفُ بأن إنابةَ المُحِبِّ الراغبِ غيرُ إنابةِ الراجِي أو الخائفِ؛ لطُرُوءِ مُقْتَضَيَاتِ الرجاءِ أو الخوفِ.

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٣٧٣ ـ ٢٧٦) باختصار وتصرف.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يُونُس: ١٢].

فـ«يُخْبِرُ تعالى عن الإنسان وَضَجَرِهِ وقَلَقِه إذا مَسَّهُ الضرُّ؛ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٥١]... وذلك لأنه إذا أصابته شدةٌ قَلِق لها، وجَزِع منها، وَأَكْثَرَ الدعاءَ عندَ ذلك... في جميع أحوالِه، فإذا فَرَّجَ اللهُ شدتَه، وكشف كُرْبَته، أَعْرَضَ وَنَأَى بجانبِه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء»[(١)]. اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الرُّوم: ٣٣].



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٥٢)، وانظر: «تفسير السعدي» (٢/٧٠١ ـ ٧٠٢).

مراتب التوبة

أعلى مقامات التوبة «مقامُ الذين يَسْتَقِلُّونَ في حقِّ ربهم ومعبودهم جميعَ أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، فلا يَرَوْنها قطُّ إلا بعينِ النقصِ والإزراء عليها، ويرونَ شأنَ مَعْبُودهم أعظمَ وقدْرَه أعلى من أن يرضوا نفوسَهم وأعمالَهم له.

وإذا غفلوا عن مُرَاد مَعْبودهم منهم، ولم يُوَفُّوهُ حَقَّهُ، تابوا إليه من ذلك توبةَ أربابِ الكبائرِ منها؛ فالتوبةُ لا تفارقُهم أبدًا، وتوبتُهم لَوْنٌ، وتوبةُ غيرِهم لَوْنٌ، وكلما ازدادوا حُبًّا له ازدادوا معرفةً بحقِّه، وشهودًا لتقصيرهم، فَعَظُمَتْ لذلك توبتُهم»[(١)]. اهـ.

هذا وقد ذكر لها ابنُ جُزَي سبعَ مراتبَ:

«**الأولى:** توبةُ الكفارِ من الكفرِ.

الثانية: توبةُ المُخَلِّطِينَ من الذنوب والكبائر.

الثالثة: توبة العدول من الصغائر.

الرابعة: توبة العابدين من الفترات.

الخامسة: توبة السالكينَ من عِلَلِ القلوبِ والآفاتِ.

السادسة: توبة أهلِ الورعِ من الشبهاتِ.

السابعة: توبة أهلِ الإحسانِ من الغفلاتِ»[(٢)].



(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩) بتصرُّف.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٣/ ٦٥) بتصرُّف.

من أيِّ شيءٍ تكون التوبة؟

التوبةُ الواجبةُ هي التوبةُ من الذنوب كلِّها، سواء كانت هذه الذنوبُ بِفِعْل المحرمات، أو بِتَرْك الواجبات.

* أجناسُ ما يُتاب منه:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهي اثنا عشر جنسًا، مذكورةٌ في كتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، هي أجناسُ المحرَّماتِ: الكفرُ، والشركُ، والنفاقُ، والفسوقُ، والعصيانُ، والإثمُ، والعدوانُ، والفحشاءُ، والمنكرُ، والبغيُ، والقولُ على الله بلا علم، واتباعُ غيرِ سبيلِ المؤمنينَ.

فهذه الاثنا عشر جنسًا عليها مَدَارُ كلِّ ما حَرَّمَ اللهُ، وإليها انتهاءُ العالَم بأَسْرِهم، إلا أَتْباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد يكون في الرَّجُلِ أكثرُها وأقلُّها أو واحدةٌ منها، وقد يُعلَم ذلك، وقد لا يُعلَم، فالتوبةُ النصوحُ هي بالتخلّصِ منها، والتحصّن والتحرُّزِ من مُوَاقَعتها»[(١)] .اهـ.

و«**الفسوق الذي تجبُ التوبةُ منه قسمانِ:**

الأول: فِسْقٌ من جهةِ العَمَلِ.

والثاني: فسقٌ من جهةِ الاعتقادِ.

وفِسْقُ العملِ نوعانِ:

١ ـ مقرونٌ بالعصيانِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ [الحُجُرَات: ٧].

٢ ـ ومفردٌ؛ كقوله ﷺ: «**سِبَابُ المُسْلِم فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[(٢)].

والمقرون بالعصيان: هو ارتكابُ ما نَهَى اللهُ عنه، والعصيانُ: هو عصيانُ أمرِه؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التَّحْرِيم: ٦]، وقال موسى لأخيه هارونَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٣].

فالفسقُ أَخصُّ بارتكابِ النَّهْيِ؛ ولهذا يُطلق عليه كثيرًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]، والمعصيةُ أَخصُّ بمخالفةِ الأمرِ كما تَقَدَّمَ، وَيُطْلَقُ

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كلٌّ منهما على صاحبه؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الْكَهْف: ٥٠]، فسمى مخالفتَه للأمرِ فِسْقًا.

وقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: ١٢١]، فسمَّى ارتكابَه للنهي معصيةً، فهذا عندَ الإفرادِ، فإذا اقْتَرَنَا كان أحدُهما لمخالفةِ الأمرِ، والآخَرُ لمخالفةِ النَّهْي.

والتقوى: اتّقاءُ مجموعِ الأمرينِ، وبتحقيقِها تصحُّ التوبةُ من الفسوقِ والعصيانِ؛ بأن يعملَ العبدُ بطاعةِ اللهِ، ويتركَ معصيةَ اللهِ.

وفِسْقُ الاعتقادِ: كفِسْقِ أهلِ البِدَعِ، الذين يؤمنونَ باللهِ ورسولِه واليومِ الآخِرِ، ولكن يَنْفُون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله، جهلًا وتأويلًا وتقليدًا للشيوخِ، ويُثْبِتُونَ ما لم يُثبته الله ورسوله كذلك. وهؤلاء كالخوارجِ والمعتزلةِ، وكثيرٍ من الجهميةِ»[(١)]

وأصحابُ فِسْقِ الاعتقادِ أحوجُ إلى التوبةِ من غيرِهم من أصحابِ الذنوبِ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبةُ من الاعتقاداتِ أعظمُ من التوبةِ من الإراداتِ؛ فإن مَنْ تَرَكَ واجبًا أو فَعَلَ قَبِيْحًا يعتقدُ وجوبَه وَقُبْحَهُ؛ كان ذلك الاعتقادُ داعيًا له إلى فِعْلِ الواجبِ، ومانعًا من فِعْلِ القبيحِ... ولهذا يكون الغالبُ على هذا التَّلَوُّم، وتكون نفوسُهم لَوَّامَةً؛ تارةً يُؤَدُّونَ الواجبَ، وتارةً يتركونَه، وتارةً يتركونَ القبيحَ، وتارةً يفعلونَه.

وأمَّا مَا فَعَلَهُ الإنسانُ مع اعتقادِ وجوبِه، وَتَرَكَهُ مع اعتقادِ تحريمِه، فهذا يكون ثابتَ الدواعِي والصوارف أعظم من الأوَّلِ بكثيرٍ، وهذا تحتاج توبتُه إلى صَلَاح اعتقاده أولًا، وبيانِ الحقِّ. وهذا قد يكون أصعبَ من الأول»[(٢)]. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حِجَابُ أهلِ الكبائرِ الظاهرةِ أرقُّ من حجابِ إخوانِهم من أهلِ الكبائرِ الباطنةِ، مع كَثْرَةِ عباداتهم وزهاداتهم واجتهاداتهم، فكبائر هؤلاء أقربُ إلى التوبةِ من كبائرِ أولئك، فإنها قد صارت مقاماتٍ لهم، لا يتحاشونَ من إظهارِها وإخراجِها في قَوَالِب عبادة ومعرفة، فأهلُ الكبائرِ الظاهرةِ أَدْنَى إلى السلامةِ منهم، وقلوبُهم خيرٌ من قلوبهم»[(٣)]. اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ **تعليقًا على ما ورد من أن أصحاب البدع والأهواء ليست لهم توبة**: «لأن اعتقاده لذلك يدعوه إلى ألَّا ينظر نَظَرًا تامًّا إلى دليل خلافه،

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢) باختصار وتصرف.
(٢) «جامع الرسائل» (٢٣٧ ـ ٢٣٨).
(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢٣) بتصرُّف يسير.

فلا يعرف الحقَّ؛ ولهذا قال السلفُ: «إن الْبِدْعَة أحبُّ إلى إبليسَ من المعصيةِ»[(١)].

وقال أيوب السِّخْتِيَاني وغيرُه: «إن المبتدعَ لا يرجع».

وأيضًا التوبةُ من الاعتقادِ الذي كَثُرَ مُلَازمةُ صاحبِه له، ومعرفتُه بِحُجَجِهِ يحتاج إلى ما يُقارب ذلك من المَعْرفةِ والعِلْمِ والأدلةِ»[(٢)]. اهـ.

وقد دعا اللهُ ﷻ أربابَ الاعتقاداتِ الفاسدةِ إلى التوبةِ والإنابةِ فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المَائِدَة: ٧٣]، إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المَائِدَة: ٧٤].

وصَدَّر دعوتهم إلى التوبة بالعَرْض الذي هو غايةُ اللُّطْفِ واللِّين في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المَائِدَة: ٧٤].

ولكن القومَ يُسَارِعُونَ في الإثم وهم ضَالُّونَ، ويحسبون ـ وَهُمْ في الغوايةِ ـ أنهم مهتدونَ.

ثم إنك ترى صاحبَ الشُّبْهةِ يُدافِع عنها، ويدعو إليها، ويدعو ربَّه أن يموتَ عليها، ولا يَدُورُ بَخَلَدِه أن يتوبَ منها، وكيف يتوبُ منها وهي دينه؟!

وأما أصحابُ الذنوبِ من أربابِ الشهواتِ فشأنُهم عندَ أنفسهم على خلافِ هؤلاء، وقد تقدَّم الكلامُ على هذا.

* تَرْكُ جِنْس المأمورِ أعظمُ من فِعْل جِنْس المحظورِ:

«كثيرٌ من الناسِ لا يستحضرُ عندَ التوبةِ إلا بعض المُتَّصِفَات بالفاحشةِ أو مُقَدّماتِها، أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تَرَكَهُ من المأمورِ الذي يجبُ لله عليه في باطنِه وظاهرِه من شُعَبِ الإيمانِ وحقائقِه أعظمَ ضررًا عليه مما فَعَلَهُ من بعضِ الفواحشِ؛ فإن ما أَمَرَ اللهُ به من حقائقِ الإيمانِ التي بها يصيرُ العبدُ من المؤمنينَ حَقًّا أعظمُ نَفْعًا من نَفْعِ تَرْكِ بعضِ الذنوبِ الظاهرةِ؛ كحبِّ اللهِ ورسولِه؛ فإن هذا أعظمُ الحسناتِ الفعليةِ.

وعن عمرَ بن الخطابِ ؓ، أن رجلًا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يُلَقَّبُ حِمَارًا، وكان يُضْحِك رسولَ الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جَلَدَهُ في الشرابِ، فَأُتِيَ به يومًا، فأمر به فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، ما أكثرَ ما يُؤْتَى به! فقال النبي ﷺ: «**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٩٠٠٩).
(٢) «المستدرك على مجموع الفتاوى» (١/ ١٥٠ ـ ١٥١).
(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

فنهى عن لَعْنه مع إصراره على الشُّرْب؛ لكونِه يحبُّ اللهَ ورسولَه، مع أنه ﷺ لَعَنَ في الخمرِ عشرةً: لَعَن الخمرَ، وعاصرَها ومعتصرَها، وشاربَها وساقيَها، وحاملَها والمحمولةَ إليه، وبائعَها ومبتاعَها، وآكِلَ ثمنها[١]. وَلَكِن لَعْن المُطْلَقِ لا يسْتلزمُ لَعْن المُعَيَّنِ الذي قام به ما يَمْنَع لُحُوقَ اللعنةِ له»[٢].

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «جِنْسُ تَرْكِ الواجباتِ أعظمُ من جِنْسِ فِعْلِ المحرَّمات؛ إذ قد يدخل في ذلك تَرْكُ الإيمانِ والتوحيدِ، وَمَنْ أَتَى بالإيمانِ والتوحيدِ لم يُخَلَّدْ في النارِ، ولو فَعَلَ ما فَعَلَ، وَمَنْ لم يأتِ بالإيمانِ والتوحيدِ كان مُخَلَّدًا، ولو كانت ذنوبُه من جِهَةِ الأفعالِ قليلةً؛ كالزُّهّادِ والعُبَّادِ من المشركينَ وأهلِ الكتابِ»[٣]. اهـ.

ومما تجدر الإشارةُ إليه في ذلك ما يصيب كثيرًا من الناس، حين تتوالى على الأُمَّةِ النكباتُ والبلايا وَالْفِتَنُ، فيشكُّ في وعْدِ اللهِ بِنَصْر المؤمنين، ويسيء الظنَّ بربه، وَتَرِدُ القَوَادِحُ على دِينِهِ واعتقادِه، فَمِثْلُه يحتاجُ إلى توبةٍ بلا شكٍّ، وكثيرٌ من الناس لا يَخْطُر ذلك بباله، ويظن أن التوبة إنما تكون من السرقة والظلم ونحو ذلك، ولو تحقق لَعَلِمَ أن ذلك الذي أشرنا إليه من أعظم الظلم.

* التوبةُ مِنْ تَرْكِ المُسْتَحباتِ:

فالذي يُفَرِّط في صلاة النوافل؛ من قيام الليل، والسنن الرواتب، وكذا المُفَرِّط في صيام التطوّع، ونحو ذلك من أبواب البِرّ مما لا يجب عليه، ولكن يَجْمُلُ به أن يتجمّلَ به، فمثلُ هذا يصلح في حقّه التوبةُ أيضًا.

فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رأيتُ في المنام كَأَنَّ مَلَكَينِ أَخَذَاني، فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ البِئْر، وإذا لها قَرْنانِ كَقَرْنَي البئرِ، وإذا فيها ناسٌ قد عرفتُهم، فجَعَلْتُ أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، فَلَقِيَهُما مَلَكٌ آخَرُ، فقال لي:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصحَّحه ابن السكن ـ كما في «التلخيص» (٤/ ٧٣) ـ، والحاكم (٢/ ٣١ ـ ٣٢)، و(٤/ ١٤٤)، وقال شيخ الإسلام في «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٥٦ ٩): «حديث جيد»، وصحَّحه الذهبي، والألباني في «الإرواء» (١٥٢٩)، وحسَّنه ابن عبد الهادي في «تنقيح التحقيق» (٤/ ٨٧ ـ ٨٨)، وفي الباب عن ابن عباس، وابن مسعود، وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، وانظر: «بيان الدليل» (ص٩١ ـ ٩٢)، و«غاية المرام» (٦٠).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢٩) بتصرُّف.

(٣) المصدر السابق (١١/ ٦٧١).

لَنْ تُرَاعَ، فقصصتُها على حفصة، فَقَصَّتْهَا حفصةُ على النبيِّ ﷺ، فقال: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ**»، قال سالم بن عبد الله: فكان عبدُ اللهِ لا ينامُ من الليل إلا قليلًا[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ فَرَّطَ في مُسْتَحَبَّاتٍ فإنه يتوب أيضًا ليحصل له مُوْجِبُها، فالتوبةُ تتناولُ هؤلاء كُلَّهُمْ»[(٢)].اهـ.

* هل يُتَاب من الحسناتِ؟

قد يتأتى ذلك في بعض الصور.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «توبة الإنسان من حسناته على **أوجه**:

أحدها: أن يتوبَ ويستغفرَ من تقصيره فيها.

والثاني: أن يتوبَ مما كان يظنُّه حَسَناتٍ ولم يكن؛ كحال أهل البدع.

والثالث: أن يتوب من إعجابه، ورؤيته أنه فَعَلَها، وأنها حصلت بقُوَّته، وينسى فضلَ اللهِ وإحسانَه، وأنه هو المُنْعِمُ بها.

وهذه توبةٌ مِنْ فِعْلٍ مذموم، وتَرْكِ مأمورٍ؛ ولهذا قيل: تخليصُ الأعمالِ مما يفسدُها أشدُّ على العاملينَ من طولِ الاجتهادِ»[(٣)].اهـ.

أما الحسنةُ من حيث هي فلا يجوزُ للعبدِ أن يتوبَ منها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فأما التوبةُ من الحسناتِ فلا تجوزُ عندَ أحدٍ من المسلمينَ، بل مَنْ تاب من الحسنات مع عِلْمِهِ بأنه تاب من الحسنات؛ فهو إما كافرٌ، وإما فاسقٌ، وإن لم يعلم أنه تاب من الحسنات فهو جاهلٌ ضَالٌّ؛ وذلك أن الحسنات هي الإيمانُ والعملُ الصالحُ، فالتوبةُ من الإيمانِ هي الرجوعُ عنه، والرجوعُ عنه رِدَّةٌ، وذلك كفرٌ. والتوبةُ من الأعمالِ الصالحةِ رجوعٌ عما أَمَرَ اللهُ به، وذلك فسوقٌ أو معصيةٌ، والله تعالى حَبَّبَ إلى المؤمنينَ الإيمانَ، وَكَرَّهَ إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، فكلُّ حسنةٍ يفعلُها العبدُ إما واجبةٌ، وإما مُسْتَحَبَّة»[(٤)].اهـ.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ [مُحَمَّد: ٣٣]، وإن من أعظم ذلك: أن يندمَ العبدُ على خيرٍ فَعَلَهُ، ويرجع عنه رجوعَ المُذْنِب عن ذنبه إذا تَابَ إلى ربه.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢١، ١١٢٢) واللفظ له، ومسلم (٢٤٧٩).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٨٧).
(٣) المصدر السابق (١١/ ٦٨٧ ـ ٦٨٨).
(٤) «جامع الرسائل» (٢٤٨).

وقد يحصل منه ذلك لِمُلِمَّةٍ أَلمَّتْ به، أو بلاء أصابه، وهذا من الارتكاس والنَّكْث، ومن نَكَثَ فإنما ينكث على نَفْسه.

* ماذا بعد الذنب؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعْلَمْ أن صاحب البصيرة إذا صَدَرَتْ منه الخطيئة فله نَظَرٌ إلى **خمسةِ أمورٍ**[1]:

أحدها: أن ينظرَ إلى أمرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيُحْدِثُ له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئةً، والإقرارَ على نَفْسه بالذنب.

الثاني: أن ينظرَ إلى الوعدِ والوعيدِ، فيُحدث له ذلك خوفًا وخشيةً تحمله على التوبة.

الثالث: أن ينظر إلى تمكينِ اللهِ له منها، وتخليتِه بينَه وبينَها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاء لَعَصَمَهُ منها، فيُحدث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته...

الرابع: نَظَرُه إلى الآمِرِ له بالمعصيةِ، المُزَيِّنِ له فعلَها... وهو شيطانه الموكَّل به، فيفيده النظر إليه وملاحظته اتخاذه عَدُوًّا، وكمال الاحتراز منه»[2]. اهـ.

* عقبات الشيطان التي يجعلها في طريق السالكين:

«الشيطان يريد أن يَظْفَر بالعبد في عقبة من سَبْع عقبات، بعضُها أصعبُ من بعض، لا ينزل معه من العقبة الشاقة إلى ما دونَها إلا إذا عجز عن الظَّفَر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه.

فإذا ظَفِر به في هذه العقبة بَرَدَت نار عداوته واستراح.

الثانية: عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق، أو بالتعبد بما لم يأذن به الله.

الثالثة: عقبة الكبائر.

الرابعة: عقبة الصغائر.

الخامسة: عقبة المباحات، فيَشْغَله بها عن الاستكثار من الطاعات، ثم يطمع فيه أن يَسْتدرجه منها إلى تَرْك السُّنَنِ، ثم مِنْ تَرْكِ السننِ إلى تَرْكِ الواجباتِ.

السادسة: عَقَبَة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فيأمره بها، ويحسِّنها في عينه، ويزينها له؛ لِيَشْغَلَه بها عما هو أفضل منها.

---

(١) ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أربعة أمور، فالظاهر أن قوله: (خمسة) سبق قلم، ويؤيد ذلك أنه أعادها في موضع آخر وذكر أنها أربعة. ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢١٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٢٢).

السابعة: عقبةُ تسليطِ جندِه عليه بأنواع الأَذَى، باليد واللسان والقلب، على حَسَب مَرْتبتِه في الخيرِ، فكلما عَلَتْ مرتبتُه أَجْلَب عليه العدو بخيله ورجله، وَظَاهَرَ عليه بجنده، وَسَلَّطَ عليه حِزْبَه وأهلَه بأنواعِ التسليطِ. وهذه العقبةُ لا حيلةَ له في التَّخَلُّصِ منها، ولو نجا منها أحدٌ لنجا منها رسلُ الله وأنبياؤُه وأكرمُ الخلقِ عليه»[(١)].

* أيهما الأفضلُ: نسيانُ الذنبِ أم تَذَكُّرُهُ؟

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما نسيان الجناية: فهذا موضع تفصيل...

فمنهم من رأى الاشتغال عن ذِكْرِ الذَّنبِ والإعراضِ عنه صَفْحًا، فصَفَاء الوقت مع الله تعالى أَوْلَى بالتائب وأنفعُ له.

ومنهم مَنْ رأى أن الأَوْلَى أَلَّا ينسى ذنبَه، بل لا يزال جاعلًا له نُصْبَ عينيه، يُلَاحِظُه كلَّ وقت، فيُحدِث له ذلك انكسارًا وذلًّا وخضوعًا...

والصوابُ: التفصيلُ في هذه المسألة، وهو أن يُقَالَ:

إذا أَحَسَّ العبدُ من نفسِه حالَ الصفاءِ غَيْمًا من الدَّعْوَى، ورقيقة من العُجْبِ، ونسيانِ المِنَّةِ... فَذِكْرُ الذنبِ أنفعُ له، وإن كان في حالِ مُشَاهَدتِه مِنَّة الله عليه، وكمال افتقاره إليه... وعَدَم استغنائِه عنه... وشُهُود سَعَةِ رحمتِه وحِلْمه وعفوه... فنسيانُ الجنايةِ والإعراضُ عن الذنب أَوْلَى به وأنفع»[(٢)].اهـ.

وعن عون بن عبد الله قال: «جرائمُ التوابينَ منصوبةٌ بالندامةِ نُصْبَ أعينهم، لا تَقَرُّ للتائب في الدنيا عينٌ كلما ذَكَرَ ما اجترح على نَفْسه»[(٣)].

وكان يقول: «التائبُ أسرعُ دمعةً، وأرقُّ قَلْبًا»[(٤)].



---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٢) باختصار وتصرف، وانظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٩٩ ـ ٨٠٢).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٥١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٣٨)، وأورده الغزالي بنحوه مرفوعًا، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٣٤): «لم أَجِدْهُ مرفوعًا»، وكذا السبكي (٤/ ١٧١)، وانظر: «الضعيفة» (١٠٣).

الطريق إلى تحقيق التوبة

١ ـ ينبغي على العبد ألَّا يُعينَ الشيطانَ على أخيه المسلم، فإن وَقَعَ في الذنبِ نَصَحَه وأَرْشَده:

فإن الكثيرين حين يَطَّلِعُون على زَلَّة وقع فيها أحد من إخوانهم المسلمين؛ فإنهم لربما شَمتوا به، واستوحشوا منه، وصار مَنْبُوذًا بين إخوانه، تُلاحقه زَلَّته وخطيئته دون اعتبار لتوبة أو صلاح حال، أو سابقة في الخير والعمل الصالح، مع أن الزلل من طبيعة الإنسان، والله واسع المَغْفِرَة، وحال النبي ﷺ مع أصحابه معروفة في هذا الباب، ولكننا نغفل عن ذلك كثيرًا؛ بل لربما دعونا على أحدهم ألَّا يُوَفَّق للتوبة!! فأين نحن من هَدْي النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم؟!

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أُتِي برجل قد شرب، فقال رسول الله ﷺ: «**اضْرِبُوْهُ**»، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ، وَلَكِنْ قُولُوا: رَحِمَكَ الله**»(١).

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سُرِقَ له: «أَلَا تَدْعُو على ظَالمك؟ قال: ما أُحِبُّ أن أكونَ عونًا للشيطانِ عليه»(٢).

٢ ـ تدبرُ القرآنِ:

يقول القرطبيُّ رحمه الله: «قال علماؤُنا: الباعثُ على التوبةِ وحَلِّ الإصرار إدامةُ الفِكْرِ في كتاب الله العزيز الغفار، وما ذكره اللهُ سبحانه من تفاصيل الجنة، ووَعَد به المُطِيْعِين، وما وصفه من عذاب النار، وتهدَّد به العاصينَ، ودام على ذلك حتى قوي خوفُه ورجاؤُه، فدعا اللهَ رَغَبًا ورَهَبًا، والرغبةُ والرهبةُ ثمرةُ الخوفِ والرجاءِ، يخافُ من العقابِ، ويرجو الثوابَ»(٣). اهـ.

وعن كعب الأحبار قال: «لما قرأتُ: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النِّسَاء:

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٨٦)، وصحَّحه ابن حبان (٥٧٣٠)، والألباني في «التعليقات الحسان» (٥٧٠٠).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٨٣).

(٣) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٢٦).

٤٧] أسلمتُ حينئذ، شَفَقَةً أن يُحَوَّل وجهي نَحْو قَفَاي»[١].

فَمَنْ تَدَبَّرَ آي القرآنِ، وما جاء فيها من الوعد والوعيد؛ حَمَلَهُ ذلك على استقبالِ التوبةِ، واستقباحِ الحالِ التي هو عليها؛ من مُوَاقعةِ الذنوبِ، والخروج عن طاعة ربِّ العبادِ.

٣ ـ النظرُ في أثَرِ الذَّنْبِ:

فَمَنْ تَأَمَّلَ ما يجنيه بذنبِه مِنْ خِزْيِ الدنيا وخسرانِ الآخرةِ، مع ما يكون عليه من مقبوحِ الحالِ؛ أَنِفَ لنَفْسِه أن يكونَ بتلك المَثَابةِ، إذا كان عَقُولًا، له حظٌّ من النَّظَرِ والتَّعَقُّلِ، وليس كالبهيمةِ، لا ينظر إلا فيما يَشْتَهِيه، دونَ تَدَبُّرِ العَوَاقبِ، وما يجنيه بها من الخسار.

عن يزيد بن الأَصَمّ، قال: «إن رجلًا في الجاهلية شَرِب فَسَكر، فجعل يتناول القَمَر، فَحَلَف لا يَدَعه حتى يُنزله، فيَثِب الوَثْبة، ويَخِرّ، ويكدح وجهه، فلم يَزَلْ يفعل ذلك حتى خَرَّ، فنام، فلما أصبح قال لأهله: ويْحكم، ما شأني؟ قالوا: كنتَ تَحْلِف لَتُنْزِلَنَّ القمرَ، فتَثِب، فَتَخِرّ، فهذا الذي لقيتَ منه ما لقيتَ.

قال: أرأيت شَرَابًا حَمَلني على أن أُنزِلَ القمرَ! لا واللهِ لا أعود إليه أبدًا»[٢].

وذكر ابن أبي الدنيا[٣] أنه مَرَّ بسكران وهو يبول في يده، ويغسل به يدَه كهيئةِ المتوضئ، ويقول: «الحمدُ للهِ الذي جَعَل الإسلامَ نورًا، والماءَ طهورًا».

وعن العباس بن مِرْدَاس أنه قيل له في الجاهلية: «ألا تأخذ من الشراب، فإنه يزيد من جُرْأَتك ويُقَوِّيك؟ قال: أُصبح سيدَ قومي وَأُمْسِي سفيهَهم؟! لا والله، لا يدخل جوفي شيء يحول بيني وبين عقلي أبدًا»[٤].

٤ ـ مُحَاسَبَة النَّفْس:

بالمحاسبةِ يُمَيِّزُ العبدُ بينَ مَا لَه وما عليه، فيَسْتَصْحب مَا لَه، ويؤدي ما عليه، ومن منزلةِ المُحَاسَبَةِ يصحُّ له نزولُ منزلةَ التوبةِ؛ لأنه إذا حَاسَبَ نفسَه عَرَفَ ما عليه من الحقِّ، فخرج منه، وَتَنَصَّلَ منه إلى صاحبه، وهي حقيقةُ التوبةِ.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٠/ ١٦٢).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٨).
(٣) نسبه إليه ابن حجر الهيتمي في «الزواجر» (٢/ ٢٤٧)، ولم أجده في كتب ابن أبي الدنيا، لا في «ذم المسكر» ولا غيره.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم المسكر» (٥٢) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/ ٤٢٧).

و«التوبةُ محفوفةٌ بمُحَاسَبَتَينِ: مُحَاسَبةٍ قبلها تقتضي وجوبَها، ومُحَاسَبةٍ بعدَها تقتضي حِفْظَها... وقد دَلَّ عليها قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحَشْر: ١٨]...

والمقصود من هذا النَّظَر ما يُوجِبه ويقتضيه؛ من كمالِ الاستعدادِ ليومِ المعادِ، وتقديمِ ما يُنجيه من عذاب الله، وَيُبَيِّضُ وجهَه عندَ اللهِ...

فإذا صحَّ هذا المقامُ، ونزل العبدُ في هذه المنزلةِ، أَشْرَفَ منها على مقامِ التوبةِ؛ لأنه بالمحاسبة قد تميّز عنده ما له وما عليه، فَلْيَجْمَعْ هِمَّتَه وعَزْمَه على النزولِ فيه، والتشميرِ إليه إلى الممات...

ولا بُدَّ أن يُعْلَمَ أن التوبة لا تصحُّ إلا بعدَ معرفةِ الذَّنْبِ، والاعترافِ به، وطلبِ التَّخَلُّصِ من سوءِ عواقبِه أولًا وآخِرًا»[١]، ولا يتمُّ ذلك إلا بمحاسبة النَّفْس.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن العبدَ لا يزال بخيرٍ ما كان له واعظٌ من نَفْسه، وكانت المحاسبةُ هِمَّتَه»[٢].

٥ ـ التفكُّر:

التفكر أداة التذكّر، وهو أمرٌ ينبغي أن يحرصَ عليه المسلمُ في أمر دينِه ودنياه، وهو مما يُعين العبدَ على نفسِه إذا أقبلَ على الله تائبًا، إليه مُنِيبًا، فَحَرِيٌّ بِمَنْ تَفَكَّرَ في عواقبِ الطاعاتِ وآثارِها الحَمِيدةِ أن يُقبلَ عليها، وحَرِيّ بِمَنْ تَفَكَّرَ في عَوَاقِبِ المعاصِي، وما قد يحصل له بها من خِزْيِ الدنيا وعذاب الآخرة أن يُعرِض عنها.

يقول عبد الحق الإشبيلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي لمن دخل المقابر أن يتخيل أنه ميت، وأنه قد لَحِق بهم، ودخل مُعَسْكَرَهم، وأنه محتاج إلى ما هم إليه محتاجونَ، وراغبٌ فيما هم فيه راغبونَ، فليأتِ إليهم بما يُحِبُّ أن يُؤتَى به إليه، وَلْيُتْحِفهُمْ بما يحبُّ أن يُتْحَف به، وليتفكر في تَغَيُّر ألوانهم، وتَقَطُّع أبدانهم، وتَنَكُّرِ أحوالهم، وكيف صاروا بعد الأُنْسِ بهم والتسلي بحديثهم إلى النِّفَارِ من رؤيتهم، والوحشة من مشاهدتهم، وَلْيَتَفَكَّرْ أيضًا في انشقاقِ الأرضِ، وبَعْثرةِ القبورِ، وخروجِ الموتى وقيامهم مرةً واحدةً، حفاةً عراةً غُرْلًا، مُهْطِعينَ إلى الداعِي، مُسْرعينَ إلى المنادي»[٣].اهـ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٦٩ ـ ١٧٨) بتصرُّف.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٠٣)، وابن أبي الدنيا في «المحاسبة» (٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٤٦) واللفظ لهما.

(٣) «العاقبة في ذكر الموت والآخرة» (ص١٨) بتصرُّف يسير.

أَسْلَمَنِي الأَهْلُ بِبَطْنِ الثَّرَى وَانْصَرَفُوا عَنِّي فَيَا وَحْشَتَا
وَغَادَرُونِي مُعْدَمًا يَائِسًا مَا بِيَدَيَّ الْيَوْمَ إِلَّا الْبُكَا
وَكُلُّ مَا كَانَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَكَانَ مَا حَاذَرْتُهُ قَدْ أَتَى
وَذَاكُمُ المَجْمُوعُ وَالمُقْتَنَى قَدْ صَارَ فِي كَفِّيَ مِثْلَ الهَبَا
وَلَمْ أَجِدْ لِي مُؤْنِسًا هَا هُنَا غَيْرَ فُجُورٍ كَانَ لِي أَوْ تُقَى
فَلَوْ تَرَانِي وتَرَى حَالَتِي بَكَيْتَ لِي يَا صَاحِ مِمَّا تَرَى[(١)]

وقال أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ابنَ آدم! تَرْكُ الخطيئةِ أهونُ مِنْ طَلَبِ التوبةِ»[(٢)].

وإذا تفكَّر العبدُ في الدنيا وانصرامِها، وفي الآخرةِ وإقبالِها، وفي أيَّامِهِ التي تنقضي يومًا بيوم، وفي طِيْب العيش الذي يذهب مع الأيام، وفي نَكَدِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وضَنكها، وعاقبةِ المُغْتَرِّينَ بها، مع هوانِها على الله. ثم تَفَكَّرَ في الحسنةِ وأنوارِها وآثارِها، وَتَفَكَّرَ في السيئةِ وآلامِها؛ لَعَلِمَ شدةَ حاجتِه إلى التوبةِ، وأنه بدونِها واهِمٌ في غرورٍ.

٦ ـ اليقظةُ الباعثةُ على التوبةِ:

وهي ـ غالبًا ـ ثمرة من ثمرات التفكر.

قد تكلم ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن اليقظة بوصفِها باعثًا على التوبةِ، فقال: «فأولُ منازلِ العبوديةِ: اليقظةُ، وهي انزعاجُ القلبِ لرَوْعةِ الانتباهِ من رَقْدَةِ الغافلينَ... فَمَنْ أَحَسَّ بها فقد أحسَّ واللهِ بالفلاحِ، وإلا فهو في سكراتِ الغفلةِ»[(٣)]. اهـ.

وقد يحصل ذلك بسبب موقفٍ أو رؤيا، فيستيقظ القلبُ من غفلتِه، وَيُشَمِّرُ العبدُ عن ساعدِ الجدِّ من ساعتِه، ويسعى في تحصيل مغانم الرجوع، وليرضَ حينئذ حقًّا من الغنيمة بالإياب.

٧ ـ ما يفتح اللهُ به على قلب العبد:

وهو قريب مما قبله.

فقد يفتح اللهُ على العبدِ، ويرزقُه من لَدُنه رحمة، فينتبه إلى «قُبْحِ الذنوبِ وضررِها؛ فإنها سمومٌ وآفاتٌ مُهْلِكَةٌ...

فإذا نظر العبدُ بتوفيق الله تعالى إلى نَفْسِه، فوجدها مشحونةً بذنوبٍ اكْتَسَبَهَا، وسيئاتٍ اقترفَها، وانبعث منه النَّدَمُ على ما فَرَّطَ، وتَرْك المعاصي مخافةَ عقوبةِ الله

---

(١) «العاقبة في ذكر الموت والآخرة» (ص١٠٣)، و«التذكرة بأحوال الموتى» (١/ ٣٠٧).
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٢٦).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٣).

تعالى؛ صَدَقَ عليه أنه تائبٌ»[(١)].

٨ ـ معرفةُ اللهِ تعالى معرفةً صحيحةً بأسمائِه وصفاتِه:

فكلما كان العبدُ بالله أعلمَ كان له أخوفَ وأشدَّ تعظيمًا، وإقبالًا عليه، وتَطَلُّعًا إلى ما عنده.

ولذلك؛ فالعبدُ بحاجة دائمًا إلى إحياءِ قلبِه بتلك المعانِي الجليلةِ، وهذه المعارفِ الساميةِ، وما أشدَّ تأثيرَ ذلك على النَّفْس في زيادةِ الإيمانِ، وتقويةِ العَزْمِ على الطاعةِ، والإقبالِ على الله ذِي الجلالِ، والإدبار والنُّفُور عن العصيان في الحال.

وبحَسْب المرء أن يعلم أن الله تعالى هو غافرُ الذنب، وقابلُ التوب، شديدُ العقابِ، حتى تكون الطاعةُ أحبَّ شيءٍ إليه، وتكون المعصيةُ أبغضَ شيءٍ لديه.

٩ ـ ومما يُوَصِّلُ إلى التوبةِ مما يَخُصُّ أهلَ الأهواءِ: أن يعلمَ صاحبُ البدعةِ شدةَ حاجتِه إلى العلمِ بالسُّنَّةِ:

فإنه «لا تنكشفُ له ذنوبُه التي يجب عليه التوبةُ منها إلا بتَضَلُّعِه في علوم السُّنَّةِ، وكثرةِ اطلاعِه عليها، ودوامِ البحثِ عنها، والتفتيشِ عليها؛ فإن السُّنَّةَ تمحقُ البدعةَ وَلَا تَقُومُ لها، وإذا طلعت شمسُها في قلبِ العبد قَطَعَتْ من قلبِه ضبابَ كلِّ بدعةٍ، وأزالت ظلمةَ كلِّ ضلالةٍ»[(٢)].

١٠ ـ الصدق مع الله، والإخلاص له، والإقبال عليه ﷻ.

١١ ـ امتلاء القلب من محبة الله ﷻ:

فمن كان الله محبوبَه شَغَلَهُ بحبِّه عن محبةِ ما سواه، وخاصةً ما يبغضه، ويمقت عليه.

١٢ ـ مُجَاهَدة النَّفْس، والصبر على تَرْك الشهوات.

١٣ ـ قِصَرُ الأملِ، وتَذَكُّرُ الآخرةِ.

١٤ ـ السعيُ في تحصيلِ العلم، ومزاحمةُ الطلبةِ بالرُّكَبِ في مجالسِ الذكرِ.

١٥ ـ الاشتغالُ بما ينفعُ، وتَجَنُّبُ الوحدةِ والفراغِ.

١٦ ـ البعدُ عن المثيراتِ وما يُذَكِّرُ بالمعصيةِ؛ فإن السالمَ في ذلك غانمٌ بالسلامة.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام القرطبي في «تفسيره» (٥/ ٣٢٦).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٤) باختصار وتصرف.

١٧ ـ غضُّ البصرِ.

١٨ ـ مصاحبةُ الأخيارِ، ومجانبةُ الأشرار.

١٩ ـ النظر في العواقب، وما يؤولُ إليه الحالُ.

٢٠ ـ هَجْرُ العوائدِ المُهَيِّجةِ للشوقِ، والرغبةِ في التمادي في الباطل، والاستكانة لما أَلِفَتْهُ النفسُ واعتادته من هواها.

٢١ ـ هَجْرُ العلائقِ:

أي: كل ما تَعَلَّقَ به القلبُ من مَلَاذِّ الدنيا وشهواتِها، مما يصرفُه عن رُشْدِهِ وهدايته.

٢٢ ـ إصلاح الخواطر والأفكار الرديئة:

وليس شيءٌ أشدَّ على المرء مما يَسْنح له لأول وَهْلَة، فأول الأمر خاطرة، ثم يكون فِكْرة، ثم يصير عزيمة، ثم يَتَحَوَّل إلى فِعْل.

٢٣ ـ استحضارُ فوائدِ تَرْكِ المعاصي:

والتي مِنْ أهمِّها انشراحُ القلبِ وانْفِسَاحُه لنورِ الإيمانِ، وحلاوةِ الطاعةِ، وَحُسْنِ الفَيْئة.

٢٤ ـ استحضار أن الصبرَ عن الشهوة أسهلُ من الصبر على ما تُوجِبه الشهوةُ.

٢٥ ـ استحضارُ أضرارِ الذنوبِ والمعاصِي:

والتي من أعظمِها استمراءُ الذنب، مع شدة الغفلة، وقلة الحياء، والخَوْض في الذنوب، والانغماس في المعاصي.

وقد جاء عن عائشة ﵂ أنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبًا**»[(١)].

وكان الإمام أحمد ﵀ يمشي في الوَحَل، ويَتَوَقَّى، فَغَاصَت رِجْله، فَخَاض وقال لأصحابه: «هكذا العبد لا يَزَال يَتَوَقَّى الذُّنوب، فإذا وَاقَعَها خَاضَها»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣)، وصحَّحه ابن حبان (٥٥٦٨)، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٣١).

(٢) ذكره ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (١/ ١١٢). وانظر أيضًا: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٥٤).

٢٦ ـ الدعاء:

فإنه خير سلاح للمؤمن.

٢٧ ـ الحياء:

وهو خيرٌ كلُّه، ومن خَيرِه وفضلِه أنه واعظٌ حَسَنُ الوعظِ عند كلِّ هَمَّةٍ بذَنْب، فجلاله في طهارته، وحُسْن تذكيره، والمرءُ على رَأْسِ أَمْره، لم يخالط بعدُ الذَنْبَ، ولم يَغْشَ عصيانًا. وجلاله أيضًا في تَجَدُّدِهِ عندَ كلِّ هَمَّةٍ بذَنْب، وإنما ذلك للقلب الحيِّ، والنَّفْس اللوَّامَةِ، وأما المُسَارِعُ في معصيةِ الرحمٰنِ، المبادرُ إلى سَخَطِه ومَقْتِه، فمن أين له الحياء؟!

٢٨ ـ شرفُ النَّفْسِ وذكاؤها، وأَنَفَتها، وحَمِيَّتُها:

وهذه من الأصول المركوزة، والفطرة السليمة.

٢٩ ـ الأَخْذ بكل الأسباب المُعِيْنة والمُوْصلة إلى التوبة[1]:

وهذا أمرٌ في بعض أفرادِه قد يختلف من شخصٍ لآخَرَ.

وبالجملة: فَحَرِيٌّ بالمرء الذي يعلم اللهُ الصدقَ من قلبِه أن يُعينه على نَفْسه وشيطانه، وأن يصرفَه عن غوايتِه وهَوَانِه، ويكفيه شرَّ ما كان من خسرانه.



(١) وقد ذكر ابن جُزَي رَحِمَهُ اللهُ أن البواعثَ على التوبة سبعةٌ: خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخَجَل من الحساب، ومحبة الله، ومراقبة الله، وتعظيم الله، وشكر النِّعْمة. انظر: «التسهيل» (٣/ ٦٥ ـ ٦٦).

عقبات في طريق التوبة

١ ـ التسويف:

وهو من أعظم الآفات، وأشدّ العقبات، ينصرف به المغرورُ إلى أمانيّ كواذبَ، يقول: غدًا أتوب، إذا حَلَّ رمضانُ ببركتِه وَجَبَتِ التوبةُ.. عشرُ ذي الحجةِ ميعادُ الأوابينَ، وهكذا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وَجْه غلبةِ الشهوة، وقوةِ الطبيعةِ، فَيُوَاقِعُ الذنبَ مع كراهتِه له، من غيرِ إصرارٍ في نَفْسه، فهذا تُرجى له مغفرةُ الله وصَفْحُه وعفوُه؛ لِعِلْمِهِ تعالى بضَعْفه، وغلبة شهوته له»[١]. اهـ.

فأما مَنْ كان دأْبُه الوقوع في المعاصي، وإذا زَجَرَهُ زاجرٌ عنها قال: أتوبُ إن شاء الله، فهو لا يزال بين مُوَاقعةِ الذنبِ والتسويفِ بالتوبةِ؛ فهذا لا شكَّ أنه على خطرٍ عظيمٍ.

٢ ـ غلبةُ الشهواتِ:

فَمَنْ كان حالُه أنه «لا يقف عن الذنب، ولا يُحْجم خوفًا، ولا يدعُ لله شهوةً، وهو فَرِحٌ مسرورٌ... إذ ظَفِرَ بالذنبِ، فَمِثْلُه يُخافُ عليه أن يُحال بينَه وبينَ التوبةِ، ولا يُوفَّق لها... لأن النزوعَ عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطَّبْع والنَّفْس والاستمرار على ذلك شديدٌ على النَّفْس، صعبٌ عليها، أثقلُ من الجبال، ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضَعْفُ البصيرةِ، وقلَّةُ النصيبِ من الإيمان»[٢].

٣ ـ اعتيادُ المنكرِ وإدمانُه:

فإن كثرةَ المزاولاتِ تُورِث المَلَكَاتِ، ولعلك تجد الواحدَ منهم يفعل المعصيةَ، ويصرُّ عليها، لا من دافعِ الرغبة فيها وغلبةِ الشهوةِ، ولكن بما يجدُه في نَفْسه من ضرورةٍ تدعوه إليها بسببِ اعتيادِه للمعصية وعكوفِه عليها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا بلغ العبد حدَّ الكِبَرِ، وضعفت بصيرتُه، ووهت قُوَاهُ، وقد

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٥٠).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٥٠) بتصرُّف.

أوجبت له تلك الأعمالُ قوةً في غَيِّهِ، وضَعْفًا في إيمانه، صارت كالمَلَكَةِ له، بحيث لا يتمكَّن مِنْ تَرْكِهَا. . . فتبقى للنَّفْس هيئةٌ راسخةٌ، ومَلَكَةٌ ثابتةٌ في الغَيّ والمعاصي، وكلما صَدَرَ عنه واحدٌ منها أَثَّرَ أَثَرًا زائدًا على أَثَر ما قبله، فيقوى الأثرانِ، وهَلُمّ جَرًّا»[(١)] .اهـ.

٤ ـ ما قد يُواجِهه العبدُ في أولِ توبتِه:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ها هنا دقيقةٌ قَلَّ مَنْ يتفطنُ لها إلا فقيهٌ في هذا الشأن، وهي أن كلَّ تائب لا بد له في أول توبته من عَصْرةٍ وضَغْطةٍ في قلبه، مِنْ هَمٍّ، أو غمٍّ، أو ضيقٍ، أو حزنٍ، ولو لم يكن إلا تَأَلّمه بفراق محبوبه، فيَنْضَغِط لذلك، ويَنْعَصر قلبه، ويضيق صدره، فأكثرُ الخَلْقِ رجعوا من التوبة، ونُكِسُوا على رؤوسهم لأجل هذه المحنة، والعارفُ المُوَفَّقُ يعلم أن الفرحةَ والسرورَ واللَّذّةَ الحاصِلَةَ عقيبَ التوبةِ تكون على قدر هذه العَصْرةِ، فكلما كانت أقوى وأشدَّ كانت الفرحة واللذة أكملَ وأتمّ.

ولذلك أسبابٌ عديدةٌ، **منها**:

ـ أن هذه العصرةَ والقبضَ دليلٌ على حياةِ قلبِه وقوةِ اسْتِعدادِه، ولو كان قلبُه ميتًا واستعدادُه ضعيفًا لم يحصل له ذلك.

وأيضًا: فإن الشيطان لصُّ الإيمانِ، واللصُّ إنما يَقْصد المكانَ المعمورَ، وأما المكان الخراب الذي لا يرجو أن يظفرَ منه بشيء فلا يَقْصده، فإذا قَوِيَت المعارضاتُ الشيطانيةُ والعَصْرَة دَلَّ على أن في قلبِه من الخير ما يشتد حِرْصُ الشيطانِ على نَزْعه منه.

وأيضًا: فإن قوةَ المُعَارِضِ والمضادِّ تدلُّ على قوة مُعَارَضتِه وضدِّه.

وأيضًا: فإن بحسب مُدَافَعَتِه لهذا المُعَارِض وصبره عليه يُثْمِر له ذلك من اليقين والثبات والعَزْم ما يُوجِب زيادةَ انشراحِه وطمأنينتَه.

وأيضًا: فإنه كلما عَظُمَ المطلوبُ كثرت العَوَارِضُ والموانعُ دونَه، هذه سُنَّةُ اللهِ في الخَلْق. . .

ولكن إذا صبر على هذه العَصْرة قليلًا أَفْضَتْ به إلى رياضِ الأُنْسِ وجناتِ الانشراحِ، وإن لم يصبر لها انقلب على وجهه»[(٢)] .اهـ.

ولذلك؛ لمَّا جاء ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: إنا نجدُ في أنفسنا ما يتعاظمُ

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٥١).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠).

أحدُنا أن يتكلم به، قال: «**وَقَدْ وَجَدتُّمُوهُ؟**» قالوا: نَعَمْ، قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[(١)].

ومعناه: أن «استعظامَكم الكلامَ به هو صريحُ الإيمانِ، فإن استعظامَ هذا، وشدةَ الخوفِ منه، ومن النُّطْق به، فضلًا عن اعتقاده إنما يكون لمن اسْتَكمل الإيمانَ استكمالًا مُحَقَّقًا، وانتفت عنه الرِّيْبَةُ والشكوكُ. . .

فالشيطانُ إنما يُوَسْوِسُ لمن أَيِسَ من إغوائِه، فَيُنَكِّدُ عليه بالوسوسةِ لعَجْزِه عن إغوائِه، وأما الكافرُ فإنه يأتيه من حيث شاء، ولا يقتصر في حقِّه على الوسوسةِ، بل يتلاعب به كيف أراد»[(٢)].

فعلى مُسْتَقْبِلِ التوبةِ ألا يجزعَ، وألا يسيءَ الظنَّ بنَفْسه، فضلًا عن أن يسيءَ الظنَّ بربه، وليعلم أن ما يُوَاجهه من وساوسَ وكيدٍ أولَ توبتِه إنما هو من أمرِ الشيطانِ؛ ليصدَّه عن سبيل الله.

ولذا لا يجد كثيرٌ من أصحابِ الغيِّ شيئًا من ذلك، وما يفعل الشيطانُ بالقلبِ الخرابِ؟!

٥ ـ البدعة:

وقد تَقَدَّمَ بنا أن البدعةَ أحبُّ إلى إبليسَ من المعصيةِ؛ وذلك لما يُصِيب صاحبَها من غشاوةٍ على قلبِه تمنعُه من تحقيقِ الصوابِ.

وقد سُئِل الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عما وَرَدَ من أن الله تعالى احْتَجَب التوبةَ عن صاحبِ البدعةِ، فقال: «لا يُوَفَّقُ ولا يُيَسَّر صاحبُ بدعةٍ لتوبة»[(٣)].

وَمُرَادُ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أن صاحبَ البدعةِ يرى أنه على حقٍّ، وأن ما هو عليه هو الصراط المستقيم، فكيف يتوب؟!

٦ ـ الغفلة عن بعض الذنوب:

فـ«كثيرٌ من الناس من المتنزهينَ عن الكبائرِ الحِسِّيَّةِ. . . واقعونَ في أمثالها، أو فيما هو أعظمُ منها أو دونَها، ولا يخطر بقلوبِهم أنها ذنوبٌ ليتوبوا منها، فعندَهم من الإِزْرَاءِ على أهل الكبائر واحتقارهم»[(٤)] الشيءُ العظيمُ، فيصيبُهم بسبب ما ظَنُّوه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ١٥٤) بتصرُّف يسير.

(٣) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٨٧).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٨٧) بتصرُّف يسير.

بأنفسهم من التَّرَفُّع عن التَّلَطُّخ بهذه الأوحال شيء من الكِبْر، والأَنَفَة، واحتقار الناس، مما لعله يصيبهم به أعظم مما أصاب هؤلاء؛ «فإن تَدَارَك اللهُ أحدَهم بقاذورة يُوقِعه فيها ليكسر بها نَفْسه، وَيُعَرِّفُهُ قَدْرَه، ويذله بها؛ فهي رحمة في حقه، كما أنه إذا تَدَارَك أصحابَ الكبائرِ بتوبةٍ نصوحٍ فهي رحمةٌ في حقهم، وإلا فكلاهما على خَطَرٍ»[(١)].

٧ ـ قُرَنَاء السوء:

قال الله ﷻ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٥].

«يذكر تعالى في هذه الآية أنه هو الذي أَضَلَّ المشركينَ، وأن ذلك بمشيئتِه وَقَدَرِه، وهو الحكيمُ في أفعالِه، بما قَيَّضَ لهم من قرناءَ من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، فَحَسَّنُوا لهم أعمالَهم في الماضي، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسَهم إلا محسنين»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفُرْقَان: ٢٧ ـ ٢٩].

ولقد أحسن مَنْ قال[(٣)]:

تَجَنَّبْ قَرِينَ السُّوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ ... وَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصِّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ ... تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

وقال آخر[(٤)]:

اصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ حَيْثُ لَقِيتَهُمْ ... خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ ظَرِيفَا
وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِم مَيَّزْتَهَا ... فَوَجَدْتَ مِنْهَا فِضَّةً وَزُيُوفَا

ومعلومٌ ما وَرَدَ من الآثارِ والأخبارِ في رِفْقَةِ الخيرِ ورِفْقَةِ السوءِ، والجليسِ الصالح والجليسِ السوءِ، وأن المرءَ على دين خليله، وَمَنْ أَحَبَّ قومًا حُشِرَ معهم، وَمَنْ تَشَبَّهَ بقوم فهو منهم، فليحذر العاقلُ من صحبةِ الأشرارِ ومرافقةِ غيرِ الصالحينَ، فإن الأخلاءَ يومئذ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقينَ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٨٧) باختصار وتصرف يسير.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٧٤) بتصرُّف.
(٣) «روضة العقلاء» (ص٧٢)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص٤٦٧).
(٤) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٠٢) عن محمد بن إسحاق الواسطي.

وَكَمْ من صاحبٍ أَوْرَدَ بصحبتِه صاحبَه النارَ، وهل انتشر الفسادُ في الأرضِ، وَعَمَّ السهلَ والجبلَ، وصار غَوْرًا بعد إنجاد إلا بقرناءِ السوءِ من أصحابِ الضلالِ وأهلِ الفسادِ؟!

٨ ـ استحضار العوائق:

وهو مما يَصُدُّ عن التوبة، والصدق فيها، وهو من المُنغِّصَات حَقًّا، وقد يكونُ الواحدُ منهم صاحبَ وجاهةٍ في الناس، ومنزلة عالية، ومال وفِير، تعود به عليه أعمالُه غيرُ المشروعةِ؛ كمن يمتلك مؤسَّسةً تجاريةً تقوم أعمالها على المشاريع الربوية المحرمة، فهو إذا حَدَّثَ نفسَه بالتوبة من ذلك عَارَضَهُ من نَفْسه ما هو فيه من وجاهةٍ وثَراءٍ، يصدُّه ويمنعُه، فينظر مُتفكِّرًا في أَمْره كيف يتْرُك كل ذلك؟ وماذا سيقول الناسُ عنه؟ وأين تقع منزلتُه بينَهم بعدَ ذلك؟ ولا يزال في أمره هذا مُتردِّدًا مُتحيِّرًا حتى يَصْرِفه ذلك عما حدَّثَتْه به نَفْسُه من الرجوع إلى الله.

وقد جاء من حديث أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ لِعَمِّهِ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، قال: لولا أن تعيّرني قريشٌ؛ يقولون: إنما حَمَلَهُ على ذلك الجَزَعُ لأَقْرَرْتُ بها عينَك[١].

ويشتد هذا الأمرُ على رؤوس الضلالة من أئمة البِدَعِ المَتْبُوعينَ، فيقول الواحد منهم في نَفْسه: إذا تُبْتُ الآنَ مما أنا عليه فمعنى ذلك ـ عندي وعند الناس ـ أن هذه الدعوة التي مكثتُ فيها هذا الزمانَ كلَّه كانت على تأسيسِ ضلالةٍ. ثم هذه الوجاهة، وهذه النفقات، وهؤلاء الأتباع، أين أذهب عنهم؟! فيصدّه ذلك ويعوقه عن التوبة.

وقد يعوقه عنها: التفكيرُ الفاسدُ في الأهل والولد والعشيرَةِ، وما هو فيه الآن، وما عسى أن يكون بعدُ.

وقد يَعُوقُهُ عنها الحسدُ، كما حسد اليهودُ النبيَّ ﷺ على ما آتاه اللهُ من فضلهِ، وهم يعرفونه نبيًّا كما يعرفون أبناءَهم.

كما جاء عن سلمة بن سَلَامة بن وَقش، وكان من أصحاب بدر، قال: «كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ بِيَسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ، مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ،

(١) أخرجه مسلم (٢٥).

وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ، فَقَالَ: ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ المَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ! تَرَى هَذَا كَائِنًا؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ، وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ، قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ فِي الدُّنْيَا، يُحَمُّونَهُ، ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطْبَقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا، قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ، قَالُوا: وَمَتَى تَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ، قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاللهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ يَا فُلَانُ! أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى. وَلَيْسَ بِهِ»[(١)].

والمقصود: أن الحسدَ يُعمِي بصيرةَ القلبِ عن نورِ الإيمانِ، ويُضِلُّ خُطَا السارِي عن الصراط المستقيم، بعدما تبينَ الحقُّ بيانَ الشمسِ في وضحِ النهارِ.

وإنك لتجد الرجلَ يَصدّه عن الهدى أن أجراه الله على لسانِ مَنْ هو أصغرُ منه سِنًّا، أو أقل منه عِلْمًا، أو أنزل منه رُتْبَةً؛ فيُصِرّ على الباطل، ويمنعه عن الحق وساوسُ ساريات.

ويتأكد هذا الصدُّ إذا جاءه الحقُّ على يَدَيْ مَنْ يُبْغِضُه، ولا يقبل قولَه، فتلك البليّةُ حَقًّا، وصَدَق اللهُ ﷻ إذ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الْفُرْقَان: ٢٠][(٢)].



(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٧)، وإسناده حسن، من أجل محمد بن إسحاق، وقد صَرَّح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، غير أن محمود بن لبيد ـ وهو من صغار الصحابة ـ إنما أخرج له البخاري في «الأدب المفرد»، وسلمة بن سلامة ليست له رواية في أيٍّ من الكتب الستة، والحديث صحَّحه الحاكم (٣/ ٤١٧ ـ ٤١٨)، والذهبي، وذكره الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (ص٥٨).

(٢) انظر: «التنكيل» (٢/ ١٨٠ وما بعدها)، فقد ذكر كلامًا مُهِمًّا في هذه الصوارف.

ثمرات التوبة

إن من محاسن الصالحات من الأقوال والأعمال ما يتلوها من عواقبِ الخيرِ، وما ينتج عنها من برٍّ وفضلٍ، وما تُثْمره من ثمارِ الصلاحِ وعواملِ الفلاحِ في الدنيا والآخرة.

وثمار التوبة كثيرةٌ ومتنوعةٌ، يحسن بنا أن نتعرضَ لبعضها بالذِّكْرِ للذِّكْرَى، فَيُشمِّر لها المُشَمِّرونَ، ويثبت على طريقها السالكونَ، **فمن ذلك:**

١ ـ صَقْل القلب وصلاحه:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٤]»[(١)].

يعني: أن الذي حَجَبَ قلوبَ الكافرين بالقرآن عن الإيمان به مَا عليها من الرَّان الذي قد لَبِس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا.

والتوبة تَصْقُل القلب وتُجَلِّيه مما عرض له من رَيْن الذنوب، وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[(٢)].

وقال عون بن عبد الله رحمه الله: «دَاوُوا الذنوبَ بالتوبةِ، وَلَرُبَّ تائبٍ دَعَتْهُ توبتُه إلى الجنة، حتى أوفدته عليها»[(٣)].

وقال أيضًا: «قلبُ المرءِ التائبِ بمنزلةِ الزجاجةِ، يُؤَثِّرُ فيها جميعُ ما أصابها، فالموعظةُ إلى قلوبِهم سريعةٌ، وهم إلى الرِقَّةِ أقربُ»[(٤)].

٢ ـ العِلْم والفَهْم:

قال ابن القيم رحمه الله: «العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، والهوى والمعصية رياحٌ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٧٩) واللفظ له، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٥٠).

(٤) المصدر السابق.

عاصفةٌ تُطْفِئ ذلك النورَ أو تكاد، ولا بد أن تُضْعفه، وشهدتُ شيخَ الإسلامِ قَدَّسَ اللهُ روحَه إذا أَعْيَته المسائلُ، وَاسْتَصْعَبَتْ عليه فَرَّ منها إلى التوبة والاستغفار، والاستغاثة بالله واللجأ إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فَقَلَّما يَلْبَث المددُ الإلٰهيُّ أن يتتابعَ عليه مَدًّا، وتَزْدَلِف الفتوحات الإلٰهية إليه بأيتهن يبدأ»(١). اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إذا كان ورقُ المصحف لا يمسُّه إلا المطهرونَ، فمعانيه لا يهتدي بها إلا القلوبُ الطاهرةُ. وإذا كان المَلَكُ لا يدخل بيتًا فيه كلبٌ، فالمعاني التي تحبُّها الملائكة لا تدخل قلبًا فيه أخلاقُ الكلابِ المذمومةِ، ولا تنزل الملائكةُ على هؤلاء»(٢). اهـ.

٣ ـ دفْعُ الهَمِّ والحزن:

فالقلب لا يحصل له الانشراحُ، ولا يجد حلاوةَ الإيمان ونورَ الهدايةِ إلا بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه ﷺ، وقد رُكِّب على هذا تركيبًا خاصًّا؛ بحيث إنه إذا خرج عن ذلك شَقِيَ في الدنيا والآخرةِ، ويحصل له البؤسُ، حتى يتوب صاحبُه ويستغفر، فيصْقَل ويبرأ.

فإذا وجد العبدُ من نَفْسه أنه لا يحصل له حلاوةُ الإيمان، ولا ينشرح صدرُه لأمر الله، وأنه يصيبه ما يصيبه من الهَمِّ والغَمّ، فَلْيُكْثِرْ من التوبة والاستغفار، وَلْيُلَازِم الاجتهادَ بحَسَبِ الإمكان؛ فإن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنْكَبُوت: ٦٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فالإنسانُ إذا أصابته المصائبُ بذنوبه وخطاياه كان هو الظالم لنَفْسه، فإذا تاب واستغفر جعل اللهُ له من كلِّ هَمٍّ فرجًا، ومن كل ضِيْقٍ مخرجًا، ورَزَقه من حيث لا يحتسب.

والذنوب مثل أَكْلِ السُّمِّ، فهو إذا أَكَل السُّمَّ مرض أو مات... وهو الذي ظَلَم نَفْسه بأَكْل السُّمِّ، فإن شرب التِّرْيَاقَ النافعَ عافاه الله.

فالذنوب كأَكْل السُّمِّ، والتِّرْيَاقُ النافع كالتوبةِ النافعةِ، والعبدُ فقيرٌ إلى الله تعالى في كل حال، فهو بفضلِه ورحمتِه يُلْهمه التوبةَ، فإذا تاب تاب عليه، وإذا سأله العبدُ ودعاه استجاب دعاءَه كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

(١) «إعلام الموقعين» (٦/ ٦٧ ـ ٦٨).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٥١ ـ ٥٥٢) بتصرُّف يسير.

دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]»[١]. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما تأثير الاستغفار في دَفْع الهمِّ والغمِّ والضيقِ فلما اشترك في العلم به أهلُ المللِ وعقلاءُ كلِّ أُمَّةٍ: أن المعاصيَ والفسادَ تُوجِب الهمَّ والغمَّ والخوفَ والحزنَ وضيقَ الصدرِ وأمراضَ القلبِ، حتى إن أهلها إذا قَضَوْا منها أوطارَهم، وسَئِمَتها نفوسُهم ارتكبوها دَفْعًا لما يجدونه في صدورهم من الضِّيق والهَمِّ والغَمِّ. . .

وإذا كان هذا تأثيرَ الذنوب والآثام في القلوب؛ فلا دواءَ لها إلا التوبةُ والاستغفارُ»[٢]. اهـ.

٤ ـ دَفْع الضررِ والأذى الواقعِ علينا في الدنيا:

فالحسدُ مثلًا يندفع بأسبابٍ متعددةٍ، منه: «تجريدُ التوبةِ إلى الله من الذنوب التي سَلَّطَتْ على العبد أعداءَه؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشُّورَى: ٣٠]. . .

فما سَلَّط على العبد مَنْ يُؤْذِيهِ إلا بذنب، يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعافُ ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعافُ ما يذكره. . . فإذا عُوفِيَ من الذنوب عُوفِيَ من مُوجَباتها، فليس للعبدِ إذا بُغِي عليه، وأُوذِي، وتَسَلَّط عليه خصومُه من شيء أنفع له من التوبة النصوح»[٣].

٥ ـ رجوع الحسنات إليه برجوعه إلى الله:

فالعبد إذا أسلم وتاب من الكفر جَمَعَ اللهُ له بهذه التوبة بينَ حسناتِه التي عملها في جاهليَّتِهِ وحسناته التي عملها في إسلامه.

فإذا حصل ذلك لمن تاب من الكفر، فحصولُه لمن تاب من المعصيةِ أَوْلَى.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا اسْتَغْرَقَتْ سيئاتُه الحديثاتُ حسناتِه القديماتِ وأبطلتها، ثم تاب منها توبةً نصوحًا خالصةً عادت إليه حسناتُه، ولم يكن حكمُه حكمَ المُسْتَأْنِف لها، بل يقال له: تبتَ على ما أسلفتَ من خير؛ فالحسناتُ التي فَعَلها في الإسلام أعظمُ من الحسنات التي يفعلُها الكافرُ في كُفْره؛ من عَتَاقةٍ وصدقةٍ وَصِلَةٍ، وقد قال حكيم بن حزام للنبي ﷺ: أي رسول الله! أرأيتَ أمورًا كنتُ أَتَحَنَّثُ بها في الجاهلية ـ أي: أتقربُ بها ـ من صدقة، أو عَتَاقَة، أو صِلَة رَحِم، أفيها أَجْر؟ فقال رسول الله ﷺ:

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٤٠). (٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٩١).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٧٠) بتصرُّف يسير.

«**أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ**»(١)، وذلك لأن الإساءة المُتَخَلِّلَة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة، وصارت كأنها لم تكن، فتلاقت الطاعتان، واجتمعتا»(٢). اهـ.

٦ ـ مَحْو الذنب:

وهذا أمرٌ معلومٌ بالاضطرار، لا يحتاج إلى كثيرِ بيانٍ، وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**»(٣).

٧ ـ تبديل السيئاتِ حسنات:

وهذه المسألةُ ثابتةٌ بكتاب الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ [الفُرْقَان: ٧٠].

وإن اختلف أهلُ العلم في المراد بهذا التبديل، فمنهم مَنْ قَالَ: «ليس يُجْعَل مكانَ السيئةِ الحسنةَ، ولكن يُجْعَل مكانَ السيئةِ التوبةَ.

وقيل: يُجْعَل أعمالهم بَدَل معاصيهم الأُولَى طاعةً، فيكون ذلك سببًا لرحمة الله إياهم.

وقيل: يُبَدِّلُ اللهُ سيئاتِهم التي عملوها في حال إسلامهم حسناتٍ يومَ القيامةِ.

وأصل القولين: أن هذا التبديلَ؛ أهو في الدنيا أم يوم القيامة؟

فمَنْ قَال: إنه في الدنيا قال: هو تبديلُ الأعمالِ القبيحةِ، والإراداتِ الفاسدةِ بأضدادِها، وهي حسنات، واحتجوا بأن السيئة لا تَنْقلب حسنةً، بل غايتُها أن تُمْحَى، وتُكَفَّر، ويذهب أثرُها، فأما أن تُقلَب حسنةً فلا.

وقالوا أيضًا: إن الذي دَلَّ عليه القرآنُ إنما هو تكفيرُ السيئاتِ ومغفرةُ الذنوبِ؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عِمْرَان: ١٩٣].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا**

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣) واللفظ له.
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٢) بتصرُّف.
(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٣٣)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٥٩٤)، والحاكم (١/ ٥٣٦)، والذهبي في «السير» (٦/ ٣٣٥)، ولكن الأئمة مالوا إلى إعلاله؛ كالإمام أحمد، وأبي حاتم، وأبي زرعة، والبخاري، والدارقطني، وابن حجر. انظر: «النكت على ابن الصلاح» (٢/ ٧١٦).

أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»(١).

وقالوا أيضًا: إذا انقلبت السيئاتُ أنفسُها حسناتٍ في حقِّ التائبِ؛ فسيكون أحسنَ حالًا من الذي لم يرتكب منها شيئًا، وأكثر حسنات منه.

وقالوا أيضًا: فكما أن العبدَ إذا فَعَل حسناتٍ، ثم أتى بما يُحْبِطها؛ فإنها لا تنقلب سيئاتٍ يُعاقب عليها، بل يَبْطُلُ أثرُها، وتكون عقوبتُه عدمَ تَرَتُّبِ ثوابِه عليها، فهكذا مَنْ فَعَلَ سيئاتٍ، ثم تاب منها؛ فإنها لا تنقلب حسناتٍ.

واحتجَّت الطائفةُ الأخرى بأن قالت: حقيقةُ التبديلِ: إثباتُ الحسنةِ مكانَ السيئةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الْفُرْقَان: ٧٠]، فأضاف السيئاتِ إليهم، وَنَكَّرَ الحسناتِ، ولم يُضِفْها إليهم؛ لأنها من غير صُنْعِهم وكَسْبهم، والتبديلُ في الآية إنما هو فِعْل الله لا فِعْلهم. ولو كان المرادُ غير ذلك لأضاف التبديلَ إليهم.

ويدلُّ عليه ما رواه أبو ذر ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا؛ رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ...**» الحديثَ، وفيه: «**فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ! قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاء لَا أَرَاهَا هَاهُنَا**»، فلقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حتى بَدَتْ نواجذُه(٢).

وقالوا أيضًا: الجزاءُ مِنْ جنسِ العملِ، فكما بدَّلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة، بَدَّلَهَا اللهُ من صُحُفِ الحفَظَةِ حسناتٍ»(٣).

قال ابن القيم ؒ: «الصواب إن شاء الله في هذه المسألة أن يقال: لا ريبَ أن الذنبَ نفسَه لا ينقلبُ حسنةً، والحسنةُ إنما هي أمرٌ وجوديٌّ يقتضي ثوابًا؛ ولهذا كان تاركُ المنهياتِ إنما يُثاب على كفِّ نفْسه وحبسِها عن مُواقعة المنهيّ، وذلك الكفُّ والحبسُ أمرٌ وجوديٌّ، وهو مُتَعَلَّقُ الثوابِ...

وإذا كانت الحسنة لا بد أن تكون أمرًا وجوديًّا، فالتائبُ من الذنوبِ التي عملها قد قارن كلَّ ذنبٍ منها ندمًا عليه، وَكَفَّ نفسَه عن الذنب... وخَلَفه هذا الندم والعَزْم، وهو حسنة، فقد بُدِّلَت تلك السّيئةُ حسنةً، وهذا معنى قول بعض المفسّرينَ: يجعل مكان السيئةِ التوبة... فإذا كانت كلُّ سيئة من سيئاته قد تاب منها، فتوبتُه منها حسنة

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٣٤/ ٥٤٤) باختصار وتصرف.

حَلَّتْ مكانَها»[١]. اهـ.

٨ ـ أنها سببٌ للفلاح:

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النُّور: ٣١].

٩ ـ أنها سببٌ للمتاعِ الحَسَنِ:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هُود: ٣].

١٠ ـ أنها سببٌ لِنُزُولِ الأمطارِ، وزيادةِ القوةِ والإمدادِ بالأموالِ والبنينَ:

قال تعالى عن نبيِّه هود عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما يقوله لقومه ويدعوهم إليه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هُود: ٥٢].

١١ ـ أنها تُثمر محبةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لعبدِه التائبِ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٢].

١٢ ـ أن الله يفرح بتوبة التائبينَ:

فعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللهُ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ، فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ»**[٢].

١٣ ـ أنها تُوجِب للتائبِ آثارًا عجيبةً من المقامات التي لا تحصل بدونها؛ كالمحبّة، والرِّقَّة، واللّطف، وشكر الله وحمده والرضا عنه:

فرُتِّبَ له على ذلك أنواعٌ من النِّعَم، لا يهتدي العبدُ لتفاصيلها، بل لا يزال يَتَقَلَّب في بركتِها وآثارِها ما لم ينْقضْها أو يُفْسِدها.

١٤ ـ حصول الذلِّ والانكسارِ لله:

فإنه متى استحضر ذنبَه، وعلم أن الله لو آخَذَهُ به عَذَّبَهُ؛ حصل له من الانكسار والخفض بمقدار ذلك.

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤). (٢) تقدم تخريجه.

١٥ ـ أن الذنب قد يكون أنفعَ للعبدِ إذا اقترنت به التوبةُ من كثير من الطاعات:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا معنى قول بعض السلف[١]: قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنبَ فلا يزال نُصْبَ عَيْنَيْهِ، إن قام وإن قعد وإن مشى ذَكَرَ ذَنْبَهُ، فَيُحْدِثُ له انكسارًا وتوبةً واستغفارًا ونَدَمًا، فيكون ذلك سببَ نجاته.

ويعمل الحسنةَ فلا تزال نُصْبَ عَيْنَيْهِ، إن قام وإن قعد وإن مشى؛ كلما ذكرها أورثته عُجْبًا وكِبْرًا وَمِنَّةً، فتكون سببَ هلاكِه»[٢]. اهـ.

١٦ ـ أن الله يحبُّ أن يتفضّلَ على عبادِه، ويتمَّ نعمتَه عليهم:

ومِن أعظمِ ذلك أن يُحْسنَ إلى مَنْ أَسَاءَ، ويعفو عَمَّنْ ظَلَمَ، ويغفر لمن أَذْنَبَ ويتوبَ على مَنْ تَابَ، ويَقْبَل عذرَ مَنِ اعْتَذَرَ إليه.

١٧ ـ أن يعرف العبدُ حاجتَه إلى حِفْظِ اللهِ، ومعونتِه، وصيانَتِه.

١٨ ـ أن يعرف العبدُ حقيقةَ نفسِه:

وأنها الظالمةُ الجهولُ، وأن ما صَدَرَ منها من شَرٍّ فقد صَدَرَ من أهلِه ومَعْدنه.

١٩ ـ تعريف العبد بصفات الربّ الكريم.

٢٠ ـ أن يُعَامِلَ العبدُ بني جنسِه بما يحبُّ أن يعاملَه اللهُ به:

ويقيم المعاذيرَ لِلْخَلْقِ، ويتذكر دائمًا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٩٤].

٢١ ـ التحرّز والتيقّظ من العدو الذي أوقعه في المعصية.

٢٢ ـ أنها سبيل لإغاظة الشيطان ومُرَاغَمته.

٢٣ ـ معرفة الشر حَذَرَ الوقوع فيه.

---

(١) جاء بنحوه عن الحسن البصري، كما أخرجه ابن المبارك (١٦٤)، وأحمد (ص٢٦٩) كلاهما في «الزهد»، وغيرهما، ورُوِي مرفوعًا ولكن لا يثبت، أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٢) عن الحسن مرسلًا، وضَعَّفَهُ الألبانيُّ في «الضعيفة» (٢٠٣١)، وفي الباب عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا يثبت كما قال العراقي وغيره، كما في «إتحاف السادة المتقين» (٨/ ٥٢٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٩٩).

أسباب دفع العقوبة

ويمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ التوبة.

٢ ـ الاستغفار.

٣ ـ الحسنات الماحية.

وهذه الثلاثة تَصْدُرُ من الإنسان نَفْسِه.

٤ ـ دعاء المؤمنين له.

٥ ـ ما يُعمَل للميت من أعمال البر؛ كالصدقة ونحوها.

٦ ـ شفاعة النبي ﷺ وغيره لأهل الذنوب من الموحدين يومَ القيامةِ.

وهذه الثلاثة تكون من غيره.

٧ ـ المصائب التي يُكَفِّر اللهُ بها الخطايا في الدنيا.

٨ ـ ما يحصل في القبرِ من الفتنة والضَغْطَة والرَّوْعة.

٩ ـ أهوال يوم القيامة وكروبها وشدائدها.

١٠ ـ رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد، وهو سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

وقد ذكرنا هذه الأسباب مختصرةً للتَّذَكّرِ والنَّظَرِ، ومن أراد التَّفْصِيل ومعرفة المزيد فليراجع مصنفاتِ الأئمةِ الذين تكلموا في ذلك(١).



(١) انظر في ذلك: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٣٢، ٧/ ٤٨٧ ـ ٥٠١، ١٠/ ٣٣٠ ـ ٦٥٥، ١١/ ٦٨٧، ٢٠/ ٢٥٤)، و«الاستقامة» (٢/ ١٨٥)، و«منهاج السُّنَّة» (٤/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦، ٦/ ٢٠٥ ـ ٢٢٩)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، و«حادي الأرواح» (١/ ٤٢١، ٢/ ٧٥٧)، و«لطائف المعارف» (٢٣٢)، و«جامع العلوم والحكم» (ص٣٢٩ ـ ٣٣٤)، و«أسباب المغفرة» (٢ ـ ٦)، و«البحار الزاخرة في أسباب المغفرة» (٥١ ـ ٢٥٤).

حال العبد ومنزلته بعد التوبة(١)

حاصل الكلام في هذه المسألة: هو أن الإنسانَ إذا أَذْنَبَ ذنبًا ثم تاب منه: أيرجع إلى حالِه ومنزلتِه ومقامِه ودرجتِه في العبودية التي كان عليها قبلَ الذنبِ، أم أنه يتأخر بسبب ذلك، أم أنه يكون بحالٍ أفضلَ مما كان عليه؟

اختلف الناس في ذلك على أقوال:

القول الأول: أنه يرجع إلى حالِه الأُولَى. **واحتجّوا بعدة أمور:**

أولًا: أن التائب من الذنب كَمَنْ لا ذنبَ له، فكأنه لم يكن؛ فيرجع إلى ما كان عليه.

ثانيًا: أن التوبة رجوعٌ إلى الله بعد الإباقِ منه، فلو لم يَعُدْ إلى حالته الأولى مع الله لم تكن توبتُه تامةً.

ثالثًا: كما أن التوبةَ ترفعُ أثرَ الذنبِ في الحال بالإقلاع، وفي المستقبل بالعَزْمِ ألا يعود؛ فكذلك في الماضي. ومن ذلك: أن مرتبته لا تتأثر عند الله تبارك وتعالى بعد التوبةِ.

رابعًا: أنه لو بقي بعدها في مرتبته المُنْحَطَّةِ لم تكن التوبةُ ماحيةً لأثرِ الذنبِ، ولم تُفِدْ في الماضي شيئًا.

خامسًا: أن الجزاءَ من جِنْسِ العملِ، فكما رَجَعَ التائبُ إلى ربه بقلبِه رجوعًا تامًّا رجع اللهُ عليه بمنزلتِه وحالِه.

سادسًا: أن التوبةَ من أَجَلِّ الطاعاتِ، وأفضلِ القرباتِ، فإذا حَصَلَ للعبدِ انحطاطٌ بالمعصيةِ؛ فإنه يحصل له بالتوبة مزيدُ تَقَدُّمٍ وعُلُوٍّ وارتفاع.

سابعًا: حينما نُوَازِن بين الحسنة والسيئة؛ فإن الحسنة بِعْشَرِ أمثالها، إلى سبعمائة ضِعْف، إلى أضعاف كثيرة. والسيئة بمثلها، فكيف لا يرجع إلى مرتبتِه السابقة؟!

ثامنًا: أن العبد إذا مَرِضَ ثم عُوفِيَ رَجَعَتْ صحتُه إلى ما كانت وأعظمَ، وربما صَحَّت الأجسامُ بالعِلَلِ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٥، ٢٩٣ ـ ٣١٠، ١٤/ ٤٧٤، ١٥/ ٥٤ ـ ٥٧)، و«منهاج السُّنَّة» (٢/ ٣٩٨ ـ ٤٣٤، ٦/ ٢٠٩ ـ ٢١٠، ٨/ ٤١٦)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٥٠٥ ـ ٥٣٤)، و«الجواب الكافي» (ص٢٠٧ ـ ٢١٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٩١ ـ ٢٩٤).

تاسعًا: أن التوبة تُثمر للإنسان محبةً خاصَّةً من الله لا تحصل بدونها، فاللهُ يحبُّ التوابينَ ويحبُّ المتطهرينَ ـ كما ذكرنا ـ فإذا أثمرت له هذه المحبة ورجع إلى طاعاتِه السابقةِ قوي الأثرانِ، فحصل له المزيدُ من القُرَبِ وارتفاعِ الدرجةِ والمنزلةِ.

عاشرًا: أن الذنبَ يَكْسِرُهُ وَيُورِثُهُ الخوفَ من الله تبارك وتعالى، والخشيةَ، والإشفاقَ، والتذللَ، والضراعةَ، والندمَ، وغيرَ ذلك من الأحوال التي يحبها الله ﷻ؛ ولهذا قال بعضُ السلف: لو لم تكن التوبةُ أحبَّ الأشياءِ إليه لما ابْتُلِي بالذنب أكرم الخلق عليه.

الحادي عشر: أن للعبودية مقاماتٍ لا تَكمل ولا تحصل إلا بالتوبة، منها: مَقَام الذُّلِّ، وهو حقيقةُ العبوديةِ.

الثاني عشر: ما جاء في الحديث الدالّ على شدةِ فرحِ اللهِ ﷻ بتوبةِ العبدِ[(١)]، فإنه لم يأت نظيرُه في شيءٍ آخَرَ من الأعمالِ، فهذا دليلٌ على عِظَمِ قَدْرِ التوبةِ، وأن التعبدَ بها من أشرفِ التَّعَبُّداتِ، وهو دليلٌ على أن صاحبَها يرتقي ويرتفع.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حالَ يونسَ بن مَتَّى ﷺ قبل التوبة وبعدها فقال: «كان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الْقَلَم: ٤٨ ـ ٥٠]، وهذا بخلاف حال التقام الحوت؛ فإنه قال: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصَّافَّات: ١٤٢]، فأخبر أنه في تلك الحال مُلِيم، و(المُليم): الذي فَعَل ما يُلَام عليه، فالمَلَام في تلك الحال لا في حال نَبْذه بالعراء وهو سقيم، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها، والله تعالى خَلَق الإنسان، وأخرجه من بَطْن أُمِّه لا يعلم شيئًا، ثم عَلَّمه، فَنَقَله من حال النَّقْص إلى حال الكمال، فلا يجوز أن يُعْتَبَر قَدْرُ الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال، بل الاعتبار بحال كماله... وما يظنه بعض الناس: أنه مَن وُلِد على الإسلام فلم يكفر قَطّ أفضل ممن كان كافرًا فأسلم؛ ليس بصواب؛ بل الاعتبار بالعاقبة، وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل؛ فإنه من المعلوم أن السابقينَ الأوَّلينَ من المهاجرينَ والأنصارِ الذين آمنوا بالله ورسوله بعدَ كُفْرِهِمْ هُمْ أفضلُ ممن وُلِدَ على

(١) تقدم تخريجه.

الإسلامِ من أولادهم وغير أولادهم، بل من عَرَفَ الشرَّ وَذَاقَهُ، ثم عرف الخيرَ وذاقه، فقد تكون معرفتُه بالخيرِ ومحبتُه له، ومعرفتُه بالشَّرِّ وبغضه له أكملَ ممن لم يعرف الخيرَ والشرَّ، ويذُقْهما كما ذاقهما؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تُنْقَضُ عُرَى الإسلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، إذا نشأ في الإسلام مَنْ لم يعرف الجاهلية»[1][2].اهـ.

القول الثاني: أنه لا يعود إلى حاله قبل التوبة، بل إنه يكون بحال متأخرة عن الحال الأولى، **واحتجوا لذلك بِحُجَج، منها:**

أولًا: أنه ليس مَنْ أَنْفَقَ أيامَه في طَاعة الله كمن أهدرَها في معصيته.

ثانيًا: أنه لو رَجَعَ إلى درجته، فأَيْنَ هُوَ مِنْ مَنْزِلَةِ المُدَاوِم على الطاعةِ؟!

ثالثًا: أنه ـ زمن التوبة ـ مشغولٌ بمعالجةِ نفسِه، وآثَارِ معصيتِه، فأين هذا من المشغول بمزيد القُرْبِ من رَبِّه؟!

رابعًا: أنه من المعلوم ببديهةِ العقلِ أن السائر في طريقٍ مستقيم دونَ أن يشغلَه عن سيرِه شاغلٌ، أو تُعرْقِله عواقبُ، لا شك أنه يصل إلى غايتِه أسرعَ ممن تشغله عن سَيْره الشواغلُ، أو تُعرقله العواقبُ.

والراجح في ذلك: ما ذكره شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ وابنُ القيمِ رحمهما الله تعالى: أنَّ مِنَ النَّاس مَنْ تكون حالُه بعد المعصية دونَ حالِه قبلَ المعصيةِ، ومنهم مَنْ يرجع إلى حاله، ومنهم مَنْ يكون أفضلَ ممَّا كَانَ عليه.

فالناس في ذلك مُخْتلِفُونَ بحسب صِدْقِهِمْ في التوبة، وبحسب إيمانِهم الذي في قلوبهم[3].



(١) لم أجده مسندًا، وإنما ذكره شيخ الإسلام في مواضع من كتبه كـ«الفتاوى» (١٥/ ٥٤)، و«منهاج السُّنَّة» (٢/ ٣٩٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٩٩ ـ ٣٠١).

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٠٥ ـ ٥٣٤).

المحاذير في باب التوبة

يجدر بنا التنبيهُ على بعضِ المحاذيرِ التي تتصل بموضوع التوبة، فالعاقلُ مَنْ يُمَهِّد لنَفْسه في إصابةِ الخيرِ ودَفْعِ الشرِّ، ويأخذ حِذْرَه من آفاتِ الطريقِ.

فمن تلك المحاذير:

١ ـ **تأجيل التوبة:** فكثيرٌ من الناس تمضي أعمارُهم، وتنقضي حياتُهم، وهم على رجاء التوبة بِزَعْمِهِم، فَيُزَيِّنُ لهم الشيطانُ الأمانيَّ الكاذبةَ، وَيُثَبِّطُهُمْ عن ولوجِ أبوابِ التوبةِ والرجوعِ إلى اللهِ بالتَّسْويفِ.

يقول أحدُهم: سوف أتوب، ولا يزال هذه دَأْبه حتى يأتيه الموتُ وهو على ذلك؛ فينبغي البِدَارُ بالتوبة، والإسراعُ في الفَيْئة، وقد عَلِمْنَا أن الله تعالى يَبْسُطُ يدَه بالليل ليتوبَ مسيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مسيءُ الليلِ، حتى تطلعَ الشمسُ من مَغْربها.

ويقول أبو حازم سلمةُ بن دينارٍ: «نحن لا نريد أن نموت حتى نتوبَ، ونحن لا نتوبُ حتى نموتَ»[(١)].

لَهَوْنَا عَنِ الأَيَّام حَتَّى تَتَابَعَتْ ... ذُنُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ ذُنُوبُ
فَيَا لَيْتَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ مَا مَضَى ... وَيَأْذَنُ لِي فِي تَوْبَةٍ فَأَتُوبُ[(٢)]

٢ ـ **الغفلة عن التوبة مما لا يَعْلَمُهُ العبدُ من ذنوبه:**

فعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي**»[(٣)].

٣ ـ **تَرْك التوبة مخافة الرجوع للذنوب**، وذلك حين يَجِدُ من نَفْسه ضَعْفًا في العزيمة، وخَوَرًا في الهِمَّةِ، فَيَتْرك التوبة؛ خشية أن يقع في الذنب بعد أن عَاهَدَ اللهَ ألَّا يعود، وهذا من وحيِ الشيطان وأمره.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٦١)، وعنه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٣٢) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٤٨).
(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٢٠)، و«تاريخ بغداد» (٥/ ٢٠٥).
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

٤ ـ **نَقْض التوبة**، والعبد إذا تاب من ذنب ثم عاد إليه مرة أخرى يكون ناقضًا للتوبة؛ فيلزمه حينئذ أن يجدد توبتَه.

ومن ثَمَّ لا يرجع إليه ـ في هذه الحالة ـ إثمُ الذنبِ الذي تاب منه، والعائدُ إليه إنما هو إثم الذنبِ الجديدِ المُسْتَأْنفِ لا الماضي؛ لأن الماضي قد ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة ما لم يعمله.

وعلى هذا؛ فَلَا يَجُوزُ للتَّائِبِ إذا ابْتُلِيَ بالذنب مرَّةً أخرى أن يدعَ التوبةَ بحجَّةِ أنه نَقَض التوبة، بل عليه أن يتوب، وأن يرجع إلى رَبِّهِ كلما أَحْدَثَ ذَنْبًا.

يقول سعيد بن المُسَيِّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في قوله** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الْإِسْرَاء: ٢٥]: «هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يُذْنِبُ ثم يتوب»(١).

وعن سعيد الجُرَيْري قال: قلتُ للحسن: يا أبا سعيد! الرجلُ يُذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، حتى مَتَى؟ قال: «ما أعلم هذا إلا من أخلاق المؤمنين»(٢).

٥ ـ **تَرْك التوبة خوفًا من لَمزِ الناس.**

٦ ـ **تَرْك التوبة مخافة سقوط المنزلة، وذهاب الجَاهِ والشُّهْرَةِ.**

٧ ـ **التمادي في الذنوب اعتمادًا على سعة رحمة الله بزعمه.**

يقول يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِنْ أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتَوَقُّع القُرْب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببَذْر النار، وَطَلَبِ دارِ المُطِيعينَ بالمعاصي، وانتظارِ الجزاءِ بغير عملٍ، والتمني على الله عَزَّ وَجَلَّ مع الإفراط.

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا   إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ»(٣)

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن قومًا ألهتهم أمانيُّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة. يقول: إني لحَسَن الظن بربي. وكَذَبَ؛ لو أحسن الظنَّ بربه لأحسن العملَ»(٤).

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أراد التوبة فليخرج من المظالم، ولْيَدَعْ مُخَالَطَةَ

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٩٣) واللفظ له.

(٢) أخرجه عبد الله أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٨١).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٤٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الوجل والتوثق بالعمل» (٣).

مَنْ كان يُخالِط، وإلا لم يَنَلْ ما يريد»[١].

وقال أبو الوفاء ابن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «احْذَرْه، وَلَا تَغْتَرّ به، فإنّه قَطَع اليد في ثلاثة دراهم، وجَلَد الحدّ في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت المرأةُ النارَ في هِرَّةٍ، واشتعلت الشَّمْلةُ نارًا على مَنْ غَلَّهَا، وقد قُتِل شهيدًا»[٢].

وأنشد محمود الوَرَّاق[٣]:

يَا نَاظِرًا يَرْنُو بِعَيْنَيْ رَاقِدِ ... وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدِ
مَنَّنْتَ نَفْسَكَ ضَلَّةً فَأَبَحْتَهَا ... طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهُنَّ غَيْرُ قَوَاصِدِ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرَكَ الجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَابِدِ
وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّه أَخْرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

٨ ـ **الاغترار بحِلْم الله** عَزَّ وَجَلَّ**، وإمهاله المسيئينَ والمذنبينَ:**

وقد جاء من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٤].

٩ ـ **اليأس من رحمة الله**، وهذه صفةُ الجاهلينَ الضالينَ، قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الْحِجْر: ٥٦]، الذين لا علمَ لهم بربِّهم، وكمالِ اقتدارِه، وسعةِ رحمتِه.

وأما مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عليه بالهداية والعِلْم، فلا يقنط من رحمة ربه أبدًا؛ لأنه يعرف من كثرةِ الأسبابِ والوسائلِ والطُرُقِ لرحمةِ اللهِ شيئًا كثيرًا.

١٠ ـ **اليأس من توبة العصاة**، وهو من سوء الظنِّ بالله، وقد تاب اللهُ على كثير من أئمةِ الكفرِ ودعاةِ الضلالِ.

١١ ـ **الشماتة بالمُبْتَلَينَ بالذنب**، فإذا رأيتَ مُبْتَلًى فَسَلِ اللهَ العافيةَ مما ابتلاه به، وَادْعُ له أن يهديَه اللهُ بدلًا من الشماتةِ به، والسخريةِ منه.

وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النِّسَاء:

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٧٩٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٢٨٨).
(٢) «الجواب الكافي» (ص٧٥ ـ ٧٦).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١١٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٣/ ٤٦٠).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وحسَّنه ابن حجر في «تخريج مشكاة المصابيح» (٢/ ١٦٨)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٢٢٠)، وفي الباب عن عبد الله بن مغفل، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. راجع: «الصحيحة» (١٢٢٠).

٩٤]؛ أي: فَكَمَا هداكم بعدَ ضلالِكم فكذلك يهدي غيرَكم؛ فكم من مُتَمَرِّد على الله تاب الله عليه.

والذي يَقْطَع لفلان بأنه لا يُوفَّق للتوبة، وأن الله لن يتوبَ عليه مُتَأَلٍّ على الله، فعلى العاقلِ أن يحذرَ من مثل تلك المَزَالِقِ الخطيرةِ.

١٢ ـ الاحتجاج بالقَدَرِ على فِعْلِ المعاصِي، وتَرْكِ الطاعاتِ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «السعيدُ يستغفرُ من المعايب، ويصبر على المصائب، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غَافِر: ٥٥].

والشقيُّ يجزعُ عندَ المصائبِ، ويحتجُّ بالقَدَرِ على المعايب... ولو كان القَدَرُ عُذْرًا للخَلْق لَلَزِمَ ألَّا يُلامَ أحدٌ ولا يُذَمَّ ولا يُعاقَب، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يُقْتَص من ظالمٍ أصلًا، بل يمكن للناس أن يفعلوا ما يشتهون مطلقًا.

ومعلومٌ أن هذا لا يُتصور أن يقومَ عليه مصلحةُ أحدٍ، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل هو مُوجِبُ الفسادِ العامِّ، وصاحبُ هذا لا يكون إلا ظالمًا مُتَنَاقِضًا، فإذا آذاه غيرُه أو ظَلَمَه طَلَبَ مُعَاقَبتَه وجازاه، ولم يَعْذر بالقَدَرِ، وإذا كان هو الظالم احتجَّ لنَفْسه بالقَدَر.

فلا يحتج أحد بالقدر إلا لاتباع هواه بغير عِلْم»[(١)]. اهـ.

١٣ ـ توبة الكذابينَ، فتَجِد أحدهم يهجر الذنبَ هَجْرًا مؤقتًا، ثم يَتَحَيَّنُ الفُرَصَ لمعاودته، فمتى سَنَحَتْ له الفرصةُ أعَادَ الكَرَّةَ، وهذا من البلاءِ العظيمِ، نسأل اللهَ العافيةَ.

١٤ ـ قلّة العناية بالتائبينَ، فقد يُوفَّق أحدهم للتوبة، ويمضي في طريقها مُسْتَبشرًا بصحبة خيار السالكين، وإذا رأى القاصدينَ شَمَّرَ إليهم، وَبَشَّ بهم، غير أنه قد يُفَاجَأُ بمعاملةٍ غيرِ حانيةٍ، ومُقَابَلَةٍ جَافَّةٍ أحيانًا، مما يجعل اليأسَ يدبُّ في دواخله، ولعله مع توالي ذلك عليه يمْقت جملةَ الصلحاء، وللشيطان في مثلِ ذلك مِنْ نفسِ العبدِ تدبيرٌ وَكَيْدٌ.

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[(٢)].

فالواجبُ العنايةُ بهؤلاء، وتعاهدهم بالنصحِ والإرشادِ، وتوفيرُ الصحبةِ الملائمةِ من

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥) بتصرُّف.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أهلِ الخيرِ للقيامِ بمصالحِهم، والاعتناءِ بهم، ومعاونتِهم على البِرِّ، وصُنْعِ المعروفِ.

١٥ ـ **المُجاهَرة بالمعاصي**: ففِعْلُ المعصية لا يُسَوِّغُ للعبدِ أن يجهرَ بها، أو يدعوَ إليها، أو يعمل غيرَها؛ فإن اللهَ يمقتُ على ذلك كلِّه. وقد قال النبي ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهِرِينَ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ! عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ**»(١).

وإن مِنْ تلبيس الشيطان على ابن آدم أن يأتيَه وقد تَلَبَّسَ بمعصيةٍ بعدَ أن انصلح حالُه بعض الشيء، فيقول: تظهر للناس في ثيابِ الصلاحِ وتفعلُ ما تفعلُ في السِّرِّ؟! فلا يزال يُبَغِّضُ إليه حالَه، حتى يحسِّن إليه الجهرَ بالمعصيةِ.

١٦ ـ **تَرْك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله**، فَفِعْلُ المعصيةِ لا يُسَوِّغُ للعبدِ مثلَ ذلك، فبعضُ الناسِ يترك الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر لمَا تَلَبَّسَ به من المعصية؛ مُحْتَجًّا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصَّفّ: ٣].

وبحديثِ أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما، أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**»(٢).

وهذا من الجهل والخطأ البَيِّنِ، وما جَعَلَ اللهُ هذه الأمةَ خيرَ أمةٍ أُخْرِجَتْ للناس إلا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، وقد ذكر الحافظُ ابن حجر رحمه الله عن بعض العلماء أنه قال: «يجب الأمرُ بالمعروفِ لمن قَدرَ عليه ولم يَخَفْ على نَفْسِه منه ضررًا، ولو كان الآمِرُ مُتَلَبِّسًا بالمعصية؛ لأنه في الجملة يُؤجَر على الأمر بالمعروف، ولا سيما إن كان مُطَاعًا، وأما إثمه الخاص به فقد يغفره اللهُ له، وقد يُؤَاخِذه به. وأما مَنْ قال: لا يأمر بالمعروف إلا من ليست فيه وَصْمةٌ؛ فإن أراد أنه الأَوْلَى فَجَيِّدٌ، وإلا فَيَسْتَلْزم سدَّ بابِ الأمرِ إذا لم يكن هناك غيرُه»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩) واللفظ له، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٩).
(٣) «فتح الباري» (١٣/ ٥٧).

من أخبار أهل التوبة

وإنما نَذْكُر أحوال هؤلاء النبلاء الصُّلحاء؛ لِيَتَشَبَّهَ الواقفُ على أحوالهم بهم، ويتزيَّا بزيِّهم، ويحذو حذوَهم؛ فإنه مَنْ أَحَبَّ قومًا حُشِرَ معهم، وَمَنْ تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم، ولا أقلَّ من أن يقال: هم القومُ لا يشقَى بهم جليسُهم.

ـ فهذا عُتْبَة الغلام، لَقِيَه عبد الواحد بن زيد في رَحَبَة القصابين، في يوم شاتٍ شديد البَرْد، فإذا هو يَرْفَضّ[١] عرَقًا، فقال له عبد الواحد: عُتْبَة! قال: نعم، قال: فما شأنك؟ ما لك تَعْرق في مثل هذا اليوم؟ قال: خير، قال: لَتُخْبِرَني قال: خير... فقال: لِلأُنْس الذي بيني وبينك والإخاء إلا ما أخبرتني، قال: إني والله ذَكَرت ذَنْبًا أصبته في هذا المكان، فهذا الذي رأيتَ من أَجْل ذلك[٢].

ـ **وقال سعدٌ الكاتبُ**: كان الجوينيُّ صديقي، وكان يشرب الخمر، فحدثني أنه كان يكتب مُصْحفًا، وبين يديه مِجْمَرةٌ[٣] وقِنِّيْنَةٌ[٤] خَمْرٍ، ولم يكن بقربي ما أُنَدِّي به الدواةَ، فصببتُ من القِنِّيْنة في الدواة، وكتبتُ وجهةً، ونشفتُها على المِجْمَرَة، فصَعَدَت شرارةٌ أحرقت الخطَّ دونَ بقيةِ الوَرَقةِ، فرُعِبْتُ، وقُمْتُ، وغسلتُ الدواةَ والأقلامَ، وتبتُ إلى الله[٥].

ـ **ويقول مالك بن دينار** رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأيتُ في البادية في يوم شديد البَرْد شابًّا عليه ثوبانِ خَلِقانِ، وعليه آثارُ الدعاءِ وأنوارُ الإجابةِ، فعرفتُه، وكنتُ قبلَ ذلك عهدتُه في البصرةِ ذا ثروةٍ وَحُسْنِ حالٍ، وكان ذَا مالٍ وآمالٍ، قال: فبكيتُ لـمَّا رأيتُه على تلك الحال، فلما رآني بكى، وبدأني بالسلام، وقال لي: يا مالكُ بن دينار! ما تقول في عبدٍ أَبَق من مولاه؟! فبكيتُ لقوله بكاء شديدًا، وقلتُ له: وهل يستطيع المسكينُ ذلك؟! البلادُ بلادُه، والعبادُ عبادُه، فأين يهرب المسكين؟! فقال: يا مالكُ! سمعتُ قارئًا يقرأ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقَّة: ١٨]، فأحسستُ في الحال بنارٍ وَقَعَتْ

---

(١) أي: يتصبّب. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٢٤٣)، مادة: (رفض).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٢٨).
(٣) بكسر الميم: اسم للشيء الذي يُجْعَل فيه الجمر. «الصحاح» (٢/ ٦١٦)، مادة: (جمر).
(٤) إناء من زجاج للشراب. «تاج العروس» (٣٦/ ٢٥)، مادة: (قنن).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٢٣٤).

بينَ ضلوعِي، فلا تَخْمد، ولا تهدأ منذ ذلك اليوم، يا مالكُ! أتراني أُرحَم وتُطفأ هذه الجمرةُ من قلبي؟ فقلتُ له: أَحْسِنِ الظَّنَّ بِمَوْلَاكَ؛ فإنه غفور رحيم»[(١)].

ـ وهذا بِشْرٌ بن الحارث الحَافِي، جاء في سببِ توبتِه أنه كان في زمن لَهْوِه في داره، وعنده رفقاؤُه يشربونَ الخمرَ، ويطيبون، فاجتاز بهم رجلٌ من الصالحينَ، فَدَقَّ البابَ، فَخَرَجَتْ إليه جاريةٌ، فقال: صاحبُ هذه الدار حُرٌّ أو عَبْدٌ؟ فقالت: بَلْ حُرٌّ. فقال: صَدَقْتِ؛ لو كان عبدًا لاستعمل أدبَ العبوديةِ، وَتَرَكَ اللهوَ والطربَ. فسمع بِشْرٌ محاورتَهما، فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا وقد ولَّى الرجلُ، فقال للجارية: وَيْحَك، مَنْ كَلَّمَكِ على الباب؟ فَأَخْبَرَتْهُ بما جرى، فقال: أيّ ناحية أخذ الرجلُ؟ فقالت: كذا، فتبعه بِشْرٌ حتى لحقه، فقال له: يا سيدي! أنتَ الذي وقفتَ بالباب وخاطبتَ الجاريةَ؟ قال: نعم، قال: أَعِدْ عليَّ الكلامَ، فأعاده عليه، فَمَرَّغَ بشر خَدَّيْهِ على الأرض، وقال: بَلْ عَبْدٌ، بَلْ عَبْدٌ، ثم انطلق حافيًا حَاسِرًا حتى عُرِفَ بالحفاء[(٢)].

ـ وسُئِل مالكُ بن دينارٍ عن سبب توبتِه، فقال: «كنتُ شُرْطِيًّا، وكنتُ مُنْهَمِكًا على شُرْبِ الخمر، ثم إنني اشتريتُ جاريةً نفيسةً، وَوَقَعَتْ مِنِّي أحسنَ مَوْقع، فَوَلَدَتْ لي بنتًا، فشُغِفْتُ بها، فلما دَبَّتْ على الأرض ازدادت في قلبي حُبًّا، وأَلِفَتْني وأَلِفْتُها. قال: فكنتُ إذا وضعتُ المُسْكرَ بين يَدَيْ جاءت إليَّ وجاذبتني عليه، وَهَرَقته من ثوبي! فلما تَمَّ لها سنتان ماتت، فأَكْمَدني حزنُها، فلما كانت ليلةُ النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة؛ بِتُّ مَخمورًا ولم أُصَلِّ فيها العشاءَ الآخِرَةَ، فرأيتُ فيما يرى النائمُ كأن القيامةَ قد قامت، وَنُفِخَ في الصورِ، وَبُعْثِرَتِ القبورُ، وَحُشِرَ الخلائقُ وأنا معهم، فسمعتُ حِسًّا من ورائي، فالتفتُّ فإذا أنا بِتِنِّينٍ أعظمَ ما يكون؛ أسودَ، أزرقَ، قد فَتَحَ فاه مُسْرِعًا نحوي، فمررتُ بين يديه هاربًا فَزِعًا مرعوبًا، فمررتُ في طريقي بشيخ نقيِّ الثوب طيبِ الرائحةِ، فسلَّمتُ عليه فَرَدَّ السلامَ، فقلتُ: أيها الشيخ، أَجِرْني من هذا التنينِ أجارك اللهُ، فبكى الشيخُ وقال لي: أنا ضعيفٌ، وهذا أقوى مِنِّي، وما أقدر عليه، ولكن مُرَّ وَأَسْرِعْ، فلعلَّ اللهَ أن يتيح لك ما يُنَجِّيكَ منه، فوَلَّيتُ هاربًا على وجهي، فصَعدتُ على شَرَفٍ من شَرَفِ القيامةِ، فأَشْرَفْتُ على طَبَقاتِ النارِ، فنظرتُ إلى هولها، وكدتُ أهوي فيها من فَزَعِ التنينِ، فصاح بي صائحٌ: ارجع؛ فلستَ من أهلها، فاطمأننتُ إلى قوله، ورجعتُ، وَرَجَعَ التنينُ في طلبي، فأتيتُ الشيخَ فقلتُ: يا

---

(١) «العاقبة في ذكر الموت والآخرة» لعبد الحق الإشبيلي (ص٧٤).
(٢) «كتاب التوابين» لابن قدامة (ص١٢٩).

شيخُ! سألتكَ أن تجيرني من هذا التنينِ فلم تفعل، فبكى الشيخُ وقال: أنا ضعيفٌ، ولكن سِرْ إلى هذا الجبلِ؛ فإن فيه ودائعَ المسلمينَ، فإن كان لك فيه وديعةٌ فسَتَنْصرك، قال: فنظرتُ إلى جبلٍ مُسْتَديرٍ من فضةٍ، وفيه كُوًى مُخْرمةٌ، وَسُتُورٌ مُعَلَّقةٌ، على كل خُوخة وكوَّة مِصْراعان من الذهب الأحمر، مُفَصَّلة باليواقيت، مُكَوْكَبة بالدُّرِّ، على كل مِصْراع ستْر من الحرير، فلما نظرتُ إلى الجبل وليتُ إليه هاربًا والتنينُ من ورائي، حتى إذا قربتُ منه صاح بعضُ الملائكةِ، ارفعوا السُّتُورَ، وافتحوا المصاريعَ، وأشرفوا؛ فلعل لذا البائسِ فيكم وديعةً تُجيره من عدوه، فإذا السُّتُورُ قد رُفعَت، والمصاريعُ قد فُتحَت، فأشرف عليَّ مِنْ تلك المخرماتِ أطفالٌ بوجوه كالأقمارِ، وقَرُب التنين مني فتحيرتُ في أمري، فصاح بعض الأطفال: ويحكم، أشرفوا كلكم، فقد قَرُب منه عدوُّه، فأشرفوا فَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أَشْرَفَتْ عليَّ معهم، فلما رأتني بَكَتْ، وقالت: أَبِي واللهِ، ثم وَثَبَتْ في كِفَّة من نور كَرَمْيَةِ السَّهم حتى مَثُلَتْ بين يَدَيَّ، فمدت يَدَهَا الشمالَ إلى يدي اليمنى، فَتَعَلَّقْتُ بها، وَمَدَّتْ يدَها اليُمْنَى إلى التنينِ فَوَلَّى هاربًا، ثم أَجْلَسَتْنِي وقَعَدَت في حِجْري، وَضَرَبَتْ بيدِها اليمنى إلى لحيتي، وقالت: يا أَبتِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحَدِيد: ١٦]، فبكيتُ، وقلتُ: يا بنيةُ! وأنتم تعرفونَ القرآنَ؟! فقالت: يا أبتِ! نحن أعرفُ به منكم. قلتُ: فأخبرينِي عن التنينِ الذي أراد أن يُهلكني؟ قالت: ذاك عملُك السوءُ قَوَّيْتَهُ، فأرادَ أن يغرقَك في نار جهنم. قلتُ: فأخبرينِي عن الشيخ الذي مررتُ به في طريقي؟ قالت: يا أبتِ! ذاك عملُك الصالحُ أضعفتَه حتى لم يكن له طاقةٌ بعملك السوء. قلت: يا بنية! وما تصنعونَ في هذا الجبلِ؟ قالت: نحنُ أطفالُ المسلمينَ، قد أُسْكِنَّا فيه إلى أن تقوم الساعةُ؛ ننتظركم تقدمون فنشفع لكم. قال مالكٌ: فانتبهتُ فَزِعًا، وأصبحتُ فأرقتُ المُسْكرَ، وكسرتُ الآنيةَ، وتبتُ إلى الله ﷻ، وهذا كان سببَ توبتي»[(١)].

ـ ومن الأمثلة المعاصرة هذا المُغَنِّي البريطانيُّ الذي كان يُعرف بـ (كات ستيفنز)، «وُلد في لندن، وَتَعَلَّمَ في مدرسة كاثوليكيَّة، كانت الحياةُ حولَ هذا الرَّجُلِ ماديةً كلها، فما كان منه إلا أن اختار طريقَ الغناءِ والثَّرْوَةِ، فالتمسَ الغِنَى بالغناء، فبلغ قمةَ الشُّهرةِ، وأصبحت الأموالُ طَوعَ بنانِه، وحينئذ بدأ القلقُ ينتابه خشيةَ السقوطِ؛ فَلَجَأَ إلى الخمرِ، وبدأ يكره الحياةَ، واعتزل الناسَ، وأُصِيب بالسلِّ، وَنُقِلَ إلى المستشفى،

(١) «كتاب التوابين» (ص١٢٤ ـ ١٢٦).

وبدأ يفكر فيما هو عليه، فلم يقتنع تمامًا بتعاليم النصرانية، وبدأ يبحث عن السعادة التي لم يَجِدْهَا في الغناء ولا في الشهرة ولا في الكنيسة، فَطَرَقَ بابَ البوذيةِ والفلسفة الصينية، فلم يجد السعادةَ، ثم انتقل إلى الشيوعيةِ، ولكنه شعر بأنها لا تتفق مع الفِطْرة، فاتَّجَه إلى العقاقيرِ المُهَدِّئةِ ليقطع هذه السلسلة القاسية من الحِيْرة، ثم رجع مرة أخرى إلى عالم الغناء، وفي عام (١٩٧٥م) أهداه شقيقُه الأكبرُ نسخةً من القرآن، ثم بَحَثَ عن تَرْجمةٍ لمعانِي القرآنِ، فَفَكَّر في الإسلام، يقول: وَمِنْ أولِ وَهْلةٍ شعرتُ أن القرآنَ يبدأ ببسم الله الرحمٰن الرحيم، وليس باسمٍ سوى اسم الله، وعبارةُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾كانت مؤثرةً في نفسي، ثم تستمر الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢]، ثم بعد ذلك تَبَيَّنَ له أن القرآنَ يدعو إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، والإيمانِ باليوم الآخِرِ، ويبين حقيقة الإنسان وبدايتَه ونهايتَه، وقد حاول أن يبحثَ عن أخطاءٍ في القرآنِ ولكنه لم يَجِدْ. ومن هنا بدأ يعرفُ ما هو الإسلامُ.

يقول: لقد أجاب القرآنُ على كل تساؤلاتِي، وبذلك شَعَرْتُ بالسعادة؛ سعادةِ العثورِ على الحقيقةِ. وبعدَ قراءةِ القرآنِ الكريم كلِّه خلالَ عامٍ كاملٍ بدأتُ أُطَبِّقُ الأفكارَ التي قرأتُها فيه، فشعرتُ بذلك أنني المسلمُ الوحيدُ في العالَم، ثم فَكَّرتُ كيف أكون مُسْلِمًا حقيقيًّا؟ فاتجهتُ إلى مسجدِ لندنَ، وأشهرتُ إسلامي، وقلتُ: (أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله)، يقول: أما الملايينُ التي كَسِبْتُها فوهبتها للدعوةِ الإسلاميةِ، وسمَّى نفسَه بيوسف إسلام»(١).

- ومثال آخر أيضًا معاصر: «فهذه ممثلة اسمها: (هناء ثروت)، كتبت خَبَر توبتها، وهي مصرية مشهورة، عاشت في عالَم الفَنِّ مدة من الزَّمَن، تقول بأنها دخلت في عالَم الفن؛ حيث لم يَقُم والداها بتربيتها كما ينبغي، كانا ينشغلان عنها بأعمالهما، فلم تجد الرعاية التامة؛ حيث تلقفتها دور الحضانة قبل أن تبلغ الثالثة من عمرها، تقول: كنتُ أعيش في قَلَق وتَوَتُّر وخوف من كل شيء، فانعكس ذلك على تصرفاتي الفوضوية الثائرة في المرحلة الابتدائية في محاولة لجَذْب الانتباه إلى شخصي المهمل أُسَريًّا، بيد أن شيئًا ما أَخَذ يَلْفِت الأنظار إلي بشكل مُتَزايد، أجل، قد حباني الله جمالًا ورَشَاقة وحنجرة غريدة جعلت مُعَلِّمة الموسيقى تلازمني بصفة شِبْه دائمة، تستعيدني الأدوار الغنائية الراقصة والاستعراضية، حتى غدوت أفضل من تقوم بها في الحفلات

(١) «التوبة وظيفة العمر» (ص١٨٦) باختصار وتصرف.

المدرسية. ولا أزال أحتفظ في ذاكرتي بأحداث يوم كُرِّمْتُ فيه لتفوقي في الغناء والرقص والتمثيل على مستوى المدارس الابتدائية في بلدي.

تقول: احتضنتني الأم (ليليان) مديرة مدرستي ذات الهوية الأجنبية، وغمرتني بقبلاتها قائلة لزميلة لها: لقد نجحنا في مهمتنا، إنها ـ وأشارت إليَّ ـ من نِتاجنا، وسنعرف كيف نحافظ عليها لتكمل رسالتنا!! تقول: لقد صَوَّر لي خيالي الساذج آنذاك أني سأبقى دائمًا مع تلك المُعَلِّمة، وهذه المديرة. وأسعدني أن أجد بعضًا من حنان افتقدته، وإن كنت قد لاحظت أن عطفهما من نوعٍ غريب، تَكَشَّفَت لي أبعاده ومَرَاميه بعدئذٍ. وأَفَقْت على حقيقة هذا الاهتمام المُسْتَورَد. بعد ذلك تَدَرَّجت في عالَم الفَنّ حتى أصبحت ممن يُشَار إليهن بالبنان. تقول عن نَفْسها في تلك المرحلة: كانت تمتلكني نَشْوة مُسْكِرة وأنا أَرْفل في الأزياء الفاخرة، والمجوهرات النفيسة، والسيارات الفارهة، كانت تطربني المقابلات والتعليقات الصحفية، ورؤية صوري المُلَوَّنة وهي تحتل أَغْلِفة المجلات، ووَاجِهَات المحلات، حتى وصل الأمر بي إلى أن تعاقد معي مُتَعَهِّد الإعلانات والدعايات لاستخدام اسمي ـ اسمي فقط ـ لترويج مستحضراتهم وبضائعهم. كانت حياتي بعمومها موضع الإعجاب والتقليد في أوساط المراهقات وغير المراهقات على السواء، وبالمقابل كان تَأَلُّقي هذا مَوْطن الحسد والغيرة التي شَبّ أُوارها في نفوس زميلات المِهْنة.. إلى أن قالت: قد تتساءل صغيرتي: وهل كنت سعيدة حقًّا يا أمي؟! ابنتي الحبيبة! لا تدري بأني قِطْعَة من الشقاء والأَلَم، فقد عَرَفْت وعِشْتُ كل ما يحمل قاموس البُؤْس والمعاناة من معانٍ وأحداث.

وتضيف قائلة: بات مَأْلُوفًا رؤيتي ساهمة واجمة، وقد أصبحت دُمْيَة يلهو بها أصحاب المدارس الفكرية على اختلاف انتماءاتها العقائدية؛ لترويج أغراضهم ومَرَامِيهم عن طريق أمثالي من المخدوعين والمخدوعات، واستبدالنا بمن هم أكثر إخلاصًا، أو إذا شئت (عمالة) في هذا الوَسَط الخطر والمسؤول عن الكثير من تَوَجُّهات الناس الفكرية. وجدت نفسي شيئًا فشيئًا أسقط في عُزْلة نفسية قائظة، زاد عليها نفوري من أجواء الوَسَط الفني كما يُدْعَى، مُعْرضة عن جلساته وسهراته الصاخبة التي يُرْتَكَب فيها الكثير من التفاهات والحماقات باسم الفن أو الزمالة، ولم يحدث أن أبطلت التعامل مع عقلي في ساعات خَلْوَتي لنفسي، وأنا أحاول تحديد الجهة المسؤولة عن ضياعي وشقائي، أهي التربية الأسرية الخاطئة؟ أم التوجيه المدرسي المنحرف؟ أم هي جنايات وسائل الإعلام؟ أم كل ذلك معًا؟! لقد توصلت أيامها إلى تصميم وعزم يقتضي تجنيب أولادي مُسْتقبلًا ما ألقاه من تَعَاسة مهما كان الثمن غاليًا؛

إذ يكفي المجتمع أني قُدِّمْت ضحية على مَذْبح الإهمال والتآمر والشهوات. وبعد ذلك تزوجتُ بالمُمَثِّل (محمد العربي)، الذي كان مُتَمَلْمِلًا من حياة الفَنّ، حريصًا على تطليق الشُّهرة التي حصل عليها من جرّاء الفَنّ. وبعد زواجهما ذهبا إلى مكة، وطلَّقا حياة الفَنّ والتَّعاسَة إلى غير رَجْعة. تقول: فالتزمت بالحجاب، وكَرَّست جهدي لرعاية زوجي وأولادي. تقول: أما زوجي فقد أكرمه الله ﷻ بحُسْن التَّفَقّه في دينه، وتعليم الناس في المسجد»... إلى آخر ما ذكرت[1]. والأمثلة على ذلك كثيرة.

هذا آخر الكلام على موضوع التوبة، وهو آخر ما أردنا ذِكْره من الأعمال القلبية، نسأل الله أن يُصْلِح قلوبنا وأعمالنا، وأن يُلْهمنا رُشْدنا، ويقينا شَرّ أنفسنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) «التوبة وظيفة العمر» (ص١٨٨ ـ ١٩٠) بتصرُّف.

قائمة المصادر والمراجع





فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ثامنًا: المحَبَّة	٥
توطئة	٦
معنى المحبة وحقيقتها	٧
محبة الله	٩
منزلة المحبَّة	١٠
المحبة في الكتاب والسُّنَّة	١٣
المحبة وحدها لا تكفي	١٥
المفاضلة بين الخوف والمحبة والرجاء	١٧
درجات المحبَّة	١٨
مراتب المحبة	١٩
أنواع المحبة	٢٢
أقسام الناس في المحبَّةِ والإرادة والقدرة	٢٧
علامات محبَّة الربّ للعبد	٢٨
الطَّرِيقُ إلى تحقيق محبة الرَّب للعبد	٣٠
علامات محبة العبد لربه ﷻ	٣٢
الطريق إلى تحقيق المحبة لله ﷻ	٣٧
ثمرات المحبة وآثارها السلوكية	٤٦
من أخبار أهل المحبة	٥٢
تاسعًا: الرجاء	٥٣
توطئة	٥٤
معنى الرجاء وحقيقته	٥٥
الفرق بين الرجاء والتمني	٥٧
بيان الرَّجَاء الصحيح الذي يُطْلَبُ من العبد تحصيله	٥٩
بعض المفاهيم الخاطئة للرجاء	٦٥

الموضوع | الصفحة

المُلَازَمة بين الخوف والرجاء ٧٤
الرجاء دواء يضعه الحكيم في موضعه ٧٦
المؤمن بين الخوف والرجاء ٧٨
منزلة الرجاء ٨٦
الرجاء في الكتاب والسُّنَّة ٨٧
عَلِّقْ رَجَاءَكَ بالله وحدَه لا شريك له ٩١
ذكر بعض المُفَاضَلات في باب الرجاء ٩٥
أنواع الرجاء ٩٧
درجات الرجاء ٩٩
الطريق إلى تحقيق الرَّجَاء ١٠٠
ثمرات الرجاء وآثاره السلوكية ١٠٦
من أخبار أهل الرجاء ١١٣

عاشرًا: الخَوْف ١١٧

توطئة ١١٨
معنى الخوف وحقيقته ١١٩
الفروقات في باب الخوف ١٢٠
الملازمة بين الخوف وغيره من أعمال القلوب ١٢٦
منزلة الخوف ١٢٧
الخوف في الكتاب والسُّنَّة ١٣١
الخوف إنما يكون من الله وحده ١٣٤
المفاضلة بين الخوف والمحبة ١٣٦
أنواع الخوف ١٣٧
مراتب الخوف ١٤١
بواعث الخوف ١٤٣
الطريق إلى تحقيق الخوف من الله ١٤٦
ثمرات الخوف ١٦٥
من أخبار أهل الخوف ١٧٥

الموضوع الصفحة

الحادي عشر: الصَّبْرُ ٢٠٧
توطئة ٢٠٨
معنى الصبر وحقيقته ٢١٠
أسماء الصبر ٢١٤
الفروقات في باب الصبر ٢١٥
منزلة الصبر ٢٢٠
فضل الصبر ٢٢٧
المفاضلات في باب الصبر ٢٣١
الصبر في الكتاب والسُّنَّة ٢٤٣
حكم الصبر ٢٤٧
شروط الصبر ٢٤٩
مجالات الصبر ٢٥١
إنما الصبر عند الصدمة الأولى ٢٥٣
الصبر لا يكفي وحده ٢٥٤
مراتب الصبر ٢٥٥
أنواع الصبر ٢٦٠
مراتب الصبر ٢٦٨
أقسام الناس في الصبر ٢٧٠
مراتب الناس حال المصيبة ٢٧٢
ما ينافي الصبر وما لا ينافيه ٢٧٤
الطريق إلى تحقيق الصبر ٢٨٢
وقائع من الفرج ٣٠٩
عقبات في طريق الصبر ٣٢٠
ثمرات الصبر ٣٢١
من أخبار أهل الصبر ٣٣٠

الثاني عشر: الرِّضَا ٣٣٧
توطئة ٣٣٨
معنى الرِّضا وحقيقته ٣٣٩

الموضوع | الصفحة

الفروقات في باب الرضا ٣٤١
المفاضلة بين الرضا والصبر والشكر والزهد ٣٤٤
حكم الرضا ٣٤٥
الفرق بين أفعال الربِّ سُبْحَانَه ومفعولاته ٣٥٠
الرِّضَا بالمعاصي ٣٥١
الرضا بالقضاء الديني الشرعي ٣٥٣
منزلة الرِّضَا ٣٥٥
الرِّضا في الكتاب والسُّنَّة ٣٥٧
أنواع الرضا ٣٦١
علامات الرضا ٣٦٣
مقتضيات الرضا ولوازمه ٣٦٤
الطريق إلى تحقيق الرِّضا ٣٦٦
ثمرات الرِّضَا ٣٧٣
ما لا ينافي الرّضا وما ينافيه ٣٨٣
من أخبار أهل السخط ٣٩٠
من أخبار أهل الرضا ٣٩٣

الثالث عشر: الشكر ٣٩٩

توطئة ٤٠٠
معنى الشكر وحقيقته ٤٠١
الفرق بين الشكر والحمد ٤٠٧
المُلَازمة بين الشكر والصبر ٤١٠
المُفَاضَلَة بين الشكر والصبر والرضا ٤١١
حكم الشكر ٤١٣
منزلة الشكر ٤١٤
الشكر في الكتاب والسُّنَّة ٤١٦
درجات الشكر ٤١٩
الطريق إلى تحقيق الشكر ٤٢٢
ثمرات الشكر ٤٣٤

الموضوع | الصفحة

أسباب الغفلة عن النِّعَم ٤٣٩
من مظاهر الشكر وصوره ٤٤٣
من أخبار أهل الشكر ٤٤٧

الرابع عشر: الغَيْـرة ٤٤٩

توطئة ٤٥٠
معنى الغَيْرة وحقيقتها ٤٥١
الفرق بين الغَيْرة من الشيء والغَيْرة عليه وله ٤٥٢
منزلة الغَيْرة ٤٥٣
الغَيْرة المذمومة والممدوحة ٤٥٤
أنواع الغَيْرة ٤٥٦
أسباب ضَعْف الغَيْرَة وزوالها ٤٦٠
الطريق إلى تحقيق الغيرة ٤٦٥
آثار الغَيْرة ٤٦٦
من أخبار أهل الغيرة ٤٦٧

الخامس عشر: الحَيَاء ٤٧٥

توطئة ٤٧٦
معنى الحياء وحقيقته ٤٧٧
الفرق بين الحياء والخَجَل ٤٧٨
مَنْزِلة الحياء ٤٨٠
الحياء في الكتاب والسُّنَّة ٤٨٥
هل الحياء غَرِيزَة أو شيء مكتسب؟ ٤٨٧
المُفَاضَلة بين الحياء والخَوف ٤٨٩
أنواع الحياء ٤٩٠
الطريق إلى تَحْقِيق الحياء ٤٩٤
الأمور التي تنافي الحياء ٤٩٨
من مظاهر الحياء ٥٠٠
مَظَاهِر لقلة الحياء ٥٠١

الموضوع | الصفحة

ثمرات الحياء ٥٠٢
من أخبار أهل الحياء ٥٠٣
السادس عشر: التَّوْبَة ٥٠٧
توطئة ٥٠٨
معنى التوبة وحقيقتها ٥٠٩
إطلاقاتٌ أخرى للتوبة في الكتاب والسُّنَّة ٥١١
الفروقات في باب التوبة ٥١٥
التوبة لا تكون إلا لله وحده ٥٢١
حكم التوبة ٥٢٢
منزلة التوبة ٥٢٤
ذِكْرُ بعض المُفَاضَلات في باب التوبة ٥٢٧
حاجتنا إلى التوبة ٥٣١
الحكمةُ من تقديرِ الذنوبِ ٥٣٤
مَبدأ التوبة ومُنْتَهَاها ٥٣٨
توبةُ العبدِ واقعةٌ بينَ توبتينِ ٥٣٩
وقت التوبة ٥٤٠
التوبة في الكتاب والسُّنَّة ٥٤٢
علامات صِدْق التوبة ٥٤٥
شروط التوبة ٥٤٦
مِنْ آدابِ التوبةِ ومكمّلاتِها ٥٨٣
مراتب المُنِيْبِيْن ٥٨٥
مراتب التوبة ٥٨٧
من أيِّ شيءٍ تكون التوبة؟ ٥٨٨
الطريق إلى تحقيق التوبة ٥٩٥
عقبات في طريق التوبة ٦٠٢
ثمرات التوبة ٦٠٨
أسباب دفع العقوبة ٦١٥

الموضوع | الصفحة

حال العبد ومنزلته بعد التوبة ٦١٦
المحاذير في باب التوبة ٦١٩
من أخبار أهل التوبة ٦٢٤
* **قائمة المصادر والمراجع** ٦٣١
* **فهرس الموضوعات** ٦٣٣

